

فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ

بقلم

سَيِّدُ قُطْبُ

المجلد السادس

الأجزاء: ٢٦ - ٣٠

طبعة جديدة مشروعة

تتضمن إضافات وتنقيحات تركها المؤلف
وتُنشر للمرة الأولى

مع المراجعة الشاملة والتصويب الدقيق
لما كان في الطبعة الأصلية - التي صُوِّرت عنها الطبقات غير المشروعة -
من أخطاء في الآيات القرآنية والتفسير

دار الشروق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ

الطبعة الشرعية الأولى

١٩٧٢

الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتمد عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيدي بيه المصراوي - رابطة القعدونية - ص.ب : ٣٣ البانوارما

مدينته نصر - هكاتف : ٤٠٢٣٩٩ (٠٢) فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

البريد الإلكتروني : email : dar @ shorouk . com

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هكاتف : ٣٦٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْأَحْقَافِ
وَمُحَمَّدٌ وَالْفَتْحِ
وَالْحُجُرَاتِ وَقَآ

الْحُجُرَاتِ وَالْعَشْرُونَ

(٤٦) سُورَةُ الْاِخْفَافِ مَكِّيَّةٌ وَاَيَاتُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ❶ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ❷ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ❸ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ❹

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ❺ أَتُنَبِّئُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❻
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ❼ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ❽
وَإِذَا نُتِلَى عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ❾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ
إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ❿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ❶٠ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ❶١ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ❶٢ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ❶٣ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ❶٤
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ❶٥ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ ❶٦
فَعَامَنَ ❶٧ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ❶٨ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ❶٩ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا
إِلَيْهِ ❷٠ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ❷١ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ ❷٢ وَمِنْ قَبْلِهِ ❷٣ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ❷٤ وَهَذَا كِتَابٌ
مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ❷٥

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ أُولَئِكَ اصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

هذه السورة المكية تعالج قضية العقيدة . قضية الإيمان بوحداية الله وربوبيته المطلقة لهذا الوجود ومن فيه وما فيه . والإيمان بالوحي والرسالة وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسول سبقته الرسل ، أوحى إليه بالقرآن مصداقاً لما بين يديه من الكتاب . والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء على ما كان في الحياة الدنيا من عمل وكسب ومن إحسان وإساءة .

هذه الأسس الأولى التي يقيم عليها الإسلام بناءه كله . ومن ثم عاجلها القرآن في كل سورة المكية علاجاً أساسياً ، وظل يتكئ عليها كذلك في سورة المدنية كلما هم بتوجيه أو تشريع للحياة بعد قيام الجماعة المسلمة والدولة الإسلامية . ذلك أن طبيعة هذا الدين تجعل قضية الإيمان بوحداية الله سبحانه ، وبعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - والإيمان بالآخرة وما فيها من جزاء .. هي المحور الذي تدور عليه آدابه ونظمه وشرائعه كلها ، وترتبط به أوثق ارتباط ؛ فتبقى حية حارة تنبعث من تأثير دائم بذلك الإيمان .

وتسلك السورة بهذه القضية إلى القلوب كل سبيل ؛ وتوقع فيها على كل وتر ؛ وتعرضها في مجالات شتى ، مصحوبة بمؤثرات كونية ونفسية وتاريخية . كما أنها تجعلها قضية الوجود كله - لا قضية البشر وحدهم - فتذكر طرفاً من قصة الجن مع هذا القرآن كذكرها لموقف بعض بني إسرائيل منه . وتقيم من الفطرة الصادقة شاهداً كما تقيم من بعض بني إسرائيل شاهداً . سواء بسواء .

ثم هي تطوف بتلك القلوب في آفاق السماوات والأرض ، وفي مشاهد القيامة في الآخرة . كما تطوف بهم في مصرع قوم هود وفي مصارع القرى حول مكة . وتجعل من السماوات والأرض كتاباً ينطق بالحق كما ينطق هذا القرآن بالحق على السواء .

* * *

وبمضي سياق السورة في أربعة أشواط مترابطة ، كأنها شوط واحد ذو أربعة مقاطع .

يبدأ الشوط الأول وتبدأ السورة معه بالحرفين : حا . ميم . كما بدأت السور الست قبلها . تليهما الإشارة إلى كتاب القرآن والوحي به من عند الله : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » .. وعقبها مباشرة الإشارة إلى كتاب الكون ، وقيامه على الحق ، وعلى التقدير والتدبير : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » .. فيتوفاى كتاب القرآن المتلو وكتاب الكون المنظور على الحق والتقدير : « والذين كفروا عما أُنذروا معرضون » .

وبعد هذا الافتتاح القوي الجامع يأخذ في عرض قضية العقيدة مبتدئاً بإنكار ما كان عليه القوم من الشرك الذي لا يقوم على أساس من واقع الكون ، ولا يستند إلى حق من القول ، ولا مأثور من العلم : « قل : أرايتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السماوات ؟ اتتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » .. ويندد بضلال من يدعو من دون الله من لا يسمع لعابده ولا يستجيب . ثم هو يخاصمه يوم القيامة ويبرأ من عبادته في اليوم العصيب !

ويعرض بعد هذا سوء استقبالهم للحق الذي جاءهم به محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقولهم له : « هذا سحر مبین » .. وترقيهم في الادعاء حتى ليزعمون أنه افتراه . ويلقن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم الرد اللائق بالنبوة ، النابع من مخافة الله وتقواه ، وتفويض الأمر كله إليه في الدنيا والآخرة : « قل : إن اقتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ، وما أنا إلا نذير مبين » .. ويحاججهم بموقف بعض من اهتدى للحق من بني إسرائيل حيناً رأى في القرآن مصداق ما يعرف من كتاب موسى - عليه السلام - : « فآمن واستكبرتم » .. ويندد بظلمهم بالإصرار على التكذيب بعد شهادة أهل الكتاب العارفين : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

ويستطرد في عرض تعلاتهم ومعاذيرهم الواهية عن هذا الإصرار ، وهم يقولون عن المؤمنين : « لو كان خيراً ما سبقونا إليه » .. ويكشف عن علة هذا الموقف المنكر : « وإذ لم يهتدوا به فيقولون : هذا إفك قديم ! » . ويشير إلى كتاب موسى من قبله ، وإلى تصديق هذا القرآن له ، وإلى وظيفته ومهمته : « لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » ..

ويختتم هذا الشوط بتفصيل هذه البشرى لمن صدق بالله واستقام على الطريق : « إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » .. ويعرض الشوط الثاني نموذجين للفترة البشرية : المستقيمة والمنحرفة ، في مواجهة قضية العقيدة . ويبدأ معهما من النشأة الأولى ، وهما في أحضان والديهم . ويتابع تصرفهما عند بلوغ الرشد والتبعية والاختيار . فأما الأول فشاعر بنعمة الله بار بوالديه ، راغب في الوفاء بواجب الشكر ، تائب ضارح مستسلم منيب : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » .. وأما الآخر فعاقق لوالديه كما هو عاقق لربه ، وهو جاحد منكر للآخرة ، وهما به ضيقان متعبان : « أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » ..

ويختتم هذا الشوط بمشهد سريع من مشاهد القيامة يعرض فيه مصير هذا الفريق : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

والشوط الثالث يرجع بهم إلى مصرع عاد ، عندما كذبوا بالنذير . ويعرض من القصة حلقة الريح العقيم ، التي توقعوا فيها الري والحياة ، فإذا بها تحمل إليهم الهلاك والدمار ، والعذاب الذي استعجلوا به وطلبوه : « فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك نجزي القوم المجرمين » .. ويلمس قلوبهم بهذا المصرع ، وهو يذكرهم بأن عاداً كانوا أشد منهم قوة وأكثر ثروة : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه ، وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. ويذكرهم في نهاية الشوط مصارع ما حولهم من القرى ، وعجز آلتهم المدعاة عن نصرتهم ، وظهور إفكهم واقرائهم . لعلمهم يتأثرون ويرجعون ..

ويتناول الشوط الرابع قصة نفر من الجن مع هذا القرآن ، حين صرفهم الله لاستماعه ، فلم يملكوا أنفسهم من التأثير والاستجابة ، والشهادة له بأنه الحق : « مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

وعادوا يندرون قومهم ويحذرونهم ويدعونهم إلى الإيمان : « يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » ..

وتتضمن مقالة النفر من الجن الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح الناطق بقدرة الله على البدء والإعادة : « أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير » .. وهنا يلمس قلوبهم بمشهد الذين كفروا يوم يعرضون على النار ، فيقرون بما كانوا ينكرون ، ولكن حيث لا مجال لإقرار أو يقين !

وتختتم السورة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب ، فإنما هو أجل قصير يمهلونهم ، ثم يأتيهم العذاب والهلاك : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ؟ » .. والآن نأخذ في تفصيل هذه الأشواط ..

* * *

« حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ، والذين كفروا عما أنذروا معرضون » ..

هذا هو الإيقاع الأول في مطلع السورة ؛ وهو يلمس العلاقة بين الأحرف العربية التي يتداولها كلامهم ، والكتاب المصوغ من جنس هذه الأحرف على غير مثال من كلام البشر ، وشهادة هذه الظاهرة بأنه تنزيل من الله العزيز الحكيم . كما يلمس العلاقة بين كتاب الله المتلو المنزل من عنده ، وكتاب الله المنظور المصنوع بيده . كتاب هذا الكون الذي تراه العيون ، وتقرؤه القلوب .

وكلا الكتابين قائم على الحق وعلى التدبير . فتنزيل الكتاب « من الله العزيز الحكيم » هو مظهر للقدرة وموضع للحكمة . وخلق السماوات والأرض وما بينهما متلبس بالحق : « ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق » .. وبالتقدير الدقيق : « وأجل مسمى » تتحقق فيه حكمة الله من خلقه ، ويتم فيه ما قدره له من غاية .

وكلا الكتابين مفتوح ، معروض على الأسماع والأنظار ، ينطق بقدرة الله ، ويشهد بحكمته ، ويشي بتدبيره وتقديره ، ويدل كتاب الكون على صدق الكتاب المتلو ، وما فيه من إنذار وتبشير .. « والذين كفروا عما أنذروا معرضون » .. وهذا هو العجب المستنكر في ظل تلك الإشارة إلى الكتاب المنزل والكتاب المنظور !

والكتاب المنزل المتلو يقرر أن الله واحد لا يتعدد ، وأنه رب كل شيء ، بما أنه خالق كل شيء ، ومدبر كل شيء ، ومقدر كل شيء . وكتاب الكون الحي ينطق بهذه الحقيقة ذاتها ؛ فنظامه وتنسيقه وتناسقه كلها تشهد بوحداية الصانع المقدر المدبر ، الذي يصنع على علم ، ويبدع على معرفة ، وطابع الصنعة واحد في كل ما يصنع وما يبدع . فأنى يتخذ الناس آلهة من دونه ؟ وماذا صنع هؤلاء الآلهة وماذا أبدعوا ؟ وهذا هو الكون قائماً معروضاً على الأنظار والقلوب ؛ فإذا لهم فيه ؟ وأي قسم من أقسامه أنشأوه ؟

« قل : أرايتم ما تدعون من دون الله ؟ أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السماوات ؟ ائتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » ..

وهذا تلقين من الله سبحانه لرسوله ، صلى الله عليه وسلم ، ليواجه القوم بشهادة كتاب الكون المفتوح . الكتاب

الذي لا يقبل الجدل والمغالطة - إلا مرأى ومحالاً - والذي يخاطب الفطرة بمنطقها ، بما بينه وبين الفطرة من صلة ذاتية خفية ، يصعب التغلب عليها ومغالطتها .

« أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ » ..

ولن يملك إنسان أن يزعم أن تلك المعبودات - سواء كانت حجراً أم شجراً أم جنأً أم ملائكة أم غيرها - قد خلقت من الأرض شيئاً ، أو خلقت في الأرض شيئاً . إن منطق الفطرة . منطق الواقع . يصيح في وجه أي ادعاء من هذا القبيل .

« أم لهم شرك في السماوات ؟ » ..

ولن يملك إنسان كذلك أن يزعم أن لتلك المعبودات شركة في خلق السماوات أو في ملكيتها . ونظرة إلى السماوات توقع في القلب الإحساس بعظمة الخالق ، والشعور بوحديته ؛ وتنفض عنه الانحرافات والثرهات .. والله منزل هذا القرآن يعلم أثر النظر في الكون على قلوب البشر ؛ ومن ثم يوجههم إلى كتاب الكون ليتدبروه ويستشهدوه ويستمعوا إلى إيقاعاته المباشرة في القلوب .

ثم يأخذ الطريق على ما قد يطرأ على بعض النفوس من انحراف بعيد . فقد يصل بها هذا الانحراف إلى أن تزعم هذا الزعم أو ذاك بلا حجة ولا دليل . يأخذ عليها الطريق ، فيطالبها بالحجة والدليل ؛ ويعلمها في الوقت ذاته طريقة الاستدلال الصحيح ؛ ويأخذها بالمنهج السليم في النظر والحكم والتقدير :

« اتتوني بكتاب من قبل هذا ، أو أثارة من علم ، إن كنتم صادقين » ..

فإما كتاب من عند الله صادق . وإما بقية من علم مستيقن ثابت . وكل الكتب المنزلة قبل القرآن تشهد بوحداية الخالق المبدع المدبر المقدر ؛ وليس فيها من كتاب يقر خرافة الآلهة المتعددة ، أو يقول بأن لها في الأرض خلقاً أو في السماوات شركاً ! وليس هنالك من علم ثابت يؤيد مثل ذلك الزعم المتهافت .

وهكذا يواجههم القرآن بشهادة هذا الكون . وهي شهادة حاسمة جازمة . ويأخذ عليهم طريق الادعاء بلا بينة . ويعلمهم منهج البحث الصحيح . في آية واحدة قليلة الكلمات ، واسعة المدى ، قوية الإيقاع ، حاسمة الدليل .

ثم يأخذ بهم إلى نظرة موضوعية في حقيقة هذه الآلهة المدعاة ، مندداً بضلالهم في اتخاذها ، وهي لا تستجيب لهم ، ولا تشعر بدعائهم في الدنيا ؛ ثم هي تخصمهم يوم القيامة ، وتنكر دعواهم في عبادتها :

« ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » ..

وقد كان بعضهم يتخذ الأصنام آلهة . إما لذاتها وإما باعتبارها تماثيل للملائكة . وبعضهم يتخذ الأشجار ، وبعضهم يتخذ الملائكة مباشرة أو الشيطان .. وكلها لا تستجيب لداعيها أصلاً . أو لا تستجيب له استجابة نافعة . فالأحجار والأشجار لا تستجيب . والملائكة لا يستجيبون للمشركين . والشياطين لا تستجيب إلا بالوسوسة والإضلال . ثم إذا كان يوم القيامة وحشر الناس إلى ربهم ، تبرأ هؤلاء وهؤلاء من عبادهم الضالين . حتى الشيطان كما جاء في سورة أخرى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي . فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أتم بمصرخي . إني كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » ..

وهكذا يفهم القرآن وجهاً لوجه أمام حقيقة دعواهم ومآلها في الدنيا والآخرة . بعدما وقفهم أمام الحقيقة الكونية التي تنكر هذه الدعوى وترفضها . وفي كلتا الحالتين تبرز الحقيقة الثابتة . حقيقة الوجدانية التي ينطق بها كتاب الوجود ، وتوجبها مصلحة المشركين أنفسهم ، ويلزمهم بها النظر إلى مآلهم في الدنيا والآخرة .

وإذا كان القرآن يندد بضلال من يدعون من دون الله آلهة لا يستجيبون لهم إلى يوم القيامة ؛ وكان هذا يعني المعبودات التاريخية التي عرفتها الجماعات البشرية عند نزول هذا القرآن ، فإن النص أوسع مدلولاً وأطول أمداً من ذلك الواقع التاريخي . فمن أضل ممن يدعو من دون الله أحداً في أي زمان وفي أي مكان ؟ وكل أحد - كائناً من كان - لا يستجيب بشيء لمن يدعو ، ولا يملك أن يستجيب . وليس هناك إلا الله فعال لما يريد .. إن الشرك ليس مقصوداً على صورته الساذجة التي عرفها المشركون القدامى . فكم من مشركين يشركون مع الله ذوي سلطان ، أو ذوي جاه ، أو ذوي مال ؛ ويرجون فيهم ، ويتوجهون إليهم بالدعاء . وكلهم أعجز من أن يستجيبوا لدعائهم استجابة حقيقية . وكلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً . ودعاؤهم شرك . والرجاء فيهم شرك .. والخوف منهم شرك . ولكنه شرك خفي يزاوله الكثيرون ، وهم لا يشعرون .

* * *

ثم يمضي السياق يتحدث عن موقفهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما جاءهم به من الحق . بعدما تحدث عن واقعهم وتهاافت عقيدة الشرك . ويقرر قضية الوحي كما قرر قضية التوحيد :

« وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم : هذا سحر مبين . أم يقولون : افتراه ؟ قل : إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إليّ ، وما أنا إلا نذير مبين . قل : أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » ..

يبدأ الحديث عن قضية الوحي بترذيل مقولتهم عنه ، واستنكار استقبالهم له ، وهو آيات « بينات » لا ليس فيها ولا غموض ، ولا شبهة فيها ولا ريب . ثم إنه « الحق » الذي لا مرية فيه . وهم يقولون لتلك الآيات ولهذا الحق « هذا سحر مبين » .. وشتان بين الحق والسحر . وهما لا يختلطان ولا يشتبهان .

وهكذا يبدأ الهجوم منذ البدء على تقوّلهم الظالم وادعائهم القبيح ، الذي لا يستند إلى شبهة ولا ظل من دليل . ثم يرتقي في إنكار مقولتهم الأخرى .. « افتراه » .. فلا يسوقها في صيغة الخبر بل في صيغة الاستفهام . كأن هذا القول لا يمكن أن يقال ، وبعيد أن يقال :

« أم يقولون افتراه ؟ » ..

فيلغ بهم التناول أن يقولوا هذه المقولة التي لا تخطر على بال ؟ !

ويلقن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم بأدب النبوة ، الذي ينم عن حقيقة شعوره بربه ، وشعوره بوظيفته ، وشعوره بحقيقة القوى والقيم في هذا الوجود كله :

« قل : إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً . هو أعلم بما تفيضون فيه . كفى به شهيداً بيني وبينكم . وهو الغفور الرحيم » ..

قل لهم : كيف أفترية ؟ ولحساب من أفترية ؟ ولأي هدف أفترية ؟ أفترية لتؤمنوا بي وتتبعوني ؟ ولكن : « إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً » . . وهو آخذني بما افتريت . فإذا يجديني أن تكونوا معي وأن تتبعوني . وأنتم أعجز من أن تحموني من الله حين يأخذني بافترائي ، وأضعف من أن تنصروني ؟ !

وهو الرد اللائق بنبي ، يتلقى من ربه ، ولا يرى في الوجود غيره ، ولا يعرف قوة غير قوته ، وهو رد كذلك منطقي يدركه المخاطبون به لو حكموا عقولهم فيه . يجيبهم به ، ثم يترك أمرهم لله : « هو أعلم بما تفيضون فيه » . . من القول والفعل . وهو يجزيكم بما يعلمه من أمركم . « كفى به شهيداً بيني وبينكم » . . يشهد ويقضي ، وفي شهادته الكفاية وفي قضائه . « وهو الغفور الرحيم » . . وقد يراف بكم ، فيهديكم رحمة منه ، ويغفر لكم ما كان من ضلالكم قبل الهدى والإيمان . .

رد فيه تحذير وترهيب . وفيه إطماع وتحضيض . يأخذ على القلب مسالكه ، ويلمس أوتاره . ويشعر السامعين أن الأمر أجل من مقولاتهم الهائلة ، وادعاءاتهم العابثة . وأنه في ضمير الداعية أكبر وأعمق مما يشعرون . ويمضي معهم في مناقشة القضية - قضية الوحي - من زاوية أخرى واقعية مشهودة . فإذا ينكرون من أمر الوحي والرسالة ؛ ولم يعجلون بتهمة السحر أو تهمة الاقراء ؟ وليس في الأمر غريب ولا عجيب :

« قل : ما كنت بدعاً من الرسل . وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلي . وما أنا إلا نذير مبين » . . إنه - صلى الله عليه وسلم - ليس أول رسول . فقد سبقته الرسل . وأمره كأمرهم . وما كان بدعاً من الرسل . بشر يعلم الله أنه أهل للرسالة فيوحي إليه ، فيصدق بما يؤمر . هذا هو جوهر الرسالة وطبيعتها . . والرسول حين يتصل قلبه لا يسأل ربه دليلاً ، ولا يطلب لنفسه اختصاصاً . إنما يمضي في سبيله ، يبلغ رسالة ربه ، حسبما أوحى بها إليه : « وما أدري ما يفعل بي ولا بكم . إن أتبع إلا ما يوحى إلي » . . فهو لا يمضي في رسالته لأنه يعلم الغيب ؛ أو لأنه يطلع على ما يكون من شأنه وشأن قومه وشأن الرسالة التي يبشر بها . إنما هو يمضي وفق الإشارة وحسب التوجيه . واثقاً بربه ، مستسلماً لإرادته ، مطيعاً لتوجيهه ، يضع خطاه حيث قادها الله . والغيب أمامه مجهول ، سره عند ربه . وهو لا يتطلع إلى السر من وراء الستر لأن قلبه مطمئن ، ولأن أدبه مع ربه ينهيه عن التطلع لغير ما فتح له . فهو واقف أبداً عند حدوده وحدود وظيفته : « وما أنا إلا نذير مبين » . . وإنه لأدب الواصلين ، وإنها لطمأنينة العارفين ، يتأسون فيها برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمضون في دعوتهم لله . لا لأنهم يعرفون مآلها ، أو يعلمون مستقبلها . أو يملكون فيها قليلاً أو كثيراً . ولكن لأن هذا واجبهم وكفى . وما يطلبون من ربهم برهاناً فبرهانهم في قلوبهم . وما يطلبون لأنفسهم خصوصية فخصوصيتهم أنه اختارهم . وما يتجاوزون الخط الدقيق الذي خطه لهم ، ورسم لهم فيه مواقع أقدامهم على طول الطريق . ثم يواجههم بشاهد قريب ، لشهادته قيمتها ، لأنه من أهل الكتاب الذين يعرفون طبيعة التنزيل :

« قل : أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . .

وقد تكون هذه واقعة حال ، ويكون واحد أو أكثر من بني إسرائيل ، عرف أن طبيعة هذا القرآن هي طبيعة الكتب المنزل من عند الله ، بحكم معرفته لطبيعة التوراة . فآمن . وقد وردت روايات أنها نزلت في عبد الله ابن سلام . لولا أن هذه السورة مكية وعبد الله بن سلام إنما أسلم في المدينة . وقد ورد كذلك أن هذه الآية مدنية تأكيداً لتزولها في شأن عبد الله - رضي الله عنه - . كما ورد أنها مكية وأنها لم تنزل فيه .

وقد تكون إشارة إلى واقعة أخرى في مكة نفسها . فقد آمن بعض أهل الكتاب على قلة في العهد المكي .

وكان لإيمانهم ، وهم أهل كتاب ، قيمته وحجتيه في وسط المشركين الأمين . ومن ثم نوه به القرآن في مواضع متعددة ، وواجه به المشركين الذين كانوا يكذبون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وهذا الأسلوب في الجدل : « قل : أرأيتم إن كان من عند الله ... الخ » يراد به زعزعة الإصرار والعناد في نفوس أهل مكة ، وإثارة التخوف في نفوسهم والتخرج من المضي في التكذيب . ما دام أن هذا القرآن يحتمل أن يكون من عند الله حقاً كما يقول محمد . وفي هذه الحالة تكون العاقبة وخيمة . فأولى لهم أن يحتاطوا لهذا الفرض ، الذي قد يصح ، فيحل بهم كل ما ينذرهم به . ومن الأحوط إذن أن يترثوا في التكذيب ، وأن يتدبروا الأمر في حرص وفي حذر ، قبل التعرض لتلك العاقبة الوخيمة . وبخاصة إذا أضيف إلى ذلك الاحتمال أن واحداً أو أكثر من أهل الكتاب يشهد بأن طبيعته من طبيعة الكتاب قبله ؛ ويتبع هذا التدقيق بالإيمان . بينما هم الذين جاء القرآن لهم ، وبلغتهم ، وعلى لسان رجل منهم ، يستكبرون ويكفرون . وهو ظلم بين وتجاوز للحق صارخ ، يستحق القمة من الله وإحباط الأعمال : « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ..

ولقد سلك القرآن شتى السبل ، واتبع شتى الأساليب ، ليوافق شكوك القلب البشري وانحرافات وآفاته ؛ ويأخذ عليها المسالك ؛ ويعالجها بكل أسلوب . وفي أساليب القرآن المتنوعة زاد للدعوة والدعاة إلى هذا الدين .. ومع اليقين الجازم بأن هذا القرآن من عند الله فقد استخدم أسلوب التشكيك لا أسلوب الجزم للغرض الذي أسلفنا . وهو واحد من أساليب الإقناع في بعض الأحوال ..

وبعد ذلك يمتضي في استعراض مقولات المشركين عن هذا القرآن وعن هذا الدين ؛ فيحكي اعتذارهم عن التكذيب به والإعراض عنه ، اعتذار المستكبر المتعالي على المؤمنين :

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا : لو كان خيراً ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » ..

ولقد سارع إلى الإسلام وسبق إليه نفر من الفقراء والموالي في أول الأمر . فكان هذا مغمزاً في نظر الكبراء المستكبرين . وراحوا يقولون : لو كان هذا الدين خيراً ما كان هؤلاء أعرف منا به ، ولا أسبق منا إليه . فنحن ، في مكانتنا وسعة إدراكنا وحسن تقديرنا ، أعرف بالخير من هؤلاء !

والأمر ليس كذلك . فما كان يمنعهم عنه أنهم يشكون فيه أو يجهلون الحق الذي يقوم عليه . والخير الذي يحتويه ، إنما كان هو الكبر عن الإذعان لمحمد - كما كانوا يقولون - وفقدان المراكز الاجتماعية ، والمنافع الاقتصادية ، كما كان هو الاعتزاز الأجوف بالآباء والأجداد وما كان عليه الآباء والأجداد . فأما الذين سارعوا إلى الإسلام وسبقوا إليه فلم تكن في نفوسهم تلك الحواجز التي منعت الكبراء والأشراف .

إنه الهوى يتعاضم أهل الكبر أن يذعنوا للحق ، وأن يستمعوا لصوت الفطرة ، وأن يسلموا بالحجة . وهو الذي يملئ عليهم العناد والإعراض ، واختلاق المعاذير ، والادعاء بالباطل على الحق وأهله . فهم لا يسلمون أبداً أنهم مخطئون ؛ وهم يجعلون من ذواتهم محوراً للحياة كلها يدورون حوله ويريدون أن يديروا حوله الحياة : « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم » ..

طبعاً ! فلا بد من عيب في الحق ما داموا لم يهتدوا به ، ولم يذعنوا له . لا بد من عيب في الحق لأنهم هم لا يجوز أن يخطئوا . وهم في نظر أنفسهم ، أو فيما يريدون أن يوحوا به للجماهير ، مقدسون معصومون لا يخطئون ! ويختم هذه الجولة في قضية الوحي والرسالة بالإشارة إلى كتاب موسى ، وتصديق هذا القرآن له - كما سبقت الإشارة في شهادة الشاهد من بني إسرائيل :

« ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة . وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ، لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين »
وقد كرر القرآن الإشارة إلى الصلة بين القرآن والكتب قبله ، وبخاصة كتاب موسى ، باعتبار أن كتاب عيسى تكلمة وامتداد له . وأصل التشريع والعقيدة في التوراة . ومن ثم سمي كتاب موسى « إماماً » ووصفه بأنه رحمة . وكل رسالة السماء رحمة للأرض ومن في الأرض ، بكل معاني الرحمة في الدنيا وفي الآخرة . . « وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً » . . مصدق للأصل الأول الذي تقوم عليه الديانات كلها ؛ وللمنهج الإلهي الذي تسلكه الديانات جميعها ؛ وللاتجاه الأصيل الذي توجه البشرية إليه ، لتتصل بربها الواحد الكريم .
والإشارة إلى عروبه للامتنان على العرب ، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ، ورعايته لهم ، وعنايته بهم ؛ ومظهرها اختيارهم لهذه الرسالة ، واختيار لغتهم لتتضمن هذا القرآن العظيم .
ثم بيان لطبيعة الرسالة ، ووظيفتها :
« لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين » . .

* * *

وفي نهاية هذا الشوط الأول يصور لهم جزاء المحسنين ، ويفسر لهم هذه البشرى التي يحملها إليهم القرآن الكريم ، بشرطها ، وهو الاعتراف بربوبية الله وحده والاستقامة على هذا الاعتقاد ومقتضياته :
« إن الذين قالوا : ربنا الله . ثم استقاموا . فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها ، جزاء بما كانوا يعملون » . .
وقوله : « ربنا الله » . . ليست كلمة تقال . بل إنها ليست مجرد عقيدة في الضمير . إنما هي منهج كامل للحياة ، يشمل كل نشاط فيها وكل اتجاه ، وكل حركة وكل خالصة ؛ ويقم ميزاناً للتفكير والشعور ، وللناس والأشياء ، وللأعمال والأحداث ، وللروابط والوشائج في كل هذا الوجود .
« ربنا الله » فله العبادة ، وإليه الاتجاه . ومنه الخشية وعليه الاعتماد .
« ربنا الله » فلا حساب لأحد ولا لشيء سواه ، ولا خوف ولا تطلع لمن عداه .
« ربنا الله » فكل نشاط وكل تفكير وكل تقدير متجه إليه ، منظور فيه إلى رضاه .
« ربنا الله » فلا احتكام إلا إليه ، ولا سلطان إلا لشريعته ، ولا اهتداء إلا بهداه .
« ربنا الله » فكل من في الوجود وكل ما في الوجود مرتبط بنا ونحن نلتقي به في صلتنا بالله .
« ربنا الله » . . منهج كامل على هذا النحو ، لا كلمة تلفظها الشفاه ، ولا عقيدة سلبية بعيدة عن واقعيات الحياة .

« ثم استقاموا » . . وهذه أخرى . فالاستقامة والاطراد والثبات على هذا المنهج درجة بعد اتخاذ المنهج : استقامة النفس وطمأنينة القلب . استقامة المشاعر والخواالج ، فلا تتأرجح ولا تضطرب ولا تشك ولا ترتاب بفعل الجواذب والدوافع والمؤثرات . وهي عنيقة ومتنوعة وكثيرة . واستقامة العمل والسلوك على المنهج المختار . وفي الطريق مزالق وأشواك ومعوقات ؛ وفيه هواتف بالانحراف من هنا ومن هناك !

« ربنا الله » . . منهج . . والاستقامة عليه درجة بعد معرفته واختياره . والذين يقسم الله لهم المعرفة والاستقامة هم الصفوة المختارة . وهؤلاء « فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . وفيهم الخوف وفيهم الحزن . . والمنهج واصل . والاستقامة عليه ضمان الوصول ؟

« أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » ..

وتوضح كلمة « يعملون » معنى « ربنا الله » ، ومعنى الاستقامة على هذا المنهج في الحياة . فهي تشير إلى أن هناك عملاً كان الخلود في الجنة جزاءه . عملاً منبعثاً من ذلك المنهج : « ربنا الله » ومن الاستقامة عليه والاطراد والثبات .

ومن ثم ندرك أن الكلمات الاعتقادية في هذا الدين ليست مجرد ألفاظ تقال باللسان . فشهادة أن لا إله إلا الله ليست عبارة ولكنها منهج . فإذا ظلت مجرد عبارة فليست هي « ركن » الإسلام المطلوب المعدود في أركان الإسلام !

ومن ثم ندرك القيمة الحقيقية لمثل هذه الشهادة التي ينطق بها اليوم ملايين ، ولكنها لا تتعدى شفاههم ، ولا يترتب عليها أثر في حياتهم . وهم يحيون على منهج جاهلي شبه وثني ، بينما شفاههم تنطق بمثل هذه العبارة . شفاههم الجوفاء !

إن « لا إله إلا الله » .. أو « ربنا الله » .. منهج حياة .. هذا ما ينبغي أن يستقر في الضمائر والأخلاق ، كما تبحث عن المنهج الكامل الذي تشير إليه مثل هذه العبارة وتتحراه ..

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَأْمَلًا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ إِفِ لَكُمْ مَا تُعِدَانِي أَنْ أَنْتَاجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلُوكَ ءَامِنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبْتُمْ طَبِيبَتَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ

الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

هذا الشوط يسير مع الفطرة في استقامتها وفي انحرافها ، وفيما تنتهي إليه حين تستقيم وما تنتهي إليه حين تنحرف . ويبدأ بالوصية بالوالدين . وكثيراً ما ترد هذه الوصية لاحقة للكلام عن العقيدة في الله أو مصاحبة لهذا الحديث . ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوة والأهمية ، وأولها بالرعاية والتشريف . وفي هذا الاقتران دلتان : أولاهما هي هذه . والثانية أن آصرة الإيمان هي الأولى وهي المقدمة ، ثم تليها آصرة الدم في أوثق صورها .

وفي هذا الشوط نموذجان من الفطرة : في النموذج الأول تلتقي آصرة الإيمان وآصرة الوالدين في طريقهما المستقيم المهتدي الواصل إلى الله . وفي الثاني تفرق آصرة النسب عن آصرة الإيمان ، فلا تلتقيان . والنموذج الأول مصيره الجنة ونصيبه البشري . والنموذج الثاني مصيره النار ونصيبه استحقاق العذاب . وبهذه المناسبة يعرض صورة العذاب في مشهد من مشاهد القيامة ، يصور عاقبة الفسوق والاستكبار .

* * *

« ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً » . .

فهي وصية لجنس الإنسان كله ، قائمة على أساس إنسانيته ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى وراء كونه إنساناً . وهي وصية بالإحسان مطلقة من كل شرط ومن كل قيد . فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها ، بدون حاجة إلى أية صفة أخرى كذلك . وهي وصية صادرة من خالق الإنسان ، وربما كانت خاصة بهذا الجنس أيضاً . فما يعرف في عالم الطير أو الحيوان أو الحشرات وما إليها أن صغارها مكلفة برعاية كبارها . والمشاهد الملحوظ هو فقط تكليف فطرة هذه الخلائق أن ترعى كبارها صغارها في بعض الأجناس . فهي وصية ربما كانت خاصة بجنس الإنسان .

وتتكرر في القرآن الكريم وفي حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – الوصية بالإحسان إلى الوالدين . ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة . ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد ، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير . وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة التي كثيراً ما تصل إلى حد الموت – فضلاً على الألم – بدون تردد ، ودون انتظار عوض ، ودون من ولا رغبة حتى في الشكران ! أما الجيل الناشئ فقلما يتلفت إلى الخلف . قلما يتلفت إلى الجيل الماضي الواهب الفاني . لأنه بدوره مندفع إلى الأمام ، يطلب جيلاً ناشئاً منه يضحى له بدوره ويرعاه ! وهكذا تمضي الحياة !

والإسلام يجعل الأسرة هي اللبنة الأولى في بنائه ، والمحضن الذي تدرج فيه الفراخ الخضراء وتكبر ، وتلقى رصيدها من الحب والتعاون والتكافل والبناء . والطفل الذي يحرم من محضن الأسرة ينشأ شاذاً غير طبيعي في كثير من جوانب حياته – مهما توافرت له وسائل الراحة والتربية في غير محيط الأسرة – وأول ما يفقده في أي محضن آخر غير محضن الأسرة ، هو شعور الحب . فقد ثبت أن الطفل بفطرته يحب أن يستأثر وحده بأمة فترة العامين الأولين من حياته . ولا يطيق أن يشاركه فيها أحد . وفي المحاضن الصناعية لا يمكن أن يتوفر هذا . إذ تقوم الحاضنة بحضانة عدة أطفال ، يتحاقدون فيما بينهم ، على الأم الصناعية المشتركة ، وتبذر في قلوبهم بذرة الحقد فلا تنمو بذرة الحب أبداً . كذلك يحتاج الطفل إلى سلطة واحدة ثابتة تشرف عليه فترة من حياته كي يتحقق له ثبات الشخصية . وهذا ما لا يتيسر إلا في محضن الأسرة الطبيعي . فأما في المحاضن الصناعية فلا تتوفر السلطة الشخصية الثابتة لتغير الحاضنات بالمناوبة على الأطفال . فننشأ شخصياتهم مخلخلة ، ويعرمون ثبات الشخصية . . والتجارب في المحاضن تكشف في كل يوم عن حكمة أصيلة في جعل الأسرة هي

اللبنة الأولى في بناء المجتمع السليم ، الذي يستهدف الإسلام إنشائه على أساس الفطرة السليم .
ويصور القرآن هنا تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة ، والتي لا يجزيها أبداً إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين :
« حملته أمه كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » ..

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال : « حملته أمه كرهاً . ووضعته كرهاً » ..
لكنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد ، ويلهث بالأنفاس ! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه ، وصورة الوضع وطلقه وآلامه !

ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبها في صورة حسية مؤثرة ..
إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم . وهي مزودة بخاصية أكالة . تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله ؛ فيتوارد دم الأم إلى موضعها ، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائماً في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات ؛ وتمتصه لتحيها به وتنمو . وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم . دائمة الامتصاص لمادة الحياة . والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص ، لتصب هذا كله دماً نقياً غنياً لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكل ! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير . ذلك أنها تعطي محللول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير ! وهذا كله قليل من كثير !

ثم الوضع ، وهو عملية شاقة ، ممزقة ، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة . ثمرة التلبية للفطرة ، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش ، وتمتد .. بينما هي تذوي وتموت !
ثم الرضاع والرعاية . حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن ، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية . وهي مع هذا وذلك فرحة سعيدة رحيمة ودود . لا تمل أبداً ولا تكره تعب هذا الوليد . وأكبر ما تتطلع إليه من جزاء أن تراه يسلم وينمو . فهذا هو جزاؤها الحبيب الوحيد !

فأني يبلغ الإنسان في جزاء هذه التضحية ، مهما يفعل . وهو لا يفعل إلا القليل الزهيد ؟
وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد جاءه رجل كان في الطواف حاملاً أمه يطوف بها ، فسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هل أدت حقها ؟ فأجابه : « لا ، ولا بزفرة واحدة »^(١) .

ويخلص من هذه الوقفة أمام الوصية بالوالدين ، واستجاشة الضمائر بصورة التضحية النبيلة ممثلة في الأم ، إلى مرحلة النضج والرشد ، مع استقامة الفطرة ، واهتداء القلب :

« حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأصلح لي في ذريتي . إني تبت إليك ، وإني من المسلمين » ..

وبلوغ الأشد يتراوح بين الثلاثين والأربعين . والأربعون هي غاية النضج والرشد ، وفيها تكتمل جميع القوى والطاقات ، ويتهيأ الإنسان للتدبر والتفكر في اكتمال وهود . وفي هذه السن تتجه الفطرة المستقيمة السليمة إلى ما وراء الحياة وما بعد الحياة . وتتدبر المصير والمآل .

(١) رواه الحافظ أبو بكر البرار - بإسناده - عن بريدة عن أبيه .

ويصور القرآن هنا خوالج النفس المستقيمة ، وهي في مفرق الطريق ، بين شطر من العمر ولي ، وشرط يكاد آخره يتبدى . وهي تتوجه إلى الله :

« رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ » ..

دعوة القلب الشاعر بنعمة ربه ، المستعظم المستكثر لهذه النعمة التي تغمره وتغمر والديه قبله فهي قديمة نعهد به ، المستقل المستصغر لجهد في شكرها . يدعو ربه أن يعينه بأن يجمعه كله : « أوزعني » .. لينهض يوجب الشكر ؛ فلا يفرق طاقته ولا اهتمامه في مشاغل أخرى غير هذا الواجب الضخم الكبير .

« وأن أعمل صالحاً ترضاه » ..

وهذه أخرى . فهو يطلب العون للتوفيق إلى عمل صالح ، يبلغ من كماله وإحسانه أن يرضاه ربه . فرضى ربه هو الغاية التي يتطلع إليها . وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه .

« وأصلح لي في ذريتي » ..

وهذه ثالثة . وهي رغبة القلب المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته . وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه . والذرية الصالحة أمل العبد الصالح . وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر . وأزوح لقلبه من كل زينة الحياة . والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله . وشفاعته إلى ربه . شفاعته التي يتقدم بها بين يدي هذا الدعاء الخالص لله ، هي التوبة والإسلام :

« إني تبت إليك وإني من المسلمين » ..

ذلك شأن العبد الصالح ، صاحب الفطرة السليمة المستقيمة مع ربه . فأما شأن ربه معه ، فقد أفصح عنه هذا القرآن :

« أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة . وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » ..

فالجزاء بحساب أحسن الأعمال . والسيئات مغفورة متجاوز عنها . والمآل إلى الجنة مع أصحابها الأصلاء . ذلك وفاء بوعدهم الصدق الذي وعدوه في الدنيا . ولن يخلف الله وعده .. وهو جزاء الفيض والوفور والإنعام .

* * *

فأما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال :

« والذي قال لوالديه : أف لكما ! أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ؟ » ..

فالوالدان مؤمنان . والولد العاق يمحذ برهما أول ما يمحذ ؛ فيخاطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح :

« أف لكما ! » .. ثم يمحذ الآخرة بالحجة الواهية : « أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي ؟ » .. أي ذهبوا ولم يعد منهم أحد .. والساعة مقدرة إلى أجلها . والبعث جملة بعد انتهاء أجل الحياة الدنيا . ولم يقل أحد إنه تجزئة . يبعث جيل مضى في عهد جيل يأتي . فليست لعبة وليست عبثاً . إنما هو الحساب الختامي لمرحلة كلها بعد انتهائها !

والوالدان يريان الجحود ويسمعان الكفر ، ويفزعان مما يقوله الولد العاق لربه ولهما ؛ ويرتعش حسهما هذا التهجم والتطاول ؛ ويهتفان به : « وهما يستغيثان الله . ويلك آمن . إن وعد الله حق » .. ويبدو في حكاية

قولهما الفزع من هول ما يسمعان . بينما هو يصر على كفره ، ويلج في جحوده : « فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين » ..

هنا يعاجله الله بمصيره المحتوم :

« أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ؛ إنهم كانوا خاسرين » .. والقول الذي حق على هذا وأمثاله هو العقاب الذي ينال الجاحدين المكذبين . وهم كثير . خلت بهم القرون . من الجن والإنس . حسب وعيد الله الصادق الذي لا يخلف ولا يتخلف . « إنهم كانوا خاسرين » .. وأية خسارة أكبر من خسارة الإيمان واليقين في الدنيا . ثم خسارة الرضوان والنعيم في الآخرة . ثم العذاب الذي يحق على الجاحدين المنحرفين ؟

* * *

وبعد بيان العاقبة والجزاء إجمالاً للمهتدين والضالين ، يصور دقة الحساب والتقدير لكل فرد من هؤلاء وهؤلاء على حدة :

« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون » ..

فلكل فرد درجته ، ولكل فرد عمله ، في حدود ذلك الإجمال في جزاء كل فريق .

وبعد ، فهذان النموذجان عامان في الناس ، ولكن مجيئهما في هذا الأسلوب ، الذي يكاد يحدد شخصين بذواتهما أوقع وأشد إحياء للمثل كأنه واقع .

ولقد وردت روايات أن كلا منهما يعني إنساناً بعينه . ولكن لم يصح شيء من هذه الروايات . والأولى اعتبارهما واردين مورد المثل والنموذج . يدل على هذا الاعتبار صيغة التعقيب على كل نموذج . فالتعقيب على الأول : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة . وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » .. والتعقيب على الثاني : « أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين » .. ثم التعقيب العام : « ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم ، وهم لا يظلمون » .. وكلها توحى بأن المقصود هو النموذج المكرر من هؤلاء وهؤلاء .

* * *

ثم يقفهم وجهاً لوجه أمام مشهد شاخص لهم في يوم الحساب الذي كانوا يجحدون :

« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها . فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

والمشهد سريع حاسم ، ولكنه يتضمن لفظة عميقة عريضة . إنه مشهد العرض على النار . وفي مواجهتها وقيل سوقهم إليها ، يقال لهم عن سبب عرضهم عليها وسوقهم إليها : « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » .. فقد كانوا يملكون الطيات إذن ، ولكنهم استنفدوها في الحياة الدنيا ، فلم يدخروا للآخرة منها شيئاً ؛ واستمتعوا بها غير حاسبين فيها للآخرة حساباً . استمتعوا بها استمتاع الأنعام للحصول على اللذة بالمتاع ، غير ناظرين فيها للآخرة ، ولا شاكرين لله نعمته ، ولا متورعين فيها عن فاحش أو حرام . ومن ثم كانت لهم دنيا ولم تكن لهم آخرة . واشتروا تلك اللذة الخاطفة على الأرض بذلك الأمد الهائل الذي لا يعلم حدوده إلا الله ! « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ..

وكل عبد يستكبر في الأرض فإنما يستكبر بغير حق . فالكبرياء لله وحده . وليست لأحد من عباده في كثير أو قليل . وعذاب الهون هو الجزاء العدل على الاستكبار في الأرض . فجزاء الاستكبار الهوان . وجزاء الفسوق عن منهج الله وطريقه الانتهاء إلى هذا الهوان أيضاً . فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

وهكذا ينتهي هذا الشوط من السورة بعرض ذينك النموذجين ومصيرهما في النهاية ؛ وبهذا المشهد المؤثر للمكذبين بالآخرة ، الفاسقين عن منهج الله ، المستكبرين عن طاعته . وهي لمسة للقلب البشري تستجيش الفطر السليمة القويمة لارتداد الطريق الواصل المأمون .

* وَأَذْكُرْ أَهْلَ عَادٍ إِذْ أَنْذَرْنَاهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنْ هَاهُنَا قَاتِلًا إِنَّمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيهَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَفَعْدَةً فَمَا غَنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعَدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

وهذا الشوط جولة في مجال آخر ، تخدم القضية التي تعالجها السورة ، وتأخذ القلب البشري من جانب غير الجوانب التي عالجها الشيطان الأولان . . جولة في مصرع عاد ومصارع القرى غيرها حول مكة . وقد وقفوا من رسولهم وأخيهبهم هود - عليه السلام - موقف المشركين من رسولهم وأخيهبهم محمد - صلى الله عليه وسلم - واعترضوا اعتراضاتهم ، وأجابهم نبيهم بما يليق به من أدب النبوة في حدود بشريته وحدود وظيفته . ثم أخذهم ما أخذهم من العذاب المدمر ، حين لم يسمعوها النذير . فلم تغن عنهم قوتهم - وكانوا أقوى - ولم يغن عنهم ثراؤهم - وكانوا أغنى - ولم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم - وكانوا أذكىء - ولم تغن عنهم آلهتهم التي اتخذوها تقرباً - بزعمهم - إلى الله .

وكذلك يقف المشركين في مكة أمام مصارع أسلافهم من أمثالهم ؛ فيقفهم أمام مصيرهم هم أنفسهم . ثم أمام الخط الثابت المطرد المتصل . خط الرسالة القائمة على أصلها الواحد الذي لا يتغير وخط السنة الإلهية التي لا تتحول ولا تتبدل . وتبدو شجرة العقيدة عميقة الجذور ، ممتدة الفروع ضاربة في أعماق الزمان ؛ واحدة على اختلاف القرون واختلاف المكان .

* * *

« واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف - وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه - ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » ..

وأخو عاد هو هود - عليه السلام - يذكره القرآن هنا بصفته . صفة الأخوة لقومه . ليصور صلة الود بينه وبينهم ، وصلة القرابة التي كانت كفيلة بأن تعطفهم إلى دعوته ، وتحسن ظنهم بها وبه . وهي ذات الصلة بين محمد - صلى الله عليه وسلم - وقومه الذين يقفون منه موقف الملاحاة والخصومة .

والأحقاف جمع حقف . وهو الكثيب المرتفع من الرمال . وقد كانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة - يقال في حضرموت .

والله - سبحانه - يوجه نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر أخا عاد وإنذاره لقومه بالأحقاف . يذكره ليتأسى بأخ له من الرسل لقي مثلما يلقي من إعراض قومه وهو أخوهم . ويذكره ليذكر المشركين في مكة بمصير الغابرين من زملائهم وأمثالهم ، على مقربة منهم ومن حولهم .

وقد أنذر أخو عاد قومه ، ولم يكن أول نذير لقومه . فقد سبقته الرسل إلى أقوامهم ..

« وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه » ..

قريباً منه وبعيداً عنه في الزمان وفي المكان . فالنذارة متصلة ، وسلسلة الرسالة ممتدة . والأمر ليس بدعاً ولا غريباً . فهو معهود مألوف .

أنذرهم - ما أنذر به كل رسول قومه - : « ألا تعبدوا إلا الله . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .. وعبادة الله وحده عقيدة في الضمير ومنهج في الحياة ؛ والمخالفة عنها تنتهي إلى العذاب العظيم في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما على السواء . والإشارة إلى اليوم « عذاب يوم عظيم » .. تعني حين تطلق يوم القيامة وهو أشد وأعظم .

فماذا كان جواب قومه على التوجيه إلى الله ، والإنذار بعذابه ؟

« قالوا : أجبثنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ! » ..

سوء الظن وعدم الفهم ، والتحدي للنذير ، واستعجال العذاب الذي ينذرهم به ، والاستهزاء والتكذيب . وإصرار على الباطل واعتزاز !

فأما هود النبي فيتلقى هذا كله في أدب النبي ، وفي تجرده من كل ادعاء ، وفي الوقوف عند حده لا يتعداه :

« قال : إنما العلم عند الله . وأبلغكم ما أرسلت به . ولكني أراكم قوماً تجهلون » ..

إنما أنذرهم بالعذاب كما كلفت أن أنذرهم . ولست أعلم متى يحين مواعده ، ولا كيف يكون شكله . فعلم ذلك عند الله . وإنما أنا مبلغ عن الله . لا أدعي علماً ولا قدرة مع الله .. « ولكني أراكم قوماً تجهلون » وتحققون . وأية حماقة وأي جهل أشد من استقبال النذير الناصح والأخ القريب بمثل هذا التحدي والتكذيب ؟

ويجمل السياق هنا ما كان بين هود وقومه من جدل طويل ، ليمضي إلى النهاية المقصودة أصلاً في هذا المقام ؛ رداً على التحدي والاستعجال .

« فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا : هذا عارض ممطرنا . بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم . كذلك نجزي القوم المجرمين » ..
وتقول الروايات : إنه أصاب القوم حر شديد ، واحتبس عنهم المطر ، ودخن الجو حولهم من الحر والجفاف . ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحاً شديداً ، وخرجوا يستقبلونها في الأودية ، وهم يحسبون فيها الماء : « قالوا هذا عارض ممطرنا » ..

وجاءهم الرد بلسان الواقع : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها » .. وهي الريح الصرصر العاتية التي ذكرت في سورة أخرى . كما جاء في صفتها : « ما تذر من شيء أنت عليه إلا جعلته كالرميم » .

والنص القرآني يصور الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير : « تدمر كل شيء بأمر ربها » وهي الحقيقة الكونية التي يحفل القرآن بإشعارها للنفوس . فهذا الوجود حي . وكل قوة من قواه واعية . وكلها تدرك عن ربها وتتوجه لما تكلف به من لدنه . والإنسان أحد هذه القوى . وحين يؤمن حق الإيمان ، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة ، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله ، وأن يتجاوب معها ، وأن تتجاوب معه ، تتجاوب الأحياء المدركة ، بغير الصورة الظاهرة التي يعرفها الناس من الحياة والإدراك . ففي كل شيء روح وحياة ، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق . والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأسرار ، تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار .

وقد أدت الريح ما أمرت به ، فدمرت كل شيء « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم » .. أما هم وأما أنعامهم وأما أشيائهم وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى . إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة ، لا ديار فيها ولا نافخ نار .. « كذلك نجزي القوم المجرمين » .. سنة جارية وقدر مطرد في المجرمين .

* * *

وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت إلى أمثالهم الحاضرين ، يلمس قلوبهم بما ترتعش منه القلوب : « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه . وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة . فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » ..

هؤلاء الذين دمرتهم الريح المأمورة بالتدمير . مكناهم فيما لم نمكنكم فيه .. إجمالاً .. من القوة والمال والعلم والمتاع . وآتيناهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة - والقرآن يعبر عن قوة الإدراك مرة بالقلب ومرة بالفؤاد ومرة باللب ومرة بالعقل . وكلها تعني الإدراك في صورة من صوره - ولكن هذه الحواس والمدارك لم تنفعهم في شيء . إذ أنهم عطلوها وحجبوها « إذ كانوا يجحدون بآيات الله » .. والجحود بآيات الله يطمس الحواس والقلوب ، ويفقدها الحساسية والإشراق والنور والإدراك . « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .. من العذاب والبلاء .. والعبرة التي يفيدها كل ذي سمع وبصر وقلب ، ألا يغتر ذو قوة بقوته ، ولا ذو مال بماله ، ولا ذو علم بعلمه . فهذه قوة من قوى الكون تسلط على أصحاب القوة والمال والعلم والمتاع ، فتدمر كل شيء ، وتركهم « لا يرى إلا مساكنهم » حين يأخذهم الله بسنته التي يأخذ بها المجرمين .

والريح قوة دائبة العمل ، وفق النظام الكوني الذي قدره الله ، وهو يسلطها حين يسلطها للتدمير وهي ماضية في طريقها الكوني ، تعمل وفق الناموس المرسوم . فلا حاجة لخرق النواميس الكونية - كما يعترض المعترضون واهمين - فصاحب الناموس المرسوم هو صاحب القدر المعلوم . وكل حادث وكل حركة ، وكل اتجاه ، وكل شخص ، وكل شيء ، محسوب حسابه ، داخل في تصميم الناموس .

والريح كغيرها من القوى الكونية مسخرة بأمر ربها ، ماضية تؤدي ما قدره لها في نطاق الناموس المرسوم لها وللوجود كله . ومثلها قوة البشر المسخرة لما يريد الله بها . المسخر لها من قوى الكون ما أراد الله تسخيرها لها . وحين يتحرك البشر فإنما يؤدون دورهم في هذا الوجود ، ليتم ما أراده الله بهم وفق ما يريد . وحرية إرادتهم في الحركة والاختيار جزء من الناموس الكلي ينتهي إلى التناسق الكوني العام . وكل شيء مقدر تقديراً لا يناله نقص ولا اضطراب .

* * *

ويختم هذا الشوط بالعبرة الكلية لمصارع من حولهم من القرى من عاد وغير عاد :
« ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ، وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ! بل ضلوا عنهم . وذلك إفكهم وما كانوا يفكرون » ..

وقد أهلك الله القرى التي كذبت رسلها في الجزيرة . كعاد بالأحقاف في جنوب الجزيرة . وثمود بالحجر في شمالها . وسبأ وكانوا باليمن . ومدين وكانت في طريقهم إلى الشام . وكذلك قرى قوم لوط وكانوا يمرون بها في رحلة الصيف إلى الشبال .

ولقد نوع الله في آياته لعل المكذبين يرجعون إلى ربهم ويثوبون . ولكنهم مضوا في ضلالتهم ، فأخذهم العذاب الأليم ، ألواناً وأنواعاً ، تتحدث بها الأجيال من بعدهم ، ويعرفها الخلف من ورائهم . وكان مشركو مكة يتسامعون بها ، ويرون آثارها غادين رائحين .

وهنا يلفتهم إلى الحقيقة الواقعة . فقد دمر الله على المشركين قبلهم وأهلكهم دون أن تنجيهم آلهتهم التي كانوا يتخذونها من دون الله ، زاعمين أنهم يتقربون بها إليه . سبحانه . وهي تسترل غضبه ونقمته : « فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة » ..

إنهم لم ينصروهم « بل ضلوا عنهم » .. وتركوهم وحدهم لا يعرفون طريقاً إليهم أصلاً ، فضلاً على أن يأخذوا بيدهم وينجدوهم من بأس الله .
« وذلك إفكهم وما كانوا يفكرون » ..

فهو إفك . وهو افتراء . وذلك مآله . وتلك حقيقته .. الهلاك والتدمير .. فإذا ينتظر المشركون الذين يتخذون من دون الله آلهة بدعوى أنها تقر بهم من الله زلفى ؟ وهذه هي العاقبة وهذا هو المصير ؟

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ

طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٠﴾ يَلْقَوْنَ أَجْبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمَنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾
وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعِجِرٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾
أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٣﴾

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾

فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَٰؤُا الْعَزَمَ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ
نَّهَارٍ بَلَغَ ۖ فَلَئِمَّا يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾

هذا الشوط الأخير جولة جديدة في مجال القضية التي تعالجها السورة ؛ فسياقة قصة النفر من الجن الذين
استمعوا لهذا القرآن ، فتنادوا بالإنصات ، واطمأنت قلوبهم إلى الإيمان ، وانصرفوا إلى قومهم منذرين يدعونهم
إلى الله ويبشرونهم بالغفران والنجاة ، ويحذرونهم الإعراض والضلال . سياقة الخبر في هذا المجال ، بهذه
الصورة ، وتصوير مس القرآن لقلوب الجن هذا المس الذي يتمثل في قولهم : « أنصتوا » عندما طرق أسماعهم ،
يتمثل فيما حكوه لقومهم عنه ، وفيما دعوهم إليه . كل هذا من شأنه أن يحرك قلوب البشر ، الذين جاء
لقرآن لهم في الأصل . وهو إيقاع مؤثر ولا شك ، يلفت هذه القلوب لفتة عنيقة عميقة . وفي الوقت ذاته
تجيء الإشارة إلى الصلة بين كتاب موسى وهذا القرآن على لسان الجن ، فتعلن هذه الحقيقة التي يدركها الجن
ويغفل عنها البشر . ولا يخفى ما في هذه اللفتة من إحياء عميق متفق مع ما جاء في السورة .

كذلك ما يرد في كلام الجن من الإشارة إلى كتاب الكون المفتوح ، ودلالته على قدرة الله الظاهرة في خلق
سماوات والأرض ، الشاهدة بقدرته على الإحياء والبعث . وهي القضية التي يجادل فيها البشر وبها يجحدون .
وبمناسبة البعث يعرض مشهداً من مشاهد القيامة « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » ..

وفي الختام تجيء الوصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - بالصبر عليهم وعدم الاستعجال لهم . وتركهم
لأجل المرسوم . وهو قريب قريب كأنه ساعة من نهار .. للبلاغ .. قبل الهلاك !

* * *

« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم
منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصداقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق
مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي

الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين . أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير» ..

ومقالة النفر من الجن - مع خشوعهم عند سماع القرآن - تتضمن أسس الاعتقاد الكامل : تصديق الوحي . ووحدة العقيدة بين التوراة والقرآن . والاعتراف بالحق الذي يهدي إليه . والإيمان بالآخرة وما ينتهي إلى المغفرة وما ينتهي إلى العذاب من الأعمال . والإقرار بقوة الله وقدرته على الخلق وولايته وحده للعباد . والربط بين خلق الكون وإحياء الموتى .. وهي الأسس التي تتضمنها السورة كلها ، والقضايا التي تعالجها في سائر أشواطها .. كلها جاءت على لسان النفر من الجن . من عالم آخر غير عالم الإنسان .

ويحسن قبل أن نستعرض هذه المقالة أن نقول كلمة عن الجن وعن الحادثة ..

إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن ليستمعوا القرآن من النبي - صلى الله عليه وسلم - وحكاية ما قالوا وما فعلوا .. هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن ، ولتقرير وقوع الحادث . ولتقرير أن الجن هؤلاء يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق كما يلفظه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان والكفران ، مستعدون للهدى والضلال .. وليس هنالك من حاجة إلى زيادة تثبيت أو تأكيد لهذه الحقيقة ؛ فإيملك إنسان أن يزيد الحقيقة التي يقررها الله - سبحانه - ثبوتاً .

ولكننا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني .

إن هذا الكون من حولنا حافل بالأسرار ، حافل بالقوى والخلائق المجهولة لنا كنهاً وصفة وأثراً . ونحن نعيش في أحضان هذه القوى والأسرار . نعرف منها القليل ، ونجهل منها الكثير . وفي كل يوم نكشف بعض هذه الأسرار ، وندرك بعض هذه القوى ، ونتعرف إلى بعض هذه الخلائق تارة بذواتها . وتارة بصفاتها . وتارة بمجرد آثارها في الوجود من حولنا .

ونحن ما نزال في أول الطريق . طريق المعرفة لهذا الكون ، الذي نعيش نحن وآبائنا وأجدادنا ويعيش أبنائنا وأحفادنا ، على ذرة من ذراته الصغيرة الصغيرة .. هذا الكوكب الأرضي الذي لا يبلغ أن يكون شيئاً يذكر في حجم الكون أو وزنه !

وما عرفناه اليوم - ونحن في أول الطريق - يعد بالقياس إلى معارف البشرية قبل خمسة قرون فقط عجائب أضخم من عجيبة الجن . ولو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنوناً ، أو لظنوه يتحدث عما هو أشد غرابة من الجن قطعاً !

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية ، المعدة للخلافة في هذه الأرض ، ووفق مقتضيات هذه الخلافة ، وفي دائرة ما سخره الله لنا ليكشف لنا عن أسرارها ، وليكون لنا ذللاً ، كيما نقوم بواجب الخلافة في الأرض .. ولا تتعدى معرفتنا وكشفنا في طبيعتها وفي مداها - مهما امتد بنا الأجل - أي بالبشرية - ومهما سخر لنا من قوى الكون وكشف لنا من أسرارها - لا تتعدى تلك الدائرة . دائرة ما نحتاجه للخلافة في هذه الأرض . وفق حكمة الله وتقديره .

وسنكشف كثيراً ، وسنعرف كثيراً ، وستفتح لنا عجائب من أسرار هذا الكون وطاقاته ، مما قد تعتبر أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال ! ولكننا سنظل في حدود الدائرة المرسومة للبشر في المعرفة . وفي حدود قول الله - سبحانه - « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .. قليلاً بالقياس إلى ما في هذا الوجود من أسرار وغيوب لا يعلمها إلا خالقه وقيومه . وفي حدود تمثيله لعلمه غير المحدود ، ووسائل المعرفة البشرية المحدودة بقوله :

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » ..
فليس لنا - والحالة هذه - أن نجزم بوجود شيء أو نفيه . وبتصوره أو عدم تصوره . من عالم الغيب المجهول ،
ومن أسرار هذا الوجود وقواه ، لمجرد أنه خارج عن مألوفنا العقلي أو تجاربنا المشهودة . ونحن لم ندرك بعد
كل أسرار أجسامنا وأجهزتها وطاقاتها ، فضلاً على إدراك أسرار عقولنا وأرواحنا !
وقد تكون هنالك أسرار ليست داخلية في برنامج ما يكشف لنا عنه أصلاً . وأسرار ليست داخلية في برنامج
ما يكشف لنا عن كنهه ، فلا يكشف لنا إلا عن صفته أو أثره أو مجرد وجوده ، لأن هذا لا يفيدنا في وظيفة
انخلاقه في الأرض .

فإذا كشف الله لنا عن القدر المقسوم لنا من هذه الأسرار والقوى ، عن طريق كلامه - لا عن طريق تجاربنا
ومعارفنا الصادرة من طاقتنا الموهوبة لنا من لدنه أيضاً - فسيكون في هذه الحالة أن نتلقى هذه الهبة بالقبول والشكر
والتسليم . نتلقاها كما هي فلا نزيد عليها ولا ننقص منها . لأن المصدر الوحيد الذي نتلقى عنه مثل هذه المعرفة
لا يمنحنا إلا هذا القدر بلا زيادة . وليس هنالك مصدر آخر نتلقى عنه مثل هذه الأسرار !
ومن هذا النص القرآني ، ومن نصوص سورة الجن ، والأرجح أنها تعبير عن الحادث نفسه ، ومن النصوص
الأخرى المتناثرة في القرآن عن الجن ، ومن الآثار النبوية الصحيحة عن هذا الحادث ، نستطيع أن ندرك بعض
الحقائق عن الجن .. ولا زيادة ..

هذه الحقائق تتلخص في أن هنالك خلقاً اسمه الجن . مخلوق من النار . لقول إبليس في الحديث عن آدم :
« أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .. وإبليس من الجن لقول الله تعالى : « إلا إبليس كان من
الجن ففسق عن أمر ربه » .. فأصله من أصل الجن .

وأن هذا الخلق له خصائص غير خصائص البشر . منها خلقته من نار ، ومنها أنه يرى الناس ولا يراه الناس ،
لقوله تعالى عن إبليس - وهو من الجن - : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » ..
وأن له تجمعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس . للقول السابق : « إنه يراكم هو وقبيله ... » .
وأن له قدرة على الحياة في هذا الكوكب الأرضي - لا ندري أين - لقوله تعالى : « لآدم وإبليس معاً : « اهبطوا
بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » ..
والجن الذين سخروا لسليمان عليه السلام كانوا يقومون له بأعمال في الأرض تقتضي أن يكونوا مزدوين
بالقدرة على الحياة فيها .

وأن له قدرة كذلك على الحياة خارج هذا الكوكب لقول الله تعالى حكاية عن الجن : « وأنا لمسنا السماء
فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً » ..
وأنه يملك التأثير في إدراك البشر وهو مأذون في توجيه الضالين منهم - غير عباد الله - للنصوص السابقة ،
ولقوله تعالى في حكاية حوار إبليس اللعين : « قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » ..
وغير هذا من النصوص المماثلة . ولكننا لا نعرف كيف يوسوس ويوجه وبأي أداة .

وأنه يستطيع أن يسمع صوت الإنسان ويفهم لغته ، بدلالة استماع نفر من الجن للقرآن وفهمه والتأثر به .
وأنه قابل للهدى والضلال بدلالة قول هذا النفر في سورة الجن : « وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن
أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » .. وبدليل ذهابهم إلى قومهم منذرين يدعونهم

إلى الإيمان ، بعدما وجدوه في نفوسهم ، وعلموا أن قومهم لم يجدوه بعد .
وهذا هو القدر المستيقن في أمر الجن ، وهو حسبنا ، بلا زيادة عليه ليس عليها من دليل .
فأما الحادث الذي تشير إليه هذه الآيات ، كما تشير إليه سورة الجن كلها على الأرجح ، فقد وردت فيه روايات متعددة ثبتت أصحها :

أخرج البخاري - بإسناده - عن مسدد ، ومسلم عن شيبان بن فروخ عن أبي عوانة . وروى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « ما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ . وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا في مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون في مشارق الأرض ومغاربها ، يتبعون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر . فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فهناك حين رجعوا إلى قومهم : وقالوا : يا قومنا « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشd فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » . . وأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - : « قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » . . وإنا أوحى إليه قول الجن .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي - بإسناده - عن علقمة ، قال : قلت لابن مسعود - رضي الله عنه - هل صحب النبي - صلى الله عليه وسلم - منكم أحد ليلة الجن ؟ قال : ما صحبه أحد منا ولكننا كنا معه ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب . فقلنا : استطير ، أو اغتيل . فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا فإذا هو جاء من قبل حراء . فقلنا : يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتاني داعي الجن فذهبت معه ، فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثarهم وآثار نيرانهم . وسألوه الزاد فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله تعالى عليه ، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل برة أو روثة علف لدوابكم » . فقال - صلى الله عليه وسلم - « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » . .

وقال : ساق ابن إسحاق - فيما رواه ابن هشام في السيرة - خبر النفر من الجن بعد خبر خروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، بعد موت عمه أبي طالب ، واشتداد الأذى عليه وعلى المسلمين في مكة . ورد ثقيف له رداً قبيحاً ، وإغرائهم السفهاء والأطفال به ، حتى أدموا قدميه - صلى الله عليه وسلم - بالحجارة . فتوجه إلى ربه بذلك الابتهاال المؤثر العميق الكريم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي . إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك . لك العتي حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك » .

قال : ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يش من خير ثقيف . حتى إذا كان بنحلة قام من جوف الليل يصلي ، فر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى . وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن نصيبين . فاستمعوا له . فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين . قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه - صلى الله عليه وسلم - قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله تعالى : « ويحركهم من عذاب ألم » .. وقال تعالى : « قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

ويعقب ابن كثير في التفسير على رواية ابن إسحاق بقوله : « وهذا صحيح . ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإحياء ، كما دل عليه حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - المذكور ، وخروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم » .

وهناك روايات أخرى كثيرة . ونحن نعتمد من جميع هذه الروايات الرواية الأولى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - لأنها هي التي تتفق تماماً مع النصوص القرآنية : « قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » .. وهي قاطعة في أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما علم بالحادث عن طريق الوحي ، وأنه لم ير الجن ولم يشعر بهم . ثم إن هذه الرواية هي الأقوى من ناحية الإسناد والتخريج . وتتفق معها في هذه النقطة رواية ابن إسحاق . كما يقويها ما عرفناه من القرآن من صفة الجن : « إنه يراكم هو وقيله من حيث لا ترونهم » .. وفي هذا غناء في تحقيق الحادث .

* * *

« وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » ..

لقد كان إذن تدبيراً من الله أن يصرف هؤلاء النفر من الجن إلى استماع القرآن ، لا مصادفة عابرة . وكان في تقدير الله أن تعرف الجن نبأ الرسالة الأخيرة كما عرفت من قبل رسالة موسى ؛ وأن يؤمن فريق منهم وينجو من النار المعدة لشرططين الجن كما هي معدة لشرططين الإنس .

ويرسم النص مشهد هذا النفر - وهم ما بين ثلاثة وعشرة - وهم يستمعون إلى هذا القرآن ، ويصور لنا ما وقع في حسهم منه ، من الروعة والتأثر والرهبه والخشوع . « فلما حضروه قالوا : أنصتوا » .. وتلقي هذه الكلمة ظلال الموقف كله طوال مدة الاستماع .

« فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين » ..

وهذه كذلك تصور الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن . فقد استمعوا صامتين منتبين حتى النهاية . فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم ، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه ، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به . وهي حالة من امتلاء حسه بشيء جديد ، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب ، يدفعه دفعاً إلى الحركة به والاحتفال بشأنه ، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام :

« قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصداقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ولوا إلى قومهم مسارعين يقولون لهم : إنا سمعنا كتاباً جديداً أنزل من بعد موسى ، يصدق كتاب موسى في

أصوله . فهم إذن كانوا يعرفون كتاب موسى ، فأدركوا الصلة بين الكتابين بمجرد سماع آيات من هذا القرآن ، قد لا يكون فيها ذكر لموسى ولا لكتابه ، ولكن طبيعتها تشي بأنها من ذلك النبع الذي نبع منه كتاب موسى . وشهادة هؤلاء الجن البعيدين - نسبياً - عن مؤثرات الحياة البشرية ، بمجرد تذوقهم لآيات من القرآن ، ذات دلالة وذات إيحاء عميق .

ثم عبروا عما خالج مشاعرهم منه ، وما أحست ضمائرهم فيه ، فقالوا عنه :
« يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم » ..

ووقع الحق والهدى في هذا القرآن هائل ضخم ، لا يقف له قلب غير مطموس ؛ ولا تصمد له روح غير معاندة ولا مستكبرة ولا مشدودة بالهوى الجامح اللثيم . ومن ثم لمس هذه القلوب لأول وهلة ، فإذا هي تنطق بهذه الشهادة ، وتعبر عما مسها منه هذا التعبير .

ثم مضوا في نذارتهم لقومهم في حماسة المقتنع المندفع ، الذي يحس أن عليه واجباً في النذارة لا بد أن يؤديه :
« يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويحرمكم من عذاب أليم » ..
فقد اعتبروا نزول هذا الكتاب إلى الأرض دعوة من الله لكل من بلغته من إنس وجن ؛ واعتبروا محمداً - صلى الله عليه وسلم - داعياً لهم إلى الله بمجرد تلاوته لهذا القرآن واستماع الثقلين له : فنادوا قومهم : « يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به » ..
وآمنوا كذلك بالآخرة ، وعرفوا أن الإيمان والاستجابة لله يكون معهما غفران الذنب والإجارة من العذاب . فبشروا وأنذروا بهذا الذي عرفوه .

ويروي ابن إسحاق أن مقالة الجن انتهت عند هذه الآية . ولكن السياق يوحي بأن الآيتين التاليتين هما من مقولات النفر أيضاً . ونحن نرجح هذا وبخاصة الآية التالية :

« ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ، وليس له من دونه أولياء . أولئك في ضلال مبين » ..
فهي تكملة طبيعية لنذارة النفر لقومهم فقد دعوهم إلى الاستجابة والإيمان . فلاحتمال قوي وراجح أن يبينوا لهم أن عدم الاستجابة وخيم العاقبة . وأن الذي لا يستجيب لا يعجز الله أن يأتي به ويوقع عليه الجزاء . وبذيقه العذاب الأليم ؛ فلا يجد له من دون الله أولياء ينصرونه أو يعينونه . وأن هؤلاء المعرضين ضالون ضلالاً بيناً عن الصراط المستقيم .

وكذلك الآية التي بعدها يحتمل كثيراً أن تكون من كلامهم ، تعجباً من أولئك الذين لا يستجيبون لله ؛ حاسبين أنهم سيفلتون ، أو أنه ليس هناك حساب ولا جزاء :

« أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى . إنه على كل شيء قدير » ..

وهي لفظة إلى كتاب الكون المنظور ، الذي ورد ذكره في أول السورة . وكثيراً ما يتضمن السياق القرآني مثل هذا التناسق بين قول مباشر في السورة ، وقول مثله يحيي في قصة ، فيتم التطابق بين مصدرين على الحقيقة الواحدة .

وكتاب الكون يشهد بالقدرة المبدعة ابتداء لهذا الخلق الهائل : السماوات والأرض . ويوحي للحس البشري بيسر الإحياء بعد الموت . وهذا الإحياء هو المقصود . وصياغة القضية في أسلوب الاستفهام والجواب أقوى

وآكد في تقرير هذه الحقيقة . ثم يجيء التعقيب الشامل : « إنه على كل شيء قدير » .. فتضم الإحياء وغيره في نطاق هذه القدرة الشاملة لكل شيء كان أو يكون .

* * *

وعند ذكر الإحياء يرسم مشهد الحساب كأنه شاخص للعيون :
« ويوم يعرض الذين كفروا على النار . أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا . قال : فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

يبدأ المشهد حكاية أو مقدمة لحكاية : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار » ..
وبيننا السامع في انتظار وصف ما سيكون ، إذا المشهد يشخص بذاته . وإذا الحوار قائم في المشهد المعروض :
« أليس هذا بالحق ؟ » ..

وبالذات من سؤال ؟ بل يالها من قارعة للذين كانوا يكذبون ويستهزئون ويستعجلون ، واليوم تتلوى أعناقهم على الحق الذي كانوا ينكرون .
والجواب في خزي وفي مذلة وفي ارتياح :
« بلى . وربنا » ..

هكذا هم يقسمون : « وربنا » .. ربهم الذي كانوا لا يستجيون لداعيه ، ولا يستمعون لنبيه ولا يعترفون له بربوبية . ثم هم اليوم يقسمون به على الحق الذي أنكروه !
عندئذ يبلغ السؤال غاية من الترديل والتقريع ، ويقضى الأمر ، وينتهي الحوار :
« قال : فدوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ..

« كلمة ورد غطاها » .. كما يقال ! الجريمة ظاهرة . الجاني معترف . فإلى الجحيم !
وسرعة المشهد هنا مقصودة . فالمواجهة حاسمة ، ولا مجال لأخذ ولا رد . لقد كانوا ينكرون .
فالآن يعترفون . والآن يذوقون !

* * *

وعلى هذا المشهد الحاسم في مصير الذين كفروا ، وعلى مشهد الإيمان من أبناء عالم آخر . وفي ختام السورة التي عرضت مقولات الكافرين عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعن القرآن الكريم .. يجيء الإيقاع الأخير . توجيهاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصبر عليهم ، ولا يستعجل لهم ، فقد رأى ما ينتظرهم ، وهو منهم قريب :

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار . بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » ..

وكل كلمة في الآية ذات رصيد ضخمة ؛ وكل عبارة وراءها عالم من الصور والظلال ، والمعاني والإحياءات ، والقضايا والقيم .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل . ولا تستعجل لهم » ..
توجيه يقال لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي احتمل ما احتمل ، وعانى من قومه ما عانى . وهو

الذي نشأ يتيمًا ، وجرد من الولي والحامي ومن كل أسباب الأرض واحداً بعد واحد . الأب . والأم . والجد . والعم . والزوج الوفية الحنون . وخلص لله ولدعوته مجرداً من كل شاغل . كما هو مجرد من كل سند أو ظهر . وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين . وهو الذي خرج مرة ومرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة . وفي بعض المرات باستهزاء السفهاء ورجمهم له بالحجارة حتى تدمى قدماه الطاهرتان ، فما يزيد على أن يتوجه إلى ربه بذلك الابتهاال الخاشع النبيل .

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه ربه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ..
ألا إنه لطريق شاق طريق هذه الدعوة . وطريق مرير . حتى لتحتاج نفس كنفس محمد - صلى الله عليه وسلم - في تجردها وانقطاعها للدعوة ، وفي ثباتها وصلابتها ، وفي صفائها وشفافيتها . تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر وعدم الاستعجال على خصوم الدعوة المتعنتين .

نعم . وإن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة ، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر . وإن مرارته لتحتاج إلى جرعة حلوة من رحيق العطف الإلهي المختوم .

« فاصبر . كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم » ..

تشجيع وتصبير وتأسيّة وتسليّة .. ثم تطمين :

« كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » ..

إنه أمد قصير . ساعة من نهار . وإنها حياة خاطفة تلك التي يكثر فيها قبيل الآخرة . وإنها لتافهة لا تترك وراءها من الوقع والأثر في النفوس إلا مثلما تتركه ساعة من نهار .. ثم يلاقون المصير المحتوم . ثم يلبثون في الأبد الذي يدوم . وما كانت تلك الساعة إلا بلاغاً قبل أن يحق الهلاك والعذاب الأليم :

« بلاغ . فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » ..

لا . وما الله يريد ظلماً للعباد . لا . وليصبر الداعية على ما يلقيه . فما هي إلا ساعة من نهار . ثم يكون ما يكون ...

(٤٧) سُورَةُ مُحَمَّدٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَمَا مَنَّ بَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾

يُنَادِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ ﴿٩﴾ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾

أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كُنَّ زَيْنًا لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٤﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ

فِيهَا أَنهَرُ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَرُ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنهَرُ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَرُ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴿٣٧﴾

هذه السورة مدنية ، ولها اسم آخر . اسمها سورة القتال . وهو اسم حقيقي لها . فالقتال هو موضوعها . والقتال هو العنصر البارز فيها . والقتال في صورها وظلالها . والقتال في جرسها وإيقاعها .

القتال موضوعها . فهي تبدأ ببيان حقيقة الذين كفروا وحقيقة الذين آمنوا في صيغة هجوم أدبي على الذين كفروا ، وتمجيد كذلك للذين آمنوا ، مع إحياء بأن الله عدو للأولين ولي للآخرين ، وأن هذه حقيقة ثابتة في تقدير الله سبحانه . فهو إذن إعلان حرب منه تعالى على أعدائه وأعداء دينه منذ اللفظ الأول في السورة : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

وعقب إعلان هذه الحرب من الله على الذين كفروا ، أمر صريح للذين آمنوا بخوض الحرب ضدهم . في صيغة رنانة قوية ، مع بيان لحكم الأسرى بعد الإثخان في المعركة والتقتيل العنيف : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أخنتهم فشدوا الوثاق ، فإما متاً بعد وإما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » .. ومع هذا الأمر بيان لحكمة القتال ، وتشجيع عليه ، وتكريم للاستشهاد فيه ، ووعد من الله بإكرام الشهداء ، وبالنصر لمن يخوض المعركة انتصاراً لله ، وبهلاك الكافرين وإحباط أعمالهم : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضهم بعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيدهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم . يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

ومعه كذلك تهديد عنيف للكافرين ، وإعلان لولاية الله ونصرته للمؤمنين ، وضياح الكافرين وخذلانهم وضعفهم وتركهم بلا ناصر ولا معين : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها . ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » .. كذلك تهديد آخر للقرية التي أخرجت الرسول صلى الله عليه وسلم : « وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم » ..

ثم تمضي السورة بعد هذا الهجوم العنيف السافر في ألوان من الحديث حول الكفر والإيمان ، وحال المؤمنين وحال الكافرين في الدنيا والآخرة . فتفرق بين متاع المؤمن بالطيبات ، وتمتع الكافرين بلذات الأرض كالحيوان : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .. كما تصف متاع المؤمنين في الجنة بشتى الأشربة الشهية من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، وخمر لذة للشاربين ، وعسل مصفى ، في وفر وفيض .. في صورة أنهار جارية .. ذلك مع شتى الثمرات ، ومع المغفرة والرضوان . ثم سؤال : أهؤلاء « كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ؟ » ..

فإذا انقضت هذه الجولة الأولى في المعركة السافرة المباشرة بين المؤمنين والكافرين . أعقبها في السورة جولة مع المنافقين ، الذين كانوا هم واليهود بالمدينة يؤلفون خطراً على الجماعة الإسلامية الناشئة لا يقل عن خطر المشركين الذين يحاربونها من مكة وما حولها من القبائل في تلك الفترة ، التي يبدو من الوقائع التي تشير إليها السورة أنها كانت بعد غزوة بدر ، وقبل غزوة الأحزاب وما تلاها من خضد شوكة اليهود ، وضعف مركز المنافقين (كما ذكرنا في تفسير سورة الأحزاب) .

والحديث عن المنافقين في هذه السورة يحمل ظلالها . ظلال الهجوم والقتال ، منذ أول إشارة . فهو يصور تلهيهم عن حديث رسول الله ، وغيبة وعيهم واهتمامهم في مجلسه ، ويعقب عليه بما يدمغهم بالضلال والهوى : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » ..

ويهددهم بالساعة يوم لا يستطيعون الصحو ولا يملكون التذكر : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ؟ » ..

ثم يصور هلعهم وجبنهم وتهافتهم إذا ووجهوا بالقرآن يكلفهم القتال - وهم يتظاهرون بالإيمان - والفارق بينهم يومئذ وبين المؤمنين الصادقين : « ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ! فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت ! » .

ويحثهم على الطاعة والصدق والثبات . ويرذل اتجاهاتهم ، ويعلن عليهم الحرب والطرده واللعن : « فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . فهل عسى إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » ..

ويفضحهم في توليهم للشيطان ، وفي تأمرهم مع اليهود ، ويهددهم بالعذاب عند الموت بالفضيحة التي تكشف أشخاصهم فرداً فرداً في المجتمع الإسلامي ، الذي يدجون أنفسهم فيه ، وهم ليسوا منه ، وهم يكيدون له : « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم . فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ؟ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم . أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم . ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول . والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ..

وفي الجولة الثالثة والأخيرة في السورة عودة إلى الذين كفروا من قريش ومن اليهود وهجوم عليهم : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم » ..

وتحذير للذين آمنوا أن يصيبهم مثل ما أصاب أعداءهم : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم . إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » ..

وتحضيض لهم على الثبات عند القتال : « فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأتمم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » ..

وتهوين من شأن الحياة الدنيا وأعراضها . وحض على البذل الذي يسره الله ، ولم يجعله استئصالاً للمال كله ، رافة بهم ، وهو يعرف شح نفوسهم البشرية ، وتبرمها وضيقها لو أحفاهم في السؤال :

« إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيُحِفِّكم تبخلوا ويُخرج أضغانكم » ..

وتختم السورة بما يشبه التهديد للمسلمين إن هم بخلوا بإففاق المال ، وبالبذل في القتال : « ها أتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ، فنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني ولتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » ..

* * *

إنها معركة مستمرة من بدء السورة إلى ختامها ؛ يظلها جو القتال ، وتتسم بطابعه في كل فقراتها . وجرس الفاصلة وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة : « أعمالهم . بالهم . أمثالهم . أهواءهم . أمعاءهم .. » وحتى حين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء : « أوزارها . أمثالها . أفعالها ... » .

وهناك شدة في الصور كالشدة في جرس الألفاظ المعبرة عنها .. فالقتال أو القتل يقول عنه : « فإذا لقيم الذين كفروا فضرب الرقاب » .. والتقتيل والأسر يصوره بشدة : « حتى إذا أنزجهم فشدوا الوثاق » .. والدعاء على الكافرين يجيء في لفظ قاس : « فتسأ لهم وأضل أعمالهم » .. وهلاك الغافرين يرسم في صورة مدوية ظلاً ولفظاً : « دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها » .. وصورة العذاب في النار تجيء في هذا المشهد : « وسقوا ماء حمياً فقطع أمعاءهم » .. وحالة الجبن والفرع عند المنافقين تجيء في مشهد كذلك عنيف : « ينظرون إليك نظر الغشي عليه من الموت ! » .. حتى تحذير المؤمنين من التولي يجيء في تهديد نهائي حاسم : « وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ..

وهكذا يتناسق الموضوع والصور والظلال والإيقاع في سورة القتال ..

* * *

« الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد - وهو الحق من ربهم - كُفِّرَ عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم . ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ؛ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » ..

افتتاح يمثل الهجوم بلا مقدمة ولا تمهيد ! وإضلال الأعمال الذي يواجه به الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . سواء صدوا هم أم صدوا وصدوا غيرهم - يفيد ضياع هذه الأعمال وبطلانها . ولكن هذا المعنى يتمثل في حركة . فإذا بنا نرى هذه الأعمال شاردة ضالة ، ونلمح عاقبة هذا الشرود والضلال ، فإذا هي الهلاك والضياع . وهي حركة تخلع ظل الحياة على الأعمال ، فكأنما هي شخص حية أضلت وأهلكت . وتعمق المعنى وتلقي ظلاله : . ظلال معركة تشرد فيها الأعمال عن القوم ، والقوم عن الأعمال . حتى تنتهي إلى الضلال والهلاك ! وهذه الأعمال التي أضلت ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورائها الخير . والتي يبدو على ظاهرها الصلاح . فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان . فهذا الصلاح شكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة بالباعث الذي يصدر عنه العمل لا بشكل العمل . وقد يكون الباعث طيباً . ولكنه حين لا يقوم على الإيمان يكون فلتة عارضة أو نزوة طارئة . لا يتصل بمنهج ثابت واضح في الضمير ، متصل بخط سير الحياة العريض ، ولا بناموس الوجود الأصيل . فلا بد من الإيمان ليشد النفس إلى أصل تصدر عنه في كل اتجاهاتها ، وتتأثر به في كل انفعالاتها . وحينئذ يكون للعمل الصالح معناه . ويكون له هدفه ويكون له اطراده وتكون له آثاره وفق المنهج الإلهي الذي يربط أجزاء هذا الكون كله في الناموس ؛ ويجعل لكل عمل ولكل حركة وظيفة

وأثراً في كيان هذا الوجود ، وفي قيامه بدوره ، وانتهائه إلى غايته .
وفي الجانب الآخر : «والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم» ..
والإيمان الأول يشمل الإيمان بما نزل على محمد . ولكن السياق يبرزه ويظهره ليصفه بصفته : « وهو الحق من ربهم » ويؤكد هذا المعنى ويقرره . وإلى جوار الإيمان المستكن في الضمير ، العمل الظاهر في الحياة . وهو ثمرة الإيمان الدالة على وجوده وحيويته وانبعائه .

وهؤلاء : « كَفَرَّ عَنْهُمْ سِيئاتِهِمْ » .. في مقابل إبطال أعمال الذين كفروا ولو كانت حسنات في شكلها وظاهرها . وبينما يبطل العمل ولو كان صالحاً من الكافرين ، فإن السيئة تغفر للمؤمنين . وهو تقابل تام مطلق يبرز قيمة الإيمان وقدره عند الله ، وفي حقيقة الحياة ..

« وأصلح بهم » .. وإصلاح البال نعمة كبرى تلي نعمة الإيمان في القدر والقيمة والأثر . والتعبير يلقي ظلال الطمأنينة والراحة والثقة والرضى والسلام . ومتى صلح البال ، استقام الشعور والتفكير ، واطمأن القلب والضمير ، وارتاحت المشاعر والأعصاب ، ورضيت النفس واستمتعت بالأمن والسلام .. وماذا بعد هذا من نعمة أو متاع ؟ ألا إنه الأفق المشرق الوضيء الرفاف .

ولم كان هذا وكان ذاك ؟ إنها ليست المحاباة . وليست المصادفة . وليس الجزاف . إنما هو أمر له أصله الثابت ، المرتبط بالناموس الأصيل الذي قام عليه الوجود يوم خلق الله السماوات والأرض بالحق ، وجعل الحق هو الأساس :

« ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ..

والباطل ليست له جذور ضاربة في كيان هذا الوجود ؛ ومن ثم فهو ذاهب هالك ؛ وكل من يتبعه وكل ما يصدر عنه ذاهب هالك كذلك . ولما كان الذين كفروا اتبعوا الباطل فقد ضلت أعمالهم ، ولم يبق لهم منها شيء ذو غناء .

والحق ثابت تقوم عليه السماوات والأرض ، وتضرب جذوره في أعماق هذا الكون . ومن ثم يبقى كل ما يتصل به ويقوم عليه . ولما كان الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم ، فلا جرم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بهم . فهو أمر واضح مقرر يقوم على أصوله الثابتة ، ويرجع إلى أسبابه الأصيلية . وما هو فلتة ولا مصادفة ولا جزاف « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » . وكذلك يضع لهم القواعد التي يقيسون إليها أنفسهم وأعمالهم . فيعلمون المثل الذي ينتمون إليه ويقاسون عليه . ولا يحتارون في الوزن والقياس !

* * *

ذلك الأصل الذي قرره الآيات الأولى في السورة ، يرتب عليه توجيه المؤمنين لقتال الكافرين . فهم على الحق الثابت الذي ينبغي أن يتقرر في الأرض ، ويستعلي ويهيمن على أقدار الناس والحياة ليصل الناس بالحق وليقيم الحياة على أساسه . والذين كفروا على الباطل الذي ينبغي أن يبطل وتذهب آثاره من الحياة :
« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق . فإما متاً بعد وإما فداء . حتى تضع الحرب أوزارها » ..

واللقاء المقصود في الآية هنا هو اللقاء للحرب والقتال لا مجرد اللقاء . فحتى نزول هذه السورة كان المشركون في الجزيرة منهم المحارب ومنهم المعاهد ؛ ولم تكن بعد قد نزلت سورة « براءة » التي تنهي عهود المشركين المحددة

الأجل إلى أجلها ، والمطلقة الأجل إلى أربعة أشهر ؛ وتأمّر بقتل المشركين بعد ذلك أنى وجدوا في أنحاء الجزيرة - قاعدة الإسلام - أو يسلموا . كي تخلص القاعدة للإسلام^١ .

وضرب الرقاب المأمور به عند اللقاء يجيء بعد عرض الإسلام عليهم وإبائهم له طبعاً . وهو تصوير لعملية القتل بصورتها الحسية المباشرة ، وبالحركة التي تمثلها ، تمثيلاً مع جو السورة وظلالها .
« حتى إذا أنخنتموهم فشدوا الوثاق » ..

والإثخان شدة التقتيل ، حتى تتحطم قوة العدو وتهاوى ، فلا تعود به قدرة على هجوم أو دفاع . وعندئذ - لا قبله - يؤسر من استأسر ويشد وثاقه . فأما والعدو ما يزال قوياً فالإثخان والتقتيل يكون الهدف لتحطيم ذلك الخطر .

وعلى هذا لا يكون هناك اختلاف - كما رأى معظم المفسرين - بين مدلول هذه الآية ، ومدلول آية الأنفال التي عاتب الله فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين لاستكثارهم من الأسرى في غزوة بدر . والتقتيل كان أولى . وذلك حيث يقول تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »^٢ .. فالإثخان أولاً لتحطيم قوة العدو وكسر شوكرته ؛ وبعد ذلك يكون الأسر . والحكمة ظاهرة ، لأن إزالة القوة المعتدية المعادية للإسلام هي الهدف الأول من القتال . وبخاصة حين كانت القوة العدوية للأمة المسلمة قليلة محدودة . وكانت الكثرة للمشركين . وكان قتل محارب يساوي شيئاً كبيراً في ميزان القوى حينذاك . والحكم ما يزال سارياً في عمومها في كل زمان بالصورة التي تكفل تحطيم قوة العدو ، وتعجيزه عن الهجوم والدفاع . فأما الحكم في الأسرى بعد ذلك ، فتحدده هذه الآية . وهي النص القرآني الوحيد المتضمن حكم الأسرى :
« فإما مئاً بعد وإما فداء » ..

أي إما أن يطلق سراحهم بعد ذلك بلا مقابل من مال أو من فداء لأسرى المسلمين . وإما أن يطلق مقابل فدية من مال أو عمل أو في نظير إطلاق سراح المسلمين المأسورين .
وليس في الآية حالة ثالثة . كالاسترقاق أو القتل . بالنسبة لأسرى المشركين .
ولكن الذي حدث فعلاً أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء من بعده استرقوا بعض الأسرى - وهو الغالب - وقتلوا بعضهم في حالات معينة .

ونحن ننقل هنا ما ورد حول هذه الآية في كتاب (أحكام القرآن للإمام الجصاص الحنفي) ونعلق على ما نرى التعليق عليه في ثناياه . قبل أن نقرر الحكم الذي نراه :

* قال الله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » قال أبو بكر قد اقتضى ظاهره وجوب القتل لا غير إلا بعد الإثخان . وهو نظير قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » .. (وهذا صحيح فليس بين النصين خلاف) .

* حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن الحكم قال : حدثنا جعفر بن محمد بن اليان . قال : حدثنا أبو عبيد .

(١) هذا الحكم لا يسري على المشركين خارج الجزيرة . فهؤلاء تقبل منهم الجزية إذا اختاروها .

(٢) تراجع في الظلال في سورة الأنفال جزء ١٠ ص ١٥٢٧ - ١٥٢٨ .

قال : حدثنا عبد الله بن صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة . عن ابن عباس في قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » . قال : ذلك يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل ، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى بعد هذا في الأسارى : « فإما منّا بعد وإما فداء » .. فجعل الله النبي والمؤمنين في الأسارى بالخيار . إن شاءوا قتلوهم ، وإن شاءوا استعبدوهم ، وإن شاءوا فادوهم . شك أبو عبيد في .. وإن شاءوا استعبدوهم .. (والاستعباد مشكوك في صدور القول به عن ابن عباس فتركه . وأما جواز القتل فلا نرى له سنداً في الآية وإنما نصها المن أو الفداء) .

* وحدثنا جعفر بن محمد قال : حدثنا أبو عبيد ، قال : حدثنا أبو مهدي وحجاج ، كلاهما عن سفيان . قال : سمعت السدي يقول في قوله : « فإما منّا بعد وإما فداء » .. قال : هي منسوخة ، نسخها قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » : قال أبو بكر : أما قوله : « فإذا لقيم الذين كفروا فاضرب الرقاب » .. وقوله : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » .. وقوله : « فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم » .. فإنه جائز أن يكون حكماً ثابتاً غير منسوخ . وذلك لأن الله تعالى أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالإثخان في القتل وحظر عليه الأسر - إلا بعد إذلال المشركين وقمعهم - وكان ذلك وقت قلة عدد المسلمين وكثرة عدد عدوهم من المشركين ، فتي أثنى المشركون وأذلوا بالقتل والتشريد جاز الاستبقاء . فالواجب أن يكون هذا حكماً ثابتاً إذا وجد مثل الحال التي كان عليها المسلمون في أول الإسلام . (ونقول : إن الأمر بقتل المشركين حيث وجدوا خاص بمشركي الجزيرة . بينما النص في سورة محمد عام . فتي تحقق الإثخان في الأرض جاز أخذ الأسارى . وهذا ما جرى عليه الخلفاء بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعد نزول سورة براءة بطبيعة الحال ، ولم يقتلوه إلا في حالات معينة سيأتي بيانها) ..

* وأما قوله : « فإما منّا بعد وإما فداء » .. ظاهره يقتضي أحد شيئين : من أو فداء . وذلك ينفي جواز القتل . وقد اختلف السلف في ذلك . حدثنا حجاج عن مبارك بن فضالة عن الحسن أنه كره قتل الأسير ، وقال : من عليه أو فاده . وحدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : أخبرنا هشيم . قال : أخبرنا أشعث قال : سألت عطاء عن قتل الأسير فقال : من عليه أو فاده . قال : وسألت الحسن . قال : يصنع به ما صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأسارى بدر ، يمن عليه أو يفادي به . وروي عن ابن عمر أنه دفع إليه عظيم من عظماء اصطخر ليقتله ، فأبى أن يقتله ، وتلا قوله : « فإما منّا بعد وإما فداء » .. وروي أيضاً عن مجاهد ومحمد بن سيرين كراهة قتل الأسير . وقد روي عن السدي أن قوله : « فإما منّا بعد وإما فداء » منسوخ بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » . وروي مثله عن ابن جريج . حدثنا جعفر قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال : هي منسوخة . وقال : قتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عقبة ابن أبي معيط يوم بدر صبراً ، قال أبو بكر : اتفق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير لا نعلم بينهم خلافاً فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في قتله الأسير ، منها قتله عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحارث بعد الأسر يوم بدر . وقتل يوم أحد أبا عزة الشاعر بعدما أسر . وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية . ومن على الزبير بن باطا من بينهم ، وفتح خيبر بعضها صلحاً وبعضها عنوة ، وشرط على بن أبي الحقيق ألا يكتم شيئاً ، فلما ظهر على خيانتته وكتمانه قتله . وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن خطل ، ومقيس بن حبابة ، وعبد الله بن أبي سرح ، وآخرين ، وقال : « اقتلوه وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة » . ومن على أهل مكة ولم يغنم أموالهم . وروي عن صالح بن

كيسان عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عبد الرحمن بن عوف ، أنه سمع أبا بكر الصديق يقول : « وددت أني يوم أتيت بالفجاءة لم أكن أحرقتة ، وكنت قتلته سريحاً ، أو أطلقتته نجيحاً » . وعن أبي موسى أنه قتل دهقان السوس بعدما أعطاه الأمان على قوم سماهم ونسي نفسه فلم يدخلها في الأمان فقتله . فهذه آثار متواترة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة في جواز قتل الأسير وفي استبقائه . واتفق فقهاء الأمصار على ذلك . (وجواز القتل لا يؤخذ من الآية ، ولكن يؤخذ من عمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعض الصحابة . وتتبع الحالات التي وقع فيها القتل يعطي أنها حالات خاصة ، وراءها أسباب معينة غير مجرد التعرض للقتال والأسر . فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط كلاهما كان له موقف خاص في إيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإيذاء دعوته . وكذلك أبو عزة الشاعر ، ولبنى قريظة كذلك موقف خاص بارتضاءهم حكم سعد بن معاذ سلفاً . وهكذا نجد في جميع الحالات أسباباً معينة تفرد هذه الحالات من الحكم العام للأسرى الذي تقررره الآية : « فإما مئاً بعد وإما فداء ») ..

* وإنما اختلفوا في فدائه ، فقال أصحابنا جميعاً (يعني الحنفية) : لا يفادى الأسير بالمال ، ولا يباع السبي من أهل الحرب فيردوا حرباً . وقال أبو حنيفة : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضاً ، ولا يردون حرباً أبداً . وقال أبو يوسف ومحمد : لا بأس أن يفادى أسرى المسلمين بأسرى المشركين . وهو قول الثوري والأوزاعي ، وقال الأوزاعي : لا بأس ببيع السبي من أهل الحرب ، ولا يباع الرجال إلا أن يفادى بهم المسلمون . وقال المزني عن الشافعي : للإمام أن يمن على الرجل الذين ظهر عليهم أو يفادي بهم ، فأما المجيزون للفداء بأسرى المسلمين وبالمال فإنهم احتجوا بقوله : « فإما مئاً بعد وإما فداء » وظاهره يقتضي جوازه بالمال وبالمسلمين ؛ وبأن النبي - صلى الله عليه وسلم - فدى أسارى بدر بالمال . ويحتجون للفداء بالمسلمين بما روى ابن المبارك ، عن معمر ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أبي المهلب ، عن عمران ابن حصين . قال : أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - وأسر أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلاً من بني عامر ابن صعصعة ؛ ففر به النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو موتق ، فناده ، فأقبل إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : علام أحبس ؟ قال : « بجزيرة حلفائك » . فقال الأسير : إني مسلم ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح » . ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فناده أيضاً ، فأقبل ، فقال : إني جائع فأطعمني . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « هذه حاجتك » . ثم إن النبي - صلى الله عليه وسلم - فاده بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما . (وحجة القائلين بالفداء أرجح في تقديرنا من حجة أصحاب الإمام الجصاص على الاختلاف في الفداء بالمال أو بأسرى المسلمين) .

* وقد ختم الإمام الجصاص القول في المسألة بترجيح رأي أصحابه الحنفية قال : وأما ما في الآية من ذكر المن والفداء ، وما روي في أسارى بدر فإن ذلك منسوخ بقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » . . وقد روي ذلك عن السدي وابن جريج . وقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » إلى قوله : « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فتضمنت الآيتان وجوب القتال للكفار حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية . والفداء بالمال أو بغيره ينافي ذلك . ولم يختلف أهل التفسير ونقله الآثار أن سورة « براءة » بعد سورة « محمد » - صلى الله عليه وسلم - فوجب أن يكون الحكم المذكور فيها ناسخاً للفداء المذكور في غيرها . (وقد سبق القول بأن هذا القتل للمشركين - أو الإسلام - مقصود به مشركو الجزيرة فهو حكم خاص بهم . أما غيرهم خارجها

فتقبل منهم الجزية كما تقبل من أهل الكتاب . وقبول الجزية عند التسليم لا ينفي أن يقع الأسرى في أيدي المسلمين قبل التسليم . فهؤلاء الأسرى ما الحكم فيهم ؟ نقول : إنه يجوز المن عليهم إذا رأى الإمام المصلحة ، أو الفداء بهم بالمال أو بالمسلمين ، إذا ظل قومهم قوة لم تستسلم بعد ولم تقبل الجزية . فأما عند الاستسلام للجزية فالأمر منته بطبيعته وهذه حالة أخرى ، فحكم الأسرى يظل سارياً في الحالة التي لم تنته بالجزية) .

والخلاصة التي تنتهي إليها أن هذا النص هو الوحيد المتضمن حكم الأسرى . وسائر النصوص تتضمن حالات أخرى غير حالة الأسر . وأنه هو الأصل الدائم للمسألة . وما وقع بالفعل خارجاً عنه كان لمواجهة حالات خاصة وأوضاع وقتية . فقتل بعض الأسرى كان في حالات فردية يمكن أن يكون لها دائماً نظائر ؛ وقد أخذوا بأعمال سابقة على الأسر ، لا بمجرد خروجهم للقتال . ومثال ذلك أن يقع جاسوس أسيراً فيحكم على الجاسوسية لا على أنه أسير . وإنما كان الأسر مجرد وسيلة للقبض عليه .

ويبقى الاسترقاق . وقد سبق لنا في مواضع مختلفة من هذه الظلال القول بأنه كان لمواجهة أوضاع عالمية قائمة ، وتقاليده في الحرب عامة . ولم يكن ممكناً أن يطبق الإسلام في جميع الحالات النص العام : « فإما مناً بعد وإما فداء » . . في الوقت الذي يسترق أعداء الإسلام من يأسرونهم من المسلمين . ومن ثم طبقه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بعض الحالات فأطلق بعض الأسارى مناً . وفادى ببعضهم أسرى المسلمين ، وفادى بعضهم بالمال . وفي حالات أخرى وقع الاسترقاق لمواجهة حالات قائمة لا تعالج بغير هذا الإجراء .

فإذا حدث أن اتفقت المعسكرات كلها على عدم استرقاق الأسرى ، فإن الإسلام يرجع حينئذ إلى قاعدته الإيجابية الوحيدة وهي : « فإما مناً بعد وإما فداء » لانقضاء الأوضاع التي كانت تقضي بالاسترقاق . فليس الاسترقاق حتمياً ، وليس قاعدة من قواعد معاملة الأسرى في الإسلام .

وهذا هو الرأي الذي نستوحيه من النص القرآني الحاسم . ومن دراسة الأحوال والأوضاع والأحداث . . والله الموفق للصواب .

ويحسن أن يكون مفهوماً أنني أجنح إلى هذا الرأي لأن النصوص القرآنية واستقراء الحوادث وظروفها يؤيده ، لا لأنه يهيج في خاطري أن استرقاق الأسرى تهمة أحاول أن أبرئ الإسلام منها ! إن مثل هذا الخاطر لا يهيج في نفسي أبداً ، فلو كان الإسلام رأى هذا لكان هو الخير ، لأنه ما من إنسان يعرف شيئاً من الأدب يملك أن يقول : إنه يرى خيراً مما يرى الله . إنما أنا أسير مع نص القرآن وروحه فأجنح إلى ذلك الرأي بإيحاء النص واتجاهه .

وذلك . . - أي القتال وضرب الرقاب وشد الوثاق واتباع هذه القاعدة في الأسرى - « حتى تضع الحرب أوزارها » . . أي حتى تنتهي الحرب بين الإسلام وأعدائه المناوئين له . فهي القاعدة الكلية الدائمة . ذلك أن « الجهاد ماض إلى يوم القيامة » كما يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى تكون كلمة الله هي العليا .

* * *

والله لا يكلف الذين آمنوا هذا الأمر ، ولا يفرض عليهم هذا الجهاد ، لأنه يستعين بهم - حاشاه - على الذين كفروا . فهو سبحانه قادر على أن يقضي عليهم قضاء مباشراً ؛ وإنما هو ابتلاء الله لعباده بعضهم ببعض ؛ الابتلاء الذي تقدر به منازلهم :

(١) من حديث أخرجه أبو داود - بإسناده - عن أنس رضي الله عنه .

« ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضكم ببعض . والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم .. »

إن هؤلاء الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وأمثالهم في الأرض كلها في كل زمان من البغاة الطغاة المفسدين ، الذين يظهرون في ثوب البطش والاستكبار ، ويتراءون لأنفسهم وللضالين من أتباعهم قادرين أقوياء . إن هؤلاء جميعاً حفنة من الخلق . تعيش على ظهر هذه الهباء الصغيرة المسماة بالأرض ، بين هذه الكواكب والنجوم والمجموعات الفلكية والمجرات والعوالم التي لا يعلم عددها ولا مداها إلا الله في هذا الفضاء الذي تبدو فيه هذه المجرات والعوالم نقطاً متناثرة ، تكاد تكون ضائعة ، لا يمسكها ولا يجمعها ولا ينسقيها إلا الله .

فلا يبلغ هؤلاء ومن وراءهم من الأتباع ، بل لا يبلغ أهل هذه الأرض كلها ، أن يكونوا نمالاً صغيرة . لا بل إنهم لا يبلغون أن يكونوا هباء تتقاذفه النسيمات . لا بل إنهم لا يبلغون شيئاً أصلاً حين يفقون أمام قوة الله . إنما يتخذ الله المؤمنين - حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار وشد وثاقهم بعد إغنائهم - إنما يتخذهم سبحانه ستاراً لقدرته . ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرة . كما انتصر من بعضهم بالطوفان والصيحة والريح العقيم . بل لانتصر منهم من غير هذه الأسباب كلها ، ولكنه إنما يريد لعباده المؤمنين الخير . وهو يبتليهم ، ويربيهم ، ويصلحهم ، ويسر لهم أسباب الحسنات الكبار .

يريد لبتليهم . وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النفس البشرية من طاقات واتجاهات . فليس أكرم في النفس من أن يعز عليها الحق الذي تؤمن به ، حتى تجاهد في سبيله ، فتقتل وتقتل ، ولا تسلم في هذا الحق الذي تعيش له وبه ، ولا تستطيع الحياة بدونه ، ولا تحب هذه الحياة في غير ظله . ويريد ليربيهم . فيظل يخرج من نفوسهم كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية مما يعز عليهم أن يتخلوا عنه . ويظل يقوي في نفوسهم كل ضعف ويكمل كل نقص ، وينفي كل زغل ودخل ، حتى تصبح رغائبهم كلها في كفة وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتطلع إلى وجه الله ورضاه . فترجح هذه وتشيل تلك . ويعلم الله من هذه النفوس أنها خيرت فاختارت ، وأنها تربت فعرفت ، وأنها لا تندفع بلا وعي ، ولكنها تقدر وتختار .

ويريد ليصلحهم . ففي معاناة الجهاد في سبيل الله ، والتعرض للموت في كل جولة ، ما يعود النفس الاستهانة بهذا الخطر المخوف ، الذي يكلف الناس الكثير من نفوسهم وأخلاقهم وموازنهم وقيمهم ليتقوه . وهو حين هين عند من يعتاد ملاقاته . سواء سلم منه أو لاقاه . والتوجه به لله في كل مرة يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقربه للتصور فعل الكهرباء بالأجسام ! وكأنه صياغة جديدة للقلوب والأرواح على صفاء ونقاء وصلاح .

ثم هي الأسباب الظاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلها ، عن طريق قيادتها بأيدي المجاهدين الذين فرغت نفوسهم من كل أعراض الدنيا وكل زخارفها ؛ وهانت عليهم الحياة وهم يخوضون غمار الموت في سبيل الله . ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله والتطلع إلى رضاه .. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلها ويصلح العباد . ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلم في راية القيادة للكفر والضلال والفساد ؛ وهي قد اشترتها بالدماء والأرواح ، وكل عزيز وغال أرخصته لتسلم هذه الراية لأنفسها ولكن لله ! ثم هو بعد ذلك كله تيسير الوسيلة لمن يريد الله بهم الحسنى لينالوا رضاه وجزاءه بغير حساب . وتيسير

الوسيلة لمن يريد الله بهم السوء ليكسبوا ما يستحقون عليه غضبه وعذابه . وكل ميسر لما خلق له . وفق ما يعلمه الله من سره ودخيلته .

ومن ثم يكشف عن مصير الذين يقتلون في سبيل الله :

« والذين قتلوا في سبيل الله ، فلن يضل أعمالهم . سيديهم ، ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم .. »
لن يضل أعمالهم .. في مقابل ما جاء عن الذين كفروا أنه أضل أعمالهم . فهي أعمال مهتدية واصله مربوطة إلى الحق الثابت الذي صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاهاً إليه . وهي باقية من ثم لأن الحق باق لا يهدر ولا يضيع .

ثم نقف أمام هذه الحقيقة الهائلة .. حقيقة حياة الشهداء في سبيل الله .. فهي حقيقة مقررة من قبل في قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » .. ولكنها تعرض هنا عرضاً جديداً . تعرض في حالة امتداد ونماء في طريقها الذي غادرت الحياة الدنيا وهي تسلكه وتتوخاه . طريق الطاعة والهداية والتجرد والنقاء :

« سيديهم ويصلح بالهم » ..

فالله ربهم الذي قتلوا في سبيله ، يظل يتعهدهم بالهداية - بعد الاستشهاد - ويتعهدهم بإصلاح البال ، وتصفية الروح من بقية أوشاب الأرض ؛ أو يزيد لها صفاء لتتناسق مع صفاء الملائكة الأعلى الذي صعدت إليه ، وإشراقه وسناه . فهي حياة مستمرة في طريقها لم تنقطع إلا فيما يرى أهل الأرض المحجوبون . وهي حياة يتعهد بها الله ربها في الملائكة الأعلى . ويزيدها هدى . ويزيدها صفاء ، ويزيدها إشراقاً . وهي حياة نامية في ظلال الله . وأخيراً يحقق لهم ما وعدهم :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » ..

وقد ورد حديث عن تعريف الله الجنة للشهداء رواه الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا زيد بن نمر الدمشقي ، حدثنا ابن ثوبان ، عن أبيه ، عن مكحول ، عن كثير بن مرة ، عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة ؛ ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » .. تفرد به أحمد . وقد روى حديثاً آخر قريباً من هذا المعنى . وفيه النص على رؤية الشهيد لمقعده من الجنة . أخرجه الترمذي وصححه ابن ماجه .

فهذا تعريف الله الجنة للشهداء في سبيله . وهذه هي نهاية الهداية الممتدة ، وإصلاح البال المستأنف بعد مغادرتهم لهذه الأرض . ونماء حياتهم وهداهم وصلاحتهم هناك عند الله .

* * *

وفي ظل هذه الكرامة للذين قتلوا في سبيل الله . وفي ظل ذلك الرضى ، وتلك الرعاية ، وبلوغ ذلك المقام . يحرض الله المؤمنين على التجرد لله ، والاتجاه إلى نصرته نهجه في الحياة ؛ ويعدهم على هذا النصر والتثبيت في المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم وأعدائه :

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » ..

وكيف ينصر المؤمنون الله ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت ؟
إن لله في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئاً ، شركاً ظاهراً أو خفياً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً
ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها
وسكناتها ، وسرها وعلايتها ، ونشاطها كله وخلجاتها .. فهذا نصر الله في ذوات النفوس .

وإن لله شريعة ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة . ونصر
الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله في واقع
الحياة .

ونقف لحظة أمام قوله تعالى : « والذين قتلوا في سبيل الله » .. وقوله : « إن تنصروا الله » ..
وفي كلتا الحالتين . حالة القتل . وحالة النصرة . يشترط أن يكون هذا الله وفي سبيل الله . وهي لفظة بديهيّة ،
ولكن كثيراً من الغيش يغطي عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال . وعندما تمتنهن كلمات الشهادة
والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لا جهاد ، ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده ، والموت في سبيله وحده ،
والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة .

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا . وأن تهيمن شريعته
ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء .

عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ،
ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء . أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في
سبيل الله » .

وليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد في سبيله من يجاهد ، ويستشهد دونه من يستشهد .
فيحق له وعد الله بالجنة . إلا تلك الراهة وإلا هذا الهدف . من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من
رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفظة البديهيّة ، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق
بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصوراً غريباً
على طبيعة العقيدة .

لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا . العليا في النفس والضمير . والعليا في الخلق والسلوك . والعليا في
الأوضاع والنظم . والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة . وما عدا هذا فليس لله . ولكن
للسيطان . وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد . وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند
الله ولا تثبيت للأقدام . وإما هو الغيش وسوء التصور والانحراف .

وإذا عز على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغيش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل
من أن يخلص الدعوة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهيّة الأولى
في شرط الله ..

وبعد فهذا شرط الله على الذين آمنوا . فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام . وعد الله لا يخلفه . فإذا تخلف فترة ؛ فهو أجل مقدر لحكمة أخرى تتحقق مع تحقق النصر والتثبيت^١ . ذلك حين يصح أن المؤمنين ونرا بالشرط ثم تخلف عنهم - فترة - نصر الله .

ثم نقف لحظة أمام لفظة خاصة في التعبير : « ينصركم . ويثبت أقدامكم » .. إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سبباً فيه . وهذا صحيح . ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت . معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال . فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة . للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر . وفي عدم التراخي بعده والتهاون . وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء . ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء . وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر . ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن . والعلم لله .

« والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم » ..

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام . فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ..

« ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » .. وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه . وهذا هو الذي يدفع بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة . وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهي نفوس ينتهي بها الإنسان كثيراً في كل زمان وفي كل مكان ، ويحس منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به ؛ حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لذعتها العقارب ! وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث ! ولعلنا نشاهد في هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة !

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله ، أن أحبط الله أعمالهم . وإحباط الأعمال تعبير تصويري على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير . فالحيوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعاً من المرعى سام . ينتهي بها إلى الموت والهلاك . وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت .. ثم انتهت إلى الهلاك والضياع ! إنها صورة وحرمة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام . المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى من ذلك النبت السام !

* * *

ثم يلوي أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم في شدة وعنف :
« أقلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ دمر الله عليهم . وللكافرين أمثالها » .. وهي لفظة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقة . وفيها مشهد للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم ، وكل منهم . فإذا هو أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة . وذلك المشهد الذي يرسمه التعبير

(١) ترجع الظلال في سورة الحج عند قوله تعالى : « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » من ص ٢٤٢٤ إلى ص ٢٤٢٧ من الجزء ١٧ .

مقصود بصورته هذه وحركته ، والتعبير يحمل في إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقته في انقضاضه وتحطمه ! وعلى مشهد التدمير والتحطيم والردم ، يلوح للحاضرين من الكافرين ، ولكل من يتصف بهذه الصفة بعد ، بأنها في انتظارهم . هذه الوقعة المدمرة التي تدمر عليهم كل شيء وتدفعهم بين الأنقاض : « وللكافرين أمثالها » !

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذي يدمر على الكافرين وينصر المؤمنين هو القاعدة الأصلية الدائمة : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم » ...

ومن كان الله مولاه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ؛ وكل ما قد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لا تخلياً من الله عن ولايته له ، ولا تخلفاً لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده . ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له ، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء . فهو في النهاية مضيق عاجز ؛ ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس !

* * *

ثم يوازن بين نصيب الذين آمنوا ونصيب الذين كفروا من المتاع بعدما بين نصيب هؤلاء وهؤلاء فيما يشتجر بينهم من قتال ونزال . مع بيان الفارق الأصيل بين متاع ومتاع :

« إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار . والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » ..

والذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون في الأرض أحياناً من أطيب المتاع ؛ ولكن الموازنة هنا إنما تقوم بين النصيب الحقيقي الضخم للمؤمنين - وهو نصيبهم في الجنة - والنصيب الكلي للكافرين الذي لا نصيب لهم سواه .

ونصيب المؤمنين يتلقونه من يد الله في جنات تجري من تحتها الأنهار . فالله هو الذي يدخلهم . وهو إذن نصيب كريم علوي رفيع . وهم ينالونه من بين يدي الله في علاه جزاء على الإيمان والصلاح ، متناسقاً في رفعة وكرامته مع الارتفاع المنطلق من الإيمان والصلاح .

ونصيب الذين كفروا متاع وأكل « كما تأكل الأنعام » .. وهو تصوير زري ، يذهب بكل سمات الإنسان ومعاله ؛ ويلقي ظلال الأكل الحيواني الشره ، والمتاع الحيواني الغليظ . بلا تذوق ، وبلا تعفف عن جميل أو قبيح .. إنه المتاع الذي لا ضابط له من إرادة ، ولا من اختيار ، ولا حارس عليه من تقوى ، ولا رادع عنه من ضمير .

والحيوانية تتحقق في المتاع والأكل ، ولو كان هناك ذوق مرهف للطعوم ، وحس مدرب في اختيار صنوف المتاع ، كما يتفق هذا لكثير من الناشئين في بيوت النعمة والثراء . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود هو حساسية الإنسان الذي يملك نفسه وإرادته ، والذي له قيم خاصة للحياة ؛ فهو يختار الطيب عند الله . عن إرادة لا يخضعها ضغط الشهوة ، ولا يضعفها هتاف اللذة . ولا تحسب الحياة كلها مائدة طعام ، وفرصة متاع ؛ بلا هدف بعد ذلك ولا تقوى فيما يباح وما لا يباح !

إن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان : أن للإنسان إرادة وهدفاً وتصوراً خاصاً للحياة يقوم على أصولها الصحيحة ، المتلقاة من الله خالق الحياة . فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه ، وأهم المزايا التي من أجلها كرمه الله .

* * *

وتعترض سلسلة الموازنات بين الذين آمنوا والذين كفروا لفئة إلى القرية التي أخرجت الرسول - صلى الله عليه وسلم - وموازنة بينها وبين القرى الهالكة وكانت أشد قوة منها :
« وكأي من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم » ..

وهي آية يروى أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة في أثناء رحلة الخروج والهجرة ، تسلياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتسرية عنه ؛ وتهويناً من شأن المشركين الجبارين الذين وقفوا في وجه الدعوة ، وآذوا أصحابها ، حتى هاجروا من أرضهم وأهلهم وأموالهم فراراً بعقيدتهم .

* * *

ثم يمضي في الموازنة بين حال الفريقين ؛ ويعلل لم كان الله ولي المؤمنين يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ، بعد النصر والكرامة في الدنيا ؟ ولم كان الذين كفروا لا مولى لهم معرضين للهلاك في الدنيا - بعد حياة حيوانية هابطة - وللعذاب في الآخرة والثوي في النار والإقامة :

« أفمن كان على بينة من ربه ، كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم ؟ » ..

فهو فارق أصيل في الحالة التي عليها الفريقان ، وفي المنهج والسلوك سواء . فالذين آمنوا على بينة من ربهم .. رأوا الحق وعرفوه ، واستيقنوا من مصدره واتصلوا بربهم فتلقوا عنه ، وهم على يقين مما يتلقون . غير مخدوعين ولا مضللين . والذين كفروا زين لهم سوء عملهم ، فأروه حسناً وهو سيئ ؛ ولم يروا ولم يستيقنوا ، « واتبعوا أهواءهم » . بلا ضابط يرجعون إليه ، ولا أصل يقيسون عليه ، ولا نور يكشف لهم الحق من الباطل .

أهؤلاء كهؤلاء ؟ إنهم يختلفون حالاً ومنهجاً واتجاهاً . فلا يمكن أن يتفوقوا ميزاناً ولا جزاء ولا مصيراً !

وهذه صورة من صور التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء في المصير :

« مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ؛ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم . كمن هو خالد في النار ، وسقوا ماء حمياً فقطع أمعاءهم ؟ » ..

إن هذه الصورة الحسية من النعيم والعذاب ترد في مواضع من القرآن . وقد تجيء معها صور معنوية أو تحيية مجردة . كما أن صور النعيم والعذاب المجردة عن الحسيات تجيء في مواضع أخرى .

والله الذي خلق البشر ، أعلم بمن خلق ، وأعرف بما يؤثر في قلوبهم ، وما يصلح لرتبتهم . ثم ما يصلح لتعيمهم ولعذابهم . والبشر صنوف ، والنفوس ألوان ، والطباع شتى . تلتقي كلها في فطرة الإنسان ، ثم تختلف وتنوع بحسب كل إنسان . ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب ، وصنوف المتاع والآلام ، وفق علمه المطلق بالعباد ..

هنالك ناس يصلح لرتبتهم ، ولاستجاشة همتهم للعمل كما يصلح لجرائهم ويرضي نفوسهم أن يكون لهم أنهار من ماء غير آسن ، أو أنهار من لبن لم يتغير طعمه ، أو أنهار من عسل مصفى ، أو أنهار من خمر لذة نشاريين . أو صنوف من كل الثمرات . مع مغفرة من ربهم تكفل لهم النجاة من النار والمتاع بالجنات .. فهؤلاء ما يصلح لرتبتهم ، وما يليق لجرائهم .

وهناك ناس يعبدون الله لأنهم يشكرونه على نعمه التي لا يحصونها . أو لأنهم يحبونه ويتقربون إليه بالطاعات تقرب الحبيب للحبيب . أو لأنهم يستحيون أن يراهم الله على حالة لا يحبها . ولا ينظرون وراء ذلك إلى جنة

أو إلى نار ، ولا إلى نعيم أو عذاب على الإطلاق ، وهؤلاء يصلح لهم تربية ويصلح لهم جزاء أن يقول الله لهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا » .. أو أن يعلموا أنهم سيكونون : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » ..

ولقد روي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يصلي حتى تنفر رجلاه . فقالت له عائشة - رضي الله عنها - يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »^١ ..

وتقول رابعة العدوية : « أولو لم تكن جنة ولا نار لم يعبد الله أحد ، ولم يخشاه أحد ؟ » .
وتجيب سفيان الثوري وقد سأله : ما حقيقة إيمانك ؟ تقول : ما عبدته خوفاً من ناره ، ولا حباً لجنته ، فأكون كالأجير السوء . عبدته شوقاً إليه » ..

وبين هذا اللون وذلك ألوان من النفوس والمشاعر والطباع .. وكلها تجد - فيما جعله الله من نعيم وعذاب ، ومن ألوان الجزاء - ما يصلح للتربية في الأرض ؛ وما يناسب للجزاء عند الله .

والملاحظ عموماً أن صور النعيم والعذاب ترق وتشف كلما ترقى السامعون في مراقي التربية والتهديب على مدى نزول القرآن . وحسب أنواع المخاطبين ، والحالات المتنوعة التي كانت تخاطب بالآيات . وهي حالات ونماذج تتكرر في البشرية في جميع الأعصار .

وهنا نوعان من الجزاء : هذه الأنهار مع كل الثمرات مع المغفرة من الله . والنوع الآخر :

« كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم » ..

وهي صورة حسية عنيفة من العذاب ، تناسب جو سورة القتال ، وتناسب مع غلظ طبيعة القوم . وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام . فالجو متاع غليظ وأكل غليظ . والجزاء ماء حميم ساخن ونقطيع للأعضاء ، التي كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام !

ولن يكون هؤلاء كهؤلاء في الجزاء ، كما أنهم في الحال والمنهج ليسوا سواء ..

* * *

بهذا يختم الجولة الأولى التي بدأت بالهجوم عند افتتاح السورة ، واستمرت في معركة متصلة ، عنيفة ، حتى الختام ..

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۗ فَهَلْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا السَّاعَةَ ۚ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۚ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

(١) أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله ابن وهب .

وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢٠﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢١﴾

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا ﴿٢٣﴾

إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا عَلَى أَذْبَرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكَ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آتَبَعُوا مَا امْتَحَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٧﴾

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴿٢٨﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ ۖ وَلَنَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكَ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكَ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكَ ﴿٣٠﴾

هذه الجولة مع المنافقين ، وموقفهم إزاء شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإزاء القرآن . ثم موقفهم من الجهاد الذي فرضه الله على المسلمين لإعلاء كلمة الله . وأخيراً موقفهم من اليهود وتأمرهم معهم سرّاً للإيقاع بالإسلام والمسلمين .

وحركة النفاق حركة مدنية ، لم يكن لها وجود في مكة ، لأنه لم يكن هناك ما يدعو إليها . فالمسلمون في مكة كانوا في موقف المضطهد ، الذي لا يحتاج أحد أن يناقشه ! فلما أعز الله الإسلام والمسلمين بالأوس والخزرج في المدينة ، وانتشاره في العشائر والبيوت بحيث لم يبق بيت إلا دخله الإسلام ، اضطرب ناس ممن كرهوا لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وللإسلام أن يعز ويستعلي ، ولم يملكوا في الوقت ذاته أن يجهروا بالعداوة ، اضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره . وهم يضمرون الحقد والبغضاء . ويتربصون بالرسول وأصحابه اندوائر . وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس النفاق المعروف .

وكان وجود اليهود في المدينة وتمتعهم فيها بقوة عسكرية وقوة اقتصادية وقوة تنظيمية في أول العهد المدني . وكرهيتهم كذلك لظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - ودينه وأتباعه . كان وجود اليهود على هذا الوضع مشجعاً للمنافقين . وسرعان ما جمعتهم البغضاء والحقد فأخذوا في حبك المؤامرات وفسد الدسائس في كل

مناسبة تعرض . فإن كان المسلمون في شدة ظهوروا بعدائهم وجهروا ببغضائهم ؛ وإذا كانوا في رخاء ظلت الدسائس سرية والمكايد في الظلام ! وكانوا إلى منتصف العهد المدني يؤلفون خطراً حقيقياً على الإسلام والمسلمين . وقد تواتر ذكر المنافقين ، ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السور المدنية ؛ كما تكرر ذكر اتصا لهم باليهود ، وتلقيهم عنهم ، واشتراكهم معهم في بعض المؤامرات المحبوكة . وهذا أحد المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين ، والإشارة كذلك إلى اليهود .

* * *

« ومنهم من يستمع إليك ، حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم : ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم .. »

ولفظه : « ومنهم » تحتمل أن تكون إشارة للذين كفروا الذين كان يدور الحديث عنهم في الجولة السابقة في السورة : باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر ، والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية .

كما تحتمل أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندجون فيهم ، متظاهرون بالإسلام معهم . وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهريهم ، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس . ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم ، وكما يدل السياق في هذه الجولة من السورة ، والحديث فيها عن المنافقين .

وسؤالهم ذاك بعد استماعهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - والاستماع معناه السماع باهتمام - يدل على أنهم كانوا يتظاهرون تظاهراً بأنهم يلقون سمعهم وبأهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقلوبهم لاهية غافلة . أو مطموسة مغلقة . كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي اللئيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم : إن ما يقوله محمد لا يفهم ، أو لا يعني شيئاً يفهم . فهاهم أولاء مع استماعهم له ، لا يجدون له فحوى ولا يمسكون منه بشيء ! كذلك قد يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وحرصهم على استيعاب معانيه وحفظ ألفاظه - كما كان حال الصحابة رضوان الله عليهم مع كل كلمة يتلفظ بها الرسول الكريم - فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية .. وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين :

« أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم .. »

ذلك حال المنافقين ، فأما حال المهتدين فهو على النقيض :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم .. »

وترتيب الوقائع في الآية يستوقف النظر . فالذين اهتدوا بدأوا هم بالاهتداء ، فكافأهم الله بزيادة الهدى ، وكافأهم بما هو أعمق وأكمل : « وآتاهم تقواهم » .. والتقوى حالة في القلب تجعله أبداً واجفاً من هيبة الله ، شاعراً برقابته ، خائفاً من غضبه ، متطلعاً إلى رضاه ، متحرراً من أن يراه الله على هيئة أو في حالة لا يرضاها .. هذه الحساسية المرهفة هي التقوى .. وهي مكافأة يؤتيها الله من يشاء من عباده ، حين يهتدون هم ويرغبون في الوصول إلى رضى الله .

والهدى والتقوى والحساسية حالة تقابل حالة النفاق والانطماس والغفلة في الآية السابقة .

ومن ثم يعود بعد هذه اللفتة إلى الحديث عن أولئك المنافقين المطموسين الغافلين ، الذين يخرجون من مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يعوا مما قال شيئاً ينفعهم ويهديهم . ويستجيش قلوبهم للتقوى ، ويذكراهم بما ينتظر الناس من حساب وجزاء :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ فقد جاء أشراطها . فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟ » .
وهي جذبة قوية تخرج الغافلين من الغفلة بعنف ، كما لو أخذت بتلايب مخمور وهزته هزاً !

ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويخرجون منها ، غير واعين ، ولا حافظين ، ولا متذكرين ؟ ماذا ينتظرون ؟ « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ؟ » . فتفجأهم وهم سادرون غارون غافلون

هل ينظرون إلا الساعة ؟ « فقد جاء أشراطها » . ووجدت علاماتها . والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات ، فهي إيدان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها .^١ وإذا كان الزمن يلوح ممتداً منذ هذه الرسالة الأخيرة ؛ فإن أيام الله غير أيامنا . ولكنها في حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى ؛ وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحواً ولا ذكراً :

« فأنى لهم - إذا جاءتهم - ذكراهم ؟ » ..

إنها الهزة القوية العنيفة التي تخرج الغافلين من غفلتهم ؛ والتي تتفق كذلك مع طابع السورة العنيفة .
ثم يتجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المهتدين المتقين المتطلعين ؛ ليأخذوا طريقاً آخر . طريق العلم والمعرفة والذكر والاستغفار ، والشعور برقابة الله وعلمه الشامل المحيط ؛ ويعيشوا بهذه الحساسية يرتقبون الساعة وهم حذرون متأهبون :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله ؛ واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات ؛ والله يعلم متقلبكم ومثواكم » ..
وهو التوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التي يقوم عليها أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه :

« فاعلم أنه لا إله إلا الله » ..

وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى :

« واستغفر لذنبك » ..

وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر الحساس الذي يشعر أبداً بتقصيره مهما جهد ؛ ويشعر - وقد غفر له - أن الاستغفار ذكر وشكر على الغفران . ثم هو التلقين المستمر لمن خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ممن يعرفون منزلته عند ربه ؛ ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه . ثم للمؤمنين والمؤمنات . وهو المستجاب الدعوة عند ربه . فيشعرون بنعمة الله عليهم بهذا الرسول الكريم . وبفضل الله عليهم وهو يوجهه لأن يستغفر لهم ، ليغفر لهم !

واللمسة الأخيرة في هذا التوجيه :

(١) أخرجه الشيخان عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

« والله يعلم متقلبكم ومثواكم » ..

حيث يشعر القلب المؤمن بالطمأنينة وبالخوف جميعاً . الطمأنينة وهو في رعاية الله حيثما تقلب أو ثوى .
والخوف من هذا الموقف الذي يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع على سره ونجواه ..
إنها التربية . التربية باليقظة الدائمة والحساسية المرفهة ، والتطلع والحذر والانتظار ..

* * *

وينتقل السياق إلى تصوير موقف المنافقين من الجهاد ، وما يعمل في نفوسهم من جبن وخور وذعر وهلع عند مواجهة هذا التكليف ، ويكشف دخيلتهم في هذا الأمر ، كما يكشف لهم ما ينتظرهم لو ظلوا على هذا النفاق ، ولم يخلصوا ويستجيبوا ويصدقوا الله عندما يعزم الأمر ويتحتم الجهاد :

« ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة . فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت ، فأولى لهم طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم . فهل عسى إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ! أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » ..

وتطلع الذين آمنوا إلى تنزيل سورة : إما أن يكون مجرد تعبير عن شوقهم إلى سورة جديدة من هذا القرآن الذي يحبونه ، ويجدون في كل سورة منه زاداً جديداً حبيباً . وإما أن يكون تطلعاً إلى سورة تبين أمراً من أمور الجهاد ، وتفصل في قضية من قضايا القتال تشغل بالهم . فيقولون : « لولا نزلت سورة ! » ..

« فإذا أنزلت سورة محكمة » .. فاصلة بينة لا تحتل تأويلاً « وذكر فيها القتال » .. أي الأمر به . أو بيان حكم المتخلفين عنه ، أو أي شأن من شؤونه ، إذا بأولئك « الذين في قلوبهم مرض » .. وهو وصف من أوصاف المنافقين .. يفقدون تماسكهم ، ويسقط عنهم ستار الرياء الذي يتسترون به ، وينكشف جزعهم وضعف نفوسهم من مواجهة هذا التكليف ، ويبدون في حالة تزرى بالرجال ، يصورها التعبير القرآني المبدع صورة فريدة كأنها معروضة للأنظار :

« رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت » ..

وهو تعبير لا تمكن محاكاته ، ولا ترجمته إلى أي عبارة أخرى . وهو يرسم الخوف إلى حد الهلع . والضعف إلى حد الرعدة . والتخاذل إلى حد الغشية ! ويبقى بعد ذلك متفرداً حافلاً بالظلال والحركة التي تشغف الخيال ! وهي صورة خالدة لكل نفس خوارة لا تعتصم بإيمان ، ولا بفطرة صادقة ، ولا بحياء تتجمل به أمام الخطر . وهي هي طبيعة المرض والنفاق !

وبينما هم في هذا التخاذل والتهافت والانهيار تمتد إليهم يد الإيمان بالزاد الذي يقوي العزائم ويشد القوائم لو تناولوه في إخلاص :

« فأولى لهم طاعة وقول معروف . فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » ..

نعم . أولى لهم من هذه الفضيحة . ومن هذا الخور . ومن هذا الهلع . ومن هذا النفاق .. أولى لهم « طاعة وقول معروف » .. طاعة تستسلم لأمر الله عن طمأنينة ، وتنهض بأمره عن ثقة . وقول معروف يشي بنظافة الحس واستقامة القلب ، وطهارة الضمير . وأولى لهم إذا عزم الأمر ، وجد الجد ، وواجهوا الجهاد أن يصدقوا الله . يصدقوه عزيمة ، ويصدقوه شعوراً . فيربط على قلوبهم ، ويشد من عزائمهم ، ويثبت أقدامهم ، ويسر

المشقة عليهم ، ويهون الخطر الذي يتمثلونه غولاً تغفر فاهاً لثلتهمهم ! ويكتب لهم إحدى الحسينين : النجاة والنصر ، أو الاستشهاد والجنة .. هذا هو الأولى . وهذا هو الزاد الذي يقدمه الإيمان فيقوي العزائم ويشد القوائم ، ويذهب بالفزع ، ويحل محل الثبات والاطمئنان .

وبينما هو يتحدث عنهم يلتفت إليهم مباشرة ليخاطبهم مقرأً مهدداً بسوء العاقبة لو قادهم حالهم هذا إلى النكسة والتولي إلى الكفر ؛ وخلع ذلك الستار الرقيق من الإسلام :
« فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ » ..

وهذا التعبير .. « هل عسيتم » .. يفيد ما هو متوقع من حال المخاطبين . ويلوح لهم بالذير والتحذير .. احذروا فإنكم منتهون إلى أن تعودوا إلى الجاهلية التي كنتم فيها . تفسدون في الأرض وتقطعون الأرحام ، كما كان شأنكم قبل الإسلام ..

وبعد هذه اللفتة المفزعة المنذرة لهم يعود إلى الحديث عنهم لو انتهوا إلى هذا الذي حذرهم إياه :
« أولئك الذين لعنهم الله ، فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ » .
أولئك الذين يظنون في مرضهم ونفاقهم حتى يتولوا عن هذا الأمر الذي دخلوا فيه بظواهرهم ولم يصدقوا الله فيه ، ولم يستيقنوه . « أولئك الذين لعنهم الله » .. وطردهم وحجبهم عن الهدى ، « فأصمهم وأعمى أبصارهم » .. وهم لم يفقدوا السمع ، ولم يفقدوا البصر ؛ ولكنهم عطلوا السمع وعطلوا البصر ، أو عطلوا قوة الإدراك وراء السمع والبصر ؛ فلم يعد لهذه الحواس وظيفة لأنها لم تعد تؤدي هذه الوظيفة .

ويتساءل في استنكار : « أفلا يتدبرون القرآن » .. وتدبر القرآن يزيل الغشاوة ، ويفتح النوافذ ، ويسكب النور ، ويحرك المشاعر ، ويستجيش القلوب ، ويخلص الضمير . وينشئ حياة للروح تنبض بها وتشرق وتستنير ، « أم على قلوب أقفالها ؟ » فهي تحول بينها وبين القرآن وبينها وبين النور ؟ فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور !

* * *

ويعضي في تصوير حال المنافقين ، وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه ، فيتبين أنه تأمرهم مع اليهود ، ووعدهم لهم بالطاعة فيما يدبرون :

« إن الذين ارتدوا على أدبارهم - من بعدما تبين لهم الهدى - الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله : سنطيعكم في بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم » ..

والتعبير يرسم معنى رجوعهم عن الهدى بعد ما تبين لهم ، في صورة حركة حسية ، حركة الارتداد على الأدبار . ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه . فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان ! وهم المنافقون الذين يتخفون ويتسترون ! ثم يذكر السبب الذي جعل للشيطان عليهم هذا السلطان ، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه :

« ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر » ..

واليهود في المدينة هم أول من كرهوا ما نزل الله ؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون الرسالة الأخيرة فيهم ، وأن يكون خاتم الرسل منهم ؛ وكانوا يستفتحون على الذين كفروا ويوعدونهم ظهور النبي الذي يقودهم ويمكن لهم في الأرض ، ويسترجع ملكهم وسلطانهم . فلما اختار الله آخر رسله من نسل إبراهيم ، من غير يهود ،

كروها رسالته . حتى إذا هاجر إلى المدينة كروها هجرته ، التي هددت ما بقي لهم من مركز هناك . ومن ثم كانوا إلباً عليه منذ أول يوم ، وشنوا عليه حرب الدس والمكر والكيد ، حينما عجزوا عن مناصبته العداء جهرة في ميادين القتال ؛ وانضم إليهم كل حائق ، وكل منافق ، وظلت الحرب سجالاً بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أجلاهم في آخر الأمر عن الجزيرة كلها وخلصها للإسلام .

وهؤلاء الذين ارتدوا على أديبارهم من بعدما تبين لهم قالوا لليهود : « سنطيعكم في بعض الأمر » .. والأرجح أن ذلك كان في الدس والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام .
« والله يعلم إسرارهم » .

وهو تعقيب كله تهديد . فأين يذهب تآمرهم وإسرارهم وماذا يؤثر ؛ وهو مكشوف لعلم الله ؟ معرض لقوة الله ؟

ثم التهديد السافر بجند الله ، والمتآمرون في نهاية الحياة :

« فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديبارهم » !

وهو مشهد مفزع مهين . وهم يحتضرون . ولا حول لهم ولا قوة . وهم في نهاية حياتهم على هذه الأرض . وفي مستهل حياتهم الأخرى . هذه الحياة التي تفتح بضرب الوجوه والأديبار . في لحظة الوفاة ، لحظة الضيق والكرب والخافة . الأديبار التي ارتدوا عليها من بعدما تبين لهم الهدى ! فيالها من مأساة !
« ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم » ..

فهم الذين أرادوا لأنفسهم هذا المصير واختاروه . هم الذين عمدوا إلى ما أسخط الله من نفاق ومعصية وتآمر مع أعداء الله وأعداء دينه ورسوله فاتبعوه . وهم الذين كرهوا رضوان الله فلم يعملوا له ، بل عملوا ما يسخط الله ويغضبه .. « فأحبط أعمالهم » .. التي كانوا يعجبون بها ويتعجبون ؛ ويحسبونها مهارة وبراعة وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون . فإذا بهذه الأعمال تتضخم وتنفخ . ثم تهلك وتضيع !

* * *

وفي نهاية الشوط يتهددهم بكشف أمرهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين ، الذين يعيشون بينهم متخفين ؛ يتظاهرون بالإسلام وهم لهم كائدون :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكمهم ، فلعرقتهم بسيماهم ، ولتعرفنهم في لحن القول ، والله يعلم أعمالكم . ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ..
ولقد كان المنافقون يعتمدون على إتقانهم فن النفاق ، وعلى خفاء أمرهم في الغالب على المسلمين . فالقرآن يسفه ظنهم أن هذا الأمر سيظل خافياً ، ويهددهم بكشف حالهم وإظهار أضغانهم وأحقادهم على المسلمين . ويقول لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : « ولو نشاء لأريناكم فلعرقتهم بسيماهم » .. أي لو نشاء لكشفنا لك عنهم بذواتهم وأشخاصهم ، حتى ترى أحدهم فتعرفه من ملاعجه (وكان هذا قبل أن يكشف الله له عن نفر منهم بأسمائهم) ومع ذلك فإن لهجتهم ونبرات صوته ، وإمالتهم للقول عن استقامته ، وانحراف منطقهم في خطابك سيدلك على نفاقهم : « ولتعرفنهم في لحن القول » ..

ويعرج على علم الله الشامل بالأعمال وبواعثها : « والله يعلم أعمالكم » .. فلا تخفى عليه منها خافية .. ثم وعد من الله بالابتلاء .. ابتلاء الأمة الإسلامية كلها ، لينكشف المجاهدون والصابرون ويتميزوا وتصبح

أخبارهم معروفة ، ولا يقع الالتباس في الصفوف ، ولا يبقى مجال لخفاء أمر المنافقين ولا أمر الضعاف والجزعين :
« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم » ..

والله يعلم حقائق النفوس ومعادنها ، ويطلع على خفاياها وخباياها ، ويعلم ما يكون من أمرها علمه بما هو كائن فعلاً . فما هذا الابتلاء ؟ ولماذا يكون العلم من ورائه بما يتكشف عنه ؟

إن الله - جلت حكمته - يأخذ البشر بما هو في طوقهم ، وما هو من طبيعتهم واستعدادهم . وهم لا يعلمون عن الحقائق المستكنة ما يعلمه . فلا بد لهم من تكشف الحقائق ليدركوها ويعرفوها ويستيقنوها ، ثم ينتفعوا بها . والابتلاء بالسراء والضراء ، وبالنعماء والبأساء ، وبالسعة والضيق ، وبالفرج والكرب .. كلها تكشف عما هو مخبوء من معادن النفوس ، وما هو مجهول من أمرها حتى لأصحابها ..

أما المراد بعلم الله لما تتكشف عنه النفوس بعد الابتلاء فهو تعلق علمه بها في حالتها الظاهرة التي يراها الناس عليها . ورؤية الناس لها في صورتها التي تدركها مداركهم هو الذي يؤثر فيهم ويكيف مشاعرهم ، ويوجه حياتهم بوسائلهم الداخلية في طوقهم . وهكذا تتم حكمة الله في الابتلاء .

ومع هذا فإن العبد المؤمن يرجو ألا يتعرض لبلاء الله وامتحانه . ويتطلع إلى عافيته ورحمته . فإذا أصابه بلاء الله بعد هذا صبر له ، وهو مدرك لما وراءه من حكمة ؛ واستسلم لمشيئة الله وثقاً من حكمته ، متطلعاً إلى رحمته وعافيته بعد الابتلاء .

وقد روي عن الفضيل العابد الصوفي أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبلنا . فإنك إن بلوتنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا وعذبتنا ..

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَيَجِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿٣١﴾

* يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٢﴾

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٣﴾

فَلَا تَنْهَوْا وَادْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٤﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ

وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْصِفْكُمْ تَبَخَّلُوا

وَيُخْرِجْ أَضْعَافَكُمْ ﴿٣٦﴾ هَٰذَا نَتَمُ هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفَعِّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَلْيَأْتِ بِخُلٍّ

عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٧﴾

الحديث في الشطر الأول من هذا الشوط الأخير من السورة عن « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى » .. وهؤلاء ، الأقرب أن يكونوا هم المشركين الذين كان الحديث عنهم في أول السورة . فهم الذين ينطبق عليهم هذا التبجح في الوقوف للدعوة الإسلامية . التبجح الذي يعبر عنه بالصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وإن كان هناك احتمال آخر ، وهو أن يكون الحديث عاماً لكل من يقف هذا الموقف ؛ يشمل اليهود في المدينة ويشمل المنافقين ، على سبيل التهديد لهم إذا هموا أن يقفوا مثل هذا الموقف جهرة أو سراً . ولكن الاحتمال الأول أقرب على كل حال .

أما الحديث في الشطر الثاني والأخير حتى ختام السورة فهو خطاب للمؤمنين ، يدعوهم إلى مواصلة الجهاد بالنفس وبالمال ، دون تراخ أو دعوة إلى مهادنة الكفر المعتدي الظالم ، تحت أي مؤثر من ضعف أو مراعاة قرابة أو رعاية مصلحة . ودون بخل بالمال الذي لا يكلفهم الله أن ينفقوا منه إلا في حدود مستطاعة ، مراعيًا الشح الفطري في النفوس ! وإن لا ينهضوا بتكاليف هذه الدعوة فإن الله يحرمهم كرامة حملها والانتداب لها ، ويستبدل بهم قومًا غيرهم ينهضون بتكاليفها ، ويعرفون قدرها . وهو تهديد عنيف مخيف يناسب جو السورة ، كما يشي بأنه كان علاجاً لحالات نفسية قائمة في صفوف المسلمين إذ ذاك - من غير المنافقين - وذلك إلى جانب حالات التفاني والتجرد والشجاعة والفداء التي اشتهرت بها الروايات . فقد كان في الجماعة المسلمة هؤلاء وهؤلاء . وكان القرآن يعالج ويربي لينهض بالمتخلفين إلى المستوى العالي الكريم ..

* * *

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول - من بعد ما تبين لهم الهدى - لن يضروا الله شيئاً ، وسيحبط أعمالهم » ..

إنه قرار من الله مؤكد ، ووعد منه واقع : أن الذين كفروا ، ووقفوا في وجه الحق أن يبلغ إلى الناس ، وصدوا الناس عنه بالقوة أو المال أو الخداع أو أية وسيلة من الوسائل ، وشاقوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حياته بإعلان الحرب عليه ، والمخالفة عن طريقه ، والوقوف في غير صفه . أو بعد وفاته بمحاربة دينه وشريعته ومنهجه والمتبعين لسنته والقائمين على دعوته . وذلك « من بعد ما تبين لهم الهدى » .. وعرفوا أنه الحق ؛ ولكنهم اتبعوا الهوى ، وجمع بهم العناد ، وأعمالهم الغرض ، وقادتهم المصلحة العاجلة ..

قرار من الله مؤكد ، ووعد من الله واقع أن هؤلاء « لن يضروا الله شيئاً » .. وهم أضال وأضعف من أن يذكروا في مجال إلحاق ضرر بالله سبحانه وتعالى . فليس هذا هو المقصود . إنما المقصود أنهم لن يضروا دين الله ولا منهجه ولا القائمين على دعوته . ولن يحدثوا حدثاً في نوااميسه وسننه . مهما بلغ من قوتهم ، ومهما قدروا على إيذاء بعض المسلمين فترة من الوقت . فإن هذا بلاء وقي يقع بإذن الله لحكمة يريد بها ؛ وليست ضراً حقيقياً لناموس الله وسننه ونظامه ونهجه وعباده القائمين على نظامه ونهجه . والعاقبة مقررة : « وسيحبط أعمالهم » .. فتنتهي إلى الخيبة والدمار . كما تنتهي الماشية التي ترعى ذلك النبات السام !

وفي ظل هذا المصير المخيف للذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول .. يلتفت إلى الذين آمنوا ليحذرهم ظل هذا المصير ، ويوجههم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم » ..

وهذا التوجيه يوحي بأنه كان في الجماعة المسلمة يومئذ من لا يتحرى الطاعة الكاملة ؛ أو من تثقل عليه بعض التكاليف ، وتشق عليه بعض التضحيات ، التي يقتضيها جهاد هذه الطوائف القوية المختلفة التي تقف

للإسلام ، وتناوشه من كل جانب ؛ والتي تربطها بالمسلمين مصالح ووشائج قرى يصعب فصمها والتخلي عنها نهائياً كما تقتضي العقيدة ذلك .

ولقد كان وقع هذا التوجيه عنيماً عميقاً في نفوس المسلمين الصادقين ؛ فارتعشت له قلوبهم ، وخافوا أن يقع منهم ما يبطل أعمالهم ، ويذهب بحسناتهم ..

قال الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة : حدثنا أبو قدامة ، حدثنا وكيع ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، قال : كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرون أنه لا يضر مع إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل ، فنزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .. فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وروي من طريق عبد الله بن المبارك ، أخبرني بكر بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن نافع ، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : « كنا معشر أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول ، حتى نزلت : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » .. فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ قلنا : الكبائر الموجبات والفواحش . حتى نزل قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .. فلما نزلت كففتنا عن القول في ذلك . فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجو لمن لم يصبها .

ومن هذه النصوص يتجلى كيف كانت نفوس المسلمين الصادقين تتلقى آيات القرآن : كيف تهتز لها وتضطرب ، وكيف ترتجف منها وتخاف ، وكيف تحذر أن تقع تحت طائلتها ، وكيف تتحرى أن تكون وفقها ، وأن تطابق أنفسها عليها .. وهذه الحساسية في تلقي كلمات الله كان المسلمون مسلمين من ذلك الطراز ! ثم بين الله لهم في الآية التالية مصير الذين يشاقون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويخرجون عن طاعته ، ثم يصرون على هذا ، ويذهبون من هذه الأرض كافرين :

« إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ، ثم ماتوا وهم كفار ، فلن يغفر الله لهم » ..

فالفرصة متاحة فقط للمغفرة في هذه الدنيا ؛ وباب التوبة يظل مفتوحاً للكافر وللعاصي حتى يغفر . فإذا بلغت الروح الحلقوم فلا توبة ولا مغفرة ، فقد ذهبت الفرصة التي لا تعود .

ومثل هذه الآية يخاطب المؤمنين كما يخاطب الكفار . فأما هؤلاء فهي نذارة لهم ليتداركوا أمرهم ويتوبوا قبل أن تغلق الأبواب . وأما أولئك فهي تحذير لهم وتنبيه لاتقاء كافة الأسباب التي تقرب بهم من هذا الطريق الخطر المشؤوم !

ندرك هذا من ترتيب النهي عن الوهن والدعوة إلى السلم في الآية التالية على ما ورد في الآية السابقة من بيان لمصير الكافرين المشاقين :

« فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعداء والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » ..

فهذا هو الذي يحذر المؤمنين إياه ، ويضع أمامهم مصير الكفار المشاقين للرسول ، ليحذروا شبحه من بعيد ! وهذا التحذير يشي بوجود أفراد من المسلمين كانوا يستثقلون تكاليف الجهاد الطويل ومشقته الدائمة ؛ وتهن عزائمهم دونه ؛ ويرغبون في السلم والمهادنة ليستريحوا من مشقة الحروب . وربما كان بعضهم ذوي قرابة في المشركين ورحم ، أو ذوي مصالح وأموال ؛ وكان هذا يمنح بهم إلى السلم والمهادنة . فالنفس البشرية هي

هي ؛ والتربية الإسلامية تعالج هذا الوهن وهذه الخواطر الفطرية بوسائلها . وقد نجحت نجاحاً خارقاً . ولكن هذا لا ينفي أن تكون هناك رواسب في بعض النفوس ، وبخاصة في ذلك الوقت المبكر من العهد المدني . وهذه الآية بعض العلاج لهذه الرواسب . فلننظر كيف كان القرآن يأخذ النفوس . فنحن في حاجة إلى تحري خطوات القرآن في التربية . والنفوس هي النفوس :

« فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم . وأنتم الأعلون . والله معكم . ولن يتركم أعمالكم » ..

أنتم الأعلون . فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم . أنتم الأعلون اعتقاداً وتصوراً للحياة . وأنتم الأعلون ارتباطاً وصلة بالعلي الأعلى . وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية . وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً .. ثم .. أنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة . فمعكم القوة الكبرى : « والله معكم » .. فليست وحدكم . إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار . وهو لكم نصير حاضر معكم . يدافع عنكم . فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم ؟ وكل ما تبدلون ، وكل ما تفعلون ، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم ، لا يضيع منه شيء عليكم : « ولن يتركم أعمالكم » .. ولن يقطع منها شيئاً لا يصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه .

فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم ، من يقرر الله - سبحانه - له أنه الأعلى . وأنه معه . وأنه لن يفقد شيئاً من عمله . فهو مكرم منصور مأجور ؟

هذه هي اللمسة الأولى . واللمسة الثانية تهوين من شأن هذه الحياة الدنيا ، التي قد يصيبهم بعض التضحيات فيها . وتوفية كاملة في الآخرة للأجور مع عدم إيهائهم ببذل المال مقابل هذه الأجور !

« إنما الحياة الدنيا لعب وهو . وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ، ولا يسألكم أموالكم » ..

والحياة الدنيا لعب وهو حين لا يكون وراءها غاية أكرم وأبقى . حين تعاش لذاتها مقطوعة عن منهج الله فيها . ذلك المنهج الذي يجعلها مزرعة الآخرة ؛ ويجعل إحسان الخلافة فيها هو الذي يستحق وراثة الدار الباقية . وهذا هو الذي تشير إليه الفقرة التالية في الآية : « وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم » .. فالإيمان والتقوى في الحياة الدنيا هو الذي يخرجها عن أن تكون لعباً ولهواً ؛ ويطبعها بطابع الجد ، ويرفعها عن مستوى المتاع الحيواني ، إلى مستوى الخلافة الراشدة ، المتصلة بالملأ الأعلى . ويومئذ لن يكون ما يبذله المؤمن المتقي من عرض هذه الحياة الدنيا ضائعاً ولا مقطوعاً ؛ فعنه ينشأ الأجر الأوفى ، في الدار الأبقى .. ومع هذا فإن الله لا يسأل الناس أن يبذلوا أموالهم كلها ، ولا يشق عليهم في فرائضه وتكاليفه ، لعلمه سبحانه بشح نفوسهم فطرة وخلقة . وهو لا يكلف نفساً إلا وسعها . وهو أرحم بهم من أن يكلفهم بذلها كلها ، فتضيق صدورهم وتظهر أضغانهم :

« إن يسألكموها فيحفظكم تبخلوا ، ويخرج أضغانكم » ..

وهذا النص يوحى بحكمة اللطيف الخبير ، كما يوحى برحمته ولطفه بالنفوس . ويكشف عن التقدير الدقيق في تكاليف هذا الدين ، ومراعاته للفطرة ، وتناسقه مع بشرية البشر بكل استعداداتها ، وطاقاتها ، وأحوالها . فهو عقيدة ربانية لإنشاء نظام رباني إنساني . نظام رباني من ناحية أن الله هو الذي يقيم منهجه وقواعده ؛ وإنساني من ناحية أن الله يراعي في تكاليفه طاقة الإنسان وحاجته . والله هو الذي خلق ، وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

وفي النهاية يواجههم بواقع حالهم تجاه دعوتهم إلى البذل في سبيل الله ؛ ويعالج شح النفوس بالمال بالوسائل القرآنية ، كما عالج شحها في ذات النفس عند الجهاد :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله . فنكم من يبخل . ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه . والله الغني وأنتم الفقراء . وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » ..

والآية ترسم صورة وصفية لواقع الجماعة المسلمة يومذاك . ولواقع الناس تجاه الدعوة إلى البذل في كل بيئة . فهي تقرر أن منهم من يبخل . ومعنى هذا أن هنالك من لا يبخلون بشيء . وقد كان هذا واقعاً ، سجلته الروايات الكثيرة الصادقة ، وسجله القرآن في مواضع أخرى . وقد حقق الإسلام في هذا المجال مثلاً تحسب من خوارق الأمثال في البذل والتضحية عن رضى وعن فرح بالبذل والعطاء . ولكن هذا لم يمنع أن يكون هنالك من يبخل بالمال . ولعل الجود بالنفس أرخص عند بعضهم من الجود بالمال !

والقرآن يعالج هذا الشح في هذه الآية :

« ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » ..

فما يبذله الناس إن هو إلا رصيد لهم مذخور ، يجدونه يوم يحتاجون إلى رصيد ، يوم يحشرون مجردين من كل ما يملكون . فلا يجدون إلا ذلك الرصيد المذخور . فإذا بخلوا بالبذل ، فإنما يبخلون على انفسهم ؛ وإنما يقللون من رصيدهم ؛ وإنما يستخسرون المال في ذواتهم وأشخاصهم ؛ وإنما يحرمونها بأيديهم !
أجل . فالله لا يطلب إليهم البذل ، إلا وهو يريد لهم الخير ، ويريد لهم الوفرة ، ويريد لهم الكثرة والذخر . وما يناله شيء مما يبذلون ، وما هو في حاجة إلى ما ينفقون :

« والله الغني وأنتم الفقراء » ..

فهو الذي أعطاكم أموالكم ، وهو الذي يدخر لكم عنده ما تنفقونه منها . وهو الغني عما أعطاكم في الدنيا ، الغني عن أرصدتكم المذخورة في الآخرة . وأنتم الفقراء في الدارين وفي الحالين . أنتم الفقراء إلى رزقه في الدنيا ، فما لكم من قدرة على شيء من الرزق إلا أن يهبكم إياه . وأنتم الفقراء إلى أجره في الآخرة ، فهو الذي يتفضل به عليكم ، وما أنتم بموفين شيئاً مما عليكم ، فضلاً على أن يفضل لكم شيء في الآخرة ، إلا أن يتفضل عليكم .

فقيم البخل إذن وفيم الشح ؟ وكل ما في أيديكم ، وكل ما ينالكم من أجر على ما تنفقون هو من عند الله ، ومن فضل الله ؟

ثم الكلمة الأخيرة وهي فصل الخطاب ..

إن اختيار الله لكم لحمل دعوته تكريم ومنّ وعطاء . فإذا لم تحاولوا أن تكونوا أهلاً لهذا الفضل ، وإذا لم تهضوا بتكاليف هذه المكانة ، وإذا لم تدركوا قيمة ما أعطيتم فيهن عليكم كل ما عداه . فإن الله يسترد ، ما وهب ، ويختار غيركم لهذه المنة ممن يقدر فضل الله :

« وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » ..

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان ، وأحس بكرامته على الله ، وبمقامه في هذا الكون وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم . ويمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه ؛ ونور الله في كيانه ؛ ويذهب ويحيى وعليه شارة مولاه ..

وما يطبق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه ، ويترد من الكنف ،

وتوصد دونه الأبواب . لا بل إن الحياة لتغدو جحيماً لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب .
إن الإيمان هبة ضخمة ، لا يعدلها في هذا الوجود شيء ؛ والحياة رخيصة رخيصة ، والمال زهيد زهيد ،
حين يوضع الإيمان في كفة ، ويوضع في الكفة الأخرى كل ما عداه ..
ومن ثم كان هذا الإنذار أهول ما يواجهه المؤمن ، وهو يتلقاه من الله ..

* * *

(٤٨) سُورَةُ الْفَتْحِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَتَزَلُ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدَّهُمْ إِيمَانًا مَعَ
إِيمَانِهِمْ ۖ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرْ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا ﴿٧﴾

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۖ فَمَنْ نَكَثَ فَلَمَّا يَنْكُثْ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا
عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيَهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّتِيمِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۖ
قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْعًا ۖ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۖ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ

ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَنْفَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوِّءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّبِعُونَكَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلِ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

هذه السورة مدنية ، نزلت في السنة السادسة من الهجرة ، عقب صلح الحديبية ؛ وهي تتناول هذا الحادث الخطير وملابساته ؛ وتصور حال الجماعة المسلمة وما حولها في إبانته : فبين وقت نزولها ووقت نزول سورة « محمد » التي تسبقها في ترتيب المصحف ، نحو من ثلاث سنوات ، تمت فيها تغيرات هامة وخطيرة في أحوال الجماعة المسلمة في المدينة . تغيرات في موقفها وموقف المناوئين لها ، وتغيرات أهم في حالتها النفسية وصفها الإيمانية ، واستوائها على المنهج الإيماني في إدراك ونضج عميق .

وقبل أن نتحدث عن السورة وجوها ودلالاتها يحسن أن نمر بصورة للحادث الذي نزلت بصده . لنعيش في الجو الذي كان المسلمون يعيشون فيه ، وهم يتلقون هذا التزليل الكريم :

لقد أري رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في منامه أنه يدخل الكعبة هو والمسلمون محلقي رؤوسهم ومقصرين . وكان المشركون قد منعوهم منذ الهجرة من دخول مكة ، حتى في الأشهر الحرم التي يعظمها العرب كلهم في الجاهلية ، ويضعون السلاح فيها ؛ ويستعظمون القتال في أيامها ، والصد عن المسجد الحرام . حتى أصحاب الثارات كانوا يتجمعون في ظلال هذه الحرمة ، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلا يرفع في وجهه سيفاً ، ولا يصده عن البيت المحرم . ولكنهم خالفوا عن تقاليدهم الراسخة في هذا الشأن ؛ وصدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه طوال السنوات الست التي تلت الهجرة . حتى كان العام السادس الذي أري

فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الرؤيا . وحدث بها أصحابه - رضوان الله عليهم - فاستبشروا بها وفرحوا .

ورواية ابن هشام لوقائع الحديبية هي أوفى مصدر نستند إليه في تصورها . وهي في جملتها تتفق مع رواية البخاري ورواية الإمام أحمد ومع تلخيص ابن حزم في جوامع السيرة وغيرهم .

قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة شهر رمضان وشوالاً (بعد غزوة بني المصطلق وما جاء في أعقابها من حديث الإفك) وخرج في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً . واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ؛ وهو يخشى من قريش الذي صنعوا أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدوه عن البيت . فأبطأ عليه كثير من الأعراب . وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ؛ وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ، ليأمن الناس من حربه ، وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له .

قال : وكان جابر بن عبد الله - فيما بلغني - يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة .

قال الزهري : وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا كان بعسفان^١ لقيه بشر بن سفيان الكعبي . فقال : يا رسول الله ! هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل^٢ ، قد لبسوا جلود النمر ؛ وقد نزلوا بذئ طوى ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم ، قد قدموها إلى كراع الغميم^٣ . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا ويح قريش ! لقد أكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة^٤ . ثم قال : « من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ » ..

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر ، أن رجلاً من أسلم قال : أنا يا رسول الله . قال : فسلك بهم طريقاً وعراً أجزل^٥ بين شعاب . فلما خرجوا منه - وقد شق ذلك على المسلمين - وأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » . فقالوا ذلك . فقال : « والله إنها للخطوة التي عرضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها »^٦

قال ابن شهاب الزهري : فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس فقال : « اسلكوا ذات اليمين » بين ظهري الحمض^٧ في طريق على ثنية المزار ، مهبط الحديبية^٨ من أسفل مكة ؛ قال : فسلك الجيش ذلك

(١) عسفان : موضع بين مكة والمدينة على مرحلتين من مكة .

(٢) العوذ التي لم تلد ، والمطافيل ذوات الأطفال . وهذا يقتضي أن يكون النص العوذ والمطافيل .

(٣) كراع الغميم دار أمام عسفان بثانية أميال .

(٤) السالفة صفحة العنق ، يعني : أو أقتل . فإنها لا تنفرد إلا بالقتل .

(٥) أجزل : كثير الحجارة .

(٦) يشير - صلى الله عليه وسلم - إلى ما جاء في القرآن الكريم : « وادخلوا الباب سجداً وقولوا : حطة نجفر لكم خطاياكم وستزيد المحسنين .

فبدن الذين ظلموا قولاً غير الذي قبل لهم .. »

(٧) الحمض : ما ملح من النبات وهو هنا اسم موضع .

(٨) قرية بينها وبين مكة مرحلة واحدة .

الطريق . فلما رأت خيل قريش قفرة^١ الجيش ، قد خالفوا عن طريقهم ، رجعوا راكضين إلى قريش . وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته . فقال الناس : خلأت الناقة^٢ . فقال : « ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها - (وفي رواية البخاري : والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم إياها) . ثم قال للناس : « انزلوا » قيل له : يا رسول الله ، ما بالوادي ماء ينزل عليه . فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه . فنزل في قليب^٣ من تلك القلب ، فغزره في جوفه ، فجاش بالرواء ..

فلما اطمأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه بديل بن ورقاء الخزاعي ، في رجال من خزاعة ، فكلموه ، وسألوه ما الذي جاء به ؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ، ومعظماً لحرمة . ثم قال لهم نحواً مما قال لبشر بن سفيان ؛ فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش ، إنكم تعجلون على محمد . إن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً لهذا البيت . فاتهموهم وجبهوهم ، وقالوا : وإن كان جاء ولا يريد قتالاً . فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خزاعة عيبة نصح^٤ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مسلمها ومشركها ، لا يخفون عنه شيئاً كان بمكة . ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف أخا بني عامر بن لؤي . فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقبلاً قال : « هذا رجل غادر » . فلما انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و كلمه ، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نحواً مما قال لبديل وأصحابه ؛ فرجع إلى قريش ، فأخبرهم بما قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زبان . وكان يومئذ سيد الأحابيش^٥ ، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة . فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن هذا من قوم يتألهون - يعني يتعبدون - فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه » . فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلاتده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ، ولم يصل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إعظماً لما رأى . فقال لهم ذلك . فقالوا له : اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك !

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن الحليس غضب عند ذلك . وقال : يا معشر قريش ، والله ما على هذا حالناكم ، ولا على هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد . قال : فقالوا له : مه . كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

قال الزهري : ثم بعثوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عروة بن مسعود الثقفي فقال : يا معشر قريش ، إني قد رأيت ما يلقي منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم ، من التعنيف وسوء اللفظ . وقد عرفتم أنكم والد وأني ولد (وكان نسبه لأمه في بني عبد شمس) وقد سمعت بالذي نابكم ، فجمعت من أطاعني من

(١) قفرة الجيش : غباره .

(٢) خلأت : كما تقول للداية حرت . ولا يقال خلأت إلا للناقة .

(٣) القليب : منخفض يحفظ بعض ماء المطر حين ينزل .

(٤) أي وعاء نصح . والمقصود أنهم ناصحون مخلصون . وقد دخلوا في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما سيجيء .

(٥) الأحابيش جمع حبشي بضم الحاء وسكون الباء نسبة إلى مكان في البادية .

قومي ، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمتهم . فخرج حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس بين يديه . ثم قال : يا محمد . أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ^١ ؟ إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمر ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً . وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً . قال : وأبو بكر خلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاعد . فزجره ^٢ وقال : أنحن نكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن أبي قحافة » . قال . أما والله لولا يد كانت لك عندي لكأفأتك بها . ولكن هذه بها . قال : ثم جعل يتناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يكلمه . قال : والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديد . قال : فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن لا تصل إليك ! قال : فيقول عروة : ويحك ! ما أظنك وأغلظك ! قال : فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » . قال : أي غدر ^٣ . وهل غسلت سؤاتك إلا بالأمس ؟

قال ابن هشام : أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين . والأحلاف رهط المغيرة . فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية . وأصلح ذلك الأمر .

قال ابن إسحاق : قال الزهري : فكلمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنحو مما كلم أصحابه ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً . فقام من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى ما يصنع به أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال : يا معشر قريش ، إني جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه ؛ ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً . فروا رأيكم .

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعا خراش بن أمية المخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير له يقال له : الثعلب . ليلبغ أشرافهم عنه ما جاء له . فعقروا به جمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأرادوا قتله ، فنعته الأحابيش ، فخلوا سبيله حتى جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال ابن إسحاق : وحدثني بعض من لا أتهم ، عن عكرمة مولى ابن عباس (عن ابن عباس) أن قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم ، أو خمسين رجلاً ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً . فأخذوا أخذاً ، فأتي بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعفا عنهم ، وخلي سبيلهم . وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحجارة والنبل .

ثم دعا عمر بن الخطاب ليعثه إلى مكة فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له . فقال : يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي

(١) بيضة الرجل : أهله وقيبلته . وتفضها أي تكسرها . وهي كناية عن تحطيمهم .

(٢) في الرواية جملة تستبعد صدورها على لسان أبي بكر رضي الله عنه في أدبه وعفة لسانه .

(٣) أي : باغادر .

عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني . عثمان بن عفان . فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عثمان ابن عفان ، فبعثه إلى أبي سفيان وأشرف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمة .

قال ابن إسحاق : فخرج عثمان إلى مكة ، فلقه أبان بن سعيد بن العاص ، حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها ؛ فحملة بين يديه ، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش ، فبلغهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فطف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واحتبسته قريش عندها ، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم - والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي بكر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - حين بلغه أن عثمان قد قتل - : « لا نبرح حتى نناجز القوم » . فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس إلى البيعة ، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة . فكان الناس يقولون : بايعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الموت . وكان جابر بن عبد الله يقول : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يبايعنا على الموت ، ولكن بايعنا على ألا نفر . فبايع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الناس ، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها إلا الجعد بن قيس أخو بني سلمة . فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكأنني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضباً إليها^١ ، يستتر بها من الناس . ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل . قال ابن هشام : وحدثني من أثق به ، عن حدثه بإسناد له ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عمر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بايع لعثمان ، فضرب بإحدى يديه على الأخرى .

قال ابن إسحاق : قال الزهري : ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو وأخا بني عامر بن لؤي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا له : إيت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقبلاً قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكلم فأطال الكلام . وتراجعا . ثم جرى بينهما الصلح .

فلما التأم الأمر ، ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه^٢ ، فإني أشهد أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أليست برسول الله ؟ قال : بلى ! قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ! قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ! قال : فعلام نعطي الدنيا في ديننا ؟ قال : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » . قال : فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حين رجوت أن يكون خيراً .

(١) ضباً إليها : لصق بها واستتر .

(٢) الزم غرزه : أي التزم طريقه . وأصله وضع القدم في الركاب موضع قدمه .

قال : ثم دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - فقال : « اكتب باسم الله الرحمن الرحيم » قال : فقال سهيل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اكتب باسمك اللهم » فكتبها . ثم قال : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » . قال : فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ؛ ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليه ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة^١ . وأنه لا إسلال ولا إغلal^٢ ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه - فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن في عقد محمد وعهده ، وتواثبت بنو بكر فقالوا : نحن في عقدة قريش وعهدهم - وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح تراكب : السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها .

فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انفلت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرجوا وهم لا يشكون في الفتح ، لرؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون . فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت^٣ القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : « صدقت » فجعل ينتره بتليبيه ويحجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ فزاد الناس في ما بهم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ومن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطينا عهد الله . وإنا لا نغدر بهم » . قال : فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ، ويقول : صبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدهم دم كلب . قال : ويدني قائم السيف منه . قال : يقول عمر : رجوت أن يأخذ السيف فيضرب أباه . قال : فضن الرجل بأبيه ، ونفذت القضية^٤ .

فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين : أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، ومحمود بن مسلمة ، ومكرز بن حفص (وهو يومئذ مشرك) وعلي بن أبي طالب ، وكتب ، وكان هو كاتب لصحيفة .

قال الزهري : فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : « قوموا

١ : أي تكف عنا ونكف عنك . والأصل أن بيننا وعاء مقفلاً فاستعاره لهذا المعنى .

٢ : لإسلال : السرقة الخفية ، والإغلal : الخيانة .

٣ : جت القضية : انعقدت وانتهى أمرها .

٤ : روي عن أبي جندل أن الذي منعه حرصه على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا الضن بأبيه !

سورة الفتح

فانحروا ثم احلقوا» قال : فوالله ما قام منهم رجل ، حتى قال - صلى الله عليه وسلم - ذلك ثلاث مرات . فلما لم يقم منهم أحد دخل - صلى الله عليه وآله وسلم - على أم سلمة - رضي الله عنها - فذكر لها ما لقي من الناس . قالت (أم سلمة) - رضي الله عنها - : يا نبي الله ، أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنِكَ ، وتدعو حالقك فيحلقك . فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، نحر بيده ، ودعا حالقه فحلقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً .

قال ابن إسحاق : فحدثني عبد الله بن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس . قال : خلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « يرحم الله المحلقين » . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : « والمقصرين » . فقالوا : يا رسول الله ، فلم ظهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » ..

قال الزهري في حديثه .. ثم انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وجهه ذلك قافلاً . حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن مجمع بن حارثة الأنصاري - رضي الله عنه - وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن . قال : شهدنا الحديبية ، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر ، فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا : أوحى إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وآله وسلم - فخرجنا مع الناس نوجف . فإذا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على راحلته عند كراع الغميم ، فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » .. قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » ..

وروى الإمام أحمد بإسناده - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سفر . قال : فسألت عن شيء ثلاث مرات فلم يرد علي . قال : فقلت ثكلتك أمك يا بن الخطاب . ألححت . كررت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات ، فلم يرد عليك ! قال : فركبت راحلتي ، فحركت بعيري ، فتقدمت ، مخافة أن يكون نزل في شيء . قال : فإذا أنا بمناد يا عمر . قال : فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء . قال : فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .. ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله ..

* * *

هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة . الجو الذي اطمأنت فيه نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى إلهام ربه ، فجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوي الصادق ؛ ومضى يستلهم هذا الإيحاء في كل خطوة وفي كل حركة ، لا يستغفزه عنه مستغفر ، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية . ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم ، ففأوا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق ؛ كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر ، شأن الصديق أبي بكر الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلته الداخلية المباشرة بروح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن ثم

بقيت على اطمئنانها دائماً ، ولم تفارقها الطمأنينة أبداً .

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرح لها قلبه الكبير فرحاً عميقاً : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

كما جاء في الافتتاح ، الامتنان على المؤمنين بالسكينة ، والاعتراف لهم بالإيمان السابق وتبشيرهم بالمغفرة والثواب ، وعون السماء بجنود الله : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً - مع إيمانهم - والله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليماً حكيماً ، ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » . ذلك مع ما أعد له لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب : « ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء ، وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم ، وساءت مصيراً » .

ثم التنويه ببيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واعتبارها بيعة الله ؛ وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق ، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت : « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتُغزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » . وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية - إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج ، فيفضح معاذيرهم ، ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله ، ومن توقع السوء للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه . ويوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل . وذلك في أسلوب يوحى بقوة المسلمين وضعف المخلفين ، كما يوحى بأن هنالك غنائم وفتوحاً قريبة يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ، قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً ، إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً . والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً رحيماً . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا تتبعكم ، يريدون أن يبذلوا كلام الله ، قل : لن تتبعونا . كذلك قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدونا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً . قل للمخلفين من الأعراب : سندعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً » .

وفي هذا الصدد يبين المعذورين إذا تخلفوا ، والمعينين من الجهاد لعجزهم عنه ، وهو العذر الوحيد : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً » .

وبعد هذه اللفتة يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوارج نفوسهم ؛ حديثاً كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم ؛ وكله بشرى لهذه النفوس الخالصة القوية ، البائعة المتجردة . حديثاً يتجلى فيه

الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر . يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثنيته . ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض ، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكان بعينه : « تحت الشجرة » وأنه اطلع على ما في نفوسهم . وأنه رضيهم ورضي عنهم ، وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح ، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود . وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً . ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً . وعداكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً . ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .. ويمتن عليهم بأخذ عدوهم النفر الذين أرادوا بهم الأذى ؛ ويندد بأعدائهم الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، وصدوا الهدي أن يبلغ محله ، ويتلطف معهم فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم ؛ وفضله في ترضيتهم بما كان ، وإنزال سكينته في قلوبهم ، لأمر يراه ، وهو أعظم مما يرون . وهو فتح مكة ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدييره : « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً . هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله . ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ، ليدخل الله في رحمته من يشاء ، لو تَزَيَّلُوا لَعَذَبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليماً . لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً » ..

وتختتم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر ، وتفرد بها بسمتها الخاصة ، وتنوّه بها في الكتب السابقة : التوراة والإنجيل . وبوعده الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة . ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، ليغيظ بهم الكفار . وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » ..

وهكذا تصبح نصوص السورة مفهومة واضحة ، تعيش في جوها الذي نزلت فيه ، وتصوره أقوى تصوير ، بأسلوب القرآن الخاص الذي لا يفصل الحوادث بترتيبها وتسلسلها ؛ ولكنه يأخذ منها لمحات توجيهية وتربوية ؛ ويربط الحادثة المفردة بالقاعدة الشاملة . والموقف الخاص بالأصل الكوني العام . ويخاطب النفوس والقلوب بطريقته الفذة ومنهجه الفريد .

* * *

ومن سياق السورة وجوها ، وبالموازنة بينها وبين إحياءات سورة محمد التي قبلها في ترتيب المصحف ؛ يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة ، في مدى السنوات الثلاث ، التي نرجح

أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول . ويتبين مدى فعل القرآن الكريم ، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة التي سعدت بالنشوء والنمو في ظلال القرآن ، وفي رعاية النبوة . فكانت ما كانت في تاريخ البشرية الطويل .

واضح في جو سورة الفتح وإحياءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة ، وتجانست مستوياتها الإيمانية ، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين ؛ ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال ؛ بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها ، وينهه حذتها ، ويأخذ بزمامها لتستسلم للهدوء ، والمهادنة بعض الوقت ، وفق حكمة القيادة العليا للدعوة .

لم تعد الجماعة المسلمة تواجه بمثل قوله تعالى : « فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » .. ولا بمثل قوله تعالى : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم » . ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء وما أعد الله لهم عنده من الكرامة ؛ ولا بيان حكمة الابتلاء بالقتال ومشقاته كما في سورة محمد إذ يقول الله تعالى : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ، ويدخلهم الجنة عرفها لهم » .

إنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين ، أو أنزلها عليهم . والمقصود بها تهدئة فورتهم ، وتخفيض حميتهم ، واطمئنان قلوبهم لحكم الله وحكمة رسوله - صلى الله عليه وسلم - في المهادنة والملاينة ، وعن رضى الله عن المبايعين تحت الشجرة . وكانت هذه الصورة الوضيئة في نهاية السورة للرسول ومن معه .

أما الحديث عن الوفاء بالبيعة والنكث فيها في قوله تعالى : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » .. فالإحياء فيه أكثر إلى تكريم المبايعين وتعظيم شأن البيعة . والإشارة إلى النكث جاءت بمناسبة الحديث عن الأعراب المتخلفين ، وكذلك الإشارة إلى المنافقين والمنافقات فهي إشارة عابرة ، تدل على ضعف موقف هذه الطائفة ، وعلى خلوص الجماعة المسلمة بالمدينة ونضوجها وتجانسها . وهي على كل حال إشارة عابرة لا تشغل من السورة شيئاً مما شغله الحديث عن المنافقين في سورة محمد ، حيث كان للمنافقين شأنهم هم وحلفاؤهم اليهود . وهذا تطور آخر في موقف الجماعة المسلمة من ناحية موقفها الخارجي يساير ذلك التطور الذي تم في نفوسها من الداخل وواضح كذلك قوة المسلمين بالقياس إلى قوة المشركين في جو السورة كلها وفي آيات بنصها ، والإشارات إلى الفتوح المقبلة ، وإلى رغبة المخلفين في الغنائم السهلة واعتذارهم ، وإلى ظهور هذا الدين على الدين كله .. كلها تشي بما بلغت إليه قوة المسلمين في هذه الفترة بين نزول السورتين .

ففي حقيقة النفوس ، وفي حال الجماعة ، وفي الظروف المحيطة بها ، حدث تطور واضح ، يدركه من يتلمس خط السيرة في النصوص القرآنية . ولهذا التطور قيمته كما أن له دلالة على أثر المنهج القرآني والتربية المحمدية ، لهذه الجماعة السعيدة الفريدة في التاريخ . ثم إن لهذا التطور إحياء للقائمين على الجماعات البشرية . فلا تضيق صدورهم بالنقص فيها والضعف ورواسب الماضي ومخلفاته ، وآثار البيئة والوسط ، وجواذب الأرض ، وثقله اللحم والدم .. وكلها تبدو في أول العهد قوية عميقة عنيفة . ولكنها مع المثابرة والحكمة والصبر على العلاج ، تأخذ في التحسن والتطور . والتجارب والابتلاءات تعين على التحسن والتطور ، حين تتخذ فرصة

للتربية والتوجيه . وشيثاً فشيثاً تخف ثقله الطين ، وتشف كثافة اللحم والدم ، وتتوارى آثار البيئة ، وتصفو رواسب الماضي ، وتستشرف القلوب آفاقاً أعلى فأعلى ، حتى ترى النور هناك على الأفق الوضيء البعيد . ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، ولنا في المنهج القرآني صراط مستقيم .

* * *

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » ..

تفتتح السورة بهذا الفيض الإلهي على رسوله - صلى الله عليه وسلم - : فتح مبين . ومغفرة شاملة . ونعمة تامة . وهداية ثابتة . ونصر عزيز .. إنها جزاء الطمأنينة التامة لإلهام الله وتوجيهه . والاستسلام الراضي لإيحائه وإشارته . والتجرد المطلق من كل إرادة ذاتية . والثقة العميقة بالرعاية الحانية .. يرى الرؤيا فيتحرك بوحيا . وتبرك الناقة ، ويتصايح الناس : خلأت القصواء . فيقول . « ما خلأت . وما هو لها بخلق . ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .. ويسأله عمر بن الخطاب في حمية : فلم نعطي الدنية في ديننا ؟ فيجيبه : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » .. ذلك وحين يشاع أن عثمان قتل يقول - صلى الله عليه وسلم - : « لا نبرح حتى نناجز القوم » .. ويدعو الناس إلى البيعة ، فتكون بيعة الرضوان التي فاض منها الخير على الذين فازوا بها وسعدوا .

وكان هذا هو الفتح ؛ إلى جانب الفتح الآخر الذي تمثل في صلح الحديبية ، وما أعقبه من فتوح شتى في صور متعددة :

كان فتحاً في الدعوة . يقول الزهري : فافتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه . إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، ولم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه . ولقد دخل في تينك السنتين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى الحديبية في ألف وأربع مائة في قول جابر بن عبد الله . ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف . وكان ممن أسلم خالد بن الوليد وعمر بن العاص .

وكان فتحاً في الأرض . فقد أمن المسلمون شر قريش ، فاتجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تخلص الجزيرة من بقايا الخطر اليهودي - بعد التخلص من بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة - وكان هذا الخطر يتمثل في حصون خبير القوة التي تهدد طريق الشام . وقد فتحها الله على المسلمين ، وغنموا منها غنائم ضخمة ، جعلها الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيمن حضر الحديبية دون سواهم .

وكان فتحاً في الموقف بين المسلمين في المدينة وقريش في مكة وسائر المشركين حولها . يقول الأستاذ محمد عزة دروزة بحق في كتابه : « سيرة الرسول . صور مقتبسة من القرآن الكريم » :

« ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق . بل إنه ليصح أن يعد من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية ، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده ، أو بالأحرى من أعظمها . فقد اعترفت قريش بالنبي والإسلام وقوتهما وكيانهما ، واعتبرت النبي والمسلمين أنداداً لها ، بل دفعتهم عنها بالتالي هي أحسن ، في حين أنها غزت المدينة في سنتين مرتين ، وكانت الغزوة الأخيرة

قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم ، وبعثت هذه الغزوة في نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقتلهم إزاء الغزاة . ولهذا شأن عظيم في نفوس العرب ، الذين كانوا يرون في قريش الإمام والقدوة ، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودي كل التأثر . وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرّون أن النبي والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة ، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون . بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح وبعد مداه .

« ولقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما فعل ، وأيده فيه القرآن ، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التي عادت على المسلمين منه . إذ قووا في عيون القبائل ، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار ، وازداد صوت المنافقين في المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة ، وإذا صار العرب يفدون على النبي - صلى الله عليه وسلم - من أنحاء قاصية ، وإذا تمكن من خضد شوكة اليهود في خير وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام ، وإذا صار يستطيع أن يبعث بسرّايه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء ، وإذا استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها ، وكان في ذلك النهاية الحاسمة ، إذ جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ^١ ..

ونحن نعود فنؤكد أنه كان هناك - إلى جانب هذا كله - فتح آخر . فتح في النفوس والقلوب ، تصوره بيعة الرضوان ، التي رضي عنها الله وعن أصحابها ذلك الرضى الذي وصفه القرآن . ورسم لهم على ضوئه تلك الصورة الوضيئة الكريمة في نهاية السورة : « محمد رسول الله . والذين معه ... الخ » . فهذا فتح في تاريخ الدعوات له حسابه ، وله دلالته ، وله آثاره بعد ذلك في التاريخ .

ولقد فرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذه السورة . فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين معه . فرح بالفتح المبين . وفرح بالمغفرة الشاملة ، وفرح بالنعمة التامة ، وفرح بالهداية إلى صراط الله المستقيم . وفرح بالنصر العزيز الكريم . وفرح برضى الله عن المؤمنين ووصفهم ذلك الوصف الجميل . وقال - في رواية - : « نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها » .. وفي رواية : « لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس » .. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته . فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة ، تقول عنها عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه ، فقالت له عائشة - رضي الله عنها - يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » ^٢ ..

* * *

ذلك الافتتاح كان نصيب النبي - صلى الله عليه وسلم - خاصة ؛ ثم مضى السياق يصف نعمة الله على المؤمنين بهذا الفتح ، ومس يده لقلوبهم بالسكينة ، وما ادخره لهم في الآخرة من غفران وفوز ونعيم : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، والله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عليمًا حكيمًا . ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم

(١) ص ٢٩٢ - ٢٩٣ من الجزء الثاني .

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب .

سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ..

والسكينة لفظ معبر مصور ذو ظلال ؛ والسكينة حين ينزلها الله في قلب ، تكون طمأنينة وراحة ، وقيناً وثقة ، ووقاراً وثباتاً ، واستسلاماً ورضى .

ولقد كانت قلوب المؤمنين في هذه الواقعة تجيش بمشاعر شتى ، وتفور بانفعالات متنوعة . كان فيها الانتظار والتطلع إلى تصديق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدخول المسجد الحرام ؛ ثم مواجهة موقف قريش وقبول الرسول - صلى الله عليه وسلم - للرجوع عن البيت في هذا العام ، بعد الإحرام ، وبعد إشعار الهدي وتقليده . كان هذا أمراً شاقاً على نفوسهم ما في ذلك ريب . وقد روي عن عمر - رضي الله عنه - أنه جاء أبا بكر وهو مهتاج ، فكان مما قال له - غير ما أثبتناه في صلب رواية الحادث - : « أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ » قال أبو بكر - الموصول القلب بقلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي ينبض قلبه على دقات قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : بلى . فأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . قال : فإنك تأتيه وتطوف به . فتركه عمر - رضي الله عنه - إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له فيما قال : « أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ » قال - صلى الله عليه وسلم - : « بلى . فأخبرتك أنا تأتيه العام ؟ » قال : لا . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فإنك آتية ومطوف به » .. فهذه صورة مما كان يجيش في القلوب ..

وكان المؤمنون ضيقى الصدور بشروط قريش الأخرى ، من رد من يسلم ويأتي محمداً بغير إذن وليه . ومن حميتهم الجاهلية في رد اسم الرحمن الرحيم . وفي رد صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد روي أن علياً - رضي الله عنه - أبى أن يمحو هذه الصفة كما طلب سهيل بن عمرو بعد كتابتها ، فحاشا رسول الله بنفسه وهو يقول : « اللهم إنك تعلم أني رسولك » ..

وكانت حميتهم لدينهم وحماستهم للقاء المشركين بالغة ، يبدو هذا في بيعتهم الإجماعية ؛ ثم انتهى الأمر إلى المصالحة والمهادنة والرجوع . فلم يكن هيناً على نفوسهم أن تنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه . يبدو هذا في تباطئهم في النحر والحلق ، حتى قالها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثاً . وهم من هم طاعة لأمر رسول الله وامثالاً . كالذي حكاه عنهم لقريش عروة ابن مسعود الثقفي . ولم ينحروا ويحللوا أو يقصروا إلا حين رأوا رسول الله يفعل هذا بنفسه ، فهزتهم هذه الحركة العملية ما لم يهزم القول ، وثابوا إلى الطاعة كالذي كان في دهشة المأخوذ !

وهم كانوا قد خرجوا من المدينة بنية العمرة ، لا ينوون قتالاً ، ولم يستعدوا له نفسياً ولا عملياً . ثم فوجئوا بموقف قريش ، وبما شاع من قتلها لعثمان ، وإرسال النفر الذين رموا في عسكر المسلمين بالنبل والحجارة . فلما عزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المناجزة وطلب البيعة أعطوها له عن بكرة أبيهم . ولكن هذا لا ينفي موقف المفاجأة على غير ما كانت نفوسهم قد خرجت له . وهو بعض ما كان يجيش في قلوبهم من انفعالات وتأثرات . وهم ألف وأربعمائة وقريش في دارها ، ومن خلفهم الأعراب والمشركون .

وحين يسترجع الإنسان هذه الصور يدرك معنى قوله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين » .. ويزدق طعم اللفظ وطعم العبارة ، ويتصور الموقف يومئذ ويعيش فيه مع هذه النصوص ، ويحس برد السكينة وسلامها في تلك القلوب .

ولما كان الله يعلم من قلوب المؤمنين يومئذ ، أن ما جاش فيها جاش عن الإيمان ، والحمية الإيمانية لا لأنفسهم ،

ولا لجاهلية فيهم . فقد تفضل عليهم بهذه السكينة : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » والطمأنينة درجة بعد الحمية والحماسة ، فيها الثقة التي لا تقلق ، وفيها الرضى المطمئن باليقين .

ومن ثم يلوح بأن النصر والغلب لم يكن عسيراً ولا بعيداً ، بل كان هيناً يسيراً على الله لو اقتضت حكمته يومئذ أن يكون الأمر كما أراده المؤمنون ، فإن الله جنوداً لا تحصى ولا تغلب ، تدرك النصر وتحقق الغلب وقتما يشاء : « والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » .. فهي حكمته وهو علمه ، تسير الأمور وفقهما كما يريد .

وعن العلم والحكمة : « أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » . ليحقق لهم ما قدره من فوز ونعيم :

« ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً » ..

وإذا كان هذا في حساب الله فوزاً عظيماً ، فهو فوز عظيم ! فوز عظيم في حقيقته ، وفوز عظيم في نفوس من ينالونه من عند الله مقدرراً بتقديره ، موزوناً بميزانه .. ولقد فرح المؤمنون يومها بما كتب الله لهم ؛ وكانوا قد تطلعوا بعدما سمعوا افتتاح السورة ، وعلموا منه ما أفاض الله على رسوله . تطلعوا إلى نصيبهم هم ، وسألوا عنه ، فلما سمعوا وعلموا فاضت نفوسهم بالرضى والفرح واليقين .

ثم أنبأهم بجانب آخر من جوانب حكمته فيما قدر في هذا الحادث ؛ وهو مجازاة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، بما يصدر عنهم من عمل وتصرف :

« ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، الظانين بالله ظن السوء ، عليهم دائرة السوء . وغضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً . والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً » .. وقد جمع النص بين المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في صفة ظن السوء بالله ؛ وعدم الثقة بنصرته للمؤمنين . وفي أنهم جميعاً « عليهم دائرة السوء » فهم محصورون فيها ، وهي تدور عليهم وتقع بهم . وفي غضب الله عليهم ولعنته لهم ، وفيما أعد لهم من سوء المصير .. ذلك أن النفاق صفة مردولة لا تقل عن الشرك سوءاً ، بل إنها أخط ؛ ولأن أذى المنافقين والمنافقات للجماعة المسلمة لا يقل عن أذى المشركين والمشركات ، وإن اختلف هذا الأذى وذاك في مظهره ونوعه .

وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله . فالقلب المؤمن حسن الظن بربه ، يتوقع منه الخير دائماً . يتوقع منه الخير في السراء والضراء . ويؤمن بأن الله يريد به الخير في الحالين . وسر ذلك أن قلبه موصول بالله . وفيض الخير من الله لا ينقطع أبداً . فتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الأصيلة ، وأحسها إحساس مباشرة وتدوق . فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله . ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها ، فيسوء ظنهم بالله ؛ وتتعلق قلوبهم بظواهر الأمور ، ويننون عليها أحكامهم . ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين ، كلما كانت ظواهر الأمور توحى بهذا ؛ على غير ثقة بقدر الله وقدرته ، وتديره الخفي اللطيف .

وقد جمع الله في الآية أعداء الإسلام والمسلمين من شتى الأنواع ؛ وبين حالهم عنده ، وما أعد لهم في النهاية . ثم عقب على هذا بما يفيد قدرته وحكمته :

« والله جنود السماوات والأرض ، وكان الله عزيزاً حكيماً » ..

فلا يعييه من أمرهم شيء ، ولا يخفى عليه من أمرهم شيء ، وله جنود السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

* * *

ثم عاد بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منوهاً بوظيفته ، مبيناً للغاية منها ، موجهاً المؤمنين إلى واجبه مع ربهم بعد تبليغهم رسالته ، مع ردهم في بيعتهم إلى الله مباشرة ، وعقد العقدة معه جل جلاله ، وذلك حين يبايعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويتعاقدون معه . وفي ذلك تشریف لبيعة الرسول وتكريم واضح لهذا التعاقد :

« إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتُعزّروه وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلاً . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » ..

فالرسول - صلى الله عليه وسلم - شاهد على هذه البشرية التي أرسل إليها ، يشهد أنه بلغها ما أمر به ، وأنها استقبلته بما استقبلته ، وأنه كان منها المؤمنون ، ومنها الكافرون ، ومنها المنافقون . وكان منها المصلحون ومنها المفسدون . فيؤدي الشهادة كما أدى الرسالة . وهو مبشر بالخير والمغفرة والرضى وحسن الجزاء للمؤمنين الطائعين ، ونذير بسوء المقلب والغضب واللعنة والعقاب للكافرين والمنافقين والعصاة والمفسدين ..

هذه وظيفة الرسول . ثم يلتفت بالخطاب إلى المؤمنين ، يكشف لهم عن الغاية المرجوة لهم من الرسالة . إنها الإيمان بالله ورسوله ، ثم النهوض بتكاليف الإيمان ، فينصرون الله بنصرة منهجه وشريعته ، ويوقرونه في نفوسهم بالشعور بجلاله ؛ ويتزهون بالتسبيح والتحميد طرفي النهار في البكور والأصيل ، وهي كناية عن اليوم كله ، لأن طرفي النهار يضمنان ما بينهما من آونة . والغرض هو اتصال القلب بالله في كل آن . فهذه هي ثمرة الإيمان المرجوة للمؤمنين من إرسال الرسول شاهداً ومبشراً ونذيراً .

وقد جاء - صلى الله عليه وسلم - ليصلهم بالله ، ويعقد بينهم وبينه بيعة ماضية لا تنقطع بغيبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهم . فهو حين يضع يده في أيديهم مبايعاً ، فإنما يبايع عن الله : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . يد الله فوق أيديهم » .. وهو تصوير رهيب جليل للبيعة بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والواحد منهم يشعر وهو يضع يده في يده ، أن يد الله فوق أيديهم . فالله حاضر البيعة . والله صاحبها . والله أخذها . وبه فوق أيدي المتبايعين .. ومن ؟ الله ! يا للهول ! يا للروعة ! ويا للجلال !

وإن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة - مهما غاب شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالله حاضر لا يغيب . والله أخذ في هذه البيعة ومعط ، وهو عليها رقيب . « فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » ..

فهو الخاسر في كل جانب . هو الخاسر في الرجاء عن الصفقة الرابحة بينه وبين الله تعالى . وما من بيعة بين الله وعبد من عباده إلا والعبد فيها هو الرابح من فضل الله ، والله هو الغني عن العالمين . وهو الخاسر حين ينكث وينقض عهده مع الله فيتعرض لغضبه وعقابه على النكث الذي يكرهه وعمقته ، فالله يحب الوفاء ويحب الأوفياء .

« ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً » ..

هكذا على إطلاقه : « أجراً عظيماً » .. لا يفصله ولا يحدده . فهو الأجر الذي يقول عنه الله إنه عظيم .

عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره أبناء الأرض المقلون المحدودون القانون !

* * *

وعندما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسوء ظنهم بالله ، ولتوقعهم الشر والضرر للمؤمنين الخارجين ، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها ، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين .. يلتفت إليهم لينبئ الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما سيعتدرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه ، وقد هادنته قريش ولم تقاتله ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مهما كانت شروطها - التراجع من قريش ، واعتبار محمد - صلى الله عليه وسلم - ندأ لها تهادنه وتتقي خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويفقههم مكشوفين أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمام المؤمنين . كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه ؛ وهو أنهم سيخرجون إلى مغامر قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة . ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه القريب الميسور الذي سيقصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد . فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً . والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً رحيماً . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغامر لتأخذوها : ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلك قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدونا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً . قل للمخلفين من الأعراب : استدعوني إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً » ..

والقرآن لا يكفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس ، وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب - وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم من حول المدينة - سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : « شغلنا أموالنا وأهلونا » .. وليس هذا بعذر . فللناس دائماً أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها .. سيقولون « فاستغفر لنا » .. وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبئ الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - : « يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم » ..

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف ، ولا يغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس وتتصرف في أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه :

« قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً » ..

وهو سؤال يوحى بالاستسلام لقدر الله ، والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلوؤف . فالتوقف أو التلوؤف لن يدفع ضرراً ، ولا يؤخر نفعاً . وانتحال المعاذير لا يخفى على علم الله . ولا يؤثر في جزائه وفق علمه المحيط . وهو توجيه تربوي في وقته وفي جوه وفي مناسبه على طريقة القرآن .

« بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً » ..

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين ، وجهاً لوجه أمام ما أضمرنا من نية ، وما ستروا من تقدير ، وما ظنوا بالله من السوء . وقد ظنوا أن الرسول ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم ، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة ؛ وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه فيقاتلهم ! - يشيرون إلى أحد والأحزاب - ولم يحسبوا حساباً لرعاية الله وحمايته للصادقين المتجردين من عباده . كما أنهم - بطبيعة تصورهم للأمور وخلو قلوبهم من حرارة العقيدة - لم يقدروا أن الواجب هو الواجب ، بغض النظر عن تكاليفه كائنه ما كانت ؛ وأن طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجب أن تكون بدون النظر إلى الريح الظاهري والخسارة الشكلية ، فهي واجب مفروض يؤدي دون نظر إلى عاقبة أخرى وراءه .

لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن في قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا في سواه . وكان هذا هو ظن السوء بالله ، الناشئ من أن قلوبهم بور . وهو تعبير عجيب موح . فالأرض البور ميتة جرداء . وكذلك قلوبهم . وكذلك هم بكل كيانه . بور . لا حياة ولا خصب ولا إثمار . وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟ يكون بوراً . ميتاً أجرد نهايته إلى البوار والدمار .

وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة . الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله . البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة . هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة ، وأن قوى الأرض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال ؛ وأن المؤمنين قلة في العدد ، أو قلة في العدة ، أو قلة في المكان والجاه والمال . هكذا يظن الأعراب وأشباههم في كل زمان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبداً إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة . ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة ؛ ويتوقعون في كل لحظة أن يستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذونهم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهلك ! ولكن الله يخيب ظن السوء هذا ؛ ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو ، وبتدبيره هو ، وحسب ميزان القوى الحقيقية . الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية ، فيخفض به قوماً ويرفع به آخرين ، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وفي كل حين !

إن الميزان هو ميزان الإيمان . ومن ثم يرد الله أولئك الأعراب إليه ؛ ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان ، مع التلويع لهم برحمة الله القوية والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة ، والتمتع بمغفرة الله ورحمته : « ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً . والله ملك السماوات والأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً رحماً » ..

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم . فإذا تنفعهم أموالهم وأهلهم في هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟ إنهما كفتان فليختاروا هذه أو تلك على يقين . فإن الله الذي يوعدهم هذا الإيعاد ، هو مالك السماوات والأرض وحده . فهو الذي يملك المغفرة لمن يشاء ، وهو الذي يملك العذاب لمن يشاء .

والله يجزي الناس بأعمالهم ولكن مشيئته مطلقة لا ظل عليها من قيد ، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر

في القلوب . غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل ، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .
ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمها من يريد ، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله ،
بالسعي الحاضرة المعدة للكافرين .

ثم يلوح ببعض ما قدر الله للمؤمنين ، مخالفاً لظن المخلفين . بأسلوب يوحي بأنه قريب :
« سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا تتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل :
لن تتبعونا . كذلك قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدونا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً » . .
أغلب المفسرين يرون أنها إشارة إلى فتح خيبر . وقد يكون هذا . ولكن النص يظل له إحاؤه ولو لم يكن
نصاً في خيبر . فهو يوحي بأن المسلمين سيفتح عليهم فتح قريب يسير . وأن هؤلاء المخلفين سيدركون هذا ،
فيقولون : « ذرونا تتبعكم » . .

ولعل الذي جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية . إذ كانت في المحرم
من سنة سبع . بعد أقل من شهرين من صلح الحديبية . وأنها كانت وافرة الغنائم . وكانت حصون خيبر آخر
ما بقي لليهود في الجزيرة من مراكز قوية غنية . وكان قد لجأ إليها بعض بني النضير وبني قريظة ممن أجلاوا
عن الجزيرة من قبل .

وتتواتر أقوال المفسرين أن الله وعد أصحاب البيعة في الحديبية أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشرکہم فيها
أحد . ولم أجد في هذا نصاً . ولعلمهم يأخذون هذا مما وقع فعلاً . فقد جعلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
في أصحاب الحديبية ، ولم يأخذ معه أحداً غيرهم .

وعلى أية حال فقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة .
وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله . وأخبر نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج :
« بل تحسدونا » . . فتمنعونا من الخروج لتحرمونا من الغنيمة . ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة فقههم
لحكمة الله وتقديره . فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا ، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله ،
وأن يختصوا بالمغنم حين يقدره الله ، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام ، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة في
الجهاد .

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء ، يقاتلونهم على الإسلام ، فإذا نجحوا
في هذا الابتلاء كان لهم الأجر ، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير :
« قل للمخلفين من الأعراب : ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن طيعوا يؤتكم
الله أجراً حسناً ، وإن تولوا كما توليت من قبل يعذبكم عذاباً أليماً » .

وتختلف الأقوال كذلك في من هم القوم أولو بأس الشديد . وهل كانوا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
عليه وسلم - أم على عهود خلفائه . والأقرب أن يكون ذلك في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليمحص
الله إيمان هؤلاء الأعراب من حول المدينة .

والمهم أن نلاحظ طريقة التربية القرآنية ، وطريقة علاج النفوس والقلوب ، بالتوجيهات القرآنية ، والابتلاءات
الواقعية . وهذا كله ظاهر في كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين ، وفي توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك
الإيماني القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد ، بلا حرج ولا عقاب :

« ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج . ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً » ..

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد . والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ .

والأمر في حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية . فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه . ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره . ولمن شاء أن يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه ، وبين راحة القعود وما وراءه .. ثم يختار !

* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَآخَرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ فَتَنَّاكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبُرَ لَمْ يَجِدُوا لِيَاءَ وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَتَصِيْبَكُمْ مِنْهُم مَعْرَةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

لَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الْرُّبِّيَّ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُخْلِقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ

لَا تَخَافُونَّ^ط فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا بِفَعَلٍ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

هذا الدرس كله حديث عن المؤمنين ، وحديث مع المؤمنين . مع تلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تحت الشجرة . والله حاضر البيعة وشاهدها وموثقها ، ويده فوق أيديهم فيها . تلك المجموعة التي سمعت الله تعالى يقول عنها لرسوله - صلى الله عليه وسلم - : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » .. وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول لها : « أنتم اليوم خير أهل الأرض » ..

حديث عنها من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وحديث معها من الله سبحانه وتعالى : يبشرها بما أعد لها من مغنم كثيرة وفتوح ؛ وما أحاطها به من رعاية وحماية في هذه الرحلة ، وفيما سيتلوها ؛ وفيما قدر لها من نصر موصول بستته التي لا ينالها التبديل أبداً . ويندد بأعدائها الذين كفروا تنديداً شديداً . ويكشف لها عن حكمته في اختيار الصلح والمهادنة في هذا العام . ويؤكد لها صدق الرؤيا التي رآها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن دخول المسجد الحرام . وأن المسلمين سيدخلونه آمين لا يخافون . وأن دينه سيظهر على الدين كله في الأرض جميعاً .

ويختتم الدرس والسورة بتلك الصورة الكريمة الوضيئة لهذه الجماعة الفريدة السعيدة من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصفتها في التوراة وصفتها في الإنجيل ، ووعد الله لها بالمغفرة والأجر العظيم ..

* * *

« لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغنم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً » ..

وإني لأحاول اليوم من وراء ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التي شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة المؤمنين . أحاول أن أستشرف صفحة الوجود في تلك اللحظة وضميره المكنون ؛ وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهي الكريم ، عن أولئك

(١) أخرجه البخاري في ٦٤/ كتاب المغازي ، ٣٥ باب غزوة الحديبية ، حديث ١٦٨٥ عن جابر بن عبد الله .

الرجال القائمين إذ ذاك في بقعة معينة من هذا الوجود .. وأحاول أن أستشعر بالذات شيئاً من حال أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم ، أنهم هم ، بأشخاصهم وأعيانهم ، يقول الله عنهم : لقد رضي عنهم . ويحدد المكان الذي كانوا فيه ، والهيئة التي كانوا عليها حين استحقوا هذا الرضى : « إذ يبايعونك تحت الشجرة » .. يسمعون هذا من نبينهم الصادق المصدق ، على لسان ربه العظيم الجليل ..

يا الله ! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي ؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد ، في ذات نفسه ، ويقول له : أنت . أنت بذاتك . يبلغك الله . لقد رضي عنك . وأنت تابع . تحت الشجرة ! وعلم ما في نفسك . فأنزل السكينة عليك !

إن الواحد منا ليقراً أو يسمع : « الله ولي الذين آمنوا » .. فيسعد . يقول في نفسه : ألسنت أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم ؟ وبقراً أو يسمع : « إن الله مع الصابرين » .. فيطمئن . يقول في نفسه : ألسنت أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون . واحداً واحداً . أن الله يقصده بعينه وبذاته . ويبلغه : لقد رضي عنه ! وعلم ما في نفسه . ورضي عما في نفسه !

يا لله ! إنه أمر مهول !

« لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » .. « فعلم ما في قلوبهم . فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » ..

علم ما في قلوبهم من حمية لدينهم لأنفسهم . وعلم ما في قلوبهم من الصدق في بيعتهم . وعلم ما في قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز ، وضبط لمشاعرهم ليقفوا خلف كلمة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طائعين مسلمين صابرين .

« فأنزل السكينة عليهم » .. بهذا التعبير الذي يرسم السكينة نازلة في هيئة وهود ووقار ، تضفي على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة ، برداً وسلاماً وطمأنينة وارتياحاً .

« وأثابهم فتحاً قريباً » .. هو هذا الصلح بظروفه التي جعلت منه فتحاً ، وجعلته بدء فتوح كثيرة . قد يكون فتح خير واحد منها . وهو الفتح الذي يذكره أغلب المفسرين على أنه هو هذا الفتح القريب الذي جعله الله للمسلمين ..

« ومغانم كثيرة يأخذونها » .. إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر . وإما تالياً له ، إن كان الفتح هو هذا الصلح ، الذي تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .

« وكان الله عزيزاً حكيماً » .. وهو تعقيب مناسب للآيات قبله . ففي الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة ، كما تتجلى الحكمة والتدبير . وبهما يتم تحقيق الوعد الإلهي الكريم .

* * *

وبعد ذلك التبليغ العلوي الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين يتجه بالحديث إلى المؤمنين أنفسهم . الحديث عن هذا الصلح ، أو عن هذا الفتح ، الذي تلقوه صابرين مستسلمين :

« وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديراً » .. وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وأيقنوها ، وعلموا أن الله أعد لهم مغانم كثيرة ، وعاشوا بعد ذلك

ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذي لا يخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لهم هذه . وهذه قد تكون صلح الحديبية - كما روي عن ابن عباس - لتأكيد معنى أنه فتح ومغرم . وهو في حقيقته كذلك كما أسلفنا من قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن وقائع الحال الناطقة بصدق هذا الاعتبار . كما أنها قد تكون فتح خير - كما روي عن مجاهد - باعتبار أنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية . والأول أقرب وأرجح .

ويمن الله عليهم بأنه كف أيدي الناس عنهم . وقد كف الله عنهم أيدي المشركين من قريش كما كف أيدي سواهم من أعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر . وهم قلة على كل حال ، والناس كثرة . ولكنهم وفوا ببيعهم ، ونهضوا بتكاليفهم ، فكف الله أيدي الناس عنهم ، وأمنهم .

« ولتكون آية للمؤمنين » .. هذه الواقعة التي كرهوها في أول الأمر ، وثقلت على نفوسهم . فالله ينيبهم أنها ستكون آية لهم ، يرون فيها عواقب تدبير الله لهم ، وجزاء طاعتهم لرسول الله واستسلامهم . مما ثبتت في نفوسهم أنها شيء عظيم ، وخير جزيل ، ويلقي السكينة في قلوبهم والاطمئنان والرضى واليقين .

« ويهديكم صراطاً مستقيماً » .. جزاء طاعتكم وامثالكم وصدق سريرتكم . وهكذا يجمع لهم بين المغم ينالونه ، والهداية يرزقونها . فبتم لهم الخير من كل جانب . في الأمر الذي كرهوه واستعظموه . وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار ؛ ويربي قلوبهم على الطاعة المطلقة والامثال .

كذلك يمن عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه . لم يقدروا عليها بقوتهم ، ولكن الله تولاهم بقدرته وتقديره : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها ، وكان الله على كل شيء قديراً » ..

وتختلف الروايات في هذه الأخرى . أهى فتح مكة ؟ أهى فتح خير ؟ أهى فتوح مملكتي كسرى وقيصر ؟ أهى فتوح المسلمين التي تلت هذه الواقعة جميعاً ؟

وأقرب ما يناسب السياق أن تكون هي فتح مكة . بعد صلح الحديبية وبسبب من هذا الصلح . الذي لم يدم سوى عامين ، ثم نقضه المشركون ، ففتح الله مكة للمسلمين بلا قتال تقريباً . وهي التي استعصت عليهم من قبل ، وهاجمتهم في عقر دارهم ، وردتهم عام الحديبية . ثم أحاط الله بها ، وسلمها لهم بلا قتال - « وكان الله على كل شيء قديراً » .. فهذه بشرى ملفوفة في هذا الموضع ، لم يحددها لأنها كانت عند نزول هذه الآية غيباً من غيب الله . أشار إليه هذه الإشارة لبث الطمأنينة والرضى والتطلع والاستبشار .

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة ، والغنيمة التي قد أحاط الله بها ، وهم في انتظارها ، يقرر لهم أنهم منصورون ؛ وأن الصلح في هذا العام لم يكن لأنهم ضعاف ، أو لأن المشركين أقوياء . ولكنه تم لحكمة يريد بها . ولو قاتلهم الذين كفروا لهزموا . فتلك سنة الله حيثما التقى المؤمنون والكافرون في موقعة فاصلة :

« ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً . سنة الله التي قد خلت من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ..

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل . فأية سكينه ؟ وأية ثقة ؟ وأي تثبيت يجده أولئك المؤمنون في أنفسهم ؛ وهم يسمعون من الله أن نصرهم وهزيمة أعدائهم سنة من سنته الجارية في هذا الوجود ؟

وهي سنة دائمة لا تتبدل . ولكنها قد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم الاستقامة التي يعرفها الله لهم . أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ،

لتكون له قيمته وأثره . أو لغير هذا وذلك مما يعلمه الله . ولكن السنة لا تتخلف . والله أصدق القائلين : « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ...

كذلك يمن عليهم بكف أيدي المشركين عنهم ، وكف أيديهم عن المشركين من بعد ما أظفرهم على من هاجمهم . مشيراً إلى ذلك الحادث الذي أراد أربعون من المشركين أو أكثر أو أقل أن ينالوا من معسكر المسلمين . فأخذوا وعفا عنهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« وهو الذي كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة . من بعد أن أظفركم عليهم . وكان الله بما تعملون بصيراً » ..

وهو حادث وقع ، يعرفه السامعون ؛ والله يذكره لهم في هذا الأسلوب ، ليرد كل حركة وكل حادث وقع لهم إلى تدبيره المباشر ؛ وليوقع في قلوبهم هذا الإحساس المعين بيد الله سبحانه وهي تدبر لهم كل شيء ، وتقود خطاهم ، كما تقود خواطرهم ، ليسلموا أنفسهم كلها لله ، بلا تردد ولا تلفت ، ويدخلوا بهذا في السلم كافة ، بكل مشاعرهم وخواطرهم ، واتجاههم ونشاطهم ؛ موقنين أن الأمر كله لله ، وأن الخيرة ما اختاره الله ، وأنهم مسيرون بقدره ومشيتته فيما يختارون وفيما يرفضون . وأنه يريد بهم الخير . فإذا استسلموا له تحقق لهم الخير كله من أيسر طريق . وهو بصير بهم ، ظاهرهم وخافئهم ، فهو يختار لهم عن علم وعن بصر . ولن يضيعهم ، ولن يضيع عليهم شيئاً يستحقونه : « وكان الله بما تعملون بصيراً » ..

* * *

ثم يحدثهم عن خصومهم ، من هم في ميزان الله ؟ وكيف ينظر إلى أعمالهم وصددهم للمؤمنين عن بيته الحرام . وكيف ينظر إليهم هم عكس ما ينظر إلى خصومهم المعتدين :

« هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام ، والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تَرَيَ لَوْلَا الْعَذَابَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً . إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ؛ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها ، وكان الله بكل شيء عليمًا . هم في ميزان الله واعتباره ، الكافرون حقاً ، الذين يستحقون هذا الوصف الكريه : « هم الذين كفروا » .. يسجله عليهم كأنهم متفردون به ، عريقون في النسبة إليه ، فهم أكره شيء إلى الله الذي يكره الكفر والكافرين ! كذلك يسجل عليهم فعلهم الكريه الآخر ، وهو صددهم للمؤمنين عن المسجد الحرام ، وصد الهدي وتركه محبوساً عن الوصول إلى محل ذبحه المشروع :

« وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله » ..

وهي كبيرة في الجاهلية وفي الإسلام . كبيرة في الأديان كلها التي يعرفونها في الجزيرة من لدن أبيهم إبراهيم . كرية في عرفهم وفي عقيدتهم وفي عقيدة المؤمنين .. فلم يكن إذن كف الله للمؤمنين عنهم بقيا عليهم لأن جرهم صغير . كلا ! إنما كان ذلك لحكمة أخرى يتلطف الله سبحانه فيكشف عنها للمؤمنين :

« ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم ، أن تطأوهم ، فتصيبكم منهم معرفة بغير علم » ..

فلقد كان هنالك بعض المستضعفين من المسلمين في مكة لم يهاجروا ، ولم يعلنوا إسلامهم تقية في وسط المشركين . ولو دارت الحرب ، وهاجم المسلمون مكة ، وهم لا يعرفون أشخاصهم ، فربما وطأوهم وداسوهم وقتلوهم . فيقال : إن المسلمين يقتلون المسلمين ! ويلزمون بدياتهم حين يتبين أنهم قتلوا خطأ وهم مسلمون ..

ثم هنالك حكمة أخرى وهي أن الله يعلم أن من بين الكافرين الذين صدوهم عن المسجد الحرام ، من قسمت له الهداية ، ومن قدر له الله الدخول في رحمته ، بما يعلمه من طبيعته وحقيقته ؛ ولو تميز هؤلاء وهؤلاء لأذن الله للمسلمين في القتال ، ولعذب الكافرين العذاب الأليم :

« ليدخل الله في رحمته من يشاء . لو تَرَيَلُوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً » ..

وهكذا يكشف الله للجماعة المختارة الفريدة السعيدة عن جانب من حكمته المغيبة وراء تقديره وتدبيره . ويمضي في وصف الذين كفروا . وصف نفوسهم من الداخل . بعد تسجيل صفاتهم وعملهم الظاهر :

« إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » ..

حمية لا لعقيدة ولا لمنهج . إنما هي حمية الكبر والفخر والبطر والتعنت . الحمية التي جعلتهم يقفون في وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ، يمنعونهم من المسجد الحرام ، ويحبسون الهدى الذي ساقوه ، أن يبلغ محله الذي ينحر فيه . مخالفين بذلك عن كل عرف وعن كل عقيدة . كي لا تقول العرب ، إنه دخلها عليهم عنوة . ففي سبيل هذه النعرة الجاهلية يرتكبون هذه الكبيرة الكريمة في كل عرف ودين ؛ وينتهكون حرمة البيت الحرام الذي يعيشون على حساب قداسه ؛ وينتهكون حرمة الأشهر الحرم التي لم تنتهك في جاهلية ولا إسلام ! وهي الحمية التي بدت في تجيئهم لكل من أشار عليهم - أول الأمر - بخطة مسالمة ، وعاب عليهم صدّ محمد ومن معه عن بيت الله الحرام . وهي كذلك التي تبدت في رد سهيل بن عمرو لاسم الرحمن الرحيم ، ولصفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في أثناء الكتابة . وهي كلها تنبع من تلك الجاهلية المتعجرفة المتعنتة بغير حق .

وقد جعل الله الحمية في نفوسهم على هذا النحو الجاهلي ، لما يعلمه في نفوسهم من جفوة عن الحق والخضوع له . فأما المؤمنون فحماهم من هذه الحمية . وأحل محلها السكينة ، والتقوى :

« فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين . وألزمهم كلمة التقوى . وكانوا أحق بها وأهلها » ..

والسكينة الوقورة الهادئة ، كالتقوى المتحرّجة المتواضعة كلتاها تليق بالقلب المؤمن الموصول بربه ، الساكن بهذه الصلة . المطمئن بما فيه من ثقة . المراقب لربه في كل خالجة وكل حركة ، فلا يتبطر ولا يطغى ؛ ولا يغضب لذاته ، إنما يغضب لربه ودينه . فإذا أمر أن يسكن ويهدأ خضع وأطاع . في رضى وطمأنينة .

ومن ثم كان المؤمنون أحق بكلمة التقوى ، وكانوا أهلها . وهذا ثناء آخر من ربهم عليهم . إلى جانب الامتنان عليهم بما أنزل على قلوبهم من سكينة ، وما أودع فيها من تقوى . فهم قد استحقوها في ميزان الله ، وبشهادته ؛ وهو تكريم بعد تكريم ، صادر عن علم وتقدير :

« وكان الله بكل شيء عليمًا » ..

* * *

ولقد مر بنا أن بعض المؤمنين الذين خرجوا مستبشرين برؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد هالهم ألا تتحقق الرؤيا هذا العام ؛ وأن يردوا عن المسجد الحرام . فالله يؤكد لهم صدق هذه الرؤيا ، وينبئهم أنها منه . وأنها واقعة ولا بد . وأن وراءها ما هو أكبر من دخول المسجد الحرام أيضاً :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق : لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله - آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون . فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . هو الذي أرسل رسوله بالهدى

ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » ..

فأما البشرى الأولى . بشرى تصديق رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخولهم المسجد الحرام آمين ، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة ، لا يخافون .. فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد . ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية . إذ تم لهم فتح مكة ، وغلبة دين الله عليها . ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الايمان ؛ وهو يقول لهم : « لتدخلن المسجد الحرام - إن شاء الله - » .. فالدخول واقع حتم ، لأن الله أخبر به . ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدوها شيء ، حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب ، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية . والقرآن يتكئ على هذا المعنى ، ويقرر هذه الحقيقة ، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع ، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله . ووعد الله لا يخلف . ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق . إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين ، ليستقر منهم في أعماق الضمير والشعور .

ونعود إلى قصة تحقيق هذا الوعد ؛ فقد ذكرت الروايات أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع - أي العام التالي لصلح الحديبية - خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية . فأحرم من ذي الحليفة ، وساق معه الهدي - كما أحرم وساق الهدي في العام قبله - وسار أصحابه يلبون . فلما كان - صلى الله عليه وسلم - قريباً من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيول والسلاح أمامه . فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً ، وظنوا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يغزوهم ، وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين ، فذهبوا فأخبروا أهل مكة . فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم ، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قُربها كما شارطهم عليه . فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفص ، فقال : يا محمد ، ما عرفناك تنقض العهد . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « وما ذاك ؟ » قال : دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لم يكن ذلك ، وقد بعثنا به إلى ياجج » فقال : بهذا عرفناك ، بالبر والوفاء !

وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاثا ينظروا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإلى أصحابه - رضي الله عنهم - غيظاً وحقاً . وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه . فدخلها - صلى الله عليه وسلم - وبين يديه أصحابه يلبون ، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى ، وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية ، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام الناقة يقودها .

وهكذا صدقت رؤيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتحقق وعد الله . ثم كان الفتح في العام الذي يليه . وظهر دين الله في مكة . ثم ظهر في الجزيرة كلها بعد . ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة حيث يقول : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » ..

فلقد ظهر دين الحق ، لا في الجزيرة وحدها ، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان . ظهر في امبراطورية كسرى كلها ، وفي قسم كبير من امبراطورية قيصر ، وظهر في الهند وفي الصين ، ثم في جنوب آسيا في الملايو وغيرها ، وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) .. وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي .

عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصويره أبناء الأرض المقلون المحدودون القانون !

* * *

وعندما يصل إلى حقيقة البيعة ، وإلى خاطر النكث وخاطر الوفاء ، يلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب ، نذير أبوا أن يخرجوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لسوء ظنهم بالله ، ولتوقعهم الشر والضرر للمؤمنين لخارجين ، الذاهبين إلى قريش في عقر دارها ، وهي غزت المدينة قبل ذلك عامين متوالين .. يلتفت إليهم نبيُّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما سيعتذرون به إليه بعد عودته سالماً هو ومن معه ، وقد هادنته قريش وذ تقائلته ، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها - مهما كانت شروطها - التراجع من قريش ، واعتبار محمد - صلى الله عليه وسلم - نذالها تهادنه وتتقي خصومته . ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه ، ويفضحهم ويقتضهم مكشوفين أمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمام المؤمنين . كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه : وهو أنهم سيخرجون إلى مغامر قريبة ميسورة ، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه لينالوا من هذه الغنائم السهلة . ويلقنه طريقة معاملتهم حينئذ والرد عليهم . فلا يقبل منهم الخروج معه في هذا الوجه تقرب الميسور الذي سيقصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية . إنما ينبئهم بأن هنالك وجهاً آخر فيه مشقة وفيه قتال مع قوم أولي بأس شديد . فإن كانوا حقاً يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ ، حيث يقسم الله لهم ما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير ، وإن عصوا كما عصوا من قبل كان لهم العذاب الشديد :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب : شغلنا أموالنا وأهلونا ، فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً ، وزين ذلك في قلوبكم ، وظننتم ظن السوء ، وكنتم قوماً بوراً . ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً . والله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وكان الله غفوراً رحيماً . سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغامر لتأخذوها : ذرونا نتبعكم . يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعنونا . كذلك قال الله من قبل . فسيقولون : بل تحسدوننا . بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً . قل للمخلفين من الأعراب : استدعون إلى قوم أولي بأس شديد ، تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً ، وإن تتولوا كما توليت من قبل يعذبكم عذاباً أليماً » ..

والقرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها ؛ ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس ، وهواجس القلوب ، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيداً لعلاجها والطب لها . ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة ، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فالمخلفون من الأعراب - وكانوا من أعراب غفار ومزينة وأشجع وأسلم وغيرهم ممن حول المدينة - سيقولون اعتذاراً عن تخلفهم : « شغلنا أموالنا وأهلونا » .. وليس هذا بعذر . فللناس دائماً أهل وأموال . ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة ، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها .. وسيقولون « فاستغفر لنا » .. وهم ليسوا صادقين في طلب الاستغفار كما ينبئ الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - : « يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » ..

هنا يرد عليهم تقرير حقيقة القدر الذي لا يدفعه تخلف ، ولا يغيره إقدام ؛ وبحقيقة القدرة التي تحيط بالناس وتتصرف في أقدارهم كما تشاء . وبحقيقة العلم الكامل الذي يصرف الله قدره على وفقه :

« قل : فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً ؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً » ..

في هذه الحياة . وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة .. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات ، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها . التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة .

إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » .. أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً . رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين . فهي الشدة لله والرحمة لله . وهي الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة . فليس لهم في أنفسهم شيء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء . وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها . يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها . قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير الله ، والوشيجة التي تربطهم بالله .

وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة : « تراههم ركعاً سجداً » .. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الراي حينما رآهم . ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصلية لهم في حقيقة نفوسهم ؛ فعبّر عنها تعبيراً يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكانهم يقضون زمانهم كله ركعاً سجداً .

واللقطة الثالثة مثلاً . ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : « يتغنون فضلاً من الله ورضواناً » .. فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة . كل ما يشغل بالهم ، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم ، هو فضل الله ورضوانه . ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشغلون به .

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملاحظهم ، ونضحها على سماتهم : « سيأهم في وجوههم من أثر السجود » .. سيأهم في وجوههم من الوضوء والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف . وليست هذه السيا هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : « من أثر السجود » .. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة . واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية لله في أكمل صورها . فهو أثر هذا الخشوع . أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراة . ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية ، والوضاء الهادئة ، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلاً .

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة . إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ؛ ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة : « ذلك مثلهم في التوراة » .. وصفتهم التي عرفهم الله بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها .

« ومثلهم في الإنجيل » .. وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : « كزرع أخرج شطأه » .. فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته . ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده . « فأزره » . أو أن العود آزر فرخه فشده . « فاستغلظ » الزرع وضخمت ساقه وامتألت . « فاستوى على سوقه » لا معوجاً ومحنياً . ولكن مستقيماً قوياً سوياً ..

هذه صورته في ذاته . فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع ، العارفين بالنامي منه والذابل . المثمر منه والباثر . فهو وقع البهجة والإعجاب : « يعجب الزراع » . وفي قراءة يعجب « الزارع » .. وهو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج .. وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس . فهو وقع الغيظ والكد : « ليغيظ بهم الكفار » .. وتعمد إغاطة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي

زرعة الله . أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاطة أعداء الله !
وهذا المثل كذلك ليس مستحدثاً ، فهو ثابت في صفحة القدر . ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد
ومن معه إلى هذه الأرض . ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون .
وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة . صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
فتثبت في صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يسمع إليها من بارئ الوجود . وتبقى نموذجاً
للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقيق معنى الإيمان في أعلى الدرجات .
وفوق هذا التكريم كله ، وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم
مغفرة وأجرًا عظيماً » . وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعدما تقدم من صفتهم ، التي تجعلهم أول الداخلين
في هذه الصيغة العامة .
مغفرة وأجر عظيم . . وذلك التكريم وحده حسبهم . وذلك الرضى وحده أجر عظيم . ولكنه الفيض الإلهي
بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ .
ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم . وهم يتلقون
هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم . وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان
الله ، وفي كتاب الله . وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم .
وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم . وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي
يحسها هو في كيانه .
وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه . . ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا
المهرجان أن يتذوقه . إلا من بعيد ؟ !
اللهم إلا من يكرمه الله إكرامهم : فيقرب له البعيد ؟ !
فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد !!!

* * *

(٤٩) سُورَةُ الْحُجُرَاتِ مِائِيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۖ بِالْقَوْلِ ۚ يَكْهَرُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ ۚ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ۚ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبُ الْيَكْرُ الْإِيمَانِ وَزَيْنُهُ ۚ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَهُ الْيَكْرُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضَلَّاهُمُ اللَّهُ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ۚ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ

خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَرَّيْتَبٌ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا
أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَاهُ
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

* قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ
يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ
إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

هذه السورة التي لا تتجاوز ثمانى عشرة آية ، سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة
والشريعة ، ومن حقائق الوجود والإنسانية . حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقاً عالية وآماداً بعيدة ؛ وتثير في
النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة ؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهديب ،
ومبادئ التشريع والتوجيه ، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات !
وهي تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكير .

وأول ما يبرز للنظر عند مطالعة السورة ، هو أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة ، لعالم رفيع كريم نظيف
سليم ؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم ؛ والتي تكفل قيامه أولاً ، وصيانتة
أخيراً .. عالم يصدر عن الله ، ويتجه إلى الله ، ويليق أن ينتسب إلى الله .. عالم نقي القلب ، نظيف المشاعر ،
عف اللسان ، وقبل ذلك عف السريرة .. عالم له أدب مع الله ، وأدب مع رسوله ، وأدب مع نفسه ، وأدب
مع غيره . أدب في هواجس ضميره ، وفي حركات جوارحه . وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه ،

وله نظمه التي تكفل صيانه . وهي شرائع ونظم تقوم على ذلك الأدب ، وتنبثق منه ، وتتسق معه ، فيتوافى باطن هذا العالم وظاهره ، وتتلاقى شرائعه ومشاعره ، وتتوازن دوافعه وزواجره ، وتتناسق أحاسيسه وخطاه ، وهو يتجه ويتحرك إلى الله .. ومن ثم لا يوكل قيام هذا العالم الرفيع الكريم النظيف السليم وصيانه ، لمجرد أدب الضمير ونظافة الشعور ؛ ولا يوكل كذلك لمجرد التشريع والتنظيم . بل يلتقي هذا بذلك في انسجام وتناسق . كذلك لا يوكل لشعور الفرد وجهده ، كما لا يترك لنظم الدولة وإجراءاتها . بل يلتقي فيه الأفراد بالدولة ، والدولة بالأفراد ؛ وتتلاقى واجباتهما ونشاطهما في تعاون واتساق .

هو عالم له أدب مع الله ، ومع رسول الله . يتمثل هذا الأدب في إدراك حدود العبد أمام الرب ، والرسول الذي يبلغ عن الرب : « يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله ، إن الله سميع عليم » .. فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهى ، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم ؛ ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه ؛ ولا يجعل لنفسه إرادة أو رأياً مع خالقه .. تقوى منه وخشية ، وحياء منه وأدباً .. وله أدب خاص فيه خطاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتوقيره : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم . إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم » ..

وهو عالم له منهجه في الثبوت من الأقوال والأفعال ، والاستيثاق من مصدرها ، قبل الحكم عليها . يستند هذا المنهج إلى تقوى الله ، وإلى الرجوع بالأمر إلى رسول الله ، في غير ما تقدم بين يديه ، ولا اقتراح لم يطلبه ولم يأمر به : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتضربوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم . ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان ، وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » ..

وهو عالم له نظمه وإجراءاته العملية في مواجهة ما يقع فيه من خلاف وفتن وقلقل واندفاعات ، تخلخل كيانه لو تركت بغير علاج . وهو يواجهها بإجراءات عملية منبثقة من قاعدة الأخوة بين المؤمنين ، ومن حقيقة العدل والإصلاح ، ومن تقوى الله والرجاء في رحمته ورضاه : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ؛ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

وهو عالم له آدابه النفسية في مشاعره تجاه بعضه البعض ؛ وله آدابه السلوكية في معاملاته بعضه مع بعض : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ؛ ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ؛ ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » ..

وهو عالم نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات ، مصون الغيبة والحضرة ، لا يؤخذ فيه أحد بظنة ، ولا تتبع فيه العورات ، ولا يتعرض أمن الناس وكرامتهم وحرمتهم فيه لأدنى مساس : « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً . أياحب أحدكم أن يأكل لحم

أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه ! واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » .

وهو عالم له فكرته الكاملة عن وحدة الإنسانية المختلفة الأجناس المتعددة الشعوب ؛ وله ميزانه الواحد الذي يقوم به الجميع . إنه ميزان الله المبرأ من شوائب الهوى والاضطراب : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ..

والسورة بعد عرض هذه الحقائق الضخمة التي تكاد تستقل برسم معالم ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، تحدد معالم الإيمان ، الذي باسمه دُعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم . وباسمه هُتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل ، الحافز إلى التلبية والتسليم : « يا أيها الذين آمنوا » .. ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب ؛ والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة ، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب : « قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : اتعلمون الله بدينكم ، والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم » ..

وتكشف السورة في ختامها عن ضخامة الهبة الإلهية للبشر . هبة الإيمان التي يمن بها على من يشاء ، وفق ما يعلمه فيه من استحقاق : « يمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون » ..

فأما الأمر الثاني الذي يبرز للنظر من خلال السورة ، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التي صاحبت نزول آياتها ، فهو هذا الجهد الضخم الثابت المطرد ، الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة ، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة ، التي تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم ، الذي وجدت حقيقته يوماً على هذه الأرض ؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية ، ولا حلماً طائراً ، يعيش في الخيال !

هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ لم تنبئ فجأة ولم توجد مصادفة ؛ ولم تخلق بين يوم وليلة . كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طابع الأشياء كلها في لحظة أو مضخة . بل تمت نمواً طبيعياً بطيئاً كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور . وأخذت الزمن اللازم لنموها ، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو . واحتاجت إلى العناية الساهرة ، والصبر الطويل ، والجهد البصير في التهذيب والتشذيب ، والتوجيه والدفع ، والتقوية والتثبيت . واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة والابتلاءات الشاقة المضنية ؛ مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات .. وفي هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة - على علم - لحمل هذه الأمانة الكبرى ؛ وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض . وذلك مع الفضائل الكامنة والاستعدادات المكونة في ذلك الجيل ؛ وفي الظروف والأحوال المهيأة له على السواء .. وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية ؛ ووجدت هذه الحقيقة التي تراءى من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب ، أو رؤيا مجنحة في خيال !

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم . يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم .

إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم ..

تبدأ السورة بأول نداء حبيب ، وأول استجاشة للقلوب . « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب . واستجاشة لقلوبهم بالصفة التي تربطهم به ، وتشعرهم بأنهم له ، وأنهم يحملون شارته ، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده ، وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده ، وأنه حبيب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم اختياراً لهم ومنة عليهم ، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا ، وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره ، يفعل ما يؤمر ويرضى بما يقسم ، ويسلم ويستسلم :
« يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميع عليم » ..

يا أيها الذين آمنوا ، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحاً ، لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم . ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله ، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله .

قال قتادة : ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون : لو أنزل في كذا وكذا . لو صح كذا . فكره الله تعالى ذلك . وقال العوفي : نهوا أن يتكلموا بين يديه . وقال مجاهد : لا تفتاتوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشيء حتى يقضي الله تعالى على لسانه . وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة .

فهو أدب نفسي مع الله ورسوله . وهو منهج في التلقي والتنفيذ . وهو أصل من أصول التشريع والعمل في الوقت ذاته .. وهو منبثق من تقوى الله ، وراجع إليها . هذه التقوى النابعة من الشعور بأن الله سميع عليم .. وكل ذلك في آية واحدة قصيرة ، تلمس وتصور كل هذه الحقائق الأصيلة الكبيرة .

وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم ؛ فما عاد مقترح منهم يقترح على الله ورسوله ؛ وما عاد واحد منهم يدلي برأي لم يطلب منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يدلي به ؛ وما عاد أحد منهم يقضي برأيه في أمر أو حكم ، إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول ..

روى أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه - بإسناده - عن معاذ - رضي الله عنه - حيث قال له النبي - صلى الله عليه وسلم - حين بعثه إلى اليمن : « بم تحكم ؟ » قال : بكتاب الله تعالى . قال - صلى الله عليه وسلم - : « فإن لم تجد ؟ » قال : بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - صلى الله عليه وسلم - : « فإن لم تجد ؟ » قال - رضي الله عنه - : أجتهد رأيي . فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما يرضي رسول الله .

وحتى لكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسألهم عن اليوم الذي هم فيه ، والمكان الذي هم فيه ، وهم يعلمونه حق العلم ، فيخرجون أن يجيبوا إلا بقولهم : الله ورسوله أعلم . خشية أن يكون في قولهم تقدم بين يدي الله ورسوله !

جاء في حديث أبي بكرة نفيح بن الحارث الثقفي - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سأل في حجة الوداع :

« أي شهر هذا ؟ » .. قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : « أليس ذا الحجة ؟ » قلنا : بلى ! قال : « أي بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه

بغير اسمه . فقال : « أليس البلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى ! قال : « فأى يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ! .. الخ .

فهذه صورة من الأدب ، ومن التحرج ، ومن التقوى ، التي انتهى إليها المسلمون بعد سماعهم ذلك النداء ، وذلك التوجيه ، وتلك الإشارة إلى التقوى ، تقوى الله السميع العليم .

والأدب الثاني هو أدبهم مع نبيهم في الحديث والخطاب ؛ وتوقيرهم له في قلوبهم ، توقيراً ينعكس على نبراتهم وأصواتهم ؛ ويميز شخص رسول الله بينهم ، ويميز مجلسه فيهم ؛ والله يدعوهم إليه بذلك النداء الحبيب ؛ ويحذرهم من مخالفة ذلك التحذير الرهيب :

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » ..

يا أيها الذين آمنوا .. ليوقروا النبي الذي دعاكم إلى الإيمان .. أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون .. ليحذروا هذا المزلق الذي قد ينتهي بهم إلى حبوط أعمالهم ، وهم غير شاعرين ولا عالمين ، ليتقوه !

ولقد عمل في نفوسهم ذلك النداء الحبيب ، وهذا التحذير المرهوب ، عمله العميق الشديد :

قال البخاري : حدثنا بسرة بن صفوان اللخمي ، حدثنا نافع بن عمر ، عن ابن أبي مليكة . قال : كاد الخيران أن يهلكا .. أبو بكر وعمر رضي الله عنهما .. رفعاً أصواتهما عند النبي - صلى الله عليه وسلم - حين قدم عليه ركب بني تميم (في السنة التاسعة من الهجرة) فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس - رضي الله عنه - أخي بني مجاشع (أي ليؤمره عليهم) وأشار الآخر برجل آخر . قال نافع : لا أحفظ اسمه (في رواية أخرى أن اسمه القعقاع بن معبد) فقال : أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافاً . فارتفعت أصواتهما في ذلك . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » . قال ابن الزبير - رضي الله عنه - : فما كان عمر - رضي الله عنه - يسمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد هذه الآية حتى يستفهمه ! .. وروي عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه قال لما نزلت هذه الآية : قلت : يا رسول الله ، والله لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالممس !) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي - إلى قوله : وأنتم لا تشعرون » وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت . فقال : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا من أهل النار . حبط عملي . وجلس في أهله حزيناً . ففقد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنطلق بعض القوم إليه ، فقالوا له : تفقدك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مالك ؟ قال : أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي - صلى الله عليه وسلم - وأجهر له بالقول . حبط عملي . أنا من أهل النار . فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبروه بما قال . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « لا . بل هو من أهل الجنة » . قال أنس - رضي الله عنه - : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة .

فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب ، وذلك التحذير الرعيب ؛ وهكذا تأدبوا في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون . ولو كانوا يشعرون تداركوا أمرهم ! ولكن هذا المزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم ، فخافوه واتقوه !

ونوه الله بتقواهم ، وغضهم أصواتهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تعبير عجيب :
 « إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . لهم مغفرة وأجر عظيم » ..
 فالتقوى هبة عظيمة ، يختار الله لها القلوب ، بعد امتحان واختبار ، وبعد تخليص وتمحيص ، فلا يضعها
 في قلب إلا وقد تهيأ لها ، وقد ثبت أنه يستحقها . والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله قد اختبر الله قلوبهم
 وهياًها لتلقي تلك الهبة . هبة التقوى . وقد كتب لهم معها وبها المغفرة والأجر العظيم .
 إنه الترغيب العميق ، بعد التحذير المخيف . بها يربي الله قلوب عباده المختارين ، ويعدها للأمر العظيم .
 الذي نهض به الصدر الأول على هدى من هذه التربية ونور .

وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي -
 صلى الله عليه وسلم - قد ارتفعت أصواتهما ، فجاء فقال : أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا :
 من أهل الطائف . فقال : لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً !

وعرف علماء هذه الأمة وقالوا : إنه يكره رفع الصوت عند قبره - صلى الله عليه وسلم - كما كان يكره
 في حياته - عليه الصلاة والسلام - احتراماً له في كل حال .

ثم أشار إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في العام التاسع .
 الذي سمي « عام الوفود » .. لمجيء وفود العرب من كل مكان بعد فتح مكة ، ودخولهم في الإسلام ، وكانوا
 أعراباً جفاة ، فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم المطللة على المسجد النبوي الشريف :
 يا محمد . اخرج لنا . فكره النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الجفوة وهذا الإزعاج . فنزل قوله تعالى :

« إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً
 لهم ، والله غفور رحيم » ..

فوصفهم الله بأن أكثرهم لا يعقلون . وكره إليهم النداء على هذه الصفة المناهية للأدب والتوقير اللائق
 بشخص النبي - صلى الله عليه وسلم - وحرمة رسول الله القائد والمربي . وبين لهم الأولى والأفضل وهو الصبر
 والانتظار حتى يخرج إليهم . وحجب إليهم التوبة والإنابة ، ورغبهم في المغفرة والرحمة .

وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى كل
 أستاذ وعالم . لا يزعجونهم حتى يخرج إليهم ؛ ولا يقتحمون عليه حتى يدعوهم .. يحكى عن أبي عبيد - العالم
 الزاهد الراوية الثقة - أنه قال : « ما دقت باباً على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه » ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا
 أن فيكم رسول الله ، لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ؛ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ،
 وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة ، والله عليم حكيم » ..

كان النداء الأول لتقرير جهة القيادة ومصدر التلقي . وكان النداء الثاني لتقرير ما ينبغي من أدب للقيادة
 وتوقير . وكان هذا وذلك هو الأساس لكافة التوجيهات والتشريعات في السورة . فلا بد من وضوح المصدر
 الذي يتلقى عنه المؤمنون ، ومن تقرير مكان القيادة وتوقيرها ، لتصبح للتوجيهات بعد ذلك قيمتها ووزنها

وطاعتها . ومن ثم جاء هذا النداء الثالث يبين للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها ؛ ويقرر ضرورة التثبت من مصدرها :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق نبأ فتيبنوا ، أن تصيبوا قوماً بجهالة ، فتصبخوا على ما فعلتم نادمين .. »
ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب . وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء ، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها . فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقها ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها . فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره . وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء . ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق . فتصيب قوماً بظلم عن جهالة وتسرع . فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ، ويحارب الحق والعدل في اندفاع .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على صدقات بني المصطلق . وقال ابن كثير . قال مجاهد وقتادة : أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم فتلقوه بالصدقة ، فرجع فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك (زاد قتادة وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام) فبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خالد بن الوليد - رضي الله عنه - إليهم ، وأمره أن يثبت ولا يعجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، فبعث عيونهم ، فلما جاءوا أخبروا خالداً - رضي الله عنه - أنهم مستمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد - رضي الله عنه - فرأى الذي يعجبه ؛ فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الخبر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة . قال قتادة : فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « التثبت من الله والعجلة من الشيطان »^١ . وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبي ليلى ، ويزيد بن رومان ، والضحاك ، ومقاتل بن حبان . وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة . والله أعلم .. (انتهى كلام ابن كثير في التفسير) ..

ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ؛ فأما الصالح فيؤخذ بخبره ، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء . والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره . أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة . والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء . وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار .

ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع عند الخبر الأول الذي نقله الوليد بن عقبة ، وإشارة على النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعجل بعقابهم . وذلك حمية من هذا الفريق لدين الله وغضباً لمنع الزكاة . فجاءت الآية التالية تذكيرهم بالحقيقة الضخمة والنعمة الكبيرة التي تعيش بينهم ليدركوا قيمتها وينتبهوا دائماً لوجودها :
« واعلموا أن فيكم رسول الله » ..

وهي حقيقة تتصور بسهولة لأنها وقعت ووجدت . ولكنها عند التدبر تبدو هائلة لا تكاد تتصور ! وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة ؛ فتقول السماء للأرض ؛

(١) هكذا أثبت ابن كثير في التفسير .

وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، وتقوم خطاهم أولاً بأول ، وتشير عليهم في خاصة أنفسهم وشؤونهم .
 ويفعل أحدهم الفعلة ويقول أحدهم القولة ، ويسر أحدهم الخالصة ؛ فإذا السماء تطلع ، وإذا الله - جل جلاله -
 ينبيئ رسوله بما وقع ، ويوجهه لما يفعل وما يقول في هذا الذي وقع .. إنه لأمر . وإنه لنباً عظيم . وإنها لحقيقة
 هائلة . قد لا يحس بضخامتها من يجدها بين يديه . ومن ثم كان هذا التنبيه لوجودها بهذا الأسلوب : « واعلموا
 أن فيكم رسول الله » .. اعلموا هذا وقدره حق قدره ، فهو أمر عظيم .

ومن مقتضيات العلم بهذا الأمر العظيم أن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله . ولكنه يزيد هذا التوجيه إيضاحاً
 وقوة ، وهو يخبرهم أن تدبير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم بوحى الله أو إلهامه فيه الخير لهم والرحمة
 واليسر . وأنه لو أطاعهم فيما يعين لهم أنه خير لعتوا وشق عليهم الأمر . فالله أعرف منهم بما هو خير لهم ،
 ورسوله رحمة لهم فيما يدبر لهم ويختار :

« لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » ..

وفي هذا إحياء لهم بأن يتركوا أمرهم لله ورسوله ، وأن يدخلوا في السلم كافة ، ويستسلموا لقدر الله وتدبيره ،
 ويتلقوا عنه ولا يقترحوا عليه .

ثم يوجههم إلى نعمة الإيمان الذي هداهم إليه ، وحرك قلوبهم لحبه ، وكشف لهم عن جماله وفضله ، وعلق
 أرواحهم به ؛ وكره إليهم الكفر والفسوق والمعصية ، وكان هذا كله من رحمته وفيضه :

« ولكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ؛ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم
 الراشدون . فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم » ..

واختيار الله لفريق من عباده ، ليشرح صدورهم للإيمان ، ويحرك قلوبهم إليه ، ويزينه لهم قتهفو إليه
 أرواحهم ، وتدرك ما فيه من جمال وخير .. هذا الاختيار فضل من الله ونعمة ، دونها كل فضل وكل نعمة .
 حتى نعمة الوجود والحياة أصلاً ، تبدو في حقيقتها أقل من نعمة الإيمان وأدنى ! وسيأتي قوله تعالى : « بل الله
 يمين عليكم أن هذاكم للإيمان » فبفضل القول إن شاء الله في هذه المنة .

والذي يستوقف النظر هنا هو تذكيرهم بأن الله هو الذي أراد بهم هذا الخير ، وهو الذي خلص قلوبهم
 من ذلك الشر : الكفر والفسوق والعصيان . وهو الذي جعلهم بهذا راشرين فضلاً منه ونعمة . وأن ذلك كله
 كان عن علم منه وحكمة .. وفي تقرير هذه الحقيقة إحياء لهم كذلك بالاستسلام لتوجيه الله وتدبيره ، والاطمئنان
 إلى ما وراءه من خير عليهم وبركة ، وترك الاقتراح والاستعجال والاندفاع فيما قد يظنون خيراً لهم ؛ قبل أن
 يختار لهم الله . فالله يختار لهم الخير ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، يأخذ بيدهم إلى هذا الخير .
 وهذا هو التوجيه المقصود في التعقيب .

وإن الإنسان ليعجل ، وهو لا يدري ما وراء خطوته . وإن الإنسان ليقترح لنفسه ولغيره ، وهو لا يعرف
 ما الخير وما الشر فيما يقترح . « ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً » . ولو استسلم لله ،
 ودخل في السلم كافة ، ورضي اختيار الله له ، واطمأن إلى أن اختيار الله أفضل من اختياره ، وأرحم له وأعود
 عليه بالخير . لاستراح وسكن . ولأَمْضَى هذه الرحلة القصيرة على هذا الكوكب في طمأنينة ورضى .. ولكن
 هذا كذلك منة من الله وفضل يعطيه من يشاء .

* * *

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى

تفيء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك ، تحت النزوات والاندفاعات . تأتي تعقياً على تبين خبر الفاسق ، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة ، قبل التثبت والاستيقان . وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات ، أم كان تشريعاً لتلافي مثل هذه الحالة ، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة الجماعة الإسلامية من التفكك والتفرق . ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح . والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح .

والقرآن قد واجه – أو هو يفترض – إمكان وقوع القتال بين طائفتين من المؤمنين . ويستبقي لكلنا الطائفتين وصف الإيمان مع اقتتالهما ، ومع احتمال أن إحداها قد تكون باغية على الأخرى ، بل مع احتمال أن تكون كلتاها باغية في جانب من الجوانب .

وهو يكلف الذين آمنوا – من غير الطائفتين المتقاتلتين طبعاً – أن يقوموا بالإصلاح بين المتقاتلتين . فإن بغت إحداها فلم تقبل الرجوع إلى الحق – ومثله أن تبغيا معاً برفض الصلح أو رفض قبول حكم الله في المسائل المتنازع عليها – فعلى المؤمنين أن يقاتلوا البغاة إذن ، وأن يظلوا يقاتلونهم حتى يرجعوا إلى أمر الله . وأمر الله هو وضع الخصومة بين المؤمنين ، وقبول حكم الله فيما اختلفوا فيه ، وأدى إلى الخصام والقتال . فإذا تم قبول البغاة لحكم الله ، قام المؤمنون بالإصلاح القائم على العدل الدقيق طاعة لله وطلباً لرضاه .. « إن الله يحب المقسطين » .. ويعقب على هذه الدعوة وهذا الحكم باستجاشة قلوب الذين آمنوا واستحياء الرابطة الوثيقة بينهم ، والتي جمعهم بعد تفرق ، وألفت بينهم بعد خصام ؛ وتذكيرهم بتقوى الله ، والتلويح لهم برحمته التي تنال بتقواه : « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » ..

ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة ، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه ؛ وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف ، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة . وهو إجراء صارم وحازم كذلك .

ومن مقتضيات هذه القاعدة كذلك ألا يجهز على جريح في معارك التحكيم هذه ، وألا يقتل أسير ، وألا يتعقب مدبر ترك المعركة ، وألقى السلاح ، ولا تؤخذ أموال البغاة غنيمة . لأن الغرض من قتالهم ليس هو القضاء عليهم ، وإنما هو ردهم إلى الصف ، وضمهم إلى لواء الأخوة الإسلامية .

والأصل في نظام الأمة المسلمة أن يكون للمسلمين في أنحاء الأرض إمامة واحدة ، وأنه إذا بويع لإمام ، وجب قتل الثاني ، واعتباره ومن معه فئة باغية يقاتلها المؤمنون مع الإمام . وعلى هذا الأصل قام الإمام علي – رضي الله عنه – بقتال البغاة في وقعة الجمل وفي وقعة صفين ؛ وقام معه بقتالهم أجلاء الصحابة رضوان الله عليهم . وقد تخلف بعضهم عن المعركة منهم سعد ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر – رضي الله عنهم – إما لأنهم لم يتيبنوا وجه الحق في الموقف في حينه فاعتبروها فتنة . وإما لأنهم كما يقول الإمام الجصاص : « ربما رأوا الإمام مكتفياً بمن معه مستغنياً عنهم بأصحابه فاستجازوا القعود عنه لذلك » .. والاحتمال الأول أرجح ، تدل عليه بعض أقوالهم المروية . كما يدل عليه ما روي عن ابن عمر – رضي الله عنه – في ندمه فيما بعد على أنه لم يقاتل مع الإمام .

ومع قيام هذا الأصل فإن النص القرآني يمكن إعماله في جميع الحالات - بما في ذلك الحالات الاستثنائية التي يقوم فيها إمامان أو أكثر في أقطار متفرقة متباعدة من بلاد المسلمين ، وهي حالة ضرورة واستثناء من القاعدة - فواجب المسلمين أن يحاربوا البغاة مع الإمام الواحد ، إذا خرج هؤلاء البغاة عليه . أو إذا بغت طائفة على طائفة في إمامته دون خروج عليه . وواجب المسلمين كذلك أن يقاتلوا البغاة إذا تمثلوا في إحدى الإمامات المتعددة في حالات التعدد الاستثنائية ، بتجمعهم ضد الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله . وهكذا يعمل النص القرآني في جميع الظروف والأحوال .

وواضح أن هذا النظام ، نظام التحكيم وقتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله ، نظام له السبق من حيث الزمن على كل محاولات البشرية في هذا الطريق . وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة ! وله بعد هذا وذلك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق ، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ، ولا يتعلق به نقص أو قصور .. ولكن البشرية البائسة تطلع وتعرج ، وتكبو وتتعثر . وأمامها الطريق الواضح الممهّد المستقيم !

* * *

« يا أيها الذين آمنوا ، لا يسخر قوم من قوم ، عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء ، عسى أن يكن خيراً منهن . ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنازروا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » ..

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدى القرآن مجتمع له أدب رفيع ، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس . وهي من كرامة المجموع . ولز أي فرد هو لزم لذات النفس ، لأن الجماعة كلها وحدة ، كرامتها واحدة . والقرآن في هذه الآية يهتف للمؤمنين بذلك النداء الحبيب : « يا أيها الذين آمنوا » . وينهاهم أن يسخر قوم بقوم ، أي رجال برجال ، فلعلهم خير منهم عند الله ، أو أن يسخر نساء من نساء فلعلهن خير منهن في ميزان الله .

وفي التعبير إحياء خفي بأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراهن النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية ، التي يوزن بها الناس . فهناك قيم أخرى ، قد تكون خافية عليهم ، يعلمها الله ، ويزن بها العباد . وقد يسخر الرجل الغني من الرجل الفقير . والرجل القوي من الرجل الضعيف ، والرجل السوي من الرجل المؤوف . وقد يسخر الذكي الماهر من الساذج الخام . وقد يسخر ذو الأولاد من العقيم . وذو العصبية من اليتيم ... وقد تسخر الجميلة من القبيحة ، والشابة من العجوز ، والمعتدلة من المشوهة ، والغنية من الفقيرة .. ولكن هذه وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس ، فيزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين !

ولكن القرآن لا يكتفي بهذا الإحياء ، بل يستجيش عاطفة الأخوة الإيمانية ، ويذكر الذين آمنوا بأنهم نفس واحدة من يلزمها فقد لزمها : « ولا تلمزوا أنفسكم » .. واللمز : العيب . ولكن للفتة جرساً وظلاً ، فكأنما هي وخزة حسية لا عيبة معنوية !

ومن السخرية واللمز التنازع بالألقاب التي يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعباً . ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويذري به . ومن أدب المؤمن ألا يؤدي أخاه بمثل هذا . وقد غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أسماء وألقاباً كانت في الجاهلية لأصحابها ، أحس فيها بحسه المرهف ، وقلبه الكريم ، بما يذري بأصحابها ، أو يصفهم بوصف ذميم .

والآية بعد الإيحاء بالقيم الحقيقية في ميزان الله ، وبعد استجاشة شعور الأخوة ، بل شعور الاندماج في نفس واحدة ، تستثير معنى الإيمان ، وتحذر المؤمنين من فقدان هذا الوصف الكريم ، والفسوق عنه والانحراف بالسخرية واللمز والتنازع : « بشس الاسم : الفسوق بعد الإيمان » . فهو شيء يشبه الارتداد عن الإيمان ! وتهدد باعتبار هذا ظلماً ، والظلم أحد التعبيرات عن الشرك : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .. وبذلك تضع قواعد الأدب النفسي لذلك المجتمع الفاضل الكريم .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً . يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه . واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » ..
فأما هذه الآية فتقيم سياجاً آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم ، حول حرمان الأشخاص به وكراماتهم وحررياتهم ، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم ، في أسلوب مؤثر عجيب ..

وتبدأ - على نسق السورة - بذلك النداء الحبيب : « يا أيها الذين آمنوا » .. ثم تأمرهم باجتنب كثيراً من الظن ، فلا يتركوا نفوسهم نهياً لكل ما يهيجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك . وتعلل هذا الأمر : « إن بعض الظن إثم » . وما دام النهي منصباً على أكثر الظن ، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلاً ، لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثماً !

بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ ، فيقع في الإثم ؛ ويدعه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك ، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يחדشها ظن السوء ؛ والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع . وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون !

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب . بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل ، وسياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف ، فلا يؤخذون بظنة ، ولا يحاكمون بريئة ؛ ولا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم . بل لا يصح أن يكون أساساً للتحقيق معهم ، ولا للتحقيق حولهم . والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إذا ظننت فلا تحقق »^١ .. ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء ، مصونة حقوقهم ، وحررياتهم ، واعتبارهم . حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه . ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم !

فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحررياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص ! وأين أقصى ما تتعجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا ، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلاً ، وحققه في واقع الحياة ، بعد أن حققه في واقع الضمير ؟ ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتنب الظنون :

« ولا تجسسوا » ..

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن ؛ وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات ، والاطلاع على السوءات .

(١) أخرجه الطبراني بإسناده عن حارثة بن النعمان .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية ، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سواتهم . وتمشياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب .
ولكن الأمر أبعد من هذا أثراً . فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي ، وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية .

إن للناس حرياتهم وحرمااتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور ، ولا أن تمس بحال من الأحوال .

ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم . ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمان الأنفس والبيوت والأسرار والعورات . حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس . فالناس على ظواهرهم ، وليس لأحد أن يتعقب مواطنهم . وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم . وليس لأحد أن يظن أو يتوقع ، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما ، فيتجسس عليهم ليضبطهم ! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها ، مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة .

قال أبو داود : حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة ، قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن زيد بن وهب . قال : أتى ابن مسعود ، فقبل له : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به .

وعن مجاهد : لا تجسسوا ، خذوا بما ظهر لكم ، ودعوا ما ستر الله .
وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن دجين كاتب عقبة . قال : قلت لعقبة : إن لنا جيراناً يشربون الخمر ، وأنا داع لهم الشرط ، فيأخذونهم . قال : لا تفعل ولكن عظهم وتهدهم . قال : ففعل فلم ينتهوا . قال : فجاءه دجين فقال : إني قد نهيتهم فلم ينتهوا . وإني داع لهم الشرط فتأخذهم . فقال له عقبة : ويحك ! لا تفعل ، فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موءودة من قبرها »^١

وقال سفيان الثوري ، عن راشد بن سعد ، عن معاوية بن أبي سفيان ، قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » . فقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - كلمة سمعها معاوية - رضي الله عنه - من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نفعه الله تعالى بها^٢ .
فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي ! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب ، بل صار سياجاً حول حرمان الناس وحقوقهم وحررياتهم ، فلا تمس من قريب أو بعيد ، تحت أي ذريعة أو ستار .

فأين هذا المدى البعيد ؟ وأين هذا الأفق السامق ؟ وأين ما يتعجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظاً لحقوق الإنسان بعد ألف وأربع مائة عام ؟

(١) رواه أبو داود والنسائي من حديث الليث ابن سعيد

(٢) رواه أبو داود منفرداً به من حديث الثوري .

بعد ذلك يجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب ، يبدعه القرآن إبداعاً :

« ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ فكرهتموه » ..

لا يغتب بعضكم بعضاً . ثم يعرض مشهداً تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية . مشهد الأخ يأكل لحم أخيه .. ميتاً .. ! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز ، وأنهم إذن كرهوا الاغتيال !

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى ، والتلويح لمن اقترب من هذا شيئاً أن يبادر بالتوبة تطلعاً للرحمة :

« واتقوا الله إن الله تواب رحيم » ..

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياق حول كرامة الناس ، وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب . ويتشدد فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متمشياً مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفرع من شبح الغيبة البغيض .

في حديث رواه أبو داود : حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » .. ورواه الترمذي وصححه .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا يحيى ، عن سفيان ، حدثني علي بن الأقرع عن أبي حذيفة ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم - : حسبك من صفية كذا وكذا (قال عن مسدد تعني قصيرة) فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » . قالت : وحكيت له إنساناً . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما أحب أني حكيت إنساناً وأن لي كذا وكذا » .. وروى أبو داود بإسناده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم . قلت : من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » ..

ولما اعترف ماعز بالزنا هو والغامدية ، ورجمهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد إقرارهما متطوعين وإلحاحهما عليه في تطهيرهما ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - رجلين يقول أحدهما لصاحبه : ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ! ثم سار النبي - صلى الله عليه وسلم - حتى مر بجيفة حمار ، فقال : « أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلنا من جيفة هذا الحمار » . قالا : غفر الله لك يا رسول الله ! وهل يؤكل هذا ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « فما نلتما من أخيكما أنفاً أشد أكلاً منه . والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها »^١ .

وبمثل هذا العلاج الثابت المطرد تطهر المجتمع الإسلامي وارتفع ، وانتهى إلى ما صار إليه : حليماً يمشي على الأرض ، ومثلاً يتحقق في واقع التاريخ .

* * *

(١) رواه ابن كثير في التفسير وقال : إسناده صحيح .

وبعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا ؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية ؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم وحريتهم وحرمتهم ، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم ، بالتطلع إلى الله وتقواه ..

بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق ، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها ، ليردها إلى أصل واحد ، وإلى ميزان واحد ، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير » ..

يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرون شعوباً وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً .

يا أيها الناس . والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم .. من ذكر وأنثى .. وهو يطالعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل . إنها ليست التناحر والخصام . إنما هي التعارف والوثام . فأما اختلاف الألسنة والألوان ، واختلاف الطباع والأخلاق ، واختلاف المواهب والاستعدادات ، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق ، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات . وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله . إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم ، ويعرف به فضل الناس : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. والكريم حقاً هو الكريم عند الله . وهو يزكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازن : « إن الله عليم خبير » ..

وهكذا تسقط جميع الفوارق ، وتسقط جميع القيم ، ويرتفع ميزان واحد بقيمة واحدة ، وإلى هذا الميزان يتحاكم البشر ، وإلى هذه القيمة يرجع اختلاف البشر في الميزان .

وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض ؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس . ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : ألوهية الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد . كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض ، والعصبية للقبيلة ، والعصبية للبيت . وكلها من الجاهلية وإليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الأسماء . وكلها جاهلية عارية من الإسلام !

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها ، ليقم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة : راية الله .. لا راية الوطنية . ولا راية القومية . ولا راية البيت . ولا راية الجنس . فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام .

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب . ولينتهن قوم يفخرون بأبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان » ^١ .

وقال - صلى الله عليه وسلم - عن العصبية الجاهلية : « دعوها فإنها منتنة » ^٢ .

وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي . المجتمع الإنساني العالمي ، الذي تحاول البشرية

(١) رواه أبو بكر البزار في مسنده من حديث حذيفة .

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

في خيالها المحلق أن تحقق لونها من ألوانه فتخفق ، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم . . الطريق إلى الله . . ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمععة . . راية الله . .

* * *

وفي ختام السورة تأتي المناسبة لبيان حقيقة الإيمان وقيمته ، في الرد على الأعراب الذين قالوا : « آمنا » وهم لا يدركون حقيقة الإيمان . والذين آمنوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم أسلموا وهم لا يقدرُونَ منة الله على عباده بالإيمان :

« قالت الأعراب : آمنا . قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ، إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون . قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم . يؤمنون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا علي إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين . إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » . .

قيل : إنها نزلت في أعراب بني أسد . قالوا : آمنا . أول ما دخلوا في الإسلام . ومنوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالوا : يا رسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك . فأراد الله أن يعلمهم حقيقة ما هو قائم في نفوسهم وهم يقولون هذا القول . وأنهم دخلوا في الإسلام استسلاماً ، ولم تصل قلوبهم بعد إلى مرتبة الإيمان . فدل بهذا على أن حقيقة الإيمان لم تستقر في قلوبهم . ولم تشر بها أرواحهم : « قل : لم تؤمنوا . ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان في قلوبكم » . .

ومع هذا فإن كرم الله اقتضى أن يجزيهم على كل عمل صالح يصدر منهم لا ينقصهم منه شيئاً . فهذا الإسلام الظاهر الذي لم يخاطب القلب فيستحيل إيماناً واثقاً مطمئناً . هذا الإسلام يكفي لتحسب لهم أعمالهم الصالحة فلا تضعيع كما تضعيع أعمال الكفار . ولا ينقص من أجرها شيء عند الله ما بقوا على الطاعة والاستسلام : « وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً » . ذلك أن الله أقرب إلى المغفرة والرحمة ، فيقبل من العبد أول خطوة ، ويرضى منه الطاعة والتسليم ، إلى أن يستشعر قلبه الإيمان والطمأنينة : « إن الله غفور رحيم » . . ثم بين لهم حقيقة الإيمان :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله . ثم لم يرتابوا . وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب . التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يترعزع ولا يضطرب ، ولا تهجس فيه الهواجس ، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور . والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله . فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب . في واقع الحياة . في دنيا الناس . يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان ، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة . ولا يطبق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه ، والصورة الواقعية من حوله . لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة . ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس . فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن . يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه ، ليراهم ممثلة في واقع الحياة والناس . والخصومة

بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيماني ، وواقعه العملي . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيماني الكامل الجميل المستقيم في سبيل واقعه العملي الناقص الشائن المنحرف . فلا بد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله ، حتى تنتهي هذه الجاهلية إلى التصور الإيماني والحياة الإيمانية .

« أولئك هم الصادقون » .. الصادقون في عقيدتهم . الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون . فإذا لم يتحقق تلك المشاعر في القلب ، ولم يتحقق آثارها في واقع الحياة ، فالإيمان لا يتحقق . والصدق في العقيدة وفي ادعائها لا يكون .

ونقف قليلاً أمام هذا الاحتراس المعارض في الآية : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - ثم لم يرتابوا - » .. إنه ليس مجرد عبارة . إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية . وعلاج لحالة تقوم في النفس . حتى بعد إيمانها .. « ثم لم يرتابوا » وشبهه بها الاحتراس في قوله تعالى .. « إن الذين قالوا ربنا الله .. ثم استقاموا .. » فعدم الارتباب . والاستقامة على قوله : ربنا الله . تشير إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة - تحت تأثير التجارب القاسية ، والابتلاءات الشديدة - من ارتياب ومن اضطراب . وإن النفس المؤمنة لتضطرب في الحياة بشدائد تزلزل ، ونوازل تزعزع . والتي تثبت فلا تضطرب ، وتثق فلا ترتاب ، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله .

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق ، وأخطار الرحلة ، لتعزم أمرها ، وتحتسب ، وتستقيم ، ولا ترتاب عندما يدلمهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتناوحها العواصف والرياح ! ثم يستطرد مع الأعراب يعلمهم أن الله أعلم بقلوبهم وما فيها ؛ وأنه هو يخبرهم بما فيها ولا يتلقى منهم العلم عنها :

« قل : أتعلمون الله بدينكم ؟ والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، والله بكل شيء عليم » .. والإنسان يدعي العلم ، وهو لا يعلم نفسه ، ولا ما يستقر فيها من مشاعر ، ولا يدرك حقيقة نفسه ولا حقيقة مشاعره ؛ فالعقل نفسه لا يعرف كيف يعمل ، لأنه لا يملك مراقبة نفسه في أثناء عمله . وحين يراقب نفسه يكف عن عمله الطبيعي ، فلا يبقى هناك ما يراقبه ! وحين يعمل عمله الطبيعي لا يملك أن يشغل في الوقت ذاته بالمراقبة ! ومن ثم فهو عاجز عن معرفة خاصة ذاته وعن معرفة طريقة عمله ! وهو هو الأداة التي يتناول بها الإنسان !

« والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض » .. علماً حقيقياً . لا بظواهرها وآثارها . ولكن بحقائقها وماهياتها . وعلماً شاملاً محيطاً غير محدود ولا موقوت .

« والله بكل شيء عليم » .. بهذا الإجمال الشامل المحيط .

وبعد بيان حقيقة الإيمان التي لم يدركوها ولم يبلغوها ، يتوجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالخطاب عن منهم عليه بالإسلام ؛ وهذا المن ذاته دليل على أن حقيقة الإيمان لم تكن قد استقرت بعد في تلك القلوب ، وأن حلاوة الإيمان لم تكن بعد قد تذوقتها تلك الأرواح :

« يمينون عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين » ..

لقد منوا بالإسلام ، وزعموا الإيمان . فجاءهم الرد أن لا يمتنوا بالإسلام ، وأن المنّة لله عليهم لو صدقوا في دعوى الإيمان .

ونحن نقف أمام هذا الرد ، الذي يتضمن حقيقة ضخمة ، يغفل عنها الكثيرون ، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين .. إن الإيمان هو كبرى المنّ التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض . إنه أكبر من منّة الوجود الذي يمنحه الله ابتداءً لهذا العبد ؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع . إنها المنّة التي تجعل للوجود الإنساني حقيقة مميزة ؛ وتجعل له في نظام الكون دوراً أصيلاً عظيماً .

وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري ، حين تستقر حقيقته في قلبه ، هو سعة تصوّره لهذا الوجود ، ولارتباطاته هو به ، ولدوره هو فيه ؛ وصحة تصوّره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله ؛ وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقي الله ، وأنسه بكل ما في الوجود حوله ، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود ؛ وشعوره بقيمته وكرامته ؛ وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله ، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه .

فن سعة تصوّره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان ، الصغيرة الكيان ، الضئيلة القوة . إلى محيط هذا الوجود كله ، بما فيه من قوى مذكورة ، وأسرار مكنونة ؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود في نهاية المطاف .

فهو ، بالقياس إلى جنسه ، فرد من إنسانية ، ترجع إلى أصل واحد . هذا الأصل اكتسب إنسانيته ابتداءً من روح الله . من النفخة العلوية التي تصل هذا الكائن الطيني بالنور الإلهي . النور الطليق الذي لا تحصره سماء ولا أرض ولا بدء ولا انتهاء . فلا حد له في المكان ، ولا حد له في الزمان . وهذا العنصر الطليق هو الذي جعل من المخلوق البشري هذا الإنسان .. ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ليرفعه في نظر نفسه ، وليكرمه في حسه ، وليشعره بالوضاعة والانطلاق ؛ وقدماه تدبان على الأرض ، وقلبه يرف بأجنحة النور إلى مصدر النور الأول الذي منحه هذا اللون من الحياة .

وهو ، بالقياس إلى الفئة التي ينتسب إليها ، فرد من الأمة المؤمنة . الأمة الواحدة ، الممتدة في شعاب الزمن ، السائرة في موكب كريم ، يقوده نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين .. ويكفي أن يستقر هذا التصور في قلب إنسان ، فيشعر أنه فرع من تلك الشجرة الطيبة الباسقة المتطاولة ، العميقة الجذور ، الممتدة الفروع ، المتصلة بالسماء في عمرها المديد .. يكفي أن يشعر الإنسان هذا الشعور ليجد للحياة طعماً آخر ؛ وليحس بالحياة إحساساً جديداً ، وليضيف إلى حياته هذه حياة كريمة ، مستمدة من هذا النسب العريق .

ثم يتسع تصوّره ويتسع حتى يتجاوز ذاته وأمته وجنسه الإنساني ؛ ويرى هذا الوجود كله . الوجود الصادر عن الله ، الذي عنه صدر ، ومن نفخة روحه صار إنساناً . ويعرفه إيمانه أن هذا الوجود كله كائن حي ، مؤلف من كائنات حية . وأن لكل شيء فيه روحاً ، وأن لهذا الكون كله روحاً .. وأن أرواح الأشياء ، وروح هذا الكون الكبير ، تتوجه إلى بارئها الأعلى – كما تتوجه روحه هو – بالدعاء والتسبيح ؛ وتستجيب له بالحمد والطاعة ، وتنتهي إليه بالإذعان والاستسلام . فإذا هو في كيان هذا الكون ، جزء من كل ، لا ينفصل ولا ينزل . صادر عن بارئه ، متجه إليه بروحه ، راجع في النهاية إليه . وإذا هو أكبر من ذاته المحدودة . أكبر بقدر تصوّره لضخامة هذا الوجود الهائل . وإذا هو مانوس بكل ما حوله من أرواح . ومانوس بعد ذلك كله

بروح الله التي ترعاه . وعندئذ يشعر أنه يملك أن يتصل بهذا الوجود كله ، وأن يمتد طويلاً وعرضاً فيه ؛ وأنه يملك أن يصنع أشياء كثيرة ، وأن يُنشئ أحداثاً ضخمة ، وأن يؤثر بكل شيء ويتأثر . ثم يملك أن يستمد مباشرة من تلك القوة الكبرى التي برأت كل ما في الوجود من قوى وطاقات . القوة الكبرى التي لا تنحسر ولا تضعف ولا تغيب .

ومن هذا التصور الواسع الرحيب يستمد موازين جديدة حقيقية للأشياء والأحداث والأشخاص والقيم والاهتمامات والغايات . ويرى دوره الحقيقي في هذا الوجود ، ومهمته الحقيقية في هذه الحياة . بوصفه قادراً من أقدار الله في الكون ، يوجهه ليحقق به ويحقق فيه ما يشاء . ويمضي في رحلته على هذا الكوكب ، ثابت الخطو ، مكشوف البصيرة ، مأنوس الضمير .

ومن هذه المعرفة لحقيقة الوجود حوله ، ولحقيقة الدور المقسوم له ، ولحقيقة الطاقة المهيأة له للقيام بهذا الدور . من هذه المعرفة يستمد الطمأنينة والسكينة والارتياح لما يجري حوله ، ولما يقع له . فهو يعرف من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين يذهب ؟ وماذا هو واجد هناك ؟ وقد علم أنه هنا لأمر ، وأن كل ما يقع له مقدر لتأم هذا الأمر . وعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وأنه مجزي على الصغيرة والكبيرة ، وأنه لم يخلق عبثاً ، ولن يترك سدى ، ولن يمضي مفرداً ..

ومن هذه المعرفة تختفي مشاعر القلق والشك والحيرة الناشئة عن عدم معرفة المنشأ والمصير ؛ وعدم رؤية المطوي من الطريق ، وعدم الثقة بالحكمة التي تكمن وراء مجيئه وذهابه ، ووراء رحلته في ذلك الطريق . يختفي شعور كشعور الخيام الذي يعبر عنه بما ترجمته :

لبست ثوب العمر لم أستشر وحررت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني ولم أدر لماذا جئت أين المقر ؟

فالؤمن يعرف - بقلب مطمئن ، وضمير مستريح ، وروح مستبشرة - أنه يلبس ثوب العمر بقدر الله الذي يصرف الوجود كله تصريف الحكيم الخبير . وأن اليد التي ألبسته إياه أحكم منه وأرحم به ، فلا ضرورة لاستشارته لأنه لم يكن ليشير كما يشير صاحب هذه اليد العليم البصير . وأنه يلبسه لأداء دور معين في هذا الكون ، يتأثر بكل ما فيه ، ويؤثر في كل ما فيه . وأن هذا الدور يتناسق مع جميع الأدوار التي يقوم بها كل كائن من الأشياء والأحياء منذ البدء حتى المصير .

وهو يعلم إذن لماذا جاء ، كما أنه يعرف أين المقر ، ولا يحار بين شتى الفكر ، بل يقطع الرحلة ويؤدي الدور في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين . وقد يرتقي في المعرفة الإيمانية ، فيقطع الرحلة ويؤدي الدور في فرح وانطلاق واستبشار ، شاعراً بجمال الهبة وجلال العطية . هبة العمر - أو الثوب - الممنوح له من يد الكريم المنان ، الجميل اللطيف ، الودود الرحيم . وهبة الدور الذي يؤديه - كائناً ما كان من المشقة - لينتهي به إلى ربه في اشتياق حبيب !

ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق ، قبل أن أحيا في ظلال القرآن ، وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم . ذلك الشعور الذي خلعت روحه المتعبة على الكون كله ، فعبرت عنه أقول :

وقف الكون حائراً أين يمضي ؟ ولماذا وكيف - لو شاء - يمضي ؟
عبث ضائع وجهد غبين ومصير مقتنع ليس يُرضي

فأنا أعرف اليوم - والله الحمد والمنة - أنه ليس هناك جهد غيبين فكل جهد مجزي . وليس هناك تعب ضائع فكل تعب مثمر . وأن المصير مرض وأنه بين يدي عادل رحيم . وأنا أشعر اليوم - والله الحمد والمنة - أن الكون لا يقف تلك الوقفة البائسة أبداً ؛ فروح الكون تؤمن بربها ، وتتجه إليه ، وتسبح بحمده . والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له ، في طاعة وفي رضى وفي تسليم !

وهذا كسب ضخخ في عالم الشعور وعالم التفكير ، كما أنه كسب ضخخ في عالم الجسد والأعصاب ، فوق ما هو كسب ضخخ في جمال العمل والنشاط والتأثر والتأثير .

والإيمان - بعد - قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها في الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها ، وتدفعها في الطريق ..

« ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفتى ؛ وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار ، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والنبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف »^١ .

« تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهاويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر ، وقوة الثقة في الله . وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها في اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد ، تمضي إليه مستنيرة الهدف ، في قوة ، وفي ثقة ، وفي يقين »^٢ .

ويضاعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي فيه الكون كله ظاهره وخافيه . وأن كل ما في الكون من قوى مكنونة تنتجه اتجاهها إيمانياً ، فيلتقي بها المؤمن في طريقه ، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل . مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون يريق !

وصدق الله العظيم : « يمتن عليك أن أسلموا . قل : لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » . فهي المنة الكبرى التي لا يملكها ولا يهبها إلا الله الكريم ، لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم .

وصدق الله العظيم . فإذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدرجات وتلك المعاني والمشاعر ؟ وعاش بها ومعها ، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها ؟ وماذا وجد من فقدتها ولو تقلب في أعطاف

(١) مقتطفات من فصل : « العقيدة والحياة » في كتاب : « السلام العالمي والإسلام » .

(٢) المصدر السابق .

سورة الحجرات

النعم . وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام . والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الايمان ؛ وتهتدي به إلى بارئها الكريم ؟

« إن الله يعلم غيب السماوات والأرض ، والله بصير بما تعملون » ..

والذي يعلم غيب السماوات والأرض يعلم غيب النفوس ، ومكنون الضمائر ، وحقائق الشعور وببصر ما يعمله الناس ، فلا يستمد علمه بهم من كلمات تقولها ألسنتهم ؛ ولكن من مشاعر تجيش في قلوبهم ، وأعمال تصدق ما يجيش في القلوب ..

* * *

وبعد فهذه هي السورة الجليلة ، التي تكاد بآياتها الثمانية عشرة تستقل برسم معالم عالم كريم نظيف رفيع سليم .
بينما هي تكشف كبريات الحقائق ، وتقرر أصولها في أعماق الضمير ..

* * *

(٥٠) سُورَةُ ق مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا خَمْسٌ وَارْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرُوا وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ ﴿٨﴾ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعِینَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿١٥﴾ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴿١٧﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٨﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٩﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَنِیدٌ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٢١﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٢﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقٍ وَشَهِیدٌ ﴿٢٣﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِیدٌ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ قَرِیْنُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَبْدٍ ﴿٢٥﴾ الْقَبَا فِي جَهَنَّمَ كُلٌّ كَفَّارٍ عَنِیدٍ ﴿٢٦﴾ مَتَاعٌ لِلْخَیْرِ مُعْتَدٍ مَرِیْبٍ ﴿٢٧﴾ الَّذِی

جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ
بَعِيدٍ ﴿٣٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٣٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٣٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٤٠﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِّلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٤١﴾
هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ﴿٤٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٤٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ
ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٤٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٤٥﴾

وَكَرَّاهُكَ قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرًا
لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُّغُوبٍ ﴿٤٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٤٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٥٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ
يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٥٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٥٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاجًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٥٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا
أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٥٥﴾

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب بهذه السورة في العيد والجمعة ؛ فيجعلها هي موضوع خطبته ومادتها ، في الجماعات الحافلة .. وإن لها لثأناً ..

إنها سورة رهيبة ، شديدة الوقع بحقائقها ، شديدة الإيقاع ببنائها التعبيري ، وصورها وظلالها وجرس فواصلها . تأخذ على النفس أقطارها ، وتلاحقها في خطراتها وحركاتها ، وتتعبها في سرها وجهرها ، وفي باطنها وظاهرها . تتبعها برقابة الله ، التي لا تدعها لحظة واحدة من المولد ، إلى الممات ، إلى البعث ، إلى الحشر ، إلى الحساب . وهي رقابة شديدة دقيقة رهيبة . تطبق على هذا المخلوق الإنساني الضعيف إطباقاً كاملاً شاملاً . فهو في القبضة التي لا تغفل عنه أبداً ، ولا تغفل من أمره دقيقاً ولا جليلاً ، ولا تفارقه كثيراً ولا قليلاً . كل نفس معدود . وكل هاجسة معلومة . وكل لفظ مكتوب . وكل حركة محسوبة . والرقابة الكاملة الرهيبة مضروبة على وسائس القلب ، كما هي مضروبة على حركة الجوارح . ولا حجاب ولا ستار دون هذه الرقابة النافذة ، المطلعة على السر والنجوى اطلاعها على العمل والحركة ، في كل وقت وفي كل حال .

وكل هذه حقائق معلومة . ولكنها تعرض في الأسلوب الذي يبيدها وكأنها جديدة ، تروع الحس روعة المفاجأة ؛

وتهز النفس هزاً ، وترجها رجاً ، وتثير فيها رعشة الخوف ، وروعة الإعجاب ، ورجفة الصحو من الغفلة على الأمر المهول الرهيب !

وذلك كله إلى صور الحياة ، وصور الموت ، وصور البلى ، وصور البعث ، وصور الحشر . وإلى إرهاص الساعة في النفس وتوقعها في الحس . وإلى الحقائق الكونية المتجلية في السماء والأرض ، وفي الماء والنبت ، وفي الثمر والطلع . . « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » . .

وإنه ليصعب في مثل هذه السورة التلخيص والتعريف ، وحكاية الحقائق والمعاني والصور والظلال ، في غير أسلوبها القرآني الذي وردت فيه ؛ وفي غير عبارتها القرآنية التي تشع بذاتها تلك الحقائق والمعاني والصور والظلال ، إشعاعاً مباشراً للحس والضمير .

فلنأخذ في استعراض السورة بذاتها . . والله المستعان . .

* * *

« ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . إذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريج . أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها ؟ وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً . كذلك الخروج .

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم ثُج . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفعينا بالخلق الأول ؛ بل هم في لبس من خلق جديد » . .

* * *

هذا هو المقطع الأول في السورة . وهو يعالج قضية البعث ، وإنكار المشركين له ، وعجبهم من ذكره والقول به . ولكن القرآن لا يواجه إنكارهم لهذه القضية فيعالجه وحده . إنما هو يواجه قلوبهم المنحرفة ليردها أصلاً إلى الحق ، ويقوم ما فيها من عوج ؛ ويحاول قبل كل شيء إيقاظ هذه القلوب وهزها لتتفتح على الحقائق الكبيرة في صلب هذا الوجود . ومن ثم لا يدخل معهم في جدل ذهني لإثبات البعث . وإنما يحيي قلوبهم لتتفكر هي وتتدبر ، ويلمس وجدانهم ليتأثر بالحقائق المباشرة من حوله فيستجيب . . وهو درس يحسن أن ينتفع به من يحاولون علاج القلوب !

وتبدأ السورة بالقسم . القسم بالحرف : « قاف » وبالقرآن المجيد ، المؤلف من مثل هذا الحرف . بل إنه هو أول حرف في لفظ « قرآن » . .

ولا يذكر المقسم عليه . فهو قسم في ابتداء الكلام ، يوحي بذاته باليقظة والاهتمام . فالأمر جلل ، والله يبدأ الحديث بالقسم ، فهو أمر إذن له خطر . ولعل هذا هو المقصود بهذا الابتداء . إذ يضرب بعده بحرف « بل » عن المقسم عليه – بعد أن أحدث القسم أثره في الحس والقلب – ليبدأ حديثاً كأنه جديد عن عجبهم واستنكارهم لما جاءهم به رسولهم في القرآن المجيد من أمر البعث والخروج :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . إذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد .

بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم . وما في هذا من عجب . بل هو الأمر الطبيعي الذي تتقبله الفطرة السليمة ببساطة وترحيب . الأمر الطبيعي أن يختار الله من الناس واحداً منهم ، يحس بإحساسهم ، ويشعر بشعورهم ، ويتكلم بلغتهم ، ويشاركهم حياتهم ونشاطهم ، ويدرك دوافعهم وجوازهم ، ويعرف طاقاتهم واحتمالهم ، فيرسله إليهم لينذرهم ما ينتظرهم إن هم ظلوا فيما هم فيه ؛ ويعلمهم كيف يتجهون الاتجاه الصحيح ؛ ويبلغهم التكاليف التي يفرضها الاتجاه الجديد ، وهو معهم أول من يحمل هذه التكاليف .

ولقد عجبوا من الرسالة ذاتها ، وعجبوا - بصفة خاصة - من أمر البعث الذي حدثهم عنه هذا المنذر أول ما حدثهم . فقضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة الإسلامية . قاعدة تقوم عليها العقيدة ويقوم عليها التصور الكلي لمقتضيات هذه العقيدة . فالمسلم مطلوب منه أن يقوم على الحق ليدفع الباطل ، وأن ينهض بالخير ليقضي على الشر ، وأن يجعل نشاطه كله في الأرض عبادة لله ، بالتوجه في هذا النشاط كله لله . ولا بد من جزاء على العمل . وهذا الجزاء قد لا يتم في رحلة الأرض . فيؤجل للحساب الختامي بعد نهاية الرحلة كلها . فلا بد إذن من عالم آخر ، ولا بد إذن من بعث للحساب في العالم الآخر . . . وحين ينهار أساس الآخرة في النفس ينهار معه كل تصور لحقيقة هذه العقيدة وتكاليدها ؛ ولا تستقيم هذه النفس على طريق الإسلام أبداً .

ولكن أولئك القوم لم ينظروا للمسألة من هذا الجانب أصلاً . إنما نظروا إليها من جانب آخر ساذج شديد السذاجة ، بعيد كل البعد عن إدراك حقيقة الحياة والموت ، وعن إدراك أي طرف من حقيقة قدرة الله . فقالوا : « إذا متنا وكنا تراباً ؟ ذلك رجع بعيد » !

والمسألة إذن في نظرهم هي مسألة استبعاد الحياة بعد الموت والبلل . وهي نظرة ساذجة كما أسلفنا ، لأن معجزة الحياة التي حدثت مرة يمكن أن تحدث مرة أخرى . كما أن هذه المعجزة تقع أمامهم في كل لحظة ، وتحيط بهم في جنبات الكون كله . وهذا هو الجانب الذي قادهم إليه القرآن في هذه السورة .

غير أننا قبل أن نغضي مع لمسات القرآن وآياته الكونية في معرض الحياة ، نقف أمام لمسة البلى والدثور التي تتمثل في حكاية قولهم والتعليق عليه :

« إذا متنا وكنا تراباً ... ؟ » .. وإذن فالناس يموتون . وإذن فهم يصيرون تراباً . وكل من يقرأ حكاية قول المشركين يلتفت مباشرة إلى ذات نفسه ، وإلى غيره من الأحياء حوله . يلتفت ليتصور الموت والبلى والدثور . بل ليحس ديب البلى في جسده وهو بعد حي فوق التراب ! وما كالموت يهز قلب الحي ، وليس كالبلى يمسه بالرجفة والارتعاش .

والتعقيب يعمق هذه اللمسة ويقوي وقعها ؛ وهو يصور الأرض تأكل منهم شيئاً فشيئاً :

« قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ، وعندنا كتاب حفيظ » ..

لكأنما التعبير يجسم حركة الأرض ويحييها وهي تذيب أجسادهم المغيبة فيها ، وتأكلها رويداً رويداً . ويصور أجسادهم وهي تتأكل باطراد وتبلى . ليقول : إن الله يعلم ما تأكله الأرض من أجسادهم ، وهو مسجل في كتاب حفيظ ؛ فهم لا يذهبون ضياعاً إذا ماتوا وكانوا تراباً . أما إعادة الحياة إلى هذا التراب ، فقد حدثت من قبل ، وهي تحدث من حولهم في عمليات الإحياء المتجددة التي لا تنتهي .

وهكذا تتوالى اللمسات التي تذيب القلوب وترققها ، وتدعها حساسة متوفرة جيدة الاستقبال . وذلك قبل البدء في الهجوم على القضية ذاتها !

ثم يكشف عن حقيقة حالهم التي تنبعث منها تلك الاعتراضات الواهية . ذلك أنهم تركوا الحق الثابت ،

فادت الأرض من تحتم ، ولم يعودوا يستقرون على شيء أبداً :
« بل كذبوا بالحق لما جاءهم ، فهم في أمر مريع » ..

وإنه لتعبير فريد مصور مشخص لحال من يفارقون الحق الثابت ، فلا يقر لهم من بعده قرار ..
إن الحق هو النقطة الثابتة التي يقف عليها من يؤمن بالحق فلا تتزعزع قدماه ، ولا تضطرب خطاه ، لأن الأرض ثابتة تحت قدميه لا تتزلزل ولا تحسف ولا تغوص . وكل ما حوله - عدا الحق الثابت - مضطرب مائج مزعزع مريع ، لا ثبات له ولا استقرار ، ولا صلابة له ولا احتمال . فمن تجاوز نقطة الحق الثابتة زلت قدماه في ذلك المضطرب المريع ، وفقد الثبات والاستقرار ، والطمأنينة والقرار . فهو أبداً في أمر مريع لا يستقر على حال !

ومن يفارق الحق تتقاذفه الأهواء ، وتتناوحه الهواجس ، وتتخاطفه الهوائف ، وتمزقه الحيرة ، وتقلقه الشكوك . ويضطرب سعيه هنا وهناك ، وتتأرجح مواقفه إلى اليمين وإلى الشمال . وهو لا يلوذ من حيرته بركن ركين ، ولا بملجأ أمين .. فهو في أمر مريع ..

إنه تعبير عجيب ، يحسم خلجات القلوب ، وكأنها حركة تتبعها العيون !
واستطراداً مع إيقاع الحق الثابت المستقر الراسي الشامخ - وفي الطريق إلى مناقشة اعتراضهم على حقيقة البعث - يعرض بعض مظاهر الحق في بناء الكون ؛ فيوجه أنظارهم إلى السماء وإلى الأرض وإلى الرواسي ، وإلى الماء النازل من السماء ، وإلى النخل الباسقات ، وإلى الجنات والنبات . في تعبير يتناسق مع صفة الحق الثابت الراسي .. الجميل ..

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ وما لها من فروج » ..
إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذي فارقه . أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار ؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراعة من الخلل والاضطراب ! إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا . مع الحق وما فيه من ثبات وكمال وجمال . ومن ثم تحيي صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج .

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيح :
« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ..
فالامتداد في الأرض والرواسي الثابتات والبهجة في النبات .. تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال ، التي وجه النظر إليها في السماء .

وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة ، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم ، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق ، ومن عرض صفحات الكون :
« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ..

تبصرة تكشف الحجب ، وتثير البصيرة ، وتفتح القلوب ، وتصل الأرواح بهذا الكون العجيب ، وما وراءه من إبداع وحكمة وترتيب .. تبصرة ينتفع بها كل عبد منيب ، يرجع إلى ربه من قريب .

وهذه هي الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل . هذه هي الوصلة التي تجعل للنظر في كتاب الكون ، والتعرف إليه أثراً في القلب البشري ، وقيمة في الحياة البشرية . هذه هي الوصلة

التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم . وهي التي تهملها مناهج البحث التي يسمونها « علمية » في هذا الزمان . فتقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه . فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون ؛ وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير . وكل معرفة بنجم من النجوم ، أو فلك من الأفلاك ، أو خاصة من خواص النبات والحيوان ، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال وما فيه من عوالم حية وجامدة - إذا كانت هناك عوالم جامدة أو شيء واحد جامد في هذا الوجود ! - كل معرفة « علمية » يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري ، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون ، وإلى تعارف يوثق أو أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء . وإلى شعور بالوحدة التي تنتهي إلى خالق هذا الكون وما فيه ومن فيه . . وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر ، هي معرفة ناقصة ، أو علم زائف ، أو بحث عقيم !

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح ، الذي يقرأ بكل لغة ، ويدرك بكل وسيلة ؛ ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ ، والمتحضر ساكن العماثر والقصور . كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده ، فيجد فيه زاداً من الحق ، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق . وهو قائم مفتوح في كل آن : « تبصرة وذكري لكل عبد منيب » . . ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين . لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة « المنهج العلمي » . المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه !

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار « المنهج العلمي » في إدراك الحقائق المفردة . ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض ، وردها إلى الحقائق الكبرى ، ووصل القلب البشري بها ، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود ، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم ؛ لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تقضي لها بشيء من سرها الجميل ! والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدي إليها بهذا الرباط الوثيق . . وبعد هذه اللقطة يمضي في عرض صفحات الحق في كتاب الكون - في طريقه إلى قضية الأحياء والبعث : « ونزلنا من السماء ماء مباركاً ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً . كذلك الخروج » . .

والماء النازل من السماء آية تحيي موات القلوب قبل أن تحيي موات الأرض . ومشهده ذو أثر خاص في القلب لا شك فيه . وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافاً . قلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء ، القريب العهد بالفطرة !

ويصف الماء هنا بالبركة ، ويجعله في يد الله سبباً لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد - وهو النبات المحصود - ومما ينبت به النخل . ويصفها بالسموق والجمال : « والنخل باسقات لها طلع نضيد » . . وزيادة هذا الوصف للطلع مقصودة لإبراز جمال الطلع المنضد في النخل الباسق . وذلك تمشياً مع جو الحق وظلاله . الحق السامق الجميل .

ويلمس القلوب وهو يمتن عليها بالماء والجنات والحب والنخل والطلع : « رزقاً للعباد » . . رزقاً يسوق الله سببه ، ويتولى نبته ، ويطلع ثمره ، للعباد ، وهو المولى ، وهم لا يقدرُونَ ولا يشكرون !

وهنا ينتهي بموكب الكون كله إلى الهدف الأخير :
« وأحيينا به بلدة ميتا . كذلك الخروج » ..

فهي عملية دائمة التكرار فيما حولهم ، مألوفة لهم ؛ ولكنهم لا ينتبهون إليها ولا يلحظونها قبل الاعتراض والتعجب .. كذلك الخروج .. على هذه الوتيرة ، وبهذه السهولة .. الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشري ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب .. وكذلك يعالج القلوب خالق القلوب ..

* * *

ثم يعقب بعرض صفحات من كتاب التاريخ البشري بعد عرض تلك الصفحات من كتاب الكون ، تنطق بمآل المكذبين الذين ماروا كما يماري هؤلاء المشركون في قضية البعث ، وكذبوا كما يكذبون بالرسول ، فحق عليهم وعيد الله الذي لا مفر منه ولا محيد :

« كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . أفبعينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد » ..
والرس : البثر : المطوية غير المبنية . والأيكة : الشجر الملتف الكثيف . وأصحاب الأيكة هم - في الغالب - قوم شعيب . أما أصحاب الرس فلا بيان عنهم غير هذه الإشارة . وكذلك قوم تبع . وتبع لقب للملوك حمير باليمن . وبقية الأقوام المشار إليهم هنا معروفون لقارئ القرآن .

وواضح أن الغرض من هذه الإشارة السريعة ليس تفصيل أمر هذه الأقوام . ولكنه إيقاع على القلوب بمصارع الغابرين . حين كذبوا الرسل . والذي يلفت النظر هو النص على أن كلاً منهم كذب الرسل : « كل كذب الرسل فحق وعيد » . وهي لفظة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة . فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسول أجمعين ؛ لأنه كذب بالرسالة الواحدة التي جاء بها الرسل أجمعون . والرسول إخوة وأمة واحدة وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان ، وكل فرع من تلك الشجرة تلخيص لخصائصها ، وصورة منها . ومن يمس منها فرعاً فقد مس الأصل وسائر الفروع .. « فحق وعيد » ونالهم ما يعرف السامعون !

وفي ظل هذه المصارع يعود إلى القضية التي بها يكذبون . قضية البعث من جديد . فيسأل : « أفبعينا بالخلق الأول ؟ » .. والخلق شاهد حاضر فلا حاجة إلى جواب ! « بل هم في لبس من خلق جديد » .. غير ناظرين إلى شهادة الخلق الأول الموجود ! فإذا يستحق من يكذب وأمامه ذلك الشاهد المشهود ؟ !

* * *

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

« وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .. »

« ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدي عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا

بظلام للعبيد . يوم نقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ..

* * *

وهذا هو المقطع الثاني في السورة : استطراد مع قضية البعث ، التي عاجلها الشوط الأول ؛ وعلاج للقلوب المكذبة بلمسات جديدة ، ولكنها رهيبة مخيفة . إنها تلك الرقابة التي تحدثنا عنها في تقديم السورة . ومشاهدها التي تمثلها وتشخصها . ثم مشهد الموت وسكراته . ثم مشهد الحساب وعرض السجلات . ثم مشهد جهنم فاعرة فاهها تتلمظ كلما ألقى فيها وقودها البشري تقول : « هل من مزيد ؟ » . وإلى جواره مشهد الجنة والنعم والتكريم .

إنها رحلة واحدة تبدأ من الميلاد ، وتمر بالموت ، وتنتهي بالبعث والحساب . رحلة واحدة متصلة بلا توقف ؛ ترسم للقلب البشري طريقه الوحيد الذي لا فكاك عنه ولا محيد ؛ وهو من أول الطريق إلى آخره في قبضة الله لا يتملص ولا يتفلت ، وتحت رقابته التي لا تفتر ولا تغفل . وإنها لرحلة رهيبة تملأ الحس روعة ورهبة . وكيف بإنسان في قبضة الجبار ، المطلع على ذات الصدور ؟ وكيف بإنسان طالبه هو الواحد الديان ، الذي لا ينسى ولا يغفل ولا ينام !

إنه ليرجف ويضطرب ويفقد توازنه وتماسكه ، حين يشعر أن السلطان في الأرض يتبعه بجواسيسه وعيونهم ، ويراقبه في حركته وسكونه . وسلطان الأرض مهما تكن عيونهم لا يراقب إلا الحركة الظاهرة . وهو يحتمي منه إذا آوى إلى داره ، وإذا أغلق عليه بابه ، أو إذا أغلق فيه ! أما قبضة الجبار فهي مسلطة عليه أينما حل وأينما سار . وأما رقابة الله فهي مسلطة على الضمائر والأسرار .. فكيف ؟ كيف بهذا الإنسان في هذه القبضة وتحت هذه الرقابة ؟ !

* * *

« ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ..

إن ابتداء الآية : « ولقد خلقنا الإنسان » .. يشير إلى المقتضى الضمني للعبارة . فصانع الآلة أدرى بتركيبها وأسرارها . وهو ليس بخالقها لأنه لم ينشئ مادتها ، ولم يزد على تشكيلها وتركيبها . فكيف بالمنشئ الموجد الخالق ؟ إن الإنسان خارج من يد الله أصلاً ؛ فهو مكشوف الكنه والوصف والسر لخالقه العليم بمصدره ومنشئه وحاله ومصيره ..

« ونعلم ما توسوس به نفسه » .. وهكذا يجد الإنسان نفسه مكشوفة لا يحجبها ستر ، وكل ما فيها من وساوس خافتة وخافية معلوم لله ، تمهيداً ليوم الحساب الذي ينكره ويحجده !

« ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .. الوريد الذي يجري فيه دمه . وهو تعبير يمثل ويصور القبضة المألقة ، والرقابة المباشرة . وحين يتصور الإنسان هذه الحقيقة لا بد يرتعش ويحاسب . ولو استحضر القلب مدلول هذه العبارة وحدها ما جرؤ على كلمة لا يرضى الله عنها . بل ما جرؤ على هاجسة في الضمير لا تنال القبول . وإنها وحدها لكافية ليعيش بها الإنسان في حذر دائم وخشية دائمة ويقظة لا تغفل عن المحاسبة .

ولكن القرآن يستطرد في إحكام الرقابة . فإذا الإنسان يعيش ويتحرك وينام ويأكل ويشرب ويتحدث ويصمت ويقطع الرحلة كلها بين ملكين موكلين به ، عن اليمين وعن الشمال ، يتلقيان منه كل كلمة وكل حركة ويسجلانها فور وقوعها :

« إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . أي رقيب حاضر ، لا كما يتبادر إلى الأذهان أن اسمي الملكين رقيب ، وعتيد !

ونحن لا ندري كيف يسجلان . ولا داعي للتخيلات التي لا تقوم على أساس . فوقفنا بإزاء هذه الغيبات أن نتلقاها كما هي ، وثؤمن بمدلولها دون البحث في كيفية ، التي لا تفيدنا معرفتها في شيء . فضلاً على أنها غير داخلية في حدود تجاربنا ولا معارفنا البشرية .

ولقد عرفنا نحن - في حدود علمنا البشري الظاهر - وسائل للتسجيل لم تكن تخطر لأجدادنا على بال . وهي تسجل الحركة والنبرة كالأشرطة الناطقة وأشرطة السينما وأشرطة التليفزيون . وهذا كله في محيطنا نحن البشر . فلا داعي من باب أولى أن نقيّد الملائكة بطريقة تسجيل معينة مستمدة من تصوراتنا البشرية المحدودة ، البعيدة نهائياً عن ذلك العالم المجهول لنا ، والذي لا نعرف عنه إلا ما نجربنا به الله . بلا زيادة !

وحسبنا أن نعيش في ظلال هذه الحقيقة المصورة ، وأن نستشعر ونحن نهم بأية حركة وبأية كلمة أن عن يميننا وعن شمالنا من يسجل علينا الكلمة والحركة ؛ لتكون في سجل حسابنا ، بين يدي الله الذي لا يضيع عنده فتيل ولا قطمير .

حسبنا أن نعيش في ظل هذه الحقيقة الرهيبة . وهي حقيقة . ولو لم ندرك نحن كيفية . وهي كائنة في صورة ما من الصور ، ولا مفر من وجودها ، وقد أنبأنا الله بها لنحسب حسابها . لا لننفق الجهد عبثاً في معرفة كيفية !

والذين انتفعوا بهذا القرآن ، وتوجهات رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الخاصة بحقائق القرآن ، كان هذا سبيلهم : أن يشعروا ، وأن يعملوا وفق ما شعروا ..

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثي عن أبيه عن جده علقمة ، عن بلال بن الحارث المزني - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه . وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » . قال : فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث . (ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث محمد بن عمرو به وقال الترمذي : حسن صحيح) .

وحكي عن الإمام أحمد أنه كان في سكرات الموت يئن . فسمع أن الأنين يكتب . فسكت حتى فاضت روحه رضوان الله عليه .

وهكذا كان أولئك الرجال يتلقون هذه الحقيقة فيعيشون بها في يقين .

* * *

تلك صفحة الحياة ، ووراءها في كتاب الإنسان صفحة الاحتضار :

« وجاءت سكرة الموت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد » ..

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه ، أو يبعد شبحه عن خاطره . ولكن أئى له ذلك :
والموت طالب لا يعمل الطلب ، ولا يبطئ الخطى ، ولا يخلف الميعاد ؛ وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب
في الأوصال ! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان : « ذلك ما كنت منه تحيد » . وإنه ليرجف لصداها
وهو بعد في عالم الحياة ! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات ! وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « سبحان الله . إن للموت لسكرات .. »
يقولها وهو قد اختار الرفيق الأعلى واشتاق إلى لقاء الله . فكيف بمن عداه ؟

ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق : « وجاءت سكرة الموت بالحق » .. وهي توحى بأن النفس
البشرية ترى الحق كاملاً وهي في سكرات الموت . تراه بلا حجاب ، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت
تجحد ، ولكن بعد فوات الأوان ، حين لا تنفع رؤية ، ولا يجدي إدراك ، ولا تقبل توبة ، ولا يحسب إيمان .
وذلك الحق هو الذي كذبوا به فانتهاوا إلى الأمر المريج ! .. وحين يدركونه ويصدقون به لا يجدي شيئاً ولا يفيد !

* * *

ومن سكرة الموت ، إلى وهلة الحشر ، وهول الحساب :

« ونفخ في الصور . ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد . لقد كنت في غفلة من هذا
فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد . وقال قرينه : هذا ما لدي عتيد . ألقيا في جهنم كل كفار عنيد .
مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما أطغيته
ولكن كان في ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدي وما أنا
بظلام للعبيد » ..

وهو مشهد يكفي استحضاره في النفس لتقضي رحلتها كلها على الأرض في توجس وحذر وارتقاب . وقد
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ،
وانتظر أن يؤذن له ؟ » قالوا : يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال - صلى الله عليه وسلم - : « قولوا : حسبنا
الله ونعم الوكيل » . فقال القوم : حسبنا الله ونعم الوكيل ! ..

« وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » .. جاءت كل نفس . فالنفس هنا هي التي تحاسب ، وهي التي
تتلقى الجزاء . ومعها سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها . قد يكونان هما الكاتبان الحافظان لها في الدنيا . وقد
يكونان غيرهما . والأول أرجح . وهو مشهد أشبه شيء بالسوق للمحاكمة . ولكن بين يدي الجبار .

وفي هذا الموقف العصيب يقال له : « لقد كنت في غفلة من هذا . فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم
حديد » .. قوي لا يحجبه حجاب ، وهذا هو الموعد الذي غفلت عنه ، وهذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه ،
وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها . فالآن فانظر . فبصرك اليوم حديد !

هنا يتقدم قرينه . والأرجح أنه الشهيد الذي يحمل سجل حياته : « وقال قرينه هذا ما لدي عتيد » ..
حاضر مهياً معد . لا يحتاج إلى تهيئة أو إعداد !

ولا يذكر السياق شيئاً عن مراجعة هذا السجل تعجلاً بتوقيع الحكم وتنفيذه . إنما يذكر مباشرة النطق
العلوي الكريم ، للملكين الحافظين : السائق والشهيد : « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد

مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد » .. وذكر هذه النعوت يزيد في حرج الموقف وشدته . فهو دلالة غضب الجبار القهار في الموقف العصيب الرهيب ؛ وهي نعوت قبيحة مستحقة لتشديد العقوبة : كفار . عنيد . مناع للخير . معتد . مريب . الذي جعل مع الله إلهاً آخر . وتنتهي بتوكيد الأمر الذي لا يحتاج إلى توكيد : « فألقياه في العذاب الشديد » بياناً لمكانه من جهنم التي بدأ الأمر بإلقائه فيها . عندئذ يفزع قرينه ويرتجف ، ويبادر إلى إبعاد ظل التهمة عن نفسه ، بما أنه كان مصاحباً له وقريناً : « قال قرينه : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد » .. وربما كان القرين هنا غير القرين الأول الذي قدم السجلات . ربما كان هو الشيطان الموكل به ليغويه . وهو يتبرأ من إطغائه ؛ ويقرر أنه وجده ضالاً من عند نفسه ، فاستمع لغوايته ! وفي القرآن مشاهد مشابهة يتبرأ فيها القرين الشيطاني من القرين الإنساني على هذا النحو . على أن الفرض الأول غير مستبعد . فقد يكون القرين هو الملك صاحب السجل . ولكن هول الموقف يجعله يبادر إلى التبرؤ - وهو بريء - ليعين أنه مع صحبته لهذا الشقي - فإنه لم تكن له يد في أي مما كان منه . وتبرؤ البريء أدل على الهول المزلزل والكرب المخيف .

هنا يحىء القول الفصل ، فينهي كل قول : « قال : لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد - ما يبدل القول لديّ وما أنا بظلام للعبيد » .. فالمقام ليس مقام اختصام . وقد سبق الوعيد محدداً جزاء كل عمل . وكل شيء مسجل لا يبدل . ولا يجزى أحد إلا بما هو مسجل . ولا يظلم أحد ، فالمجازي هو الحكم العدل . بهذا ينتهي مشهد الحساب الرهيب بهوله وشدته ؛ ولكن المشهد كله لا ينتهي . بل يكشف السياق عن جانب منه مخيف :

« يوم نقول لجهنم : هل امتلأت : ونقول : هل من مزيد ؟ » .

إن المشهد كله مشهد حوار . فتعرض جهنم فيه في معرض الحوار وبهذا السؤال والجواب يتجلى مشهد عجيب رهيب .. هذا هو كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب .. هؤلاء هم كثرة تقذف في جهنم تبعاً ، وتتكدر ركاماً . ثم تنادى جهنم : « هل امتلأت ؟ » واكتفيت ! ولكنها تلمظ وتتحرق ، وتقول في كظة الأكلو النهم : « هل من مزيد ؟ ! » .. فيا للهول الرعيب !

وعلى الصفة الأخرى من هذا الهول مشهد آخر وديع أليف ، رضيّ جميل . إنه مشهد الجنة ، تقرب من المتقين ، حتى تراءى لهم من قريب ، مع الترحيب والتكريم :

« وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

والتكريم في كل كلمة وفي كل حركة . فالجنة تقرب وترلف ، فلا يكلفون مشقة السير إليها ، بل هي التي تجيء : « غير بعيد » ! ونعيم الرضى يتلقاهم مع الجنة : « هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب » .. فيوصفون هذه الصفة من الملاء الأعلى ، ويعلمون أنهم في ميزان الله أوابون ، حفيظون ، يخشون الرحمن ولم يشهدوه ، منيبون إلى ربهم طائعون .

ثم يؤذن لهم بالدخول بسلام لغير ما خرج : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود » ..

ثم يؤذن في الملاء الأعلى ، تنويهاً بشأن القوم ، وإعلاناً بما لهم عند ربهم من نصيب غير محدود : « لهم ما يشاءون فيها ، ولدينا مزيد » .. فهما اقترحا فهم لا يبلغون ما أعد لهم . فالمزيد من ربهم غير محدود ..

ثم يجيء المقطع الأخير في السورة ، كأنه الإيقاع الأخير في اللحن ، يعيد أقوى نغماته في لمس سريع . فيه لمسة التاريخ ومصارع الغابرين . وفيه لمسة الكون المفتوح وكتابه المين . وفيه لمسة البعث والحشر في مشهد جديد . ومع هذه اللمسات التوجيه الموحى العميق للمشاعر والقلوب :

« وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ، فنقبوا في البلاد هل من محيى ؟ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب . فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود . واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً . ذلك حشر علينا يسير . نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

ومع أن هذه اللمسات كلها قد سبقت في سياق السورة ، إلا أنها حين تعرض في الختام تعرض جديدة الإيقاع جديدة الوقع . بهذا التركيز وبهذه السرعة . ويكون لها في الحس مذاق آخر غير مذاقها وهي مبسطة مفصلة من قبل في السورة . وهذه هي خصيصة القرآن العجيبة !

قال من قبل : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد » ..

وقال هنا : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً ، فنقبوا في البلاد . هل من محيى ؟ » الحقيقة التي يشير إليها هي . ولكنها في صورتها الجديدة غيرها في صورتها الأولى . ثم يضيف إليها حركة القرون وهي تتقلب في البلاد ، وتنقب عن أسباب الحياة ، وهي مأخوذة في القبضة التي لا يفلت منها أحد ، ولا مفر منها ولا فكاك : ف « هل من محيى ؟ » ..

وعقب عليها بما يزيد لها جدة وحيوية :

« إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » ..

وفي مصارع الغابرين ذكرى . ذكرى لمن كان له قلب . فن لا تذكره هذه اللمسة فهو الذي مات قلبه أو لم يرزق قلباً على الإطلاق ! لا بل إنه ليكني للذكرى والاعتبار أن يكون هناك سمع يلقي إلى القصة بإنصات ووعي ، فتفعل القصة فعلها في النفوس .. وإنه للحق . فالنفس البشرية شديدة الحساسية بمصارع الغابرين ، وأقل يقظة فيها وأقل تفتح كافيان لاستجاشة الذكريات والتصورات الموحية في مثل هذه المواقف المؤثرة المثيرة .

وعرض من قبل صفحات من كتاب الكون : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ..

وقال هنا : « ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسنا من لغوب » .. فأضاف هذه الحقيقة الجديدة إلى جانب اللمسة الأولى . حقيقة : « وما مسنا من لغوب » .. وهي توحى بيسر الخلق والإنشاء في هذا الخلق الهائل . فكيف بإحياء الموتى وهو بالقياس إلى السماوات والأرض أمر هين صغير ؟

وعقب عليها كذلك بإحياء جديد وظل جديد :

« فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » ..

وطلوع الشمس وغروبها ومشهد الليل الذي يعقب الغروب .. كلها ظواهر مرتبطة بالسموات والأرض . وهو يربط إليها التسبيح والحمد والسجود . ويتحدث في ظلها عن الصبر على ما يقولون من إنكار للبعض وجحود بقدرة الله على الإحياء والإعادة . فإذا جو جديد يحيط بتلك اللمسة المكررة . جو الصبر والحمد والتسبيح والسجود . موصولاً كل ذلك بصفحة الكون وظواهر الوجود ، تثور في الحس كلما نظر إلى السموات والأرض ؛ وكلما رأى مطلع الشمس ، أو مقدم الليل ؛ وكلما سجد لله في شروق أو غروب ..

ثم .. لمسة جديدة ترتبط كذلك بالصفحة الكونية المعروضة .. اصبر وسبح واسجد . وأنت في حالة انتظار وتوقع للأمر الهائل الجلل ، المتوقع في كل لحظة من لحظات الليل والنهار . لا يغفل عنه إلا الغافلون . الأمر الذي تدور عليه السورة كلها ، وهو موضوعها الأصيل :

« واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب . يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير . يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً . ذلك حشر علينا يسير » ..

وإنه لمشهد جديد مثير ، لذلك اليوم العسير . ولقد عبر عنه أول مرة في صورة أخرى ومشهد آخر في قوله :

« ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد . وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد .. » الخ .

فأما هنا فعبّر عن النفخة بالصيحة . وصور مشهد الخروج . ومشهد تشقق الأرض عنهم . هذه الخلائق التي غبرت في تاريخ الحياة كلها إلى نهاية الرحلة . تشقق القبور التي لا تحصي . والتي تعاقب فيها الموتى . كما يقول المعري :

رب قبر قد صار قبراً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين في طویل الآجال والآماد

كلها تشقق ، وتتكشف عن أجساد ورفات وعظام وذرات تائهة أو حائلة في مسارب الأرض ، لا يعرف مقرها إلا الله .. وإنه لمشهد عجيب لا يأتي عليه الخيال !

وفي ظلال هذا المشهد الثائر المثير يقرر الحقيقة التي فيها يجادلون وبها يجحدون : « إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير » .. « ذلك حشر علينا يسير » .. في أنسب وقت للتقرير ..

وفي ظلال هذا المشهد كذلك يتوجه بالثبوت للرسول - صلى الله عليه وسلم - تجاه جدلهم وتكذيبهم في هذه الحقيقة الواضحة المشهودة بعين الضمير :

« نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ..

« نحن أعلم بما يقولون » .. وهذا حسبك . فللعلم عواقبه عليهم .. وهو تهديد مخيف ملفوف .

« وما أنت عليهم بجبار » .. فترغمهم على الإيمان والتصديق . فالأمر في هذا ليس إليك . إنما هو لنا نحن ، ونحن عليهم رقباء وبهم موكلون ..

« فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .. والقرآن يهز القلوب ويزلزلها فلا يثبت له قلب يعي ويخاف ما يواجهه به من حقائق ترجف لها القلوب . على ذلك النحو العجيب .

وحين تعرض مثل هذه السورة ، فإنها لا تحتاج إلى جبار يلوي الأعناق على الإيمان . ففيها من القوة والسلطان ما لا يملكه الجبارون . وفيها من الإيقاعات على القلب البشري ما هو أشد من سياط الجبارين !

وصدق الله العظيم ..

انتهى الجزء السادس والعشرون
ويليه الجزء السابع والعشرون
مبدءاً بسورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ
وَالطُّورِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ
وَالرَّحْمَنِ وَالْوَاقِعَةِ وَالْحَدِيدِ

الجزء السابع والعشرون

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَّتِ ذُرُوءًا ① فَالْحَمَلِكِ وَقُرْأَ ② فَالْجَارِيَّتِ يُسْرًا ③ فَالْمَقْسَمِ أَمْرًا ④ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ⑤ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ⑥

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ⑦ إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٌ ⑧ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أَفَكَ ⑨

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ⑩ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ ⑪ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ⑫ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ⑬ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ⑭

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ⑮ ءَاخِذِينَ مَاءً أَتَاهُمْ رِهْمٌ ⑯ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ⑰ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ⑱ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ⑲ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ⑳ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ㉑ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ㉒ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ㉓ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ㉔

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ㉕ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ㉖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ ㉗ فَارْأَى إِلَىٰ أَهْلِهِ ㉘ بَعَاءٌ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ㉙ فَقَرَّبَهُ ٖ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ㉚ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ㉛ قَالُوا لَا تَحَفُّ ٖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ㉜ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ㉝ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ㉞ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ㉟ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ

مُجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٢٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٢٤﴾
 فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ
 يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٧﴾
 وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَحَرُ أَوْ يُجْنُونُ ﴿٢٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ
 وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٣٠﴾
 وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٣١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٣٢﴾
 وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ مَتَعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَمَا
 اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٣٥﴾
 وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٦﴾
 وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٣٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيَّدُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٩﴾ فَاذْكُرُوا لِلَّهِ الْإِلَهَ الْأَحَدَ الَّذِي
 لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٠﴾
 كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٤١﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٤٢﴾
 فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ أَنْتَ بَلْمُوعٌ ﴿٤٣﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهُ أَنْ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾
 وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٤٥﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ
 هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٤٧﴾
 فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ ﴿٤٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي
 يُوعَدُونَ ﴿٤٩﴾

هذه السورة ذات جو خاص . فهي تبدأ بذكر قوى أربعة .. من أمر الله .. في لفظ مبهم الدلالة ، يوقع في الحس لأول وهلة أنه أمام أمور ذات سر . يقسم الله - تعالى - على أمر : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا . إن ما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » ..

والذاريات . والحاملات . والجاريات . والمقسمات .. مدلولاتها ليست متعارفة ، وهي غامضة تحتاج إلى السؤال والاستفسار ، كما أنها بذاتها تلقي في الحس ذلك الظل . ولعله هو المقصود الأول منها في جو هذه السورة .

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسما : « والسما ذات الحبك » .. يقسم بها الله تعالى . على أمر : « إنكم لني قول مختلف » .. لا استقرار له ولا تناسق فيه ، قائم على التخرصات والظنون ، لا على العلم واليقين ..

هذه السورة : بافتتاحها على هذا النحو ، ثم بسياقها كله ، تستهدف أمراً واضحاً في سياقها كله .. ربط القلب البشري بالسما ؛ وتعليقه بغيب الله المكنون ؛ وتخليصه من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله ، والانطلاق إليه جملة ، والفرار إليه كلية ، استجابة لقوله في السورة : « ففروا إلى الله » .. وتحقيقاً لإرادته في عبادته : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ..

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدّها فقد غني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره ، وتطمين النفس من جهته ، وتعليق القلب بالسما في شأنه ، لا بالأرض وأسبابها القريبة . وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها . إما مباشرة كقوله : « وفي السما رزقكم وما توعدون » .. « إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .. وإما تعريضاً كقوله يصور حال عبادته المتقين مع المال : « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .. ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقري ضيوفه القلائل - أو من حسبهم ضيوفه من الملائكة - بعجل سمين ، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه ، وبمجرد إلقاء السلام عليه ، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة !

فتخليص القلب من أوهاق الأرض ، وإطلاقه من إसार الرزق ، وتعليقه بالسما ، ترف أشواقه حولها ، ويتطلع إلى خالقها في علاه ، بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق ، ويعوقه عن الفرار إلى الله . هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها . ومن ثم كان هذا الافتتاح ، وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها ، وكان القسم بعده بالسما ، وكان تكرار الإشارة إلى السما أيضاً ..

وفي هذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة : « إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » .. فهي صورة التطلع إلى الله ، والتجرد له ، والقيام في عبادته بالليل ، والتوجه إليه في الأسحار . مع إرخاس المال ، والتخلص من ضغطه ، وجعل نصيب السائل والمحروم حقاً فيه .

وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسما في شأن الرزق ، لا بالأرض وما فيها من أسبابه القريبة : « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون . وفي السما رزقكم وما توعدون » ..

وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسما على سعة ، وتمهيداً للأرض في يسر ، وخلقها ما فيها من أزواج ، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله : « والسما بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون .

ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » ..

وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة ، عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس ، ووظيفتهما الرئيسية الأولى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ..

فهو إيقاع واحد مطرد . ذو نعمات متعددة . ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع ، وتطلق ذلك الحداء . الحداء بالقلب البشري إلى السماء !

وقد وردت إشارات سريعة إلى حلقة من قصة إبراهيم ولوط ، وقصة موسى ، وقصة عاد ، وقصة ثمود ، وقصة قوم نوح . وفي الإشارة إلى قصة إبراهيم تلك اللمحة عن المال ؛ كما أن فيها لمحة عن الغيب المكنون في تبشيره بسلام علم ، ورزقه هو وامراته به على غير ما توقع ولا انتظار . وفي بقية القصص إشارة إلى تصديق وعد الله الذي أقسم عليه في أول السورة : « إن ما توعدون لصادق » والذي أشار إليه في ختامها إنذاراً للمشركين : « فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون » .. بعد ما ذكر أن أجيال المكذبين كأنما تواصت على التكذيب : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ! » ..

فالقصاص في السورة - على هذا النحو - مرتبط بموضوعها الأصيل . وهو تجريد القلب لعبادة الله ، وتخليصه من جميع العوائق ، ووصله بالسماء . بالإيمان أولاً واليقين . ثم برفع الحواجز والشواغل دون الرفقة والانطلاق إلى ذلك الأفق الكريم .

* * *

« والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا .. إن ما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع » ..

هذه الإيقاعات القصيرة السريعة ، بتلك العبارات الغامضة الدلالة ، تلقي في الحس - كما تقدم - إيحاء خاصاً ، وتلقي ظلاً معيناً ، يعلق القلب بأمر ذي بال ، وشأن يستحق الانتباه . وقد احتاج غير واحد في العهد الأول أن يستفسر عن مدلول الذاريات ، والحاملات ، والجاريات ، والمقسمات ..

قال ابن كثير في التفسير : قال شعبة بن الحجاج ، عن سماك بن خالد بن عرعة ، أنه سمع علياً - رضي الله عنه - وشعبة أيضاً عن القاسم بن أبي بزة ، عن أبي الطفيل ، أنه سمع علياً - رضي الله عنه - وثبت أيضاً من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا أنبأتكم بذلك . فقام ابن الكواء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا » ؟ قال علي - رضي الله عنه : الريح . قال : « فالحاملات وقرا » ؟ قال - رضي الله عنه - : السحاب . قال : « فالجاريات يسرا » ؟ قال - رضي الله عنه : السفن . قال : « فالمقسمات أمرا » ؟ قال - رضي الله عنه - : الملائكة .

وجاء صبيغ بن عسل التميمي إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فسأله عنها فأجابته بمثل ما روي عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وقد أحس عمر - رضي الله عنه - أنه يسأل عنها تعنتاً وعناداً فعاقبه ومنعه من مجالسة الناس حتى تاب وحلف بالإيمان المغلظة : ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً .. وهذه الرواية

تشي كذلك بأن غموض مدلولات هذه التعبيرات هو الذي جعل المتعنتين يستترون وراءها ويسألون عنها !
وهكذا فسرهما ابن عباس وابن عمر - رضي الله عنهم - ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد ؛ ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك (كما قال ابن كثير) .

أقسم الله - سبحانه - بالرياح التي تذر ما تذر من غبار وحبوب لقاح وسحب وغيرها مما يعلم الإنسان وما يجهل . وبالسحاب الحاملات وقرأ من الماء يسوقها الله به إلى حيث يشاء . وبالسفن الجاريات في يسر على سطح الماء بقدرته وبما أودع الماء وأودع السفن وأودع الكون كله من خصائص تسمح بهذا الجريان اليسير . ثم بالملائكة المقسمات أمراً ، تحمل أوامر الله وتوزعها وفق مشيئته ، فتفصل في الشؤون المختصة بها ، وتقسم الأمور في الكون بحسبها .

والرياح والسحاب والسفن والملائكة خلق من خلق الله ، يتخذها أداة لقدرته ، وستاراً لمشيئته ، ويتحقق عن طريقها قدر الله في كونه وفي عباده . وهو يقسم بها - سبحانه - للتعظيم من شأنها ، وتوجيه القلوب إليها ، تدبر ما وراءها من دلالة ؛ ولرؤية يد الله وهي تنشئها وتصرفها وتحقق بها قدر الله المرسوم . وذكرها على هذه الصورة بصفة خاصة يوجه القلب إلى أسرارها المكنونة ؛ ويعلقه بمبدع هذه الخلائق من وراء ذكرها هذا الذكر الموحى .

ثم لعل لها كذلك صلة من ناحية أخرى بموضوع الرزق ، الذي يعنى سياق هذه السورة بتحرير القلب من أوهامه ، وإعفائه من أثقاله . فالرياح والسحب والسفن ظاهرة الصلة بالرزق ووسائله وأسبابه . أما الملائكة وتقسيمها نلأمر ، فإن الرزق أحد هذه القسم . ومن ثم تتضح الصلة بين هذا الافتتاح وموضوع بارز تعالجه السورة في مواضع شتى .

يقسم الله - سبحانه - بهذه الخلائق الأربع على : « إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع » .. وقد وعد الله الناس : أنه مجازيهم بالإحسان إحساناً ، ومجازيهم بالسوء سوءاً . وأنه إذا أمهلهم الحساب في الأرض ، فليس بمهمل حسابهم في الآخرة فالحساب لا بد منه هناك ! « وإن الدين لواقع » .. فالوعد صادق حتماً إما هنا وإما هناك .. وما وعدهم كذلك الرزق وكفالاته لهم مبسوطاً أو مقدرأ - وفق مشيئته - ووعدده حق في هذا كما هو حق في كل شأن .

ولا بد أن يتحقق ما وعد الله به الناس في الصورة التي يريدها ، وفي الوقت الذي يريده ، وما يحتاج الأمر إلى قسم منه - سبحانه - إنما يقسم بخلائقه تلك لتوجيه القلب إليها - كما تقدم - وتدبر ما وراءها من إبداع وقدره وتدبير يوحى للقلب بأن وعد الله - باري هذه الخلائق بهذا النظام وهذا التقدير - لا بد صادق ؛ وأن حسابه على الخير والشر والصلاح والفساد لا بد واقع . فإن طبيعة هذه الخلائق توحى بأن الأمر ليس عبثاً ولا مصادفة ولا جزافاً .. وهكذا تصبح تلك الخلائق آيات وبراهين ذات دلالة إيحائية قوية بفضل هذا القسم نذي يلفت القلب إليها لفتاً ، ويوجه الحس إليها توجيهاً . فهي طريقة من طرق الإيحاء والتربية ، ومخاطبة تقطرة بلغة الكون خطاباً مباشراً !

* * *

والقسم الثاني كذلك ..

« والسماء ذات الحبك ، إنكم لني قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك » ..

يقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب . كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات .. وقد تكون هذه إحدى

هياث السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد مجمدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح . وقد يكون هذا وضعاً دائماً لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة .

يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف ، مضطرب لا قوام له ولا قرار ، ولا ثبات له ولا استقرار ، يصرف عنه من صرف ويبقى عليه من بقي ، فلا استقرار عليه ولا توافق ولا ثبات . بل الحيرة دائمة والقلق لا يزال . وكذلك الباطل دائماً أرض مرجحة مهتزة ؛ وتيه لا معالم فيه ولا نور ؛ وهو يتأرجح ولا ينيء إلى أصل ثابت ، ولا ميزان دقيق . ولا يجتمع عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بعد حين ؛ ويدب الخلاف بينهم والشقاق ..

ويتضح اضطرابهم واختلافهم وما هم فيه من الأمر المريع : حين يعرض في ظل السماء ذات الحبك المنسقة التركيبي .

ثم يستطرد فيقرر أنهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون فيها إلى حق أو يقين . فهم في قول مختلف في هذا الحق المبين . ثم يصور لهم ذلك اليوم في مشهد حي تملأه العيون :
« قتل الخراصون . الذين هم في غمرة ساهون . يسألون : أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يفتنون . ذوقوا فنتنكم ، هذا الذي كنتم به تستعجلون » ..

والخرص : الظن والتقدير الجزاف الذي لا يقوم على ميزان دقيق . والله - سبحانه - يدعو عليهم بالقتل . فيا للهول ! ودعوة الله عليهم بالقتل قضاء بالقتل ! « قتل الخراصون » ويزيد أمرهم وضوحاً : « الذين هم في غمرة ساهون » فهم مغمورون بالأضاليل والأوهام لا يفقهون ولا يستيقظون . والتعبير يلقي ظلاً خاصاً ، يصور القوم مغمورين ساهين لا يشعرون بشيء مما حولهم ولا يتبينون . كأنهم سكارى مدهولون !

ذلك أنهم لا يتبينون الأمر الواضح ، الذي يراه ويوقن به كل واع غير مدهول ؛ فهم « يسألون : أيان يوم الدين » ؟ يسألون هكذا ، لا طلباً للعلم والمعرفة ، ولكن استنكاراً وتكديباً ، واستبعاداً لمجيئه ، يعبر عنه لفظ « أيان » المقصود !

ومن ثم يعاجلهم بمشهدهم في هذا اليوم الذي يستبدلونه ويستنكرونه ؛ وهم يحرقون بالنار كحرق المعدن لتمييز حقيقته : « يوم هم على النار يفتنون » ! ومعه التبكيت المؤلم في الموقف العصيب : « ذوقوا فنتنكم . هذا الذي كنتم به تستعجلون » ..

فهذه المعالجة هي الجواب اللائق بهذا التساؤل . وهذا العنف في المشهد هو المقابل للذهول والسهوة التي يعيش فيها الخراصون . وهو مصداق دعوة الله عليهم بالقتل في أشد صوره وأعنفها : يوم هم على النار يفتنون !

* * *

وعلى الضفة الأخرى وفي الصفحة المقابلة يرسم مشهد آخر ، لفريق آخر ، فريق مستيقن لا يخرص ؛ تتي لا يتبجح ؛ مستيقظ يعبد ويستغفر ، ولا يقضي العمر في غمرة وذحول :

« إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » ..

فهذا الفريق . فريق المتقين . الأيقاظ . الشديدي الحساسية برقابة الله لهم ، ورقابتهم هم لأنفسهم . هؤلاء « في جنات وعيون » .. « آخذين ما آتاهم ربهم » من فضله وإنعامه ، جزاء ما أسلفوا في الحياة الدنيا من عبادة

لله كأنهم يرونه ، ويقين منهم بأنه يراهم : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » ..
ويصور إحسانهم صورة خاشعة ، رفاة حساسة :

« كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون » ..

فهم الأيقاظ في جنح الليل والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطعمون الكرى إلا قليلاً ، ولا يهجعون في ليلهم إلا يسيراً . يأنسون بربهم في جوف الليل فتتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ويخف بهم التطلع فلا يثقلهم المنام !

قال الحسن البصري : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » .. كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

وقال قتادة : قال الأحنف بن قيس : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » .. كانوا لا ينامون إلا قليلاً . ثم يقول : لست من أهل هذه الآية !

وقال الحسن البصري : كان الأحنف بن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قوم قد باينونا بوناً بعيداً ، إذ نحن قوم لا نبليغ أعمالهم . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وعرضت عملي على عمل أهل النار ، فإذا قوم لا خير فيهم ، مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت . فقد وجدت من خيرنا منزلة قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجدتها فينا . ذكر الله تعالى قوماً فقال : « كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون » . ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم ! فقال له أبي - رضي الله عنه - : طوبى لمن رقد إذا نعس ، واتقى الله إذا استيقظ .

فهي حال يتطلع إليها رجال من التابعين - ذوي المكانة في الإيمان واليقين - ويجدون أنفسهم دونها . اختص بها ناس ممن اختارهم الله ، ووقفهم إلى القيام بحقها . وكتبهم بها عنده من المحسنين . وهذه حالهم مع ربهم ، فأما حالهم مع الناس ، وحالهم مع المال ، فهو مما يليق بالمحسنين :
« وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » ..

فهم يجعلون نصيب السائل الذي يسأل فيعطى ، ونصيب المحروم الذي يسكت ويستحي فيحرم . يجعلون نصيب هذا وهذا حقاً مفروضاً في أموالهم . وهم متطوعون بفرض هذا الحق غير المحدود . وهذه الإشارة تتناسق مع علاج السورة لموضوع الرزق والمال ، لتخليص القلب من أوهاق الشح وأثقال البخل وعوائق الانشغال بالرزق . وتمهد للمقطع التالي في السورة ، في الوقت الذي تكمل سمة المتقين وصورة المحسنين .

* * *

« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفي السماء رزقكم وما توعدون . ف ورب السماء ولأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » ..

وهي لفظة إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس ؛ وتوجيه إلى السماء في شأن الرزق المكتوب والحظ المقدر . تحتم بقسم عظيم . قسم الله - سبحانه - بذاته بوصفه : « رب السماء والأرض » اللتين ورد ذكرهما في هذا المقطع . عني أن هذا القول الذي جاءهم من عنده حق يقين ..

« وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ » ..

هذا الكوكب الذي نعيش عليه معرض هائل لآيات الله وعجائب صنعته . معرض لم نستجل منه حتى اللحظة إلا القليل من بدائعه . ونحن نكشف في كل يوم جديداً منه ، ونطلع منه على جديد .. ومثل هذا المعرض ، معرض آخر مكنون فينا نحن .. النفس الإنسانية .. الخفية الأسرار ، التي تنطوي فيها أسرار هذا الوجود كله ، لا أسرار الكوكب الأرضي وحده !

وإلى هذين المعرضين الهائلين تشير الآيتان تلك الإشارة المختصرة ، التي تفتح هذين المعرضين على مصاريعهما لمن يريد أن يبصر ، ولن يريد أن يستيقن ، ولن يريد أن يملأ حياته حتى تفيض بالمتعة والمسرة ، وبالعبرة الحية ، وبالرصيد القيم من المعرفة الحقة ، التي ترفع القلوب وتضاعف الأعمار !

والنصوص القرآنية معدة للعمل في جميع الأوساط والبيئات والظروف والأحوال . قادرة على إعطاء رصيد معين لكل نفس ولكل عقل ولكل إدراك . كل بقدر ما يتقبل منها وما يطبق .

وكلما ارتقى الإنسان في المعرفة ، واتسعت مداركه ، وزادت معلوماته ، وكثرت تجاربه ، واطلع على أسرار الكون وأسرار النفس .. ارتقى نصيبه ، وتضخم رصيده ، وتنوع زاده الذي يتلقاه من نصوص القرآن .. هذا الكتاب الذي « لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد » كما يقول عنه النبي الذي تلقاه واستوعب أسرارها ، وعاش بها . يقول عن تجربة حية وجدها في نفسه فعبّر عنها ذلك التعبير – صلوات الله وسلامه عليه – .

ولقد وجد الذين سمعوا هذا القرآن أول مرة من آيات الله في الأرض وآياته في النفس ، نصيبهم ، وتسلموا رصيدهم ، وفق معارفهم وتجاربهم وإشراقات نفوسهم . ووجد كذلك كل جيل أتى بعدهم نصيباً يناسب ما تفتح له من أنواع العلوم والمعارف والتجارب . ونجد نحن نصيبنا وفق ما اتسع لنا من رقعة العلم والمعرفة والتجريب ، وما تكشف لنا من أسرار لا تنفد في هذا الكون الكبير . وستجد الأجيال بعدنا نصيبها مدخراً لها من الآيات التي لم تكشف لنا بعد في الأرض والنفس . ويبقى هذان المعرضان الإلهيان الهائلان حافلين بكل عجيب وجديد إلى آخر الزمان .

هذه الأرض . هذا الكوكب المعد للحياة ، المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه ، على نحو يكاد يكون فريداً في المعروف لنا في محيط هذا الكون الهائل ، الحافل بالنجوم الثوابت والكواكب السيارة . التي يبلغ عدد المعروف منها فقط – والمعروف نسبة لا تكاد تذكر في حقيقة الكون – مئات الملايين من المجرات التي تحوي الواحدة منها مئات الملايين من النجوم . والكواكب هي توابع هذه النجوم !

ومع هذه الأعداد التي لا تحصى فإن الأرض تكاد تنفرد باستعدادها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانتها . ولو اختلفت خصيصة واحدة من خصائص الأرض الكثيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها .. لو تغير حجمها صغراً أو كبيراً ، لو تغير وضعها من الشمس قريباً أو بعيداً . لو تغير حجم الشمس ودرجة حرارتها . لو تغير ميل الأرض على محورها هنا أو هنا . لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو ببطء . لو تغير حجم القمر – تابعها – أو بعده عنها . لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصاً ... لو . لو إلى آلاف الموافقات المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة وحضانتها .

أليست هذه آية أو آيات معروضة في هذا المعرض الإلهي ؟

ثم . هذه الأقوات المذخورة في الأرض للأحياء التي تسكنها . تسكن سطحها ، أو تسبح في أجوائها ، أو تمخر ماءها ، أو تختبئ في مغاورها وكهوفها ، أو تختفي في مسارها وأجوافها .. هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود في شتى الأشكال والأنواع لتبلي حاجة هذه الأحياء التي لا تحصى ، ولا تحصى أنواع

غذائها أيضاً .. هذه الأقوات الكامنة في جوفها ، والساربة في مجاريها ، والسابحة في هوائها ، والناطقة على سطحها ، والقادمة إليها من الشمس ومن عوالم أخرى بعضها معروف وبعضها مجهول ، ولكنها تتدفق وفق تدبير المشيئة المدبرة التي خلقت هذا المحضن لهذا النوع من الحياة ، وجهازه بكل ما يلزم للأنواع الكثيرة التي لا تحصى . وتنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها ، حيثما امتد الطرف ، وحيثما تنقلت القدم . وعجائب هذه المشاهد التي لا تنفد : من وهاد وبطاح ، ووديان وجبال ؛ وبحار وبحيرات ، وأنهار وغدران . وقطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. وكل مشهد من هذه المشاهد تتناوله يد الإبداع والتغيير الدائبة التي لا تفتر عن الإبداع والتغيير . ويمر به الإنسان وهو محمل فإذا هو مشهد ، ويمر به وهو ممرع فإذا هو مشهد آخر . ويراه وهو نبت خضر فإذا هو مشهد ، ويراه إبان الحصاد حين يهيج ويصفر فإذا هو مشهد آخر . وهو هو لم ينتقل باعاً ولا ذراعاً في المكان !

والخلائق التي تعمر هذه الأرض من الأحياء . نباتاً وحيواناً . وطيراً وسمكاً ، وزواحف وحشرات .. بله الإنسان فالقرآن يفرد بنص خاص .. هذه الخلائق التي لم يعرف عدد أنواعها وأجناسها بعد - فضلاً على إحصاء أعدادها وأفرادها وهو مستحيل - وكل خليفة منها أمة ! وكل فرد منها عجيبة . كل حيوان . كل طائر . كل زاحفة . كل حشرة . كل دودة . كل نبتة : لا بل كل جناح في يرقه ، وكل ورقة في زهرة ، وكل قصبة في ورقة ! في ذلك المعرض الإلهي العجيب الذي لا تنقضي عجائبه .

ولو مضى الإنسان - بل لو مضى الأناسي جميعاً - يتأملون هكذا ويشيرون مجرد إشارة إلى ما في الأرض من عجائب ، وإلى ما تشير إليه هذه العجائب من آيات ، ما انتهى لهم قول ولا إشارة . والنص القرآني ما يزيد على أن يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر ، واستجلاء العجائب في هذا المعرض الهائل ، طوال الرحلة على هذا الكوكب ؛ والمتعة بما في هذا الاستجلاء من مسرة طوال الرحلة .

غير أنه لا يدرك هذه العجائب ، ولا يستمتع بالرحلة هذا المتاع ، إلا القلب العاقل باليقين . « وفي الأرض آيات للموقنين » .. فلمسة اليقين هي التي تحيي القلب فيرى ويدرك ؛ وتحيي مشاهد الأرض فتتلق للقلب بأسرارها المكنونة ، وتحديثه عما وراءها من تدبير وإبداع . وبدون هذه اللمسة تظل تلك المشاهد ميتة جامدة جوفاء ؛ لا تنطق للقلب بشيء ؛ ولا تتجاوب معه بشيء . وكثيرون يمرون بالمعرض الإلهي المفتوح مغمضي العيون والقلوب . لا يحسون فيه حياة ، ولا يفقهون له لغة ؛ لأن لمسة اليقين لم تحيي قلوبهم ، ولم تثبت الحياة فيما حولهم ! وقد يكون منهم علماء . « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » . أما حقيقتها فتظل محجوبة عن قلوبهم ، فالقلوب لا تفتح لحقيقة الوجود إلا بمفتاح الإيمان ، ولا تراها إلا بنور اليقين .. وصدق الله العظيم .

ثم العجيبة الأخرى التي تدب على هذه الأرض :

« وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ؟ » ..

وهذا المخلوق الإنساني هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض . ولكنه يغفل عن قيمته ، وعن أسرارها الكامنة في كيانه ، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين .

إنه عجيبة في تكوينه الجسماني : في أسرار هذا الجسد . عجيبة في تكوينه الروحي : في أسرار هذه النفس . وهو عجيبة في ظاهره وعجيبة في باطنه . وهو يمثل عناصر هذا الكون وأسراره وخفاياه :

وترزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التي بأسرار تدهش وتحير . تكوين أعضائه وتوزيعها . وظائفها

وطريقة أدائها لهذه الوظائف . عملية الهضم والامتصاص . عملية التنفس والاحتراق . دورة الدم في القلب والعروق . الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم . الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسد ونشاطه وانتظامه . تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها ، وتجاوبها الكامل الدقيق . وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب . وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب .

وأسرار روحه وطاقاتها المعلوم والمجهولة .. إدراكه للمدركات وطريقة إدراكها وحفظها وتذكرها . هذه المعلومات والصور المخزنة . أين ؟ وكيف ؟ هذه الصور والرؤى والمشاهد كيف انطبعت ؟ وأين ؟ وكيف تُستدعى فتجيء .. وذلك في الجانب المعلوم من هذه القوى . فأما المجهول منها فهو أكبر وأكثر . تظهر آثاره بين الحين والحين في لمسات وإشراقات تدل على ما وراء الظاهر من المغيّب المجهول .

ثم أسرار هذا الجنس في تولده وتوارثه . خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص ؛ وتحمل معها خصائص الأبوين والأجداد القريبين . فأين تكمن هذه الخصائص في تلك الخلية الصغيرة ؟ وكيف تهتدي بذاتها إلى طريقها التاريخي الطويل ، فتمثله أدق تمثيل ، وتنتهي إلى إعادة هذا الكائن الإنساني العجيب ؟!

وإن وقفة أمام اللحظة التي يبدأ فيها الجنين حياته على الأرض ، وهو يفصل عن أمه ويعتمد على نفسه ، ويؤذن لقلبه وورثته بالحركة لبدء الحياة . إن وقفة أمام هذه اللحظة وأمام هذه الحركة لتدهش العقول وتحير الألباب ، وتغمر النفس بفيض من الدهش وفيض من الإيمان ، لا يقف له قلب ولا يتأسك له وجدان !

وإن وقفة أخرى أمام اللحظة التي يتحرك فيها لسان الوليد لينطق بهذه الحروف والمقاطع والكلمات ثم بالعبارات . بل أمام النطق ذاته . نطق هذا اللسان . وتصويت تلك الحنجرة . إنها عجيبة . عجيبة تفقد وقعها لأنها تمر بنا كثيراً . ولكن الوقوف أمامها لحظة في تدبر يجدد وقعها . إنها خارقة . خارقة مذهلة تنبئ عن القدرة التي لا تكون إلا لله .

وكل جزئية في حياة هذا المخلوق تقفنا أمام خارقة من الخوارق ، لا ينقضي منها العجب ؛ « وفي أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » ..

وكل فرد من هذا الجنس عالم وحده . ومرآة ينعكس من خلالها هذا الوجود كله في صورة خاصة لا تتكرر أبداً على مدار الدهور . ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً لا في شكله وملامحه ، ولا في عقله ومداركه ، ولا في روحه ومشاعره . ولا في صورة الكون كما هي في حسه وتصوره . ففي هذا المتحف الإلهي العجيب الذي يضم ملايين الملايين ، كل فرد نموذج خاص ، وطبعة فريدة لا تتكرر . يمر من خلالها الوجود كله في صورة كذلك لا تتكرر . كما لا توجد بصمة أصابع مماثلة لبصمة أصابع أخرى في هذه الأرض في جميع العصور ! وكثير من عجائب الجنس البشري مكشوفة للبصر ، تراه العيون : « وفي أنفسكم . أفلا تبصرون ؟ » : وما تراه العيون من عجائبه يشير إلى المغيّب المكنون .

وهذه العجائب لا يحصرها كتاب . فالمعلوم المكشوف منها يحتاج تفصيله إلى مجلدات . والمجهول منها ما يزال أكثر من المعلوم ، والقرآن لا يحصيها ولا يحصرها . ولكنه يلمس القلب هذه اللمسة ليستيقظ لهذا المتحف الإلهي المعروض للأبصار والبصائر . وليقضي رحلته على هذا الكوكب في ملاحظة وتدبر ، وفي متاع رفيع بتأمل هذا الخلق العجيب ، الكامن في ذات نفسه وهو عنه غافل مشغول .

وإنها للحظات ممتعة حقاً تلك التي يقضيها الإنسان بتأمل وجوه الخلق وسماواتهم وحركاتهم وعاداتهم ، بعين

العابد السائح الذي يجول في متحف من إبداع أحسن الخالقين . فكيف بمن يقضي عمره كله في هذا المتاع الرفيع ؟

إن القرآن يمثل هذه اللمسة يخلق الإنسان خلقاً جديداً ، بحس جديد ، ويمتعه بحياة جديدة ، ويهبه متاعاً لا نظير له في كل ما يتصوره في الأرض من متاع .

وعلى هذا النحو الرفيع من التأمل والإدراك يريد القرآن الناس . والإيمان هو الذي يمنح القلب البشري هذا الزاد ، وهو الذي يهيئ له هذا المتاع العلوي . وهو بعد في الأرض في عالم الطين !

وبعد فقد كانت اللفتة الأولى إلى معرض الأرض ؛ وكانت اللفتة الثانية إلى معرض النفس . ثم تلتهما في السورة لفتة إلى معرض الغيب العلوي المطوي ، حيث الرزق المقسوم والحظ المرسوم :

« وفي السماء رزقكم وما توعدون » ..

وهي لفتة عجيبة . فمع أن أسباب الرزق الظاهرة قائمة في الأرض ، حيث يكد فيها الإنسان ويجهد ، ويتنظر من ورائها الرزق والنصيب . فإن القرآن يرد بصر الإنسان ونفسه إلى السماء . إلى الغيب . إلى الله . ليتطلع هناك إلى الرزق المقسوم والحظ المرسوم . أما الأرض وما فيها من أسباب الرزق الظاهرة ، فهي آيات للموقنين . آيات ترد القلب إلى الله ليتطلع إلى الرزق من فضله ؛ ويتخلص من أثقال الأرض وأوهاق الحرص ، والأسباب الظاهرة للرزق ، فلا يدعها تحول بينه وبين التطلع إلى المصدر الأول الذي أنشأ هذه الأسباب .

والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها ؛ ويفهمها على وضعها ؛ ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها . فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها . إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها ، وألا يغفل عن الله في عمارتها . ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء . وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه ، فرزقه مقدر في السماء ، وما وعده الله لا بد أن يكون .

بذلك ينطلق قلبه من إसार الأسباب الظاهرة في الأرض ؛ بل يرف بأجنحة من هذه الأسباب إلى ملكوت السماوات . حين يرى في الأسباب آيات تدله على خالق الأسباب ويعيش موصولاً قلبه بالسماء ، وقدماه ثابتتان على الأرض . فهكذا يريد الله لهذا الإنسان . هكذا يريد الله لذلك المخلوق الذي جبله من الطين ونفخ فيه من روحه فإذا هو مفضل على كثير من العالمين .

والإيمان هو الوسيلة لتحقيق ذلك الوضع الذي يكون فيه الإنسان في أفضل حالاته . لأنه يكون حينئذ في الحالة التي أنشأها الله لها . فطرة الله التي فطر الناس عليها . قبل أن يتناولها الفساد والانحراف ..

وبعد هذه اللمسات الثلاث في الأرض والنفس والسماء . يقسم الله سبحانه بذاته العلية على صدق هذا الحديث كله :

« فو رب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون » ..

وكونهم ينطقون ، حقيقة بين أيديهم ، لا يجادلون فيها ولا يمارون ، ولا يرتابون فيها ولا يخرصون .. وكذلك هذا الحديث كله . والله أصدق القائلين .

وقد روى الأصمعي نادرة ذكرها الزمخشري في الكشاف ، ونسوقها نحن لطرافتها - في تحفظ من جانب الرواية ! - قال :

« أقبلت من جامع البصرة ، فطلع أعرابي على قعود له . فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني أصم . قال :

من أين أقبلت ؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن . فقال : اتل عليّ . فتلوت : « والذاريات » .. فلما بلغت قوله تعالى : « وفي السماء رزقكم وما توعدون » قال : حسبك ! فقام إلى ناقته فنحراها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛ وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى ! فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق . فالتفت ، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر . فسلم عليّ واستقرأ السورة . فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت : « فرب السماء والأرض إنه لحق » .. فصاح قال : يا سبحان الله . من الذي أغضب الجليل حتى حلف ؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ! قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه » ..

وهي نادرة تصح أو لا تصح . ولكنها تذكرنا بجلال هذا القسم من الله سبحانه . القسم بذاته . بصفته : رب السماء والأرض . مما يزيد الحقيقة المقسم عليها جلالاً . وهي حقيقة بلا قسم ولا يمين .

* * *

ذلك كان القطاع الأول في السورة . أما القطاع الثاني فيشمل تلك الإشارات إلى قصص إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، وعاد قوم هود ، وثمود قوم صالح ، وقوم نوح .. وهو مرتبط بما قبله ، ومرتبب كذلك بما بعده في سياق السورة .

« هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاماً . قال : سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال : ألا تأكلون ؛ فأوجس منهم خيفة . قالوا : لا تخف ، وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها ، وقالت : عجوز عقيم . قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم . قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فآخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » ..

إنها آية أو آيات في تاريخ الرسالات . كتلك الآيات التي أشار إليها في الأرض وفي الأنفس . وإنه وعد أو وعود تتحقق من تلك الوعود التي أشار إلى تحققها في القطاع السابق .

ويبدأ الحديث عن إبراهيم بالسؤال : « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ » .. تنوياً بهذا الحديث ، وتهية للأذهان . مع وصف ضيف إبراهيم بالمكرمين ؛ إما لأنهم كذلك عند الله ؛ وإما إشارة إلى إكرام إبراهيم لهم كما ورد في القصة .

ويبدو كرم إبراهيم وسخاؤه وإرخاصه للمال واضحاً . فما يكاد ضيفه يدخلون عليه ويقولون : سلاماً . ويرد عليهم السلام ، وهو ينكرهم ولا يعرفهم . ما يكاد يتلقى السلام ويرده حتى يذهب إلى أهله - أي زوجه - مسارعاً ليهبى لهم الطعام . ويحيى به طعاماً وفيراً يكفي عشرات : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » .. وهم كانوا ثلاثة فيما يقال .. تكفيهم كتف من هذا العجل السمين !

« فقربه إليهم . قال : ألا تأكلون ؟ » .. وجاء هذا السؤال بعد أن رأى أيديهم لا تصل إليه ، ولا يبدو عليهم أنهم سيأكلون طعامه .

« فأوجس منهم خيفة » .. إما لأن الطارئ الذي لا يأكل طعام مضيفه ينبئ عن نية شر وخيانة . وإما لأنه لمح أن فيهم شيئاً غريباً ! عندئذ كشفوا له عن حقيقتهم أو طمأنوه وبشروه : « قالوا : لا تخف . وبشروه بغلام عليم » .. وهي البشارة بإسحاق من زوجه العقيم .

« فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها . وقالت : عجوز عقيم .. وقد سمعت البشرى ، فبغتت وفوجئت ، فندت منها صيحة الدهش ، وعلى عادة النساء ضربت خديها بكفيها . وقالت : عجوز عقيم . تنبئ عن دهشتها لهذه البشرى وهي عجوز . وقد كانت من الأصل عقيمًا . وقد أخذتها المفاجأة العنيفة التي لم تكن تتوقعها أبداً ، فنسيت أن البشرى تحملها الملائكة ! عندئذ ردها المرسلون إلى الحقيقة الأولى . حقيقة القدرة التي لا يقيدوها شيء ، والتي تدبر كل أمر بحكمة وعلم :

« قالوا : كذلك قال ربك ، إنه هو الحكيم العليم .. »

وكل شيء يكون إذا قيل له : كن . وقد قال الله . فماذا بعد قوله ؟ إن الألفة والعادة تقيدان الإدراك البشري ، وتحدان من تصوراته . فيدهش إذ يرى ما يخالف المألوف له ؛ ويعجب كيف يكون ؛ وقد يتبجح فينكر أن يكون ! والمشئمة المطلقة ماضية في طريقها لا تنقيد بمألوف البشر الصغير المحدود ؛ تبدع ما تشاء ، بغير ما حدود أو قيود !

عند ذلك راح إبراهيم يسأل وقد عرف حقيقة ضيفه عن شأنهم الذي أرسلوا فيه : « قال : فما خطبكم أيها المرسلون ؟ » .. « قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين » .. هم قوم لوط . كما ورد في سور أخرى . « لترسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين » ..

وهذه الحجارة الطينية المعلمة أو المعدة المجهزة عند الله للمسرفين المتجاوزين الحق - وقوم لوط كانوا مسرفين في تجاوزهم للفطرة والحق والدين - لا يمتنع أن تكون حجارة بركان ثائر يقذف بالحمم الطيني من جوف الأرض . فهي « عند ربك » بهذا الاعتبار مسلطة - وفق إرادته ونواميسه - على من يريد من المسرفين . مقدرة بزمانها ومكانها وفق علمه وتديره القديم . وأن يتولى إرسالها - في إطار إرادته ونواميسه - ملائكته . وهل ندري نحن حقيقة ملائكته ؟ وهل ندري حقيقة علاقتهم بهذا الكون ومن فيه وما فيه ؟ وهل ندري حقيقة القوى الكونية التي نسميها من عندنا أسماء بحسب ظواهرها التي تتكشف لنا بين الحين والحين ؟ وما لنا نعترض على خبر الله لنا أنه سلط بعض هذه القوى في وقت ما ، لترسل بعض هذه القوى في صورة ما ، على قوم ما ، في أرض ما ، ما لنا نعترض على خبر الله لنا ، ونحن ما نزال كل ذخيرتنا من المعرفة فروض ونظريات وتأويلات لظواهر تلك القوى . أما حقيقتها فهي عنابيدة ؟ ! فلتكن حجارة بركانية أو لتكن حجارة أخرى فهذه كذلك في يد الله ، ومن صنعه ، وسرها غيب عنده يكشفه حين يشاء !

« فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين » .. لإنجائهم وحمايتهم .. « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » : هم بيت النبي لوط . كما ورد في مواضع أخرى . فكانوا هم الناجين إلا امرأته كانت من المهلكين .

« وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم » .. فالذين يخافون هم الذين يرون الآية ويدركونها وينتفعون بها . أما الآخرون فطمسوا لا يرون آيات الله . لا في الأرض ولا في أنفسهم ولا في أحداث التاريخ !

* * *

وآية أخرى في قصة موسى ، يشير إليها إشارة سريعة في معرض الآيات في تاريخ المرسلين :

« وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين . فتولى بركته وقال : ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، وهو ملم » ..

والسلطان المبين الذي أرسل الله به موسى إلى فرعون ، هو الحجة القوية ، والبرهان القاطع ، وهو الهيبة الجليلة

التي خلعها عليه . وهو معهما يسمع ويرى . ولكن فرعون تولى بركنه ، وازور بجانبه عن الحق الواضح والبرهان القاطع ؛ وقال عن موسى النبي الذي كشف له عن آيات الله الخوارق : « ساحر أو مجنون » .. مما يقطع بأن الآيات والخوارق لا تهدي قلباً لم يتأهب للهدى ؛ ولا تقطع لساناً يصير على الباطل ويفتري .

ولا يطيل السياق هنا في عرض تفصيلات القصة ؛ فيمضي إلى نهايتها التي تنجلي فيها الآية الباقية المذكورة في التاريخ : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم » .. أي مستحقاً للوم على ما كان منه من طغيان ومن تكذيب .

وواضح في التعبير فعل الله المباشر في أخذه هو وقومه ، وفي نبذهم في اليم . وهو الإيقاع المقصود لإبراز آية الله في موسى . في معرض آياته في الأرض والأنفس وتاريخ الرسالات والمرسلين .

* * *

وآية أخرى في عاد :

« وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .. وسميت الريح التي أرسلت على عاد عقيمًا لأنها لم تكن تحمل ماء ولا حياة كما توقعوا . إنما تحمل الموت والدمار . وترك كل شيء تأتى عليه كالميت الذي رم وتحوّل إلى فتات !

والريح قوة من قوى هذا الكون . وجند من جند الله . وما يعلم جنود ربك إلا هو . يرسلها - في إطار مشيئته وناموسه - في صورة ما من صورها ، في الوقت المقدر ، على من يريد ، بالهلاك والدمار ، أو بالحيا والحياة . ولا مكان في مثل هذه المواضع للاعتراض السطحي الساذج ، بالقول بأن الريح تجري وفق نظام كوني ؛ وتهب هنا أو هناك تبعاً لعوامل طبيعية . فالذي يجريها وفق ذلك النظام وتبع هذه العوامل هو الذي يسلطها على من يشاء عندما يشاء وفق تقديره وتديره . وهو قادر على أن يسلطها كما يريد في إطار النظام الذي قدره والعوامل التي جعلها . ولا مخالفة ولا شبهة ولا اعتراض !

* * *

وآية ثالثة في ثمود :

« وفي ثمود إذ قيل لهم : تمتعوا حتى حين . فعتوا عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين » ..

والإشارة في قوله : « إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين » .. قد تعني إمهالهم ثلاثة أيام بعد قتل الناقة . وهو ما ورد في الآية : « فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام » .. وقد تعني ما قدر لهم من المتاع منذ الرسالة إلى أن قتلوا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، فحق عليهم الهلاك .

وما يقال في الحجارة التي أرسلت على قوم لوط ، وفي الريح التي أرسلت على عاد ، يقال في الصاعقة التي أرسلت على ثمود . فكلها قوى كونية مدبرة بأمر الله ، مسخرة بمشيئته وبنواميسه . يسلطها على من يشاء في إطار تلك النواميس . فتؤدي دورها الذي يكلفها الله . كأبي جند من جند الله .

* * *

وآية رابعة في قوم نوح :

« وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قومًا فاسقين » ..

وهي إشارة سريعة تلمس القصة لمسة واحدة بدون إيضاح . كأنما ليقل : واذكر قوم نوح . وقد وردت « قوم » منصوبة وبدون لفظ « في » بتقدير كلمة « اذكر » قبلها . وتلتها « والسماء بنيانها .. » معطوفة عليها .. وهذه آية كونية ، وتلك آية تاريخية . يربطهما السياق معاً ، ويربط بهما هذا القطع بالقطع الثالث في السورة ..

* * *

« والسماء بنيانها بأيد ، وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله ، إني لكم نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ، إني لكم منه نذير مبين » .. إنها عودة إلى المعرض الكوني الذي افتتحت به السورة ، في صورة من صورته الكثيرة التي يجلوها القرآن للقلوب . واستطرد في الإشارة إلى آيات الله هنا وهناك ، يصل آية نوح بآية السماء وآية الأرض وآية الخلائق . ثم يخلص به إلى ذلك الهتاف بالبشر ليفروا إلى الله موحدين متجردين .

« والسماء بنيانها بأيد وإنا لموسعون » ..

والأيد : القوة . والقوة أوضح ما ينبئ عنه بناء السماء الهائل المتناسق . بأي مدلول من مدلولات كلمة السماء . سواء كانت تعني مدارات النجوم والكواكب . أم تعني مجموعة من المجموعات النجمية التي يطلق عليها اسم المجرة وتحوي مئات الملايين من النجوم . أم تعني طبقة من طبقات هذا الفضاء الذي تتناثر فيه النجوم والكواكب .. أم غير هذا من مدلولات كلمة السماء .

والسعة كذلك ظاهرة فهذه النجوم ذات الأحجام الهائلة والتي تعد بالملايين ، لا تعدو أن تكون ذرات متناثرة في هذا الفضاء الرحيب .

ولعل في الإشارة إلى السعة إيحاء آخر إلى مخازن الأرزاق التي قال من قبل : إنها في السماء ولو أن السماء هناك مجرد رمز إلى ما عند الله . ولكن التعبير القرآني يلقي ظلالاً معينة ، يبدو أنها مقصودة في التعبير ، لخطاب المشاعر البشرية خطاباً موحياً .

ومثلها الإشارة الأخرى إلى الأرض المهددة المفروشة :

« والأرض فرشناها . فنعم الماهدون » ..

فقد أعد الله هذه الأرض لتكون مهداً للحياة كما أسلفنا . والفرش يوحي باليسر والراحة والعناية . وقد هيئت الأرض لتكون محضناً ميسراً مهداً ، كل شيء فيه مقدر بدقة لتيسير الحياة وكفالتها : « فنعم الماهدون » .. « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ..

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض - وربما في هذا الكون . إذ أن التعبير لا يخصص الأرض - قاعدة الزوجية في الخلق . وهي ظاهرة في الأحياء . ولكن كلمة « شيء » تشمل غير الأحياء أيضاً . والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية .

وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرناً . وأن فكرة عموم الزوجية - حتى في الأحياء - لم تكن معروفة حينذاك . فضلاً على عموم الزوجية في كل شيء .. حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم .. وهو يطلنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير !

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى الحقيقة . وهي تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة . وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء : موجب وسالب ! فقد

تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص العجيب ..
وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة الهائلة المدى : في أجواز السماء ، وفي آماذ الأرض ، وفي أعماق
الخلائق . يهتف بالبشر ليفروا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجربين من كل ما يثقل أرواحهم ويقيدها ،
موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

« ففروا إلى الله ، إني لكم نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ، إني لكم منه نذير مبين » ..
والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقاً . وهو يوحى بالأنقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التي تشد النفس البشرية
إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في عقال . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص
والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثم يجيء اللفتاف قوياً للانطلاق والتملص والفرار إلى الله
من هذه الأنقال والقيود ! الفرار إلى الله وحده منزهاً عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط
العدر : « إني لكم منه نذير مبين » .. وتكرار هذا التنبيه في آيتين متجاورتين ، زيادة في التنبيه والتحذير !

* * *

وكأنما كانت هذه الإشارة إلى آية السماء وآية الأرض وآية الخليفة استطراداً مع آيات الرسالات والرسول .
فلما انتهت جاء التعقيب على قصص الرسل التي سلفت في السياق :
« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون .
فتول عنهم فما أنت بملوم . وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين » ..

فهي جبلة واحدة وطبيعة واحدة للمكذبين ، وهو استقبال واحد للحق وللرسل يستقبلهم به المنحرفون :
« كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون » .. كما يقول هؤلاء المشركون ! كأنما
تواصوا بهذا الاستقبال على مدار القرون ! وما تواصوا بشيء إنما هي طبيعة الطغيان وتجاوز الحق والقصد تجمع
بين الغابرين واللاحقين !

والنتيجة الطبيعية التي ترتب على هذا الموقف المكرور ، الذي كأنما تواصى به الطاغون على مدار القرون ،
ألا يحفل الرسول - صلى الله عليه وسلم - تكذيب المشركين . فهو غير ملوم على ضلالهم ، ولا مقصر في
هدايتهم : « فتول عنهم فما أنت بملوم » .. إنما هو مذكر ، فعليه أن يذكر ، وأن يمضي في التذكير ، مهما
أعرض المعرضون وكذب المكذبون : « وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين » .. ولا تنفع غيرهم من الجاحدين .
والتذكير هو وظيفة الرسل . والهدى والضلال خارجان عن هذه الوظيفة ، والأمر فيهما إلى الله وحده . الذي
خلق الناس لأمر يريده .

* * *

هنا يجيء الإيقاع الأخير في السورة . ويتضح معنى الفرار إلى الله ، والتخلص من الأوهاق والأنقال ، لأداء
الوظيفة التي خلق الله العباد لها ، ومنحهم وجودهم ليؤدوها :
« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق
ذو القوة المتين » ..

وإن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة ، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر

في الأرض بدون إدراكها واستيقانها . سواء كانت حياة فرد أم جماعة . أم حياة الإنسانية كلها في جميع أحوالها وأعصارها .

وإنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والمرامي ، تندرج كلها تحت هذه الحقيقة الضخمة ، التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة .

وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس . تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده ؛ ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده ؛ وأصبح بلا وظيفة ، وباتت حياته فارغة من القصد ، خاوية من معناها الأصيل ، الذي تستمد منه قيمتها الأولى . وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود ، وانتهى إلى الضياع المطلق ، الذي يصيب كل كائن انفلت من ناموس الوجود ، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء .

هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود . هي العبادة لله . أو هي العبودية لله .. أن يكون هناك عبد ورب . عبد يعبد ، ورب يُعبد . وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار .

ومن ثم يبرز الجانب الآخر لتلك الحقيقة الضخمة ، ويتبين أن مدلول العبادة لا بد أن يكون أوسع وأشمل من مجرد إقامة الشعائر . فالجن والإنس لا يقضون حياتهم في إقامة الشعائر ؛ والله لا يكلفهم هذا . وهو يكلفهم ألواناً أخرى من النشاط تستغرق معظم حياتهم . وقد لا نعرف نحن ألوان النشاط التي يكلفها الجن ؛ ولكننا نعرف حدود النشاط المطلوب من الإنسان . نعرفها من القرآن من قول الله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة » .. فهي الخلافة في الأرض إذن عمل هذا الكائن الإنساني . وهي تقتضي ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض ، والتعرف إلى قواها وطاقاتها ، وذخائرها ومكنوناتها ، وتحقيق إرادة الله في استخدامها وتنميتها وترقية الحياة فيها . كما تقتضي الخلافة القيام على شريعة الله في الأرض لتحقيق المنهج الإلهي الذي يتناسق مع الناموس الكوني العام .

ومن ثم يتجلى أن معنى العبادة التي هي غاية الوجود الإنساني أو التي هي وظيفة الإنسان الأولى ، أوسع وأشمل من مجرد الشعائر ؛ وأن وظيفة الخلافة داخلية في مدلول العبادة قطعاً . وأن حقيقة العبادة تتمثل إذن في أمرين رئيسيين :

الأول : هو استقرار معنى العبودية لله في النفس . أي استقرار الشعور على أن هناك عبداً ورباً . عبداً يعبد ، ورباً يُعبد . وأن ليس وراء ذلك شيء ؛ وأن ليس هناك إلا هذا الوضع وهذا الاعتبار . ليس في هذا الوجود إلا عابد ومعبود ؛ وإلا رب واحد والكل له عبيد .

والثاني : هو التوجه إلى الله بكل حركة في الضمير ، وكل حركة في الجوارح ، وكل حركة في الحياة . التوجه بها إلى الله خالصة ، والتجرد من كل شعور آخر ؛ ومن كل معنى غير معنى التبعيد لله .

بهذا وذلك يتحقق معنى العبادة ؛ ويصبح العمل كالشعائر ، والشعائر كعمارة الأرض ، وعمارة الأرض كالجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله كالصبر على الشدائد والرضى بقدر الله .. كلها عبادة ؛ وكلها تحقيق للوظيفة الأولى التي خلق الله الجن والإنس لها ؛ وكلها خضوع للناموس العام الذي يتمثل في عبودية كل شيء لله دون سواه .

عندئذ يعيش الإنسان في هذه الأرض شاعراً أنه هنا للقيام بوظيفة من قبل الله تعالى ، جاء لينهض بها فترة ، طاعة لله وعبادة له لا أرب له هو فيها ، ولا غاية له من ورائها ، إلا الطاعة ، وجزاؤها الذي يجده في نفسه

من طمأنينة ورضى عن وضعه وعمله ، ومن أنس برضى الله عنه ، ورعايته له . ثم يجده في الآخرة تكريماً ونعياً وفضلاً عظيماً .

وعندئذ يكون قد فر إلى الله حقاً . يكون قد فر من أهواق هذه الأرض وجواذبها المعوقة ومغرياتها الملفة . ويكون قد تحرر بهذا الفرار . تحرر حقيقة من الأهواق والأثقال . وخلص لله ، واستقر في الوضع الكوني الأصيل : عبداً لله . خلقه الله لعبادته . وقام بما خلق له . وحقق غاية وجوده . فن مقتضيات استقرار معنى العبادة أن يقوم بالخلافة في الأرض ، وينهض بتكاليفها ، ويحقق أقصى ثمراتها ؛ وهو في الوقت ذاته نافض يديه منها ؛ خالص القلب من جواذبها ومغرياتها . ذلك أنه لم ينهض بالخلافة ويحقق ثمراتها لذاته هو ولا لذاتها . ولكن لتحقيق معنى العبادة فيها ، ثم الفرار إلى الله منها !

ومن مقتضياته كذلك أن تصبح قيمة الأعمال في النفس مستمدة من بواعثها لا من نتائجها . فلتكن النتائج ما تكون . فالإنسان غير معلق بهذه النتائج . إنما هو معلق بأداء العبادة في القيام بهذه الأعمال ؛ ولأن جزاءه ليس في نتائجها ، إنما جزاؤه في العبادة التي أداها ..

ومن ثم يتغير موقف الإنسان تغيراً كاملاً تجاه الواجبات والتكاليف والأعمال . فينظر فيها كلها إلى معنى العبادة الكامن فيها . ومتى حقق هذا المعنى انتهت مهمته وتحققت غايته . ولتكن النتائج ما تكون بعد ذلك . فهذه النتائج ليست داخلة في واجبه ولا في حسابه ، وليست من شأنه . إنما هو قدر الله ومشئته . وهو وجهه ونيته وعمله جانب من قدر الله ومشئته .

ومتى نفّض الإنسان قلبه من نتائج العمل والجهد ؛ وشعر أنه أخذ نصيبه ، وضمن جزاءه ، بمجرد تحقق معنى العبادة في الباعث على العمل والجهد ، فلن تبقى في قلبه حينئذ بقية من الأطماع التي تدعو إلى التكاليف والخصام على أعراض هذه الحياة . فهو من جانب يبذل أقصى ما يملك من الجهد والطاقة في الخلافة والنهوض بالتكاليف . ومن جانب ينفّض يده وقلبه من التعلق بأعراض هذه الأرض ، وثمرات هذا النشاط . فقد حقق هذه الثمرات ليحقق معنى العبادة فيها لا ليحصل عليها ويحتجزها لذاته .

والقرآن يغذي هذا الإحساس ويقويه . بإطلاق مشاعر الإنسان من الانشغال بهمّ الرزق ومن شح النفس . فالرزق في ذاته مكفول . تكفل به الله تعالى لعباده . وهو لا يطلب إليهم بطبيعة الحال أن يطعموه - سبحانه - أو يرزقوه . حين يكلفهم إنفاق هذا المال لمحتاجيه ، والقيام بحق المحرومين فيه :

« ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ..

وإذن لا يكون حافز المؤمن للعمل وبذل الجهد في الخلافة هو الحرص على تحصيل الرزق . بل يكون الحافز هو تحقيق معنى العبادة ، الذي يتحقق ببذل أقصى الجهد والطاقة . ومن ثم يصبح قلب الإنسان معلقاً بتحقيق معنى العبادة في الجهد ، طليقاً من التعلق بنتائج الجهد .. وهي مشاعر كريمة لا تنشأ إلا في ظل هذا التصور الكريم .

وإذا كانت البشرية لا تدرك هذه المشاعر ولا تتذوقها ، فذلك لأنها لم تعيش - كما عاش جيل المسلمين الأول - في ظلال هذا القرآن . ولم تستمد قواعد حياتها من ذلك الدستور العظيم .

وحين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق . أفق العبادة . أو أفق العبودية . ويستقر عليه ، فإن نفسه تأنف حتماً من اتخاذ وسيلة خسيسة لتحقيق غاية كريمة . ولو كانت هذه الغاية هي نصر دعوة الله وجعل كلمته هي العليا . فالرسيلة الخسيسة من جهة تحطم معنى العبادة النظيف الكريم . ومن جهة أخرى فهو لا يعني نفسه ببلوغ

الغايات ، إنما يعني نفسه بأداء الواجبات ، تحقيقاً لمعنى العبادة في الأداء . أما الغايات فوكولة لله ، يأتي بها وفق قدره الذي يريده . ولا داعي لاعتساف الوسائل والطرق للوصول إلى غاية أمرها إلى الله ، وليست داخلية في حساب المؤمن العابد لله .

ثم يستمتع العبد العابد براحة الضمير ، وطمأنينة النفس ، وصلاح البال ، في جميع الأحوال . سواء رأى ثمرة عمله أم لم يرها . تحققت كما قدرها أم على عكس ما قدرها . فهو قد أنهى عمله ، وضمن جزاءه ، عند تحقق معنى العبادة . واستراح . وما يقع بعد ذلك خارج عن حدود وظيفته .. وقد علم هو أنه عبد ، فلم يعد يتجاوز بمشاعره ولا بمطالبه حدود العبد . وعلم أن الله رب ، فلم يعد يتقحم فيما هو من شؤون الرب . واستقرت مشاعره عند هذا الحد ، ورضي الله عنه ، ورضي هو عن الله .

وهكذا تتجلى جوانب من تلك الحقيقة الضخمة الهائلة ، التي تقررها آية واحدة قصيرة : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .. وهي حقيقة كفيفة بأن تغير وجه الحياة كلها عندما تستقر حقاً في الضمير ...

* * *

وفي ضوء هذه الحقيقة الكبيرة ينذر الذين ظلموا فلم يؤمنوا ؛ واستعجلوا وعد الله ، وكذبوا . وتختتم السورة بهذا الإنذار الأخير :

« فإن للذين ظلموا ذنوباً^١ مثل ذنوب أصحابهم . فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون » ..

* * *

(١) الذنوب : الدلو . وهو كناية عن أن لهم مثل ما أصاب من قبلهم من الظالمين ..

(٥٢) سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ❶ وَكُنْتَ مَسْطُورٍ ❷ فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ❸ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ❹ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ❺ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ❻ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ❼ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ❽ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ❾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ❿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⓫ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⓫ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ⓫ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ⓫ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⓫ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⓫

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ⓫ فَلَكَهِنَّ بِمَاءٍ أَنَّهُمْ رِيحُهُمْ وَقَلْهُمْ رِيحُهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ⓫ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⓫ مُتَكِعِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ٥ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ⓫ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ٦ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ⓫ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهٍ وَلَحْمٍ مَّيْمَنٍ يَشْتَهُونَ ⓫ يَنْزِعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ ⓫ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ⓫ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ⓫ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ⓫ فَنَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُومِ ⓫ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ٧ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ⓫

فَذَكِّرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ⓫ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ⓫

قُلْ تَرَبُّصُوا فَلِي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٢١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٢٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ
أَخْلَقُونَ ﴿٢٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ
الْمُصِيطِرُونَ ﴿٢٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَهُ أَلْبَنَتْ وَلَكُرُ
الْبَنُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا
فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ
سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٣٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٣٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ
كَيْدُهُمْ شَيْعًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَصْبِرْ
لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٣٩﴾

هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري . ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتندسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه . ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيف عن الإيمان .. حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها ، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام !

وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة ، والمعنى والمداول ، والصور والظلال ، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء . ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف ، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق ، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطاً لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام !

وتبدأ السورة بقسم من الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء . بعضها مكشوف معلوم ! وبعضها مغيب مجهول : « والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع » ..

القسم على أمر عظيم رهيب ، يرج القلب رجاً ، ويرعب الحس رعباً . في تعبير يناسب لفظه مدلوله الرهيب ، وفي مشهد كذلك ترجف له القلوب : « إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ، يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً » ..

وفي وسط المشهد المفزع نرى ونسمع ما يزلزل ويرعب ، من ويل وهول ، وتقريع وتفرع : « فويل يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً . هذه النار التي كنتم بها تكذبون .

أفسح هذا؟ أم أتم لا تبصرون؟ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..
 هذا شوط من حملة المطاردة . يليه شوط آخر من لون آخر . شوط في إطماع القلوب التي رأت ذلك الهول المرعب - إطماعها في الأمن والنعيم . بعرض صورة المتقين وما أعد لهم من تكريم . وما هيئ لهم من نعيم رخي رغيد ، يطول عرضه ، وتكثر تفصيلاته ، وتتعدد ألوانه . مما يستجيش الحس إلى رُوح النعيم ويرده ؛ بعد كرب العذاب وهوله : « إن المتقين في جنات ونعيم فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأممدناهم بقاكة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فنن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم » ..

والآن وقد أحس القلب البشري سياط العذاب في الشوط الأول ؛ وتذوق حلاوة النعيم في الشوط الثاني ..
 الآن يجيء الشوط الثالث يطارد الهواجس والوساوس ؛ ويلاحق الشبهات والأضاليل ؛ ويدحض الحجج والمعاذير . ويعرض الحقيقة بارزة واضحة بسيطة عنيفة . تتحدث بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل ، مستقيم لا يحتمل اللف والدوران . يلوي الأعناق ليّاً ويلجئها إلى الإذعان والتسليم .. ويبدأ هذا الشوط بتوجيه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليمضي في تذكيره لهم ، على الرغم من سوء أدهم معه ؛ وليقرعهم بهذا المنطق النافذ القوي المستقيم : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر تتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحانه الله عما يشركون » ..

وعقب هذه الأسئلة المتلاحقة . بل هذه القذائف الصاعقة . التي تنسف الباطل نسفاً ، وتخرج المكابر والمعاذير ، وتخرس كل لسان يزيع عن الحق أو يجادل فيه .. عقب هذا يصور تعنتهم وعنادهم في صورة الذي يكابر في المحسوس : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحاب مركوم » . والفرق بين قطعة السماء تسقط وبين السحاب واضح ، ولكنهم هم يتلمسون كل شبهة ليعدلوا عن الحق الواضح .

هنا يلقي عليهم بالقذيفة الأخيرة . قذيفة التهديد الرعيب ، بملاقاة ذلك المشهد المرهوب ، الذي عرض عليهم في مطلع السورة : « فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون » .. كما يهددهم بعذاب أقرب من ذلك العذاب : « وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » ..

ثم تختم السورة بإيقاع رضي رخي .. إنه موجه إلى الرسول الكريم الذي يقولون عنه : « شاعر تتربص به ريب المنون » .. ويقولون : كاهن أو مجنون . موجه إليه من ربه يسليه ويعزيه في إعزاز وتكريم . في تعبير لا نظير له في القرآن كله ؛ ولم يوجه من قبل إلى نبي أو رسول : « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا ،

وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ..
إنه الإيقاع الذي يسمح على العنت والمشقة للذين يلقاها الرسول الكريم ، من أولئك المتعنتين المعاندين ،
الذين اقتضت مواجعتهم تلك الحملة العنيفة من المطاردة والهجوم ..

* * *

« والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن
عذاب ربك لواقع . ما له من دافع . يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً . فويل يومئذ للمكذبين الذين
هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ؟ أم أتم
لا تبصرون ؟ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ، سواء عليكم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..
هذه الآيات القصيرة ، والفواصل المنغمة ، والإيقاعات الفاصلة ، تصاحب السورة من مطلعها . وهي تبدأ
كلمة واحدة . ثم تصبح كلمتين . ثم تطول شيئاً فشيئاً حتى تبلغ في نهاية المقطع اثنتي عشرة كلمة . مع المحافظة
الكاملة على قوة الإيقاع .

والطور : الجبل فيه شجر . والأرجح أن المقصود به هو الطور المعروف في القرآن ، المذكور في قصة موسى
– عليه السلام – والذي نزلت فوقه الألواح . فالجو مقدسات يقسم بها الله سبحانه على الأمر العظيم الذي
سيجيء .

والكتاب المسطور في رق منشور . الأقرب أن يكون هو كتاب موسى الذي كتب له في الألواح . للمناسبة
بينه وبين الطور . وقيل . هو اللوح المحفوظ . تمثيلاً مع ما بعده : البيت المعمور ، والسقف المرفوع . ولا يمتنع
أن يكون هذا هو المقصود .

والبيت المعمور : قد يكون هو الكعبة . ولكن الأرجح أن يكون بيت عبادة الملائكة في السماء لما ورد في
الصحيحين في حديث الإسراء : « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا
يعودون إليه آخر ما عليهم » .. يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم !

والسقف المرفوع : السماء . قاله سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سماك بن خالد بن عرعة عن علي
– كرم الله وجهه – قال سفيان : ثم تلا : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » ..

والبحر المسجور : المملوء . وهو أنسب شيء يذكر مع السماء في مشهد . في انفساحه وامتلائه وامتداده .
وهو آية فيها رهبة ولها روعة . توهلانه للذكر مع هذه المشاهد المقسم بها على الأمر العظيم . وقد يكون معنى المسجور :
المتقد . كما قال في سورة أخرى : « وإذا البحار سجرت » أي توقدت نيراناً . كما أنه قد يشير إلى خلق آخر
كالبيت المرفوع يعلمه الله .

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق العظيمة على أمر عظيم . بعد أن يتبأ الحس بهذه الإيقاعات لاستقبال ذلك
الأمر العظيم :

« إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع » ..

فهو واقع حتماً ، لا يملك دفعه أحد أبداً . وإيقاع الآيتين والفاصلتين حاسم قاطع . يلقي في الحس أنه أمر داهم
قاصم ، ليس منه واق ولا عاصم . وحين يصل هذا الإيقاع إلى الحس البشري بلا عائق فإنه يهزه ويضعضه
ويفعل به الأفاعيل .. قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن داود ، عن صالح

المري ، عن جعفر بن زيد العبدى قال : خرج عمر بعس بالمدينة ذات ليلة ، فر بدار رجل من المسلمين ، فوافقه قائماً يصلي ، فوقف يستمع قراءته فقرأ : « والطور .. حتى بلغ : إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع » .. قال : قسم ورب الكعبة حق . فترل عن حمارة . واستند إلى حائط ، فكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه . رضي الله عنه .

وعمر - رضي الله عنه - سمع السورة قبل ذلك ، وقرأها ، وصلى بها ، فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلي بها المغرب . وعمر يعلم . ويتأسى . ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوفاً ، وحساً مفتوحاً ، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت . حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة ؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة ، فتتخللها وتعمقها ، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة ، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها . فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر - رضي الله عنه - حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى ..

ويعقب هذا الإيقاع الرهيب مشهد مصاحب له رهيب :

« يوم تمور السماء موراً ، وتسير الجبال سيراً » ..

ومشهد السماء الثابتة المبنية بقوة وهي تضطرب وتتقلب كما يضطرب الموج في البحر من هنا إلى هناك بلا قوام . ومشهد الجبال الصلبة الراسية تسير خفيفة رقيقة لا ثبات لها ولا استقرار . أمر مذهل مزلزل . يدل ضمناً على الهول الذي تمور فيه السماء وتسير منه الجبال . فكيف بال مخلوق الإنساني الصغير الضعيف في ذلك الهول المذهل المخيف ؟!

وفي زحمة هذا الهول الذي لا يثبت عليه شيء ؛ وفي ظل هذا الرعب المزلزل لكل شيء ، يعاجل المكذبين بما هو أهول وأرعب . يعاجلهم بالدعاء عليهم بالويل من العزيز الجبار :

« فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم في خوض يلعبون » ..

والدعاء بالويل من الله حكم بالويل وقضاء . فهو أمر لا محالة واقع ، ما له من دافع . وهو كائن حتماً ، يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً . فيتناسب هذا الهول مع ذلك الويل ، وينصب كله على المكذبين .. الذين هم في خوض يلعبون » ..

وهذا الوصف ينطبق ابتداء على أولئك المشركين ومعتقداتهم المتهاففة ، وتصوراتهم المهلهلة ؛ وحياتهم القائمة على تلك المعتقدات وهذه التصورات ، التي وصفها القرآن وحكاها في مواضع كثيرة . وهي لعب لا جد فيه . لعب يخوضون فيه كما يخوض اللاعب في الماء ، غير قاصد إلى شاطئ أو هدف ، سوى الخوض واللعب !

ولكنه يصدق كذلك على كل من يعيش بتصور آخر غير التصور الإسلامي .. وهذه حقيقة لا يدركها الإنسان إلا حين يستعرض كل تصورات البشر المشهورة - سواء في معتقداتهم أو أساطيرهم أو فلسفاتهم - في ظل التصور الإسلامي للوجود الإنساني ثم للوجود كله .. إن سائر التصورات - حتى لكبار الفلاسفة الذين يعتز بهم تاريخ الفكر الإنساني - تبدو محاولات أطفال يخبطون ويخوضون في سبيل الوصول إلى الحقيقة . تلك الحقيقة التي تعرض في التصور الإسلامي - وبخاصة في القرآن - عرضاً هادئاً ناصعاً قوياً بسيطاً عميقاً . يلتقي مع الفطرة التقاء مباشراً دون كد ولا جهد ولا تعقيد . لأنه يطالعها بالحقيقة الأصلية العميقة فيها . ويفسر لها الوجود وعلاقتها به ، كما يفسر لها علاقة الوجود بخالفه تفسيراً يضاهي ما استقر فيها ويوافقه .

وطالما عجبت وأنا أطلع تصورات كبار الفلاسفة ؛ وألاحظ العناء القاتل الذي يزاولونه ، وهم يحاولون

تفسير هذا الوجود وارتباطاته ؛ كما يحاول الطفل الصغير حل معادلة رياضية هائلة .. وأمامي التصور القرآني واضحاً ناصعاً سهلاً هيناً ميسراً طبيعياً ، لا عوج فيه ولا لف ولا تعقيد ولا التواء . وهذا طبيعي ، فالتفسير القرآني للوجود هو تفسير صانع هذا الوجود لطبيعته وارتباطاته .. أما تصورات الفلاسفة فهي محاولات أجزاء صغيرة من هذا الوجود لتفسير الوجود كله . والعاقبة معروفة لمثل هذه المحاولات البائسة !

إنه عبث . وخلط . وخوض .. حين يقاس إلى الصورة المكتملة الناضجة ، المطابقة ، التي يعرضها القرآن على الناس ، فيدعها بعضهم إلى تلك المحاولات المتخبطة الناقصة ، المستحيلة الاكتمال والنضوج !

وإن الأمور لتظل مضطربة في حس الإنسان وتصوره ، متأثرة بالتصورات المنحرفة ، وبالمحاولات البشرية الناقصة .. ثم يسمع آيات من القرآن في الموضوع الذي يساوره . فإذا النور الهادئ . والميزان الثابت . وإذا هو يجد كل شيء في موضعه ، وكل أمر في مكانه ، وكل حقيقة هادئة مستقرة لا تضطرب ولا تمور . ويحس بعدها أن نفسه استراحت ، وأن باله هدأ ، وأن عقله اطمأن إلى الحق الواضح ، وقد زال الغبش والقلق واستقرت الأمور .

كذلك يبدو أن الناس في خوض يلعبون من ناحية اهتماماتهم في الحياة . حين تقاس بالاهتمامات التي يثيرها الإسلام في النفس ، ويعلق بها القلب ، ويشغله بتدبرها وتحقيقها . وتبدو تفاهة تلك الاهتمامات وضآلتها ، والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها ، وانغماسهم فيها ، وتعظيمهم لها ، وحديثهم عنها كأنها أمور كونية عظيمة ! وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى وبالدمى الميتة ، يحسبونها شخصاً ؛ ويقضون أوقاتهم في مناغاتها واللعب معها وبها !!!

إن الإسلام يرفع من اهتمامات البشر بقدر ما يرفع من تصورهم للوجود الإنساني وللوجود كله ؛ وبقدر ما يكشف لهم عن علة وجودهم وحقيقته ومصيره ؛ وبقدر ما يجب إجابة صادقة واضحة عن الأسئلة التي تساور كل نفس : من أين جئت ؟ لماذا جئت ؟ إلى أين أذهب ؟

وإجابة الإسلام عن هذه الأسئلة تحدد التصور الحق للوجود الإنساني وللوجود كله . فإن الإنسان ليس بدءاً من الخلائق كلها . فهو واحد منها . جاء من حيث جاءت . وشاركها علة وجودها . ويذهب إلى حيث تقتضي حكمة خالق الوجود كله أن يذهب . فالإجابة على تلك الأسئلة تشمل كذلك تفسيراً كاملاً للوجود كله ، وارتباطاته وارتباطات الإنسان به . وارتباط الجميع بخالق الجميع .

وهذا التفسير ينعكس على الاهتمامات الإنسانية في الحياة ؛ ويرفعها إلى مستواه . ومن ثم تبدو اهتمامات الآخرين صغيرة هزيلة في حس المسلم المشغول بتحقيق وظيفة وجوده الكبرى في هذا الكون ، عن تلك الصغائر والتفاهات التي يخوض فيها اللاعبون !

إن حياة المسلم حياة كبيرة - لأنها منوطة بوظيفة ضخمة ، ذات ارتباط بهذا الوجود الكبير ، وذات أثر في حياة هذا الوجود الكبير . وهي أعز وأنفس من أن يقضيها في عبث وهو وخوض ولعب . وكثير من اهتمامات الناس في الأرض يبدو عبثاً وهواً وخوضاً ولعباً حين يقاس إلى اهتمامات المسلم الناشئة من تصوراته لتلك الوظيفة الضخمة المرتبطة بحقيقة الوجود^١ .

وويل لأولئك الخائضين اللاعبين : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً » .. وهو مشهد عنيف . فالدع : الدفع

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث للمؤلف يرجو أن يوفق إلى إخراجه) .

في الظهور . وهي حركة غليظة تليق بالخائضين اللاعين ، الذين لا يجدون ، ولا ينتهون إلى ما يجري حولهم من الأمور . فيساقون سوقاً ويدفعون في ظهورهم دفعاً .

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : « هذه النار التي كنتم بها تكذبون ! » .. وبينما هم في هذا الكرب ، بين الدع والنار التي تواجههم على غير إرادة منهم . يبحثهم الترديل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب : « أفسح هذا ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ » . فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التي يرونها كذلك سحر ؟ أم إنه الحق الهائل الرعب ؟ أم إنهم لا يبصرون هذه النار كما كانوا لا يبصرون الحق في القرآن الكريم ؟!

وحين ينتهي هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس . « اصلوها . فاصبروا أو لا تصبروا . سواء عليكم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة . من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ما له من دافع . وأله واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر سواء صبر عليه أم هلع .. والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع فلا تغيير فيه ولا تبديل ! وبذلك ينتهي هذا المشهد الرعب ؛ كما ينتهي الشوط الأول بإيقاعه العنيف .

* * *

أما الشوط الثاني فهو مثير للحس ، ولكن بما فيه من رخاء ورغد ، وهتاف بالمتاع لا يقاوم ، وبخاصة بعد مشهد العذاب البئيس :

« إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرئ بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون . وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ؛ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » ..

والمشهد أقرب إلى مشاهد النعم الحسي ، الذي يخاطب المشاعر في أول العهد ، والذي يجتذب النفوس بلذائذ الحس في صورتها المصفاة . وهو مقابل لذلك العذاب الغليظ الذي تواجه به القلوب الجاسية والقلوب اللاهية كذلك :

« إن المتقين في جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » .. ومجرد الوقاية من عذاب الجحيم الذي عرضت مشاهدته في هذه السورة فضل ونعمة . فكيف ومعه « جنات ونعيم » ؟ وهم يلتذون ما آتاهم ربهم ويتفكهون ؟ ومع النعيم ولذته التهنئة والتكريم :

« كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون » ..

وهذا بذاته متاع أكرم . وهم ينادون هذا النداء العلوي ، ويعلن استحقاقهم لما هم فيه :

« متكئين على سرر مصفوفة » .. منسقة يجدون فيها لذة التجمع بإخوانهم في هذا النعم : « وزوجناهم بحور

عين .. وهذه تمثل أمتع ما يجول في خواطر البشر من متاع جميل .

ويمضي التكرير خطوة فإذا ذريتهم المؤمنة تجتمع إليهم في هذا النعيم ، زيادة في الرعاية والعناية . ولو كانت أعمال الذرية أقل من مستوى مقام المتقين ، ما دامت هذه الذرية مؤمنة . وذلك دون أن ينقص شيء من أعمال الآباء ودرجاتهم . ودون إخلال بفردية التبعة وحساب كل بعمله الذي كسبه ، إنما هو فضل الله على الجميع : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم . وما ألتناهم من عملهم من شيء . كل امرئ بما كسب رهين » ..

ويستطرد المشهد يعرض ألوان المناعم واللذائذ في ذلك النعيم . فإذا فاكهة ولحم مما يشتهون . وإذا هم يتعاطون فيها كأساً ليست كخمر الدنيا تطلق اللغو والهذر من الشفاء والألسنة ، وتشيع الإثم والمعصية في الحس والجوارح . إنما هي مصفاة مبرأة : « لا لغو فيها ولا تأثيم » .. وهم يتجاذبون بينهم ويتعاطونها مجتمعين ، زيادة في الإيناس واللذة والنعيم . في حين يقوم على خدمتهم ويطوف بالكأس عليهم غلمان صباح أبرياء ، فيهم نظافة ، وفيهم صيانة ، وفيهم نداوة : « كأنهم لؤلؤ مكنون » مما يضاعف إيناس المجلس اللطيف في الجوارح والقلوب . واستكمالاً لجو المشهد المأنوس يعرض سمرهم فيما بينهم ، وتذاكرهم ماضيهم ، وأسباب ما هم فيه من أمن ورضى ورخاء ورغد وأنس ونعيم . فيكشف للقلوب عن سر هذا المتاع ، ويشير إلى الطريق المؤدي إلى هذا النعيم :

« وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا : إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » ..

السّر إذن أنهم عاشوا على حذر من هذا اليوم . عاشوا في خشية من لقاء ربهم . عاشوا مشفقين من حسابه . عاشوا كذلك وهم في أهلهم ، حيث الأمان الخادع . ولكنهم لم ينخدعوا . وحيث المشغلة الملهمية . ولكنهم لم ينشغلوا .

عندئذ منّ الله عليهم ووقاهم عذاب السموم ، الذي يتخلل الأجسام كالسم الحار اللاذع ! وقاهم هذا العذاب منة منه وفضلاً ، لما علم من تقواهم وخشيتهم وإشفاقهم . وهم يعرفون هذا . ويعرفون أن العمل لا يدخل صاحبه الجنة إلا بمنة من الله وفضل . فما يبلغ العمل أكثر من أن يشهد لصاحبه أنه بذل جهده ، ورغب فيما عند الله . وهذا هو المؤهل لفضل الله .

وقد كانوا مع الإشفاق والحذر والتقوى يدعون الله : « إنا كنا من قبل ندعوه » .. وهم يعرفون من صفاته البر بعباده والرحمة بعبده : « إنه هو البر الرحيم » ..

وكذلك ينكشف سر الوصول في تناجي هؤلاء الناجين المكرمين في دار النعيم .

* * *

والآن وقد تلقى الحس سياط العذاب العنيف في الشوط الأول ، وتلقى هتاف النعيم الرغيد في الشوط الثاني ، وتوفرت بهذا وذلك حساسيته لتلقي الحقائق .. فإن السياق يعاجله بحملة سريعة الإيقاعات . يطارده فيها بالحقائق الصادقة ، ويتعقب وساوسه في مسارب نفسه في صورة استفهامات استنكارية ، وتحديات قوية ، لا يثبت لها الكيان البشري حين تصل إليه من أي طريق :

« فذكر . فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون : شاعر تتربص به ريب المنون ؟ قل : تربصوا

فإني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ؟ أم يقولون : تقوله ؟ بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين . أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ أم لهم سُلَّم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين . أم له البنات ولكم البنون ؟ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون . وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحب مركوم ..

« فذكر » .. والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليظل في تذكيره لا يشينه سوء أدبهم معه ، وسوء اتهامهم له . وقد كانوا يقولون عنه مرة : إنه كاهن . ويقولون عنه مرة : إنه مجنون . ويجمع بين الوصفين عندهم ما كان شائعاً بينهم أن الكهان يتلقون عن الشياطين . وأن الشيطان كذلك يتخبط بعض الناس ، فيصابون بالجنون . فالشيطان هو العامل المشترك بين الوصفين : كاهن أو مجنون ! وكان يحملهم على وصف النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا الوصف أو ذاك ، أو بقولهم إنه شاعر أو ساحر . كان يحملهم على هذا كله موقفهم مهيبين أمام القرآن الكريم المعجز الذي بيدهم بما لم يعهدوا من القول ، وهم أهل القول ! ولما كانوا لا يريدون - لعله في نفوسهم - أن يعترفوا أنه من عند الله ، فقد احتاجوا أن يعللوا مصدره المتفوق على البشر . فقالوا : إنه من إحياء الجن أو بمساعدتهم . فصاحبه إما كاهن يتلقى من الجن ، أو ساحر يستعين بهم ، أو شاعر له رأي من الجن ، أو مجنون به مس من الشيطان ينطقه بهذا القول العجيب !

وإنها لقولة فظيعة شنيعة . فالله - سبحانه - يسلي رسوله عنها ، ويصغر من شأنها في نفسه . وهو يشهد له أنه محوط بنعمة ربه ، التي لا تكون معها كهانة ولا جنون : « فأنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » ..

ثم يستنكر قولهم : إنه شاعر : « أم يقولون شاعر تربص به ريب المنون ؟ » .. وقد قالوها . وقال بعضهم لبعض : اصبروا عليه ، واثبتوا على ما أنتم فيه ، حتى يأتيه الموت ، فيريحنا منه ! وتواصوا أن يتربصوا به الموت المريح . ومن ثم يلقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يرد عليهم في تهديد ملفوف : « قل : تربصوا . فإني معكم من المتربصين » .. وستعلمون من تكون له العاقبة ، ومن ينتهي به التربص إلى النصر والظهور .

ولقد كان شيوخ قریش يلقبون بذوي الحلوم . أو ذوي الأحلام . إشارة إلى رجاحة عقولهم وحكمتهم في تصريف الأمور . فهو يتحكم بهم وبأحلامهم تجاه الإسلام . وموقفهم منه ينافي الحكمة والعقل ، فيسأل في تهكم : أهذه الأوصاف التي يصفون بها محمداً - صلى الله عليه وسلم - وتلك المواقف التي يقفونها من رسالته كانت من وحي أحلامهم ؟ أم أنهم طغاة ظالمون لا يقفون عند ما تمليه الأحلام والعقول :

« أم تأمرهم أحلامهم بهذا ؟ أم هم قوم طاغون ! »

وفي السؤال الأول تهكم لاذع . وفي السؤال الثاني اتهام مزرر . وواحد منهما لا بد لاحق بهم في موقفهم المريب !

ولقد تناولت ألسنتهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاتهموه باقتراء ما يقول . فهو هنا يسأل في استنكار : إن كانوا يقولون : تقوله : كأن هذه الكلمة لا يمكن أن تقال . فهو يسأل عنها في استنكار : « أم يقولون تقوله ؟ » .. ويبادر ببيان علة هذا القول الغريب : « بل لا يؤمنون » . فعدم استشعار قلوبهم للإيمان ، هو الذي ينطقهم بمثل هذا القول ؛ بعد أن يحجبهم عن إدراك حقيقة هذا القرآن . ولو أدركوها لعلموا أنه ليس من صنع بشر ؛ وأنه لا يحمله إلا صادق أمين .

وما دامت قلوبهم لا تستشعر حقيقة هذا التنزيل ؛ فهو يتحداهم إذن ببرهان الواقع الذي لا يقبل المراء :
« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » .

وقد تكرر هذا التحدي في القرآن الكريم ؛ وتلقاه المنكرون عاجزين ، ووقفوا تجاهه صاغرين . وكذلك يقف أمامه كل أحد إلى يوم الدين .

إن في هذا القرآن سرّاً خاصاً ، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء ، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها . إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن . يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير . وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن . يدركه بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً ، ولكنه على كل حال موجود . هذا العنصر الذي ينسكب في الحس ، يصعب تحديد مصدره : أهو العبارة ذاتها ؟ أهو المعنى الكامن فيها ؟ أهو الصور والظلال التي تشعها ؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة ؟ أهو هذه العناصر كلها مجتمعة ؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود ؟!

ذلك سر مودع في كل نص قرآني ، يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .. ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله :

في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل . التصور لحقيقة الوجود الإنساني ، وحقيقة الوجود كله ، وللحقيقة الأولى التي تنبع منها كل حقيقة . حقيقة الله سبحانه .

وفي الطريقة التي يتبعها القرآن لبناء هذا التصور الكامل الصحيح في الإدراك البشري . وهو يخاطب الفطرة ، خطاباً خاصاً ، غير معهود مثله في كلام البشر أجمعين ؛ وهو يقلب القلب من جميع جوانبه ومن جميع مداخله ، ويعالجه علاج الخير بكل زاوية وكل سر فيه .

وفي الشمول والتوازن والتناسق بين توجهاته كلها ، والاستواء على أفق واحد فيها كلها . مما لا يعهد إطلاقاً ، في أعمال البشر ، التي لا تستقر على حال واحدة ، ولا تستقيم على مستوى واحد ، ولا تحيط هكذا بجميع الجوانب ، ولا تملك التوازن المطلق الذي لا زيادة فيه ولا نقص ، ولا تفريط فيه ولا إفراط ، والتناسق المطلق الذي لا تعارض فيه ولا تصادم سواء في ذلك الأصول والفروع .

فهذه الظواهر المدركة .. وأمثالها .. مع ذلك السر الخافي الذي لا سبيل إلى انكاره ... مما يسبغ على هذا الكتاب سمة الإعجاز المطلق في جميع العصور . وهي مسألة لا يماري فيها إنسان يحترم حسه ، ويحترم نفسه ، ويحترم الحقيقة التي تपालه بقوة وعمق ووضوح ، حيثما واجه هذا القرآن بقلب سليم .. « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » ..

والاستفهام التالي عن حقيقة وجودهم ، هم أنفسهم ، وهي حقيقة قائمة لا مفر لهم من مواجهتها ، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن فيها ، من أن لهم خالقاً أوجدهم هو الله سبحانه . وهو موجود بذاته . وهم مخلوقون .

« أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ » ..

وجودهم هكذا من غير شيء أمر ينكره منطق الفطرة ابتداء ؛ ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل . أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدعوه ولا يدعيه مخلوق . وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة ، فإنه لا يبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن . وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه

أحد في الخلق والإنشاء ؛ فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة .. وهو منطوق واضح بسيط .
كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم . فهل هم خلقوها ؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال
كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم :

« أم خلقوا السماوات والأرض ؟ بل لا يوقنون » ..

وهم - ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة - لا يقولون : إن السماوات والأرض خلقت نفسها ، أو خلقت
من غير خالق . وهم كذلك لا يدعون أنهم خلقوها .. وهي قائمة حيالهم سؤالاً حياً يتطلب جواباً على وجوده !
وقد كانوا إذا سئلوا عن خلق السماوات والأرض قالوا الله .. ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم
إلى درجة اليقين الذي ينشئ آثاره في القلب ، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق .. « بل لا يوقنون » ..

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض . فيسألهم : هل هم يملكون
خزائن الله ، ويسيطرون على القبض والبسط ، والضر والنفع :

« أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المسيطرون ؟ » ..

وإذا لم يكونوا كذلك ، ولم يدعوا هذه الدعوى . فمن ذا يملك الخزائن ، ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور ؟
القرآن يقول : إنه الله القابض الباسط ، المدير المتصرف . وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض
وبسط وتصريف وتدير . بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور !

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل :

« أم لهم سُلَّم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان مبين » .

إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يقول لهم : إنه رسول يوحى إليه ، وإن هذا القرآن ينزل عليه من الملائكة
الأعلى . وهم يكذبونه فيما يقول . فهل لهم سلم يستمعون فيه ، فيعلموا أن محمداً لا يوحى إليه ، وأن الحق
غير ما يقول ؟ : « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » . أي ببرهان قوي يحمل في ذاته سلطاناً على النفوس يلجئها
إلى التصديق . وفي هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه ، وهم يكابرون فيها ويعاندون !
ثم يناقش إحدى مقولاتهم المتهافة عن الله سبحانه . تلك التي ينسبون إليه فيها بنوة الملائكة ، الذين يتصورونهم
إنائاً ؛ موجهاً الخطاب مباشرة إليهم ، زيادة في التخجيل والترذيل :

« أم له البنات ولكم البنون ؟ » .

وهم كانوا يعتبرون البنات في درجة أقل من درجة البنين ، إلى حد أن تسود وجوههم من الكمد والكظم حين
يبيشرون بالأنثى . وكانوا مع هذا لا يستحيون من نسبة البنات إلى الله ! فهو هنا يأخذهم بعرفهم وتقاليدهم ،
ليخجلهم من هذا الادعاء . وهو في ذاته متهافة لا يستقيم !

وهم كانوا يستثقلون دعوة النبي لهم إلى الهدى ؛ وهو يقدمه لهم خالصاً بريئاً ، لا يطلب عليه أجراً ، ولا
يفرض عليهم إتاوة . وأيسر ما يقتضيه هذا العرض البريء أن يستقبل صاحبه بالحسنى ، وأن يرد بالحسنى
إذا لم يقبلوا ما يقدمه لهم ويعرضه عليهم . وهو هنا يستنكر مسلكهم الذي لا داعي له يقول :

« أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ » ..

أي مثقلون من الغرم الذي تكلفهم إياه في صورة الأجر على ما تقول ! فإذا كان الواقع أن لا أجر ولا غرامة .
فكم يبدو عملهم مستزلاً قبيحاً ، يخجلون منه حين يواجهون به ؟

ويعود يواجههم بحقيقة وجودهم ووضعهم في هذا الوجود . فهم عبيد لهم حدود . مكشوف لهم من هذا وجود بقدر . محجوب عنهم ما وراءه ، مما يختص به صاحب هذا الوجود . فهناك غيب من اختصاصه يقف دونه العبيد ، لا علم لهم به ، لأنهم عبيد :

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » ..

وهم يعلمون أن ليس عندهم الغيب ، وأن ليس لهم به علم ، وأن ليس لهم عليه قدرة . وأنهم لا يكتبون في سجل الغيب شيئاً ، إنما يكتب الله فيه ما يريد ، مما يقدره للعبيد .

والذي يملك أمر الغيب وما يقدر فيه وما يدبر ، هو الذي يملك أن يدبر فيه وأن يكيد . فإلههم وهم عن الغيب محجوبون ، وفي سجله لا يكتبون يكيدون لك ويدبرون ، ويحسبون أنهم قادرون على شيء من أمر المستقبل : فيقولون : شاعر ترصد به ريب المنون ؟!

« أم يريدون كيداً ؟ فالذين كفروا هم المكيدون ! »

وهم الذين يحيق بهم ما يقدره صاحب الغيب لهم ، وهم الذين يقع عليهم كيده ومكره . والله خير الماكرين . « أم لهم إله غير الله ؟ » .. يقيهم ويتولاهم ويرد عنهم كيد الله .. « سبحانه الله عما يشركون » وتنزهه - سبحانه - عن تصورهم الباطل السقيم !

وبهذا التنزيه لله سبحانه عن الشرك والشركاء تختم هذه الحملة المتلاحقة الخطى ، القوية الإيقاع . وقد انكشفت كل شبهة ، ودحضت كل حجة ، ووقف القوم أمام الحقيقة العارية مجردين من كل عذر ومن كل دليل . عندئذ يقدمهم على حقيقتهم معاندين مكابرين يمارون في الحق الواضح ، متمسكين بأدنى شبهة من بعيد :

« وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا : سحاب مركوم » ..

أي إنه إذا أرسل عليهم العذاب في صورة قطعة من السماء تسقط عليهم وفيها الهلاك ، قالوا وهم يرونها تسقط : « سحاب مركوم » .. فيه الماء والحياة ! عناداً منهم أن يسلموا بالحق ، ولو كان السيف على رقابهم كما يقولون ! ولعله يشير بهذا إلى قصة عاد . وقولهم حين رأوا سحابة الموت والدمار : « عارض ممطرنا » .. حيث كان الرد : « بل هو ما استعجلتم به : ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها » ..

* * *

وعند هذا الحد من تصوير عنادهم ومكابرتهم في الحق ، ولو كان فوق رؤوسهم الهلاك ، يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لينفض يده من أمرهم ، ويدعهم لليوم الذي ورد ذكره ووصفه في أول السورة . وللعذاب الذي ينتظرهم من قبله . وأن يصبر لحكم ربه الذي يعزه ويرعاه ويكلؤه . وأن يسبح بحمد ربه في الصباح حين يقوم ، ومن الليل ، وعند إدبار النجوم :

« فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون . وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » ..

وهو شوط جديد في الحملة يبدأ بالتهديد ، بذلك اليوم الرعب ، يوم ينفخ في الصور فيصعقون . - قبيل البعث والنشور - يوم لا ينفعهم تدبير ولا ينصرهم نصير . فإذا كانوا اليوم يكيدون ويدبرون ، فهم في ذلك

اليوم لا يغني عنهم كيد ولا تدبير . على أن لهم قبل ذلك اليوم عذاباً - يتركه مجهولاً ولكن أكثرهم لا يعلمون . ويفرغ بهذا التهديد الأخير من أمر المكذبين الظالمين ، الذين طاردهم هذه المطاردة الطويلة العنيفة ، لينتهي بهم إلى موقف المهديد الذي ينتظره العذاب من بعيد ومن قريب .. يفرغ منه ليلتفت إلى النبي الكريم الذي تطاول عليه المتطاولون ، وتقول عليه المتقولون ، يلتفت إليه - صلى الله عليه وسلم - يوجهه إلى الصبر على هذا العناء ، وهذا التكذيب ، وهذا التطاول ؛ والصبر على طريق الدعوة الشاق الطويل . تاركاً الأمر لحكم الله يفعل به ما يشاء : « واصبر لحكم ربك » ..

ومع التوجيه إلى الصبر إيدان بالإعزاز الرباني ، والعناية الإلهية ، والأنس الحبيب الذي يسمح على مشقات الطريق مسحاً ، ويجعل الصبر عليها أمراً محبباً ، وهو الوسيلة إلى هذا الإعزاز الكريم : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » ..

ويا له من تعبير ! ويا له من تصوير ! ويا له من تقدير !
إنها مرتبة لم يبلغها قط إنسان . هذه المرتبة التي يصورها هذا التعبير الفريد في القرآن كله . حتى بين التعبيرات المشابهة .

لقد قيل لموسى عليه السلام : « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .. وقيل له : « وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني » .. وقيل له : « واصطنعتك لنفسى » ..

وكلها تعبيرات تدل على مقامات رفيعة . ولكنه قيل لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : « فإنك بأعيننا » وهو تعبير فيه إعزاز خاص ، وأنس خاص . وهو يلقي ظلاً فريداً أرق وأشف من كل ظل .. ولا يملك التعبير البشري أن يترجم هذا التعبير الخاص . فحسبنا أن نشير إلى ظلاله ، وأن نعيش في هذه الظلال .

ومع هذا الإيناس هداية إلى طريق الصلة الدائمة به : « وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .. فعلى مدار اليوم . عند البقطة من النوم . وفي ثنايا الليل . وعند إدبار النجوم في الفجر . هنالك مجال الاستمتاع بهذا الإيناس الحبيب . والتسبيح زاد وأنس ومناجاة للقلوب . فكيف بقلب المحب الحبيب القريب ؟؟؟

(٥٣) سُورَةُ النِّجْمِ مَكِّيَّةٌ وَايَاتُهَا ثِنْتَانِ وَسِتُّونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَمْتَرُونَ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذْ قَسَمَٰ ضُرَيٌّ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٢٤﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٥﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٦﴾ * وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَىٰ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٩﴾

فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ

الَّذِينَ اسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٣٢﴾

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى ﴿٣٤﴾ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرَى ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُدَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾ أَلَا تَرَى رُوزِرَةً وَزَرَ أُخْرَى ﴿٣٨﴾ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَاهُ سَوْفَ بَرَى ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿٤١﴾ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴿٤٢﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَصْحَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴿٤٦﴾ وَأَنْ عَلَيْهِ النَّشْأَةُ الْأُخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنْهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنْهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنْهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا ۖ فَآبَقَى ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تُتَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَقِنْ هَذَا الْحَدِيثَ تَعَجَّبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاتَّجِدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ۖ ﴿٦٢﴾

هذه السورة في عمومها كأنها منظومة موسيقية علوية ، منعمة ، يسري التنعيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة . ويلحظ هذا التنعيم في السورة بصفة عامة ؛ ويبدو القصد فيه واضحاً في بعض المواضع ؛ وقد زيدت لفظة أو اختيرت قافية ، لتضمن سلامة التنعيم ودقة إيقاعه - إلى جانب المعنى المقصود الذي تؤديه في السياق كما هي عادة التعبير القرآني - مثل ذلك قوله : « أفرايم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » .. فلو قال ومناة الأخرى ينكسر الوزن . ولو قال : ومناة الثالثة فقط يتعطل إيقاع القافية . ولكل كلمة قيمتها في معنى العبارة . ولكن مراعاة الوزن والقافية كذلك ملحوظة . ومثلها كلمة « إذن » في وزن الآيتين بعدها : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! » فكلمة « إذن » ضرورية للوزن . وإن كانت - مع هذا - تؤدي غرضاً فنياً في العبارة ... وهكذا .

ذلك الإيقاع ذو لون موسيقي خاص . لون يلحظ فيه التموج والانسياب . وبخاصة في المقطع الأول والمقطع الأخير من السورة . وهو يتناسق بتموجه وانسيابه مع الصور والظلال الطليقة المرفرفة في المقطع الأول . ومع المعاني واللمسات العلوية في المقطع الأخير . وما بينهما مما هو قريب منهما في الجو والموضوع .

والصور والظلال في المقطع الأول ، تشع من المجال العلوي الذي تقع فيه الأحداث النورانية والمشاهد الربانية التي يصفها هذا المقطع . ومن الحركات الطليقة للروح الأمين وهو يتراءى للرسول الكريم .. والصور والظلال والحركات والمشاهد والجو الروحي المصاحب ، تستمد وتمد ذلك الإيقاع التعبيري وتمتد به ، وتناسق معه ، وتترأى فيه ، في توافق منغم عجيب .

ثم يعم ذلك العبق جو السورة كله ، ويترك آثاره في مقاطعها التالية ، حتى تختم بإيقاع موح شديد الإيحاء مؤثر عميق التأثير . ترتعش له كل ذرة في الكيان البشري وترف معه وتستجيب .

* * *

وموضوع السورة الذي تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق : العقيدة بموضوعاتها الرئيسية : الوحي والوحدانية والآخرة . والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته ، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمي الموهون !

والمقطع الأول في السورة يستهدف بيان حقيقة الوحي وطبيعته ، ويصف مشهدين من مشاهدته ، ويثبت صحته وواقعته في ظل هذين المشهدين ؛ ويؤكد تلقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن جبريل - عليه السلام - تلقي رؤية وتمكن ودقة ، وإطلاعه على آيات ربه الكبرى .

ويتحدث المقطع الثاني عن آهتهم المدعاة : اللات والعزى ومناة . وأوهامهم عن الملائكة . وأساطيرهم حول بنوتها لله . واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً . بينما الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين .

والمقطع الثالث يلقي الرسول - صلى الله عليه وسلم - الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويشغل نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئاً . ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم ، منذ أنشأهم من الأرض ، ومنذ كانوا أجنة في بطون أمهاتهم . فهو أعلم بهم من أنفسهم ، وعلى أساس هذا العلم المستيقن - لا الظن والوهم - يكون حسابهم وجزاؤهم ، ويصير أمرهم في نهاية المطاف .

والمقطع الرابع والأخير يستعرض أصول العقيدة - كما هي منذ أقدم الرسالات - من فردية التبعة ، ودقة الحساب ، وعدالة الجزاء . ومن انتهاء الخلق إلى ربهم المتصرف في أمرهم كله تصرف المشيئة المطلقة . ومع هذا لفتة إلى مصارع الغابرين المكذبين . تختم بالإيقاع الأخير : « هذا نذير من النذر الأولى . أذفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفئن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ، ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » .. حيث يلتقي المطلع والختام في الإيحاء والصور والظلال والإيقاع العام .

* * *

« والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علّمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتهارونه على ما يرى ؟ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدره المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاع البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ..

في هذا المطلع نعيش لحظات في ذلك الأفق الوضيء الطليق المرفرف الذي عاش فيه قلب محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ونرف بأجنحة النور المنطلقة إلى ذلك الملاء الأعلى ؛ ونستمع إلى الإيقاع الرخي المنساب ، في جرس العبارة وفي ظلالها وإيحائها على السواء .

نعيش لحظات مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - مكشوفة عنه الحجب ، مزاحة عنه الأستار . يتلقى من الملأ الأعلى . يسمع ويرى ، ويحفظ ما وعى . وهي لحظات خص بها ذلك القلب المصفى ؛ ولكن الله يمن على عباده ، فيصف لهم هذه اللحظات وصفاً موحياً مؤثراً . ينقل أصداءها وظلالها وإيحائها إلى قلوبهم . يصف لهم رحلة هذا القلب المصفى ، في رحاب الملأ الأعلى . يصفها لهم خطوة خطوة ، ومشهداً مشهداً ، وحالة حالة ، حتى لكانهم كانوا شاهديها .

ويبدأ الوصف الموحى بقسم من الله سبحانه : « والنجم إذا هوى » .. وحركة تلالؤ النجم ثم هويته ودنوه . أشبه بمشهد جبريل المقسم عليه : « وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى » .. وهكذا يبدأ التناسق والتوافق في المشهد والحركة والظل والإيقاع منذ اللحظة الأولى .

« والنجم إذا هوى » .. وقد رويت تفسيرات مختلفة للنجم المقصود في هذا القسم . وأقرب ما يرد على الذهن أنها إشارة إلى الشعري ، التي كان بعضهم يعبدها . والتي ورد ذكرها في السورة فيما بعد في قوله : « وأنه هو رب الشعري » .. وقد كان للشعري من اهتمام الأقدمين حظ كبير . ومما هو معروف أن قدماء المصريين كانوا يوقتون فيضان النيل بعبور الشعري بالفلك الأعلى . ويرصدونها من أجل هذا ويرقبون حركاتها . ولها شأن في أساطير الفرس وأساطير العرب على السواء . فالأقرب أن تكون هذه الإشارة هنا إليها . ويكون اختيار مشهد هوي النجم مقصوداً للتناسق الذي أشرنا إليه . ولمعنى آخر هو الإيحاء بأن النجم مهما يكن عظيماً هائلاً فإنه يهوي ويتغير مقامه . فلا يليق أن يكون معبوداً . فللمعبود الثبات والارتفاع والدوام .

ذلك هو القسم . فأما المقسم عليه ، فهو أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - مع الوحي الذي يحدثهم عنه : « ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى » ..

فصاحبكم راشد غير ضال . مهتد غير غاو . مخلص غير مغرض . مبلغ بالحق عن الحق غير واهم ولا مفتر ولا مبتدع . ولا ناطق عن الهوى فيما يبلغكم من الرسالة . إن هو إلا وحي يوحى . وهو يبلغكم ما يوحى إليه صادقاً أميناً .

هذا الوحي معروف حامله . مستيقن طريقه . مشهودة رحلته . رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأي العين والقلب ، فلم يكن واهماً ولا مخدوعاً :

« علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفترارونه على ما يرى ؟ » ..

والشديد القوى ذو المرة « أي القوة » ، هو جبريل - عليه السلام - وهو الذي علم صاحبكم ما بلغه إليكم . وهذا هو الطريق ، وهذه هي الرحلة ، مشهودة بدقائقها : استوى وهو بالأفق الأعلى . حيث رآه محمد - صلى الله عليه وسلم - وكان ذلك في مبدأ الوحي . حين رآه على صورته التي خلقه الله عليها ، يسد الأفق بخلقها الهائل . ثم دنا منه فتدلى نازلاً مقرباً إليه . فكان أقرب ما يكون منه . على بعد ما بين القوسين أو أدنى - وهو تعبير عن منتهى القرب - فأوحى إلى عبد الله ما أوحى . بهذا الإجمال والتفخيم والتهويل .

فهي رؤية عن قرب بعد الترائي عن بعد . وهو وحي وتعليم ومشاهدة وتيقن .

وهي حال لا يتأتى معها كذب في الرؤية ، ولا تحتل مماراة أو مجادلة : « ما كذب الفؤاد ما رأى . أفترارونه على ما يرى ؟ » .. ورؤية الفؤاد أصدق وأثبت ، لأنها تنفي خداع النظر . فلقد رأى فتثبت فاستيقن فؤاده أنه الملك ، حامل الوحي ، رسول ربه إليه ، ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم . وانتهى المراء والجدال ، فما عاد لهما

مكان بعد تثبت القلب و يقين الفؤاد .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي رآه فيها على صورته . فقد تكررت مرة أخرى :
« ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر
وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

وكان ذلك في ليلة الإسراء والمعراج - على الراجح من الروايات - فقد دنا منه - وهو على هيئته التي خلقه
الله بها مرة أخرى « عند سدرة المنتهى » .. والسدرة كما يعرف من اللفظ شجرة . فأما أنها سدرة المنتهى . فقد
يعني هذا أنها التي ينتهي إليها المطاف . فجنة المأوى عندها . أو التي انتهت إليها رحلة المعراج . أو التي انتهت
إليها صحبة جبريل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث وقف هو وصعد محمد - صلى الله عليه وسلم -
درجة أخرى أقرب إلى عرش ربه وأدنى .. وكله غيب من غيب الله ، أطلع عليه عبده المصطفى ، ولم يرد
إينا عنه إلا هذا . وكله أمر فوق طاقتنا أن ندرك كيفيته . فلا يدركها الإنسان إلا بمشيئة من خالقه وخالق
الملائكة ، العليم بخصائص الإنسان وخصائص الملائكة ..

ويذكر ما لا بس هذه الرؤية عند سدرة المنتهى . زيادة في التوكيد واليقين : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » ..
مما لا يفصله ولا يحدده . فقد كان أهول وأضخم من الوصف والتحديد .

وكان ذلك كله حقاً يقيناً : « ما زاغ البصر وما طغى » .. فلم يكن زغلة عين ، ولا تجاوز رؤية . إنما هي
المشاهدة الواضحة المحققة ، التي لا تحتل شكاً ولا ظناً . وقد عاين فيها من آيات ربه الكبرى ، واتصل قلبه
بالحقيقة عارية مباشرة مكشوفة .

فالأمر إذن - أمر الوحي - أمر عيان مشهود . ورؤية محققة . و يقين جازم . واتصال مباشر . ومعرفة
مؤكد . وصحبة محسوسة . ورحلة واقعية . بكل تفصيلاتها ومراجعها .. وعلى هذا اليقين تقوم دعوة « صاحبكم »
الذي تنكرون عليه وتكذبونه وتشككون في صدق الوحي إليه . وهو صاحبكم الذي عرفتموه وخبرتموه . وما
هو بغريب عنكم فتجهلوه . وربه يصدقه ويقسم على صدقه . ويقص عليكم كيف أوحى إليه . وفي أي الظروف .
وعلى يد من وكيف لاقاه . وأين رآه !

* * *

ذلك هو الأمر المستيقن ، الذي يدعوهم إليه محمد - صلى الله عليه وسلم - فأما هم فعلام يستندون في
عبادتهم وآلهتهم وأساطيرهم ؟ علام يستندون في عبادتهم للآلات والعزى ومناة ؟ وفي ادعائهم الغامض أنهم ملائكة ،
وأن الملائكة بنات الله ؟ وأن هن شفاعة ترجي عند الله ؟ إلى أي بيعة ؟ وإلى أية حجة ؟ وإلى أي سلطان يرتكون
في هذه الأوهام ؟ هذا ما يعالجه المقطع الثاني في السورة :

« أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى ! إن هي
إلا أسماء سميتوهن أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم
من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم
شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لیسمون الملائكة تسمية الأنثى .
وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » ..

وكانت « اللات » صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة ، وحوله فناء معظم عند
أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب عدا قريش لأن عندهم

الكعبة بيت إبراهيم عليه السلام . ويظن أن اسمها « اللات » مؤنث لفظ الجلالة « الله » . سبحانه وتعالى . وكانت « العزى » شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - وهي بين مكة والطائف - وكانت قریش تعظمها . كما قال أبو سفيان يوم أحد . لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » . ويظن أن اسمها « العزى » مؤنث « العزيز » .. وكانت « مناة » بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة . وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتهم يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وكان بالجزيرة كثير من هذه المعبودات تعظمها القبائل المختلفة . ولكن هذه الثلاثة كانت أعظمها . والمظنون أن هذه المعبودات كانت رموزاً للملائكة يعتبرهن العرب إناثاً ويقولون : إنهن بنات الله . ومن هنا جاءت عبادتها ، والذي يقع غالباً أن ينسى الأصل ، ثم تصبح هذه الرموز معبودات بذاتها عند جمهرة العباد . ولا تبقى إلا قلة متنورة هي التي تذكر أصل الأسطورة !

فلما ذكر الله هذه المعبودات الثلاثة معجباً منها ومن عبادتها كما تفيد صيغة السؤال ولفظه : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثلاثة الأخرى ؟ » ..

والتعجب والتشهير واضح في افتتاح السؤال : « أفرأيتم ؟ » وفي الحديث عن مناة .. الثلاثة الأخرى .. لما ذكر الله هذه المعبودات عقب عليها باستنكار دعواهم أن لله الإناث وأن لهم الذكور : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى » ..

مما يوحي بأن لهذه المعبودات صلة بأسطورة أنوثة الملائكة ، ونسبتها إلى الله سبحانه . مما يرجح ما ذكرناه عنها . وقد كانوا هم يكرهون ولادة البنات لهم . ومع هذا لم يستحيوا أن يجعلوا الملائكة إناثاً - وهم لا يعلمون عنهم شيئاً يلزمهم بهذا التصور . وأن ينسبوا هؤلاء الإناث إلى الله !

والله - سبحانه - يأخذهم هنا بتصوراتهم وأساطيرهم ؛ ويسخر منها ومنهم : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ » .. إنها إذن قسمة غير عادلة قسمتكم بين أنفسكم وبين الله ! « تلك إذن قسمة ضيزى ! » ..

والمسألة كلها وهم لا أساس له من العلم ولا من الواقع . ولا حجة فيها ولا دليل : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وأبأؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس . ولقد جاءهم من ربهم الهدى ! »

هذه الأسماء . اللات . العزى . مناة .. وغيرها . وتسميتها آلهة وتسميتها ملائكة . وتسمية الملائكة إناثاً . وتسمية الإناث بنات الله ... كلها أسماء لا مدلول لها ، ولا حقيقة وراءها . ولم يجعل الله لكم حجة فيها . وكل ما لم يقرره الله فلا قوة فيه ولا سلطان له . لأنه لا حقيقة له . وللحقيقة ثقل . وللحقيقة قوة . وللحقيقة سلطان فأما الأباطيل فهي خفيفة لا وزن لها . ضعيفة لا قوة لها . مهينة لا سلطان فيها .

وفي منتصف الآية يتركهم وأوهامهم وأساطيرهم ، ويترك خطابهم ، ويلتفت عنهم كأنهم لا وجود لهم ، ويتحدث عنهم بصيغة الغائب : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس » .. فلا حجة ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل . والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى ؛ ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض .. وهم لم يتبعوا الظن والهوى ولهم عذر أو علة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .. فانقطع العذر وبطل التعلل !

ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر ، ولن يجدي هدى ؛ لأن العلة هنا ليست خفاء الحق ، ولا ضعف الدليل . إنما هي الهوى الجامح الذي يريد ، ثم يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ! وهي شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل !

ومن ثم يسأل في استنكار :

« أم للإنسان ما تمنى ؟ » ..

فكل ما يتمنى يتحول إلى حقيقة وكل ما يهوى ينقلب إلى واقع ! والأمر ليس كذلك . فإن الحق حق والواقع واقع . وهوى النفس ومناها لا يغيران ولا يبدلان في الحقائق . إنما يضل الإنسان بهواه ، ويهلك بمنه . وهو أضعف من أن يغير أو يبدل في طبائع الأشياء . وإنما الأمر كله لله يتصرف فيه كما يشاء في الدنيا وفي الآخرة سواء :

« فله الآخرة والأولى » ..

ولا ننسى أن نلاحظ هنا تقديم الآخرة على الأولى . لمراعاة قافية السورة وإيقاعها . إلى جانب النكتة المعنوية المقصودة بتقديم الآخرة على الأولى . كما هي طبيعة الأسلوب القرآني في الجمع بين اداء المعنى وتنغمم الإيقاع . دون إخلال بهذا على حساب ذاك ! شأنه شأن كل ما هو من صنع الله . فالجمال في الكون كله يتناسق مع توظيفه ويؤاخيها !

وإذا خُصص الأمر كله لله في الآخرة والأولى . فإن أوهام المشركين عن شفاعة الآلهة المدعاة - من الملائكة - هم عند الله . كما قالوا : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .. إن هذه الأوهام لا أصل لها . فالملائكة لحقة في السماء لا تملك الشفاعة إلا حين يأذن الله في شيء منها :

« وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً . إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » ..

ومن ثم تسقط دعوهم من أساسها ، فوق ما فيها من بطلان تولى تفيده في الآيات السابقة . وتتجرد العقيدة من كل غش أو شبهة . فالأمر لله في الآخرة والأولى . ومعنى الإنسان لا تغير من الحق الواقع شيئاً . والشفاعة لا تقبل إلا بإذن من الله ورضى . فالأمر إليه في النهاية . والاتجاه إليه وحده في الآخرة والأولى .

وفي نهاية الفقرة يناقش للمرة الأخيرة أوهام المشركين - الذين لا يؤمنون بالآخرة - عن الملائكة ؛ ويكشف عن أساسها الواهي ، الذي لا ينبغي أن تقوم عليه عقيدة أصلاً :

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » ..

وهذا التعقيب الأخير يوحى بعلاقة اللات والعزى ومناة بأسطورة أنوثة الملائكة ونسبتهم إلى الله سبحانه ! وهي أسطورة واهية ، لا يتبعون فيها إلا الظن . فليس لهم من وسيلة لأن يعلموا شيئاً مستيقناً عن طبيعة الملائكة . فَمَا نسبتهن إلى الله . فهي الباطل الذي لا دليل عليه إلا الوهم الباطل ! وكل هذا لا يغني من الحق ، ولا يقوم مقامه في شيء . الحق الذي يتركونه ويستغنون عنه بالأوهام والظنون !

* * *

وحين يبلغ إلى هذا الحد من بيان وهن عقيدة الشرك وتهاقها عند الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويشركون بالله ، وينسبون له البنات ويسمون الملائكة تسمية الأنثى ! يتجه بالخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم -

ليهمل شأنهم ويعرض عنهم ، ويدع أمرهم لله الذي يعلم المسيء والمحسن ، ويجزي المهدي والضال ، ويملك أمر السماوات والأرض ، وأمر الدنيا والآخرة ، ويحاسب بالعدل لا يظلم أحداً ، ويتجاوز عن الذنوب التي لا يصير عليها فاعلوها . وهو الخبير بالنوايا والطوايا ، لأنه خالق البشر المطلع على حقيقتهم في أطوار حياتهم جميعاً :

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا . ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . والله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى . الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش - إلا اللثم - إن ربك واسع المغفرة . هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم . فلا تركوا أنفسكم . هو أعلم بمن اتقى » ..

هذا الأمر بالإعراض عمن تولى عن ذكر الله ، ولم يؤمن بالآخرة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا . موجه ابتداء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليهمل شأن أولئك المشركين الذين سبق الحديث في السورة عن أساطيرهم وأوهامهم وعدم إيمانهم بالآخرة .

وهو موجه بعد ذلك إلى كل مسلم يواجهه من يتولى عن ذكر الله ويعرض عن الإيمان به ؛ ويجعل وجهته الحياة الدنيا وحدها ، لا ينظر إلى شيء وراءها ، ولا يؤمن بالآخرة ولا يحسب حسابها . ويرى أن حياة الإنسان على هذه الأرض هي غاية وجوده ، لا غاية بعدها ؛ ويقم منهجه في الحياة على هذا الاعتبار ، فيفصل ضمير الإنسان عن الشعور بإله يدبر أمره ، ويحاسبه على عمله ، بعد رحلة الأرض المحدودة ، وأقرب من تتمثل فيه هذه الصفة في زماننا هذا هم أصحاب المذاهب المادية .

والمؤمن بالله وبالآخرة لا يستطيع أن يشغل باله - فضلاً على أن يعامل أو يعايش - من يعرض عن ذكر الله ، وينني الآخرة من حسابه . لأن لكل منهما منهجاً في الحياة لا يلتقيان في خطوة واحدة من خطواته ، ولا في نقطة واحدة من نقاطه . وجميع مقاييس الحياة ، وجميع قيمها ، وجميع أهدافها ، تختلف في تصور كل منهما . فلا يمكن إذن أن يتعاونوا في الحياة أي تعاون ، ولا أن يشتركا في أي نشاط على هذه الأرض . مع هذا الاختلاف الرئيسي في تصور قيم الحياة وأهدافها ومناهج النشاط فيها ، وغاية هذا النشاط . وما دام التعاون والمشاركة متعذرين فما داعي الاهتمام والاحتفال ؟ إن المؤمن يعبث حين يحفل شأن هؤلاء الذين يعرضون عن ذكر الله ولا يريدون إلا الحياة الدنيا . وينفق طاقته التي وهبها الله إياها في غير موضعها .

على أن للإعراض اتجاهاً آخر ، هو التهوين من شأن هذه الفئة . فئة الذين لا يؤمنون بالله ؛ ولا يبتغون شيئاً وراء الحياة الدنيا . فهما كان شأنهم فهم محجوبون عن الحقيقة ، قاصرون عن إدراكها ، واقفون وراء الأسوار . أسوار الحياة الدنيا .. « ذلك مبلغهم من العلم » . وهو مبلغ تافه مهما بدا عظيماً . قاصر مهما بدا شاملاً . مضلل مهما بدا هادياً . وما يمكن أن يعلم شيئاً ذا قيمة من يقف بقلبه وحسه وعقله عند حدود هذه الأرض . ووراءها - حتى في رأي العين - عالم هائل لم يخلق نفسه . ووجوده هكذا أمر ترفضه البدهة . ولم يوجد عبثاً متى كان له خالق . وإنه لعبث أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية هذا الخلق الهائل وغايته .. فإدراك حقيقة هذا الكون من أي طرف من أطرافها كفيل بالإيمان بالخالق . وكفيل كذلك بالإيمان بالآخرة . نفيّاً للعبث عن هذا الخالق العظيم الذي يدع هذا الكون الكبير .

ومن ثم يجب الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ويقف عند حدود الدنيا ، الإعراض على سبيل صيانة

الاهتمام أن يبذل في غير موضعه والإعراض على سبيل التهوين والاحتقار لمن هذا مبلغ علمه . ونحن مأمورون بهذا إن أردنا أن نتلقى أمر الله لنطيعه . لا لنقول كما قالت يهود : سمعنا وعصينا .. والعياذ بالله من هذا !
« إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » ..

وقد علم أن هؤلاء ضالون . فلم يرد لنبيه ولا للمهتدين من أمته أن يشغلوا أنفسهم بشأن الضالين . ولا أن يصاحبوهم . ولا أن يحفلوهم . ولا أن يخدعوا في ظاهر علمهم المضلل القاصر ، الذي يقف عند حدود الحياة الدنيا . ويحول بين الإدراك البشري والحقيقة الخالصة ، التي تقود من يدرکها إلى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتنحطى به حدود هذه الأرض القريبة ، وهذه الحياة الدنيا المحدودة .

وإن العلم الذي يبلغه هؤلاء القاصرون الضالون ل يبدو في أعين العوام وأشباههم ، عوام القلب والإدراك والحس ، شيئاً عظيماً ذا فاعلية وأثر في واقع الحياة الدنيا . ولكن هذا لا ينبي صفة الضلال عنهم في النهاية ، ولا صفة الجهل والقصور . فحقيقة الارتباط بين هذا الوجود وخالقه . وحقيقة الارتباط بين عمل الإنسان وجزائه . هاتان الحقيقتان ضروريتان لكل علم حق . وبدونهما يبقى العلم قشوراً لا تؤثر في حياة الإنسان ولا ترقىها ولا ترفعها . وقيمة كل علم مرهونة بأثره في النفس وفي ارتباطات البشر الأدبية . وإلا فهو تقدم في الآلات وانتكاس في الآدميين . وما أبأسه من علم هذا الذي ترتقي فيه الآلات على حساب الآدميين !!!

وشعور الإنسان بأن له خالقاً خلقه وخلق هذا الكون كله ، وفق ناموس واحد متناسق . يغير من شعوره بالحياة ، وشعوره بما حوله وبمن حوله ؛ ويجعل لوجوده قيمة وهدفاً وغاية أكبر وأشمل وأرفع ، لأن وجوده مرتبط بهذا الكون كله ؛ فهو أكبر من ذاته المعدودة الأيام . وأكبر من أسرته المعدودة الأفراد وأكبر من قومه ، وأكبر من وطنه وأكبر من طبقته التي يطنطن بها أصحاب المذاهب المادية الحديثة . وأرفع من اهتمامات هذه تشكيلات جميعاً !

وشعور الإنسان بأن خالقه محاسبه في الآخرة ومجازيه . يغير من تصوراته ومن موازينه ومن حوافزه ومن أهدافه . ويربط الحاسة الأخلاقية في نفسه بمصيره كله ، فيزيدها قوة وفاعلية . لأن هلاكه أو نجاته مرهونة بيقظة هذه الحاسة وتأثيرها في نيته وعمله . ومن ثم يقوى « الإنسان » ويسيطر على تصرفات هذا الكائن . لأن الرقيب الحارس قد استيقظ ! ولأن الحساب الختامي ينتظره هناك . ومن الناحية الأخرى فهو مطمئن في الخبر واثق من انتصاره في الحساب الختامي . حتى لو رآه ينهزم في الأرض في بعض الجولات ! وهو مكلف دائماً أن ينصر الخير ويكافح في سبيله سواء هزم في هذه الأرض أم انتصر لأن الجزاء النهائي هناك ! إنها مسألة كبيرة هذا الإيمان بالله والإيمان بالآخرة . مسألة أساسية في حياة البشر . إنها حاجة أكبر من حاجات الطعام والشراب والكساء . وإنها إما أن تكون فيكون « الإنسان » وإما ألا تكون فهو حيوان من ذلك نحيوان !

وحين تفرق المعايير والأهداف والغايات وتصور الحياة كلها هذا الاختلاف ، فلا مجال حينئذ إلى مشاركة أو تعامل أو حتى تعارف ينشأ عنه قسط من الاهتمام .

ومن ثم لا يمكن أن تقوم علاقة أو صحبة أو شركة أو تعاون ، أو أخذ وعطاء ، أو اهتمام واحتفال بين مؤمن بالله ، وآخر أعرض عن ذكره ولم يرد إلا الحياة الدنيا . وكل قول غير هذا فهو محال ومراء ، يخالف عن أمر الله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا » ..

« والله ما في السماوات وما في الأرض . ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » ..
وهذا التقرير للملكية الله - وحده - لما في السماوات وما في الأرض ، يمنح قضية الآخرة قوة وتأثيراً . فالذي جعل الآخرة وقدرها هو الذي يملك ما في السماوات وما في الأرض وحده ، فهو القادر على الجزاء ، المختص به ، المالك لأسبابه . ومن شأن هذه الملكية أن تحقق الجزاء الكامل العادل : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى » ..

ثم يحدد الذين أحسنوا هؤلاء ، والذين يجزيهم بالحسنى .. فهم :

« الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا اللمم » ..

وكبائر الإثم هي كبار المعاصي . والفواحش كل ما عظم من الذنب وفحش . واللمم تختلف الأقوال فيه . فابن كثير يقول : وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغار الذنوب ومحقرات الأعمال . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله تعالى إذا كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه »^١ .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العين النظر ، وزنا الشفتين التقيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي . ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه . فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلا فهو اللمم . وكذا قال مسروق والشعبي .
وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي ، قال : سألت أبا هريرة عن قول الله : « إلا اللمم » قال : القبلة والنظرة والغمزة والمباشرة . فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل . وهو الزنا .
فهذه أقوال متقاربة في تعريف اللمم .

وهناك أقوال أخرى :

قال علي بن طلحة عن ابن عباس : « إلا اللمم » إلا ما سلف . وكذا قال زيد بن أسلم .
وقال ابن جرير : حدثنا ابن المنثي ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن منصور ، عن مجاهد ، أنه قال في هذه الآية : « إلا اللمم » قال : الذي يلم بالذنب ثم يدعه .
وقال ابن جرير : حدثني سليمان بن عبد الجبار : حدثنا أبو عاصم ، حدثنا زكريا عن ابن إسحاق ، عن عمرو بن دينار ، عن عطاء ، عن ابن عباس : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » .. قال : هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب . وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما ؟

وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل . ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق . وكذا قال البزار لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه .
وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد . حدثنا يزيد بن زريع . حدثنا يونس ، عن الحسن ،

(١) أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - (أراه رفعه) في «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم» . قال :
اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . واللمة من السرقة ثم يتوب ولا يعود . واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا
يعود . قال : فذلك الإلزام ..

وروي مثل هذا موقوفاً على الحسن .

فهذه طائفة أخرى من الأقوال تحدد معنى اللثم تحديداً غير الأول .

والذي نراه أن هذا القول الأخير أكثر تناسباً مع قوله تعالى بعد ذلك : «إن ربك واسع المغفرة» .. فذكر
سعة المغفرة يناسب أن يكون اللثم هو الإتيان بتلك الكبائر والفواحش ، ثم التوبة . ويكون الاستثناء غير
منقطع . ويكون الذين أحسنوا هم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . إلا أن يقعوا في شيء منها ثم يعودوا
سريعاً ولا يلجوا ولا يصروا . كما قال الله سبحانه : «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله
فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» .. وسمى هؤلاء «المتقين»
ووعدهم مغفرة وجنة عرضها السماوات والأرض^١ .. فهذا هو الأقرب إلى رحمة الله ومغفرته الواسعة .

وختم الآية بأن هذا الجزاء بالسوء وبالحسن مستند إلى علم الله بحقيقة دخائل الناس في أطوارهم كلها .

«هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم» ..

فهو العلم السابق على ظاهر أعمالهم . العلم المتعلق بحقيقتهم الثابتة ، التي لا يعلمونها هم ، ولا يعرفها إلا
الذي خلقهم . علم كان وهو ينشئ أصلهم من الأرض وهم بعد في عالم الغيب . وكان وهم أجنة في بطون
أمهاتهم لم يروا النور بعد . علم بالحقيقة قبل الظاهر . وبالطبيعة قبل العمل .

ومن كانت هذه طبيعة علمه يكون من اللغو - بل من سوء الأدب - أن يعرفه إنسان بنفسه ، وأن يعلمه
- سبحانه - بحقيقته ! وأن يثني على نفسه أمامه يقول له : أنا كذا وأنا كذا :

«فلا تركوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» ..

فما هو بحاجة إلى أن تدلوه على أنفسكم ، ولا أن تزنوا له أعمالكم ؛ فعنده العلم الكامل . وعنده الميزان
الدقيق . وجزاؤه العدل . وقوله الفصل . وإليه يرجع الأمر كله .

* * *

بعد ذلك يجيء المقطع الأخير في السورة . في إيقاع كامل التنعيم ، أشبه بإيقاع المقطع الأول . يقرر الحقائق
الأساسية للعقيدة كما هي ثابتة منذ إبراهيم صاحب الحنيفية الأولى . ويعرف البشر بخالقهم ، بتعليمهم بمشيئته
الفاعلة المبدعة المؤثرة في حياتهم ويعرض آثارها واحداً واحداً بصورة تلمس الوجدان البشري وتذكره وتهزه هزاً
عميقاً .. حتى إذا كان الختام وكان الإيقاع الأخير تلقته المشاعر مرتجفة مرتعشة متأثرة مستجيبة :

«أفرأيت الذي تولى ، وأعطى قليلاً وأكدى ؟ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ،
 وإبراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه
الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى . وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين
الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى . وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب الشعرى .

(١) سورة آل عمران (١٣٣ - ١٣٦) .

وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاهما ما غشى . فبأي آلاء ربك تتبارى ؟

« هذا نذير من النذر الأولى . أذنت الآرفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفئن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا .. »

وذلك « الذي تولى ، وأعطى قليلاً وأكدى » .. الذي يعجب الله من أمره الغريب ، تذكر بعض الروايات أنه فرد معين مقصود ، أنفق قليلاً في سبيل الله ، ثم انقطع عن البذل خوفاً من الفقر . ويحدد الزمخشري في تفسيره « الكشاف » شخصه ، أنه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ويذكر في ذلك قصة ، لا يستند فيها إلى شيء ، ولا يقبلها من يعرف عثمان - رضي الله عنه - وطبيعته وبذله الكثير الطويل في سبيل الله بلا توقف وبلا حساب كذلك ؛ وعقيدته في الله وتصوره لتبعة العمل وفرديته^١ .

وقد يكون المقصود شخصاً بذاته . وقد يكون نموذجاً من الناس سواء . فالذي يتولى عن هذا النهج ، ويبذل من ماله أو من نفسه لهذه العقيدة ثم يكدي - أي يضعف عن المواصلة ويكف - أمره عجيب ، يستحق التعجب ويتخذ القرآن من حاله مناسبة لعرض حقائق العقيدة وتوضيحها .

« أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ » ..

والغيب لله . لا يراه أحد سواه . فلا يأمن الإنسان ما خبئ فيه ؛ وعليه أن يواصل عمله وبذله ، وأن يعيش حذراً موفياً طوال حياته ؛ وألا يبذل ثم ينقطع ، ولا ضمان له في الغيب المجهول إلا حذره وعمله ووفاءه ، ورجاؤه بهذا كله في مغفرة الله وقبوله .

« أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ... » ..

وهذا الدين قديم ، موصولة أوائله وأواخره ، ثابتة أصوله وقواعده ، يصدق بعضه بعضاً على توالي الرسائل والرسول ، وتباعد المكان والزمان . فهو في صحف موسى . وهو في ملة إبراهيم قبل موسى . إبراهيم الذي وفى . وفى بكل شيء . وفى وفاء مطلقاً استحق به هذا الوصف المطلق . ويذكر الوفاء هنا في مقابل الإكداء والانقطاع ، ويذكر بهذه الصيغة (وفى) بالتشديد تنسيقاً للإيقاع المنغم وللقفافية المطردة .

فماذا في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ؟ فيها :

« ألا تزر وازرة وزر أخرى » ..

فلا تحمل نفس حمل أخرى ؛ لا تخفيفاً عن نفس ولا تثقيلاً على أخرى . فلا تملك نفس أن تتخفف من حملها ووزرها . ولا تملك نفس أن تتطوع فتحمل عن نفس شيئاً !

« وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ..

(١) قال : « روي أن عثمان - رضي الله عنه - كان يعطي ماله في الخير . فقال له عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخوه من الرضاعة - يوشك أن لا يبقى لك شيء . فقال عثمان : إن لي ذنباً وخطايا . وإني أطلب بما أصنع رضى الله تعالى ، وأرجو عفوهُ . فقال عبد الله : أعطني ناقتك برحلتها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ! فأعطاه وأشهد عليه ، وأمسك عن العطاء . فنزلت ! » ... وهي رواية ظاهرة البطلان فما هكذا يتصور عثمان !

كذلك . فإحسب للإنسان إلا كسبه وسعيه وعمله . لا يزداد عليه شيء من عمل غيره . ولا ينقص منه شيء ليناله غيره . وهذه الحياة الدنيا هي الفرصة المعطاة له ليعمل ويسعى . فإذا مات ذهبت الفرصة وانقطع العمل . إلا ما نص عليه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في قوله : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له . أو صدقة جارية من بعده . أو علم ينتفع به »^١ .. وهذه الثلاثة في حقيقتها من عمله . ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي - رحمه الله - ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم . ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة - رضي الله عنهم - ولو كان خيراً لسبقونا إليه . وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء . فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما^٢ ..

« وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ..

فلن يضيع شيء من السعي والعمل والكسب ؛ ولن يغيب شيء عن علم الله وميزانه الدقيق . وسينال كل امرئ جزاء سعيه وافياً كاملاً لا نقص فيه ولا ظلم .

وكذلك يتحدد مبدأ فردية التبعة ، إلى جانب عدالة الجزاء . فتحقق للإنسان قيمته الإنسانية . القائمة على اعتباره مخلوقاً راشداً مسؤولاً مؤتمناً على نفسه ؛ كريماً متاح له الفرصة للعمل ثم يؤخذ بما عمل وتحقق له كذلك الطمأنينة على عدالة الجزاء . عدالة مطلقة لا يميل بها الهوى ، ولا يقعد بها القصور ، ولا ينقص منها الجهل بحقائق الأمور .

« وأن إلى ربك المنتهى » ..

فلا طريق إلا الطريق الذي ينتهي إليه . ولا ملجأ من دونه . ولا مأوى إلا داره : في نعم أو جحيم .. ولهذا الحقيقة قيمتها وأثرها في تكييف مشاعر الإنسان وتصوره فحين يحس أن المنتهى إلى الله المنتهى كل شيء وكل أمر . وكل أحد . فإنه يستشعر من أول الطريق نهايته التي لا مفر منها ولا محيص عنها . ويصوغ نفسه وعمله وفق هذه الحقيقة ؛ أو يحاول في هذا ما يستطيع . ويظل قلبه ونظره معلقين بتلك النهاية منذ أول الطريق !

وبعدما يصل السياق بالقلب البشري إلى نهاية المطاف يكر راجعاً به إلى الحياة ، يريه فيها آثار مشيئة الله . في كل مرحلة ، وفي كل حال :

« وأنه هو أضحكك وأبكى » ..

وتحت هذا النص تكن حقائق كثيرة . ومن خلاله تنبعث صور وظلال موحية مثيرة .. أضحك وأبكى .. فأودع هذا الإنسان خاصية الضحك وخاصية البكاء . وهما سر من أسرار التكوين البشري لا يدري أحد كيف هما ، ولا كيف تقعان في هذا الجهاز المركب المعقد ، الذي لا يقلل تركيبه وتعقيدته النفسي عن تركيبه وتعقيدته العضوي . والذي تتداخل المؤثرات النفسية والمؤثرات العضوية فيه وتتشابكان وتتفاعلان في إحداث الضحك وإحداث البكاء .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه - بإسناده - عن أبي هريرة .

(٢) ابن كثير في التفسير .

وأضحك وأبكى .. فأنشأ للإنسان دواعي الضحك ودواعي البكاء . وجعله - وفق أسرار معقدة فيه - يضحك لهذا ويبكي لهذا . وقد يضحك غداً مما أبكاه اليوم . ويبكي اليوم مما أضحكه بالأمس . في غير جنون ولا ذهول إنما هي الحالات النفسية المتقلبة . والموازن والدواعي والدوافع والاعتبارات التي لا تثبت في شعوره على حال ! وأضحك وأبكى .. فجعل في اللحظة الواحدة ضاحكين وباكين . كل حسب المؤثرات الواقعة عليه . وقد يضحك فريق مما يبكي منه فريق . لأن وقعه على هؤلاء غير وقعه على أولئك .. وهو هو في ذاته . ولكنه بملبساته بعيد من بعيد !

وأضحك وأبكى . من الأمر الواحد صاحبه نفسه . يضحك اليوم من الأمر ثم تواجهه عاقبته غداً أو جرائره فإذا هو باك . يتمنى أن لم يكن فعل وأن لم يكن ضحك وكمن من ضاحك في الدنيا باك في الآخرة حيث لا ينفع البكاء !

هذه الصور والظلال والمشاعر والأحوال .. وغيرها كثير تنبثق من خلال النص القصير ، وتترأى للحس والشعور . وتظل حشود منها تنبثق من خلاله كلما زاد رصيد النفس من التجارب ؛ وكلما تجددت عوامل الضحك والبكاء في النفوس - وهذا هو الإعجاز في صورة من صوره الكثيرة في هذا القرآن .

« وأنه هو أمات وأحيا » ..

وكذلك تنبثق من هذا النص صور لا عداد لها في الحس .

أمات وأحيا .. أنشأ الموت والحياة ، كما قال في سورة أخرى : « الذي خلق الموت والحياة » . وهما أمران معروفان كل المعرفة بوقوعهما المتكرر . ولكنهما خافيان كل الخفاء حين يحاول البشر أن يعرفوا طبيعتهما وسرهما الخافي على الأحياء .. فما الموت ؟ وما الحياة ؟ ما حقيقتهم حين يتجاوز الإنسان لفظهما وشكلهما الذي يراه ؟ كيف دب الحياة في الكائن الحي ؟ ما هي ؟ ومن أين جاءت ؟ وكيف تلبست بهذا الكائن فكان ؟ وكيف سارت في طريقها الذي سارت فيه بهذا الكائن أو بهذه الكائنات الأحياء ؟ وما الموت ؟ وكيف كان .. قبل ديب الحياة . وبعد مفارقتها للأحياء ؟ إنه السر الخافي وراء الستر المسبل ، بيد الله !

أمات وأحيا .. وتنبثق ملايين الصور من الموت والحياة . في عوالم الأحياء كلها . في اللحظة الواحدة . في هذه اللحظة . كم ملايين الملايين من الأحياء ماتت . وكم ملايين الملايين بدأت رحلة الحياة . ودب فيها هذا السر من حيث لا تعلم ومن حيث لا يعلم أحد إلا الله ! وكم من ميتات وقعت فإذا هي ذاتها بواعث حياة ! وكم من هذه الصور يترأى على مدار القرون ، حين يستغرق الخيال في استعراض الماضي الطويل ، الذي كان قبل أن يكون الإنسان كله على هذا الكوكب . وندع ما يعلمه الله في غير هذا الكوكب من أنواع الموت والحياة التي لا تخطر على بال الإنسان !

إنها حشود من الصور وحشود ، تطلقها هذه الكلمات القلائل ، قهز القلب البشري من أعماقه . فلا يتألك نفسه ولا يتماسك تحت إيقاعاتها المتنوعة الأصداء !

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » ..

وهي الحقيقة الهائلة الواقعة المتكررة في كل لحظة . فينساها الإنسان لتكرارها أمام عينيه ، وهي أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال !

نطفة تمنى .. تراق .. إفراز من إفرازات هذا الجسد الإنساني الكثيرة كالعرق والدمع والمخاط ! فإذا هي

بعد فترة مقدورة في تدبير الله .. إذا هي ماذا ؟ إذا هي إنسان ! وإذا هذا الإنسان ذكر وأنثى ! كيف ؟ كيف تمت هذه العجيبة التي لم تكن - لولا وقوعها - تخطر على الخيال ؟ وأين كان هذا الإنسان المركب الشديد التركيب ، المعقد الشديد التعقيد ؟ أين كان كامناً في النقطة المراقبة من تلك النقطة . بل في واحد من ملايين من أجزائها الكثيرة ؟ أين كان كامناً بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره وأظافره . وسماته وشيئاته وملامحه . وخلأته وطباعه واستعداداته ؟ ! أين كان في هذه الخلية الميكروسكوبية السابحة هي وملايين من أمثالها في النقطة الواحدة من تلك النقطة التي تمنى ؟ ! وأين على وجه التخصيص كانت خصائص الذكر وخصائص الأنثى في تلك الخلية . تلك التي انبثقت وأعلنت عن نفسها في الجنين في نهاية المطاف ؟ !

وأي قلب بشري يقف أمام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة . ثم يتألمك أوتياك . فضلاً على أن يجحد ويتبجح ، ويقول : إنها وقعت هكذا والسلام ! وسارت في طريقها هكذا والسلام ! واهتدت إلى خطها المرسوم هكذا والسلام ! أو يتعالم فيقول : إنها سارت هذه السيرة بحكم ما ركب فيها من استعداد لإعادة نوعها ، شأنها شأن سائر الأحياء المزودة بهذا الاستعداد ! فهذا التفسير يحتاج بدوره إلى تفسير . فمن ذا أودعها هذا الاستعداد ؟ من ذا أودعها الرغبة الكامنة في حفظ نوعها بإعادته مرة أخرى ؟ ومن ذا أودعها القدرة على إعادته وهي ضعيفة ضئيلة ؟ ومن ذا رسم لها الطريق لتسير فيه على هدى ، وتحقق هذه الرغبة الكامنة ؟ ومن ذا أودع فيها خصائص نوعها لتعيدها ؟ وما رغبتها هي وما مصلحتها في إعادة نوعها بهذه الخصائص ؟ لولا أن هنالك إرادة مدبرة من ورائها تريد أمراً ، وتقدر عليه ، وترسم له الطريق ؟ !

ومن النشأة الأولى . وهي واقعة مكرورة لا ينكرها منكر ، يتجه مباشرة إلى النشأة الأخرى .
« وأن عليه النشأة الأخرى » ..

والنشأة الأخرى غيب . ولكن عليه من النشأة الأولى دليل . دليل على إمكان الوقوع . فالذي خلق الزوجين الذكر والأنثى من نقطة إذا تمنى ، قادر - ولا شك - على إعادة الخلق من عظام ورفات . فليست العظام والرفات بأهون من الماء المراق ! ودليل على حكمة الوقوع . فهذا التدبير الخفي الذي يقود الخلية الحية الصغيرة في طريقها الطويل الشاق حتى تكون ذكراً أو أنثى . هذا التدبير لا بد أن يكون مداه أبعد من رحلة الأرض التي لا يتم فيها شيء كامل ؛ ولا يجد المحسن جزاء إحسانه كاملاً ، ولا المسيء جزاء إساءته كاملاً كذلك . لأن في حساب هذا التدبير نشأة أخرى يبلغ فيها كل شيء تمامه . فدلالة النشأة الأولى على النشأة الأخرى مزدوجة . ومن هنا جاء ذكرها هكذا قبل النشأة الأخرى ..

وفي النشأة الأولى . وفي النشأة الأخرى . يغني الله من يشاء من عباده ويُقينه :
« وأنه هو أغنى وأقنى » ..

أغنى من عباده من شاء في الدنيا بأنواع الغنى وهي شتى . غنى المال . وغنى الصحة . وغنى الذرية . وغنى النفس . وغنى الفكر . وغنى الصلة بالله والزيادة الذي ليس مثله زاد .
وأغنى من عباده من شاء في الآخرة من غنى الآخرة !

وأقنى من شاء من عباده . من كل ما يقتنى في الدنيا كذلك وفي الآخرة !

والخلق فقراء محملون . لا يغتنون ولا يقتنون إلا من خزائن الله . فهو الذي أغنى . وهو الذي أقنى . وهي لمسة من واقع ما يعرفون وما تتعلق به أنظارهم وقلوبهم هنا وهناك . ليتطلعوا إلى المصدر الوحيد . ويتجهوا إلى الخزائن العامرة وحدها ، وغيرها خواء !

« وأنه هو رب الشعرى » . .

والشعري نجم أثقل من الشمس بعشرين مرة ، ونوره خمسون ضعف نور الشمس . وهي أبعد من الشمس بمليون ضعف بعد الشمس عنا .

وقد كان هناك من يعبد هذا النجم . وكان هناك من يرصده كنجم ذي شأن . فتقرير أن الله هو رب الشعرى له مكانه في السورة التي تبدأ بالقسم بالنجم إذا هوى ؛ وتحدث عن الرحلة إلى الملأ الأعلى ؛ كما تستهدف تقرير عقيدة التوحيد ، ونفي عقيدة الشرك الواهية المثفافة .

وبهذا تنتهي تلك الجولة المديدة في الأنفس والآفاق ، لتبدأ بعدها جولة في مصارع الغابرين ، بعدما جاءتهم النذر فكذبوا بها كما يكذب المشركون . وهي جولة مع قدرة الله ومشيتته وآثارها في الأمم قبلهم واحدة واحدة . « وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى . فغشاهما غشى . فبأي آلاء ربك تتمارى ؟ »

إنها جولة سريعة . تتألف من وقفة قصيرة على مصرع كل أمة ، ولمسة عنيفة تخر الشعور وخزاً . وعاد وثمرود وقوم نوح يعرفهم قارئ القرآن في مواضع شتى ! والمؤتفكة هي أمة لوط . من الإفك والبهتان والضلال . . وقد أهواها في الهاوية وخسف بها « فغشاهما غشى » . . بهذا التجهيل والتضخيم والتحويل ، الذي تراءى من خلاله صور الدمار والخسف والتفكيك ، الذي يشمل كل شيء ويغشاه فلا يبين ! « فبأي آلاء ربك تتمارى ؟ » . .

فلقد كانت إذن تلك المصارع آلاء الله وأفضالاً . ألم يهلك الشر ؟ ألم يقذف بالباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ؟ ألم يترك فيها آيات لمن يتدبر ويعي ؟ أليست هذه كلها آلاء . فبأي آلاء ربك تتمارى ! الخطاب لكل أحد . ولكل قلب ، ولكل من يتدبر صنع الله فيرى النعمة حتى في البلوى ! وعلى مصارع الغابرين المكذبين بالنذر - بعد استعراض مظاهر المشيئة وآثارها في الأنفس والآفاق - يلقي بالإيقاع الأخير قوياً عميقاً عنيفاً . كأنه صيحة الخطر قبيل الطامة الكبرى : « هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة » . .

هذا الرسول الذي تتمارون في رسالته وفي نذارته . هذا نذير من النذر الأولى التي أعقبها ما أعقبها ! وقد أزفت الآزفة . واقتربت كاسحة جارفة . وهي الطامة والقارعة التي جاء هذا النذير يحذركم إياها أو هو هول العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده . ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه : « ليس لها من دون الله كاشفة » . . وبينما الخطر الداهم قريب . والنذير الناصح يدعوكم إلى النجاة . إذا أنتم سادرون لاهون لا تقدرون الموقف ولا تفيقون .

« أفن هذا الحديث تعجبون ؟ وتضحكون ولا تبكون ؟ وأنتم سامدون . . . » . . وهذا الحديث جد عظيم يلقي على كاهل الناس واجبات ضخمة وفي الوقت ذاته يقودهم إلى المنهج الكامل . فم تعجبون ؟ ومم يضحكون ؟ وهذا الجد الصارم ، وهذه التبعات الكبيرة ، وما ينتظر الناس من حساب على حياتهم في الأرض . . كله يجعل البكاء أجدر بالموقف الجد ، وما وراءه من الهول والكره . . وهنا يرسلها صيحة مدوية ، ويصرخ في آذانهم وقلوبهم ، ويهتف بهم إلى ما ينبغي أن يتداركوا به أنفسهم ، وهم على حافة الهاوية :

« فاسجدوا لله واعبدوا » .

وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة في هذا السياق ، وفي هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل ، الذي ترتعش له القلوب :

ومن ثم سجدوا . سجدوا وهم مشركون . وهم يمارون في الوحي والقرآن . وهم يجادلون في الله والرسول ! سجدوا تحت هذه المطارق الهائلة التي وقعت على قلوبهم والرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو هذه السورة عليهم . وفيهم المسلمون والمشركون . ويسجد فيسجد الجميع . مسلمين ومشركين . لا يملكون أن يقاوموا وقع هذا القرآن ؛ ولا أن يتماسكوا لهذا السلطان . ثم أفاقوا بعد فترة فإذا هم في ذهول من سجودهم كذهولهم وهم يسجدون !

بهذا تواترت الروايات . ثم افترقت في تعليل هذا الحادث الغريب . وما هو في الحقيقة بالغريب . فهو تأثير هذا القرآن العجيب ووقعه الهائل في القلوب !

* * *

هذا الحادث الذي تواترت به الروايات . حادث سجود المشركين مع المسلمين . كان يحتاج عندي إلى تعليل . قبل أن تقع لي تجربة شعورية خاصة عللته في نفسي ، وأوضحت لي سببه الأصيل .

وكنت قد قرأت تلك الروايات المفتراة عما سمي بحديث الغرائق ، الذي أورده ابن سعد في طبقاته ، وابن جرير الطبري في تاريخه . وبعض المفسرين عند تفسيرهم لقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ... الخ » .. وهي الروايات التي قال فيها ابن كثير - جزاه الله خيراً - « ولكنها من طرق كلها مرسلة . ولم أرها مسندة من وجه صحيح » .

وأكثر هذه الروايات تفصيلاً وأقلها إغراقاً في الخرافة والافتراء على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رواية ابن أبي حاتم . قال : حدثنا موسى بن أبي موسى الكوفي ، حدثنا محمد بن اسحاق الشيباني ، حدثنا محمد بن فليح ، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب . قال : أنزلت سورة النجم ، وكان المشركون يقولون : لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقرنناه وأصحابه ؛ ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم ، وأحزنه ضلالهم ؛ فكان يتمنى هداهم . فلما أنزل الله سورة النجم قال : « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ؟ » ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت فقال : وإنهن هن الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لهي التي ترتجى . . . وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته . فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة . وزلت بها ألسنتهم . وتباشروا بها . وقالوا : إن محمداً قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه . . فلما بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آخر النجم سجد ، وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك . غير أن الوليد بن المغيرة كان رجلاً كبيراً فرفع ملء كفه تراباً فسجد عليه . فعجب الفريقان كلاهما من جماعتهم في السجود لسجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين . ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين . . فاطمأنت أنفسهم - أي المشركون - لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحدثهم به الشيطان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قرأها في السورة ، فسجدوا لتعظيم آلهتهم . ففشت تلك الكلمة في الناس

وأظهرها الشيطان حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين : عثمان بن مظعون وأصحابه . وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم ، وصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه ، وحدثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة ، فأقبلوا سراعاً ، وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان ، وأحكم الله آياته ، وحفظه من القرية . وقال : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ... الخ » .. فلما بين الله قضاءه وبراه من سجع الشيطان ، انقلب المشركون بضلاتهم وعداوتهم على المسلمين ، واشتدوا عليهم .. انتهى

وهناك روايات أخرى أجراً على الاقتراء تنسب قول الغرائق .. تلك .. إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتعلل هذا برغبته - حاشاه صلى الله عليه وسلم - في مراضاة قريش ومهادنتها !!!

وقد رفضت منذ الوهلة الأولى تلك الروايات جميعاً .. فهي فضلاً عن مجافاتها لعصمة النبوة وحفظ الذكر من العبث والتحريف ، فإن سياق السورة ذاته ينفيها نفيّاً قاطعاً . إذ أنه يتصدى لتوهين عقيدة المشركين في هذه الآلهة وأساطيرهم حولها . فلا مجال لإدخال هاتين العبارتين في سياق السورة بحال . حتى على قول من قال : إن الشيطان ألقى بهما في أسماع المشركين دون المسلمين . فهؤلاء المشركون كانوا عرباً يتذوقون لغتهم . وحين يسمعون هاتين العبارتين المقحمتين ويسمعون بعدهما : « ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان .. الخ » . ويسمعون بعد ذلك : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة لیسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم . إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » .. ويسمعون قبله : « وكم من ملك في السواوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .. حين يسمعون هذا السياق كله فإنهم لا يسجدون مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأن الكلام لا يستقيم . والثناء على آلهتهم وتقرير أن لها شفاععة ترتجي لا يستقيم . وهم لم يكونوا أغبياء كغبياء الذين افتروا هذه الروايات ، التي تلففها منهم المستشرقون مغرضين أو جاهلين !

لغير هذا السبب إذن سجد المشركون . ولغير هذا السبب عاد المهاجرون من الحبشة ثم عادوا إليها بعد حين مع آخرين .

وليس هنا مجال تحقيق سبب عودة المهاجرين ، ثم عودتهم إلى الحبشة مع آخرين ..

فأما أمر السجود فهو الذي نتصدى له في هذه المناسبة ..

لقد بقيت فترة أبحث عن السبب الممكن لهذا السجود . ويخطر لي احتمال أنه لم يقع ، وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة . وهو أمر يحتاج إلى التعليل . وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرت إليها من قبل ..

كنت بين رفقة نسمر حيناً طرق أسماعنا صوت قارئ للقرآن من قريب ، يتلو سورة النجم . فانقطع بيننا الحديث ، لنستمع وننصت للقرآن الكريم . وكان صوت القارئ مؤثراً وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً .

وشيثاً فشيئاً عشت معه فيما يتلوه . عشت مع قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - في رحلته إلى الملاء الأعلى . عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها . ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله ! وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة . عند سدره المنتهى . وجنة المأوى . عشت معه بقدر ما يسعفني خيالي ، وتحلق بي رؤاي ، وبقدر ما تطيق مشاعري وأحاسيسي ..

وتابعته في الإحساس بتهاافت أساطير المشركين حول الملائكة وعبادتها وبنوتها وأنوثتها .. إلى آخر هذه الأوهام الخرفة المضحكة ، التي تهاوى عند اللمسة الأولى

ووقفت أمام الكائن البشري ينشأ من الأرض ، وأمام الأجنة في بطون الأمهات . وعلم الله يتابعها ويحيط بها . وارتجف كياني تحت وقع اللمسات المتتابعة في المقطع الأخير من السورة .. الغيب المحجوب لا يراه إلا الله . والعمل المكتوب لا يند ولا يغيب عن الحساب والجزاء . والمتنهي إلى الله في نهاية كل طريق يسلكه العبيد . والحشود الضاحكة والحشود الباكية . وحشود الموتى . وحشود الأحياء . والنظفة تهدي في الظلمات إلى طريقها ، وتخطو خطواتها وتبرز أسرارها فإذا هي ذكر أو أنثى . والنشأة الأخرى . ومصارع الغابرين . والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى !

واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهية : « هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة » ..

ثم جاءت الصيحة الأخيرة . واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعب : « أفن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولا تبكون . وأنتم سامدون ؟ » .

فلما سمعت : « فاسجدوا لله واعبدوا » .. كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي . واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي ، لم أملك مقاومته . فظل جسمي كله يختلج ، ولا أتمالك أن أثبتة ، ولا أن أكفكف دموعاً هائنة ، لا أملك احتباسها مع الجهد والمحاولة !

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح ، وأن تعليله قريب . إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن ، ولهذا الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة . ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم أو أسمعها . ولكنها في هذه المرة كان لها هذا الوقع ، وكانت مني هذه الاستجابة .. وذلك سر القرآن .. فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة ؛ وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير . فيكون منها ما يكون !

لحظة كهذه مست قلوب الحاضرين يومها جميعاً . ومحمد - صلى الله عليه وسلم - يقرأ هذه السورة يقرؤها بكيانه كله . ويعيش في صورها التي عاشها من قبل بشخصه . وتنصب كل هذه القوة الكامنة في السورة من خلال صوت محمد - صلى الله عليه وسلم - في أعصاب السامعين . فيرتجفون ويسمعون : « فاسجدوا لله واعبدوا » ويسجد محمد والمسلمون .. فيسجدون ..

ولقد يقال : إنك تقيس على لحظة مرت بك ، وتجربة عانيها أنت . وأنت مسلم . تعتقد بهذا القرآن ، وله في نفسك تأثير خاص .. وأولئك كانوا مشركين يرفضون الإيمان ويرفضون القرآن !

ولكن هنالك اعتبارين لهما وزنهما في مواجهة هذا الذي يقال :

الاعتبار الأول : أن الذي كان يقرأ السورة كان هو محمد - صلى الله عليه وسلم - النبي . الذي تلقى هذا القرآن مباشرة من مصدره . وعاشه وعاش به . وأحبه حتى لكان يثقل خطاه إذا سمع من يرتله داخل داره ، ويقف إلى جانب الباب يسمع له حتى ينتهي ! وفي هذه السورة بالذات كان يعيش لحظات عاشها في الملأ الأعلى . وعاشها مع الروح الأمين وهو يراه على صورته الأولى .. فأما أنا فقد كنت أسمع السورة من قارئ . والفارق ولا شك هائل !

والاعتبار الثاني : أن أولئك المشركين لم تكن قلوبهم ناجية من الرعدة والرجفة ، وهم يستمعون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما كان العناد المصطنع هو الذي يحول بينهم وبين الإذعان .. والحادثان التاليان شاهد على ما كان يخالجه قلوبهم من الارتعاش .

روى ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب ، من طريق محمد بن اسحاق ، عن عثمان بن عروة ، ابن الزبير ، عن أبيه ، عن هناد بن الأسود ، قال : كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزوا إلى الشام ، فتجهزت معهما ، فقال ابنه عتبة : والله لأنطلقن إلى محمد ، ولأؤذينه في ربه (سبحانه وتعالى) . فانطلق حتى أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا محمد . هو يكفر بالذي دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .. فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك » .. ثم انصرف عنه ، فرجع إلى أبيه ، فقال : يا بني ، ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله . فقال : فإنا قال لك ؟ قال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك . قال : يا بني والله ما آمن عليك دعاءه ! فسرنا حتى نزلنا أبراه - وهي في سدة - ونزلنا إلى صومعة راهب . فقال الراهب : يا معشر العرب ، ما أنزلكم هذه البلاد ؟ فإنها يسرح فيها الأسد كما تسرح الغنم ! فقال أبو لهب : إنكم قد عرقتكم كبر سني وحقي ، وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه ، فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ، وافرشوا لابني عليها ، ثم افرشوا حولها . ففعلنا . فجاء الأسد فشم وجوهنا ، فلما لم يجد ما يريد تقبض فوثب وثبة فوق المتاع ، فشم وجهه ، ثم هزمه هزمة ففسخ رأسه . فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد !

هذا هو الحادث الأول صاحبه أبو لهب . أشد المخاصمين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - المناوئين له ، المؤلّبين عليه هو وبيته . المدعو عليه في القرآن هو وبيته : « تبّت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » .. وذلك لشعوره الحقيقي تجاه محمد وقول محمد . وتلك ارتجافة قلبه ومفاصله أمام دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - على ابنه .

والحادث الثاني : صاحبه عتبة بن أبي ربيعة . وقد أرسلته قريش إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - يفأوضه في الكف عن هذا الذي فرق قريشاً وعاب آلهتهم ، على أن يكون له منهم ما يريد من مال أو رياسة أو زواج . فلما انتهى من عرضه قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أفعل . قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » .. ثم مضى حتى قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .. عندئذ هب عتبة يمسك بفم النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذعر وهو يقول : ناشدتك الرحم أن تكف .. وعاد إلى قريش يقص عليهم الأمر . ويعقب عليه يقول : وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب^١ .

فهذا شعور رجل لم يكن قد أسلم . والارتجاف فيه ظاهر . والتأثر المكبوت أمام العناد والمكابرة ظاهر . ومثل هؤلاء إذا استمعوا إلى سورة النجم من محمد - صلى الله عليه وسلم - فأقرب ما يحتمل أن تصادف قلوبهم لحظة الاستجابة التي لا يملكون أنفسهم إزاءها . وأن يؤخذوا بسلطان هذا القرآن فيسجدوا مع الساجدين .. بلا غرائق ولا غيرها من روايات المفتريين !

(١) ملخصة من روايات عدة .

(٥٤) سُورَةُ الْقَمَرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۚ فَتَوَلَّوْهُمْ يَوْمَ يُدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۚ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۚ

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۚ فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ ۚ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنَمَّرٍ ۚ وَبَحَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۚ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوُجِّ وَدُسِّرَ ۚ فَجَرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ۚ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۚ

كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۚ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ۚ

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۚ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَدَّبَعُهُ ۚ إِنَّا إِذَا لَبِى ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ۚ أَلْهَىٰ آلُ ذِكْرٍ عَلَيْهِ مِنْ يَمِينَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۚ سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۚ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ

وَأَصْطَبِرُ ۝ وَيَبْتَهِمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخْتَصِرٌ ۝ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ۝ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ ۝

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذْرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۝ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ۝ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ۝ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ ۝

وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ ۝ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ۝ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ۝ إِنَّا الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ۝ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۝ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُّدَكِّرٍ ۝ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝ وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ ۝

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝

هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعية مفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنذر ، بقدر ما هي طمانينة عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة . وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة ، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين ، يأخذ السياق في ختامها بالحس البشري فيضغطه ويهزه ويقول له : « فكيف كان عذابي ونذر ؟ » .. ثم يرسله بعد الضغط والهمز ويقول له : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » .

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى . فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع ، ومشهد من هذه المشاهد في الختام . وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح . وعاد وثمود . وقوم لوط . وفرعون وملئه . وكلها موضوعات ترخر بها السور المكية في صور شتى ..

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضاً خاصاً ، يحيلها جديدة كل الجدة . فهي تعرض عنيفة عاصفة ، وحاسمة قاصمة ؛ يفيض منها الهول ، ويتناثر حولها الرعب ، ويظللها الدمار والفرع والانبهار ! وأخص ما يميزها في سياق السورة أن كلا منها يمثل حلقة عذاب رهيبه سريعة لاهثة مكروبة . يشهدها المكذبون ، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها ، ويحسون إيقاعات سياطها . فإذا انتهت الحلقة وبدأوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً .. وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبعة في هذا الجلو المفزع الخائق . فيطل المشهد الأخير في السورة . وإذا هو جو آخر ، ذو ظلال أخرى . وإذا هو الأمن والطمأنينة والسكينة . إنه مشهد المتقين : « إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. في وسط ذلك الهول الراجف ، والفرع المزلزل ، والعذاب المهين للمكذبين : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر » ..

فأين وأين ؟ مشهد من مشهد ؟ ومقام من مقام ؟ وقوم من قوم ؟ ومصير من مصير ؟

* * *

« اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغني النذر . فتول عنهم يوم يدعو الداعي إلى شيء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون : هذا يوم عسر » ..

مطلع باهر مثير ، على حادث كوني كبير ، وإرهاص بحادث أكبر . لا يقاس إليه ذلك الحدث الكوني الكبير :

« اقتربت الساعة وانشق القمر » ..

فيا له من إرهاص ! ويا له من خبر . ولقد رأوا الحدث الأول فلم يبق إلا أن ينتظروا الحدث الأكبر . والروايات عن انشقاق القمر ورؤية العرب له في حالة انشقاقه أخبار متواترة . تتفق كلها في إثبات وقوع الحادث ، وتختلف في رواية هيئته تفصيلاً وإجمالاً :

من رواية أنس بن مالك - رضي الله عنه - .. قال الإمام أحمد : حدثنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس ابن مالك قال : سأل أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - آية . فانشق القمر بمكة مرتين فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .. وقال البخاري : حدثني عبد الله بن عبد الوهاب . حدثنا بشر بن المفضل ، حدثنا سعيد بن أبي عروبة ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك . أن أهل مكة سألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرهم آية . فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجه الشيخان من طرق أخرى عن قتادة عن أنس .. ومن رواية جبير بن مطعم - رضي الله عنه - .. قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سليمان ابن كثير ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار فلقين . فلق على هذا الجبل وفلق على هذا الجبل ، فقالوا : سحرنا محمد ، فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .. تفرد به أحمد من هذا الوجه .. وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد بن كثير عن أخيه سليمان بن كثير ، عن حصين بن عبد الرحمن .. ورواه ابن جرير والبيهقي من طرق أخرى عن جبير بن مطعم كذلك ..

ومن رواية عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - .. قال البخاري : حدثنا يحيى بن كثير ، حدثنا بكر ، عن جعفر ، عن عراك بن مالك ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس ، قال : انشق القمر في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم - .. ورواه البخاري أيضاً ومسلم من طريق آخر عن عراك بسنده السابق إلى ابن عباس .. وروى ابن جرير من طريق أخرى إلى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه .. وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا .. وقال الطبراني بسند آخر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كسف القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : سحر القمر ، فنزلت : « اقتربت الساعة وانشق القمر » - إلى قوله : « مستمر » .

ومن رواية عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : قال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي ، قالا : حدثنا أبو العباس الأصم ، حدثنا العباس بن محمد الدوري ، حدثنا وهب بن جرير ، عن شعبة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر » قال : وقد كان ذلك على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انشق فلقين فلقه من دون الجبل وفلقه خلف الجبل . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « اللهم اشهد » .. وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد ..

ومن رواية عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، عن أبي معمر ، عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقتين حتى نظرنا إليه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشهدوا » . وهكذا رواه البخاري ومسلم من حديث سفيان بن عيينة . وأخرجاه كذلك من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله بن سبرة ، عن ابن مسعود . وقال البخاري : قال أبو داود الطيالسي : حدثنا أبو عوانة ، عن المغيرة ، عن أبي الضحى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت قریش : هذا سحر ابن أبي كبشة . قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم من السفار ، فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال : فجاء السفار فقالوا ذلك .. وروى البيهقي من طريق أخرى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود ، بما يقرب من هذا .

فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث ، وتحديد مكانه في مكة - باستثناء رواية لم نذكرها عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه كان في منى - وتحديد زمانه في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - قبل الهجرة . وتحديد هيئته - في معظم الروايات أنه انشق فلقين ، وفي رواية واحدة أنه كسف (أي خسف) .. فالحادث ثابت من هذه الروايات المتواترة المحددة للمكان والزمان والهيئة .

وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه ؛ ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه ؛ فلا بد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذر معها التكذيب ، ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات ، لو وجدوا منفذاً للتكذيب . وكل ما روي عنهم أنهم قالوا : سحرنا ! ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر ، فعرفوا أنه ليس بسحر ؛ فلو كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه . بقيت لنا كلمة في الرواية التي تقول : إن المشركين سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم - آية . فانشق القمر . فإن هذه الرواية تصطدم مع مفهوم نص قرآني مدلوله أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يرسل بخوارق من

نوع الخوارق التي جاءت مع الرسل قبله ، لسبب معين : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون »^١ . ففهوم هذه الآية أن حكمة الله اقتضت منع الآيات - أي الخوارق - لما كان من تكذيب الأولين بها .

وفي كل مناسبة طلب المشركون آية من الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان الرد يفيد أن هذا الأمر خارج عن حدود وظيفته ، وأنه ليس إلا بشراً رسولاً . وكان يردهم إلى القرآن يتحداهم به بوصفه معجزة هذا الدين الوحيدة : « قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء - كما زعمت - علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ »^٢ .

فالقول بأن انشقاق القمر كان استجابة لطلب المشركين آية - أي خارقة - يبدو بعيداً عن مفهوم النصوص القرآنية ؛ وعن اتجاه هذه الرسالة الأخيرة إلى مخاطبة القلب البشري بالقرآن وحده ، وما فيه من إعجاز ظاهر ؛ ثم توجيه هذا القلب - عن طريق القرآن - إلى آيات الله القائمة في الأنفس والآفاق ، وفي أحداث التاريخ سواء .. فأما ما وقع فعلاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - من خوارق شهدت بها روايات صحيحة فكان إكراماً من الله لعبده ، لا دليلاً لإثبات رسالته ..

ومن ثم ثبت الحادث - حادث انشقاق القمر - بالنص القرآني وبالروايات المتواترة التي تحدد مكان الحادث وزمانه وهيئته . ونتوقف في تعليقه الذي ذكرته بعض الروايات . ونكتفي بإشارة القرآن إليه مع الإشارة إلى اقتراب الساعة . باعتبار هذه الإشارة لمسة للقلب البشري ليستيقظ ويستجيب ..

وانشقاق القمر إذن كان آية كونية يوجه القرآن القلوب والأنظار إليها ، كما يوجهها دائماً إلى الآيات الكونية الأخرى ؛ ويعجب من أمرهم وموقفهم إزاءها ، كما يعجب من مواقفهم تجاه آيات الله الكونية الأخرى . إن الخوارق الحسية قد تدهش القلب البشري في طفولته ، قبل أن يتهياً لإدراك الآيات الكونية القائمة الدائمة ، والتأثر بإيقاعها الثابت الهادئ . وكل الخوارق التي ظهرت على أيدي الرسل - صلوات الله عليهم - قبل أن تبلغ البشرية الرشد والنضوج يوجد في الكون ما هو أكبر منها وأضخم ، وإن كان لا يستثير الحس البدائي كما تستثيره تلك الخوارق !

ولنفرض أن انشقاق القمر جاء آية خارقة .. فإن القمر في ذاته آية أكبر ! هذا الكوكب بحجمه ، ووضعه ، وشكله ، وطبيعته ، ومنازله ، ودورته ، وآثاره في حياة الأرض ، وقيامه هكذا في الفضاء بغير عمد . هذه هي الآية الكبرى القائمة الدائمة حيال الأبصار وحيال القلوب ، توقع إيقاعها وتلقي ظلالها ، وتقوم أمام الحس شاهداً على القدرة المبدعة التي يصعب إنكارها إلا عناداً أو مراء !

وقد جاء القرآن ليقف بالقلب البشري في مواجهة الكون كله ؛ وما فيه من آيات الله القائمة الثابتة ؛ ويصله

(١) سورة الإسراء (٥٩) .

(٢) سورة الإسراء (٨٨ - ٩٣) .

بهذا الكون وآيات الله فيه في كل لحظة ؛ لا مرة عارضة في زمان محدود ، يشهدها جيل من الناس في مكان محدود .

إن الكون كله هو مجال النظر والتأمل في آيات الله التي لا تنفذ ، ولا تذهب ، ولا تغيب . وهو بجملته آية . وكل صغيرة فيه وكبيرة آية . والقلب البشري مدعو في كل لحظة لمشاهدة الخوارق القائمة الدائمة ، والاستماع إلى شهادتها الفاصلة الحاسمة ؛ والاستمتاع كذلك بعجائب الإبداع الممتعة ، التي يلتقي فيها الجمال بالكمال ، والتي تستجيش انفعال الدهش والحيرة مع وجدان الإيمان والافتناع الهادئ العميق .

وفي مطلع هذه السورة تحيي تلك الإشارة إلى اقتراب الساعة وانشقاق القمر إيقاعاً يهز القلب البشري هزاً . وهو يتوقع الساعة التي اقتربت ، ويتأمل الآية التي وقعت ، ويتصور أحداث الساعة في ظل هذا الحدث الكوني الذي رآه المخاطبون بهذا الإيقاع المثير .

وفي موضوع اقتراب الساعة روى الإمام أحمد . قال : حدثنا حسين ، حدثنا محمد بن مطوف ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد ، قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى ¹ .

ومع اقتراب الموعد المرهوب ، ووقوع الحادث الكوني المثير ، وقيام الآيات التي يرونها في صور شتى .. فإن تلك القلوب كانت تلج في العناد ، وتصر على الضلال ، ولا تتأثر بالوعيد كما لا تتأثر بإيقاع الآيات الكثيرة الكافية للعة والكف عن التكذيب :

« وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا : سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النذر » .

ولقد أعرضوا وقالوا : سحرنا ، وهم يرون آية الله في انشقاق القمر . وكان هذا رأيهم مع آية القرآن . فقالوا : سحر يؤثر . فهذا قولهم كلما رأوا آية . ولما كانت الآيات متوالية متواصلة ، فقد قالوا : إنه سحر مستمر لا ينقطع ، معرضين عن تدبر طبيعة الآيات وحقيقتها ، معرضين كذلك عن دلالتها وشهادتها . وكذبوا بالآيات وبشهادتها . كذبوا اتباعاً لأهوائهم لا استناداً إلى حجة ، ولا ارتكناً إلى دليل ، ولا تدبراً للحق الثابت المستقر في كل ما حولهم في هذا الوجود ..

« وكل أمر مستقر » .. فكل شيء في موضعه في هذا الوجود الكبير . وكل أمر في مكانه الثابت الذي لا يتزعزع ولا يضطرب . فأمر هذا الكون يقوم على الثبات والاستقرار ، لا على الهوى المتقلب ، والمزاج المتغير ؛ أو المصادفة العابرة والارتجال العارض .. كل شيء في موضعه وفي زمانه ، وكل أمر في مكانه وفي إبانه . والاستقرار يحكم كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل شيء : في دورة الأفلاك ، وفي سنن الحياة . وفي أطوار النبات والحيوان . وفي الظواهر الثابتة للأشياء والمواد . لا بل في انتظام وظائف أجسامهم وأعضائهم التي لا سلطان لهم عليها . والتي لا تخضع للأهواء ! وبينما هذا الاستقرار يحيط بهم ويسيطر على كل شيء من حولهم ، ويتجلى في كل أمر من بين أيديهم ومن خلفهم .. إذا هم وحدهم مضطربون تتجاذبهم الأهواء ! « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر » .. أنباء الآيات الكونية التي صرّفها الله لهم في هذا القرآن ؛ وأنباء

(١) وأخرجه الشيخان من حديث أبي حازم سلمة بن دينار .

المكذبين قبلهم ومصارعهم ، وأنباء الآخرة التي صورها القرآن لهم .. وكان في هذا كله زاجر وراوع لمن يزدرج ويرتدع . وكان فيه من حكمة الله ما يبلغ القلوب ويوجهها إلى تدييره الحكيم . ولكن القلوب المطموسة لا تفتح لرؤية الآيات ، والانفعال بالأنباء ، واليقظة على صوت النذير بعد النذير : « حكمة بالغة فما تغني النذر » . إنما هو الإيمان هبة الله للقلب المتيسئ للإيمان ، المستحق لهذا الإنعام !

وعند هذا الحد من تصوير إعراضهم وإصرارهم ، وعدم انتفاعهم بالأنباء ، وقلة جدوى النذر مع هؤلاء . يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للإعراض عنهم وتركهم يلاقون اليوم الذي لا يحفلون النذير باقترابه ، وهم يرون انشقاق القمر بين يدي مجيئه :

« فتول عنهم يوم يدعوا الداعي إلى شيء نكر . خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداعي يقول الكافرون : هذا يوم عسر » ..

وهو مشهد من مشاهد ذلك اليوم ، يناسب هوله وشدته ظلال السورة كلها ؛ ويتناسق مع الإرهاص باقتراب الساعة ، ومع الإنباء بانشقاق القمر ، ومع الإيقاع الموسيقي في السورة كذلك !

« وهو متقارب سريع . وهو مع سرعته شاخص متحرك ، مكتمل السبات والحركات : هذه جموع خارجة من الأجداث في لحظة واحدة كأنهم جراد منتشر (ومشهد الجراد المعهود يساعد على تصور المنظر المعروض) وهذه الجموع خاشعة أبصارها من الذل والهول ، وهي تسرع في سيرها نحو الداعي ، الذي يدعوها لأمر غريب تكبر شديد لا تعرفه ولا تطمئن إليه .. وفي أثناء هذا التجمع والخشوع والإسراع يقول الكافرون : « هذا يوم عسر » .. وهي قولة المكروب المجهود ، الذي يخرج ليواجه الأمر الصعب الرعب ! »^١

فهذا هو اليوم الذي اقترب ، وهم عنه معرضون ، وبه يكذبون . فتول عنهم يوم يجيء ، ودعهم لمصيرهم فيه وهو هذا المصير الرعب المخيف !

* * *

وبعد هذا الإيقاع العنيف في مطلع السورة ؛ والمشهد المكروب الذي يشمل المكذبين في يوم القيامة .. يأخذ في عرض مشاهد التنكيل والتعذيب الذي أصاب بالفعل أجيال المكذبين قبلهم ، وعرض مصارع الأمم التي سلكت من قبل مسلكهم ، بادئاً بقوم نوح :

كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنون وازدرج .. فدعاه ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً ، فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ ..

« كذبت قبلهم قوم نوح » .. بالرسالة وبالآيات « فكذبوا عبدنا » .. نوحاً « وقالوا : مجنون » .. كما قالت : قريش ظالمة عن محمد - صلى الله عليه وسلم - وهددوه بالرجم ، وآذوه بالسخرية ، وطالبوه أن يكف عنهم ونهره بعنف : « وازدرج » .. بدلاً من أن يتزجروا هم ويرعوا !

عندئذ عاد نوح إلى ربه الذي أرسله وكلفه مهمة التبليغ . عاد لينهي إليه ما انتهى إليه أمره مع قومه ، وما

(١) مأخوذ بتصرف خفيف عن كتاب « مشاهد القيامة في القرآن » . « دار الشروق »

انتهى إليه جهده وعمله ، وما انتهت إليه طاقته ووسعه . ويدع له الأمر بعد أن لم تعد لديه طاقة لم يبذلها ، وبعد أن لم تبق له حيلة ولا حول :

« فدعا ربه : أني مغلوب . فانتصر » ..

انتهت طاقتي . انتهى جهدي . انتهت قوتي . وغلبت على أمري . « أني مغلوب فانتصر » .. انتصر أنت يا ربي . انتصر لدعوتك . انتصر لحقك . انتصر لمنهجك . انتصر أنت فالأمر أمرك ، والدعوة دعوتك . وقد انتهى دوري !

وما تكاد هذه الكلمة تقال ؛ وما يكاد الرسول يسلم الأمر لصاحبه الجليل القهار ، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة .. فتدور دورتها المدوية المجلجلة :

« ففتحن أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر » ..

وهي حركة كونية ضخمة غامرة تصورها ألفاظ وعبارات مختارة . تبدأ بإسناد الفعل إلى الله مباشرة : « ففتحن » فيحس القارئ يد الجبار تفتح « أبواب السماء » .. بهذا اللفظ وبهذا الجمع . « بماء منهمر » .. غزير متوال . وبالقوة ذاتها وبالحركة نفسها : « وفجرنا الأرض عيوناً » .. وهو تعبير يرسم مشهد التفجر وكأنه ينبثق من الأرض كلها ، وكأنما الأرض كلها قد استحالت عيوناً .

والتقى الماء المنهمر من السماء بالماء المتفجر من الأرض .. « على أمر قد قدر » .. التقيا على أمر مقدر ، فهما على اتفاق لتنفيذ هذا الأمر المقدر . طائعان للأمر ، محققان للقدر .

حتى إذا صار طوفاناً يطم ويغم ، ويغمر وجه الأرض ، ويطوي الدنس الذي يغطي هذا الوجه . وقد ينس الرسول من تطهيره ، وغلب على أمره في علاجه . امتدت اليد القوية الرحيمة إلى الرسول الذي دعا دعوته ، فتحرّك لها الكون كله . امتدت له هذه اليد بالنجاة وبالتكريم :

« وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر » ..

وظاهر من العبارة تفخيم السفينة وتعظيم أمرها . فهي ذات ألواح ودسر^١ . توصف ولا تذكر لفخامتها وقيمتها . وهي تجري في رعاية الله بملاحظة أعينه . « جزاء لمن كان كفر » . وجحد وازدجر . وهو جزاء يمسح بالرعاية على الجفاء ، وبالتكريم على الاستهزاء . ويصور مدى القوة التي يملك رصيدها من يُغلب في سبيل الله . ومن يبذل طاقته ، ثم يعود إليه يسلم له أمره وأمر الدعوة ويدع له أن ينتصر ! .. إن قوى الكون الهائلة كلها في خدمته وفي نصرته . والله من ورائها بجبروته وقدرته .

وعلى مشهد الانتصار الهائل الكامل ؛ والمحق الحاسم الشامل ، يتوجه إلى القلوب التي شهدت المشهد كأنها تراه . يتوجه إليها بلمسة التعقيب ، لعلها تتأثر وتستجيب :

« ولقد تركناها آية فهل من مدكر ؟ » ..

هذه الواقعة بملابساتها المعروفة . تركناها آية للأجيال « فهل من مدكر ؟ » يتذكر ويعتبر ؟

ثم سؤال لإيقاظ القلوب إلى هول العذاب وصدق النذير :

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » ..

ولقد كان كما صوره القرآن . كان عذاباً مدمراً جباراً . وكان نذيراً صادقاً بهذا العذاب . وهذا هو القرآن حاضراً ، سهل التناول ، ميسر الإدراك ، فيه جاذبية ليقراً ويتدبر . فيه جاذبية الصدق والبساطة ، وموافقة الفطرة ، واستجاشة الطبع ، لا تنفد عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد . وكلما تدبره القلب عاد منه بزاو جديد . وكلما صحبته النفس زادت له ألفة وبه أنساً :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » . .

وهذا هو التعقيب الذي يتكرر ، بعد كل مشهد يصور . . ويقف السياق عنده بالقلب البشري يدعو دعوة هادئة إلى التذكر والتدبر ، بعد أن يعرض عليه حلقة من العذاب الأليم الذي حل بالمكذبين .

* * *

« كذبت عاد ، فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » . . وهذه هي الحلقة الثانية ، أو المشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف ؛ والمصرع الذي يقف عليه بعد وقفته على مصرع قوم نوح . أول المهلكين .

يبدؤه بالإخبار عن تكذيب عاد . وقبل أن يكمل الآية يسأل سؤال التعجب والتهويل : « فكيف كان عذابي ونذر ؟ » . . كيف كان بعد تكذيب عاد ؟ ثم يجيب . .

كان كما يصفه ذلك الوصف الخاطف الرعب :

« إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » . . والريح الصرصر : الباردة العنيفة . وجرس اللفظ يصور نوع الرياح . والنحس : الشؤم . وأي نحس يصيب قوماً أشد مما أصاب عاد . والريح تنزعهم وتجذبهم وتحطمهم . فتدعهم كأنهم أعجاز نخل مهشمة مقلوعة من قعوها ؟ !

والمشهد مفزع مخيف ، وعاصف عنيف . والريح التي أرسلت على عاد « هي من جنده الله » وهي قوة من قوى هذا الكون ، من خلق الله ، تسير وفق الناموس الكوني الذي اختاره ؛ وهو يسلطها على من يشاء ، بينما هي ماضية في طريقها مع ذلك الناموس ، بلا تعارض بين خط سيرها الكوني ، وأدائها لما تؤمر به وفق مشيئة الله . صاحب الأمر وصاحب الناموس :

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » . .

يكررها بعد عرض المشهد . والمشهد هو الجواب !

ثم يختم الحلقة بالتعقيب المكرر في السورة وفق نسقها الخاص :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » . .

* * *

ثم يمضي إلى المشهد التالي في السياق وفي التاريخ :

« كذبت ثمود بالنذر . فقالوا : أبشرا منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لفي ضلال وسعر . أألقي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر .

ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ، كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فقعر . فكيف كان عذابي ونذر ؟
إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر .. ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر ؟ » ..

وثمود كانت القبيلة التي خلفت عاداً في القوة والتمكين في جزيرة العرب .. كانت عاد في الجنوب كانت ثمود في الشمال . وكذبت ثمود بالنذر كما كذبت عاد ، غير معتبرة بمصرعها المشهور المعلوم في أنحاء الجزيرة .
« فقالوا : أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لني ضلال وسعر . أألتي الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر » ..
وهي الشبهة المكرورة التي تحيك في صدور المكذبين جيلاً بعد جيل : « أألتي الذكر عليه من بيننا ؟ » كما أنها هي الكبرياء الجوفاء التي لا تنظر إلى حقيقة الدعوة ، إنما تنظر إلى شخص الداعية : « أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ » !

وماذا في أن يختار الله واحداً من عباده .. والله أعلم حيث يجعل رسالته .. فيلتي عليه الذكر – أي الوحي وما يحمله من توجيهات للتذكر والتدبر – ماذا في هذا الاختيار لعبد من عباده يعلم منه تهيوه واستعداده . وهو خالق الخلق . وهو منزل الذكر ؟ إنها شبهة واهية لا تقوم إلا في النفوس المنحرفة . النفوس التي لا تريد أن تنظر في الدعوى لترى مقدار ما فيها من الحق والصدق ؛ ولكن إلى الداعية فتستكبر عن اتباع فرد من البشر ، مخافة أن يكون في اتباعها له إثار وله تعظيم . وهي تستكبر عن الإذعان والتسليم .

ومن ثم يقولون لأنفسهم : « أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لني ضلال وسعر » .. أي لو وقع منا هذا الأمر المستنكر ! وأعجب شيء أن يصفوا أنفسهم بالضلال لو اتبعوا الهدى ! وأن يحسبوا أنفسهم في سعر – لا في سعي واحد – إذا هم فاءوا إلى ظلال الإيمان !

ومن ثم يتهمون رسولهم الذي اختاره الله ليقودهم في طريق الحق والقصد . يتهمونهم بالكذب الطمع : « بل هو كذاب أشر » .. كذاب لم يلق عليه الذكر . أشر : شديد الطمع في اختصاص نفسه بالمكانة ! وهو الاتهام الذي يواجه به كل داعية . اتهامه بأنه يتخذ الدعوة ستاراً لتحقيق مآرب ومصالح . وهي دعوى المطموسين الذين لا يدركون دوافع النفوس ومحركات القلوب .

وبينا يجري السياق على أسلوب الحكاية لقصة غبرت في التاريخ .. يلتفت فجأة وكأنما الأمر حاضر . والأحداث جارية . فيتحدث عما سيكون . ويهدد بهذا الذي سيكون :

« سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ! »

وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصص . وهي طريقة تنفخ روح الحياة الواقعية في القصة ، وتحيلها من حكاية تحكى ، إلى واقعة تعرض على الأنظار ، يترقب النظارة أحداثها الآن ، ويرقبونها في مقبل الزمان !
« سيعلمون غداً من الكذاب الأشر » .. وسيكشف لهم الغد عن الحقيقة . ولن يكونوا بمنجاة من وقع هذه الحقيقة . فستكشف عن البلاء المدمر للكذاب الأشر !

« إنا مرسلو الناقة فتنة لهم . فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . كل شرب محتضر » ..

ويقف القارئ يترقب ما سيقع ، عندما يرسل الله الناقة فتنة لهم ، وامتحاناً مميزاً لحقيقتهم . ويقف الرسول – رسولهم عليه السلام – مرتقباً ما سيقع ، مؤتمراً بأمر ربه في الاصطبار عليهم حتى تقع الفتنة ويتم الامتحان . ومعه التعليمات .. أن الماء في القبيلة قسمة بينهم وبين الناقة – ولا بد أنها كانت ناقة خاصة ذات خصائص معينة تجعلها آية وعلامة – فيوم لها ويوم لهم – تحضر يومها ويحضرون يومهم . وتنال شربها وينالون شربهم .

ثم يعود السياق إلى أسلوب الحكاية . فيقص ما كان بعد ذلك منهم :
« فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر » ..

وصاحبهم هو أحد الرهط المفسدين في المدينة ، الذين قال عنهم في سورة النمل : « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » .. وهو الذي قال عنه في سورة الشمس : « إذ نبعث أشقاها » ..
وقيل : إنه تعاطى الخمر فسكر ليصير جريئاً على الفعلة التي هو مقدم عليها . وهي عقر الناقة التي أرسلها الله آية لهم ؛ وحذرهم رسولهم أن يمسوها بسوء فيأخذهم عذاب أليم .. « فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر » وتمت الفتنة ووقع البلاء .

« فكيف كان عذابي ونذر ؟ » ..

وهو سؤال التعجب والتحويل . قبل ذكر ما حل من العذاب بعد النذير :

« إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر » ...

ولا يفصل القرآن هذه الصيحة . وإن كانت في موضع آخر في سورة « فصلت » توصف بأنها صاعقة : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .. وقد تكون كلمة صاعقة وصفاً للصيحة . فهي صيحة صاعقة . وقد تكون تعبيراً عن حقيقتها . فتكون الصيحة والصاعقة شيئاً واحداً . وقد تكون الصيحة هي صوت الصاعقة . أو تكون الصاعقة أثراً من آثار الصيحة التي لا ندري من صاحبها .

وعلى أية حال فقد أرسلت على القوم صيحة واحدة ، ففعلت بهم ما فعلت ، مما جعلهم « كهشيم المحتظر » .. والمحتظر صانع الحظيرة . وهو يصنعها من أعواد جافة . فهم صاروا كالأعواد الجافة حين تيبس وتحطم وتصبح هشياً . أو أن المحتظر يجمع لماشيته هشياً تأكله من الأعواد الجافة والعشب الناشف . وقد صار القوم كهذا الهشيم بعد الصيحة الواحدة !

وهو مشهد مفرع . يعرض رداً على التعالي والتكبر . فإذا المتعالون المتكبرون هشيم . وهشيم مهين . كهشيم المحتظر !

وأمام هذا المشهد العنيف المخيف ، يرد قلوبهم إلى القرآن ليتذكروا ويتدبروا . وهو ميسر للتذكر والتدبر : « ولقد يسرنا القرآن للذكر . فهل من مدكر ؟ » ..

ويسدل الستار على الهشيم المهين . وفي العين منه مشهد . وفي القلب منه أثر . والقرآن يدعو من يذكر ويتفكر ...

* * *

ثم يرفع الستار عن حلقة جديدة تالية - بعد ذلك - في التاريخ ، في محيط الجزيرة العربية كذلك :
« كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا . كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ » ..
وقصة قوم لوط وردت مفصلة في مواضع أخرى . والمقصود بعرضها هنا ليس هو تفصيلاتها ، إنما هي العبرة من عاقبة التكذيب ، والأخذ الأليم الشديد . من ثم تبدأ بذكر ما وقع منهم من تكذيب بالنذر : « كذبت قوم لوط بالنذر » .. وعلى إثر هذه الإشارة يصف ما نزل بهم من النكال :

« إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر .. »

والحاصب : الريح تحمل الحجارة . وفي مواضع أخرى ورد أنه أرسل إليهم حجارة من طين ولفظة الحاصب ذات جرس كأنه وقع الحجارة ، وفيه شدة وعنف تناسب جو المشهد . ولم ينج إلا آل لوط - إلا امرأته - نعمة من عند الله جزاء إيمانهم وشكرهم .. « كذلك نجزي من شكر » . فنتجيه وننعم عليه في وسط المهالك والمخاوف .

والآن وقد عرض القصة من طرفيها : طرف التأكيد وطرف الأخذ الشديد . فإنه يعود لشيء من التفصيل فيما وقع بين الطرفين .. وهذه إحدى طرق العرض القرآنية للقصة حين يراد إبراز إيحاءات معينة من إيرادها في هذا النسق^١ . هذه التفصيلات هي :

« ولقد أنذرهم بطشتنا قماروا بالنذر . ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابي ونذر . ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ..

وطالما أنذر لوط قومه عاقبة المنكر الشاذ الذي كانوا يأتونه ، قماروا بالنذر ، وشكوا فيها وارتابوا ، وتبادلوا الشك والارتياب فيما بينهم وتداولوه ، وجادلوا نبيهم فيه . وبلغ منهم الفجور والاستهتار أن يراودوه هو نفسه عن ضيفه - من الملائكة - وقد حسبهم غلماناً صباحاً فهاج سعارهم الشاذ الملوث القدر ! وساوروا لوطاً يريدون الاعتداء المنكر على ضيوفه ، غير محتشمين ولا مستحيين ، ولا متحرجين من انتهاك حرمة نبيهم الذي حذرهم وأنذرهم عاقبة هذا الشذوذ القدر المريض .

عندئذ تدخلت يد القدرة ، وتحرك الملائكة لأداء ما كلفوه وجاءوا من أجله : « فطمسنا أعينهم » فلم يعودوا يرون شيئاً ولا أحداً ؛ ولم يعودوا يقدرّون على مساورة لوط ولا الإمساك بضيفه ! والإشارة إلى طمس أعينهم لا ترد إلا في هذا الموضع بهذا الوضوح . ففي موضع آخر ورد : « قالوا : يا لوط إنا نرسل ربك لن يصلوا إليك » .. فزاد هنا ذكر الحالة التي صارت تمنعهم من أن يصلوا إليه . وهي انطماس العيون !

وبينا السياق يجري مجرى الحكاية ، إذا به حاضر مشهود ، وإذا الخطاب يوجه إلى المعذبين : « فذوقوا عذابي ونذر » .. فهذا هو العذاب الذي حذرتم منه ، وهذه هي النذر التي تماريتم فيها ! وكان طمس العيون في المساء .. في انتظار الصباح الذي قدره الله لأخذهم جميعاً : « ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر » ..

وهو ذلك العذاب الذي عجل بذكره في السياق . وهو الحاصب الذي طهر الأرض من تلك اللوثة ومن ذلك الفساد .

ومرة أخرى تتغير طريقة العرض ، ويستحضر المشهد كأنه اللحظة واقع . وينادى المعذبون وهم يعانون العذاب :

« فذوقوا عذابي ونذر » !!!

ثم يجيء التعقيب المألوف ، عقب المشهد العنيف :

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ؟ »

* * *

وتختتم هذه الحلقات بحلقة خارج الجزيرة ، ومصرع من المصارع المشهورة المذكورة . في إشارة سريعة خاطفة :

(١) يراجع فصل : « القصة في القرآن » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

« ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر .. »

وهكذا تختصر قصة فرعون وملئه في طرفيها : مجيء النذر لآل فرعون وتكذيبهم بالآيات التي جاءهم بها رسولهم . وأخذهم بعد ذلك أخذ عزيز مقتدر . والإشارة إلى العزة والاقتدار تلقي ظلال الشدة في الأخذ ، وفيها تعريض بعزة فرعون واقتداره على البغي والظلم . فقد ضاعت العزة الباطلة ، وسقط الاقتدار الموهوم . وأخذ الله - هو وآله - أخذ عزيز حقاً مقتدر صدقاً . أخذهم أخذاً شديداً يناسب ما كانوا عليه من ظلم وغشم وبطش وجبروت .

وعلى هذه الحلقة الأخيرة على مصرع فرعون الجبار . يسدل الستار ..

* * *

والآن . وقد أسدل الستار على آخر مشهد من مشاهد العذاب والنكال . والمكذبون يشهدون ؛ ويتلقى حسهم إيقاع هذه المشاهد .. الآن والمصارع المتتالية حاضرة في خيالهم ، ضاغطة على حسهم .. الآن يتوجه إليهم بالخطاب ؛ يحذرهم مصرعاً كهذه المصارع . وينذرهم ما هو أدهى وأفظع :

« أكفاركم خير من أولئكم ؟ أم لكم براءة في الزبر ؟ أم يقولون : نحن جميع منتصر ؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم : ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر . وكل شيء فعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر .. »

إنه الإنذار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة ؛ وإسقاط كل شبهة وكل شك في صدق هذا الإنذار وسد كل ثغرة وكل طمع في الهرب والفكاك ؛ أو المغالطة في الحساب والفرار من الجزاء !

تلك كانت مصارع المكذبين . فما يمنعكم أتم من مثل ذلك المصير ؟ « أكفاركم خير من أولئكم ؟ » .. وما ميزة كفاركم على أولئكم ؟ « أم لكم براءة في الزبر » .. تشهد بها الصحائف المنزلة ، فتعفوا إذن من جرائم الكفر والتكذيب ؟ لا هذه ولا تلك . فلستم خيراً من أولئكم ، وليست لكم براءة في الصحائف المنزلة ، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذي لقيه الكفار من قبلكم في الصورة التي يقدرها الله لكم .

ثم يلتفت عن خطابهم إلى خطاب عام ، يعجب فيه من أمرهم :

« أم يقولون : نحن جميع منتصر .. »

وذلك حين يرون جمعهم فتعجبهم قوتهم ، ويغترون بتجمعهم ، فيقولون : إنا منتصرون لا هازم لنا ولا غالب ؟

هنا يعلنها عليهم مدوية قاضية حاسمة :

« سيهزم الجمع ويولون الدبر .. »

فلا يعصمهم تجمعهم ، ولا تنصرهم قوتهم . والذي يعلنها عليهم هو القهار الجبار .. ولقد كان ذلك . كما لا بد أن يكون !

قال البخاري بإسناده إلى ابن عباس - : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال وهو في قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » . فأخذ أبو بكر رضي الله عنه

بيده ، وقال : حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ! فخرج وهو يشب في الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر ... » .

وفي رواية لابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة ، قال : لما نزلت « سيهزم الجمع ويولون الدبر » قال عمر : أي جمع يهزم ؟ أي أي جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشب في الدرع ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . فعرفت تأويلها يومئذ ! وكانت هذه هزيمة الدنيا . ولكنها ليست هي الأخيرة . وليست هي الأشد والأدهى ؛ فهو يضرب عن ذكرها ليذكر الأخرى :

« بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر .. »

أدهى وأمر من كل عذاب رأوه أو يرونه في هذه الأرض . وأدهى وأمر من كل مشهد رأوه مرسوماً فيما مر . من الطوفان ، إلى الصرصر . إلى الصاعقة . إلى الحاصب . إلى أخذ فرعون وآله أخذ عزيز مقتدر !

ثم يفصل كيف هي أدهى وأمر . يفصل هذا في مشهد عنيف من مشاهد القيامة :

« إن المجرمين في ضلال وسعر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر .. »

في ضلال يعذب العقول والنفوس ، وفي سعر تكوي الجلود والأبدان . . في مقابل ما كانوا يقولون هم وأمثالهم من قبل : « أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذن لني ضلال وسعر » . ليعرفوا أين يكون الضلال وأين تكون السعر !

وهم يسحبون في النار على وجوههم في عنف وتحقير ، في مقابل الاعتزاز بالقوة والاستكبار . وهم يزدادون عذاباً بالإيلام النفسي ، الذي كأنما يشهد اللحظة حاضراً معروضاً على الأسماع والأنظار : « ذوقوا مس سقر » !

* * *

وفي ظل هذا المشهد المروع المزلزل يتجه بالبيان إلى الناس كافة ، وإلى القوم خاصة . ليقر في قلوبهم حقيقة قدر الله وحكمته وتدييره ..

إن ذلك الأخذ في الدنيا ، وهذا العذاب في الآخرة . وما كان قبلهما من رسالات ونذر ، ومن قرآن وزبر . وما حول ذلك كله من خلق ووجود وتصريف لهذا الوجود ..

إن ذلك كله ، وكل صغيرة وكبيرة مخلوقة بقدر ، مصرفة بقصد ، مدبرة بحكمة . لا شيء جزاف . لا شيء عبث . لا شيء مصادفة . لا شيء ارتجال :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » .

كل شيء .. كل صغير وكل كبير . كل ناطق وكل صامت . كل متحرك وكل ساكن . كل ماض وكل حاضر . كل معلوم وكل مجهول . كل شيء .. خلقناه بقدر ..

قدر يحدد حقيقته . ويحدد صفته . ويحدد مقداره . ويحدد زمانه . ويحدد مكانه . ويحدد ارتباطه بسائر ما حوله من أشياء . وتأثيره في كيان هذا الوجود .

وإن هذا النص القرآني القصير اليسير ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة ، مصداقها هذا الوجود كله . حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود ، ويتجاوب معه ، ويتلقى عنه ، ويحس أنه خليفة متناسقة تناسقاً دقيقاً . كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق ، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود .

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهيئه هذه الوسائل ، ويطبقه العقل البشري ، ويملك معرفته عن هذا الطريق . ووراء هذا القدر يبقى دائماً ما هو أعظم وأكمل ، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها ، وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق المخلوق كل شيء فيه بقدر .

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة ، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له .. وصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلتها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد ؛ لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددوها . فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها .. ثم يتحقق هذا الذي فرضوه . ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام ، في هذا الفضاء الهائل ، بهذه النسب المقدرة ، التي لا يتناولها خلل أو اضطراب !

ووصل في إدراك التناسق في وضع هذه الأرض التي نعيش عليها ، لتكون صالحة لنوع الحياة التي قدر الله أن تكون فيها إلى حد أن افترض أي اختلال في أية نسبة من نسبها يؤدي بهذه الحياة كلها ، أو لا يسمح أصلاً بقيامها . فحجم هذه الأرض ، وكتلتها ، وبعدها عن الشمس . وكتلة هذه الشمس ، ودرجة حرارتها . وميل الأرض على محورها بهذا القدر ، وسرعتها في دورتها حول نفسها وحول الشمس . وبعد القمر عن الأرض . وحجمه وكتلته . وتوزيع الماء واليابس في هذه الأرض ... إلى آلاف من هذه النسب المقدرة تقديراً ، لو وقع الاختلال في أي منها لتبدل كل شيء ؛ ولكانت هي النهاية المقدرة لعمر هذه الحياة على هذه الأرض !

ووصل في إدراك التناسق بين عدد كبير من الضوابط التي تضبط الحياة ؛ وتنسق بين الأحياء والظروف المحيطة بها ؛ وبين بعضها وبعض .. إلى حد يعطي فكرة عن تلك الحقيقة العميقة الكبيرة التي تشير إليها الآية . فالنسبة بين عوامل الحياة والبقاء وعوامل الموت والفناء في البيئة وفي طبيعة الأحياء محفوظة دائماً بالقدر الذي يسمح بنشأة الحياة وبقائها وامتدادها . وفي الوقت ذاته يحد من انتشارها إلى الحد الذي لا تكفي الظروف المهيأة للأحياء ، في وقت ما ، لإعالتهم وإعاشتهم !

ولعله من المفيد أن نشير إشارة سريعة إلى شيء من هذا التوازن في علاقات بعض الأحياء ببعض . إذ كنا قد أشرنا بشيء من التفصيل في سور أخرى إلى التناسق في بناء الكون ، وفي ظروف الأرض^١ ..

« إن الجوارح التي تتغذى بصغار الطيور قليلة العدد ، لأنها قليلة البيض ، قليلة التفريخ ، فضلاً على أنها لا تعيش إلا في مواطن خاصة محدودة . وهي في مقابل هذا طويلة الأعمار . ولو كانت مع عمرها الطويل ، كثيرة الفراخ مستطبعة الحياة في كل موطن ، لقصت على صغار الطيور وأفتتها على كثرتها وكثرة تفريخها . أو قللت من أعدادها الكبيرة اللازمة بدورها لطعام هذه الجوارح وسواها من بني الإنسان ، وللقيام بأدوارها الأخرى ، ووظائفها الكثيرة في هذه الأرض !

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاتٌ تزور

وذلك للحكمة التي قدرها الله كما رأينا ، كي تتعادل عوامل البقاء وعوامل الفناء بين الجوارح والبغاث !

(١) يراجع تفسير سورة الفرقان .

والذبابة تبيض ملايين البويضات . ولكنها لا تعيش إلا أسبوعين . ولو كانت تعيش بضعة أعوام ، تبيض فيها بهذه النسبة لغطى الذباب وجه الأرض بنتاجه ؛ ولغدت حياة كثير من الأجناس - وأولها الإنسان - مستحيلة على وجه هذه الأرض . ولكن عجلة التوازن التي لا تختل ، في يد القدرة التي تدبر هذا الكون ، وازنت بين كثرة النسل وقصر العمر فكان هذا الذي نراه !

والميكروبات - وهي أكثر الأحياء عدداً ، وأسرعها تكاثراً ، وأشدّها فتكاً - هي كذلك أضعف الأحياء مقاومة وأقصرها عمراً . تموت بملايين الملايين من البرد ، ومن الحر ، ومن الضوء ، ومن أحماض المعدات ، ومن أمصال الدم ، ومن عوامل أخرى كثيرة . ولا تتغلب إلا على عدد محدود من الحيوان والإنسان . ولو كانت قوية المقاومة أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء !

وكل حي من الأحياء مزود بسلاح يتقي به هجمات أعدائه ويغالب به خطر الفناء . وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع . فكثرة العدد سلاح . وقوة البطش سلاح . وبينهما ألوان وأنواع . .

الحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها . والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل ، ومن ثم يندر فيها السام !

والخنفساء - وهي قليلة الحيلة - مزودة بمادة كاوية ذات رائحة كريهة ، تصبها على كل من يلمسها ، وقاية من الأعداء !

والظباء مزودة بسرعة الجري والقفز ، والأسود مزودة بقوة البأس والاقتراس !

وهكذا كل حي من الأحياء الصغار والكبار على السواء .

وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه ، والتي ينتفع معها بهذا اللون من الطعام . . الإنسان والحيوان والطير وأدناً أنواع الأحياء سواء . .

البويضة بعد تلقيحها بالحيوان المنوي تلتصق بالرحم . وهي مزودة بخاصية أكلة ، تمزق جدار الرحم حولها وتحوله إلى بركة من الدم المناسب لامتناسها ونموها ! والحبل السري الذي يربط الجنين بأمه ليتغذى منها حتى يتم وضعه ، روعي في تكوينه ما يحقق الغرض الذي تكون من أجله ، دون إطالة قد تسبب تخمر الغذاء فيه ، أو قصر قد يؤدي إلى اندفاع الغذاء إليه بما قد يؤذيه ^١ .

« والثدي يفرز في نهاية الحمل وبدء الوضع سائلاً أبيض مائلاً إلى الاصفرار . ومن عجيب صنع الله أن هذا السائل عبارة عن مواد كيماوية ذائبة تقي الطفل من عدوى الأمراض . وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكوين . ومن تدبير المدير الأعظم أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم ، حتى يصل إلى حوالي لتر ونصف في اليوم بعد ستة ، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات . ولا يقف الإعجاز عند كمية اللبن التي تزيد على حسب زيادة الطفل ؛ بل إن تركيب اللبن كذلك تتغير مكوناته ، وتتركز مواده ، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات والسكريات في أول الأمر ، ثم تتركز مكوناته فتزيد نسبته النشوية والسكرية والدهنية فترة بعد أخرى ، بل يوماً بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو » ^٢ .

(١) من كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨

وتتبع الأجهزة المختلفة في تكوين الإنسان ، ووظائفها ، وطريقة عملها ، ودور كل منها في المحافظة على حياته وصحته .. يكشف عن العجب العجيب في دقة التقدير وكمال التدبير . ويرينا يد الله وهي تدبر أمر كل فرد . بل كل عضو . بل كل خلية من خلاياه . وعين الله عليه تكلؤه وترعاه . ولن نستطيع هنا أن نفصل هذه العجائب فنكتفي بإشارة سريعة إلى التقدير الدقيق في جهاز واحد من هذه الأجهزة . جهاز الغدد الصم « تلك المعامل الكيماوية الصغيرة التي تمد الجسم بالتركيبات الكيماوية الضرورية ، والتي يبلغ من قوتها أن جزءاً من ألف بليون جزء منها تحدث آثاراً خطيرة في جسم الإنسان . وهي مرتبة بحيث أن إفراز كل غدة يكمل إفراز الغدة الأخرى . وكل ما كان يعرف عن هذه الإفرازات أنها معقدة التركيب تعقيداً مذهشاً ، وأن أي اختلال في إفرازها يسبب تلفاً عاماً في الجسم ، يبلغ حد الخطورة . إذا دام هذا الاختلال وقتاً قصيراً »^١ .

أما الحيوان فتختلف أجهزته باختلاف أنواعه وبيئاته وملابسات حياته ..

« زودت أفواه الآساد والنور والذئب والضباع ، وكل الحيوانات الكاسرة التي تعيش في الفلاة ، ولا غذاء لها إلا ما تفترسه من كائنات لا بد من مهاجمتها ، والتغلب عليها ، بأنياب قاطعة ، وأسنان حادة ، وأضراس صلبة . ولما كانت في هجومها لا بد أن تستعمل عضلاتها ، فلأجلها عضلات قوية ، سلحت بأظافر ومخالب حادة ، وحوث معدتها الأحماض والأنزيمات الهاضمة للحوم والعظام »^٢ .

فأما الحيوانات المجتررة المستأنسة التي تعيش على المراعي ، فهي تختلف فيما زودت به ..

« وقد صممت أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة ، فأفواها واسعة نسبياً ؛ وقد تجردت من الأنياب القوية والأضراس الصلبة . وبدلاً منها توجد الأسنان التي تتميز بأنها قاصمة قاطعة ؛ فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة ، وتبتلعها كذلك دفعة واحدة ، حتى يمكنها أن تؤدي للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات . وقد أوجدت العناية الخالقة لهذا الصنف أعجب أجهزة للهضم ، فالطعام الذي تأكله ينزل إلى الكرش ، وهو مخزن له ، فإذا ما انتهى عمل الحيوان اليومي وجلس للراحة ، يذهب الطعام إلى تجويف يسمى « القلسوة » . ثم يرجع إلى الفم ، فيمضغ ثانية مضغاً جيداً ، حيث يذهب إلى تجويف ثالث يسمى « أم التلايف » ، ثم إلى رابع يسمى « الإنفحة » وكل هذه العملية الطويلة أعدت لحماية الحيوان ، إذ كثيراً ما يكون هدفاً لهجوم حيوانات كاسرة في المراعي ، فوجب عليه أن يحصل على غذائه بسرعة ويختفي . ويقول العلم إن عملية الاجترار ضرورية بل وحيوية ، إذ أن العشب من النباتات العسرة المهضم ، لما يحتويه من السليولوز الذي يغلف جميع الخلايا النباتية ، ولهضمه يحتاج الحيوان إلى وقت طويل جداً ، فلو لم يكن مجترراً ، وبمعدته مخزن خاص ، لضاع وقت طويل في الرعي ، يكاد يكون يوماً بأكمله ، دون أن يحصل الحيوان على كفايته من الغذاء ، ولأجهد العضلات في عمليات التناول والمضغ . إنما سرعة الأكل ، ثم تخزينه وإعادة بعد أن يصيب شيئاً من التخمر ، ليبدأ المضغ والطحن والبلع ، تحقق كافة أغراض الحيوان من عمل وغذاء وحسن هضم . فسبحان المدبر »^٣ .

« والطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار مقوس حاد على شكل خطاف لتمزيق اللحوم . بينما للاوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالملعقة ، توافم البحث عن الغذاء في الطين والماء . وعلى جانب المنقار

(١) المصدر السابق ص ٥١ - ٥٢

(٢) المصدر السابق ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣ .

زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

« أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض فنناقيرها قصيرة مدببة لتؤدي هذا الغرض .
بينما منقار البجعة مثلاً طويلاً ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد . إذ
أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي .

« ومنقار الهدهد وأبو قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، التي غالباً ما تكون
تحت سطح الأرض . ويقول العلم : إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أي طير من النظرة العابرة إلى منقاره .
« أما باقي الجهاز الهضمي للطير فهو غريب عجيب . فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حوصلة وقانصة
تهضم الطعام . يلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام »^١ .

ويطول بنا الاستعراض ، ونخرج على منهج هذه الظلال ، لو رحنا نتتبع الأنواع والأجناس الحية على هذا
النحو ، فسرع الخطى إلى « الإمبيا » وهي ذات الخلية الواحدة ، لئلا نرى يد الله معها ، وعينه عليها ، وهو يقدر لها
أمرها تقديرًا .

« والإمبيا كائن حي دقيق الحجم . يعيش في البرك والمستنقعات ، أو على الأحجار الراسبة في القاع . ولا
يرى بالعين إطلاقاً . وهو يرى بالمجاهر ، كتلة هلامية ، يتغير شكلها بتغير الظروف والحاجات . فعندما تتحرك
تدفع بأجزاء من جسمها تكون به زوائد ، تستعملها كالأقدام ، للسير بها إلى المكان المرغوب . ولذا تسمى هذه
الزوائد بالأقدام الكاذبة . وإذا وجدت غذاء لها أمسكت به بزائدة أو زائدتين ، وتفترز عليه عصارة هاضمة ،
فتتغذى بالمفيد منها ، أما الباقي فطرده من جسمها ! وهي تنفّس من كل جسمها بأخذ الأكسجين من الماء ..
فتصور هذا الكائن الذي لا يرى إطلاقاً بالعين ، يعيش ويتحرك ، ويتغذى ويتنفس ، ويخرج فضلاته ! فإذا
ما تم نموه انقسم إلى قسمين ، ليكون كل قسم حيواناً جديداً » ..

« وعجائب الحياة في النبات لا تقل في إثارة العجب والدهشة عن عجائبها في الإنسان والحيوان والطير
والتقدير فيها لا يقل ظهوراً وبروزاً عنه في تلك الأحياء . « وخلق كل شيء فقدره تقديراً »^٢ ..

* * *

على أن الأمر أعظم من هذا كله وأشمل في التقدير والتدبير . إن حركة هذا الكون كله بأحداثها ووقائعها
وتياراتها مقدرة مدبرة صغيرها وكبيرها . كل حركة في التاريخ ككل انفعال في نفس فرد ، ككل نفس يخرج
من صدر ! إن هذا النفس مقدر في وقته ، مقدر في مكانه ، مقدر في ظروفه كلها ، مرتبط بنظام الوجود
وحركة الكون ، محسوب حسابه في التناسق الكوني ، كالأحداث العظام الضخام !

وهذا العود البري النبات وحده هناك في الصحراء .. إنه هو الآخر قائم هناك بقدر . وهو يؤدي وظيفة
ترتبط بالوجود كله منذ كان ! وهذه النملة السارية وهذه الهبأة الطائرة . وهذه الخلية السابحة في الماء .
كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء !

تقدير في الزمان ، وتقدير في المكان ، وتقدير في المقدار ، وتقدير في الصورة . وتناسق مطلق بين جميع
الملاسات والأحوال .

(١) المصدر السابق ص ٧٣ - ٧٤

(٢) المصدر السابق ص ١٠١ - ١٠٢ .

من ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج يعقوب من امرأة أخرى هي أم يوسف وبنيامين أخيه ، لم يكن حادثاً شخصياً فردياً .. إنما كان قدراً مقدوراً ليحقد إخوة يوسف من غير أمه عليه ، فيأخذوه فيلقوه في الحب - ولا يقتلوه - لتلقطه السيارة . لتبعه . في مصر . لينشأ في قصر العزيز . لتراوده امرأة العزيز عن نفسه . ليستعلي على الإغراء . ليلقى في السجن .. لماذا ؟ ليتلاقى في السجن مع خادمي الملك . ليفسر لهما الرؤيا .. لماذا ؟ إلى تلك اللحظة لا يوجد جواب ! ويقف ناس من الناس يسألون : لماذا ؟ لماذا يا رب يتعذب يوسف ؟ لماذا يا رب يتعذب يعقوب ؟ لماذا يفقد هذا النبي بصره من الحزن ؟ ولماذا يسام يوسف الطيب الزكي كل هذا الألم ، المنوع الأشكال ؟ لماذا ؟ .. ولأول مرة تحيي أول إجابة بعد أكثر من ربع قرن في العذاب ، لأن القدر يعده ليتولى أمر مصر وشعبها والشعوب المجاورة في سني القحط السبعة ! ثم ماذا ؟ ثم ليستقدم أبويه وإخوته . ليكون من نسلهم شعب بني إسرائيل . ليضطهدهم فرعون . لينشأ من بينهم موسى - وما صاحب حياته من تقدير وتدير - لتنشأ من وراء ذلك كله قضايا وأحداث وتيارات يعيش العالم فيها اليوم بكليته ! وتؤثر في مجرى حياة العالم جميعه !

ومن ذا الذي يذكر مثلاً أن زواج إبراهيم جد يعقوب من هاجر المصرية لم يكن حادثاً شخصياً فردياً . إنما كان وما سبقه في حياة إبراهيم من أحداث أدت إلى مغادرته موطنه في العراق ومروره بمصر ، ليأخذ منها هاجر ، لتلد له إسماعيل . ليسكن إسماعيل وأمه عند البيت المحرم . لينشأ محمد - صلى الله عليه وسلم - من نسل إبراهيم - عليه السلام - في هذه الجزيرة . أصلح مكان على وجه الأرض لرسالة الإسلام .. ليكون من ذلك كله ذلك الحدث الأكبر في تاريخ البشرية العام !

إنه قدر الله وراء طرف الخيط البعيد . لكل حادث . ولكل نشأة . ولكل مصير . ووراء كل نقطة ، وكل خطوة ، وكل تعديل أو تغيير .

إنه قدر الله النافذ ، الشامل ، الدقيق ، العميق .

وأحياناً يرى البشر طرف الخيط القريب ولا يرون طرفه البعيد . وأحياناً يتناول الزمن بين المبدأ والمصير في عمرهم القصير ، فتحفى عليهم حكمة التدبير . فيستعجلون ويقترحون . وقد يسخطون . أو يتناولون ! والله يعلمهم في هذا القرآن أن كل شيء بقدر ليسلموا الأمر لصاحب الأمر ، وتطمئن قلوبهم وتستريح ويسيروا مع قدر الله في توافق وفي تناسق ، وفي أنس بصحبة القدر في خطوه المطمئن الثابت الوثيق ..

* * *

ومع التقدير والتدبير ، القدرة التي تفعل أعظم الأحداث بأيسر الإشارات :

« وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » ..

فهي إشارة واحدة . أو كلمة واحدة يتم بها كل أمر : الجليل والصغير سواء . وليس هنالك جليل ولا صغير . إنما ذلك تقدير البشر للأشياء . وليس هنالك زمن ولا ما يعادل لمح البصر . إنما هو تشبيه لتقريب الأمر إلى حس البشر . فالزمن إن هو إلا تصور بشري ناشئ من دورة أرضهم الصغيرة ، ولا وجود له في حساب الله المطلق من هذه التصورات المحدودة !

واحدة تنشئ هذا الوجود الهائل . وواحدة تبدل فيه وتغير . وواحدة تذهب به كما يشاء الله . وواحدة تحيي كل حي . وواحدة تذهب به هنا وهناك . وواحدة ترده إلى الموت . وواحدة تبعثه في صورة من الصور . وواحدة تبعث الخلائق جميعاً . وواحدة تجمعهم ليوم الحشر والحساب .

واحدة لا تحتاج إلى جهد ، ولا تحتاج إلى زمن . واحدة فيها القدرة ومعها التقدير . وكل أمر معها مقدر ميسور .

* * *

وبواحدة كان هلاك المكذبين على مدار القرون . وفي هذه يذكرهم بمصير أمثالهم من المكذبين : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر ؟ وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر » . فهذه مصارع المكذبين ، معروضة في الحلقات التي تضمنتها السورة من قبل .. « فهل من مدكر ؟ » .. يتذكر ويعتبر ؟

ولم ينته حسابهم بمصارعهم الأليمة ، فوراءهم حساب لا يفلت منه شيء : « وكل شيء فعلوه في الزبر » .. مسطر في الصحائف ليوم الحساب : « وكل صغير وكبير مستطر » .. لا ينسى منه شيء وهو مسطور في كتاب !

* * *

وعند هذا الحد من العرض والتعقيب ، يلتفت السياق إلى صفحة أخرى غير صفحة المكذبين . ويعرض صورة أخرى في ظل وادع أمين . صورة المتقين :

« إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. ذلك بينا المجرمون في ضلال وسعر . يسحبون في النار على وجوههم في مهانة . ويلذعون بالتأنيب كما يلذعون بالسعير : « ذوقوا مس سقر » ..

وهي صورة للنعيم بطرفيه : « في جنات ونهر » . « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . نعيم الحس والجوارح في تعبير جامع شامل : « في جنات ونهر » يلقي ظلال النعماء واليسر حتى في لفظه الناعم المناسب .. وليس لمجرد إيقاع القافية تجيء كلمة « نهر » بفتح الهاء . بل كذلك لإلقاء ظل اليسر والنعموة في جرس اللفظ وإيقاع التعبير !

ونعيم القلب والروح . نعيم القرب والتكريم : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .. فهو مقعد ثابت مطمئن ، قريب كريم ، مانوس بالقرب ، مطمئن بالتمكين . ذلك أنهم المتقون . الخائفون . المترقبون . والله لا يجمع على نفس خوفين : خوفها منه في الدنيا ، وخوفها يوم القيامة . فن اتقاه في العاجلة أمنه في الآجلة . ومع الأمان في أفزع موطن ، يغمره بالأنس والتكريم .

* * *

وعند هذا الإيقاع الهادئ ، في هذا الظل الآمن ، تنتهي السورة التي حفلت حلقاتها بالفزع والكرب والأخذ والتدمير . فإذا للظل الآمن والإيقاع الهادئ طعم وروح أعرق وأروح .. وهذه هي التربية الكاملة . تربية العليم الحكيم بمسارب النفوس ومداخل القلوب . وهذا هو التقدير الدقيق لخالق كل شيء بقدر ، وهو اللطيف الخبير ..

* * *

(٥٥) سُورَةُ الرَّحْمَنِ مِلْدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٍ وَسِتُّعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَيْهِ الْبَيَانُ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ
بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِهِمُۋُۤ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِ ﴿١١﴾
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾
رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ مِنْهُمَا الطُّلُوءَ
وَالْمَرْجَانَ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾
يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾

(١) في روايات أنها مدنية وفي روايات أنها مكية . ونحن نرجح مكيتها . ونسفيها تنضج فيه سمات القرآن المكي . شأنها في هذا شأن سورة الرعد ، وفيها الاختلاف ذاته . وقد اعتبرناها مكية عند الحديث عنها للأسباب ذاتها .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٧﴾ يَمَعَشِرَ الْجَنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ
تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٨﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٣٩﴾
يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظُ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٤٠﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٤١﴾

فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٤٢﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٣﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْعَلُ عَنْ
ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٤٤﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي
وَالْأَقْدَامِ ﴿٤٦﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٤٨﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴿٥١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٢﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٥٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٤﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٦﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٧﴾ فَإِنِّي
ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٥٨﴾ مُتَكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ
تُكَذِّبَانِ ﴿٦٠﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْإِطْرِفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٦١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٢﴾ كَأَنَّهُنَّ
الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٦٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٤﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٥﴾ فَإِنِّي
ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٦﴾

وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴿٦٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٦٨﴾ مُدْهَمَمَاتٍ ﴿٦٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٠﴾
فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٧١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٢﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٧٣﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ
رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٤﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٥﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٦﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي
الْخِيَامِ ﴿٧٧﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٧٨﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٩﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ
تُكَذِّبَانِ ﴿٨٠﴾ مُتَكِعِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ ﴿٨١﴾ فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكَ تُكَذِّبَانِ ﴿٨٢﴾

تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٨٣﴾

هذه السورة المكية ذات نسق خاص ملحوظ . إنها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير ، وإعلام بآلاء الله الباهرة الظاهرة ، في جميل صنعه ، وإبداع خلقه ؛ وفي فيض نعمائه ؛ وفي تدبيره للوجود وما فيه ؛ وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم .. وهي إشهاد عام للوجود كله على الثقلين : الإنس والجن المخاطبين بالسورة على السواء ، في ساحة الوجود ، على مشهد من كل موجود ، مع تحديهما إن كانا يملكان التكذيب بآلاء الله ، تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعمه التي يعددها ويفصلها ، ويجعل الكون كله معرضاً لها ، وساحة الآخرة كذلك .

ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله ، وفي إيقاع فواصلها .. تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى ، وامتداد التصويت إلى بعيد ؛ كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والانتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار .. الرحمن .. كلمة واحدة . مبتدأ مفرداً .. الرحمن كلمة واحدة في معناها الرحمة ، وفي رتتها الإعلان ، والسورة بعد ذلك بيان للمسات الرحمة ومعرض لآلاء الرحمن .

ويبدأ معرض الآلاء بتعليم القرآن بوصفه المنة الكبرى على الإنسان . تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان .

ثم يذكر خلق الإنسان ، ومنحه الصفة الإنسانية الكبرى .. البيان ..

ومن ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله .. الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء المرفوعة . والميزان الموضوع . والأرض وما فيها من فاكهة ونخل وحب وريحان . والجن والإنس . والمشرق والمغربان . والبحران بينهما برزخ لا يبغيان ، وما يخرج منهما وما يجري فيهما .

فإذا تم عرض هذه الصحائف الكبار . عرض مشهد فنائها جميعاً . مشهد الفناء المطلق للخلائق ، في ظل الوجود المطلق لوجه الله الكريم الباقي . الذي إليه تتوجه الخلائق جميعاً ، ليتصرف في أمرها بما يشاء .

وفي ظل الفناء المطلق والبقاء المطلق يجيء التهديد المروع والتحدي الكوني للجن والإنس : « سنفزع لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

ومن ثم يعرض مشهد النهاية . مشهد القيامة . يعرض في صورة كونية . يرتسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة ، ومشهد العذاب للمجرمين ، والثواب للمتقين في تطويل وتفصيل .

ثم يجيء الختام المناسب لمعرض الآلاء : « تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » ..

* * *

إن السورة كلها إعلان عام في ساحة الوجود الكبير . إعلان ينطلق من الملاء الأعلى ، فتتجاوب به أرجاء الوجود . ويشهده كل من في الوجود وكل ما في الوجود ..

* * *

« الرحمن »

هذا المطلع المقصود بلفظه ومعناه ، وإيقاعه وموسيقاه .

« الرحمن »

بهذا الرنين الذي تتجاوب أصدائه الطليقة المديدة المدوية في أرجاء هذا الكون ، وفي جنبات هذا الوجود .
« الرحمن »

بهذا الإيقاع الصاعد الذاهب إلى بعيد ، يجلجل في طباق الوجود ، ويخاطب كل موجود ؛ ويتلفت على رنته كل كائن ، وهو يملأ فضاء السماوات والأرض ، ويبلغ إلى كل سمع وكل قلب ..

« الرحمن »
ويسكت . وتنتهي الآية . ويصمت الوجود كله وينصت ، في ارتقاب الخبر العظيم . بعد المطلع العظيم .
ثم يجيء الخبر المترب ، الذي يخفق له ضمير الوجود ...

« علم القرآن . خلق الإنسان علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . والأرض وضعها للأنعام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

هذا هو المقطع الأول في بيان آلاء الرحمن . وهذا هو الخبر الأول بعد ذلك الإعلان ..
« علم القرآن » ..

هذه النعمة الكبرى التي تتجلى فيها رحمة الرحمن بالإنسان .. القرآن .. الترجمة الصادقة الكاملة لنواميس هذا الوجود . ومنهج السماء للأرض . الذي يصل أهلها بناموس الوجود ؛ ويقيم عقيدتهم وتصوراتهم وموازينهم وقيمهم ونظمهم وأحوالهم على الأساس الثابت الذي يقوم عليه الوجود . فيمنحهم اليسر والطمأنينة والتفاهم والتجاوب مع الناموس .

القرآن الذي يفتح حواسهم ومشاعرهم على هذا الكون الجميل ، كأنما يطالعهم أول مرة ، فيجدد إحساسهم بوجودهم الذاتي ، كما يجدد إحساسهم بالكون من حولهم . ويزيد فيمنح كل شيء من حولهم حياة نابضة تتجاوب وتتعاطف مع البشر ؛ فإذا هم بين أصدقاء ، ورفاق أحباء ، حيثما ساروا أو أقاموا ، طوال رحلتهم على هذا الكوكب !

القرآن الذي يقر في أحلامهم أنهم خلفاء في الأرض ، أنهم كرام على الله ، وأنهم حملة الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال . فيشعرهم بقيمتهم التي يستمدونها من تحقيق إنسانيتهم العليا ، بوسيلتها الوحيدة .. الإيمان .. الذي يحيي في أرواحهم نفخة الله . ويحقق نعمته الكبرى على الإنسان .
ومن ثم قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان . فبه يتحقق في هذا الكائن معنى الإنسان .
« خلق الإنسان علمه البيان » ..

وندع - مؤقتاً - خلق الإنسان ابتداء ، فسيأتي ذكره في مكانه من السورة بعد قليل . إذ المقصود من ذكره هنا هو ما تلاه من تعليمه البيان .

إننا نرى الإنسان ينطق ويعبر ويبين ، ويتفاهم ، ويتجاوب مع الآخرين .. فننسى بطول الألفة عظمة هذه الهبة ، وضخامة هذه الخارقة ، فيردنا القرآن إليها ، ويوقظنا لتدبرها ، في مواضع شتى .

فما الإنسان ؟ ما أصله ؟ كيف يبدأ ؟ وكيف يُعلم البيان ؟

إنه هذه الخلية الواحدة التي تبدأ حياتها في الرحم . خلية ساذجة صغيرة ، ضئيلة ، مهينة . ترى بالمجهر ، ولا تكاد تبين . وهي لا تُبين !! !

ولكن هذه الخلية ما تلبث أن تكون الجنين . الجنين المكون من ملايين الخلايا المنوعة .. عظمية . وغضروفية . وعظلية . وعصبية . وجلدية .. ومنها كذلك تتكون الجوارح والحواس ووظائفها المدهشة : السمع . البصر . الذوق . الشم . للمس . ثم .. ثم الخارقة الكبرى والسر الأعظم : الإدراك والبيان ، والشعور والإلهام .. كله من تلك الخلية الواحدة الساذجة الصغيرة الضئيلة المهينة ، التي لا تكاد تبين ، والتي لا تُبين !

كيف ؟ ومن أين ؟ من الرحمن ، وبصنع الرحمن .
فلننظر كيف يكون البيان ؟ : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » ..

إن تكوين جهاز النطق وحده عجيبة لا ينقضي منها العجب .. اللسان والشفتان والفك والأسنان . والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب والريثان .. إنها كلها تشترك في عملية التصويت الآلية وهي حلقة في سلسلة البيان . وهي على ضخامتها لا تمثل إلا الجانب الميكانيكي الآلي في هذه العملية المعقدة ، المتعلقة بعد ذلك بالسمع والمخ والأعصاب . ثم بالعقل الذي لا نعرف عنه إلا اسمه . ولا ندري شيئاً عن ماهيته وحقيقته . بل لا نكاد ندري شيئاً عن عمله وطريقته !

كيف ينطق الناطق باللفظ الواحد ؟

إنها عملية معقدة كثيرة المراحل والخطوات والأجهزة . مجهولة في بعض المراحل خافية حتى الآن . إنها تبدأ شعوراً بالحاجة إلى النطق بهذا اللفظ لأداء غرض معين . هذا الشعور ينتقل - لا ندري كيف - من الإدراك أو العقل أو الروح إلى أداة العمل الحسية .. المخ .. ويقال : إن المخ يصدر أمره عن طريق الأعصاب بالنطق بهذا اللفظ المطلوب . واللفظ ذاته مما علمه الله للإنسان وعرفه معناه . وهنا تطرد الرئة قدراً من الهواء المختزن فيها ، ليمر من الشعب إلى القصبة الهوائية إلى الحنجرة وحبالها الصوتية العجيبة التي لا تقاس إليها أوتار أية آلة صوتية صنعها الإنسان ، ولا جميع الآلات الصوتية المختلفة الأنغام ! فيصوت الهواء في الحنجرة صوتاً تشكله حسبما يريد العقل .. عالياً أو خافتاً . سريعاً أو بطيئاً . خشناً أو ناعماً . ضخماً أو رقيقاً .. إلى آخر أشكال الصوت وصفاته . ومع الحنجرة اللسان والشفتان والفك والأسنان ، يمر بها هذا الصوت فيتشكل بضغط خاصة في مخارج الحروف المختلفة . وفي اللسان خاصة يمر كل حرف بمنطقة منه ذات إيقاع معين ، يتم فيه الضغط المعين ، ليصوت الحرف بجرس معين ..

وذلك كله لفظ واحد .. ووراء العبارة . والموضوع . والفكرة . والمشاعر السابقة واللاحقة . وكل منها عالم عجيب غريب ، ينشأ في هذا الكيان الإنساني العجيب الغريب ، بصنعة الرحمن ، وفضل الرحمن .

* * *

ثم يستطرد في بيان آلاء الرحمن في المعرض الكوني العام :
« الشمس والقمر بحسبان » ..

حيث تتجلى دقة التقدير ، في تنسيق التكوين والحركة ، بما يملأ القلب روعة ودهشة ، وشعوراً بضخامة هذه الإشارة ، وما في طياتها من حقائق بعيدة الآماد عميقة الأغوار .

إن الشمس ليست هي أكبر ما في السماء من أجرام . فهناك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدوداً ، ملايين الملايين من النجوم ، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءاً . فالشعري البائية أثقل من الشمس

بعشرين مرة ، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس . والسماء الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف ضعف . وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة ... وهكذا ...

ولكن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا - نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير ، الذي يعيش هو وسكانه جميعاً على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها .

وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض . ولكنه ذو أثر قوي في حياتها . وهو العامل الأهم في حركة الجزر والمد في البحار .

وحجم الشمس ، ودرجة حرارتها ، وبعدها عنا ، وسيرها في فلكها . وكذلك حجم القمر وبعده ودورته .. كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض . وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى ..

ونتناول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء .. إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال . ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحتقرت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء ! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة ! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها . وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا . ولو كانت الشعري بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية ، وذهبت بدداً !

وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض . فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها . وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة !

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في توازن وضعها ، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب ، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد نحو برج الجبار . ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين !

وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة ، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة .

وصدق الله العظيم .. « الشمس والقمر بحسبان » .

« والنجم والشجر يسجدان » ..

وقد كانت الإشارة السابقة إلى الحساب والتقدير في بناء الكون الكبير . فأما هذه فهي إشارة إلى اتجاه هذا الكون وارتباطه . وهي إشارة موحية إلى حقيقة هادية .

إن هذا الوجود مرتبط ارتباط العبودية والعبادة بمصدره الأول ، وخالقه المبدع . والنجم والشجر نموذجان منه ، يدلان على اتجاهه كله . وقد فسر بعضهم النجم بأنه النجم الذي في السماء . كما فسر بعضهم بأنه النبات الذي لا يستوي على سوقه كالشجر . وسواء كان هذا أم كان ذلك فإن مدى الإشارة في النص واحد . ينتهي إلى حقيقة اتجاه هذا الكون وارتباطه .

والكون خليفة حية ذات روح . روح يختلف مظهرها وشكلها ودرجتها من كائن إلى كائن . ولكنها في حقيقتها واحدة .

ولقد أدرك القلب البشري منذ عهود بعيدة حقيقة هذه الحياة السارية في الكون كله . وحقيقة اتجاه روحه إلى خالقه . أدركها بالإلهام اللدني فيه . ولكنها كانت تغيم عليه ، وتتوارى عنه كلما حاول اقتناصها بعقله المقيّد بتجارب الحواس !

ولقد استطاع أخيراً أن يصل إلى أطراف قريبة من حقيقة الوحدة في بناء الكون . ولكنه لا يزال بعيداً عن الوصول إلى حقيقة روحه الحية عن هذا الطريق !

والعلم يميل اليوم إلى افتراض أن الذرة هي وحدة بناء الكون ؛ وأنها في حقيقتها مجرد إشعاع . وأن الحركة هي قاعدة الكون ، والخاصية المشتركة بين جميع أفرادها .

فإلى أين يتجه الكون بحركته التي هي قاعدته وخاصيته ؟

القرآن يقول : إنه يتجه إلى مبدعه بحركة روحه - وهي الحركة الأصلية فحركة ظاهره لا تكون إلا تعبيراً عن حركة روحه - وهي الحركة التي تمثلها في القرآن آيات كثيرة منها هذه : « والنجم والشجر يسجدان » .. ومنها : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. ومنها : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات . كل قد علم صلاته وتسبيحه » ..

وتأمل هذه الحقيقة ، ومتابعة الكون في عبادته وتسبيحه ، مما يمنح القلب البشري متاعاً عجباً ، وهو يشعر بكل ما حوله حياً يعاطفه ويتجه معه إلى خالقه وهو في وقفته بين أرواح الأشياء كلها ، وهي تدب فيها جميعاً ، وتحيلها إخواناً له ورفقاء !

إنها إشارة ذات أبعاد وآماد وأعماق ...

« والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » والإشارة إلى السماء - كباقي الإشارات القرآنية إلى مجالي هذا الكون - تقصد إلى تنبيه القلب الغافل ، وإنقاذه من بلادة الألفة ، وإيقاظه لعظمة هذا الكون وتناسقه وجماله ، وإلى قدرة اليد التي أبدعته وجلالها .

والإشارة إلى السماء - أياً كان مدلول السماء - توجه النظر إلى أعلى . إلى هذا الفضاء الهائل السامق الذي لا تبدو له حدود معروفة ؛ والذي تسبح فيه ملايين الملايين من الأجرام الضخمة ، فلا يلتقي منها اثنان ، ولا تصطدم مجموعة منها بمجموعة . ويبلغ عدد المجموعة أحياناً ألف مليون نجم ، كمجموعة المجرة التي ينتسب إليها عالمنا الشمسي ، وفيها ما هو أصغر من شمسنا وما هو أكبر آلاف المرات . شمسنا التي يبلغ قطرها مليوناً وثلث مليون كيلو متر !!! وكل هذه النجوم ، وكل هذه المجموعات تجري في الكون بسرعات مخيفة ، ولكنها في هذا الفضاء الهائل ذرات سابحة متباعدة ، لا تلتقي ، ولا تتصادم !

وإلى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة « وضع الميزان » ميزان الحق . وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً . وضعه لتقدير القيم . قيم الأشخاص والأحداث والأشياء . كي لا يختل تقويمها ، ولا يضطرب وزنها ، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى . وضعه في الفطرة ووضعه في هذا المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن :

وضع الميزان .. « ألا تطغوا في الميزان » .. فتغالوا وتفرطوا .. « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .. ومن ثم يستقر الوزن بالقسط ، بلا طغيان ولا خسران .

ومن ثم يرتبط الحق في الأرض وفي حياة البشر ، ببناء الكون ونظامه . يرتبط بالسما في مدلولها المعنوي حيث ينتزل منها وحي الله ونهجه . ومدلولها المنظور حيث تمثل ضخامة الكون وثباته بأمر الله وقدرته .. ويلتقي هذان المدلولان في الحس بإيقاعهما وظلالهما الموحية .

« والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والرياحان » .

ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض ، وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ، ولوضعنا نحن كذلك عليها . نحن لهذا كله لا نكاد نحس يد القدرة التي « وضعت » هذه الأرض للأنام . وجعلت استقرارنا عليها ممكناً وميسوراً إلى الحد الذي لا نكاد نشعر به . ولا ننتبه إلى ضخامة معنى الاستقرار ، وعظمة نعمة الله علينا فيه إلا بين الحين والحين حين يثور بركان ، أو يمور زلزال ، فيؤرجح هذه الأرض المطمئنة من تحتنا ، فتضطرب وتمور . عندئذ نتذكر معنى الاستقرار الذي نستمتع به على هذه الأرض بنعمة الله .

والبشر خليقون أن يتذكروا هذه الحقيقة في كل لحظة ، لو أنهم ألقوا بالهم إلى أن أرضهم هذه التي يركنون إليها ، إن هي إلا هباءة سابحة في فضاء الله الواسع . هباءة تسبح في هذا الفضاء المطلق . تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل في الساعة . وتسبح - مع هذا - حول الشمس بسرعة ستين ألف ميل في الساعة . بينا هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها في هذا الفضاء بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة متجهة في اتجاه واحد نحو برج الجبار في السماء !

أجل لو أنهم ألقوا بالهم إلى أنهم محمولون على هذه الهباءة السابحة التي تنهب الفضاء نهباً بهذه السرعة ، معلقة في أجوازه بغير شيء إلا قدرة الله .. لظلوا أبداً معلقي القلوب والأبصار ، واجني الأرواح والأوصال ، لا يركنون إلا للواحد القهار الذي وضع الأرض للأنام ، وأقرهم عليها هذا الإقرار !!

ولقد يسر لهم فيها الحياة ، وهي تدور بهم حول نفسها وحول الشمس ، وتركض مع الشمس وتوابعها بتلك السرعة المذهلة . وقدر فيها أقواتها التي يذكر منها هنا الفاكهة - ويخص منها النخل ذات الأكمام - (والكم كيس الطلع الذي ينشأ منه الثمر) ليشير إلى جمال هيئتها بجانب فائدة ثمرتها . ويذكر منها الحب ذا الورق والسيقان التي تعصف وتصير طعاماً للماشية . ويذكر منها الرياحان . النبات ذا الرائحة .. وهي ألوان من نبات الأرض شتى . منها ما هو طعام للإنسان ومنها ما هو طعام للدواب ، ومنها ما هو رُوح للناس ومتاع .

وعند هذا المقطع من تعداد أنعم الله وآلائه : تعليم القرآن . وخلق الإنسان . وتعليمه البيان . وتنسيق الشمس والقمر بحسبان . ورفع السماء ووضع الميزان . ووضع الأرض للأنام . وما فيها من فاكهة ونخل وحب ورياحان .. عند هذا المقطع يهتف بالجن والإنسان ، في مواجهة الكون وأهل الكون : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. وهو سؤال للتسجيل والإشهاد . فما يملك إنس ولا جان أن يكذب بآلاء الرحمن في مثل هذا المقام .

* * *

ثم ينتقل من الامتنان عليهما بآلاء الله في الكون ، إلى الامتنان عليهما بآلائه في ذوات أنفسهما ، وفي خاصة وجودهما وإنشائهما :

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار .. فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

ونعمة الإيجاد والإنشاء أصل النعمة . والمسافة بين الوجود وعدم الوجود ابتداء مسافة لا تقاس أبعادها بأي مقياس مما يألّفه البشر . فجميع المقاييس التي في أيدي البشر أو التي تدركها عقولهم ، هي مقاييس للفارق بين موجود وموجود . أما المسافة بين الموجود وغير الموجود فلا تدركها مدارك البشر بحال ! ونحسب الجن كذلك ، فإن هم إلا خلق مقياسه مقاييس المخلوقات !

فحين يمتن الله على الجن والإنس بنعمة الإيجاد والإنشاء ؛ فإنما يمتن عليهما بالنعمة التي تفوق حد الإدراك . ثم يقرر الحق سبحانه مادة خلق الإنس والجن ، وهي كذلك من خلق الله . والصلصال : الطين إذا يبس وصار له صوت وصلصلة عند الضرب عليه . وقد تكون هذه حلقة في سلسلة النشأة من الطين أو من التراب . كما أنها قد تكون تعبيراً عن حقيقة الوحدة بين مادة الإنسان ومادة الأرض في عناصر التكوين .

« وقد أثبت العلم الحديث أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض . فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والأيدروجين ، والفوسفور ، والكبريت ، والآزوت ، والكالسيوم ، والبوتاسيوم ، والصوديوم ، والكلور ، والمغنسيوم ، والحديد ، والمنجنيز ، والنحاس ، واليود ، والفلورين ، والكوبالت ، والزنك ، والسلكون ، والألمنيوم . وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب . وإن اختلفت نسبها في إنسان عن الآخر ، وفي الإنسان عن التراب . إلا أن أصنافها واحدة » .

إلا أن هذا الذي أثبتته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للنص القرآني . فقد تكون الحقيقة القرآنية تعني هذا الذي أثبتته العلم ، أو تعني شيئاً آخر سواه . وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة التي يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو طين أو صلصال .

والذي ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بشري ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة . فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية - تجريبية أو افتراضية - بنية بيان ما في القرآن من إعجاز . فالقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها . ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها في نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل والتعديل ، بل للخطأ والصواب من الأساس ! وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن ، هو توسيع مدلولها في تصورنا كلما أطلعنا العلم على شيء مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله في الأنفس والآفاق ، دون أن يحمل النص القرآني على أن مدلوله هو هذا الذي كشفه العلم . إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه . فأما خلق الجن من مارج من نار . فمسألة خارجة عن حدود العلوم البشرية . والمصدر الواحد فيها هو هذا القرآن . خبر الله الصادق . الذي خلق وهو أعلم بمن خلق .. والمارج : المشتعل المتحرك كألسته النار مع الرياح ! وللجان قدرة على الحياة في هذه الأرض مع الإنس . ولكننا لا ندري كيف يعيش الجن وقبيله . فأما الأمر المستيقن فهو أنهم مخاطبون بهذا القرآن كما سبق بيانه عند تفسير قوله تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن .. » وكما هو الحال هنا في سورة الرحمن .

والخطاب هنا للجن والإنس ، لتذكيرهما بنعمة الوجود . كلٌّ من الأصل الذي أنشأه الله منه . وهي النعمة

التي تقوم عليها سائر النعم . ومن ثم يعقب عليها بتعقيب التسجيل والإشهاد العام : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. ولا تكذيب في هذا المقام المشهود !

* * *

« رب المشرقين ورب المغربين . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »

وهذه الإشارة التي تملأ القلب بفيض غامر من الشعور بوجود الله ، حيثما توجه ، وحيثما تلفت ، وحيثما امتد به النظر حوله في الآفاق .. فحيث الشروق وحيث الغروب هناك الله .. ربوبيته ومشيتته وسلطانه ، ونوره وتوجيهه وهدايته ..

والمشرقان والمغربان قد يكون المقصود بهما شروق الشمس وشروق القمر . وغروبهما كذلك ، بمناسبة ذكر الشمس والقمر فيما تقدم من آلاء الله . وقد يكون المقصود مشرق الشمس المختلفي الموضع في الصيف والشتاء ومغربها كذلك .

وعلى أية حال فإن ظلال هذه الإشارة هي الأولى بالالتفات . ظلال الاتجاه إلى المشرق والمغرب ، والشعور بالله هناك ، والإحساس بيده تحرك الكواكب والأفلاك ، ورؤية نوره وربوبيته في الآفاق هنا وهناك . والرصيد الذي يؤوب به القلب من هذا التأمل والتدبر والنظر في المشارق والمغارب ، والازداد الشعوري الذي تفيض به الجوانح وتذخره الأرواح .

وربوبية الله للمشرقين والمغربين ، بعض آلائه في هذا الكون . ومن ثم يجيء التعقيب المعهود في السورة ، بعد هذه اللفتة القصيرة : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » والمشرقان والمغربان فوق أنهما من آيات الله هما من آلاء الله على الجن والإنس ، بما يتحقق فيهما من الخير لسكان هذه الأرض جميعاً . بل من أسباب الحياة التي تنشأ مع الشروق ، وتحتاج كذلك إلى الغروب . ولو اختلف أحدهما أو كلاهما لتعطلت أسباب الحياة ..

* * *

ومن هذه السبحة البعيدة الآفاق يعود إلى الأرض ، وما فيها من ماء ، جعله الله بقدر . قدر في نوعه ، وقدر في تصريفه ، وقدر في الانتفاع به :

« مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثاني الأنهار . ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان ، ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله .

وتقسيم الماء على هذا النحو في الكرة الأرضية لم يجئ مصادفة ولا جزافاً . فهو مقدر تقديرًا عجيباً . الماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية ويتصل بعضه ببعض ، ويشغل اليابس الربع . وهذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض وحفظه دائماً صالحاً للحياة .

« وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور – ومعظمها سام – فإن الهواء باق دون تلوث في الواقع – ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان .. وعجلة الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة

الفسيحة من الماء - أي المحيط - ^١.

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس ، وهي التي تعود فتسقط أمطاراً يتكون منها الماء العذب في جميع أشكاله . وأعظمها الأنهار . والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا ، والعوامل الفلكية الأخرى هو الذي ينشأ عنه المطر الذي تتكون منه كتلة الماء العذب .

وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة ، من نبات وحيوان وإنسان ..

وتصب جميع الأنهار - تقريباً - في البحار . وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغي عليها . ومستوى سطوح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه ، ولا يغمر مجاريها بمائه المالح ، فيحوّلها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها ! وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله . فلا يبغيان .

فلا عجب يذكر البحرين ، وما بينهما من برزخ ، في مجال الآلاء « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

ثم يذكر من آلاء الله في البحرين بعض ما هو قريب منهم في حياتهم .

« يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » ..

واللؤلؤ - في أصله - حيوان . و« لعل اللؤلؤ أعجب ما في البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة من المواد الجيرية لتقيه من الأخطار ، ويختلف هذا الحيوان عن الكائنات الحية في تركيبه وطريقة معيشته ، فله شبكة دقيقة كشبكة الصياد ، عجيبة النسيج ، تكون كمصفاة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه ، وتحول بين الرمال والحصى وغيرها . وتحت الشبكة أفواه الحيوان ، ولكل فم أربع شفاه . فإذا دخلت ذرة رمل ، أو قطعة حصى ، أو حيوان ضار عنوة إلى الصدفة ، سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة ! وعلى حسب حجم الذرة التي وصلت يختلف حجم اللؤلؤة ! » ^٢ ..

« والمرجان من عجائب مخلوقات الله ، يعيش في البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر ، ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب . وفتحة فمه التي في أعلى جسمه ، محاطة بعدد من الزوائد يستعملها في غذائه . فإذا لمست فريسة هذه الزوائد ، وكثيراً ما تكون من الأحياء الدقيقة كبراغيث الماء ، أصيبت بالشلل في الحال ، والتصقت بها ، فتتكشش الزوائد وتنحني نحو الفم ، حيث تدخل الفريسة إلى الداخل بقناة ضيقة تشبه مريء الإنسان .

« ويتكاثر هذا الحيوان بخروج خلايا تناسلية منه ، يتم بها إخصاب البويضات ، حيث يتكون الجنين الذي يلجأ إلى صخرة أو عشب يلتصق به ، ويكون حياة منفردة ، شأنه في ذلك شأن الحيوان الأصلي .

« ومن دلائل قدرة الخالق ، أن حيوان المرجان يتكاثر بطريقة أخرى هي التزرر . وتبقى الأضرار الناتجة متحدة مع الأفراد التي تزررت منها ، وهكذا تتكون شجرة المرجان التي تكون ذات ساق سميكة . تأخذ في الدقة نحو الفروع التي تبلغ غاية الدقة في نهايتها . ويبلغ طول الشجرة المرجانية ثلاثين سنتيمتراً . والجزر المرجانية الحية ذات ألوان مختلفة ، نراها في البحار صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية ، أو زرقاء زمردية ، أو غبراء باهتة .

(١) عن كتاب الإنسان لا يقف وحده تأليف (أ. كرسبي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ترجمة محمد صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

(٢) عن كتاب الله والعلم الحديث ص ١٠٥ .

« والمرجان الأحمر هو المحور الصلب المتبقي بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان ، وتكون الهياكل الحجرية مستعمرات هائلة .

« ومن هذه المستعمرات سلسلة الصخور المرجانية المعروفة باسم الحاجز المرجاني الكبير ، الموجود بالشمال الشرقي لأستراليا . ويبلغ طول هذه السلسلة ، ألفاً و ٣٥٠ ميلاً وعرضها ٥٠ ميلاً . وهي مكونة من هذه الكائنات الحية الدقيقة الحجم^١ . »

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ حلل غالية الثمن عالية القيمة ، ويمتن الله على عباده بهما ، فيعقب على ذكرهما في السورة ذلك التعقيب المشهود : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »
ثم ينتقل إلى الفلك التي تجري في البحار ، كأنها لضخامتها الجبال :
« وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام » ..

ويجعل هذه الجواري المنشآت « له » سبحانه وتعالى . فهي تجري بقدرته . ولا يحفظها في خضم البحر وثنج الموج إلا حفظه ولا يقرها على سطحه المتماوج إلا كلاءته . فهي له سبحانه . وقد كانت - وما تزال - من أضخم النعم التي من الله بها على العباد ، فیسرت لهم من أسباب الحياة والانتقال والرفاهية والكسب ما هو جدير بأن يذكر ولا ينكر . فهو من الضخامة والوضوح بحيث يصعب التكذيب به والإنكار .. « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

* * *

والآن ينتهي هذا الاستعراض في صفحة الكون المنظور ، وتطوى صفحة الخلق الفاني ، وتتوارى أشباح الخلائق جميعاً ، ويفرغ المجال من كل حي ، ويتجلى وجه الكريم الباقي ، متفرداً بالبقاء ، متفرداً بالجلال ؛ وتستقر في الحس حقيقة البقاء ، وهو يشهد ظلال الفناء :

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

وفي ظل هذا النص القرآني تخفت الأنفاس ، وتخشع الأصوات ، وتسكن الجوارح ... وظل الفناء يشمل كل حي ، ويطوي كل حركة ، ويغمر آفاق السماوات والأرض .. وجلال الوجه الكريم الباقي يظلل النفوس والجوارح ، والزمان والمكان ، ويغمر الوجود كله بالجلال والوقار ..

ولا يملك التعبير البشري أن يصور الموقف ؛ ولا يملك أن يزيد شيئاً على النص القرآني ، الذي يسكب في الجوانح السكون الخاشع ، والجلال الغامر ، والصمت الرهيب ، والذي يرسم مشهد الفناء الخاوي ، وسكون الموت المخيم بلا حركة ، ولا نائمة في هذا الكون الذي كان حافلاً بالحركة والحياة . ويرسم في الوقت ذاته حقيقة البقاء الدائم ، ويطيعها في الحس البشري الذي لا يعرف في تجاربه صورة للبقاء الدائم ؛ ولكنه يدركها بعمق في ذلك النص القرآني العجيب !

ويعقب على هذه اللمسة العميقة الأثر بنفس التعقيب . فيعد استقرار هذه الحقيقة . حقيقة الفناء لكل من عليها ، وبقاء الوجه الجليل الكريم وحده . يعد استقرار هذه الحقيقة نعمة يواجه بها الجن والإنس في معرض الآلاء : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

وإنها لنعمة ، بل هي أساس النعم كلها جميعاً . فمن حقيقة الوجود الباقي ينبثق كل هذا الخلق ؛ وناموسه

ونظامه وخصائصه . كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزأؤه . والحي الباقي هو الذي يخلق ويبدع ، وهو الذي يحفظ ويكلاً ، وهو الذي يحاسب ويجزي . وهو الذي يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء .. فن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء . وما يبرز هذا العالم وما يستقيم أمره إلا ووراء هذه الحقيقة . حقيقة البقاء وراء الفناء .

* * *

ومن حقيقة البقاء الدائم وراء الخلق الفاني ، تنبثق حقيقة أخرى .. فكل أبناء الفناء إنما يتجهون في كل ما يقوم بوجودهم إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الحي القيوم :

« يسأله من في السماوات والأرض ، كل يوم هو في شأن . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

يسأله من في السماوات والأرض ، فهو مناط السؤال ، وغيره لا يسأل لأنه فان لا يتعلق به سؤال .. يسألونه وهو وحده الذي يستجيب ، وقاصده وحده هو الذي لا يخيب . وما يتجه أحد إلى سواه إلا حين يضل عن مناط السؤال ومعقد الرجاء ومظنة الجواب . وماذا يملك الفاني للفاني وماذا يملك المحتاج للمحتاج ؟

وهو - سبحانه - كل يوم هو في شأن . وهذا الوجود الذي لا تعرف له حدود ، كله منوط بقدره ، متعلق بمشيئته ، وهو قائم بتدبيره . هذا التدبير الذي يتناول الوجود كله جملة ، ويتناول كل فرد فيه على حدة ، ويتناول كل عضو وكل خلية وكل ذرة . ويعطي كل شيء خلقه ، كما يعطيه وظيفته ، ثم يلحظه وهو يؤدي وظيفته .

هذا التدبير الذي يتبع ما ينبت وما يسقط من ورقة ، وما يكمن من حبة في ظلمات الأرض ، وكل رطب وكل يابس . يتبع الأسماك في بخارها ، والديدان في مسارها ، والحشرات في مخابثها . والوحوش في أوكارها ، والطيور في أعشاشها . وكل بيضة وكل فرخ . وكل جناح . وكل ريشة . وكل خلية في جسم حي . وصاحب التدبير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يند عن علمه ظاهر ولا خاف ..

ومن هذا الشأن شأن العباد في الأرض من إنس وجن . ومن ثم فهو يواجههما بهذه النعمة مواجهة التسجيل والإشهاد : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

* * *

وبتقرير حقيقة البقاء وراء الفناء ، وما ينبثق منها من حقيقة الاتجاه الكلي إلى الواحد الباقي ، وتعلق مشيئته - سبحانه - بشئون الخلائق وتقديرها وتدبيرها ، فضلاً منه ومنة على العباد ..

بتقرير هذه الحقيقة الكلية وما ينبثق عنها من حقائق ينتهي الاستعراض الكوني ، ومواجهة الجن والإنس به ، ويبدأ مقطع جديد . فيه تهديد وفيه وعيد . تهديد مرعب مفزع ، ووعيد مزلزل مضعضع . تمهيداً لهول القيامة الذي يطالع الثقلين في سياق السورة بعد ذاك :

« سنفـرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا . لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

« سنفـرغ لكم أيها الثقلان » ..

يا للهول المرعب المزلزل ، الذي لا يثبت له إنس ولا جان . ولا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم والأفلاك !

الله . جل جلاله . الله القوي القادر ، القهار الجبار ، الكبير المتعال . الله - سبحانه - يفرغ لحساب هذين الخلقين الضعيفين الصغيرين : الجن والإنس ، في وعيد وانتقام !
إنه أمر . إنه هول . إنه فوق كل تصور واحتمال !

والله - سبحانه - ليس مشغولاً فيفرغ . وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشري . وإيقاع الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة ، تسحق الكيان بمجرد تصورهما سحقاً . فهذا الوجود كله نشأ بكلمة . كلمة واحدة . كن فيكون . وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر .. فكيف يكون حال الثقليين ، والله يفرغ لهما وحدهما ، ليتولاهما بالانتقام ؟ !

وفي ظل هذا الهول الرعب يسأل الثقليين المسكينين : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !
ثم يمضي في الإيقاع المرعب المزلزل ، يتحدث لهما أن ينفذا من أقطار السماوات والأرض :
« يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا » ..
وكيف ؟ وأين ؟

« لا تنفذون إلا بسلطان » .

ولا يملك السلطان إلا صاحب السلطان ..

ومرة أخرى يواجههما بالسؤال : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »
وهل بقي في كيانهما شيء يكذب أو يهم بمجرد النطق والبيان ؟ !
ولكن الحملة الساحقة تستمر إلى نهايتها ، والتهديد الرعب يلاحقهما ، والمصير المردى يتمثل لهما :
« يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » ..
« فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

إنها صورة من الهول فوق مألوف البشر - وفوق مألوف كل خلق - وفوق تصور البشر وتصور كل خلق . وهي صورة فريدة ، وردت لها نظائر قليلة في القرآن ، تشبهها ولا تماثلها . كما قال تعالى مرة : « وذرنى المكدنين أولي النعمة » .. وكما قال : « ذرنى ومن خلقت وحيداً » .. وما يزال قوله تعالى : « سنفرغ لكم أيها الثقلان » .. أعنف وأقوى وأرعب وأدهى ..

* * *

ومن هنا إلى نهاية السورة تبدأ مشاهد اليوم الآخر . مشهد الانقلاب الكوني يوم القيامة . وما يعقبه من مشاهد الحساب . ومشاهد العذاب والثواب .

ويبدأ استعراض هذه المشاهد بمشهد كوني يتناسب مع مطالع السورة ومجالها الكوني :
« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .

وردة حمراء ، سائلة كالدهان .. ومجموع الآيات التي وردت في صفة الكون يوم القيامة تشير كلها إلى وقوع دمار كامل في هذه الأفلاك والكواكب ، بعد انفلاتها من النسق الذي يحكمها الآن ، وينسق بين مداراتها وحركاتها . منها هذه الآية . ومنها : « إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت هباء منبثاً » .. ومنها : « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » .. ومنها : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت » ..

ومنها : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انثرت . وإذا البحار فجرت » .. ومنها : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .. وهذه وغيرها تشير إلى ذلك الحادث الهائل الذي سيقع في الكون كله . ولا يعلم حقيقته إلا الله ..

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » ولا تكذيب عندئذ ولا نكران .. « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .. وذلك في موقف من مواقف ذلك اليوم المشهود . الذي ستكون فيه مواقف شتى . منها ما يسأل فيه العباد ، ومنها ما لا يسألون فيه عن شيء . ومنها ما تجادل كل نفس عن نفسها ، وما تلقي به التبعة على شركائها ، ومنها ما لا يسمح فيه بكلمة ولا جدال ولا خصام ! فهو يوم طويل مديد . وكل موقف من مواقفه هائل مشهود .

وهنا موقف : لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان . ذلك حين تعرف صفة كل فرد وعمله . وتبدو في الوجوه معالم الشقوة سواداً ، ومعالم النجوة بياضاً ، ويظهر هذا وذاك في سيما الوجوه . ففي هذا الموقف هل من تكذيب ونكران : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

« يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » .

وهو مشهد عنيف ومع العنف الهوان . حيث تجمع الأقدام إلى الجباه ، ثم يقذف المجرمون على هذه الهيئة إلى النار .. فهل حينئذ من تكذيب أو نكران ؟

وبينا المشهد معروض ، والأخذ بالنواصي والأقدام والقذف في النار مستمر ، يلتفت السياق إلى شهود هذا الاستعراض ، وكأنهم حاضرون عند تلاوة السورة فيقول لهم :

« هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون » .. هذه هي حاضرة معروضة - كما ترون - « يطوفون بينها وبين حميم آن » .. متناه في الحرارة كأنه الطعام الناضج على النار ! وهم يتراوحون بين جهنم وبين هذا السائل الآتي . انظروا إنهم يطوفون الآن ! « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » !

هذه ضفة العذاب الأليم . والآل إلى ضفة النعيم والتكريم :

« ولمن خاف مقام ربه جنتان » ..

وللمرة الأولى - فيما مر بنا من سور القرآن - تذكر الجنتان . والأظهر أنهما ضمن اللجنة الكبيرة المعروفة ! ولكن اختصاصهما هنا بالذكر قد يكون لمرتبتيهما . وسيأتي في سورة الواقعة أن أصحاب اللجنة فريقان كبيران : هما السابقون المقربون . وأصحاب اليمين . ولكل منهما نعيم . فهنا كذلك نلمح أن هاتين الجنتين هما لفريق ذي مرتبة عالية . وقد يكون فريق السابقين المقربين المذكورين في سورة الواقعة . ثم نرى جنتين أخريين من دون هاتين . ونلمح أنهما لفريق يلي ذلك الفريق . وقد يكون هو فريق أصحاب اليمين .

على أية حال فلنشهد الجنتين الأوليين ، ولنعش فيهما لحظات !

إنهما « ذواتا أفنان » .. والأفنان الأغصان الصغيرة الندية . فهما رiantان نضرتان .

« فيهما عينان تجريان » .. فهاؤهما غزير ، وسهل يسير .

« فيهما من كل فاكهة زوجان » .. ففاكهتهما منوعة كثيرة وفيرة .

وأهل الجنتين ما حالهم ؟ إننا ننظرهم : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق » والإستبرق المخمل الحرير السميك . فكيف بظواهر هذه الفرش إذا كانت تلك بطائنها ؟

« وجنى الجنتين دان » .. قريب التناول ، لا يتعب في قطاف .
ولكن هذا لا يستقصي ما فيهما من رفاة ومتاع . فهناك بقية بهيجة لهذا المتاع :
« فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » .. فهن عفيفات الشعور والنظر . لا تمتد أبصارهن إلى غير أصحابهن ، مصونات لم يمسهن إنس ولا جن .
وهن - بعد هذا - ناضرات لامعات : « كأنهن الياقوت والمرجان » .
ذلك كله جزاء من خاف مقام ربه ، وعبدته كأنه يراه ، شاعراً أن ربه يراه ، فبلغ بذلك مرتبة الإحسان كما وصفها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا جزاء الإحسان من عطاء الرحمن :
« هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ »

وفي معرض الإنعام والإحسان ، كان التعقيب يجيء في موضعه بعد كل فقرة : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ »
والآن إلى الفريق الآخر صاحب الجنتين الآخرين .
« ومن دونهما جنتان » .. وأوصافهما أدنى من الجنتين السابقتين . فهما :
« مدهامتان » .. أي مخضرتان خضرة تميل إلى السواد لما فيهما من أعشاب .
« فيهما عينان نضاختان » .. تنضجان بالماء . وهذا دون الجريان !
« فيهما فاكهة ونخل ورمان » .. وهناك : « من كل فاكهة زوجان »
« فيهن خيرات حسان » .. بسكون ياء خيرات أو بتشديدها على الوصف . وتأويل الخيرات بالسكون أو الخيرات بالتشديد في الآية التالية :

« حور مقصورات في الخيام » .. وتلقي الخيام ظل البداوة . فهو نعيم بدوي أو يمثل مطالب أهل البداوة ..
والحور مقصورات . أما حور الجنتين السابقتين فهن قاصرات الطرف .
« لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان » .. فهن يشتركن مع زميلاتهن هناك في الصون والعفاف .
أما أهل هاتين الجنتين فنحن ننظرهما :

« متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان » .. والرفرف الأبسطة وكأنها من صنع « عبقري » لتقريب وصفها إلى العرب ، وقد كانوا ينسبون كل عجيب إلى وادي الجن : عبقري ! ولكن المتكآت هناك بطائنها من إستبرق .
وهناك جنى الجنتين دان فهما مرتبتان مختلفتان !
وهناك كذلك كان التعقيب بعد كل صفة للجنتين ونعيمهما : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .

* * *

وفي ختام السورة التي استعرضت آلاء الله في الكون ، وآلاءه في الخلق ، وآلاءه في الآخرة . يجيء الإيقاع الأخير ، تسييحاً باسم الجليل الكريم ، الذي يفني كل حي ، ويبقى وجهه الكريم .
« تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » ..
أنسب ختام لسورة الرحمن ..

* * *

(٥٦) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سِتُّ وَتِسْعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَبِسَ لَوْقَعَهَا كَاذِبَةٌ ② خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ③ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ④ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ
 بَسًا ⑤ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ⑥ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ⑦ فَأَصْحَبُ الِأَيْمَنِ مَأْصَحِبُ الِأَيْمَنِ ⑧
 وَأَصْحَبُ الِأَيْمَنِ مَأْصَحِبُ الِأَيْمَنِ ⑨ وَالسَّيْقُونِ السَّيْقُونَ ⑩ أُولَئِكَ الِأَقْرَبُونَ ⑪ فِي جَنَّتِ
 النَّعِيمِ ⑫ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ⑬ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ⑭ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ⑮ مُتَكِينِينَ عَلَيْهِا مُتَقَلِّدِينَ ⑯
 يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ⑰ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ⑱ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ⑲
 وَفَلَكِهِم مَّا يَتَخِرَّوْنَ ⑳ وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ㉑ وَحُورٌ عِينٌ ㉒ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الِالْمَكْنُونِ ㉓
 جَرَاءٍ، بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ㉔ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْنِيًا ㉕ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ㉖
 وَأَصْحَبُ الِأَيْمَنِ مَأْصَحِبُ الِأَيْمَنِ ㉗ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ㉘ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ㉙ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ㉚
 وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ㉛ وَفَلَكِهِ كَثِيرٌ ㉜ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ㉝ وَفُرُشٌ مَّرْفُوعَةٍ ㉞ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ
 إِنْسَاءً ㉟ بَجَعَلْنَهُنَّ أَبْكَارًا ㊱ عُرُبًا أَتْرَابًا ㊲ لِأَصْحَابِ الِأَيْمَنِ ㊳ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ㊴ وَثُلَّةٌ مِنَ
 الْآخِرِينَ ㊵

وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَأْصَحِبُ الشِّمَالِ ㊶ فِي سُمُورٍ وَحِيمٍ ㊷ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ㊸ لَا بَارِدٍ وَلَا
 كَرِيمٍ ㊹ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ㊺ وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْهَنَةِ الْعَظِيمِ ㊻ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا

وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ۖ أَءَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنِّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ
إِلَىٰ مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَهْبَاءُ لَالْضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُفُورٍ ﴿٥٢﴾
فَإِكونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرَبَ أَهْلِهِمْ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ
الَّذِينَ ﴿٥٦﴾

نَحْنُ خَلَقْنَكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ
قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ
عَلِمْتَ النِّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾
أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ ﴿٦٧﴾
أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا
تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَمَنْعًا
لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
* فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ
مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾
أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾
وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ
مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾
فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾

فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَتُرْلَ مِنْ حِمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ
جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾

إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

الواقعة .. اسم للسورة وبيان لموضوعها معاً . فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة
الآخرة ، رداً على قولة الشاكين فيها ، المشركين بالله ، المكذبين بالقرآن : « إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا
لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » ..

ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة . وصفها بصفتها التي تنهي كل قول ، وتقطع كل شك ، وتشعر بالجزم
في هذا الأمر .. الواقعة .. « إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة » .. وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه
عن كل يوم ، حيث تتبدل أقدار الناس ، وأوضاع الأرض ، في ظل الهول الذي يبذل الأرض غير الأرض ،
كما يبذل القيم غير القيم سواء : « خافضة رافعة .. إذا رجت الأرض رجاً ، وبست الجبال بساً ، فكانت
هباءً منبثاً . وكنتم أزواجاً ثلاثة ... الخ » .

ثم تفصل السورة مصائر هذه الأزواج الثلاثة : السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . وتصف ما
يلقون من نعم وعذاب وصفاً مفصلاً أوفى تفصيل ، يوقع في الحس أن هذا أمر كائن واقع ، لا مجال للشك
فيه ، وهذه أدق تفصيلاته معروضة للعيان . حتى يرى المكذبون رأي العين مصيرهم ومصير المؤمنين . وحتى
يقال عنهم هنالك بعد وصف العذاب الألم الذي هم فيه : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون
على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون » .. وكأن العذاب
هو الحاضر والدنيا هي الماضي الذي يذكر للترذيل والتقبيح . ترذيل حالهم في الدنيا وتقبيح ما كانوا عليه من
تكذيب !

وبهذا ينتهي الشوط الأول من السورة . ويبدأ شوط جديد يعالج قضية العقيدة كلها ، متوخياً تأكيد قضية
البعث التي هي موضوع السورة الأول ، بلمسات مؤثرة ، يأخذ مادتها وموضوعها مما يقع تحت حس البشر ،
في حدود المشاهدات التي لا تخلو منها تجربة إنسان ، أياً كانت بيئته ، ودرجة معرفته وتجربته .

يعرض نشأتهم الأولى من مني^١ يمى . ويعرض موتهم ونشأة آخرين مثلهم من بعدهم في مجال التدليل على
النشأة الأخرى ، التي لا تخرج في طبيعتها ويسرها عن النشأة الأولى ، التي يعرفونها جميعاً .

ويعرض صورة الحرث والزرع ، وهو إنشاء للحياة في صورة من صورها . إنشاؤها بيد الله وقدرته . ولو
شاء الله لم تنشأ ، ولو شاء لم تؤت ثمارها .

ويعرض صورة الماء العذب الذي تنشأ به الحياة كلها . وهو معلق بقدره الله ينزله من السحاب . ولو شاء
جعله ملحاً أجاجاً ، لا ينبت حياة ، ولا يصلح لحياة .

وصورة النار التي يوقدون ، وأصلها الذي تنشأ منه .. الشجر .. وعند ذكر النار يلمس وجدانهم منذراً .
ويذكرهم بنار الآخرة التي يشكون فيها .

وكلها صور من مألوفات حياتهم الواقعة ، يلمس بها قلوبهم ، ولا يكلفهم فيها إلا البقطة ليد الله وهي تنشئها وتعمل فيها .

كذلك يتناول هذا الشوط قضية القرآن الذي يحدثهم عن « الواقعة » فيشكون في وعيده . فيلوح بالقسم بمواقع النجوم ، ويعظم من أمر هذا القسم لتوكيد أن هذا الكتاب هو قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه تنزيل من رب العالمين .

ثم يواجههم في النهاية بمشهد الاحتضار . في لمسة عميقة مؤثرة . حين تبلغ الروح الحلقوم ، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر ؛ ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين ، لا يملكون له شيئاً ، ولا يدرون ما يجري حوله ، ولا ما يجري في كيانه . ويخلص أمره كله لله ، قبل أن يفارق هذه الحياة . ويرى هو طريقه المقبل ، حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير !

ثم تختم السورة بتوكيد الخبر الصادق ، وتسبيح الله الخالق : « إن هذا هو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .. فيلتثم المطلع والختام أكمل التثام ..

* * *

« إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجاً . وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثاً ... » .

هذا المطلع واضح فيه التهويل في عرض هذا الحدث الهائل . وهو يتبع أسلوباً خاصاً يلحظ فيه هذا المعنى ، ويتناسق مع مدلولات العبارة . فترتين يبدأ بإذا الشرطية يذكر شرطها ولا يذكر جوابها . « إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة » . ولا يقول : ماذا يكون إذا وقعت الواقعة وقعة صادقة ليس لها كاذبة ، وهي خافضة رافعة . ولكن يبدأ حديثاً جديداً : « إذا رجت الأرض رجاً . وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثاً » . . ومرة أخرى لا يقول : ماذا يكون إذا كان هذا الهول العظيم . . فكأنما هذا الهول كله مقدمة ، لا يذكر نتأججها ، لأن نتأججها أهول من أن يحيط بها اللفظ ، أو تعبر عنها العبارة !

هذا الأسلوب الخاص يتناسب مع الصورة المروعة المفزعة التي يرسمها هذا المطلع بذاته . فالواقعة بمعناها وبحرس اللفظ ذاته - بما فيه من مدّ ثم سكون - تلقى في الحس كأنما هي ثقل ضخمة ينقض من علّ ثم يستقر ، لغير ما زحزحة بعد ذلك ولا زوال ! « ليس لوقعتها كاذبة » ..

ثم إن سقوط هذا الثقل ووقوعه ، كأنما يتوقع له الحس أرجحة ورجحة يحدثها حين يقع . ويلبي السياق هذا التوقع فإذا هي : « خافضة رافعة » .. وإنها لتخفض أقداراً كانت رفيعة في الأرض ، وترفع أقداراً كانت خفوضة في دار الفناء ، حيث تختل الاعتبارات والقيم ؛ ثم تستقيم في ميزان الله .

ثم يتبدى الهول في كيان هذه الأرض . الأرض الثابتة المستقرة فيما يحس الناس . فإذا هي ترج رجاً - وهي حقيقة تذكر في التعبير الذي يتسق في الحس مع وقع الواقعة - ثم إذا الجبال الصلبة الراسية تتحول - تحت وقع الواقعة - إلى فتات يتطاير كالهباء .. « وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثاً » .. فما أهول هذا الهول الذي يرج الأرض رجاً ، ويبس الجبال بساً ، ويتركها هباء منبثاً . وما أجهل الذين يتعرضون له وهم مكذبون بالآخرة ، مشركون بالله ، وهذا أثره في الأرض والجبال !

وهكذا تبدأ السورة بما يزلزل الكيان البشري ، ويهول الحس الإنساني ، تجاه القضية التي ينكرها المنكرون ،

ويكذب بها المشركون . وينتهي هذا المشهد الأول للواقعة لنشهد آثارها في الخفض والرفع ، وفي أقدار البشر ومصائرهم الأخيرة :

« وكنتم أزواجاً ثلاثة . فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ وأصحاب المشأمة . ما أصحاب المشأمة ؟ والسابقون السابقون ... »

ونجد الناس هنا أصنافاً ثلاثة - لا صنفين اثنين كما هو السائد في مشاهد الاستعراض القرآنية - ويبدأ بالحديث عن أصحاب الميمنة - أو أصحاب اليمين - ولكنه لا يفصل عنهم الحديث إنما يصفهم باستفهام عنهم للتحويل والتضخيم : « فأصحاب الميمنة . ما أصحاب الميمنة ؟ » . وكذلك يذكر أصحاب المشأمة بنفس الأسلوب . ثم يذكر الفريق الثالث ، فريق السابقين ، يذكرهم فيصفهم بوصفهم : « والسابقون السابقون » .. كأنما ليقول إنهم هم هم . وكفى . فهو مقام لا يزيده الوصف شيئاً !

ومن ثم يأخذ في بيان قدرهم عند ربهم ، وتفصيل ما أعده من النعم لهم ، وتعدد أنواعه التي يمكن أن يدركها حس المخاطبين ، وتتناوله معارفهم وتجاربهم :

« أولئك المقربون . في جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون . لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيلاً . إلا قيلاً : سلاماً سلاماً .. »

إنه يبدأ في بيان هذا النعيم ، بالنعيم الأكبر . النعيم الأسنى . نعيم القرب من ربهم : « أولئك المقربون في جنات النعيم » .. وجنات النعيم كلها لا تساوي ذلك التقريب ، ولا تعدل ذلك النصيب .

ومن ثم يقف عند هذه الدرجة ليقول من هم أصحابها .. إنهم : « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » .. فهم عدد محدود . وفريق متني . كثرتهم في الأولين وقلتهم في الآخرين . واختلفت الروايات في من هم الأولون ومن هم الآخرون . فالقول الأول : إن الأولين هم السابقون إلى الإيمان ذوو الدرجة العالية فيه من الأمم السابقة قبل الإسلام . وإن الآخرين هم السابقون إلى الإسلام ذوو البلاء فيه .. والقول الثاني : إن الأولين والآخرين هم من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فالأولون من صدرها ، والآخرون من متأخريها . وهذا القول الثاني رجحه ابن كثير . وروى في ترجيحه للحسن وابن سيرين : قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد ابن الصباح ، حدثنا عفان ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر المزني ، سمعت الحسن أتى على هذه الآية : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » فقال : « أما السابقون فقد مضوا ولكن اللهم اجعلنا من أصحاب اليمين » .. ثم قال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد ، حدثنا السري بن يحيى . قال : قرأ الحسن : « والسابقون السابقون . أولئك المقربون في جنات النعيم . ثلة من الأولين » .. قال : ثلة ممن مضى من هذه الأمة » .. وحدثنا أبي ، حدثنا عبد العزيز بن المغيرة المقرئ ، حدثنا أبو هلال ، عن محمد بن سيرين ، أنه قال في هذه الآية : « ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » .. قال : كانوا يقولون ، أو يرجون ، أن يكونوا كلهم من هذه الأمة .

وبعد بيان من هم يأخذ في تفصيل مناعم الجنة التي أعدت لهم . وهي بطبيعة الحال المناعم التي في طوقهم أن يتصوروها ويدركوها ؛ ووراءها مناعم أخرى يعرفونها هنالك يوم يتهاون لإدراكها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !

« على سرر موضونة » .. مشبكة بالمعادن الثمينة . « متكئين عليها متقابلين » . في راحة وخلو بال من المهموم

والمشاغل ، وفي طمأنينة على ما هم فيه من نعيم ، لا خوف من فوته ولا نفاذه وفي إقبال بعضهم على بعض يتسامرون . . « يطوف عليهم ولدان مخلدون » . . لا يفعل فيهم الزمن ، ولا تؤثر في شبابهم وصباحتهم السن كأشباههم في الأرض . يطوفون عليهم « بأكواب وأباريق وكأس من معين » . . من خمر صافية سائغة « لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون » . . فلا هم يفرقون عنها ولا هي تنفد من بين أيديهم . فكل شيء هنا للدوام والأمان . « وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون » . . فهنا لا شيء ممنوع ، ولا شيء على غير ما يشتهي السعداء الخالدون . « وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » . . واللؤلؤ المكنون هو اللؤلؤ المصون ، الذي لم يتعرض للمس والنظر ، فلم تثقبه يد ولم تحدشه عين ! وفي هذا كناية عن معان حسية ونفسية لطيفة في هؤلاء الحور الواسعات العيون . وذلك كله : « جزاء بما كانوا يعملون » . . فهو مكافأة على عمل كان في دار العمل . مكافأة يتحقق فيها الكمال الذي كان ينقص كل المتاعم في دار الفناء . ثم هم بعد ذلك كله يحيون في هدوء وسكون ، وفي ترفع وتزيه عن كل لغو في الحديث ، وكل جدل وكل مؤاخذه : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قيلاً : سلاماً سلاماً » . . حياتهم كلها سلام . يرف عليها السلام . ويشيع فيها السلام . تسلم عليهم الملائكة في ذلك الجو الناعم الآمن ؛ ويسلم بعضهم على بعض . ويلبغهم السلام من الرحمن . فالجو كله سلام سلام . . فإذا انتهى الحديث عن ذلك الفريق السابق المختار ، بدأ الحديث عن الفريق الذي يليه : فريق أصحاب اليمين :

« وأصحاب اليمين . ما أصحاب اليمين ؟ في سدر مخضود ، وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة . إنا أنشأنهن إنشاءً . فجعلناهن أبكاراً . عرباً أتراباً . لأصحاب اليمين . ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » . .
وأصحاب اليمين هم أصحاب الميمنة الذين أشار إليهم تلك الإشارة المجملية في أول السورة . ثم آخر تفصيل نعيمهم ، إلى موعده هنا بعد السابقين المقربين . وهو يعيد السؤال عنهم بتلك الصيغة التي تفيد التفخيم والتهويل : « ما أصحاب اليمين ؟ » . .

ولأصحابنا هؤلاء نعيم مادي محسوس ، يبدو في أوصافه شيء من خشونة البداوة ، ويلبي هواتف أهل البداوة حسبما تبلغ مداركهم وتجاربهم من تصور ألوان النعيم !

إنهم « في سدر مخضود » . . والسدر شجر النبق الشائك . ولكنه هنا مخضود شوكه ومزروع . « وطلح منضود » . . والطلح شجر من شجر الحجاز من نوع العضاة فيه شوك . ولكنه هنا منضود معد للتناول بلا كد ولا مشقة . « وظل ممدود ، وماء مسكوب » . . وتلك جميعاً من مراتع البدوي ومناعمه ، كما يطمح إليها خياله وتهتف بها أشواقه ! « وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة » . . تركها مجملة شاملة بغير تفصيل بعد ما ذكر الأنواع المعروفة لسكان البادية بالتعيين . « وفرش مرفوعة » . . وهي هنا لا موضونة ولا ناعمة . وبحسبها أنها مرفوعة . وللرفع في الحس معنيان . مادي ومعنوي يستدعي أحدهما الآخر ، ويلتقيان عند الارتفاع في المكان والطهارة من الدنس . فالرفوع عن الأرض أبعد عن نجسها . والرفوع في المعنى أبعد عن دنسها . ولهذا ينتقل السياق من الفرش المرفوعة إلى ذكر من فيها من الأزواج : « إنا أنشأنهن إنشاءً » إما ابتداء وهن الحور . وإما استئنافاً وهن الزوجات المبعوثات شواب : « فجعلناهن أبكاراً » لم يمسن « عرباً » . . متحبيات إلى أزواجهن « أتراباً » متوافيات السن والشباب . « لأصحاب اليمين » . . مخصصات لهم . ليتسقى ذلك مع « الفرش المرفوعة » . . فأما أصحاب اليمين هؤلاء فهم « ثلة من الأولين وثلة من الآخرين » . . فهم أكثر عدداً من السابقين المقربين .

على الاعتبارين اللذين ذكرناهما في معنى الأولين والآخرين .

وهنا يصل بنا السياق إلى أصحاب الشمال - وهم أصحاب المشأمة الذين سبقت الإشارة إليهم في مطلع السورة :
« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فثالثون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين » . .

فلئن كان أصحاب اليمين في ظل ممدود وماء مسكوب . . فأصحاب الشمال « في سموم وحميم . وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم » . . فلهواء شواظ ساخن ينفذ إلى المسام ويشوي الأجسام . والماء متناه في الحرارة لا يُبرد ولا يُروي . وهناك ظل ! ولكنه « ظل من يحموم » . . ظل الدخان اللافح الخائق . . إنه ظل للسخرية والتهمك . ظل « لا بارد ولا كريم » . . فهو ظل ساخن لا رُوح فيه ولا برد ؛ وهو كذلك كز لا يمنح وراثة راحة ولا إنعاشاً ! . . هذا الشظف كله جزاء وفاق : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » . . وما ألم الشظف للمترفين ! « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » . . والحنث الذنب . وهو هنا الشرك بالله . وفيه إلماع إلى الحنث بالعهد الذي أخذه الله على فطرة العباد أن يؤمنوا به ويوحده . « وكانوا يقولون : إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون ؟ أو آباؤنا الأولون ؟ » كانوا . . . هكذا يعبر القرآن ، كأنما الدنيا التي فيها المخاطبون قد طويت وانتهت فإذا هي ماض . والحاضر هو هذا المشهد وهذا العذاب ! ذلك أن الدنيا كلها ومضة . وهذا الحاضر هو العقبى والمآب .

وهنا يلتفت السياق إلى الدنيا في أنسب الأوقات لهذه اللفتة ليرد على سؤالهم ذاك : « قل : إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم » . . هو هذا اليوم الحاضر المعروض المشهود !
ثم يعود إلى ما ينتظر المكذبين . فيتم صورة العذاب الذي يلقاه المترفون :

« ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم » . . ولا يدري أحد ما شجرة الزقوم إلا ما وصفها الله به في سورة أخرى من أن طلعتها كرؤوس الشياطين . ورؤوس الشياطين لم يرها أحد ولكنها تلقي في الحس ما تلقيه ! على أن لفظ « الزقوم » نفسه يصور بحرسه ملمساً خشناً شائكاً مديباً يشوك الأكف - بله الحلق - وذلك في مقابل السدر المخضود والطلع المنضود - ومع أن الزقوم كرؤوس الشياطين ! فإنهم لآكلون منها « فثالثون منها البطون » . . فالجوع طاغ والمحنة غالبية . . وإن الشوك الخشن ليدفع إلى الماء لتسليك الحلق وري البطون ! وإنهم لشاربون « فشاربون عليه من الحميم » . . الساخن الذي لا يبرد غلة ولا يروي ظمأ . « فشاربون شرب الهيم » . . وهي الإبل المصابة بداء الاستسقاء لا تكاد ترتوي من الماء ! « هذا نزلهم يوم الدين » . . والتزل للراحة والاستقرار . ولكن أصحاب الشمال هذا نزلهم الذي لا راحة فيه ولا قرار ! هذا نزلهم في اليوم الذي كانوا يشكون فيه ، ويتساءلون عنه ، ولا يصدقون خبر القرآن به . كما كانوا يشركون بالله ولا يخافون وعيده بذلك اليوم المشهود . .

بهذا ينتهي استعراض المصائر والأقدار ، يوم تقع الواقعة . الخافضة الرافعة . وينتهي كذلك الشوط الأول من السورة .

فأما الشوط الثاني في السورة فيستهدف بناء العقيدة بكليتها ، وإن كان التوكيد البارز فيه على قضية البعث والنشأة الأخرى . وفيه تتجلى طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية ، وفي تناول الدلائل الإيمانية ، وفي التلطف إلى النفوس في بساطة ويسر ، وهو يتناول أكبر الحقائق في صورها القريبة الميسورة ..

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى ؛ يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود ؛ وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود . كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير ؛ وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة في المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التي تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ؛ ويقظة لأنفسهم وما يجري من العجائب والخوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الغدّة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيداً عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم .. إنه لا يُبعد لهم في فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد .. لكي ينشئ في نفوسهم عقيدة ، وتصوراً للكون والحياة قائماً على هذه العقيدة . إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة في كل ما تبدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوثة في الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم ، التي يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم لها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ؛ فتطلع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبعدة ، وسر الوجدانية المفردة ، وسر الناموس الأزلي الذي يعمل في كيانه هم أنفسهم كما يعمل في الكون من حولهم ؛ والذي يحمل دلائل الإيمان ، وبراهين العقيدة ، فيبثها في كيانه ، أو يوقظها في فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير في هذا الشوط من السورة ؛ وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبعدة في خلقهم هم أنفسهم . وفي زرعهم الذي تزاوله أيديهم . وفي الماء الذي يشربون . وفي النار التي يوقدون - وهي أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم - كذلك يصور لهم لحظة النهاية . نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة في العالم الآخر . اللحظة التي يواجهها كل أحد ، والتي تنتهي عندها كل حيلة ، والتي تقف الأحياء وجهاً لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة ، لا محاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأفتنة ، وتبطل جميع التعلات .

إن طريقة القرآن في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره .. إنه المصدر الذي صدر منه الكون . فطريقة بنيانه هي طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق .. الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ، والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة .. والذرة على صغرها معجزة في ذاتها . والخلية على ضآلتها آية في ذاتها .. وهنا في القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني .. المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل . والزرع . والماء . والنار . والموت .. أي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه ؟ أي ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة نبتة . ومسقط ماء . وموقد نار . ولحظة وفاة ؟ .. من هذه المشاهدات التي رآها كل إنسان ينشئ القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان في كل بيته .. وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة هي بذاتها أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية - بالإضافة إلى الإشارة إلى مواقع النجوم - فهي في بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان . وهي في حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان :

مواقع النجوم تعني هندسة الكون .

نشأة الحياة الإنسانية .. وهي سر الأسرار .

نشأة الحياة النباتية .. وهي كالحياة الحيوانية معجزة المعجزات .

والماء .. أصل الحياة .

والنار .. المعجزة التي صنعت الحضارة الإنسانية .

هذه الطريقة في تناول الأشياء ، وبناء العقيدة والتفكير ، ليست طريقة البشر . فالبشر حين يخوضون في هذه المجالات لا يلتفتون إلى هذه المواد الأولية التي هي بذاتها المواد الكونية . وإذا التفتوا إليها لم يتناولوها بهذا اليسر وبهذه البساطة . بل يحاولون وضع المسألة في قالب فلسفي تجريدي معقد ، لا يصلح إلا لخطاب طبقة خاصة من الناس !

أما الله فطريقته هي هذه .. تناول المواد الأولية التي هي بذاتها المواد الكونية . وبناء العقيدة بها في سر وسهولة . تماماً كما يصنع - سبحانه - في تناول المواد الأولية التي هي مواد كونية ويصنع منها الكون .. هذا من ذاك . وعلامة الصنعة واحدة ، واضحة هنا وهناك !

* * *

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفأنتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » ..

إن هذا الأمر أمر النشأة الأولى ونهايتها . أمر الخلق وأمر الموت . إنه أمر منظور ومألوف وواقع في حياة الناس . فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم ؟ إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري أو يجادل فيه : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! » ..

« أفأنتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » ..

إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يُمني رحمَ امرأة . ثم ينقطع عمله وعملها . وتأخذ يد القدرة في العمل وحدها في هذا الماء المهيّن . تعمل وحدها في خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ، ونفخ الروح فيه . ومنذ اللحظة الأولى وفي كل لحظة تالية تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التي لا يصنعها إلا الله . والتي لا يدري البشر كنهها وطبيعتها ؛ كما لا يعرفون كيف تقع . بله أن يشاركوا فيها !

وهذا القدر من التأمل يدركه كل إنسان . وهذا يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها . ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تمني ، إلى أن تصير خلقاً ، قصة أغرب من الخيال . قصة لا يصدقها العقل لولا أنها تقع فعلاً ، ويشهد وقوعها كل إنسان !

هذه الخلية الواحدة تبدأ في الانقسام والتكاثر ، فإذا هي بعد فترة ملايين الملايين من الخلايا . كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة ذات خصائص تختلف عن خصائص المجموعات الأخرى ؛ لأنها مكلفة أن تنشئ جانباً خاصاً من المخلوق البشري ! فهذه خلايا عظام . وهذه خلايا عضلات . وهذه خلايا جلد . وهذه خلايا أعصاب .. ثم .. هذه خلايا لعمل عين . وهذه خلايا لعمل لسان . وهذه خلايا لعمل أذن . وهذه خلايا لعمل غدد .. وهي أكثر تخصصاً من المجموعات السابقة .. وكل منها تعرف مكان عملها ، فلا تخطئ خلايا العين

مثلاً ، فقتلع في البطن أو في القدم . مع أنها لو أخذت أخذاً صناعياً فزرعت في البطن مثلاً صنعت هنالك عيناً ! ولكنها هي بإلهامها لا تخطئ فتذهب إلى البطن لصنع عين هناك ! ولا تذهب خلایا الأذن إلى القدم لتصنع أذناً هناك !.. إنها كلها تعمل وتنشئ هذا الكيان البشري في أحسن تقويم تحت عين الخالق ، حيث لا عمل للإنسان في هذا المجال^١

هذه هي البداية . أما النهاية فلا تقل عنها إعجازاً ولا غرابة . وإن كانت مثلها من مشاهدات البشر المألوفة :
« نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين » ..

هذا الموت الذي ينتهي إليه كل حي .. ما هو ؟ وكيف يقع ؟ وأي سلطان له لا يقاوم ؟
إنه قدر الله .. ومن ثم لا يفلت منه أحد ، ولا يسبقه فيفوته أحد .. وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بد أن تتكامل ..

« على أن نبدل أمثالكم » ..

لعمارة الأرض والخلافة فيها بعدكم . والله الذي قدر الموت هو الذي قدر الحياة . قدر الموت على أن ينشئ أمثال من يموتون ، حتى يأتي الأجل المضروب لهذه الحياة الدنيا .. فإذا انتهت عند الأجل الذي سماه كانت النشأة الأخرى :

« وننشئكم فيما لا تعلمون » ..

في ذلك العالم المغيب المجهول ، الذي لا يدري عنه البشر إلا ما يخبرهم به الله . وعندئذ تبلغ النشأة تمامها ، وتصل القافلة إلى مقراها .

هذه هي النشأة الآخرة .. « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ! » . فهي قريب من قريب . وليس فيها من غريب .

بهذه البساطة وبهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى والنشأة الآخرة . وبهذه البساطة وهذه السهولة يقف الفطرة أمام المنطق الذي تعرفه ، ولا تملك أن تجادل فيه . لأنه مأخوذ من بديهياتها هي ، ومن مشاهدات البشر في حياتهم القريبة . بلا تعقيد . ولا تجريد . ولا فلسفة تكد الأذهان ، ولا تبلغ إلى الوجدان ..
إنها طريقة الله . مبدع الكون ، وخالق الإنسان ، ومزمل القرآن ...

* * *

ومرة أخرى في بساطة ويسر يأخذ بقلوبهم إلى أمر مألوف لهم ، مكرر في مشاهداتهم ، ليريههم يد الله فيه ؛ ويطلعهم على المعجزة التي تقع بين أيديهم ، وعلى مرأى من عيونهم ، وهم عنها غافلون :
« أفأرأيتم ما تحرثون ؟ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حطاماً ، فظلمت تفكّهون : إنا لمغرمون . بل نحن محرومون » ..

هذا الزرع الذي ينبت بين أيديهم وينمو ويؤتي ثماره . ما دورهم فيه ؟ إنهم يحرثون ويلقون الحب والبذور التي صنعها الله . ثم ينتهي دورهم وتأخذ يد القدرة في عملها المعجز الخارق العجيب .

تأخذ الحبة أو البذرة طريقها لإعادة نوعها . تبدؤه وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق !

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى » في سورة النجم بهذا الجزء .

الذي لا يخطئ مرة كما يخطئ الإنسان في عمله ، ولا ينحرف عن طريقه ، ولا يضل الهدف المرسوم ! إن يد القدرة هي التي تتولى خطاها على طول الطريق .. في الرحلة العجيبة . الرحلة التي ما كان العقل ليصدقها ، وما كان الخيال ليتصورها ، لولا أنها حدثت وتحدث ويراها كل إنسان في صورة من الصور ، ونوع من الأنواع .. وإلا فأني عقل كان يصدق ، وأي خيال كان يتصور أن حبة القمح مثلاً يكن فيها هذا العود وهذا الورق ، وهذه السنبلة ، وهذا الحب الكثير ؟ ! أو أن النواة تكن فيها نخلة كاملة سامقة بكل ما تحتويه ؟ !

أي عقل كان يمكن أن يتناول به الخيال إلى تصور هذه العجيبة . لولا أنه يراها تقع بين يديه صباح مساء ؟ ولولا أن هذه القصة تتكرر على مرأى ومسمع من جميع الناس ؟ وأي إنسان يمكنه أن يدعي أنه صنع شيئاً في هذه العجيبة سوى الحرث وإلقاء البذور التي صنعها الله ؟

ثم يقول الناس : زرعنا !! وهم لم يتجاوزوا الحرث وإلقاء البذور . أما القصة العجيبة التي تمثلها كل حبة وكل بذرة . وأما الخارقة التي تنبت من قلبها وتنمو وترتفع فكلها من صنع الخالق الزارع . ولو شاء لم تبدأ رحلتها . ولو شاء لم تم قصتها . ولو شاء لجعلها حطاماً قبل أن تؤتي ثمارها . وهي بمشيئته تقطع رحلتها من البدء إلى الختام ! ولو وقع هذا لظل الناس يلنون الحديث وينوعونه يقولون : « إنا لمغرمون » : غارمون « بل نحن محرومون » .. ولكن فضل الله يمنحهم الثمر ، ويسمح للنبته أن تم دورتها ، وتكمل رحلتها ، وهي ذاتها الرحلة التي تقوم بها الخلية التي تمنى .. وهي صورة من صور الحياة التي تنشئها القدرة وترعاها . فإذا في النشأة الأخرى من غرابة . وهذه هي النشأة الأولى ؟ ..

* * *

« أفرايتم الماء الذي تشربون ؟ أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجاً . فلولا تشكرون ! »

وهذا الماء أصل الحياة ، وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله . ما دور الإنسان فيه ؟ دوره أنه يشربه . أما الذي أنشأه من عناصره ، وأما الذي أنزله من سحابه ، فهو الله سبحانه . وهو الذي قدر أن يكون عذباً فكان « لو نشاء جعلناه أجاجاً » . مالحاً لا يستساغ ، ولا ينشئ حياة . فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان ؟

والمخاطبون ابتداء بهذا القرآن كان الماء النازل من السحاب ، في صورته المباشرة ، مادة حياتهم ، وموضع احتفالهم ، والحديث الذي يهز نفوسهم ، وقد خلدته قصائدهم وأشعارهم .. ولم تنقص قيمة الماء بتقدم الإنسان الحضاري ، بل لعلها تضاعفت . والذين يشتغلون بالعلم ويحاولون تفسير نشأة الماء الأولى أشد شعوراً بقيمة هذا الحدث من سواهم . فهو مادة اهتمام للبدائي في الصحراء ، وللعالم المشتغل بالأبحاث سواء .

* * *

« أفرايتم النار التي تورون ؟ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين » .. ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثاً عظيماً في حياته . ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته . ولكنها أصبحت أمراً مألوفاً لا يثير الاهتمام .. والإنسان يوري النار : أي يوقدها . ولكن من الذي أنشأ وقودها ؟ من الذي أنشأ الشجر الذي توقد به النار ؟ لقد مر حديث الزرع . والشجر من هذا الزرع .. على أن هناك لفظة أخرى في ذكر « شجرتها » . فمن احتكاك فرع من شجرة بفرع آخر من شجرة أخرى كان العرب يوقدون

نارهم . على الطريقة البدائية التي لا تزال مستعملة في البيئات البدائية حتى الآن . فالأمر أظهر وأقرب إلى تجاربهم المعروفة . أما معجزة النار وسرها عند العلماء الباحثين فهو مجال للبحث والنظر والاهتمام . وبمناسبة ذكر النار يلمع السياق إلى نار الآخرة : « نحن جعلناها تذكرة » تذكر بالنار الأخرى . . كما جعلناها « متاعاً للمقوين » . . أي للمسافرين . وكان لهذه الإشارة وقعها العميق في نفوس المخاطبين ، لما تمثله في واقع حياتهم من مدلول حي حاضر في تجاربهم وواقعهم .

* * *

وحين يبلغ السياق إلى هذا الحد من عرض هذه الحقائق والأسرار ، الناطقة بدلائل الإيمان . الميسرة للقلوب والأذهان . يلتفت إلى الحقيقة التي تنتهي إليها هذه الحقائق . حقيقة وجود الله وعظمته وربوبيته . وهي حقيقة تواجه الفطرة مواجهة ذات قوة وسلطان . فيهب بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحيي هذه الحقيقة ويؤدي حقها ؛ ويلمس القلوب بها في حينها :
« فسبح باسم ربك العظيم » . .

* * *

ثم يلتفت التفاتة أخرى إلى المكذبين بهذا القرآن ؛ فيربط بينه وبين هذا الكون في قسم عظيم من رب العالمين :
« فلا أقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » . .

ولم يكن المخاطبون يومذاك يعرفون عن مواقع النجوم إلا القليل ، الذي يدركونه بعيونهم المجردة . ومن ثم قال لهم : « وإنه لقسم - لو تعلمون - عظيم » . . فأما نحن اليوم فنذكر من عظمة هذا القسم المتعلقة بالمقسم به ، نصيباً أكبر بكثير مما كانوا يعلمون . وإن كنا نحن أيضاً لا نعلم إلا القليل عن عظمة مواقع النجوم . . . وهذا القليل الذي وصلنا إليه بمراصدنا الصغيرة ، المحدودة المناظر ، يقول لنا : إن مجموعة واحدة من مجموعات النجوم التي لا تحصى في الفضاء الهائل الذي لا نعرف له حدوداً . مجموعة واحدة - هي المجرة التي تنتسب إليها أسرتنا الشمسية - تبلغ ألف مليون نجم !

« ويقول الفلكيون إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه . هذه كلها تسبح في الفلك الغامض ؛ ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ، إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادي ، سيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة . وهو احتمال بعيد ، وبعيد جداً . إن لم يكن مستحيلاً » . .

وكل نجم في موقعه المتباعد عن موقع إخوته ، قد وضع هناك بحكمة وتقدير . وهو منسق في آثاره وتأثيراته مع سائر النجوم والكواكب ، لتتوازن هذه الخلائق كلها في هذا الفضاء الهائل .
فهذا طرف من عظمة مواقع النجوم ، وهو أكبر كثيراً جداً مما كان يعلمه المخاطبون بالقرآن أول مرة . وهو في الوقت ذاته أصغر بما لا يقاس من الحقيقة الكلية لعظمة مواقع النجوم !

« فلا أقسم بمواقع النجوم » . . فالأمر أوضح وأجلى من أن يحتاج إلى قسم . . « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » . . وهذا التلويع بالقسم والعدول عنه أسلوب ذو تأثير في تقرير الحقيقة التي لا تحتاج إلى القسم لأنها ثابتة واضحة . . « إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين » . . إنه لقرآن كريم . وليس كما تدعون قول كاهن ، ولا قول مجنون ، ولا مفترى على الله . من أساطير الأولين . ولا تنزلت به الشياطين ! . . إلى آخر هذه الأقاويل . إنما هو قرآن كريم . كريم بمصدره ، وكريم بذاته ، وكريم باتجاهاته .

« في كتاب مكنون » . . مصون . . وتفسير ذلك في قوله تعالى بعدها : « لا يمسه إلا المطهرون » . . فقد زعم المشركون أن الشياطين تنزلت به . فهذا نفي لهذا الزعم . فالشيطان لا يمسه هذا الكتاب المكنون في علم الله وحفظه . إنما تنزل به الملائكة المطهرون . وهذا الوجه هو أظهر الوجوه في معنى « لا يمسه إلا المطهرون » . ف « لا » هنا نافية لوقوع الفعل . وليست ناهية . وفي الأرض يمسه هذا القرآن الطاهر والنجس . والمؤمن والكافر ، فلا يتحقق النفي على هذا الوجه . إنما يتحقق بصرف المعنى إلى تلك الملابس . ملابس قلوبهم : تنزلت به الشياطين . ونفي هذا الزعم إذ لا يمسه في كتابه السماوي المكنون إلا المطهرون . .

ومما يؤيد هذا الاتجاه قوله تعالى بعد هذا : « تنزيل من رب العالمين » . . لا تنزيل من الشياطين ! وقد روي حديثان يقرران معنى آخر . وهو أن لا يمسه القرآن إلا طاهر . . ولكن ابن كثير قال عنهما : « وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره . ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به . وقد أسنده الدارقطني عن عمرو ابن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص . وفي إسناد كل منهما نظر والله أعلم » .

* * *

ثم يأتي الإيقاع الأخير في السورة . . لحظة الموت . . اللمسة التي ترجف لها الأوصال . واللحظة التي تنهي كل جدال . واللحظة التي يقف فيها الحي بين نهاية طريق وبداية طريق . حيث لا يملك الرجوع ولا يملك النكوص : « أفبهذا الحديث أتم مدهنون ؟ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » . . أفأنتم شاكون في هذا الحديث الذي يقال لكم عن النشأة الآخرة ؛ مكذبون بالقرآن وما يقصه عليكم من شأن الآخرة ، وما يقرره لكم من أمور العقيدة ؟ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » . . فإذا التكذيب هو رزقكم الذي تحصلون عليه في حياتكم وتدخرونه لآخرتكم ؟ وما أسوأه من رزق ! فإذا أنتم فاعلون إذ تبلغ الحلقوم ، وتقفون في مفرق الطريق المجهول ؟ ثم يصور الموقف التصوير القرآني الموحى ، الذي يرسم ظلال الموقف كلها في لمسات سريعة ناطقة بكل ما فيه ، وبكل ما وراءه ، وبكل ما يوحيه .

« فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » . . لنكاد نسمع صوت الحشرة ، ونبصر تقبض الملامح ، ونحس الكرب والضيق من خلال قوله : « فلولا إذا بلغت الحلقوم » . . كما نكاد نبصر نظرة العجز وذبول اليأس في ملامح الحاضرين من خلال قوله : « وأنتم حينئذ تنظرون » . .

هنا . في هذه اللحظة . وقد فرغت الروح من أمر الدنيا . وخلفت وراءها الأرض وما فيها . وهي تستقبل

عالمًا لا عهد لها به ، ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما أدرخت من عمل ، وما كسبت من خير أو شر .
 هنا . وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى . وقد انفصلت عن حوّلها وما حولها . الجسد هو الذي يراه
 الناظرون . ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً .
 هنا تقف قدرة البشر ، ويقف علم البشر ، وينتهي مجال البشر .
 هنا يعرفون - ولا يجادلون - أنهم عجزة عجزة . قاصرون قاصرون .
 هنا يسدل الستار دون الرؤية . ودون المعرفة . ودون الحركة .
 هنا تتفرد القدرة الإلهية ، والعلم الإلهي . ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال :
 « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون » !

وهنا يجلل الموقف جلال الله ، ورهبة حضوره - سبحانه وتعالى - وهو حاضر في كل وقت . ولكن التعبير
 يوقظ الشعور بهذه الحقيقة التي يغفل عنها البشر . فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله . فوق ما فيه من
 عجز ورهبة وانقطاع ووداع .

وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال :
 « فلولاً إن كنتم غير مدينين : ترجعونها إن كنتم صادقين ! »
 فلو كان الأمر كما تقولون : إنه لا حساب ولا جزاء . فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين . فدونكم
 إذن فلترجعوها - وقد بلغت الحلقوم - لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء . وأنتم حولها تنتظرون .
 وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون !
 هنا تسقط كل تعلّة . وتقطع كل حجة . ويبطل كل محال . وينتهي كل جدال . ويثقل ضغط هذه
 الحقيقة على الكيان البشري ، فلا يصمد له ، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل !

* * *

ثم يمضي السياق في بيان مصير هذه الروح الذي يترأى لها من بعيد حين تبلغ الحلقوم ، وتستدبر الحياة
 الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية . وتمضي إلى الدينونة التي يكذب بها المكذبون :
 « فأما إن كان من المقربين ، فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من
 أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فترل من حميم . وتصلية جحيم » .
 وقد مرت بنا في أول السورة صور من نعيم المقربين . فالروح هنا ترى علائم هذا النعيم الذي ينتظرها :
 روح وريحان وجنة نعيم . والألفاظ ذاتها تقطر رقة ونداة . وتلقي ظلال الراحة الحلوة ، والنعيم اللين والأنس
 الكريم .

« وأما إن كان من أصحاب اليمين » . . فيلتفت بالخطاب إليه . . يبلغه سلام إخوانه من أصحاب اليمين .
 وما أندى السلام ساعته وما أحبه . حين يتلقاه وقد بلغت الحلقوم ! فيطمئن باله ويشعر بالأنس في الصحبة
 المقبلة مع أصحاب اليمين .
 « وأما إن كان من المكذبين الضالين . فترل من حميم . وتصلية جحيم » . . وما أسوأه نزلاً ومثوى ذلك الحميم

الساخن . وما أشده عذاباً ذلك الجحيم ، يترأى له ويعلم أنه ملاقيه عن يقين !

* * *

والآن وقد بلغ الموقف ذروته تجيء الخاتمة في إيقاع عميق رزين :

« إن هذا هو حق اليقين . فسيح باسم ربك العظيم » ..

فتلتقي رجاحة اليقين وثقله في ميزان الحق ، بالواقعة التي بدأت بها السورة . وتختتم بما يوحيه هذا اليقين الثابت الجازم من اتجاه إلى الله بالتسبيح والتعظيم ..

* * *

سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي
وَيُمِيتُ ۚ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا
يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾
ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِنُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى
عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى
نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ

فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿٣٢﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوِيَّتُكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٣٤﴾

هذه السورة بجملة دعا للجماعة الإسلامية كي تحقق في ذاتها حقيقة إيمانها . هذه الحقيقة التي تخلص بها النفوس لدعوة الله ؛ فلا تضن عليها بشيء ، ولا تحتجز دونها شيئاً .. لا الأرواح ولا الأموال ؛ ولا خلجات القلوب ولا ذوات الصدور .. وهي الحقيقة التي تستحيل بها النفوس ربانية بينما تعيش على الأرض . موازينها هي موازين الله ، والقيم التي تترتب بها وتسبق إليها هي القيم التي تنقل في هذه الموازين . كما أنها هي الحقيقة التي تشعر القلوب بحقيقة الله ، فتخشع لذكره ، وترجف وتفر من كل عائق وكل جاذب يعوقها عن الفرار إليه .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة تدعو السورة الجماعة الإسلامية إلى البذل في سبيل الله . بذل النفس وبذل المال : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ، وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، والله ميراث السماوات والأرض . لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . وكلاً وعد الله الحسنى . والله بما تعملون خبير » .

وعلى أساس هذه الحقيقة الكبيرة كذلك تدعو الجماعة الإسلامية إلى الخشوع لذكر الله وللمحق الذي أنزله الله ليحيي البذل ثمرة لهذا الخشوع المنبعث من الحقيقة الإيمانية الأولى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » ..

وكذلك تضع قيم الدنيا وقيم الآخرة في ميزان الحق ؛ وتدعو الجماعة الإسلامية لاختيار الكفة الراجحة ، والسباق إلى القيمة الباقية : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً . وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور : سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » ..

وظاهر من سياق السورة - إلى جانب عمومية الدعوة الدائمة إلى تلك الحقيقة - أنها كانت تعالج كذلك حالة واقعة في الجماعة الإسلامية عند نزول هذه السورة في المجتمع المدني في فترة تمتد من العام الرابع الهجري إلى ما بعد فتح مكة .

فإلى جانب السابقين من المهاجرين والأنصار ، الذين ضربوا أروع مثال عرفته البشرية ، في تحقيق حقيقة الإيمان في نفوسهم ، وفي البذل والتضحية بأرواحهم وأمواهم ، في خلوص نادر ، وتجرد كامل ، وانطلاق

من أوهاق الأرض وجوانب الغريزة ومعوقات الطريق إلى الله . . .

إلى جانب هذه الفئة الممتازة الفذة ، كانت هناك - في الجماعة الإسلامية - فئة أخرى ليست في هذا المستوى الإيماني الخالص الرفيع - وبخاصة بعد الفتح عندما ظهر الإسلام ، ودخل فيه الناس أفواجا ، وكان من بينهم من لم يدركوا بعد حقيقة الإيمان الكبيرة ، ولم يعيشوا بها ولها كما عاشت تلك الفئة السابقة الخالصة المخلصة لله . هؤلاء المسلمون من الفئة الأخرى كان يصعب عليهم البذل في سبيل الله ؛ وتشق عليهم تكاليف العقيدة في النفس والمال ؛ وتردهم قيم الحياة الدنيا وزينتها ؛ فلا يستطيعون الخلاص من دعائها وإغرائها .

وهؤلاء - بصفة خاصة - هم الذين تهتف بهم هذه السورة تلك الهتافات الموحية التي أسلفنا نماذج منها ، لتخلص أرواحهم من تلك الأوهاق والجواذب ، وترفعها إلى مستوى الحقيقة الإيمانية الكبرى ، التي تصغر معها كل قيم الأرض ، وتذوب في حرارتها كل عوائقها !

كذلك كانت هنالك طائفة أخرى - غير هؤلاء وأولئك - هي طائفة المنافقين ، مختلطة غير متميزة . وبخاصة حين ظهرت غلبة الإسلام ، واضطر المنافقون إلى التخفي والانزواء ؛ مع بقاء قلوبهم مشوبة غير خالصة ولا مخلصة يتربصون الفرص وتجرفهم الفتن . وهؤلاء تصور السورة مصيرهم يوم يميزون ويعزلون عن المؤمنين : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني ، حتى جاء أمر الله ، وغرركم بالله الغرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم . وبئس المصير » . .

وهذا إلى جانب من بقي في الجزيرة من أهل الكتاب من اليهود والنصارى . والسورة تشير إلى شيء من أحوالهم ومواقفهم السابقة والحاضرة في ذلك الأوان ؛ كالإشارة السابقة إلى قسوة قلوبهم عند تحذير الذين آمنوا أن يكونوا « كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم » . . وهي إشارة إلى اليهود خاصة في الغالب . . وكالإشارة إلى النصارى قرب نهاية السورة في قوله : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله . فآتيناهم حق رعايتها . فآتيناهم الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » . .

* * *

ولما كان مدار السورة على تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ؛ وما ينبثق عن هذه الحقيقة من خشوع وتقوى ، ومن خلوص وتجرد ، ومن بذل وتضحية ، فقد سارت في إقرار هذه الحقيقة في النفوس التي كانت تواجهها - والتي توجد في كل مجتمع إسلامي - على نسق مؤثر ، أشبه ما يكون بنسق السور المكية ، حافل بالمؤثرات ذات الإيقاع الآسر للقلب والحس والمشاعر !

وكان مطلعها خاصة مجموعة إيقاعات بالغة التأثير ؛ تواجه القلب البشري بمجموعة من صفات الله سبحانه . فيها تعريف به مع الإيحاء الآسر بالخلوص له ، نتيجة للشعور بحقيقة الألوهية المتفردة ، وسيطرتها المطلقة على الوجود ، ورجعة كل شيء إليها في نهاية المطاف ، مع نفاذ علمها إلى خبايا القلوب وذوات الصدور ، واتجاه كل شيء إليها بالعبادة والتسبيح : « سبح لله ما في السماوات والأرض . وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات

والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخِر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو علم بذات الصدور » . .

وهذا المطلع بذاته وبإيقاعاته كاف وحده ليهز القلوب هزاً . ويوقع فيها الرهبة والخشية والارتعاش ، كما يوقع فيها الرغبة الحية في الخلوص لله والالتجاء إليه ، والتجرد من العوائق والأثقال المعوقة عن تلبية الهتاف إلى الخلاص من الشح بالأنفس والأموال . ولكن سياق السورة تضمن كثيراً من المؤثرات تتخلل ذلك الهتاف وتؤكد في مواضع شتى . كذلك الصورة الوضيئة للمؤمنين والمؤمنات « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » . . وتلك الصورة التي تقرر ضالة الحياة الدنيا وقيمها إلى جانب قيم الآخرة وما يتم فيها من الأمور الكبار .

كذلك جاءت لمسة أخرى ترد القلوب إلى حقيقة القدر المسيطرة على الوجود : « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير . لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » . . كي تستقر النفس وتطمئن لما يصيبها من خير أو شر ، وهي في طريقها إلى الله . فلا تطير جزعاً ، ولا تبطر فرحاً ، وهي تواجه الضراء والسراء . ولا تشرك بالله سبباً ولا ظرفاً ولا حادثاً . فكله بقدر مقسوم لأجل معلوم . ومرد الأمر كله في النهاية إلى الله .

* * *

وقد سار سياق السورة في علاج موضوعها في شوطين اثنين أثبتنا أولهما في صدر هذا التقديم . وجاءت فقرات كثيرة من الشوط الثاني في خلاله . وهما مترابطان مطردان . فنكتفي بهذا القدر ، لنسير مع سياق السورة بالتفصيل .

* * *

« سبح لله ما في السماوات والأرض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخِر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو علم بذات الصدور » . .

هذا المطلع الموحى المختار . وما حشد فيه من خصائص الألوهية الفاعلة المؤثرة المبدعة لكل شيء ، المحيطة بكل شيء ، المهيمنة على كل شيء ، العليمة بكل شيء . وما تعرضه من إبداع اليد القادرة وهي تجول في محيط السماوات والأرض ، وتتلطف إلى خبايا الصدور وطوايا القلوب ، وتشرف من عل على الوجود وما فيه ومن فيه . . هذا المطلع الموحى المختار يتناول القلوب ، فيهبها هزاً ، ويأخذها أخذاً ، وهو يجول بها في الوجود كله فلا تجد إلا الله ، ولا ترى إلا الله ، ولا تحس بغير الله ، ولا تعلم لها مهرباً من قدرته ولا مخبأ من علمه ، ولا مرجعاً إلا إليه ، ولا متوجهاً إلا لوجهه الكريم :

« سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » . .

هكذا ينطلق النص القرآني الكريم في مفتتح السورة ؛ فتجاوب أرجاء الوجود كله بالتسبيح لله . ويهيم كل شيء في السماوات والأرض ، فيسمعه كل قلب مفتوح غير محجوب بأحجبة الفناء . ولا حاجة لتأويل

النص عن ظاهر مدلوله . | فإله يقول . ونحن لا نعلم شيئاً عن طبيعة هذا الوجود وخصائصه أصدق مما يقوله لنا الله عنه .. فـ « سبح لله ما في السماوات والأرض » تعني « سبح لله ما في السماوات والأرض » .. ولا تأويل ولا تعديل ! ولنا أن نأخذ من هذا أن كل ما في السماوات والأرض له روح ، يتوجه بها إلى خالقه بالتسبيح وإن هذا هو أقرب تصور يصدق ما وردت به الآثار الصحيحة ، كما تصدقه تجارب بعض القلوب في لحظات صفائها وإشراقها ، واتصالها بالحقيقة الكامنة في الأشياء وراء أشكالها ومظاهرها ..

وقد جاء في القرآن الكريم : « يا جبال أوبي معه والطير » .. فإذا الجبال كالطير تؤوب مع داود ! وجاء في الأثر : أخرج مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن بمكة حجراً كان يسلم عليّ ليالي بعثت . إني لأعرفه الآن » .. وروى الترمذي - بإسناده - عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - قال : كنت مع رسول الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها ، فما استقبله شجر ولا جبل إلا وهو يقول : « السلام عليك يا رسول الله » .. وروى البخاري في صحيحه بإسناده عن أنس بن مالك قال : « خطب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى لُزق جذع . فلما صنعوا له المنبر فخطب عليه حن الجذع حنين الناقة ، فترل الرسول فمسحه ، فسكن » ..

وآيات القرآن كثيرة وصريحة في تقرير هذه الحقيقة الكونية : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » .. « ألم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس » .. « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .. ولا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن . فكل مقرراتنا عن الوجود وكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تنبع أولاً من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود .

« وهو العزيز الحكيم » .. فتسبيح ما في السماوات والأرض له فرع عن العزة الغالبة والحكمة البالغة . فهو المهيمن على كل شيء بقوته ، وهو جاعل كل شيء وفق حكمته .

* * *

وما يكاد القلب البشري يفيق من فيض هذا النص ، ومن مهرجان الوجود المسبح لخالقه في السماوات والأرض ، حتى يعاجله السياق برحلة جديدة في ملكوت السماوات والأرض :

« له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » ..

إن كل شيء في السماوات والأرض سبّح لله . مالك السماوات والأرض . الذي لا شريك له في ملكه . فهو تسبيح المملوك للمالكة المتفرد ، الذي يحيي ويميت ، فيخلق الحياة ويخلق الموت . ويقدر الحياة لكل حي ويقدر له الموت ؛ فلا يكون إلا قدره الذي قضاه .

والحياة ما تزال سراً في طبيعتها ، وسراً في مصدرها ؛ ولا يملك أحد أن يقول من أين جاءت ، ولا كيف جاءت . فضلاً على أن أحداً لا يدري ما هي على وجه الحقيقة . والنص القرآني يقول : إن الله هو الذي يحيي الذي يعطي الحياة للأحياء . وما يملك أحد أن ينكر هذا ولا أن يثبت غيره . والموت كالحياة سر مغلف . لا يعرف أحد طبيعته ولا يملك أحد أن يحدثه . لأن أحداً غير واهب الحياة لا يملك سلبها .. وهذا وذلك من مظاهر الملكية المطلقة لله في السماوات والأرض يحيي ويميت ...

« وهو على كل شيء قدير » .. إجمالاً بغير حد ولا قيد . فالمشيئة المطلقة تمضي بغير حد ولا قيد . وتتعلق

بما تشاء أن تتعلق به كما تشاء . وكل قيد يتصوره العقل البشري بمنطقه هو لهذه المشيئة من أي نوع وأي لون هو تصور باطل ، ناشئ من طبيعة العقل البشري المحدود ! واختيار المشيئة لنواميس وسنن لهذا الوجود داخل في حقيقة انطلاقتها بلا قيود ولا حدود . فهي تختار هذه النواميس والسنن اختياراً طليقاً ، وتعملها في الكون غير مقيدة بها بعد إعمالها ، ولا محصورة في نطاقها . والاختيار دائم ومطرد وراء هذه السنن والنواميس ..

والقرآن يولي هذه الحقيقة عناية كبيرة ، فينص عليها في كل مناسبة بما يفيد طلاقة المشيئة من كل قيد يرد عليها حتى من عملها هي . لتبقى هذه الحقيقة واضحة ، ويبقى تصورها غير مشوب . فقد وعد الله أهل الجنة بالخلود فيها وأهل النار كذلك . وهذا الوعد صادر من المشيئة . ولكنه أبقى المشيئة طليقة خارج نطاق هذا الوعد ذاته وهو من عملها وباختيارها . فقال عن هؤلاء وهؤلاء : « خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك .. » .. وهكذا في كل موضع وردت فيه مثل هذه المناسبة . ولا مجال لمنطق العقل البشري ولا لمقرراته في هذا المجال . وعليه أن يأخذ مقرراته كلها من هذا القرآن ، لا من معين آخر غير القرآن !

ومن ثم يتمثل للقلب البشري من خلال هذه الآية سلطان الله المطلق في ملكه الذي لا شريك له فيه ، والذي يتوجه إليه سبحانه بالتسبيح وحق له أن يتوجه ، وحق عليه أن يسبح .

* * *

وما يكاد يفوق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض ، حتى تطالعه حقيقة أخرى ، لعلها أضخم وأقوى . حقيقة أن لا كينونة لشيء في هذا الوجود على الحقيقة . فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحده سبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء ، عليم بكل شيء :

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ..

الأول فليس قبله شيء . والآخر فليس بعده شيء . والظاهر فليس فوقه شيء . والباطن فليس دونه شيء . الأول والآخر مستغرقاً كل حقيقة الزمان ، والظاهر والباطن مستغرقاً كل حقيقة المكان . وهما مطلقتان . ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا لله . وهذه كل مقومات الكينونة ثابتة له دون سواه . حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقق إلا مستمداً من وجود الله . فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منه كل شيء وجوده . وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يستمد منها كل شيء حقيقته . وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود ..

« وهو بكل شيء عليم » .. علم الحقيقة الكاملة . فحقيقة كل شيء مستمدة من الحقيقة الإلهية وصادرة عنها . فهي مستغرقة إذن بعلم الله اللدني بها . العلم الذي لا يشاركه أحد في نوعه وصفته وطريقته . مهما علم المخلوقون عن ظواهر الأشياء !

فإذا استقرت هذه الحقيقة الكبرى في قلب ، فما احتفاله بشيء في هذا الكون غير الله سبحانه ؟ وكل شيء لا حقيقة له ولا وجود - حتى ذلك القلب ذاته - إلا ما يستمد من تلك الحقيقة الكبرى ؟ وكل شيء وهم ذاهب ، حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله ، المتفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء ؟

وإن استقرار هذه الحقيقة في قلب ليحيله قطعة من هذه الحقيقة . فأما قبل أن يصل إلى هذا الاستقرار ، فإن هذه الآية القرآنية حسبه ليعيش في تدبرها وتصور مدلولها ، ومحاولة الوصول إلى هذا المدلول الواحد وكفى ! ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى ، وهاموا بها وفيها ، وسلكوا إليها مسالك شتى ، بعضهم قال إنه يرى الله في كل شيء في الوجود . وبعضهم قال : إنه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود . وبعضهم

قال : إنه رأى الله فلم ير شيئاً غيره في الوجود .. وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال . إلا أن ما يؤخذ عليهم - على وجه الإجمال - هو أنهم أهملوا الحياة بهذا التصور . والإسلام في توازنه المطلق يريد من القلب البشري أن يدرك هذه الحقيقة ويعيش بها ولها ، بينما هو يقوم بالخلافة في الأرض بكل مقتضيات الخلافة من احتفال وعناية وجهاد وجهد لتحقيق منهج الله في الأرض ، باعتبار هذا كله ثمرة لتصور تلك الحقيقة تصوراً متزناً ، متناسقاً مع فطرة الإنسان وفطرة الكون كما خلقهما الله .

* * *

وبعد إطلاق تلك الحقيقة الكبرى جعل يذكر كيف انبثقت منها حقائق الوجود الأخرى :

« هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها . وهو معكم أينما كنتم . والله بما تعملون بصير . له ملك السماوات والأرض ، وإلى الله ترجع الأمور . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، وهو علم بذات الصدور .. حقيقة خلق السماوات والأرض . وحقيقة الاستواء على العرش والهيمنة على الخلق . وحقيقة العلم بأشياء بعينها من هذا الخلق . وحقيقة الوجود مع كل أحد أينما وجد . وحقيقة رجعة الأمور إليه وحده . وحقيقة تصرفه اللطيف في كيان الوجود ، وعلمه الخفي بذات الصدور ..

وكلها حقائق منبثقة عن تلك الحقيقة الأولى .. ولكن عرضها في هذا المجال الكوني يجعل لها في القلب البشري إيقاعات وظلالاً .. والسماوات والأرض تواجه هذا القلب وتروعه بضخامتها وجلالها ، وتناسقها وجمالها ، كما تواجهه وتروعه بدقة نظامها وانضباط حركاتها ، واطراد ظواهرها . ثم إنها خلائق من خلق الله كالقلب البشري . فله بها صلة الأسرة وأنس القرابة . وهي توقع على أوتارها إيقاعات لدية حين يتوجه إليها ، ويسمع لها ، ويعاطفها ! وهي تقول له : إن الذي خلقها هو خلقه . وهي تسبح لخالقها فليسبح لخالقه ! كما تقول له : إنها تستمد حقيقة وجودها من وجود خالقها وأنه هو كذلك . فليس هنالك إذن إلا هذه الحقيقة تستحق الاحتفال بها ! والأيام الستة لا يعلم حقيقتها إلا الله . فأيامنا هذه ليست سوى ظلال ناشئة عن حركة الأرض حول نفسها أمام الشمس . وجدت بعد خلق الأرض والشمس فليست هي الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض . فترك علمها لله يطلعنا عليه إن أراد .

وكذلك العرش . فنحن نؤمن به كما ذكره ولا نعلم حقيقته . أما الاستواء على العرش فملك أن نقول : إنه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق . استناداً إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أن الله - سبحانه - لا تتغير عليه الأحوال . فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش ، ثم تتبعها حالة استواء . والقول بأننا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيته لا يفسر قوله تعالى : « ثم استوى » .. والأولى أن نقول : إنه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا . والتأويل هنا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفاً لأنه لا ينبع من مقررات وتصورات من عند أنفسنا . إنما يستند إلى مقررات القرآن ذاته ، وإلى التصور الذي يوحيه عن ذات الله سبحانه وصفاته .

ومع الخلق والهيمنة العلم الشامل اللطيف ، يصور النص القرآني مجاله تصويراً عجباً يشغل القلب بتتبعه في هذا المجال الواسع ، وبتصوره في حركة دائمة لا تفر . وهذا أمر غير مجرد ذكر العلم وحقيقته المجردة . أمر مؤثر موحٍ يملأ جوانب النفس ، ويشغل خوالج القلب ، وتترامى به سبحات التصور ووثبات الخيال :

« يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » ..

وفي كل لحظة يلج في الأرض ما لا عداد له ولا حصر من شتى أنواع الأحياء والأشياء ؛ ويخرج منها ما لا

عداد ولا حصر من خلائق لا يعلمها إلا الله . وفي كل لحظة يتزل من السماء من الأمطار والأشعة والنيازك والشهب ، والملائكة والأقمار والأسرار ؛ ويعرج فيها كذلك من المنظور والمستور ما لا يحصىه إلا الله .. والنص القصير يشير إلى هذه الحركة الدائبة التي لا تنقطع ، وإلى هذه الأحداث الضخام التي لا تحصى ؛ ويدع القلب البشري في تلفت دائم إلى ما يليج في الأرض وما يخرج منها ، وما يتزل من السماء وما يعرج فيها ، وفي تصور يقظ لعلم الله الشامل وهو يتبع هذه الحركات والأحداث ، في مسارها ومعارجها .

والقلب في تلفته ذاك وفي يقظته هذه يعيش مع الله ، ويسبح في ملكوته بينما هو ثاوٍ في مكانه ؛ ويسلك فجاج الكون ويجوب أقطار الوجود في حساسية وفي شفافية ، وفي رعشة من الروعة والانفعال .

وبينما القلب في تلفته ذاك في الأرض والسماء ، إذا القرآن يرده إلى ذاته ، ويلمسه في صميمه . وإذا هو يجد الله معه ، ناظراً إليه ، مطلعاً عليه ، بصيراً بعمله ، قريباً جد قريب :

« وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير » ..

وهي كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز . فالله - سبحانه - مع كل أحد ، ومع كل شيء ، في كل وقت ، وفي كل مكان . مطلع على ما يعمل بصير بالعباد . وهي حقيقة هائلة حين يتمثلها القلب . حقيقة مذهلة من جانب ، ومؤنسة من جانب . مذهلة بروعة الجلال . ومؤنسة بظلال القربى . وهي كفيلة وحدها حين يحسها القلب البشري على حقيقتها أن ترفعه وتطهره ، وتدعه مشغولاً بها عن كل أعراض الأرض ؛ كما تدعه في حذر دائم وخشية دائمة ، مع الحياة والتخرج من كل دنس ومن كل إسفاف .

* * *

ومرة أخرى يعود إلى ملكية السماوات والأرض في مجال آخر غير الذي وردت فيه أول مرة :

« له ملك السماوات والأرض . وإلى الله ترجع الأمور » ..

ففي المرة الأولى جاء ذكرها في معرض الإحياء والإماتة والقدرة المطلقة . وهنا يجيء ذكرها في معرض رجعة الأمور كلها إلى الله . وهي متصلة بملكية الله للسماوات والأرض ومكلمة لحقيقتها .

والشعور بهذه الحقيقة يحرس القلب من كل لفظة لغير الله في أي أمر . في أول الأمر وفي آخره . ويحيمه من التطلع لغير الله في أي طلب ، ومراقبة لغير الله في أي عمل . ويقينه على الطريق إلى الله في سره وعلمه ، وحركته وسكونه ، وخواجه ونجواه . وهو يعلم أن لا مهرب من الله إلا إليه ، ولا ملجأ منه إلا إلى حماه !

* * *

وينتهي هذا المطلع بحركة لطيفة من حركات القدرة في مجال الكون ، وفي أطواء الضمير :

« يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل . وهو عليم بذات الصدور » ...

ودخول الليل في النهار ، ودخول النهار في الليل ، حركة دائبة ، وهي في الوقت ذاته حركة لطيفة سواء كان المعنى طول الليل وأخذه من النهار ، وطول النهار وأخذه من الليل ؛ أو كان المعنى مجرد تداخل الليل في النهار عند الغروب ، وتداخل النهار في الليل عند الشروق .. ومثل هذه الحركة في خفائها ولطفها ، حركة العلم بذات الصدور. وذات الصدور هي الأسرار المصاحبة لها ، التي لا تفارقها ولا تبرحها !

والشعور بيد الله تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، في لطف ؛ ينشئ في القلب حالة من التأمل

الرفيق ، والحساسية الشفيفة . كالشعور بعلم الله يتلطف في الاطلاع على ذات الصدور ، الساكنة في خبايا الصدور !

* * *

هذا المطلع بإيقاعاته تلك ، يدع القلوب في حساسية مرهفة للتلقي . ومن ثم يجيء اهتاف لها بالإيمان والبذل في أنسب أوان . وقد تفتحت مداخلها ، وتوفرت مشاعرها ، واستعدت للاستماع . وهنا يجيء ذلك اهتاف في المقطع التالي في السياق . ولكنه لا يجيء مجرداً . إنما يجيء ومعه مؤثراته وإيقاعاته ولمساته :

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير . وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ؟ إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم . وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض ؟ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير .. »

إن الله - سبحانه - يخاطب القلوب التي خلقها ، فهو يعلم أحوالها ، ويعرف مداخلها ، ويطلع على خوافيها .. وهو يعلم أن نقاء العقيدة ، وخلوص القلب ، واستقرار حقيقة الإيمان استقراراً تنبثق منه آثاره ونتائجها في واقع الحياة ، من بذل وتضحية وتقديم خالصة لله . أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيراً ؛ ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة . ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ؛ ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها ، وتزن كل شيء بميزانها الكبير الدقيق . ويعالجها المرة بعد المرة ، والخطوة بعد الخطوة ؛ ولا يكلها إلى هتاف واحد ، أو بيان واحد ، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب .. ومنهج القرآن الإلهي في علاج القلوب جدير بأن يقف الدعاة إلى الله أمامه طويلاً ؛ ليتدبروه ويحاولوا أن يقلدوه !

إن الإيقاعات الأولى في مطلع السورة من القوة والتوالي والعمق والتأثير ، بحيث تزلزل القلوب الجامدة ، وتلين القلوب القاسية ، وتدعها مرهفة الحساسية . ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى ، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة التالية .

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه .. »

والمخاطبون هنا هم مسلمون ، ولكنهم يُدعون إلى الإيمان بالله ورسوله . فهي إذن حقيقة الإيمان يدعوون لتحقيقها في قلوبهم بمعناها . وهي لفظة دقيقة . وهم يُدعون إلى الإنفاق ، ومع الدعوة لمسة موحية . فهم لا ينفقون من عند أنفسهم . إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه . وهو الذي « له ملك السماوات والأرض » .. فهو الذي استخلف بني آدم جملة في شيء من ملكه . وهو الذي « يحيي ويميت » .. فهو الذي استخلف جيلاً منهم بعد جيل .

وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية في مطلع السورة . ثم تقوم هي بدورها في استثارة الخجل والحياء من الله ، وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم ، فإذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه وما أعطاهم ؟! وفي نهبة النفوس عن الشح ، والله هو المعطي ولا نفاذ لما عنده ، فإذا يمسكهم عن البذل والعطاء ، وما في أيديهم رهن بعطاء الله ؟!

ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء ، ومن سماحة ورجاء . إنما يخاطبهم بمؤثر جديد . ينجلهم من كرم الله ويطمعهم في فضله :

« فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » ..

فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل ؟

غير أن القرآن لا يكلهم إلى هذه اللمسات الأولى . إنما يلح على قلوبهم بموحيات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملابساتها :

« وما لكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا ببربكم ، وقد أخذ ميثاقكم ، إن كنتم مؤمنين . هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور . وإن الله بكم لرؤوف رحيم » ..

فما الذي يعوقهم عن الإيمان - حق الإيمان - وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان . وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم ؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة ؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه .

إن نعمة وجود الرسول بين القوم ، يدعوهم بلغة السماء ، ويخاطبهم بكلام الله ، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم .. نعمة فوق التصور حين تتملاها نحن الآن من بعيد .. فهذه الفترة - فترة الوحي وحياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترة عجيبة حقاً .. إن الله - جل جلاله - يخاطب هذا البشر من صنع يديه ، على لسان عبده - صلى الله عليه وسلم - وفي رحمة علوية ندية يقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك ! ها هو ذا طريقي فاسلكوه ! لقد تعثرت خطاكم فهاكم حبلي ! لقد أخطأتم وأتتم فتوبوا وما هو ذا بابي مفتوح . تعالوا ولا تشرذوا بعيداً ، ولا تقنطوا من رحمتي التي وسعت كل شيء .. وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - قلت كذا . وهو خطأ . ونويت كذا . وهو إثم . وفعلت كذا وهي خطيئة .. فتعال هنا قدامي وتطهر وتب وعد إلى حماي .. وأنت يا فلان - بذاتك وشخصك - أمرك الذي يعضلك هذا حله . وسؤالك الذي يشغلك هذا جوابه . وعملك الذي عملت هذا وزنه !

إنه الله . هو الذي يقول . يقول لهؤلاء المخالقي . وهم يعيشون معه . يحسون أنه معهم . حقيقة وواقعاً . أنه يستمع إلى شكواهم في جنح الليل ويستجيب لها . وأنه يرعاهم في كل خطوة ويعني بها ..
ألا إنه لأمر فوق ما يطيق الذي لم يعيش هذه الفترة أن يتصور . ولكن هؤلاء المخاطبين بهذه الآيات عاشوها فعلاً .. ثم احتاجوا إلى مثل هذا العلاج ومثل هذه اللمسات ، ومثل هذا التذكير .. وهو فضل من الله ورحمة فوق فضله ذاك ورحمته . يدركهما ويشعر بهما من لم تقدر له الحياة في هذه الفترة العجيبة :

ورد في صحيح البخاري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لأصحابه : « أي المؤمنين أعجب إليكم ؟ » قالوا : الملائكة . قال « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ » . قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » . قالوا : فنحن . قال : « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يحيثون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها » ..

وصدق رسول الله . إنه لأمر متفاوت . وإن موحيات الإيمان وموجباته لديهم لشيء هائل ، هائل ، عجيب عجيب . وهو يعجب : ما لهم لا يؤمنون ؟ ثم يطلب إليهم تحقيق الإيمان في نفوسهم إن كانوا مؤمنين !

ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته في توكيد وتكرير :

« وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السماوات والأرض ؟ » ..

وفي هذه الإشارة عودة إلى حقيقة : « له ملك السماوات والأرض وإلى الله ترجع الأمور » .. فميراث السماوات

والأرض ملكه وراجع إليه ، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه في الميراث ! فما لهم لا ينفقون في سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق . وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك . وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا ؟ وما الذي يبقى من دواعي الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب ؟

ولقد بذلت الحفنة المصطفاة من السابقين ، من المهاجرين والأنصار ، ما وسعها من النفس والمال ، في ساعة العسرة وفترة الشدة - قبل الفتح - فتح مكة أو فتح الحديبية وكلاهما اعتر به الإسلام أيام أن كان الإسلام غريباً محاصراً من كل جانب ، مطارداً من كل عدو ، قليل الأنصار والأعوان . وكان هذا البذل خالصاً لا تشوبه شائبة من طمع في عوض من الأرض ، ولا من رياء أمام كثرة غالبية من أهل الإسلام . كان بذلاً منبثقاً عن خيرة اختاروها عند الله ؛ وعن حمية لهذه العقيدة التي اعتنقوها وآثروها على كل شيء وعلى أرواحهم وأموالهم جميعاً . . ولكن ما بذلوه - من ناحية الكم - كان قليلاً بالقياس إلى ما أصبح الذين جاءوا بعد الفتح يملكون أن يبذلوه . فكان بعض هؤلاء يقف ببذله عند القدر الذي يعرف ويسمع أن بعض السابقين بذلوه ! هنا نزل القرآن ليزن بميزان الحق بذل هؤلاء وبذل أولئك ، وليقرر أن الكم ليس هو الذي يرجح في الميزان ؛ ولكنه الباعث وما يمثله من حقيقة الإيمان :

« لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل . أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » .. إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة ، والأنصار قلة ، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء . غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة ، والأنصار كثرة ، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال . ذلك متعلق مباشرة بالله ، متجرد تجرداً كاملاً لا شبهة فيه ، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده ، بعيد عن كل سبب ظاهر وكل واقع قريب . لا يجد على الخير عوناً إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته . وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين .

قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا زهير ، حدثنا حميد الطويل ، عن أنس ، قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ! فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد - أو مثل الجبال - ذهباً ما بلغتم أعمالهم » ..

وفي الصحيح : « لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه » ٢ .

وبعد أن قرر القيم الحقيقية في ميزان الله هؤلاء وهؤلاء عاد فقرر أن للجميع الحسنى :

« وكلاً وعد الله الحسنى » ..

فقد أحسنوا جميعاً ، على تفاوت ما بينهم في الدرجات .

(١) يتحدد من هذا الحديث معنى معين لأصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذين تكرر تحذيره بشأنهم . فهم أولئك السابقون . وقد كان يقول للمسلمين حوله ومن صاحبه : « دعوا لي أصحابي ... » فدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - يعني صفة خاصة .. وكذلك قال في مرة عن الصديق - رضي الله عنه - : « دعوا لي صاحبي » ..

(٢) أنظر الهامشة السابقة .

ومرد ذلك التفاوت وهذا الجزاء بالحسنى للجميع ، إلى ما يعلمه الله من تقدير أحوالهم ، وما وراء أعمالهم من عزائمهم ونواياهم . وخبرته تعالى بحقيقة ما يعملون :
« والله بما تعملون خبير » ..

وهي لمسة موقظة للقلوب ، في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة ، وهي التي تناط بها القيم ، وترجح بها الموازين ..

* * *

ثم مرحلة أخرى في استجاشة القلوب للإيمان والبذل ، ومؤثرات أخرى وراء تلك المؤثرات :
« من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ؟ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم . بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم . قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً . فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم ، وبئس المصير » ..
إنه هتاف موح مؤثر آسر . وهو يقول للعباد الفقراء المحاويج : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ؟ » ..
ومجرد تصور المسلم أنه هو الفقير الضئيل يقرض ربه ، كفيل بأن يطير به إلى البذل طيراناً ! إن الناس ليتسابقون عادة إلى إقراض الثري المليء منهم - وهم كلهم فقراء - لأن السداد مضمون . ولهم الاعتزاز بأن أقرضوا ذلك الثري المليء ! فكيف إذا كانوا يقرضون الغني الحميد !؟

ولا يكلمهم - سبحانه - إلى هذا الشعور وحده ، ولكن يعدهم على القرض الحسن ، الخالص له ، المجرد من كل تلفت إلى سواه . يعدهم عليه الضعف في المقدار ، والأجر الكريم بعد ذلك من عند الله : « فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

ثم يعرض لهم صفحة وضيفة من ذلك الأجر الكريم ، في مشهد من مشاهد اليوم الذي يكون فيه ذلك الأجر الكريم .

« والمشهد هنا بإجماله وتفصيله جديد - بين المشاهد القرآنية - وهو من المشاهد التي يحييها الحوار بعد أن ترسم صورتها المتحركة رسماً قوياً . فنحن الذين نقرأ القرآن اللحظة نشهد مشهداً عجباً . هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم . ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعاً لطيفاً هادئاً . ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم . فهذه الشخصوس الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت نوراً يمتد منها فيرى أمامها ويرى عن يمينها .. إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات . والذي أشرق في أرواحها فغلب على طينتها . أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ^١ ، ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذاتها حقيقتها !
« ثم ها نحن أولاء نسمع ما يوجه إلى المؤمنين والمؤمنات من تكريم وتبشير : « بشراكم اليوم جنات تجري

(١) المعتقد الآن أن مادة الكون هي النور . وأنه مؤلف من ذرات . وأن الذرة في حقيقتها ليست سوى إشعاع . وقد تكون هذه النظرية أقرب النظريات إلى الصحة ، لأنها تسير على درب القرآن !

من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » . .

ولكن المشهد لا ينتهي عند هذا المنظر الطريف اللطيف . . إن هناك المنافقين والمنافقات ، في حيرة وضلال ، وفي مهانة وإهمال . وهم يتعلقون بأذيال المؤمنين والمؤمنات : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم » . . فحيثما تتوجه أنظار المؤمنين والمؤمنات يشع ذلك النور اللطيف الشفيف . ولكن أنى للمنافقين أن يقتبسوا من هذا النور وقد عاشوا حياتهم كلها في الظلام ؟ إن صوتاً مجهلاً يناديهـم : « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً » . . ويبدو أنه صوت للتهكم ، والتذكير بما كان منهم في الدنيا من نفاق ودس في الظلام : ارجعوا وراءكم إلى الدنيا . إلى ما كنتم تعملون . ارجعوا فالنور يلتمس من هناك . من العمل في الدنيا . ارجعوا فليس اليوم يلتمس النور !

« وعلى الفور يفصل بين المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات . فهذا يوم الفصل إن كانوا في الدنيا مختلطين في الجماعة : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » . . ويبدو أنه سور يمنع الرؤية ولكنه لا يمنع الصوت . فما هم أولاء المنافقون ينادون المؤمنين : « ألم نكن معكم ؟ » . . فما بالناس فترق عنكم ؟ ألم نكن معكم في الدنيا نعيش في صعيد واحد ؟ وقد بعثنا معكم هنا في صعيد واحد ؟ » قالوا : بلى ! « كان الأمر كذلك . « ولكنكم فتنتم أنفسكم » . . فصرتموها عن الهدى . « وتربصتم » . . فلم تعزموا ولم تختاروا الخيرة الحاسمة . « وارتبتم » . . فلم يكن لكم من اليقين ما تعزمون به العزيمة الأخيرة . « وغرركم الأماني » الباطلة في أن تنجوا وتربحوا بالذبذبة وإمساك العصا من طرفيها ! « حتى جاء أمر الله » . . وانتهى الأمر . « وغرركم بالله الغرور » . . وهو الشيطان الذي كان يطمعكم ويمنيكم .

« ثم يستطرد المؤمنون في التذكير والتقرير ، كأنما هم أصحاب الموقف المحكمون فيه :

« فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ، مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير » أم لعلها كلمة الملأ الأعلى ، أو نطق الله الكريم . .

« وننظر من ناحية التناسق الفني في عرض المشهد ، فنجد لاختيار مشهد النور في هذا الموضع بالذات حكمة خاصة . . إن الحديث هنا عن المنافقين والمنافقات . . والمنافقون والمنافقات يخفون باطنهم ويتظاهرون بغير ما في الضمير المكنون ، ويعيشون في ظلام من النفاق والدس والوقعة . والنور يكشف المخبوء ويفضح المستور . كما أنه الصفحة المقابلة للوضيئة لصفحة النفاق المظلمة المطموسة . فهو أليق شيء بأن تطلق أشعته على المشهد الكبير . وبأن ينير بين أيدي المؤمنين والمؤمنات وبأيمانهم ، بينما المنافقون في الظلام الذي يناسب ظلمات الضمير وظلمات الخفاء المستور ! »

وبعد فأى قلب لا يهفو لذلك النور في ذلك اليوم ؟ وأي قلب لا يستجيب لهتاف الإنفاق والبذل تحت إيقاع تلك الموحيات العميقة التأثير ؟

إنه القرآن يعالج القلوب في ثبات واطراد ، ويدعوها دعاء العليم الخبير بطبيعتها ومدخلها ومسارها ، وما تستجيب له وما يؤثر فيها .

والشوط الثاني في السورة استطراد في الدعاء ، ومزيد من موحيات الاستجابة ، على هذا المنهج ، وفي هذا الطريق . .

(١) عرض هذا المشهد مأخوذ بتصرف عن كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » . « دار الشروق »

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۖ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِيَجْزِيَ تَأْسُؤًا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَكُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۚ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ۖ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ

وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

هذا الشوط امتداد لموضوع السورة الرئيسي : تحقيق حقيقة الإيمان في النفس ، حتى ينبثق عنها البذل الخالص في سبيل الله . وفيه من موحيات الإيمان ، ومن الإيقاعات المؤثرة ، قريب مما اشتمل عليه الشوط الأول ، بعد ذلك المطلع العميق المثير .

وهو يبدأ برنة عتاب من الله - سبحانه - للمؤمنين ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة التي يريدها الله لهم ؛ وتلويح لهم بما كان من أهل الكتاب قبلهم من قسوة في القلوب وفسق في الأعمال ، وتحذير من هذا المآل ، الذي انتهى إليه أهل الكتاب بطول الأمد عليهم . مع إطماعهم في عون الله الذي يحيي القلوب كما يحيي الأرض بعد موتها .

فإذا انتهت هذه اللمسة تبعها لمسة أخرى - مجالها العالم الآخر - وتكررت الدعوة إلى إقراض الله قرضاً حسناً ، مع بيان ما أعدده الله لمن يقرضونه في الدنيا من العوض المضاعف والأجر الكريم .. على نحو مما جاء في الشوط الأول .

ولمسة ثالثة بوضع قيم الدنيا كلها في ميزان الله إلى جانب قيم الآخرة .. حيث تبدو قيم الأرض لعباً خفيفة الوزن ؛ وترجح كفة الآخرة ويبدو فيها الجدل الذي يستحق الاهتمام .

ومن ثم يهتف بهم ليسابقوا إلى قيم الآخرة .. في جنة عرضها كعرض السماء والأرض . أعدت للذين آمنوا بالله ورسله .

ولمسة رابعة ترجع بهم من ساحة الآخرة إلى ما هم فيه من واقع الحياة وأحداثها ، فتعلق قلوبهم بقدر الله فيها . في السراء والضراء سواء . ومن ثم يهون عليهم البذل ، ولا يذهيهم من أعراض الأرض شيء ؛ وترتبط أحاسيسهم كلها بالسماء .

وبعد ذلك يعرض عليهم طرفاً من تاريخ دعوة الله في الأرض ، تبدو فيه وحدة المنهج ، واستقامة الطريق . وأن الذي يجيد عنه في كل عهد هم الفاسقون . ويلوح لهم بما كان من بعض أهل الكتاب كما لوح لهم في أول الشوط . لينتهي من هذا الهتاف الأخير لهم بتقوى الله والإيمان برسوله ، ليؤتيهم كفلين من رحمته ، ويجعل لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم . ففضل الله ليس وقفاً على أهل الكتاب كما يزعمون . إنما هو بيد الله يؤتيه من يشاء « والله ذو الفضل العظيم » ..

وهكذا تكون السورة من أولها إلى آخرها مترابطة الحلقات ، في خط واحد ثابت ، تتوالى إيقاعاتها على القلوب ،

منوعة ومتشابهة . فيها من التكرار القدر اللازم لتعميق أثر الإيقاع في القلب ، وطرقه وهو ساخن بحرارة الإيقاع بعد الإيقاع !

* * *

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون ، اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

إنه عتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم ؛ واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ؛ فبعث فيها الرسول يدعوها إلى الإيمان برّبها ، ونزل عليه الآيات البينات ليخرجها من الظلمات إلى النور ؛ وأراها من آياته في الكون والخلق ما يبصر ويحدّر .

عتاب فيه الود ، وفيه الحض ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لذكره ، وتلقي ما نزل من الحق بما يليق بجلال الحق من الروعة والخشية والطاعة والاستسلام ، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال :

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؟ » . .

وإلى جانب التحضيض والاستبطاء تحذير من عاقبة التباطؤ والتعاس عن الاستجابة ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدا حين يمتد بها الزمن بدون جلاء ، وما تنتهي إليه من القسوة بعد اللين حين تغفل عن ذكر الله ، وحين لا تخشع للحق :

« ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » . . وليس وراء قسوة القلوب إلا الفسق والخروج .

إن هذا القلب البشري سريع التقلب ، سريع النسيان . وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور ، ويرف كالشعاع ؛ فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر تبدل وقساً ، وانطمست إشراقته ، وأظلم وأعم ! فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بد من الطرق عليه حتى يرق ويشف ؛ ولا بد من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبدل والقساوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبدل . فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة ، وأن يشرق فيه النور ، وأن يخشع لذكر الله . فالله يحيي الأرض بعد موتها ، فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبت والزهر ، وتمنح الأكل والثمار .. وكذلك القلوب حين يشاء الله :

« اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها » . .

وفي هذا القرآن ما يحيي القلوب كما تحيا الأرض ؛ وما يمدّها بالغذاء والري والدفء :

« قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون » . .

* * *

ويتبع هذه اللمسة المحيية ، وذلك العتاب المخجل ، وذاك التذكير والتحذير ، بحافز جديد للبذل والقداء : « إن المصدقين والمصدقات ، وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، يضاعف لهم ولهم أجر كريم . والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون ، والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ؛ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك

أصحاب الجحيم» . .

إن المتصدقين والمتصدقات لا يفضلون على آخذي الصدقات ، ولا يتعاملون في هذا مع الناس . إنما هم يقرضون الله ويتعاملون مباشرة معه . فأني حافز للصدقة أوقع وأعظم من شعور المعطي بأنه يقرض الغني الحميد ، وأنه يتعامل مع مالك الوجود ؟ وأن ما ينفقه مخلف عليه مضاعفاً ؛ وأن له بعد ذلك كله أجراً كريماً ؟

ومقام الصديقين مقام رفيع كما تصوره الأحاديث النبوية الشريفة . ومع علو هذا المقام فهو بفضل الله ميسور لمن أرادته ، وليس وقفاً على أفراد ولا على طائفة . فكل من يحقق إيمانه بالله ورسله يطمع في هذا المقام الرفيع ، ولا حرج على فضل الله :

« والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون » . .

وتلك خاصية هذا الدين وميزته . إنه طريق مفتوح لجميع البشر ، وأفق يتطلع إليه الجميع ، ليس فيه احتكار للمقامات ، وليس فيه خصوصيات محجوزة لأناس بأعيانهم . وليس إلا العمل يصعد بصاحبه إلى أرقى الدرجات . إنه دين لا مجال فيه للطبقات المحفوظة المقام !

روى الإمام مالك في كتابه « الموطأ » عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . . قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم . قال : « بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . .

فهذه لمسة الإيمان . فأما لمسة الفداء فقولته بعد ذلك :

« والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » . .

والحديث عن مقام الشهداء ورد مرات في القرآن ، وتواترت به الأحاديث النبوية . فهذا الدين لا يقوم بغير حراسة ، ولا يتحقق في الأرض بغير جهاد . جهاد لتأمين العقيدة وتأمين الدعوة وحماية أهله من الفتنة وشريعته من الفساد . ومن ثم كان للشهداء في سبيل الله - وهم وحدهم الذين يسمون شهداء - مقامهم ، وكان لهم قربهم من ربهم . القرب الذي يعبر عنه بأنهم « عند ربهم » . .

جاء في الصحيحين : « أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعة ، فقال : ماذا تريدون ! فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قتلنا أول مرة . فقال : إني قد قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء - إلا الشهيد - يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة » . .

وكذلك كانت تهون الحياة على من يسمع هذه الموحيات ، ويعرف مقام الشهادة عند الله . . روى الإمام مالك . . . عن يحيى بن سعيد « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رغب في الجهاد وذكر الجنة ، ورجل من الأنصار يأكل تمرات في يده . فقال : إني لحريص على الدنيا إن جلست حتى أفرغ منها ! فرمى ما في

يده وحمل بسيفه حتى قتل » . . وقد روي أن هذا كان هو عير بن الحمام عليه رضوان الله .
وبينما الصديقون في ذلك المقام والشهداء في هذا المقام يقول النص القرآني عن الكافرين المكذبين :
« والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » . .
فمن ذا الذي يترك الكرامة والنعم ، ويختار أن يكون من أصحاب الجحيم ؟ !

* * *

واللمسة الثالثة في هذا الشوط تجيء تعقيباً على دعوة الإيمان والبذل ، ودعوة الفداء والتضحية . تعقيباً يصور الدنيا كلها بصورة هزيلة زهيدة تهون من شأنها وترفع النفوس عنها ، وتعلقها بالآخرة وقيمها :
« اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً . وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان . وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

والحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحس أمراً عظيماً هائلاً . ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئاً زهيداً تافهاً . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة !

لعب . وهو . وزينة . وتفاخر . وتكاثر . . . هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل . . ثم يمضي يضرب لها مثلاً مصوراً على طريقة القرآن المبدعة . . « كمثل غيث أعجب الكفار نباته » . . والكفار هنا هم الزراع . فالكافر في اللغة هو الزارع ، يكفر أي يحجب الحبة ويغطيها في التراب . ولكن اختياره هنا فيه تورية وإلماع إلى إعجاب الكفار بالحياة الدنيا ! « ثم يهيج فتراه مصفراً » للحصاد . فهو موقوت الأجل ، ينتهي عاجلاً ، ويبلغ أجله قريباً « ثم يكون حطاماً » . . وينتهي شريط الحياة كلها بهذه الصورة المتحركة المأخوذة من مشاهدات البشر المألوفة . . ينتهي بمشهد الحطام !

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ، ويستعد له : « وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان » . . فهي لا تنتهي في لحظة كما تنتهي الحياة الدنيا . وهي لا تنتهي إلى حطام كذلك النبات البالغ أجله . . إنها حساب وجزاء . . ودوام . . يستحق الاهتمام !

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » . .

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع .

وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة . حقيقة لا يقصد بها القرآن العزلة عن حياة الأرض ، ولا إهمال عمارتها وخلافاتها التي ناطها بهذا الكائن البشري^١ . إنما يقصد بها تصحيح المقاييس الشعورية والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض . هذا الاستعلاء الذي كان المخاطبون بهذه السورة في حاجة إليه ليحققوا إيمانهم . والذي يحتاج إليه كل مؤمن بعقيدة ، ليحقق عقيدته ؛ ولو اقتضى تحقيقها أن يضحي بهذه الحياة الدنيا جميعاً .

(١) يرجع إلى تفسير قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . . في سورة الذاريات في هذا الجزء .

ومن ثم يدعوههم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي ، للغاية التي تستحق السباق . الغاية التي تنتهي إليها مصائرهم ، والتي تلازمهم بعد ذلك في عالم البقاء :

« سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم » ..

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض :

« جنة عرضها كعرض السماء والأرض » ..

وربما كان بعضهم في الزمن الخالي - قبل أن تكشف بعض الحقائق عن سعة هذا الكون - يميل إلى حمل مثل هذه الآية على المجاز ، وكذلك حمل بعض الأحاديث النبوية . كذلك الحديث الذي أسلفنا عن أصحاب الغرف التي يترأها سكان الجنة كما يترأون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب .. فأما اليوم ومراسد البشر الصغيرة تكشف عن الأبعاد الكونية الهائلة التي ليس لها حدود ، فإن الحديث عن عرض الجنة ، والحديث عن تراءي الغرف من بعيد ، يقع قطعاً موقع الحقيقة القريبة البسيطة المشهودة ، ولا يحتاج إلى حمله على المجاز إطلاقاً ! فإن ما بين الأرض والشمس مثلاً لا يبلغ أن يكون شيئاً في أبعاد الكون يقاس ! وذلك الملك العريض في الجنة يبلغه كل من أراد ، ويسابق إليه كل من يشاء . وعربونه : الإيمان بالله ورسله .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .. « والله ذو الفضل العظيم » .. وفضل الله غير محجوز ولا محجور . فهو مباح متاح للراغبين والسابقين . وفي هذا فليتسابق المتسابقون ، لا في رقعة الأرض المحدودة الأجل المحدودة الأركان !

ولا بد لصاحب العقيدة أن يتعامل مع هذا الوجود الكبير ؛ ولا يحصر نفسه ونظره وتصوره واهتمامه ومشاعره في عالم الأرض الضيق الصغير .. لا بد له من هذا ليؤدي دوره اللائق بصاحب العقيدة . هذا الدور الشاق الذي يصطدم بحقارات الناس وأطماعهم ، كما يصطدم بضلال القلوب والتواء النفوس . ويعاني من مقاومة الباطل وتشبته بموضعه من الأرض ما لا يصبر عليه إلا من يتعامل مع وجود أكبر من هذه الحياة ، وأوسع من هذه الأرض ، وأبقى من ذلك الفناء ..

إن مقاييس هذه الأرض وموازينها لا تمثل الحقيقة التي ينبغي أن تستقر في ضمير صاحب العقيدة . وما تبلغ من تمثيل تلك الحقيقة إلا بقدر ما يبلغ حجم الأرض بالقياس إلى حجم الكون ؛ وما يبلغ عمر الأرض بالقياس إلى الأزل والأبد . والفارق هائل هائل لا تبلغ مقاييس الأرض كلها أن تحدده ولا حتى أن تشير إليه ! ومن ثم يبقى صاحب العقيدة في أفق الحقيقة الكبيرة مستعلياً على واقع الأرض الصغير . مهما تضخم هذا الواقع وامتد واستطال . يبقى يتعامل مع تلك الحقيقة الكبيرة الطليقة من قيود هذا الواقع الصغير . ويتعامل مع الوجود الكبير الذي يتمثله في الأزل والأبد . وفي ملك الآخرة الواسع العريض . وفي القيم الإيمانية الثابتة التي لا تهتر لخلل يقع في موازين الحياة الدنيا الصغيرة الخادعة .. وتلك وظيفة الإيمان في حياة أصحاب العقائد المختارين لتعديل قيم الحياة وموازينها ، لا للتعامل بها والخضوع لمقتضياتها ...

* * *

ثم نجيء للمسة الرابعة في إيقاع عميق ، عن قدر الله ، الذي لا يكون سواه :

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها . إن ذلك على الله يسير .

لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » ..

إن هذا الوجود من الدقة والتقدير بحيث لا يقع فيه حادث إلا وهو مقدر من قبل في تصميمه ، محسوب حسابه في كيانه .. لا مكان فيه للمصادفة . ولا شيء فيه جزاف . وقبل خلق الأرض وقبل خلق الأنفس كان في علم الله الكامل الشامل الدقيق كل حدث سيظهر للخلائق في وقته المقدور .. وفي علم الله لا شيء ماض ، ولا شيء حاضر ، ولا شيء قادم . فتلك الفواصل الزمنية إنما هي معالم لنا - نحن أبناء الفناء - نرى بها حدود الأشياء . فنحن لا ندرك الأشياء بغير حدود تميزها . حدود من الزمان وحدود من المكان . نحن لا نملك إدراك المطلق إلا في ومضات تتصل فيها أرواحنا بذلك المطلق ، عن طريق غير الطريق الذي اعتدناه في إدراك الأشياء . فأما الله - سبحانه - فهو الحقيقة المطلقة التي تطلع جملة على هذا الوجود ، بلا حدود ولا قيود . وهذا الكون وما يقع فيه من أحداث وأطوار منذ نشأته إلى نهايته كائن في علم الله جملة لا حدود فيه ولا فواصل من زمان أو مكان . ولكل حادث موضعه في تصميمه الكلي المكشوف لعلم الله . فكل مصيبة - من خير أو شر فاللفظ على إطلاقه اللغوي لا يختص بخير ولا بشر - تقع في الأرض كلها وفي أنفس البشر أو المخاطبين منهم يومها . هي في ذلك الكتاب الأزلي من قبل ظهور الأرض وظهور الأنفس في صورتها التي ظهرت بها . « إن ذلك على الله يسير » ..

وقيمة هذه الحقيقة التي لا يتصور العقل غيرها حين يتصور حقيقة الوجود الكبرى . قيمتها في النفس البشرية أن تسكب فيها السكون والطمأنينة عند استقبال الأحداث خيرها وشرها . فلا تجزع الجزع الذي تطير به شعاعاً وتذهب معه حسرات عند الضراء . ولا تفرح الفرح الذي تستطار به وتفقد الاتزان عند السراء :

« لكي لا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » ..

فاتساع أفق النظر ، والتعامل مع الوجود الكبير ، وتصور الأزل والأبد ، ورؤية الأحداث في مواضعها المقدرة في علم الله ، الثابتة في تصميم هذا الكون .. كل أولئك يجعل النفس أفسح وأكبر وأكثر ثباتاً ورزاقاً في مواجهة الأحداث العابرة . حين تتكشف للوجود الإنساني وهي مارة به في حركة الوجود الكوني .

إن الإنسان يجزع ويستطار وتستخفه الأحداث حين ينفصل بذاته عن هذا الوجود . ويتعامل مع الأحداث كأنها شيء عارض يصادم وجوده الصغير . فأما حين يستقر في تصوره وشعوره أنه هو والأحداث التي تمر به ، وتمر بغيره ، والأرض كلها .. ذرات في جسم كبير هو هذا الوجود .. وأن هذه الذرات كائنة في موضعها في التصميم الكامل الدقيق . لازم بعضها لبعض . وأن ذلك كله مقدر مرسوم معلوم في علم الله المكنون .. حين يستقر هذا في تصوره وشعوره ، فإنه يحس بالراحة والطمأنينة لمواقع القدر كلها على السواء . فلا يأسى على فائت أسى يضعضه ويلزله ، ولا يفرح بخاصل فرحاً يستخفه ويذهله . ولكن يمضي مع قدر الله في طواعية وفي رضى . رضى العارف المدرك أن ما هو كائن هو الذي ينبغي أن يكون !

وهذه درجة قد لا يستطيعها إلا القليلون . فأما سائر المؤمنين فالملوب منهم ألا يخرجهم الألم للضراء ، ولا الفرح بالسراء عن دائرة التوجه إلى الله ، وذكره بهذه وبذلك ، والاعتدال في الفرح والحزن . قال عكرمة - رضي الله عنه - « ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً » .. وهذا هو اعتدال الإسلام الميسر للأسوياء ..

« والله لا يحب كل مختال فخور . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » ..

وجه الصلة بين الحقيقة السابقة وبين الاختيال والفخر ، ثم بين هذا وذلك وبين البخل والأمر بالبخل ، هو أن من يشعر بأن كل ما يصيبه هو من أمر الله ، لا يفتخر ولا يفخر بما يعطاه . ولا يبخل ولا يأمر بالبخل في عطاء . فأما الذي لا يشعر بتلك الحقيقة فيحسب أن ما يؤتاه من مال وقوة وجاه هو من كسبه فيفخر ويختال به ، ثم يبخل كذلك ببذل شيء منه ، ويحث غيره على البخل ليحقق مبدأه ومنهجه !

« ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » ..

فمن ينفق فإنما ينفق لنفسه ، ومن يستجب فإنما يستجيب لمصلحته . والله هو الغني فما به من حاجة إلى العباد المحاويج . والله هو الحميد بذاته فما يناله شيء من حمد الحامدين !

* * *

وفي النهاية يجيء المقطع الأخير في السورة ، يعرض باختصار خط سير الرسالة ، وتاريخ هذه العقيدة ، من لدن نوح وإبراهيم ؛ مقررًا حقيقتها وغايتها في دنيا الناس ؛ ملماً بحال أهل الكتاب وأتباع عيسى - عليه السلام - بصفة خاصة .

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . إن الله قوي عزيز . ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم ، وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ، فنههم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم ، وآتيناه الإنجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم ، إلا ابتغاء رضوان الله ، فارعوها حق رعايتها ، فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » ..

فالرسالة واحدة في جوهرها ، جاء بها الرسل ومعهم البينات عليها ، ومعظمهم جاء بالمعجزات الخوارق . وبعضهم أنزل عليه كتاب . والنص يقول : « وأنزلنا معهم الكتاب » بوصفهم وحدة ، وبوصف الكتاب وحدة كذلك ، إشارة إلى وحدة الرسالة في جوهرها .

« والميزان » .. مع الكتاب . فكل الرسائل جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ؛ وتقيم عليه حياتها في مآمن من اضطراب الأهواء واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع . ميزاناً لا يحايي أحداً لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع .

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة . « ليقوم الناس بالقسط » .. فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته ، لا يهتدي الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه ، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء !

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » ..

والتعبير (بأنزلنا الحديد) كالتعبير في موضع آخر بقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » . كلاهما يشير إلى إرادة الله وتقديره في خلق الأشياء والأحداث ، فهي منزلة بقدره وتقديره . فوق ما فيه هنا من تناسق مع جو الآية ، وهو جو تنزيل الكتاب والميزان ، فكذلك ما خلقه الله من شيء مقدر تقدير كتابه وميزانه .

أنزل الله الحديد « فيه بأس شديد » .. وهو قوة في الحرب والسلم « ومنافع للناس » .. وتكاد حضارة البشر القائمة الآن تقوم على الحديد . « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . وهي إشارة إلى الجهاد بالسلاح ، تبيء في موضعها في السورة التي تتحدث عن بذل النفس والمال .

ولما تحدث عن الذين ينصرون الله ورسله بالغيب ، عقب على هذا بإيضاح معنى نصرهم لله ورسله ، فهو نصر لمنهجه ودعوته ، أما الله سبحانه فلا يحتاج منهم إلى نصر : « إن الله قوي عزيز » ..

ولما انتهى من تقرير وحدة الرسالة في جوهرها وكتابتها وميزانها عاد يقرر وحدتها في رجالها ، فهم من ذرية نوح وإبراهيم .

« ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب » ..

فهي شجرة واحدة باسقة ، متشابكة الفروع ، فيها النبوة والكتاب . ممتدة من فجر البشرية منذ نوح ، حتى إذا انتهت إلى إبراهيم ، تفرعت وامتدت وانبثقت النبوات من ذلك الفرع الكبير الذي صار أصلاً باسقاً ممتداً إلى آخر الرسالات .

فأما الذرية التي جاءتها النبوات والكتب فلم تكن على شاكلة واحدة : « ففهم مهتد وكثير منهم فاسقون » .. وهو تلخيص قصير لذلك الخط الطويل !

وقرب نهاية الخط يجيء عيسى بن مريم :

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم » ..

أي على آثار السابقين من ذرية نوح وإبراهيم . فكانت الرسالة ممتدة واحدة على إثر واحدة حتى جاء عيسى ابن مريم .

ويذكر هنا صفة بارزة من صفات الذين اتبعوا عيسى بن مريم : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة » .. وهم الثمرة الطبيعية لدعوة المسيح - عليه السلام - وروحها السمحة وتطهرها الروحي ، وشفافيتها الوضیئة والرأفة والرحمة ظاهرة واضحة في المؤمنين حقيقة برسالة عيسى عليه السلام ، ممن أحسنوا اتباعه . وقد أشارت إليها آيات أخرى في القرآن الكريم ، كما حفظ منها التاريخ صوراً يرويها الرواة عن النجاشي وعن وفد نجران وعن أفراد ممن وفدوا على دار الإسلام بعد ظهوره راغبين في الإسلام ، بحكم ما استقر في قلوبهم من الحق ، مذ كانوا أتباع عيسى بن مريم بحق .

كذلك يذكر النص هنا ظاهرة أخرى عرفت في تاريخ أتباع المسيح عيسى بن مريم : « ورهبانية ابتدعوها - ما كتبناها عليهم - إلا ابتغاء رضوان الله » ..

والراجع في تفسير الآية أن هذه الرهبانية التي عرفها تاريخ المسيحية كانت اختياراً من بعض أتباع عيسى عليه السلام ، ابتدعوها من عند أنفسهم ابتغاء رضوان الله ، وابتعاداً عن أوضاع الحياة ، ولم يكتبها الله عليهم ابتداء . ولكنهم حين اختاروها وأوجبوها على أنفسهم صاروا مرتبطين أمام الله بأن يرعوا حقوقها ، ويحافظوا على مقتضياتها من تطهر وترفع ، وقناعة وعفة ، وذكر وعبادة .. مما يحقق في أنفسهم حقيقة التجرد لله ، التي قصدوا إليها بهذه الرهبانية التي ابتدعوها .

ولكنها انتهت إلى أن تصبح في الغالب طقوساً وشعائر خالية من الروح ، وأن يتخذها الكثيرون مظهرًا عاريًا من الحقيقة . فلا يصبر على تكاليفها إلا عدد منهم قليل :

« فما رعوها حق رعايتها . فآتيننا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » ..
والله لا يأخذ الناس بالمظاهر والأشكال ، ولا بالطقوس والمسوح . إنما يأخذهم بالعمل والنية ، ويحاسبهم على حقيقة الشعور والسلوك . وهو الذي يعلم خبايا القلوب وذوات الصدور .

* * *

وبعد هذا العرض السريع يجيء الهتاف الأخير للذين آمنوا ، وهم الحلقة الأخيرة في سلسلة المؤمنين برسالة الله في تاريخها الطويل ؛ وورثة هذه الرسالة الذين يقومون عليها إلى يوم الدين :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » ..

ونداؤهم على هذا النحو : « يا أيها الذين آمنوا » فيه لمسة خاصة لقلوبهم ، واستحياء لمعنى الإيمان ، وتذكير برعايته حق رعايته ؛ واستجاشة للصلة التي تربطهم بربهم الذي يناديهم هذا النداء الكريم الحبيب . وباسم هذه الصلة يدعوهم إلى تقوى الله والإيمان برسوله . فيبدو للإيمان المطلوب معنى خاص .. معنى حقيقة الإيمان وما ينبثق عنها من آثار .

اتقوا الله وآمنوا برسوله .. « يؤتكم كفلين من رحمته » .. أي يعطكم نصيبين من رحمته وهو تعبير عجيب . فرحمة الله لا تتجزأ ، ومجرد مسها لإنسان يمنحه حقيقتها . ولكن في هذا التعبير زيادة امتداد للرحمة وزيادة فيض ..

« ويجعل لكم نوراً تمشون به » . وهي هبة لدنية يودعها الله القلوب التي تستشعر تقواه ، وتؤمن حق الإيمان برسوله . هبة تنير تلك القلوب فتشرق ، وترى الحقيقة من وراء الحجب والحواجز ، ومن وراء الأشكال والمظاهر ؛ فلا تتخبط ، ولا تلتوي بها الطريق .. « نوراً تمشون به » ..

« ويغفر لكم . والله غفور رحيم » ... فالإنسان إنسان مهما وهب من النور . إنسان يقصر حتى لو عرف الطريق . إنسان يحتاج إلى المغفرة فتدركه رحمة الله .. « والله غفور رحيم » ..

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله » . لتنالوا كفلين من رحمة الله . ويكون لكم ذلك النور تمشون به . وتدرركم رحمة الله بالمغفرة من الذنب والتقصير .. « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله . وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .. فقد كان أهل الكتاب يزعمون أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا » .. « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » .. فالله يدعو الذين آمنوا إلى استحقاق رحمته وجنته وهبته ومغفرته حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على احتجاز شيء من فضله ، وأن الفضل بيده يؤتيه من يشاء ، غير مقصور على قوم ، ولا محجوز لطائفة ، ولا محدود ولا قليل : « والله ذو الفضل العظيم » ..

وهي دعوة فيها تحضيض واستجاشة واستشارة للسباق إلى الجنة والرحمة . تختتم بها السورة ختاماً يتناسق مع سياقها كله ، ومع الهتاف المكرر فيها لهذه القلوب كي تحقق إيمانها وتخشع لربها وتستجيب لتكاليف الإيمان في الأموال والأرواح . في تجرد وإخلاص .

* * *

الجزء السابع والعشرون

وبعد فهذه السورة نموذج من النماذج القرآنية الواضحة في خطاب القلوب البشرية ، واستجاشتها بأسلوب عميق التأثير . وهي في بدئها وسياقها وختامها ؛ وفي إيقاعاتها وصورها وظلالها ؛ وفي طريقة تناولها للموضوع وسيرها فيه جولة بعد جولة ، وشوطاً بعد شوط .. هي في هذا كله درس بديع لأصحاب هذه الدعوة ، يعلمهم كيف يخاطبون الناس ، وكيف يوقظون الفطرة ، وكيف يستحيون القلوب !
إنها درس رباني من صانع القلوب ، ومترنل القرآن ، وخالق كل شيء بقدر . وفي هذه المدرسة الإلهية يتخرج الدعاة المستجابون الموفقون ...

* * *

انتهى الجزء السابع والعشرون
ويليه الجزء الثامن والعشرون
مبدوءاً بسورة المجادلة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ

إِلَى سُورَةِ التَّحْرِيمِ

الْحِزْبُ الثَّامِنُ وَالْعِشْرُونَ

(٥٨) سُورَةُ الْحَجَّارَةِ مَدِينَةٍ وَآيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾
الَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْكُمْ مَنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا
مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ۖ فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أُنْزِلَتْ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْأَيْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ
وَإِذَا جَاءَهُمْ حَبْرُكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكْ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا

فَيَسِّرُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجُوا بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجُوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النُّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٌ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرٌ ۚ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقْتُمْ ۚ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ ۖ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَلَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَأَتَّخِذُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

نحن في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله تقريباً - مع أحداث السيرة في المجتمع المدني . مع الجماعة المسلمة الناشئة ؛ حيث تُربى وتقوّم ، وتعد للنهوض بدورها العالمي ، بل بدورها الكوني ، الذي قدره الله لها في دورة هذا الكون ومقدّراته . وهو دور ضخم يبدأ من إنشاء تصور جديد كامل شامل لهذه الحياة ، في نفوس هذه الجماعة ، وإقامة حياة واقعية على أساس هذا التصور ، ثم تحمله هذه الجماعة إلى العالم كله لتنشئ للبشرية حياة إنسانية قائمة على أساس هذا التصور كذلك .. وهو دور ضخم إذن يقتضي إعداداً كاملاً .

ولقد كان أولئك المسلمون الذين يعدّهم القدر لهذا الدور الضخم ، ناساً من الناس . منهم السابقون من المهاجرين والأنصار الذين نضج إيمانهم ، واكمل تصورهم للعقيدة الجديدة ، وخلصت نفوسهم لها ، ووصلوا .. وصلوا إلى حقيقة وجودهم وحقيقة هذا الوجود الكبير ؛ واندمجت حقيقتهم مع حقيقة الوجود ، فأصبحوا بهذا طرفاً من قدر الله في الكون ؛ لا يجدون في أنفسهم عوجاً عنه ، ولا يجدون في خطاهم تخلفاً عن خطاه ، ولا يجدون في قلوبهم شيئاً إلا الله .. كانوا كما جاء عنهم في هذه السورة : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » ..

ولكن هؤلاء السابقين كانوا قلة بالقياس إلى الجماعة المسلمة المتزايدة العدد - وبخاصة بعد أن أصبح الإسلام قوة ترهب - حتى قبل الفتح - ودخل فيه من لم يتلق من التربية الإسلامية القسط الكافي ، ولم يتنفس في الجو الإسلامي فترة طويلة . كما دخل فيه من المنافقين من آثر المصلحة أو العافية على دَخل في القلوب ، وتربص بالفرص ، وذنبه بين المعسكر الإسلامي والمعسكرات القوية المناوئة له في ذلك الحين . سواء معسكرات المشركين أو اليهود !

ولقد اقتضت تربية النفوس وإعدادها للدور الكوني الكبير المقدر لها في الأرض جهوداً ضخمة ، وصبراً طويلاً ، وعلاجاً بطيئاً ، في صغار الأمور وفي كبارها .. كانت حركة بناء هائلة هذه التي قام بها الإسلام ، وقام بها رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - بناء النفوس التي تنهض ببناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ، وتقوم على منهج الله ، تفهمه وتحققه ، وتنقله إلى أطراف الأرض في صورة حية متحركة ، لا في صحائف وكلمات . ونحن نشهد في هذه السورة - وفي هذا الجزء كله - طرفاً من تلك الجهود الضخمة ، وطرفاً من الأسلوب القرآني كذلك في بناء تلك النفوس ، وفي علاج الأحداث والعادات والتزوات ؛ كما نشهد جانباً من الصراع الطويل بين الإسلام وخصومه المختلفين من مشركين ويهود ومنافقين .

وفي هذه السورة بصفة خاصة نشهد صورة موحية من رعاية الله للجماعة الناشئة ؛ وهو يصنعها على عينه ، ويربّيها بمنهجه ، ويشعرها برعايته ، ويبني في ضميرها الشعور الحي بوجوده - سبحانه - معها في أخص خصائصها ، وأصغر شؤونها ، وأخفى طواياها ؛ وحراسته لها من كيد أعدائها خفيه وظاهره ؛ وأخذها في حماه وكنفه ، وضمها إلى لوائه وظله ؛ وتربية أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله ، وتنسب إليه ، وتؤلف حزبه في الأرض ، وترفع لواءه لتعرف به في الأرض جميعاً .

ومن ثم تبدأ السورة بصورة عجيبة من صور هذه الفترة الفريدة في تاريخ البشرية . فترة اتصال السماء بالأرض في صورة مباشرة محسوسة ، ومشاركتها في الحياة اليومية لجماعة من الناس مشاركة ظاهرة : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » .. فنشهد السماء

تتدخل في شأن يومي لأسرة صغيرة فقيرة مغمورة ، لتقرر حكم الله في قضيتها ، وقد سمع - سبحانه - للمرأة وهي تحاور رسول الله فيها ، ولم تكذب تسمعها عائشة وهي قريبة منها ! وهي صورة تملأ القلب بوجود الله وقربه وعطفه ورعايته .

يليه في سياق السورة تأكيد أن الذين يحادون الله ورسوله - وهم أعداء الجماعة المسلمة التي تعيش في كنف الله - مكتوب عليهم الكبت والقهر في الأرض ، والعذاب المهين في الآخرة ، مأخوذون بما عملوا مما أحصاه الله عليهم ، ونسوه هم وهم فاعلوه ! « والله على كل شيء شهيد » ..

ثم تأكيد وتذكير بحضور الله - سبحانه - وشهوده لكل نجوى في خلوة ، يحسب أصحابها أنهم منفردون بها . والله معهم أينما كانوا : « ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » .. وهي صورة تملأ القلب كذلك بوجود الله وحضوره ، كما تملؤه برقايته وإطلاعه .

وهذا التأكيد مقدمة لتهديد الذين يتناجون في خلواتهم لتدبير المكائد للمسلمين ، وملء قلوبهم بالحزن والهم والتوجس . تهديد بأن أمرهم مكشوف ، وأن عين الله مطلعة عليهم ، ونجواهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مسجلة ، وأن الله آخذهم بها ومعذبهم عليها . ونهي للمسلمين عن التناجي بغير البر والتقوى ، وتربية نفوسهم وتقويمها بهذا الخصوص .

ثم يستطرد في تربية هذه النفوس المؤمنة ؛ فيأخذها بأدب السماحة وبالطاعة في مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومجالس العلم والذكر . كما يأخذها بأدب السؤال والحديث مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - والجد في هذا الأمر والتوقير .

أما بقية السورة بعد هذا فتتصرف إلى الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود ؛ ويتآمرون معهم ، ويدارون تآمرهم بالكذب والحلف للرسول وللمؤمنين . وتصورهم في الآخرة كذلك حلافين كذابين ؛ يتقون بالحلف والكذب ما يواجههم من عذاب الله ، كما كانوا يتقون بهما في الدنيا ما يواجههم من غضب رسول الله والمؤمنين ! مع تأكيد أن الذين يحادون الله ورسوله كتب الله عليهم أنهم في الأذلين وأنهم هم الأخسرون . كما كتب أنه ورسوله هم الغالبون . وذلك تهوينا لشأنهم ، الذي كان بعض المنتسبين إلى الإسلام - وبعض المسلمين - يستعظمه ، فيحافظ على مودته معهم ، ولا يدرك ضرورة تميز الصف المسلم تحت راية الله وحدها ، والاعتزاز برعاية الله وحده ، والاطمئنان إلى حراسته الساهرة للفئة التي يصنعها على عينه ، ويهيئها لدورها الكوني المرسوم .

وفي ختام السورة تبيء تلك الصورة الوضيئة لحزب الله . هذه الصورة التي كان يمثلها بالفعل أولئك السابقون من المهاجرين والأنصار . والتي كانت الآية الكريمة تشير لها كي ينتهي إليها أولئك الذين ما زالوا بعد في الطريق ! « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله .. » الخ الآية ... كما وردت في أول هذا التقديم ..

* * *

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله . وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » ..

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته فيقول : أنت عليّ كظهر أمي . فتحرم عليه ، ولا تطلق منه . وتبقى هكذا ، لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية ؛ ولا هي مطلقة منه فتجد لها طريقاً آخر . وكان هذا طرفاً من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية .

فلما كان الإسلام وقعت هذه الحادثة التي تشير إليها هذه الآيات ، ولم يكن قد شرع حكم للظهار . قال الإمام أحمد : حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب ، قالا : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني معمر ابن عبد الله بن حنظلة ، عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة . قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة . قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت علي كظهر أمي . قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي ، فإذا هو يريدني عن نفسي ، قالت : قلت : كلا والذي نفس خويلة بيده ، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثني ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني . قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيّ قرآن ؛ فتعشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كان يتغشاها ، ثم سري عنه ، فقال لي : « يا خويلة قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً » .. ثم قرأ علي - : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير » .. إلى قوله تعالى : « وللكافرين عذاب أليم » .. قالت : فقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مريه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت : يا رسول الله ما عنده ما يعتق . قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه لشيخ ماله من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » . قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده . قالت : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فإننا سنعيّنه بعرق من تمر » . قالت : فقلت : يا رسول الله وأنا سأعيّنه بعرق آخر . قال : « قد أصبت وأحسن فتصدق به عنه ، ثم استوصي بآبن عمك خيراً » . قالت : ففعلت^١ .

فهذا هو الشأن الذي سمع الله ما دار فيه من حوار بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمرأة التي جاءت تجادله فيه . وهذا هو الشأن الذي أنزل الله فيه حكمه من فوق سبع سماوات ، ليعطي هذه المرأة حقها ، ويريح بالها وبال زوجها ، ويرسم للمسلمين الطريق في مثل هذه المشكلة العائلية اليومية !

وهذا هو الشأن الذي تفتتح به سورة من سور القرآن : كتاب الله الخالد ، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكل كلمة من كلماته ، وهي تنزل من الملاء الأعلى : . تفتتح بمثل هذا الإعلان : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها ... » فإذا الله حاضر هذا الشأن الفردي لامرأة من عامة المسلمين ، لا يشغله عن سماعه تدبيره للمكوت السماوات والأرض ؛ ولا يشغله عن الحكم فيه شأن من شؤون السماوات والأرض !

وإنه لأمر .. إنه لأمر أن يقع مثل هذا الحادث العجيب ؛ وأن تشعر جماعة من الناس أن الله هكذا معها ، حاضر شؤونها ، جليلها وصغيرها ، معني بمشكلاتها اليومية ، مستجيب لأزماتها العادية .. وهو الله .. الكبير

(١) رواه أبو داود في كتاب الطلاق من سننه من طريقين عن محمد بن إسحاق بن يسار .. والعرق ستون صاعاً .

المتعال ، العظيم الجليل ، القهار المتكبر ، الذي له ملك السماوات والأرض وهو الغني الحميد .
تقول عائشة - رضي الله عنها - : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في جانب البيت ، ما أسمع ما تقول . فأنزل الله عز وجل : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ... الآية »^١ .

وفي رواية خولة - أو خويلة للتصغير والتدليل - للحادث ، وتصرفها هي فيه ، وذهابها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومجادلتها له ، ونزول القرآن بالحكم .. في هذا كله صورة من حياة تلك الجماعة الفريدة في تلك الفترة العجبية . وشعورها بتلك الصلة المباشرة ، وانتظارها التوجيه من السماء في كل شأن من شؤونها واستجابة السماء لهذا الانتظار ، الذي يجعل الجماعة كلها - عيال الله - هو يرعاها وهي تتطلع إليه تطلع الطفل الصغير لأبيه وراعيه !

وننظر في رواية الحادث في النص القرآني ، فنجد عناصر التأثير والإيحاء والتربية والتوجيه تسير جنباً إلى جنب مع الحكم وتتخلله وتعقب عليه ، كما هو أسلوب القرآن الفريد :

« قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير » .. وهو مطلع ذو إيقاع عجيب .. إنكما لم تكونا وحدكما .. لقد كان الله معكما . وكان يسمع لكما . لقد سمع قول المرأة . سمعها تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله . وعلم القصة كلها . وهو يعلم تحاوركما وما كان فيه .. إن الله سميع بصير . يسمع ويرى . هذا شأنه وهذه صورة منه في الحادث الذي كان الله ثالثكما فيه .. وكلها إيقاعات ولمسات تهز القلوب ..

ثم يقرر أصل القضية ، وحقيقة الوضع فيها :

« الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم . وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور » ..

فهو علاج للقضية من أساسها . إن هذا الظهار قائم على غير أصل . فالزوجة ليست أمّاً حتى تكون محرمة كالأم . فالأم هي التي ولدت . ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أمّاً بكلمة تقال . إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع . وكلمة مزورة ينكرها الحق . والأمور في الحياة يجب أن تقوم على الحق والواقع ، في وضوح وتحديد ، فلا تختلط ذلك الاختلاط ، ولا تضطرب هذا الاضطراب .. « وإن الله لعفو غفور » فيما سلف من هذه الأمور .

وبعد تقرير أصل القضية على هذا النحو المحدد الواضح يحییء الحكم القضائي في الموضوع . « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا . ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير » .. وقد جعل الله العتق في كفارات متنوعة ، وسيلة من وسائل التحرير للرقاب التي أوقعها نظام الحروب في الرق إلى أجل ، ينتهي بوسائل شتى هذه واحدة منها . وهناك أقوال كثيرة في معنى : « ثم يعودون لما قالوا » .. نختار منها أنهم يعودون إلى الوطء الذي حرّمه على أنفسهم بالظهار . فهذا أقرب ما يناسب السياق . فتحرير رقبة من قبل العودة إلى حله .. ثم التعقيب : « ذلكم توعظون به » .. فالكفارة مذكّر وواعظ بعدم العودة إلى الظهار الذي لا يقوم على حق ولا معروف « والله بما تعملون خبير » .. خبير بحقيقته ، وخبير بوقوعه ، وخبير ببنيتكم فيه .

وهذا التعقيب يحییء قبل إتمام الحكم لإيقاظ القلوب ، وتربية النفوس ، وتنبیها إلى قیام الله على الأمر بخبرته وعلمه بظاهره وخافیه . ثم يتابع بیان الحكم فيه :

« فن لم یجد فصیام شهرین متتابعین من قبل أن یتأسا . فن لم یستطع فإطعام ستین مسکیناً » ...

ثم التعقيب للبیان والتوجيه :

« ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » ... وهم مؤمنون .. ولكن هذا البیان ، وهذه الکفارات وما فیها من ربط أحوالهم بأمر الله وقضائه .. ذلك مما یحقق الإیمان ، ويربط به الحیاة ؛ ویجعل له سلطاناً بارزاً فی واقع الحیاة . « وتلك حدود الله » .. أقامها لیقف الناس عندها لا یتعدونها . وهو یغضب على من لا یرعاها ولا یتحرج دونها : « وللكافرين عذاب أليم » .. بتعديهم وتحديهم وعدم إیمانهم وعدم وقوفهم عند حدود الله کالمؤمنین ..

* * *

وتلك العبارة الأخيرة : « وللكافرين عذاب أليم » .. تناسب ختام الآیة السابقة ، وهي فی الوقت ذاته نقطة تربط بینها و بین الآیة اللاحقة التي تتحدث عن یحادون الله ورسوله . على طريقة القرآن فی الانتقال من حدیث لحدیث فی تسلسل عجیب :

« إن الذين یحادون الله ورسوله کتبوا کتب الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا آیات بینات وللكافرين عذاب مهین . يوم یبعثهم الله جمیعاً ، فینبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه ، والله على کل شیء شهید » ..

إن المقطع الأول فی السورة كان صورة من صور الرعاية والعناية بالجماعة المسلمة . وهذا المقطع الثاني صورة من صور الحرب والنکایة للفریق الآخر . فریق الذين یحادون الله ورسوله ، أي الذين يأخذون لهم موقفاً عند الحد الآخر فی مواجهة الله ورسوله ! وذكر المحادة بمناسبة ذكره قبلها لحدود الله . فهؤلاء لا یقفون عند حد الله ورسوله ، بل عند الحد الآخر المواجه ! وهو تمثیل للمتخاصمین المتنازعين ، لتفطیع عملهم وتقبیح موقفهم . وساء موقف مخلوق یتحدى فی خالقه ورازقه ، ویقف فی تبجح عند الحد المواجه لحدده !

هؤلاء المحادون المشاقون المتبجحون : « کتبوا کما کتب الذين من قبلهم » .. والأرجح أن هذا دعاء علیهم . والدعاء من الله - سبحانه - حکم . فهو المرید وهو الفعال لما یرید . والکبت القهر والذل . والذين من قبلهم إما أن یمثلوا هم الغابرين من الأقوام الذين أخذهم الله بنکاله وإما أن یمثلوا الذين قهرهم المسلمون فی بعض المواقع التي تقدمت نزول هذه الآیة ، کما حدث فی غزوة بدر مثلاً .

« وقد أنزلنا آیات بینات » ..

تفصل هذه العبارة بین مصیر الذين یحادون الله ورسوله فی الدنیا ومصیرهم فی الآخرة .. لتقرر أن هذا المصیر وذاك تکفلت ببیانها هذه الآیات . وكذلك لتقرر أنهم یلاقون هذه المصائر لا عن جهل ولا عن غموض فی الحقیقة ، فقد وضحت لهم وعلموها بهذه الآیات البینات .

ثم یرعرض مصیرهم فی الآخرة مع التعقيب الموحی الموقظ المرئی للنفوس :

« وللكافرين عذاب مهین . يوم یبعثهم الله جمیعاً ، فینبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه . والله على کل شیء شهید » ..

والمهانة جزاء التبجح . وهي مهانة يوم يبعثهم الله جميعاً . مهانة على رؤوس الجموع . وهو عذاب يقوم على حق وبيان لما عملوا . إن كانوا هم قد نسوه فإن الله أحصاه بعلمه الذي لا يند عنه شيء ، ولا يغيب عنه خاف : « والله على كل شيء شهيد » ..

وتلتقي صورة الرعاية والعناية ، بصورة الحرب والنكاية ، في علم الله وإطلاعه ، وشهوده وحضوره . فهو شاهد حاضر للعون والرعاية ؛ وهو شاهد حاضر للحرب والنكاية . فليطمئن بحضوره وشهوده المؤمنون . وليحذر من حضوره وشهوده الكافرون !

* * *

ويستطرد السياق من تقرير حقيقة : « والله على كل شيء شهيد » .. إلى رسم صورة حية من هذا الشهود ، تمس أوتار القلوب :

« ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » ..

تبدأ الآية بتقرير علم الله الشامل لما في السماوات وما في الأرض على إطلاقه ، فتدع القلب يرود آفاق السماوات وأرجاء الأرض مع علم الله المحيط بكل شيء في هذا المدى الواسع المتطاوّل . من صغير وكبير ، وخاف وظاهر ، ومعلوم ومجهول ..

ثم تتدرج من هذه الآفاق وتلك الأرجاء ، وترحف وتقرب حتى تلمس ذوات المخاطبين وتمس قلوبهم بصورة من ذلك العلم الإلهي تهز القلوب :

« ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » ..

وهي حقيقة في ذاتها ، ولكنها تخرج في صورة لفظية عميقة التأثير . صورة تترك القلوب وجلة ترتعش مرة ، وتأنس مرة ، وهي مأخوذة بمحضر الله الجليل المأنوس . وحيثما اختلى ثلاثة تلتفتوا ليشعروا بالله رابعهم . وحيثما اجتمع خمسة تلتفتوا ليشعروا بالله سادسهم . وحيثما كان اثنان يتناجيان فالله هناك ! وحيثما كانوا أكثر فالله هناك ! إنها حالة لا يثبت لها قلب ؛ ولا يقوى على مواجهتها إلا وهو يرتعش ويهتز ... وهو محضر مأنوس نعم .. ولكنه كذلك جليل رهيب . محضر الله : « هو معهم أينما كانوا » ..

« ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » ..

وهذه لمسة أخرى تُرّجف وتزلزل .. إن مجرد حضور الله وسماعه أمر هائل . فكيف إذا كان لهذا الحضور والسماع ما بعده من حساب وعقاب ؟ وكيف إذا كان ما يسره المتناجون وينزلون به ليخفوه ، سيعرض على الأشهاد يوم القيامة وينبئهم الله به في الملأ الأعلى في ذلك اليوم المشهود ؟ ! وتنتهي الآية بصورة عامة كما بدأت :

« إن الله بكل شيء عليم » .

وهكذا تستقر حقيقة العلم الإلهي في القلوب ، بهذه الأساليب المتنوعة في عرضها في الآية الواحدة . الأساليب التي تعمق هذه الحقيقة في القلب البشري ، وهي تدخل بها عليه من شتى المسالك والدروب !

* * *

ذلك التقرير العميق لحقيقة حضور الله وشهوده في تلك الصورة المؤثرة المرهوبة تمهد لتهديد المنافقين ، الذين كانوا يتناجون فيما بينهم بالمؤامرات ضد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وضد الجماعة المسلمة بالمدينة . مع التعجيب من موقفهم المريب :

« ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ! حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » .

والآية توحى بأن خطة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع المنافقين في أول الأمر كانت هي النصيح لهم بالاستقامة والإخلاص ، ونهيهم عن الدسائس والمؤامرات التي يدبرونها بالاتفاق مع اليهود في المدينة وبوحيمهم . وأنهم بعد هذا كانوا يلجون في خطتهم اللثيمة ، وفي دسائسهم الخفية ، وفي التدبير السيئ للجماعة المسلمة ، وفي اختيار الطرق والوسائل التي يعصون بها أوامر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويفسدون عليه أمره وأمر المسلمين المخلصين .

كما أنها توحى بأن بعضهم كان يلتوي في صيغة التحية فيحورها إلى معنى سيئ خفي : « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » . كأن يقولوا - كما كان اليهود يقولون - السام عليكم . وهم يوهمون أنهم يقولون : السلام عليكم . بمعنى الموت لكم أو بمعنى تسامون في دينكم ! أو أية صيغة أخرى ظاهرها بريء وباطنها لئيم ! وهم يقولون في أنفسهم : لو كان نبياً حقاً لعاقبنا الله على قولنا هذا . أي في تحيتهم ، أو في مجالسهم التي يتناجون فيها ويدبرون الدسائس والمؤامرات .

وظاهر من سياق السورة من مطلعها أن الله قد أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما كانوا يقولونه في أنفسهم ، وبمجالسهم ومؤامراتهم . فقد سبق في السورة إعلان أن الله قد سمع للمرأة المجادلة ؛ وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم .. الخ . مما يوحي بأنه أطلع رسوله على مؤامرات أولئك المنافقين وهو حاضر مجالسهم ! وبما يقولونه كذلك في أنفسهم .

ثم رد عليهم بقوله تعالى :

« حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » .

وكشف هذه المؤامرات الخفية ، وإفشاء نجواهم التي عادوا إليها بعدما نهوا عنها ، وكذلك فضح ما كانوا يقولونه في أنفسهم : « لولا يعذبنا الله بما نقول » .. هذا كله هو تصديق وتطبيق لحقيقة علم الله بما في السماوات وما في الأرض ، وحضوره لكل نجوى ، وشهوده لكل اجتماع . وهو يوقع في نفوس المنافقين أن أمرهم مفضوح ، كما يوحي للمؤمنين بالاطمئنان والوثوق .

* * *

وهنا يلتفت إلى الذين آمنوا ، يخاطبهم بهذا النداء : « يا أيها الذين آمنوا » لينهاهم عن التناجي بما يتناجي به المنافقون من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، ويذكرهم تقوى الله ، ويبين لهم أن النجوى على هذا النحو هي من إيعاء الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، فليست تليق بالمؤمنين :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذي إليه تحشرون . إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، وعلى

الله فليتوكل المؤمنون » ..

ويبدو أن بعض المسلمين ممن لم تنطبع نفوسهم بعد بحاسة التنظيم الإسلامي ، كانوا يتجمعون عندما تحزب الأمور ، ليتناجوا فيما بينهم ويتشاوروا بعيداً عن قيادتهم . الأمر الذي لا تقره طبيعة الجماعة الإسلامية ، وروح التنظيم الإسلامي ، التي تقتضي عرض كل رأي وكل فكرة وكل اقتراح على القيادة ابتداء ، وعدم التجمعات الجانبية في الجماعة . كما يبدو أن بعض هذه التجمعات كان يدور فيها ما قد يؤدي إلى البلبلة ، وما يؤدي الجماعة المسلمة - ولو لم يكن قصد الإيذاء قائماً في نفوس المتناجين - ولكن مجرد إثارتهم للمسائل الجارية وإبداء الآراء فيها على غير علم ، قد يؤدي إلى الإيذاء ، وإلى عدم الطاعة .

وهنا يناديهم الله بصفاتهم التي تربطهم به ، وتجعل للنداء وقعه وتأثيره : « يا أيها الذين آمنوا » .. لينهاهم عن التناجي - إذا تناجوا - بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . ويبين لهم ما يليق بهم من الموضوعات التي يتناجى بها المؤمنون : « وتناجوا بالبر والتقوى » .. لتدبير وسائلهما وتحقيق مدلولهما . والبر : الخير عامة . والتقوى : اليقظة والرقابة لله سبحانه ، وهي لا توحى إلا بالخير . ويذكركم بمخافة الله الذي يحشرون إليه ، فيحاسبهم بما كسبوا . وهو شاهده ومحصيه . مهما ستره وأخفوه .

قال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان ، قالا : أخبرنا همام ، عن قتادة ، عن صفوان بن محرز ، قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن الله يدني المؤمن ، فيضع عليه كنفه ، ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسنة . وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين »^١ .

ثم ينفرهم من التناجي والمسارة والتدسس بالقول في خفية عن الجماعة المسلمة ، التي هم منها ، ومصالحتهم ومصالحتها ، وينبغي ألا يشعروا بالانفصال عنها في شأن من الشئون . فيقول لهم : إن رؤية المسلمين للوسوسة والهمس والانزعال بالحديث تبث في قلوبهم الحزن والتوجس ، وتخلق جواً من عدم الثقة ، وأن الشيطان يغري المتناجين ليحزنوا نفوس إخوانهم ويدخلوا إليها الوسوس والهموم . ويطمئن المؤمنين بأن الشيطان لن يبلغ فيهم ما يريد :

« إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئاً - إلا بإذن الله - وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

فالمؤمنون لا يتوكلون إلا على الله . فليس وراء ذلك توكل ، وليس من دون الله من يتوكل عليه المؤمنون ! وقد وردت الأحاديث النبوية الكريمة بالنهي عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة وترزعزع الثقة وتبعث التوجس :

جاء في الصحيحين من حديث الأعمش - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » .

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

وهو أدب رفيع ، كما أنه تحفظ حكيم لإبعاد كل الريب والشكوك . فأما حيث تكون هناك مصلحة في كتمان سر ، أو ستر عورة ، في شأن عام أو خاص ، فلا مانع من التشاور في سر وتكتم . وهذا يكون عادة بين القادة المسئولين عن الجماعة . ولا يجوز أن يكون تجمعاً جانبياً بعيداً عن علم الجماعة . فهذا هو الذي نهى عنه القرآن ونهى عنه الرسول . وهذا هو الذي يفتت الجماعة أو يوقع في صفوفها الشك وفقدان الثقة . وهذا هو الذي يدبره الشيطان ليحزن الذين آمنوا . ووعد الله قاطع في أن الشيطان لن يبلغ بهذه الوسيلة ما يريد في الجماعة المؤمنة ، لأن الله حارسها وكائنها ، وهو شاهد حاضر في كل مناجاة ، وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر . ولن يضر الشيطان المؤمنين .. « إلا بإذن الله » .. وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطن من مواطن الوعد والجزم ، لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم ..

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .. فهو الحارس الحامي ، وهو القوي العزيز ، وهو العليم الخبير . وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب . ولا يكون في الكون إلا ما يريد . وقد وعد بحراسة المؤمنين . فأني طمأنينة بعد هذا وأي يقين ؟

* * *

ثم يأخذ الذين آمنوا بأدب آخر من آداب الجماعة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم : تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم . وإذا قيل : انشزوا فانشزوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . والله بما تعملون خبير » ..

ويظهر من بعض الروايات التي حكى سبب نزول الآية أن لها علاقة واقعية بالمنافقين ، مما يجعل بينها وبين الآيات قبلها أكثر من ارتباط واحد في السياق .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلاً ضنوا بمجالسهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمرهم الله تعالى أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي - صلى الله عليه وسلم - عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فعرف النبي - صلى الله عليه وسلم - ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم . فشق ذلك على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يا فلان . وأنت يا فلان . فلم يزل يقيمهم بعدة نفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر . فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبي - صلى الله عليه وسلم - الكراهة في وجوهمهم . فقال المنافقون : ألسنم ترعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأينا قد عدل على هؤلاء ! إن قوماً أخذوا بمجالسهم وأحبوا القرب من نبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه .. فبلغنا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « رحم الله رجلاً يفسح لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً ، فيفسح القوم لإخوانهم . ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . وإذا صحت هذه الرواية فإنها لا تتنافى مع الأحاديث الأخرى التي تنهى عن أن يقيم الرجل الرجل من مكانه ليجلس فيه . كما جاء في الصحيحين : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » ..

وما ورد كذلك من ضرورة استقرار القادم حيث انتهى به المجلس . فلا يتخطى رقاب الناس ليأخذ مكاناً في الصدر !

فالآية تحض على الإفصاح للقادم ليجلس ، كما تحض على إطاعة الأمر إذا قيل لجالس أن يرفع فيرفع . وهذا الأمر يجيء من القائد المسئول عن تنظيم الجماعة . لا من القادم .

والغرض هو إيجاد الفسحة في النفس قبل إيجاد الفسحة في المكان . ومتى رحب القلب اتسع وتسامح ، واستقبل الجالس إخوانه بالحب والسماحة ، فأفسح لهم في المكان عن رضى وارتياح . فأما إذا رأى القائد أن هناك اعتباراً من الاعتبارات يقتضي إخلاء المكان فالطاعة يجب أن ترعى عن طوعية نفس ورضى خاطر وطمأنينة بال . مع بقاء القواعد الكلية مرعية كذلك ، من عدم تخطي الرقاب أو إقامة الرجل للرجل ليأخذ مكانه . وإنما هي السماحة والنظام يقرهما الإسلام . والأدب الواجب في كل حال .

وعلى طريقة القرآن في استجاشة الشعور عند كل تكليف ، فإنه يعد المفسحين في المجالس بفسحة من الله لهم وسعة : « فافسحوا يفسح الله لكم » .. ويعد الناشزين الذين يرفعون من المكان ويخلونه عن طاعة لأمر الرسول برفعة في المقام : « وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .. وذلك جزاء تواضعهم وقيامهم عند تلقي الأمر بالقيام .

وقد كانت المناسبة مناسبة قرب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - لتلقي العلم في مجلسه . فالآية تعلمهم : أن الإيمان الذي يدفع إلى فسحة الصدر وطاعة الأمر ، والعلم الذي يهذب القلب فيتسع ويطيع ، يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات . وفي هذا مقابل لرفعة المكان الذي تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - « والله بما تعملون خبير » .. فهو يجزي به عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون .

وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها الفسحة والسماحة والطاعة بأسلوب التشويق والاستجاشة . فالدين ليس بالتكاليف الحرفية ، ولكنه تحول في الشعور ، وحساسية في الضمير ..

* * *

كذلك يعلمهم القرآن أدباً آخر في علاقتهم برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيبدو أنه كان هناك تراحم على الخلوة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليحدثه كل فرد في شأن يخصه ، ويأخذ فيه توجيهه ورأيه ، أو ليستمتع بالانفراد به مع عدم التقدير لمهام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجماعية ، وعدم الشعور بقيمة وقته ، وبجدية الخلوة به ، وأنها لا تكون إلا لأمر ذي بال . فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقتطع من وقته الذي هو من حق الجماعة . في صورة صدقة يقدمها قبل أن يطلب المناجاة والخلوة :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة . ذلك خير لكم وأطهر . فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم » ..

وقد عمل بهذه الآية الإمام علي - كرم الله وجهه - فكان معه - كما روي عنه - دينار فصرفة دراهم . وكان كلما أراد خلوة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأمر تصدق بدرهم ! ولكن الأمر شق على المسلمين . وعلم الله ذلك منهم . وكان الأمر قد أدى غايته ، وأشعرهم بقيمة الخلوة التي يطلبونها . فخفف الله عنهم ونزلت الآية التالية برفع هذا التكليف ، وتوجيههم إلى العبادات والطاعات المصلحة للقلوب :

« أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ؟ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله . والله خير بما تعملون » ..

وفي هاتين الآيتين والروايات التي ذكرت أسباب نزولهما نجد لوناً من ألوان الجهود التربوية لإعداد هذه الجماعة المسلمة في الصغير والكبير من شئون الشعور والسلوك .

* * *

ثم يعود السياق إلى المنافقين الذين يتولون اليهود ، فيصور بعض أحوالهم ومواقفهم ، ويتوعدهم باقتضاح أمرهم ، وسوء مصيرهم ، وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على الرغم من كل تديراتهم :

« ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ؟ ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذاباً شديداً ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، فلهم عذاب مهين . لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء . ألا إنهم هم الكاذبون . استحوز عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ..

وهذه الحملة القوية على المنافقين الذين يتولون قوماً غضب الله عليهم - وهم اليهود - تدل على أنهم كانوا يمعنون في الكيد للمسلمين ، ويتآمرون مع أعدائهم عليهم ؛ كما تدل على أن سلطة الإسلام كانت قد عظمت ، بحيث يخافها المنافقون ، فيضطرون - عندما يواجههم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنون بما يكشفه الله من تديراتهم ومؤمراتهم - إلى الحلف بالكذب لإنكار ما ينسب إليهم من مؤامرات وأقوال ؛ وهم يعلمون أنهم كاذبون في هذه الأيمان . إنما هم يتقون بأيمانهم ما يتوقعونه من مؤاخذتهم بما ينكشف من دسائسهم : « اتخذوا أيمانهم جنة » أي وقاية . وبذلك يستمرون في دسائسهم للصد عن سبيل الله !

والله يتوعدهم مرات في خلال هذه الآيات : « أعد الله لهم عذاباً شديداً . إنهم ساء ما كانوا يعملون » .. « فلهم عذاب مهين » .. « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

ويصور مشهدهم يوم القيامة في وضع مزر مهين ، وهم يحلفون لله كما كانوا يحلفون للناس : « يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم » .. مما يشير إلى أن النفاق قد تأصل في كياناتهم ، حتى ليصاحبهم إلى يوم القيامة . وفي حضرة الله ذي الجلال . الذي يعلم خفايا القلوب وذوات الصدور ! « ويحسبون أنهم على شيء » .. وهم على هواء لا يستندون إلى شيء . أي شيء !

ويدمغهم بالكذب الأصيل الثابت : « ألا إنهم هم الكاذبون » ..

ثم يكشف عن علة حالهم هذه . فقد استولى عليهم الشيطان كلية « فأنساهم ذكر الله » .. والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر : « أولئك حزب الشيطان » .. الخالص للشيطان الذي يقف تحت لوائه ، ويعمل باسمه ، وينفذ غاياته . وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص : « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » ..

وهي حملة شديدة عنيفة تناسب الشر والأذى والفتنة التي يدبرونها للمسلمين مع أعدائهم الماكرين . وتطمئن قلوب المسلمين . والله - سبحانه وتعالى - يتولى عنهم الحملة على أعدائهم المستورين !

* * *

ولما كان أولئك المنافقون يأوون إلى اليهود شعوراً منهم بأنهم قوة تحشى وترجى . ويطلبون عندهم العون والمشورة . فإن الله ييئسهم منهم ، ويقرر أنه كتب على أعدائه الذلة والهزيمة ، وكتب لنفسه ولرسوله الغلبة والتمكين : « إن الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأعلن أنا ورسلي . إن الله قوي عزيز » .. وهذا وعد الله الصادق الذي كان والذي لا بد أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحياناً من الظاهر الذي يخالف هذا الوعد الصادق .

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك . واستقرت العقيدة في الله في هذه الأرض ؛ ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية ، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد . وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض - كما يقع الآن في الدول الملحدة والوثنية - فإن العقيدة في الله ظلت هي المسيطرة بصفة عامة . فضلاً على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد ، لأنها غير صالحة للبقاء . والبشرية تهتدي في كل يوم إلى أدلة جديدة تهدي إلى الاعتقاد في الله والتمكين لعقيدة الإيمان والتوحيد .

والمؤمن يتعامل مع وعد الله على أنه الحقيقة الواقعة . فإذا كان الواقع الصغير في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل . الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة . لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد الله في وقته المرسوم .

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوعة ، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة ، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قتلوا وشردوا وعذبوا وقطعت أرزاقهم وسلطت عليهم جميع أنواع النكاية . ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين ، يحميهم من الانهيار ، ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ، ومن خضوعها للظلم الغاشم إلا ربها تنقض عليه وتحطمه .. حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاوّل يجد مصداق قول الله تعالى . يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل ! !
وعلى أية حال فلا يخالف المؤمن شك في أن وعد الله هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود ، وأن الذين يحادّون الله ورسوله هم الأذلون ، وأن الله ورسوله هم الغالبون . وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون . ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون !

* * *

وفي النهاية تجيء القاعدة الثابتة التي يقف عليها المؤمنون ، أو الميزان الدقيق للإيمان في النفوس : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها . رضي الله عنهم ورضوا عنه . أولئك حزب الله . ألا إن حزب الله هم المفلحون » ..

إنها المفاضلة الكاملة بين حزب الله وحزب الشيطان ، والانحياز النهائي للصف المتميز ، والتجرد من كل عائق وكل جاذب ، والارتباط في العروة الواحدة بالحب الواحد .

« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله » ..

فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين : ودّاً لله ورسوله وودّاً لأعداء الله ورسوله ! فإما إيمان أو لا إيمان . أما هما معاً فلا يجتمعان .

« ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .. »

فروابط الدم والقرابة هذه تنقطع عند حد الإيمان . إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللواتين : لواء الله ولواء الشيطان . والصحة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان . فأما إذا كانت المحادة والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالحبل الواحد . ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر . وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن . وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير . وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم . متجربين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة . وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله .

« أولئك كتب في قلوبهم الإيمان » ..

فهو مثبت في قلوبهم بيد الله مكتوب في صدورهم يمين الرحمن . فلا زوال له ولا اندثار ، ولا انطماس فيه ولا غموض !

« وأيدهم بروح منه » ..

وما يمكن أن يعزموا هذه العزمة إلا بروح من الله . وما يمكن أن تشرق قلوبهم بهذا النور إلا بهذا الروح الذي يمددهم بالقوة والإشراق ، ويصلهم بمصدر القوة والإشراق .

« ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها » ..

جزاء ما تجردوا في الأرض من كل رابطة وآصرة ؛ ونفضوا عن قلوبهم كل عرض من أعراضها الفانية . « رضي الله عنهم ورضوا عنه » ..

وهذه صورة وضيفة راضية مطمئنة ، ترسم حالة المؤمنين هؤلاء ، في مقام عال رفيع . وفي جو راض وديع .. ربهم راض عنهم وهم راضون عن ربه . انقطعوا عن كل شيء ووصلوا أنفسهم به ؛ فتقبلهم في كنفه ، وأفسح لهم في جنبه ، وأشعرهم برضاه . فرضوا . رضيت نفوسهم هذا القرب وأنست به واطمأنت إليه .. « أولئك حزب الله » ..

فهم جماعته . المتجمعة تحت لوائه . المتحركة بقيادته . المهتدية بهديه . المحققة لمنهجه . الفاعلة في الأرض ما قدره وقضاه . فهي قدر من قدر الله . « ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

ومن يفلح إذن إذا لم يفلح أنصار الله المختارون ؟

وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين : حزب الله وحزب الشيطان . وإلى رايتين اثنتين : راية الحق وراية الباطل . فإما أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق ، وإما أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل .. وهما صفان متميزان لا يختطان ولا يتميعان !

لا نسب ولا صهر ، ولا أهل ولا قرابة ، ولا وطن ولا جنس ، ولا عصبية ولا قومية .. إنما هي العقيدة ، والعقيدة وحدها . فن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله . تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم ، وتختلف عشائهم وتختلف أسرهم ، ولكنهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله ، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة . ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية

الباطل ، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة . لا من أرض ، ولا من جنس ، ولا من وطن ولا من لون ، ولا من عشيرة ولا من نسب ولا من صهر .. لقد انبتت الوشيحة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فانبتت هذه الوشائج جميعاً ..

* * *

ومع إحياء هذه الآية بأنه كان هناك في الجماعة المسلمة من تشده أواصر الدم والقرباة وجواذب المصلحة والصدقة ، مما تعالجه هذه الآية في النفوس ، وهي تضع ميزان الإيمان بهذا الحسم الجازم ، والمفاضلة القاطعة .. إلا أنها في الوقت ذاته ترسم صورة لطائفة كانت قائمة كذلك في الجماعة المسلمة ، ممن تجردوا وخلصوا ووصلوا إلى ذلك المقام .

وهذه الصورة هي أنسب ختام للسورة التي بدأت بتصوير رعاية الله وعنايته بهذه الأمة في واقعة المرأة الفقيرة التي سمع الله لها وهي تجادل رسوله - صلى الله عليه وسلم - في شأنها وشأن زوجها !
فالانقطاع لله الذي يرعى هذه الأمة مثل هذه الرعاية هو الاستجابة الطبيعية . والمفاضلة بين حزب الله وحزب الشيطان هي الأمر الذي لا ينبغي غيره للأمة التي اختارها الله للدور الكوني الذي كلفها إياه .

* * *

(٥٩) سُورَةُ الْحَشْرِ مَدَنِيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِنَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ
حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرِبُونَ بِيُونَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾
وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْخِلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ
وَرُسُلَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ
اللَّهِ وَلِيخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْقُرَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا تَنْكُرُ الْأَرْسُولُ فَعُذُّوهُ وَمَا نَهَكَرَ عَنْهُ فَانْتَهَوْا
وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ
مِنْ قَبْلِهِمْ يَجْعَلُونَ مِنْ هَاجَرٍ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَفِّقْ نَفْسَهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ

لَنَا وَلَا خَوْنَنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَّ الْأَدْبِرَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٧﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَقْنَلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٢﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٢٥﴾

لَوْ أَنزَلْنَاهَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَمْلِكُ الْقُدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٩﴾

نزلت هذه السورة في حادث بني النضير - حي من أحياء اليهود - في السنة الرابعة من الهجرة . تصف كيف وقع ؟ ولماذا وقع ؟ وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية .. ترويه بطريقة القرآن الخاصة ، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات . وقبل أن نستعرض النصوص القرآنية في السورة ، نعرض شيئاً مما ذكرته الروايات عن ذلك الحادث الذي نزلت السورة بشأنه ؛ لنرى ميزة العرض القرآني ، وبعد أماده وراء الأحداث التي تتنزل بشأنها النصوص ، فتفي بمقتضيات الأحداث ، وتمتد وراءها وحولها في مجالات أوسع وأشمل من مقتضيات تلك الأحداث المحدودة

بالزمان والمكان .

كانت وقعة بني النضير في أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . ومما يذكر عنها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم - إلى محلة بني النضير ، يطلب منهم المشاركة في أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينه وبينهم من عهد في أول مقدمه على المدينة . فاستقبله يهود بني النضير بالبشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم ، بينما كانوا يدبرون أمراً لاغتيال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه . وكان - صلى الله عليه وسلم - جالساً إلى جدار من بيوتهم . فقال بعضهم لبعض : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه . فن رجل منكم يعلو هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب . فقال : أنا لذلك . فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال . فألهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما بييت اليهود من غدر . فقام كأنما ليقضي أمراً . فلما غاب استبطأه من معه ، فخرجوا من المحلة يسألون عنه ، فعلموا أنه دخل المدينة . وأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالتهيؤ لحرب بني النضير لظهور الخيانة منهم ، ونقض عهد الأمان الذي بينه وبينهم . وكان قد سبق هذا إقذاع كعب بن الأشرف - من بني النضير - في هجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتأليب الأعداء عليه . وما قيل من أن كعباً ورهطاً من بني النضير اتصلوا بكفار قريش اتصال تآمر وتحالف وكيد ضد النبي - صلى الله عليه وسلم - مع قيام ذلك العهد بينهم وبينه . مما جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأذن لمحمد بن مسلمة في قتل كعب بن الأشرف . فقتله .

فلما كان التبييت للغدر برسول الله في محلة بني النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم . وفق القاعدة الإسلامية : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » . فتجهز رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحاصر محلة بني النضير ، وأمهلهم ثلاثة أيام - وقيل عشرة - ليفارقوا جواره ويحلوا عن المحلة على أن يأخذوا أموالهم ، ويقيموا وكلاء عنهم على بسايتهم ومزارعهم . ولكن المنافقين في المدينة - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق - أرسلوا إليهم يحرضونهم على الرفض والمقاومة ، وقالوا لهم : أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم . إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم .

وفي هذا يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ... » .

فتحصن اليهود في الحصون ، فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بقطع نخيلهم والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييه على من صنعه : فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟ وفي الرد عليهم نزل قوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين » ..

ولما بلغ الحصار ستاً وعشرين ليلة ، يشس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، كما سبق جلاء بني قينقاع (وقد ذكرنا سببه وظروفه في تفسير سورة الأحزاب في الجزء الحادي والعشرين) على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم

إلا السلاح . فأجابهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل . فكان الرجل منهم يهدم بيته عن خشبة بابه فيحمله على ظهره ؛ أو يخربه حتى لا يقع في أيدي المسلمين ؛ وكان المسلمون قد هدموا وخربوا بعض الجدران التي اتخذت حصوناً في أيام الحصار .

وفي هذا يقول الله في هذه السورة : « هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » ..

وكان منهم من سار إلى خير ، ومنهم من سار إلى الشام . وكان من أشرفهم من سار إلى خير سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحى بن أخطب ، ممن ورد ذكرهم بعد ذلك في تأليب المشركين على المسلمين في غزوة الأحزاب ووقعة بني قريظة (في سورة الأحزاب) وكان لبعضهم كذلك ذكر في فتح خير (في سورة الفتح) .

وكانت أموال بني النضير فيئاً خالصاً لله وللرسول ؛ لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا جمال . فقسمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف ، وأبو دجاجة سمالك بن خرشة . وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذي تركوه في مكة وتجردوا منه كله لعقيدتهم . وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم في أريحية عالية ، وأخوة صادقة ، وإيثار عجيب . فلما واثت هذه الفرصة سارع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لإقامة الأوضاع الطبيعية في المجتمع الإسلامي ، كي يكون للفقراء مال خاص ، وكى لا يكون المال متداولاً في الأغنياء وحدهم . ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقريهما ..

وتكلم في أموال بني النضير بعض من تكلم - والراجح أنهم من المنافقين - فقال تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير » .. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للأنصار : « إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة . وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة » فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

وفي هذا نزل قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

* * *

فهذا هو الحادث الذي نزلت فيه هذه السورة ، وتعلقت به نصوصها ، بما في ذلك خاتمة السورة التي يتوجه فيها الخطاب للذين آمنوا من شهدوا هذا الحادث ومن يعرفونه بعد ذلك . على طريقة القرآن في تربية النفوس بالأحداث وبالتعقيب عليها ، وربطها بالحقائق الكلية الكبيرة .. ثم الإيقاع الأخير في السورة بذكر صفات الله الذي يدعو الذين آمنوا ويخاطبهم بهذا القرآن . وهي صفات ذات فاعلية وأثر في هذا الكون ؛ وعلى أساس

تصور حقيقتها يقوم الإيمان الواعي المدرك البصير .

وتبدأ السورة وتختتم بتسبيح الله الذي له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . فيتناسق البدء والختام ، مع موضوع السورة ، ومع دعوة المؤمنين للتقوى والخشوع والتفكير في تدبير الله الحكيم .
والآن نسير مع النصوص القرآنية لنرى كيف تصور الأحداث ، وكيف تربي النفوس بهذه الأحداث ..

* * *

« سبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، وهو العزيز الحكيم » ..

بهذه الحقيقة التي وقعت وكانت في الوجود . حقيقة تسبيح كل شيء في السماوات وكل شيء في الأرض لله ، واتجاهها إليه بالتزويه والتمجيد .. تفتتح السورة التي تقص قصة إخراج الله للذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم ، وإعطائها للمؤمنين به المسبحين بحمده الممجدين لأسمائه الحسنی .. « وهو العزيز الحكيم » .. القوي القادر على نصر أوليائه وسحق أعدائه .. الحكيم في تدبيره وتقديره .

* * *

ثم يقص نبأ الحادث الذي نزلت فيه السورة :

« هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ؛ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » .

ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر . والله هو فاعل كل شيء . ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة ، توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر ! وساق المخرجين للأرض التي منها يحشرون ، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أخرجوا منها .

ويؤكد فعل الله المباشر في إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية في الآية :

« ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله » ..

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ولا هم كانوا يسلمون في تصور وقوعه ! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا . وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردّها الحصون !

« فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا . وقذف في قلوبهم الرعب » .

أتاهم من داخل أنفسهم ! لا من داخل حصونهم ! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب ، ففتحو حصونهم بأيديهم ! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم ، ولا يحكمون قلوبهم ، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم ! فضلاً على أن يمتنعوا عليه بنيانهم وحصونهم . وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم . فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها . وهكذا حين يشاء الله أمراً . يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر ، وهو يعلم كل شيء ، وهو على كل شيء قدير . فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة ، مما يعرفه الناس ويقدرونه . فالسبب حاضر دائماً والوسيلة مهيأة . والسبب والنتيجة من صنعه ، والوسيلة

والغاية من خلقه ؛ ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة ، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية ... وهو العزيز الحكيم .. ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ، ويمكنون المؤمنين من إخراجها :

« يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » ..

وبهذا تم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب ، في تلك الصورة الموحية ، وهذه الحركة المصورة .. والله - سبحانه - يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم ؛ ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين .

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة ، وعلى إيقاع هذه الحركة :

« فاعتبروا يا أولي الأبصار » ..

وهو هتاف يجيء في مكانه وفي أوانه . والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار . والآية التالية تقرر أن إرادة الله في النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم في الدنيا غير ما ينتظرهم في الآخرة :

« ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار » ..

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله . بهذه الصورة التي وقعت أو بصورة أخرى . ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذاباً آخر . غير عذاب النار الذي ينتظرهم هناك . فقد استحقوا عذاب الله في صورة من صوره على كل حال !

« ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله . ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب » ..

والمشاقة أن يأخذوا لهم شقاً غير شق الله ، وجانباً غير جانبه . وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب في صدر الآية . فاكتمى في عجزها بمشاقة الله وحده فهي تشمل مشاقة الرسول وتتضمنها . ثم ليقف المشاقون في ناحية أمام الله - سبحانه - وهو موقف فيه تبجح قبيح ، حين يقف المخاليق في وجه الخالق يشاقونه ! وموقف كذلك رعب ، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه . وهو شديد العقاب .

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله في كل أرض وفي كل وقت . من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب ، وما استحقوا به هذا العقاب .

ولا يفوتنا أن نلاحظ تسمية القرآن ليهود بني النضير بأنهم « الذين كفروا من أهل الكتاب » وتكرار هذه الصفة في السورة . فهي حقيقة لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا التي جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها . وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بياناً بسبب التنكيل بهم ؛ كما أنه يعي شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم ، وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم . فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ !

* * *

ثم يطمئن المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه ،

أو تركه كذلك قائماً ، وبيان حكم الله فيه . وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هذا : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزي الفاسقين » .. والليننة الجيدة من النخل ، أو نوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك . وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود ، وأبقوا بعضه . فخرجت صدورهم من الفعل ومن الترك . وكانوا منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق . فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص ، يطمئن القلوب . فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله . فهو الذي تولى بيده هذه الواقعة ؛ وأراد فيها ما أراد ، وأنفذ فيها ما قدره ، وكان كل ما وقع من هذا بإذنه . أراد به أن يخزي الفاسقين . وقطع النخل يخزيهم بالحسرة على قطعه ؛ وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته . وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء .

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحجرة ، وتشفى صدورهم مما حاك فيها ، وتطمئن إلى أن الله هو الذي أراد وهو الذي فعل . والله فعال لما يريد . وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ ما يريد .

* * *

فأما المقطع الثاني في السورة فيقرر حكم الفيء الذي أفاءه الله على رسوله في هذه الواقعة وفيما يماثلها ، مما لم يتكلف فيه المسلمون غزواً ولا قتالاً .. أي الوقائع التي تولتها يد الله جهرة ومباشرة وبدون ستار من الخلق كهذه الواقعة :

« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون . والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » ..

وهذه الآيات التي تبين حكم الله في هذا الفيء وأمثاله ، تحوي في الوقت ذاته وصفاً لأحوال الجماعة المسلمة في حينها ؛ كما تقرر طبيعة الأمة المسلمة على توالي العصور ، وخصائصها المميزة التي تترابط بها وتماسك على مدار الزمان ، لا ينفصل فيها جيل عن جيل ، ولا قوم عن قوم ، ولا نفس عن نفس ، في الزمن المتطاوّل بين أجيالها المتعاقبة في جميع بقاع الأرض . وهي حقيقة ضخمة كبيرة ينبغي الوقوف أمامها طويلاً في تدبر عميق .. « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير » .

والإيجاف : الركض والإسراع . والركاب : الجمال . والآية تذكر المسلمين أن هذا الفيء الذي خلفه وراءهم بنو النضير لم يركضوا هم عليه خيلاً ، ولم يسرعوا إليه ركباً ، فحكمه ليس حكم الغنيمة التي أعطاهم الله أربعة أخماسها ، واستبقى خمسها فقط لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كما حكم الله في غنائم بدر الكبرى . إنما حكم هذا الفيء أنه كله لله والرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الذي يتصرف فيه كله في هذه الوجوه . وذو القربى المذكورون

في الآيتين هم قرابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن كانت الصدقات لا تحل لهم ، فليس لهم في الزكاة نصيب ، وأن كان النبي لا يرث فليس لذوي قرابته من ماله شيء . وفيهم الفقراء^١ الذين لا مورد لهم . فجعل لهم من خمس الغنائم نصيباً ، كما جعل لهم من هذا الفبي وأمثاله نصيباً . فأما بقية الطوائف والمصارف فأمرها معروف . والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو المتصرف فيها .

هذا هو حكم الفبي تبينه الآيات . ولكنها لا تقتصر على الحكم وعلته القريبة . إنما تفتح القلوب على حقيقة أخرى كبيرة : « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء » .. فهو قدر الله . وهم طرف من هذا القدر يسلطه على من يشاء . « والله على كل شيء قدير » ..

بهذا يتصل شأن الرسل بقدر الله المباشر ؛ ويتحدد مكانهم في دولاب القدر الدوار . ويتبين أنهم - ولو أنهم بشر - متصلون بإرادة الله ومشيتة اتصالاً خاصاً ، يجعل لهم دوراً معيناً في تحقيق قدر الله في الأرض ، بإذن الله وتقديره . فما يتحركون بهوهم ، وما يأخذون أو يدعون لحسابهم . وما يغزون أو يقعدون ، وما يخاصمون أو يصالحن ، إلا لتحقيق جانب من قدر الله في الأرض منوط بهم ويتصرفاتهم وتحركاتهم في هذه الأرض . والله هو الفاعل من وراء ذلك كله . وهو على كل شيء قدير ..

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه . وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب » ..

وتبين هذه الآية الحكم الذي أسلفنا تفصيلاً . ثم تعلق هذه القسمة فتضع قاعدة كبرى من قواعد التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .. كما تضع قاعدة كبرى في التشريع الدستوري للمجتمع الإسلامي : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .. ولو أن هاتين القاعدتين جاءتا بمناسبة هذا الفبي وتوزيعه ، إلا أنهما تتجاوزان هذا الحادث الواقع إلى آماة كثيرة في أسس النظام الاجتماعي الإسلامي .

والقاعدة الأولى ، قاعدة التنظيم الاقتصادي ، تمثل جانباً كبيراً من أسس النظرية الاقتصادية في الإسلام . فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية . ولكنها محددة بهذه القاعدة . قاعدة ألا يكون المال دولة بين الأغنياء ، ممنوعاً من التداول بين الفقراء . فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية كما يخالف هدفاً من أهداف التنظيم الاجتماعي كله . وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تنظم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تبقي عليه إن وجد .

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة . ففرض الزكاة . وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصفاً في المئة من أصل رؤوس الأموال النقدية ، وعشرة أو خمسة في المئة من جميع الحاصلات . وما يعادل ذلك في الأنعام . وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي . وهي نسب كبيرة . ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء بينها جعل الفبي كله للفقراء . وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة^٢ - أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها . وجعل للإمام

(١) هناك خلاف فقهي . هل الفقراء من قرابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هم المستحقون أم جميعهم والراجح جميعهم .

(٢) يوجد خلاف فقهي ولكن الراجح الظاهر هو الذي أثبتناه .

الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء . وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال . وحرم الاحتكار . وحظر الربا . وهما الوسيطتان الرئيسيتان لجعل المال دولة بين الأغنياء . وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيداً أصيلاً على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى^١ .

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيع الملكية الفردية ، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي ، كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولاً عنه ، فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقاً بدون ربا وبدون احتكار ، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير . نشأ وحده . وسار وحده ، وبقي حتى اليوم وحده . نظاماً فريداً متوازناً الجوانب ، متعادل الحقوق والواجبات ، متناسقاً تناسق الكون كله . مذ كان صدوره عن خالق الكون . والكون متناسق موزون ! فأما القاعدة الثانية - قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » .. فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية الإسلامية . فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - قرآناً أو سنة . والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول . فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان .. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان . فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها - والإمام نائب عن الأمة في هذا - وفي هذا تنحصر حقوق الأمة . فليس لها أن تخالف عما آتاه الرسول في أي تشريع .

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسيبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلاً من أصول ما جاء به الرسول . وهذا لا ينقض تلك النظرية ، إنما هو فرع عنها . فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص . وألا يخالف أصلاً من أصوله فيما لا نص فيه . وتنحصر سلطة الأمة - والإمام النائب عنها - في هذه الحدود . وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية . وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله . وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله . كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون ، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح !

وتربط الآية هاتين القاعدتين في قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول .. وهو الله .. فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب الله : « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .. وهذا هو الضمان الأكبر الذي لا احتيال عليه ، ولا هروب منه . فقد علم المؤمنون أن الله مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليه المرجع والمآب . وعلموا أنه شديد العقاب . وعلموا أنهم مكلفون ألا يكون المال دولة بينهم ، وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه في غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب ..

ولقد كان توزيع ذلك الفيء - في بني النضير - على المهاجرين وحدهم عدا رجلين من الأنصار إجراء خاصاً بهذا الفيء ، تحقيقاً لقاعدة : « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .. فأما الحكم العام ، فهو أن

(١) يراجع فصل سياسة المال في كتاب : العدالة الاجتماعية في الإسلام . « دار الشروق »

يكون للفقراء عامة . من المهاجرين ومن الأنصار ومن يأتي بعدهم من الأجيال . وهذا ما تضمنته الآيات التالية في السياق .

ولكن القرآن لا يذكر الأحكام جافة مجردة ، إنما يوردها في جو حيّ يتجاوب فيه الأحياء . ومن ثم أحاط كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث بصفاتها الواقعية الحية التي تصور طبيعتها وحقيقتها ؛ وتقرر الحكم حياً يتعامل مع هؤلاء الأحياء :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ..

وهي صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين .. أخرجوا إخراجاً من ديارهم وأموالهم . أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم في مكة . لا لذنوب إلا أن يقولوا ربنا الله ... وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم « يبتغون فضلاً من الله ورضواناً » اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه . لا ملجأ لهم سواه ، ولا جناب لهم إلا حماءه .. وهم مع أنهم مطاردون قليلون « ينصرون الله ورسوله » .. بقلوبهم وسيوفهم في أخرج الساعات وأضيق الأوقات . « أولئك هم الصادقون » .. الذين قالوا كلمة الإيمان بألستهم ، وصدقوها بعملهم . وكانوا صادقين مع الله في أنهم اختاروه . وصادقين مع رسوله في أنهم اتبعوه . وصادقين مع الحق في أنهم كانوا صورة منه تدب على الأرض ويراهها الناس !

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ..
وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار . هذه المجموعة التي تفردت بصفات ، وبلغت إلى آفاق ، لولا أنها وقعت بالفعل ، لحسبها الناس أحلاماً طائفة ورؤى مجنحة ومثلاً علياً قد صاغها خيال محلق ..

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم » .. أي دار الهجرة . يثرب مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين . كما تبوأوا فيها الإيمان . وكأنه منزل لهم ودار . وهو تعبير ذو ظلال . وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان . لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له ، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار .

« يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » .. ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين . بهذا الحب الكريم . وبهذا البذل السخي . وبهذه المشاركة الرضية . وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء . حتى ليرى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة . لأن عدد الراغبين في الإيواء المتراحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ! « ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا » .. مما يناله المهاجرون من مقام مفضل في بعض المواضع ، ومن مال يختصون به كهذا الفيء ، فلا يجدون في أنفسهم شيئاً من هذا . ولا يقول : حسداً ولا ضيقاً . إنما يقول : « شيئاً » . مما يلقي ظلال النظافة الكاملة لصدورهم والبراءة المطلقة لقلوبهم ، فلا تجد شيئاً أصلاً .

« ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .. والإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا . وقد بلغ إليها الأنصار بما لم تشهد البشرية له نظيراً . وكانوا كذلك في كل مرة وفي كل حالة بصورة خارقة لمألوف البشر قديماً وحديثاً .

« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . . فهذا الشح . شح النفس . هو المعوق عن كل خير . لأن الخير بذل في صورة من الصور . بذل في المال . وبذل في العاطفة . وبذل في الجهد . وبذل في الحياة عند الاقتضاء . وما يمكن أن يصنع الخير شحيح بهم دائماً أن يأخذ ولا يهتم مرة أن يعطي . ومن يوق شح نفسه ، فقد وقى هذا المعوق عن الخير ، فانطلق إليه معطياً باذلاً كريماً . وهذا هو الفلاح في حقيقة معناه .

« والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

وهذه الصورة الثالثة النظيفة الرضية الواعية . وهي تبرز أهم ملامح التابعين . كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق في جميع الأوطان والأزمان .

هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار - ولم يكونوا قد جاءوا بعد عند نزول الآية في المدينة ، إنما كانوا قد جاءوا في علم الله وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان - سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة ، لا لذاتها ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان ؛ وفي طلب براءة القلب من الغل للذين آمنوا على وجه الإطلاق ، ممن يربطهم معهم رباط الإيمان . مع الشعور برأفة الله ، ورحمته ، ودعائه بهذه الرحمة ، وتلك الرأفة : « ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الأمة المسلمة وصورتها الوضيئة في هذا الوجود . تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الأمة بآخرها ، وآخرها بأولها ، في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف . وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب ؛ وتتفرد وحدها في القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة ، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة ، كما يذكر أخاه الحي ، أو أشد ، في إعزاز وكرامة وحب . ويحسب السلف حساب الخلف . ويمضي الخلف على آثار السلف . صفاء واحداً وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الأوطان ، تحت راية الله تغذ السير صعوداً إلى الأفق الكريم ، متطلعة إلى ربها الواحد الرؤوف الرحيم .

إنها صورة باهرة ، تمثل حقيقة قائمة ؛ كما تمثل أرفع وأكرم مثال للبشرية يتصوره قلب كريم . صورة تبدو كرامتها ووضاءتها على أتمها حين تقرن مثلاً إلى صورة الحقد الذميمة والهدم اللئيم التي تمثلها وتبشر بها الشيوعية في إنجيل كارل ماركس . صورة الحقد الذي ينغل في الصدور ، وينخر في الضمير ، على الطبقات ، وعلى أجيال البشرية السابقة ، وعلى أممها الحاضرة التي لا تعتنق الحقد الطبقي الذميمة . وعلى الإيمان والمؤمنين من كل أمة وكل دين !

صورتان لا التقاء بينهما في لمحة ولا سمة ، ولا لمسة ولا ظل . صورة ترفع البشرية إلى أعلى مراقبها ؛ وصورة تهبط بها إلى أدنى دركاتها . صورة تمثل الأجيال من وراء الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة والنسب متضامنة مترابطة متكافلة متوادة متعارفة صاعدة في طريقها إلى الله ، بريئة الصدور من الغل ، طاهرة القلوب من الحقد ، وصورة تمثل البشرية أعداء متناحرين يلقي بعضهم بعضاً بالحقد والدخل والدغل والغش والخداع والالتواء . حتى وهم في المعبد يقيمون الصلاة . فالصلاة ليست سوى أحبولة ، والدين كله ليس إلا فخاً ينصبه رأس المال للكادحين !

« ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا . ربنا إنك رؤوف رحيم » . .

هذه هي قافلة الايمان . وهذا هو دعاء الايمان . وإنها لقافلة كريمة . وإنه لدعاء كريم .

* * *

وحين ينتهي السياق من رسم هذه الصورة الوضيئة ، ورفعها على الأفق في إطار النور . يعود إلى الحادث الذي نزلت فيه السورة ، ليرسم صورة لفريق آخر ممن اشتركوا فيها . فريق المنافقين :

« ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ، ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون . لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ، ولهم عذاب أليم . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » . .

وهي حكاية لما قاله المنافقون ليهود بني النضير ، ثم لم يفوا به ، وخذلوهم فيه ، حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . ولكن في كل جملة قرآنية لفظة تقرر حقيقة ، وتمس قلباً ، وتبعث انفعالاً ، وتُقر مقوماً من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق .

وأول لفظة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب » . فأهل الكتاب هؤلاء كفروا . والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام !

ثم هذا التوكيد الشديد في وعد المنافقين لإخوانهم : « لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم لننصرنكم » . .

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون ، ويؤكد غير ما يؤكدون : « والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار . ثم لا ينصرون » . . وكان ما شهد به الله . وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه !

ثم يقرر حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » .

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله . ولو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده . فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة . ولا يجتمع في قلب خوف من الله وخوف من شيء سواه . فالعزة لله جميعاً ، وكل قوى الكون خاضعة لأمره ، « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » فممن يخاف إذن ذلك الذي يخاف الله ؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله . . « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » . .

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة . ويقرر في الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة . ويمضي يقرر حالة قائمة في نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب ، تنشأ من حقيقتهم السابقة ، ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله .

« لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر . بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعاً وقلوبهم

شتى . ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في « تشخيص » حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان . بشكل واضح للعيان . ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة . فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين . فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان . حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء . وسبحان العليم الخبير !

وتبقى الملامح النفسية الأخرى « بأسهم بينهم شديد » .. « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم ، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان ، والجنس والوطن والعشيرة .. « ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » ..

والمظاهر قد تحدد فترى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم ، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض ، كما نرى تجمع المنافقين أحياناً في معسكر واحد . ولكن الخبر الصادق من السماء يأتيهم بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم ؛ إنما هو مظهر خارجي خادع . وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع . فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور ، وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد ، قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء ، وتصادم الاتجاهات . وما صدق المؤمنون مرة ، وتجمعت قلوبهم على الله حقاً إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال . وما صبر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار ، وينكشف عن الخلاف الحاد والشفاق والكيد والدس في القلوب الشتيمة المتفرقة !

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب .. من المسلمين .. عندما تتفرق قلوب المسلمين ، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة . فأما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز ، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب « بأسهم بينهم شديد » .. « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » ..

والقرآن يقر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين ، ليهون فيها من شأن أعدائهم ؛ ويرفع منها هبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم . فهو إحياء قائم على حقيقة ؛ وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت . ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله ، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد ، فلم تقف لهم قوة في الحياة . والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم . فهذا نصف المعركة . والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع ، وفي سياق التعقيب عليه ، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل ، شرحاً يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه ، ويتدبره كل من جاء بعدهم ، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة !

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه ، فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه الآية بعد ذلك غالباً :

« كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم » ..

ووقعة بني قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد . وكان بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عهد . فلما انتصر المسلمون على المشركين في بدر كره اليهود ذلك ، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار

العظيم ، وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم في المدينة فيضعف من مركزهم بقدر ما يقوي من مركز المسلمين . وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يتهامون به وما يفكرون فيه من الشر ، فذكرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه . فردوا ردّاً غليظاً مغيظاً فيه تهديد . قالوا : يا محمد . إنك لترى أنا قومك ! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة . إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ! ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين ؛ وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعها بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها ففعله إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوأها ، فضحكوا بها ، فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وشدت يهود على المسلم فقتلوه فاستصرخ أهل المسلم المسلمين . فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وحاصرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلوا على حكمه . فقام رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلوك يجادل رسول الله عنهم ، باسم ما كان بينهم وبين الخرج من عهد ! ولكن الحقيقة كانت هي هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ! فرضي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في النهاية أن يجلوا عن المدينة ، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم - إلا السلاح - ورحلوا إلى الشام . فهذه هي الواقعة التي يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم .. وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء !

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة ، فانتها بهم إلى تلك النهاية البائسة . يضرب لهم مثلاً بحال دائمة . حال الشيطان مع الإنسان ، الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير :

« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر . فلما كفر قال : إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين » ..

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بني الإنسان ، تتفقان مع طبيعته ومهمته . فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان . وحاله هو هذا الحال !

وهي حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآني إليها من تلك الواقعة العارضة . فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية ، في مجال حي من الواقع ؛ ولا ينزل بالحقائق المجردة في الذهن . فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في الشاعر ، ولا تستجيش القلوب للاستجابة . وهذا فرق ما بين منهج القرآن في خطاب القلوب ، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين !

وبهذا المثل الموحى تنتهي قصة بني النضير . وقد ضمت في ثناياها وفي أعقابها هذا الحشد من الصور والحقائق والتوجيهات . واتصلت أحداثها المحلية الواقعة بالحقائق الكبرى المجردة الدائمة . وكانت رحلة في عالم الواقع وفي عالم الضمير ، تمتد إلى أبعد من حدود الحادث ذاته ، وتفرق روايتها في كتاب الله عن روايتها في كتب البشر بمقدار ما بين صنع الله وصنع البشر من فوارق لا تقاس !

* * *

وعند هذا الحد من رواية الحادث والتعقيب عليه وربطه بالحقائق البعيدة المدى يتجه الخطاب في السورة إلى المؤمنين ، يهتف بهم باسم الإيمان ، ويناديهم بالصفة التي تربطهم بصاحب الخطاب ، وتيسر عليهم الاستجابة

لتوجيهه وتكليفه . يتجه إليهم ليدعوهم إلى التقوى . والنظر فيما أعدوه للآخرة ، واليقظة الدائمة ، والحذر من نسيان الله كالذين نسوه من قبل ، ممن رأوا مصير فريق منهم ، ومن كتب عليهم أنهم من أصحاب النار : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون . لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » ..

والتقوى حالة في القلب يشير إليها اللفظ بظلاله ، ولكن العبارة لا تبلغ تصوير حقيقتها . حالة تجعل القلب يقظاً حساساً شاعراً بالله في كل حالة . خائفاً متحرّجاً مستحيماً أن يطلع عليه الله في حالة يكرهها . وعين الله على كل قلب في كل لحظة . فتى يأمن أن لا يراه ؟ !
« ولتنظر نفس ما قدمت لغد » ..

وهو تعبير كذلك ذو ظلال وإيحاءات أوسع من ألفاظه .. ومجرد خطوره على القلب يفتح أمامه صفحة أعماله بل صفحة حياته ، ويمد ببصره في سطورها كلها يتأملها وينظر رصيده حساباته بمفرداته وتفصيلاته . لينظر ماذا قدم لغده في هذه الصفحة .. وهذا التأمل كفيل بأن يوقظه إلى مواضع ضعف ومواضع نقص ومواضع تقصير ، مهما يكن قد أسلف من خير وبذل من جهد . فكيف إذا كان رصيده من الخير قليلاً ، ونصيبه من البر ضئيلاً ؟ إنها لمسة لا ينال بعدها القلب أبداً ، ولا يكف عن النظر والتقليب !

ولا تنتهي الآية التي تثير كل هذه المشاعر حتى تلح على القلوب المؤمنة بمزيد من الإيقاع :
« واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » ..

فتريد هذه القلوب حساسية ورهبة واستحياء .. والله خبير بما يعملون ..
وبمناسبة ما تدعوهم إليه هذه الآية من يقظة وتذكر يحذرهم في الآية التالية من أن يكونوا « كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .. وهي حالة عجيبة . ولكنها حقيقة .. فالذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة بلا رابطة تشده إلى أفق أعلى ، وبلا هدف لهذه الحياة يرفعه عن السائمة التي ترعى . وفي هذا نسيان لإنسانيته . وهذه الحقيقة تضاف إليها أو تنشأ عنها حقيقة أخرى ، وهي نسيان هذا المخلوق لنفسه فلا يدخر لها زاداً للحياة الطويلة الباقية ، ولا ينظر فيما قدم لها في الغداة من رصيد .

« أولئك هم الفاسقون » .. المنحرفون الخارجون .

وفي الآية التالية يقرر أن هؤلاء هم أصحاب النار ، ويشير للمؤمنين ليسلكوا طريقاً غير طريقهم وهم أصحاب الجنة . وطريق أصحاب الجنة غير طريق أصحاب النار :

« لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون » ..

لا يستويان طبيعة وحالاً ، ولا طريقاً ولا سلوكاً ، ولا وجهة ولا مصيراً . فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبداً في طريق . ولا يلتقيان أبداً في سمة . ولا يلتقيان أبداً في خطة . ولا يلتقيان أبداً في سياسة . ولا يلتقيان أبداً في صف واحد في دنيا ولا آخرة ..

« أصحاب الجنة هم الفائزون » .. يثبت مصيرهم ويدع مصير أصحاب النار مسكوتاً عنه . معروفاً . وكأنه ضائع لا يعنى به التعبير !

ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه ؛ وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد لو تنزل عليه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » . وهي صورة تمثل حقيقة . فإن لهذا القرآن ثقلًا وسلطانًا وأثرًا مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته . ولقد وجد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما وجد ، عند ما سمع قارئاً يقرأ : « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور ، إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ... » فارتكن إلى الجدار . ثم عاد إلى بيته يعود الناس شهراً مما ألم به !

واللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني مفتوحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً . ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام . أو أشد . والله خالق الجبال ومنزل القرآن يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .. والذين أحسوا شيئاً من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقاً لا يعبر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحى .

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ..

وهي خليفة بأن توقظ القلوب للتأمل والتفكير ..

* * *

وأخيراً تجيء تلك التسبيحة المديدة بأسماء الله الحسنى ؛ وكأنما هي أثر من آثار القرآن في كيان الوجود كله ، ينطلق بها لسانه وتتجاوب بها أرجائه ؛ وهذه الأسماء واضحة الآثار في صميم هذا الوجود وفي حركته وظواهره ، فهو إذ يسبح بها يشهد كذلك بآثارها :

« هو الله الذي لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم .

« هو الله الذي لا إله إلا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . سبحانه الله عما يشركون .

« هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة . ذات ثلاثة مقاطع . يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : « هو الله الذي لا إله إلا هو » .. أو « هو الله » ..

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر في هذا الكون ملحوظ ، وأثر في حياة البشر ملموس . فهي توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات . فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هي صفات سلبية أو منعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده .

« هو الله الذي لا إله إلا هو » .. فتقرر في الضمير وحدانية الاعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى انتهاء . ويقوم على هذه الوحدانية منهج كامل في التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء . وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله .

« عالم الغيب والشهادة » .. فيستقر في الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله في السر والعلانية ؛ ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذي لا يعيش وحده ، ولو كان في خلوة أو مناجاة ! ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذي لا يغفل بعده قلب ولا ينام !

« هو الرحمن الرحيم » فيستقر في الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح . ويتعادل الخوف والرجاء ، والفرع والطمأنينة . فالله في تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم . ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولا يتركهم بلا عون وهم يصارعون الشرور والأهواء .

« هو الله الذي لا إله إلا هو » .. يعيدها في أول التسيحة التالية ، لأنها القاعدة التي تقوم عليها سائر الصفات .. « الملك » .. فيستقر في الضمير أن لا ملك إلا الله الذي لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتجهون إليه ، ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين في وقت واحد « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ..

« القدوس » وهو اسم يشع القداسة المطلقة والطهارة المطلقة . ويلقي في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقي فيوض الملك القدوس ، والتسبيح له والتقديس .

« السلام » .. وهو اسم كذلك يشيع السلام والأمن والطمأنينة في جنبات الوجود ، وفي قلب المؤمن تجاه ربه . فهو آمن في جواره ، سالم في كنفه . وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والاطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى المودة والسلام .

« المؤمن » واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقي فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

« المهيمن » .. وهذا بدء صفحة أخرى في تصور صفة الله - سبحانه - إذ كانت الصفات السابقة : « القدوس السلام المؤمن » صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذه فتتعلق بذات الله فاعلة في الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك : « العزيز . الجبار . المتكبر » .. فهي صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو . ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد في صفاته هذه . وما يتصف بها سواه . فهو المتفرد بها بلا شريك .

ومن ثم يجيء ختام الآية : « سبحانه الله عما يشركون » ..

ثم يبدأ المقطع الأخير في التسيحة الجديدة .

« هو الله » .. فهي الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

« الخالق » .. « البارئ » .. والخلق : التصميم والتقدير . والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق ..

« المصور » . وهي كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة .

وتوالي هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة - حسب التصور الإنساني - فأما في عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه عن مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة فهذه لا يعرفها إلا الله . إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذي نعرفها به في حدود طاقتنا الصغيرة !

« له الأسماء الحسنى » .. الحسنى في ذاتها . بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم .

والحسنى التي توحى بالحسن للقلوب وتفيضه عليها . وهي الأسماء التي يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إيحائها واتجاهها ، إذ يعلم أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج في مراقبه وهو يتطلع إليها .
وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مع مدلولاتها الموحية وفي فيوضها العجيبة ، هي مشهد التسبيح لله يشيع في جنات الوجود ، وينبعث من كل موجود :
« يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم » ..
وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ؛ ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء .. كما يتلاقى فيه المطلع والختام . في تناسق والتثام .

* * *

(٦٠) سُورَةُ الْمُتَحَنِّنِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيَاكُمُ أَنْ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِتُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَنْقُضُوكُمْ كُفُورًا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۖ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّا نَكُنُ مِنَ الْمُتَسَلِّطِينَ ﴿٤﴾ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا كُفْرًا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَى اللَّهُ عَنِ

الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِحْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۚ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمٍ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ۚ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسْأَلُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

هذه السورة حلقة في سلسلة التربية الإيمانية والتنظيم الاجتماعي والدولة في المجتمع المدني . حلقة من تلك السلسلة الطويلة ، أو من ذلك المنهج الإلهي المختار للجماعة المسلمة المختارة ، التي ناط بها الله تحقيق منهجه الذي يريده للحياة الإنسانية ، في صورة واقعية عملية ، كما يستقر في الأرض نظاماً ذا معالم وحدود وشخصية مميزة ؛ تبلغ إليه البشرية أحياناً ، وتقصر عنه أحياناً ، ولكنها تبقى معلقة دائماً بمحاولة بلوغه ؛ وتبقى أمامها صورة واقعية منه ، تحققت يوماً في هذه الأرض .

وقد اقتضى هذا - كما قلنا في أول هذا الجزء - إعداداً طويلاً في خطوات ومراحل . وكانت الأحداث التي تقع في محيط هذه الجماعة ، أو تتعلق بها ، مادة من مواد هذا الإعداد . مادة مقدرة في علم الله ، تقوم عليها مادة أخرى هي التفسير والتوضيح والتعقيب والتوجيه .

وفي مضطرب الأحداث ، وفي تيار الحياة المتدفق ، تمت عملية بناء النفوس المختارة لتحقيق ذلك المنهج الإلهي في الأرض . فلم تكن هناك عزلة إلا العزلة بالتصور الإيماني الجديد ، وعدم خلطه بأية رقع غريبة عنه في أثناء التكوين النفسي لهذه الجماعة . وكانت التربية المستمرة متجهة دائماً إلى إنشاء هذا التصور الإيماني

الخاص المميز ، المنعزل بحقيقته وطبيعته عن التصورات السائدة في العالم كله يومذاك ، وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة . أما الناس الذين يُنشأ هذا التصور المتميز في نفوسهم فلم يكونوا بمعزل عن واقع الحياة ومضطرب الأحداث ، بل كانوا يصهرون في بوتقة الحوادث يوماً بعد يوم ، ومرة بعد مرة ، ويعاد صهرهم في الأمر الواحد والخلق الواحد مرات كثيرة ، وتحت مؤثرات متنوعة ؛ لأن الله الذي خلق هذه النفوس يعلم أنها ليست كلها مما يتأثر ويستجيب ويتكيف ويستقر على ما تكيف به منذ اللمسة الأولى . وكان يعلم أن رواسب الماضي ، وجواذب الميول الطبيعية ، والضعف البشري ، وملامسات الواقع ، وتحكم الإلف والعادة ، كلها قد تكون معوقات قوية تغلب عوامل التربية والتوجيه مرة بعد مرة . وتحتاج في مقاومتها إلى التذكير المتكرر ، والصبر المتوالي . . فكانت الأحداث تتوالى كما هي منسوقة في قدر الله ، وتتوالى الموعظة بها . والتحذير على ضوئها ، والتوجيه بهديها ، مرة بعد مرة .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقوم في يقظة دائمة وإلهام بصير ، بالتقاط الأحداث والوقائع والمناسبات في كل فرصة ، واستخدامها بحكمة بالغة في بناء هذه النفوس . والوحي والإلهام يؤيدانه ويسدانه - صلى الله عليه وسلم - حتى تصنع تلك الجماعة المختارة على عين الله . بتوفيق الله . على يدي رسول الله .

* * *

هذه السورة حلقة في سلسلة ذلك الإعداد الطويل ، تستهدف - مع غيرها مما جاء في مثل موضوعها - إقامة عالم رباني خالص في ضمير المسلم . عالم محوره الإيمان بالله وحده ، يشد المسلمين إلى هذا المحور وحده ، بعروة واحدة لا انفصام لها ؛ ويبرئ نفوسهم من كل عصبية أخرى . عصبية للقوم أو للجنس أو للأرض أو للعشيرة أو للقرابة . ليجعل في مكانها جميعاً عقدة واحدة . هي عقدة الإيمان بالله . والوقوف تحت راية الله . في حزب الله .

إن العالم الذي يريده الإسلام عالم رباني إنساني . رباني بمعنى أنه يستمد كل مقوماته من توجيه الله وحكمه ، ويتجه إلى الله بكل شعوره وعمله . وإنساني بمعنى أنه يشمل الجنس الإنساني كله - في رحاب العقيدة - وتذوب فيه فواصل الجنس والوطن واللغة والنسب . وسائر ما يميز إنساناً عن إنسان ، عدا عقيدة الإيمان . وهذا هو العالم الرفيع اللائق أن يعيش فيه الإنسان الكريم على الله ، المتضمن كيانه نفحة من روح الله .

ودون إقامة هذا العالم تقف عقبات كثيرة - كانت في البيئة العربية وما تزال في العالم كله إلى اليوم - عقبات من التعصب للبيت ، والتعصب للعشيرة ، والتعصب للقوم ، والتعصب للجنس ، والتعصب للأرض . كما تقف عقبات أخرى من رغائب النفوس وأهواء القلوب ، من الحرص والشح وحب الخير للذات ، ومن الكبرياء الذاتية والالتواءات النفسية . . وألوان غيرها كثير من ذوات الصدور !

وكان على الإسلام أن يعالج هذا كله في الجماعة التي يعدها لتحقيق منهج الله في الأرض في صورة عملية واقعة . وكانت هذه الصورة حلقة في سلسلة هذا العلاج الطويل .

وكان بعض المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهلهم في سبيل عقيدتهم ، ما تزال نفوسهم مشدودة إلى بعض من خلفوا هنالك من ذرية وأزواج وذوي قرى . وعلى الرغم من كل ما ذاقوا من العنت والأذى في قریش فقد ظلت بعض النفوس تود لو وقعت بينهم وبين أهل مكة المحاسنة والمودة ؛ وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية التي تكلفهم قتال أهلهم وذوي قرابتهم ، وتقطع ما بينهم وبينهم من صلات !

وكان الله يريد استصفاء هذه النفوس واستخلاصها من كل هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه وعقيدته ومنهجه .

وهو - سبحانه - يعلم ثقل الضغط الواقع عليها من الميول الطبيعية ورواسب الجاهلية جميعاً - وكان العرب بطبيعتهم أشد الناس احتفالاً بعصبية القبيلة والعشيرة والبيت - فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه الناجع البالغ ، بالأحداث وبالتعقيب على الأحداث ، ليكون العلاج على مسرح الحوادث وليكون الطرق والحديد ساخن ! وتذكر الروايات حادثاً معيناً نزل فيه صدر هذه السورة . وقد تكون هذه الروايات صحيحة في سبب النزول المباشر . ولكن مدى النصوص القرآنية دائماً أبعد من الحوادث المباشرة .

وقد قيل في هذا الحادث : إن حاطب بن أبي بلتعة كان رجلاً من المهاجرين . وكان من أهل بدر أيضاً . وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم بل كان حليفاً لعثمان . فلما عزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على فتح مكة لما نقض أهلها عهد الحديبية أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم عمّ عليهم خبرنا » . . . وأخبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جماعة من أصحابه بوجهته ، كان منهم حاطب . فعمد حاطب فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة مشركة - قيل من مزينة - جاءت المدينة تسترقد - إلى أهل مكة يعلمهم بعزم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً . فأطلع الله - تعالى - رسوله على ذلك استجابة لدعائه . وإمضاء لقدره في فتح مكة . فبعث في أثر المرأة ، فأخذ الكتاب منها .

وقد روى البخاري في المغازي ، ورواه مسلم في صحيحه من حديث حصين بن عبد الرحمن ، عن سعد ابن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي - رضي الله عنه - قال : « بعثني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا مرثد والزبير بن العوام - وكلنا فارس - وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين » . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلنا : الكتاب ؟ فقالت ما معي كتاب . فأئناها فالتمسنا فلم نر كتاباً . فقلنا : ما كذب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها ، وهي محتجزة بكساء ، فأخرجته . فانطلقنا به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال عمر : يا رسول الله . قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلاضربن عنقه . فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال حاطب : والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - أردت أن تكون لي عند القوم يد . يدفع الله بها عن أهلي ومالي ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال : « صدق لا تقولوا إلا خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعني فلاضرب عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر ؟ » فقال - : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو - قد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم . . . وزاد البخاري في كتاب المغازي : فأنزل الله السورة : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » . . . وفي رواية أخرى أن الذين أرسلوا كانوا هم علي والزبير والمقداد .

والوقوف قليلاً أمام هذا الحادث وما دار بشأنه لا يخرج بنا عن « ظلال القرآن » والتربية به وبالأحداث والتوجيهات والتعقيبات عن طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القائد المربي العظيم . .

وأول ما يقف الإنسان أمامه هو فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على سر الحملة . . وفيها ما يكشف عن منحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها ؛ وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات فهو الذي يعين عليها .

ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو لا يعجل حتى يسأل : « ما حملك على ما صنعت » في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه ، وإدراك ملهم بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : « صدق لا تقولوا إلا خيراً » . ليعينه وينفضه من عثرته ، فلا يطارد به ولا يدع أحداً يطارد به . بينما نجد الإيمان الجاد الحاسم الجازم في شدة عمر : « إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين . فدعني فلاضرب عنقه » . فعمر - رضي الله عنه - إنما ينظر إلى العثرة ذاتها فيثور لها حسه الحاسم وإيمانه الجازم . أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فينظر إليها من خلال إدراكه الواسع الشامل للنفس البشرية على حقيقتها ، ومن كل جوانبها ، مع العطف الكريم الملهم الذي تنشئه المعرفة الكلية . في موقف المربي الكريم العطوف المتأني الناظر إلى جميع الملابس والظروف ..

ثم يقف الإنسان أمام كلمات حاطب ، وهو في لحظة ضعفه ، ولكن تصوره لقدر الله وللأسباب الأرضية هو التصور الإيماني الصحيح .. ذلك حين يقول : « أردت أن تكون لي عند القوم يد .. يدفع الله بها عن أهلي ومالي » .. فالله هو الذي يدفع ، وهذه اليد لا تدفع بنفسها ، إنما يدفع الله بها . ويؤكد هذا التصور في بقية حديثه وهو يقول : « وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع .. الله .. به عن أهله وماله » فهو الله حاضر في تصوره ، وهو الذي يدفع لا العشيرة . إنما العشيرة أداة يدفع الله بها ..

ولعل حس رسول الله الملهم قد راعى هذا التصور الصحيح الحي في قول الرجل ، فكان هذا من أسباب قوله - صلى الله عليه وسلم - : « صدق . لا تقولوا إلا خيراً » ..

وأخيراً يقف الإنسان أمام تقدير الله في الحادث ؛ وهو أن يكون حاطب من القلة التي يعهد إليها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسر الحملة . وأن تدركه لحظة الضعف البشري وهو من القلة المختارة . ثم يجري قدر الله بكف ضرر هذه اللحظة عن المسلمين . كأنما القصد هو كشفها فقط وعلاجها ! ثم لا يكون من الآخرين الذين لم يعهد إليهم بالسر اعتراض على ما وقع ، ولا تنفج بالقول : ها هو ذا أحد من استودعوا السر خانوه ، ولو أودعناه نحن ما بحثنا به ! فلم يرد من هذا شيء . مما يدل على أدب المسلمين مع قيادتهم ، وتواضعهم في الظن بأنفسهم ، واعتبارهم بما حدث لأخيهم ...

والحادث متواتر الرواية . أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخاري . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ؛ ولكن مضمون النص القرآني - كما قلنا - أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذي تواترت به الروايات ، بمناسبة وقوع هذا الحادث ، على طريقة القرآن . كان يعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة ليخرج بها من هذا الضيق المحلي إلى الأفق العالمي الإنساني .

وكان ينشئ في هذه النفوس صورة جديدة ، وقيماً جديدة ، وموازن جديدة ، وفكرة جديدة عن الكون والحياة والإنسان ، ووظيفة المؤمنين في الأرض ، وغاية الوجود الإنساني .

وكان كأنما يجمع هذه النباتات الصغيرة الجديدة في كنف الله ؛ ليعلمهم الله ويبصرهم بحقيقة وجودهم وغايته ، وليفتح أعينهم على ما يحيط بهم من عداوات ومكر وكيد ، وليشعرهم أنهم رجاله وحزبه ، وأنه يريد بهم أمراً ، ويحقق بهم قدراً . ومن ثم فهم يوسمون بسمته ويحملون شارته ، ويعرفون بهذه الشارة وتلك السمة بين الأقاليم جميعاً . في الدنيا والآخرة . وإذن فليكونوا خالصين له ، منقطعين لولايته ، متجردين من كل وشيجة غير وشيجته . في عالم الشعور وعالم السلوك .

والسورة كلها في هذا الاتجاه . حتى الآيات التشريعية التنظيمية الواردة في آخرها عن معاملة المهاجرات المؤمنات ، ومبايعة من يدخلن في الإسلام ، والفصل بين المؤمنات وأزواجهن من الكفار . وبين المؤمنين وزوجاتهم من الكوافر .. فكلها تنظيماً منبثقة من ذلك التوجيه العام
ثم ختام السورة كما بدأت بالنهي عن موالاة أعداء الله ، ممن غضب عليهم الله ، سواء من المشركين أو من اليهود . ليتم التمييز والانفراد والمفاصلة من جميع الوشائج والروابط غير رابطة العقيدة وغير وشيجة الإيمان ..

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم . إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ؛ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقوكم يكونوا لكم أعداء ، ويسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » ..

تبدأ السورة بذلك النداء الودود الموحى : « يا أيها الذين آمنوا » .. نداء من ربهم الذي آمنوا به ، يدعوهم باسم الإيمان الذي ينسبهم إليه . يدعوهم ليصرهم بحقائق موقفهم ، ويحذرهم حبال أعدائهم ، ويذكرهم بالمهمة الملقاة على عاتقهم .

وفي مودة يجعل عدوهم عدوه ، وعدوه عدوهم :

« لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة » ..

فيشعر المؤمنون بأنهم منه وإليه . يعاديهم من يعاديه . فهم رجاله المتسبون إليه الذين يحملون شارته في هذه الأرض ، وهم أوداؤه وأحباؤه . فلا يجوز أن يلقوا بالمودة إلى أعدائهم وأعدائه .

ويذكرهم بجريرة هؤلاء الأعداء عليهم وعلى دينهم وعلى رسولهم ، وعدوانهم على هذا كله في تجن وظلم :

« وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم . أن تؤمنوا بالله ربكم » ..

فإذا أبقوا بعد هذه الجرائر الظالمة للموالاة والمودة ؟ كفروا بالحق . وأخرجوا الرسول والمؤمنين ، لا شيء إلا لأنهم آمنوا بالله ربهم ؟ إنه يهيج في قلوب المؤمنين هذه الذكريات المرتبطة بعقيدتهم . وهي التي حاربهم المشركون من أجلها ، لا من أجل أي سبب آخر . ويرز القضية التي عليها الخلاف والخصومة والحرب . فهي قضية العقيدة دون سواها . قضية الحق الذي كفروا به والرسول الذي أخرجه ، والإيمان الذي من أجله أخرجوهم .

وإذا تمحضت القضية هكذا وبرزت ، ذكرهم بأنه لا محل إذن للمودة بينهم وبين المشركين إن كانوا قد خرجوا من ديارهم ابتغاء رضوان الله وجهاداً في سبيله :

« إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي » ..

فما يجتمع في قلب واحد أن يهاجر جهاداً في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله ، مع مودة لمن أخرجه من أجل إيمانه بالله ، وهو عدو الله وعدو رسول الله !

ثم يحذرهم تحذيراً خفياً مما تكن قلوبهم ، وما يسرون به إلى أعدائهم وأعداء الله من المودة ، وهو مطلع على خفية القلوب وعلايتها :

« تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » .

ثم يهددهم تهديداً مخيفاً ، يثير في القلب المؤمن الوجل والمخافة :
« ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » ..

وهل يخيف المؤمن شيء ما يخيفه أن يضل سواء السبيل بعد الهداية والوصول ؟ !
وهذا التهديد وذلك التحذير يتوسطان تبصير المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يضمرون لهم من الشر والكيد .
ثم تحيي البقية :

« إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء » ..
فلا تعرض لهم فرصة يتمكنون فيها من المسلمين حتى يتصرفوا معهم تصرف العدو الأصيل . ويوقعوا بهم ما يملكون من أذى ومن تنكيل بالأيدي وبالألسنة وبكل وسيلة وكل سبيل .
والأدهى من هذا كله والأشد والأنكى :
« وودوا لو تكفروا » ..

وهذه عند المؤمن أشد من كل أذى ومن كل سوء يصيبه باليد أو اللسان . فالذي يود له أن يخسر هذا الكثر العزيز . كثر الإيمان . ويرتد إلى الكفر ، هو أعدى من كل عدو يؤذيه باليد وباللسان !
والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر ، ويهتدي بنوره بعد الضلال ، ويعيش عيشة المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره واستقامة طريقه وطمأنينة قلبه يكره العودة إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار . أو أشد . فعدوا الله هو الذي يود أن يرجعه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلى جنة الإيمان ، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور .
لهذا يتدرج القرآن في تهيج قلوب المؤمنين ضد أعدائهم وأعدائهم حتى يصل إلى قمته بقوله لهم عنهم : « وودوا لو تكفروا » ..

* * *

هذه هي الجولة الأولى بلمساتها المتعددة . ثم تليها جولة ثانية بلمسة واحدة تعالج مشاعر القرابة ووشائجها المتأصلة ؛ والتي تشتجر في القلوب فنجرها جراً إلى المودة ؛ وتنسبها تكاليف التميز بالعقيدة :
« لن تنفَعكم أرحامكم ولا أولادكم . يوم القيامة يفصل بينكم . والله بما تعملون بصير » ..
إن المؤمن يعمل ويرجو الآخرة . يزرع هنا وينتظر الحصاد هناك . فلمسة قلبه بما يكون في الآخرة من تقطيع ووشائج القرى كلها إذا تقطعت وشيجة العقيدة ، من شأنها أن تهون عنده شأن هذه الوشائج في فترة الحياة الدنيا القصيرة ؛ وتوجهه إلى طلب الوشيعة الدائمة التي لا تنقطع في دنيا ولا في آخرة :
ومن ثم يقول لهم : « لن تنفَعكم أرحامكم ولا أولادكم » .. التي تهفون إليها وتعلق قلوبكم بها ؛ وتضطرهم إلى مادة أعداء الله وأعدائكم وقاية لها - كما حدث لحاطب في حرصه على أولاده وأمواله - وكما تجيش خواطر آخرين غيره حول أرحامهم وأولادهم الذين خلفوهم في دار الهجرة . لن تنفَعكم أرحامكم ولا أولادكم . ذلك أنه « يوم القيامة يفصل بينكم » .. لأن العروة التي تربطكم مقطوعة . وهي العروة التي لا رباط غيرها عند الله .

« والله بما تعملون بصير » .. مطلع على العمل الظاهر والنية وراءه في الضمير .

* * *

ثم تأتي الجولة الثالثة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة : أمة التوحيد . وهذه القافلة الواحدة : قافلة الإيمان . فإذا هي ممتدة في الزمان ، متميزة بالإيمان ، متبرئة من كل وشيعة تنافي وشيعة العقيدة .. إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم . أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى . وفيه أسوة لا في العقيدة وحدها ، بل كذلك في السيرة ، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها ؛ ثم خلص منها هو ومن آمن معه ، وتجرد لعقيدته وحدها :

« قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ؛ إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ، وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده . إنا قول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شيء . ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم .. لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » ..

وينظر المسلم فإذا له نسب عريق ، وماض طويل ، وأسوة ممتدة على آمد الزمان . وإذا هو راجع إلى إبراهيم ، لا في عقيدته فحسب ، بل في تجاربه التي عاناها كذلك . فيشعر أن له رصيذاً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيد جيله الذي يعيش فيه . إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله ، الواقفين تحت راية الله ، قد مرت بمثل ما يمر به ، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته . فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين .. ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها ، إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته . فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفعة الظلال .. الشجرة التي غرسها أول المسلمين .. إبراهيم ..

مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانها المسلمون المهاجرون . وفيهم أسوة حسنة : « إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » ..

فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم . وهو الكفر بهم والإيمان بالله . وهي العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده . وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيعة العقيدة وآصرة الإيمان . وفي هذا فصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل . وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين .

ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه - وهو مشرك - ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين . فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه : « لأستغفرن لك » ..

فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك . قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه : « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » .. كما جاء في سورة أخرى .

ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله ، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال : « وما أملك لك من الله من شيء . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » ..

وهذا التسليم المطلق لله ، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين . كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه ، وإبراز ما في ثنياه من ملامح وسماوات وتوجيهات

على طريقة القرآن الكريم^١ .

ويستطرد لهذا في إثبات بقية دعاء إبراهيم ونجواه لمولاه :

« ربنا لا تجعلنا فتنه للذين كفروا » ..

فلا تسلطهم علينا . فيكون في ذلك فتنه لهم ، إذ يقولون : لو كان الإيمان يحمي أهله ما سلطنا عليهم وقهرناهم ! وهي الشبهة التي كثيراً ما تحيك في الصدور ، حين يتمكن الباطل من الحق ، ويتسلط الطغاة على أهل الإيمان - لحكمة يعلمها الله - في فترة من الفترات . والمؤمن يصبر للابتلاء ، ولكن هذا لا يمنعه أن يدعو الله ألا يصيبه البلاء الذي يجعله فتنه وشبهة تحيك في الصدور .

وبقية الدعاء :

« واغفر لنا » ..

يقولها إبراهيم خليل الرحمن . إدراكاً منه لمستوى العبادة التي يستحقها منه ربه ، وعجزه ببشريته عن بلوغ المستوى الذي يكافئ به نعم الله وآلاءه ، ويمجد جلاله وكبرياه فيطلب المغفرة من ربه ، ليكون في شعوره وفي طلبه أسوة لمن معه ولمن يأتي بعده .

ويحتم دعاءه وإنابته واستغفاره يصف ربه بصفته المناسبة لهذا الدعاء :

« ربنا إنك أنت العزيز الحكيم » ..

العزيز : القادر على الفعل ، الحكيم : فيما يمضي من تدبير .

وفي نهاية هذا العرض لموقف إبراهيم والذين معه ، وفي استسلام إبراهيم وإنابته يعود فيقرر الأسوة ويكررها ؛ مع لمسة جديدة لقلوب المؤمنين :

« لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد » .. فالأسوة في إبراهيم والذين معه متحققة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . هؤلاء هم الذين يدركون قيمة التجربة التي عاناها هذا الرهط الكريم ، ويجدون فيها أسوة تتبع ، وسابقة تهدي . فمن كان يرجو الله واليوم الآخر فليتخذ منها أسوة .. وهو تلميح موح للحاضرين من المؤمنين .

فأما من يريد أن يتولى عن هذا المنهج . من يريد أن يحيد عن طريق القافلة . من يريد أن ينسلخ من هذا النسب العريق . فما بالله من حاجة إليه - سبحانه - « فإن الله هو الغني الحميد » ..

وتنتهي الجولة وقد عاد المؤمنون أدراجهم إلى أوائل تاريخهم المديد ، ورجعوا بذكرياتهم إلى نشأتهم في الأرض ؛ وعرفوا تجاربهم المذخورة لهم في الأجيال المتطاولة ، ورأوا القرار الذي انتهى إليه من مروا بهذه التجربة ؛ ووجدوها طريقاً معبدة من قبل ليسوا هم أول السالكين فيها .

والقرآن الكريم يؤكد هذا التصور ويكرره ليتصل ركب المؤمنين ، فلا يشعر بالغرابة أو الوحشة سالك - ولو كان وحده في جيل ! ولا يجد مشقة في تكليف نهض به السالكون معه في الطريق !

* * *

بعدئذ يعود فينسجم على هذه القلوب التي يعلم الله ما بها من حنين ورغبة في زوال حالة العداء والجفوة التي

(١) يراجع فصل : القصة في القرآن في كتاب : التصوير الفني في القرآن « دار الشروق » .

تكلفهم هذه المشقة . ينسم عليها بنسمة الأمل الندية في أن ينضم هؤلاء الأعداء إلى راية الإسلام ، وإلى صفوف المسلمين ؛ فيكون هذا هو الطريق لزوال الجفوة وقيام الود على أساسه الركين .. ثم يخفف عنهم مرة أخرى - وهو يضع القاعدة الإسلامية الكبرى في العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم ، فيجعل المقاطعة والخصومة خاصة بحالة العداء والعدوان . فأما حين ينتفي العداء والعدوان فهو البر لمن يستحق البر ، وهو القسط في المعاملة والعدل :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم . إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ..

إن الإسلام دين سلام ، وعقيدة حب ، ونظام يستهدف أن يظل العالم كله بظله ، وأن يقيم فيه منهجه ، وأن يجمع الناس تحت لواء الله إخوة متعارفين متحابين . وليس هنالك من عائق يحول دون اتجاهه هذا إلا عدوان أعدائه عليه وعلى أهله . فأما إذا سلموهم فليس الإسلام براغب في الخصومة ولا متطوع بها كذلك ! وهو حتى في حالة الخصومة يستبقي أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة ، انتظاراً لليوم الذي يقتنع فيه خصومه بأن الخير في أن ينضوا تحت لوائه الرفيع . ولا ييأس الإسلام من هذا اليوم الذي تستقيم فيه النفوس ، فتتجه هذا الاتجاه المستقيم .

وفي الآية الأولى من هذا المقطع إشارة إلى هذا الرجاء الذي لا يغلب عليه اليأس ؛ في معرض التخفيف على نفوس بعض المهاجرين ، وتغذية قلوبهم المتعبة بمشقة المقاطعة والحرب للأهل والعشيرة :

« عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » ..

وهذا الرجاء من الله ، معناه القطع بتحقيقه . والمؤمنون الذين سمعوه لا بد قد أيقنوا به ، ولقد وقع بعد هذا بوقت قصير أن فتحت مكة ، وأن أسلمت قريش ، وأن وقف الجميع تحت لواء واحد ، وأن طويت الثارات والمواجد ، وأن عاد الجميع إخوة مؤتلفي القلوب .

« والله قدير » .. يفعل ما يريد بلا معقب .

« والله غفور رحيم » .. يغفر ما سلف من الشرك والذنوب ..

وإلى أن يتحقق وعد الله الذي دل عليه لفظ الرجاء رخص الله لهم في موادة من لم يقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم . ورفع عنهم الحرج في أن يبروهم ، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئاً . ولكنه نهى أشد النهي عن الولاء لمن قاتلوهم في الدين وأخرجوهم من ديارهم وساعدوا على إخراجهم . وحكم على الذين يتولونهم بأنهم هم الظالمون .. ومن معاني الظلم الشرك بالرجوع إلى قوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » .. وهو تهديد رهيب يجزع منه المؤمن ، ويتقي أن يدخل في مدلوله المخيف ! وتلك القاعدة في معاملة غير المسلمين هي أعدل القواعد التي تتفق مع طبيعة هذا الدين ووجهته ونظرته إلى الحياة الإنسانية ، بل نظرته الكلية لهذا الوجود ، الصادر عن إله واحد ، المتجه إلى إله واحد ، المتعاون في تصميمه اللدني وتقديره الأزلي ، من وراء كل اختلاف وتنوع ^١ .

(١) يراجع فصل : طبيعة السلام في الإسلام : في كتاب : السلام العالمي والإسلام . « دار الشروق »

وهي أساس شريعته الدولية ، التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعاً هي الحالة الثابتة ، لا غيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده ، أو خوف الخيانة بعد المعاهدة ، وهي تهديد بالاعتداء ؛ أو الوقوف بالقوة في وجه حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وهو كذلك اعتداء . وفيما عدا هذا فهي السلم والمودة والبر والعدل للناس أجمعين^١ .

ثم هي القاعدة التي تتفق مع التصور الإسلامي الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها ؛ ويجعل القيمة التي يرضن بها المؤمن ويقاتل دونها هي قضية العقيدة وحدها . فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد ، وتحقيق منهج الله في الأرض ، وإعلاء كلمة الله .

وهذا التوجيه يتفق مع اتجاه السورة كلها إلى إبراز قيمة العقيدة ، وجعلها هي الراية الوحيدة التي يقف تحتها المسلمون . فمن وقف معهم تحتها فهو منهم ، ومن قاتلهم فيها فهو عدوهم . ومن سالمهم فتركهم لعقيدتهم ودعوتهم ، ولم يصد الناس عنها ، ولم يحل بينهم وبين سماعها ، ولم يفتن المؤمنين بها ، فهو مسالم لا يمنع الإسلام من البر به والقسط معه .

إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته ، ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله . فلا خصومة على مصلحة ، ولا جهاد في عصبية - أي عصبية - من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب . إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ، ولتكون عقيدته هي المنهج المطبق في الحياة .

ولقد نزلت بعد ذلك سورة التوبة وفيها « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين .. الخ » .. فانتهد بهذا حالة المعاهدة والموادعة بين المسلمين والمشركين كافة . بعد مهلة أربعة أشهر لأصحاب المعاهدات غير المسبأة الأجل ، ومهلة إلى انتهاء الأجل لأصحاب المعاهدات المسبأة . ولكن هذا إنما كان بعدما أثبتت التجارب أن القوم لا يراعون عهودهم مع المسلمين إلا ريثما تسنح لهم الفرصة لنقضها وهم الرابحون ! فانطبقت القاعدة الأخرى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .. وكان هذا ضرورة لتأمين القاعدة الإسلامية - وهي حينئذ شبه الجزيرة كلها - من المتربصين بالمسلمين من أعدائهم المعاشين لهم من المشركين وأهل الكتاب الذين تكررت غدراتهم ونقضهم للعهود . وهي حالة اعتداء في صميمها . تنطبق عليها حالة الاعتداء . وبخاصة أن الامبراطوريتين المحيطتين بأرض الإسلام قد بدأتا تجمعان له وتشعران بخطرهما ، وتؤلبان عليه الإمارات العربية المتاخمة للخاضعة للدولتين الرومانية والفارسية . فلم يبق بد من تطهير المعسكر الإسلامي من بقية أعدائه قبل الالتحام في المعارك الخارجية المتوقعة يومذاك .

ونكتفي بهذا القدر من الاستطراد لنعود إلى سياق السورة في حكم المؤمنين المهاجرات : « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنين مهاجرات فامتنحوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن ؛ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ، وأسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا . ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم . وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا ، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » ..

(١) يراجع فصل : سلام العالم في كتاب السلام العالمي والإسلام . « دار الشروق » .

وقد ورد في سبب نزول هذه الأحكام أنه كان بعد صلح الحديبية الذي جاء فيه : « على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا » .. فلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه بأسفل الحديبية جاءت نساء مؤمنات يطلبن الهجرة والانضمام إلى دار الإسلام في المدينة ؛ وجاءت قريش تطلب ردهن تنفيذاً للمعاهدة . ويظهر أن النص لم يكن قاطعاً في موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، يُفْتَنّ في دينهن وهن ضعاف .

ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل في ذاته دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وما فيها من شطط وجور . على طريقة الإسلام في كل معاملاته الداخلية والدولية . وأول إجراء هو امتحان هؤلاء المهاجرات لتحري سبب الهجرة ، فلا يكون تخلصاً من زواج مكروه ، ولا طلباً لمنفعة ، ولا جرياً وراء حب فردي في دار الإسلام !

قال ابن عباس : كان يمتحنهن : بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله . وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ، وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فراراً من زوجك .

وهذا هو الامتحان .. وهو يعتمد على ظاهر حالهن واقرارهن مع الحلف بالله . فأما خفايا الصدور فأمرها إلى الله ، لا سبيل للبشر إليها : « الله أعلم بإيمانهن .. » فإذا ما أقررن هكذا « فلا ترجعوهن إلى الكفار » .. « لا هن حل لهن ولا هم يحلون لهن » ..

فقد انبنت الوشيعة الأولى .. وشيعة العقيدة .. فلم تعد هناك وشيعة أخرى يمكن أن تصل هذه القطيعة . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، لا يمكن أن تقوم إذا انقطعت هذه الوشيعة الأولى . والإيمان هو قوام حياة القلب الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يواده ولا أن يسكن إليه ويطمئن في جواره . والزواج مودة ورحمة وأنس وسكن .

وكان الأمر في أول الهجرة متروكاً بغير نص ، فلم يكن يفرق بين الزوجة المؤمنة والزوج الكافر ؛ ولا بين الزوج المؤمن والزوجة الكافرة ، لأن المجتمع الإسلامي لم يكن قد استقرت قواعده بعد . فأما بعد صلح الحديبية – أو فتح الحديبية كما يعتبره كثير من الرواة – فقد آن أن تقع المفاصلة الكاملة ؛ وأن يستقر في ضمير المؤمنين والمؤمنات ، كما يستقر في واقعهم ، أن لا رابطة إلا رابطة الإيمان ، وأن لا وشيعة إلا وشيعة العقيدة ، وأن لا ارتباط إلا بين الذين يرتبطون بالله .

ومع إجراء التفريق إجراء التعويض – على مقتضى العدل والمساواة – فيرد على الزوج الكافر قيمة ما أنفق من المهر على زوجته المؤمنة التي فارقت تعويضاً للضرر . كما يرد على الزوج المؤمن قيمة ما أنفق من المهر على زوجته الكافرة التي يطلقها من عصمته .

وبعد ذلك يحل للمؤمنين نكاح المؤمنات المهاجرات متى آتوهن مهورهن .. مع خلاف فقهي : هل لهن عدة ، أم لا عدة إلا للحوامل حتى يضعهن حملهن ؟ وإذا كانت لهن عدة فهل هي عدة المطلقات ... ثلاثة قروء .. أم هي عدة استبراء للرحم بحيضة واحدة ؟

« وآتوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن . ولا تمسكوا بعصم الكوافر ،

واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا» .

ثم يربط هذه الأحكام كلها بالضمانة الكبرى في ضمير المؤمن . ضمانة الرقابة الإلهية وخشية الله وتقواه :
« ذلكم حكم الله يحكم بينكم ، والله عليم حكيم » ..

وهي الضمانة الوحيدة التي يؤمن عليها من النقص والالتواء والاحتياال . فحكم الله ، هو حكم العليم الحكيم . وهو حكم المطلع على ذوات الصدور . وهو حكم القوي القدير . ويكفي أن يستشعر ضمير المسلم هذه الصلة ، ويدرك مصدر الحكم ليستقيم عليه ويرعاه . وهو يوقن أن مرده إلى الله .

فإذا فات المؤمنين شيء مما أنفقوا ، بامتناع الكوافر أو أهلهم من رد حق الزوج المؤمن – كما حدث في بعض الحالات – عوضهم الإمام مما يكون للكافرين الذين هاجرت زوجاتهم من حقوق على زوجاتهم في دار الإسلام ، أو مما يقع من مال الكفار غنيمة في أيدي المسلمين :

« وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا » ويربط هذا الحكم وتطبيقاته كذلك بالضمان الذي يتعلق به كل حكم وكل تطبيق :
« واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون » ..

وهي لمسة للمؤمنين بالله عميقة الأثر في القلوب .

وهكذا تكون تلك الأحكام بالمفاصلة بين الأزواج تطبيقاً واقعياً للتصور الإسلامي عن قيم الحياة وارتباطاتها ؛ وعن وحدة الصف الإسلامي وتميزه من سائر الصفوف ؛ وعن إقامة الحياة كلها على أساس العقيدة ، وربطها كلها بمحور الإيمان ؛ وإنشاء عالم إنساني تذوب فيه فوارق الجنس واللون واللغة والنسب والأرض . وتبقى شارة واحدة تميز الناس .. شارة الحزب الذي يتمون إليه .. وهما حزبان اثنان : حزب الله وحزب الشيطان ..

* * *

ثم بين رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كيف يبايعهن على الإيمان ، هن وغيرهن ممن يردن الدخول في الإسلام . وعلى أي الأسس يبايعهن :

« يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك في معروف ، فبايعهن ، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » ..

وهذه الأسس هي المقومات الكبرى للعقيدة ، كما أنها مقومات الحياة الاجتماعية الجديدة ..

إنها عدم الشرك بالله إطلاقاً .. وعدم إتيان الحدود .. السرقة والزنا .. وعدم قتل الأولاد .. إشارة إلى ما كان يجري في الجاهلية من وأد البنات ، كما أنه يشمل قتل الأجنة لسبب من الأسباب .. وهن أمينات على ما في بطونهن .. « ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » .. قال ابن عباس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن . وكذلك قال مقاتل . ولعل هذا التحفظ – بعد المبايعة على عدم الزنا – كان للحالات الواقعة في الجاهلية من أن تبيع المرأة نفسها لعدة رجال ، فإذا جاءت بولد ، نظرت أيهم أقرب به شياً فألحقته به ، وربما اختارت هي أحسنهم فألحقته به ابنها وهي تعلم من هو أبوه !

وعموم اللفظ يشمل هذه الحالة وغيرها من كل بهتان مزور يُدعى . ولعل ابن عباس ومقاتل خصصاه بذلك المعنى لمناسبة واقعة وقتذاك .

والشرط الأخير : « ولا يعصينك في معروف » .. وهو يشمل الوعد بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في كل ما يأمرهن به . وهو لا يأمر إلا بـمعروف . ولكن هذا الشرط هو أحد قواعد الدستور في الإسلام ، وهو يقرر أن لا طاعة على الرعية لإمام أو حاكم إلا في المعروف الذي يتفق مع دين الله وشريعته . وأنها ليست طاعة مطلقة لولي الأمر في كل أمر ! وهي القاعدة التي تجعل قوة التشريع والأمر مستمدة من شريعة الله ، لا من إرادة إمام ولا من إرادة أمة إذا خالفت شريعة الله . فالإمام والأمة كلاهما محكومون بشريعة الله ، ومنها يستمدان السلطات !

فإذا بايعن على هذه الأسس الشاملة قبلت ببعتهن . واستغفر لهن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما سلف « إن الله غفور رحيم » .. يغفر ويرحم ويقبل العثرات .

* * *

وفي الختام يجيء هذا الإيقاع العام :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

يجيء هتافاً للذين آمنوا باسم الإيمان ، وبالصفة التي تميزهم عن سائر الأقوام ، إذ تصلهم بالله وتفصلهم عن أعداء الله .

وقد وردت بعض الروايات بأن المقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود ، استناداً إلى دمجهم بهذه الصفة في مواضع أخرى من القرآن . ولكن هذا لا يمنع من عموم النص ليشمل اليهود والمشركين الذين ورد ذكرهم في السورة ، وكل أعداء الله . وكلهم غضب عليه الله . وكلهم يائس من الآخرة ، لا يعلق بها رجاء ، ولا يحسب لها حساباً كيأس الكفار من الموتى - أصحاب القبور - لاعتقادهم أن أمرهم انتهى ، وما عاد لهم من بعث ولا حساب .

وهو هتاف يتجمع من كل إيقاعات السورة واتجاهاتها . فتختم به كما بدأت بمثله . ليكون هو الإيقاع الأخير . الذي ترك السورة أصداءه في القلوب ..

* * *

(٦١) سُورَةُ الصَّفِّ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعٌ عَشَرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَجَّ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْسِمُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصٍ ﴿٤﴾

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرَ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ

أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لَنْحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَعَامَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح ، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين :

تستهدف أولاً أن تقرّر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة ، سبقته صور منه تناسب أطواراً معينة في تاريخ البشرية ، وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات ، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد ، الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات . وأن يظهره على الدين كله في الأرض ..

ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرّر أن قومه الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا ، ولم يعودوا امتاء على دين الله في الأرض : « وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم . فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » .. وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله ؛ فلم يعودوا أمتاء عليه ، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم ، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ويذكر رسالة عيسى ليقرّر أنه جاء امتداداً لرسالة موسى ، ومصداقاً لما بين يديه من التوراة ، وممهداً للرسالة الأخيرة ومبشراً برسولها ؛ ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير : « وإذ قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ، مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » .. وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به .

وكان مقررأ في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم ، وأن يستقر دين الله في الأرض في صورته الأخيرة على يدي رسوله الأخير : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني . فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة ، وإدراكه لقصة العقيدة ، ولنصيبه هو من أمانتها في الأرض .. يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعوراً يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله – كما أراد الله – وعدم التردد بين القول والفعل ؛ ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه ، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات .. ومن ثم يحجى في مطلع السورة بعد إعلان تسبيح الكون وما فيه لله .. « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » . ثم يدعوهم في وسط السورة إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين » .

ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا ، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره

إلى الله ، على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » ..

هذان الخطان واضحان في السورة كل الوضوح ، يستغرقان كل نصوصها تقريباً . فلا يبقى إلا التنديد بالمكذبين بالرسالة الأخيرة - وهذه قصتها وهذه غايتها - وهذا التنديد متصل دائماً بالخطين الأساسيين فيها . وذلك قول الله تعالى ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذكر تبشير عيسى - عليه السلام - به : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » ..

وفيه يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض ؛ وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه ؛ يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله ، كما يحب الله ؛ ويتضح طريقه ، فلا يبقى في تصويره غبش ، ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغة في هذه القضية ، أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد .

وفي أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره . وهو أن لا يقول ما لا يفعل ، وألا يختلف له قول وفعل ، ولا ظاهر وباطن ، ولا سريرة وعلانية . وأن يكون هو نفسه في كل حال . متجرداً لله . خالصاً لدعوته . صريحاً في قوله وفعله . ثابت الخطو في طريقه . متضامناً مع إخوانه . كالبنين المرصوص ..

* * *

« سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » ..

تجيء هذه التسيحة من الوجود كله لله العزيز الحكيم ، في مطلع السورة التي تعلن للمسلمين أن دينهم هو الحلقة الأخيرة في دين الله ؛ وأنهم هم الأمناء على هذا الدين الذي يوحد الله ، وينكر على الكافرين المشركين كفرهم وشركهم ، والذي يدعوهم للجهاد لنصرته ، وقد قدر الله أن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فيوحي هذا المطلع أن الأمانة التي يقوم عليها المسلمون هي أمانة الوجود كله ؛ وأن العقيدة التي يطلب إليهم الجهاد فيها هي عقيدة كل ما في السماوات وما في الأرض ؛ وأن ظهور هذا الدين على الدين كله ، هو ظاهرة كونية تتسق مع اتجاه الكون كله إلى الله العزيز الحكيم .

* * *

ثم يعاتب الله الذين آمنوا عتاباً شديداً على أمر حدث من طائفة منهم . أمر يكرهه الله أشد الكره ، ويمقته أكبر المقت ، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون . إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » ..

قال علي بن طلحة عن ابن عباس قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به . فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين ،

وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ... » .. وقد اختار ابن جرير في تفسيره هذا القول .

وقال ابن كثير في تفسيره : « وحملوا الآية - يعني الجمهور - على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا : ربنا لم كتب علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون شيئاً . أينما تكونوا يدرككم الموت . ولو كنتم في بروج مشيدة » ..

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون : قتلنا . ضربنا . طعنا . وفعلنا ... ولم يكونوا فعلوا ذلك ! والراجح من سياق الآيات وذكر القتال أن مناسبة النزول هي التي عليها الجمهور وهي اختيار ابن جرير . ولكن النصوص القرآنية دائماً أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهة ، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها . ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة ، مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات النزول .

إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ » ..

وتنتهي باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق في صيغة تضخم هذا الاستنكار :

« كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ؟ » ..

والمقت الذي يكبر « عند الله » .. هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر .. وهذا غاية التفضيع لأمر ، وبخاصة في ضمير المؤمن ، الذي يُنادى بإيمانه ، والذي يناديه ربه الذي آمن به .

والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذي قالوا فيه ما لم يفعلوا .. وهو الجهاد .. وتقرر ما يحبه الله فيه ويرضاه :

« إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ..

فليس هو مجرد القتال . ولكنه هو القتال في سبيله . والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف .

والقتال في ثبات وسمود « صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ..

* * *

إن القرآن - كما قلنا في مناسبات متعددة في هذا الجزء - كان بيني أمة . كان بينها لتقوم على أمانة دينه في الأرض ، ومنهجه في الحياة ، ونظامه في الناس . ولم يكن بد أن بيني نفوسها أفراداً وبينها جماعة ، وبينها عملاً واقعاً .. كلها في آن واحد .. فالمسلم لا يبنى فرداً إلا في جماعة . ولا يتصور الإسلام قائماً إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط ، وذات نظام ، وذات هدف جماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها . هو إقامة هذا المنهج الإلهي في الضمير وفي العمل مع إقامته في الأرض . وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج في حدود ذلك المنهج الإلهي .

والإسلام على شدة ما عني بالضمير الفردي وبالتبعية الفردية - ليس دين أفراد منعزلين ، كل واحد منهم يعبد الله في صومعة .. إن هذا لا يحقق الإسلام في ضمير الفرد ذاته ، ولا يحققه بطبيعة الحال في حياته .

ولم ينجئ الإسلام لينعزل هذه العزلة . إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها . ويهيمن على كل نشاط فردي وجماعي في كل اتجاه . والبشرية لا تعيش أفراداً إنما تعيش جماعات وأماً . والإسلام جاء ليحكمها وهي كذلك . وهو مبني على أساس أن البشر يعيشون هكذا . ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس . وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش في جماعة . وهو والجماعة التي يعيشون فيها يتجهون إلى الله ، ويقوم - فيها - على أمانة دينه في الأرض ، ومنهجه في الحياة ، ونظامه في الناس .

ومنذ اليوم الأول للدعوة قام مجتمع إسلامي - أو جماعة مسلمة - ذات قيادة مطاعة هي قيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذات التزامات جماعية بين أفرادها ، وذات كيان يميزها عن سائر الجماعات حولها ، وذات آداب تتعلق بضمير الإنسان مراعى فيها - في الوقت ذاته - حياة هذه الجماعة . . وذلك كله قبل أن تقوم الدولة المسلمة في المدينة . بل إن قيام تلك الجماعة كان هو وسيلة إقامة الدولة في المدينة . .

* * *

وننظر في هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردي بالحاجة الجماعية ، في ظل العقيدة الدينية ، وطبيعتها التي تقتضي تحقيقها في الحياة البشرية في صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه .

إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون . . وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم . . الصدق . . والاستقامة . وأن يكون باطنه كظاهرة ، وأن يطابق فعله قوله . . إطلاقاً . . وفي حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذي يجيء في الآية الثالثة .

وهذه السمة في شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيراً ، وتتابعها السنة في تكرار يزيدنها تأكيداً : يقول الله تعالى مندداً باليهود : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب . أفلا تعقلون ؟ » . . ويقول تعالى مندداً بالمنافقين : « ويقولون : طاعة . فإذا برزوا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذي تقول » . . ويقول فيهم كذلك : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » . . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ^١ » . . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة . ولعل الحديث الذي سنذكره هنا من أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة في هذا الاتجاه . . روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا صبي ، فذهبت لأخرج لألعب . فقالت أمي : يا عبد الله تعال أعطك . فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « وما أردت أن تعطيه ! » فقالت : تمرأ . فقال : « أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة » . . ولعله استقاء من هذا النبع النبوي الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثاً . حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهما بطعام وحجره فارغ ! فتخرج أن يروي عنه ، وقد كذب على بغلته !

فهذا بناء أخلاقي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمن يقوم أميناً على منهج الله في الأرض .

(١) رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

وهو الأمر الذي تقررته هذه السورة . وهذه حلقة من حلقات التربية في الجماعة المسلمة التي يعدها الله لتقوم على هذا الأمر .

فإذا جئنا للموضوع المباشر الذي كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها .. وهو موضوع الجهاد .. فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة .

نقف أولاً أمام النفس البشرية التي تلم بها لحظات الضعف الطارئة ، فلا يعصمها منها إلا عون الله ، وإلا التذكير الدائم ، والتوجيه الدائم ، والتربية الدائمة .. فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل في بعض الروايات : إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع . وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة « فلما كتب عليهم القتال » في المدينة في الوقت المناسب الذي قدره الله . إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتب علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! .. أو هم جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه !

وهذه الوقفة كفيلة بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالقوية والتثبيت والتوجيه ، وهي تواجه التكاليف الشاقة ، لتستقيم في طريقها ، وتتغلب على لحظات ضعفها ، وتتطلع دائماً إلى الأفق البعيد . كما تلهمنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية ! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يكلفنا إياه ! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون ؛ حتى يعاتبهم الله هذا العتاب الشديد ، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف !

ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون في سبيله صفاء كأنهم بنيان مرصوص .. نقف أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله .. وأول ما يسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتخلف وكرهية للقتال . ولكن هذا السبب الغريب في الحادث المحدود لا ينفي أن الحضر عام ، وأن وراءه حكمة دائمة .

إن الإسلام لا يتشهى القتال ، ولا يريد حياً فيه . ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذي وراءه كبير . فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة المستقرة . وهذا المنهج - ولو أنه يليق الفطرة المستقيمة - إلا أنه يكلف النفوس جهداً لتسمو إلى مستواه ، ولتستقر على هذا المستوى الرفيع . وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر ، لأنه يسلبها كثيراً من الامتيازات ، التي تستند إلى قيم باطلة زائفة ، يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر . وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوى الإيماني وتكاليفه ، كما تستغل جهل العقول ، وموروثات الأجيال ، لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه . والشر عارم . والباطل متبجح . والشيطان لئيم ! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان . أقوياء في أخلاقهم ، وأقوياء في قتال خصومهم على السواء . ويتعين عليهم أن يقاتلوا عندما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد ، وحرية الاعتقاد به ، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم .

وهم يقاتلون في سبيل الله .. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون .. عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت ... في سبيل الله وحده ، لتكون كلمة الله هي العليا . والرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »^١

وكلمة الله هي التعبير عن إرادته . وإرادته الظاهرة لنا - نحن البشر - هي التي تتفق مع الناموس الذي يسير عليه الكون كله . الكون الذي يسبح بحمد ربه . ومنهج الله في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس ؛ ويجعل الكون كله - والناس من ضمنه - يحكمون بشريعة الله . لا بشريعة يضعها سواه .

ولم يكن بد أن يقاومه أفراد ، وأن تقاومه طبقات ، وأن تقاومه دول . ولم يكن بد كذلك أن يمضي الإسلام في وجه هذه المقاومة ؛ ولم يكن بد أن يكتب الجهاد على المسلمين لنصرة هذا المنهج ، وتحقيق كلمة الله في الأرض . ولهذا أحب الله - سبحانه - الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص^١ .

ونقف ثالثاً أمام الحالة التي يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها : « صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .. فهو تكليف فردي في ذاته ، ولكنه فردي في صورة جماعية . في جماعة ذات نظام . ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوى جماعية ، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة ؛ فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفاً . صفاً سوياً منتظماً ، و صفاً متيناً راسخاً ذلك إلى أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن أن يهيمن على جماعة ، وأن ينشئ مجتمعاً متماسكاً .. متناسقاً . فصورة الفرد المنزل الذي يعبد وحده ، ويجاهد وحده . ويعيش وحده ، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين ، وعن مقتضياته في حالة الجهاد ، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة .

وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم ، وتوضح لهم معالم الطريق . وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع : « صفاً كأنهم بنيان مرصوص » .. بنيان تتعاون لبناته وتتضام وتتأسس ، وتؤدي كل لبنة دورها ، وتسد ثغرتها ، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها . تقدمت أو تأخرت سواء . وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جنبها سواء .. إنه التعبير المصور للحقيقة لا مجرد التشبيه العام . التعبير المصور لطبيعة الجماعة ، ولطبيعة ارتباطات الأفراد في الجماعة . ارتباط الشعور ، وارتباط الحركة ، داخل النظام المرسوم ، المتجه إلى هدف مرسوم .

* * *

بعدئذ يذكر قصة هذا المنهج الإلهي ومراحلها في الرسالات قبل الإسلام .
« وإذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . والله لا يهدي القوم الفاسقين .

« وإذ قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ..

وإذاء بني إسرائيل لموسى - وهو منقذهم من فرعون وملئه ، ورسولهم وقائدهم ومعلمهم - إيذاء متناول متعدد الألوان ، وجهاده في تقويم اعوجاجهم جهاد مضمّن عسير شاق . ويذكر القرآن في قصص بني إسرائيل صوراً شتى من ذلك الإيذاء ومن هذا العناء .

كانوا يتسخطون على موسى وهو يحاول مع فرعون إنقاذهم ، ويتعرض لبطشه وجبروته وهم آمنون بذلتهم له ! فكانوا يقولون له لائمين متبرمين : « أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » ! كأنهم لا يرون في رسالته

(١) يراجع فصل سلام العالم في كتاب : السلام العالمي والإسلام . « دار الشروق » .

خيراً ، أو كأنما يحملونه تبعة هذا الأذى الأخير !

وما كاد ينقذهم من ذل فرعون باسم الله الواحد الذي أنقذهم من فرعون وأغرقه وهم ينظرون .. حتى مالوا إلى عبادة فرعون وقومه .. « فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آله » .. وما كاد يذهب لميقات ربه على الجبل ليتلقى الألواح ، حتى أضلهم السامري : « فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا : هذا إلهكم وإله موسى فنسي ! » ..

ثم جعلوا يتسخطون على طعامهم في الصحراء : المن والسلوى . فقالوا : « يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها » !

وفي حادث البقرة التي كلفوا ذبحها ظلوا يماحكون ويتعللون ويسئون الأدب مع نبيهم وربهم وهم يقولون : « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي » .. « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها » .. « ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا » .. « فذبحوها وما كادوا يفعلون » !

ثم طلبوا يوم عطلة مقدساً فلما كتب عليهم السبت اعتدوا فيه . وأمام الأرض المقدسة التي بشرهم الله بدخولها وقفوا متخاذلين يصعرون خدhem في الوقت ذاته لموسى : « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » .. فلما كرر عليهم التضيض والتشجيع تبجحوا وكفروا : « قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون » ..

ذلك إلى إعنات موسى بالأسئلة والاقتراحات والعصيان والتمرد ، والاتهام الشخصي بالباطل كما جاء في بعض الأحاديث .

وتذكر الآية هنا قول موسى لهم في عتاب ومودة :

« يا قوم لم تؤذوني وقد تعلمون أنني رسول الله إليكم ؟ » ..

وهم كانوا يعلمون عن يقين .. إنما هي لهجة العتاب والتذكير ..

وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة ، فزادهم الله زيفاً ، وأزاع قلوبهم فلم تعد صالحة للهدى . وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبداً : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » ..

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله ، فلم يعودوا يصلحون لهذا الأمر ، وهم على هذا الزيف والضلال .

ثم جاء عيسى بن مريم . جاء يقول لبني إسرائيل :

« يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم » ..

فلم يقل لهم : إنه الله ، ولا إنه ابن الله ، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله .

« مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » ..

في هذه الصيغة التي تصور حلقات الرسالة المترابطة ، يسلم بعضها إلى بعض ، وهي متماسكة في حقيقتها ، واحدة في اتجاهها ، ممتدة من السماء إلى الأرض ، حلقة بعد حلقة في السلسلة الطويلة المتصلة .. وهي الصورة اللائقة بعمل الله ومنهجه . فهو منهج واحد في أصله ، متعدد في صوره ، وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقتها ، ووفق تجاربها ورصيدها من المعرفة حتى تبلغ مرحلة الرشد العقلي والشعوري ، فتجيء الحلقة الأخيرة في الصورة الأخيرة كاملة شاملة ، تخاطب العقل الراشد ، في ضوء تلك التجارب ، وتطلق هذا العقل يعمل في حدوده ،

داخل نطاق المنهج المرسوم للإنسان في جملته ، المتفق مع طاقاته واستعداداته .
وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص ، سواء تضمنت الأنجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها . فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأنجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن .
وقد قرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه : « النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » .. وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة ، التي كانوا يتواصون بتكتمها !

كما أنه ثابت من الروايات التاريخية أن اليهود كانوا ينتظرون مبعث نبي قد أظلمهم زمانه ، وكذلك بعض الموحدين المنعزلين من أحبار النصارى في الجزيرة العربية . ولكن اليهود كانوا يريدونه منهم . فلما شاء الله أن يكون من الفرع الآخر من ذرية إبراهيم ، كرهوا هذا وحاربوه !
وعلى أية حال فالنص القرآني بذاته هو الفيصل في مثل هذه الأخبار . وهو القول الأخير ..

* * *

ويبدو أن الآيات التالية في السورة جاءت على الأكثر بصدد استقبال بني إسرائيل - اليهود والنصارى - للنبي الذي بشرت به كتبهم . والتنديد بهذا الاستقبال ، وكيدهم للدين الجديد الذي قدر الله أن يظهره على الدين كله ، وأن يكون هو الدين الأخير !

« فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ..

ولقد وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل ، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حرباً شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم . حاربوه بالاتهام : « فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » .. كما قال الذين لا يعرفون الكتب ولا يعرفون البشارة بالدين الجديد . وحاربوه بالدس والوقعة داخل المعسكر الإسلامي ، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة ، وبين الأوس والخزرج من الأنصار . وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة . وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما وقع في غزوة الأحزاب . وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على يد عبد الله بن أبي بن سلول ، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو الله عبد الله بن سبأ . وحاربوه بالكاذب والإسرائيليات التي دسوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير - حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم .

ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة . فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام ، وظللتا تغيران عليه أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال . حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق ، وحاربوه في الأندلس في المغرب ، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حرباً شعواء حتى مزقوها وقسموا تركة ما كانوا يسمونه « الرجل المريض » .. واحتاجوا أن يخلقوا أبطالاً مزيفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكائدهم ضد الإسلام . فلما أرادوا تحطيم « الخلافة » والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا « بطلاً » ! .. ونفخوا فيه . وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقيق منه بطلاً في أعين مواطنيه . بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة ، وإلغاء اللغة العربية ، وفصل تركيا عن المسلمين ، وإعلانها دولة مدنية لا علاقة

لها بالدين ! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام والحركات الإسلامية في بلد من بلاد المسلمين ، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين ! وراية غير راية الدين .
« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم . والله متم نوره ولو كره الكافرون » ..

وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة ، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء ! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم : « هذا سحر مبین » .. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد . وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل !

« والله متم نوره ولو كره الكافرون » .. وصدق وعد الله . أتم نوره في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار . صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة ، ترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب ، ولكن حقيقة في عالم الواقع . وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه ، ويجاهدون في سبيله ، ويرضى أحدهم أن يلقي في النار ولا يعود إلى الكفر . فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء . وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين . وتنبض وتنفض قائمة - على الرغم من كل ما جرد على الإسلام والمسلمين من حرب وكيد وتنكيل وتشريد ويطش شديد . لأن نور الله لا يمكن أن تطفئه الأفواه ، ولا أن تطمسه كذلك النار والحديد ، في أيدي العبيد ! وإن خيل للطغاة الجبارين ، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغوا هذا الهدف العبيد !

لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين ، فكان من الحتم أن يكون :

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ..

وشهادة الله لهذا الدين بأنه « الهدى ودين الحق » هي الشهادة . وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة . ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله . ظهر في ذاته كدين ، فثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته . فأما الديانات الوثنية فليست في شيء في هذا المجال . وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمها ، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها ، فهو هي ، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان .

ولقد حرفت تلك الديانات وشوهت ومزقت وزيد عليها ما ليس منها ، ونقصت من أطرافها ، وانتهت لحال لا تصلح معه شيء من قيادة الحياة . وحتى لو بقيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجددة أبداً ، لأنها جاءت في تقدير الله لأمد محدود .

فهذا تحقيق وعد الله من ناحية طبيعة الدين وحقيقته . فأما من ناحية واقع الحياة ، فقد صدق وعد الله مرة ، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الدين كله فدانت له معظم الرقعة المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان . ثم زحف زحفاً سلمياً بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية ، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى .. وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة - منذ أن قضت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الخلافة الأخيرة في تركيا على أيدي « البطل » الذي صنعوه ! - وعلى الرغم من كل ما يرصد له في أنحاء الأرض من حرب وكيد ، ومن تحطيم للحركات الإسلامية الناهضة في كل بلد من بلاد الإسلام على أيدي « أبطال » آخرين من صنع الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على السواء . وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها ، ظاهراً بإذن الله على الدين كله تحقيقاً لوعده الله ، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل ، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل !

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى . وكانت مطمئناً لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر ، وإن هم إلا أداة . وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواثقين بوعدهم ، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة . بإذن الله .

* * *

وفي ظلال قصة العقيدة ، وفي مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير .، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا .. من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين .. يهتف بهم إلى أربح تجارة في الدنيا والآخرة . تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله :

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب .. وبشر المؤمنين .. »

وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل ، واستفهام وجواب ، وتقديم وتأخير ، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا المهتاف في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية .

يبدأ بالنداء باسم الإيمان : « يا أيها الذين آمنوا » .. يليه الاستفهام الموحى . فالله - سبحانه - هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ » ..

ومن ذا الذي لا يشاق لأن يدلّه الله على هذه التجارة ؟ وهنا تنتهي هذه الآية ، وتنفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق . ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع : « تؤمنون بالله ورسوله » .. وهم مؤمنون بالله ورسوله . فشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم ! « وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .. وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة ، يجيء في هذا الأسلوب ، ويكرر هذا التكرار ، ويساق في هذا السياق . فقد علم الله أن النفس البشرية في حاجة إلى هذا التكرار ، وهذا التنويع ، وهذه الموحيات ، لتنهض بهذا التكليف الشاق ، الضروري الذي لا مفر منه لإقامة هذا المنهج وحراسته في الأرض ... ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دهم عليها بالتحسين والترتين : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد .. ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة ، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه ، ويقره في الحس ويمكن له : « يغفر لكم ذنوبكم » .. وهذه وحدها تكفي . فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء ؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً ؟ ولكن فضل الله ليست له حدود : « ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن » .. وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم .. وحقاً .. « ذلك الفوز العظيم » ..

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرباحة . وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة . فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق . فكيف بمن يتجر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض ، ومتاع محدود في هذه الحياة الدنيا ، فيكسب به خلوداً لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله . ومتاعاً غير مقطوع ولا ممنوع ؟

لقد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - ليلة العقبة . قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اشترط لربك ولنفسك ما شئت » . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » .. قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل ! ولكن فضل الله عظيم . وهو يعلم من تلك النفوس أنها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض ، يناسب تركيبها البشري المحدود . وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض ، وتحقيق منهجه وهيئته على الحياة في ذلك الجيل : « وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب . وبشر المؤمنين » .. وهنا تبلغ الصفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله . الله الذي لا تنفذ خزائنه ، والذي لا ممسك لرحمته . فهي المغفرة والجنات والمساكن الطيبة والنعم المقيم في الآخرة . وفوقها .. فوق البيعة الرابعة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب .. فن الذي يدله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد ؟ !

وهنا يعن للنفس خاطر أمام هذا الترويح والتجيب .. إن المؤمن الذي يدرك حقيقة التصور الإيماني للكون والحياة ، ويعيش بقلبه في هذا التصور ، ويطلع على آفاقه وآماده ، ثم ينظر للحياة بغير إيمان ، في حدودها الضيقة الصغيرة ، وفي مستوياتها الهابطة الواطية ، وفي اهتماماتها الهزيلة الزهيدة .. هذا القلب لا يطبق أن يعيش لحظة واحدة بغير ذلك الإيمان ، ولا يتردد لحظة واحدة في الجهاد لتحقيق ذلك التصور الضخم الواسع الرفيع في عالم الواقع ، ليعيش فيه ، وليرى الناس من حوله يعيشون فيه كذلك .. ولعله لا يطلب على جهاده هذا أجراً خارجاً عن ذاته . فهو ذاته أجر .. هذا الجهاد .. وما يسكبه في القلب من رضى وارتياح . ثم إنه لا يطبق أن يعيش في عالم بلا إيمان . ولا يطبق أن يقعد بلا جهاد لتحقيق عالم يسوده الإيمان . فهو مدفوع دفعاً إلى الجهاد . كائنًا مصيره فيه ما يكون ..

ولكن الله - سبحانه - يعلم أن النفس تضعف ، وأن الاندفاع يهبط ، وأن الجهد يكل وأن حب السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلها ويقودها إلى الرضى بالواقع الهابط ..

ومن ثم يجاهد القرآن هذه النفس ذلك الجهاد ، ويعالجها ذلك العلاج ، ويهتف لها بالموجبات والمؤثرات ذلك الهتاف المتكرر المتنوع ، في شتى المناسبات . ولا يكلها إلى مجرد الإيمان ، ولا إلى نداء واحد باسم هذا الإيمان . فها هو ذا يختم السورة بنداء جديد ، يحمل طابعاً جديداً ، وإغراء جديداً ، وموحياً جديداً :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله . فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » ..

والحواريون هم تلاميذ المسيح - عليه السلام - قيل : الاثنا عشر الذين كانوا يلودون به ، وينقطعون للتلقي عنه . وهم الذين قاموا بعد رفعه بنشر تعاليمه وحفظ وصاياه .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ، ففسير نحن معها في ظلها المقصودة إلى الغاية من سردها في هذا الموضع من السورة .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله » .. في هذا الموضع الكريم الذي يرفعكم إليه الله . وهل أرفع من مكان يكون فيه العبد نصيراً للرب ؟ ! إن هذه الصفة تحمل من التكريم ما هو أكبر من الجنة والنعم .. كونوا أنصار الله ، « كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار

الله .. فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الأخير .. فما أجدر أتباع محمد أن يتدبوا لهذا الأمر الدائم ، كما انتدب الحواريون للأمر الموقوت ! وهذه هي اللمسة الواضحة في عرض هذا الحوار في هذا السياق .

وماذا كانت العاقبة ؟

« فأمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين .. » وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين : إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام هم المسيحيون إطلاقاً من استقام ومن دخلت في عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلاً كما حدث في التاريخ . وإما أن الذين آمنوا هم الذين أصروا على التوحيد في وجه المؤهلين لعيسى والمثلثين وسائر النحل التي انحرفت عن التوحيد . ومعنى أنهم أصبحوا ظاهرين أي بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذي هم عليه هو الذي أظهره الله بهذا الدين الأخير ؛ وجعل له الجولة الأخيرة في الأرض كما وقع في التاريخ . وهذا المعنى الأخير هو الأقرب والأرجح في هذا السياق .

والعبرة المستفادة من هذه الإشارة ومن هذا النداء هي العبرة التي أشرنا إليها ، وهي استنهاض همة المؤمنين بالدين الأخير ، الأمانة على منهج الله في الأرض ، ورثة العقيدة والرسالة الإلهية . المختارين لهذه المهمة الكبرى . استنهاض همتهم لنصرة الله ونصرة دينه « كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله » .. والنصر في النهاية لأنصار الله المؤمنين .

إنها الجولة الأخيرة في السورة ، واللمسة الأخيرة في السياق ؛ وهي ذات لون وذات طعم يناسبان جو السورة وسياقها ، مع ما فيها من تجدد في اللون وتنوع في المذاق ..

* * *

(٦٢) سُورَةُ الْجُمُعَةِ مِلْنِيَةً وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَثِلَ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

نزلت هذه السورة بعد سورة «الصف» السابقة . وهي تعالج الموضوع الذي عالجته سورة الصف ، ولكن من جانب آخر ، وبأسلوب آخر ، وبمؤثرات جديدة .
إنها تعالج أن تقرر في أخلاذ الجماعة المسلمة في المدينة أنها هي المختارة أخيراً لحمل أمانة العقيدة الإيمانية ؛

وأن هذا فضل من الله عليها ؛ وأن بعثة الرسول الأخير في الأميين - وهم العرب - منة كبرى تستحق الالتفات والشكر ، وتقتضي كذلك تكاليف تنهض بها المجموعة التي استجابت للرسول ، واحتملت الأمانة ؛ وأنها موصولة على الزمان غير مقطوعة ولا منبثة ، فقد قدر الله أن تنمو هذه البذرة وتمتد . بعدما نكل بنو إسرائيل عن حمل هذه الأمانة وانقطعت صلتهم بأمانة السماء ؛ وأصبحوا يحملون التوراة كالحمار يحمل أسفاراً ، ولا وظيفة له في إدراكها ، ولا مشاركة له في أمرها !

تلك هي الحقيقة الرئيسية التي تعالج السورة إقرارها في قلوب المسلمين . من كان منهم في المدينة يومذاك على وجه الخصوص ، وهم الذين ناط الله بهم تحقيق المنهج الإسلامي في صورة واقعة . ومن يأتي بعدهم ممن أشارت إليهم السورة ، وضممتهم إلى السلسلة الممتدة على الزمان .

وفي الوقت ذاته تعالج السورة بعض الحالات الواقعة في تلك الجماعة الأولى ؛ في أثناء عملية البناء النفسي العسيرة المتطاولة الدقيقة . وتخلصها من الجواذب المعوقة من الحرص والرغبة العاجلة في الربح ، وموروثات البيئة والعرف . وبخاصة حب المال وأسبابه الملهية عن الأمانة الكبرى ، والاستعداد النفسي لها . وتشير إلى حادث معين . حيث كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية ؛ فما إن أعلن نبأ قدومها حتى انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة واللهو الذي كانت القافلة تحاط به - على عادة الجاهلية - من ضرب بالدفوف وحدااء وهيصة ! وتركوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائماً . فيما عدا اثني عشر من الراسخين فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون ! كما تذكر الروايات ، التي قد لا تكون دقيقة من حيث العدد ، ولكنها ثابتة من حيث وقوع هذه الحركة من عدد من الحاضرين اقتضى التنبيه إليها في القرآن الكريم .

وهي حادثة تكشف بذاتها عن مدى الجهد الذي بذل في تربية تلك الجماعة الأولى حتى انتهت إلى ما انتهت إليه ؛ وحتى صارت ذلك النموذج الفريد في تاريخ الإسلام وفي تاريخ البشرية جميعاً . وتلهمنا الصبر على مشقة بناء النفوس في أي جيل من الأجيال ، لتكوين الجماعة المسلمة التي تنهض بحمل أمانة هذه العقيدة ، وتحاول تحقيقها في عالم الواقع كما حققتها الجماعة الأولى .

وفي السورة مباهلة مع اليهود ، بدعوتهم إلى تمني الموت للمبطلين من الفريقين وذلك رداً على دعواهم أنهم أولياء الله من دون الناس ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن بعثة الرسول في غيرهم لا تكون ! كما كانوا يدعون ! مع جزم القرآن بأنهم لن يقبلوا هذه المباهلة التي دعوا إليها فنكلوا عنها لشعورهم ببطان دعواهم . وتعقب السورة على هذا بتقرير حقيقة الموت الذي يفرون منه ، وأنه ملاقيهم مهما فروا ، وأنهم مردودون إلى عالم الغيب والشهادة فنبههم بما كانوا يعملون .. وهو تقرير لا يخص اليهود وحدهم ، إنما يلقيه القرآن ويدعه يفعل فعله في نفوس المؤمنين كذلك . فهذه الحقيقة لا بد أن تستقر في نفوس حملة أمانة الله في الأرض ، لينهضوا بتكاليفها وهم يعرفون الطريق !

هذا هو اتجاه السورة ، وهو قريب من اتجاه سورة الصف قبلها ، مع تميز كل منهما بالجانب الذي تعالجه ، وبالأسلوب الذي تأخذ القلوب به ، والظلال التي تلقيها هذه وتلك في الاتجاه الواحد العام . فلننظر كيف يتناول الأسلوب القرآني هذا الاتجاه ..

* * *

« يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، الملك القدوس العزيز الحكيم » ..

هذا المطلع يقرر حقيقة التسبيح المستمرة من كل ما في الوجود لله ؛ ويصفه - سبحانه - بصفات ذات علاقة لطيفة بموضوع السورة . السورة التي اسمها « الجمعة » وفيها تعليم عن صلاة الجمعة ، وعن التفرغ لذكر الله في وقتها ، وترك اللهو والتجارة ، وابتغاء ما عند الله وهو خير من اللهو ومن التجارة . ومن ثم تذكر : « الملك » .. الذي يملك كل شيء بمناسبة التجارة التي يسارعون إليها ابتغاء الكسب . وتذكر « القدوس » الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه إليه بالتقديس والتتزيه كل ما في السماوات والأرض ، بمناسبة اللهو الذي ينصرفون إليه عن ذكره . وتذكر « العزيز » .. بمناسبة المباهلة التي يدعى إليها اليهود والموت الذي لا بد أن يلاقي الناس جميعاً والرجعة إليه والحساب . وتذكر « الحكيم » .. بمناسبة اختياره الأميين لبعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .. وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

* * *

ثم يبدأ في موضوع السورة الرئيسي :

« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين . وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » ..

قيل إن العرب سمو الأميين لأنهم كانوا لا يقرأون ولا يكتبون - في الأعم الأغلب - وروي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : الشهر هكذا وهكذا وأشار بأصابعه وقال : « إنا نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب » .. وقيل : إنما سمي من لا يكتب أمياً لأنه نسب إلى حال ولادته من الأم ، لأن الكتابة إنما تكون بالاستفادة والتعلم .

وربما سمو كذلك كما كان اليهود يقولون عن غيرهم من الأمم : إنهم « جويم » باللغة العبرية أي أميون . نسبة إلى الأمم - بوصفهم هم شعب الله المختار وغيرهم هم الأمم ! - والنسبة في العربية إلى المفرد .. أمة .. أميون . وربما كان هذا أقرب بالنسبة إلى موضوع السورة .

ولقد كان اليهود ينتظرون مبعث الرسول الأخير منهم ، فيجمعهم بعد فرقة ، وينصرهم بعد هزيمة ، ويعزهم بعد ذل . وكانوا يستفتحون بهذا على العرب ، أي يطلبون الفتح بذلك النبي الأخير .

ولكن حكمة الله اقتضت أن يكون هذا النبي من العرب ، من الأميين غير اليهود ؛ فقد علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية - كما سيحيى في المقطع التالي في السورة - وأنها زاعغت وضلت كما جاء في سورة الصف . وأنها لا تصلح لحمل الأمانة بعدما كان منها في تاريخها الطويل !

وكانت هناك دعوة إبراهيم خليل الرحمن - عليه الصلاة والسلام - تلك الدعوة التي أطلقها في ظل البيت هو وإسماعيل عليه السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل .. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم . إنك أنت العزيز الحكيم » ..

كانت هناك هذه الدعوة من وراء الغيب ، ومن وراء القرون ، محفوظة عند الله لا تضيع ، حتى يجيء موعدها المقدور في علم الله ، وفق حكمته ؛ وحتى تتحقق في وقتها المناسب في قدر الله وتنسيقه ، وحتى تؤدي دورها في الكون حسب التدبير الإلهي الذي لا يستقدم معه شيء ، ولا يستأخر عن موعده المرسوم .

(١) ذكره الإمام الجصاص صاحب أحكام القرآن بغير إسناد .

وتحققت هذه الدعوة - وفق قدر الله وتدييره - بنصها الذي تعيده السورة هنا لتذكر بحكاية ألفاظ إبراهيم .. « رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. كما قال إبراهيم ! حتى صفة الله في دعاء إبراهيم : « إنك أنت العزيز الحكيم » هي ذاتها التي تعقب على التذكير بمنة الله وفضله هنا : « وهو العزيز الحكيم » .

وقد سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن نفسه فقال : « دعوة أبي إبراهيم . وبشرى عيسى . ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »^١ .
« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ..

والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين ؛ وليرسل فيهم رسولاً منهم ، يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ؛ ويخرجهم من أميتهم أو من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم ، وتغيير ما بهم ، وتمييزهم على العالمين ..

« ويزكيهم » .. وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - تطهير للضمير والشعور ، وتطهير للعمل والسلوك ، وتطهير للحياة الزوجية ، وتطهير للحياة الاجتماعية . تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد ؛ ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح ، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح . وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني . ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال .. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع . تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه ، ويتعامل مع الملأ الأعلى ؛ ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم^٢ .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » .. يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب . ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور ، ويحسنون التقدير ، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير .

« وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .. ضلال الجاهلية التي وصفها جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة حين بعث قريش إليه عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ليكرّهاه في المهاجرين من المسلمين ، ويشوها موقفهم عنده ، فيخرجهم من ضيافته وجيرته .. فقال جعفر :

« أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية . نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي من الضعيف .. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه . فدعانا إلى الله لنوحده ولنعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ؛ وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » ..

(١) من رواية ابن إسحاق .. حدثني ثور بن زيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد ، وروى له شواهد من وجوه أخر ..

(٢) يراجع بتوسع كتاب : « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب « دار الشروق » .

ومع كل ما كانوا عليه في الجاهلية من ضلال فقد علم الله أنهم هم حملة هذه العقيدة الأمناء عليها ، بما علم في نفوسهم من استعداد للخير والصلاح ؛ ومن رصيد مذخور للدعوة الجديدة ؛ وقد فرغت منه نفوس اليهود التي أفسدها الذل الطويل في مصر ، فامتلات بالعقد والاتواءات والانحرافات ، ومن ثم لم تستقم أبداً بعد ذلك ، لا في حياة موسى عليه السلام ، ولا من بعده . حتى كتب الله عليهم لعنته وغضبه ، وانتزع من أيديهم أمانة القيام على دينه في الأرض إلى يوم القيامة .

وعلم الله أن الجزيرة في ذلك الأوان هي خير مهد للدعوة التي جاءت لتحرير العالم كله من ضلال الجاهلية ، ومن انحلال الحضارة في الامبراطوريات الكبيرة ، التي كان سوس الانحلال قد نخر فيها حتى اللباب ! هذه الحالة التي يصفها كاتب أوربي حديث فيقول :

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها أربعة آلاف سنة ، مشرقة على التفكك والانحلال ؛ وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلاً من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية ، كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب ... وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه^١ » ..

وهذه الصورة مأخوذة من زاوية النظر لكاتب أوربي . وهي من زاوية النظر الإسلامية أشد عتماً وظلاماً ! وقد اختار الله - سبحانه - تلك الأمة البدوية في شبه الجزيرة الصحراوية لتحمل هذا الدين ، بما علم في نفوسها وفي ظروفها من قابلية للاستصلاح وذخيرة مرصودة للبذل والعطاء . فأرسل فيهم الرسول يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

« وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم » ..

وهؤلاء الآخرون وردت فيهم روايات متعددة ..

قال الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور ، عن أبي الغيث ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : « كنا جلوساً عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فأنزلت عليه سورة الجمعة (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفيما سلمان الفارسي ، فوضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء » . فهذا يشير إلى أن هذا النص يشمل أهل فارس . ولهذا قال مجاهد في هذه الآية : هم الأعاجم وكل من صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - من غير العرب . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدي . قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن في أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » ثم قرأ :

(١) للكاتب ج . ه . دنيسون في كتاب : العواطف كأساس للحضارة .. نقلاً عن كتاب : الإسلام والنظام العالمي الجديد تأليف مولاي محمد علي وترجمة الأستاذ أحمد جودة السحار .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) .. يعني بقية من بقي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .
وكلا القولين يدخل في مدلول الآية . فهي تدل على آخرين غير العرب . وعلى آخرين غير الجيل الذي نزل فيه القرآن . وتشير إلى أن هذه الأمة موصولة الحلقات ممتدة في شعاب الأرض وفي شعاب الزمان ، تحمل هذه الأمانة الكبرى ، وتقوم على دين الله الأخير .

« وهو العزيز الحكيم » .. القوي القادر على الاختيار . الحكيم العليم بمواضع الاختيار ..
واختياره للمتقدمين والمتأخرين فضل وتكريم :

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » ..

وإن اختيار الله لأمة أو جماعة أو فرد ليحمل هذه الأمانة الكبرى ، وليكون مستودع نور الله وموضع تلقي فضله ، والمركز الذي تتصل فيه السماء بالأرض .. إن اختيار الله هذا لفضل لا يعدله فضل . فضل عظيم يربى على كل ما يبذله المؤمن من نفسه وماله وحياته ؛ ويربى على متاعب الطريق وآلام الكفاح وشدائد الجهاد . والله يذكر الجماعة المسلمة في المدينة ، والذين يأتون بعدها الموصولين بها والذين لم يلحقوا بها . يذكرهم هذا الفضل في اختيارهم لهذه الأمانة ، ولبعث الرسول فيهم يتلو عليهم الكتاب ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . ويترك للآتين في أطواء الزمان ذلك الرصيد الضخم من الزاد الإلهي ، ومن الأمثلة الواقعية في حياة الجماعة الأولى . يذكرهم هذا الفضل العظيم الذي تصغر إلى جانبه جميع القيم ، وجميع النعم ؛ كما تصغر إلى جانبه جميع التضحيات والآلام ..

* * *

بعد ذلك يذكر ما يفيد أن اليهود قد انتهى دورهم في حمل أمانة الله ؛ فلم تعد لهم قلوب تحمل هذه الأمانة التي لا تحملها إلا القلوب الحية الفاقهة المدركة الواعية المتجردة العاملة بما تحمل :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً . بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ! والله لا يهدي القوم الظالمين » ..

فبنو إسرائيل حملوا التوراة ، وكلفوا أمانة العقيدة والشريعة .. « ثم لم يحملوها » .. فحملها يبدأ بالإدراك والفهم والفقه ، وينتهي بالعمل لتحقيق مدلولها في عالم الضمير وعالم الواقع . ولكن سيرة بني إسرائيل كما عرضها القرآن الكريم - وكما هي في حقيقتها - لا تدل على أنهم قدروا هذه الأمانة ، ولا أنهم فقهوا حقيقتها ، ولا أنهم عملوا بها . ومن ثم كانوا كالحمار يحمل الكتب الضخام ، وليس له منها إلا ثقلها . فهو ليس صاحبها . وليس شريكاً في الغاية منها !

وهي صورة زرية بائسة ، ومثل سيئ شائن ، ولكنها صورة معبرة عن حقيقة صادقة « بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » ..

ومثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. كل الذين حملوا أمانة العقيدة ثم لم يحملوها . والمسلمون الذين غبرت بهم أجيال كثيرة ، والذين يعيشون في هذا الزمان ، وهم يحملون أسماء المسلمين ولا يعملون عمل المسلمين . وبخاصة أولئك الذين يقرأون القرآن والكتب ، وهم لا ينهضون بما فيها .. أولئك كلهم ، كالحمار يحمل أسفاراً . وهم كثيرون كثيرون ! فليست المسألة مسألة كتب تحمل وتدرس . إنما هي مسألة فقه وعمل بما في الكتب .

* * *

وكان اليهود يزعمون - كما يزعمون حتى اليوم - أنهم شعب الله المختار ، وأنهم هم أولياؤه من دون الناس وأن غيرهم هم « الجويم » أو الأميون أو الأميون . وأنهم من ثم غير مطالبين بمراعاة أحكام دينهم مع غيرهم من الأميين : « قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » .. إلى آخر هذه الدعاوى التي تفتري الكذب على الله بلا دليل ! فهنا دعوة لهم إلى المباهلة التي تكررت معهم ومع النصارى ومع المشركين :

« قل : يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل : إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

والمباهلة معناها وقوف الفريقين المتنازعين وجهاً لوجه ، ودعاؤهما معاً إلى الله أن ينكل بالمبطل منهما .. وقد خاف كل من دعاهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى هذه المباهلة ونكلوا عنها ، ولم يقبلوا التحدي فيها . مما يدل على أنهم في قرارة نفوسهم كانوا يعرفون صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحقية هذا الدين .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يزيد الزرقى ، حدثنا أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن عبد الكريم ابن مالك الجزري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال أبو جهل - لعنه الله - إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً . ولو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا وأروا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا »^١ .

وقد لا تكون هذه مباهلة ولكن مجرد تحد لهم ، بما أنهم يزعمون أنهم أولياء الله من دون الناس . فبا يخيفهم إذن من الموت ، ويجعلهم أجبن خلق الله ؟ وهم حين يموتون ينالون ما عند الله مما يلقاه الأولياء والمقربون ؟ ! ثم عقب على هذا التحدي بما يفيد أنهم غير صادقين فيما يدعون ، وأنهم يعرفون أنهم لم يقدموا بين أيديهم ما يطمنون إليه ، وما يرجون الثواب والقربى عليه ، إنما قدموا المعصية التي تخيفهم من الموت وما وراءه . والذي لم يقدم الزاد يحفل من ارتياد الطريق :

« ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » ..

وفي نهاية الجولة يقرر حقيقة الموت وما بعده ، ويكشف لهم عن قلة الجدوى في فرارهم من الموت ، فهو حتم لا مهرب منه ، وما بعده من رجعة إلى الله ، وحساب على العمل حتم كذلك لا ريب فيه :

« قل : إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم . ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

وهي لفظة من اللفظات القرآنية الموحية للمخاطبين بها وغير المخاطبين . تقر في الأخلاق حقيقة ينساها الناس ، وهي تلاحقهم أينما كانوا .. فهذه الحياة إلى انتهاء . والبعد عن الله فيها ينتهي للرجعة إليه ، فلا ملجأ منه إلا إليه . والحساب والجزاء بعد الرجعة كائنات لا محالة . فلا مهرب ولا فكاك .

روى الطبري في معجمه من حديث معاذ بن محمد الهذلي عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً : « مثل الذي يفر من الموت كممثل الثعلب ، تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى ، حتى إذا أعيأ وأنهر دخل جحره ،

(١) ورواه البخاري والترمذي والنسائي من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم .

فقال له الأرض : يا ثعلب ! دُبِّي . فخرج له حصاص . فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات ..
وهي صورة متحركة موحية عميقة الإيحاء ..

* * *

والآن يجيء المقطع الأخير في السورة خاصاً بتعليم يتعلق بالجمعة ، بمناسبة ذلك الحادث الذي وقع ربما أكثر من مرة ، لأن الصيغة تفيد التكرار :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون .
« وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً . قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين » ..

وصلاة الجمعة هي الصلاة الجامعة ، التي لا تصح إلا جماعة .. وهي صلاة أسبوعية يتحتم أن يتجمع فيها المسلمون ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكهم بالله . وهي عبادة تنظيمية على طريقة الإسلام في الإعداد للدنيا والآخرة في التنظيم الواحد وفي العبادة الواحدة ؛ وكلاهما عبادة¹ . وهي ذات دلالة خاصة على طبيعة العقيدة الإسلامية الجماعية التي تحدثنا عنها في ظلال سورة الصف . وقد وردت الأحاديث الكثيرة في فضل هذه الصلاة والحث عليها والاستعداد لها بالغسل والثياب والطيب .

جاء في الصحيحين عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا جاء أحدكم إلى الجمعة فليغتسل » ..

وروى أصحاب السنة الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : من غسل واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها » ..

وروى الإمام أحمد من حديث كعب بن مالك عن أبي أيوب الأنصاري قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج يأتي المسجد ، فيركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي ، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » ..

والآية الأولى في هذا المقطع تأمر المسلمين أن يتركوا البيع - وسائر نشاط المعاش - بمجرد سماعهم للأذان :
« يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » ..

وترغبهم في هذا الانخلاع من شؤون المعاش والدخول في الذكر في هذا الوقت :

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » ..

مما يوحى بأن الانخلاع من شؤون التجارة والمعاش كان يقتضي هذا الترغيب والتحبيب . وهو في الوقت ذاته تعليم دائم للنفوس ؛ فلا بد من فترات ينخلع فيها القلب من شواغل المعاش وجواذب الأرض ، ليخلو إلى ربه ، ويتجرد لذكره ، ويتذوق هذا الطعم الخاص للتجرد والاتصال بالملا الأعلى ، ويملاً قلبه وصدرة

(١) يراجع فصل العبادات الإسلامية في كتاب : « في النفس والمجتمع » لمحمد قطب . « دار الشروق »

من ذلك الهواء النقي الخالص العطر ويستروح شذاه !

ثم يعود إلى مشاغل العيش مع ذكر الله :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .. وهذا هو التوازن الذي يتسم به المنهج الإسلامي . التوازن بين مقتضيات الحياة في الأرض ، من عمل وكد ونشاط وكسب . وبين عزلة الروح فترة عن هذا الجو وانقطاع القلب وتجرده للذكر . وهي ضرورة لحياة القلب لا يصلح بدونها للاتصال والتلقي والنهوض بتكاليف الأمانة الكبرى . وذكر الله لا بد منه في أثناء ابتغاء المعاش ، والشعور بالله فيه هو الذي يحول نشاط المعاش إلى عبادة . ولكنه - مع هذا - لا بد من فترة للذكر الخالص ، والانقطاع الكامل ، والتجرد المحض . كما توحى هاتان الآيتان .

وكان عراك بن مالك - رضي الله عنه - إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إني أجب دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني . فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين » .. (رواه ابن أبي حاتم) .. وهذه الصورة تمثل لنا كيف كان يأخذ الأمر جدّاً ، في بساطة تامة ، فهو أمر للتنفيذ فور سماعه بحرفيته وبحقيقته كذلك !

ولعل هذا الإدراك الجاد الصريح البسيط هو الذي ارتقى بتلك المجموعة إلى مستواها الذي بلغت إليه ، مع كل ما كان فيها من جواذب الجاهلية . مما تصوره الآية الأخيرة في السورة :

« وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً . قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . والله خير الرازقين » ..

عن جابر - رضي الله عنه - قال : « بينا نحن نصلي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إذ أقبلت عير تحمل طعاماً ، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا اثنا عشر رجلاً ، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فنزلت : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » ^١ ..

وفي الآية تلويح لهم بما عند الله وأنه خير من اللهو ومن التجارة . وتذكير لهم بأن الرزق من عند الله « والله خير الرازقين » ..

وهذا الحادث كما أسلفنا يكشف عن مدى الجهد الذي بذل في التربية وبناء النفوس حتى انتهت إلى إنشاء تلك الجماعة الفريدة في التاريخ . ويمنح القائمين على دعوة الله في كل زمان رصيماً من الصبر على ما يجدونه من ضعف ونقص وتحلف وتعثر في الطريق . فهذه هي النفس البشرية بخيرها وشرها . وهي قابلة أن تصعد مراقي العقيدة والتطهر والتزكي بلا حدود ، مع الصبر والفهم والإدراك والثبات والمثابرة ، وعدم النكوص من منتصف الطريق . والله المستعان .

* * *

(٦٣) سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ مِلَانِيَّةٌ وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَسْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا
تَسْمِعَ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِّبُونَ كُلُّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى
يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّارُءٌ وَسَهُمٌ وَرَأَيْتُمْ يُصْذَوْنَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ
الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تَنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرَابُ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَلَهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى
أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص « المنافقون » الدال على موضوعها .. ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذكر النفاق والمنافقين ، ووصف أحوالهم ومكائدهم . فلا تكاد تخلو سورة مدنية من ذكر المنافقين تلميحاً أو تصريحاً . ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين ، والإشارة إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم .

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم ، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين ، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب .

وليس في السورة عدا هذا إلا لفظة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين ، ولو من بعيد . وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله ، والغفلة عن ذكره اشتغالاً بالأموال والأولاد ، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات .

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة ، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم تقطع في أي وقت تقريباً ، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين .. هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها ؛ وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدراً كبيراً ؛ وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة ، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين .

وقد ورد عن هذه الحركة فصل جيد في كتاب : « سيرة الرسول : صور مقتبسة من القرآن الكريم » لمؤلفه الأستاذ « محمد عزة دروزة » نقتطف منه فقرات كاشفة :

« وعلة ظهور تلك الحركة في المدينة واضحة ، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون الأولون في مكة لم يكونوا من القوة والنفوذ في حالة تستدعي وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم ، فتتملقهم وتتزلف إليهم في الظاهر ، وتتآمر عليهم وتكيد لهم وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجه عام . ولقد كان أهل مكة وزعمائها خاصة يناوئون النبي جهاراً ، ويتناولون من استطاعوا من المسلمين بالأذى الشديد ، ويقاومون الدعوة بكل وسيلة دون ما تحرز أو تحفظ ؛ وكانت القوة لهم حتى اضطر المسلمون إلى الهجرة فراراً بدينهم ودمهم إلى الحبشة أولاً ، ثم إلى يثرب ؛ وحتى فتن بعضهم عن دينه بالعنف والإكراه ، أو بالإغراء والتهويش ؛ وحتى تزلزل بعضهم وتبرم ونافق المشركين ، وحتى مات بعض من ناله الأذى ممن ثبت على دينه نتيجة للتعذيب ...

« أما في المدينة فقد كان الأمر مختلفاً جداً . فالنبي - صلى الله عليه وسلم - استطاع قبل أن يهاجر إليها أن يكسب أنصاراً أقوياء من الأوس والخزرج ؛ ولم يهاجر إلا بعد أن استوثق من موقفه ، ولم يبق تقريباً بيت عربي فيها لم يدخله الإسلام . ففي هذه الحالة لم يكن من الهين أن يقف الذين لم يؤمنوا به - إما عن جهالة وغباء ، وإما عن غيظ وحقد وعناد ، لأنهم رأوا في قدوم النبي حداً لنفوذهم وسلطانهم - موقف الجحود والعداء العلني للنبي والمسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ وكان للعصية في الوقت نفسه أثر غير قليل في عدم الوقوف هذا الموقف ، لأن سواد الأوس والخزرج أصبحوا أنصار النبي ، ومرتبطين به بمواثيق الدفاع والنصر ، إلى أن جلهم قد حسن إسلامهم ، وغدوا يرون في النبي رسول الله ، وقائدهم الأعلى الواجب الطاعة ، ومرشدهم الأعظم الواجب الاتباع ، فلم يكن يسع الذين ظلت تغلبهم نزعة الشرك ، ويتحكم فيهم مرض القلب والمكابرة والحقد ، ويحملهم ذلك على مناوأة النبي - صلى الله عليه وسلم - ودعوته ونفوذه - أن يظهروا علناً في نزعتهم

وعدائهم ، ولم يكن أمامهم إلا التظاهر بالإسلام ، والقيام بأركانه ، والتضامن مع قبائلهم . وجعل مكرهم وكيدهم ودسهم ومؤامراتهم بأسلوب المراوغة والخداع والتمويه ، وإذا كانوا وقفوا أحياناً مواقف علنية فيها كيد ودس ، وعليها طابع من النفاق بارز ، فإنما كان هذا منهم في بعض الظروف والأزمات الحادة التي كانت تحدى بالنبي والمسلمين ، والتي كانوا يتخذونها حجة لتلك المواقف بداعي المصلحة والمنطق والاحتياط ؛ ولم يكونوا على كل حال يعترفون بالكفر أو النفاق ، غير أن نفاقهم وكفرهم ومواقفهم في الكيد والدس والتآمر لم تكن لتخفى على النبي - صلى الله عليه وسلم - والمخلصين من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، كما أن المواقف العلنية التي كانوا يقفونها في فرص الأزمات كانت مما تزيد كفرهم ونفاقهم فضيحة ومقراً . وقد كانت الآيات القرآنية توجه إليهم كذلك الفضائح المرة بعد المرة ، وتدلل عليهم بما يفعلون أو يمكنون ، وتدمغهم بشرورهم وخبثهم ومكائدهم ، وتحذر النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين منهم في كل ظرف ومناسبة .

« ولقد كانت مواقف المنافقين ومكائدهم بعيدة المدى والأثر على ما تلهم الآيات المدنية ، حتى لكأنه نضال قوي ، يذكر بما كان من نضال بين النبي - صلى الله عليه وسلم - وزعماء مكة ، وإن اختلفت الأدوار والنتائج ؛ إذ أن النبي لم يلبث أن أخذ مركزه يتوطد وقوته تزداد ، ودائرة الإسلام تتسع ، وصار صاحب سلطان وأمر نافذ وجانب عزيز ؛ وإذا لم يكن المنافقون كتلة متضامنة ذات شخصية خاصة بارزة ، وكان ضعفهم وضآلة عددهم وشأنهم يسيران سيراً متناسباً عكسياً مع ما كان من تزايد قوة النبي - صلى الله عليه وسلم - واتساع دائرة الإسلام ، وتوطد عزته وسلطانه .

« ويكفيك لأجل أن تشعر بخطورة الدور الذي قام به المنافقون ، وخاصة في أوائل العهد ، أن تلاحظ أن المنافقين كانوا أقوياء نسبياً بعصبيتهم التي كانت ما تزال قوية الأثر في نفوس سواد قبائلهم ، كما أنهم لم يكونوا مفضوحين فضيحة تامة ، ولم يكن الإسلام قد رسخ في هذا السواد رسوخاً كافياً ؛ وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان محوطاً بالمشركين الجاحدين من كل جانب ، وأهل مكة خصومه الألداء ، وهم قبلة الجزيرة يترصدون به الدوائر ، ويتحينون كل فرصة ووسيلة للقضاء عليه ؛ واليهود في المدينة وحولها قد تنكروا له منذ عهد مبكر وتطهروا به ، ثم جاهره بالكفر والعداء والمكر ؛ ولم يلبث أن انعقد بينهم وبين المنافقين حلف طبيعي على توحيد المسعى ، والتضامن في موقف المعارضة والكيد ، حتى ليتمكن القول : إن المنافقين لم يقووا ويثبتوا ويكن منهم ذلك الأذى الشديد والاستمرار في الكيد والدس إلا بسبب ما لقوه من اليهود من تعضيد ، وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، ولم يضعف شأنهم ويخف خطرهم إلا بعد أن مكن الله للنبي من هؤلاء وأظهره عليهم ، وكفاه شرهم^١ . »

* * *

وهذه السورة تبدأ بوصف طريقته في مداراة ما في قلوبهم من الكفر ، وإعلانهم الإسلام والشهادة بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - هو رسول الله . وحلفهم كذباً ليصدقهم المسلمون ، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ، ويخدعون المسلمين فيهم :

« إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله - والله يعلم إنك لرسوله - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون » ..

(١) راجع الفصل بتمامه من ص ١٧٦ إلى ٢١٦ بالجزء الثاني من الكتاب .

فهم كانوا يجيئون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيشهدون بين يديه برسالته شهادة باللسان ، لا يقصدون بها وجه الحق ، إنما يقولونها للتقية ، وليخفوا أمرهم وحقيقتهم على المسلمين . فهم كاذبون في أنهم جاءوا ليشهدوا هذه الشهادة ، فقد جاءوا ليخدعوا المسلمين بها ، ويداروا أنفسهم بقولها . ومن ثم يكذبهم الله في شهادتهم بعد التحفظ الذي يثبت حقيقة الرسالة : « والله يعلم إنك لرسوله » .. « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » . والتعبير من الدقة والاحتياط بصورة تثير الانتباه . فهو يبادر بتثبيت الرسالة قبل تكذيب مقالة المنافقين . ولولا هذا التحفظ لأوهم ظاهر العبارة تكذيب المنافقين في موضوع شهادتهم وهو الرسالة . وليس هذا هو المقصود . إنما المقصود تكذيب إقرارهم فهم لا يقرون الرسالة حقاً ولا يشهدون بها خالصي الضمير !

« اتخذوا أيمانهم جنة » .. وهي توحى بأنهم كانوا يحلفون الأيمان كلما انكشف أمرهم ، أو عرف عنهم كيد أو تدبير ، أو نقلت عنهم مقالة سوء في المسلمين . كانوا يحلفون ليتقوا ما يترتب على افتراسهم أمر من أمورهم ، فيجعلون أيمانهم وقاية وجنة يحتمون وراءها ، ليواصلوا كيدهم ودسهم وإغواءهم للمخدوعين فيهم . « فصدوا عن سبيل الله » .. صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم مستعينين بتلك الأيمان الكاذبة : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » .. وهل أسوأ من الكذب للخداع والتضليل ؟ !

ويعلل حالهم هذه من شهادة مدخولة كاذبة ، وأيمان مكذوبة خادعة ، وصد عن سبيل الله وسوء عمل .. يعمله بأنهم كفروا بعد الإيمان ، واختاروا الكفر بعد أن عرفوا الإسلام :
« ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون » ..

فهم عرفوا الإيمان إذن ، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر . وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه ، أو تذوق ، أو حياة . وإلا فن ذا الذي يذوق ويعرف ، ويطلع على التصور الإيماني للوجود ، وعلى التذوق الإيماني للحياة ، ويتنفس في جو الإيمان الذكي ، ويحيا في نور الإيمان الوضيء ، ويتفيا ظلال الإيمان الندية .. ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود ؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود ، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد ! « فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون » ..

ثم يرسم لهم السياق صورة فريدة مبدعة ؛ تثير السخرية والهزء والزراية بهذا الصنف المسموخ المطموس من الناس ، وتسمهم بالفراغ والخواء والانطماس والجبن والفرع والحقد والكنود . بل تنصبهم تمثالاً وهدفاً للسخرية في معرض الوجود :

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو فاحذرهم . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ » ..

فهم أجسام تعجب . لا أناسي تتجاوب ! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون .. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة .. « تسمع لقولهم كأنهم خشب » .. ولكنها ليست خشباً فحسب . إنما هي « خشب مسندة » .. لا حركة لها ، ملطوعة بجانب الجدار !

هذا الجمود الراكد البارد يصورهم من ناحية فقه أرواحهم إن كانت لهم أرواح ! ويقابله من ناحية أخرى حالة من التوجس الدائم والفرع الدائم والاهترزاز الدائم :

« يحسبون كل صيحة عليهم » ..

فهم يعرفون أنهم منافقون مستترون بستار رقيق من التظاهر والحلف والملق والاتواء . وهم يخشون في كل

لحظة أن يكون أمرهم قد افترض واسترهم قد انكشف . والتعبير يرسمهم أبدأ متلفتين حوالهم ؛ يتوجسون من كل حركة ومن كل صوت ومن كل هاتف ، يحسبونه يطلبهم ، وقد عرف حقيقة أمرهم ! !
وبينما هم خشب مسندة ملطوعة إذا كان الأمر أمر فقه وروح وشعور بإيقاعات الإيمان .. إذا هم كالقصبه المرتجفة في مهيب الريح إذا كان الأمر أمر خوف على الأنفس والأموال !
وهم بهذا وذلك يمثلون العدو الأول للرسول - صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين :
« هم العدو فاحذرهم » ..

هم العدو الحقيقي . العدو الكامن داخل المعسكر ، المختبئ في الصف . وهو أخطر من العدو الخارجي الصريح . « فاحذرهم » .. ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يؤمر هنا بقتلهم ، فأخذهم بخطة أخرى فيها حكمة وسعة وثقة بالنجاة من كيدهم (كما سيجيء نموذج من هذه المعاملة بعد قليل) ..
« قاتلهم الله أنى يؤفكون » ..

فإن الله مقاتلهم حيثما صرفوا وأنى توجهوا . والدعاء من الله حكم بمداول هذا الدعاء ، وقضاء نافذ لا راد له ولا معقب عليه .. وهذا هو الذي كان في نهاية المطاف .

* * *

ويستطرد السياق في وصف تصرفاتهم الدالة على دخل قلوبهم ، وتبنيهم للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكذبهم عند المواجهة .. وهي مجموعة من الصفات اشتهر بها المنافقون :
« وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأ رؤوسهم ، ورأيهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين . هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . والله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون : لنرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . والله العزة وللرسول وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » ..
وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول :

وفصل ابن إسحاق هذا في حديثه عن غزوة بني المصطلق سنة ست على المريسيع .. ماء لهم .. فبينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ذلك الماء - بعد الغزوة - وردت واردة الناس ، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له : جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسان بن وبر الجهني حليف بني عون ابن الخزرج على الماء ، فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه . يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبي بن سلول ، وعنده رهط من قومه ، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث . فقال : أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . والله ما أعدنا وجلايب قريش^١ إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم : أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن أرقم . ففشي به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذلك عند فراغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عدوه ، فأخبره الخبر ، وعنده عمر بن الخطاب . فقال :

(١) الجلايب : اسم كان يلقب به المنافقون أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المهاجرين .

مر به عباد بن بشر فليقتله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل » . وذلك في ساعة لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرتحل فيها . فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه - فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان في قومه شريفاً عظيماً . فقال من حضر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأنصار من أصحابه : يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل . حذباً على ابن أبي بن سلول ودفعاً عنه .

قال ابن إسحاق فلما استقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار لقيه أسيد بن حضير ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ، والله لقد رحت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ » قال : وأي صاحب يا رسول الله ؟ قال « عبد الله بن أبي » قال : وما قال ؟ قال : « زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرض منها الأذل ؟ » قال : فأنت يا رسول الله والله لتخرجنه منها إن شئت . هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم قال : يا رسول الله ارفق به . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً !

ثم مشى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياماً ، وإنما فعل ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله ابن أبي .

قال ابن إسحاق : ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين ، في ابن أبي ومن كان على مثل أمره . فلما نزلت أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذن زيد بن أرقم ، ثم قال : « هذا الذي أوفى الله بأذنه » .. وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمر أبيه .

قال ابن إسحاق . فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه . فإن كنت لا بد فاعلاً ففري به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بل تترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » .

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : « كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي : اقتله لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته » .. قال : قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعظم بركة من أمري ..

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنة : وراءك ! فقال : مالك ؟ وملك ! فقال : والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه العزيز وأنت الذليل ! فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان إنما يسير ساقاً ، فشكا إليه

عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أما إذ أذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجز الآن .^١

* * *

وننظر مرة إلى الأحداث ، ومرة إلى الرجال ، ومرة إلى النص القرآني ، فنجدنا مع السيرة ، ومع المنهج التربوي الإلهي ، ومع قدر الله العجيب في تصريف الأمور ..

فهذا هو الصف المسلم يندس فيه المنافقون ؛ ويعيشون فيه - في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قرابة عشر سنوات . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يخرجهم من الصف ، ولا يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قبيل وفاته . وإن كان يعرفهم في لحن القول ، بالالتواء والمداورة . ويعرفهم بسيماهم وما يبدو فيها من آثار الانفعالات والانطباعات . ذلك كي لا يكل الله قلوب الناس للناس . فالقلوب له وحده ، وهو الذي يعلم ما فيها ويحاسب عليه ، فأما الناس فلهم ظاهر الأمر ؛ كي لا يأخذوا الناس بالظنة ، وكي لا يقضوا في أمورهم بالفراسة ! وحتى حينما عرف الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالنفر الذين ظلوا على نفاقهم إلى أواخر حياته ، فإنه لم يطردهم من الجماعة وهم يظهرون الإسلام ويؤدون فرائضه . إنما عرفهم وعرف بهم واحداً فقط من رجاله هو حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - ولم يشع ذلك بين المسلمين . حتى إن عمر - رضي الله عنه - كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يسمه له من المنافقين ! وكان حذيفة يقول له : يا عمر لست منهم . ولا يزيد ! وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمر ألا يصلي على أحد منهم مات أبداً . فكان أصحابه يعرفون عندما يرون الرسول لا يصلي على ميت . فلما قبض - صلى الله عليه وسلم - كان حذيفة لا يصلي على من عرف أنه منهم . وكان عمر لا ينهض للصلاة على ميت حتى ينظر . فإن رأى حذيفة هناك علم أنه ليس من المجموعة وإلا لم يصل هو الآخر ولم يقل شيئاً !

وهكذا كانت تجري الأحداث - كما يرسمها القدر - لحكمتها ولغايتها ، للتربية والعبرة وبناء الأخلاق والنظم والآداب .

وهذا الحادث الذي نزلت فيه تلك الآيات هو وحده موضع عبر وعظات جمة ..

هذا عبد الله بن أبي بن سلول . يعيش بين المسلمين . قريباً من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول . ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان ، لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة . وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير ، تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكاً على الأوس والخزرج ، بسبب مقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالإسلام إلى المدينة ! فتكفه هذه وحدها عن الهدى . الذي تواجهه دلائله من كل جانب . وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب !

وهذا ابنه عبد الله - رضي الله عنه وأرضاه - نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع . يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من موافقه . ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف . ويسمع أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد أن يقتل أباه هذا . فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة ، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة . إنه يحب الإسلام ، ويحب طاعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويجب أن ينفذ أمره ولو في أبيه . ولكنه

(١) مما يلاحظ أن حديث الإفك المشهور قد وقع في أعقاب تلك الغزوة وكان الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول !

لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظره . وهو يخشى أن تخونه نفسه ، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية ، وهتاف الثأر .. وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده ليعينه على خلدجات قلبه ، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه . فيطلب منه إن كان لا بد فاعلاً أن يأمره هو بقتل أبيه . وهو لا بد مطيع . وهو يأتيه برأسه . كي لا يتولى ذلك غيره ، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض . فيقتله . فيقتل مؤمناً بكافر . فيدخل النار ..

وإنها لروعة تواجه القلب أينما اتجه وأينما قلب النظر في هذا الموقف الكريم . روعة الإيمان في قلب إنسان ، وهو يعرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يكل إليه أشق عمل على النفس البشرية - أن يقتل أباه - وهو صادق النية فيما يعرض . يتقي به ما هو أكبر في نظره وأشق .. وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر ، فيدخل النار .. وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول : « فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني » . وهو يطلب من نبيه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج ؛ لا بأن يرد أمره أو يغيره - فالأمر مطاع والإشارة نافذة - ولكن بأن يكل إليه هو أن يأتيه برأسه !

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة : « بل تفرق به ونحسن صحبتها ما بقي معنا » .. ومن قبل هذا يكف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رأيه : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ » .

ثم تصرف الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الحادث تصرف القائد الملهم الحكيم .. وأمره بالسير في غير أوان ، ومتابعة السير حتى الإعياء ، ليصرف الناس عن العصبية المشتتة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين : يا للأنصار ! يا للمهاجرين ! وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول ، وأرادها أن تحرق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان .. وحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أسيد بن حضير ، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة ، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام !

وأخيراً نقف أمام المشهد الرائع الأخير . مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي . وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل . تصديقاً لمقاله هو : « ليخرجن الأعز منها الأذل » . ليعلم أن رسول الله هو الأعز . وأنه هو الأذل . ويظل يقفه حتى يأتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيأذن له . فيدخلها بإذنه . ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعز ومن هو الأذل . في نفس الواقعة . وفي ذات الأوان .

ألا إنها لقمة سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال . رفعهم إلى هذه القمة ، وهم بعد بشر ، بهم ضعف البشر ، وفيهم عواطف البشر ، وخوارج البشر . وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة ، حين يدركها الناس على حقيقتها ، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق .

* * *

ثم نعيش في ظلال النصوص القرآنية التي تضمنت تلك الأحداث :
« وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ، ورأيهم يصدون وهم مستكبرون » ..

فهم يفعلون الفعلة ، ويطلقون القولة . فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جنبوا وتحاذلوا وراحوا يقسمون بالإيمان يتخذونها جنة . فإذا قال لهم قائل : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، وهم في أمن من مواجهته ، لووا رؤوسهم ترفعاً واستكباراً ! وهذه وتلك سمتان متلازمتان في النفس المناققة . وإن كان هذا التصرف ينجي عادة ممن لهم مركز في قومهم ومقام . ولكنهم هم في ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ؛ فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤوسهم ما داموا في أمن من المواجهة . حتى إذا ووجهوا كان الجبن والتخاذل والأيمان !

ومن ثم يتوجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما قضاه الله في شأنهم على كل حال . وبعدم جدوى الاستغفار لهم بعد قضاء الله :

« سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم . إن الله لا يهدي القوم الفاسقين » ..

ويحكي طرفاً من فسقهم ، الذي استوجب قضاء الله فيهم :

« هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » ..

وهي قولة يتجلى فيها خبث الطبع ، ولؤم النحيزة . وهي خطة التجويع التي يبدو أن خصوم الحق والإيمان يتواصلون بها على اختلاف الزمان والمكان ، في حرب العقيدة ومناهضة الأديان . ذلك أنهم لخسة مشاعرهم يحسبون لقمة العيش هي كل شيء في الحياة كما هي في حسهم فيحاربون بها المؤمنين .

إنها خطة قریش وهي تقاطع بني هاشم في الشعب لينفضوا عن نصره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويسلموه للمشركين !

وهي خطة المنافقين كما تحكيها هذه الآية لينفض أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه تحت وطأة الضيق والجوع !

وهي خطة الشيوعيين في حرمان المتدينين في بلادهم من بطاقات التموين ، ليموتوا جوعاً أو يكفروا بالله ، ويتركوا الصلاة !

وهي خطة غيرهم ممن يحاربون الدعوة إلى الله وحركة البعث الإسلامي في بلاد الإسلام ، بالحصار والتجويع ومحاولة سد أسباب العمل والارتزاق ..

وهكذا يتوافى على هذه الوسيلة الخسيسة كل خصوم الإيمان ، من قديم الزمان ، إلى هذا الزمان .. ناسين الحقيقة البسيطة التي يذكرهم القرآن بها قبل ختام هذه الآية :

« والله خزائن السماوات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون » ..

ومن خزائن الله في السماوات والأرض يرتزق هؤلاء الذين يحاولون أن يتحكموا في أرزاق المؤمنين ، فليسوا هم الذين يخلقون رزق أنفسهم . فما أغابهم وأقل فقههم وهم يحاولون قطع الرزق عن الآخرين !

وهكذا يثبت الله المؤمنين ويقوي قلوبهم على مواجهة هذه الخطة اللثيمة والوسيلة الخسيسة ، التي يلجأ أعداء الله إليها في حربهم . ويطمئنهم إلى أن خزائن الله في السماوات والأرض هي خزائن الأرزاق للجميع . والذي يعطي أعداءه لا ينسى أوليائه . فقد شاءت رحمته ألا يأخذ حتى أعداءه من عباده بالتجويع وقطع الأرزاق . وقد علم أنهم لا يرزقون أنفسهم كثيراً ولا قليلاً لو قطع عنهم الأرزاق ! وهو أكرم أن يكل عباده - ولو كانوا أعداءه - إلى ما يعجزون عنه البتة . فالتجويع خطة لا يفكر فيها إلا أخس الأخساء وألأم اللؤماء !

ثم قولتهم الأخيرة :

« يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ..

وقد رأينا كيف حقق ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبي ! وكيف لم يدخلها الأذل إلا بإذن الأعز !

« والله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » ..

ويضم الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين إلى جانبه ، ويضفي عليهم من عزته ، وهو تكريم هائل لا يكرمه إلا الله ! وأي تكريم بعد أن يوقف الله - سبحانه - رسوله والمؤمنين معه إلى جواره . ويقول : ها نحن أولاء ! هذا لواء الأعزاء . وهذا هو الصف العزيز !

وصدق الله . فجعل العزة صنو الإيمان في القلب المؤمن . العزة المستمدة من عزته تعالى . العزة التي لا تهون ولا تهين ، ولا تنحني ولا تلين . ولا تزايل القلب المؤمن في أخرج اللحظات إلا أن يتضعضع فيه الإيمان . فإذا استقر الإيمان ورسخ فالعزة معه مستقرة راسخة ..

« ولكن المنافقين لا يعلمون » ..

وكيف يعلمون وهم لا يتدققون هذه العزة ولا يتصلون بمصدرها الأصل ؟

* * *

لهؤلاء المؤمنين الذين أوقفهم الله في صفه مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجعل عزتهم من عزته يوجه النداء الأخير في السورة ، ليرتفعوا إلى هذا المكان الكريم ، ويبرأوا من كل صفة تشبه صفات المنافقين ، ويختاروا ذلك المقام الأسنى على الأموال والأولاد ، فلا يدعوها تلهيهم عن بلوغ ذلك المقام الوضيء :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ، فيقول : رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون » ..

والأموال والأولاد ملهاة ومشغلة إذا لم يستيقظ القلب ، ويدرك غاية وجوده ، ويشعر أن له هدفاً أعلى يليق بالخلق الذي نفخ الله فيه من روحه ، فأودع روحه الشوق إلى تحقيق بعض صفاته الإلهية في حدود طاقته البشرية . وقد منحه الأموال والأولاد ليقوم بالخلافة في الأرض لآلهيته عن ذكر الله والاتصال بالمصدر الذي تلقى منه ما هو به إنسان . ومن يغفل عن الاتصال بذلك المصدر ، ويلهيه عن ذكر الله ليم له هذا الاتصال « فأولئك هم الخاسرون » .. وأول ما يخسرونه هو هذه السمة . سمة الإنسان . فهي موقوفة على الاتصال بالمصدر الذي صار به الإنسان إنساناً . ومن يخسر نفسه فقد خسر كل شيء . مهما يملك من مال ومن أولاد .

ويلمسهم في موضوع الإنفاق لمسات متنوعة في آية واحدة ..

« وأنفقوا مما رزقناكم » .. فيذكرهم بمصدر هذا الرزق الذي في أيديهم . فهو من عند الله الذي آمنوا به والذي يأمرهم بالإنفاق .

« من قبل أن يأتي أحدكم الموت ... » ..

فيترك كل شيء وراءه لغيره ؛ وينظر فلا يجد أنه قدم شيئاً لنفسه ، وهذا أحق الحمق وأخسر الخسران . ثم يرجو حينئذ ويتمنى أن لو كان قد أمهل ليتصدق وليكون من الصالحين !

وأنى له هذا ؟ : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ؟

وأنى له ما يتقدم به ؟ « والله خير بما تعملون » ؟
إنها اللمسات المتنوعة في الآية الواحدة . في مكانها المناسب بعد عرض سمات المنافقين وكيدهم للمؤمنين .
ولواذ المؤمنين بصف الله الذي يقيهم كيد المنافقين .. فما أجدرهم إذن أن ينهضوا بتكاليف الايمان ، وألا يغفلوا
عن ذكر الله . وهو مصدر الأمان ..
وهكذا يري الله المسلمين بهذا القرآن الكريم ..

* * *

(٦٤) سُورَةُ النَّجَافِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِرْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَنَادُوا بِطَغْوَاهُمْ فَذُوقُوا وِجْدَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ۖ وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۚ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۚ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۚ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن

تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

هذه السورة أشبه شيء بالسور المكية في موضوعها وفي سياقها وفي ظلالها وإيحاءاتها ، وبخاصة المقاطع الأولى منها . فلا يكاد الجو المدني يتبين إلا في فقراتها الأخيرة .

والفقرات الأولى إلى ابتداء النداء : « يا أيها الذين آمنوا » .. تستهدف بناء أسس العقيدة ، وإنشاء التصور الإسلامي في القلوب بأسلوب السور المكية التي تواجه الكفار المشركين ابتداء ، وتخطبهم بهذا التصور خطاب المبتدئ في مواجهته . ثم هي تستخدم المؤثرات الكونية والنفسية كما تستعرض مصائر الغابرين من المكذبين قبلهم ؛ وتعرض عليهم مشاهد القيامة لإثبات البعث ، وتوكيده توكيداً شديداً ، يدل على أن المخاطبين به من المنكرين الجاحدين .

فأما الفقرات الأخيرة فهي تخاطب الذين آمنوا بما يشبه خطابهم في السور المدنية ، لحثهم على الإنفاق ، وتحذيرهم فتنه الأموال والأولاد . وهي الدعوة التي تكررت نظائرها في العهد المدني بسبب مقتضيات الحياة الإسلامية الناشئة فيها . كما أن فيها ما قد يكون تعزية عن مصاب أو تكاليف وقعت على عاتق المؤمنين ، ورد الأمر فيها إلى قدر الله ، وتثبيت هذا التصور .. وهو ما يتكرر في السور المدنية وبخاصة بعد الأمر بالجهاد وما ينشأ عنه من تضحيات .

ولقد وردت روايات أن السورة مكية ، ووردت روايات أخرى أنها مدنية مع ترجيحها . وكادت أميل إلى اعتبارها مكية متأثراً بأسلوب الفقرات الأولى فيها وجوها . ولكني أبقيت اعتبارها مدنية - مع الرأي الراجح فيها - لأنه ليس ما يمنع أن تكون الفقرات الأولى فيها خطاباً للكفار بعد الهجرة سواء كانوا كفار مكة أم الكفار القريبين من المدينة . كما أنه ليس ما يمنع أن يستهدف القرآن المدني في بعض الأحيان جلاء أسس العقيدة ، وإيضاح التصور الإسلامي ، بهذا الأسلوب الغالب على أسلوب القرآن المكي .. والله أعلم ..

* * *

والمقطع الأول في السورة يستهدف بناء التصور الإيماني الكوني ، وعرض حقيقة الصلة بين الخالق - سبحانه - وهذا الكون الذي خلقه . وتقرير حقيقة بعض صفات الله وأسمائه الحسنى وأثرها في الكون وفي الحياة الإنسانية : « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير . خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير . يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون . والله عليم بذات الصدور » .. وهذا التصور الكوني الإيماني هو أدق وأوسع تصور عرفه المؤمنون في تاريخ العقيدة . ولقد جاءت الرسائل

الإلهية كلها بوحداية الله ، وإنشائه لهذا الوجود ولكل مخلوق ، ورعايته لكل كائن في الوجود .. لا نشك في هذا لأن القرآن يحكيه عن الرسل وعن الرسائل كلها . ولا عبرة بما نجده في الكتب المفترة والمحرفة ؛ أو فما يكتبه عن الديانات المقارنة أناس لا يؤمنون بالقرآن كله أو بعضه . إنما جاء الانحراف عن العقيدة الإيمانية من أتباعها ، فبدأ أنها لم تأت بالتوحيد الخالص ، أو لم تأت بهيمنة الله واتصاله بكل كائن . فهذا من التحريف الطارئ لا من أصل الديانة . فدين الله واحد منذ أولى الرسائل إلى خاتمة الرسائل . ويستحيل أن ينزل الله ديناً يخالف هذه القواعد ، كما يزعم الزاعمون بناء على ما يجذونه في كتب مفترة أو محرقة باسم الدين ! ولكن تقرير هذه الحقيقة لا ينافي أن التصور الإسلامي عن الذات الإلهية ، وصفاتها العلوية ، وآثار هذه الصفات في الكون وفي الحياة الإنسانية .. أن هذا التصور أوسع وأدق وأكمل من كل تصور سابق في الديانات الإلهية .. وهذا متفق مع طبيعة الرسالة ومهمتها الأخيرة . ومع الرشد البشري الذي جاءت هذه الرسالة لتخاطبه وتوجهه ؛ وتنشئ فيه هذا التصور الشامل الكامل بكل مقتضياته وفروعه وآثاره .

ومن شأن هذا التصور أن يدرك القلب البشري - بمقدار ما يطيق - حقيقة الألوهية وعظمتها ، ويشعر بالقدرة الإلهية ويراه في آثارها المشهودة في الكون ، ويحسها في ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة ؛ ويعيش في مجال هذه القدرة وبين آثارها التي لا تغيب عن الحس والعقل والإلهام . ويراه محيطاً بكل شيء ، مهمته على كل شيء ، مدبرة لكل شيء ، حافظة لكل شيء ، لا يند عنها شيء . سواء في ذلك الكبير والصغير والجليل والحقير .

ومن شأنه كذلك أن يعيش القلب البشري في حساسية مرهفة ، وتوفر دائم ، وخشية وارتقاب ، وطمع ورجاء ؛ وأن يمضي في الحياة معلقاً في كل حركة وكل خالجة بالله ، شاعراً بقدرته وهيمته ، شاعراً بعلمه ورقابته ، شاعراً ببقهره وجبروته ، شاعراً برحمته وفضله ، شاعراً بقربه منه في كل حال .

وأخيراً فإن من شأنه أن يحس بالوجود كله متجهاً إلى خالقه فيتجه معه ، مسبحاً بحمد ربه فيشاركه تسييحه ، مدبراً بأمره وحكمته فيخضع لشريعته وقانونه .. ومن ثم فهو تصور إيماني كوني بهذا المعنى ، وبمعان أخرى كثيرة تتجلى في المواضع المتعددة في القرآن التي تضمنت عرض جوانب من هذا التصور الإيماني الشامل الكامل المحيط الدقيق . وأقرب مثل منها ما ورد في ختام سورة الحشر ، في هذا الجزء^١ .

* * *

« يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض ، له الملك وله الحمد » ..

فكل ما في السماوات والأرض متوجه إلى ربه ، مسبح بحمده ؛ وقلب هذا الوجود مؤمن ، وروح كل شيء في هذا الوجود مؤمنة ، والله مالك كل شيء . وكل شيء شاعر بهذه الحقيقة . والله محمود بذاته ممجد من مخلوقاته . فإذا وقف الإنسان وحده في خضم هذا الوجود الكبير كافر القلب جامد الروح ، متمرداً عاصياً ، لا يسبح لله ، ولا يتجه إلى مولاه ، فإنه يكون شاذاً بارز الشذوذ ، كما يكون في موقف المنبوذ من كل ما في الوجود . « وهو على كل شيء قدير » ..

فهي القدرة المطلقة ، التي لا تتقيد بقيد . وهي حقيقة يطبعها القرآن في القلب المؤمن فيعرفها ويتأثر بمدلولها ، ويعلم أنه حين يركن إلى ربه فإنما يركن إلى قدرة تفعل ما تشاء ، وتحقق ما تريد . بلا حدود ولا قيود .

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان .. بحث أرجو توفيق الله لإخراجه إلى حيز الوجود .

وهذا التصور لقدرة الله وتسبيح كل شيء له ، وتوجه الوجود إليه بالحمد .. هو طرف من ذلك التصور الإيماني الكبير .

واللمسة الثانية في صميم القلب الإنساني ، الذي يقف في خضم الوجود المؤمن المسبح بحمد الله . مؤمناً تارة وكافراً تارة . وهو وحده الذي يقف هذا الموقف الفريد .

« هو الذي خلقكم فنكم كافر ومنكم مؤمن » ..

فعن إرادة الله وعن قدرته صدر هذا الإنسان ؛ وأودع إمكان الاتجاه إلى الكفر وإمكان الاتجاه إلى الإيمان ؛ وتميز بهذا الاستعداد المزدوج من بين خلق الله ؛ ونيطت به أمانة الإيمان بحكم هذا الاستعداد . وهي أمانة ضخمة وتبعة هائلة . ولكن الله كرم هذا المخلوق فأودعه القدرة على التمييز والقدرة على الاختيار ؛ وأمهده بعد ذلك بالميزان الذي يزن به عمله ويقيس به اتجاهه . وهو الدين الذي نزل على رسل منه . فأعانه بهذا كله على حمل هذه الأمانة . ولم يظلمه شيئاً .

« والله بما تعملون بصير » ..

فهو رقيب على هذا الإنسان فيما يعمل ، بصير بحقيقة نيته واتجاهه ، فليعمل إذن وليحذر هذا الرقيب البصير .. وهذا التصور لحقيقة الإنسان وموقفه هو طرف من التصور الإسلامي الواضح المستقيم لموقف الإنسان في هذا الوجود ، واستعداداته وتبعاته أمام خالق الوجود .

واللمسة الثالثة تشير إلى الحق الأصيل الكامن في طبيعة الوجود ، الذي تقوم به السماوات والأرض ، كما تشير إلى صنعة الله المبدعة في كيان المخلوق الإنساني . وتقرر رجعة الجميع إليه في نهاية المطاف :

« خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوركم فأحسن صوركم ، وإليه المصير » ..

وصدر هذا النص : « خلق السماوات والأرض بالحق » .. يقر في شعور المؤمن أن الحق أصيل في كيان هذا الكون ، ليس عارضاً وليس نافلاً ؛ فبناء الكون قام على هذا الأساس . والذي يقرر هذه الحقيقة هو الله الذي خلق السماوات والأرض ، والذي يعلم على أي أساس قاما . واستقرار هذه الحقيقة في الحس يمنحه الطمأنينة والثقة في الحق الذي يقوم عليه دينه ، ويقوم عليه الوجود من حوله ؛ فهو لا بد ظاهر ، ولا بد باق ، ولا بد مستقر في النهاية بعد زبد الباطل !

والحقيقة الثانية : « وصوركم فأحسن صوركم » .. تشعر الإنسان بكرامته على الله ، وبفضل الله عليه في تحسين صورته : صورته الخلقية وصورته الشعورية . فالإنسان هو أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكوينه الجثائي ؛ كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري واستعداداته الروحية ذات الأسرار العجيبة . ومن ثم وكلت إليه خلافة الأرض ، وأقيم في هذا الملك العريض بالقياس إليه !

ونظرة فاحصة إلى الهندسة العامة لتكوين الإنسان ، أو إلى أي جهاز من أجهزته ، تثبت تلك الحقيقة وتجسمها : « وصوركم فأحسن صوركم » .. وهي هندسة يجتمع فيها الجمال إلى الكمال . ويتفاوت الجمال بين شكل وشكل . ولكن التصميم في ذاته جميل وكامل الصنعة ، وواف بكل الوظائف والخصائص التي يتفوق بها الإنسان في الأرض على سائر الأحياء .

« وإليه المصير » .. مصير كل شيء وكل أمر وكل خلق .. مصير هذا الكون ومصير هذا الإنسان . فمن إرادته انبثق ، وإليه - سبحانه - يعود . ومنه المنشأ وإليه المصير . وهو الأول والآخر . المحيط بكل شيء من

طرفيه : مبدئه ونهايته . وهو - سبحانه - غير محدود !

واللمسة الرابعة في هذا المقطع هي تصوير العلم الإلهي المحيط بكل شيء ، المطلع على سر الإنسان وعلايته ، وعلى ما هو أخفى من السر ، من ذوات الصدور الملازمة للصدور :

« يعلم ما في السماوات والأرض : ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور » ..

واستقرار هذه الحقيقة في القلب المؤمن يفيد المعرفة بربه ، فيعرفه بحقيقته . ويمنحه جانباً من التصور الإيماني الكوني . ويؤثر في مشاعره واتجاهاته ؛ فيحيا حياة الشاعر بأنه مكشوف كله لعين الله . فليس له سر يخفى عليه ، وليس له نية غائرة في الضمير لا يراها وهو العليم بذات الصدور .

وإن آيات ثلاثاً كهذه لكافية وحدها ليعيش بها الإنسان مدركاً لحقيقة وجوده ، ووجود الكون كله ، وصلته بخالقه ، وأدبه مع ربه ، وخشيته وتقواه ، في كل حركة وكل اتجاه ..

* * *

والمقطع الثاني في السورة يذكر بمصير الغابرين من المكذبين بالرسول والبيئات ، المعترضين على بشرية الرسل . كما كان المشركون يكذبون ويعترضون على بشرية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويكفرون بما جاءهم به من البيئات :

« ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ؟ ولهم عذاب أليم . ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبيئات ، فقالوا : أبشر يهودنا ؟ فكفروا وتولوا ، واستغنى الله ، والله غني حميد » ..

والخطاب هنا للمشركين - غالباً - وهو تذكير لهم بعاقبة المكذبين وتحذير لهم من مثل هذه العاقبة . والاستفهام قد يكون لإنكار حالهم بعد ما جاءهم من نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وقد يكون للفت أنظارهم إلى هذا النبا الذي يقصه عليهم . وهم كانوا يعرفون ويتناقلون أنباء بعض الهلكى من الغابرين . كعاد وثمود وقرى لوط . وهم يعمرون عليها في شبه الجزيرة ، في رحلاتهم للشمال والجنوب .

ويضيف القرآن إلى المعروف من مآلهم في الدنيا ما ينتظرهم هنالك في الآخرة : « ولهم عذاب أليم » .. ثم يكشف عن السبب الذي استحقوا به ما نالهم وما ينتظرهم : « ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبيئات فقالوا : أبشر يهودنا ؟ » .. وهو الاعتراض ذاته الذي يعترضه المشركون على الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو اعتراض فجح ناشئ عن الجهل بطبيعة الرسالة ، وكونها منهجاً إلهياً للبشر ، فلا بد أن تتمثل واقعياً في بشر ، يحيا بها ، ويكون بشخصه ترجماناً لها ؛ فيصوغ الآخرون أنفسهم على مثاله بقدر ما يستطيعون . ولا ينزل هو عنهم بجنسه ، فيتعذر أن يجدوا للرسالة صورة واقعية يحاولون تحقيقها في ذوات أنفسهم ، وفي حياتهم ومعاشهم . وناشئ كذلك من الجهل بطبيعة الإنسان ذاته ورفعة حقيقته بحيث يتلقى رسالة السماء ويبلغها ، بدون حاجة إلى أن يحملها إلى الناس ملك كما كانوا يقترحون . ففي الإنسان تلك النفخة من روح الله ، وهي تهيئه لاستقبال الرسالة من الله ، وأدائها كاملة كما تلقاها من الملأ الأعلى . وهي كرامة للجنس البشري كله لا يرفضها إلا جاهل بقدر هذا الإنسان عند الله ، حين يحقق في ذاته حقيقة النفخة من روح الله ! وناشئ في النهاية من التعتن والاستكبار الكاذب عن أتباع رسول من البشر . كأن في هذا غضاً من قيمة هؤلاء الجهال المتكبرين ! فجائز في عرفهم أن يتبعوا رسولاً من خلق آخر غير جنسهم بلا غضاضة . أما أن يتبعوا واحداً منهم فهي في نظرهم حطة وقلة قيمة !

ومن ثم كفروا وتولوا معرضين عن الرسل وما معهم من البيئات ، ووقفت في صدورهم هذه الكبرياء وذلك

الجهل . فاختاروا لأنفسهم الشرك والكفر ..

« واستغنى الله . والله غني حميد » .. استغنى الله عنهم وعن إيمانهم وعن طاعتهم .. وما هو - سبحانه - بمحتاج إلى شيء منهم ولا من غيرهم ، ولا بمحتاج أصلاً : « والله غني حميد » .
فهذا نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم . وهذا سبب ما ذاقوا وما ينتظروهم . فكيف يكذب بعد هذا النبا مكذبون جدد ؟ أليقوا مصيراً كهذا المصير ؟

* * *

والمقطع الثالث بقية للمقطع الثاني يحكي تكذيب الذين كفروا بالبعث - وظاهر أن الذين كفروا هم المشركون الذين كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يواجههم بالدعوة - وفيه توجيه للرسول أن يؤكد لهم أمر البعث تأكيداً وثيقاً . وتصوير لمشهد القيامة ومصير المكذبين والمصدقين فيه ؛ ودعوة لهم إلى الإيمان والطاعة ورد كل شيء لله فيما يقع لهم في الحياة .

« زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبئن بما عملتم . وذلك على الله يسير . فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا . والله بما تعملون خبير . يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ، ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير . ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم ، وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين . الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

ومنذ البدء يسمى مقالة الذين كفروا عن عدم البعث زعماً ، فيقضي بكذبه من أول لفظ في حكايته . ثم يوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تأكيد أمر البعث بأوثق تأكيد ، وهو أن يحلف بربه . وليس بعد قسم الرسول بربه تأكيد : « قل : بلى وربي لتبعثن » .. « ثم لتنبئن بما عملتم » .. فليس شيء منه بمتروك . والله أعلم منهم بعملهم حتى لينبئهم به يوم القيامة ! « وذلك على الله يسير » .. فهو يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم السر والعلن وهو عليم بذات الصدور . وهو على كل شيء قدير . كما جاء في مطلع السورة تمهيداً لهذا التقرير . وفي ظل هذا التأكيد الوثيق يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله والنور الذي أنزله مع رسوله . وهو هذا القرآن . وهو هذا الدين الذي يبشر به القرآن . وهو نور في حقيقته بما أنه من عند الله . والله نور السماوات والأرض . وهو نور في آثاره إذ ينير القلب فيشرق بذاته ويبصر الحقيقة الكامنة فيه هو ذاته . ويعقب على دعوتهم إلى الإيمان ، بما يشعرهم أنهم مكشوفون لعين الله لا يخفى عليه منهم شيء : « والله بما تعملون خبير » ..

وبعد هذه الدعوة يعود إلى استكمال مشهد البعث الذي أكده لهم أوثق تأكيد :

« يوم يجمعكم ليوم الجمع : ذلك يوم التغابن » ..

فأما أنه يوم الجمع فلأن جميع الخلائق في جميع الأجيال تبعث فيه ، كما يحضره الملائكة وعددهم لا يعلمه إلا الله . ولكن قد يقربه إلى التصور ما جاء في حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن أبي ذر رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إني أرى ما لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون . أظت السماء وحق لها أن تيط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك واضع جبهته لله تعالى ساجداً . والله

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى . لوددت أني شجرة تعضد^١ » ..

والسما التي ليس فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك . هي هذا الاتساع الهائل الذي لا يعرف له البشر حدوداً . والذي تبدو فيه شمس كشمسنا ذرة كالهباء الطائرة في الفضاء ! فهل هذا يقرب شيئاً للتصور البشري عن عدد الملائكة ؟ إنهم من بين الجمع في يوم الجمع !

وفي مشهد من هذا الجمع يكون التغابن ! والتغابن مفاعلة من الغبن . وهو تصوير لما يقع من فوز المؤمنين بالنعيم ، وحرمان الكافرين من كل شيء منه ثم صيورتهم إلى الجحيم . فهما نصيبان متباعدان . وكأنما كان هناك سباق للفوز بكل شيء ، وليغن كل فريق مسابقه ! ففاز فيه المؤمنون وهزم فيه الكافرون ! فهو تغابن بهذا المعنى المصور المتحرك ! يفسره ما بعده :

« ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . ذلك الفوز العظيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير » ..
وقبل أن يكمل ندائه إليهم بالإيمان يقرر قاعدة من قواعد التصور الإيماني في القدر ، وفي أثر الإيمان بالله في هداية القلب :

« ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله . ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شيء عليم » ..
ولعل مناسبة ذكر هذه الحقيقة هنا هي مجرد بيانها في صدد عرض حقيقة الإيمان الذي دعاهم إليه في هذا المقطع . فهو الإيمان الذي يرد كل شيء إلى الله ، ويعتقد أن كل ما يصيب من خير ومن شر فهو بإذن الله . وهي حقيقة لا يكون إيمان بغيرها . فهي أساس جميع المشاعر الإيمانية عند مواجهة الحياة بأحداثها خيرها وشرها . كما يجوز أن تكون هناك مناسبة حاضرة في واقع الحال عند نزول هذه السورة . أو هذه الآية من السورة ، فيما كان يقع بين المؤمنين والمشركين من وقائع .

وعلى أية حال فهذا جانب ضخم من التصور الإيماني الذي ينشئه الإسلام في ضمير المؤمن . فيحس يد الله في كل حدث ، ويرى يد الله في كل حركة ، ويطمئن قلبه لما يصيبه من الضراء ومن السراء . يصبر للأولى ويشكر للثانية . وقد يتسامى إلى آفاق فوق هذا ، فيشكر في السراء وفي الضراء ؛ إذ يرى في الضراء كما في السراء فضل الله ورحمته بالتنبيه أو بالتكفير أو بترجيح ميزان الحسنات ، أو بالخير على كل حال .
وفي الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ! لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له . إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » ..
« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » ..

وقد فسرنا بعض السلف بأنها الإيمان بقدر الله والتسليم له عند المصيبة . وعن ابن عباس يعني يهدي قلبه هداية مطلقة . ويفتحه على الحقيقة الدنية المكنونة . ويوصله بأصل الأشياء والأحداث ، فيرى هناك منشأها وغايتها . ومن ثم يطمئن ويقر ويستريح . ثم يعرف المعرفة الواصلة الكلية فيستغني عن الرؤية الجزئية المحفوفة بالخطأ والقصور .

ومن ثم يكون التعقيب عليها :

« والله بكل شيء عليم » ..

فهي هداية إلى شيء من علم الله ، يمنحه لمن يهديه ، حين يصح إيمانه فيستحق إزاحة الحجب ، وكشف الأسرار .. بمقدار ..

ويتابع دعوتهم إلى الإيمان فيدعوهم إلى طاعة الله وطاعة الرسول :

« وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » ..

وقد عرض عليهم من قبل مصير الذين تولوا . وهنا يقرر لهم أن الرسول مبلغ . فإذا بلغ فقد أدى الأمانة ، ونهض بالواجب ، وأقام الحجة . وبقي ما ينتظرهم هم من المعصية والتولي ، مما ذكروا به منذ قليل . ثم يختم هذا المقطع بتقرير حقيقة الوحدة التي ينكرونها ويكذبونها ، ويقرر شأن المؤمنين بالله في تعاملهم مع الله :

« الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ..

وحقيقة التوحيد هي أساس التصور الإيماني كله . ومقتضاها أن يكون التوكل عليه وحده . فهذا هو أثر التصور الإيماني في القلوب .

وبهذه الآية يدخل السياق في خطاب المؤمنين . فهي وصلة بين ما مضى من السورة وما يجيء .

* * *

وفي النهاية يوجه الخطاب إلى المؤمنين يحذرهم فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، والسمع والطاعة والإنفاق ، كما يحذرهم شح الأنفس ، ويعددهم على ذلك مضاعفة الرزق والمغفرة والفلاح . ويذكرهم في الختام بعلم الله للحاضر والغائب ، وقدرته وغلبته ، مع خبرته وحكمته :

« يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ، ويغفر لكم ، والله شكور حلیم . عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » ..

وقد ورد عن ابن عباس - رضي الله عنه - في الآية الأولى من هذا السياق وقد سأله عنها رجل فقال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا إلى رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه . فلما أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبهم فأنزل الله هذه الآية : « وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم » .. وهكذا رواه الترمذي بإسناد آخر وقال : حسن صحيح . وهكذا قال عكرمة مولى ابن عباس .

ولكن النص القرآني أشمل من الحادث الجزئي وأبعد مدى وأطول أمداً . فهذا التحذير من الأزواج والأولاد كالتحذير الذي في الآية التالية من الأموال والأولاد معاً : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .. والتنبية إلى أن من الأزواج والأولاد من يكون عدواً . . إن هذا يشير إلى حقيقة عميقة في الحياة البشرية . ويمس وشائج متشابكة دقيقة في التركيب العاطفي وفي ملابسات الحياة سواء . فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله . كما أنهم قد يكونون دافعاً للتقصير في تبعات الإيمان اتقاء للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه

فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله ! والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير ، وتضحية الكثير . كما يتعرض هو وأهله للعت . وقد يحتمل العنت في نفسه ولا يحتمله في زوجه وولده . فيبخل ويحبن ليوفر لهم الأمن والقرار أو المتاع والمال ! فيكونون عدوًّا له ، لأنهم صدوه عن الخير ، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا . كما أنهم قد يقفون له في الطريق يمنعونهم من النهوض بواجبه ، اتقاء لما يصيبهم من جرائه ، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه ، ويعجز هو عن المفاصلة بينه وبينهم والتجرد لله . . وهي كذلك صور من العداوة متفاوتة الدرجات . . وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن .

ومن ثم اقتضت هذه الحال المعقدة المتشابكة ، التحذير من الله ، لإثارة اليقظة في قلوب الذين آمنوا ، والحذر من تسلل هذه المشاعر ، وضغط هذه المؤثرات .

ثم كرر هذا التحذير في صورة أخرى من فتنه الأموال والأولاد . وكلمة فتنة تحتل معنيين : الأول أن الله يفتنكم بالأموال والأولاد بمعنى يخبركم ، فانتبهوا لهذا ، وحاذروا وكونوا أبدأً يقظين لتنجحوا في الابتلاء ، وتخلصوا وتتجددوا لله . كما يقن الصانع الذهب بالنار ليخلصه من الشوائب !

والثاني أن هذه الأموال والأولاد فتنة لكم توقعكم بفتنتها في المخالفة والمعصية ، فاحذروا هذه الفتنة لا تجربكم وتبعدكم عن الله .

وكلا المعنيين قريب من قريب .

وقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن بريدة : سمعت أبي بريدة يقول : « كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المنبر فحملهما ، فوضعهما بين يديه . ثم قال : « صدق الله ورسوله . إنما أموالكم وأولادكم فتنة . نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » . . ورواه أهل السنة من حديث ابن واقد . فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهذان ابنا بنته . . وإنه لأمر إذن خطير . وخطر . وإن التحذير والتنبية فيه لضرورة يقدرها من خلق قلوب الناس ، وأودعها هذه المشاعر ، لتكفكف نفسها عن التماهي والإفراط ، وهي تعلم أن هذه الوشائج الحبيبة قد تفعل بها ما يفعل العدو ، وتؤدي بها إلى ما تؤدي إليه مكاييد الأعداء !

ومن ثم يلوح لها بما عند الله بعد التحذير من فتنه الأموال والأولاد ، والعداوة المستسرة في بعض الأبناء والأزواج . فهذه فتنة « والله عنده أجر عظيم » . .

ويهتم للذين آمنوا بتقوى الله في حدود الطاقة والاستطاعة ، وبالسمع والطاعة :

« فاتقوا الله ما استطعتم - واسمعوا وأطيعوا » . .

وفي هذا القيد : « ما استطعتم » يتجلى لطف الله بعباده ، وعلمه بمدى طاقتهم في تقواه وطاعته . وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »^١ فالطاعة في الأمر ليس لها حدود ، ومن ثم يقبل فيها ما يستطاع . أما النهي فلا تجزئة فيه فيطلب بكامله دون نقصان . ويهيب بهم إلى الإنفاق :

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة .

« وأنفقوا خيراً لأنفسكم » ..

فهم ينفقون لأنفسهم . وهو يأمرهم أن ينفقوا الخير لأنفسهم . فيجعل ما ينفقونه كأنه نفقة مباشرة لذواتهم ، ويعدها الخير لهم حين يفعلون .

ويريهم شح النفس بلاء ملازماً . السعيد السعيد من يخلص منه ويوقاه ؛ والوقاية منه فضل من الله :
« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ..

ثم يمضي في إغرائهم بالبذل وتجييبهم في الإنفاق ، فيسمي إنفاقهم قرضاً لله . ومن ذا الذي لا يربح هذه الفرصة التي يقرض فيها مولاه ؟ وهو يأخذ القرض فيضاعفه ويغفر به ، ويشكر المقرض ، ويحلم عليه حين يقصر في شكره . وهو الله !

« إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم . والله شكور حلیم » ..
وتبارك الله . ما أكرمه ! وما أعظمه ! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه . ثم يسأله فضل ما أعطاه . قرضاً . يضاعفه ..
ثم .. يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه ! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه .. ! يا الله !!!

إن الله يعلمنا - بصفاته - كيف نتسامى على نقصنا وضعفنا ، ونتطلع إلى أعلى دائماً لنراه - سبحانه - ونحاول أن نقلده في حدود طاقتنا الصغيرة المحدودة . وقد نفخ الله في الإنسان من روحه . فجعله مشتاقاً أبداً إلى تحقيق المثل الأعلى في حدود طاقته وطبيعته ، ومن ثم تبقى الآفاق العليا مفتوحة دائماً ليتطلع هذا المخلوق إلى الكمال المستطاع ، ويحاول الارتفاع درجة بعد درجة ، حتى يلقي الله بما يحبه له ويرضاه .

وينحتم هذه الجولة بعد هذا الإيقاع العجيب ، بصفة الله التي بها الإطلاع والرقابة على القلوب :
« عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم » ..

فكل شيء مكشوف لعلمه ، خاضع لسلطانه ، مدبر بحكمته . كي يعيش الناس وهم يشعرون بأن عين الله تراهم ، وسلطانه عليهم ، وحكمته تدبر الأمر كله حاضره وغائبه . ويكفي أن يستقر هذا التصور في القلوب ، لتتقي الله وتخلص له وتستجيب .

* * *

(٦٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَلَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۚ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۚ ﴿٢﴾ وَالَّذِي لَا يَخْنَسِبُ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أَرَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ۚ وَالَّذِي لَا يَحِضُنَّ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۚ ﴿٣﴾ ذَٰلِكُمْ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ ۚ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ ۚ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۚ ﴿٤﴾

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَعَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ۚ وَأَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمَ فَسْتَرْضِعْ لَهُ ۚ أُخْرَى ۚ ﴿٥﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يَكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءَ آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۚ ﴿٦﴾

وَكَأَيِّن مِّن قَرِيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ۖ فَحَاسِبْنَهَا حَسَابًا شَدِيدًا وَعَذِّبْنَهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨٥﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٨٦﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿٨٧﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِّخُرَاجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٨٨﴾

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٨٩﴾

هذه سورة الطلاق ، يبين الله فيها أحكامه ، ويفصل فيها الحالات التي لم تفصل في السورة الأخرى (سورة البقرة) التي تضمنت بعض أحكام الطلاق ؛ ويقرر فيها أحكام الحالات المتخلفة عن الطلاق من شؤون الأسرة . وقد تضمنت هذه السورة بيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله الله ويجري وفق سنته : « يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ..

وحق المطلقة وواجبها في البقاء في بيتها - وهو بيت مطلقها - فترة العدة لا تخرج ولا تخرج إلا أن تأتي بفاحشة مبينة : « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » ..

وحقها بعد انقضاء العدة في الخروج لتفعل بنفسها ما تشاء ، ما لم يكن الزوج قد راجعها وأمسكها في فترة العدة ، لا ليضارها ويؤذيها بهذا الإمساك ويعطها عن الزواج ، ولكن لتعود الحياة الزوجية بينهما بالمعروف : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » .. وهذا مع الإشهاد على الإمساك أو الفراق : « وأشهدوا ذوي عدل منكم » ..

وفي سورة البقرة بين مدة العدة للمطلقة ذات الحيض - وهي ثلاثة قروء بمعنى ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات على خلاف فقهي - وهنا بين هذه المدة بالنسبة للآيسة التي انقطع حيضها وللصغيرة التي لم تحض : « واللاتي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن » .. وبين عدة الحامل : « وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن » ..

ثم فصل حكم المسكن الذي تعتد فيه المعتدة ونفقة الحمل حتى تضع : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن » ..

ثم حكم الرضاعة لولد المطلقة حين تضعه ، وأجر الأم على الرضاعة في حالة الاتفاق بينها وبين أبيه على مصلحة الطفل بينهما ، وفي حالة إرضاعه من أخرى : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف . وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » ..

ثم زاد حكم النفقة والأجر في جميع الحالات تفصيلاً ، فجعله تابعاً لحالة الزوج وقدرته : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها » ..

وهكذا تتبعت النصوص سائر الحالات ، وما يتخلف عنها ، بأحكام مفصلة دقيقة ، ولم تدع شيئاً من أنقاض الأسرة المفككة بالطلاق إلا أراحته في مكانه ، وبينت حكمه ، في رفق وفي دقة وفي وضوح ..

* * *

ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة ومتخلفاتها . وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب ، والتعقيب على كل حكم ، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السماوات والأرضين ، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره ، وفي الفرج والسعة لمن يتقونه . وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي ، وإيثار الجميل . والإطماع في الخير . والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق ، وفي اليسر والعسر ..

يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال والاهتمام - حتى ليوجه الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بشخصه ، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين ، زيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه . وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة ، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته ، وتقوى الله في تنفيذه ، ومراقبة الله في تناوله . والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب ، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله ! وهو الدين كله ! وهو القضية التي تفصل فيها السماء ، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام ! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن ؛ وتوعد اللاتين والمتلكنين والمضارين بأعنف وأشد ما يلقاه عاصٍ ؛ وتلوح للناس بالرجاء الندي والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير .

ويقرأ القارئ في هذه السورة .. « واتقوا الله ربكم » .. « وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .. « وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » .. « ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » .. « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » .. « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً » .. « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » . « ذلك أمر الله أنزله إليكم » « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .. « سيجعل الله بعد عسر يسراً » ..

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل : « وكأي من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً ، وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرأ . أعد الله لهم عذاباً شديداً » .. يعقبه التحذير من مثل هذا المصير ، والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور ، والتلويح بالأجر الكبير : « فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكراً : رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً » ..

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير : « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » .. يقرأ هذا كله تعقيباً على أحكام الطلاق . ويجد سورة كاملة في القرآن ، من هذا الطراز ، كلها موقوفة

على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك ! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي . وهي حالة تهدم لا حالة بناء ، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء .. لأسرة .. لا لدولة .. وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة !

علام يدل هذا ؟

إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجدديته وانبثاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد . حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة !

إنه يدل ابتداء على خطورة شأن الأسرة في النظام الإسلامي :

فالإسلام نظام أسرة . البيت في اعتباره مثابة وسكن ، في ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والتجمل والحصانة والطهر ؛ وفي كنفه تنبت الطفولة ، وتدرج الحداثة ؛ ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل .

ومن ثم يصور العلاقة البيتية تصويراً رفافاً شفيفاً ، يشع منه التعاطف ، وترف فيه الظلال ، ويشيع فيه الندى ، ويفوح منه العير : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .. « هن لباس لكم وأتم لباس لهن » .. فهي صلة النفس بالنفس ، وهي صلة السكن والقرار ، وهي صلة المودة والرحمة ، وهي صلة السر والتجمل . وإن الإنسان ليحس في الألفاظ ذاتها حنواً ورفقاً ، ويستروح من خلالها نداوة وظلاً . وإنها لتعبر كامل عن حقيقة الصلة التي يفترضها الإسلام لذلك الرباط الإنساني الرفيق الوثيق . ذلك في الوقت الذي يلحظ فيه أغراض ذلك الرباط كلها ، بما فيها امتداد الحياة بالنسل ، فيمنح هذه الأغراض كلها طابع النظافة والبراءة ، ويعترف بطهارتها وجدديتها ، وينسق بين اتجاهاتها ومقتضياتها . ذلك حين يقول : « نساؤكم حرث لكم » . فيلحظ كذلك معنى الإخصاب والإكثار .

ويحيط الإسلام هذه الخلية ، أو هذا المحضن ، أو هذه المثابة بكل رعايته وبكل ضماناته . وحسب طبيعة الإسلام الكلية ، فإنه لا يكتفي بالإشعاعات الروحية ، بل يتبعها التنظيمات القانونية والضمانات التشريعية^١ . والذي ينظر في تشريعات الأسرة في القرآن والسنة في كل وضع من أوضاعها ولكل حالة من حالاتها ، وينظر في التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفي الاحتشاد الظاهر حولها بالمؤثرات والمعقبات ؛ وفي ربط هذا الشأن بالله مباشرة في كل موضع ، كما هو الحال في هذه السورة وفي غيرها .. يدرك إدراكاً كاملاً ضخامة شأن الأسرة في النظام الإسلامي ، وقيمة هذا الأمر عند الله ، وهو يجمع بين تقواه - سبحانه - وتقوى الرحم في أول سورة النساء حيث يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً » .. كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين في سورة الإسراء وفي غيرها : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .. وبين الشكر لله والشكر للوالدين في سورة لقمان : « أن اشكر لي ولوالديك » ..

وإن هذه العناية القصوى بأمر الأسرة لتتناسق مع مجرى القدر الإلهي بإقامة الحياة البشرية ابتداء على أساس الأسرة ، حين جرى قدر الله أن تكون أول خلية في الوجود البشري هي أسرة آدم وزوجه ، وأن يتكاثر الناس بعد ذلك من هذه الخلية الأولى . وكان الله - سبحانه - قادراً على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة

(١) كتاب السلام العالمي والإسلام . فصل : إسلام البيت . « دار الشروق ».

واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة في وظيفة الأسرة الضخمة في حياة هذا المخلوق ، حيث تلي حياة الأسرة فطرته واستعداداته ، وحيث تنمي شخصيته وفضائله ، وحيث يتلقى فيها أعمق المؤثرات في حياته . ثم جرت هذه العناية في النظام الإسلامي - منهج الله الأخير في الأرض - مع القدر الإلهي في خلقه الإنسان ابتداء . كما هو الشأن في تناسق كل ما يصدر عن الله بلا تفاوت ولا اختلاف .

والدلالة الثانية لسياق السورة ، وللاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية هذا الاحتفال في القرآن كله ، هي اتجاه النظام الإسلامي لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ؛ واتخاذها وسيلة للتطهر الروحي والنظافة الشعورية - لا كما كان ينظر إليها في العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة ، البعيدة بهذا التحريف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها .

« إن الإسلام لا يحارب دوافع الفطرة ولا يستقذرها ، إنما ينظمها ويطهرها ، ويرفعها عن المستوى الحيواني ، ويرقيها حتى تصبح هي المحور الذي يدور عليه الكثير من الآداب النفسية والاجتماعية . ويقم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الراقية ، التي تجعل من التقاء جسدين ، التقاء نفسين وقلبين وروحين . وبتعبير شامل التقاء إنسانين ، تربط بينهما حياة مشتركة ، وآمال مشتركة ، وآلام مشتركة ، ومستقبل مشترك ، يلتقي في الذرية المرتقبة ، ويتقابل في الجيل الجديد ، الذي ينشأ في العش المشترك ، الذي يقوم عليه الوالدان حارسين لا يفترقان »^١ .

ويعد الإسلام الزواج وسيلة للتطهر والارتقاء فيدعو الأمة المسلمة لتزويج رجالها ونسائها إذا قام المال عقبة دون تحقيق هذه الوسيلة الضرورية لتطهير الحياة ورفعها : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم . وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » .. ويسمي الزواج إحصاناً أي وقاية وصيانة . ويستقر في أخلاق المؤمنين أن البقاء بدون إحصان ولو فترة قصيرة لا ينال رضى الله . فيقول الإمام علي - كرم الله وجهه - وقد سارع بالزواج عقب وفاة زوجته فاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « لقد خشيت أن ألقى الله وأنا عذب » .. فيدخل الزواج في عرف المؤمن في الطاعات التي يتقرب بها إلى ربه . وترتفع هذه الصلة إلى مكان القداسة في ضميره بما أنها إحدى الطاعات لربه .

والدلالة الثالثة لسياق سورة الطلاق ونظائرها هي واقعية هذا النظام الإسلامي ومعاملته للحياة وللنفس البشرية كما هي في فطرتها ، مع محاولة رفعها إلى ذلك المستوى الكريم ، عن طريق استعداداتها وملابس حياتها . ومن ثم لا يكتفي بالتشريع الدقيق في هذا الأمر الموكول إلى الضمير . ولا يكتفي بالتوجيه . ويستخدم هذا وذلك في مواجهة واقع النفس وواقع الحياة .

إن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار . والإسلام يحيط هذه الرابطة بكل الضمانات التي تكفل استقرارها واستمرارها . وفي سبيل هذه الغاية يرفعها إلى مرتبة الطاعات ، ويعين على قيامها بمال الدولة للفقراء والفقيرات ، ويفرض الآداب التي تمنع التبرج والفتنة كي تستقر العواطف ولا تتلفت القلوب على هتاف الفتنة المتبرجة في الأسواق ! ويفرض حد الزنا وحد القذف ؛ ويجعل للبيوت حرمتها بالاستئذان عليها

والاستئذان بين أهلها في داخلها .

وينظم الارتباطات الزوجية بشريعة محددة ، ويقم نظام البيت على أساس قوامه أحد الشريكين وهو الأقدر على القوامه ، منعاً للفوضى والاضطراب والتزعاج .. إلى آخر الضمانات والتنظيمات الواقية من كل اهتزاز . فوق التوجيهات العاطفية . وفوق ربط هذه العلاقة كلها بتقوى الله ورقابته .

ولكن الحياة الواقعية للبشر تثبت أن هناك حالات تهدم وتنحطم على الرغم من جميع الضمانات والتوجيهات . وهي حالات لا بد أن تواجه مواجهة عملية ، اعترافاً بمنطق الواقع الذي لا يجدي إنكاره حين تتعذر الحياة الزوجية ، ويصبح الإمساك بالزوجية عبثاً لا يقوم على أساس !

« والإسلام لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدسة فيفصمه لأول وهلة ، ولأول بادرة من خلاف . إنه يشد على هذا الرباط بقوة ، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس .

« إنه يهتف بالرجال : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .. فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية ، ويفتح لهم تلك النافذة المجهولة : « فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فما يدرهم أن في هؤلاء النسوة المكروهات خيراً ، وأن الله يدخر لهم هذا الخير . فلا يجوز أن يفلتوه . إن لم يكن ينبغي لهم أن يستمسكوا به ويعزوه ! وليس أبلغ من هذا في استحياء الانعطاف الوجداني واستثارته ، وترويض الكره وإطفاء شرته .

« فإذا تجاوز الأمر مسألة الحب والكره إلى الشوز والنفور ، فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام . بل لا بد من محاولة يقوم بها الآخرون ، وتوفيق يحاوله الخيرون : « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله ، وحكماً من أهلها إن يريدان إصلاحاً يوفق الله بينهما . إن الله كان عليماً خبيراً » .. « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً . فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير » ..

« فإذا لم تجد هذه الوساطة ، فالأمر إذن جد ، وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة ، ولا يستقر لها قرار . وإمساك الزوجية على هذا الوضع إنما هو محاولة فاشلة ، يزيد بها الضغط فشلاً ، ومن الحكمة التسليم بالواقع ، وإنهاء هذه الحياة على كره من الإسلام ، فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ' .

فإذا أراد أن يطلق فليس في كل لحظة يجوز الطلاق . إنما السنة أن يكون في طهر لم يقع فيه وطء .. وفي هذا ما يؤجل فصم العقدة فترة بعد موقف الغضب والانفعال . وفي خلال هذه الفترة قد تتغير النفوس ، وتقر القلوب ، ويصلح الله بين المتخاصمين فلا يقع الطلاق !

ثم بعد ذلك فترة العدة . ثلاثة قروء للتي تحيض وتلد . وثلاثة أشهر للآيسة والصغيرة . وفترة الحمل للحوامل . وفي خلالها مجال للمعاودة إن نبضت في القلوب نابضة من مودة ، ومن رغبة في استئناف ما انقطع من حبل الزوجية . ولكن هذه المحاولات كلها لا تنفي أن هناك انفصلاً يقع ، وحالات لا بد أن تواجهها الشريعة مواجهة عملية واقعية ، فتشرع لها ، وتنظم أوضاعها ، وتعالج آثارها . وفي هذا كانت تلك الأحكام الدقيقة المفصلة ، التي تدل على واقعية هذا الدين في علاجه للحياة ، مع دفعها دائماً إلى الأمام . ورفعها دائماً إلى السماء . والدلالة الرابعة للسورة وما فيها من الترغيب والترهيب والتعقيب والتفصيل الشديد والتوكيد ، هو أنها

كانت تواجه حالات واقعة في الجماعة المسلمة متخلفة من رواسب الجاهلية ، وما كانت تلاقيه المرأة من العنت والخسف ، مما اقتضى هذا التشديد ، وهذا الحشد من المؤثرات النفسية ، ومن التفاصيل الدقيقة ، التي لا تدع مجالاً للتلاعب والالتواء مع ما كان مستقراً في النفوس من تصورات متخلفة عن علاقات الجنسين ، ومن تفكك وفوضى في الحياة العائلية^١ .

ولم يكن الحال هكذا في شبه الجزيرة وحدها ، إنما كان شائعاً في العالم كله يومذاك . فكان وضع المرأة هو وضع الرقيق أو ما هو أسوأ من الرقيق في جنابات الأرض جميعاً . فوق ما كان ينظر إلى العلاقات الجنسية نظرة استقذار ، وإلى المرأة كأنها شيطان يغري بهذه القذارة .

ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم الذي سبقت الإشارة إليه . وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات .. وليدة لا تؤاد ولا تهان . ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيباً أو بكرًا . وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة . ومطلقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة وفي سورة البقرة وغيرها ..

شرع الإسلام هذا كله . لا لأن النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأن مكانهن غير مرض ! ولا لأن شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء . ولا لأنه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي ! ولا لأن المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى ! ولا لأن هاتفاً واحداً في الأرض هتف بتغيير الأحوال .. إنما كانت هي شريعة السماء للأرض . وعدالة السماء للأرض . وإرادة السماء بالأرض .. أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة ، وأن تتطهر العلاقات الزوجية من تلك الوصمة ، وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان .

.. هذا دين رفيع .. لا يعرض عنه إلا مطموس . ولا يعيبه إلا منكوس ، ولا يحاربه إلا موكوس . فإنه لا يدع شريعة الله إلى شريعة الناس إلا من أخلد إلى الأرض واتبع هواه .

* * *

والآن نستعرض الأحكام في سياق السورة - بعد هذا الاستطراد الذي لا يبعد كثيراً عن جو هذا الجزء وما فيه من تنظيم وبناء للجماعة المسلمة - والأحكام في سياق السورة شيء آخر غير ذلك التلخيص . شيء حي . فيه روح . وفيه حركة . وفيه حياة . وفيه إحياء .. وله إيقاع . وهذا هو الفارق الأصيل بين مدارس الأحكام في القرآن ومدارسها في كتب الفقه والأصول .

* * *

« يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ، وأحصوا العدة ، واتقوا الله ربكم ، لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ..

هذه هي أول مرحلة وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - « يا أيها النبي » .. ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه - صلى الله عليه وسلم - : « إذا طلقتم النساء ... الخ » فيوحي هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إثارة الاهتمام ، وتصوير الجدية . فهو أمر ذوبال ، ينادي الله نبيه بشخصه

(١) يراجع الجزء الواحد والعشرون ص ٢٨٢٤ - ٢٨٢٥ .

يلقي إليه فيه بأمره ، كما يبلغه لمن وراءه . وهي إحياءات نفسية واضحة الدلالة على ما يراد بها من احتفال واحتشاد .

« إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » ..

وقد ورد في تحديد معنى هذا النص حديث صحيح رواه البخاري ولفظه : « حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث ، حدثني عقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرني سالم ، أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتغيظ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل » ..

ورواه مسلم ولفظه : « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » ..

ومن ثم يتعين أن هناك وقتاً معيناً لإيقاع الطلاق ؛ وأنه ليس للزوج أن يطلق حيناً شاء إلا أن تكون امرأته في حالة طهر من حيض ، ولم يقع بينهما في هذا الطهر وطء . وتفيد آثار أخرى أن هناك حالة ثانية يجوز فيها الطلاق ، وهو أن تكون الزوجة حاملاً بينة الحمل . والحكمة في ذلك التوقيت هي أولاً إرجاء إيقاع الطلاق فترة بعد اللحظة التي تتجه فيها النفس للطلاق ؛ وقد تسكن الفورة إن كانت طارئة وتعود النفوس إلى الوئام . كما أن فيه تأكيداً من الحمل أو عدمه قبل الطلاق . فقد يمكك عن الطلاق لو علم أن زوجه حامل . فإذا مضى فيه وقد تبين حملها دل على أنه مريد له ولو كانت حاملاً . فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقيق من عدم الحمل ، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرة من الأمر . وهذه أول محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة ، ومحاولة دفع المعول عن ذلك البناء .

وليس معنى هذا أن الطلاق لا يقع إلا في هذه الفترة . فهو يقع حيناً طلق^١ . ولكنه يكون مكروهاً من الله ، مغضوباً عليه من رسول الله . وهذا الحكم يكفي في ضمير المؤمن ليمسك به حتى يأتي الأجل . فيقضي الله ما يريد في هذه المسألة . « وأحصوا العدة » ..

كي لا يكون في عدم إحصائها إطالة للأمد على المطلقة ، ومضارة لها بمنعها من الزواج بعد العدة . أو نقص في مدتها لا يتحقق به الغرض الأول ، وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل المستكن حفظاً للأنساب . ثم هو الضبط الدقيق الذي يوحى بأهمية الأمر ، ومراقبة السماء له ، ومطالبة أصحابه بالدقة فيه !

« واتقوا الله ربكم . لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » .

وهذا أول تنبيه - بعد وهلة النداء الأول - وأول تحذير من الله وتقديم تقواه . قبل الأمر بعدم إخراجهن من بيوتهن - وهي بيوت أزواجهن ولكنه يسميها بيوتهن لتوكيد حقهن في الإقامة بها فترة العدة - لا يُخرجن منها ولا يُخرجن ، إلا في حالة وقوع فاحشة ظاهرة منهن . وقد ورد أن هذه الفاحشة قد تكون الزنا فتخرج للحد : وقد تكون إيذاء أهل الزوج . وقد تكون هي النشوز على الزوج - ولو أنه مطلق - وعمل ما يؤذيه . ذلك أن الحكمة من إبقاء المطلقة في بيت الزوج هي إتاحة الفرصة للرجعة ، واستثارة عواطف المودة ، وذكريات

(١) هذا هو الرأي الفقهي الراجح . وهناك قول بعدم وقوع الطلاق إلا في هذه الفترة .

الحياة المشتركة . حيث تكون الزوجة بعيدة بحكم الطلاق قريبة من العين ؛ فيفعل هذا في المشاعر فعله بين الاثنين ! فأما حين ترتكس في حمأة الزنا وهي في بيته ! أو تؤذي أهله ، أو تنشر عليه ، فلا محل لاستحياء المشاعر الطبية ، واستجاشة المودة الدفينة . ولا حاجة إلى استبقائها في فترة العدة . فإن قربها منه حينذاك يقطع الوشائج ولا يستحيها !

« وتلك حدود الله . ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » ..

وهذا هو التحذير الثاني . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأني مؤمن إذن يتعرض لحد يحرسه الله ؟ ! إنه الهلاك والبوار .. « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » .. ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه . وهي وهو من نفس واحدة ، فما يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار .. ثم ..

« لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » .

وهي لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء وراء أمره بالعدة ، وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن .. إنه يلوح هناك أمل ، ويصوص هناك رجاء . وقد يكون الخير كله . وقد تتغير الأحوال وتبديل إلى هناءة ورضى . فقدر الله دائم الحركة ، دائم التغيير ، ودائم الأحداث . والتسليم لأمر الله أولى ، والرعاية له أوفق ، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك !

* * *

والنفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة ، وما فيها من أوضاع وملابسات ، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل ، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة ، وتشعر أنها سرمد ، وأنها باقية ، وأن ما فيها من أوضاع وأحوال سيرافقها ويطاردها .. وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان .

وليست هذه هي الحقيقة . فقدر الله دائماً يعمل ، ودائماً يغير ، ودائماً يبدل ، ودائماً ينشئ ما لا يحول في حسابان البشر من الأحوال والأوضاع . فرج بعد ضيق . وعسر بعد يسر . وبسط بعد قبض . والله كل يوم هو في شأن ، يديه للخلق بعد أن كان عنهم في حجاب .

ويريد الله أن تستقر هذه الحقيقة في نفوس البشر ، ليظل تطلعهم إلى ما يحدثه الله من الأمر متجدداً ودائماً . ولتظل أبواب الأمل في تغيير الأوضاع مفتوحة دائمة . ولتظل نفوسهم متحركة بالأمل ، ندية بالرجاء ، لا تغلق المنافذ ولا تعيش في سجن الحاضر . واللحظة التالية قد تحمل ما ليس في الحسبان .. « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » ..

« فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوي عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله . ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدراً » ..

وهذه هي المرحلة الثانية وهذا هو حكمها . وبلوغ الأجل آخر فترة العدة . وللزوج ما دامت المطلقة لم تخرج من العدة - على آجالها المختلفة التي سبق بيانها - أن يراجعها فتعود إلى عصمته بمجرد مراجعتها - وهذا هو إمساكها - أو أن يدع العدة تمضي فتبين منه ولا تحل له إلا بعقد جديد كالزوجة الجديدة . وسواء راجع أم فارق فهو مأمور بالمعروف فيهما . منهى عن المضارة بالرجعة ، كأن يراجعها قبيل انتهاء العدة ثم يعود فيطلقها

الثانية ثم الثالثة لطيل مدة بقائها بلا زواج ! أو أن يراجعها لبقائها كالمعلقة ، ويكايدها لتفتدي منه نفسها - وكان كلاهما يقع عند نزول هذه السورة ، وهو ما يزال يقع كلما انحرفت النفوس عن تقوى الله . وهي الضمان الأول لأحكامه في المعاشرة والفراق . كذلك هو منهبي عن المضارة في الفراق بالسب والشتم والغلظة في القول والغضب ، فهذه الصلة تقوم بالمعروف وتنتهي بالمعروف استبقاء لمودات القلوب ؛ فقد تعود إلى العشرة ، فلا تنطوي على ذكرى رديئة ، لكلمة نابية ، أو غمرة شائكة ، أو شائبة تعكر صفاءها عندما تعود . ثم هو الأدب الإسلامي المحض الذي يأخذ الإسلام به الألسنة والقلوب .

وفي حالي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادة على هذه وذاك . شهادة اثنين من العدول . قطعاً للريبة . فقد يعلم الناس بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة ، فتثور شكوك وتقال أقاويل . والإسلام يريد النصاعة والطهارة في هذه العلاقات وفي ضمائر الناس وألسنتهم على السواء . والرجعة تتم وكذلك الفرقة بدون الشهادة عند بعض الفقهاء ولا تتم عند بعضهم إلا بها . ولكن الإجماع أن لا بد من الشهادة بعد أو مع الفرقة أو الرجعة على القولين . وعقب بيان الحكم تبيي اللمسات والتوجيهات ترى :

« وأقيموا الشهادة لله » ..

فالقضية قضية الله ، والشهادة فيها لله ، هو يأمر بها ، وهو يراقب استقامتها ، وهو يجزي عليها . والتعامل فيها معه لا مع الزوج ولا الزوجة ولا الناس !
« ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والمخاطبون بهذه الأحكام هم المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر . فهو يقول لهم : إنه يعظهم بما هو من شأنهم . فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون . وهذا هو محك إيمانهم ، وهذا هو مقياس دعواهم في الإيمان !

« ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب » ..

مخرجاً من الضيق في الدنيا والآخرة ، ورزقاً من حيث لا يقدر ولا ينتظر . وهو تقرير عام ، وحقيقة دائمة . ولكن إلصاقها هنا بأحكام الطلاق يوحى بدقة انطباقها وتحققها عندما يتقي المتقون الله في هذا الشأن بصفة خاصة . وهو الشأن الذي لا ضابط فيه أحس ولا أدق من ضابط الشعور والضمير ، فالتلاعب فيه مجاله واسع ، لا يقف دونه إلا تقوى الله وحساسية الضمير .

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره » ..

فجبال الكيد في هذه العلاقة واسع ، ومسالكة كثيرة ، وقد تؤدي محاولة اتقاء الكيد إلى الكيد ! فهنا إحياء بترك هذه المحاولة ، والتوكل على الله ، وهو كاف لمن يتوكل عليه . فالله بالغ أمره . فما قدر وقع ، وما شاء كان ؛ فالتوكل عليه توكل على قدرة القادر ، وقوة القاهر . الفعال لما يريد . البالغ ما يشاء .

والنص عام . والمقصود به هو إنشاء التصور الإيماني الصحيح في القلب ، بالنسبة لإرادة الله وقدره .. ولكن وروده هنا بمناسبة أحكام الطلاق له إيحائه في هذا المجال وأثره .

« قد جعل الله لكل شيء قدراً » ..

فكل شيء مقدر بمقداره ، وبزمانه ، وبمكانه ، وبملاساته ، وبتناججه وأسبابه . وليس شيء مصادفة ، وليس شيء جزافاً . في هذا الكون كله ، وفي نفس الإنسان وحياته .. وهي حقيقة ضخمة يقوم عليها جانب

كبير من التصور الإيماني . (وقد فصلنا الحديث عنها عند استعراض قوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً » في سورة الفرقان . وعند قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » .. في سورة القمر) . ولكن ذكر هذه الحقيقة الكلية هنا يربط بها ما قدره الله عن الطلاق وقتره ، والعدة ووقتها ، والشهادة وإقامتها . ويطبع هذه الأحكام بطابع السنة الإلهية النافذة ، والناموس الكلي العام . ويوقع في الحس أن الأمر جد من جد النظام الكوني المقدر في كل خلق الله .

* * *

« واللائي يئسن من المحيض من نسائكم - إن ارتبتم - فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً . ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » .

وهذا تحديد لمدة العدة لغير ذوات الحيض والحمل . يشمل اللواتي انقطع حيضهن ، واللاتي لم يحضن بعد لصغر أو لعلة . ذلك أن المدة التي بينت من قبل في سورة البقرة كانت تنطبق على ذوات الحيض - وهي ثلاث حيضات أو ثلاثة أطهار من الحيضات . حسب الخلاف الفقهي في المسألة - فأما التي انقطع حيضها والتي لم تحض أصلاً فكان حكمها موضع لبس : كيف تحسب عدتها ؟ فجاءت هذه الآية تبين وتنفي اللبس والشك ، وتحدد ثلاثة أشهر لهؤلاء وهؤلاء ، لاشتراكهن في عدم الحيض الذي تحسب به عدة أولئك . أما الحوامل فجعل عدتهن هي الوضع . طال الزمن بعد الطلاق أم قصر . ولو كان أربعين ليلة فترة الطهر من النفاس . لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار . والمطلقة تبين من مطلقها بمجرد الوضع ، فلا حكمة في انتظارها بعد ذلك ، وهي غير قابلة للرجعة إليه إلا بعقد جديد على كل حال . وقد جعل الله لكل شيء قدراً . فليس هناك حكم إلا ووراء حكمة .

هذا هو الحكم ثم تحيء اللمسات والتعقيبات :

« ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » ..

واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان . وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبده من عباده . فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة . يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره . وينالها بيسر في حركته وعمله . ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها . ويعيش من هذا في يسر رخي ندي ، حتى يلقي الله .. ألا إنه لإغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة !

« ذلك أمر الله أنزله إليكم » ..

وهذه لمسة أخرى في جانب آخر . لمسة الجد والانتباه إلى مصدر الأمر .. فقد أنزله الله . أنزله للمؤمنين به ، فطاعته تحقيق لمعنى الإيمان ، ولحقيقة الصلة بينهم وبين الله .

ثم عودة إلى التقوى التي يدق عليها دقاً متواصلاً في هذا المجال :

« ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً » ..

فالأولى تيسير للأمور . والثانية تكفير للسيئات وإعظام للأجر بعد التكفير .. فهو الفيض المغربي والعرض المثير . وهو حكم عام ووعد شامل . ولكنه يخلع على موضوع الطلاق ظلاله ، ويغمر القلب بالشعور بالله

وفضله العميم . فما له إذن يعسر ويعقد والله يغمره بالتيسير والمغفرة والأجر الكبير ؟

* * *

« أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضييقا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يرضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى . لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه ، سيجعل الله بعد عسر يسراً » ..

وهذا هو البيان الأخير لتفصيل مسألة الإقامة في البيوت ، والإنفاق في فترة العدة - على اختلاف مدتها . فالأمر به هو أن يسكنوهن مما يجدون هم من سكنى . لا أقل مما هم عليه في سكناهم ، وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم . غير عامدين إلى مضاربتهم سواء بالتضييق عليهن في فسحة المسكن أو مستواه أو في المعاملة فيه . وخص ذوات الأحمال بذكر النفقة - مع وجوب النفقة لكل معتدة - لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة عنه إذا قصرت مدته . فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعي .

ثم فصل مسألة الرضاعة فلم يجعلها واجباً على الأم بلا مقابل . فبادت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجراً على رضاعته تستعين به على حياتها وعلى إدرار اللبن للصغير ، وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة . وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتبرا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد ، ويتشاورا في أمره ورائدهما مصلحته ، وهو أمانة بينهما ، فلا يكون فشلها هما في حياتها نكبة على الصغير البريء فيهما ! وهذه هي المياسرة التي يدعوهما الله إليها . فأما إذا تعاسرا ولم يتفقا بشأن الرضاعة وأجرها ، فالطفل مكفول الحقوق : « فسترضع له أخرى » .. دون اعتراض من الأم ودون تعطيل لحق الطفل في الرضاعة ، بسبب تعاسرها بعد فشلها !

ثم يفصل الأمر في قدر النفقة . فهو اليسر والتعاون والعدل . لا يجوز هو ، ولا تتعنت هي . فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة . سواء في السكن أو في نفقة العيشة أو في أجر الرضاعة . ومن ضيق عليه في الرزق ، فليس عليه من حرج ، فالله لا يطالب أحداً أن ينفق إلا في حدود ما آتاه . فهو المعطي ، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله . فليس هناك مصدر آخر للبقاء غير هذا المصدر ، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة : « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه » ..

ثم لمسة الإرضاء ، وإفصاح الرجاء ، للثنتين على السواء :

« سيجعل الله بعد عسر يسراً » ..

فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر . فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله ، وأن يتجها إليه بالأمر كله ، وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه . وهو المانع المانع . القابض الباسط . وييده الضيق والفرج ، والعسر واليسر ، والشدة والرخاء .

* * *

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته ، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح ؛ ولم يدع من البيت المهتم أنقاضاً ولا غباراً يملأ النفوس ويغشى القلوب ، ولم يترك بعده عقابيل غير

مستريحة بعلاج ، ولا قلاقل تثير الاضطراب .

وكذلك يكون قد عالج جميع الوسوس والهواجس التي تثور في القلوب ، فتمنعها من السباحة والتيسير والتجمل للأمر . فأبعد أشباح الفقر والضيق وضياح الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسع على مطلقة أو مرضعة ولده . ومن نفس الزوجة التي تضيق بنفقة الإعسار ، أو تطمع في زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق . فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى ، والضيق بعد الفرج ، والرزق من حيث لا يحتسب ، وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة والأجر الكبير هناك بعد التكفير .

كما عالج ما تخلفه حالة الخلاف والشقاق التي أدت إلى الطلاق . من غيظ وحنق ومشادة وغبار في الشعور والضمير .. فسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل ، ونسم عليه من رحمة الله والرجاء فيه ؛ ومن ينابيع المودة المعروف التي فجرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه .

وهذا العلاج الشامل الكامل ، وهذه اللمسات المؤثرة العميقة ، وهذا التوكيد الوثيق المتكرر .. هذه كلها هي الضمانات الوحيدة في هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة . فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب . وإن كلا الزوجين ليملك مكايده صاحبه حتى تنفقي مرارته إذا كانت الحواجز هي فقط حواجز القانون !! وبعض الأوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا . فالأمر بعدم المضارة : « ولا تضاروهن » يشمل النهي عن ألوان من العنت لا يحصرها نص قانوني مهما اتسع . والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية ، وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المطلع على السرائر ، المحيط بكل شيء علماً . وإلى التعويض الذي يعده الله للمتقين في الدنيا والآخرة . وبخاصة في مسألة الرزق التي تكرر ذكرها في صور شتى ، لأنها عامل مهم في تيسير الموقف ، وتندية الجفاف الذي تنشئه حالة الطلاق ..

وإن الزوجين ليفارقان - في ظل تلك الأحكام والتوجيهات - وفي قلوبهما بذور للود لم تمت ، ونداوة قد تحيي هذه البذور فتنبت .. ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ، ويشيع فيها أرجه وشذاه .

* * *

فإذا انتهى السياق من هذا كله ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله ، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا . وعلق هذه العبرة على الرؤوس ، تذكروهم بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتقي ولا يطيع . كما تذكروهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع :

« وكأي من قرية عنت عن أمر ربها ورسله ، فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها ، وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذاباً شديداً . فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا ، قد أنزل الله إليكم ذكراً : رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . قد أحسن الله له رزقاً » ..

وهو إنذار طويل وتحذير مفصل المشاهد . كما أنه تذكير عميق بنعمة الله بالإيمان والنور ، ووعدته بالأجر في الآخرة وهو أحسن الرزق وأكرمه .

فأخذ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلم لرسله هو سنة متكررة : « وكأي من قرية عنت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً » . وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير والعذاب النكير ،

ثم تصوير العاقبة وسوء المصير : « فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً » .. ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة في الآية التالية : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » .. كل هذا لإطالة المشهد وتفصيل خطواته ومراحله . وهي طريقة من طرق الأسلوب القرآني في تعميق الأثر في الحس وإطالة مكثه في الأعصاب ^١ .

ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمر ربها ورسله .. ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه ، فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية . ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو أزواج . إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها . فهي المسؤولة عن هذا الأمر . وهي المسؤولة فيه عن شريعة الله . ومخالفتها عن أمر الله فيه - أو مخالفتها عن أمر الله في غيره من أحكام هذا النظام ، أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة - هي عتو عن أمر الله ، لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه ، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها المخالفة ، والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره . فقد جاء هذا الدين ليطاع ، ولينفذ كله ، وليهيمن على الحياة كلها . فمن عتا عن أمر الله فيه - ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية - فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبداً .

وتلك القرى ذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً .. ذاقته في هذه الأرض قبل يوم الحساب الأخير . ولقد ذاقت هذا الوبال قرى وأمم وشعوب عتت عن منهج الله في الأرض . ونحن نشهد وأسلمنا شهدوا هذا الوبال . ذاقته فساداً وانحلالاً ، وفقراً وقحطاً ، وظلماً وجوراً ، وحياة مفزعة لا أمن فيها ولا سلام ، ولا طمأنينة فيها ولا استقرار . وفي كل يوم نرى مصداق هذا النذير !

وذلك فوق العذاب الشديد الذي ينتظر العتاة عن أمر الله ونهجه في الحياة حيث يقول الله : « أعد الله لهم عذاباً شديداً » .. والله أصدق القائلين .

إن هذا الدين منهج نظام جماعي - كما أسلفنا الحديث في سورة الصف - جاء لينشئ جماعة مسلمة ذات نظام خاص . وجاء ليصرف حياة هذه الجماعة كلها . ومن ثم فالجماعة كلها مسؤولة عنه ، مسؤولة عن أحكامه . ولن تخالف عن هذه الأحكام حتى يحق عليها هذا النذير الذي حق على القرى التي عتت عن أمر ربها ورسله . وفي مواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة يهتف بأولي الألباب الذين آمنوا . الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان . يهتف بهم ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر : « قد أنزل الله إليكم ذكراً » .. ويحسم هذا الذكر ويمزجه بشخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيجعل شخصه الكريم هو الذكر ، أو بدلاً منه في العبارة : « رسلاً يتلو عليكم آيات الله مبينات » ..

وهنا لفظة مبدعة عميقة صادقة ذات دلائل متنوعة ..

إن هذا الذكر الذي جاء من عند الله مر إليهم من خلال شخصية الرسول الصادق حتى لكأن الذكر نفذ إليهم مباشرة بذاته ، لم تحجب شخصية الرسول شيئاً من حقيقته .

والوجه الثاني لإيحاء النص هو أن شخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد استحالت ذكراً ، فهي صورة مجسمة لهذا الذكر صنعت به فصارت هو . وهو ترجمة حية لحقيقة القرآن . وكذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهكذا وصفته عائشة - رضي الله عنها - وهي تقول : « كان خلقه القرآن » .. وهكذا كان القرآن في خاطره في مواجهة الحياة . وكان هو القرآن يواجه الحياة !

(١) يراجع فصل « التناسق الفني » في كتاب « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والصلاح ، وعد بنعيم الجنات خالدين فيها أبداً . وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق ، فلا يقاس إليه رزق الأرض : « قد أحسن الله له رزقاً » .. وهو الرازق في الدنيا والآخرة ، ولكن رزقاً خيراً من رزق ، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم . وهكذا يلمس نقطة الرزق مرة أخرى ، ويهون بهذه الإشارة من رزق الأرض ، إلى جانب رزق الجنة . بعدما وعد في المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضاً ..

* * *

وفي الختام يجيء ذلك الإيقاع الكوني الهائل ، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجيهاتها بقدر الله وقدره الله ، وعلم الله ، في المجال الكوني العريض :
« الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يَنْزِلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً » ..

والسموات السبع لا علم لنا بحقيقة مدلولها وأبعادها ومساحاتها . وكذلك الأراضي السبع . فقد تكون أرضنا هذه التي نعرفها واحدة منهن والباقيات في علم الله . وقد يكون معنى مثلهن أن هذه الأرض من جنس السموات فهي مثلهن في تركيبها أو خصائصها .. وعلى أية حال فلا ضرورة لمحاولة تطبيق هذه النصوص على ما يصل إليه علمنا ، لأن علمنا لا يحيط بالكون ، حتى نقول على وجه التحقيق : هذا ما يريده القرآن . ولن يصح أن نقول هكذا إلا يوم يعلم الإنسان تركيب الكون كله علماً يقينياً .. وهيئات !

فنتفع بإيحاء هذه الإشارة إلى تلك الحقيقة في مجالها النفسي ، وفي إنشاء التصور الإيماني الكوني الصحيح . والإشارة إلى هذا الكون الهائل : « سبع سموات ومن الأرض مثلهن » .. يهول الحس ويقف القلب وجهاً لوجه أمام مشهد من مشاهد قدرة الخالق ، وسعة ملكه ، تصغر أمامه هذه الأرض كلها ، فضلاً على بعض ما فيها ، فضلاً على حادث من أحداثها . فضلاً على دربهات ينفقها الزوج أو تتنازل عنها الزوجة !

وبين هذه السموات السبع والأرض أو الأرضين السبع يتنزل أمر الله - ومنه هذا الأمر الذي هم بصده في هذا السياق . فهو أمر هائل إذن ، حتى بمقاييس البشر وتصوراتهم في المكان والزمان بقدر ما يطيقون التصور . والمخالفة عنه مخالفة عن أمر تتجاوب به أقطار السموات والأرضين ، ويتسامع به الملاء الأعلى وخلق الله الآخرون في السموات والأرضين . فهي مخالفة بقاء شنعاء ، لا يقدم عليها ذو عقل مؤمن ، جاء رسول يتلو عليه آيات الله مبينات ، ويبين له هذا الأمر ، ليخرجه من الظلمات إلى النور ..

وهذا الأمر يتنزل بين السموات والأرض ، لينشئ في قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شيء قدير ؛ فلا يعجزه شيء مما يريد . وأنه أحاط بكل شيء علماً ؛ فلا يند عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض ، ولا مما يسرونه في حنايا القلوب .

ولهذه اللمسة قيمتها هنا من وجهين :

الأول أن الله الذي أحاط بكل شيء علماً هو الذي يأمر بهذه الأحكام . فقد أنزلها وهو يحيط بكل ظروفهم وملاساتهم ومصالحهم واستعداداتهم . فهي أولى بالاتباع لا يلتفتون عنها أدنى التفات ؛ وهي من وضع العليم المحيط بكل شيء علماً .

والثاني أن هذه الأحكام بالذات موكولة إلى الضمائر ، فالشعور بعلم الله واطلاعه على كل شيء هو الضمان

الجزء الثامن والعشرون

لحساسية هذه الضمائر ، في شأن لا يجدي فيه شيء إلا تقوى الله العليم بذات الصدور .

* * *

وهكذا تختم السورة بهذا الإيقاع الذي يهول ويروع ، بقدر ما يحرك القلوب لتخبت وتطيع . فسبحان خالق القلوب ، العليم بما فيها من المنحنيات والدروب !

* * *

(٦٦) سُورَةُ التَّحْرِيمِ مِلاَنِتِ وَآيَاتُهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۖ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَيْسَ نَبَأٌ بِهِ وَأَظْهَرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ ۖ قَالَتْ مَنَ أَنْبَأَكَ هَذَا ۖ قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلَحُ الْمُسْلِمِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَى رَبُّهُ ۖ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبَدِّلَهُ ۖ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَةً مُؤْمِنَةً قَلِيلًا تَلَبَّسْتَ عِبْدَاتٍ سَلَحَتْ نَيْبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدِرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ۖ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطَ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْعًا

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا
فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا
فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُنِيَءُهَا وَكَانَتْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١٢﴾

عندما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة ؛ وأن يجعل منهجه هو المنهج الباقي إلى آخر
الخلقة ؛ وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام ؛ وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة
البشرية ويهيمن على نشاطها في كل ميدان ..

عندما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة ، شاملاً كاملاً متكاملاً ، يلي كل
طاقات البشر واستعداداتهم ، في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللاتق بخليفة
الله في الأرض ، وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده ، ونفخ فيه من روحه .

وجعل طبيعة هذا الدين الانطلاق بالحياة إلى الأمام : نمواً وتكاثراً ، ورفعة وتطهراً ، في آن واحد . فلم
يعطل طاقة بانية ، ولم يكبت استعداداً نافعاً . بل نشط الطاقات وأيقظ الاستعدادات وفي الوقت ذاته حافظ
على توازن حركة الاندفاع إلى الأمام مع حركة الارتفاع إلى الأفق الكريم ، الذي يهيم الأرواح في الدنيا
لمستوى نعيم الآخرة ، ويعد المخلوق الفاني في الأرض للحياة الباقية في دار الخلود .

وعندما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها - صلى الله عليه وسلم -
إنساناً تمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها ، وتتجسم فيه بكل حقيقتها ، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة
الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها . إنساناً قد اكتملت طاقاته الإنسانية كلها . ضليع التكوين الجسدي ،
قوي البنية ، سليم البناء ؛ صحيح الحواس ، يقظ الحس ، يتذوق المحسوسات تذوقاً كاملاً سليماً . وهو في
ذات الوقت ضخم العاطفة ، حي الطبع ، سليم الحساسية ، يتذوق الجمال ، متفتح للتلقي والاستجابة . وهو
في الوقت ذاته كبير العقل ، واسع الفكر ، فسيح الأفق ، قوي الإرادة ، يملك نفسه ولا تملكه .. ثم هو
بعد ذلك كله .. النبي .. الذي تشرق روحه بالنور الكلي ، والذي تطيق روحه الإسراء والمعراج ، والذي
ينادي من السماء ، والذي يرى نور ربه ، والذي تتصل حقيقته بحقيقة كل شيء في الوجود من وراء الأشكال
والظواهر ، فيسلم عليه الحصى والحجر ، ويحن له الجذع ، ويرتجف به أحد - الجبل .. ! .. ثم تتوازن
في شخصيته هذه الطاقات كلها . فإذا هو التوازن المقابل لتوازن العقيدة التي اختير لها ..

ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتاباً مفتوحاً لأمتة ولل البشرية كلها ، تقرأ فيه صور هذه العقيدة ، وترى
فيه تطبيقاتها الواقعية . ومن ثم لا يجعل فيها سراً مخبوءاً ، ولا سترأ مطويًا . بل يعرض جوانب كثيرة منها في
القرآن ، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي . حتى مواضع الضعف البشري الذي
لا حيلة فيه لبشر . بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول - صلى الله عليه
وسلم - للناس !

إنه ليس له في نفسه شيء خاص . فهو لهذه الدعوة كله . فعلام يختبئ جانب من حياته - صلى الله عليه

وسلم - أو يخبا ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة ؛ وقد جاء - صلى الله عليه وسلم - ليعرضها للناس في شخصه ، وفي حياته ، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه . ولهذا خلق . ولهذا جاء . ولقد حفظ عنه أصحابه - صلى الله عليه وسلم - ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيراً - أدق تفصيلات هذه الحياة . فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية ، لم تسجل ولم تنقل .. وكان هذا طرفاً من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول ، أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول . فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة .

* * *

وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيئية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نساته وبعض ، وبينهن وبينه ! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته - صلى الله عليه وسلم - وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك .. ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه .

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محدداً . ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من زينب بنت جحش قطعاً .

ولعله يحسن أن نذكر هنا ملخصاً عن قصة أزواج النبي ، وعن حياته البيئية يعين على تصور الحوادث والنصوص التي جاءت بصددتها في هذه السورة . ونعتمد في هذا الملخص على ما أثبتته الإمام ابن حزم في كتابه : « جوامع السيرة » .. وعلى السيرة لابن هشام مع بعض التعليقات السريعة :

أول أزواجه - صلى الله عليه وسلم - خديجة بنت خويلد . تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن خمس وعشرين سنة وقيل ثلاث وعشرون ، وسنها - رضي الله عنها - أربعون أو فوق الأربعين ، وماتت - رضي الله عنها - قبل الهجرة بثلاث سنوات ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت . وقد تجاوزت سنه الخمسين . فلما ماتت خديجة تزوج عليه السلام سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - ولم يرو أنها ذات جمال ولا شباب . إنما كانت أرملة للسكران بن عمرو بن عبد شمس . كان زوجها من السابقين إلى الإسلام من مهاجري الحبشة . فلما توفي عنها ، تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

ثم تزوج عائشة - رضي الله عنها - بنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنه وأرضاه - وكانت صغيرة فلم يدخل بها إلا بعد الهجرة . ولم يتزوج بكراً غيرها . وكانت أحب نساته إليه ، وقيل كانت سنها تسع سنوات وبقيت معه تسع سنوات وخمسة أشهر . وتوفي عنها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم تزوج حفصة بنت عمر - رضي الله عنه - بعد الهجرة بستين وأشهر . تزوجها ثيباً . بعدما عرضها أبوها على أبي بكر وعلى عثمان فلم يستجيبا . فوعده النبي خيراً منهما وتزوجها !

ثم تزوج زينب بنت خزيمة . وكان زوجها الأول عبدة بن الحارث بن عبد المطلب قد قتل يوم بدر . وتوفيت زينب هذه في حياته - صلى الله عليه وسلم - . وقيل كان زوجها قبل النبي هو عبد الله بن جحش الأسدي المستشهد يوم أحد . ولعل هذا هو الأقرب .

وتزوج أم سلمة . وكانت قبله زوجاً لأبي سلمة ، الذي جرح في أحد ، وظل جرحه يعاوده حتى مات به . فتزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرملة . وضم إليه عيالها من أبي سلمة .

وتزوج زينب بنت جحش . بعد أن زوجها لمولاه ومتبناه زيد بن حارثة فلم تستقم حياتهما فطلقها . وقد عرضنا قصتها في سورة الأحزاب في الجزء الثاني والعشرين ، وكانت جميلة وضيئة . وهي التي كانت عائشة - رضي الله عنها - تحس أنها تساميا ، لنسبها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهي بنت عمته ، ولوضاعتها ! ثم تزوج جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق بعد غزوة بني المصطلق في أواسط السنة السادسة الهجرية . قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها . قالت : « لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في أسهم الثابت ابن قيس بن الشماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حلوة مليحة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تستعينه في كتابتها . قالت عائشة : فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها ! وعرفت أنه سيري منها - صلى الله عليه وسلم - ما رأيت ، فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله . أنا جويرية بنت الحارث بن أبي صرار سيد قومه . وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسي ، فجئت أستعينك على كتابتي . قال : « فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضي عنك كتابتك وأتزوجك ؟ » قالت : نعم يا رسول الله . قال : « قد فعلت » ..

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بعد الحديبية . وكانت مهاجرة مسلمة في بلاد الحبشة ، فارتد زوجها عبد الله بن جحش إلى النصرانية وتركها . فخطبها النبي - صلى الله عليه وسلم - وأمهرها عنه نجاشي الحبشة . وجاءت من هناك إلى المدينة .

وتزوج إثر فتح خيبر بعد الحديبية صفية بنت حيي بن أخطب زعيم بني النضير . وكانت زوجة لكنانة ابن أبي الحقيق وهو من زعماء اليهود أيضاً . ويذكر ابن إسحاق في قصة زواجه - صلى الله عليه وسلم - منها : أنه أتى بها وبأخرى معها من السبي ، فر بهما بلال - رضي الله عنه - على قتلى من قتلى اليهود فلما رأتهم التي مع صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها . فقال - صلى الله عليه وسلم - : « اعزبوا عني هذه الشيطانة » وأمر بصفية فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اصطفاها لنفسه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لبلال - فيما بلغني - حين رأى بتلك اليهودية ما رأى : « أنزعت منك الرحمة يا بلال ؟ حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟ » .

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن . وهي خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن عباس . وكانت قبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند أبي رهم بن عبد العزى . وقيل حويطب بن عبد العزى . وهي آخر من تزوج صلى الله عليه وسلم .

وهكذا ترى أن لكل زوجة من أزواجه - صلى الله عليه وسلم - قصة وسبباً في زواجه منها . وهن فيمن عدا زينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، لم يكن شواوب ولا من يرغب فيهن الرجال لجمال . وكانت عائشة - رضي الله عنها - هي أحب نسائه إليه . وحتى هاتان اللتان عرف عنهما الجمال والشباب كان هناك عامل نفسي وإنساني آخر - إلى جانب جاذبيتهم - ولست أحاول أن أنفي عنصر الجاذبية الذي لحظته عائشة في جويرية مثلاً ، ولا عنصر الجمال الذي عرفت به زينب . فلا حاجة أبداً إلى نفي مثل هذه العناصر الإنسانية من حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - وليست هذه العناصر موضع اتهام يدفعه الأنصار عن نبينهم . إذا حلا لأعدائه أن يتهموه ! فقد اختير ليكون إنساناً . ولكن إنساناً رفيعاً . وهكذا كان . وهكذا كانت دوافعه في

حياته وفي أزواجه - صلى الله عليه وسلم - على اختلاف الدوافع والأسباب .
ولقد عاش في بيته مع أزواجه بشراً رسولاً كما خلقه الله ، وكما أمره أن يقول : « قل : سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » ..

استمتع بأزواجه وأمتعهن ، كما قالت عائشة - رضي الله عنها - عنه : « كان إذا خلا بنسائه ألين الناس . وأكرم الناس ضحكاً بساناً^١ » .. ولكنه إنما كان يستمتع بهن ويمتعهن من ذات نفسه ، ومن فيض قلبه ، ومن حسن أدبه ، ومن كريم معاملته . فأما حياتهن المادية فكانت في غالبها كفافاً حتى بعد أن فتحت له الفتوح وتبجح المسلمون بالغنائم والفنيء . وقد سبق في سورة الأحزاب قصة طلبهن الوسعة في النفقة ، وما أعقب هذا الطلب من أزمة ، انتهت بتخييرهن بين الله ورسوله والدار الآخرة ، أو المتاع والتسريح من عصمته - صلى الله عليه وسلم - فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة^٢ .

ولكن الحياة في جو النبوة في بيوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم تكن لتقضي على المشاعر البشرية ، والهواتف البشرية في نفوس أزواجه - رضي الله عنهن - فقد كان يبدر أو يشجر بينهن ، ما لا بد أن يشجر في قلوب النساء في مثل هذه الحال . وقد سلف في رواية ابن إسحاق عن عائشة - رضي الله عنها - أنها كرهت جويرية بمجرد رؤيتها لما توقعته من استملاح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لها إذا رآها . وصح ما توقعته فعلاً ! وكذلك روت هي نفسها حادثاً لها مع صفية . قالت . « قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم : حسبك من صفية كذا وكذا . قال الراوي : تعني قصيرة ! فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته^٣ » .. كذلك روت عن نفسها أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حين نزلت آية التخيير التي في الأحزاب ، فاخترت هي الله ورسوله والدار الآخرة ، طلبت إليه ألا يخبر زوجاته عن اختيارها ! - وظاهر لماذا طلبت هذا ! - فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ، ولكن بعثني معلماً ميسراً . لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ..^٤ » .

وهذه الوقائع التي روتها عائشة - رضي الله عنها - عن نفسها - بدافع من صدقها ولتربيتها الإسلامية الناصعة - ليست إلا أمثلة لغيرها تصور هذا الجو الإنساني الذي لا بد منه في مثل هذه الحياة . كما تصور كيف كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤدي رسالته بالتربية والتعليق في بيته كما يؤديها في أمته سواء .

* * *

وهذا الحادث الذي نزل بشأنه صدر هذه السورة هو واحد من تلك الأمثلة التي كانت تقع في حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفي حياة أزواجه . وقد وردت بشأنه روايات متعددة ومختلفة سنعرض لها عند استعراض النصوص القرآنية في السورة .

وبمناسبة هذا الحادث وما ورد فيه من توجيهات . وبخاصة دعوة الزوجتين المتآمرتين فيه إلى التوبة . أعقبه في السورة دعوة إلى التوبة وإلى قيام أصحاب البيوت على بيوتهم بالتربية ، ووقاية أنفسهم وأهلهم من النار .

(١) رواه السيوطي في الجامع الصغير عن ابن سعد وابن عساكر عن عائشة .

(٢) ص ٢٨٥٣ - ٢٨٥٥ الجزء الثاني والعشرون .

(٣) أخرجه أبو داود .

(٤) أخرجه مسلم .

كما ورد مشهد للكافرين في هذه النار . واختتمت السورة بالحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط كمثل للكفر في بيت مؤمن . وعن امرأة فرعون كمثل للإيمان في بيت كافر ، وكذلك عن مريم ابنة عمران التي تطهرت فتلفت النفخة من روح الله وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ..

« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم والله مولاكم وهو العلم الحكيم .

« وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت : من أنباك هذا ؟ قال : نبأني العلم الخبير .

« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً » ..

وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال : حدثنا إبراهيم ابن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة ، قالت : كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها . فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغاير^١ . إني أجد منك ريح مغاير . قال : « لا . ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له . وقد حلفت . لا تخبري بذلك أحداً » .. فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له : « لم تحرم ما أحل الله لك ؟ » .

ويبدو أن التي حدثها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتأمرة معها . فأطلع الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - على الأمر . فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه . تمشياً مع أدبه الكريم . فقد لمس الموضوع لمساً مختصراً لتعرف أنه يعرف وكفى . فدهشت هي وسألته : « من أنباك هذا ؟ » .. ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأتها ! ولكنه أجابها : « نبأني العلم الخبير » .. فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله . ومضمون هذا أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلم كل ما دار ، لا الطرف الذي حدثها به وحده !

وقد كان من جراء هذا الحادث ، وما كشف عنه من تأمر ومكائدات في بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن غضب . فآلى من نسائه لا يقربهن شهراً ، وهم بتطليقهن - على ما تسمع المسلمون - ثم نزلت هذه الآيات . وقد هدأ غضبه - صلى الله عليه وسلم - فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث .

وهذه الرواية الأخرى أخرجهما النسائي من حديث أنس ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها . فأنزل الله عز وجل : « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؛ تبتغي مرضاة أزواجك » ...

وفي رواية لابن جرير ولابن إسحاق أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة . فغضبت وعدتها إهانة لها . فوعدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتحريم مارية وحلف بهذا .

(١) المغاير : صنف حلو الطعم كريح الراححة .

وكلفها كتمان الأمر . فأخبرت به عائشة .. فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة .
وكلا الروایتين يمكن أن يكون هو الذي وقع . وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول - صلى الله عليه وسلم - نظراً لدقة الموضوع وشدة حساسيته . ولكن الرواية الأولى أقوى إسناداً . وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها . إذا نظرنا إلى المستوى الذي يسود بيوت النبي ، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئاً كبيراً .. والله أعلم أي ذلك كان .

أما وقع هذا الحادث - حادث إيلاء النبي - صلى الله عليه وسلم - من أزواجه ، فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو يرسم كذلك جانباً من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك .. قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور ، عن ابن عباس قال : « لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المراتين من أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة ، ففتبرز ، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : يا أمير المؤمنين من المراتن من أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - اللتان قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ؟ فقال عمر : واعجباً لك يا ابن عباس ! (قال الزهري : كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه) قال : هي عائشة وحفصة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث ، قال : كنا معشر قريش قوماً تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم . قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال : فغضبت يوماً على امرأتي ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني . فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل ! قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قالت : نعم ! قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم ! قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منك - يريد عائشة - قال : وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتيني بنجر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك . قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا . فترل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى ، فخرجت إليه ، فقال : حدث أمر عظيم . فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم من ذلك وأطول ! طلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نساءه ! فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ! قد كنت أظن هذا كائناً . حتى إذا صلبت الصبح شددت على ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي . فقلت : أطلقكن رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ؟ - فقالت : لا أدري . هو هذا معتزل في هذه المشربة . فأتيته غلاماً أسود فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم . فجلست عنده قليلاً ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيته الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ! فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيته الغلام فقلت : استأذن لعمر . فدخل ثم خرج إلي فقال : ذكرت لك له فصمت ! فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني . فقال : ادخل قد أذن لك . فدخلت فسلمت على رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه . فقلت : أطلقت يا رسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إليّ وقال : « لا » . فقلت : الله أكبر ! ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً تغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ، ففطق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم ، فغضبت على امرأتي يوماً ، فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ! أفأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ؛ فإذا هي قد هلكت ؟ فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت : لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منك ! فتبسم أخرى . فقلت : أستأنس يا رسول الله ! قال : « نعم » فجلست ، فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت : ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفي شك أنت يا بن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا » . فقلت : استغفر لي يا رسول الله .. وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل » .. (وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص) ..

* * *

هذه رواية الحادث في السير . فلننظر في السياق القرآني الجميل :

تبدأ السورة بهذا العتاب من الله سبحانه لرسوله - صلى الله عليه وسلم - :

« يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبغى مرضاة أزواجك ، والله غفور رحيم ؟ قد فرض الله لكم تحلة إيمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم » ..

وهو عتاب مؤثر موح . فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي ؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه . فجاء هذا العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً إرضاء لأحد .. والتعقيب : « والله غفور رحيم » .. يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذه ، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته . وهو إحياء لطيف .

فأما اليمين التي يوحى النص بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد حلفها ، فقد فرض الله تحلتها . أي كفارتها التي يحل منها . ما دامت في غير معروف والعدول عنها أولى . « والله مولاكم » .. فهو يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم . ومن ثم فرض تحلة الإيمان ، للخروج من العنت والمشقة .. « وهو العليم الحكيم » . يشرع لكم عن علم وعن حكمة ، ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم . فلا تحرموا إلا ما حرم ، ولا تحلوا غير ما أحل . وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه .

ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله ، لأن موضوعه ليس هو المهم ، وليس هو العنصر الباقي فيه . إنما العنصر الباقي هو دلالاته وآثاره :

« وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً » ..

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة في تاريخ البشرية . الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء . والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلاً . ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث

الذي أسره إلى بعض أزواجه . وأنه - صلى الله عليه وسلم - حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه . ترفعاً عن السرد الطويل ، وتجمالاً عن الإطالة في التفصيل ؛ وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل :
« فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض . فلما نبأها به قالت : من أنبأك هذا ؟ قال : نبأني العليم الخبير » . .

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة في حالة التأمر والمكائد المحبوكة وراء الأستار ! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها أو غفلت عنها ، وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن .

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر :
« إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » . .

وحين نتجاوز صدر الخطاب ، ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله ، فقد بعدت عنه بما كان منها . . حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديداً رعبياً مخيفاً . .

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين . والملائكة بعد ذلك ظهير ! ليطيب خاطر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير !

ولا بد أن الموقف في حس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة . ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر - رضي الله عنهما - وهو يسأله : جاءت غسان ؟ فيقول لا بل أعظم من ذلك وأطول . وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة ، وهجومها إذ ذاك أمر خطير . ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأطول ! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير ، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن . وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم ! وهو تقدير يوحى بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور . وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر ، فهو إذن صحيح قويم عميق .

وكذلك دلالة الآية التالية ، وتفصيل صفات النساء اللواتي يمكن أن يبذل الله النبي بهن من أزواجه ولو طلقهن . مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد :

« عسى زبه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك منكن مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات وأبكارا » . .

وهي الصفات التي يدعون إليها عن طريق الإيحاء والتلميح .

الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين . والإيمان الذي يعمر القلب ، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل . والقنوت وهو الطاعة القلبية . والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والانجاء إلى الطاعة . والعبادة وهي أداة الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له . والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكير في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته . وهن - مع هذه الصفات - من الثيبات ومن الأبكار . كما أن نساء الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر .

وهو تهديد لمن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكائدها في قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما كان ليغضب من قليل !

وقد رضيت نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآيات ، وخطاب ربه له ولأهل بيته . واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة ، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه . وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه .

وبعد فهذه صورة من الحياة البيئية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة ، وإقامة دولة ، على غير مثال معروف ، وعلى غير نسق مسبوق . أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة ، وتنشئ في الأرض مجتمعاً ربانياً ، في صورة واقعية يتأسى بها الناس .

وهي صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم . يزاوِل إنسانيته في الوقت الذي يزاوِل فيه نبوته . فلا تفرق هذه عن تلك ؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشراً رسولاً ، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير .

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل . ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنساناً . فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية ، ولا تعطل استعداداً من استعداداته النافعة ؛ وفي الوقت ذاته تهذب وتربيته ، وترتفع به إلى غاية مراقبه . وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به ، حتى استحالوا نسخاً حية منه . وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية ، بكل ما فيها من تجارب الإنسان ، ومحاولات الإنسان ، وضعف الإنسان ، وقوة الإنسان ، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية ، مرتقية بها خطوة خطوة - كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه - كانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة ، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية ، التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات !

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة . وفي اختيار الرسول الذي يطبق تلقياً وترجمتها في صورة حية . وفي جعل حياة هذا الرسول كتاباً مفتوحاً يقرؤه الجميع . وتراجعه الأجيال بعد الأجيال . . .

* * *

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقعه عميقاً في نفوس المسلمين ، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبه في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير ، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار . ويرسم لهم مشهداً من مشاهدها . وحال الكفار عندها . وفي ظلال الدعوة إلى التوبة التي وردت في سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة ، ويصور لهم الجنة التي تنتظر التائبين . ثم يدعو النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى جهاد الكفار والمنافقين . وهذا هو المقطع الثاني في السورة :

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ، وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون . يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أئتم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير . يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » . .

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة . فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله ، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك . إنها نار . فظيعة متسعة : « وقودها الناس والحجارة » .. الناس فيها كالحجارة سواء . في مهانة الحجارة . وفي رخص الحجارة ، وفي قذف الحجارة . دون اعتبار ولا عناية . وما أفضعها ناراً هذه التي توقد بالحجارة ! وما أشده عذاباً هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة ! وكل ما بها وما يلبسها فظيع رهيب : « عليها ملائكة غلاظ شداد » . تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون .. « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .. فن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم ، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم .. وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة . وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار . وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار . فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف ، فلا يؤبه لاعتذارهم ، بل يجبهون بالتئيس :

« يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . إنما تجزون ما كنتم تعملون » ..

لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار ، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل . وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار !

فكيف يقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار ؟ إنه يبين لهم الطريق ، ويطمعهم بالرجاء :
« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ، عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شيء قدير » ..

هذا هو الطريق .. توبة نصوح .. توبة تنصح القلب وتخلصه ، ثم لا تغشه ولا تتخذه .
توبة عن الذنب والمعصية ، تبدأ بالندم على ما كان ، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة ، فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها ؛ وتحضه على العمل الصالح بعدها . فهذه هي التوبة النصوح .
التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحها فلا يعود إلى الذنوب .

فإذا كانت هذه التوبة فهي مرجوة إذن في أن يكفر الله بها السيئات . وأن يدخلهم الجنات . في اليوم الذي يخزي فيه الكفار كما هم في المشهد الذي سبق في السياق . ولا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه .

وإنه لإغراء مطمع ، وتكريم عظيم ، أن يضم الله المؤمنين إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فيجعلهم معه صفاً يتلقى الكرامة في يوم الخزي . ثم يجعل لهم نوراً « يسعى بين أيديهم وبأيمانهم » . نوراً يعرفون به في ذلك اليوم الهائل المائج العصيب الرهيب . ونوراً يهتدون به في الزحام المريع . ونوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم إلى الجنة في نهاية المطاف !

وهم في رهبة الموقف وشدته يلهمون الدعاء الصالح بين يدي الله : « يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا ، إنك على كل شيء قدير » .. وإلهامهم هذا الدعاء في هذا الموقف الذي يلجم الألسنة ويسقط القلوب ، هو علامة الاستجابة . فإلهام الله المؤمنين هذا الدعاء إلا وقد جرى قدره بأنه سيستجيب . فالدعاء هنا نعمة يمن بها الله عليهم تضاف إلى منة الله بالتكريم وبالنور .

فأين هذا من النار التي وقودها الناس والحجارة ؟

إن هذا الثواب ، كذلك العقاب ، كلاهما يصور تبعة المؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار ، وإنالتهم

هذا النعيم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

وفي ظلال ذلك الحادث الذي كان في بيوت النبي - صلى الله عليه وسلم - ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص .

إن المؤمن مكلف هداية أهله ، وإصلاح بيته ، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه .
إن الإسلام دين أسرة - كما أسلفنا في سورة الطلاق - ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته ، وواجبه في بيته .
والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة ، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي .. المجتمع الإسلامي ..

إن البيت الواحد قلعة من قلاع هذه العقيدة . ولا بد أن تكون القلعة متماسكة من داخلها حصينة في ذاتها ، كل فرد فيها يقف على ثغرة لا ينفذ إليها . وإلا تكن كذلك سهل اقتحام المعسكر من داخل قلاعه ، فلا يصعب على طارق ، ولا يستعصي على مهاجم !

وواجب المؤمن أن يتجه بالدعوة أول ما يتجه إلى بيته وأهله . واجبه أن يؤمن هذه القلعة من داخلها . واجبه أن يسد الثغرات فيها قبل أن يذهب عنها بدعوته بعيداً .

ولا بد من الأم المسلمة . فالأب المسلم وحده لا يكفي لتأمين القلعة . لا بد من أب وأم ليقوما كذلك على الأبناء والبنات . فعبثاً يحاول الرجل أن ينشئ المجتمع الإسلامي بمجموعة من الرجال . لا بد من النساء في هذا المجتمع فهن الحارسات على النشء ، وهو بذور المستقبل وثماره .

ومن ثم كان القرآن يتنزل للرجال وللنساء ؛ وكان ينظم البيوت ، ويقىمها على المنهج الإسلامي ، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ..
هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيداً . إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت . إلى الزوجة . إلى الأم . ثم إلى الأولاد ؛ وإلى الأهل بعامه . ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم . وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة . وإلا فسيأخر طويلاً بناء الجماعة الإسلامية . وسيظل البنيان متخاذلاً كثير الثغرات !

وفي الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر أيسر مما هو في أيامنا هذه .. كان قد أنشئ مجتمع مسلم - في المدينة - يهيم عليه الإسلام . يهيم عليه بتصوره النظيف للحياة البشرية ، ويهيم عليه بتشريعه المنبثق من هذا التصور . وكان المرجع فيه ، مرجع الرجال والنساء جميعاً ، إلى الله ورسوله . وإلى حكم الله وحكم رسوله . فإذا نزل الحكم فهو القضاء الأخير .. وبحكم وجود هذا المجتمع وسيطرة تصوره وتقاليده على الحياة كان الأمر سهلاً بالنسبة للمرأة لكي تصوغ نفسها كما يريد الإسلام . وكان الأمر سهلاً بالنسبة للأزواج كي ينصحوا نساءهم ويربوا أبناءهم على منهج الإسلام ..

نحن الآن في موقف متغير . نحن نعيش في جاهلية . جاهلية مجتمع . وجاهلية تشريع . وجاهلية أخلاق . وجاهلية تقاليد . وجاهلية نظم . وجاهلية آداب . وجاهلية ثقافة كذلك !!

والمرأة تتعامل مع هذا المجتمع الجاهلي ، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهم أن تلبى الإسلام ، سواء اهدت إليه بنفسها ، أو هداها إليه رجلها . زوجها أو أخوها أو أبوها ..

هناك كان الرجل والمرأة والمجتمع . كلهم . يتحاضرون إلى تصور واحد ، وحكم واحد ، وطابع واحد .

فأما هنا فالرجل يتحاكم إلى تصور مجرد لا وجود له في دنيا الواقع . والمرأة تنوء تحت ثقل المجتمع الذي يعادي ذلك التصور عداء الجاهلية الجامح ! وما من شك أن ضغط المجتمع وتقاليده على حس المرأة أضعاف ضعفه على حس الرجل !

وهنا يتضاعف واجب الرجل المؤمن . إن عليه أن يقي نفسه النار ! ثم عليه أن يقي أهله وهم تحت هذا الضغط الساحق والجذب العنيف !

فينبغي له أن يدرك ثقل هذا الواجب ليبدل له من الجهد المباشر أضعاف ما كان يبذله أخوه في الجماعة المسلمة الأولى . ويتعين حينئذ على من يريد أن ينشئ بيتاً أن يبحث أولاً عن حارسه للقلعة ، تستمد تصورها من مصدر تصوره هو .. من الإسلام .. وسيضحى في هذا بأشياء : سيضحى بالالتعاضد الكاذب في المرأة . سيضحى بخضراء الدمن ! سيضحى بالمظهر البراق للجيف الطافية على وجه المجتمع . ليبحث عن ذات الدين ، التي تعينه على بناء بيت مسلم ، وعلى إنشاء قلعة مسلمة ! ويتعين على الآباء المؤمنين الذين يريدون البعث الإسلامي أن يعلموا أن الخلايا الحية لهذا البعث وديعة في أيديهم وأن عليهم أن يتوجهوا إليهم وإليهم بالدعوة والتربية والإعداد قبل أي أحد آخر . وأن يستجيبوا لله وهو يدعوهم : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً » ، ونرجع الكرة - بهذه المناسبة - إلى طبيعة الإسلام التي تقتضي قيام الجماعة المسلمة التي يهيم عليها الإسلام ، والتي يتحقق فيها وجوده الواقعي . فهو مبني على أساس أن تكون هناك جماعة . الإسلام عقيدتها ، والإسلام نظامها ، والإسلام شريعته ، والإسلام منهجها الكامل الذي تستقي منه كل تصوراتها^١ .

هذه الجماعة هي المحضن الذي يحمي التصور الإسلامي ويحملة إلى النفوس ، ويحميها من ضغط المجتمع الجاهلي ، كما يحميها من فتنة الإيذاء سواء .

ومن ثم تتبين أهمية الجماعة المسلمة التي تعيش فيها الفتاة المسلمة والمرأة المسلمة ، محتمية بها من ضغط المجتمع الجاهلي حولها . فلا تتمزق مشاعرها بين مقتضيات تصورها الإسلامي وبين تقاليد المجتمع الجاهلي الضاغطة الساحقة . ويجد فيها الفتى المسلم شريكة في العيش المسلم ، أو في القلعة المسلمة ، التي يتألف منها ومن نظيراتها المعسكر الإسلامي .

إنها ضرورة - وليست نافلة - أن تقوم جماعة مسلمة ، تتواصى بالإسلام ، وتحتضن فكرته وأخلاقه وآدابه وتصوراتها كلها ، فتعيش بها فيما بينها ، وتعيش لها تحرسها وتحميها وتدعو إليها ، في صورة واقعية يراها من يدعون إليها من المجتمع الجاهلي الضال ليخرجوا من الظلمات إلى النور بإذن الله . إلى أن يأذن الله بهيمنة الإسلام . حتى تنشأ الأجيال في ظله ، في حماية من الجاهلية الضاربة الأطناب ..

وفي سبيل حماية الجماعة المسلمة الأولى كان الأمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمجاهدة أعدائها : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير » .. وهي لفظة لها معناها وقيمتها بعدما تقدم من أمر المؤمنين بوقاية أنفسهم وأهليهم من النار . وبالتوبة النصوح التي تكفر عنهم السيئات وتدخلهم الجنة تجري من تحتها الأنهار ..

لها معناها وقيمتها في ضرورة حماية المحضن الذي تم فيه الوقاية من النار . فلا تترك هذه العناصر المفسدة

الجائرة الظالمة ، تهاجم المعسكر الإسلامي من خارجه كما كان الكفار يصنعون . أو تهاجمه من داخله كما كان المنافقون يفعلون .

وتتجمع الآية بين الكفار والمنافقين في الأمر بجهادهم والغلبة عليهم . لأن كلا من الفريقين يؤدي دوراً مماثلاً في تهديد المعسكر الإسلامي ، وتحطيمه أو تفتيته . فجهادهم هو الجهاد الواقى من النار . وجزاؤهم هو الغلبة عليهم من رسول الله والمؤمنين في الدنيا .

« ومأواهم جهنم وبئس المصير » في الآخرة !

وهكذا تتناسق هذه الجولة فيما بين آياتها واتجاهاتها ؛ كما تتناسق بجملتها مع الجولة الأولى في السياق ..

* * *

ثم نجيء الجولة الثالثة والأخيرة . وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى . إذ نتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء . ونساء مؤمنات في وسط كفار :

« ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين .. وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين . ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه . وكانت من القانتين .. والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط ، أنها كانت خيانة في الدعوة ، وليست خيانة الفاحشة . امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساعين من قومه ؛ وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه !

والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة في قصره - ولعلها كانت أسبوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى . وقد ورد في التاريخ أن أم « أمنحوتب الرابع » الذي وحد الآلهة في مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس ، وسمى نفسه « إخناتون » .. كانت أسبوية على دين غير دين المصريين .. والله أعلم إن كانت هي المقصودة في هذه السورة أم إنها امرأة فرعون موسى .. وهو غير « أمنحوتب » هذا ..

ولا يعيننا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون . فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص . والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة ..

إن مبدأ التبعية الفردية يراد إبرازه هنا ، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار . كما يراد أن يقال لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - وأزواج المؤمنين كذلك : إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء . فهن مسؤولات عن ذواتهن ، ولن يعفيهن من التبعية أنهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين !

وها هي ذي امرأة نوح . وكذلك امرأة لوط . « كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين » .. « فخانتاهما » .. « فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً » .. « وقيل : ادخلا النار مع الداخلين » ..

فلا كرامة ولا شفاعاة في أمر الكفر والإيمان . وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء !

وها هي ذي امرأة فرعون ، لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه .. في قصر فرعون .. عن طلب النجاة وحدها .. وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة . وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه . وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به : « ونجني من فرعون

وعمله .. وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم : « ونجني من القوم الظالمين » .. ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صوره . فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ . في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي .. ولكنها استعلت على هذا بالإيمان . ولم تعرض عن هذا العرض فحسب ، بل اعتبرته شراً وذنساً وبلاء تستعيز بالله منه ، وتفتلت من عقابيله ، وتطلب النجاة منه !

وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية .. وهذا فضل آخر عظيم . فالمرأة - كما أسلفنا - أشد شعوراً وحساسية بوطأة المجتمع وتصورات . ولكن هذه المرأة .. وحدها .. في وسط ضغط المجتمع ، وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، والمقام الملوكي . في وسط هذا كله رفعت رأسها إلى السماء .. وحدها .. في خضم هذا الكفر الطاغوي !

وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر ، وكل هذه المعوقات ، وكل هذه الهواتف . ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد . الذي تتردد كلماته في جنبات الكون وهي تنزل من الملأ الأعلى ..

« ومريم ابنة عمران » .. إنها كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور أخرى . ويذكر هنا تطهرها : « التي أحصنت فرجها » .. يرثها مما رمتها به يهود الفاجرة ! « فنفضنا فيه من روحنا » . ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام ، كما هو مفصل في السورة المفصلة لهذا المولد « سورة مريم » فلا نستطرد معه هنا تمشياً مع ظل النص الحاضر ، الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » ..

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر . بسبب ملاسبات حياتها التي أشرنا إليها . وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضربهما الله لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة ، ويضربهما للمؤمنات من بعد في كل جيل ..

* * *

وأخيراً فإن هذه السورة - وهذا الجزء كله - قطعة حية من السيرة ، رسمها القرآن بأسلوبه الموحى . لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها . فالتعبير القرآني أكثر إichاء ، وأبعد آماداً ، وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان .. كما هو شأن القرآن ..

* * *

انتهى الجزء الثامن والعشرون
ويليه الجزء التاسع والعشرون
مبدوءاً بسورة تبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ سُورَةِ الْمُلْكِ

إِلَى سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ

الجزء التاسع والعشرون

(٦٧) سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ (٤)

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَدِّحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ۝ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ (٦) إِذَا الْقَوَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ۖ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ (٨) قَالُوا بَلَىٰ ۖ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ ۖ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ (١١)

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ (١٢)

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ۝ (١٥) ءَأَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ۝ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ ۝ (١٨)

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي بَرَزُوكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقُكُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَبَعَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

هذا الجزء كله من السور المكية . كما كان الجزء الذي سبقه كله من السور المدنية . ولكل منهما طابع مميز ، وطعم خاص . . . وبعض مطالع السور في هذا الجزء من بواكير ما نزل من القرآن كمطلع سورة « المدثر » ومطلع سورة « المزمل » . كما أن فيه سوراً يحتمل أن تكون قد نزلت بعد البعثة بحوالي ثلاث سنوات كسورة « القلم » . وبحوالي عشر سنوات كسورة « الجن » التي يروى أنها نزلت في عودة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ، حيث أودى من ثقيف . ثم صرف الله إليه نفراً من الجن فاستمعوا إليه وهو يرتل القرآن ، مما حكته سورة الجن في هذا الجزء . وكانت هذه الرحلة بعد وفاة خديجة وأبي طالب قبيل الهجرة بعام أو عامين . وإن كانت هناك رواية أخرى هي الأرجح بأن السورة نزلت في أوائل البعثة .

والقرآن المكي يعالج - في الغالب - إنشاء العقيدة . في الله وفي الوحي ، وفي اليوم الآخر . وإنشاء التصور المنبثق من هذه العقيدة لهذا الوجود وعلاقته بخالقه . والتعريف بالخالق تعريفاً يجعل الشعور به حياً في القلب ، مؤثراً موجهاً موحياً بالمشاعر اللاتفة بعبد يتجه إلى رب ، وبالأدب الذي يلزمه العبد مع الرب ، وبالقيم والموازين التي يزن بها المسلم الأشياء والأحداث والأشخاص . وقد رأينا نماذج من هذا في السور المكية السابقة ، وسنرى نماذج منه في هذا الجزء .

والقرآن المدني يعالج - في الغالب - تطبيق تلك العقيدة وذاك التصور وهذه الموازين في الحياة الواقعية ؛

وحمل النفوس على الاضطلاع بأمانة العقيدة والشرعية في معترك الحياة ، والنهوض بتكاليفها في عالم الضمير وعالم الظاهر سواء . وقد رأينا تماذج من هذا في السور المدنية السابقة ومنها سور الجزء الماضي .

* * *

وهذه السورة الأولى - سورة تبارك - تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود . تصور واسع شامل يتجاوز عالم الأرض الضيق وحيز الدنيا المحدود ، إلى عوالم في السماوات ، وإلى حياة في الآخرة . وإلى خلقات أخرى غير الإنسان في عالم الأرض كالجن والطير ، وفي العالم الآخر كجهنم وخزتها . وإلى عوالم في الغيب غير عالم الظاهر تعلق بها قلوب الناس ومشاعرهم ، فلا تستغرق في الحياة الحاضرة الظاهرة ، في هذه الأرض . كما أنها تثير في حسهم التأمل فيما بين أيديهم وفي واقع حياتهم وذواتهم مما يمرون به غافلين .

وهي تهز في النفوس جميع الصور والانطباعات والرواسب الجامدة الهامدة المتخلفة من تصور الجاهلية وركودها ؛ وتفتح المنافذ هنا وهناك ، وتنفض الغبار ، وتطلق الحواس والعقل والبصيرة ترتاد آفاق الكون ، وأغوار النفس ، وطباق الجو ، ومسارب الماء ، وخفايا الغيوب ، فتري هناك يد الله المبدعة ، وتحس حركة الوجود المنبعثة من قدرة الله . وتؤوب من الرحلة وقد شعرت أن الأمر أكبر ، وأن المجال أوسع . وتحولت من الأرض - على سعتها - إلى السماء . ومن الظواهر إلى الحقائق . ومن الجمود إلى الحركة . مع حركة القدر ، وحركة الحياة ، وحركة الأحياء .

الموت والحياة أمران مألوفان مكروران . ولكن السورة تبعث حركة التأمل فيما وراء الموت والحياة من قدر الله وبلائه ، ومن حكمة الله وتديبره : « الذي خلق الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » .

والسما خلق ثابت أمام الأعين الجاهلة لا تتجاوزه إلى اليد التي أبدعته ، ولا تلتفت لما فيه من كمال . ولكن السورة تبعث حركة التأمل والاستغراق في هذا الجمال والكمال وما وراءها من حركة وأهداف : « الذي خلق سبع سماوات طباقاً . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .. ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين .. » .

والحياة الدنيا تبدو في الجاهلية غاية الوجود ، ونهاية المطاف . ولكن السورة تكشف الستار عن عالم آخر هو حاضر للشياطين وللكافرين . وهو خلق آخر حافل بالحركة والتوفر والانتظار : « وأعتدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ . كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ؛ إن أئتم إلا في ضلال كبير وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ! » .

والنفوس في الجاهلية لا تكاد تتجاوز هذا الظاهر الذي تعيش فيه ، ولا تلقي بالاً إلى الغيب وما يحتويه . وهي مستغرقة في الحياة الدنيا محبوسة في قفص الأرض الثابتة المستقرة . فالسورة تشد قلوبهم وأنظارهم إلى الغيب وإلى السماء وإلى القدرة التي لم ترها عين ، ولكنها قادرة تفعل ما تشاء حيث تشاء وحين تشاء ؛ وتهز في حسهم هذه الأرض الثابتة التي يطمثنون إليها ويستغرقون فيها « إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير . وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه علم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ هو الذي جعل لكم الأرض

ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور. أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور؟ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً؟ فستعلمون كيف نذير» ..

والطير. إنه خلق يروونه كثيراً ولا يتدبرون معجزته إلا قليلاً. ولكن السورة تمسك بأبصارهم لتنظر وبقلوبهم لتتدبر، وترى قدرة الله الذي صور وقدر: «أولم يروا إلى الطير فوقهم صفات ويقبضن؟ ما يمسكهن إلا الرحمن، إنه بكل شيء بصير».

وهم آمنون في دارهم، مطمئنون إلى مكانهم، طمأنينة الغافل عن قدرة الله وقدره. ولكن السورة تهزم من هذا السبات النفسي، بعد أن هزت الأرض من تحتهم وأثارت الجومن حولهم، تهزم على قهر الله وجبروته الذي لا يحسبون حسابه: «أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن؟ إن الكافرون إلا في غرور».

والرزق الذي تناله أيديهم، إنه في حسم قريب الأسباب، وهي بينهم تنافس وغلاب. ولكن السورة تمد أبصارهم بعيداً هنالك في السماء، ووراء الأسباب المعلومة لهم كما يظنون: «أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه؟ بل لجوا في عتو ونفور» ..

وهم سادرون في غيهم يحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون. فالسورة ترسم لهم حقيقة حالهم وحال المهتدين حقاً، في صورة متحركة موحية: «أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم؟».

وهم لا ينتفعون بما رزقهم الله في ذوات أنفسهم من استعدادات ومدارك؛ ولا يتجاوزون ما تراه حواسهم إلى التدبر فيما وراء هذا الواقع القريب. فالسورة تذكرهم بنعمة الله فيما وهبهم، وتوجههم إلى استخدام هذه الهبة في تنوير المستقبل المغيّب وراء الحاضر الظاهر، وتدبر الغاية من هذه البداية: «قل: هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون. قل: هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون» ..

وهم يكذبون بالبعث والحشر، ويسألون عن مواعده. فالسورة تصوره لهم واقعاً مفاجئاً قريباً يسوؤهم أن يكون: «ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل إنما العلم عند الله، وإنما أنا نذير مبين. فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا، وقيل: هذا الذي كنتم به تدعون!» ..

وهم يتر بصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه أن يهلكوا فيستريحوا من هذا الصوت الذي يقض عليهم مضجعهم بالتذكير والتحذير والإيقاظ من راحة الجمود! فالسورة تذكرهم بأن هلاك الحفنة المؤمنة أو بقاءها لا يؤثر فيما ينتظرهم هم من عذاب الله على الكفر والتكذيب، فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم وحالهم قبل ذلك اليوم العصيب: «قل: أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أورشنا فن يجر الكافرين من عذاب أليم؟ قل: هو الرحمن آمناً به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين».

وتنذرهم السورة في ختامها بتوقع ذهاب الماء الذي به يعيشون، والذي يجريه هو الله الذي به يكفرون! «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين؟» ..

إنها حركة. حركة في الحواس، وفي الحس، وفي التفكير، وفي الشعور.

* * *

ومفتاح السورة كلها، ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها، هو مطلعها الجامع الموحى:

« تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » ..

وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة ، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نهبت القلوب إليها ..

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة ، وكان الابتلاء بهما . وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين . وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها . وكان العلم بالسر والجر . وكان جعل الأرض ذلولاً للبشر . وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين . وكان إمساك الطير في السماء . وكان القهر والاستعلاء . وكان الرزق كما يشاء . وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة . وكان الذرة في الأرض والحشر . وكان الاختصاص بعلم الآخرة . وكان عذاب الكافرين . وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد ..

فكل حقائق السورة وموضوعاتها ، وكل صورها وإيحاءاتها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير : « تبارك الذي بيده الملك ، وهو على كل شيء قدير » !!
وحقائق السورة وإيحاءاتها تتوالى في السياق ، وتتدفق بلا توقف ، مفسرة مدلول المجلد الشامل ، مما يصعب معه تقسيمها إلى مقاطع ! ويستحسن معه استعراضها في سياقها بالتفصيل :

* * *

« تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » ..

هذه التسيبحة في مطلع السورة توحى بزيادة بركة الله ومضاعفتها ، وتمجيد هذه البركة الربانية الفائضة . وذكر الملك بجوارها يوحى بفيض هذه البركة على هذا الملك ، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية . وهي ترنيمة تتجاوب بها أرجاء الوجود ، ويعمر بها قلب كل موجود . وهي تنطلق من النطق الإلهي في كتابه الكريم ، من الكتاب المكنون ، إلى الكون المعلوم .

« تبارك الذي بيده الملك » .. فهو المالك له ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه .. وهي حقيقة . حين تستقر في الضمير تحدد له الوجهة والمصير ؛ وتخليه من التوجه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك ؛ كما تخليه من العبودية والعبادة لغير المالك الواحد ، والسيد الفريد ! « وهو على كل شيء قدير » .. فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء ، ولا يحد مشيئته شيء . يخلق ما يشاء ، ويفعل ما يريد ، وهو قادر على ما يريده غالب على أمره ؛ لا تتعلق بإرادته حدود ولا قيود .. وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال ! فقدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال .. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبدل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود . فهذه الحقيقة تطلق حسهم من هذا الإسار . فيتوقعون من قدرة الله كل شيء بلا حدود . ويكفون لقدرة الله كل شيء بلا قيود . وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود .

* * *

« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور » ..

ومن آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له ، وآثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته .. أنه خلق الموت

والحياة . والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها . والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة . وكلها من خلق الله كما تقرر هذه الآية ، التي تنشئ هذه الحقيقة في التصور الإنساني ، وتثير إلى جانبها اليقظة لما وراءها من قصد وابتلاء . فليست المسألة مصادفة بلا تدير . وليست كذلك جزافاً بلا غاية . إنما هو الابتلاء لإظهار المكنون في علم الله من سلوك الأناسي على الأرض ، واستحقاقهم للجزاء على العمل : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » .. واستقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقطاً حذراً متلفتاً واعياً للصغيرة والكبيرة في النية المستسرة والعمل الظاهر . ولا يدعه يغفل أو يلهو . كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح . ومن ثم يجيء التعقيب : « وهو العزيز الغفور » ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرضى الله ويخشاه . فالله عزيز غالب ولكنه غفور مسامح . فإذا استيقظ القلب ، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار ، وحذر وتوقى ، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح !

إن الله في الحقيقة التي يصورها الإسلام لتستقر في القلوب ، لا يطارد البشر ، ولا يعتهم ، ولا يحب أن يعذبهم . إنما يريد لهم أن يتقظوا لغاية وجودهم ؛ وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم ؛ وأن يحققوا تكريم الله لهم بنفخة روحه في هذا الكيان وتفصيله على كثير من خلقه . فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة والعون الكبير والساحة الواسعة والعفو عن كثير .

* * *

ثم يربط هذه الحقيقة بالكون كله في أكبر وأرفع مجاليه ؛ كما يربط به من الناحية الأخرى حقيقة الجزاء في الآخرة ، بعد الابتلاء بالموت والحياة :

« الذي خلق سبع سماوات طباقاً ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ، وجعلناها رجوماً للشياطين ، وأعدنا لهم عذاب السعير . وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ، وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ، كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شيء ، إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ! » .

وكل ما في هذه الآيات آثاراً لمدلول الآية الأولى ، ومظاهر للهيمنة المتصرف في الملك ، وللقدرة التي لا يقيد قيد . ثم هي بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء ، ثم الجزاء ..

والسماوات السبع الطباق التي تشير إليها الآية لا يمكن الجزم بمدلولها ، استقاء من نظريات الفلك ، فهذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح ، كلما تقدمت وسائل الرصد والكشف . ولا يجوز تعليق مدلول الآية بمثل هذه الكشوف القابلة للتعديل والتصحيح . ويكفي أن نعرف أن هناك سبع سماوات . وأنها طباق بمعنى أنها طبقات على أبعاد متفاوتة .

والقرآن يوجه النظر إلى خلق الله ، في السماوات بصفة خاصة وفي كل ما خلق بصفة عامة . يوجه النظر إلى خلق الله ، وهو يتحدى بكماله كمالاً يرد البصر عاجزاً كليلاً مبهوراً مدهوشاً .

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .. فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب .. « فارجع البصر » .. وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت « هل ترى من فطور ؟ » .. وهل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل ؟ ثم

ارجع البصر كرتين « فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تبينه ، فأعد النظر ثم أعد « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير » ..

وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله . وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأمل المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها . فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق ، الذي لا تشبع العين من تملي جماله وروعته ، ولا يشبع القلب من تلقي إبحاءاته وإيماءاته ؛ ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته . والذي يعيش منه من يتأمله بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع ، لا تخلق بدائعه ، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل .

والذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - يدركه الدهش والذهول . ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم . فمن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل ؛ فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل الجميل تلقياً مباشراً حين يتفتح ويستشرف . ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي ؛ قبل أن يعلم بفكره وبأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب .

ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر في هذا الكون ، وإلى تملي مشاهدته وعجائبه . ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً ، وفي كل عصر . يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء ، كما يخاطب ساكن المدينة ورائد البحار . وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفاً ، كما يخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء . وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون ، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع . والجمال في تصميم هذا الكون مقصود كالكمال . بل إنهما اعتباران لحقيقة واحدة . فالكمال يبلغ درجة الجمال . ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السماوات بعد أن وجه النظر إلى كمالها :

« ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » ..

وما السماء الدنيا ؟ لعلها هي الأقرب إلى الأرض وسكانها المخاطبين بهذا القرآن . ولعل المصابيح المشار إليها هنا هي النجوم والكواكب الظاهرة للعين ، التي نراها حين ننظر إلى السماء . فذلك يتسق مع توجيه المخاطبين إلى النظر في السماء . وما كانوا يملكون إلا عيونهم ، وما تراه من أجرام مضيئة تزين السماء . ومشهد النجوم في السماء جميل . ما في هذا شك . جميل جمالاً يأخذ بالقلوب . وهو جمال متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته ؛ ويختلف من صباح إلى مساء ، ومن شروق إلى غروب ، ومن الليلة القمرية إلى الليلة الظلماء . ومن مشهد الصفاء إلى مشهد الضباب والسحاب .. بل إنه ليختلف من ساعة لساعة . ومن مرصد لمرصد . ومن زاوية لزاوية .. وكله جمال وكله يأخذ بالألباب .

هذه النجمة الفريدة التي توصف هناك ، وكأنها عين جميلة ، تلتعج بالمحبة والنداء !

وهاتان النجمتان المفردتان هناك ، وقد خلصتا من الزحام تنتاجيان !

وهذه المجموعات المتضاممة المتناثرة هنا وهناك ، وكأنها في حلقة سمر في مهرجان السماء . وهي تجتمع وتفترق كأنها رفاق ليلة في مهرجان !

وهذا القمر الحالم الساهي ليلة . والزاهي المزهو ليلة . والمنكسر الخفيض ليلة . والوليد المتفتح للحياة ليلة . والفاني الذي يدلف للفناء ليلة .. !

وهذا الفضاء الواسع الذي لا يمل البصر امتداده ، ولا يبلغ البصر آماده .
إنه الجمال . الجمال الذي يملك الإنسان أن يعيشه ويتملاه ، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ
والعبارات !

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء ، وإلى جمال الكون كله ، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق
وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود . وهذا الإدراك هو الذي يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه ، لأنه
حينئذ يصل إلى النقطة التي يتهاى فيها للحياة الخالدة ، في عالم طليق جميل ، بريء من شوائب العالم الأرضي
والحياة الأرضية . وإن أسعد لحظات القلب البشري لمي اللحظات التي يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي في
الكون . ذلك أنها هي اللحظات التي تهيئه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه .

* * *

ويذكر النص القرآني هنا أن هذه المصاييح التي زين الله السماء الدنيا بها هي كذلك ذات وظيفة أخرى :
« وجعلناها رجوماً للشياطين » ..

وقد جرينا في هذه الظلال على قاعدة ألا نتزيد بشيء في أمر الغيبيات التي يقص الله علينا طرفاً من خبرها ؛
وأن نقف عند حدود النص القرآني لا نتعدها . وهو كاف بذاته لإثبات ما يعرض له من أمور .

فنحن نؤمن أن هناك خلقاً اسمهم الشياطين ، وردت بعض صفاتهم في القرآن ، وسبقت الإشارة إليها في
هذه الظلال ، ولا نزيد عليها شيئاً ونحن نؤمن أن الله جعل من هذه المصاييح التي تزين السماء الدنيا رجوماً
للشياطين ، في صورة شهب كما جاء في سورة أخرى : « وحفظاً من كل شيطان مارد » ... « إلا من خطف الخطفة
فأتبعه شهاب ثاقب » .. كيف ؟ من أي حجم ؟ في أية صورة ؟ كل ذلك لم يقل لنا الله عنه شيئاً ، وليس
لنا مصدر آخر يجوز استفتاؤه في مثل هذا الشأن . فلنعلم هذا وحده ولتؤمن بوقوعه . وهذا هو المقصود . ولو علم
الله أن هناك خيراً في الزيادة أو الإيضاح أو التفصيل لفصل سبحانه . فمالنا نحن نحاول ما لم يعلم الله أن فيه
خيراً ؟ : في مثل هذا الأمر . أمر رجم الشياطين ؟ !

ثم يستطرد فيما أعده الله للشياطين غير الرجوم :

« وأعدنا لهم عذاب السعير » ..

فالرجوم في الدنيا وعذاب السعير في الآخرة لأولئك الشياطين . ولعل مناسبة ذكر هذا ، الذي أعده الله للشياطين
في الدنيا والآخرة هي ذكر السماء أولاً ، ثم ما يجيء بعد من ذكر الذين كفروا . والعلاقة بين الشياطين والذين
كفروا علاقة ملحوظة . فلما ذكر مصاييح السماء ذكر اتخاذها رجوماً للشياطين . ولما ذكر ما أعد للشياطين
من عذاب السعير ذكر بعده ما أعده للذين كفروا من أتباع هؤلاء الشياطين :

« وللذين كفروا برهم عذاب جهنم وبئس المصير » ..

ثم يرسم مشهداً لجهنم هذه ، وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديد :

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » ..

وجهنم هنا مخلوقة حية ، تكظم غيظها ، فترتفع أنفاسها في شهيق وتفور ؛ وبملاً جوانحها الغيظ فتكاد تتمزق
من الغيظ الكظيم وهي تنطوي على بغض وكره يبلغ إلى حد الغيظ والحنق على الكافرين !
والتعبير في ظاهره يبدو مجازاً تصويرياً لحالة جهنم . ولكنه - فيما نحس - يقرر حقيقة . فكل خليفة من خلائق

الله حبة ذات روح من نوعها . وكل خليفة تعرف ربها وتسيح بحمده ؛ وتدهش حين ترى الإنسان يكفر بخالقه ، وتنغيظ لهذا الجحود المنكر الذي تنكره فطرتها وتنفر منه روحها . وهذه الحقيقة وردت في القرآن في مواضع شتى تشعر بأنها تقرر حقيقة مكنونة في كل شيء في هذا الوجود .

فقد جاء بصريح العبارة في القرآن : « تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . . . وورد كذلك : « يا جبال أوبي معه والطير » . . . وهي تعبيرات صريحة مباشرة لا مجال فيها للتأويل .

كذلك ورد « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أتينا طائعين » . . . مما يحتمل أن يقال فيه إنه مجاز تصويري لحقيقة خضوع السماء والأرض لناموس الله . ولكن هذا التأويل لا ضرورة له . بل هو أبعد من المعنى المباشر الصريح .

ووردت صفة جهنم هذه . كما ورد في موضع آخر تعبير عن دهشة الكائنات وغيظها للشرك بربها : « لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض ، وتخرب الجبال هدأً ، أن دعوا للرحمن ولداً ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً » . . .

وكل هذه النصوص تشير إلى حقيقة ، حقيقة إيمان الوجود كله بخالقه ، وتسبيح كل شيء بحمده . ودهشة الخلائق وارتياحها لشذوذ الإنسان حين يكفر ، ويشذ عن هذا الموكب ؛ وتحفز هذه الخلائق للانقضاض على الإنسان في غيظ وحنق ؛ كالذي يطعن في عزيز عليه كريم على نفسه ، فيغتاض ويحنق ، ويكاد من الغيظ يتمزق . كما هو حال جهنم وهي : « تفور . تكاد تميز من الغيظ ! » .

كذلك نلمح هذه الظاهرة في خزنة جهنم :

« كلما أُلتي فيها فوج سألهم خزنتها . ألم يأتكم نذير ؟ » . . .

وواضح أن هذا السؤال في هذا الموضع هو للتأنيب والترذيل . فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق . كما هي مشاركة لها في التعذيب ، وليس أمر من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

والجواب في ذلة وانكسار واعتراف بالحق والغفلة ، بعد التبعج والإنكار واتهام الرسل بالضللال :

« قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير فكذبنا ، وقلنا : ما نزل الله من شيء . إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ! » . . .

فالذي يسمع أو يعقل ، لا يورد نفسه هذا المورد الوبيء . ولا يحجد بمثل ما جحد به أولئك المناكيد . ولا يسارع باتهام الرسل بالضللال على هذا النحو المتبعج الوقح ، الذي لا يستند في الإنكار إلى دليل . ثم ينكر ويدعي ذلك الادعاء العريض على رسل الله الصادقين يقول : « ما نزل الله من شيء : إن أنتم إلا في ضلال كبير ! » فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » . . .

والسحق البعد . وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه . والدعاء من الله قضاء . فهم مبعدون من رحمته . لا رجاء لهم في مغفرة ، ولا إقالة لهم من عذاب . وهم أصحاب السعير الملازمون له . ويا لها من صعبة ! ويا له من مصير !

وهذا العذاب ، عذاب السعير ، في جهنم التي تشق بأنفاسها وهي تفور ، عذاب شديد مروع حقاً . والله لا يظلم أحداً . ونحسب - والله أعلم - أن النفس التي تكفر بربها - وقد أودع فطرتها حقيقة الإيمان ودليله - هي

نفس فرغت من كل خير . كما فرغت من كل صفة تجعل لها اعتباراً في الوجود ، فهي كالحجر الذي توقد به جهنم . وقد انتهت إلى نكسة وارتكاس مكانها هذه النار ، إلى غير نجاة منها ولا فرار !

والنفس التي تكفر بالله في الأرض تظل تنكس وترتكس في كل يوم تعيشه ، حتى تنتهي إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة ، صورة منكرة جهنمية نكيرة . صورة لا يماثلها شيء في هذا الكون في بشاعتها ومسختها وشناعتها . فكل شيء روحه مؤمنة ، وكل شيء يسبح بحمده ، وكل شيء فيه هذا الخير ، وفيه هذه الوشيجة التي تشده إلى محور الوجود . . ما عدا هذه النفوس الشاردة المفلتة من أوامر الوجود ، الآبدة الشريرة ، الجاسية المسوخة النفور . فأَي مكان في الوجود كله تنتهي إليه ، وهي مبتوتة الصلة بكل شيء في الوجود ؟ إنها تنتهي إلى جهنم المتغيظة المتلمظة ، الحارقة ، المهذرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ؛ بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة !

والمألوف في سياق القرآن أن يعرض صفحتين متقابلتين في مشاهد القيامة . فهو يعرض هنا صفحة المؤمنين في مقابل صفحة الكافرين ، تنمة لدلول الآية الثانية في السورة : « ليلوكم أيكم أحسن عملاً » . . بذكر الجزء بعد ذكر الابتلاء :

« إن الذين يخشون ربهم بالغيب ، لهم مغفرة وأجر كبير » . .

والغيب المشار إليه هنا يشمل خشيتهم لربهم الذي لم يروه ، كما يشمل خشيتهم لربهم وهم في خفية عن الأعين ، وكلاهما معنى كبير ، وشعور نظيف ، وإدراك بصير . يؤهل لهذا الجزء العظيم الذي يذكره السياق في إجمال : وهو المغفرة والتكفير ، والأجر الكبير .

ووصل القلب بالله في السر والخفية ، وبالغيب الذي لا تطلع عليه العيون ، هو ميزان الحساسية في القلب البشري وضمانة الحياة للضمير . . قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقتك كنا على غيره . قال : « كيف أنتم وربيكم ؟ » قالوا : الله ربنا في السر والعلانية . قال : « ليس ذلكم النفاق » . .

فالصلة بالله هي الأصل . فتى انعقدت في القلب فهو مؤمن صادق موصول .

* * *

وهذه الآية السابقة تربط ما قبلها في السياق بما بعدها ، في تقرير علم الله بالسر والجهر ، وهو يتحدى البشر وهو الذي خلق نفوسهم ، ويعلم مداخلها ومكامنها ، التي أودعها إياها :

« وأسروا قولكم أو أجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق ؛ وهو اللطيف الخبير ؟ » . أسروا أو أجهروا فهو مكشوف لعلم الله سواء . وهو يعلم ما هو أخفى من الجهر والسر . « إنه عليم بذات الصدور » التي لم تفارق الصدور ! عليم بها ، فهو الذي خلقها في الصدور ، كما خلق الصدور ! « ألا يعلم من خلق ؟ » ألا يعلم وهو الذي خلق ؟ « وهو اللطيف الخبير ؟ » الذي يصل علمه إلى الدقيق الصغير والخفي المستور .

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أوسر أو نية في الضمير ، يبدوون مضحكين ! فالضمير الذي يخفون فيه نيتهم من خلق الله ، وهو يعلم دروبه وخفائاه . والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه وهو يعلمها ويعلم أين تكون . فإذا يخفون ؟ وأين يستخفون ؟

والقرآن يعنى بتقرير هذه الحقيقة في الضمير . لأن استقرارها فيه ينشئ له إدراكاً صحيحاً للأمور . فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى ، تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في هذه الأرض . أمانة العقيدة وأمانة العدالة ، وأمانة التجرد لله في العمل والنية . وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سرورية هو من خلق الله الذي يعلمه الله . وهو اللطيف الخبير . .

عندئذ يتقي المؤمن النية المكنونة ، والهاجس الدفين ، كما يتقي الحركة المنظورة ، والصوت الجهر . وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر ، الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور .

* * *

ثم ينتقل بهم السياق من ذوات أنفسهم التي خلقها الله ، إلى الأرض التي خلقها لهم ، وذلكها وأودعها أسباب الحياة :

« هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » . .

والناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض ؛ وسهولة استقرارهم عليها ، وسيرهم فيها ، واستغلالهم لثربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعاً . . ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها . والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة ، ويبصرهم بها ، في هذا التعبير الذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول .

والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى ، هذه الأرض المذلة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة ، وبالفلك التي تمخر البحار . والمذلة للزرع والجني والحصاد . والمذلة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات .

وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم - فيما اهتدى إليه حتى اليوم - تفصيلاً يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك .

فما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف : « ذلولاً » . . الذي يطلق عادة على الدابة ، مقصود في إطلاقه على الأرض ! فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة ، هي دابة متحركة . . بل راحمة راکضة مهطعة !! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها ، ولا تتعثر خطاها ، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول !

إن هذه الدابة التي نركبها تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة ، ثم تدور مع هذا حول الشمس بسرعة حوالي خمسة وستين ألف ميل في الساعة . ثم تركض هي والشمس والمجموعة الشمسية كلها بمعدل عشرين ألف ميل في الساعة ، مبتعدة نحو برج الجبار في السماء . . ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً مطمئناً معافى لا تتمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلائه ، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ ، ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول !

وهذه الحركات الثلاث لها حكمة . وقد عرفنا أثرائتين منها في حياة هذا الإنسان ، بل في الحياة كلها على ظهر هذه الأرض . فدورة الأرض حول نفسها هي التي ينشأ عنها الليل والنهار . ولو كان الليل سرمداً لجمدت الحياة كلها من البرد ، ولو كان النهار سرمداً لاحتقرت الحياة كلها من الحر . . ودورتها حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول . ولو دام فصل واحد على الأرض ما قامت الحياة في شكلها هذا كما أرادها الله . أما الحركة الثالثة -

فلم يكشف ستار الغيب عن حكمته بعد . ولا بد أن لها ارتباطاً بالتناسق الكوني الكبير .
وهذه الدابة الذلول التي تتحرك كل هذه الحركات الهائلة في وقت واحد ، ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة - يحدده ميل محورها بمقدار ٢٣,٥° لأن هذا الميل هو الذي تنشأ عنه الفصول الأربعة مع حركة الأرض حول الشمس ، والذي لو اختلف في أثناء الحركة لاختلت الفصول التي ترتب عليها دورة النبات بل دورة الحياة كلها في هذه الحياة الدنيا !

والله جعل الأرض ذلولاً للبشر بأن جعل لها جاذبية تشدهم إليها في أثناء حركاتها الكبرى ، كما جعل لها ضغطاً جويّاً يسمح بسهولة الحركة فوقها . ولو كان الضغط الجوي أثقل من هذا لتعذر أو تعسر على الإنسان أن يسير ويتنقل - حسب درجة ثقل الضغط - فإما أن يسحقه أو يعوقه . ولو كان أخف لاضطربت خطى الإنسان أو لانفجرت تجاويفه لزيادة ضغطه الذاتي على ضغط الهواء حوله ، كما يقع لمن يرتفعون في طبقات الجو العليا بدون تكييف لضغط الهواء !

والله جعل الأرض ذلولاً ببسط سطحها وتكوين هذه التربة اللينة فوق السطح . ولو كانت صخوراً صلبة - كما يفترض العلم بعد برودها وتجمدها - لتعذر السير فيها ، ولتعذر الإنبات . ولكن العوامل الجوية من هواء وأمطار وغيرها هي التي فتت هذه الصخور الصلبة ، وأنشأ الله بها هذه التربة الخصبة الصالحة للحياة . وأنشأ ما فيها من النبات والأرزاق التي يحلبها راكبو هذه الدابة الذلول !

والله جعل الأرض ذلولاً بأن جعل الهواء المحيط بها محتويّاً للعناصر التي تحتاج الحياة إليها ، بالنسب الدقيقة التي لو اختلفت ما قامت الحياة ، وما عاشت إن قدر لها أن تقوم من الأساس . فنسبة الأكسجين فيه هي ٢١٪ تقريباً ونسبة الأزوت أو النترجين هي ٧٨٪ تقريباً والبقية من ثاني أكسيد الكربون بنسبة ثلاثة أجزاء من عشرة آلاف وعناصر أخرى . وهذه النسب هي اللازمة بالضبط لقيام الحياة على الأرض !

والله جعل الأرض ذلولاً بآلاف من هذه الموافقات الضرورية لقيام الحياة .. ومنها حجم الأرض وحجم الشمس والقمر ، وبعد الأرض عن الشمس والقمر . ودرجة حرارة الشمس . وسماك قشرة الأرض . ودرجة سرعتها . وميل محورها . ونسبة توزيع الماء واليابس فيها . وكثافة الهواء المحيط بها .. إلى آخره .. إلى آخره . وهذه الموافقات مجتمعة هي التي جعلت الأرض ذلولاً . وهي التي جعلت فيها رزقاً ، وهي التي سمحت بوجود الحياة ، وبحياة هذا الإنسان على وجه خاص .

والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق ، وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته ، ليشعر بيد الله - الذي بيده الملك - وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله ، وتدلل له الأرض ، وتحفظه وتحفظها . ولوترأخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وما عليه ! فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي في مناكبها والأكل من رزقه فيها :
« فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » .

والمناكب المرتفعات ، أو الجوانب . وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى . فتى أذن له في الشمس منها فقد أذن له في الذلول !

والرزق الذي فيها كله من خلقه ، وكله من ملكه ، وهو أوسع مدلولاً مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق . فليس هو المال الذي يجده أحدهم في يده ، ليحصل به على حاجياته ومتاعه . إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض ، من أسباب الرزق ومكوناته . وهي في الأصل ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض من عناصرها التي

تكونت منها ، وطبيعة تقسم هذه العناصر بهذه النسب التي وجدت بها . ثم القدرة التي أودعها الله النبات والحيوان - ومنه الإنسان - على الانتفاع بهذه العناصر .

وفي اختصار نشير إلى أطراف من حقيقة الرزق بهذا المعنى :

« تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التي تكاد تكون متناهية في الصغر من ثاني أكسيد الكربون الموجود في الهواء ، والتي يمكن القول بأنها تنسجمها . ولكي نوضح هذا التفاعل الكيماوي المركب المختص بالتركيب الضوئي بأبسط طريقة ممكنة نقول : « إن أوراق الشجر هي رئات ، وإن لها القدرة في ضوء الشمس على تجزئة ثاني أكسيد الكربون العنيد إلى كربون وأكسجين . وبتعبير آخر يلفظ الأكسجين ويحتفظ بالكربون متحداً مع هيدروجين الماء الذي يستمد منه النبات من جذوره (حيث يفضل الماء إلى هيدروجين وأكسجين) . وبكيمياة سحرية تصنع الطبيعة من هذه العناصر سكرأ أوسليلوزا ومواد كيميائية أخرى عديدة ، وفواكه وأزهارا . ويغذي النبات نفسه ، وينتج فائضاً يكفي لتغذية كل حيوان على وجه الأرض . وفي الوقت نفسه يلفظ النبات الأكسجين الذي ننسمه والذي بدونه تنتهي الحياة بعد خمس دقائق .

« وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات والأعشاب وكل قطعة من الطحلب ، وكل ما يتعلق بمياه الزرع ، تبني تكوينها من الكربون والماء على الأخص . والحيوانات تلفظ ثاني أكسيد الكربون ، بينما تلفظ النباتات الأكسجين . ولو كانت هذه المفاضلة غير قائمة ، فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد في النهاية كل الأكسجين ، أو كل ثاني أكسيد الكربون تقريباً . ومتى انقلب التوازن تماماً ذوى النبات أو مات الإنسان ، فيلحق به الآخر وشيكاً . وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثاني أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضاً ضروري لمعظم حياة الحيوان ، كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأكسجين .

« ويجب أن يضاف الهيدروجين أيضاً ، وإن كنا لا ننسمه . فبدون الهيدروجين كان الماء لا يوجد . ونسبة الماء من المادة الحيوانية أو النباتية هي كبيرة لدرجة تدعو إلى الدهشة ولا غنى عنه مطلقاً ^١ .

وهناك دور الأزوت أو النتروجين في رزق الأرض .

« وبدون النتروجين في شكل ما لا يمكن أن ينمو أي نبات من النباتات الغذائية . وإحدى الوسيطتين اللتين يدخل بها النتروجين في التربة الزراعية هي طريق نشاط جراثيم « بكتريا » معينة تسكن في جذور النباتات البقلية ، مثل البرسيم والحمص والبسلة والبقول وكثير غيرها . وهذه الجراثيم تأخذ نتروجين الهواء وتحيله إلى نتروجين مركب قابل لأن يمتصه النبات وحين يموت النبات يبقى بعض هذا النتروجين المركب في الأرض .

« وهناك طريقة أخرى يدخل بها النتروجين إلى الأرض . وذلك عن طريق عواصف الرعد . وكلما ومض برق خلال الهواء ، وحد بين قدر قليل من الأكسجين وبين النتروجين ، فيسقطه المطر إلى الأرض كنتروجين مركب ^٢ » (أي في الصورة التي يستطيع النبات امتصاصها لأنه لا يقدر على امتصاص النتروجين الخالص من الهواء ونسبته فيه حوالي ٧٨٪/ كما أسلفنا) .

والأرزاق المخبوءة في جوف الأرض من معادن جامدة وسائلة كلها ترجع إلى طبيعة تكوين الأرض والأحوال التي لا يستها . ولا نطيل شرحها . فالرزق في ضوء هذه البيانات السريعة أوسع مدلولاً مما يفهمه الناس من هذا

(١) كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة محمود صالح الفلكي ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٦ - ٧٧ .

اللفظ . وأعمق أسباباً في تكوين الأرض ذاتها وفي تصميم الكون كله . وحين يأذن الله للناس في الأكل منه ، فهو يتفضل بتسخيره لهم وتيسير تناوله ؛ كما يمنح البشر القدرة على تناولها والانتفاع بها : « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ..

وهو محدود بزمن مقدر في علم الله وتديره زمن الابتلاء بالموت والحياة ، وبكل ما يسخره الله للناس في هذه الحياة . فإذا انقضت فترة الابتلاء كان الموت وكان ما بعده :
« وإليه النشور » ..

إليه .. وإلا فإلى أين إن لم يكن إليه ؟ والمملك بيده ؟ ولا ملجأ منه إلا إليه ؟ وهو على كل شيء قدير ؟

* * *

والآن - وبينما هم في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول ، وفي هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره .. الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزا ويرجها رجاً فإذا هي تمور . ويثير الجوم من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور .. يهز هذه الأرض في حسهم ويثير هذا الحاصب في تصورهم ، لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار ، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب ، ويعلقوا قلوبهم بقدر الله :
« أأنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ؟ أم أأنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ؟ فستعلمون كيف نذير ! ولقد كذب الذين من قبلهم . فكيف كان نكير ؟ » ..

والبشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة الذلول ، ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم ! يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير ذلول ولا حلوب ، في بعض الأحيان ، عندما يأذن الله بأن تضطرب قليلاً فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم ! ويمور كل ما عليها ويضطرب فلا تمسكه قوة ولا حيلة . ذلك عند الزلازل والبراكين ، التي تكشف عن الوحش الجامح ، الكامن في الدابة الذلول ، التي يمسك الله بزمامها فلا تثور إلا بقدر ، ولا تجمع إلا ثواني معدودات يتحطم فيها كل ما شيد الإنسان على ظهرها ؛ أو يغوص في جوفها عندما تفتح أحد أفواهها وتخسف كسفة منها .. وهي تمور .. البشر ولا يملكون من هذا الأمر شيئاً ولا يستطيعون . وهم يبدون في هول الزلازل والبركان والخسف كالفتران الصغيرة محصورة في قفص الرعب ، من حيث كانت آمنة لاهية غافلة عن القدرة الكبرى المسكة بالزمام !

والبشر كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتخرّب ، وتحرق وتضعق . وهم بإزائها ضعاف عاجزون ، بكل ما يعلمون وما يعملون . والعاصفة حين تزار وتضرب بالحصي الحاصب ، وتأخذ في طريقها كل شيء في البر أو البحر أو الجو يقف الإنسان أمامها صغيراً هزياً حسيماً حتى يأخذ الله بزمامها فتسلس وتلين ! والقرآن يذكر البشر الذين يخذعهم سكون الدابة وسلامة مقادتها ، ويغريهم الأمان بنسيان خالقها ومروضها . يذكرهم بهذه الجمحات التي لا يملكون من أمرها شيئاً . والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور ، وتقذف بالحمم وتفور . والريح الرخاء من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لا تقف له قوة في الأرض من صنع البشر ، ولا تصده عن التدمير .. يحذرهم وينذرهم في تهديد يرج الأعصاب ويخلخل المفاصل .

« فستعلمون كيف نذير » !!!

ويضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية ، ومن وقائع الغابرين المكذبين :

« ولقد كذب الذين من قبلهم ، فكيف كان نكير ؟ » ..

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار ، ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا . وهو يسألهم : « فكيف كان نكير ؟ » وهم يعلمون كيف كان ، فقد كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير !

والأمان الذي ينكره الله على الناس ، هو الأمان الذي يوحى بالغفلة عن الله وقدرته وقدره ، وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته . فهذا غير ذاك . فالؤمن يطمئن إلى ربه ، ويرجو رحمته وفضله . ولكن هذا لا يقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها ، إنما يدعو إلى التطلع الدائم ، والحياء من الله ، والحذر من غضبه ، والتوقي من المخبوء في قدره ، مع الإخبات والاطمئنان .

قال الإمام أحمد - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : « ما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته . إنما كان يبتسم . وقالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا رأى غيماً أورياً عرف ذلك في وجهه . قالت : يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ؟ قد عذب قوم بالريح . وقد رأى قوم العذاب وقالوا ، هذا عارض ممطرنا »

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره ، وبما قصه القرآن من هذا في سيره . وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله .

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول . ورد الأمر بحاله وكليته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير . فالخسف والحاصب ، والبراكين والزلازل ، والعواصف ، وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء . إنما أمرها إلى الله . وكل ما يذكره البشر عنها فروض يحاولون بها تفسير حدوثها ، ولكنهم لا يتدخلون في إحداثها ، ولا يحمون أنفسهم منها . وكل ما ينشئون على ظهر الأرض تذهب به رجفة من رجفاتها ، أو أعصار من أعاصيرها ، كما لو كان لعباً من الورق ! فأولى لهم أن يتوجهوا في أمرها إلى خالق هذا الكون ، ومنشئ نواميسه التي تحكم هذه الظواهر ، ومودعه القوى التي يتجلى جانب منها في هذه الأحداث . وأن يتطلعوا إلى السماء - حيث هي رمز للعلو - فيتذكروا الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

إن الإنسان قوي بالقدر الذي وهبه الله من القوة . عالم بالقدر الذي أعطاه الله من العلم . ولكن هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه ، ونواميسه من صنعه ، وقواه من إمداده . وهذه القوى تسير وفق نواميسه في حدود قدره . وما يصيب الإنسان منها مقدور مرسوم ، وما يعلمه الإنسان منها مقدور معلوم . والوقائع التي تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيماً ، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها ، وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها ، ويسخر ما هو مقدور له أن يسخره منها .

وحين ينسى هذه الحقيقة ، ويغتر وينخدع بما يقسم الله له من العلم ومن القدرة على تسخير بعض قوى الكون ، فإنه يصبح مخلوقاً مسيخاً مقطوعاً عن العلم الحقيقي الذي يرفع الروح إلى مصدرها الرفيع ، ويخلد إلى الأرض في عزلة عن روح الوجود ! بينما العالم المؤمن يركع في مهرجان الوجود الجميل ، ويتصل ببارئ الوجود

الجليل . وهو متاع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوته حين يكتبها الله له !

على أن قوى الكون الهائلة تلجئ الإنسان إلجاءاً إلى موقف العجز والتسليم سواء رزق هذه الحلاوة أم حرما . فهو يكشف ما يكشف ، ويبدع ما يبدع ، ويبلغ من القوة ما يبلغ . ثم يواجه قوى الكون في انكسار الحسير الصغير الهزيل . وقد يستطيع أن يتقي العاصفة أحياناً ولكن العاصفة تمضي في طريقها لا يملك وقفها . ولا يملك أن يقف في طريقها ، وقصارى ما يبلغ إليه جهده وعلمه أن يحتمي من العاصفة ويتزوي عنها ! .. أحياناً .. وأحياناً تقتله وتسحقه من وراء جدرانه وبنائه . وفي البحر تتناوح الأمواج والأعاصير فإذا أكبر سفائنه كلعبة الصبي في مهب الرياح . أما الزلزال والبركان فهما هما من أول الزمان إلى آخر الزمان ! فليس إلا العمى هو الذي يهيم لبعض المناكيد أن « الإنسان يقوم وحده » في هذا الوجود ، وأنه سيد هذا الوجود !

إن الإنسان مستخلف في هذه الأرض بإذن الله . موهوب من القوة والقدرة والعلم ما يشاء الله . والله كآله وحاميه . والله رازقه ومعطيه . ولو تخلت عنه يد الله لحظة لسحقته أقل القوى المسخرة له ، ولأكله الذباب وما هو أصغر من الذباب . ولكنه بإذن الله ورعايته مكث . ومحفوظ . وكريم . فليعرف من أين يستمد هذا التكريم ، وذلك الفضل العظيم .

* * *

بعدئذ ينتقل بهم من لمسة التهديد والذير ، إلى لمسة التأمل والتفكير . في مشهد يروونه كثيراً ، ولا يتدبرونه إلا قليلاً . وهو مظهر من مظاهر القدرة ، وأثر من آثار التدبير الإلهي اللطيف .

« أُولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شيء بصير » ..

وهذه الخارقة التي تقع في كل لحظة ، تنسينا بوقوعها المتكرر ، ما تشي به من القدرة والعظمة . ولكن تأمل هذا الطير ، وهو يصف جناحيه ويفردهما ، ثم يقبضهما ويضمهما ، وهو في الحالين : حالة الصف الغالبة ، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء ، يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة ؛ ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد ، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه ، لا يملأ النظر ، ولا يملأ القلب . وهو متعة فوق ما هو ماثرتفكير وتدبر في صنع الله البديع ، الذي يتعاقب فيه الكمال والجمال !

والقرآن يشير بالنظر إلى هذا المشهد المثير :

« أُولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ؟ » ..

ثم يوحى بما وراءه من التدبير والتقدير :

« ما يمسكهن إلا الرحمن » ..

والرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب ، الملحوظ فيه كل صغيرة وكبيرة ، المحسوب فيه حساب الخلية والذرة .. النواميس التي تكفل توافر آلاف الموافقات في الأرض والجو وخلقة الطير ، لتتم هذه الخارقة وتكرر ، وتظل تتكرر بانتظام .

والرحمن يمسكهن بقدرته القادرة التي لا تكل ، وعنايته الحاضرة التي لا تغيب . وهي التي تحفظ هذه النواميس أبداً في عمل وفي تناسق وفي انتظام . فلا تفترو ولا تختل ولا تضطرب غمضة عين إلى ما شاء الله : « ما يمسكهن إلا الرحمن » .. بهذا التعبير المباشر الذي يشي بيد الرحمن تمسك بكل طائر وبكل جناح ، والطائر صاف جناحيه

وحين يقبض ، وهو معلق في الفضاء !

« إنه بكل شيء بصير .. »

يبصره ويراه . ويبصر أمره ويخبره . ومن ثم يهَيِّئ وينسق ، ويعطي القدرة ، ويرعى كل شيء في كل لحظة ، رعاية الخبير البصير .

وإمساك الطير في الجو كما إمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها في الفضاء . كما إمساك سائر الأجرام التي لا يمسكها في مكانها إلا الله . ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه ؛ ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته . وإلا فصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع ، وكلها إيحاء وكلها إيقاع . وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه ، ويلحظ منها ما يراه . حسب توفيق الله .

* * *

ثم يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفرع من الخسف والحاصب ، بعد أن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن . فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عوداً وبدءاً كما يعلم الله من أثر هذا التردد في قلوب العباد :

« أم من هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلا في غرور » ..

وقد خوفهم الخسف وخوفهم الحاصب ، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير . فهو يعود ليسألهم : من هو هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ من هو هذا الذي يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟ « إن الكافرون إلا في غرور » .. غرور يهَيِّئ لهم أنهم في أمن وفي حماية وفي اطمئنان ، وهم يتعرضون لغضب الرحمن وبأس الرحمن ، بلا شفاعة لهم من إيمان ولا عمل يستتزل رحمة الرحمن . ولمسة أخرى في الرزق الذي يستمتعون به ، وينسون مصدره ، ثم لا يخشون ذهابه ، ثم يلجون في التبجح والإعراض :

« أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور » ..

ورزق البشر كله - كما سلف - معقود بإرادة الله في أول أسبابه ، في تصميم هذا الكون وفي عناصر الأرض والجو . وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقاً ، ولا تتعلق بعملهم بتاتاً . فهي أسبق منهم في الوجود ، وهي أكبر منهم في الطاقة ، وهي أقدر منهم على محوكل أثر للحياة حين يشاء الله . فمن يرزق البشر إن أمسك الماء ، أو أمسك الهواء ، أو أمسك العناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء ؟ إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهداً وأعمق جذوراً مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة . ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره ، وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء .

وفي هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوي سائر المدلولات القرية لكلمة الرزق ، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه ، كالعامل ، والإبداع ، والإنتاج .. وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى . فأى نفس يتنفس العامل ، وأي حركة يتحركها ، إلا من رزق الله ، الذي أنشأه ، ومنحه القدرة والطاقة ، وخلق له النفس الذي يتنفسه ، والمادة التي تحترق في جسده فتمنحه القدرة على الحركة ؟ وأي جهد عقلي يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟ وأي إنتاج ينتجه عامل أو مبدع إلا في مادة هي من صنع الله ابتداء ، وإلا بأسباب كونية

وإنسانية هي من رزق الله أصلاً ؟ .. « أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ ! » ..
« بل لجوا في عتو ونفور » .

والتعبير يرسم خدماً مصعراً ، وهيئة متبجحة ، بعد تقريره لحقيقة الرزق ، وأنهم عيال على الله فيه ، وأقبح العتو والنفور ، والتبجح والتصعير ، ما يقع من العيال في مواجهة المطعم الكاسي ، الرازق العائل وهم خلو من كل شيء إلا ما يتفضل به عليهم . وهم بعد ذلك عاتون معرضون وقحاء !
وهو تصوير لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات ، وفي إعراض نافر ، وتنسى أنها من صنع الله ، وأنها تعيش على فضله ، وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئاً على الإطلاق !

* * *

ولقد كانوا - مع هذا - يتهمون النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بالضلال ؛ ويزعمون لأنفسهم أنهم أهدى سبيلاً ! كما يصنع أمثالهم مع الدعاة إلى الله في كل زمان . ومن ثم يصور لهم واقع حالهم وحال المؤمنين في مشهد حي يجسم حقيقة الحال :

« أفن يمشي مكباً على وجهه أهدى ؟ أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ؟ » .. والذي يمشي مكباً على وجهه إما أن يكون هو الذي يمشي على وجهه فعلاً لا على رجليه في استقامة كما خلقه الله ، وإما أن يكون هو الذي يعثر في طريقه فينكب على وجهه ، ثم ينهض ليعثر من جديد ! وهذه كذلك حال بائسة تعاني المشقة والعسر والتعثر ، ولا تنتهي إلى هدى ولا خير ولا وصول ! وأين هي من حال الذي يمشي مستقيماً سوياً في طريق لا عوج فيه ولا عثرات ، وهدفه أمامه واضح مرسوم ؟ !

إن الحال الأولى هي حال الشقي المنكود الضال عن طريق الله ، المحروم من هداية ، الذي يصطدم بنواميسه ومخلوقاته ، لأنه يعترضها في سيره ، ويتخذ له مساراً غير مسارها ، وطريقاً غير طريقها ، فهو أبداً في تعثر ، وأبداً في عناء ، وأبداً في ضلال .

والحال الثانية هي حال السعيد المجدود المهتدي إلى الله ، الممتع بهداه ، الذي يسير وفق نواميسه في الطريق اللاحب المعمور ، الذي يسلكه موكب الإيمان والحمد والتمجيد . وهو موكب هذا الوجود كله بما فيه من أحياء وأشياء .

إن حياة الإيمان هي اليسر والاستقامة والقصد . وحياة الكفر هي العسر والتعثر والضلال ..

فأيهما أهدى ؟ وهل الأمر في حاجة إلى جواب ؟ إنما هو سؤال التقرير والإيجاب !

ويتوارى السؤال والجواب ليرأى للقلب هذا المشهد الحي الشاخص المتحرك .. مشهد جماعة يمشون على وجوههم ، أو يتعثرون وينكبون على وجوههم لا هدف لهم ولا طريق . ومشهد جماعة أخرى تسير مرتفعة الهامات ، مستقيمة الخطوات ، في طريق مستقيم ، لهدف مرسوم .

إنه تجسم الحقائق ، وإطلاق الحياة في الصور ، على طريقة القرآن^١ في التعبير بالتصوير ..

* * *

(١) يراجع فصل : « طريقة القرآن » . وفصل « التخيل الحسي والتجسيم » في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى ، وأدوات الإدراك ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين :

« قل : هو الذي أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ما تشكرون » ..

وحقيقة أن الله هو الذي أنشأ الإنسان ، حقيقة تلح على العقل البشري ، وتثبت ذاتها بتوكيد يصعب رده . فالإنسان قد وجد - وهو أرفع وأعلم وأقدر ما يعلم من الخلائق - وهو لم يوجد نفسه ، فلا بد أن يكون هناك من هو أرفع وأعلم وأقدر منه أوجده .. ولا مفر من الاعتراف بخالق . فوجود الإنسان ذاته يواجهه بهذه الحقيقة . والممارسة فيها نوع من المماحكة لا يستحق الاحترام .

والقرآن يذكر هذه الحقيقة هنا ليذكر بجانبها ما زود الله به الإنسان من وسائل المعرفة :

« وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » ..

وما قابل الإنسان به هذه النعمة : نعمة الإنشاء ونعمة السمع والأبصار والأفئدة :

« قليلاً ما تشكرون » ..

والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة . والأفئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة ، معجزة أعجب وأغرب . ولم يعرف بعد عنها إلا القليل . وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد ..

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لمحة :

« تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ، ولا يعلم الا الله أين تنتهي . ويقول العلم : إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن ، التي تنظم دخوله ، ليقع على طبلة الأذن . وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن . » والتيه يشتمل على نوع من الأفنية بين لولبية ونصف مستديرة . وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس .

« فما طول القوس منها وحجمها ؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف كل منها تركيباً خاصاً ؟ وما الحيز الذي وضعت فيه ؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة . هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى ! وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية . وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة . دقة وعظمة تحير الألباب »^١ .

« ومركز حاسة الإبصار العين ، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء ، وهي أطراف أعصاب الإبصار . وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية .. وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية »^٢ .

« وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات . ويقال : إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود ، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط . وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات .. وعدسة عينيك تختلف في الكثافة ، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة ، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً »^٣ ..

فأما الأفئدة فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنساناً . وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف

(١) منقول عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل ص ٥٧ .

(٢) منقول عن : المصدر السابق ص ٥٨ .

(٣) نقلاً عن كتاب : العلم يدعو للإيمان ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ص ١١٣ .

بها الإنسان في هذا الملك العريض . والتي حمل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال . أمانة الإيمان الاختياري ، والاهتداء الذاتي ، والاستقامة الإرادية على منهج الله القويم^١ ولا يعلم أحد ماهية هذه القوة ، ولا مركزها ، داخل الجسم أو خارجه ! فهي سر الله في الإنسان لم يعلمه أحد سواه .

وعلى هذه الهبات الضخمة التي أعطاها الإنسان لينهض بتلك الأمانة الكبرى ، فإنه لم يشكر : « قليلاً ما تشكرون » .. وهو أمر يثير الخجل والحياء عند التذكير به ، كما يذكرهم القرآن في هذا المجال ويذكر كل جاحد وكافر ، لا يشكر نعمة الله عليه ؛ وهو لا يوفيا حقها لو عاش للشكر دون سواه !

* * *

ثم يذكرهم أن الله لم ينشئ البشر ويمنحهم هذه الخصائص عبثاً ولا جزافاً لغير قصد ولا غاية . إنما هي فرصة الحياة للابتلاء . ثم الجزء في يوم الجزاء :

« قل : هو الذي ذرأكم في الأرض ، وإليه تحشرون » ..

والذرء : الإكثار . ويحمل كذلك معنى الانتشار ، والحشر : الجمع بعد النشر في الأرجاء . وهما حركتان متقابلتان من الناحية التصويرية ، تقابلهما من الناحية المعنوية . ذلك مشهد للإكثار من الخلق ونشرهم أو نثرهم في الأرض . وهذا مشهد لجمعهم منها وحشرهم بعد النشر والنثر ! ويجمعهما السياق في آية واحدة ، ليتقابل المشهدان في الحس والتصور على طريقة القرآن . ولتذكر البشر وهم منتشرون في الأرض أن هناك غاية هم صائرون إليها ، هي الجمع والحشر . وأن هناك أمراً وراء هذا ، ووراء الابتلاء بالموت والحياة .

ثم يحكي شكهم في هذا الحشر ، وارتياهم في هذا الوعد :

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » ..

وهو سؤال الشاك المستريب . كما أنه سؤال المماحك المتعنت . فإن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر ؛ ولا علاقة لها بحقيقته ، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء . ويستوي بالقياس إليهم أن يجيء غداً أو أن يجيء بعد ملايين السنين .. فالمهم أنه آت ، وأنهم محشورون فيه ، وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة .

ومن ثم لم يطلع الله أحداً من خلقه على مواعده ، لأنه لا مصلحة لهم في معرفته ، ولا علاقة لهذا بطبيعة هذا اليوم وحقيقته ، ولا أثر له في التكاليف التي يطالب الناس بها استعداداً لملاقاته ، بل المصلحة والحكمة في إخفاء ميقاته عن الخلق كافة ، واختصاص الله بعلم ذلك الموعد ، دون الخلق جميعاً :

« قل إنما العلم عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » .

وهنا يبرز بجلاء فارق ما بين الخالق والمخلوق . وتتجرد ذات الله ووحدانيته بلا شبيه ولا شريك . ويتمحض العلم له سبحانه . ويقف الخلق - بما فيهم الرسل والملائكة^٢ - في مقامهم متأدين عند مقام الألوهية العظيم : « قل : إنما العلم عند الله . وإنما أنا نذير مبين » .. وظيفتي الإنذار ، ومهمتي البيان . أما العلم فعند صاحب العلم الواحد بلا شريك .

وبينما هم يسألون في شك ويجابون في جزم ، يخيل السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء ،

(١) يراجع تفسير قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال ... في ص ٢٨٨٤ - ٢٨٨٦ من الجزء ٢٢ من الظلال .

(٢) في حديث حقيقة الإسلام والإيمان .. سأل جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » .. أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

والموعد الذي يشكون فيه قد حان ؛ وكأنما هم واجهوه الآن . فكان فيه ما كان :

« فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ، وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون ! »

فقد رأوه قريباً مواجهاً لهم حاضراً أمامهم دون توقع ودون تمهيد . فسيئت وجوههم ، وبدا فيها الاستياء . ووجه إليهم التأنيب : « وقيل : هذا الذي كنتم به تدعون » .. هذا هو حاضراً قريباً . وهو الذي كنتم تدعون أنه لن يكون !

وهذه الطريقة في عرض ما سيكون تتكرر في القرآن ، لمواجهة حالة التكذيب أو الشك بمفاجأة شعورية تصويرية تقف المكذب أو الشاك وجهاً لوجه مع مشهد حاضر لما يكذب به أو يشك فيه .

ثم هي في الوقت ذاته تصور حقيقة . فهذا اليوم كائن في علم الله ؛ أما خط الزمن بينه وبين البشر فهو قائم بالقياس إلى البشر . وهي مسألة نسبية لا تمثل الحقيقة المجردة كما هي في حساب الله . ولو أذن الله لرأوه اللحظة كما هو في علم الله . فهذا الانتقال المفاجئ لهم من الدنيا إلى الآخرة ، ومن موقف الشك والارتباب إلى موقف المواجهة والمفاجأة ، يشير إلى حقيقة قائمة لو أذن الله بها لانكشفت لهم . في الوقت الذي يصور لهم هذه الحقيقة تصويراً يهز مشاعرهم .

* * *

ولقد كانوا يترصون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والحفنة المؤمنة التي معه أن يهلكوا فيستريحوا منهم ؛ وكانوا يتواصلون بينهم بالصبر عليه حتى يوافيه الأجل ، فتسكن هذه الزوبعة التي أثارها الدعوة في صفوفهم . كما كانوا يتبجحون أحياناً فيزعمون أن الله سيهلك محمداً ومن معه لأنهم ضالون ، ولأنهم يكذبون على الله فيما يقولون ! فهنا أمام مشهد الحشر والجزاء ، ينبههم إلى أن أمنيته حتى لو تحققت لا تعصمهم هم من عاقبة الكفر والضلال . فأولى لهم أن يتدبروا أمرهم قبل هذا الموعد الذي واجههم به كأنه واقع بهم :

« قل : أرايتم إن أهلكني الله ومن معي أورهنا ، فمن يحير الكافرين من عذاب أليم ؟ » ..

وهو سؤال يردهم إلى تدبر حالهم ، والتفكير في شأنهم ، وهو الأولى ! فما ينفعهم أن تتحقق أمانيتهم فيهلك الله النبي ومن معه - كما لا ينقذهم بطبيعة الحال أن يرحم الله نبيه ومن معه . والله باق لا يموت . وهو الذي ذرأهم في الأرض وإليه يحشرون ..

ولكنه لا يقول لهم : فمن يحيركم من عذاب أليم ؟ ولا ينص على أنهم كافرون . إنما يلوح لهم بالعذاب الذي ينتظر الكافرين : « فمن يحير الكافرين من عذاب أليم » .. وهو أسلوب في الدعوة حكيم ، يخوفهم من ناحية ، ويدع لهم فرصة للتراجع عن موقفهم من ناحية . فلو جابههم بأنهم كافرون ، وأنه لا مفر لهم من العذاب الأليم .. فربما جهلوا وحمقوا وأخذتهم العزة بالإثم أمام الاتهام المباشر والتهديد .

ففي بعض الحالات يكون أسلوب التلميح أفعال في النفس من أسلوب التصريح !

ثم يترقى من هذه التسوية بين الأمرين ، إلى تقرير موقف المؤمنين من ربهم وثقتهم به وتوكلهم عليه ، مع التلميح إلى اطمئنانهم لإيمانهم ، وثقتهم بهداهم ، وبأن الكافرين في ضلال مبين .

« قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا . فستعلمون من هو في ضلال مبين » ..

وذكر صفة « الرحمن » هنا يشير إلى رحمته العميقة الكبيرة برسوله والمؤمنين معه ؛ فهو لن يهلكهم كما يتمنى الكافرون أو كما يدعون .

ويوجه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى إبراز الصلة التي تربطهم بربهم الرحمن . صلة الإيمان « آمنا به » .. وصلة التوكل « وعليه توكلنا » .. عليه وحده .. والتعبير يشي بالقرى بينهم وبين الرحمن . والله - سبحانه - هو الذي يتفضل على رسوله وعلى المؤمنين فيأذن له بإعلان هذه القرى ، ويوجهه إلى هذا الإعلان . وكأنما يقول له : لا تخف مما يقوله الكفار . فأنت ومن معك موصولون بي منتسبون إليّ . وأنت مأذون مني في أن تظهر هذه الكرامة ، وهذا المقام ! فقل لهم ... وهذا ود من الله وتكريم ..

ثم ذلك التهديد الملفوف : « فستعلمون من هو في ضلال مبين » .. وهو أسلوب كذلك من شأنه أن يخلخل الإصرار على الجحود ؛ ويدعوهم إلى مراجعة موقفهم مخافة أن يكونوا هم الضالين ! فيتعرضوا للعذاب الذي سبق ذكره في الآية : « فمن يجر الكافرين من عذاب أليم ؟ » وفي الوقت ذاته لا يجبههم بأنهم ضالون فعلاً ، حتى لا تأخذهم العزة بالإثم . وهو أسلوب في الدعوة يناسب بعض حالات النفوس ..

* * *

وأخيراً يحجى الإيقاع الأخير في السورة يلح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول ، وهو الماء :

« قل : أرايتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ؟ » ..

والماء الغور : الغائر الذاهب في الأرض لا يقدر عليه . والمعين : النافع الفائض المتدفق . وهي لمسة قريبة في حياتهم ، إن كانوا ما يزالون يستبعدون ذلك اليوم ويشكون فيه .. والملك بيد الله وهو على كل شيء قدير . فكيف لو توجهت إرادته إلى حرمانهم مصدر الحياة القريب ! ثم يدعهم يتدبرون ما يكون لو أذن الله بوقوع هذا المحذور !

* * *

وهكذا تنتهي هذه السورة ، وينتهي هذا الحشد من الإيقاعات واللمسات ، وهذه الرحلات والجولات . في آفاق وأغوار وأبعاد مترامية الأطراف . وكل آية على وجه التقريب كانت إيقاعاً خاصاً . أو كانت رحلة في عالم مجهول مغيب ، أو منظور لا تلتفت إليه الأنظار والقلوب . إنها سورة ضخمة . سورة أكبر من حجمها وحيزها وعدد آياتها . وكأنما هي سهام تشير إلى بعيد ، ويكاد كل سهم يستقل بكشف عالم جديد !

وهي تبني من قواعد التصور الإسلامي جوانب رئيسية هامة ؛ فهي تقرر في الضمير حقيقة القدرة المطلقة ، وحقيقة الهيمنة المطلقة . وحقيقة الابتلاء بالموت والحياة تمهيداً للحشر والجزاء . وحقيقة الكمال والجمال في صنعة الله . وحقيقة العلم المطلق بالسر والنجوى . وحقيقة مصدر الرزق . وحقيقة حفظ الله للخلائق ، وحضوره سبحانه - مع كل مخلوق ... وجملة من هذه الحقائق التي يقوم عليها تصور المسلم لربه . وتصوره للوجود وارتباطه بخالق الوجود . هذا التصور الذي ينبثق منه منهج حياة المؤمن كله . مع ربه . ومع نفسه . ومع الناس . ومع الأحياء . ومع الكون كله من أحياء وأشياء . والذي يتكيف به شعوره وضميره وشخصيته وقيمه وموازينه ، واستقباله للحياة ...

* * *

سُورَةُ الْقَلَمِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِ الْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَذُوا لَوْتٍ ذَهَبَ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَازِمْشَاءَ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسْمِعُهُ عَلَى أَخْرُطُومٍ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْبِئُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ ائْذِنُوا عَلَيَّ حَرِّكَرٍ ۚ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْظِلُّوْا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْأَقْلَ لَكُمْ لَوْلَا نُسَوِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَهُ رِيقٍ رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمُنٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَاتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالُونَ ﴿٤٣﴾

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُ رَحْمَتُنَا لَكُنَّ رِجَالًا مَنَسُورِينَ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

لا يمكن تحديد التاريخ الذي نزلت فيه هذه السورة سواء مطلعها أو جملتها . كما أنه لا يمكن الجزم بأن مطلعها قد نزل أولاً ، وأن سائرها نزل أخيراً - ولا حتى ترجيح هذا الاحتمال . لأن مطلع السورة وختامها يتحدثان عن أمر واحد ، وهو تطاول الذين كفروا على شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقولهم : إنه مجنون !

والروايات التي تقول : إن هذه السورة هي الثانية في النزول بعد سورة العلق كثيرة ، ومن المتفق عليه في ترتيب المصاحف المختلفة أنها هي السورة الثانية ؛ ولكن سياق السورة وموضوعها وأسلوبها يجعلنا نرجح غير هذا . حتى ليكاد يتعين أنها نزلت بعد فترة من الدعوة العامة ، التي جاءت بعد نحو ثلاث سنوات من الدعوة الفردية ، في الوقت الذي أخذت فيه قريش تدفع هذه الدعوة وتحاربها ، فتقول عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تلك القولة الفاجرة ؛ وأخذ القرآن يردّها وينفيها ، ويهدد المناهضين للدعوة ، ذلك التهديد الوارد في السورة .

واحتمال أن مطلع السورة نزل مبكراً وحده بعد مطلع سورة العلق . وأن الجنون المنفي فيه : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. جاء بمناسبة ما كان يتخوفه النبي - صلى الله عليه وسلم - على نفسه في أول الوحي ، من أن يكون ذلك جنوناً أصابه .. هذا الاحتمال ضعيف . لأن هذا التخوف ذاته على هذا النحو ليست فيه رواية محققة ، ولأن سياق السورة التماسك يدل على أن هذا النفي ينصب على ما جاء في آخرها من قوله تعالى :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهذا هو الأمر الذي افتتح السورة بنفيه ، كما يتبادر إلى الذهن عند قراءة السورة المتأسكة الحلقات .

كذلك ذكرت بعض الروايات أن في السورة آيات مدنية من الآية السابعة عشرة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين . وهي الآيات التي ذكرت قصة أصحاب الجنة وابتلاءهم ، والآيات من الثانية والأربعين إلى نهاية الخمسين وهي التي تشير إلى قصة صاحب الحوت .. ونحن نستبعد هذا كذلك . ونعتقد أن السورة كلها مكية . لأن طابع هذه الآيات عميق في مكته . وهو أنسب شيء لأن يجيء في سياق السورة عند نزولها متسقاً مع الموضوع ومع الحالة التي تعالجها .

والذي نرجحه بشأن السورة كلها أنها ليست الثانية في ترتيب النزول ؛ وأنها نزلت بعد فترة من البعثة النبوية بعد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بالدعوة العامة . وبعد قول الله تعالى له : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وبعد نزول طائفة من القرآن فيها شيء من قصص الأولين وأخبارهم ، التي قال عنها قائلهم : « أساطير الأولين » .. وبعدما أصبحت قريش مدعوة إلى الإسلام كافة ، وأصبحت تدفع هذه الدعوة بالاتهامات الباطلة والحرب العنيفة التي اقتضت تلك الحملة العنيفة الواردة في السورة على المكذبين ، والتهديد القاصم في أولها وفي آخرها على السواء .. والمشهد الأخير في السورة يوحي بهذا كذلك : « وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون » .. فهو مشهد دعوة عامة لمجموعات كبيرة . ولم يكن الأمر كذلك في أول الدعوة . إنما كانت الدعوة توجه إلى أفراد . بوسيلة فردية . ولا تلقى إلى الذين كفروا وهم متجمعون . ولم يقع شيء من هذا - كما تقول الروايات الراجحة - إلا بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة .

والسورة تشير إلى شيء من عروض المشركين على النبي - صلى الله عليه وسلم - للالتقاء في منتصف الطريق ، والتهادن على تراض في القضية التي يختلفون عليها وهي قضية العقيدة : « ودوا لوتدهن فيدهنون » .. وظاهر أن مثل هذه المحاولة لا تكون والدعوة فردية ، ولا خطر منها . إنما تكون بعد ظهورها ، وشعور المشركين بخطورها .

وهكذا تتضافر الشواهد على أن هذه السورة نزلت متأخرة عن أيام الدعوة الأولى . وأن هناك ثلاث سنوات على الأقل - قابلة للزيادة - بين بدء الدعوة وبين وقت نزولها . ولا يعقل أن ثلاث سنوات مرت لم ينتزل فيها قرآن . والطبيعي أن تكون هناك سور كثيرة ، وأجزاء من سور قد نزلت في هذه الفترة ، تتحدث عن ذات العقيدة بدون مهاجمة عنيفة للمكذبين بها كالوارد في هذه السورة منذ مطلعها .

ولكن هذا لا يني أن تكون هذه السورة وسورتا المدثر والمزمل قد نزلت في الفترة الأولى من الدعوة . وإن لم يكن ذلك أول ما نزل كما هو وارد في المصاحف ، للأسباب التي أوردناها هنا . وهي تكاد تنطبق كذلك على سورتي المزمل والمدثر .

* * *

لقد كانت هذه الغرسة - غرسة العقيدة الإسلامية - تودع في الأرض لأول مرة في صورتها الرفيعة المجردة الناصعة . وكانت غريبة على حس الجاهلية السائدة ، لا في الجزيرة العربية وحدها بل كذلك في أنحاء الأرض جميعاً .

وكانت النقلة عظيمة بين الصورة الباهتة المحرفة المشوهة من ملة إبراهيم التي يستمسك بخيوط حائلة منها مشركو قريش ، ويلصقون بها الترهات والأساطير والأباطيل السائدة عندهم ، وبين الصورة الباهرة العظيمة

المستقيمة الواضحة البسيطة الشاملة المحيطة التي جاءهم بها محمد - صلى الله عليه وسلم - متفقة في أصولها مع الحنيفية الأولى - دين إبراهيم عليه السلام - وبالغة نهاية الكمال الذي يناسب كونها الرسالة الأخيرة للأرض ، الباقية لتخاطب الرشد العقلي في البشرية إلى آخر الزمان .

وكانت النقلة عظيمة بين الشرك بالله وتعدد الأرباب ، وعبادة الملائكة وتماثيلها ، والتعبد للجن وأرواحها ، وسائر هذه التصورات المضطربة المفككة التي تتألف منها العقيدة الجاهلية .. وبين الصورة الباهرة التي يرسمها القرآن للذات الإلهية الواحدة وعظمتها وقدرتها ، وتعلق إرادتها بكل مخلوق .

كذلك كانت النقلة عظيمة بين الطبقة السائدة في الجزيرة ، والكهانة السائدة في ديارها ، واختصاص طبقات بالذات بالسيادة والشرف وسدانة الكعبة والقيام بينها وبين العرب الآخرين .. وبين البساطة والمساواة أمام الله والاتصال المباشر بينه وبين عباده كما جاء بها القرآن .

ومثلها كانت النقلة بين الأخلاق السائدة في الجاهلية والأخلاق التي جاء القرآن يبشر بها ، وجاء محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعو إليها ويمثلها .

وكانت هذه النقلة وحدها كافية للتصادم بين العقيدة الجديدة وبين قريش ومعتقداتها وأخلاقها . ولكن هذه لم تكن وحدها . فقد كان إلى جانبها اعتبارات - ربما كانت أضخم في تقدير قريش من العقيدة ذاتها - على ضخامتها . كانت هناك الاعتبارات الاجتماعية التي دعت بعضهم أن يقول كما حكى عنهم القرآن الكريم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » .. والقريتان هما مكة والطائف . فإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع شرف نسبه ، وأنه في الذؤابة من قريش ، لم تكن له مشيخة فيهم ولا رئاسة قبل البعثة . بينما كان هناك مشيخة قريش ومشيخة ثقيف وغيرهما ، في بيئة تجعل للمشايخ والرئاسة القبلية كل الاعتبار . فلم يكن من السهل الانقياد خلف محمد - صلى الله عليه وسلم - من هؤلاء المشيخة !

وكانت هناك الاعتبارات العائلية التي تجعل رجلاً كأبي جهل (عمرو بن هشام) يأبى أن يسلم بالحق الذي يواجهه بقوة في الرسالة الإسلامية ، لأن نبيها من بني عبد مناف .. وذلك كما ورد في قصته مع الأخنس بن شريق وأبي سفيان بن حرب ، حين خرجوا ثلاث ليال يستمعون القرآن خفية ، وهم في كل ليلة يتواعدون على عدم العودة خيفة أن يراهم الناس فيقع في نفوسهم شيء . فلما سأل الأخنس بن شريق أبا جهل رأيه فيما سمع من محمد كان جوابه : « ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . حتى إذا تجاثينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء . فتنى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! » .

وكانت هناك اعتبارات أخرى نفعية وطبقية ونفسية من ركام الجاهلية في المشاعر والتصورات والأوضاع كلها تحاول قتل تلك الغرسة الجديدة في مغرسها بكل وسيلة قبل أن تثبت جذورها وتعمق ، وقبل أن تمتد فروعها وتشابك . وبخاصة بعد أن تجاوزت دور الدعوة الفردية ؛ وأمر الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجهر بالدعوة ؛ وأخذت معالم الدعوة الجديدة تبرز ، كما أخذ القرآن ينتزل بتسفيه عقيدة الشرك وما وراءها من الآلهة المدعاة والتصورات المنحرفة والتقاليد الباطلة .

والرسول - صلى الله عليه وسلم - ولو أنه نبي ، ولو أنه يتلقى من ربه الوحي ، ولو أنه يتصل بالملأ الأعلى .. هو بشر ، تخالجه مشاعر البشر . وكان يتلقى هذه المقاومة العنيفة ، وتلك الحرب التي شنها عليه المشركون ، ويعاني وقعها العنيف الأليم ، هو والحفنة القليلة التي آمنت به على كره من المشركين .

وكان - صلى الله عليه وسلم - يسمع والمؤمنون به يسمعون ، ما كان يتقوله عليه المشركون ، ويتطاولون به على شخصه الكريم ، « ويقولون : إنه لمجنون » .. ولم تكن هذه إلا واحدة من السخریات الكثيرة : التي حكاها القرآن في السور الأخرى ؛ والتي كانت توجه إلى شخصه - صلى الله عليه وسلم - وإلى الذين آمنوا معه . وغير الأذى الذي كان يصيب الكثيرين منهم على أيدي أقربائهم الأقربين !
والسخرية والاستهزاء - مع الضعف والقلة - مؤذيان أشد الإيذاء للنفس البشرية ، ولو كانت هي نفس رسول .

ومن ثم نرى في السور المكية - كسور هذا الجزء - أن الله كأنما يحتضن - سبحانه - رسوله والحفنة المؤمنة معه ، ويواسيه ويسري عنه ، ويثني عليه وعلى المؤمنين . ويرز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبينا الكريم . وينبي ما يقوله المتقولون عنه ، ويطمئن قلوب المستضعفين بأنه هو يتولى عنهم حرب أعدائهم ، ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء !

ونجد من هذا في سورة القلم مثل قوله تعالى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - :
« ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم » ..
وقوله تعالى عن المؤمنين :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! » ..
ويقول عن أحد أعداء النبي البارزين :

« ولا تطفئ كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تنلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم ! » ..
ثم يقول عن حرب المكذبين عامة :

« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين » ..
وذلك غير عذاب الآخرة المذل للمتكبرين :

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

ويضرب لهم أصحاب الجنة - جنة الدنيا - مثلاً على عاقبة البطر تهديداً لكبراء قريش المعتزين بأموالهم وأولادهم ممن لهم مال وبنون ؛ الكائدون للدعوة بسبب مالهم من مال وبنين .

وفي نهاية السورة يوصي النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصبر الجميل : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت .. » .

ومن خلال هذه المواساة وهذا الثناء وهذا التثبيت ، مع الحملة القاصمة على المكذبين والتهديد الرهيب ، يتولى الله - سبحانه - بذاته حربهم في ذلك الأسلوب العنيف .. من خلال هذا كله تنبئ ملامح تلك الفترة ، فترة الضعف والقلة ، وفترة المعاناة والشدة ، وفترة المحاولة القاسية لغرس تلك الغرسة الكريمة في تلك التربة العنيدة !
كذلك نلمح من خلال أسلوب السورة وتعبيرها وموضوعاتها ملامح البيئة التي كانت الدعوة الإسلامية تواجهها . وهي ملامح فيها سذاجة وبدائية في التصور والتفكير والمشاغرة والاهتمامات والمشكلات على السواء . نلمح هذه السذاجة في طريقة محاربتهم للدعوة بقولهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - « إنه لمجنون » !

وهواتهام لا حبكة فيه ولا براعة ، وأسلوب من لا يجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان ، كما يفعل السذج البدائيون .

ونلمحها في الطريقة التي يرد الله بها عليهم فريتهم رداً يناسب حالهم : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون . بأيكم الفتون » .. وكذلك في التهديد المكشوف العنيف : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث . سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملي لهم إن كيدي متين » ..

ونلمحها في رد هذا السب على رجل منهم : « ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم ... » .

ونلمحها في القصة - قصة أصحاب الجنة - التي ضربها الله لهم . وهي قصة قوم سذج في تفكيرهم وتصورهم وبطورهم ، وفي حركاتهم كذلك وأقوالهم « وهم يتخافتون . ألا يدخلنَّها اليوم عليكم مسكين .. الخ » .

وأخيراً نلمح سذاجتهم من خلال ما يوجهه إليهم من الجدل : « أم لكم كتاب فيه تدرسون : إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » ... وهي ملامح تظهر بوضوح من خلال التعبير القرآني ، وتفيد في دراسة السيرة ووقائعها وخطوات الدعوة فيها ؛ ومدى ما ارتفع القرآن بعد ذلك بهذه البيئة وبذلك الجماعة في أواخر عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومدى ما نقلها من هذه السذاجة في التفكير والتصور والشعور والاهتمام . كما يتضح في أساليب الخطاب فيما بعد ، وفي الحقائق والمشاعر والتصورات والاهتمامات بعد عشرين عاماً لا تزيد . وهي في حياة الأمم ومضة لا تذكر . ولا تقاس إليها تلك النقلة الواسعة الشاملة .. التي انتقلتها الجماعة في هذا الوقت القصير . والتي تسلمت بها قيادة البشرية فارتفعت بتصوراتها وأخلاقها إلى القمة التي لم ترتفع إليها قيادة قط في تاريخ البشرية ، لا من ناحية طبيعة العقيدة ، ولا من ناحية آثارها الواقعية في حياة الإنسان في الأرض ، ولا من ناحية السعة والشمول لتضم الإنسانية كلها بين جوانحها في سماحة وعطف ، وفي تلبية لكل حاجاتها الشعورية ، وحاجاتها الفكرية ، وحاجاتها الاجتماعية ، وحاجاتها التنظيمية في شتى الميادين ..

إنها المعجزة تتجلى في النقلة من هذه السذاجة التي تبدو ملامحها من خلال مثل هذه السورة إلى ذلك العمق والشمول . وهي نقلة أوسع وأكبر من تحول القلة إلى كثرة ، والضعف إلى قوة ، لأن بناء النفوس والعقول أعسر من بناء الأعداد والصفوف .

* * *

« ن ، والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم الفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين . فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . إذا تلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخراطوم » ..

يقسم الله - سبحانه - بنون ، وبالقلم ، وبالكتاب . والعلاقة واضحة بين الحرف (نون) . بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .. فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها ، في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلقة ونادرة ، في الوقت الذي كان دورها المقدر لها في

علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة فيها ، وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة . وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

وما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحي بقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .. وأن يكون هذا الخطاب موجهاً للنبي الأمي - الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة معينة - ولكنه بدأ الوحي إليه منوهاً بالقراءة والتعليم بالقلم . ثم أكد هذه اللفتة هنا بالقسم بنون ، والقلم وما يسطرون . وكان هذا حلقة من المنهج الإلهي لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الضخم الذي قدره لها في علمه المكنون .

* * *

يقسم الله - سبحانه - بنون والقلم وما يسطرون ، منوهاً بقيمة الكتابة معظماً لشأنها كما أسلفنا لينبي عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - تلك القرية التي رماه بها المشركون ، مستبعداً لها ، ونعمته على رسوله ترفضها . « ما أنت بنعمة ربك بمجنون » ..

فيثبت في هذه الآية القصيرة وينبي .. يثبت نعمة الله على نبيه ، في تعبير يوحى بالقرنى والمودة : حين يضيفه سبحانه إلى ذاته : « ربك » . وينبي تلك الصفة المفتراة التي لا تجتمع مع نعمة الله ، على عبد نسبه إليه وقربه واصطفاه ..

وإن العجب ليأخذ كل دارس لسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قومه ، من قولتهم هذه عنه ، وهم الذين علموا منه رجاحة العقل حتى حكموه بينهم في رفع الحجر الأسود قبل النبوة بأعوام كثيرة . وهم الذين لقبوه بالأمين ، وظلوا يستودعونهم أماناتهم حتى يوم هجرته ، بعد عدائهم العنيف له ، فقد ثبت أن علياً - كرم الله وجهه - تخلف عن رسول الله أياماً في مكة ، ليرد إليهم ودائعهم التي كانت عنده ؛ حتى وهم يحادونه ويعادونه ذلك العداء العنيف . وهم الذين لم يعرفوا عليه كذبة واحدة قبل البعثة . فلما سأل هرقل أبا سفيان عنه : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل نبوته ؟ قال أبو سفيان - وهو عدوه قبل إسلامه - لا ، فقال هرقل : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله !

إن الإنسان ليأخذه العجب أن يبلغ الغيظ بالناس إلى الحد الذي يدفع مشركي قريش إلى أن يقولوا هذه القولة وغيرها عن هذا الإنسان الرفيع الكريم ، المشهور بينهم برجاحة العقل وبالخلق القويم . ولكن الحقد يعمي ويصم ، والغرض يقذف بالفرية دون تحرج ! وقائلها يعرف قبل كل أحد ، أنه كذاب أثم !

« ما أنت بنعمة ربك بمجنون » .. هكذا في عطف وفي إيناس وفي تكريم ، رداً على ذلك الحقد الكافر ، وهذا الافتراء الذميم .

« وإن لك لأجراً غير ممنون » ..

وإن لك لأجراً دائماً موصولاً ، لا ينقطع ولا ينتهي ، أجراً عند ربك الذي أنعم عليك بالنبوة ومقامها الكريم .. وهو إيناس كذلك وتسرية وتعويض فائض غامر عن كل حرمان وعن كل جفوة وعن كل بهتان يرميه به المشركون . وماذا فقد من يقول له ربه : « وإن لك لأجراً غير ممنون » ؟ في عطف وفي مودة وفي تكريم ؟

* * *

ثم نجيء الشهادة الكبرى والتكريم العظيم :

« وإنك لعلی خلق عظیم .. »

وتتجاوب أرجاء الوجود بهذا الثناء الفريد علی النبي الكريم ؛ ويثبت هذا الثناء العلوي في صميم الوجود ! ويعجز كل قلم ، ويعجز كل تصور ، عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب الوجود ، وهي شهادة من الله ، في ميزان الله ، لعبد الله ، يقول له فيها : « وإنك لعلی خلق عظیم » . ومدلول الخلق العظيم هو ما هو عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين !

ودلالة هذه الكلمة العظيمة علی عظمة محمد - صلى الله عليه وسلم - تبرز من نواح شتى :

تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال ، يسجلها ضمير الكون ، وتثبت في كيانه ، وتتردد في الملاء الأعلى إلى ما شاء الله .

وتبرز من جانب آخر ، من جانب إطاقة محمد - صلى الله عليه وسلم - لتلقيها . وهو يعلم من ربه هذا ، قائل هذه الكلمة . ما هو ؟ ما عظمته ؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة ، التي يدرك هو منها مالا يدركه أحد من العالمين .

إن إطاقة محمد - صلى الله عليه وسلم - لتلقي هذه الكلمة ، من هذا المصدر ، وهو ثابت ، لا ينسحق تحت ضغطها الهائل - ولو أنها ثناء - ولا تتأرجح شخصيته تحت وقعها وتضطرب .. تلقيه لها في طمأنينة وفي تماسك وفي توازن .. هو ذاته دليل علی عظمة شخصيته فوق كل دليل .

ولقد رويت عن عظمة خلقه في السيرة ، وعلى لسان أصحابه روايات متنوعة كثيرة . وكان واقع سيرته أعظم شهادة من كل ما روي عنه . ولكن هذه الكلمة أعظم بدالاتها من كل شيء آخر . أعظم بصدورها عن العلي الكبير . وأعظم بتلقي محمد لها وهو يعلم من هو العلي الكبير ، وبقاءه بعدها ثابتاً راسخاً مطمئناً . لا يتكبر علی العباد ، ولا ينتفخ ، ولا يتعاضم ، وهو الذي سمع ما سمع من العلي الكبير !

والله أعلم حيث يجعل رسالته . وما كان إلا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعظمة نفسه هذه - من يحمل هذه الرسالة الأخيرة بكل عظمتها الكونية الكبرى . فيكون كفتاً لها ، كما يكون صورة حية منها .

إن هذه الرسالة من الكمال والجمال ، والعظمة والشمول ، والصدق والحق ، بحيث لا يحملها إلا الرجل الذي يثني عليه الله هذا الثناء . فتطبيق شخصيته كذلك تلقي هذا الثناء . في تماسك وفي توازن ، وفي طمأنينة . طمأنينة القلب الكبير الذي يسع حقيقة تلك الرسالة وحقيقة هذا الثناء العظيم . ثم يتلقى - بعد ذلك - عتاب ربه له ومؤاخذته إياه علی بعض تصرفاته ، بذات التماسك وذات التوازن وذات الطمأنينة . ويعلن هذه كما يعلن تلك ، لا يكتم من هذه شيئاً ولا تلك .. وهو هو في كلتا الحالتين النبي الكريم . والعبد الطائع . والمبلغ الأمين .

إن حقيقة هذه النفس من حقيقة هذه الرسالة . وإن عظمة هذه النفس من عظمة هذه الرسالة . وإن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية لأبعد من مدى أي مجهر يملكه بشر . وقصارى ما يملكه راصد لعظمة هذه الحقيقة المزروجة أن يراها ولا يحدد مداها . وأن يشير إلى مسارها الكوني دون أن يحدد هذا المسار !

ومرة أخرى أجد نفسي مشدوداً للوقوف إلى جوار الدلالة الضخمة لتلقي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهذه الكلمة من ربه ، وهو ثابت راسخ متوازن مطمئن الكيان .. لقد كان - وهو بشر - يثني علی أحد أصحابه ، فيهتر

كيان صاحبه هذا وأصحابه من وقع هذا الثناء العظيم . وهو بشر وصاحبه يعلم أنه بشر . وأصحابه يدركون أنه بشر . إنه نبي نعم . ولكن في الدائرة المعلومة الحدود . دائرة البشرية ذات الحدود . . فأما هو فيتلقى هذه الكلمة من الله . وهو يعلم من هو الله . هو بخاصة يعلم من هو الله ! هو يعلم منه مالا يعلمه سواه . ثم يصطبر ويتأسك ويتلقى ويسير . . إنه أمر فوق كل تصور وفوق كل تقدير ! ! !

إنه محمد - وحده - هو الذي يرقى إلى هذا الأفق من العظمة . . إنه محمد - وحده - هو الذي يبلغ قمة الكمال الإنساني المجانس لنفخة الله في الكيان الإنساني . إنه محمد - وحده - هو الذي يكافئ هذه الرسالة الكونية العالمية الإنسانية ؛ حتى لتتمثل في شخصه حية ، تمشي على الأرض في إهاب إنسان . . إنه محمد - وحده الذي علم الله منه أنه أهل لهذا المقام . والله أعلم حيث يجعل رسالته - وأعلن في هذه أنه على خلق عظيم . وأعلن في الأخرى أنه - جل شأنه وتقدست ذاته وصفاته ، يصلي عليه هو وملائكته « إن الله وملائكته يصلون على النبي » . وهو - جل شأنه - وحده القادر على أن يهب عبداً من عباده ذلك الفضل العظيم . .

* * *

ثم إن لهذه اللفتة دلالتها على تمجيد العنصر الأخلاقي في ميزان الله ؛ وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسلامية كأصالة الحقيقة المحمدية .

والناظر في هذه العقيدة ، كالناظر في سيرة رسولها ، يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها ، تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء . . الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والصدق والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ، ومطابقة القول للفعل ، ومطابقتها معاً للنية والضمير ؛ والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل ، والاعتداء على الحرمات والأعراض ، وإشاعة الفاحشة بأية صورة من الصور . . والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك ، وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع . وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء .

والرسول الكريم يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . . فيلخص رسالته في هذا الهدف النبيل . وتتوارد أحاديثه ترى في الحض على كل خلق كريم . وتقوم سيرته الشخصية مثلاً حياً وصفحة نقية ، وصورة رفيعة ، تستحق من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد : « وإنا لعلى خلق عظيم » . . فيمجد بهذا الثناء نبيه - صلى الله عليه وسلم - كما يمجده به العنصر الأخلاقي في منهجه الذي جاء به هذا النبي الكريم ، ويشد به الأرض إلى السماء ، ويعلق به قلوب الراغبين إليه - سبحانه - وهو يد لهم على ما يحب ويرضى من الخلق القويم .

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام . فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة ، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقاً ؛ وهي لا تستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العرف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجليل . إنما تستمد من السماء وتعتمد على السماء . تستمد من هتاف السماء للأرض لكي تتطلع إلى الأفق . وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة ، كي يحققوا إنسانيتهم العليا ، وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلاصهم في الأرض ؛ وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى : « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . . ومن ثم فهي غير مقيدة ولا محدودة بحدود من أي اعتبارات قائمة في الأرض ؛ إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يطيقه البشر ، لأنها تتطلع إلى تحقيق صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد .

ثم إنها ليست فضائل مفردة : صدق . وأمانة . وعدل . ورحمة . وبر إنما هي منهج متكامل ، تتعاون

فيه التربية التهذيبية مع الشرائع التنظيمية ؛ وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً ، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله . لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة !

وقد تمثلت هذه الأخلاقية الإسلامية بكمالها وجمالها وتوازنها واستقامتها واطرادها وثباتها في محمد - صلى الله عليه وسلم - وتمثلت في ثناء الله العظيم ، وقوله : « وإنك لعلی خلق عظیم » ..

* * *

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنه إلى غده مع المشركين ، الذين رموه بذلك البهت اللثيم ؛ ويهددهم بافتضاح أمرهم وانكشاف بطلانهم وضلالهم المبين :

« فستبصرون . بأيكم المفتون . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » ..

والمفتون الذي يطمئن الله نبيه إلى كشفه وتعيينه هو الضال . أو هو الممتحن الذي يكشف الامتحان عن حقيقته . وكلا المدلولين قريب من قريب .. وهذا الوعد فيه من الطمأنينة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين معه ، بقدر ما فيه من التهديد للمناوئين له المفتين عليه .. أياً كان مدلول الجنون الذي رموه به . والأقرب إلى الظن أنهم لم يكونوا يقصدون به ذهاب العقل . فالواقع يكذب هذا القول . إنما كانوا يعنون به مخالطة الجنة له ، وإيحاءهم إليه بهذا القول الغريب البديع - كما كانوا يظنون أن لكل شاعر شيطاناً هو الذي يمدد ببديع القول ! - وهو مدلول بعيد عن حقيقة حال النبي - صلى الله عليه وسلم - وغريب عن طبيعة ما يوحى إليه من القول الثابت الصادق المستقيم .

وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشف عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه . ويثبت أيهم الممتحن بما هو فيه ؛ أو أيهم الضال فيما يدعيه . ويطمئنه إلى أن ربه « هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .. وربه هو الذي أوحى إليه ، فهو يعلم أنه المهتدي ومن معه . وفي هذا ما يطمئنه وما يقلق أعداءه ، وما يبعث في قلوبهم التوجس والقلق لما سيحيي !

* * *

ثم يكشف الله له عن حقيقة حالهم ، وحقيقة مشاعرهم ، وهم يخاصمونهم ويجادلونهم في الحق الذي معه ، ويرمونهم بما يرمونه ، وهم مزعزعو العقيدة فيما لديهم من تصورات الجاهلية ، التي يتظاهرون بالتصميم عليها . إنهم على استعداد للتخلي عن الكثير منها في مقابل أن يتخلى هو عن بعض ما يدعوههم إليه ! على استعداد أن يدهنوا ويلينوا ويحافظوا فقط على ظاهر الأمر لكي يدهن هو لهم ويلين .. فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق ، وإنما هم أصحاب ظواهر يهيمهم أن يستروها :

« فلا تطع المكذبين . ودوا لوتدھن فيدھنون » ..

فهي المساومة إذن ، والالتقاء في منتصف الطريق . كما يفعلون في التجارة . وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير ! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها ؛ لأن الصغير منها كالكبير . بل ليس في العقيدة صغير وكبير . إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء . لا يطيع فيها صاحبها أحداً ، ولا يتخلى عن شيء منها أبداً .

وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ، ولا أن يلتقيا في أي طريق . وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان . جاهلية الأمس وجاهلية اليوم ، وجاهلية الغد كلها سواء . إن الهوة

بينها وبين الإسلام لا تعبر ، ولا تقام عليها قنطرة ، ولا تقبل قسمة ولا صلة . وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق !

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليدهن لهم ويلين ؛ ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم ، أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه ، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب ! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول ! ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان حاسماً في موقفه من دينه ، لا يدهن فيه ولا يلين . وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانباً وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرصهم على اليسر والتيسير . فأما الدين فهو الدين ! وهو فيه عند توجيه ربه : « فلا تطع المكذبين » !

ولم يساوم - صلى الله عليه وسلم - في دينه وهو في أخرج المواقف العصبية في مكة . وهو محاصر بدعوته . وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون . ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجوه الأقوياء المتجبرين ، تأليفاً لقلوبهم ، أو دفعاً لأذاهم . ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمس العقيدة من قريب أو من بعيد . .

روى ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق قال :

« فلما بادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه بالإسلام . وصدع به كما أمره الله ، لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه - فيما بلغني - حتى ذكر آلهتهم وعابها . فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته - إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام وهم قليل مستخفون - وحذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمه أبو طالب ومنعه ، وقام دونه ، ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أمر الله مظهراً لأمره ، لا يرده عنه شيء .

« فلما رأت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حذب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب . . عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبوسفيان بن حرب بن أمية . وأبوالبختری واسمه العاص بن هشام . والأسود بن المطلب بن أسد . وأبو جهل (واسمه عمرو بن هشام وكان يكنى أبا الحكم) والوليد بن المغيرة ، ونبیه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر . . أو من مشى منهم . . فقالوا : يا أبا طالب . إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ؛ فنكفيكه ! فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه .

« ومضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما هو عليه : يظهر دين الله ، ويدعوا إليه . ثم شري الأمر بينه وبينهم حتى تباعدوا وتضاغنوا ، وأكثر قريش ذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتذا مروا^٢ فيه . وحض بعضهم بعضاً عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى . فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومترلة فينا . وإنا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ؛ وإنا والله لا نصبر على هذا : من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين - أو كما قالوا

(١) زاد واشتد .

(٢) تغيطوا وحض بعضهم بعضاً عليه .

له . . ثم انصرفوا عنه . فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهم ولا خذلانه . قال ابن إسحق : وحدثني يعقوب بن عقبة بن المغيرة بن الأخنس ، أنه حدث ، أن قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له : يا بن أخي . إن قومك قد جاءوني فقالوا لي : كذا وكذا (للذي كانوا قالوا له) فأبقي علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . قال : فظن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قد بدا لعمه فيه بداء ، وأنه خاذله ومسلمه وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه . قال : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . . قال : واستعبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبكى . ثم قام . فلما ولى ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا بن أخي . قال : فأقبل عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » .

فهذه صورة من إصرار النبي - صلى الله عليه وسلم - على دعوته في اللحظة التي تخلى عنه فيها عمه . حاميه وكافيه ، وآخر حصن من حصون الأرض يمنعه المتربصين به المتذامرين فيه !

هذه هي صورة قوية رائعة جديدة في نوعها من حيث حقيقتها ، ومن حيث صورها وظلالها ومن حيث عباراتها وألفاظها . . . جديدة جدة هذه العقيدة ، رائعة روعة هذه العقيدة ، قوية قوة هذه العقيدة . فيها مصداق قول الله العظيم : « وإنك لعلی خلق عظيم » .

وصورة أخرى رواها كذلك ابن اسحق ، كانت في مساومة مباشرة من المشركين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد إذ أعياهم أمره ، ووثبت كل قبيلة على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه .

قال ابن إسحق : وحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش . ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزدبون ويكثرون . فقالوا : يا أبا الوليد قم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا بن أخي . إنك منا حيث علمت : من السطة^١ في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل يا أبا الوليد أسمع » . . قال : يا بن أخي . إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك . وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه ! - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يستمع منه قال : « أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع مني » . قال : أفعل . فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن

(١) أي المنزلة الرفيعة المهيبة .

الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون . قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين . . . » ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه . ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى السجدة منها فسجد . ثم قال . « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت . فأنت وذاك » . . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأيي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم . فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم . وإن يظهر على العرب فلكم ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . .

وفي رواية أخرى أن عتبة استمع حتى جاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى قوله تعالى : « فإن أعرضوا قفل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » . . فقام مذعوراً فوضع يده على فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : أنشدك الله والرحم يا محمد ! وذلك مخافة أن يقع النذير . وقام إلى القوم فقال ما قال !

وعلى أية حال فهذه صورة أخرى من صور المساومة . وهي كذلك صورة من صور الخلق العظيم . تبدو في أدبه - صلى الله عليه وسلم - وهو يستمع إلى عتبة حتى يفرغ من قوله الفارغ الذي لا يستحق الانتباه من مثل محمد - صلى الله عليه وسلم - في تصويره لقيم هذا الكون ، وفي ميزانه للحق ولعرض هذه الأرض . ولكن خلقه يمسك به لا يقاطع ولا يتعجل ولا يغضب ولا يضجر ، حتى يفرغ الرجل من مقالته ، وهو مقبل عليه . ثم يقول في هدوء : « أفد فرغت يا أبا الوليد ؟ » زيادة في الإملاء والتوكيد . إنها الطمأنينة الصادقة للحق مع الأدب الرفيع في الاستماع والحديث . . وهما معاً بعض دلالة الخلق العظيم .

وصورة ثالثة للمساومة فيما رواه ابن اسحق قال :

« واعترض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهويطوف بالكعبة - فيما بلغني - الأسود بن المطلب بن أسد ابن عبد العزى والوليد بن المغيرة ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل السهمي . وكانوا ذوي أسنان في قومهم . فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر . فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ! فأنزل الله تعالى فيهم : « قل : يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون » : السورة كلها . .

وحسم الله المساومة المضحكة بهذه المفاصلة الجازمة . وقال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما أمره ربه أن يقول . . .

* * *

ثم يبرز قيمة العنصر الأخلاقي مرة أخرى في نهى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن إطاعة أحد هؤلاء المكذبين بالذات ، ويصفه بصفاته المزرية المنفرة ، ويتوعده بالإذلال والمهانة :

« ولا تطع كل حلاف مهين . هازم شاء بنميم . منع للخير معتد أثم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال

وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم » ..

وقد قيل : إنه الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذي نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مალأ ممدوداً ، وبنين شهوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا ! ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدّر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر » ..

ورويت عنه مواقف كثيرة في الكيد لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنذار أصحابه ، والوقوف في وجه الدعوة ، والصد عن سبيل الله .. كما قيل : إن آيات سورة القلم نزلت في الأخنس بن شريق .. وكلاهما كان ممن خاصموا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولجوا في حربه والتأليب عليه أمدأ طويلاً .

وهذه الحملة القرآنية العنيفة في هذه السورة ، والتهديدات القاصمة في السورة الأخرى ، وفي سواها ، شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أو الأخنس والأول أرجح ، في حرب الرسول والدعوة ، كما هي شاهد على سوء طويته ، وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

والقرآن يصفه هنا بتسع صفات كلها ذميمة ..

فهو حلاف .. كثير الحلف . ولا يكثر الحلف إلا إنسان غير صادق ، يدرك أن الناس يكذبونه ولا يثقون به ، فيحلف ويكثر من الحلف ليداري كذبه ، ويستجلب ثقة الناس .

وهو مهين .. لا يحترم نفسه ، ولا يحترم الناس قوله . وآية مهانته حاجته إلى الحلف ، وعدم ثقته بنفسه وعدم ثقة الناس به . ولو كان ذا مال وذا بنين وذا جاه . فالمهانة صفة نفسية تلصق بالمرء ولو كان سلطاناً طاغية جباراً . والعزة صفة نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا !

وهو هماز .. يهمز الناس ويعيهم بالقول والإشارة في حضورهم أو في غيبتهم سواء . وخلق الهمز يكرهه الإسلام أشد الكراهية ؛ فهو يخالف المروءة ، ويخالف أدب النفس ، ويخالف الأدب في معاملة الناس وحفظ كراماتهم صغروا أم كبروا . وقد تكرر ذم هذا الخلق في القرآن في غير موضع ؛ فقال : « ويل لكل همزة لمزة » .. وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن . ولا تلمزوا أنفسكم . ولا تنابزوا بالألقاب » وكلها أنواع من الهمز في صورة من الصور ..

وهو مشاء بنميم . يمشي بين الناس بما يفسد قلوبهم ، ويقطع صلاتهم ، ويذهب بموداتهم . وهو خلق ذميم كما أنه خلق مهين ، لا يتصف به ولا يقدم عليه إنسان يحترم نفسه أو يرجو لنفسه احتراماً عند الآخرين . حتى أولئك الذين يفتحون آذانهم للنمام ، ناقل الكلام ، المشاء بالسوء بين الأوداء . حتى هؤلاء الذين يفتحون آذانهم له لا يحترمونه في قرارة نفوسهم ولا يودونه .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينهى أن ينقل إليه أحد ما يغير قلبه على صاحب من أصحابه . وكان يقول : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر »^١ .

وثبت في الصحيحين من حديث مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : مر رسول الله - صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم - بقبرين ، فقال : « إنهما لعذبان ، وما يعذبان في كبير . أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث ابن مسعود .

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن حذيفة قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « لا يدخل الجنة قتات » أي تمام (ورواه الجماعة إلا ابن ماجه) .

وروى الإمام أحمد كذلك - بإسناده - عن يزيد بن السكن . أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العيب » .

ولم يكن بد للإسلام أن يشدد في النهي عن هذا الخلق الذميمة الوضع ، الذي يفسد القلب ، كما يفسد الصحب ، ويتدن بالقاتل قبل أن يفسد بين الجماعة ، ويأكل قلبه وخلقه قبل أن يأكل سلامة المجتمع ، ويفقد الناس الثقة بعضهم ببعض ، ويجني على الأبرياء في معظم الأحيان !

وهو مناع للخير .. يمنع الخير عن نفسه وعن غيره . ولقد كان يمنع الإيمان وهو جماع الخير . وعرف عنه أنه كان يقول لأولاده وعشيرته ، كلما آنس منهم ميلاً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - : لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبداً . فكان يمنعهم بهذا التهديد عن الإسلام . ومن ثم سجل القرآن عليه هذه الصفة « مناع للخير » فيما كان يفعل ويقول .

وهو معتد .. متجاوز للحق والعدل إطلاقاً . ثم هو معتد على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى المسلمين وعلى أهله وعشيرته الذين يصددهم عن الهدى ويمنعهم من الدين .. والاعتداء صفة ذميمة تنال من عناية القرآن والحديث اهتماماً كبيراً .. وينهى عنها الإسلام في كل صورة من صورها ، حتى في الطعام والشراب : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه » .. لأن العدل والاعتدال طابع الإسلام الأصيل .

وهو أثيم .. يرتكب المعاصي حتى يحق عليه الوصف الثابت . « أثيم » .. بدون تحديد لنوع الآثام التي يرتكبها . فالتجاه التعبير إلى إثبات الصفة ، والصاقها بالنفس كالطبع المقيم !

وهو بعد هذا كله « عتل » .. وهي لفظة تعبر بجرسها وظلها عن مجموعة من الصفات ومجموعة من السيئات ، لا تبلغها مجموعة ألفاظ وصفات . فقد يقال : إن العتل هو الغليظ الجافي . وإنه الأكل الشراب . وإنه الشره المنوع . وإنه اللفظ في طبعه ، اللثيم في نفسه ، السيئ في معاملته .. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : « العتل كل رغب الجوف ، وثيق الخلق ، أكل شراب ، جموع للمال ، منوع له » .. ولكن تبقى كلمة « عتل » بذاتها أدل على كل هذا ، وأبلغ تصويراً للشخصية الكريهة من جميع الوجوه .

وهو زنيم .. وهذه خاتمة الصفات الكريهة المتجمعة في عدو من أعداء الإسلام - وما يعادي الإسلام ويصر على عداوته إلا أناس من هذا الطراز الذميمة - والزنيم من معانيه اللصيق في القوم لا نسب له فيه ، أو أن نسبه فيه ظنين . ومن معانيه ، الذي اشتهر وعرف بين الناس بلؤمه وخبثه وكثرة شروره . والمعنى الثاني هو الأقرب في حالة الوليد بن المغيرة . وإن كان إطلاق اللفظ يدمغه بصفة تدعه مهيناً في القوم ، وهو المختال الفخور .

ثم يعقب على هذه الصفات الذاتية بموقفه من آيات الله ، مع التشنيع بهذا الموقف الذي يجزي به نعمة الله عليه بالمال والبنين :-

« أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » ..

وما أقبح ما يجزي إنسان نعمة الله عليه بالمال والبنين ؛ استهزاء بآياته ، وسخرية من رسوله ، واعتداء على دينه .. وهذه وحدها تعدل كل ما مر من وصف ذميم .

ومن ثم يجيء التهديد من الجبار القهار ، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين ؛ كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونسبه .. ويسمع وعد الله القاطع :
« سنسمه على الخرطوم » ..

ومن معاني الخرطوم طرف أنف الخنزير البري .. ولعله هو المقصود هنا كناية عن أنفه ! والأنف في لغة العرب يكنى به عن العزة فيقال : أنف أشم للعزيز . وأنف في الرغام للدليل .. أي في التراب ! ويقال ورم أنفه وحمي أنفه ، إذا غضب معتزاً . ومنه الأنفة .. والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوي نوعين من الإذلال والتحقير .. الأول الوسم كما يوسم العبد .. والثاني جعل أنفه خرطوماً كخرطوم الخنزير !

وما من شك أن وقع هذه الآيات على نفس الوليد كان قاصماً .. فهو من أمة كانت تعد هجاء شاعر - ولو بالباطل - مذمة يتوقاها الكريم ! فكيف بدمغه بالحق من خالق السماوات والأرض . بهذا الأسلوب الذي لا يبارى . في هذا السجل الذي تتجاوب بكل لفظ من ألفاظه جنبات الوجود . ثم يستقر في كيان الوجود .. في خلود .. إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم ..

* * *

وبمناسبة الإشارة إلى المال والبنين ، والبطر الذي يبطره المكذبون ، يضرب لهم مثلاً بقصة يبدو أنها كانت معروفة عندهم ، شائعة بينهم ، ويذكرهم فيها بعاقبة البطر بالنعمة ، ومنع الخير والاعتداء على حقوق الآخرين ؛ ويشعرهم أن ما بين أيديهم من نعم المال والبنين ، إنما هو ابتلاء لهم كما ابتلي أصحاب هذه القصة ، وأن له ما بعده ، وأنهم غير متروكين لما هم فيه :

« إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون : ألا يدخلنا اليوم علىكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون . قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون ! قالوا : سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون ، قالوا : يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون .. كذلك العذاب ، وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وهذه القصة قد تكون متداولة ومعروفة ، ولكن السياق القرآني يكشف عما وراء حوادثها من فعل الله وقدرته ، ومن ابتلاء وجزاء لبعض عباده . ويكون هذا هو الجديد في سياقها القرآني .

ومن خلال نصوصها وحركاتها نلمح مجموعة من الناس ساذجة بدائية أشبه في تفكيرها وتصورها وحركتها بأهل الريف البسطاء السذج . ولعل هذا المستوى من النماذج البشرية كان أقرب إلى المخاطبين بالقصة ، الذين كانوا يعاندون ويبحدون ، ولكن نفوسهم ليست شديدة التعقيد ، إنما هي أقرب إلى السذاجة والبساطة !
والقصة من ناحية الأداء تمثل إحدى طرق الأداء الفني للقصة في القرآن ؛ وفيه مفاجآت مشوقة ، كما أن فيه سخرية بالكيد البشري العاجز أمام تدبير الله وكيده . وفيه حيوية في العرض حتى لكأن السامع - أو القارئ - يشهد القصة حية تقع أحداثها أمامه وتتوالى . فلنحاول أن نراها كما هي في سياقها القرآني :

ها نحن أولاء أمام أصحاب الجنة - جنة الدنيا لا جنة الآخرة - وها هم أولاء يبيتون في شأنها أمراً . لقد كان للمساكين حظ من ثمرة هذه الجنة - كما تقول الروايات - على أيام صاحبها الطيب الصالح . ولكن الورثة يريدون أن يستأثروا بثمرها الآن ، وأن يحرموا المساكين حظهم .. فلننظر كيف تجري الأحداث إذن !

« إنا بلونا هم كما بلونا أصحاب الجنة . إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون » .

لقد قرأهم على أن يقطعوا ثمرها عند الصباح الباكر ، دون أن يستثنوا منه شيئاً للمساكين . وأقسموا على هذا ، وعقدوا النية عليه ، وباتوا بهذا الشرف فيما اعتزموه .. فلندعهم في غفلتهم أو في كيدهم الذي بيتوه ، ولننظر ماذا يجري من ورائهم في بهمة الليل وهم لا يشعرون . فإن الله ساهر لا ينام كما ينامون ، وهو يدبر لهم غير ما يدبرون ، جزاء على ما بيتوا من بطر بالنعمة ومنع للخير ، وبخل بنصيب المساكين المعلوم .. إن هناك مفاجأة تتم في خفية . وحركة لطيفة كحركة الأشباح في الظلام . والناس نيام :

« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم »^١ ..

فلندع الجنة وما ألم بها مؤقتاً لننظر كيف يصنع المبيتون الماكرون .

ها هم أولاء يصحون مبكرين كما دبروا ، وينادي بعضهم بعضاً لينفذوا ما اعتزموا :

« فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين » ..

يذكر بعضهم بعضاً ويوصي بعضهم بعضاً ، ويحمس بعضهم بعضاً !

ثم يمضي السياق في السخرية منهم ، فيصورهم منطلقين ، يتحدثون في خفوت ، زيادة في إحكام التدبير ، ليحتجوا الثمر كله لهم ، ويحرموا منه المساكين !

« فانطلقوا وهم يتخافتون : ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين » !!!

وكأنما نحن الذين نسمع القرآن أو نقرؤه نعلم ما لا يعلمه أصحاب الجنة من أمرها .. أجل فقد شهدنا تلك اليد الخفية اللطيفة تمتد إليها في الظلام ، فتذهب بثمرها كله . ورأيناها كأنما هي مقطوعة الثمار بعد ذلك الطائف الخفي الرهيب ! فلنمسك أنفاسنا إذن ، لنرى كيف يصنع الماكرون المبيتون .

إن السياق ما يزال يسخر من الماكرين المبيتين :

« وغدوا على حرد قادرين » !

أجل إنهم لقادرون على المنع والحرمان .. حرمان أنفسهم على أقل تقدير !!

وها هم أولاء يفاجأون . فلننطلق مع السياق ساخرين . ونحن نشهدهم مفاجئين :

« فلما رأوها قالوا : إنا لضالون » ..

ما هذه جنتنا الموقرة بالثمار . فقد ضللنا إليها الطريق ! .. ولكنهم يعودون فيتأكدون :

« بل نحن محرومون » ..

وهذا هو الخبر اليقين !

والآن وقد حاقت بهم عاقبة المكر والتبئيس ، وعاقبة البطر والمنع ، يتقدم أوسطهم وأعقلهم وأصلحهم -

(١) كأنها مقطوعة الثمار . فقد ذهب الطائف الذي طاف عليها بكل ثمرها !

ويبدو أنه كان له رأي غير رأيهم . ولكنه تابعهم عندما خالفوه وهو فريد في رأيه ، ولم يصر على الحق الذي رآه فقال له الحرمان كما نالهم . ولكنه يذكرهم ما كان من نصحه وتوجيهه :

« قال أوسطهم : ألم أقل لكم : لولا تسبحون » ؟ !

والآن فقط يسمعون للناصح بعد فوات الأوان :

« قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين » ..

وكما يتصل كل شريك من التبعة عند ما تسوء العاقبة ، ويتوجه باللوم إلى الآخرين . . ها هم أولاء يصنعون : « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون » !

ثم هاهم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة . عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير :

« قالوا : يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » ..

وقبل أن يسدل السياق الستار على المشهد الأخير نسمع التعقيب :

« كذلك العذاب . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » ..

وكذلك الابتلاء بالنعمة . فليعلم المشركون أهل مكة . « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » ولينظروا ماذا وراء الابتلاء . . ثم ليحذروا ما هو أكبر من ابتلاء الدنيا وعذاب الدنيا :

« ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » !

* * *

وكذلك يسوق إلى قریش هذه التجربة من واقع البيئة ، ومما هو متداول بينهم من القصص ، فيربط بين سنته في الغابرين وسنته في الحاضرين ؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم . وفي الوقت ذاته يشعر المؤمنين بأن ما يرونه على المشركين - من كبراء قریش - من آثار النعمة والثروة إنما هو ابتلاء من الله ، له عواقبه ، وله نتائجه . وسنته أن يبتلي بالنعمة كما يبتلي بالبأساء سواء . فأما المتبطرون المانعون للخير المخدوعون بما هم فيه من نعيم ، فذلك كان مثلاً لعاقبتهم : « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . . وأما المتقنون الحذرون فلهم عند ربهم جنات النعيم :

« إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » ..

وهو التقابل في العاقبة ، كما أنه التقابل في المسلك والحقيقة . . تقابل النقيضين اللذين اختلفت بهما الطريق ، فاختلفت بهما خاتمة الطريق !

* * *

وعند هاتين الخاتمتين يدخل معهم في جدل لا تعقيد فيه كذلك ولا تركيب . ويتحداهم ويحرجهم بالسؤال تلو السؤال عن أمور ليس لها إلا جواب واحد يصعب المغالطة فيه ؛ ويهددهم في الآخرة بمشهد رهيب ، وفي الدنيا بحرب من العزيز الجبار القوي الشديد :

« أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟ أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ أم لهم شركاء ؟

فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين . يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون . فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ !

والتهديد بعذاب الآخرة وحرب الدنيا يجيء - كما نرى - في خلال ذلك الجدل ، وهذا التحدي . فيرفع من حرارة الجدل ، ويزيد من ضغط التحدي .

والسؤال الاستنكاري الأول : « أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ » يعود إلى عاقبة هؤلاء وهؤلاء التي عرضها في الآيات السابقة . وهو سؤال ليس له إلا جواب واحد .. لا . لا يكون . فالمسلمون المذعنون المستسلمون لربهم ، لا يكونون أبداً كالمجرمين الذين يأتون الجريمة عن لجاج يسهم بهذا الوصف الذميمة ! وما يجوز في عقل ولا في عدل أن يتساوى المسلمون والمجرمون في جزاء ولا مصير .

ومن ثم يجيء السؤال الاستنكاري الآخر : « مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ » .. ماذا بكم ؟ وعلام تبنون أحكامكم ؟ وكيف ترنون القيم والأقدار ؟ حتى يستوي في ميزانكم وحكمكم من يسلمون ومن يجرمون ؟ !

ومن الاستنكار والإنكار عليهم ينتقل إلى التهم بهم والسخرية منهم : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ؟ إن لكم فيه لما تخيرون ؟ » .. فهو التهم والسخرية أن يسألهم إن كان لهم كتاب يدرسونه ، هو الذي يستمدون منه مثل ذلك الحكم الذي لا يقبله عقل ولا عدل ؛ وهو الذي يقول لهم : إن المسلمين كالمجرمين ! إنه كتاب مضحك يوافق هواهم ويملق رغباتهم ، فلهم فيه ما يتخيرون من الأحكام وما يشتهون ! وهو لا يرتكن إلى حق ولا إلى عدل ، ولا إلى معقول أو معروف !

« أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ؟ » .. فإن لا يكن ذلك فهو هذا . وهو أن تكون لهم موثيق على الله ، سارية إلى يوم القيامة ، مقتضاها أن لهم ما يحكمون ، وما يختارون وفق ما يشتهون ! وليس من هذا شيء . فلا عهود لهم عند الله ولا موثيق . فعلام إذن يتكلمون ؟ ! وإلام إذن يستندون ؟ !

« سلهم أيهم بذلك زعيم ؟ » .. سلهم من منهم المتعهد بهذا ؟ من منهم المتعهد بأن لهم على الله ما يشاءون ، وأن لهم ميثاقاً عليه ساري المفعول إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون ؟ !

وهو تهكم ساخر عميق بليغ يذيب الوجوه من الحرج والتحدي السافر المكشوف !

« أم لهم شركاء ؟ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين » ..

وهم كانوا يشركون بالله . ولكن التعبير يضيف الشركاء إليهم لا لله . ويتجاهل أن هناك شركاء . ويتحداهم أن يدعوا شركاءهم هؤلاء إن كانوا صادقين .. ولكن متى يدعونهم ؟

« يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » ..

فيفقه وجهاً لوجه أمام هذا المشهد كأنه حاضر اللحظة ، وكأنه يتحداهم فيه أن يأتوا بشركائهم المزعومين . وهذا اليوم حقيقة حاضرة في علم الله لا تنقيد في علمه بزمان . واستحضارها للمخاطبين على هذا النحو يجعل وقعها عميقاً حياً حاضراً في النفوس على طريقة القرآن الكريم .

والكشف عن الساق كناية - في تعبيرات اللغة العربية الماثورة - عن الشدة والكرب . فهو يوم القيامة الذي

يشمر فيه عن الساعد ويكشف فيه عن الساق ، ويشدد الكرب والضيق .. ويدعى هؤلاء المتكبرون إلى السجود فلا يملكون السجود ، إما لأن وقته قد فات ، وإما لأنهم كما وصفهم في موضع آخر يكونون : « مهطعين مقنعي رؤوسهم » وكأن أجسامهم وأعصابهم مشدودة من الهول على غير إرادة منهم ! وعلى أية حال فهو تعبير يشي بالكرب والعجز والتحدي المخيف ..

ثم يكمل رسم هيئتهم : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » .. هؤلاء المتكبرون المتبجحون . والأبصار الخاشعة والذلة المرهقة هما المقابلان للهامات الشامخة والكبرياء المنفوخة . وهي تذكراً بالتهديد الذي جاء في أول السورة : « سنسمه على الخرطوم » .. فايحاء الذلة والانكسار ظاهر عميق مقصود !

وبينا هم في هذا الموقف المرهق الدليل ، يذكرهم بما جرهم إليه من إعراض واستكبار : « وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون » .. قادرون على السجود . فكانوا يأبون ويستكبرون .. كانوا . فهم الآن في ذلك المشهد المرهق الدليل . والدنيا وراءهم . وهم الآن يدعون إلى السجود فلا يستطيعون !
وبينا هم في هذا الكرب ، يحيثهم التهديد الرعب الذي يهد القلوب :
« فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » ..

وهو تهديد مزلزل .. والجبار القهار القوي المتين يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم - : خل بيني وبين من يكذب بهذا الحديث . وذرني لحربه فأنا به كفيل !
ومن هو هذا الذي يكذب بهذا الحديث ؟

إنه ذلك المخلوق الصغير الهزيل المسكين الضعيف ! هذه النملة المضعوفة . بل هذه الهبأة المثورة .. بل هذا العدم الذي لا يعني شيئاً أمام جبروت الجبار القهار العظيم !
فيا محمد . خل بيني وبين هذا المخلوق . واسترح أنت ومن معك من المؤمنين . فالحرب معي لا معك ولا مع المؤمنين . الحرب معي . وهذا المخلوق عدوي ، وأنا سأتولى أمره فدعه لي ، وذرني معه ، واذهب أنت ومن معك فاستريحوا !

أي هول مزلزل للمكذبين ! وأي طمأنينة للنبي والمؤمنين .. المستضعفين .. ؟
ثم يكشف لهم الجبار القهار عن خطة الحرب مع هذا المخلوق الهزيل الصغير الضعيف !
« سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملئ لهم إن كيدي متين » ..

وإن شأن المكذبين ، وأهل الأرض أجمعين ، لأهون وأصغر من أن يدبر الله لهم هذه التدابير .. ولكنه - سبحانه - يحذرهم نفسه ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . وليعلموا أن الأمان الظاهر الذي يدعه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم غارون . وأن إهمالهم على الظلم والبغي والإعراض والضلال هو استدراج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبير من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مثقلين بالذنوب ، مستحقين للعزي والرهق والتعذيب ..

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدراج والتدبير ، عدلاً ولا رحمة . والله سبحانه يقدم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كشف القناع ووضحت الأمور !

إنه سبحانه يمهمل ولا يهمل . ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته

التي قدرها بمشيئته . ويقول لرسوله - صلى الله عليه وسلم - ذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، واخل بيني وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان . فسأمني لهم ، واجعل هذه النعمة فخهم ! فيطمئن رسوله ، ويحذر أعداءه .. ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب !

وفي ظل مشهد القيامة المكروب وظل هذا التهديد المرهوب يكمل الجدل والتحدي والتعجيب من موقفهم الغريب :

« أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ؟ » ..

فتقل الغرامة التي تطلبها منهم أجراً على الهداية هو الذي يدفعهم إلى الإعراض والتكذيب ، ويجعلهم يؤثرون ذلك المصير البشع ، على فداحة ما يؤدون ؟ !

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ » ..

ومن ثم فهم على ثقة مما في الغيب ، فلا يخيفهم ما ينتظرهم فيه ، فقد اطلعوا عليه وكتبوه وعرفوه ؟ أو أنهم هم الذين كتبوا ما فيه . فكتبوه ضامناً لما يشتهون ؟

ولا هذا ولا ذاك ؟ فما لهم يقفون هذا الموقف الغريب المريب ؟ !

* * *

وبذلك التعبير العجيب الموحى الرعيب : « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » .. وبالإعلان عن خطة المعركة والكشف عن سنة الحرب بين الله وأعدائه المخدوعين .. بهذا وذلك يخلي الله النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين من المعركة بين الإيمان والكفر . وبين الحق والباطل . فهي معركة - سبحانه - وهي حربه التي يتولاها بذاته .

والأمر كذلك في حقيقته ، مهما بدا أن للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين دوراً في هذه الحرب أصيلاً . إن دورهم حين ييسره الله لهم هو طرف من قدر الله في حربه مع أعدائه . فهم أداة يفعل الله بها أولاً يفعل . وهو في الحالين فعال لما يريد . وهو في الحالين يتولى المعركة بذاته وفق سنته التي يريد .

وهذا النص نزل والنبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة ، والمؤمنون معه قلة لا تقدر على شيء . فكانت فيه الطمأنينة للمستضعفين ، والفرع للمعتزين بالقوة والجاه والمال والبنين . ثم تغيرت الأحوال والأوضاع في المدينة . وشاء الله أن يكون للرسول ومن معه من المؤمنين دور ظاهر في المعركة . ولكنه هنالك أكد لهم ذلك القول الذي قاله لهم وهم في مكة قلة مستضعفون . وقال لهم وهم منتصرون في بدر : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ، إن الله سميع عليم » ..

وذلك ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة . حقيقة أن المعركة معركة هو سبحانه . وأن الحرب حربه هو سبحانه . وأن القضية قضيته هو سبحانه . وأنه حين يجعل لهم فيها دوراً فإنما ذلك ليبليهم منه بلاء حسناً . وليكتب لهم بهذا البلاء أجراً . أما حقيقة الحرب فهو الذي يتولاها . وأما حقيقة النصر فهو الذي يكتبها .. وهو سبحانه يجريها بهم وبدونهم . وهم حين يخوضونها أداة لقدرته ليست هي الأداة الوحيدة في يده !

وهي حقيقة واضحة من خلال النصوص القرآنية في كل موضع ، وفي كل حال ، وفي كل وضع . كما أنها هي الحقيقة التي تتفق مع التصور الإيماني لقدرة الله وقدره ، ولسنته ومشئته ، ولحقيقة القدرة البشرية التي تنطلق لتحقيق قدر الله .. أداة .. ولن تريد على أن تكون أداة ..

وهي حقيقة تسكب الطمأنينة في قلب المؤمن ، في حالتي قوته وضعفه على السواء . ما دام يخلص قلبه لله ، ويتوكل في جهاده على الله . فقوته ليست هي التي تنصره في معركة الحق والباطل والإيمان والكفر ، إنما هو الله الذي يكفل له النصر . وضعفه لا يهزمه لأن قوة الله من ورائه وهي التي تتولى المعركة وتكفل له النصر . ولكن الله يملئ ويستدرج ويقدر الأمور في مواقيتها وفق مشيئته وحكمته ، ووفق عدله ورحمته .

كما أنها حقيقة تفزع قلب العدو ، سواء كان المؤمن أمامه في حالة ضعف أم في حالة قوة . فليس المؤمن هو الذي ينازله ، إنما هو الله الذي يتولى المعركة بقوته وجبروته . الله الذي يقول لنبیه « فذرني ومن يكذب بهذا الحديث » وخل بيني وبين هذا البائس المتعوس ! والله يملئ ويستدرج فهو في الفخ الرعيب المفزع المخيف ، ولو كان في أوج قوته وعدته . فهذه القوة هي ذاتها الفخ وهذه العدة هي ذاتها المصيدة . . « وأملئ لهم إن كيدي متين » ! أما متى يكون . فذلك علم الله المكنون ! فمن يأمن غيب الله ومكره ؟ وهل يأمن مكر الله إلا القوم الفاسقون ؟

* * *

وأمام هذه الحقيقة يوجه الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر . الصبر على تكاليف الرسالة . والصبر على التواءات النفوس . والصبر على الأذى والتكذيب . الصبر حتى يحكم الله في الوقت المقدر كما يريد . ويذكره بتجربة أخ له من قبل ضاق صدره بهذه التكاليف ، فلولا أن تداركته نعمة الله لنبذ وهو مذموم :

« فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت . إذ نادى وهو مكظوم . لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » . .

وصاحب الحوت هو يونس - عليه السلام - كما جاء في سورة الصافات . وملخص تجربته التي يذكر الله بها محمداً - صلى الله عليه وسلم - لتكون له زاداً ورصيдаً ، وهو خاتم النبيين ، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة ، ليكون هو صاحب الحصاد الأخير ، وصاحب الرصيد الأخير ، وصاحب الزاد الأخير . فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير . عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة . وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد كما كانت مهمة الرسل قبله . وعبء إمداد البشرية بعده بكل أجيالها وكل أقوامها بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب . وكل يوم يأتي بجديد . .

ملخص تلك التجربة أن يونس بن متى - سلام الله عليه - أرسله الله إلى أهل قرية . قيل اسمها نينوى بالموصل . فاستبطن إيمانهم ، وشق عليه تلكوهم ، فتركهم مغاضباً قائلاً في نفسه : إن الله لن يضيق عليّ بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينته ، فلما كانوا في وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق . فأقروا بين الركاب للتخفيف من واحد منهم لتخفف السفينة . . فكانت القرعة على يونس . فألقوه في اليم . فابتلعه الحوت .

عندئذ نادى يونس - وهو كظيم - في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت ، وفي وسط اللجة ، نادى ربه : « لا إله إلا أنت سبحانك ! إني كنت من الظالمين » فتداركته نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ . . لهماً بلا جلد . ذاب جلده في بطن الحوت . وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيد قيد من مألوف البشر المحدود !

وهنا يقول : إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم . أي مذموم من ربه . . على فعلته . وقلة صبره . وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له . ولكن نعمة الله وقته هذا ، وقبل الله تسيبته واعترافه وندمه . وعلم منه ما يستحق عليه النعمة والاجتباء . « فاجتباؤه ربه فجعله من الصالحين » . .

هذه هي التجربة التي مر بها صاحب الحوت . يذكر الله بها رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - في موقف العنت والتكذيب . بعد ما أخلاه من المعركة كما هي الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد . وقتما يريد . وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد ، وفي مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب !

إن مشقة الدعوة الحقيقية هي مشقة الصبر لحكم الله ، حتى يأتي مواعده ، في الوقت الذي يريده بحكمته . وفي الطريق مشقات كثيرة . مشقات التكذيب والتعذيب . ومشقات الالتواء والعناد . ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه . ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون . ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق . . وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق . . أما المعركة ذاتها فقد قضى الله فيها ، وقدر أنه هو الذي يتولاها ، كما قدر أنه يملئ ويستندرج لحكمة يراها . كذلك وعد نبيه الكريم ، فصدقه الوعد بعد حين .

* * *

وفي الختام يرسم مشهداً للكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم ، في غيظ عنيف ، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه ، ويصفها القرآن بما لا مزيد عليه :

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر . ويقولون : إنه لمجنون » .

فهذه النظرات تكاد تؤثر في أقدام الرسول - صلى الله عليه وسلم - فتجعلها تزل وتزلق وتفقد توازنها على الأرض وثباتها ! وهو تعبير فائق عما تحمله هذه النظرات من غيظ وحقن وشرواحسد ونقمة وضغن ، وحمى وسم . . مصحوبة هذه النظرات المسمومة المحمومة بالسب القبيح ، والشم البذيء ، والافتراء الذميمة : « ويقولون : إنه لمجنون » . .

وهو مشهد تلتقطه الريشة المبدعة وتسجله من مشاهد الدعوة العامة في مكة . فهو لا يكون إلا في حلقة عامة بين كبار المعاندين المجرمين ، الذين ينبعث من قلوبهم وفي نظراتهم كل هذا الحقد الذميمة المحموم !

يعقب عليه بالقول الفصل الذي ينهي كل قول :

« وما هو إلا ذكر للعالمين » .

والذكر لا يقوله مجنون ، ولا يحمله مجنون . .

وصدق الله وكذب المفترون . .

* * *

ولا بد قبل نهاية الحديث من لفتة إلى كلمة « للعالمين » . . هنا والدعوة في مكة تقابل بذلك الجحود ، ويقابل رسولها بتلك النظرات المسمومة المحمومة ، ويرصد المشركون لحربها كل ما يملكون . . وهي في هذا الوقت المبكر ، وفي هذا الضيق المستحكم ، تعلن عن عالميتها . كما هي طبيعتها وحقيقتها . فلم تكن هذه الصفة جديدة عليها حين انتصرت في المدينة - كما يدعي المفترون اليوم - إنما كانت صفة مبكرة في أيام مكة الأولى . لأنها

حقيقة ثابتة في صلب هذه الدعوة منذ نشأتها .
كذلك أرادها الله . وكذلك اتجهت منذ أيامها الأولى . وكذلك تتجه إلى آخر الزمان . والله الذي أرادها كما
أرادها هو صاحبها وراعيا . وهو المدافع عنها وحاميا . وهو الذي يتولى المعركة مع المكذبين . وليس على أصحابها
إلا الصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . .

* * *

(٦٩) سُورَةُ الْحَاقَّةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْخَاقَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَاقَةُ ﴿٣﴾ كَذَبَتْ تَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا تَمُودُ فَأَهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ
فِيهَا صَرَغِي كَأَنَّهُمْ انْجَازُ نَحْلِ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِالنَّحَاطَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾
لِنَجْعَلَهَا لَكَ تَذَكُّرًا وَتَعِيًّا أَدُنُّ وَعِيَةً ﴿١٢﴾

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُتَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ
الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ
ثَمَنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُ وَكَتَبْتُ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حَسَابِيَةٍ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي
عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾
وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَمْ أَوْتِ كِتَابِيَةٍ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةٍ ﴿٢٦﴾ يَلْبِثُهَا كَانَتْ
الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٩﴾ خَذُوهُ فَعْلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوهُ ﴿٣١﴾
ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ

الْمَسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾
فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا
تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَافٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ
الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ
الْبَقِيَّةِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

هذه سورة هائلة رهيبة ؛ قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة ؛ وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تفرع هذا الحس ، وتطالعه بالهول القاصم ، والجد الصارم ، والمشهد تلو المشهد ، كله إيقاع ملح على الحس ، بالهول آناً وبالجلال آناً ، وبالعذاب آناً ، وبالحركة القوية في كل آن !

والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساساً واحداً بمعنى واحد .. أن هذا الأمر ، أمر الدين والعقيدة ، جد خالص حازم جازم . جد كله لا هزل فيه . ولا مجال فيه للهزل . جد في الدنيا وجد في الآخرة ، وجد في ميزان الله وحسابه . جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيراً ولا قليلاً . وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم ، وأخذه الحاسم . ولو كان الذي يتلفت عنه هو الرسول . فالأمر أكبر من الرسول وأكبر من البشر .. إنه الحق . حق اليقين . من رب العالمين .

يبرز هذا المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة ، والذي سميت به السورة : « الحاقة » .. وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار . وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلاً ، ثم استقراره استقراراً مكيناً . رفعه في مدة الحاء بالألف ، وجده في تشديد القاف بعدها ، واستقراره بالانتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاء ساكنة .

ويبرز في مصارع المكذبين بالدين والعقيدة وبالأخرة قوماً بعد قوم ، وجماعة بعد جماعة ، مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم ، فأخذهم أخذة رابية . إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » .. وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهمة قاصمة ، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم في هذا الأمر العظيم الهائل ، الذي لا يحتمل هزلاً ، ولا يحتمل لعباً ، ولا يحتمل تلفتاً عنه من هنا أو هناك !

ويبرز في مشهد القيامة المروع ، وفي نهاية الكون الرهيبة ، وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ،

وانشقت السماء فهي يومئذ واهية .. والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية « ..
 ذلك الهول . وهذا الجلال . يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول . ويشاركان في تعميق ذلك المعنى في الحس مع سائر إيقاعات السورة وإيقاعاتها . هو وما بعده من مقالة الناجين والمعذبين :
 « فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابه » .. فقد نجا وما يكاد يصدق بالنجاة .. « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » .. بهذا التفجع الطويل ، الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير ..

ثم يبدو ذلك الجد الصارم والهول القاصم في النطق العلوي بالقضاء الرهيب الرعب ، في اليوم الهائل ، وفي الموقف الجليل : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » .. وكل فقرة كأنها تحمل ثقل السماوات والأرض ، وتنقض في جلال مذهل ، وفي هول مروع ، وفي جد ثقیل ..
 ثم ما يعقب كلمة القضاء الجليل ، من بيان لموجبات الحكم الرهيب ونهاية المذنب الرعية : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » ..

ثم يبرز ذلك المعنى في التلويع بقسم هائل ، وفي تقرير الله لحقيقة الدين الأخير : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلًا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلًا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

وأخيراً يبرز الجد في الإيقاع الأخير . وفي التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل . كأننا من كان ، ولو كان هو محمداً الرسول : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .. فهو الأمر الذي لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين ..
 وعندئذ تحتم السورة بالتقرير الجازم الحاسم والقول الفصل الأخير عن هذا الأمر الخطير : « وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين .. فسبح باسم ربك العظيم » .. وهو الختام الذي يقطع كل قول ، ويلقي بكلمة الفصل ، وينتهي إلى الفراغ من كل لغو ، والتسبيح باسم الله العظيم ..

* * *

ذلك المعنى الذي تتمحض السورة لإلقائه في الحس ، يتكفل أسلوبها وإيقاعاتها ومشاهدها وصورها وظلالها بإلقائه وتقديره وتعميقه بشكل مؤثر حي عجيب :
 إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية ، المتناهية الحيوية ، بحيث لا يملك منها فكاً ، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة !

فهذه مصارع ثمود وعاد وفرعون وقرى لوط (الموثفكات) حاضرة شاخصة ، والهول المروع يجتاح مشاهدها لا فكاك للحس منها . وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوماً في آيتين اثنتين سريعتين .. ومن ذا الذي يقرأ : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزججة

المحطمة المدمرة . سبع ليال وثمانية أيام . ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين « كأنهم أعجاز نخل خاوية ! » . وهو مشهد حي مائل للعين ، مائل للقلب ، مائل للخيال ! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف في السورة .

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون . هذه هي تخايل للحس ، وتفرقع حوله ، وتغمره بالرعب والهول والكتابة . ومن ذا الذي يسمع : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ولا يسمع حسه القرعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة ! ! ومن الذي يسمع : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والمملك على أرجائها » .. ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة ، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة ؟ ! ثم من الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع : « والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » ..

ومشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة ، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسايه ! » ومشهد الهالك الآخذ كتابه بشماله . والحسرة تثن في كلماته ونبراته وإيقاعاته : « يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسايه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه » . ومن ذا الذي لا يرتعش حسه ، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب : « خذوه ، فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ... الخ » .. وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل في ذلك البائس الحسير !

وحاله هناك : « فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » . وأخيراً فن ذا الذي لا تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة ، وهو يتمثل في الخيال صورة التهديد الشديد : « ولوتقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ! » .. إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة ، وهي تلح عليه ، وتضغط ، وتتخلل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف !

* * *

ويشارك إيقاع الفاصلة في السورة ، برنته الخاصة ، وتنوع هذه الرنة ، وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحي العميق .. فن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة :

« الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟ » .. إلى الرنة المدوية في الباء والهاء الساكنة بعدها . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون ، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة ، ومشاهد الفرحة والحسرة في موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهبة جليلة مديدة : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه ... » .. ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم ، وتقرير جدية الأمر ، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون : « إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ها هنا حميم ولا طعام إلا من غسلين » .. « وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » ..

وهذا التغير في حرف الفاصلة وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد

والجو ، وتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس .
في السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير .

إنها سورة هائلة رهيبة . قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة . وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل ، ومن كل تعليق !

* * *

« الحاقة . ما الحاقة ؟ . وما أدراك ما الحاقة ؟ » ..

القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة . ومن ثم تبدأ السورة باسمها ، وتسمى به ، وهو اسم مختار بجرسه ومعناه كما أسلفنا . فالحاقة هي التي تحقق فتقع . أو تحقق فتتزل بحكمها على الناس . أو تحقق فيكون فيها الحق .. وكلها معان تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها . ثم هي بجرسها كما بينا من قبل تلقي إيقاعاً معيناً يساوق هذا المعنى الكامن فيها ، ويشارك في إطلاق الجوالمراد بها ؛ ويمهد لما حق على المكذبين بها . في الدنيا وفي الآخرة جميعاً .

والجوكله في السورة جو جد وجزم ، كما أنه جو هول وروع . وهو يوقع في الحس إلى جانب ما أسلفنا في التقديم ، شعوراً بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة ، وبضالة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة من جهة أخرى ؛ وأخذها له أخذاً شديداً في الدنيا والآخرة ، عندما يحيد أو يتلفت عن هذا النهج الذي يريده الله للبشرية ، ممثلاً فيما يجيء به الرسل من الحق والعقيدة والشرعية ؛ فهو لا يجيء ليهمل ، ولا ليبدل ، إنما يجيء ليطاع ويحترم ، ويقابل بالتحرج والتقوى . وإلا فهناك الأخذ والقسم ، وهناك الهول والروع .

والألفاظ في السورة بجرسها وبمعانيها وباجتماعها في التركيب ، وبدلالة التركيب كله .. تشترك في إطلاق هذا الجوّ وتصويره . فهو يبدأ فليقيها كلمة مفردة ، لا خبرها في ظاهر اللفظ : « الحاقة » .. ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لما هيّة هذا الحدث العظيم : « ما الحاقة ؟ » .. ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل ، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك : « وما أدراك ما الحاقة ؟ » .. ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال . ويدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم ، الذي لا تدريه ، ولا يتأتى لك أن تدريه ! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك !

* * *

ويبدأ الحديث عن المكذبين به ، وما نالهم من الهول ، وما أخذوا به من القسم ، فذلك الأمر جد لا يحتمل التكذيب ، ولا يذهب ناجياً من يصرفه على التكذيب :

« كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً . فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ » .

وهذا اسم جديد للحاقة . إنها فوق أنها تحقق .. فهي تفرع .. والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله . والقارعة تفرع القلوب بالهول والرعب ، وتفرع الكون بالدمار والحطم . وها هي ذي بجرسها تققع وتفرع ، وتفرع وتفزع .. وقد كذبت بها ثمود وعاد . فلننظر كيف كانت عاقبة التكذيب ..
« فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » ..

وثمود - كما جاء في مواضع أخرى - كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز والشام . وكان أخذهم بالصيحة كما سماها في غير موضع . أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها .. « بالطاغية » .. لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة . ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع منها . ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طياً ، وتغمرهم غمراً ، وتعصف بهم عصفاً ، وتطفئ عليهم فلا تبقي لهم ظلاً !

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها ويطيل ، فقد استمرت وقعتها سبع ليال وثمانية أيام حسوماً . على حين كانت وقعة ثمود خاطفة .. صيحة واحدة . طاغية .. « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . والريح الصرصر : الشديدة الباردة . واللفظ ذاته فيه صرصره الريح . وزاد شدتها بوصفها « عاتية » .. لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن ، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضرموت . وكانوا أشداء بطاشين جبارين . هذه الريح الصرصر العاتية : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً » .. والحسوم القاطعة المستمرة في القطع . والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزمجرة المدمرة المستمرة هذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة : « سبع ليال وثمانية أيام » . ثم يعرض المشهد بعدها شاخصاً : « فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية » .. فترى .. فالمنظر معروض تراه ، والتعبير يلح به على الحس حتى يتملاه ! « صرعى » .. مصروعين مجذلين متناثرين « كأنهم أعجاز نخل » بأصولها وجذوعها « خاوية » فارغة تأكلت أجوافها فارتجت ساقطة على الأرض هامة ! إنه مشهد حاضر شاخص . مشهد ساكن كثيب بعد العاصفة المزمجرة المدمرة .. « فهل ترى لهم من باقية ؟ » .. لا ! فليس لهم من باقية ! ! !

ذلك شأن عاد وثمود .. وهوشان غيرهما من المكذبين . وفي آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى :

« وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية » ..

وفرعون كان في مصر - وهو فرعون موسى - ومن قبله لا يذكر عنهم تفصيل . والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التي اتبعت الإفك أو التي انقلبت ، فاللفظ يعني هذا وهذا . ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعاً ، فيقول عنهم انهم جاءوا « بالخاطئة » أي بالفعللة الخاطئة .. من الخطيئة .. « فعصوا رسول ربهم » .. وهم عصوا رسلاً متعددين ؛ ولكن حقيقتهم واحدة ، ورسالتهم في صميمها واحدة . فهم إذن رسول واحد ، يمثل حقيقة واحدة - وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية - وفي إجمال يذكر مصيرهم في تعبير يلقي الهول والحسم حسب جو السورة : « فأخذهم أخذة رابية » .. والرابية العالية الغامرة الطامة . لتناسب « الطاغية » التي أخذت ثمود « والعاتية » التي أخذت عاداً ، وتناسب جو الهول والرعب في السياق بدون تفصيل ولا تطويل !

ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية ، مشيراً بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا . وممتناً على البشر بنجاة أصولهم التي انبثقوا منها ، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى :

« إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » ..

ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغية ، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها . وجرس الجارية وواعية يتمشى كذلك مع إيقاع القافية . وهذه اللمسة « لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » تلمس القلوب الخاملة والآذان البليدة ، التي تكذب بعد كل ما سبق من النذروكل ما سبق من المصائر ، وكل ما سبق من الآيات ، وكل ما سبق من العظات ، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين !

وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر . هول الحاقة والقارعة التي يكذب بها المكذبون ، وقد شهدوا مصارع المكذبين ..

إن الهول في هذه المصارع - على ضخامتها - محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود . وهنا بعد هذا التمهيد يكمل العرض ، ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ..

ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث . ولا نزيد في تفصيلها شيئاً . لأنها غيب . ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة ؛ وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال . والتفصيل لا يزيد في حكمة النص شيئاً ، والجري وراءه عبث لا طائل تحته ، إلا اتباع الظن المنهي عنه أصلاً .

فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة : « وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة » .. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها .. مشهد مروع حقاً . هذه الأرض التي يحوس الإنسان خلالها آمناً مطمئناً ، وهي تحته مستقرة مطمئنة . وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تهول الإنسان بروعتها واستقرارها .. هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد .. إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضآلته وضآلة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة ، في ذلك اليوم العظيم ..

فإذا وقع هذا . إذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة .. فهو حينئذ الأمر الذي نتحدث عنه السورة : « فيومئذ وقعت الواقعة » .. والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة . فهي الواقعة لأنها لا بد واقعة . كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة ! وهواسم ذو إحياء معين وهو إحياء مقصود في صدد الارتباب فيها والتكذيب !

ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة ، فالسما في هذا اليوم الهائل ليست بناجية : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » ..

ونحن لا ندري على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن . ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التي تشير إلى الأحداث الكونية في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور ، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق ، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس ..

ولعله من المصادفات الغريبة أن يتبنأ الآن علماء الفلك بشيء يشبه هذا تكون فيه نهاية العالم ، استنباطاً من ملاحظتهم العلمية البحتة ، وحسب القليل الذي عرفوه من طبيعة هذا الكون وقصته كما افترضوها ..

فأما نحن فنكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة ، من خلال النصوص القرآنية الجازمة ؛ وهي نصوص مجملة توحى بشيء عام ؛ ونحن نقف عند إحياء هذه النصوص ، فهي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن ، لأنها صادرة من صاحب الشأن ، الذي خلق ، والذي يعلم ما خلق علم اليقين . نكاد نشهد الأرض وهي تحمل بحبالها بكتلتها هذه ، الضخمة بالقياس إلينا ، الصغيرة كالهباءة بالقياس إلى الكون ، فتدك دكة واحدة ؛ ونكاد نشهد السماء وهي مشققة واهية والكواكب وهي متناثرة منكدة .. كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية ، المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة ..

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه ، وتسكن الضجة التي تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار . يسكن هذا كله ويظهر في المشهد عرش الواحد القهار :

« والمالك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ..

والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها ، والعرش فوقهم يحمله ثمانية .. ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم ، أو ثمانية مما يعلم الله . لا ندري نحن من هم ولا ما هم . كما لا ندري نحن ما العرش ؟ ولا كيف يحمل ؟ ونخلص من كل هذه الغيبات التي لا علم لنا بها ، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا . نخلص من مفردات هذه الغيبات إلى الظل الجليل الذي تحلعه على الموقف . وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا . وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشرح القلب البشري بالجلال والرهبة والخشوع ، في ذلك اليوم العظيم ، وفي ذلك الموقف الجليل :

« يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية » ..

فالكل مكشوف . مكشوف الجسد ، مكشوف النفس ، مكشوف الضمير ، مكشوف العمل ، مكشوف المصير . وتسقط جميع الأسرار التي كانت تحجب الأسرار ، وتتعرى النفوس تعري الأجساد ، وتبرز الغيوب بروز الشهود .. ويتجرد الإنسان من محيطه ومن مكره ومن تديره ومن شعوره ، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه ! وما أفسى الفضيحة على الملائكة . وما أخزاها على عيون الجموع ! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن . ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور ، وهو مخدوع بستر الأرض . فيها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة . وكل شيء بارز في الكون كله . الأرض مدكوكة مسواة لا تحجب شيئاً وراء تنوء ولا بروز . والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئاً ، والأجسام معراة لا يسترها شيء ، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر !

ألا إنه لأمر عصيب . أعصب من ذلك الأرض والجبال ، وأشد من تشقق السماء ! وقوف الإنسان عريان الجسد ، عريان النفس ، عريان المشاعر ، عريان التاريخ ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر . أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله ، من الإنس والجن والملائكة ، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع ..

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ؛ ففي نفسه منحنيات شتى ودروب ، تتخفى فيها نفسه وتندسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها . وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة ، فتنتطوي سريعاً ، وتنكمش داخل القوقعة ، وتغلق على نفسها تماماً . إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه ، وأن لمحة أصابت منه درباً خفياً أو منحنى سرياً ! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية ..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان . عريان حقاً . عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير . عريان من كل ساتر . عريان ... كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار ، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار ؟ !
ألا إنه لأمر ، أمر من كل أمر !!!

* * *

وبعدئذ يعرض /مشهد الناجين والمعذنين ، كأنه حاضر تراه العيون ..

« فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابه .. فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .

وأخذ الكتاب باليمين وبالشمال ومن وراء الظهر قد يكون حقيقة مادية ، وقد يكون تمثيلاً لغوياً جارياً على اصطلاحات اللغة العربية من تعبيرهم عن وجهة الخير باليمين ووجهة الشر بالشمال أو من وراء الظهر .. وسواء كان هذا أو ذاك فالمدلول واحد ، وهو لا يستدعي جدلاً يضيع فيه جلال الموقف !

والمشهد المعروض هو مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب ، وهو ينطلق في فرحة غامرة ، بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه ، وتغلبه على لسانه ، فيهتف : « هاؤم اقرأوا كتابيه » . ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج ، بل كان يتوقع أن يناقش الحساب .. « ومن نوقش الحساب عذب » كما جاء في الأثر : عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من نوقش الحساب عذب » فقلت : أليس يقول الله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً » فقال : « إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ^١ » .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطي ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا عاصم ، عن الأحول ، عن أبي عثمان ، قال : المؤمن يعطى كتابه بيمينه في ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه ، حتى يمر بحسناته فيقرأها فيرجع إليه لونه ، ثم ينظر فإذا سيئاته قد بدلت حسنات . قال : فعند ذلك يقول : « هاؤم اقرأوا كتابيه » .

وروى عن عبدالله بن حنظلة - غسيل الملائكة ^٢ - قال : إن الله يوقف عبده يوم القيامة فيبيدي - أي يظهر - سيئاته في ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم أي رب ! فيقول له : إني لم أفصحك به ، وإني قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : « هاؤم اقرأوا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابه » . وفي الصحيح من حديث ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : « سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « يدني الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله تعالى : إني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهداء : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين » ..

ثم يعلن على رؤوس الأشهاد ما أعد لهذا الناجي من النعيم ، الذي تبدو فيه هنا ألوان من النعيم الحسي ، تناسب حال المخاطبين إذ ذاك ، وهم حديثو عهد ببجاهلية ، ولم يسر من آمن منهم شوطاً طويلاً في الإيمان ، ينطبع به حسه ، ويعرف به من النعيم ما هو أرق وأعلى من كل متاع :

« فهو في عيشة راضية . في جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .. وهذا اللون من النعيم ، مع هذا اللون من التكريم في الالتفات إلى أهله بالخطاب وقوله : « كلوا واشربوا

(١) أخرجه الشيخان والترمذي وأبو داود .

(٢) استشهد حنظلة بن أبي عامر في غزوة أحد فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . « إن صاحبكم - يعني حنظلة - لتغسله الملائكة » . فسألوا أهله : ما شأنه ؟ فسلت صاحبه عنه ، فقالت : خرج وهو جنب حين سمع الهاتف (من رواية ابن إسحاق) .

هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية .. فوق أنه اللون الذي تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن في أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمو المشاعر فترى في القرب من الله ما هو أعجب من كل متاع .. فوق هذا فإنه يلبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان . والنعم ألوان غير هذا وألوان ..

« وأما من أوتي كتابه بشماله » وعرف أنه مؤاخذ بسيئاته ، وأن إلى العذاب مصيره ، فيقف في هذا المعرض الحافل الحاشد ، وقفة المتحسر الكسير الكئيب .. « فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه ! ولم أدر ما حسابه ! يا ليتها كانت القاضية ! ما أغنى عني ماليه ! هلك عني سلطانيه ! » ..

وهي وقفة طويلة ، وحسرة مديدة ، ونغمة يائسة ، ولهجة بائسة . والسياق يطيل عرض هذه الوقفة حتى ليخيل إلى السامع أنها لا تنتهي إلى نهاية ، وأن هذا التفجع والتحسر سيمضي بلا غاية ! وذلك من عجائب العرض في إطالة بعض المواقف ، وتقصير بعضها ، وفق الإيحاء النفسي الذي يريد أن يتركه في النفوس . وهنا يراد طبع موقف الحسرة وإيحاء الفجيعة من وراء هذا المشهد الحسير . ومن ثم يطول ويطول ، في تنعيم وتفصيل . ويتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ، ولم يؤت كتابه ، ولم يدر ما حسابه ؛ كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية ، التي تنهي وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئاً . ثم يتحسر أن لا شيء نافعه مما كان يعتز به أو يجمعه : « ما أغنى عني ماليه » .. « هلك عني سلطانيه » .. فلا المال أغنى أو نفع . ولا السلطان بقي أو دفع .. والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف ، في تحزن وتحسر .. هي جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاء عميقاً بليغاً ..

ولا يقطع هذه الرنة الحزينة المديدة إلا الأمر العلوي الجازم ، بجلاله وهوله وروعته :
« خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه » ..
يا للهول الهائل ! ويا للرعب القاتل ! ويا للجلال المائل !
« خذوه » ..

كلمة تصدر من العلي الأعلى . فيتحرك الوجود كله على هذا المسكين الصغير الهزيل . ويتدبره المكلفون بالأمر من كل جانب ، كما يقول ابن أبي حاتم بإسناده عن المنهال بن عمرو : « إذا قال الله تعالى : خذوه ابتدره سبعون ألف ملك . إن الملك منهم ليقول هكذا فيلي سبعين ألفاً في النار » .. كلهم يتدبر هذه الحشرة الصغيرة المكروبة المذهولة !

« فغلوه » ..

فأي السبعين ألفاً بلغه جعل الغل في عنقه .. !

« ثم الجحيم صلوه » ..

ونكاد نسمع كيف تشويه النار وتصلبه ..

« ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوه » ..

وذراع واحدة من سلاسل النار تكفيه ! ولكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين وصورتها .

(١) يراجع فصل : التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني في القرآن . كما تراجع سورة الحاقة في كتاب : مشاهد القيامة في القرآن . « دار الشروق » .

ولعل هذا الإيحاء هو المقصود !^١.

فإذا انتهى الأمر ، نشرت أسبابه على الحشود :

« إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين » ..

إنه قد خلا قلبه من الإيمان بالله ، والرحمة بالعباد . فلم يعد هذا القلب يصلح إلا لهذه النار وذلك العذاب . خلا قلبه من الإيمان بالله فهو موات ، وهو خرب ، وهو بور . وهو خلو من النور . وهو مسخ من الكائنات لا يساوي الحيوان بل لا يساوي الجماد . فكل شيء مؤمن ، يسبح بحمد ربه ، موصول بمصدر وجوده . أما هو فقطوع من الله . مقطوع من الوجود المؤمن بالله .

وخلا قلبه من الرحمة بالعباد . والمسكين هو أحوج العباد إلى الرحمة ولكن هذا لم يستشعر قلبه ما يدعو إلى الاحتفال بأمر المسكين . ولم يحض على طعامه وهي خطوة وراء إطعامه . توحى بأن هناك واجباً اجتماعياً يتحاض عليه المؤمنون . وهو وثيق الصلة بالإيمان . يليه في النص ويليهِ في الميزان !

« فليس له اليوم ها هنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون » ..

وهي تكملة الإعلان العلوي عن مصير ذلك الشقي . فلقد كان لا يؤمن بالله العظيم ، وكان لا يحض على طعام المسكين . فهو هنا مقطوع « فليس له اليوم ها هنا حميم » .. وهو ممنوع : « ولا طعام إلا من غسلين » .. والغسلين هو غسالة أهل جهنم من قيح وصدید ! وهو يناسب قلبه النكد الخاوي من الرحمة بالعباد ! طعام « لا يأكله إلا الخاطئون » .. المذنبون المتصفون بالخطيئة .. وهومنهم في الصميم !

وبعد ، فذلك هو الذي يجعله الله مستحقاً للأخذ والغل والتصلية والسلسلة التي ذرعها سبعون ذراعاً في الجحيم . وهو أشد دركات جهنم عذاباً .. فكيف بمن يمنع طعام المسكين ومن يجمع الأطفال والنساء والشيوخ ، ومن يبطش بطشة الجبارين بمن يمد إليهم يده باللقمة والكساء في برد الشتاء ؟ أين ترى يذهب هؤلاء ، وهم يوجدون في الأرض بين الحين والحين ؟ وما الذي أعده الله لهم وقد أعد لمن لا يحض على طعام المسكين ، ذلك العذاب في الجحيم ؟

وينتهي هذا المشهد العنيف المثير . الذي لعله جاء في هذه الصورة المفزعة لأن البيئة كانت جبارة قاسية عنيدة تحتاج إلى عرض هذه المشاهد العنيفة كي تؤثر فيها وتهزها وتستجيبها . ومثل هذه البيئة يتكرر في الجاهليات التي تمر بها البشرية ، كما أنه يوجد في الوقت الواحد مع أرق البيئات وأشدّها تأثراً واستجابة . لأن رقعة الأرض واسعة . وتوزيع المستويات والنفسيات فيها مختلف . والقرآن يخاطب كل مستوى وكل نفس بما يؤثر فيها ، وبما تستجيب له حين يدعوها . والأرض تحتوي اليوم في بعض نواحيها قلوباً أقسى ، وطبائع أجسى ، وجبلات لا يؤثر فيها إلا كلمات من نار وشواظ كهذه الكلمات . ومشاهد وصور مثيرة كهذه المشاهد والصور المثيرة ..

* * *

وفي ظل هذه المشاهد العنيفة المثيرة ، المتوالية منذ أول السورة ، مشاهد الأخذ في الدنيا والآخرة ، ومشاهد التدمير الكونية الشاملة ، ومشاهد النفوس المكشوفة العارية ، ومشاهد الفرحة الطائرة والحسرة الغامرة ..

في ظل هذه المشاهد العميقة الأثر في المشاعر يجيء التقرير الحاسم الجازم عن حقيقة هذا القول الذي جاءهم به

(١) مشاهد القيامة : سورة الحاقة . « دار الشروق » .

الرسول الكريم ، فتلقيه بالشك والسخرية والتكذيب :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون . إنه ليقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

إن الأمر لا يحتاج إلى قسم وهو واضح هذا الوضوح ، ثابت هذا الثبوت ، واقع هذا الوقوع . لا يحتاج إلى قسم أنه حق ، صادر عن الحق ، وليس شعر شاعر ، ولا كهانة كاهن ، ولا افتراء مفتر ! لا . فما هو بحاجة إلى تأكيد يمين :

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ..

بهذه الفخامة وبهذه الضخامة ، وبهذا التهويل بالغيب المكنون ، إلى جانب الحاضر المشهود .. والوجود أضخم بكثير مما يرى البشر . بل مما يدركون . وما يبصر البشر من الكون وما يدركون إلا أطرافاً قليلة محصورة ، تلي حاجتهم إلى عمارة هذه الأرض والخلافة فيها – كما شاء الله لهم – والأرض كلها ليست سوى هباء لا تكد ترى أو تحس في ذلك الكون الكبير . والبشر لا يملكون أن يتجاوزوا ما هو مأذون لهم برؤيته وبإدراكه من هذا الملك العريض ، ومن شؤونه وأسراره ونواميسه التي أودعها إياه خالق الوجود ..

« فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » ..

ومثل هذه الإشارة تفتح القلب وتنبه الوعي إلى أن هناك وراء مد البصر ووراء حدود الإدراك جوانب وعوالم وأسراراً أخرى لا يبصرها ولا يدركها . وتوسع بذلك آفاق التصور الإنساني للكون والحقيقة . فلا يعيش الإنسان سجين ما تراه عيناه ، ولا أسير ما يدركه وعيه المحدود . فالكون أرحب والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنساني المزود بقدر محدود من الطاقة يناسب وظيفته في هذا الكون . ووظيفته في الحياة الدنيا هي الخلافة في هذه الأرض .. ولكنه يملك أن يكبر ويرتفع إلى آفاق أكبر وأرفع حين يستيقن أن عينه ومداركه محدودة ، وأن هناك وراء ما تدركه عينه ووعيه عوالم وحقائق أكبر – بما لا يقاس – مما وصل إليه .. عندئذ يتسامى على ذاته ويرتفع على نفسه ، ويتصل بينابيع المعرفة الكلية التي تفيض على قلبه بالعلم والنور والاتصال المباشر بما وراء الستور ! إن الذين يحصرون أنفسهم في حدود ما ترى العين ، ويدرك الوعي ، بأدواته الميسرة له .. مساكين ! سجناء حسهم وإدراكهم المحدود . محصورون في عالم ضيق على سعته ، صغير حين يقاس إلى ذلك الملك الكبير ..

وفي قترات مختلفة من تاريخ هذه البشرية كان كثيرون أو قليلون يسجنون أنفسهم بأيديهم في سجن الحس المحدود ، والحاضر المشهود ؛ ويغلقون على أنفسهم نوافذ المعرفة والنور ، والاتصال بالحق الكبير ، عن طريق الإيمان والشعور . ويحاولون أن يغلقوا هذه النوافذ على الناس بعد ما أغلقوها على أنفسهم بأيديهم .. تارة باسم الجاهلية . وتارة باسم العلمانية ! وهذه كتلك سجن كبير . وبؤس مرير . وانقطاع عن ينابيع المعرفة والنور !

والعلم يتخلص في هذا القرن الأخير من تلك القضبان الحديدية التي صاغها – بحمق وغرور – حول نفسه في القرنين الماضيين .. يتخلص من تلك القضبان ، ويتصل بالنور – عن طريق تجاربه ذاتها – بعد ما أفاق من سكرة الغرور والاندفاع من أسر الكنيسة الطاغية في أوروبا^١ ؛ وعرف حدوده ، وجرب أن أدواته المحدودة تقوده إلى غير المحدود في هذا الكون وفي حقيقته المكنونة . وعاد « العلم يدعو إلى الإيمان »^٢ في تواضع تبشر

(١) يراجع بتوسع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب .. فصل نظرة المسيحية وفصل فرويد « دار الشروق » .

(٢) عنوان ترجمة كتاب أ . كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك لمحمود صالح الفلكي .

أوائله بالفرج ! أي نعم بالفرج . فما يسجن الإنسان نفسه وراء قضبان الماده الموهومة إلا وقد قدر عليه الضيق !

ولقد رأينا عالماً مثل ألكسيس كاريل الطبيب المتخصص في بحوث الخلية ونقل الدم والمشتغل بالطب علماً وجراحة وإشرافاً على معاهد العلاج والنظريات العلاجية ، وصاحب جائزة نوبل سنة ١٩١٢ ومدير معهد الدراسات الإنسانية بفرنسا خلال الحرب العالمية الثانية يرى :

« أن الكون على رحبه مملوء بعقول فعالة غير عقولنا ، وأن العقل الإنساني هاد قاصد بين دروب التيه التي حوله إذا كان معوله كله على هدايته . وإن الصلاة من وسائل الاتصال بالعقول التي حولنا ، وبالعقل الأبدي المسيطر على مقادير الأكوان قاطبة ، فيما هو ظاهر لنا وما هو محتجب عنا في طي الخفاء »^١ .

« وأن الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحاني له شأن خاص في الحياة ، لأنه يقيمنا على اتصال بأفاق الخفاء الهائل من عالم الروح » . .^٢

ورأينا طبيباً آخر مثل « دي نوي » الذي اشتغل بمباحث التشريح والعلم الطبيعي ، وعمل مع الأستاذ كوري وقرينته ، واستدعاه معهد روكفلر لمواصلة بحث مع أعضائه في خصائص وعلاج الجراح . . يقول :

« كثير من الأذكاء وذوي النية الحسنة يتخيلون أنهم لا يستطيعون الإيمان بالله لأنهم لا يستطيعون أن يدركوه . على أن الإنسان الأمين الذي تنطوي نفسه على الشوق العلمي لا يلزمه أن يتصور الله إلا كما يلزم العالم الطبيعي أن يتصور الكهرباء . فإن التصور في كلتا الحالتين ناقص وباطل . وليس الكهرباء قابلاً للتصور في كيانه المادي ! وإنه مع هذا لأثبت في آثاره من قطعة الخشب » . .^٢ .

ورأينا عالماً طبيعياً مثل سير آرثر طومسون المؤلف الاسكتلندي الشهير يقول : « إننا في زمن شفت فيه الأرض الصلبة ، وفقد فيه الأثير كيانه المادي ، فهو أقل الأزمنة صلاحاً للغلو في التأويلات المادية » . ويقول في مجموعة « العلم والدين » :

« ليس للعقل المتدين أن يأسف اليوم لأن العالم الطبيعي لا يخلص من الطبيعة إلى رب الطبيعة . إذ ليست هذه وجهته . وقد تكون النتيجة أكبر جداً من المقدمة إذا خرج العلماء بالاستنتاج من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . إلا أننا خلقاء أن نغبط لأن العلماء الطبيعيين قد يسروا للترعة الدينية أن تنفخ في جو العلم ، حيث لم يكن ذلك يسيراً في أيام آبائنا وأجدادنا . . . فإذا لم يكن عمل الطبيعيين أن يبحثوا في الله - كما زعم مستر لانجودون دافيز خطأ في كتابه البديع عن الإنسان وعالمه - فنحن نقرر عن روية أن أعظم خدمة قام بها العلم ، أنه قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى ، ولا نبأ للمعنى الحرفي حين نقول : إن العلم أنشأ للإنسان سماء جديدة وأرضاً جديدة ، وحفره من ثم إلى غاية جهده العقلي ، فإذا به ، في كثير من الأحيان ، لا يجد السلام إلا حيث يتخطى مدى الفهم ، وذلك في اليقين والاطمئنان إلى الله »^٢ .

ورأينا عالماً مثل « ا. كريسي موريسون » رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو المجلس التنفيذي لمجلس

(١) عن كتاب : عقائد المفكرين في القرن العشرين للعقاد .

(٢) عقائد المفكرين في القرن العشرين .

البحوث القومي بالولايات المتحدة سابقاً يقول في كتابه : « الإنسان لا يقوم وحده » :
« إننا نقرب فعلاً من عالم المجهول الشاسع ، إذ ندرك أن المادة كلها قد أصبحت من الوجهة العلمية مجرد مظهر لوحدة عالمية هي في جوهرها كهربائية . ولكن مما لا ريب فيه أن المصادفة لم يكن لها دخل في تكوين الكون ، لأن هذا العالم العظيم خاضع للقانون .

« إن ارتقاء الإنساني الحيواني إلى درجة كائن مفكر شاعر بوجوده ، هو خطوة أعظم من أن تتم عن طريق التطور المادي ، ودون قصد ابتداعي .

« وإذا قبلت واقعية القصد ، فإن الإنسان بوصفه هذا قد يكون جهازاً . ولكن ما الذي يدير هذا الجهاز؟ لأنه بدون أن يدار لا فائدة منه . والعلم لا يعلل من يتولى إدارته ، وكذلك لا يزعم أنه مادي .
« لقد بلغنا من التقدم درجة تكفي لأن نوقن بأن الله قد منح الإنسان قبساً من نوره ... » .

وهكذا بدأ العلم يخرج من سجن المادية وجدرائها بوسائله الذاتية ، فيتصل بالجو الطليق الذي يشير القرآن إليه بمثل تلك الآية الكريمة : « فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون » . ونظائره المتعددة . وإن يكن بيننا نحن من أقزام التفكير والشعور من لا يزال يعلق بكتلتا يديه نوافذ النور على نفسه وعلى من حوله باسم العلم ! في تخلف عقلي عن العلم ، وفي تخلف روحي عن الدين ، وفي تخلف شعوري عن الحرية الطليقة في معرفة الحقيقة ! وفي تخلف إنساني عما يليق بالكائن الإنساني الكريم !

فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون .. « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين » ..

ولقد كان مما نقول به المشركون على القرآن وعلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قولهم : إنه شاعر . وإنه كاهن . متأثرين في هذا بشبهة سطحية ، منشؤها أن هذا القول فائق في طبيعته على كلام البشر . وأن الشاعر في وهمهم له رأي من الجن يأتيه بالقول الفائق ، وأن الكاهن كذلك متصل بالجن . فهم الذين يمدونه بعلم ما وراء الواقع ! وهي شبهة تسقط عند أقل تدبر لطبيعة القرآن والرسالة ، وطبيعة الشعر أو الكهانة ..

فالشعر قد يكون موسيقي الإيقاع ، رائع الأخيلة ، جميل الصور والظلال ؛ ولكنه لا يختلط أبداً ولا يشته بهذا القرآن إن هنالك فارقاً أساسياً فاصلاً بينهما . إن هذا القرآن يقرر منهجاً متكاملًا للحياة يقوم على حق ثابت ، ونظرة موحدة ، ويصدر عن تصور للوجود الإلهي ثابت ، وللكون والحياة كذلك . والشعر انفعالات متوالية وعواطف جياشة ، قلما تثبت على نظرة واحدة للحياة في حالات الرضى والغضب ، والانطلاق والانكماش ، والحب والكراهة ، والتأثرات المتغيرة على كل حال !

هذا إلى أن التصور الثابت الذي جاء به القرآن قد أنشأ القرآن من الأساس ، في كلياته وجزئياته ، مع تعيين مصدره الإلهي . فكل ما في هذا التصور يوحي بأنه ليس من عمل البشر ، فليس من طبيعة البشر أن ينشئوا تصوراً كونياً كاملاً كهذا التصور .. لم يسبق لهم هذا ولم يلحق .. وهذا كل ما أبدعته قرائح البشر من تصورات للكون وللوقوة المنشئة له المدبرة لنظامه .. هذا هو معروضاً مسجلاً في الفلسفة وفي الشعر وفي غيرها من المذاهب الفكرية ؛ فإذا قرن إلى التصور القرآني وضح أن هذا التصور صادر من جهة غير تلك الجهة ! وأنه متفرد بطابع معين يميزه من كل تصورات البشر .

كذلك الأمر في الكهانة وما يصدر عنها . فلم يعرف التاريخ من قبل أو بعد كاهناً أنشأ منهجاً متكاملًا ثابتاً كالمنهج الذي جاء به القرآن . وكل ما نقل عن الكهنة أسجاع لفظية أو حكمة مفردة ، أو إشارة ملغزة !
وهناك لفتات ليس من طبيعة البشر أن يلتفتوها ، وقد وقفنا عند بعضها في هذه الظلال أحياناً . فلم يسبق لبشر ولم يلحق كذلك أن أراد التعبير عن العلم الشامل الدقيق اللطيف ، فاتجه إلى مثل هذه الصورة التي جاءت في القرآن :

« وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ^١ » .. أو إلى مثل هذه الصورة : « يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ^٢ »
أو إلى مثل هذه الصورة : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه . وما يَعمَرُّ من معمرٍ ولا يُنْقِصُ من عمره إلا في كتاب . إن ذلك على الله يسير ^٣ »

كذلك لم يسبق لبشر ولم يلحق أن التفت مثل هذه اللفتة إلى القدرة التي تمسك هذا الكون وتدبره : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ^٤ » .. أو هذه اللفتة إلى انبثاقات الحياة في الكون من يد القدرة المبدعة وما يحيط بالحياة من موافقات كونية مدبرة مقدرة :

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي . ذلکم الله . فأنى تؤفكون .
فالق الإصباح . وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ^٥ » ..

وهذه اللفات الكونية كثيرة في القرآن كثرة ملحوظة ، ولا نظير لها فيما تتجه إليه خواطر البشر للتعبير عن مثل المعاني التي يعبر عنها القرآن .. وهذه وحدها كافية لمعرفة مصدر هذا الكتاب .. بغض النظر عن كل دلالة أخرى من صلب الكتاب أو من الملابس المصاحبة له على السواء .

فالشبهة واهية سطحية . حتى حين كان القرآن لم يكتمل ، ولم تنتزل منه إلا سور وآيات عليها ذلك الطابع الإلهي الخاص ، وفيها ذلك القبس الموحى بمصدرها الفريد .

وكبراء قریش كانوا يراجعون أنفسهم ، ويردون على هذه الشبهة بين الحين والحين . ولكن الغرض يعمي ويصم . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون : هذا إفك قديم . كما يقول القرآن الكريم !

وقد حكى كتب السيرة مواقف متعددة لزعماء قریش ، وهم يراجعون هذه الشبهة وينفونها فيما بينهم .

(١) سورة الأنعام : آية ٥٩ .

(٢) سورة الحديد : آية ٤

(٣) سورة فاطر : آية ١١

(٤) سورة فاطر : آية ٤١

(٥) سورة الأنعام : آية ٩٥ - ٩٩

من ذلك ما رواه ابن اسحق عن الوليد بن المغيرة ، وعن النضر بن الحارث ، وعن عتبة بن ربيعة وقد جاء في روايته عن الأول :

« ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش . وكان ذا سن فيهم ؛ وقد حضر الموسم . فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ؛ فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل ، وأقم لنا رأياً نقل به . قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول : كاهن . قال : لا والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعته . قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . قالوا : فنقول : شاعر . قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه وميسوطه فما هو بالشعر . قالوا : فنقول : ساحر . قال : ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .. قالوا : فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة^١ وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا : هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته . فافترقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس - حين قدموا الموسم - لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا لهم أمره ... »

وحكى عن الثاني (النضر بن الحارث) قال :

« فقال يا معشر قريش . إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيت له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أَرْضَاكُمْ فيكم ، وأصْدَقَكُمْ حديثاً ، وأعْظَمَكُمْ أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ! لا والله ، ما هو بساحر . لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم . وقلتم كاهن ! لا والله ما هو بكاهن . قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وسمعنا سجعهم . وقلتم : شاعر ! لا والله ما هو بشاعر . قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . وقلتم : مجنون ! لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يا معشر قريش ، فانظروا في شأنكم ، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم ... » .

والمطابقة تكاد تكون تامة - بين قوله وقول عتبة . وقد يكون هو حادثاً واحداً نسب مرة إلى هذا ومرة إلى ذاك . ولكن لا نستبعد كذلك أن يتطابق قولان لرجلين من كبار قريش في موقفين متشابهين من مواقف حيرتهم تجاه هذا القرآن !

وأما موقف عتبة فقد سبقت حكايته في استعراضنا لسورة القلم في هذا الجزء .. وهو قريب من موقف الوليد والنضر تجاه محمد وتجاه القول الذي جاء به ..

فما كان قولهم : ساحر أو كاهن ، إلا حيلة ماكرة أحياناً وشبهة مفضوحة أحياناً . والأمر أوضح من أن يلتبس عند أول تدبر وأول تفكير . وهو من ثم لا يحتاج إلى قسم بما يعلمون وما لا يعلمون : إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر . ولا بقول كاهن .. إنما هو تنزيل من رب العالمين .

وتقرير أنه قول رسول كريم لا يعني أنه من إنشائه ، ولكن المراد هنا أنه قول من نوع آخر . لا يقوله شاعر ، ولا يقوله كاهن ، إنما يقوله رسول ، يرسل به من عند الله ، فيحمله من هناك ، من ذلك المصدر الذي أرسله .

(١) العذق : الكثير الشعب والأطراف . والجناة : ما فيه ثمر يجنى .

والذي يعين هذا المعنى هو كلمة رسول . أي مرسل به من عند ربه ، وليس شاعراً ولا كاهناً يقوله من عند نفسه . أو بمساعدة رأي أو شيطان .. إنما هو رسول يقول ما يحمله عن أرسله . ويقرر هذا تقريراً حاسماً ما جاء بعده : « تنزيل من رب العالمين » ..

والتعقيب : « قليلاً ما تؤمنون » .. « قليلاً ما تذكرون » .. مدلوله نفي الإيمان ، ونفي التذكر . وفق تعبيرات اللغة المألوفة . وفي الحديث في وصف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إنه كان يقل اللغو » . أي لا يلغو أصلاً .. فقد نفى عنهم أصل الإيمان وأصل التذكر . وإلا فما يقول مؤمن عن الرسول : إنه شاعر ، ولا يقول متذكر متدبر : إنه كاهن . إنما هما الكفر والغفلة ينضحان بهذا القول النكير !

* * *

وفي النهاية يجيء ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفترى على الله في شأن العقيدة وهي الجدل الذي لا هوادة فيه . يجيء لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه . بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً . كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .. ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما أبلغهم . وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه ، لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيات . ولما كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق .

هذه هي القضية من الناحية التقريرية .. ولكن المشهد المتحرك الذي ورد فيه هذا التقرير شيء آخر ، يلقي ظلالاً بعيدة وراء المعنى التقريري . ظلالاً فيها رهبة وفيها هول . كما أن فيها حركة وفيها حياة . ووراءها إحياءات وإيماءات وإيقاعات !

فيها حركة الأخذ باليمين وقطع الوتين . وهي حركة عنيفة هائلة مروعة حية في الوقت ذاته . ووراءها الإحياء بقدرة الله العظيمة وعجز المخلوق البشري أمامها وضعفه .. البشر أجمعين .. كما أن وراءها الإيماء إلى جدية هذا الأمر التي لا تحتل تسامحاً ولا مجاملة لأحد كائناً من كان . ولو كان هو محمد الكريم عند الله الأثير الحبيب . ووراءها بعد هذا كله إيقاع الرهبة والهول والخشوع !

* * *

وأخيراً تجيء الخاتمة التقريرية بحقيقة هذا الأمر وطبيعته القوية : « وإنه لتذكرة للمتقين . وإنا لنعلم أن منكم مكذبين . وإنه لحسرة على الكافرين . وإنه لحق اليقين » . فهذا القرآن يذكر القلوب التقية فتذكر . إن الحقيقة التي جاء بها كامنة فيها . فهو يثيرها فيها ويذكرها بها فتذكرها . فأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة لا تنفتح ولا تتذكر ، ولا تفيد من هذا الكتاب شيئاً . وإن المتقين ليجدون فيه من الحياة والنور والمعرفة والتذكير ما لا يجده الغافلون . « وإنا لنعلم أن منكم مكذبين » .. ولكن هذا لا يؤثر في حقيقة هذا الأمر ، ولا يغير من هذه الحقيقة . فأمرهم أهون من أن يؤثر في حقائق الأمور .

« وإنه لحسرة على الكافرين » .. بما يرفع من شأن المؤمنين ، ويحط من قدر المكذبين وبما ينتهي إليه من إقرار الحق وإزهاق الباطل الذي يستمسك به الكافرون . ثم إنه حجة عليهم عند الله في اليوم الآخر ، يعذبون

به ، ويتحسرون لما يصيبهم بسببه . فهو حسرة على الكافرين في الدنيا والآخرة .
« وإنه لحق اليقين » .. مع تكذيب المكذبين . حق اليقين . فليس مجرد اليقين ، ولكنه الحق في هذا اليقين .
وهو تعبير خاص يضاعف المعنى ويضاعف التوكيد . وإن هذا القرآن لعميق في الحق ، عميق في اليقين . وإنه
ليكشف عن الحق الخالص في كل آية ما يشي بأن مصدره هو الحق الأول الأصيل ..
فهذه هي طبيعة هذا الأمر وحقيقته المستيقنة . لا هو قول شاعر . ولا هو قول كاهن . ولا هو تقول على الله .
إنما هو التنزيل من رب العالمين . وهو التذكرة للمنتقين . وهو حق اليقين .
هنا يجيء التلقين العلوي للرسول الكريم ، في أنسب وقت وأنسب حالة لهذا التلقين :
« فسبح باسم ربك العظيم » ..
والتسبيح بما فيه من تنزيه وتمجيد . وبما فيه من اعتراف وتحقيق . وبما فيه من عبودية وخشوع ... هو الشعور
الذي يخالج القلب ، بعد هذا التقرير الأخير ، وبعد ذلك الاستعراض الطويل ، لقدرة الله العظيم ، وعظمة الرب
الكريم ..

* * *

(٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعٌ وَارْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ
وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَأَصْبَرَ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ
قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾
يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَذِي الْمُجْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي
تَعُوبُهُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَلَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرُ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾
وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾

* إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصْلِحِينَ ﴿٢٢﴾
الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَیْطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ

جَنَّةٍ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مَنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ مَحْضُوزًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

هذه السورة حلقة من حلقات العلاج البطيء ، المديد ، العميق ، الدقيق ، لعقائيل الجاهلية في النفس البشرية كما واجهها القرآن في مكة ؛ وكما يمكن أن يواجهها في أية جاهلية أخرى مع اختلافات في السطوح لا في الأعماق ! وفي الظواهر لا في الحقائق !

أو هي جولة من جولات المعركة الطويلة الشاقة التي خاضها في داخل هذه النفس ، وفي خلال دروبها ومنحنياتها ، ورواسبها وركامها . وهي أضخم وأطول من المعارك الحربية التي خاضها المسلمون - فيما بعد - كما أن هذه الرواسب وتلك العقائيل هي أكبر وأصعب من القوى التي كانت مرصودة ضد الدعوة الإسلامية والتي ما تزال مرصودة لها في الجاهليات القديمة والحديثة !

والحقيقة الأساسية التي تعالج السورة إقرارها هي حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ؛ وعلى وجه الخصوص ما فيها من عذاب للكافرين ، كما أوعدهم القرآن الكريم . وهي تلم - في طريقها إلى إقرار هذه الحقيقة - بحقيقة النفس البشرية في الضراء والسراء . وهي حقيقة تختلف حين تكون مؤمنة وحين تكون خاوية من الإيمان . كما تلم بسمات النفس المؤمنة ومنهجها في الشعور والسلوك ، واستحقاقها للتكريم . وبهوان الذين كفروا على الله وما أعد لهم من مذلة ومهانة تليق بالمستكبرين .. وتقرر السورة كذلك اختلاف القيم والمقاييس في تقدير الله وتقدير البشر ، واختلاف الموازين ...

وتؤلف بهذه الحقائق حلقة من حلقات العلاج الطويل لعقائيل الجاهلية وتصوراتها ، أو جولة من جولات المعركة الشاقة في دروب النفس البشرية ومنحنياتها . تلك المعركة التي خاضها القرآن فانتصر فيها في النهاية مجرداً من كل قوة غير قوته الذاتية . فقد كان انتصار القرآن الحقيقي في داخل النفس البشرية - ابتداء - قبل أن يكون له سيف يدفع الفتنة عن المؤمنين به فضلاً على أن يرغم به أعداءه على الاستسلام له !

والذي يقرأ هذا القرآن - وهو مستحضر في ذهنه لأحداث السيرة - يشعر بالقوة الغالبة والسلطان البالغ الذي كان هذا القرآن يواجه به النفوس في مكة ويروضها حتى تسلس قيادها راغبة مختارة . ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة تنوعاً عجيباً .. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان الغامر من الدلائل الموحية والمؤثرات الجارفة ! وتارة يواجهها بما يشبه الهراسة الساحقة التي لا يثبت لها شيء مما هو راسخ في كيائها من التصورات والرواسب ! وتارة يواجهها بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس فلا يطيق وقعها ولا يصبر على لدعها ! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة ، والمسارة الودود ، التي تهفو لها المشاعر وتأنس لها القلوب ! وتارة يواجهها بالهول المرعب ، والصرخة المفزعة ، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب ! وتارة يواجهها بالحقيقة في بساطة ونصاعة لا تدع مجالاً للتلفت عنها ولا الجدال فيها . وتارة يواجهها بالرجاء الصبوح والأمل الندي الذي يهتف لها ويناجيها .

وتارة يتخلل مسارها ودروبها ومنحنياتها فيلقي عليها الأضواء التي تكشفها لذاتها فترى ما يجري في داخلها رأي العين ، وتنجل من بعضه ، وتكره بعضه ، وتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها ! .. ومئات من اللمسات ، ومئات من اللفتات ، ومئات من الهتافات ، ومئات من المؤثرات .. يطلع عليها قارئ القرآن ، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة ، وذلك العلاج البطيء . ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصية العنيدة .

وهذه السورة تكشف عن جانب من هذه المحاولة في إقرار حقيقة الآخرة ، والحقائق الأخرى التي ألت بها في الطريق إليها .

وحقيقة الآخرة هي ذاتها التي تصدت لها سورة الحاقة ، ولكن هذه السورة تعالجها بطريقة أخرى ، وتعرض لها من زاوية جديدة ، وصور وظلال جديدة ..

في سورة الحاقة كان الاتجاه إلى تصوير الهول والرعب في هذا اليوم ، ممثلين في حركات عنيفة في مشاهد الكون الهائلة : « فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » .. وفي الجلال المهيب في ذلك المشهد المرهوب : « والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » .. وفي الكشف الذي ترتج له وتستوله المشاعر : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافيه » ..

كذلك كان الهول والرعب يتمثلان في مشاهد العذاب ، حتى في النطق بالحكم بهذا العذاب : « خذوه . فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » .. كما يتجلى في صراخ المعذبين وتأوهاتهم وحسراتهم : « يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حساييه . يا ليتها كانت القاضية . » ..

فأما هنا في هذه السورة فالهول يتجلى في ملامح النفوس وسماتها وخوالجها وخطواتها ، أكثر مما يتجلى في مشاهد الكون وحركاته . حتى المشاهد الكونية يكاد الهول يكون فيها نفسياً ! وهو على كل حال ليس أبرز ما في الموقف من أهوال . إنما الهول مستكن في النفس يتجلى مداه في مدى ما يحدثه فيها من خلخلة وذهول وروعة : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً . يُبَصَّرُونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبه وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه » ..

وجهم هنا « نفس » ذات مشاعر وذات وعي تشارك مشاركة الأحياء في سمة الهول الحي : « إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » ..

والعذاب ذاته يغلب عليه طابع نفسي أكثر منه حسيماً : « يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » ..

فالمشاهد والصور والظلال لهذا اليوم تختلف في سورة المعارج عنها في سورة الحاقة ، باختلاف طابعي السورتين في عمومهما . مع اتحاد الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورتان في هذه المشاهد .

ومن ثم فقد تناولت سورة المعارج - فيما تناولت - تصوير النفس البشرية في الضراء والسراء ، في حالتي الإيمان والخواء من الإيمان . وكان هذا متناسقاً مع طابعها « النفسي » الخاص : فجاء في صفة الإنسان : « إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ... الخ » .. واستطرد السياق فصور هنا صفات النفوس المؤمنة وسماتها الظاهرة والمضمرة تمشياً مع طبيعة السورة وأسلوبها : « إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أمواتهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون

سورة المعارج

يوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون ... » ..

* * *

ولقد كان الاتجاه الرئيسي في سورة الحاقة إلى تقرير حقيقة الجد الصارم في شأن العقيدة . ومن ثم كانت حقيقة الآخرة واحدة من حقائق أخرى في السورة ، كحقيقة أخذ المكذبين أخذاً صارماً في الأرض ؛ وأخذ كل من يبدل في العقيدة بلا تسامح .. فأما الاتجاه الرئيسي في سورة المعارج فهو إلى تقرير حقيقة الآخرة وما فيها من جزاء ، وموازين هذا الجزاء . فحقيقة الآخرة هي الحقيقة الرئيسية فيها .

ومن ثم كانت الحقائق الأخرى في السورة كلها متصلة اتصالاً مباشراً بحقيقة الآخرة فيها . من ذلك حديث السورة عن الفارق بين حساب الله في أيامه وحساب البشر ، وتقدير الله لليوم الآخر وتقدير البشر : « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ... الخ » وهو متعلق باليوم الآخر .

ومنه ذلك الفارق بين النفس البشرية في الضراء والسراء في حالتي الإيمان والخلو من الإيمان . وهما مؤهلان للجزاء في يوم الجزاء .

ومنه غرور الذين كفروا وطمعهم أن يدخلوا كلهم جنات نعيم ، مع هوانهم على الله وعجزهم عن سبقه والتفلسف من عقابه . وهو متصل اتصالاً وثيقاً بمحور السورة الأصيل .

وهكذا تكاد السورة تقتصر على حقيقة الآخرة وهي الحقيقة الكبيرة التي تتصدى لإقرارها في النفوس . مع تنوع اللمسات والحقائق الأخرى المصاحبة للموضوع الأصيل .

* * *

ظاهرة أخرى في هذا الإيقاع الموسيقي للسورة ، الناشئ من بنائها التعبيري .. فقد كان التنوع الإيقاعي في الحاقة ناشئاً من تغير القافية في السياق من فقرة لفقرة . وفق المعنى والجو فيه .. فأما هنا في سورة المعارج فالتنوع أبعد نطاقاً ، لأنه يشمل تنوع الجملة الموسيقية كلها لا إيقاع القافية وحدها . والجملة الموسيقية هنا أعمق وأعرض وأشد تركيباً . ويكثر هذا التنوع في شطر السورة الأول بشكل ملحوظ .

ففي هذا المطلع ثلاث جمل موسيقية متنوعة - مع اتحاد الإيقاع في نهاياتها - من حيث الطول ومن حيث الإيقاعات الجزئية فيها على النحو التالي :

« سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذي المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . فاصبر صبراً جميلاً » .. حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس .

« إنهم يرونه بعيداً . ونراه قريباً » .. حيث يتكرر الإيقاع بمد الألف مرتين .

« يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً » .. حيث تنتهي بمد الألف في الإيقاع الثالث . مع تنوع الإيقاع في الداخل .

« يُبَصِّرُونَهُمْ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا إنها لظى » .. حيث ينتهي بمد الألف في الإيقاع الخامس كالأول .

« نزاعة للشوى .. تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . إن الإنسان خلق هلوياً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً » .. حيث يتكرر إيقاع المد بالألف خمس مرات منهما اثنتان في النهاية تختلفان عن الثلاثة الأولى .

ثم يستقيم الإيقاع في باقي السورة على الميم والنون وقبلهما واو أو ياء ..
والتنويع الإيقاعي في مطلع السورة عميق وشديد التعقيد في الصياغة الموسيقية بشكل يلفت الأذن الموسيقية إلى ما في هذا التنويع المعقد الراقى - موسيقياً - من جمال غريب على البيئة العربية وعلى الإيقاع الموسيقي العربي . ولكن الأسلوب القرآني يطوعه ويمنحه اليسر الذي يدخل به إلى الأذن العربية فتقبل عليه ، وإن كان فناً إبداعياً عميقاً جديداً على مألوفها الموسيقي^١ .
والآن نستعرض السورة تفصيلاً ...

* * *

« سأل سائل بعذاب واقع ، للكافرين ليس له دافع ، من الله ذي المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً ، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ، يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميماً ، يُبَصَّرُونَهُمْ ، يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا ! إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فأوعى » ..

كانت حقيقة الآخرة من الحقائق العسيرة الإدراك عند مشركي العرب ؛ ولقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة ، وكانوا يتلقونها بغاية العجب والدهش والاستغراب ؛ وينكرونها أشد الإنكار ، ويتحدون الرسول - صلى الله عليه وسلم - في صور شتى أن يأتيهم بهذا اليوم الموعود ، أو أن يقول لهم : متى يكون .
وفي رواية عن ابن عباس أن الذي سأل عن العذاب هو النضر بن الحارث . وفي رواية أخرى عنه : قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم .

وعلى أية حال فالسورة تحكي أن هناك سائلاً سأل وقوع العذاب واستعجله . وتقرر أن هذا العذاب واقع فعلاً ، لأنه كائن في تقدير الله من جهة ، ولأنه قريب الوقوع من جهة أخرى . وأن أحداً لا يمكنه دفعه ولا منعه . فالسؤال عنه واستعجاله - وهو واقع ليس له من دافع - يبدو تعاسة من السائل المستعجل ؛ فرداً كان أو مجموعة ! وهذا العذاب للكافرين .. إطلاقاً .. فيدخل فيه أولئك السائلون المستعجلون كما يدخل فيه كل كافر . وهو واقع من الله « ذي المعارج » .. وهو تعبير عن الرفعة والتعالي ، كما قال في السورة الأخرى : « رفيع الدرجات ذو العرش » ..

وبعد هذا الافتتاح الذي يقرر كلمة الفصل في موضوع العذاب ، ووقوعه ، ومستحقه ، ومصدره ، وعلو هذا المصدر ورفعته ، مما يجعل قضاءه أمراً علوياً نافذاً لا مرد له ولا دافع .. بعد هذا أخذ في وصف ذلك اليوم الذي سيقع فيه هذا العذاب ، والذي يستعجلون به وهو منهم قريب . ولكن تقدير الله غير تقدير البشر ، ومقاييسه غير مقاييسهم :

(١) الذين يعرفون شيئاً عن الأصول الموسيقية لن يجدوا صعوبة في فهم مدلول هذا الكلام . ولتقريبه للآخرين يراجع فصل : التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني في القرآن « دار الشروق » .

« تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فاصبر صبراً جميلاً ، إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . .

والأرجح أن اليوم المشار إليه هنا هو يوم القيامة ، لأن السياق يكاد يعين هذا المعنى . وفي هذا اليوم تصعد الملائكة والروح إلى الله . والروح : الأرجح أنه جبريل عليه السلام ، كما سمي بهذا الاسم في مواضع أخرى . وإنما أفرد بالذكر بعد الملائكة لئلا من شأن خاص . وعروج الملائكة والروح في هذا اليوم يفرد كذلك بالذكر ، إحياء بأهميته في هذا اليوم وخصوصيته ، وهم يعرجون في شؤون هذا اليوم ومهامه . ولا ندري نحن — ولم نكلف أن ندري — طبيعة هذه المهام ، ولا كيف يصعد الملائكة ، ولا إلى أين يصعدون . فهذه كلها تفصيلات في شأن الغيب لا تزيد شيئاً من حكمة النص ، وليس لنا إليها من سبيل ، وليس لنا عليها من دليل . فحسبنا أن نشعر من خلال هذا المشهد بأهمية ذلك اليوم ، الذي ينشغل فيه الملائكة والروح بتحركات تتعلق بمهام ذلك اليوم العظيم .

وأما « كان مقداره خمسين ألف سنة » . . فقد تكون كناية عن طول هذا اليوم كما هو مألوف في التعبير العربي . وقد تعني حقيقة معينة ، ويكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة من سني أهل الأرض فعلاً وهو يوم واحد ! وتصور هذه الحقيقة قريب جداً الآن . فإن يومنا الأرضي هو مقياس مستمد من دورة الأرض حول نفسها في أربع وعشرين ساعة . وهناك نجوم دورتها حول نفسها تستغرق ما يعادل يومنا هذا آلاف المرات . . ولا يعني هذا أنه المقصود بالخمسين ألف سنة هنا . ولكننا نذكر هذه الحقيقة لتقرب إلى الذهن تصور اختلاف المقاييس بين يوم ويوم !

وإذا كان يوم واحد من أيام الله يساوي خمسين ألف سنة ، فإن عذاب يوم القيامة قد يرونه هم بعيداً ، وهو عند الله قريب . ومن ثم يدعوا الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — إلى الصبر الجميل على استعجالهم وتكذيبهم بذلك العذاب القريب .

« فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . .

والدعوة إلى الصبر والتوجيه إليه صاحبت كل دعوة ، وتكررت لكل رسول ، ولكل مؤمن يتبع الرسول . وهي ضرورية لثقل العبء ومشقة الطريق ، ولحفظ هذه النفوس متماسكة راضية ، موصولة بالهدف البعيد ، متطلعة كذلك إلى الأفق البعيد . .

والصبر الجميل هو الصبر المطمئن ، الذي لا يصاحبه السخط ولا القلق ولا الشك في صدق الوعد . صبر الواثق من العاقبة ، الراضي بقدر الله ، الشاعر بحكمته من وراء الابتلاء ، الموصول بالله المحتسب كل شيء عنده مما يقع به .

وهذا اللون من الصبر هو الجدير بصاحب الدعوة . فهي دعوة الله ، وهي دعوة إلى الله . ليس له هو منها شيء . وليس له وراءها من غاية . فكل ما يلقاه فيها فهو في سبيل الله ، وكل ما يقع في شأنها هو من أمر الله . فالصبر الجميل إذن ينبعث متناسقاً مع هذه الحقيقة ، ومع الشعور بها في أعماق الضمير .

والله صاحب الدعوة التي يقف لها المكذبون ، وصاحب الوعد الذي يستعجلون به ويكذبون ، يقدر الأحداث ويقدر مواقيتها كما يشاء وفق حكمته وتديره للكون كله . ولكن البشر لا يعرفون هذا التدبير وذلك التقدير ؛ فيستعجلون . وإذا طال عليهم الأمد يستريبون . وقد يساور القلق أصحاب الدعوة أنفسهم ، وتجول في خاطرهم أمنية ورغبة في استعجال الوعد ووقوع الموعد . . عندئذ يجيء مثل هذا التثيت وهذا التوجيه من الله الخبير :

« فاصبر صبراً جميلاً » . .

والخطاب هنا للرسول - صلى الله عليه وسلم - تثبيتاً لقلبه على ما يلقي من عنت المناوأة والتكذيب . وتقريراً للحقيقة الأخرى : وهي أن تقدير الله للأمور غير تقدير البشر : ومقاييسه المطلقة غير مقاييسهم الصغيرة : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » . .

ثم يرسم مشاهد اليوم الذي يقع فيه ذلك العذاب الواقع ، الذي يرونه بعيداً ويراها الله قريباً . يرسم مشاهدته في مجالي الكون وأغوار النفس . وهي مشاهد تشي بالهول المذهل المزلزل في الكون وفي النفس سواء : « يوم تكون السماء كالمهل ، وتكون الجبال كالعهن » . .

والمهل ذوب المعادن الكدر كدردي الزيت . والعهن هو الصوف المنتفش . والقرآن يقرر في مواضع مختلفة أن أحداثاً كونية كبرى ستقع في هذا اليوم ، تغير أوضاع الأجرام الكونية وصفاتها ونسبها وروابطها . ومن هذه الأحداث أن تكون السماء كالمعادن المذابة . وهذه النصوص جدرة بأن يتأملها المشتغلون بالعلوم الطبيعية والفلكية . فن المرجح عندهم أن الأجرام السماوية مؤلفة من معادن منصهرة إلى الدرجة الغازية - وهي بعد درجة الانصهار والسيولة بمراحل - فلعلها في يوم القيامة ستنتطفئ (كما قال : « وإذا النجوم انكدرت ») وستبرد حتى تصير معادن سائلة ! وبهذا تتغير طبيعتها الحالية وهي الطبيعة الغازية !

على أية حال هذا مجرد احتمال ينفع الباحثين في هذه العلوم أن يتدبروه . أما نحن فنقف أمام هذا النص تملى ذلك المشهد المرهوب ، الذي تكون فيه السماء كنوب المعادن الكدر ، وتكون فيه الجبال كالصوف الواهن المنتفش . وتملى ما وراء هذا المشهد من الهول المذهل الذي ينطبع في النفوس ، فيعبر عنه القرآن أعمق تعبير : « ولا يسأل حميم حميماً . يُبْصَرُونَهُمْ . يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه » .

إن الناس في هم شاغل ، لا يدع لأحد منهم أن يتلفت خارج نفسه ، ولا يجد فسحة في شعوره لغيره : « ولا يسأل حميم حميماً » . فلقد قطع الهول المروع جميع الوشائج ، وحبس النفوس على همها لا تتعداه . . وإنهم ليعرضون بعضهم على بعض « يُبْصَرُونَهُمْ » كأنما عمداً وقصداً ! ولكن لكل منهم هم ، ولكل ضمير منهم شغله . فلا يهجم في خاطر صديق أن يسأل صديقه عن حاله ، ولا أن يسأله عونه . فالكرب يلف الجميع ، والهول يغشى الجميع . .

فأبال « المجرم » ؟ إن الهول ليأخذ بحسه ، وإن الرعب ليذهب بنفسه ، وإنه ليود لو يفتدي من عذاب يومئذ بأعز الناس عليه ، ممن كان يفتديهم بنفسه في الحياة ، ويناضل عنهم ، ويعيش لهم . . ببنيه . وزوجه . وأخيه ، وعشيرته القريبة التي تؤويه وتحميه . بل إن لهفته على النجاة لتفقدته الشعور بغيره على الإطلاق ، فيود لو يفتدي بمن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . . وهي صورة للهفة الطاغية والفرع المذهل والرغبة الجامحة في الإفلات ! صورة مبطنة بالهول ، مغمورة بالكرب ، موشاة بالفرع ، ترسم من خلال التعبير القرآني الموحى .

وبينا المجرم في هذه الحال ، يتمنى ذلك المحال ، يسمع ما يئس ويقنط من كل بارقة من أمل ، أوكل حديث خادع من النفس . كما يسمع الملاً جميعاً حقيقة الموقف وما يجري فيه : « كلا ! إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعون من أدبر وتولى وجمع فأوعى » . .

إنه مشهد تطير له النفس شعاعاً ، بعد ما أذهلها كرب الموقف وهوله . . « كلا ! » في ردع عن تلك الأماني

المستحيلة في الافتداء بالبنين والزوج والأخ والعشيرة ومن في الأرض جميعاً .. « كلا ! إنها لظى » نارتلظى وتتحرق « نزاعة للشوى » تنزع الجلود عن الوجوه والرؤوس نزعاً .. وهي غول مفزعة . ذات نفس حية تشارك في الهول والعذاب عن إرادة وقصد : « تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى » .. تدعوه كما كان يدعى من قبل إلى الهدى فيدبر ويتولى . ولكنه اليوم إذ تدعوه جهنم لا يملك أن يدبر ويتولى ! ولقد كان من قبل مشغولاً عن الدعوة بجمع المال وحفظه في الأوعية ! فأما اليوم فالدعوة من جهنم لا يملك أن يلهو عنها . ولا يملك أن يفتدي بما في الأرض كله منها !

والتوكيد في هذه السورة والسورة السابقة قبلها وفي سورة القلم كذلك على منع الخير ، وعدم الحض على طعام المسكين ، وجمع المال في الأوعية إلى جانب الكفر والتكذيب والمعصية .. هذا التوكيد يدل على أن الدعوة كانت تواجهه في مكة حالات خاصة يجتمع فيها البخل والحرص والجشع إلى الكفر والتكذيب والضلالة . مما اقتضى تكرار الإشارة إلى هذا الأمر ، والتخويف من عاقبته ، بوصفه من موجبات العذاب بعد الكفر والشرك بالله .

وفي هذه السورة إشارات أخرى تفيد هذا المعنى ، وتؤكد ملامح البيئة المكية التي كانت تواجهها الدعوة . فقد كانت بيئة مشغولة بجمع المال من التجارة ومن الربا . وكان كبراء قريش هم أصحاب هذه المتاجر ، وأصحاب القوافل في رحلتي الشتاء والصيف . وكان هنالك تكالب على الثراء ، وشح النفوس يجعل الفقراء محرومين ، واليتامى مضيعين . ومن ثم تكرر الأمر في هذا الشأن وتكرر التحذير . وظل القرآن يعالج هذا الجشع وهذا الحرص ؛ ويخوض هذه المعركة مع الجشع والحرص في أغوار النفس ودروبها قبل الفتح وبعده على السواء . مما هو ظاهر لمن يتتبع التحذير من الربا ، ومن أكل أموال الناس بالباطل ، ومن أكل أموال اليتامى إسرافاً وبداراً أن يكبروا ! ومن الجور على اليتيمات واحتجازهن للزواج الجائر رغبة في أموالهن ! ومن نهر السائل ، وقهر اليتيم ، ومن حرمان المساكين ... إلى آخر هذه الحملات المتتابعة العنيفة الدالة على الكثير من ملامح البيئة . فضلاً على أنها توجيهات دائمة لعلاج النفس الإنسانية في كل بيئة . وحب المال ، والحرص عليه ، وشح النفس به ، والرغبة في احتجانه ، آفة تساور النفوس مساورة عنيفة ، وتحتاج للانطلاق من إسارها والتخلص من أوهاقها ، والتحرر من ربقتها ، إلى معارك متلاحقة ، وإلى علاج طويل !

* * *

والآن وقد انتهت من تصوير الهول في مشاهد ذلك اليوم ، وفي صورة ذلك العذاب ؛ فإنه يتجه إلى تصوير حقيقة النفس البشرية في مواجهة الشر والخير ، في حالي إيمانها وخلوها من الإيمان . ويقرر مصير المؤمنين كما قرر مصير المجرمين :

« إن الإنسان خلق هلوعاً : إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهادتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون » .

وصورة الإنسان - عند خواء قلبه من الإيمان - كما يرسمها القرآن صورة عجيبة في صدقها ودقتها وتعبيرها الكامل عن الملامح الأصلية في هذا المخلوق ؛ والتي لا يعصمه منها ولا يرفعه عنها إلا العنصر الإيماني ، الذي

يصله بمصدر يجد عنده الطمأنينة التي تمسك به من الجزع عند ملاقة الشر ، ومن الشح عند امتلاك الخير .

« إن الإنسان خلق هلوعاً : إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً » ..

لكأنما كل كلمة لمسه من ريشه مبدعة تضع خطأ في ملامح هذا الإنسان . حتى إذا اكتملت الآيات الثلاث القصار المعدودة الكلمات نطقت الصورة ونبضت بالحياة . وانتفض من خلالها الإنسان بسبته ولامحه الثابتة . هلوعاً .. جزوعاً عند مس الشر ، يتألم للذعته ، ويجزع لوقعه ، ويحسب أنه دائم لا كاشف له . ويظن اللحظة الحاضرة سرمداً مضروباً عليه ؛ ويحبس نفسه بأوهامه في قمقم من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به . فلا يتصور أن هناك فرجاً ؛ ولا يتوقع من الله تغييراً . ومن ثم يأكله الجزع ، ويمزقه الهلع . ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه ، ويعلق به رجاء وأمله .. منوعاً للخير إذا قدر عليه . يحسب أنه من كده وكسبه فيضن به على غيره ، ويحتججه لشخصه ، ويصبح أسير ما ملك منه ، مستعبدا للحرص عليه ! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هوفيه . ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور به .. فهو هلوع في الحاليتين .. هلوع من الشر . هلوع على الخير .. وهي صورة بائسة للإنسان ، حين يخلو قلبه من الإيمان . ومن ثم يبدو الإيمان بالله مسألة ضخمة في حياة الإنسان . لا كلمة تقال باللسان ، ولا شعائر تعبدية تقام . إنه حالة نفس ومنهج حياة ، وتصور كامل للقيم والأحداث والأحوال . وحين يصبح القلب خاوياً من هذا المقوم فإنه يتأرجح ويهتز وتتناوبه الرياح كالريشة ! ويبت في قلق وخوف دائم ، سواء أصابه الشر فجزع ، أم أصابه الخير فنع . فأما حين يعمره الإيمان فهو منه في طمأنينة وعافية ، لأنه متصل بمصدر الأحداث ومدير الأحوال ؛ مطمئن إلى قدره شاعر برحمته ، مقدر لابتلائه ، متطلع دائماً إلى فرجه من الضيق ، ويسره من العسر . متجه إليه بالخير ، عالم أنه ينفق مما رزقه ، وأنه مجزي على ما أنفق في سبيله ، معوض عنه في الدنيا والآخرة .. فالإيمان كسب في الدنيا يتحقق قبل جزاء الآخرة ، يتحقق بالراحة والطمأنينة والثبات والاستقرار طوال رحلة الحياة الدنيا .

وصفة المؤمنين المستثنين من الهلع ، تلك السمة العامة للإنسان ، يفصلها السياق هنا ويحددها :

« إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » ..

والصلاة فوق أنها ركن الإسلام وعلامة الإيمان ، هي وسيلة الاتصال بالله والاستمداد من ذلك الرصيد . ومظهر العبودية الخالصة التي يتجرد فيها مقام الربوبية ومقام العبودية في صورة معينة . وصفة الدوام التي يخصصها بها هنا : « الذين هم على صلاتهم دائمون » .. تعطي صورة الاستقرار والاستطرد ، فهي صلاة لا يقطعها الترك والإهمال والكسل وهي صلة بالله مستمرة غير منقطعة .. وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا عمل شيئاً من العبادة أثبتته - أي داوم عليه - وكان يقول : « وإن أحب الأعمال إلى الله تعالى ما دام وإن قل » .. للملاحظة صفة الاطمئنان والاستقرار والثبات على الاتصال بالله ، كما ينبغي من الاحترام لهذا الاتصال . فليس هولعة توصل أو تقطع ، حسب المزاج !

« والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ..

وهي الزكاة على وجه التخصيص والصدقات المعلومة القدر .. وهي حق في أموال المؤمنين .. أولعل المعنى أشمل من هذا وأكبر . وهو أنهم يجعلون في أموالهم نصيباً معلوماً يشعرون أنه حق للسائل والمحروم . وفي هذا

تخلص من الشح واستعلاء على الحرص ! كما أن فيه شعوراً بواجب الواحد تجاه المحروم ، في هذه الأمة المتضامنة المتكافلة .. والسائل الذي يسأل ؛ والمحروم الذي لا يسأل ولا يعبر عن حاجته فيحرم . أولعله الذي نزلت به النوازل فحرم وعف عن السؤال . والشعور بأن للمحتاجين والمحرومين حقاً في الأموال هو شعور بفضل الله من جهة ، وبآصرة الإنسانية من جهة ، فوق ما فيه من تحرر شعوري من ربة الحرص والشح . وهو في الوقت ذاته ضمانة اجتماعية لتكافل الأمة كلها وتعاونها . فهي فريضة ذات دلالات شتى ، في عالم الضمير وعالم الواقع سواء .. وذكرها هنا فوق أنه يرسم خطأ في ملامح النفس المؤمنة فهو حلقة من حلقات العلاج للشح والحرص في السورة .

« والذين يصدقون بيوم الدين » ..

وهذه الصفة ذات علاقة مباشرة بموضوع السورة الرئيسي . وهي في الوقت ذاته ترسم خطأ أساسياً في ملامح النفس المؤمنة . فالتصديق بيوم الدين شرط الإيمان . وهو ذو أثر حاسم في منهج الحياة شعوراً وسلوكاً . والميزان في يد المصدق بيوم الدين غير الميزان في يد المكذب بهذا اليوم أو المستريب فيه . ميزان الحياة والقيم والأعمال والأحداث .. المصدق بيوم الدين يعمل وهو ناظر لميزان السماء لا لميزان الأرض ، ولحساب الآخرة لا لحساب الدنيا ويتقبل الأحداث خيرها وشرها وفي حسابه أنها مقدمات نتائجها هناك ، فيضيف إليها النتائج المرتقبة حين يزنها ويقومها .. والمكذب بيوم الدين يحسب كل شيء بحسب ما يقع له منه في هذه الحياة القصيرة المحدودة ، ويتحرك وحدوده هي حدود هذه الأرض وحدود هذا العمر . ومن ثم يتغير حسابه وتختلف نتائج موازينه ، وينتهي إلى نتائج خاطئة فوق ما ينحصر في مساحة من المكان ومساحة من الزمان محدودة .. وهو بائس مسكين معذب قلق لأن ما يقع في هذا الشطر من الحياة الذي يحصر فيه تأملاته وحساباته وتقديراته ، قد لا يكون مطمئناً ولا مريحاً ولا عادلاً ولا معقولاً ، مالم يضيف إليه حساب الشطر الآخر وهو أكبر وأطول . ومن ثم يشقى به من لا يحسب حساب الآخرة أو يشقى غيره من حوله . ولا تستقيم له حياة ريفية لا يجد جزءاً في هذه الأرض واضحاً .. ومن ثم كان التصديق باليوم الآخر شرط الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة في الإسلام .

« والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون » ..

وهذه درجة أخرى وراء مجرد التصديق بيوم الدين . درجة الحساسية المرهفة ، والرقابة اليقظة ، والشعور بالتقصير في جنب الله على كثرة العبادة ، والخوف من تلفت القلب واستحقاقه للعذاب في أية لحظة ، والتطلع إلى الله للحماية والوقاية .

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو من هو عند الله . وهو يعرف أن الله قد اصطفاه ورعاه .. كان دائم الحذر دائم الخوف لعذاب الله . وكان على يقين أن عمله لا يعصمه ولا يدخله الجنة إلا بفضل من الله ورحمة . وقال لأصحابه : « لن يدخل الجنة أحداً عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »^١

وفي قوله هنا : « إن عذاب ربهم غير مأمون » .. إحياء بالحساسية الدائمة التي لا تغفل لحظة ، فقد تقع موجبات العذاب في لحظة الغفلة فيحق العذاب . والله لا يطلب من الناس إلا هذه اليقظة وهذه الحساسية ، فإذا غلبهم ضعفهم معها ، فرحمته واسعة ، ومغفرته حاضرة . وباب التوبة مفتوح ليست عليه مغاليق ! وهذا

(١) رواه الشيخان والنسائي .

قوام الأمر في الإسلام بين الغفلة والقلق . والإسلام غير هذا وتلك . والقلب الموصول بالله يحذرو ويرجو ، ويخاف ويطمع ، وهو مطمئن لرحمة الله على كل حال .

« والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . .

وهذه تعني طهارة النفس والجماعة ، فالإسلام يريد مجتمعاً طاهراً نظيفاً ، وفي الوقت ذاته ناصعاً صريحاً . مجتمعاً تؤدي فيه كل الوظائف الحيوية ، وتلبى فيه كل دوافع الفطرة . ولكن بغير فوضى ترفع الحياء الجميل ، وبغير التواء يقتل الصراحة النظيفة . مجتمعاً يقوم على أساس الأسرة الشرعية المتينة القوائم . وعلى البيت العلني الواضح المعالم . مجتمعاً يعرف فيه كل طفل أباه ، ولا يخجل من مولده . لا لأن الحياء متزوع من الوجه والنفوس . ولكن لأن العلاقات الجنسية قائمة على أساس نظيف صريح ، طويل الأمد ، واضح الأهداف ، يرمي إلى النهوض بواجب إنساني واجتماعي ، لا لمجرد إرضاء التزوة الحيوانية والشهوة الجنسية !

ومن ثم يذكر القرآن هنا من صفات المؤمنين « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . .

فيقرر نظافة الاتصال بالأزواج وبما ملكت الأيمان - من الإماء حين يوجدن بسبب مشروع - والسبب المشروع الوحيد الذي يعترف به الإسلام هو السبي في قتال في سبيل الله . وهي الحرب الوحيدة التي يقرها الإسلام - والأصل في حكم هذا السبي هو ما ذكرته آية سورة محمد : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثختموهم فشدوا الوثاق ، فإما مئاً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها » ولكن قد يتخلف بعض السبي بلا من ولا فداء للملابسات واقعية ؛ فهذا يظل رقيقاً إذا كان المعسكر الآخر يسترق أسرى المسلمين في أية صورة من صور الرق - ولو سماه بغير اسمه ! - ويجوز الإسلام وطء الإماء عندئذ من صاحبه وحده ، ويجعل عتقهن موكولاً إلى الوسائل الكثيرة التي شرعها الإسلام لتخفيف هذا المورد . ويقف الإسلام بمبادئه صريحاً نظيفاً لا يدع هؤلاء الأسيرات لفوضى الاختلاط الجنسي القذر كما يقع لأسيرات الحروب قديماً وحديثاً ! ولا يتدسس ويلتوي فيسميهن حرات وهن إماء في الحقيقة !

« فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . . وبذلك يغلق الباب في وجه كل قذارة جنسية ، في أية صورة غير هاتين الصورتين الواضحتين الصريحتين . فلا يرى في الوظيفة الطبيعية قذارة في ذاتها ؛ ولكن القذارة في الالتواء بها . والإسلام نظيف صريح قويم .^١

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

وهذه من القوائم الأخلاقية التي يقيم الإسلام عليها نظام المجتمع . ورعاية الأمانات والعهد في الإسلام تبدأ من رعاية الأمانة الكبرى التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان . وهي أمانة العقيدة والاستقامة عليها اختياراً لا اضطراراً . . ومن رعاية العهد الأول المقطوع على فطرة الناس وهم بعد في الأصلاب أن الله ربهم الواحد ، وهم بخلفتهم على هذا العهد شهود . . ومن رعاية تلك الأمانة وهذا العهد تنبثق رعاية سائر الأمانات والعهد في معاملات الأرض وقد شدد الإسلام في الأمانة والعهد وكرر وأكد ، ليقم المجتمع على أسس متينة من الخلق والثقة والطمأنينة . وجعل رعاية الأمانة والعهد سمة النفس

(١) تراجع سورة المؤمنون جزء ١٨ ص ٢٤٥٥ - ٢٤٥٦ وسورة محمد جزء ٢٦ ص ٣٢٨٢ - ٣٢٨٥ .

المؤمنة ، كما جعل خيانة الأمانة وإخلاف العهد سمة النفس المناقة والكافرة . ورد هذا في مواضع شتى من القرآن والسنة لا تدع مجالاً للشك في أهمية هذا الأمر البالغة في عرف الإسلام .

« والذين هم بشهاداتهم قائمون » ..

وقد ناط الله بأداء الشهادة حقوقاً كثيرة ، بل ناط بها حدود الله ، التي تقام بقيام الشهادة . فلم يكن بد أن يشدد الله في القيام بالشهادة ، وعدم التخلف عنها ابتداء ، وعدم كتمانها عند التقاضي ، ومن القيام بها أداؤها بالحق دون ميل ولا تحريف . وقد جعلها الله شهادة له هوليربطها بطاعته ، فقال : « وأقيموا الشهادة لله » .. وجعلها هنا سمة من سمات المؤمنين وهي أمانة من الأمانات ، أفرداها بالذكر للتعظيم من شأنها وإبراز أهميتها .. وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة ، ختمها كذلك بالصلاة :

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » ..

وهي صفة غير صفة الدوام التي ذكرت في صدر هذه الصفات . تتحقق بالمحافظة على الصلاة في مواعيدها ، وفي فرائضها ، وفي سننها ، وفي هيئتها ، وفي الروح التي تؤدي بها . فلا يضيعونها إهمالاً وكسلاً . ولا يضيعونها بعدم إقامتها على وجهها .. وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحى بالاحتفال والاهتمام . وبهذا تختم سمات المؤمنين ..

وعندئذ يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد ما قرر من قبل مصير الفريق الآخر :

« أولئك في جنات مكرمون » ..

ويجمع هذا النص القصير بين لون من النعم الحسي ولون من النعم الروحي . فهم في جنات . وهم يلقون الكرامة في هذه الجنات . فتجتمع لهم اللذة بالنعم مع التكريم ، جزاء على هذا الخلق الكريم ، الذي يتميز به المؤمنون .

* * *

ثم يعرض السياق مشهداً من مشاهد الدعوة في مكة ، والمشركون يسرعون الخطى إلى المكان الذي يكون فيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتلو القرآن . ثم يتفرقون حوالبه جماعات . ويستنكرون إسرارهم هذا وتجمعهم في غير ما رغبة في الاهتداء بما يسمعون :

« فما للذين كفروا قبلك مهطعين ؟ عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » ..

المهطع هو الذي يسرع الخطى ماداً عنقه كالمقود . وعزين جمع عزة كفتة وزناً ومعنى .. وفي التعبير تهكم خفي بحركتهم المريبة . وتصوير لهذه الحركة وللهيئة التي تتم بها . وتعجب منهم . وتساؤل عن هذا الحال منهم ! وهم لا يسرعون الخطى تجاه الرسول ليسمعوا ويهتدوا ، ولكن فقط ليستطلعوا في دهشة ثم يتفرقوا كي يتحلقوا حلقات يتناجون في الكيد والرد على ما يسمعون !

ما لهم ؟ « أيطمع كل امرئ منهم أن يُدخل جنة نعيم ؟ » ..

وهم على هذه الحال التي لا تؤدي إلى جنة نعيم ، إنما تؤدي إلى لظى مأوى المجرمين !

ألعلمهم يحسبون أنفسهم شيئاً عظيماً عند الله ؛ فهم يكفرون ويؤذون الرسول ، ويسمعون القرآن ويتناجون بالكيد . ثم يدخلون الجنة بعد هذا كله لأنهم في ميزان الله شيء عظيم ؟ !

« كلا ! » في ردع وفي تحقير .. « إنا خلقناهم مما يعلمون ! »

وهم يعلمون مم خلقوا ! من ذلك الماء المهين الذي يعرفون ! والتعبير القرآني المبدع يلمسهم هذه اللمسة الخفية العميقة في الوقت ذاته ؛ فيمسح بها كبرياءهم مسحاً ، وينكس بها خيلاءهم تنكيساً ، دون لفظة واحدة نابية ، أو تعبير واحد جارح . بينما هذه الإشارة العابرة تصور الهوان والزهادة والرخص أكمل تصوير ! فكيف يطمعون أن يدخلوا جنة نعيم على الكفر وسوء الصنيع ؟ وهم مخلوقون مما يعلمون ! وهم أهون على الله من أن تكون لهم دالة عليه ، وخرق لسننته في الجزاء العادل باللظى وبالنعيم .

واستطراداً في تهوين أمرهم ، وتصغير شأنهم ، وتنكيس كبريائهم ، يقرر أن الله قادر على أن يخلق خيراً منهم ، وأنهم لا يعجزونه فيذهبون دون ما يستحقون من جزاء ألم :

« فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين » .

والأمر ليس في حاجة إلى قسم . ولكن التلويح بذكر المشارق والمغارب ، يوحي بعظمة الخالق . والمشارق والمغارب قد تعني مشارق النجوم الكثيرة ومغاربها في هذا الكون الفسيح . كما أنها قد تعني المشارق والمغارب المتوالية على بقاع الأرض . وهي تتوالى في كل لحظة . ففي كل لحظة أثناء دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس يطلع مشرق ويختفي مغرب ...

وأياً كان مدلول المشارق والمغارب ، فهو يوحي إلى القلب بضخامة هذا الوجود ، وبعظمة الخالق لهذا الوجود . فهل يحتاج أمر أولئك المخلوقين مما يعلمون إلى قسم برب المشارق والمغارب ، على أنه - سبحانه - قادر على أن يخلق خيراً منهم ، وأنهم لا يسبقونه ولا يفوتونه ولا يهربون من مصيرهم المحتوم ؟ !

* * *

وعندما يبلغ السياق هذا المقطع ، بعد تصوير هول العذاب في ذلك اليوم المشهود ؛ وكرامة النعيم للمؤمنين ، وهوان شأن الكافرين . يتجه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليدعهم لذلك اليوم ولذلك العذاب ، ويرسم مشهدهم فيه ، وهو مشهد مكروب ذليل :

« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » ..

وفي هذا الخطاب من تهوين شأنهم ، ومن التهديد لهم ، ما يثير الخوف والترقب . وفي مشهدهم وهيئتهم وحركتهم في ذلك اليوم ما يثير الفزع والتخوف . كما أن في التعبير من التهكم والسخرية ما يناسب اعتزازهم بأنفسهم واغترارهم بمكائنتهم ..

فهؤلاء الخارجون من القبور يسرعون الخطى كأنما هم ذاهبون إلى نصب يعبدونه .. وفي هذا التهكم تناسق مع حالهم في الدنيا . لقد كانوا يسارعون إلى الأنصاب في الأعياد ويتجمعون حولها . فهاهم أولاء يسارعون اليوم ، ولكن شتان بين يوم ويوم !

ثم تم سماتهم بقوله : « خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة » فللمح من خلال الكلمات سيأهم كاملة ، وترسم لنا من قسماتهم صورة واضحة . صورة ذليلة عانية .. لقد كانوا يخوضون ويلعبون فهم اليوم أذلاء مرهقون ..

« ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » .

فكانوا يسترهبون فيه ويكذبون ويستعجلون !

* * *

سورة المعارج

بهذا يلتئم المطلع والختام ، وتم هذه الحلقة من حلقات العلاج الطويل لقضية البعث والجزاء ، وتنتهي هذه الجولة من جولات المعركة الطويلة بين التصور الجاهلي والتصور الإسلامي للحياة .

* * *

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانِينَ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَنْقُومُ إِلَيَّ لَكُمُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤْتِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي أَدَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

مَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾
 وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا
 إِلَّا فَاكِهًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ
 إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

هذه السورة كلها تقص قصة نوح - عليه السلام - مع قومه ؛ وتصف تجربة من تجارب الدعوة في الأرض ؛ وتمثل دورة من دورات العلاج الدائم الثابت المتكرر للبشرية ، وشوطاً من أشواط المعركة الخالدة بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل .

هذه التجربة تكشف عن صورة من صور البشرية العنيدة ، الضالة ، الذاهبة وراء القيادات المضللة ، المستكبرة عن الحق ، المعرضة عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان ، المعروضة أمامها في الأنفس والآفاق ، المرقومة في كتاب الكون المفتوح ، وكتاب النفس المكنون .

وهي في الوقت ذاته تكشف عن صورة من صور الرحمة الإلهية تتجلى في رعاية الله لهذا الكائن الإنساني ، وعنايته بأن يهتدي . تتجلى هذه العناية في إرسال الرسل ترى إلى هذه البشرية العنيدة الضالة الذاهبة وراء القيادات المضللة المستكبرة عن الحق والهدى .

ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهداية هذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة . وهم لا مصلحة لهم في القضية ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون ، في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم !

هذه الصورة التي يعرضها نوح - عليه السلام - على ربه ، وهو يقدم له حسابه الأخير بعد ألف سنة إلا خمسين عاماً قضاها في هذا الجهد المضني ، والعناء المرهق ، مع قومه المعاندين ، الذاهبين وراء قيادة ضالة مضللة ذات سلطان ومال وعزوة . وهو يقول :

« رب . إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزدتهم دعائي إلا فراراً . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت : استغفروا ربكم ، إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . مالكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً .. »

ثم يقول بعد عرض هذا الجهد الدائب الملح الثابت المصير :

« رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كبيراً . وقالوا : لا تذرنا آلهتكم ، ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ... » ..

وهي حصيلة مريرة . ولكن الرسالة هي الرسالة !

هذه التجربة المريرة تعرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي انتهت إليه أمانة دعوة الله في الأرض كلها في آخر الزمان ، واضطلع بأكبر عبء كلفه رسول .. يرى فيها صورة الكفاح النبيل الطويل لأخ له من قبل ، لإقرار حقيقة الإيمان في الأرض . ويطلع منها على عناد البشرية أمام دعوة الحق ؛ وفساد القيادة الضالة وغلبتها على القيادة الراشدة . ثم إرادة الله في إرسال الرسل ترى بعد هذا العناد والضلال منذ فجر البشرية على يدي جدّها نوح عليه السلام .

وتعرض على الجماعة المسلمة في مكة ، وعلى الأمة المسلمة بعامّة ، وهي الوارثة لدعوة الله في الأرض ، وللمنهج الإلهي المنبثق من هذه الدعوة ، القائمة عليه في وسط الجاهلية المشتركة يومذاك ، وفي وسط كل جاهلية تالية .. ترى فيها صورة الكفاح والإصرار والثبات هذا المدى الطويل من أبي البشرية الثاني . كما ترى فيها عناية الله بالقلّة المؤمنة ، وإنجاءها من الهلاك الشامل في ذلك الحين .

وتعرض على المشركين لبروا فيها مصير أسلافهم المكذّبين ؛ ويدركوا نعمة الله عليهم في إرساله إليهم رسولاً رحماً بهم ، لا يدعو عليهم بالهلاك الشامل ؛ وذلك لما قدره الله من الرحمة بهم وإمهالهم إلى حين . فلم تصدر من نبيهم دعوة كدعوة نوح ، بعدما استنفد كل الوسائل ، وألهم الدعاء على القوم بما ألهم :
« ولا تزد الظالمين إلا ضللاً » ..

« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » ..

* * *

ومن خلال عرض هذه الحلقة من حلقات الدعوة الإلهية على البشرية تتجلى حقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها ، وتأصل جذورها . كما يتجلى ارتباطها بالكون وإرادة الله وقدره ، وأحداث الحياة الواقعة وفق قدر الله . وذلك من خلال دعوة نوح لقومه : « قال : يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » .. وفي حكاية قوله لهم : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ، والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » ..

ولإقرار هذه الحقيقة في نفوس المسلمين قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم ، وحقيقة نسبهم العريق ! وحقيقة موكبهم المتصل من مطلع البشرية . وحقيقة دورهم في إقرار هذه الدعوة والقيام عليها . وهي منهج الله القويم القديم .

* * *

وإن الإنسان ليأخذ الدهش والعجب ، كما تغمره الروعة والخشوع ، وهو يستعرض - بهذه المناسبة - ذلك الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - لهداية البشرية الضالة المعاندة . ويتدبر إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل واحداً بعد واحد لهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يعن للإنسان أن يسأل : ترى تساوي الحصلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة ، من لدن نوح - عليه السلام - إلى محمد - عليه الصلاة والسلام - ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعوة الله وتضحياتهم الضخام ؟

ترى هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح في هذه السورة وفي غيرها من سور القرآن ، وقد استغرق عمراً طويلاً بالغ الطول ، لم يكتف قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والاثام . وهو يتلقاهما بالصبر والحسن ، والأدب الجميل والبيان المنير .

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تقطع على مدار التاريخ . من رسل يستبأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو ينشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار .. حتى تجيء الرسالة الأخيرة ، فيجهد فيها محمد - صلى الله عليه وسلم - ذلك الجهد المشهود المعروف ، هو والمؤمنون معه . ثم تتوالى الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل ؟ ؟ ترى تساوي الحصلة كل هذه الجهود ، وكل هذه التضحيات ، وكل هذا الجهاد المرير الشاق ؟ ثم .. ترى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله ، المتجلية في استقرار إرادته سبحانه على إرسال الرسل ترى بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار ، من هذا الخلق الهزيل الصغير المسمى بالإنسان ؟ ! والجواب بعد التدبر : أن نعم .. وبلا جدال .. !

إن استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد ، وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل ! ولعل استقرار هذه الحقيقة أكبر من وجود الإنسان ذاته ؛ بل أكبر من الأرض وما عليها ؛ بل أكبر من هذا الكون الهائل الذي لا تبلغ الأرض أن تكون فيه هباءة ضائعة لا تكاد تحس أو ترى !

وقد شاءت إرادة الله أن يخلق هذا الكائن الإنساني بخصائص معينة ، تجعل استقرار هذه الحقيقة في ضميره وفي نظام حياته موكولاً إلى الجهد الإنساني ذاته ، بعون الله وتوفيقه . ولسنا نعلم لم خلق الله هذا الكائن بهذه الخصائص . ووكله إلى إدراكه وجهده وإرادته في تحقيق حقيقة الإيمان في ذاته وفي نظام حياته ؛ ولم يجبله على الإيمان والطاعة لا يعرف غيرها كالملائكة ، أو يحضه للشر والمعصية لا يعرف غيرها كإبليس .

لسنا نعلم سر هذا . ولكننا نؤمن بأن هنالك حكمة تتعلق بنظام الوجود كله في خلق هذا الكائن بهذه الخصائص ! وإذن فلا بد من جهد بشري لإقرار حقيقة الإيمان في عالم الإنسان . هذا الجهد اختار الله له صفوة من عباده هم الأنبياء والرسل . وثلة مختارة من أتباعهم هم المؤمنون الصادقون . اختارهم لإقرار هذه الحقيقة في الأرض ، لأنها تساوي كل ما يبذلون فيها من جهود مضنية مريرة ، وتضحيات شاقة نبيلة .

إن استقرار هذه الحقيقة في قلب معناه أن ينطوي هذا القلب على قبس من نور الله ؛ وأن يكون مستودعاً لسر من أسراه ؛ وأن يكون أداة من أدوات قدره النافذ في هذا الوجود .. وهذه حقيقة لا مجرد تصوير وتقريب .. وهي حقيقة أكبر من الإنسان ذاته ومن أرضه وسمائه ، ومن كل هذا الكون الكبير !

كما أن استقرار حقيقة الإيمان في حياة البشر - أو جماعة منهم - معناه اتصال هذه الحياة الأرضية بالحياة الأبدية ، وارتفاعها إلى المستوى الذي يؤهلها لهذا الاتصال . معناه اتصال الفناء بالبقاء والجزء بالكل والمحدود بالناقص بالكمال المطلق ... وهي حصلة تربي على كل جهد وكل تضحية ولو تحققت على الأرض يوماً أو

بعض يوم في عمر البشرية الطويل ، لأن تحققها - ولو في هذه الصورة - يرفع أمام البشرية في سائر أجيالها مشعل النور في صورة عملية واقعية ، تجاهد لتبلغ إليها طوال الأجيال !

ولقد أثبت الواقع التاريخي المتكرر أن النفس البشرية لم تبلغ إلى آفاق الكمال المقدر لها بأية وسيلة كما بلغت باستقرار حقيقة الإيمان بالله فيها . وأن الحياة البشرية لم ترتفع إلى هذه الآفاق بوسيلة أخرى كما ارتفعت بهذه الوسيلة . وأن الفترات التي استقرت فيها هذه الحقيقة في الأرض ، وتسلم أهلها قيادة البشرية كانت قمة في تاريخ الإنسان سامقة ، بل كانت حلماً أكبر من الخيال ، ولكنه متمثل في واقع يحياه الناس .

وما يمكن أن ترتقي البشرية ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب أو نظام ، إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم .. وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء جاءت بمجملتها كما هي في الرسائل الأولى ، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة .

والدليل القاطع على أن هذه العقيدة حقيقة من عند الله ؛ هو هذا الذي أثبتته الواقع التاريخي من بلوغ البشرية باستقرار حقيقة الإيمان في حياتها ما لم تبلغه قط بوسيلة أخرى من صنع البشر : لا علم ، ولا فلسفة ، ولا فن ، ولا نظام من النظم . وأنها حين فقدت قيادة المؤمنين الحقيقيين لم ينفعها شيء من ذلك كله ؛ بل انحدرت قيمها وموازنها وإنسانيتها ، كما غرقت في الشقاء النفسي والحيرة الفكرية والأمراض العصبية ، على الرغم من تقدمها الحضاري في سائر الميادين ، وعلى الرغم من توافر عوامل الراحة البدنية والمتاع العقلي ، وأسباب السعادة المادية بمجملتها . ولكنها لم تنل السعادة والطمأنينة والراحة الإنسانية أبداً . ولم يرتفع تصورهما للحياة قط كما ارتفع في ظل الحقيقة الإيمانية ، ولم تتوثق صلتهما بالوجود قط كما توثقت في ظل هذه العقيدة ، ولم تشعر بكرامة « النفس الإنسانية » قط كما شعرت بها في تلك الفترة التي استقرت فيها تلك الحقيقة . والدراسة الواعية للتصور الإسلامي لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني تنتهي حتماً إلى هذه النتيجة .

وهذا كله يستحق - بدون تردد - كل ما يبذله المؤمنون من جهود مضنية ، ومن تضحيات نبيلة ، لإقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض . وإقامة قلوب تنطوي على قس من نور الله ، وتتصل بروح الله . وإقامة حياة إنسانية يتمثل فيها منهج الله للحياة . وترتفع فيها تصورات البشر وأخلاقهم ، كما يرتفع فيها واقع حياتهم إلى ذلك المستوى الرفيع ، الذي شهدته البشرية واقعاً في فترة من فترات التاريخ .

وستعرض البشرية كما أعرضت عن دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم الكرام . وستذهب مع القيادات الضالة المضلة الممعة في الضلال . وستعذب الدعاة إلى الحق أنواعاً مختلفة من العذاب ، وتنكل بهم ألواناً شتى من النكال . كما ألفت إبراهيم في النار ، ونشرت غيره بالمنشار ، وسخرت واستهزأت بالرسول والأنبياء على مدار التاريخ .

ولكن الدعوة إلى الله لا بد أن تمضي في طريقها كما أراد الله . لأن الحصيلة تستحق الجهود المضنية والتضحيات النبيلة ، ولو صغرت فانحصرت في قلب واحد ينطوي على قس من نور الله ، ويتصل بروح الله !

إن هذا الموكب المتصل من الرسل والرسالات من عهد نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه أزكى السلام - لينبئ عن استقرار إرادة الله على اطراد الدعوة إلى حقيقة الإيمان الكبيرة ، وعلى قيمة هذه الدعوة وقيمة الحصيلة . وأقل نسبة لهذه الحصيلة هي أن تستقر حقيقة الإيمان في قلوب الدعاة أنفسهم حتى يلاقوا الموت وما هو أشد من الموت في سبيلها ولا ينكصون عنها . وبهذا يرتفعون على الأرض كلها وينطلقون من

جواذبها ، ويتحررون من ربقتها . وهذا وحده كسب كبير ، أكبر من الجهد المرير . كسب للدعاة . وكسب للإنسانية التي تشرف بهذا الصنف منها وتكرم . وتستحق أن يُسجد الله الملائكة لهذا الكائن ، الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء . ولكنه يتبهاً - بجهده هو ومحاولته وتضحيته - لاستقبال قيس من نور الله . كما يتبهاً لأن ينهض - وهو الضعيف العاجز - بتحقيق قدر الله في الأرض ، وتحقيق منهجه في الحياة . ويبلغ من الطلاقة والتحرر الروحي أن يضحي بالحياة ، ويحتمل من المشقة ما هو أكبر من ضياع الحياة ، لينجو بعقيدته وينهض بواجبه في محاولة إقارها في حياة الآخرين ، وتحقيق السعادة لهم والتحرر والارتفاع . وحين يتحقق لروح الإنسان هذا القدر من التحرر والانطلاق ، يهون الجهد ، وتهون المشقة ، وتهون التضحية ، ويتوارى هذا كله ، لتبرز تلك الحصيلة الضخمة التي ترجح الأرض والسماء في ميزان الله ...

والآن نستعرض قصة نوح في هذه السورة ، وما تمثله من حقيقة تلك الحقيقة !

* * *

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه : أن أنذر قومك من قبل أن يأتبهم عذاب أليم . قال : يا قوم : إني لكم نذير مبين : أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » ..

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه » .. فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف ، كما يتلقون حقيقة العقيدة . وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله ، وصدرت منه الحياة . وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده ، فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله ، يردونهم إليه . ونوح - عليه السلام - كان أول هؤلاء الرسل - بعد آدم عليه السلام . وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض ، وممارسته لهذه الحياة ؛ ولعله كان معلماً لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد ، واتخذوا لهم أصناماً آلهة . اتخذوها في أول الأمر أنصافاً ترمز إلى قوى قدسوها . قوى غيبية أو مشهودة . ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام ! وأشهرها تلك الخمسة التي سيرد ذكرها في السورة . فأرسل الله إليهم نوحاً يردهم إلى التوحيد ، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود . والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس - عليه السلام - سابقاً لنوح . ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم ، لشبهة التحريف والتزويد والإضافة إلى تلك الكتب .

والذي يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن ، أن نوحاً كان في فجر البشرية ؛ وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاماً في دعوته لقومه ، ولا بد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة .. أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحى بأن البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية . وذلك قياساً على ما نراه من سنة الله في الأحياء من طول العمر إذا قل العدد ، كأن ذلك للتعويض والتعادل .. والله أعلم بذلك .. إنما هي نظرة في سنة الله وقياس !

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده ، ثم تذكر فحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار : « أن أنذر قومك من قبل أن يأتبهم عذاب أليم » ..

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها ، من إعراض واستكبار وعناد وضلال - كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه - تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته ، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه ، الإنذار بعذاب أليم ، في الدنيا أو في الآخرة ، أو فيهما جميعاً .

ومن مشهد التكليف ينتقل السياق مباشرة إلى مشهد التبليغ في اختصار ، البارز فيه هو الإنذار ، مع الإطماع في المغفرة على ما وقع من الخطايا والذنوب ؛ وتأجيل الحساب إلى أجل المضروب في الآخرة للحساب ؛ وذلك مع البيان المجمل لأصول الدعوة التي يدعوهم إليها :

« قال : يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله ، واتقوه ، وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون » ..

« يا قوم إني لكم نذير مبين » .. مفصح عن نذارته ، مبين عن حجته ، لا يتمم ولا يجمع ، ولا يتلعم في دعوته ، ولا يدع لبساً ولا غموضاً في حقيقة ما يدعو إليه ، وفي حقيقة ما ينتظر المكذبين بدعوته .

وما يدعو إليه بسيط واضح مستقيم : « أن اعبدوا الله ، واتقوه وأطيعون » .. عبادة لله وحده بلا شريك . وتقوى لله تهيمن على الشعور والسلوك . وطاعة لرسوله تجعل أمره هو المصدر الذي يستمدون منه نظام الحياة وقواعد السلوك .

وفي هذه الخطوط العريضة تتلخص الديانة السماوية على الإطلاق . ثم تفرق بعد ذلك في التفصيل والتفريع . وفي مدى التصور وضخامته وعمقه وسعته وشموله وتناوله للجوانب المختلفة للوجود كله ، وللوجود الإنساني في التفصيل والتفريع .

وعبادة الله وحده منهج كامل للحياة ، يشمل تصور الإنسان لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ ولحقيقة الصلة بين الخلق والخالق ، ولحقيقة القوى والقيم في الكون وفي حياة الناس .. ومن ثم ينبثق نظام للحياة البشرية قائم على ذلك التصور ، فيقوم منهج للحياة خاص . منهج رباني مرجعه إلى حقيقة الصلة بين العبودية والألوهية ، وإلى القيم التي يقررها الله للأحياء والأشياء .

وتقوى الله .. هي الضمانة الحقيقية لاستقامة الناس على ذلك المنهج ، وعدم التلفت عنه هنا أو هناك ، وعدم الاحتياال عليه أو الالتواء في تنفيذه . كما أنها هي مبعث الخلق الفاضل المنظور فيه إلى الله ، بلا رياء ولا تظاهر ولا مماراة .

وطاعة الرسول .. هي الوسيلة للاستقامة على الطريق ، وتلقي الهدى من مصدره المتصل بالمصدر الأول للخلق والهداية ، وبقاء الاتصال بالسما عن طريق محطة الاستقبال المباشرة السليمة المضمونة !

فهذه الخطوط العريضة التي دعا نوح إليها قومه في فجر البشرية هي خلاصة دعوة الله في كل جيل بعده ، وقد وعدهم عليها ما وعد الله به التائبين الثائبين :

« يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى » ..

وجزاء الاستجابة للدعوة إلى عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله هي المغفرة والتخليص من الذنوب التي سلفت ؛ وتأخير الحساب إلى أجل المضروب له في علم الله . وهو اليوم الآخر . وعدم الأخذ في الحياة الدنيا بعذاب الاستئصال (وسيرد في الحساب الذي قدمه نوح لربه أنه وعدهم أشياء أخرى في أثناء الحياة) .

ثم بين لهم أن ذلك أجل المضروب حتمي يجيء في موعده ، ولا يؤخر كما يؤخر عذاب الدنيا .. وذلك لتقرير هذه الحقيقة الاعتقادية الكبرى :

« إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ، لو كنتم تعلمون » ..

كما أن النص يحتمل أن يكون هذا تقريراً لكل أجل يضربه الله ؛ ليقر في قلوبهم هذه الحقيقة بوجه عام .

سورة نوح

بمناسبة الحديث عن الوعد بتأخير حسابهم - لو أطاعوا وأتابوا - إلى يوم الحساب .

* * *

وراح نوح - عليه السلام - يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه ، بلا مصلحة له ، ولا منفعة ؛ ويحتمل في سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إغراض واستكبار واستهزاء .. ألف سنة إلا خمسين عاماً .. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد ؛ ودرجة الإغراض والإصرار على الضلال ترتفع وتزداد ! ثم عاد في نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذي كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل ! عاد يصف ما صنع وما لاقى .. وربه يعلم . وهو يعرف أن ربه يعلم . ولكنها شكوى القلب المتعب في نهاية المطاف ، إلى الجهة الوحيدة التي يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان .. إلى الله ..

« قال : رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائي إلا فراراً ؛ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً . فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً . ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً ؟ ألم تروا كيف خلق الله سبع سماءات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً .. »

هذا ما صنع نوح وهذا ما قال ؛ عاد يعرضه على ربه وهو يقدم حسابه الأخير في نهاية الأمد الطويل . وهو يصور الجهد الدائب الذي لا يتقطع : « إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً » .. ولا يمل ولا يفتر ولا يئس أمام الإغراض والإصرار : « فلم يزدكم دعائي إلا فراراً » .. فراراً من الداعي إلى الله . مصدر الوجود والحياة ، ومصدر النعم والآلاء ، ومصدر الهدى والنور . وهو لا يطلب أجراً على السماع ولا ضريبة على الاهتداء ! الفرار ممن يدعوهم إلى الله ليغفر لهم ويخلصهم من جريرة الإثم والمعصية والضلال !

فإذا لم يستطيعوا الفرار ، لأن الداعي واجههم مواجهة ، وتحين الفرصة ليصل إلى أسماعهم بدعوته ، كرهوا أن يصل صوته إلى أسماعهم . وكرهوا أن تقع عليه أنظارهم ، وأصروا على الضلال ، واستكبروا عن الاستجابة لصوت الحق والهدى : « وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً » .. وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ؛ وإصرارهم هم على الضلال . تبرز من ثناياها ملامح الطفولة البشرية العنيدة . تبرز في وضع الأصابع في الآذان ، وستر الرؤوس والوجوه بالثياب . والتعبير يرسم بكلماته صورة العناد الطفولي الكامل ، وهو يقول : إنهم « جعلوا أصابعهم في آذانهم » وآذانهم لا تسع أصابعهم كاملة ، إنما هم يسدونها بأطراف الأصابع . ولكنهم يسدونها في عنف بالغ ، كأنما يحاولون أن يجعلوا أصابعهم كلها في آذانهم ضمناً لعدم تسرب الصوت إليها بتاتاً ! وهي صورة غليظة للإصرار والعناد ، كما أنها صورة بدائية لأطفال البشرية الكبار !

ومع الدأب على الدعوة ، وتحين كل فرصة ، والإصرار على المواجهة .. اتبع نوح - عليه السلام - كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة ، ثم زواج بين الإعلان والإصرار تارة : « ثم إني دعوتهم جهاراً ، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً » ..

وفي أثناء ذلك كله أطعمهم في خير الدنيا والآخرة . أطعمهم في الغفران إذا استغفروا ربهم فهو - سبحانه - غفار للذنوب : « فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفاراً » .. وأطعمهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير ، الذي تنبت به الزروع ، وتسيل به الأنهار ، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها - وهي البنين - والأموال التي يطلبونها ويعزونها : « يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً » ..

وقد ربط بين الاستغفار وهذه الأرزاق . وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء ... جاء في موضع : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون^١ » .. وجاء في موضع : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم^٢... » .. وجاء في موضع : « ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله^٣... » .

وهذه القاعدة التي يقررها القرآن في مواضع متفرقة ، قاعدة صحيحة تقوم على أسبابها من وعد الله ، ومن سنة الحياة ؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحققها على مدار القرون . والحديث في هذه القاعدة عن الأمم لا عن الأفراد . وما من أمة قام فيها شرع الله ، واتجهت اتجاهها حقيقياً لله بالعمل الصالح والاستغفار المنبئ عن خشية الله .. ما من أمة اتقت الله وعبدته وأقامت شريعته ، فحققت العدل والأمن للناس جميعاً ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكن الله لها في الأرض واستخلفها فيها بال عمران وبالصلاح سواء .

ولقد نشهد في بعض الفترات أمماً لا تتقي الله ولا تقيم شريعته ؛ وهي - مع هذا - موسع عليها في الرزق ، ممكن لها في الأرض .. ولكن هذا إنما هو الابتلاء : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ثم هو بعد ذلك رخاء مؤوف ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي ، أو الظلم والبغي وإهدار كرامة الإنسان .. وأمامنا الآن دولتان كبيرتان موسع عليهما في الرزق ، ممكن لهما في الأرض . إحداهما رأسمالية والأخرى شيوعية . وفي الأولى يهبط المستوى الأخلاقي إلى الدرك الأسفل من الحيوانية ، ويهبط تصور الحياة إلى الدرك الأسفل كذلك فيقوم كله على الدولار !! وفي الثانية تهدر قيمة « الإنسان » إلى درجة دون الرقيق وتسود الجاسوسية ويعيش الناس في وجل دائم من المذابح المتوالية ؛ ويبست كل إنسان وهو لا يضمن أنه سيصبح ورأسه بين كتفيه لا يطيح في تهمة تحاك في الظلام ! وليست هذه أو تلك حياة إنسانية توسم بالرخاء !

ونمضي مع نوح في جهاده النبيل الطويل . فنجد أنه يأخذ بقومه إلى آيات الله في أنفسهم وفي الكون من حولهم ، وهو يعجب من استهتارهم وسوء أدبهم مع الله ، وينكر عليهم ذلك الاستهتار : « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟ وقد خلقكم أطواراً ؟ » ..

والأطوار التي يخاطب بها قوم نوح في ذلك الزمان لا بد أن تكون أمراً يدركونه ، أو أن يكون أحد مدلولاتها

(١) سورة الأعراف . آية : ٩٦

(٢) سورة المائدة . آية : ٦٥ - ٦٦

(٣) سورة هود . آية ٢ - ٣

مما يملك أولئك القوم في ذلك الزمان أن يدركوه ، ليرجو من وراء تذكيرهم به أن يكون له في نفوسهم وقع مؤثر ، يقودهم إلى الاستجابة . والذي عليه أكثر المفسرين أنها الأطوار الجنينية من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الهيكل إلى الخلق الكامل .. وهذا يمكن أن يدركه القوم إذا ذكر لهم . لأن الأجنة التي تسقط قبل اكتمالها في الأرحام يمكن أن تعطيه فكرة عن هذه الأطوار . وهذا أحد مدلولات هذه الآية . ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة . من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة ؛ ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا . ثم يأخذ شكل حيوان مائي . ثم شكل حيوان ثديي . ثم شكل المخلوق الإنساني .. وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح . فقد كشف هذا حديثاً جداً . وقد يكون هذا هو مدلول قوله تعالى في موضع آخر بعد ذكر أطوار الجنين : « ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .. كما أن هذا النص وذاك قد تكون لهما مدلولات أخرى لم تتكشف للعلم بعد .. ولا نقيدهما ..

وعلى أية حال فقد وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم ، وأنكر عليهم أن يكون الله خلقهم أطواراً ، ثم هم بعد ذلك لا يستشعرون في أنفسهم توقيراً للجليل الذي خلقهم .. وهذا أعجب وأنكر ما يقع من مخلوق ! كذلك وجههم إلى كتاب الكون المفتوح : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ؟ » .. والسموات السبع لا يمكن حصرها في مدلول مما تقول به الفروض العلمية في التعريف بالكون . فهي كلها مجرد فروض . إنما وجه نوح قومه إلى السماء وأخبرهم - كما علمه الله - أنها سبع طباق . فيهن القمر نور وفيهن الشمس سراج . وهم يرون القمر ويرون الشمس ، ويرون ما يطلق عليه اسم السماء . وهو هذا الفضاء ذو اللون الأزرق . أما ما هو ؟ فلم يكن ذلك مطلوباً منهم . ولم يجزم أحد إلى اليوم بشيء في هذا الشأن .. وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع والتدبر فيما وراء هذه الخلائق الهائلة من قدرة مبدعة .. وهذا هو المقصود من ذلك التوجيه . ثم عاد نوح فوجه قومه إلى النظر في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ليقرر لهم حقيقة إخراجهم منها بالبعث : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً » ..

والتعبير عن نشأة الإنسان من الأرض بالإنبات تعبير عجيب موح . وهو يكرر في القرآن في صور شتى . كقوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » . وهو يشير في هذا إلى نشأة الناس كنشأة النبات . كما يقرن نشأة الإنسان بنشأة النبات في مواضع متفرقة : ففي سورة الحج يجمع بينهما في آية واحدة في صدد البرهنة على حقيقة البعث فيقول : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .. وفي سورة « المؤمنون » يذكر أطوار النشأة الجنينية قريباً مما ذكرت في سورة الحج ويحيي بعدها : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب » .. وهكذا .

وهي ظاهرة تستدعي النظر ولا ريب . فهي توحى بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض ، وأن نشأة الإنسان من الأرض كنشأة النبات . من عناصرها الأولية يتكون . ومن عناصرها الأولية يتغذى وينمو ، فهو نبات من نباتها . وهبه الله هذا اللون من الحياة كما وهب النبات ذلك اللون من الحياة . وكلاهما من نتاج

الأرض ، وكلاهما يرضع من هذه الأم !
وكذلك ينشئ الإيمان في المؤمن تصوراً حقيقياً حياً لعلاقته بالأرض وبالأحياء . تصوراً فيه دقة العلم وفيه حيوية الشعور . لأنه قائم على الحقيقة الحية في الضمير . وهذه ميزة المعرفة القرآنية الفريدة .
والناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى . يعيدهم الله إليها كما أنبتهم منها . فيختلط رفاتهم بتربتها ، وتندمج ذراتهم في ذراتها ، كما كانوا فيها من قبل أن ينبتوا منها ! ثم يخرجهم الذي أول مرة ؛ وينبتهم كما أنبتهم أول مرة .. مسألة سهلة يسيرة لا تستدعي التوقف عندها لحظة ، حين ينظر الإنسان إليها من هذه الزاوية التي يعرضها القرآن منها !

ونوح - عليه السلام - وجه قومه إلى هذه الحقيقة لتستشعر قلوبهم يد الله وهي تنبتهم من هذه الأرض نباتاً ، وهي تعيدهم فيها مرة أخرى . ثم تتوقع النشأة الأخرى وتحسب حسابها ، وهي كائنة بهذا اليسر وبهذه البساطة . بساطة البداهة التي لا تقبل جدلاً !

وأخيراً وجه نوح قومه إلى نعمة الله عليهم في تيسير الحياة لهم على هذه الأرض وتذليلها لسيرهم ومعاشهم وانتقالهم وطرائق حياتهم : « والله جعل لكم الأرض بساطاً ، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً » ..

وهذه الحقيقة القريبة من مشاهدتهم وإدراكهم تواجههم مواجهة كاملة ، ولا يملكون الفرار منها كما كانوا يفرون من صوت نوح وإنذاره . فهذه الأرض بالقياس إليهم مبسطة ممهدة - حتى جبالها قد جعل لهم عبرها دروباً وفجاجاً ، كما جعل في سهولها من باب أولى . وفي سبلها ودروبها يمضون ويركبون وينتقلون ؛ ويتغنون من فضل الله ، ويتعاشون في يسر وتبادل للمنافع والأرزاق .

وهم كانوا يدركون هذه الحقيقة المشاهدة لهم بدون حاجة إلى دراسات علمية عويصة ، يدرسون بها النواميس التي تحكم وجودهم على هذه الأرض ، وتيسر لهم الحياة فيها . وكلما زاد الإنسان علماً أدرك من هذه الحقيقة جوانب جديدة وآفاقاً بعيدة ' .

هكذا سلك نوح - أو حاول أن يسلك - إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل في دأب طويل ، وفي صبر جميل ، وفي جهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاماً . ثم عاد إلى ربه الذي أرسله إليهم ، يقدم حسابه ، ويثبث شكواه ، في هذا البيان المفصل ، وفي هذه اللهجة المؤثرة . ومن هذا البيان الدقيق نطلع على تلك الصورة النبيلة من الصبر والجهد والمشقة ، وهي حلقة واحدة في سلسلة الرسالة السماوية لهذه البشرية الضالة العصية ! فماذا كان بعد كل هذا البيان ؟

« قال نوح : رب إنهم عصوني ، واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تدرن آلهتكم ، ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً . ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً » ..

رب إنهم عصوني ! بعد كل هذا الجهاد ، وبعد كل هذا العناء . وبعد كل هذا التوجيه . وبعد كل هذا التنوير . وبعد الإنذار والإطماع والوعد بالمال والبنين والرخاء .. بعد هذا كله كان العصيان . وكان السير وراء القيادات الضالة المضللة ، التي تخدع الأتباع بما تملك من المال والأولاد ، ومظاهر الجاه والسلطان . ممن

(١) تراجع سورة الملك عند قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور . ص ٣٦٣٧ - ٣٦٤٠ .

« لم يزد ماله وولده إلا خساراً » فقد أغراهم المال والولد بالضلال والإضلال ، فلم يكن وراءهما إلا الشقاء والخسران .

هؤلاء القادة لم يكتفوا بالضلال .. « ومكروا مكراً كبيراً » . مكراً متناهياً في الكبر . مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس . ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخطط فيها القوم . وكان من مكروهم تحريض الناس على الاستمسك بالأصنام التي يسمونها آلهة : « وقالوا : لا تذرنا آلهتكم » .. بهذه الإضافة : « آلهتكم » لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين والاعتزاز .. « ولا تذرنا ودًا ، ولا سواعًا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسراً » .. وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية . وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناماً ، تختلف أسماءها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ؛ وتجمع حوالها الأتباع ، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد : « وقد أضلوا كثيراً » ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام .. أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار .. سواء !! ! للصمد عن دعوة الله ، وتوجيه القلوب بعيداً عن الدعاة ، بالمكر الكبير ، والكيد والإصرار !

* * *

هنا انبعث من قلب النبي الكريم نوح - عليه السلام - ذلك الدعاة على الظالمين الضالين المضللين ، الماكرين الكائدين :

« ولا ترد الظالمين إلا ضلالاً » ..

ذلك الدعاة المنبعث من قلب جاهد طويلاً ، وعانى كثيراً ، وانتهى - بعد كل وسيلة - إلى اقتناع بأن لا خير في القلوب الظالمة الباغية العاتية ؛ وعلم أنها لا تستحق الهدى ولا تستأهل النجاة . وقبل أن يعرض السياق بقية دعاء نوح - عليه السلام - يعرض ما صار إليه الظالمون الخاطئون في الدنيا والآخرة جميعاً ! فأمر الآخرة كأمر الدنيا حاضر بالقياس إلى علم الله ، وبالقياس إلى الوقوع الثابت الذي لا تغيير فيه :

« مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » .

فبخطيئاتهم وذنوبهم ومعصياتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً . والتعقيب بالفناء مقصود هنا ، لأن إدخالهم النار موصول بإغراقهم ؛ والفصل الزمني القصير كأنه غير موجود ، لأنه في موازين الله لا يحسب شيئاً . فالترتيب مع التعقيب كائن بين إغراقهم في الأرض وإدخالهم النار يوم القيامة . وقد يكون هو عذاب القبر في الفترة القصيرة بين الدنيا والآخرة .. « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » ..

لا بنون ولا مال ولا سلطان ولا أولياء من الآلهة المدعاة !

وفي آيتين اثنتين قصيرتين ينتهي أمر هؤلاء العصاة العتاة ، ويطوى ذكرهم من الحياة ! وذلك قبل أن يذكر السياق دعاء نوح عليهم بالهلاك والفناء .. ولا يفصل هنا قصة غرقهم ، ولا قصة الطوفان الذي أغرقهم . لأن الظل المراد إبقاؤه في هذا الموقف هو ظل الإجهاد السريع ، حتى ليعبر المسافة بين الإغراق والإحراق في حرف الفاء ! على طريقة القرآن في إيقاعاته التعبيرية والتصويرية المبدعة . فنقف نحن في ظلال

السياق لا نتعدها إلى تفصيل قصة الإغراق .. ولا الإحراق .. !

ثم يكمل دعاء نوح الأخير ؛ وابتهاله إلى ربه في نهاية المطاف :

« وقال نوح : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالدي ، ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً » ..

فقد ألهم قلب نوح أن الأرض تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه . وأحياناً لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين ، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائياً ، ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين . وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح ، وهو يطلب الإجهاز على أولئك الظالمين إجهازاً كاملاً لا يبقئ منهم دياراً - أي صاحب ديار - فقال : « إنك إن تذرهم يضلوا عبادك » .. ولفظة « عبادك » توحى بأنهم المؤمنون . فهي تجيء في السياق القرآني في مثل هذا الموضع بهذا المعنى . وذلك بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة ، أو بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين وتركهم من الله في عافية !

ثم إنهم يوجدون بيئة وجواً يولد فيها الكفار ، وتوحي بالكفر من الناشئة الصغار ، بما يطبعهم به الوسط الذي ينشئه الظالمون ، فلا توجد فرصة لترى الناشئة النور ، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها . وهي الحقيقة التي أشار إليها قول النبي الكريم نوح عليه السلام ، وحكاها عنه القرآن : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .. فهم يطلقون في جو الجماعة أباطيل وأضاليل ، وينشئون عادات وأوضاعاً ونظماً وتقاليد ، ينشأ معها المواليد فاجراً كفاراً ، كما قال نوح ..

من أجل هذا دعا نوح - عليه السلام - دعوته الماحقة الساحقة . ومن أجل هذا استجاب الله دعوته ، فغسل وجه الأرض من ذلك الشر ؛ وجرف العوثر التي لا تجرفها إلا قوة الجبار القدير .

وإلى جانب الدعوة الساحقة الماحقة التي جعلها خاتمة دعائه وهو يقول : « ولا تزد الظالمين إلا تباراً » - أي هلاكاً ودماراً - إلى جانب هذا كان الابتهال الخاشع الودود :

« رب اغفر لي ولوالدي ، ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ... » ..

ودعاء نوح النبي لربه أن يغفر له .. هو الأدب النبوي الكريم في حضرة الله العلي العظيم .. أدب العبد في حضرة الرب . العبد الذي لا ينسى أنه بشر ، وأنه يخطئ ، وأنه يقصر ، مهما يطع ويعبد ، وأنه لا يدخل الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله بفضل ، كما قال أخوه النبي الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا هو الاستغفار الذي دعا قومه العصاة الخاطئين إليه ، فاستكبروا عليه .. وهو هو النبي يستغفر بعد كل هذا الجهد وكل هذا العناء . يستغفر وهو يقدم لربه سجل الحساب !

ودعاؤه لوالديه .. هو بر النبوة بالوالدين المؤمنين - كما نفهم من هذا الدعاء - ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين (كما جاء في سورة هود) .

ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً .. هو بر المؤمن بالمؤمن ؛ وحب الخير لأخيه كما يحبه لنفسه ، وتخصيص الذي يدخل بيته مؤمناً ، لأن هذه كانت علامة النجاة ، وحصر المؤمنين الذين سيصحبهم معه في السفينة . ودعاؤه العام بعد ذلك للمؤمنين والمؤمنات .. هو بر المؤمن بالمؤمنين كافة في كل زمان ومكان . وشعوره بآصرة القرى على مدار الزمن واختلاف السكن . وهو السر العجيب في هذه العقيدة التي تربط بين أصحابها

سورة نوح

برباط الحب الوثيق ، والشوق العميق ، على تباعد الزمان والمكان . السر الذي أودعه الله هذه العقيدة ، وأودعه هذه القلوب المربوطة برباط العقيدة ..

وفي مقابل هذا الحب للمؤمنين ، كان الكره للظالمين .
« ولا تزد الظالمين إلا تباراً » ..

* * *

وتختم السورة ، وقد عرضت تلك الصورة الوضيئة لجهاد النبي الكريم نوح عليه السلام . وتلك الصورة المطموسة لإصرار المعاندين الظالمين .. وقد تركت هذه وتلك في القلب حباً لهذا الروح الكريم وإعجاباً بهذا الجهاد النبيل ، وزاداً للسير في هذا الطريق الصاعد ، أياً كانت المشاق والمتاعب . وأياً كانت التضحيات والآلام . فهو الطريق الوحيد الذي ينتهي بالبشرية إلى أقصى الكمال المقدر لها في هذه الأرض . حين ينتهي بها إلى الله ، العلي الأعلى ، الجليل العظيم ..

* * *

(٧٢) سُورَةُ الْجِنِّ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ
بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا
شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدِ لِّلسَّمْعِ فَنَ سَمِعَ الْآنَ يَجْدُ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي
أَشْرَارُ يَدْرِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ
قَدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا اأْهُدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَن
يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَنَ اسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا
رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

وَالْوِاسْتَقْلَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا
صَّعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّا الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿١٩﴾

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾

قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ^ج وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً ﴿٢٤﴾

قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبٌ مَّا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ ^٧ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

هذه السورة تبده الحس - قبل أن ينظر إلى المعاني والحقائق الواردة فيها - بشيء آخر واضح كل الوضوح فيها .. إنها قطعة موسيقية مطردة الإيقاع ، قوية التنغيم ، ظاهرة الرنين ؛ مع صبغة من الحزن في إيقاعها ، ومسحة من الأسى في تنغيمها ، وطائف من الشجى في رنينها ، يساند هذه الظاهرة ويتناسق معها صور السورة وظلالها ومشاهدها ، ثم روح الإيحاء فيها . وبخاصة في الشطر الأخير منها بعد انتهاء حكاية قول الجن ، والاتجاه بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا الخطاب الذي يثير العطف على شخص الرسول في قلب المستمع لهذه السورة ، عطفاً مصحوباً بالحب وهو يؤمر أن يعلن تجرده من كل شيء في أمر هذه الدعوة إلا البلاغ ، والرقابة الإلهية المضروبة حوله وهو يقوم بهذا البلاغ :

« قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . . قل : إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . . قل : إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً . . قل : إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عدداً» .. وذلك كله إلى جانب الإيقاع النفسي للحقائق التي وردت في حكاية قول الجن ، وبيانهم الطويل المديد . وهي حقائق ذات ثقل ووزن في الحس والتصور ؛ والاستجابة لها تغشى الحس بحالة من التدبر والتفكير ، تناسب مسحة الحزن ورنه الشجى المتمشية في إيقاع السورة الموسيقي !

وقراءة هذه السورة بشيء من الترتيل الهادئ ، توقع في الحس هذا الذي وصفناه من المسحة الغالبة عليها ..

* * *

فإذا تجاوزنا هذه الظاهرة التي تبده الحس ؛ إلى موضوع السورة ومعانيها واتجاهها فإننا نجد حافلة بشتى الدلالات والإيحاءات .

إنها ابتداء شهادة من عالم آخر بكثير من قضايا العقيدة التي كان المشركون يجحدونها ويجادلون فيها أشد الجدل ، ويرجمون في أمرها رجماً لا يستندون فيه إلى حجة ، ويزعمون أحياناً أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - يتلقى من الجن ما يقوله لهم عنها ! فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم بهذه القضايا التي يجحدونها ويجادلون فيها ؛ وبتكذيب دعواهم في استمداد محمد من الجن شيئاً . والجن لم يعلموا بهذا القرآن إلا حين سمعوه من محمد - صلى الله عليه وسلم - فهاهم وراعهم ومسهم منه ما يدهش ويذهل ، وملأ نفوسهم وفاض حتى ما يملكون السكوت على ما سمعوا ، ولا الإجمال فيما عرفوا ، ولا الاختصار فيما شعروا . فانطلقوا يحدثون في روعة المأخوذ ، ووهلة المشدود ، عن هذا الحادث العظيم ، الذي شغل السماء والأرض والإنس والجن والملائكة والكواكب . وترك آثاره ونتائجه في الكون كله ! .. وهي شهادة لها قيمتها في النفس البشرية حقاً .

ثم إنها تصحيح لأوهام كثيرة عن عالم الجن في نفوس المخاطبين ابتداء بهذه السورة ، وفي نفوس الناس جميعاً من قبل ومن بعد ؛ ووضع حقيقة هذا الخلق المغيّب في موضعها بلا غلو ولا اعتساف . فقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أول مرة يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض ، فكان الواحد منهم إذا أمسى بواد أو قفر ، لجأ إلى الاستعاذة بعظم الجن الحاكم لما نزل فيه من الأرض ، فقال : أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه .. ثم بات آمناً ! كذلك كانوا يعتقدون أن الجن تعلم الغيب وتخبر به الكهان فيتنبأون بما يتنبأون . وفيهم من عبد الجن وجعل بينهم وبين الله نسباً ، وزعم له سبحانه وتعالى زوجة منهم تلد له الملائكة ! والاعتقاد في الجن على هذا النحو أو شبهه كان فاشياً في كل جاهلية ، ولا تزال الأوهام والأساطير من هذا النوع تسود بيئات كثيرة إلى يومنا هذا ! ! !

وبينا كانت الأوهام والأساطير تغمر قلوب الناس ومشاعرهم وتصوراتهم عن الجن في القديم ، وما تزال .. نجد في الصف الآخر اليوم منكرين لوجود الجن أصلاً ، يصفون أي حديث عن هذا الخلق المغيّب بأنه حديث خرافة ..

وبين الإغراق في الوهم ، والإغراق في الإنكار ، يقرر الإسلام حقيقة الجن ، ويصحح التصورات العامة عنهم ، ويحرر القلوب من خوفها وخضوعها لسلطانهم الموهوم :

فالجن لهم حقيقة موجودة فعلاً وهم كما يصفون أنفسهم هنا : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً » .. ومنهم الضالون المضلون ومنهم السذج الأبرياء الذين ينخدعون : « وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً » .. وهم قابلون للهداية من الضلال ، مستعدون لإدراك القرآن سماعاً وفهماً وتأثراً : « قل : أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » .. وأنهم قابلون بخلقهم لتوقيع الجزاء عليهم وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم : « وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ، فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ، وأما القاسطون ، فكانوا لجهنم حطباً » .. وأنهم لا ينفعون الإنس حين يلوذون بهم بل يرهقونهم : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » .. وأنهم لا يعلمون الغيب ، ولم تعد لهم صلة بالسماء : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً ، وأنا كنا نعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .. وأنهم لا صهر بينهم وبين الله - سبحانه وتعالى - ولا نسب : « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » .. وأن الجن لا قوة لهم مع قوة الله ولا حيلة : « وأنا ظننا أن لن نعجز

الله في الأرض ولن نعجزه هرباً» ..

وهذا الذي ذكر في هذه السورة عن الجن بالإضافة إلى ما جاء في القرآن من صفات أخرى كتسخير طائفة من الشياطين لسليمان - وهم من الجن - وأنهم لم يعلموا بموته إلا بعد فترة ، فدل هذا على أنهم لا يعلمون الغيب : « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خرب تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين^١ » ..

ومثل قوله تعالى عن خصيصة من خصائص إبليس وقبيله - وهو من الجن - غير أنه تمحض للشر والفساد والإغراء : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم^٢ » .. وما يدل عليه من أن كيان الجن غير مرئي للبشر ، في حين أن كيان الإنس مرئي للجن .

هذا بالإضافة إلى ما قرره في سورة الرحمن عن المادة التي منها كيان الجن والمادة التي منها كيان الإنسان في قوله : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجن من مارج من نار » .. يعطي صورة عن ذلك الخلق المغيّب ، تثبت وجوده ، وتحدد الكثير من خصائصه ؛ وفي الوقت ذاته تكشف الأوهام والأساطير ، العالقة بالأذهان عن ذلك الخلق ، وتدع تصور المسلم عنه واضحاً دقيقاً متحرراً من الوهم والخرافة ، ومن التعسف في الإنكار الجامح كذلك !

وقد تكفلت هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرهم يظنون عن قدرة الجن ودورهم في هذا الكون . أما الذين ينكرون وجود هذا الخلق إطلاقاً ، فلا أدري علام يبنون هذا الإنكار ، بصيغة الجزم والقطع ، والسخرية من الاعتقاد بوجوده ، وتسميته خرافة !

ألأنهم عرفوا كل ما في هذا الكون من خلائق فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحداً من العلماء لا يزعم هذا حتى اليوم . وإن في هذه الأرض وحدها من الخلائق الحية لكثيراً مما يكشف وجوده يوماً بعد يوم ، ولم يقل أحد إن سلسلة الكشف للأحياء في الأرض وقفت أو ستقف في يوم من الأيام !

ألأنهم عرفوا كل القوى المكونة في هذا الكون فلم يجدوا الجن من بينها ؟ ! إن أحداً لا يدعي هذه الدعوى . فهناك قوى مكونة تكشف كل يوم ، وهي كانت مجهولة بالأمس . والعلماء جادون في التعرف إلى القوى الكونية ، وهم يعلنون في تواضع قادتهم إليه كشوفهم العلمية ذاتها ، أنهم يقفون على حافة المجهول في هذا الكون ، وأنهم لم يكادوا يبدأون بعد !

ألأنهم رأوا كل القوى التي استخدموها ، فلم يروا الجن من بينها ؟ ! ولا هذه . فإنهم يتحدثون عن الكهرباء بوصفه حقيقة علمية منذ توصلوا إلى تحطيم الذرة . ولكن أحداً منهم لم ير الكهرباء قط . وليس في معاملهم من الأجهزة ما يفرزون به كهرباء من هذه الكهارب التي يتحدثون عنها !

فقيم إذن هذا الجزم بنفي وجود الجن ؟ ومعلومات البشر عن هذا الكون وقواه وسكانه من الضالة بحيث لا تسمح لإنسان يحترم عقله أن يجزم بشيء ؟ لأن هذا الخلق المسمى الجن تعلقت به خرافات شتى وأساطير كثيرة ؟ إن طريقنا في هذه الحالة هو إبطال هذه الخرافات والأساطير كما صنع القرآن الكريم ، لا التبجح بنفي وجود هذا الخلق من الأساس ، بلا حجة ولا دليل ! ومثل هذا الغيب ينبغي تلقي نبثه من المصدر الوحيد

(١) سورة سبأ . آية : ١٤ .

(٢) سورة الأعراف . آية : ٢٧ .

الموثوق بصحته ، وعدم معارضة هذا المصدر بتصورات سابقة لم تستمد منه . فإيقوله هو كلمة الفصل في مثل هذا الموضوع .

* * *

والسورة التي بين أيدينا - بالإضافة إلى ما سبق - تساهم مساهمة كبيرة في إنشاء التصور الإسلامي عن حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، ثم عن هذا الكون وخلائقه ، والصلة بين هذه الخلائق المتنوعة . وفي مقالة الجن ما يشهد بوحداية الله ، ونفي الصاحبة والولد ، وإثبات الجزاء في الآخرة ؛ وأن أحداً من خلق الله لا يعجزه في الأرض ولا يفلت من يديه ويفوته ، فلا يلاقي جزاءه العادل . وتتكرر بعض هذه الحقائق فيما يوجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - من الخطاب : « قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً » . . . « قل : إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً » .. وذلك بعد شهادة الجن بهذه الحقيقة شهادة كاملة صريحة .

كما أن تلك الشهادة تقرر أن الألوهية لله وحده ، وأن العبودية هي أسمى درجة يرتفع إليها البشر : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » .. ويؤكد السياق هذه الحقيقة فيما يوجه للرسول - صلى الله عليه وسلم - من خطاب : « قل : إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » ..

والغيب موكول لله وحده ؛ لا تعرفه الجن : « وأنا لا ندرى أسر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .. ولا تعرفه الرسل إلا ما يطلعهم الله عليه منه لحكمة يعلمها : « قل : إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ... » ..

أما العباد والعبيد في هذا الكون ، فقد علمتنا السورة أن بين بعضها والبعض الآخر مشاركات ومنافذ ، ولو اختلف تكوينها ، كالمشاركات التي بين الجن والإنس ، مما حكته السورة وحكاها القرآن في مواضع أخرى . فالإنسان ليس بمعزل - حتى في هذه الأرض - عن الخلائق الأخرى . وبينه وبينها اتصال وتفاعل في صورة من الصور . وهذه العزلة التي يحسها الإنسان بحسسه - بله العزلة الفردية أو القبلية أو القومية - لا وجود لها في طبيعة الكون ولا في واقعه . وأخرى بهذا التصور أن يفسح في شعور الإنسان بالكون وما يعمره من أرواح وقوى وأسرار . قد يجهلها الإنسان ، ولكنها موجودة بالفعل من حوله ، فهو ليس الساكن الوحيد لهذا الكون كما يعن له أحياناً أن يشعر !!

ثم إن هناك ارتباطاً بين استقامة الخلائق على الطريقة ، وتحركات هذا الكون ونتائجها ، وقدر الله في العباد : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه . ومن يُعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعباً » .. وهذه الحقيقة تؤلف جانباً من التصور الإسلامي للارتباطات بين الإنسان والكون وقدر الله . وهكذا تمتد إحياءات السورة إلى مساحات ومسافات وأبعاد وآماد واسعة بعيدة ، وهي سورة لا تتجاوز الثماني والعشرين آية ، نزلت في حادثة معينة ومناسبة خاصة ..

* * *

فأما هذا الحادث الذي أشارت إليه السورة . حادث استماع نفر من الجن للقرآن . فتختلف بشأنه الروايات . قال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه : « دلائل النبوة » : أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن

عبدان ، أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار ، حدثنا إسماعيل القاضي ، أخبرنا مسدد ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : « ما قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجن ولا رآهم . انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء ، أرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب . قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء . فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء . فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو بنحلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا إليه ، فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنوا به ولن نشرك بربنا أحداً » .. وأنزل الله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - : « قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » .. وإنما أوحى إليه قول الجن (ورواه البخاري عن مسدد بنحو هذا ، وأخرجه مسلم عن شيبان ابن فروخ عن أبي عوانة بهذا النص) .

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى .. قال مسلم في صحيحه : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا داود وهو ابن أبي هند ، عن عامر ، قال : سألت علقمة : هل كان ابن مسعود شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة : أنا سألت ابن مسعود - رضي الله عنه - فقلت : هل شهد أحد منكم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة الجن ؟ قال : لا ، ولكننا كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة ، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب ، فقليل : استطير ؟ اغتيل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فلما أصبحنا إذا هو ، جاء من قبل حراء . قال : فقلنا : يا رسول الله ، فقدناك فطلبناك فلم نجدك ، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم . فقال : « أتاني داعي الجن ، فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » . قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم » وسألوه الزاد فقال : « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً ، وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم » ..

وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أنه كان تلك الليلة مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن إسناد الرواية الأولى أوثق . فنضرب عن هذه وأمثالها .. ومن الروايتين الواردتين في الصحيحين يتبين أن ابن عباس يقول : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يعرف بحضور النفر من الجن ، وأن ابن مسعود يقول : إنهم استدعوه . ويوفق البيهقي بين الروايتين بأنهما حادثان لا حادث واحد .

وهناك رواية ثالثة لابن إسحق قال :

« ولما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

« قال ابن إسحق : فحدثني يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : لما انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة :

ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب بن عمرو بن عمير ... وعند أحدهم امرأة من قریش من بني جمح . فجلس إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فقال له أحدهم : هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها) إن كان الله أرسلك ! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام . ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك . فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من عندهم وقد يش من خير ثقيف . وقد قال لهم - فيما ذكر لي - : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكمثوا عني » . وكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يبلغ قومه عنه ، فيذئروهم (أي يحرشهم) ذلك عليه !

« فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصبحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط (أي بستان) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة - وهما فيه - ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبله من عنب (أي طاقة من قضبان الكرم) فجلس فيه ، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ... فلما اطمأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال - فيما ذكر لي - : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » ..

« قال : فلما رآه ابنا ربيعة عتبة وشيبة وما لقي تحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له : عداس . فقال له : خذ قطعاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه . ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه يده قال : « بسم الله » ثم أكل . فنظر عداس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ قال : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ » فقال عداس : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ذاك أخي . كان نبياً وأنا نبي » فأكب عداس على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقبل رأسه ويديه وقدميه . قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه أما غلامك فقد أفسده عليك ! فلما جاءهما عداس قال له : ويلك يا عداس مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا . لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي . قال له : ويحك يا عداس ! لا يصرفك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

« قال : ثم إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يش من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنحلة قام من جوف الليل يصلي . فمر به نفر من الجن الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن أهل نصيبين ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا . فقص الله خبرهم عليه - صلى الله عليه وسلم - قال الله عز وجل : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن » إلى قوله : « ويجركم من عذاب أليم » . وقال تبارك وتعالى :

« قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن » إلى آخر القصة من خبرهم في هذه السورة .

وقد علق ابن كثير في تفسيره على رواية ابن إسحاق هذه فقال : « هذا صحيح . ولكن قوله : إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر . فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإحياء كما دل عليه حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - المذكور . وخروجه - صلى الله عليه وسلم - إلى الطائف كان بعد موت عمه . وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره . والله أعلم » .

وإذا صحت رواية ابن إسحاق عن أن الحادث وقع عقب عودة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من الطائف ، مكسور الخاطر من التصرف اللثيم العنيد الذي واجهه به كبراء قنيف ، وبعد ذلك الدعاء الكسير الودود لربه ومولاه ، فإنه ليكون عجباً حقاً من هذا الجانب . أن يصرف الله إليه ذلك النفر من الجن ، وأن يبلغه ما فعلوا وما قالوا لقومهم ، وفيه من الدلالات اللطيفة الموحية ما فيه ..

وأياً كان زمان هذا الحادث وملابساته فهو أمر ولا شك عظيم . عظيم في دلالاته وفيما انطوى عليه . وفيما أعقبه من مقالة الجن عن هذا القرآن وعن هذا الدين .. فلنمض مع هذا كله كما يعرضه القرآن الكريم .

* * *

« قل : أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنًا عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » ..
والنفر ما بين الثلاثة والتسعة كالرھط . وقيل كانوا سبعة .

وهذا الافتتاح يدل على أن معرفة النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمر استماع الجن له ، وما كان منهم بعد أن سمعوا القرآن منه .. كانت بوحى من الله سبحانه إليه ، وإخباراً عن أمر وقع ولم يعلم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولكن الله أطلععه عليه . وقد تكون هذه هي المرة الأولى ، ثم كانت هناك مرة أو مرات أخرى قرأ النبي فيها على الجن عن علم وقصد . ويشهد بهذا ما جاء بشأن قراءته - صلى الله عليه وسلم - سورة الرحمن « أخرجه الترمذي بإسناده - عن جابر رضي الله عنه قال : « خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها ، فسكتوا . فقال : « لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن ردوداً منكم . كنت كلما أتيت على قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب ، فلك الحمد » .. وهذه الرواية تؤيد رواية ابن مسعود - رضي الله عنه التي سبقت الإشارة إليها في المقدمة . ولا بد أن هذه المرة التي تحكيها هذه السورة هي التي تحكيها آيات الأحقاف : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن . فلما حضروه قالوا : أنصتوا . فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء ، أولئك في ضلال مبين » ..

فإن هذه الآيات - كالسورة - تنبئ عن وهلة المفاجأة بهذا القرآن للجن ؛ مفاجأة أطارت تماسكهم ، وزلزلت قلوبهم ، وهزت مشاعرهم ، وأطلقت في كيانهم دفعة عنيفة من التأثير امتلاً بها كيانهم كله وفاض ، فانطلقوا إلى قومهم بنفوس محتشدة مملوءة فائضة بما لا تملك له دفعةً ، ولا تملك عليه صبراً ، قبل أن تفيضه على الآخرين

في هذا الأسلوب المتدفق ، النابض بالحرارة والانفعال ، وبالجد والاحتفال في نفس الأوان ، وهي حالة من يقفاجاً أول مرة بدفعة قوية ترج كيانه ، وتخلخل تماسكه ، وتدفعه دفعاً إلى نقل ما يحسه إلى نفوس الآخرين في حماسة واندفاع ، وفي جد كذلك واحتفال !
« إنا سمعنا قرآناً عجباً » ..

فأول ما بددهم منه أنه « عجب » غير مألوف ، وأنه يثير الدهش في القلوب ، وهذه صفة القرآن عند من يتلقاه بحس واع وقلب مفتوح ، ومشاعر مرهفة ، وذوق ذواق .. عجب ! ذو سلطان متسلط ، وذو جاذبية غالبة ، وذو إيقاع يلمس المشاعر ويهز أوتار القلوب .. عجب ! فعلاً . يدل على أن أولئك النفر من الجن كانوا حقيقة يتذوقون !
« يهدي إلى الرشd » ..

وهذه هي الصفة الثانية البارزة كذلك في هذا القرآن ، والتي أحسها النفر من الجن ، حين وجدوا حقيقتها في قلوبهم .. وكلمة الرشd في ذاتها ذات دلالة واسعة المدى . فهو يهدي إلى الهدى والحق والصواب . ولكن كلمة الرشd تلقي ظلاً آخر وراء هذا كله . ظل النضوج والاستواء والمعرفة الرشيدة للهدى والحق والصواب . ظل الإدراك الذاتي البصير لهذه الحقائق والمقومات ، فهو ينشئ حالة ذاتية في النفس تهدي بها إلى الخير والصواب . والقرآن يهدي إلى الرشd بما ينشئه في القلب من تفتح وحساسية ، وإدراك ومعرفة ، واتصال بمصدر النور والهدى ، واتساق مع النواميس الإلهية الكبرى . كما يهدي إلى الرشd بمنهجه التنظيمي للحياة وتصريفها . هذا المنهج الذي لم تبلغ البشرية في تاريخها كله ، في ظل حضارة من الحضارات ، أو نظام من الأنظمة ، ما بلغته في ظله أفراداً وجماعات ، قلوباً ومجتمعات ، أخلاقاً فردية ومعاملات اجتماعية .. على السواء .
« فأما به » ..

وهي الاستجابة الطبيعية المستقيمة لسماع القرآن ، وإدراك طبيعته ، والتأثر بحقيقته .. يعرضها الوحي على المشركين الذين كانوا يسمعون هذا القرآن ثم لا يؤمنون . وفي الوقت ذاته ينسبون به إلى الجن ، فيقولون : كاهن أو شاعر أو مجنون .. وكلها صفات للجن فيها تأثير . وهؤلاء هم الجن مهوون بالقرآن مسحورين متأثرين أشد التأثير ، منفعلين أشد الانفعال ، لا يملكون أنفسهم من الهزة التي ترج كيانهم رجاً .. ثم يعرفون الحق ، فيستجيون له مدعين معلنين هذا الإذعان : « فأما به » غير منكبين لما مس نفوسهم منه ولا معاندين ، كما كان المشركون يفعلون !
« ولن نشرك ربنا أحداً » ..

فهو الإيمان الخالص الصريح الصحيح . غير مشوب بشرك ، ولا ملتبس بوهم ، ولا ممتزج بخرافة ، الإيمان الذي ينبعث من إدراك حقيقة القرآن ، والحقيقة التي يدعو إليها القرآن ، حقيقة التوحيد لله بلا شريك .
« وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » ..

والجد : الحظ والنصيب . وهو القدر والمقام . وهو العظمة والسلطان .. وكلها إشعاعات من اللفظ تناسب المقام . والمعنى الإجمالي منها في الآية هو التعبير عن الشعور باستعلاء الله - سبحانه - وبعظمته وجلاله عن أن يتخذ صاحبة - أي زوجة - وولداً بنين أو بنات !
وكانت العرب تزعم أن الملائكة بنات الله ، جاءت من صهر مع الجن ! فجاءت الجن تكذب هذه الخرافة

الأسطورية في تسبيح لله وتنزيهه ، واستنكاف من هذا التصور أن يكون ! وكانت الجن حرة أن تفخر بهذا الصهر الخرافي الأسطوري لو كان يشبه أن يكون ! فهي قذيفة ضخمة تطلق على ذلك الزعم الواهي في تصورات المشركين ! وكل تصور يشبه هذه التصورات ، ممن زعموا أن الله ولدا سبحانه في أية صورة وفي أي تصوير ! « وأنه كان يقول سفيناً على الله شططاً ، وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً » ..

وهذه مراجعة من الجن لما كانوا يسمعون من سفهائهم من الشرك بالله ، وادعاء الصاحبة والولد والشريك ، بعدما تبين لهم من سماع القرآن أنه لم يكن حقاً ولا صواباً ، وأن قائله إذن سفهاء فيهم خرق وجهل ؛ وهم يعلمون تصديقهم لهؤلاء السفهاء من قبل بأنهم كانوا لا يتصورون أن أحداً يمكن أن يكذب على الله من الإنس أو الجن . فهم يستعظمون ويستولون أن يجرؤ أحد على الكذب على الله . فلما قال لهم سفهاؤهم : إن الله صاحبة ولداً ، وإن له شريكاً صدقوهم ، لأنهم لم يتصوروا أنهم يكذبون على الله أبداً . وهذا الشعور من هؤلاء النفر بنكارة الكذب على الله ، هو الذي أهلهم للإيمان . فهو دلالة على أن قلوبهم نظيفة مستقيمة ؛ إنما جاءها الضلال من الغرارة والبراءة ! فلما مسها الحق انتفضت ، وأدركت ، وتذوقت وعرفت . وكان منهم هذا الهاتف المدوي : « إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشاد فأمانا به ، ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » ..

وهذه الانتفاضة من مس الحق ، جدرة بأن تنبه قلوباً كثيرة مخدوعة في كبراء قريش ، وزعمهم أن الله شركاء أو صاحبة ولداً . وأن تثير في هذه القلوب الحذر واليقظة ، والبحث عن الحقيقة فيما يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وما يقوله كبراء قريش ، وأن تزلزل الثقة العمياء في مقالات السفهاء من الكبراء ! وقد كان هذا كله مقصوداً بذكر هذه الحقيقة . وكان جولة من المعركة الطويلة بين القرآن وبين قريش العصية المعاندة ؛ وحلقة من حلقات العلاج البطيء لعقائيل الجاهلية وتصوراتها في تلك القلوب . التي كان الكثير منها غراً بريئاً ، ولكنه مضلل مقود بالوهم والخرافة وأضاليل المضللين من القادة الجاهليين !

« وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » ..

وهذه إشارة من الجن إلى ما كان متعارفاً في الجاهلية - وما يزال متعارفاً إلى اليوم في بيئات كثيرة - من أن للجن سلطاناً على الأرض وعلى الناس ، وأن لهم قدرة على النفع والضرر ، وأنهم محكمون في مناطق من الأرض أو البحر أو الجو . . إلى آخر هذه التصورات . مما كان يقتضي القوم إذا باتوا في فلاة أو مكان موحش ، أن يستعينوا بسيد الوادي من سفهاء قومه ، ثم يبيتون بعد ذلك آمنين !

والشيطان مسلط على قلوب بني آدم - إلا من اعتصم بالله فهو في نجوة منه - وأما من يركن إليه فهو لا ينفعه . فهو له عدو . إنما يرهقه ويؤذيه . . وهؤلاء النفر من الجن يحكون ما كان يحدث : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً » . . ولعل هذا الرهق هو الضلال والقلق والحيرة التي تنوش قلوب من يركنون إلى عدوهم ، ولا يعتصمون بالله منه ويستعينون ! كما هم مأمورون منذ أبيهم آدم وما كان بينه وبين إبليس من العداة القديم !

والقلب البشري حين يلجأ إلى غير الله ، طمعاً في نفع ، أو دفعاً لضرر ، لا يناله إلا القلق والحيرة ، وقلة الاستقرار والطمأنينة . . وهذا هو الرهق في أسوأ صوره . . الرهق الذي لا يشعر معه القلب بأمن ولا راحة ! إن كل شيء - سوى الله - وكل أحد ، متقلب غير ثابت ، ذاهب غير دائم ، فإذا تعلق به قلب بقي يتأرجح ويتقلب ويتوقع ويتوجس ؛ وعاد يغير اتجاهه كلما ذهب هذا الذي عقد به رجاءه . والله وحده هو

الباقي الذي لا يزول . الحي الذي لا يموت . الدائم الذي لا يتغير . فن اتجه إليه اتجه الى المستقر الثابت الذي لا يزول ولا يحول :

« وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً » . .

يتحدثون إلى قومهم ، عن أولئك الرجال من الإنس الذين كانوا يعوذون برجال من الجن ، يقولون : إنهم كانوا يظنون - كما أنكم تظنون - أن الله لن يبعث رسولا . ولكن ها هو ذا قد بعث رسولا ، بهذا القرآن الذي يهدي إلى الرشـد . . أو أنهم ظنوا أنه لن يكون هناك بعث ولا حساب - كما ظننتم - فلم يعملوا للآخرة شيئا ، وكذبوا ما وعدهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمرها ، لأنهم كانوا لا يعتقدون من قبل فيها .

وكلا الظنين لا ينطبق على الحقيقة ، وفيه جهل وقلة إدراك لحكمة الله في خلق البشر . فقد خلقهم باستعداد مزدوج للخير والشر والهدى والضلال (كما نعرف من هذه السورة أن للجن هذه الطبيعة المزدوجة كذلك إلا من تمحض منهم للشر كإبليس ، وطرد من رحمة الله بمعصيته الفاجرة ، وانتهى إلى الشر الخالص بلا ازدواج) ومن ثم اقتضت رحمة الله أن يعين أولئك البشر بالرسـل ، يستجيشون في نفوسهم عنصر الخير ، ويستنفذون ما في فطرتهم من استعداد للهدى . فلا مجال للاعتقاد بأنه لن يبعث إليهم أحداً .

هذا إذا كان المعنى هو بعث الرسل . فأما بعث الآخرة فهو ضرورة كذلك لهذه النشأة التي لا تستكمل حسابها في الحياة الدنيا ، لحكمة أرادها الله ، وتتعلق بتنسيق الوجود يعلمه ولا نعلمه : فجعل البعث في الآخرة لتستوفي الخلائق حسابها ، وتنتهي إلى ما تؤهلها له سيرتها الأولى في الحياة الدنيا . فلا مجال للظن بأنه لن يبعث أحداً من الناس . فهذا الظن مخالف للاعتقاد في حكمة الله وكماله . سبحانه وتعالى . .

وهؤلاء نفر من الجن يصححون لقومهم ظنهم ، والقرآن في حكايته عنهم يصحح للمشركين أوهاهمهم .

* * *

ويمضي الجن في حكاية ما لقوه وما عرفوه من شأن هذه الرسالة في جنبات الكون ، وفي أرجاء الوجود ، وفي أحوال السماء والأرض ، لينفضوا أيديهم من كل محاولة لا تتفق مع إرادة الله بهذه الرسالة ، ومن كل ادعاء بمعرفة الغيب ، ومن كل قدرة على شيء من هذا الأمر :

« وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وأنا لا ندرى أشـر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ؟ » . .

وهذه الوقائع التي حكاها القرآن عن الجن من قولهم ، توحى بأنهم قبل هذه الرسالة الأخيرة - ربما في الفترة بينها وبين الرسالة التي قبلها وهي رسالة عيسى عليه السلام - كانوا يحاولون الاتصال بالملأ الأعلى ، واستراق شيء مما يدور فيه ، بين الملائكة ، عن شؤون الخلائق في الأرض ، مما يكلفون قضاءه تنفيذاً لمشيئة الله وقدره . ثم يوحون بما التقطوه لأوليائهم من الكهان والعرافين ، ليقوم هؤلاء بفتنة الناس وفق خطة إبليس ! على أيدي هؤلاء الكهان والعرافين الذين يستغلون القليل من الحق فيمزجونه بالكثير من الباطل ، ويروجونه بين جماهير الناس في الفترة بين الرسالتين ، وخلو الأرض من رسول . . أما كيفية هذا وصورته فلم يقل لنا عنها شيئاً ، ولا ضرورة لتقصيها . إنما هي جملة هذه الحقيقة وفحواها .

وهذا نفر من الجن يقول : إن استرا ، السمع لم يعد ممكناً ، وإنهم حين حاولوه الآن - وهو ما يعبرون

عنه بلمس السماء - وجدوا الطريق إليه محروساً بحرس شديد ، يرحمهم بالشهب ، فتنقض عليهم وتقتل من توجه إليه منهم . ويعلنون أنهم لا يدرون شيئاً عن الغيب المقدر للبشر : « وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » . . فهذا الغيب موكول لعلم الله لا يعلمه سواه . فأما نحن فلا نعلم ماذا قدر الله لعباده في الأرض : قدر أن ينزل بهم الشر . فهم متروكون للضلال ، أم قدر لهم الرشداً - وهو الهداية - وقد جعلوها مقابلة للشر . فهي الخير ، وعاقبتها هي الخير .

وإذا كان المصدر الذي يزعم الكهان أنهم يستقون منه معلوماتهم عن الغيب ، يقرر أنه هو لا يدري عن ذلك شيئاً ، فقد انقطع كل قول ، وبطل كل زعم ، وانتهى أمر الكهانة والعرافة . وتمحض الغيب لله ، لا يجترئ أحد على القول بمعرفته ، ولا على التنبؤ به . وأعلن القرآن تحرير العقل البشري من كل وهم وكل زعم من هذا القبيل ! وأعلن رشد البشرية منذ ذلك اليوم وتحررها من الخرافات والأساطير !

أما أين يقف ذلك الحرس ؟ ومن هو ؟ وكيف يرحم الشياطين بالشهب ؟ فهذا كله مما لم يقل لنا عنه القرآن ولا الأثر شيئاً ، وليس لنا مصدر سواهما نستقي منه عن هذا الغيب شيئاً ؛ ولو علم الله أن في تفصيله خيراً لنا لفعل . وإذ لم يفعل فحاولتنا نحن في هذا الاتجاه عبثاً ؛ لا يضيف إلى حياتنا ولا إلى معرفتنا المثمرة شيئاً !

ولا مجال كذلك للاعتراض أو الجدل حول الشهب ، وأنها تسير وفق نظام كوني ، قبل البعثة وبعدها ووفق ناموس يحاول علماء الفلك تفسيره ، بنظريات تخطئ وتصيب . وحتى على فرض صحة هذه النظريات فإن هذا لا يدخل في موضوعنا ، ولا يمنع أن ترجم الشياطين بهذه الشهب عند انطلاقها . وأن تنطلق هذه الشهب رجوماً وغير رجوم وفق مشيئة الله الذي يجري عليها القانون !

فأما الذين يرون في هذا كله مجرد تمثيل وتصوير لحفظ الله للذكر من الالتباس بأي باطل ؛ وأنه لا يجوز أن يؤخذ على ظاهره .. فسبب هذا عندهم أنهم يحيثون إلى القرآن بتصورات مقررة سابقة في أذهانهم ، أخذوها من مصادر أخرى غير القرآن . ثم يحاولون أن يفسروا القرآن وفق تلك التصورات السابقة المقررة في أذهانهم من قبل .. ومن ثم يرون الملائكة تمثيلاً لقوة الخير والطاعة . والشياطين تمثيلاً لقوة الشر والمعصية . والرجوم تمثيلاً للحفظ والصيانة ... الخ لأن في مقرراتهم السابقة - قبل أن يواجهوا القرآن - أن هذه المسميات : الملائكة والشياطين أو الجن ، لا يمكن أن يكون لها وجود مجسم على هذا النحو ، وأن تكون لها هذه التحركات الحسية ، والتأثيرات الواقعية !!!

من أين جاءوا بهذا ؟ من أين جاءوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوص القرآن والحديث ؟ إن الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره ، وفي التصور الإسلامي وتكوينه .. أن ينفص الإنسان من ذهنه كل تصور سابق ، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة ، وأن يبنى مقرراته كلها حسماً بصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود . ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن . ولا ينفي شيئاً يشبه القرآن ولا يؤوله ! ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله . وما عدا المثبت والمنفي في القرآن ، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته ..

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن ... وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في

عقولهم ، وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود^١ ..

فأما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها ، فهم مضحكون حقاً ! فالعلم لا يعلم أسرار الموجودات الظاهرة بين يديه ، والتي يستخدمها في تجاربه . وهذا لا ينفي وجودها طبعاً ! فضلاً على أن العلماء الحقيقيين أخذت كثرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين ، أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون ! لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريقة العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين أيديهم مما كانوا يحسبون أنهم فرغوا من الإحاطة بعلمه ! فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليست عليه سمة الادعاء ، ولا طابع التطاول على المجهول ، كما يتطاول مدعو العلم ومدعو التفكير العلمي ، ممن ينكرون حقائق الديانات ، وحقائق المجهول !

إن الكون من حولنا حافل بالأسرار ، عامر بالأرواح ، حاشد بالقوى . وهذه السورة من القرآن - كغيرها - تمنحنا جوانب من الحقائق في هذا الوجود ، تعين على بناء تصور حقيقي صحيح للوجود وما فيه من قوى وأرواح وحيوات تعج من حولنا ، وتتفاعل مع حياتنا وذواتنا . وهذا التصور هو الذي يميز المسلم ويقف به وسطاً بين الوهم والخرافة ، وبين الادعاء والتطاول . ومصدره هو القرآن والسنة . وإليهما يحاكم المسلم كل تصور آخر وكل قول وكل تفسير ..

وإن هنالك مجالاً للعقل البشري معيناً في ارتياد آفاق المجهول : والإسلام يدفعه إلى هذا دفعاً .. ولكن وراء هذا المجال المعين ما لا قدرة لهذا العقل على ارتياده ، لأنه لا حاجة به إلى ارتياده . وما لا حاجة له به في خلافة الأرض فلا مجال له إليه ، ولا حكمة في إعانته عليه . لأنه ليس من شأنه ، ولا داخلاً في حدود اختصاصه . والقدر الضروري له منه ليعلم مركزه في الكون بالقياس إلى ما حوله ومن حوله ، قد تكفل الله سبحانه ببيانه له ، لأنه أكبر من طاقته . وبالقدر الذي يدخل في طاقته . ومنه هذا الغيب الخاص بالملائكة والشياطين والروح والمنشأ والمصير ..

فأما الذين اهتموا بهدى الله ، فقد وقفوا في هذه الأمور عند القدر الذي كشفه الله لهم في كتبه وعلى لسان رسله . وأفادوا منه الشعور بعظمة الخالق ، وحكمته في الخلق ، والشعور بموقف الإنسان في الأرض من هذه العوالم والأرواح . وشغلوا طاقاتهم العقلية في الكشف والعلم المهياً للعقل في حدود هذه الأرض وما حولها من أجرام بالقدر الممكن لهم . واستغلوا ما علموه في العمل والإنتاج وعمران هذه الأرض والقيام بالخلافة فيها ، على هدى من الله ، متجهين إليه ، مرتفعين إلى حيث يدعوهم للارتفاع .

وأما الذين لم يهتدوا بهدى الله فانقسموا فرقتين كبيرتين :

فرقة ظلت تجاهد بعقولها المحدودة لإدراك غير المحدود من ذاته تعالى ، والمعرفة الحقيقية المغيبة عن غير طريق الكتب المنزلة . وكان منهم فلاسفة حاولوا تفسير هذا الوجود وارتباطاته ، فظلوا يتعثرن كالأطفال الذين يصعدون جبلاً شاهقاً لا غاية لقمته ، أو يحاولون حل لغز الوجود وهم لم يتقنوا بعد أبجدية الهجاء ! وكانت لهم تصورات مضحكة - وهم كبار فلاسفة - مضحكة حقاً حين يقرنها الإنسان إلى التصور الواضح المستقيم الجميل الذي ينشئه القرآن . مضحكة بعثرتها . ومضحكة بمفارقاتها . ومضحكة بتخلخلها . ومضحكة بقزامتها

(١) وما أبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذه الظلال قد انسقت إلى شيء من هذا .. وأرجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله .. وما أقرره هنا هو ما أعتقد الحق بهداية من الله .

بالقياس إلى عظمة الوجود الذي يفسرونه بها .. لا أستثني من هذا فلاسفة الإغريق الكبار ، ولا فلاسفة المسلمين الذين قلدهم في منهج التفكير . ولا فلاسفة العصر الحديث ! وذلك حين يقاس تصورهم إلى التصور الإسلامي للوجود^١ .

فهذه فرقة . فأما الفرقة الأخرى ، فقد يثست من جدوى هذا الاتجاه في المعرفة . فعدلت عنه إلى حصر نفسها وجهدها في العلم التجريبي والتطبيقي . ضاربة صفحاً عن المجهول^٢ ، الذي ليس إليه من سبيل . وغير مهتدية فيه بهدى الله . لأنها لا تستطيع أن تدرك الله ! وهذه الفرقة كانت في أوج غلوها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها أخذت منذ مطلع هذا القرن تفتيق من الغرور العلمي الجامح ، على هروب المادة من بين أيديها وتحولها إلى إشعاع « مجهول الكنه » ويكاد يكون مجهول القانون !

وبقي الإسلام ثابتاً على صخرة اليقين . يمنح البشر من المجهول القدر الذي لهم فيه خير . ويوفر طاقتهم العقلية للعمل في خلافة الأرض . ويهيئ لعقولهم المجال الذي تعمل فيه في أمن . ويهديهم للتي هي أقوم في المجهول وغير المجهول !

* * *

بعد ذلك أخذ الجن يصفون حالهم وموقفهم من هدى الله ؛ بما نفهم منه أن لهم طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال . ويحدثنا هذا النفر عن عقيدتهم في ربهم وقد آمنوا به . وعن ظنهم بعاقبة من يهتدي ومن يضل :

« وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون : فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » ..

وهذا التقرير من الجن بأن منهم صالحين وغير صالحين ، مسلمين وقاسطين ، يفيد ازدواج طبيعة الجن ، واستعدادهم للخير والشر كالإنسان – إلا من تمحض للشر منهم وهو إبليس وقبيله – وهو تقرير ذو أهمية بالغة في تصحيح تصورنا العام عن هذا الخلق . فأغلبنا حتى الدارسين الفاقهين – على اعتقاد أن الجن يمثلون الشر ، وقد خلصت طبيعتهم له . وأن الإنسان وحده بين الخلائق هو ذو الطبيعة المزدوجة . وهذا ناشئ من مقررات سابقة في تصوراتنا عن حقائق هذا الوجود كما أسلفنا . وقد آن أن نراجعها على مقررات القرآن الصحيحة !

وهذا النفر من الجن يقول : « وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك » .. ويصف حالهم بصفة عامة : « كنا طرائق قدداً » .. أي لكل منا طريقته المنفصلة المقدودة المنقطعة عن طريقة الفريق الآخر .

ثم بين النفر معتقدتهم الخاص بعد إيمانهم :

« وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ، ولن نعجزه هرباً » ..

فهم يعرفون قدرة الله عليهم في الأرض ، ويعرفون عجزهم عن الهرب من سلطانه – سبحانه – والإفلات من قبضته ، والفكاك من قدره . فلا هم يعجزون الله وهم في الأرض ، ولا هم يعجزونه بالهرب منها . وهو ضعف العبد أمام الرب ، وضعف المخلوق أمام الخالق . والشعور بسلطان الله القاهر الغالب .

(١) فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان .. بحث يرجو المؤلف أن يوفق إلى إخراجه بعون الله .

وهؤلاء الجن هم الذين يعوذ بهم رجال من الإنس ! وهم الذين يستعين بهم الإنس في الحوائج ! وهم الذين جعل المشركون بين الله - سبحانه - وبينهم نسباً ! وهؤلاء هم يعترفون بعجزهم وقدرته الله . وضعفهم وقوة الله ، وانكسارهم وقهر الله ، فيصححون ، لا لقومهم فحسب بل للمشركين كذلك ، حقيقة القوة الواحدة الغالبة على هذا الكون ومن فيه .

ثم يصفون حالهم عندما سمعوا الهدى ، وقد قرروه من قبل ، ولكنهم يكررونه هنا بمناسبة الحديث عن فرقهم وطوائفهم تجاه الإيمان :

« وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به » ..

كما ينبغي لكل من يسمع الهدى . وهم سمعوا القرآن . ولكنهم يسمونه هدى كما هي حقيقته ونتيجته . ثم يقررون ثقتهم في ربهم ، وهي ثقة المؤمن في مولاه :

« فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » ..

وهي ثقة المطمئن إلى عدل الله ، وإلى قدرته ، ثم إلى طبيعة الإيمان وحقيقته .. فالله - سبحانه - عادل . ولن يبخس المؤمن حقه ، ولن يرهقه بما فوق طاقته . والله - سبحانه - قادر . فسيحامي عبده المؤمن من البخس وهو نقص الاستحقاق إطلاقاً ، ومن الرهق وهو الجهد والمشقة فوق الطاقة . ومن ذا الذي يملك أن يبخس المؤمن أو يرهقه وهو في حماية الله ورعايته ؟ ولقد يقع للمؤمن حرمان من بعض أعراض هذه الحياة الدنيا ؛ ولكن هذا ليس هو البخس ، فالعوض عما يحرمه منها يمنع عنه البخس . وقد يصيبه الأذى من قوى الأرض ؛ لكن هذا ليس هو الرهق ، لأن ربه يدركه بطاقة تحتل الأمل وتفيد منه وتكبر به ! وصلته بربه تهون عليه المشقة فتمحضرها لخيره في الدنيا والآخرة .

المؤمن إذن في أمان نفسي من البخس ومن الرهق : « فلا يخاف بخساً ولا رهقاً » .. وهذا الأمان يولد الطمأنينة والراحة طوال فترة العافية ، فلا يعيش في قلق وتوجس . حتى إذا كانت الضراء لم يهلع ولم يجزع ، ولم تغلق على نفسه المنافذ .. إنما يعد الضراء ابتلاء من ربه يصبر له فيؤجر . ويرجو فرج الله منها فيؤجر . وهو في الحالين لم يخف بخساً ولا رهقاً . ولم يكابد بخساً ولا رهقاً .

وصدق النفر المؤمن من الجن في تصوير هذه الحقيقة المنيرة .

ثم يقررون تصورهم لحقيقة الهدى والضلال ، والجزاء على الهدى والضلال :

« وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » ..

والقاسطون : الجائرون المجانبون للعدل والصلاح . وقد جعلهم هذا النفر من الجن فريقاً يقابل المسلمين . وفي هذا إيماء لطيفة بليغة المدلول . فالمسلم عادل مصلح ، يقابله القاسط : الجائر المفسد ..

« فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً » .. والتعبير بلفظ « تحروا » يوحي بأن الاهتداء إلى الإسلام معناه الدقة في طلب الرشd والاهتداء - ضد الغي والضلال - ومعناه تحري الصواب واختياره عن معرفة وقصد بعد تبيين ووضوح . وليس هو خبط عشواء ولا انسياقاً بغير إدراك . ومعناه أنهم وصلوا فعلاً إلى الصواب حين اختاروا الإسلام .. وهو معنى دقيق وجميل ..

« وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » أي تقرر أمرهم وانتهى إلى أن يكونوا حطباً لجهنم ، تتلظى بهم وتزداد اشتعالاً ، كما تتلظى النار بالحطب ..

ودل هذا على أن الجن يعذبون بالنار . ومفهومهم أنهم كذلك ينعمون بالجنة .. هكذا يوحي النص القرآني . وهو الذي نستمد منه تصورنا . فليس لقائل بعد هذا أن يقول شيئاً يستند فيه إلى تصور غير قرآني ، عن طبيعة الجن وطبيعة النار أو طبيعة الجنة .. فسيكون ما قاله الله حقاً بلا جدال ! وما ينطبق على الجن مما بينوه لقومهم ، ينطبق على الإنس وقد قاله لهم الوحي بلسان نبيهم ..

* * *

وإلى هنا كان الوحي يحكي قول الجن بألفاظهم المباشرة عن أنفسهم ؛ ثم عدل عن هذا النسق إلى تلخيص مقالة لهم عن فعل الله مع الذين يستقيمون على الطريقة إليه ، وذكرها بفحواها لا بألفاظها : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ، ومن يُعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً » ..

يقول الله - سبحانه - إنه كان من مقالة الجن عنا : ما فحواه أن الناس لو استقاموا على الطريقة ، أو أن الفاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفوراً نغدقه عليهم ، فيفيض عليهم بالرزق والرخاء .. « لنفتنهم فيه » .. ونبليهم أشكرون أم يكفرون .

وهذا العدول عن حكاية قول الجن إلى ذكر فحوى قولهم في هذه النقطة ، يزيد مدلولها تأكيداً بنسبة الإخبار فيها والوعد إلى الله سبحانه . ومثل هذه اللفظات كثير في الأسلوب القرآني ، لإحياء المعاني وتقويتها وزيادة الانتباه إليها .

وهذه اللفظة تحتوي جملة حقائق ، تدخل في تكوين عقيدة المؤمن ، وتصوره عن مجريات الأمور وارتباطاتها . والحقيقة الأولى : هي الارتباط بين استقامة الأمم والجماعات على الطريقة الواحدة الواصلة إلى الله ، وبين إغداق الرخاء وأسبابه ؛ وأول أسبابه توافر الماء واغذوداقه . وما تزال الحياة تجري على خطوات الماء في كل بقعة . وما يزال الرخاء يتبع هذه الخطوات المباركة حتى هذا العصر الذي انتشرت فيه الصناعة ، ولم تعد الزراعة هي المصدر الوحيد للرزق والرخاء . ولكن الماء هو الماء في أهميته العمرانية ..

وهذا الارتباط بين الاستقامة على الطريقة وبين الرخاء والتمكين في الأرض حقيقة قائمة . وقد كان العرب في جوف الصحراء يعيشون في شظف ، حتى استقاموا على الطريقة ، ففتحت لهم الأرض التي يغدودق فيها الماء ، وتتدفق فيها الأرزاق . ثم حادوا عن الطريقة فاستلبت منهم خيراتهم استلاباً . وما يزالون في نكد وشظف ، حتى يفيثوا إلى الطريقة ، فيتحقق فيهم وعد الله .

وإذا كانت هناك أم لا تستقيم على طريقة الله ، ثم تنال الوفرة والغنى ، فإنها تعذب بآفات أخرى في إنسانيتها أو أمنها أو قيمة الإنسان وكرامته فيها ، تسلب عن ذلك الغنى والوفرة معنى الرخاء . وتحيل الحياة فيها لعنة مشؤومة على إنسانية الإنسان وخلقه وكرامته وأمنه وطمأنينته (كما سبق بيانه في سورة نوح) ..

والحقيقة الثانية التي تنبثق من نص هذه الآية : هي أن الرخاء ابتلاء من الله للعباد وفتنة . ونبلوكم بالشر والخير فتنة . والصبر على الرخاء والقيام بواجب الشكر عليه والإحسان فيه أشق وأندر من الصبر على الشدة ! على عكس ما يلوح للنظرة العجلى .. فكثيرون هم الذين يصبرون على الشدة ويتأسكون لها ، بحكم ما تثيره في النفس من تجمع ويقظة ومقاومة ؛ ومن ذكر لله والتجاء إليه واستعانة به ، حين تسقط الأسناد في الشدة فلا يبقى إلا ستره . فأما الرخاء فينسي ويلهي ، ويرخي الأعضاء وينم عناصر المقاومة في النفس ، ويهيئ الفرصة

للغرور بالنعمة والاستنامة للشيطان !

إن الابتلاء بالنعمة في حاجة ملحة إلى يقظة دائمة تعصم من الفتنة .. نعمة المال والرزق كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر ، مع السرف أو مع البخل ، وكلاهما آفة للنفس والحياة ... ونعمة القوة كثيراً ما تقود إلى فتنة البطر وقلة الشكر مع الطغيان والجور ، والتطاول بالقوة على الحق وعلى الناس ، والتهجم على حرمان الله .. ونعمة الجمال كثيراً ما تقود إلى فتنة الخيلاء والته وتردى في مدارك الإثم والغواية .. ونعمة الذكاء كثيراً ما تقود إلى فتنة الغرور والاستخفاف بالآخرين وبالقيم والموازين .. وما تكاد تخلو نعمة من الفتنة إلا من ذكر الله فعصمه الله ..

والحقيقة الثالثة أن الإعراض عن ذكر الله ، الذي قد تنتهي إليه فتنة الابتلاء بالرخاء ، مؤد إلى عذاب الله . والنص يذكر صفة للعذاب « يسلكه عذاباً صعداً » .. توحى بالمشقة مذ كان الذي يصعد في المرتفع يجد مشقة في التصعيد كلما تصعد . وقد درج القرآن على الرمز للمشقة بالتصعيد . فجاء في موضع : « فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » . وجاء في موضع : « سأرهقه صعوداً » . وهي حقيقة مادية معروفة . والتقابل واضح بين الفتنة بالرخاء وبين العذاب الشاق عند الجزاء !

* * *

والآية الثالثة في السياق يجوز أن تكون حكاية لقول الجن ، ويجوز أن تكون من كلام الله ابتداء :
« وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً » ..

وهي في الحالتين توحى بأن السجود - أو مواضع السجود وهي المساجد - لا تكون إلا لله ، فهناك يكون التوحيد الخالص ، ويتوارى كل ظل لكل أحد ، ولكل قيمة ، ولكل اعتبار . وينفرد الجو ويتمحض للعبودية الخالصة لله . ودعاء غير الله قد يكون بعبادة غيره ؛ وقد يكون بالالتجاء إلى سواه ؛ وقد يكون باستحضار القلب لأحد غير الله .

فإن كانت الآية من مقولات الجن فهي تأكيد لما سبق من قولهم : « ولن نشرك بربنا أحداً » في موضع خاص ، وهو موضع العبادة والسجود . وإن كانت من قول الله ابتداء ، فهي توجيه بمناسبة مقالة الجن وتوحيدهم لربهم ، يجيء في موضعه على طريقة القرآن . وكذلك الآية التالية :

« وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً » ..

أي متجمعين متكئين عليه ، حين قام يصلي ويدعو ربه . والصلاة معناها في الأصل الدعاء . فإذا كانت من مقولات الجن ، فهي حكاية منهم عن مشركي العرب ، الذين كانوا يتجمعون فئات حول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي أو وهو يتلو القرآن كما قال في « سورة المعارج » : « فما للذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين ؟ » .. يتسمعون في دهش ولا يستجيبون . أو وهم يتجمعون

(١) سورة الأنعام . آية : ١٢٥ .

(٢) سورة المذثر . آية : ١٧ .

لايقاع الأذى به ، ثم يعصمه الله منهم كما وقع ذلك مراراً .. ويكون قول الجن هذا لقومهم للتعجيب من أمر هؤلاء المشركين !

وإذا كانت من إخبار الله ابتداء ، فقد تكون حكاية عن حال هذا النفر من الجن ، حين سمعوا القرآن .. العجب .. فأخذوا ودهشوا ، وتكأكأوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعضهم لصق بعض ، كما تكون لبدة الصوف المنسوق شعرها ، بعضه لصق بعض ! .. ولعل هذا هو الأقرب لدلول الآية لاتساقه مع العجب والدهشة والارتياح والوهلة البادية في مقالة الجن كلها ! والله أعلم ..

* * *

وعندما تنتهي حكاية مقالة الجن عن هذا القرآن ، وعن هذا الأمر ، الذي فاجأ نفوسهم ، وهز مشاعرهم وأطلعهم على انشغال السماء والأرض والملائكة والكواكب بهذا الأمر ؛ وعلى ما أحدثه من آثار في نسق الكون كله ؛ وعلى الجدل الذي يتضمنه ، والنواميس التي تصاحبه .

عندما ينتهي هذا كله يتوجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - في إيقاعات جادة صارمة حاسمة ، بالتبليغ ، والتجرد من هذا الأمر كله بعد التبليغ ، والتجرد كذلك من كل دعوى في الغيب أو في حظوظ الناس ومقاديرهم .. وذلك كله في جو عليه مسحة من الحزن والشجى تناسب ما فيه من جد ومن صرامة : « قل : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قل : إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قل : إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته . ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً . قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً . عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول . فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » .. قل يا محمد للناس : « إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً » .. وهذا الإعلان يجيء بعد إعلان الجن لقومهم : « ولن نشرك بربنا أحداً » .. فيكون له طعمه وله إيقاعه . فهي كلمة الإنس والجن ، يتعارفان عليها . فمن شد عنها كالمشركين فهو يشذ عن العالمين .

* * *

« قل : إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً » .. يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتجرد ، ويؤمر أن ينفذ يديه من كل ادعاء لشيء هو من خصائص الله الواحد الذي يعبد ولا يشرك به أحداً . فهو وحده الذي يملك الضر ويملك الخير . ويجعل مقابل الضر الرشد ، وهو الهداية ، كما جاء التعبير في مقالة الجن من قبل : « وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً » .. فيتطابق القولان في اتجاههما وفي ألفاظهما تقريباً ، وهو تطابق مقصود في القصة والتعقيب عليها ، كما يكثر هذا في الأسلوب القرآني ..

وبهذا وذلك يتجرد الجن - وهو موضع الشبهة في المقدرة على النفع والضرر - ويتجرد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتتفرد الذات الإلهية بهذا الأمر . ويستقيم التصور الإيماني على هذا التجرد الكامل الصريح الواضح . « قل : إني لن ينجيني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغاً من الله ورسالاته ... » ..

وهذه هي القولة الرهيبة ، التي تملأ القلب بجدية هذا الأمر .. أمر الرسالة والدعوة .. والرسول - صلى الله

عليه وسلم - يؤمر بإعلان هذه الحقيقة الكبيرة .. إني لن يجبرني من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملجأً أو حماية ، إلا أن أبلغ هذا الأمر ، وأؤدي هذه الأمانة ، فهذا هو الملجأ الوحيد ، وهذه هي الإجارة المأمونة . إن الأمر ليس أمري ، وليس لي فيه شيء إلا التبليغ ، ولا مفر لي من هذا التبليغ . فأنا مطلوب به من الله ولن يجبرني منه أحد ، ولن أجد من دونه ملجأً يعصمني ، إلا أن أبلغ وأؤدي !
يا للرهبة ! ويا للروعة ! ويا للجد !

إنها ليست تطوعاً يتقدم به صاحب الدعوة . إنما هو التكليف . التكليف الصارم الجازم ، الذي لا مفر من أدائه . فالله من ورائه !
وإنها ليست اللذة الذاتية في حمل الهدى والخير للناس . إنما هو الأمر العلوي الذي لا يمكن التلفت عنه ولا التردد فيه !

وهكذا يتبين أمر الدعوة ويتحدد .. إنها تكليف وواجب . وراءه الهول ، ووراءه الجد ، ووراءه الكبير المتعال !
« ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً . حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً » .

فهو التهديد الظاهر والملفوف لمن يبلغه هذا الأمر ثم يعصي . بعد التلويح بالجد الصارم في التكليف بذلك البلاغ .

وإذا كان المشركون يركنون إلى قوة وإلى عدد ، وقيسون قوتهم إلى قوة محمد - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين القلائل معه ، فسيعلمون حين يرون ما يوعدون - إما في الدنيا وإما في الآخرة - « من أضعف ناصراً وأقل عدداً » .. وأي الفريقين هو الضعيف المخذول القليل الهزيل !

ونعود إلى مقالة الجن فنجدهم يقولون : « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً » فنجد التعقيب على القصة يتناسق معها . ونجد القصة تمهد للتعقيب فيجيء في أوانه وموعده المطلوب !

* * *

ثم يؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يتجرد وينفض يديه من أمر الغيب أيضاً :

« قل : إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً » ..

إن الدعوة ليست من أمره ، وليس له فيها شيء ، إلا أن يبلغها قياماً بالتكليف ، والتجاء بنفسه إلى منطقة الأمان - الذي لا يبلغه إلا أن يبلغ ويؤدي . وإن ما يوعدونه على العصيان والتكذيب هو كذلك من أمر الله ، وليس له فيه يد ، ولا يعلم له موعداً . فما يدري أقرب هو أم بعيد يجعل له الله أمداً ممتداً . سواء عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة . فكله غيب في علم الله ، وليس للنبي من أمره شيء ، ولا حتى علم مواعده متى يكون ! والله - سبحانه - هو المختص بالغيب دون العالمين :

« عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً » ..

ويقف النبي - صلى الله عليه وسلم - متجرداً من كل صفة إلا صفة العبودية . فهو عبد الله . وهذا وصفه في أعلى درجاته ومقاماته .. ويتجرد التصور الإسلامي من كل شبهة ومن كل غش . والنبي - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - يؤمر أن يبلغ فيبلغ : « قل : إن أدرى أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً » ..

* * *

هناك فقط استثناء واحد .. وهو ما يأذن به الله من الغيب ، فيطلع عليه رسله ، في حدود ما يعاونهم على تبليغ دعوته إلى الناس . فما كان ما يوحي به إليهم إلا غيباً من غيبه ، يكشفه لهم في حينه ويكشفه لهم بقدر ، ويرعاهم وهم يبلغونه ، ويراقبهم كذلك .. ويؤمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلن هذا في صورة جادة رهيبة :

« إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عدداً » ..

فالرسل الذين يرتضيه الله لتبليغ دعوته ، يطلعهم على جانب من غيبه ، هو هذا الوحي : موضوعه ، وطريقته ، والملائكة الذين يحملونه ، ومصدره ، وحفظه في اللوح المحفوظ .. إلى آخر ما يتعلق بموضوع رسالتهم مما كان في ضمير الغيب لا يعلمه أحد منهم .

وفي الوقت ذاته يحيط هؤلاء الرسل بالأرصاد والحراس من الحفظة ، للحفظ وللرقابة . يحمونهم من وسوسة الشيطان ونزغته ، ومن وسوسة النفس وتمنياتها ، ومن الضعف البشري في أمر الرسالة ، ومن النسيان أو الانحراف . ومن سائر ما يعترض البشر من النقص والضعف ..

والتعبير الرهيب - « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » .. يصور الرقابة الدائمة الكاملة للرسول ، وهو يؤدي هذا الأمر العظيم .. « ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم » .. والله يعلم . ولكن المقصود هو أن يقع منهم البلاغ فيتعلق به علمه في عالم الواقع .

« وأحاط بما لديهم » .. فما من شيء في نفوسهم وفي حياتهم ومن حولهم ، إلا وهو في قبضة العلم لا يند منه شيء ..

« وأحصى كل شيء عدداً » .. لا يقتصر على ما لدى الرسل ؛ بل يحيط بكل شيء إحصاء وعداً ، وهو أدق الإحاطة والعلم !

وتصور هذه الحال . والرسول محوط بالحراس والأرصاد . وعلم الله على كل ما لديه . وكل ما حوله . وهو يتلقى التكليف جندياً لا يملك إلا أن يؤدي . ويمضي في طريقه ليس متروكاً لنفسه ، ولا متروكاً لضعفه ، ولا متروكاً لهواه ، ولا متروكاً لما يحبه ويرضاه . إنما هو الجدد الصارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم في طريقه لا يتلفت هنا أو هناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف !

إنه موقف يثير العطف على موقف الرسول ، كما يثير الرهبة حول هذا الشأن الخطير .

* * *

وبهذا الإيقاع الهائل الرهيب تختم السورة ، التي بدأت بالروعة والرجفة والانبهار بادية في مقالة الجن الطويلة المفصلة ، الخافلة بآثار البهر والرجفة والارتباك !

وتقرر السورة التي لا تتجاوز الثماني والعشرين آية ، هذا الحشد من الحقائق الأساسية التي تدخل في تكوين

عقيدة المسلم ، وفي إنشاء تصوره الواضح المتزن المستقيم ، الذي لا يغلو ولا يفرط ، ولا يغلق على نفسه نوافذ المعرفة ، ولا يجري - مع هذا - خلف الأساطير والأوهام !
وصدق النفر الذي آمن حين سمع القرآن ، وهو يقول : « إنا سمعنا قرآنًا عجباً يهدي إلى الرشـد فأَمنّا به » ..

* * *

(٧٣) سُورَةُ الْمَزْمَلِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا عِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّخِذُهَا الْمُزْمَلُ ❶ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ❷ نِصْفَهُ ❸ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ❹ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ
تَرْتِيلًا ❺ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ❻ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ❼ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ
سَبْعًا طَوِيلًا ❽ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَنَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ❾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ❿

وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاجْهرْهُمْ هَجْرًا جَبِيلًا ❶ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ❷ إِنَّ
لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ❸ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ❹ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ
كَثِيرًا مَّهِيلًا ❺

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ❶ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ
أَخْذًا وَبِيلًا ❷ فَكَيْفَ نَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ❸ السَّمَاءُ مُنْفِطِرَةٌ ❹ كَانَتْ وَعْدُهُ
مَفْعُولًا ❺ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ❻ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ❼

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ ❶ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ
الْأَيَّلَ وَالنَّهَارَ عَلِيمٌ ❷ أَلَّنْ نَحْصُوهُ فَنَابَ عَلَيْكَ ❸ فَأَقْرَأْ ❹ وَمَا تَيْسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ❺ عَلِيمٌ ❻ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى
وَأَخْرُوتَ ❷ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ❸ وَءَاخِرُونَ يُقْنِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ❹ فَأَقْرَأْ ❺ وَمَا تَيْسَّرَ

مِنْهُ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٠﴾

يروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي - صلى الله عليه وسلم - وللدعوة التي جاءهم بها . فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاغتم له ؛ والتف بشيابه وتزمل ونام مهموماً . فجاءه جبريل عليه السلام بشر هذه السورة الأولى « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً .. الخ » وتأخر شطر السورة الثاني من قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ... » إلى آخر السورة . تأخر عاماً كاملاً . حين قام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه ، حتى ورمت أقدامهم ، فنزل التخفيف في الشطر الثاني بعد اثني عشر شهراً .

وتروى رواية أخرى تتكرر بالنسبة لسورة المدثر كذلك - كما سيجيء في عرض سورة المدثر إن شاء الله . وخلاصتها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يتحنث في غار حراء - قبل البعثة بثلاث سنوات - أي يتطهر ويتعبد - وكان تحنثه - عليه الصلاة والسلام - شهراً من كل سنة - هو شهر رمضان - يذهب فيه إلى غار حراء على مبعدة نحو ميلين من مكة ، ومعه أهله قريباً منه . فيقيم فيه هذا الشهر ، يطعم من جاءه من المساكين ، ويقضي وقته في العبادة والتفكير فيما حوله من مشاهد الكون ، وفيما وراءها من قدرة مبدعة .. وهو غير مطمئن لما عليه قومه من عقائد الشرك المهلهلة ، وتصوراتها الواهية ، ولكن ليس بين يديه طريق واضح ، ولا منهج محدد ، ولا طريق قاصد يطمئن إليه ويرضاه .

وكان اختياره - صلى الله عليه وسلم - لهذه العزلة طرفاً من تدبير الله له ليعده لما ينتظره من الأمر العظيم . ففي هذه العزلة كان يخلو إلى نفسه ، ويخلص من زحمة الحياة وشواغلها الصغيرة ؛ ويفرغ لموحيات الكون ، ودلائل الإبداع ؛ وتسبح روحه مع روح الوجود ؛ وتتعانق مع هذا الجمال وهذا الكمال ؛ وتتعامل مع الحقيقة الكبرى وتمرن على التعامل معها في إدراك وفهم .

ولا بد لأي روح يراد لها أن تؤثر في واقع الحياة البشرية فتحولها وجهة أخرى .. لا بد لهذه الروح من خلوة وعزلة بعض الوقت ، وانقطاع عن شواغل الأرض ، وضجة الحياة ، وهموم الناس الصغيرة التي تشغل الحياة . لا بد من فترة للتأمل والتدبر والتعامل مع الكون الكبير وحقائقه الطليقة . فالاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتستقيم له ، فلا تحاول تغييره . أما الانخلاع منه فترة ، والانعزال عنه ، والحياة في طلاقة كاملة من أسر الواقع الصغير ، ومن الشواغل التافهة فهو الذي يؤهل الروح الكبير لرؤية ما هو أكبر ، ويدربه على الشعور بتكامل ذاته بدون حاجة إلى عرف الناس ، والاستمداد من مصدر آخر غير هذا العرف الشائع ! وهكذا دبر الله لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو يعده لحمل الأمانة الكبرى ، وتغيير وجه الأرض ، وتعديل خط التاريخ .. دبر له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات . ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان ، مع روح الوجود الطليقة ، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون ، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله .

فلما أن أذن ، وشاء - سبحانه - أن يفيض من رحمته هذا الفيض على أهل الأرض ، جاء جبريل عليه

السلام إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في غار حراء .. وكان ما قصه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمره معه فيها رواه ابن إسحق عن وهب بن كيسان ، عن عبيد ، قال :

« فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ . قال : قلت : ما أقرأ (وفي الروايات : ما أنا بقارئ) قال : فغطني به (أي ضغطي) حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . قال : فغطني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ ؟ قال : ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .. قال : فقرأتها . ثم انتهت فانصرف عني . وهبت من نومي فكأنتما كسبت في قلبي كتاباً . قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر . فإذا جبريل في صورة رجل ، صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه . فما أتقدم وما أتأخر . وجعلت أحول وجهي عنه في آفاق السماء . قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورأيت ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكة ، ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك . ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي ، حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها (أي ملتصقاً بها مائلاً إليها) فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ . ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : « أبشر يا بن عم واثبت . فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة » .

ثم قتر الوحي مدة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى أن كان بالجبل مرة أخرى فنظر فإذا جبريل ، فأدركته منه رجفة ، حتى جثى وهوى إلى الأرض ، وانطلق إلى أهله يرجف ، يقول : « زملوني . دثروني » .. ففعلوا . وظل يرتجف مما به من الروح . وإذا جبريل يناديه : « يا أيها المزمل » .. (وقيل : يا أيها المدثر) والله أعلم أيتهما كانت .

وسواء صحت الرواية الأولى عن سبب نزول شطر السورة . أو صحت هذه الرواية الثانية عن سبب نزول مطلعها ، فقد علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يعد هناك نوم ! وأن هنالك تكليفاً ثقيلاً ، وجهاداً طويلاً ، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدعه نيام !

وقيل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - « قم » .. فقام . وظل قائماً بعدها أكثر من عشرين عاماً ! لم يسترح . ولم يسكن . ولم يعيش لنفسه ولا لأهله . قام وظل قائماً على دعوة الله . يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به . عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض . عبء البشرية كلها ، وعبء العقيدة كلها ، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى .

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها ، المثلث بأثقال الأرض وجوازها ، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلاها .. حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية بدأ معركة أخرى في ميدان آخر .. بل معارك متلاحقة .. مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها وعلى المؤمنين بها ، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها ، قبل أن تنمو وتمد جذورها في التربة وفروعها في الفضاء ، وتظلل مساحات أخرى .. ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت

الروم تعدّ لهذه الأمة الجديدة وتنبأ للبطش بها على تخومها الشمالية .

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى - معركة الضمير - قد انتهت . فهي معركة خالدة ، الشيطان صاحبها ؛ وهو لا يني لحظة عن مزاوله نشاطه في أعماق الضمير الإنساني .. ومحمد - صلى الله عليه وسلم - قائم على دعوة الله هناك . وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة . في شظف من العيش والدنيا مقبلة عليه . وفي جهد وكد والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة . وفي نصب دائم لا ينقطع .. وفي صبر جميل على هذا كله . وفي قيام الليل . وفي عبادة لربه ، وترتيل لقرآنه وتبتل إليه ، كما أمره أن يفعل وهو يناديه : « يا أيها المزمّل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً . إن لك في النهار سبحاً طويلاً . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً . واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً » .

وهكذا قام محمد - صلى الله عليه وسلم - وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عاماً . لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد . منذ أن سمع النداء العلوي الجليل وتلقى منه التكليف الرهيب .. جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء ..

* * *

وشرط السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد . ويكاد يكون على روي واحد . هو اللام المطلقة الممدودة . وهو إيقاع رخي وقور جليل ؛ يتمشى مع جلال التكليف ، وجدية الأمر ، ومع الأحوال المتتابعة التي يعرضها السياق .. هول القول الثقيل الذي أسلفنا ، وهول التهديد المروع : « وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً ، إن لدينا أنكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » .. وهول الموقف الذي يتجلى في مشاهد الكون وفي أغوار النفوس : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » .. « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به ، كان وعده مفعولاً » .

فأما الآية الأخيرة الطويلة التي تمثل شرط السورة الثاني ؛ فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه . والله يعدّه ويعدّهم بهذا القيام لما يعدّهم له ! فتزل التخفيف ، ومعه التطمين بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التي قدرها في علمه عليهم .. أما هذه الآية فذات نسق خاص . فهي طويلة وموسيقاها متموجة عريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار : وهي الميم وقبلها مد الياء : « غفور رحيم » .

* * *

والسورة بشرطها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة . تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم . وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل ، والصلاة ، وترتيل القرآن ، والذكر الخاشع المتبتل . والاتكال على الله وحده ، والصبر على الأذى ، والهجر الجميل للمكذبين ، والتخلية بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة ! ..

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير . والتوجيه للطاعات والقربات ، والتلويع برحمة الله ومغفرته : « إن الله غفور رحيم » ..

وهي تمثل بشرطها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من

البشرية - البشرية الضالة ، ليردها إلى ربها ، ويصبر على أذاها ، ويجاهد في ضمايرها ؛ وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري ، ولذاذة تُلهي ، وراحة ينعم بها الخليون . ونوم يلتذ به الفارغون !
والآن نستعرض السورة في نصها القرآني الجميل .

* * *

« يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً . إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً . إن لك في النهار سبحاً طويلاً ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً » ..

« يا أيها المزمل .. قم .. » .. إنها دعوة السماء ، وصوت الكبير المتعال .. قم .. قم للأمر العظيم الذي ينتظرك ، والعبء الثقيل المهيأ لك . قم للجهد والنصب والكد والتعب . قم فقد مضى وقت النوم والراحة .. قم قتهاً لهذا الأمر واستعد ..

وإنها لكلمة عظيمة رهبة تنتزع - صلى الله عليه وسلم - من دفء الفراش ، في البيت الهادئ والحضن الدافئ . لتدفع به في الخضم ، بين الزعازع والأنواء ، وبين الشد والجذب في ضماير الناس وفي واقع الحياة سواء . إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ، ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً . فأما الكبير الذي يحمل هذا العبء الكبير .. فإله والنوم ؟ وماله والراحة ؟ وماله والفراش الدافئ ، والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ؟ ! ولقد عرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حقيقة الأمر وقدره ، فقال لخديجة - رضي الله عنها - وهي تدعوه أن يطمئن وينام : « مضى عهد النوم يا خديجة ! أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق !

« يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً » ..
إنه الإعداد للمهمة الكبرى بوسائل الإعداد الإلهية المضمونة .. قيام الليل . أكثره أكثر من نصف الليل ودون ثلثيه . وأقله ثلث الليل .. قيامه للصلاة وترتيل القرآن . وهو مد الصوت به وتجويده . بلا تغن ولا تظن ولا تخلع في التنعيم .

وقد صح عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالليل أنه لم يتجاوز إحدى عشرة ركعة . ولكنه كان يقضي في هذه الركعات ثلثي الليل إلا قليلاً ، يرتل فيه القرآن ترتيلاً .

روى الإمام أحمد في مسنده قال : حدثنا يحيى بن سعيد - هو ابن أبي عروبة - عن قتادة ، عن زرار ابن أوفى ، عن سعيد بن هشام .. أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قال : نعم . قال : أئت عائشة فسألها ، ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك ... ثم يقول سعيد بن هشام : قلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : أأستقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان القرآن . فهمت أن أقوم ، ثم بدا لي قيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئيني عن قيام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : أأستقرأ هذه السورة : « يا أيها المزمل » ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة ؛ فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حولاً حتى انتفخت أقدامهم . وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً . ثم أنزل التخفيف في آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة .. فهمت أن أقوم ، ثم بدا لي وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

عليه وسلم - فقلت : يا أم المؤمنين أنبئيني عن وتر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ، ثم يتوضأ ، ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن ، إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ، ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ، ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعوه ، ثم يسلم تسليماً يسمعنا . ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني ، فلما أسن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك تسع يا بني . وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها . وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من نهار اثنتي عشرة ركعة . ولا أعلم نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ، ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان ... »^١

وكان هذا الإعداد للقول الثقيل الذي سينزله الله عليه ..
« إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً » ..

هو هذا القرآن وما وراءه من التكليف .. والقرآن في مبناه ليس ثقیلاً فهو ميسر للذكر . ولكنه ثقیل في ميزان الحق ، ثقیل في أثره في القلب : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »^١ فأنزله الله على قلب أثبت من الجبل يتلقاه ..

وإن تلقى هذا الفيض من النور والمعرفة واستيعابه ، لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .
وإن التعامل مع الحقائق الكونية الكبرى المجردة ، لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .
وإن الاتصال بالملأ الأعلى وبروح الوجود وأرواح الخلائق الحية والجامدة على النحو الذي تهباً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .
وإن الاستقامة على هذا الأمر بلا تردد ولا ارتياب ، ولا تلفت هنا أو هناك وراء الهواتف والجواذب والمعوقات ، لثقیل ، يحتاج إلى استعداد طويل .

وإن قيام الليل والناس نيام ، والانقطاع عن غبش الحياة اليومية وسفسافها ؛ والاتصال بالله ، وتلقي فيضه ونوره ، والأنس بالوحدة معه والخلة إليه ، وترتيل القرآن والكون ساكن ، وكأنما هو ينزل من الملأ الأعلى وتتجاوب به أرجاء الوجود في لحظة الترتيل بلا لفظ بشري ولا عبارة ؛ واستقبال إشعاعاته وإيقاعاته في الليل الساجي .. إن هذا كله هو الزاد لاحتمال القول الثقيل ، والعبء الباهظ والجهد المرير الذي ينتظر الرسول وينتظر من يدعو بهذه الدعوة في كل جيل ! وينير القلب في الطريق الشاق الطويل ، ويعصمه من وسوسة الشيطان ، ومن التيه في الظلمات الحافة بهذا الطريق المنير .

« إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً » ..

« ناشئة الليل » هي ما ينشأ منه بعد العشاء ؛ والآية تقول : « إن ناشئة الليل هي أشد وطأً » : أي أجهد للبدن ، « وأقوم قيلاً » : أي أثبت في الخير (كما قال مجاهد) فإن مغالبة هتاف النوم وجاذبية الفراش ، بعد كد النهار ، أشد وطأً وأجهد للبدن ؛ ولكنها إعلان لسيطرة الروح ، واستجابة لدعوة الله ، وإيثار للأنس به ، ومن ثم

(١) وأخرجه مسلم من حديث قتادة .. وهناك أحاديث كثيرة وأقوال متعددة في صلاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالليل ووتره ، صحت فيها كيفيات متعددة لهذه الصلاة (يراجع زاد المعاد لابن القيم في هديه صلى الله عليه وسلم في قيام الليل) .

فإنها أقوم قليلاً ، لأن للذكر فيها حلاوته ، وللصلاة فيها خشوعها ، وللمناجاة فيها شفافيتها . وإنها لتسكب في القلب أنساً وراحة وشفافية ونوراً ، قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره .. والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخله وأوتاره ، ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه ، وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحاً واستعداداً وتهيؤاً ، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيراً فيه .

والله - سبحانه - وهو يعد عبده ورسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - ليتلقى القول الثقيل ، وينهض بالعبء الجسم ، اختار له قيام الليل ، لأن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قليلاً . ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيراً من الطاقة والالتفات :

« إن لك في النهار سبحاً طويلاً » ..

فلينقض النهار في هذا السبح والنشاط ، وليخلص لربه في الليل ، يقوم له بالصلاة والذكر :

« واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلاً » ..

وذكر اسم الله ، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان ، على عدة المسبحة المثوية أو الألفية ! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر ، أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها . والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله ، والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر ، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر ، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر .

ولما ذكر التبتل وهو الانقطاع عما عدا الله ، ذكر بعده ما يفيد أنه ليس هناك إلا الله ، يتجه إليه من يريد الاتجاه :

« رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذهُ وكيلاً » ..

فهو رب كل متجه .. رب المشرق والمغرب .. وهو الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو . فالانقطاع إليه هو الانقطاع للحقيقة الوحيدة في هذا الوجود ، والتوكل عليه هو التوكل على القوة الوحيدة في هذا الوجود . والاتكال على الله وحده هو الثمرة المباشرة للاعتقاد بوحدانيته ، وهيمنتته على المشرق والمغرب ، أي على الكون كله .. والرسول الذي ينادى : قم .. لينهض بعبئه الثقيل ، في حاجة ابتداء للتبتل لله والاعتماد عليه دون سواه . فن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل .

* * *

ثم وجه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل . وأن يخلي بينه وبين المكذبين ! ويمهلهم قليلاً . فإن لدى الله لهم عذاباً وتنكيلاً :

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً . وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً . إن لدينا أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال ، وكانت الجبال كثيباً مهيلاً .. إنا أرسلنا إليكم رسلاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسلاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً ويلاً . فكيف نتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً » ..

وإذا صحت الرواية الأولى عن نزول مطلع هذه السورة في بدء البعثة ، فإن هذا الشوط الثاني منها يكون قد نزل متأخراً بعد الجهر بالدعوة ، وظهور المكذبين والمتطاولين ، وشدتهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى المؤمنين . فأمّا إذا صحت الرواية الثانية فإن شطر السورة الأول كله يكون قد نزل بمناسبة ما نال

النبي - صلى الله عليه وسلم - من أذى المشركين وصدهم عن الدعوة .

وعلى أية حال فإننا نجد التوجيه إلى الصبر ، بعد التوجيه إلى القيام والذكر ، وهما كثيراً ما يقترنان في صدد تزويد القلب بزيادة هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل ، سواء طريقها في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد المناوئين ، وكلاهما شاق عسير .. نجد التوجيه إلى الصبر . « واصبر على ما يقولون » .. مما يغضب ويحقن ، « واهجرهم هجراً جميلاً » .. لا عتاب معه ولا غضب ، ولا هُجر فيه ولا مشادة . وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة - وبخاصة في أوائلها .. كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر ، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير .

واهجر الجميل مع التطاول والتكذيب ، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر . والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله ، مرة ومرة ومرة ؛ ولعباده المؤمنين برسله . وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده ، والصبر جنته وسلاحه ، والصبر ملجؤه وملأذه . فهي جهاد .. جهاد مع النفس وشهواتها وانحرافات وضعفها وشرودها وعجلتها وقنوطها .. وجهاد مع أعداء الدعوة ووسائلهم وتديبيرهم وكيدهم وأذاهم . ومع النفوس عامة وهي تنفص من تكاليف هذه الدعوة ، وتتفلت ، وتتخفى في أزياء كثيرة وهي تخالف عنها ولا تستقيم عليها . والداعية لا زاد له إلا الصبر أمام هذا كله ، والذكر وهو قرين الصبر في كل موضع تقريباً !

اصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً .. وخل بيني وبين المكذبين ، فأنا بهم كفيل : « وذرنى والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً » .. كلمة يقولها الجبار القهار القوي المتين .. « وذرنى والمكذبين » .. والمكذبون بشر من البشر ، والذي يهددهم هو الذي أنشأهم ابتداء وخلق هذا الكون العريض « بكن » ولا تزيد ! ذرنى والمكذبين .. فهي دعوتي . وما عليك إلا البلاغ . ودعهم يكذبون واهجرهم هجراً جميلاً . وسأتولى أنا حربهم ، فاسترح أنت من التفكير في شأن المكذبين !

إنها القاصمة المزلزلة المذهلة حين يخلو الجبار ، إلى هذه الخلائق الهينة المضعوفة .. « أولي النعمة » مهما يكن من جبروتهم في الأرض على أمثالهم من المخلوقات !

« ومهلهم قليلاً » ولو مهلهم الحياة الدنيا كلها ما كانت إلا قليلاً . وإن هي إلا يوم أو بعض يوم في حساب الله . وفي حسابهم هم أنفسهم حين تطوى ، بل إنهم ليحسونها في يوم القيامة ساعة من نهار ! فهي قليل أياً كان الأمد ، ولو مضوا من هذه الحياة ناجين من أخذ الجبار المنتقم الذي يمهل قليلاً ويأخذ تنكيلاً : « إن لدينا أنكالاً وجحماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً » ..

والأنكال - هي القيود - والجحيم والطعام ذو الغصة الذي يمزق الحلق والعذاب الأليم .. كلها جزاء مناسب « لأولى النعمة » ! الذين لم يرعوا النعمة ، ولم يشكروا المنعم ، فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً وخل بيني وبينهم . ودعهم فإن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم ، وجحماً تجحهم وتصلبهم ، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق ، وعذاباً أليماً في يوم مخيف ...

ثم يرسم مشهد هذا اليوم المخيف :

« يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » ..

فها هي ذي صورة للهول تتجاوز الناس إلى الأرض في أكبر مجالها . فترجف وتخاف وتتفتت وتنهار . فكيف بالناس المهازيل الضعاف !

ويلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع ، إلى المكذبين أولي النعمة ، يذكرهم فرعون الجبار ، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار :

« إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً » .

هكذا في اختصار يهز قلوبهم ويخلعها خلعاً ، بعد مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتنهار .
فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا ؛ فكيف تنجون بأنفسكم وتقوها هذا الهول الرعب ؟
« فكيف تتقون - إن كفرتم - يوماً يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به ؟ » ..

وإن صورة الهول هنا لتنتشق لها السماء ، ومن قبل رجفت لها الأرض والجبال . وإنها لتشيب الولدان . وإنه هول ترسم صورته في الطبيعة الصامتة ، وفي الإنسانية الحية .. في مشاهد ينقلها السياق القرآني إلى حس المخاطبين كأنها واقعة .. ثم يؤكد تأكيدهم . « كان وعده مفعولاً » .. واقعاً لا خلف فيه . وهو ما شاء فعل وما أراد كان !
وأمام هذا الهول الذي يتمثل في الكون كما يتمثل في النفس يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة .. طريق الله ..

« إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » ..

وإن السبيل إلى الله لآمن وأيسر ، من السبيل المريب ، إلى هذا الهول العصيب !
وبينا تزلزل هذه الآيات قوائم المكذبين ، تنزل على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقلعة المؤمنة المستضعفة إذ ذاك بالروح والثقة واليقين . إذ يحسون أن ربهم معهم ، يقتل أعداءهم وينكل بهم . وإن هي إلا مهلة قصيرة ، إلى أجل معلوم . ثم يقضى الأمر ، حينما يجيء الأجل يأخذ الله أعداءه وأعداءهم بالنكال والجحيم والعذاب الأليم .

إن الله لا يدع أولياءه لأعدائه . ولو أمهل أعداءه إلى حين ...

* * *

والآن يجيء شطر السورة الثاني في آية واحدة طويلة ، نزلت بعد مطلع السورة بعام على أرجح الأقوال :
« إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك . والله يقدر الليل والنهار . علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرأوا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى . وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله . فاقرأوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » ..

إنها لمسة التخفيف الندية ، تسمح على التعب والنصب والمشقة . ودعوة التيسير الإلهي على النبي والمؤمنين .. وقد علم الله منه ومنهم خلوصهم له . وقد انتفخت أقدامهم من القيام الطويل للصلاة بقدر من القرآن كبير . وما كان الله يريد لبنه أن يشقى بهذا القرآن وبالقيام . إنما كان يريد أن يعده للأمر العظيم الذي سيواجهه طوال ما بقي له من الحياة . هو والمجموعة القليلة من المؤمنين الذين قاموا معه .

وفي الحديث مودة وتطمين : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » .. إنه رآك ! إن قيامك وصلاتك أنت وطائفة من الذين معك قبلت في ميزان الله .. إن ربك يعلم

أنك وهم تجافت جنوبكم عن المضاجع ؛ وتركت دفاء الفراش في الليلة القارسة ، ولم تسمع نداء المضاجع المغربي وسمعت نداء الله .. إن ربك يعطف عليك ويريد أن يخفف عنك وعن أصحابك .. « والله يقدر الليل والنهار » .. فيطيل من هذا ويقصر من ذاك . فيطول الليل ويقصر . وأنت ومن معك ماضون تقومون أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه . وهو يعلم ضعفكم عن الموالاة . وهو لا يريد أن يعتكم ولا أن يشق عليكم . إنما يريد لكم الزاد وقد تزودتم فخففوا على أنفسكم ، وخذوا الأمر هيناً : « فاقروا ما تيسر من القرآن » .. في قيام الليل بلا مشقة ولا عنت .. وهناك - في علم الله - أمور تنتظركم تستنفد الجهد والطاقة ، ويشق معها القيام الطويل : « علم أن سيكون منكم مرضى » يصعب عليهم هذا القيام « وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله » .. في طلب الرزق والكد فيه ، وهو ضرورة من ضرورات الحياة . والله لا يريد أن تدعوا أمور حياتكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان ! « وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .. فقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار من ظلمكم بالقتال ، وإقامة راية للإسلام في الأرض يخشاها البغاة ! فخففوا إذن على أنفسكم « فاقروا ما تيسر منه » بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد .. واستقيموا على فرائض الدين : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. وتصدقوا بعد ذلك قرصاً لله يبقى لكم خيره .. « وأقروا الله قرصاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » .. واتجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم . فالإنسان يقصر ويخطئ مهما جد وتحرى الصواب : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ..

إنها لمسة الرحمة والود واليسير والطمأنينة تجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام ! ولقد خفف الله عن المسلمين ، فجعل قيام الليل لهم تطوعاً لا فريضة . أما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد مضى على نهجه مع ربه ، لا يقل قيامه عن ثلث الليل ، يناجي ربه ، في خلوة من الليل وهدأة ، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد . على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه . فقد كان قلبه - صلى الله عليه وسلم - دائماً مشغولاً بذكر الله ، متبلاً لمولاه . وقد فرغ قلبه من كل شيء إلا من ربه . على ثقل ما يحمل على عاتقه ، وعلى مشقة ما يعاني من الأعباء الثقالة ..

* * *

(٧٤) سُورَةُ الْمَدَّثِرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا سِتٌّ وَخَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ١ قُمْ فَأَنْذِرْ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ٥ وَلَا تَمْنُنْ
تَسْكَكُثُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ٧

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ٨ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠
ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ١٦ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرُ ١٩
ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَرُ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُؤْتَرُ ٢٤
إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوَاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ٢٩
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ٣١ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ وَيزدادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيْمَانًا ٣٢ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ٣٣ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنِ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْبَشَرِ ٣٤

كَلَّا وَالْقَمَرِ ٣٥ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٦ وَالصُّبْحِ إِذَا أَفْسَرَ ٣٧ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٨ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٩

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَسَلِكُكُمْ فِي سَفَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحُوسُ مَعَ الْخَاطِئِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَتْهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكُرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

ينطبق على هذه السورة من ناحية سبب نزولها ، ووقت نزولها ما سبق ذكره عن سورة « الزمل » . فهناك روايات بأنها هي أول ما نزل بعد سورة العلق ، ورواية أخرى بأنها نزلت بعد الجهر بالدعوة وإيذاء المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

قال البخاري ، حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟ فقال : « يا أيها المدثر » .. قلت : يقولون « اقرأ باسم ربك الذي خلق » فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لي ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً . فأتيت خديجة فقلت : « دثروني وصبوا علي ماء بارداً » قال : فدثروني وصبوا علي ماء بارداً . قال : فتزلت : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر » .. وقد رواه مسلم من طريق عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبي سلمة . قال : أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء ، قاعد على كرسي بين السماء والأرض ، فجلست منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلي فقلت : زملوني ، فدثروني ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأنذر ... » إلى - والرجز فاهجر » قال أبو سلمة : والرجز الأوثان . ثم حمي الوحي وتتابع .. ورواه البخاري من هذا الوجه أيضاً .. وهذا لفظ البخاري .

وعلق ابن كثير في التفسير على هذا الحديث بقوله : « وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضي أنه قد نزل الوحي قبل هذا لقوله : « فإذا الملك الذي جاءني بحراء » وهو جبريل ، حين أتاه بقوله ... « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .. ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة » ..

فهذه رواية . وهناك رواية أخرى .. قال الطبراني : حدثنا محمد بن علي بن شعيب السمسار ، حدثنا

الحسن بن بشر البجلي ، حدثنا المعافى بن عمران ، عن إبراهيم بن يزيد ، سمعت ابن أبي مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال : ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم : ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر . فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فحزن ، وقنع رأسه ، وتدثر . فأنزل الله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر .. » وتكاد تكون هذه الرواية هي ذاتها التي رويت عن سورة « المزمل » .. مما يجعلنا لا نستطيع الجزم بشيء عن أيتهما هي التي نزلت أولاً . والتي نزلت بهذه المناسبة أو تلك .

غير أن النظر في النص القرآني ذاته يوحي بأن مطلع هذه السورة إلى قوله تعالى : « ولربك فاصبر » ربما يكون قد نزل مبكراً في أوائل أيام الدعوة . شأنه شأن مطلع سورة المزمل إلى قوله تعالى : « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ، رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً » .. وهذا وذلك لإعداد نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - للنهوض بالتبعية الكبرى ، ومواجهة قريش بعد ذلك بالدعوة جهاراً وكافة ، مما سيترتب عليه مشاق كثيرة متنوعة ، تحتاج مواجهتها إلى إعداد نفسي سابق .. ويكون ما تلا ذلك في سورة المدثر ، وما تلا هذا في سورة المزمل ، قد نزلا بعد فترة بمناسبة تكذيب القوم وعنادهم ، وإيذائهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - بالاتهام الكاذب والكيد اللئيم .

إلا أن هذا الاحتمال لا ينفي الاحتمال الآخر ، وهو أن يكون كل من المطلعين قد نزل متصلاً بما تلاه في هذه السورة وفي تلك ، بمناسبة واحدة ، هي التكذيب ، واغتمام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للكيد الذي كادته قريش ودبرته .. ويكون الشأن في السورتين هو الشأن في سورة القلم على النحو الذي بيناه هناك .

* * *

وأياً ما كان السبب والمناسبة فقد تضمنت هذه السورة في مطلعها ذلك النداء العلوي بانتداب النبي - صلى الله عليه وسلم - لهذا الأمر الجلل ، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفع إلى الجهاد والكفاح والمشقة : « يا أيها المدثر . قم فأنذر » .. مع توجيهه - صلى الله عليه وسلم - إلى التهيؤ لهذا الأمر العظيم ، والاستعانة عليه بهذا الذي وجهه الله إليه : « وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر .. » وكان ختام التوجيه هنا بالصبر كما كان هناك في سورة المزمل !

وتضمنت السورة بعد هذا تهديداً ووعيداً للمكذبين بالآخرة ، وبحرب الله المباشرة ، كما تضمنت سورة المزمل سواء : « فإذا نقر في الناقور ، فذلك يومئذ يوم عسير ، على الكافرين غير يسير . ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مალأ ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد . كلا ! إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً » ..

وتعين سورة المدثر أحد المكذبين بصفته ، وترسم مشهداً من مشاهد كيده - على نحو ما ورد في سورة القلم ، وربما كان الشخص المعني هنا وهناك واحداً ، قيل : إنه الوليد بن المغيرة - (كما سيأتي تفصيل الروايات عند مواجهة النص) وتذكر سبب حرب الله سبحانه وتعالى له : « إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل : كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » .. ثم تذكر مصيره : « سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ، لا تبقي ولا تذر . لواحة للبشر .

عليها تسعة عشر» ..

وبمناسبة مشهد سقر . والقائمين عليها التسعة عشر . وما أثاره هذا العدد من بلبلة وفتنة وتساؤل وشك واستهزاء في أوساط المشركين وضعاف الإيمان ، تتحدث السورة عن حكمة الله في ذكر هذا العدد ، ثم تفتح كوة على حقيقة غيب الله ، واختصاصه بهذا الغيب . وهي كوة تلقي ضوءاً على جانب من التصور الإيماني لحقيقة غيب الله المكنون : « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر » ..

ثم يصل أمر الآخرة وسقر ومن عليها بمشاهد كونية حاضرة ، ليجمع على القلوب إحياء هذه وتلك في معرض الإيقاظ والتحذير : « كلا والقمر . والليل إذا دبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » ..

كما يعرض مقام المجرمين ومقام أصحاب اليمين ، حيث يعترف المكذبون اعترافاً طويلاً بأسباب استحقاقهم للارتهان والقيود في يوم الجزاء والحساب ، يعقب عليه بكلمة الفصل في أمرهم الذي لا تنفعهم فيه شفاع شافع : « كل نفس بما كسبت رهينة . إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين . ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نحوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم شفاع الشافعين » ..

وفي ظل هذا المشهد المخزي ، والاعتراف المهين ، يتساءل مستنكراً موقف المكذبين من الدعوة إلى التذكرة والنجاة من هذا المصير ، ويرسم لهم مشهداً ساخراً يثير الضحك والزراية من نفاهم الحيواني الشموس : « فאלهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ! » ..

ويكشف عن حقيقة الغرور الذي يساورهم فيمنعهم من الاستجابة لصوت المذكر الناصح . « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » . فهو الحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - والرغبة في أن يؤتى كل منهم الرسالة ! والسبب الدفين الآخر هو قلة التقوى : « كلا ! بل لا يخافون الآخرة » ..

وفي الختام يجيء التقرير الجازم الذي لا مجاملة فيه : « كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » ورد الأمر كله إلى مشيئة الله وقدره : « وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ..

* * *

وهكذا تمثل السورة حلقة من حلقات الكفاح النفسي الذي كافحه القرآن للجاهلية وتصوراتها في قلوب قريش ؛ كما كافح العناد والكيد والإعراض الناشئ عن العمد والقصد بشتى الأساليب .. والمشابهات كثيرة بين اتجاهات هذه السورة واتجاهات سورة المزمل ، وسورة القلم ، مما يدل على أنها جميعاً نزلت متقاربة ، لمواجهة حالات متشابهة .. وذلك باستثناء الشطر الثاني من سورة المزمل ، وقد نزل لشأن خاص بالرياضة الروحية للرسول - صلى الله عليه وسلم - وطائفة من الذين معه كما تقدم .

* * *

وهذه السورة قصيرة الآيات . سريعة الجريان . منوعة الفواصل والقوافي . يتنبد إيقاعها أحياناً ، ويجري

لاهثاً أحياناً ! وبخاصة عند تصوير مشهد هذا المكذب وهو يفكر ويقدر ويعبس ويسر .. وتصوير مشهد سقر . لا تبقي ولا تذر . لوحاة للبشر .. ومشهد فرارهم كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة !

وهذا التنوع في الإيقاع والقافية بتنوع المشاهد والظلال يجعل للسورة مذاقاً خاصاً ؛ ولا سيما عند رد بعض القوافي ورجعها بعد انتهائها كقافية الراء الساكنة : المدثر . أنذر . فكبر .. وعودتها بعد فترة : قدر . بسر . استكبر . سقر ... وكذلك الانتقال من قافية إلى قافية في الفقرة الواحدة مفاجأة ولكن لهدف خاص . عند قوله : « فإلهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة » .. ففي الآية الأولى كان يسأل ويستنكر . وفي الثانية والثالثة كان يصور ويسخر ! وهكذا ...

والآن نأخذ في الاستعراض التفصيلي للسورة :

* * *

« يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » ..

إنه النداء العلوي الجليل ، للأمر العظيم الثقيل .. نذارة هذه البشرية وإيقاظها ، وتخليصها من الشر في الدنيا ، ومن النار في الآخرة ؛ وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان .. وهو واجب ثقیل شاق ، حين يناط بفرد من البشر - مهما يكن نبياً رسولاً - فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعنود والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر ، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود !

« يا أيها المدثر . قم فأنذر » .. والإنذار هو أظهر ما في الرسالة ، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال وهم لا يشعرون . وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد ، وهم لا ينقصون في ملكه شيئاً حين يضلون ، ولا يزدون في ملكه شيئاً حين يهتدون . غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة ، ومن الشر الموبق في الدنيا . وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم ويدخلهم جنته من فضله !

ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره :

يوجهه إلى تكبير ربه : « وربك فكبر » .. ربك وحده .. فهو وحده الكبير ، الذي يستحق التكبير . وهو توجيه يقرر جانباً من التصور الإيماني لمعنى الألوهية ، ومعنى التوحيد .

إن كل أحد ، وكل شيء ، وكل قيمة ، وكل حقيقة .. صغير .. والله وحده هو الكبير .. وتتوارى الأجرام والأحجام ، والقوى والقيم ، والأحداث والأحوال ، والمعاني والأشكال ؛ وتنمحي في ظلال الجلال والكمال ، لله الواحد الكبير المتعال .

وهو توجيه للرسول - صلى الله عليه وسلم - ليوافقه نذارة البشرية ، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة ، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير .. ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور .

ويوجهه إلى التطهر : « وثيابك فطهر » .. وطهارة الثياب كناية في الاستعمال العربي عن طهارة القلب والخلق والعمل .. طهارة الذات التي تحتويها الثياب ، وكل ما يلزم بها أو يمسها .. والطهارة هي الحالة المناسبة للتلقي من الملائكة الأعلی . كما أنها ألصق شيء بطبيعة هذه الرسالة . وهي بعد هذا وذلك ضرورة للملابسة الإنذار

والتبليغ ، ومزاولة الدعوة في وسط التيارات والأهواء والمداخل والدروب ؛ وما يصاحب هذا ويلابسه من أدران ومقاذر وأخلاط وشوائب ، تحتاج من الداعية إلى الطهارة الكاملة كي يملك استنقاذ الملوئين دون أن يتلوث ، وملابسة المدنسين من غير أن يتدنس .. وهي لفظة دقيقة عميقة إلى ملابسات الرسالة والدعوة والقيام على هذا الأمر بين شتى الأوساط ، وشتى البيئات ، وشتى الظروف ، وشتى القلوب !

ويوجهه إلى هجران الشرك وموجبات العذاب : « والرجز فاهجر » .. والرسول - صلى الله عليه وسلم - كان هاجراً للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة . فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف ، وهذا الركام من المعتقدات الشائثة ، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات ، فلم يعرف عنه أنه شارك في شيء من خوض الجاهلية . ولكن هذا التوجيه يعني المفاصلة وإعلان التميز الذي لا صلح فيه ولا هوادة . فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان . كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز - والرجز في الأصل هو العذاب ، ثم أصبح يطلق على موجبات العذاب - تحرز التطهر من مس هذا الدنس !

ويوجهه إلى إنكار ذاته وعدم المن بما يقدمه من الجهد ، أو استكثاره واستعظامه : « ولا تمنن تستكثر » .. وهو سيقدم الكثير ، وسيبذل الكثير ، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء . ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به .. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها . فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه . بل حين لا تستشعره من الأصل لأنها مستغرقة في الشعور بالله ؛ شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطايه . فهو فضل يمنحها إياه ، وعطاء يختارها له ، ويوقفها لنيله . وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحق الشكر لله . لا المن والاستكثار .

ويوجهه أخيراً إلى الصبر . الصبر لربه : « ولربك فاصبر » .. وهي الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة أو تثبيت . والصبر هو هذا الزاد الأصيل في هذه المعركة الشاقة . معركة الدعوة إلى الله . المعركة المزدوجة مع شهوات النفوس وأهواء القلوب ؛ ومع أعداء الدعوة الذين تقودهم شياطين الشهوات وتدفعهم شياطين الأهواء ! وهي معركة طويلة عنيفة لا زاد لها إلا الصبر الذي يقصد فيه وجه الله ، ويتجه به إليه احتساباً عنده وحده .

* * *

فإذا انتهى هذا التوجيه الإلهي للنبي الكريم ، اتجه السياق إلى بيان ما ينذر به الآخرين ، في لمسة توقظ الحس لليوم العسير ، الذي ينذر بمقدمه النذير :

« فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير » ..

والنقر في الناقور ، هو ما يعبر عنه في مواضع أخرى بالنفخ في الصور . ولكن التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه ؛ كأنه نقر يصوت ويدوي . والصوت الذي ينقر الآذان أشد وقعاً من الصوت الذي تسمعه الآذان .. ومن ثم يصف اليوم بأنه عسير على الكافرين ، ويؤكد هذا العسر بنفي كل ظل لليسر فيه : « على الكافرين غير يسير » .. فهو عسر كله . عسر لا يتخلله يسر . ولا يفصل أمر هذا العسر ، بل يدعه مجملًا مجهلاً يوحي بالاختناق والكرب والضيق .. فما أجدر الكافرين أن يستمعوا للنذير ، قبل أن ينقر في الناقور ، فيواجههم هذا اليوم العسير العسير !

* * *

ويتنقل من هذا التهديد العام إلى مواجهة فرد بذاته من المكذبين ؛ يبدو أنه كان له دور رئيسي خاص في

التكذيب والتبنييت للدعوة ؛ فيوجه إليه تهديداً ساحقاً ماحقاً ، ويرسم له صورة منكرة تثير الهزء والسخرية من حاله وملامح وجهه ونفسه التي تبرز من خلال الكلمات كأنها حية شاخصة متحركة الملامح والسمات : « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ؛ ثم يطمع أن أزيد ! كلا ! إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ؟ لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر... » ..

وقد وردت روايات متعددة بأن المعني هنا هو الوليد بن المغيرة المخزومي . قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن عبادة بن منصور ، عن عكرمة ، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال له : أي عم ! إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا : قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله (يريد بنخب أن يثير كبريائه من الناحية التي يعرف أن الوليد أشد بها اعتزازاً) قال : قد علمت قریش أني أكثرها مالا ! قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنتك كاره له ! قال : فإذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ! والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإنه ليعظم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .. قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .. قال : فدعني حتى أفكر فيه .. فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره . فترلت : « ذرني ومن خلقت وحيداً - حتى بلغ - عليها تسعة عشر » .

وفي رواية أخرى أن قریشاً قالت : لئن صبا الوليد ، لتصبون قریش كلها ! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ! ثم دخل عليه ! .. وأنه قال بعد التفكير الطويل : إنه سحر يؤثر . أما ترون أنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه ؟

هذه هي الواقعة كما جاءت بها الروايات . فأما القرآن فيسوقها هذه السياقة الحية المثيرة .. يبدأ بذلك التهديد القاصم الرهيب . « ذرني ومن خلقت وحيداً » ..

والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومعناه خل بيني وبين هذا الذي خلقتة وحيداً مجرداً من كل شيء آخر مما يعتز به من مال كثير ممدود وبنين حاضرين شهود ونعم يتبطر بها ويختال ويطلب المزيد . خل بيني وبينه ولا تشغل بالك بمكره وكيد . فأنا سأتولى حربه .. وهنا يرتعش الحس ارتعاشة الفرع الزلزل ؛ وهو يتصور انطلاق القوة التي لا حد لها .. قوة الجبار القهار .. لتسحق هذا المخلوق المضعوف المسكين الهزيل الضئيل ! وهي الرعدة التي يطلقها النص القرآني في قلب القارئ والسامع الآمنين منها . فما بال الذي تتجه إليه وتواجهه !

ويطيل النص في وصف حال هذا المخلوق ، وما آتاه الله من نعمه وآلائه ، قبل أن يذكر إعراضه وعناده . فهو قد خلقه وحيداً مجرداً من كل شيء حتى من ثيابه ! ثم جعل له مالا كثيراً ممدوداً . ورزقه بنين من حوله حاضرين شهوداً ، فهو منهم في أنس وعزوة . ومهد له الحياة تمهيداً ويسرها له تيسيراً .. « ثم يطمع أن أزيد » .. فهو لا يقنع بما أوتي ، ولا يشكر ويكتفي .. أم لعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي وأن يعطى كتاباً كما سيجيء في آخر السورة : « بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » .. فقد كان ممن يحسدون الرسول -

صلى الله عليه وسلم - على إعطائه النبوة .

وهنا يردعه ردعاً عنيفاً عن هذا الطمع الذي لم يقدم حسنة ولا طاعة ولا شكراً لله يرجو بسببه المزيد :
« كلا ! » ، وهي كلمة ردع وتبكي - « إنه كان لآياتنا عنيداً » .. فعاند دلائل الحق وموحيات الإيمان .
ووقف في وجه الدعوة ، وحارب رسولها ، وصد عنها نفسه وغيره ، وأطلق حوالها الأضاليل .
ويعقب على الردع بالوعيد الذي يبذل اليسر عسراً ، والتمهيد مشقة !
« سأرهقه صعوداً » ..

وهو تعبير مصور لحركة المشقة . فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشدّه إرهاقاً . فإذا كان دفعاً من غير إرادة من المصعد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقاً . وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة . فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل اليسر الودود ، يندب في طريق وعر شاق مبتوت ؛ ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق ، كأنما يصعد في السماء ، أو يصعد في وعر صلد لا ريّ فيه ولا زاد ، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق !
ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكد ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه !
وتكلمح ملامحه وقسماته .. كل ذلك ليجد عيباً يعيب به هذا القرآن ، وليجد قولاً يقوله فيه :
« إنه فكر وقدر . فقتل ! كيف قدر ؟ ثم قتل ! كيف قدر ؟ ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » ..

لمحة لمحة . وخطرة خطرة . وحركة حركة . يرسمها التعبير ، كما لو كانت ريشة تصور ، لا كلمات تعبر ، بل كما لو كانت فيلماً متحركاً يلتقط المشهد لمحة لمحة !!!
لقطة وهو يفكر ويدبر ومعها دعوة هي قضاء « فقتل ! » واستنكار كله استهزاء « كيف قدر ؟ » ثم تكرار الدعوة والاستنكار لزيادة الإيحاء بالتكرار .

ولقطة وهو ينظر هكذا وهكذا في جد مصطنع متكلف يوحي بالسخرية منه والاستهزاء .
ولقطة وهو يقطب حاجبيه عابساً ، ويقبض ملامح وجهه باسراً ، ليستجمع فكره في هيئة مضحكة !
وبعد هذا المخاض كله ؟ وهذا الحزق كله ؟ لا يفتح عليه بشيء .. إنما يدبر عن النور ويستكبر عن الحق ..
فيقول : « إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر » !

إنها لمحات حية يثبثها التعبير القرآني في المخيلة أقوى مما تثبثها الريشة في اللوحة ؛ وأجمل مما يعرضها الفيلم المتحرك على الأنظار ! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر ، وثبتت صورته الزرية في صلب الوجود ، تتملاها الأجيال بعد الأجيال !

فإذا انتهى عرض هذه اللوحات الحية الشاخصة لهذا المخلوق المضحك ، عقب عليها بالوعيد المفزع :
« سأصليه سقر » .. وزاد هذا الوعيد تهويلاً بتجهيل سقر : « وما أدراك ما سقر ؟ » .. إنها شيء أعظم وأهول من الإدراك ! ثم عقب على التجهيل بشيء من صفتها أشد هولاً : « لا تبقي ولا تذر » .. فهي تكنس كنساً ، وتبلع بلعاً ، وتمحو محواً ، فلا يقف لها شيء ، ولا يبقى وراءها شيء ، ولا يفضل منها شيء !
ثم هي تتعرض للبشر وتلوح : « لواحة للبشر » .. كما قال في سورة المعارج : « تدعو من أدبر وتولى » ..
فهي تدل على نفسها ، وكأنما تقصد إثارة الفزع في النفوس ، بمنظرها المخيف !
ويقوم عليها حراس عدتهم : « تسعة عشر » .. لا ندرى أهم أفراد من الملائكة الغلاظ الشداد ، أم صفوف

أم أنواع من الملائكة وصنوف . إنما هو خبر من الله سندري شأنه فيما يجيء ..

* * *

فأما المؤمنون فقد تلقوا كلمات الله بالتسليم اللائق بمن وثق بربه ، وتأدب معه أدب العبد مع الرب فلم يعد يماري في خبره وقوله . وأما المشركون فتلقفوا هذا العدد بقلوب خاوية من الإيمان ، عارية من التوقير لله ، خالية من الجد في تلقي هذا الأمر العظيم . وراحوا يتهاكئون عليه ويسخرون منه ، ويتخذونه موضعاً للتندر والمزاح ... قال قائل منهم : أليس يتكفل كل عشرة منكم بواحد من هؤلاء التسعة عشر ! ؟ وقال قائل : لا بل اكفوني أتم أمر اثنين منهم وعليّ الباقي أنا أكفيكموهم ! وبمثل هذه الروح المطموسة المغلقة الفاضية تلقوا هذا القول العظيم الكريم .

عندئذ نزلت الآيات التالية تكشف عن حكمة الله في الكشف عن هذا الجانب من الغيب ، وذكر هذا العدد ، وترد علم الغيب إلى الله ، وتقرر ما وراء ذكر سقر وحراسها من غاية ينتهي الموقف إليها :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ كذلك يضلل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر » ...

تبدأ الآية بتقرير حقيقة أولئك التسعة عشر الذين تمارى فيهم المشركون :

« وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » ..

فهم من ذلك الخلق المغيب الذي لا يعلم طبيعته وقوته إلا الله ؛ وقد قال لنا عنهم : إنهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فقرر أنهم يطيعون ما يأمرهم به الله ، وأن بهم القدرة على فعل ما يأمرهم . فهم إذن مزودون بالقوة التي يقدرون بها على كل ما يكلفهم الله إياه . فإذا كان قد كلفهم القيام على سقر ، فهم مزودون من قبله سبحانه بالقوة المطلوبة لهذه المهمة ، كما يعلمها الله ، فلا مجال لقهرهم أو مغالبتهم من هؤلاء البشر المضعوفين ! وما كان قولهم عن مغالبتهم إلا وليد الجهل الغليظ بحقيقة خلق الله وتديره للأمور .

« وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » ..

فهم الذين يثير ذكر العدد في قلوبهم رغبة الجدل ؛ ولا يعرفون مواضع التسليم ومواضع الجدل . فهذا الأمر الغيبي كله من شأن الله ، وليس لدى البشر عنه من علم كثير ولا قليل ، فإذا أخبر الله عنه خبراً فهو المصدر الوحيد لهذا الطرف من الحقيقة ، وشأن البشر هو تلقي هذا الخبر بالتسليم ، والاطمئنان إلى أن الخير في ذكر هذا الطرف وحده ، بالقدر الذي ذكره ، وأن لا مجال للجدل فيه ، فالإنسان إنما يجادل فيما لديه عنه علم سابق يناقض الخبر الجديد أو يغيّره . أما لماذا كانوا تسعة عشر (أياً كان مدلول هذا العدد) فهو أمر يعلمه الله الذي ينسق الوجود كله ، ويخلق كل شيء بقدر . وهذا العدد كغيره من الأعداد . والذي ينبغي الجدل يمكنه أن يجادل وأن يعترض على أي عدد آخر وعلى أي أمر آخر بنفس الاعتراض .. لماذا كانت السماوات سبعاً ؟ لماذا كان خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ؟ لماذا كان حمل الجنين تسعة أشهر ؟ لماذا تعيش السلاحف آلاف السنين ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ والجواب : لأن صاحب الخلق والأمر يريد ويفعل ما يريد ! هذا هو فصل الخطاب في مثل هذه الأمور ..

« ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون » ..

فهؤلاء وهؤلاء سيجدون في عدد حراس سقر ما يدعو بعضهم إلى اليقين ويدعو البعض إلى ازدياد الإيمان . فأما الذين أوتوا الكتاب فلا بد أن لديهم شيئاً عن هذه الحقيقة ، فإذا سمعوها من القرآن استيقنوا أنه مصدق لما بين يديهم عنها . وأما الذين آمنوا فكل قول من ربهم يزيدهم إيماناً . لأن قلوبهم مفتوحة موصولة تتلقى الحقائق تلقياً مباشراً ، وكل حقيقة ترد إليها من عند الله تزيدها أنساً بالله .. وستشعر قلوبهم بحكمة الله في هذا العدد ، وتقديره الدقيق في الخلق ، فتزيد قلوبهم إيماناً . وثبتت هذه الحقيقة في قلوب هؤلاء وهؤلاء فلا يرتابون بعدها فيما يأتيهم من عند الله .

« وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ » ..

وهكذا ترك الحقيقة الواحدة أثرين مختلفين في القلوب المختلفة .. فبينما الذين أوتوا الكتاب يستيقنون ، والذين آمنوا يزيدون إيماناً ، إذا بالذين كفروا وضعاف القلوب المنافقون في حيرة يتساءلون : « ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ » .. فهم لا يدركون حكمة هذا الأمر الغريب . ولا يسلمون بحكمة الله المطلقة في تقدير كل خلق . ولا يطمثون إلى صدق الخبر والخير الكامن في إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ..

« كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء » ..

كذلك . بذكر الحقائق وعرض الآيات . فتتلقاها القلوب المختلفة تلقياً مختلفاً . ويهتدي بها فريق وفق مشيئة الله ؛ ويضل بها فريق حسب مشيئة الله . فكل أمر مرجعه في النهاية إلى إرادة الله المطلقة التي ينتهي إليها كل شيء . وهؤلاء البشر خرجوا من يد القدرة باستعداد مزدوج للهدى وللضلال ؛ فمن اهتدى ومن ضل كلاهما يتصرف داخل حدود المشيئة التي خلقتهم بهذا الاستعداد المزدوج ، ويسرت لهم التصرف في هذا أو ذاك ، في حدود المشيئة الطليقة ، ووفق حكمة الله المكنونة .

وتصور طلاقة المشيئة وانتهاء كل ما يقع في هذا الوجود إليها تصوراً كاملاً واسع المدلول ، يعفي العقول من الجدل الضيق حول ما يسمونه الجبر والإرادة . وهو الجدل الذي لا ينتهي إلى تصور صحيح ، بسبب أنه يتناول المسألة من زاوية ضيقة ، ويضعها في أشكال محددة نابعة من منطق الإنسان وتجاربه وتصوراته المحدودة ! بينما هو يعالج قضية من قضايا الألوهية غير المحدودة !

لقد كشف الله لنا عن طريق الهدى وطريق الضلال . وحدد لنا نهجاً نسلكه فهتدي ونسعد ونفوز . وبين لنا نهجاً ننحرف إليها فنضل ونشقى ونخسر . ولم يكلفنا أن نعلم وراء ذلك شيئاً ، ولم يهيننا القدرة على علم شيء وراء هذا . وقال لنا : إن إرادتي مطلقة وإن مشيئتي نافذة .. فعلينا أن نعالج - بقدر طاقتنا - تصور حقيقة الإرادة المطلقة والمشيئة النافذة . وأن نلتزم النهج الهادي ونتجنب النهج المضلل . ولا ننشغل في جدل عقيم حول ما لم نوهب القدرة على إدراك كنهه من الغيب المكنون . ومن ثم ننظر فنرى كل ما أنفق المتكلمون في مسألة القدر على النحو الذي تكلموا به جهداً ضائعاً لا طائل وراءه لأنه في غير ميدانه ..

إننا لا نعلم مشيئة الله المغيبة بنا ، ولكننا نعلم ماذا يطلب الله منا لنستحق فضله الذي كتبه على نفسه . وعلينا إذن أن ننق طاقتنا في أداء ما كلفنا ، وأن ندع له هو غيب مشيئته فينا . والذي سيكون هو مشيئته ، وعندما يكون سنعرف أن هذه مشيئته لا قبل كونه ! والذي سيكون وراءه حكمة يعرفها العليم بالكل المطلق .. وهو الله وحده .. وهذا هو طريق المؤمن في التصور ومنهجه في التفكير ..

« وما يعلم جنود ربك إلا هو » ..

فهو غيب . حقيقتها . ووظيفتها . وقدرتها .. وهو يكشف عما يريد الكشف عنه من أمرها ، وقوله هو الفصل

في شأنها . وليس لقائل بعده أن يجادل أو يماحك أو يحاول معرفة ما لم يكشف الله عنه ، فليس إلى معرفة هذا من سبيل ..

« وما هي إلا ذكرى للبشر » ..

« وهي » إما أن تكون هي جنود ربك ، وإما أن تكون هي سقر ومن عليها . وهي من جنود ربك . وذكرها جاء لينبه ويحذر ؛ لا لتكون موضوعاً للجدل والمماحكة ! والقلوب المؤمنة هي التي تتعظ بالذكرى ، فأما القلوب الضالة فتتخذها مباحكة وجدلاً !

* * *

ويعقب على هذه الوقفة التقريرية لهذه الحقيقة من حقائق الغيب ، ولناهج التصور الهادية والمضللة .. يعقب على هذا بربط حقيقة الآخرة ، وحقيقة سقر ، وحقيقة جنود ربك ، بظواهر الوجود المشهودة في هذا العالم ، والتي يمر عليها البشر غافلين ، وهي تشي بتقدير الإرادة الخالقة وتديرها ، وتوحي بأن وراء هذا التقدير والتدبير قصداً وغاية ، وحساباً وجزاء :

« كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لإحدى الكبر . نذيراً للبشر » ..

ومشاهد القمر ، والليل حين يدبر ، والصبح حين يسفر .. مشاهد موحية بذاتها ، تقول للقلب البشري أشياء كثيرة ؛ وتهمس في أعماقه بأسرار كثيرة ؛ وتستجيش في أغواره مشاعر كثيرة . والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار في القلوب التي يخاطبها ، على خبرة بمدخلها ودروبها !

وقلّ أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسري وحين يغيب .. ثم لا يعي عن القمر شيئاً يهمس له به من أسرار هذا الوجود ! وإن وقفة في نور القمر أحياناً لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور !

وقلّ أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره ، في تلك الهدأة التي تسبق الشروق ، وعندما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق .. ثم لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد وتدب في أعماقه خطرات رفاقة شفافة .

وقلّ أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره ، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح وانتقال شعوري من حال إلى حال ، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر مع النور الذي يشرق في النواظر .

والله الذي خلق القلب البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض الأحيان ، وكأنها تخلقه من جديد .

وراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات ما في القمر ، وما في الليل ، وما في الصبح من حقيقة عجيبة هائلة يوجه القرآن إليها المدارك ، وينبه إليها العقول . ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة ، والتنسيق الإلهي لهذا الكون ، بتلك الدقة التي يحير تصورها العقول .

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبية الغافلين لأقدارها العظيمة ، ودلالاتها المثيرة . يقسم على أن « سقر » أو الجنود التي عليها ، أو الآخرة وما فيها ، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر :

« إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر » ..

والقسم ذاته ، ومحتوياته ، والمقسم عليه بهذه الصورة .. كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة ،

وتتسق مع النقر في الناقور ، وما يتركه من صدى في الشعور . ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ : « يا أيها المدثر »
والأمر بالندارة : « قم فأنذر » .. فالجو كله نقر وطرق وخطر ! !

* * *

وفي ظل هذه الإيقاعات المثيرة الخطيرة يعلن تبعة كل نفس لذاتها وعلى ذاتها ؛ ويدع للنفوس أن تختار طريقها ومصيرها ؛ ويعلن لها أنها مأخوذة بما تكسبه باختيارها ، مرهونة بأعمالها وأوزارها :
« لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر . كل نفس بما كسبت رهينة » ..

فكل فرد يحمل هم نفسه وتبعتها ، ويضع نفسه حيث شاء أن يضعها ، يتقدم بها أو يتأخر ، ويكرمها أو يهينها . فهي رهينة بما تكسب ، مقيدة بما تفعل . وقد بين الله للنفوس طريقه لتسلك إليه على بصيرة ، وهو إعلان في مواجهة المشاهد الكونية الموحية ، ومشاهد سقر التي لا تبقي ولا تذر .. له وقعه وله قيمته !

وعلى مشهد النفوس الرهينة بما كسبت ، المقيدة بما فعلت ، يعلن إطلاق أصحاب اليمين من العقال ، وإرسالهم من القيد ، وتحويلهم حق سؤال المجرمين عما انتهى بهم إلى هذا المصير :

« إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون عن المجرمين : ما سلككم في سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين » ..

وانطلاق أصحاب اليمين وانفلاتهم من الرهن والقيد موكل إلى فضل الله الذي يبارك حسناتهم ويضاعفها . وإعلان ذلك في هذا الموقف وعرضه يلمس القلوب لمسة مؤثرة . يلمس قلوب المجرمين المكذبين ، وهم يرون أنفسهم في هذا الموقف المهين ، الذي يعترفون فيه فيطيلون الاعتراف ، بينما المؤمنون الذين كانوا لا يحفلونهم في الدنيا ، ولا يبالونهم ، في موقف الكرامة والاستعلاء ، يسألونهم سؤال صاحب الشأن المفوض في الموقف : « ما سلككم في سقر ؟ » .. ويلمس قلوب المؤمنين الذين كانوا يلاقون من المجرمين ما يلاقون في الأرض ، وهم يجدون أنفسهم اليوم في هذا المقام الكريم وأعداءهم المستكبرين في ذلك المقام المهين .. وقوة المشهد تلقي في نفوس الفريقين أنه قائم اللحظة وأنهم فيه قائمون .. وتطوي صفحة الحياة الدنيا بما فيها كأنه ماض انتهى وولى !

والاعتراف الطويل المفصل يتناول الجرائر الكثيرة التي انتهت بالمجرمين إلى سقر ، يعترفون بها هم بألسنتهم في ذلة المستكين أمام المؤمنين :

« قالوا : لم نك من المصلين » .. وهي كناية عن الإيمان كله ، تشير إلى أهمية الصلاة في كيان هذه العقيدة ، وتجعلها رمز الإيمان ودليله ، يدل إنكارها على الكفر ، ويعزل صاحبها عن صف المؤمنين .

« ولم نك نطعم المسكين » .. وهذه تلي عدم الإيمان ، بوصفها عبادة الله في خلقه ، بعد عبادته – سبحانه – في ذاته . ويدل ذكرها بهذه القوة في مواضع شتى على الحالة الاجتماعية التي كان القرآن يواجهها ، وانقطاع الإحسان للفقير في هذه البيئة القاسية ، على الرغم من الفخر بالكرم في مواضع المفاخرة والاختيال ، مع تركه في مواضع الحاجة والعطف الخالص البريء .

« وكنا نخوض مع الخائضين » .. وهي تصف حالة الاستهتار بأمر العقيدة ، وحقيقة الإيمان ، وأخذها مأخذ الهزل واللعب والخوض بلا مبالاة ولا احتفال . وهي أعظم الجذ وأخطر الأمر في حياة الإنسان ؛ وهي الشأن الذي ينبغي أن يفصل فيه ضميره وشعوره قبل أن يتناول أي شأن آخر من شؤون هذه الحياة ، فعلى أساسها

يقوم تصويره وشعوره وقيمه وموازينه . وعلى ضوءها يمضي في طريق الحياة . فكيف لا يقطع فيها برأي ولا يأخذها مأخذ الجد ؟ ونحوض فيها مع الخائضين ، ويلعب فيها مع اللاعنين ؟

« وكنا نكذب بيوم الدين » وهذه أس البلايا . فالذي يكذب بيوم الدين تختل في يده جميع الموازين ، وتضطرب في تقديره جميع القيم ، ويضيق في حسه مجال الحياة ، حين يقتصر على هذا العمر القصير المحدود في هذه الأرض ؛ ويقيس عواقب الأمور بما يتم منها في هذا المجال الصغير القصير ، فلا يطمئن إلى هذه العواقب ، ولا يحسب حساب التقدير الأخير الخطير .. ومن ثم تفسد مقاييسه كلها ويفسد في يده كل أمر من أمور هذه الدنيا ، قبل أن يفسد عليه تقديره للآخرة ومصيره فيها .. وينتهي من ثم إلى شر مصير . والمجرمون يقولون : إننا ظللنا على هذه الأحوال ، لانصلي ، ولا نطعم المسكين ، ونحوض مع الخائضين ، ونكذب بيوم الدين ..

« حتى أنايا اليقين » .. الموت الذي يقطع كل شك وينهي كل ريب ، ويفصل في الأمر بلا مرد .. ولا يترك مجالاً لندم ولا توبة ولا عمل صالح .. بعد اليقين .. ويعقب السياق على الموقف السيئ المهين ، بقطع كل أمل في تعديل هذا المصير : « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » ..

فقد قضى الأمر ، وحق القول ، وتقرر المصير ، الذي يليق بالمجرمين المعترفين ! وليس هنالك من يشفع للمجرمين أصلاً . وحتى على فرض ما لا وجود له فما تنفعهم شفاعة الشافعين !

* * *

وأمام هذا الموقف المهين الميثوس منه في الآخرة ، يردهم إلى موقفهم في الفرصة المتاحة لهم في الأرض قبل مواجهة ذلك الموقف ؛ وهم يصدون عنها ويعرضون ، بل يفرون من الهدى والخير ووسائل النجاة المعروضة عليهم فيها ، ويرسم لهم صورة مضحكة تثير السخرية والعجب من أمرهم الغريب : « فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ؟ » ..

ومشهد حمر الوحش وهي مستنفرة تفر في كل اتجاه ، حين تسمع زئير الأسد وتخشاها .. مشهد يعرفه العرب . وهو مشهد عنيف الحركة . مضحك أشد الضحك حين يشبه به الآدميون ! حين يخافون ! فكيف إذا كانوا إنما ينفرون هذا النفار الذي يتحولون به من آدميين إلى حمر ، لأنهم خائفون مهددون بل لأن مذكراً يذكركمهم بربهم وبمصيرهم ، ويمهد لهم الفرصة ليتقوا ذلك الموقف الزري المهين ، وذلك المصير العصيب الألم ؟ ! إنها الريشة المبدعة ترسم هذا المشهد وتسجله في صلب الكون ، تتملأ النفوس ، فتخجل وتستنكف أن تكون فيه ، ويروح النافرون المعرضون أنفسهم يتوارون من الخجل ، ويطامنون من الإعراض والنفار ، مخافة هذا التصوير الحي العنيف !

* * *

تلك هيئتهم الخارجية . « حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ثم لا يدعهم حتى يرسم نفوسهم من الداخل ، وما يعتلج فيها من المشاعر :

« بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة » ..

فهو الحسد للنبي - صلى الله عليه وسلم - أن يختاره الله ويوحى إليه ؛ والرغبة الملحة أن ينال كل منهم هذه

المنزلة ، وأن يؤتى صحفاً تنشر على الناس وتعلن .. ولا بد أن الإشارة هنا كانت بصدد الكبراء الذين شق عليهم أن يتخطاهم الوحي إلى محمد بن عبد الله ، فقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ؟ » .. ولقد علم الله أين يضع رسالته واختار لها ذلك الإنسان الكريم الكبير العظيم . فكان الحق الذي يغلي في الصدور ، والذي يكشف عنه القرآن ، وهو يعلل ذلك الشماس والنفار !

ثم يستمر في رسم صورة النفوس من داخلها ، فيضرب عما ذكره من ذلك الطمع والحسد ، ويذكر سبباً آخر للإعراض والجحود . وهو يردع في نفوسهم ذلك الطمع الذي لا يستند إلى سبب من صلاح ولا من استعداد لتلقي وحي الله وفضله :

« كلا ! بل لا يخافون الآخرة » ..

وعدم خوفهم من الآخرة هو الذي ينأى بهم عن التذكرة ، وينفرهم من الدعوة هذه النفرة . ولو استشعرت قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأن غير هذا الشأن المريب !

ثم يردعهم مرة أخرى ، وهو يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة ، ويدعهم لما يختارون لأنفسهم من طريق ومصير : « كلا ! إنه تذكرة . فمن شاء ذكره » ..

إنه ، هذا القرآن الذي يعرضون عن سماعه ، وينفرون كالحمر ، وهم يضمرون في أنفسهم الحسد لمحمد ، والاستهتار بالآخرة .. إنه تذكرة تنبه وتذكر . فمن شاء فليذكر . ومن لم يشأ فهو وشأنه ، وهو ومصيره ، وهو وما يختار من جنة وكرامة ، أو من سقر ومهانة ..

* * *

وبعد أن ثبت مشيئتهم في اختيار الطريق يعقب بطلاقة المشيئة الإلهية ، وعودة الأمور إليها في النهاية . وهي الحقيقة التي يحرص القرآن على تقريرها في كل مناسبة لتصحيح التصور الإيماني من ناحية طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها الكامل الأخير ، وراء جميع الأحداث والأمور :

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ..

فكل ما يقع في هذا الوجود ، مشدود إلى المشيئة الكبرى ، يمضي في اتجاهها وفي داخل مجالها . فلا يقع أن يشاء أحد من خلقه ما يتعارض مع مشيئته ، ومشيئته تسيطر على أقدار الوجود كله ، وهي التي أنشأت وأنشأت نواميسه وسننه ، فهو يمضي بكل ما فيه وكل من فيه في إطار من تلك المشيئة المطلقة من كل إطار ومن كل حد ومن كل قيد .

والذكر توفيق من الله ييسره لمن يعلم من حقيقة نفسه أنه يستحق التوفيق . والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء . فإذا علم من العبد صدق النية وجهه إلى الطاعات .

والعبد لا يعرف ماذا يشاء الله به . فهذا من الغيب المحجوب عنه . ولكنه يعرف ماذا يريد الله منه ، فهذا مما بينه له . فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلف أعانه الله ووجهه وفق مشيئته الطليقة .

والذي يريد القرآن أن يطبعه في حس المسلم هو طلاقة هذه المشيئة ، وإحاطتها بكل مشيئة ، حتى يكون التوجه إليها من العبد خالصاً ، والاستسلام لها مخلصاً .. فهذه هي حقيقة الإسلام القلبية التي لا يستقر في قلب بدونها . وإذا استقرت فيه كيفته تكييفاً خاصاً من داخله ، وأنشأت فيه تصوراً خاصاً يحتكم إليه في كل أحداث الحياة .. وهذا هو المقصود ابتداء من تقرير طلاقة المشيئة الإلهية وشمولها عقب الحديث عن كل وعد

بجنة أو نار ، ويهذى أو ضلال .

فأما أخذ هذا الإطلاق ، والانحراف به إلى جدل حول الجبر والاختيار ، فهو اقتطاع لجانب من تصور كلي وحقيقة مطلقة ، والتحيز بها في درب ضيق مغلق لا ينتهي إلى قول مريح . لأنها لم تجئ في السياق القرآني لمثل هذا التحيز في الدرب الضيق المغلق !

« وما يذكرون إلا أن يشاء الله » .. فهم لا يصادمون بمشيئهم مشيئة الله ، ولا يتحركون في اتجاه ، إلا بإرادة من الله ، تقدرهم على الحركة والاتجاه .

والله « هو أهل التقوى » .. يستحقها من عباده . فهم مطالبون بها ..

« وأهل المغفرة » .. يتفضل بها على عباده وفق مشيئته .

والتقوى تستأهل المغفرة ، والله - سبحانه - أهل لهما جميعاً .

* * *

بهذه التسيبحة الخاشعة تحتم السورة ، وفي النفس منها تطلع إلى وجه الله الكريم ، أن يشاء بالتوفيق إلى الذكر ، والتوجيه إلى التقوى ، والتفضل بالمغفرة .

« هو أهل التقوى وأهل المغفرة » ..

* * *

(٧٥) سُورَةُ الْقِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا أَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۝ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝ بَلَىٰ قَدَرِينٌ ۝ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۝ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَمَةِ ۝ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝ يُنْبِئُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِرَهُ ۝

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعُهُ وَقُرْآنُهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ۝

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۝ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۝ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۝ وَالْتَفَتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۝ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِتَمَطُّيٍّ ۝

أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۝ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ۝ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ

مَنْ يُمْئِنُ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فُخِّقَ فَسَوَىٰ ﴿٢٨﴾ فَعَمَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢٩﴾ أَلَيْسَ
ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٣٠﴾

هذه السورة الصغيرة تحشد على القلب البشري من الحقائق والمؤثرات والصور والمشاهد ، والإيقاعات واللمسات ، ما لا قبل له بمواجهته ولا التفلت منه .. تحشدتها بقوة ، في أسلوب خاص ، يجعل لها طابعاً قرآنياً مميزاً ، سواء في أسلوب الأداء التعبيري ، أو أسلوب الأداء الموسيقي ، حيث يجتمع هذا وذاك على إيقاع تأثير شعوري قوي ، تصعب مواجهته ويصعب التفلت منه أيضاً !

إنها تبدأ في الآيتين الأوليين منها بإيقاع عن القيامة ، وإيقاع عن النفس : « لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » .. ثم يستطرد الحديث فيها متعلقاً بالنفس ومتعلقاً بالقيامة ، من المطلع إلى الختام ، تراوج بين النفس وبين القيامة حتى تنتهي . وكأن هذا المطلع إشارة إلى موضوع السورة . أو كأنه اللازمة الإيقاعية التي تردت إليها كل إيقاعات السورة ، بطريقة دقيقة جميلة ..

من تلك الحقائق الكبيرة التي تحشدتها هذه السورة في مواجهة القلب البشري ، وتضرب بها عليه حصاراً لا مهرب منه .. حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي ، فلا يملك لها رداً ، ولا يملك لها أحد من حوله دفعاً . وهي تتكرر في كل لحظة ، ويواجهها الكبار والصغار ، والأغنياء والفقراء ، والأقوياء والضعاف ، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً .. لا حيلة . ولا وسيلة . ولا قوة . ولا شفاعة . ولا دفع . ولا تأجيل .. مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً . ولا مفر من الاستسلام لها ، والاستسلام لإرادة تلك الجهة العليا .. وهذا هو الإيقاع الذي تمس به السورة القلوب وهي تقول : « كلا ! إذا بلغت التراقي ، وقيل : من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق .. إلى ربك يومئذ المساق » ..

ومن تلك الحقائق الكبيرة التي تعرضها السورة ، حقيقة النشأة الأولى ، ودلالاتها على صدق الخبر بالنشأة الأخرى ، وعلى أن هناك تدبيراً في خلق هذا الإنسان وتقديراً .. وهي حقيقة يكشف الله للناس عن دقة أدوارها وتتابعها في صنعة مبدعة ، لا يقدر عليها إلا الله ، ولا يدعيها أحد من يكذبون بالآخرة ويتأرون فيها . فهي قاطعة في أن هناك إلهاً واحداً يدبر هذا الأمر ويقدره ؛ كما أنها بينة لا ترد على سر النشأة الآخرة ، وإيحاء قوي بضرورة النشأة الآخرة ، تمثيلاً مع التقدير والتدبير الذي لا يترك هذا الإنسان سدى ، ولا يدع حياته وعمله بلا وزن ولا حساب .. وهذا هو الإيقاع الذي تمس السورة به القلوب وهي تقول في أولها : « أيعسب الإنسان أن لن نجعل عظامه ؟ » ثم تقول في آخرها : « أيعسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يمنى ؟ ثم كان علقه فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

ومن المشاهد المؤثرة التي تحشدتها السورة ، وتواجه بها القلب البشري مواجهة قوية .. مشهد يوم القيامة وما يجري فيه من انقلابات كونية ، ومن اضطرابات نفسية ، ومن حيرة في مواجهة الأحداث الغالبة حيث يتجلى الهول في صميم الكون ، وفي أغوار النفس وهي تروغ من هنا ومن هناك كالقار في المصيدة ! وذلك رداً على تساؤل الإنسان عن يوم القيامة في شك واستبعاد ليومها المغيب ، واستهانة بها ولجاج في الفجور . فيجيء الرد في إيقاعات سريعة ، ومشاهد سريعة ، وومضات سريعة : « بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل :

أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا ! لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر . بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ! ..

ومن هذه المشاهد مشهد المؤمنين المطمئنين إلى ربهم ، المتطلعين إلى وجهه الكريم في ذلك الهول . ومشهد الآخرين المقطوعي الصلة بالله ، وبالرجاء فيه ، المتوقعين عاقبة ما أسلفوا من كفر ومعصية وتكذيب . وهو مشهد يعرض في قوة وحيوية كأنه حاضر لحظة قراءة القرآن . وهو يعرض رداً على حب الناس للعاجلة ، وإهمالهم للآخرة . وفي الآخرة يكون هذا الذي يكون : « كلا ! بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ! » ..

وفي ثنايا السورة وحققاتها تلك ومشاهدها تعترض أربع آيات تحتوي توجيهاً خاصاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وتعليماً له في شأن تلقي هذا القرآن . ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها . إذ كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخاف أن ينسى شيئاً مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه ، وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه . فجاءه هذا التعليم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » .. جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن ، وجمعه ، وبيان مقاصده .. كل أولئك موكلون إلى صاحبه . ودوره هو ، هو التلقي والبلاغ . فليطمئن بالاً ، وليتلق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً .. وهكذا كان .. فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل .. أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان ؟ ولأي أمر أراد ؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب .. ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه .. وفي شأن هذا القرآن وتضمنه لكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يُخرم منها حرف ، ولم تند منها عبارة . فهو الحق والصدق والتحرر والوقار !

* * *

وهكذا يشعر القلب - وهو يواجه هذه السورة - أنه محاصر لا يهرب . مأخوذ بعمله لا يفلت . لا ملجأ له من الله ولا عاصم . مقدرة نشأته وخطواته يعلم الله وتديره ، في النشأة الأولى وفي النشأة الآخرة سواء ، بينما هو يلهو ويلعب ويغتر ويتبطر : « فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى » .. وفي مواجهة تلك الحشود من الحقائق والمؤثرات واللمسات والإيحاءات يسمع التهديد الملفوف : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » فيكون له وقعه ومعناه !

وهكذا تعالج السورة عناد هذا القلب وإعراضه وإصراره وهواه . وتشعره بالجد الصارم الحازم في هذا الشأن ، شأن القيامة ، وشأن النفس ، وشأن الحياة المقدرة بحساب دقيق . ثم شأن هذا القرآن الذي لا يخرم منه حرف ، لأنه من كلام العظيم الجليل ، الذي تتجاوب جنبات الوجود بكلماته ، وتثبت في سجل الكون الثابت ، وفي صلب هذا الكتاب الكريم .

* * *

وقد عرضنا نحن لحقائق السورة ومشاهدها فرادى لمجرد البيان . وهي في نسق السورة شيء آخر . إذ أن تتابعها في السياق ، والمزاوجة بينها هنا وهناك ، ولمسة القلب بجانب من الحقيقة مرة ، ثم العودة إليه بالجانب

الآخر بعد فترة .. كل ذلك من خصائص الأسلوب القرآني في مخاطبة القلب البشري ؛ مما لا يبلغ إليه أسلوب آخر ، ولا طريقة أخرى ..

فلنأخذ في مواجهة السورة كما هي في سياقها القرآني الخاص :

* * *

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ، أيعسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ، بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ، يسأل : أيان يوم القيامة ؟ فإذا برق البصر ، وخصف القمر ، وجمع الشمس والقمر .. يقول الإنسان يومئذ : أين المفر ؟ كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره .. »

هذا التلويح بالقسم مع العدول عنه أوقع في الحس من القسم المباشر ؛ وهذا الوقع هو المقصود من العبارة ، وهو يتم أحسن تمام بهذا الأسلوب الخاص ، الذي يتكرر في مواضع مختلفة من القرآن .. ثم تبرز من ورائه حقيقة القيامة وحقيقة النفس اللوامة .

وحقيقة القيامة سيرد عنها الكثير في مواضعه في السورة . فأما النفس اللوامة ففي التفسيرات الماثورة أقوال متنوعة عنها .. فعن الحسن البصري : إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه .. وعن الحسن : ليس أحد من أهل السماوات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة .. وعن عكرمة : تلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا ! كذلك عن سعيد بن جبير .. وعن ابن عباس : هي النفس اللؤوم . وعنه أيضاً : اللوامة المذمومة . وعن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه .. وعن قتادة : الفاجرة .. وقال جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة المعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

ونحن نختار في معنى « النفس اللوامة » قول الحسن البصري : « إن المؤمن والله ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ؟ ما أردت بأكلتي ؟ ما أردت بحديث نفسي ؟ وإن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه » . فهذه النفس اللوامة المتيقظة التقية الخائفة المتوجسة التي تحاسب نفسها ، وتلتفت حولها ، وتبين حقيقة هواها ، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله ، حتى ليدكرها مع القيامة . ثم هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة . نفس الإنسان الذي يريد أن يفجر ويمضي قدماً في الفجور ، والذي يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطى دون حساب لنفسه ودون تلوم ولا تخرج ولا مبالاة !

« لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة » .. على وقوع هذه القيامة ، ولكنه لما عدل عن القسم ، عدل عن ذكر المقسم به ، وجاء به في صورة أخرى كأنها ابتداء لحديث بعد التنبيه إليه بهذا المطلع الموقظ : « أيعسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوي بنانه » ..

وقد كانت المشكلة الشعورية عند المشركين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية ، الذاهبة في التراب ، المتفرقة في الثرى ، لإعادة بعث الإنسان حياً ! ولعلها لا تزال كذلك في بعض النفوس إلى يومنا هذا ! والقرآن يرد على هذا الحسابان بعدم جمع العظام مؤكداً وقوعه : « بلى ! قادرين على أن نسوي بنانه » .. والبنان أطراف الأصابع ؛ والنص يؤكد عملية جمع العظام ، بما هو أرق من مجرد جمعها ، وهو تسوية البنان ، وتركيبه في موضعه كما كان ! وهي كناية عن إعادة التكوين الإنساني بأدق ما فيه ، وإكماله بحيث لا تضع منه

بنان ، ولا تختل عن مكانها ، بل تسوى تسوية ، لا ينقص معها عضو ولا شكل هذا العضو ، مهما صغر ودق ! ويكتفي هنا بهذا التقرير المؤكد ، وسيجيء في نهاية السورة دليل آخر من واقع النشأة الأولى . إنما يخلص هنا إلى الكشف عن العلة النفسية في هذا الحساب ، وتوقع عدم جمع العظام .. إن هذا الإنسان يريد أن يفجر ، ويمضي قدماً في الفجور ، ولا يريد أن يصدده شيء عن فجوره ، ولا أن يكون هناك حساب عليه وعقاب . ومن ثم فهو يستبعد وقوع البعث ، ويستبعد مجيء يوم القيامة :

« بل يريد الإنسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة ؟ » ..

والسؤال بأيان - هذا اللفظ المديد الجرس - يوحى باستبعاده لهذا اليوم .. وذلك تمشياً مع رغبته في أن يفجر ويمضي في فجوره ، لا يصدده شبح البعث وشبح الآخرة .. والآخرة لجام للنفس الراغبة في الشر ، ومصد للقلب المحب للفجور . فهو يحاول إزالة هذا المصد ، وإزاحة هذا اللجام ، لينطلق في الشر والفجور بلا حساب ليوم الحساب .

ومن ثم كان الجواب على التهمك بيوم القيامة واستبعاد موعدها ، سريعاً خاطفاً حاسماً ، ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم ، وجرس الألفاظ . وكان مشهداً من مشاهد القيامة تشتبك فيه الحواس والمشاعر الإنسانية ، والمشاهد الكونية :

« فإذا برق البصر . وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟ » .

فالبصر يخطف ويتقلب سريعاً سريعاً قلب البرق وخطفه . والقمر يخسف ويطمس نوره . والشمس تقترب بالقمر بعد اقتراق . ويختل نظامهما الفلكي المعهود ، حيث ينفرط ذلك النظام الكوني الدقيق .. وفي وسط هذا الذعر والانقلاب ، يتساءل الإنسان المرعوب : « أين المفر؟ » ويبدو في سؤاله الارتباك والفرع ، وكأنما ينظر في كل اتجاه ، فإذا هو مسدود دونه ، مأخوذ عليه !

ولا ملجأ ولا وقاية ، ولا مفر من قهر الله وأخذه ، والرجعة إليه ، والمستقر عنده ؛ ولا مستقر غيره :

« كلا ! لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر » ..

وما كان يرغب فيه الإنسان من الماضي في الفجور بلا حساب ولا جزاء ، لن يكون يومئذ ، بل سيكون كل ما كسبه محسوباً ، وسيذكر به إن كان نسيه ، ويؤخذ به بعد أن يذكره ويراه حاضراً :

« ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » ..

بما قدمه من عمل قبل وفاته ، وبما أخره وراءه من آثار هذا العمل خيراً كان أم شراً . فمن الأعمال ما يخلف وراءه آثاراً تضاف لصاحبها في ختام الحساب !

ومهما اعتذر الإنسان بشتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منها عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ويقودها . فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها :

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ..

وما يلاحظ أن كل شيء سريع قصير : الفقر . والفواصل . والإيقاع الموسيقي . والمشاهد الخاطفة . وكذلك عملية الحساب : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » هكذا في سرعة وإجمال .. ذلك أنه رد على استطالة الأمد والاستخفاف بيوم الحساب !

ثم تحيي الآيات الأربع الخاصة بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - في شأن الوحي وتلقي هذا القرآن : « لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » .. وبالإضافة إلى ما قلناه في مقدمة السورة عن هذه الآيات ، فإن الإحياء الذي تركه في النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن : وحياً وحفظاً وجمعاً وبيانا ؛ وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكلية . ليس للرسول - صلى الله عليه وسلم - من أمره إلا حمله وتبليغه . ثم لطف الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشدة حرصه على استيعاب ما يوحى إليه ؛ وأخذ مأخذ الجد الخالص ، وخشيته أن ينسى منه عبارة أو كلمة ، مما كان يدعو إلى متابعة جبريل عليه السلام في التلاوة آية آية وكلمة كلمة يستوثق منها أن شيئاً لم يفته ، ويتثبت من حفظه له فيها بعد !

وتسجيل هذا الحادث في القرآن المتلو له قيمته في تعميق هذه الإحياءات التي ذكرناها هنا وفي مقدمة السورة بهذا الخصوص .

* * *

ثم يمضي سياق السورة في عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النفس اللوامة ، فيذكرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيها من حب للدنيا وانشغال ، ومن إهمال للآخرة وقلة احتفال ؛ ويواجههم بموقفهم في الآخرة بعد هذا وما ينتهي إليه حالهم فيها . ويعرض لهم هذا الموقف في مشهد حي قوي الإحياء عميق الإيقاع : « كلا . بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ؛ وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » ..

وأول ما يلحظ من ناحية التناسق في السياق هو تسمية الدنيا بالعاجلة في هذا الموضع . ففضلا عن إحياء اللفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها - وهو الإحياء المقصود - فإن هناك تناسقاً بين ظل اللفظ وظل الموقف السابق المعارض في السياق ، وقول الله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « لا تحرك به لسانك لتعجل به » .. فهذا التحريك وهذه العجلة هي أحد ظلال السمة البشرية في الحياة الدنيا .. وهو تناسق في الحس لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآني في الطريق !

ثم نخلص إلى الموقف الذي يرسمه هذا النص القرآني الفريد :

« وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » ..

إن هذا النص ليشير إشارة سريعة إلى حالة تعجز الكلمات عن تصويرها ؛ كما يعجز الإدراك عن تصورهما بكل حقيقتها . ذلك حين يعد الموعودين السعداء بحالة من السعادة لا تشبهها حالة . حتى لتتضاءل إلى جوارها الجنة بكل ما فيها من ألوان النعيم !

هذه الوجوه الناضرة .. نضرها أنها إلى ربها ناظرة ..

إلى ربها .. ؟ ! فأى مستوى من الرفعة هذا ؟ أي مستوى من السعادة ؟

إن روح الإنسان لتستمتع أحياناً بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون أو النفس ، تراها في الليلة القمرية . أو الليل الساجي . أو الفجر الوليد . أو الظل المديد . أو البحر العباب . أو الصحراء المنسابة . أو الروض البهيح . أو الطلعة البهية . أو القلب النبيل . أو الإيمان الواثق . أو الصبر الجميل .. إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود .. فتغمرها النشوة ، وتفيض بالسعادة ، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة . وتتوارى

عنها أشواك الحياة ، وما فيها من الم وقبح ، وثقله طين وعرامة لحم ودم ، وصراع شهوات وأهواء ..

فكيف ؟ كيف بها وهي تنظر - لا إلى جمال صنع الله - ولكن إلى جمال ذات الله ؟

ألا إنه مقام يحتاج أولاً إلى مد من الله . ويحتاج ثانياً إلى تثبيت من الله . ليملك الإنسان نفسه ، فيثبت ، ويستمتع بالسعادة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يتصور حقيقتها إدراك !

« وجوه يومئذ ناضرة .. إلى ربها ناظرة » ..

وما لها لا تنتضر وهي إلى جمال ربها تنظر ؟

إن الإنسان لينظر إلى شيء من صنع الله في الأرض . من طلعة بهية ، أو زهرة ندية ، أو جناح رفاف ، أو روح نبيل ، أو فعل جميل . فإذا السعادة تفيض من قلبه على ملامحه ، فيبدو فيها الوضاعة والنضارة . فكيف بها حين تنظر إلى جمال الكمال . مطلقاً من كل ما في الوجود من شواغل عن السعادة بالجمال ؟ فما تبلغ الكينونة الإنسانية ذلك المقام ، إلا وقد خلصت من كل شائبة تصدها عن بلوغ ذلك المرتقى الذي يعز على الخيال ! كل شائبة لا فيما حولها فقط ، ولكن فيها هي ذاتها من دواعي النقص والحاجة إلى شيء ما سوى النظر إلى الله .. فأما كيف تنظر ؟ وبأي جراحة تنظر ؟ وبأي وسيلة تنظر ؟ .. فذلك حديث لا يخطر على قلب يمس طائف من الفرح الذي يطلقه النص القرآني ، في القلب المؤمن ، والسعادة التي يفيضها على الروح ، والتشوف والتطلع والانطلاق !

فما بال أناس يحرمون أرواحهم أن تعانق هذا النور الفاضل بالفرح والسعادة ؟ ويشغلونها بالجدل حول مطلق ، لا تدركه العقول المقيدة بمألوفات العقل ومقرراته !

إن ارتقاء الكينونة الإنسانية وانطلاقها من قيود هذه الكينونة الأرضية المحدودة ، هو فقط محط الرجاء في التقائها بالحقيقة الطليقة يومذاك . وقبل هذا الانطلاق سيعز عليها أن تتصور - مجرد تصور - كيف يكون ذلك اللقاء .

وإذن فقد كان جدلاً ضائعاً ذلك الجدل الطويل المديد الذي شغل به المعتزلة أنفسهم ومعارضهم من أهل السنة والمتكلمين حول حقيقة النظر والرؤية في مثل ذلك المقام .

لقد كانوا يقيسون بمقاييس الأرض ؛ ويتحدثون عن الإنسان المثقل بمقررات العقل في الأرض ؛ ويتصورون الأمر بالمدارك المحدودة المجال .

إن مدلول الكلمات ذاته مقيد بما تدركه عقولنا وتصوراتنا المحدودة . فإذا انطلقت وتحررت من هذه التصورات فقد تغير طبيعة الكلمات . فالكلمات ليست سوى رموز يختلف ما ترمز إليه بحسب التصورات الكامنة في مدارك الإنسان . فإذا تغيرت طاقته تغير معها رصيده من التصورات ، وتغيرت معها طبيعة مدلول الكلمات . ونحن نتعامل في هذه الأرض بتلك الرموز على قدر حالنا ! فإلنا نخوض في أمر لا يثبت لنا منه حتى مدلول الكلمات ؟ !

فلنتطلع إلى فيض السعادة الغامر الهادئ ، وفيض الفرح المقدس الطهور ، الذي ينطلق من مجرد تصورنا لحقيقة الموقف على قدر ما نملك . ولنشغل أرواحنا بالتطلع إلى هذا الفيض ؛ فهذا التطلع ذاته نعمة . لا تفوقها إلا نعمة النظر إلى وجهه الكريم ..

« وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة » .

وهي الوجوه الكالحة المتقبضة التعيسة ، المحجوبة عن النظر والتطلع ، بخطاياها وارثكاسها وكثافتها وانطمااسها . وهي التي يشغلها ويحزنها ويخلع عليها البسر والكلوحة توقعها أن تحل بها الكارثة القاصمة للظهر ، المحطمة للفقار .. الفاقة . وهي من التوقع والتوجس في كرب وكلوحة وتقبض وتنغيص ..

فهذه هي الآخرة التي يذرونها ويهملون ، ويتجهون إلى العاجلة يحبونها ويحفلونها . ووراءهم هذا اليوم الذي تختلف فيه المصائر والوجوه ، هذا الاختلاف الشاسع البعيد !! من وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة إلى وجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقة !! !

* * *

وإذا كانت مشاهد القيامة .. إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، وقال الإنسان يومئذ أين المفر . وإذا اختلفت المصائر والوجوه ، ذلك الاختلاف الشاسع البعيد ، فكانت وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقة ..

إذا كانت تلك المشاهد تستمد قوتها وإيقاعها في النفس ، من قوة الحقيقة الكامنة فيها ، وقوة الأداء القرآني الذي يشخصها ويحييها ، فإن السورة بعد عرض تلك المشاهد تقرب وتقرب حتى تلمس حس المخاطبين بمشهد آخر حاضر واقع مكرور ، لا تمر لحظة حتى يواجههم في هذه الأرض بقوته ووضوحه ووزنه الثقيل !

إنه مشهد الموت . الموت الذي ينتهي إليه كل حي ، والذي لا يدفعه عن نفسه ولا عن غيره حي . الموت الذي يفرق الأحبة ، ويمضي في طريقه لا يتوقف ، ولا يتلفت ، ولا يستجيب لصرخة ملهوف ، ولا لحسرة مفارق ، ولا لرغبة راغب ولا لخوف خائف ! الموت الذي يصرع الجبابرة بنفس السهولة التي يصرع بها الأقزام ، ويقهر بها المستلطين كما يقهر المستضعفين سواء ! الموت الذي لا حيلة للبشر فيه وهم مع هذا لا يتدبرون القوة القاهرة التي تجريه :

« كلا ! إذا بلغت التراقي ، وقيل : من راقٍ ؟ وظن أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق » ..

إنه مشهد الاحتضار ، يواجههم به النص القرآني كأنه حاضر ، وكأنه يخرج من ثنايا الألفاظ ويتحرك كما تخرج ملامح الصورة من خلال لمسات الريشة !

« كلا إذا بلغت التراقي » .. وحين تبلغ الروح التراقي يكون النزاع الأخير ، وتكون السكرات المذهلة ، ويكون الكرب الذي تزوغ منه الأبصار .. ويتلفت الحاضرون حول المحتضر يتلمسون حيلة أو وسيلة لاستنقاذ الروح المكروب : « وقيل : من راقٍ ؟ » لعل رقية تفيد ! .. وتلوى المكروب من السكرات والنزع .. « والتفت الساق بالساق » .. وبطلت كل حيلة ، وعجزت كل وسيلة ، وتبين الطريق الواحد الذي يساق إليه كل حي في نهاية المطاف : « إلى ربك يومئذ المساق » ..

إن المشهد ليكاد يتحرك وينطق . وكل آية ترسم حركة . وكل فقرة تخرج لمحة . وحالة الاحتضار ترتسم ويرتسم معها الجزع والحيرة واللهفة ومواجهة الحقيقة القاسية المريرة ، التي لا دافع لها ولا زاد .. ثم تظهر النهاية التي لا مفر منها .. « إلى ربك يومئذ المساق » ..

ويسدل الستار على المشهد الفاجع ، وفي العين منه صورة ، وفي الحس منه أثر ، وعلى الجو كله وجوم صامت مرهوب .

وفي مواجهة المشهد المكروب الملهوف الجاد الواقع يعرض مشهد اللاهين المكذبين ، الذين لا يستعدون بعمل ولا طاعة ، بل يقدمون المعصية والتولي ، في عبث وهو ، وفي اختيال بالمعصية والتولي :

« فلا صدق ولا صلي ، ولكن كذب وتولي ، ثم ذهب إلى أهله يتمطى » ! ..

وقد ورد أن هذه الآيات تعني شخصاً معيناً بالذات ، قيل هو أبو جهل « عمرو بن هشام » .. وكان يجيء أحياناً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسمع منه القرآن . ثم يذهب عنه ، فلا يؤمن ولا يطيع ، ولا يتأدب ولا يخشى ؛ ويؤذي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالقول ، ويصد عن سبيل الله .. ثم يذهب مختلاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئاً يذكر ..

والتعبير القرآني يتهكم به ، ويسخر منه ، ويثير السخرية كذلك ، وهو يصور حركة اختياله بأنه « يتمطى ! » يخط في ظهره ويتعجب وتعجباً ثقيلاً كريهاً !

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوة إلى الله ، يسمع ويعرض ، ويتفنن في الصد عن سبيل الله ، والأذى للدعاة ، ويمكر مكر السيئ ، ويتولى وهو فخور بما أوقع من الشر والسوء ، وبما أفسد في الأرض ، وبما صد عن سبيل الله ، وبما مكر لدينه وعقيدته وكاد !

والقرآن يواجه هذه الخيلاء الشريرة بالتهديد والوعيد :

« أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » ..

وهو تعبير اصطلاحي يتضمن التهديد والوعيد ، وقد أمسك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخناق أبي جهل مرة ، وهزه ، وهو يقول له : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » .. فقال عدو الله : أتوعدي يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً . وإني لأعز من مشى بين جبليها !! فأخذه الله يوم بدر بيد المؤمنين بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبرب محمد القوي القهار المتكبر . ومن قبله قال فرعون لقومه : « ما علمت لكم من إله غيري » .. وقال : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ » .. ثم أخذه الله كذلك .

وكم من أبي جهل في تاريخ الدعوات يعتز بعشيرته وبقوته وبسلطانه ؛ ويحسبها شيئاً ؛ وينسى الله وأخذه . حتى يأخذه أهون من بعوضة ، وأحق من ذبابة .. إنما هو الأجل الموعود لا يستقدم لحظة ولا يستأخر .

* * *

وفي النهاية يمس القلوب بحقيقة أخرى واقعية في حياتهم ، لها دلالتها على تدبير الله وتقديره لحياة الإنسان . ولها دلالتها كذلك على النشأة الآخرة التي ينكرونها أشد الإنكار . ولا مفر من مواجهتها ، ولا حيلة في دفع دلالتها :

« أحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

وهذا المقطع الأخير العميق الإيقاع ، يشتمل على لفئات عميقة إلى حقائق كبيرة . ما كان المخاطبون بهذا القرآن يخطرونها على بالهم في ذلك الزمان . وأولى هذه اللفئات تلك اللفتة إلى التقدير والتدبير في حياة الإنسان :

« أحسب الإنسان أن يترك سدى » ..

فلقد كانت الحياة في نظر القوم حركة لا علة لها ولا هدف ولا غاية .. أرحام تدفع وقبور تبلع .. وبين هاتين لهو ولعب ، وزينة وتفاخر ، ومتاع قريب من متاع الحيوان .. فأما أن يكون هناك ناموس ، وراءه هدف ،

وراء الهدف حكمة ؛ وأن يكون قدوم الإنسان إلى هذه الحياة وفق قدر يجري إلى غاية مقدرة ، وأن ينتهي إلى حساب وجزاء ، وأن تكون رحلته على هذه الأرض ابتلاء ينتهي إلى الحساب والجزاء .. أما هذا التصور الدقيق المتناسق ، والشعور بما وراءه من ألوهية قادرة مدبرة حكيمة ، تفعل كل شيء بقدر ، وتنتهي كل شيء إلى نهاية .. أما هذا فكان أبعد شيء عن تصور الناس ومداركهم ، في ذلك الزمان .

والذي يميز الإنسان عن الحيوان ، هو شعوره باتصال الزمان والأحداث والغايات . وبوجود الهدف والغاية من وجوده الإنساني ، ومن الوجود كله من حوله . وارتقاؤه في سلم الإنسانية يتبع نمو شعوره هذا وسعته ، ودقة تصوره لوجود الناموس ، وارتباط الأحداث والأشياء بهذا الناموس . فلا يعيش عمره لحظة لحظة ، ولا حادثة حادثة ، بل يرتبط في تصوره الزمان والمكان والماضي والحاضر والمستقبل . ثم يرتبط هذا كله بالوجود الكبير ونواميسه . ثم يرتبط هذا كله بإرادة عليا خالقة مدبرة لا تخلق الناس عبثاً ولا تتركهم سدى .

وهذا هو التصور الكبير الذي نقل القرآن الناس إليه منذ ذلك العهد البعيد ، نقلة هائلة بالقياس إلى التصورات السائدة إذ ذاك وما تزال هائلة بالقياس إلى سائر التصورات الكونية التي عرفتها الفلسفة قديماً وحديثاً^١

وهذه اللمسة : « أحسب الإنسان أن يترك سدى » .. هي إحدى لمسات القرآن التوجيهية للقلب البشري ، كي يتلفت ويستحضر الروابط والصلات ، والأهداف والغايات ، والعلل والأسباب ، التي تربط وجوده بالوجود كله ، وبالإرادة المدبرة للوجود كله .

وفي غير تعقيد ولا غموض يأتي بالدلائل الواقعة البسيطة التي تشهد بأن الإنسان لن يترك سدى .. إنها دلائل نشأته الأولى :

« ألم يك نطفة من مني يعني ؟ ثم كان علقه فخلق فسوى ؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ؟ » .

فما هذا الإنسان ؟ ثم خلق ؟ وكيف كان ؟ وكيف صار ؟ وكيف قطع رحلته الكبيرة حتى جاء إلى هذا الكوكب ؟

ألم يك نطفة صغيرة من الماء ، من مني يعني ويراق ؟ ألم تتحول هذه النطفة من خلية واحدة صغيرة إلى علقه ذات وضع خاص في الرحم ، تعلق بجداره لتعيش وتستمد الغذاء ؟ فمن ذا الذي ألهمها هذه الحركة ؟ ومن ذا الذي أودعها هذه القدرة ؟ ومن ذا الذي وجهها هذا الاتجاه ؟

ثم من ذا الذي خلقها بعد ذلك جنيناً معتدلاً منسق الأعضاء ؟ مؤلفاً جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية ، وهو في الأصل خلية واحدة مع بويضة ؟ والرحلة المديدة التي قطعها من الخلية الواحدة إلى الجنين السوي - وهي أطول بمراحل من رحلته من مولده إلى مماته - والتغيرات التي تحدث في كيانه في الرحلة الجنينية أكثر وأوسع مدى من كل ما يصادفه من الأحداث في رحلته من مولده إلى مماته ! فمن ذا الذي قاد هذه الرحلة المديدة ، وهو خليفة صغيرة ضعيفة ، لا عقل لها ولا مدارك ولا تجارب ؟ !

ثم في النهاية . من ذا الذي جعل من الخلية الواحدة .. الذكر والأنثى ؟ .. أي إرادة كانت لهذه الخلية في أن تكون ذكراً ؟ وأي إرادة لتلك في أن تكون أنثى ؟ أم من ذا الذي يزعم أنه تدخل فقاد خطواتهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار ؟ !

(١) كتاب : فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان (بحث أرجو التوفيق لإخراجه) .

إنه لا مفر من الإحساس باليد اللطيفة المدبرة التي قادت النطفة المراقبة في طريقها الطويل ، حتى انتهت بها إلى ذلك المصير .. « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » ..
وأمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً على الحس البشري ، يجيء الإيقاع الشامل لجملة من الحقائق التي تعالجها السورة :

« أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ » ..

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على أن يحيي الموتى !

بلى ! سبحانه ! فإنه لقادر على النشأة الأخرى !

بلى ! سبحانه ! وما يملك الإنسان إلا أن يخشع أمام هذه الحقيقة التي تفرض نفسها فرضاً .

وهكذا تنتهي السورة بهذا الإيقاع الحاسم الجازم ، القوي العميق ، الذي يملأ الحس ويفيض ، بحقيقة الوجود الإنساني وما وراءها من تدبير وتقدير ..

* * *

(٧٦) سُورَةُ الْاِنْسَانِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا اِحْدَى وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾
عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عَبْدُ اللَّهِ يُفَجِّرُوهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَنذَرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾
وَيُطْعَمُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا
شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾
فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّعْنَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَكِسِرِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذَلَّاتٍ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾
وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِغَانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ
إِذَا رَأَوْهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ
خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّن فِضَّةٍ وَسَقْنَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمُ
مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٣٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَائِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٣٤﴾ وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٣٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٦﴾
 إِنَّ هَؤُلَاءِ جُحُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٣٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا مِثْلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٣٨﴾
 إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ وَمَا نَسَاءُ وَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤١﴾

في بعض الروايات أن هذه السورة مدنية ، ولكنها مكية ؛ ومكيته ظاهرة جداً ، في موضوعها وفي سياقها ، وفي سماتها كلها . لهذا رجحنا الروايات الأخرى القائلة بمكيته . بل نحن نلمح من سياقها أنها من بواكير ما نزل من القرآن المكي .. تشي بهذا صور النعم الحسية المفصلة الطويلة ، وصور العذاب الغليظ ، كما يشي به توجيه الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى الصبر لحكم ربه ، وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور ؛ مما كان يتنزل عند اشتداد الأذى على الدعوة وأصحابها في مكة ، مع إهمال المشركين وتثبيت الرسول – صلى الله عليه وسلم – على الحق الذي نزل عليه ، وعدم الميل إلى ما يدهنون به .. كما جاء في سورة القلم ، وفي سورة المزمل ، وفي سورة المدثر ، مما هو قريب من التوجيه في هذه السورة .. واحتمال أن هذه السورة مدنية – في نظرنا – هو احتمال ضعيف جداً ، يمكن عدم اعتباره !

* * *

والسورة في مجموعها هتاف رخوي ندي إلى الطاعة ، والالتجاء إلى الله ، وابتغاء رضاه ، وتذكر نعمته ، والإحساس بفضله ، واتباع عذابه ، واليقظة لابتلائه ، وإدراك حكمته في الخلق والإنعام والابتلاء والإملاء .. وهي تبدأ بلمسة رفيقة للقلب البشري : أين كان قبل أن يكون ؟ من الذي أوجده ؟ ومن الذي جعله شيئاً مذكوراً في هذا الوجود ؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ » ..

تتلوها لمسة أخرى عن حقيقة أصله ونشأته ، وحكمة الله في خلقه ، وتزويده بطاقاته ومداركه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » ..
 ولمسة ثالثة عن هدايته إلى الطريق ، وعونه على الهدى ، وتركه بعد ذلك لمصيره الذي يختاره : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ..

وبعد هذه اللمسات الثلاث الموحية ، وما تثيره في القلب من تفكير عميق ، ونظرة إلى الوراء . ثم نظرة إلى الأمام ، ثم التخرج والتدبر عند اختيار الطريق .. بعد هذه اللمسات الثلاث تأخذ السورة في الهتاف للإنسان وهو على مفرق الطريق لتحذيره من طريق النار .. وترغيبه في طريق الجنة ، بكل صور الترغيب ، وبكل

هواتف الراحة والمتاع والنعم والتكريم : « إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً . إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » ..

وقبل أن تمضي في عرض صور المتاع ترسم سمات هؤلاء الأبرار في عبارات كلها انعطاف ورقة وجمال وخشوع يناسب ذلك النعم الهائئ الرغيد : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويَتِيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » ..

ثم تعرض جزاء هؤلاء القائمين بالعزائم والتكاليف ، الخائفين من اليوم العبوس القمطير ، الخيرين المطعمين على حاجتهم إلى الطعام ، يبتغون وجه الله وحده ، لا يريدون شكوراً من أحد ، إنما يتقون اليوم العبوس القمطير !

تعرض جزاء هؤلاء الخائفين الوجلين المطعمين المؤثرين . فإذا هو الأمن والرخاء والنعم اللين الرغيد : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا . ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ، عينا فيها تسمى سلسبيلاً . ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً . وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً . عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » .

فإذا انتهى معرض النعم اللين الرغيد المطمئن الهائئ الودود ، اتجه الخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتثبيته على الدعوة - في وجه الإعراض والكفر والتكذيب - وتوجيهه إلى الصبر وانتظار حكم الله في الأمر ؛ والاتصال بربه والاستمداد منه كلما طال الطريق : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » ..

ثم تذكرهم باليوم الثقيل الذي لا يحسبون حسابه ؛ والذي يخافه الأبرار ويتقونه ، والتلويح لهم بهوان أمرهم على الله ، الذي خلقهم ومنحهم ما هم فيه من القوة ، وهو قادر على الذهاب بهم ، والإتيان بقوم آخرين ؛ لولا تفضله عليهم بالبقاء ، لتمضي مشيئة الابتلاء . ويلوح لهم في الختام بعاقبة هذا الابتلاء : « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً . نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً . إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليماً حكيماً . يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً » ..

* * *

تبدأ السورة بالتذكير بنشأة الإنسان وتقدير الله في هذه النشأة ، على أساس الابتلاء ، وتختتم ببيان عاقبة الابتلاء ، كما اقتضت المشيئة منذ الابتداء . فتوحي بذلك البدء وهذا الختام بما وراء الحياة كلها من تدير وتقدير ، لا ينبغي معه أن يمضي الإنسان في استهتاره . غير واع ولا مدرك ، وهو مخلوق ليبتل ، وموهوب نعمة الإدراك لينجح في الابتلاء .

وبين المطلع والختام ترد أطول صورة قرآنية لمشاهد النعم . أو من أطولها إذا اعتبرنا ما جاء في سورة الواقعة

من صور النعيم ، وهو نعيم حسي في جملته ، ومعه القبول والتكريم ، وهو بتفصيله هذا وحسيته يوحى بمكيته ، حيث كان القوم قريبي عهد بالجاهلية ، شديدي التعلق بمتاع الحواس ، يبههم هذا اللون ويعجبهم ، ويثير تطلّعهم ورغبتهم . وما يزال هذا اللون من المتاع يثير تطلّع صنوف من الناس ، ويصلح جزاء لهم يرضي أعماق رغباتهم . والله أعلم بخلقه ما يصلح لهم وما يصلح قلوبهم ، وما يليق بهم كذلك وفق تكوينهم وشعورهم . وهناك ما هو أعلى منه وأرق كالذي جاء في سورة القيامة : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .. والله أعلم بما يصلح للعباد في كل حال .

* * *

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » ..

هذا الاستفهام في مطلع السورة إنما هو للتقرير ؛ ولكن وروده في هذه الصيغة كأنما ليسأل الإنسان نفسه : ألا يعرف أنه أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ؟ ثم ألا يتدبر هذه الحقيقة ويتملاها ؟ ثم ألا يفعل تدبرها في نفسه شيئاً من الشعور باليد التي دفعته إلى مسرح الحياة ، وسلطت عليه النور ، وجعلته شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً ؟

إنها إحياءات كثيرة تنبض من وراء صيغة الاستفهام في هذا المقام . وهي إحياءات رفيعة وعميقة تثير في النفس تأملات شتى :

واحدة منها تتجه بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ووجوده ابتداء . يعيش فيها مع هذا الكون وقد خلا من الإنسان .. كيف تراه كان ؟ .. والإنسان مخلوق مغرور في نفسه وفي قيمته ، حتى لينسى أن هذا الكون كان وعاش قبل أن يوجد هو بأدهار وأزمان طوال . ولعل الكون لم يكن يتوقع خلق شيء يسمى « الإنسان » .. حتى انبثق هذا الخلق من إرادة الله فكان !

وواحدة منها تتجه إلى اللحظة التي انبثق فيها هذا الوجود الإنساني . وتضرب في تصورات شتى لهذه اللحظة التي لم يكن يعلمها إلا الله ؛ والتي أضافت إلى الكون هذه الخليقة الجديدة ، المقدر أمرها في حساب الله قبل أن تكون ! المحسوب دورها في خط هذا الكون الطويل !

وواحدة منها تتجه إلى تأمل يد القدرة وهي تدفع بهذا الكائن الجديد على مسرح الوجود ؛ وتعدّه لدوره ، وتعدّ له دوره ، وتربط خيوط حياته بمحور الوجود كله ؛ وتهيئ له الظروف التي تجعل بقاءه وأداء دوره ممكناً وميسوراً ؛ وتتابعه بعد ذلك في كل خطوة ، ومعها الخيط الذي تشده به إليها مع سائر خيوط هذا الكون الكبير !

وإحياءات كثيرة وتأملات شتى ، يطلقها هذا النص في الضمير .. ينتهي منها القلب إلى الشعور بالقصد والغاية والتقدير ، في المنشأ وفي الرحلة وفي المصير .

فأما امتداد هذا الإنسان بعد ذلك وبقاؤه فكانت له قصة أخرى :

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً » ..

والأمشاج : الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثة الكامنة في النطفة ، والتي يمثلها ما يسمونه علمياً « الجينات » وهي

وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ولصفات الجنين العائلية أخيراً . وإليها يعزى سير النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جنين إنسان ، لا جنين أي حيوان آخر . كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة .. ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى ..

خلقته يد القدرة هكذا من نطفة أمشاج ، لا عبثاً ولا جزافاً ولا تسلية ، ولكنه خلق ليبتل ويمتحن ويختبر . والله سبحانه يعلم ما هو ؟ وما اختباره ؟ وما ثمرة اختباره ؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود ، وأن ترتب عليه آثاره المقدرة في كيان الوجود ، وأن تتبعه آثاره المقدرة . ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه . ومن ثم جعله سمياً بصيراً . أي زوده بوسائل الإدراك ، ليستطيع التلقي والاستجابة . وليدرك الأشياء والقيم ويحكم عليها ويختار . ويجتاز الابتلاء وفق ما يختار ..

وإذن فإن إرادة الله في امتداد هذا الجنس وتكرر أفرادها بالوسيلة التي قدرها ، وهي خلقتها من نطفة أمشاج .. كانت وراءها حكمة . وكان وراءها قصد . ولم تكن فلتة .. كان وراءها ابتلاء هذا الكائن واختباره . ومن ثم وهب الاستعداد للتلقي والاستجابة ، والمعرفة والاختبار .. وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة .. بمقدار !

ثم زوده إلى جانب المعرفة ، بالقدرة على اختيار الطريق ، وبين له الطريق الواصل . ثم تركه ليختاره ، أو ليضل ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله :
« إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً » ..

وعبر عن الهدى بالشكر . لأن الشكر أقرب خاطر يرد على قلب المهتدي ، بعد إذ يعلم أنه لم يكن شيئاً مذكوراً ، فأراد ربه له أن يكون شيئاً مذكوراً . وهب له السمع والبصر . وزوده بالقدرة على المعرفة . ثم هداه السبيل . وتركه يختار .. الشكر هو الخاطر الأول الذي يرد على القلب المؤمن في هذه المناسبة . فإذا لم يشكر فهو الكفور .. بهذه الصيغة الموهلة في الدلالة على الكفران .

ويشعر الإنسان بجديّة الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث . ويدرك أنه مخلوق لغاية . وانه مشدود إلى محور . وأنه مزود بالمعرفة فحاسب عليها . وأنه هنا ليبتل ويجتاز الابتلاء . فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا في فترة لعب وهو وإهمال ! ويخرج من هذه الآيات الثلاث القصار بذلك الرصيد من التأملات الرفيعة العميقة ، كما يخرج منها مثقل الظهر بالتبعة والجد والوقار في تصور هذه الحياة ، وفي الشعور بما وراءها من نتائج الابتلاء ! وتغير هذه الآيات الثلاث القصار من نظرتة إلى غاية وجوده ، ومن شعوره بحقيقة وجوده ، ومن أخذه للحياة وقيمها بوجه عام .

* * *

ومن ثم يأخذ في عرض ما ينتظر الإنسان بعد الابتلاء ، واختياره طريق الشكر أو طريق الكفران . فأما ما ينتظر الكافرين ، فيجمله إجمالاً ، لأن ظل السورة هو ظل الرخاء الظاهر في الصورة والإيقاع . وظل الهتاف المغري بالنعيم المريح . فأما العذاب فيشير إليه في إجمال :

« إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » ..

سلاسل للأقدام ، وأغلالاً للأيدي ، وناراً تتسعر يلقي فيها بالمسلسلين المغلولين !

ثم يسارع السياق إلى رخاء النعيم :

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً » ..

وهذه العبارة تفيد أن شراب الأبرار في الجنة ممزوج بالكافور ، يشربونه في كأس تغترف من عين تفجر لهم تفجيراً ، في كثرة ووفرة .. وقد كان العرب يمزجون كؤوس الخمر بالكافور حيناً وبالزنجبيل حيناً زيادة في التلذذ بها ، فهاهم أولاء يعلمون أن في الجنة شراباً طهوراً ممزوجاً بالكافور ، على وفر وسعة . فأما مستوى هذا الشراب ففهوم أنه أحلى من شراب الدنيا ، وأن لذة الشعور به تتضاعف وترقى ، ونحن لا نملك في هذه الأرض أن نحدد مستوى ولا نوعاً للذة المتاع هناك . فهي أوصاف للتقريب . يعلم الله أن الناس لا يملكون سواها لتصور هذا الغيب المحجوب .

والتعبير يسميهم في الآية الأولى « الأبرار » ويسميهم في الآية الثانية « عباد الله » .. إيناساً وتكريماً وإعلاناً للفضل تارة ، وللقرب من الله تارة ، في معرض النعم والتكريم . ثم يعرف هؤلاء الأبرار عباد الله الذين قسم لهم هذا المتاع :

« يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » .. وهي صورة وضيفة شفافة لقلوب مخلصه جادة عازمة على الوفاء لله بتكاليف العقيدة ، مع رحمة ندية بعباده الضعاف ، وإيثار على النفس ، وتخرج وخشية لله ، ورغبة في رضاه ، وإشفاق من عذابه تبعته التقوى والجد في تصور الواجب الثقيل .

« يوفون بالنذر » يفعلون ما اعتزموا من الطاعات ، وما التزموا من الواجبات . فهم يأخذون الأمر جداً خالصاً لا يحاولون التفلت من تبعاته ، ولا التفصي من أعبائه ، ولا التخلي عنه بعد اعتزامه . وهذا معنى أنهم يوفون بالنذر . فهو أعم من المعنى العرفي المتبادر من كلمة « النذر » .

« ويخافون يوماً كان شره مستطيراً » .. فهم يدركون صفة هذا اليوم ، الذي يتفشى شره ويصيب الكثيرين من المقصرين والمسيئين . فيخافون أن ينالهم شيء من شره . وهذه سمة الأتقياء ، الشاعرين بثقل الواجب وضخامة التكاليف ، الخائفين من التقصير والقصور ، مهما قدموا من القرب والطاعات .

« ويطعمون الطعام - على حبه - مسكيناً ويتيماً وأسيراً » ..

وهي تصور شعور البر والعطف والخير ممثلاً في إطعام الطعام ، مع حبه بسبب الحاجة إليه . فمثل هذه القلوب لا يقال عنها : إنها تحب الطعام الذي تطعمه للضعاف المحاويج على اختلاف أنواعهم . إلا أن تكون في حاجة هي إلى هذا الطعام ، ولكنها تؤثر به المحاويج .

وهذه اللفتة تشي بقسوة البيئة في مكة بين المشركين ، وأنها كانت لا تفضي بشيء للمحاويع الضعاف ؛ وإن كانت تبذل في مجالات الفاخرة الشيء الكثير . فأما الأبرار عباد الله فكانوا واحة ظليلة في هذه الهاجرة الشحيحة . وكانوا يطعمون الطعام بأريحية نفس ، ورحمة قلب ، وخلص نية . واتجاه إلى الله بالعمل ، يحكيه السياق من حالهم ، ومن منطوق قلوبهم .

« إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » ..

فهي الرحمة الفائضة من القلوب الرقيقة الرفيقة ، تتجه إلى الله تطلب رضاه . ولا تبتغي بها جزاء من الخلق ولا شكراً ، ولا تقصد بها استعلاء على المحتاجين ولا خيلاء . كما تتقي بها يوماً عبوساً شديد العبوس ، تتوقعه

وتخشاہ ، وتقیہ بهذا الوقاء . وقد دلہم رسول اللہ - صلی اللہ علیہ وسلم - علیہ وهو یقول : « اتق النار ولو بشق تمرة » ..

وقد كان إطعام الطعام هكذا مباشرة هو وسيلة التعبير عن هذه العاطفة النبيلة الكريمة ، ووسيلة الإشباع لحاجات المحاويج . ولكن صور الإحسان ووسائله قد تتغير بحسب البيئات والظروف ، فلا تظل في هذه الصورة البدائية المباشرة . إلا أن الذي يجب الاحتفاظ به هو حساسية القلوب ، وحيوية العاطفة ، والرغبة في الخير ابتغاء وجه الله ، والتجرد عن البواعث الأرضية من جزاء أو شكر أو نفع من منافع الحياة ! ولقد تنظم الضرائب ، وتفرض التكاليف ، وتخصص للضمان الاجتماعي ، ولإسعاف المحاويج ، ولكن هذا إنما يفی بشرط واحد من مزايا الاتجاه الإسلامي الذي ترمز إليه تلك الآيات ، والذي توخاه بفريضة الزكاة .. هذا الشرط هو كفاية حاجة المحتاجين .. هذا شرط .. والشرط الآخر هو تهذيب أرواح الباذلين ، ورفعها إلى ذلك المستوى الكريم . وهو شرط لا يجوز إغفاله ولا التهوين من شأنه فضلاً على أن تنقلب المعايير فيوصم ويقبح ويشوه ، ويقال : إنه إذلال للأخذين وإفساد للواهيين .

إن الإسلام عقيدة قلوب ، ومنهج تربية لهذه القلوب . والعاطفة الكريمة تهذب صاحبها وتنفع من يوجهها إليه من إخوانه . فتنفي بشطري التربية التي يقصد إليها هذا الدين . ومن ثم كان ذلك التصوير الكريم لذلك الشعور الكريم . « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً » ..

يعجل السياق بذكر وقايتهم من شر ذلك اليوم الذي كانوا يخافونه ، ليطمئنهم في الدنيا وهم يتلقون هذا القرآن ويصدقونه ! ويذكر أنهم تلقوا من الله نضرة وسروراً ، لا يوماً عبوساً قمطريراً . جزاءً وفاقاً على خشيتهم وخوفهم ، وعلى نداوة قلوبهم ونضرة مشاعرهم .

ثم يمضي بعد ذلك في وصف مناعم الجنة التي وجدوها :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » .. جنة يسكنونها وحريراً يلبسونه .

« متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً » .. فهم في جلسة مريحة مطمئنة والجو حولهم رخاء ناعم دافئ في غير حر ، ندي في غير برد . فلا شمس تلهب النسائم ، ولا زمهرير وهو البرد القارس ! ولنا أن نقول : إنه عالم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شمس أخرى من نظائرها .. وكفى !

« ودانية عليهم ظلالها . ودلت قطوفها تذليلاً » .. وإذا دنت الظلال ودنت القطوف فهي الراحة والاسترواح على أمتع ما يمتد إليه الخيال !

فهذه هي الهيئة العامة لهذه الجنة التي جرى الله بها عباده الأبرار الذين رسم لهم تلك الصورة المرهفة اللطيفة الوضيئة في الدنيا .. ثم تأتي تفصيلات المناعم والخدمات ..

« ويطاف عليهم بآنية من فضة ، وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديراً . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً » ..

فهم في متاعهم . متكئين على الأرائك بين الظلال الوارفة والقطوف الدانية والجو الرائق .. يطاف عليهم بأشربة في آنية من فضة ، وفي أكواب من فضة كذلك ، ولكنها شفة كالقوارير ، مما لم تعهده الأرض في آنية الفضة . وهي بأحجام مقدرة تقديراً يحقق المتاع والجمال . ثم هي تمزج بالزنجبيل كما مزجت مرة بالكافور .

وهي كذلك تملأ من عين جارية تسمى سلسيلاً ، لشدة عنوبتها واستساغتها لدى الشارين !
وزيادة في المتاع فإن الذين يطوفون بهذه الأواني والأكواب بالشراب هم غلمان صباح الوجوه ، لا يفعل
فيهم الزمن ، ولا تدركهم السن ؛ فهم مخلدون في سن الصبابة والصباء والوضاءة . وهم هنا وهناك كاللؤلؤ
المنثور :

« ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً » ..
ثم يحمل السياق خطوط المنظر ، ويلقي عليه نظرة كاملة تلخص وقعه في القلب والنظر :
« وإذا رأيت - ثم - رأيت نعيماً وملكاً كبيراً » ..
نعيماً وملكاً كبيراً . هو الذي يعيش فيه الأبرار المقربون عباد الله هؤلاء ، على وجه الإجمال والعموم !
ثم يخصص مظهراً من مظاهر النعم والملك الكبير ؛ كأنه تعليل لهذا الوصف وتفسير :
« عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » ..
والسندس الحرير الرقيق ، والإستبرق الحرير السميك المبطن .. وهم في هذه الزينة وهذا المتاع ، يتلقونه
كله من « ربهم » فهو عطاء كريم من معط كريم . وهذه تضاف إلى قيمة ذلك النعم !
ثم يتلقون عليه الود والتكريم :

« إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً » ..
يتلقون هذا النطق من الملأ الأعلى . وهو يعدل هذه المناعم كلها ، ويمنحها قيمة أخرى فوق قيمتها ..
وهكذا ينتهي ذلك العرض المفصل والهاثف الموحى للقلوب ، الهاثف إلى ذلك النعم الطيب والفرار
من السلاسل والأغلال والسعير .. وهما طريقان . طريق مؤد إلى الجنة هذه وطريق مؤد إلى السعير !

* * *

وبعد انتهاء هذا الهاثف إلى الجنة ونعيمها الهنيء الرغيد ، يعالج حالة المشركين المصيرين على العناد والتكذيب ،
الذين لا يدركون حقيقة الدعوة ، فيسأومون عليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعله يكف عنها ، أو عما
يؤذيهم منها . وبين المساومة للنبي - صلى الله عليه وسلم - وفئة المؤمنين به وإيذائهم ، والصد عن سبيل الله ،
والإعراض عن الخير والجنة والنعم .. بين هذا كله يجيء المقطع الأخير في السورة يعالج هذا الموقف بطريقة
القرآن الكريم :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً . واذكر اسم ربك
بكرة وأصيلاً . ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » ..

وفي هذه الآيات الأربع تكمن حقيقة كبيرة من حقائق الدعوة الإيمانية . حقيقة ينبغي أن يعيش فيها الدعوة
إلى الله طويلاً ، وأن تعمقوها تعمقاً كاملاً ، وأن ينظروا بتدبر في مدلولاتها الواقعية والنفسية والإيمانية الكبيرة .
لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وحده . وهو لم يكن يواجه في
نفوسهم مجرد عقيدة . ولو كان الأمر كذلك لكان أيسر كثيراً . فإن عقيدة الشرك المهلهلة التي كانوا عليها لم
تكن من القوة والثبات بحيث يصمدون بها هكذا لعقيدة الإسلام القوية الواضحة البسيطة . إنما كانت الملابس
التي تحيط بالعقيدة وبالموقف هي التي تقود إلى تلك المعارضة العنيدة ، التي شهدت بها الروايات التاريخية ،
وحكاها القرآن في مواضع منه شتى .. كانت المكانة الاجتماعية ، والاعتزاز بالقيم السائدة في البيئة ، وما يتلبس

بها كذلك من مصالح مادية .. هي العنصر الأول الذي يقود إلى التشبث بالعقيدة الواهية الظاهرة بالطلان ، في وجه العقيدة القوية الظاهرة الاستقامة .. ثم كانت صور الحياة الجاهلية ومتاعها ولذائذها وشهواتها إلى جانب ذلك تزيد المقاومة والعناد والتأبي على العقيدة الجديدة ، وما فيها من اتجاهات أخلاقية وقيم رفيعة ، لا تسمح بانطلاق الغرائز والشهوات ؛ ولا بالحياة العابثة الماجنة المطلقة من كوابح الأخلاق .

وهذه الأسباب - سواء ما يتعلق منها بالمكانة والقيم الاجتماعية والسلطان والمال والمصالح ، وما يتعلق منها بالإلف والعادة وصور الحياة التقليدية ، وما يتعلق منها بالانطلاق من القيم والقيود الأخلاقية - كانت قائمة في وجه الدعوة الأولى ، وهي قائمة في وجه الدعوة في كل أرض وفي كل جيل . وهي تمثل العناصر الثابتة في معركة العقيدة ، التي تجعلها معركة عنيدة لا تنتهي من قريب ؛ وتجعل مشاقها وتكاليفها والثبات عليها من أعسر التكليف .

ومن ثم ينبغي للدعاة إلى دين الله في أي أرض وفي أي زمان أن يعيشوا طويلاً في الحقيقة الكبيرة الكامنة في تلك الآيات ، وملابسات نزولها على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهي ملابسات معركة واحدة يخوضها كل صاحب دعوة إلى الله ، في أي أرض وفي أي زمان !

لقد تلقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التكليف من ربه لينذر ، وقيل له : « يا أيها المدثر . قم فأندر » .. فلما أن نهض بالتكليف واجهته تلك العوامل والأسباب التي تصد القوم عن الدعوة الجديدة ، وتثير في نفوسهم التشبث بما هم عليه - على شعورهم بوهنه وهلهلته - وتقودهم إلى العناد الشديد ، ثم إلى الدفاع العنيد عن معتقداتهم وأوضاعهم ومكانتهم ومصالحهم . ومألوف حياتهم ، ولذا نذرهم وشهواتهم .. إلى آخر ما تهده الدعوة الجديدة أشد التهديد .

وأخذ هذا الدفاع العنيد صوراً شتى ، في أولها إيذاء القلة المؤمنة التي استجابت للدعوة الجديدة ، ومحاولة فتنها عن عقيدتها بالتعذيب والتهديد . ثم تشويه هذه العقيدة وإثارة الغبار حولها وحول نبيها - صلى الله عليه وسلم - بشتى التهم والأساليب . كي لا ينضم إليها مؤمنون جدد . فنع الناس عن الانضمام إلى راية العقيدة قد يكون أيسر من فتنة الذين عرفوا حقيقتها وذاقوها !

وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - طرقاً شتى من الإغراء - إلى جانب التهديد والإيذاء - ليلتقي بهم في منتصف الطريق ؛ ويكف عن الحملة الساحقة على معتقداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم ؛ ويصالحهم ويصالحونه على شيء يرتضيه ويرتضونه ! كما تعود الناس أن يلتقوا في منتصف الطريق عند الاختلاف على المصالح والمغانم وشؤون هذه الأرض المعهودة^١ .

وهذه الوسائل ذاتها أو ما يشبهها هي التي يواجهها صاحب الدعوة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل ! والنبي - صلى الله عليه وسلم - ولو أنه رسول ، حفظه الله من الفتنة ، وعصمه من الناس .. إلا أنه بشر يواجه الواقع الثقيل في قلة من المؤمنين وضعف . والله يعلم منه هذا ، فلا يدعه وحده ، ولا يدعه لمواجهة الواقع الثقيل بلا عون ومدد وتوجيه إلى معالم الطريق .

وهذه الآيات تتضمن حقيقة هذا العون والمدد والتوجيه :

« إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً » .

(١) يراجع في هذا الجزء تفسير سورة القلم : « ودوا لو تدهن فيدهنون » ..

وهي اللفتة الأولى إلى مصدر التكليف بهذه الدعوة ، وينبوع حقيقتها .. إنها من الله . هو مصدرها الوحيد . وهو الذي نزل بها القرآن . فليس لها مصدر آخر ، ولا يمكن أن تختلط حقيقتها بشيء آخر لا يفيض من هذا ينبوع . وكل ما عدا هذا المصدر لا يتلقى عنه ، ولا يُستمد منه ، ولا يُستعار لهذه العقيدة منه شيء ، ولا يخلط بها منه شيء .. ثم إن الله الذي نزل هذا القرآن وكلف بهذه الدعوة لن يتركها . ولن يترك الداعي إليها ، وهو كلفه ، وهو نزل القرآن عليه .

ولكن الباطل يتبجح ، والشر ينتفش ، والأذى يصيب المؤمنين ، والفتنة ترصد لهم ؛ والصد عن سبيل الله يملكه أعداء الدعوة ويقومون به ويصرون عليه ، فوق إصرارهم على عقيدتهم وأوضاعهم وتقاليدهم وفسادهم وشرهم الذي يلجون فيه ! ثم هم يعرضون المصالحة ، وقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق .. وهو عرض يصعب رده ورفضه في مثل تلك الظروف العصبية !

هنا تجيء اللفتة الثانية :

« فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » ..

إن الأمور مرهونة بقدر الله . وهو يمهّل الباطل ، ويملي للشر ، ويطيّل أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص .. كل أولئك لحكمة يعلمها ، يجري بها قدره ، وينفذ بها حكمه .. « فاصبر لحكم ربك » .. حتى يجيء موعده المرسوم .. اصبر على الأذى والفتنة . واصبر على الباطل يغلب ، والشر يتنفج . ثم اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك . اصبر ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والالتقاء في منتصف الطريق على حساب العقيدة : « ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » .. فهم لا يدعونك إلى طاعة ولا إلى بر ولا إلى خير . فهم آثمون كفار . يدعونك إلى شيء من الإثم والكفر إذن حين يدعونك إلى الالتقاء بهم في منتصف الطريق ! وحين يعرضون عليك ما يظنونونه يرضيك ويغريك ! وقد كانوا يدعونه باسم شهوة السلطان ، وباسم شهوة المال ، وباسم شهوة الجسد . فيعرضون عليه مناصب الرياسة فيهم والثراء ، حتى يكون أغنى من أغناهم ، كما يعرضون عليه الحسان الفاتنات ، حيث كان عتبة بن ربيعة يقول له : « ارجع عن هذا الأمر حتى أزوجك ابنتي ، فأني من أجمل قريش بنات ! » .. كل الشهوات التي يعرضها أصحاب الباطل لشراء الدعاة في كل أرض وفي كل جيل !

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » .. فإنه لا لقاء بينك وبينهم ؛ ولا يمكن أن تقام قنطرة للعبور عليها فوق الهوة الواسعة التي تفصل منهجك عن منهجهم ، وتصورك للوجود كله عن تصورهم ، وحقك عن باطلهم ، وإيمانك عن كفرهم ، ونورك عن ظلماتهم ، ومعرفتك بالحق عن جاهليتهم !

اصبر ولو طال الأمد ، واشتدت الفتنة وقوي الإغراء ، وامتد الطريق ..

ولكن الصبر شاق ، ولا بد من الزاد والمدد المعين :

« واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً » .

هذا هو الزاد . اذكر اسم ربك في الصباح والمساء ، واسجد له بالليل وسبحه طويلاً .. إنه الاتصال بالمصدر الذي نزل عليك القرآن ، وكلفك الدعوة ، هو ينبوع القوة ومصدر الزاد والمدد .. الاتصال به ذكراً وعبادة ودعاءً وتسييحاً .. ليلاً طويلاً .. فالطريق طويل ، والعبء ثقل . ولا بد من الزاد الكثير والمدد الكبير . وهو هناك ، حيث يلتقي العبد بربه في خلوة وفي نجاء ، وفي تطلع وفي أنس ، تفيض منه الراحة على التعب والضنى ، وتفيض منه القوة على الضعف والقلّة . وحيث تنفض الروح عنها صغائر المشاعر والشواغل ، وترى

عظمة التكليف ، وضخامة الأمانة . فتستصغر ما لاقت وما تلاقي من أشواك الطريق !
 إن الله رحيم ، كلف عبده الدعوة ، ونزل عليه القرآن ، وعرف متاعب العبد ، وأشواك الطريق . فلم يدع
 نبيه - صلى الله عليه وسلم - بلا عون أو مدد . وهذا هو المدد الذي يعلم - سبحانه - أنه هو الزاد الحقيقي
 الصالح لهذه الرحلة المضنية في ذلك الطريق الشائك .. وهو هو زاد أصحاب الدعوة إلى الله في كل أرض
 وفي كل جيل . فهي دعوة واحدة . ملابساتها واحدة . وموقف الباطل منها واحد ، وأسباب هذا الموقف واحدة .
 ووسائل الباطل هي ذاتها ووسائله . فلتكن وسائل الحق هي الوسائل التي علم الله أنها وسائل هذا الطريق .
 والحقيقة التي ينبغي أن يعيش فيها أصحاب الدعوة إلى الله هي هذه الحقيقة التي لقنها الله لصاحب الدعوة
 الأولى - صلى الله عليه وسلم - هي أن التكليف بهذه الدعوة تنزل من عند الله . فهو صاحبها . وأن الحق الذي
 تنزلت به لا يمكن مزجه بالباطل الذي يدعو إليه الآثمون الكفار . فلا سبيل إلى التعاون بين حقها وباطلهم ،
 أو الالتقاء في منتصف الطريق بين القائم على الحق والقائمين على الباطل . فهما نهجان مختلفان ، وطريقان
 لا يلتقيان . فأما حين يغلب الباطل بقوته وجمعه على قلة المؤمنين وضعفهم ، لحكمة يراها الله .. فالصبر حتى
 يأتي الله بحكمه . والاستمداد من الله والاستعانة بالدعاء والتسبيح - ليلاً طويلاً - هي الزاد المضمون لهذا الطريق ..
 .. إنها حقيقة كبيرة لا بد أن يدركها ويعيش فيها رواد هذا الطريق ..

* * *

ثم يمضي السياق في تأكيد الاقتراق بين منهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومنهج الجاهلية . بما يقرره
 من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم ، ومن تفاهة اهتماماتهم ، وصغر تصوراتهم .. يقول :
 « إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً » ..

إن هؤلاء ، القريبى المطامح والاهتمامات ، الصغار المطالب والتصورات .. هؤلاء الصغار الزهيدى الذين
 يستغرقون في العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً . ثقيلاً بتبعاته . ثقيلاً بنتائجه . ثقيلاً بوزنه في ميزان الحقيقة ..
 إن هؤلاء لا يطاعون في شيء ولا يتبعون في طريق ؛ ولا يلتقون مع المؤمنين في هدف ولا غاية ، ولا يؤبه
 لما هم فيه من هذه العاجلة ، من ثراء وسلطان ومتاع ، فإنما هي العاجلة ، وإنما هو المتاع القليل ، وإنما هم
 الصغار الزهيدون !

ثم توحى الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم . فهم يختارون العاجلة ، ويذرون اليوم الثقيل الذي ينتظرهم
 هناك بالسلاسل والأغلال والسعير ، بعد الحساب العسير !
 فهذه الآية استطراد في تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين معه ، في مواجهة هؤلاء الذين
 أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون . إلى جانب أنها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل .

* * *

يتلو ذلك التهوين من أمرهم عند الله الذي أعطاهم ما هم فيه من قوة وبأس ، وهو قادر على الذهاب بهم
 وتبديل غيرهم منهم . ولكنه يتركهم لحكمة يجري بها قدره القديم :
 « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ، وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » ..

وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الذين يعتزون بقوتهم ، بمصدر هذه القوة ، بل مصدر وجودهم ابتداء . ثم تطمئن
 الذين آمنوا - وهم في حالة الضعف والقلة - إلى أن واهب القوة هو الذي ينتسبون إليه وينهضون بدعوته . كما

تقرر في نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة ، هي التي تجري وفقها الأحداث حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

« وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً » .. فهم لا يعجزون الله بقوتهم ، وهو خلقهم وأعطاهم إياها . وهو قادر على أن يخلق أمثالهم في مكانهم .. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنته وهو قضاؤه وحكمته .. ومن هنا تكون الآية استطراداً في تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه ؛ وتقريراً لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين .. كما أنها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة ، المغترين بقوة أسرهم ، ليذكروا نعمة الله ، التي يتبطرون بها فلا يشكرونها ؛ وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة . وهو الابتلاء الذي قرره لهم في مطلع السورة .

* * *

ثم يوقفهم إلى الفرصة المتاحة لهم ، والقرآن يعرض عليهم ، وهذه السورة منه تذكركمهم :
« إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » ..

ويعقب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة ، ورد كل شيء إليها ، ليكون الاتجاه الأخير إليها ، والاستسلام الأخير لحكمها ؛ وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها ، ومن حوله إلى حولها .. وهو الإسلام في صميمه وحقيقته :
« وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً » ..

ذلك كي تعلم قلوب البشر أن الله هو الفاعل المختار ، المتصرف القهار ، فتتعلم كيف تتجه إليه وتستسلم لقدره . وهذا هو مجال هذه الحقيقة الذي تجري فيه في مثل هذه النصوص . مع تقرير ما شاء الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل ؛ والاتجاه إلى هذا أو ذاك وفق مشيئة الله ، العليم بحقيقة القلوب ، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة ، وبيان الطريق ، وإرسال الرسل ، وتنزيل القرآن ... إلا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله ، الذي يلجأ إليه الملتجئ ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة ، فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة ، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره ، فلا هدى ولا ذكر ، ولا توفيق إلى خير ...
ومن ثم فهو :

« يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً » ..

فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد . ومن إرادتها أن يدخل في رحمته من يشاء ، ممن يلتجئون إليه ، يطلبون عوناً على الطاعة ، وتوفيقاً إلى الهدى .. « والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً » . وقد أملى لهم وأمهلهم ليتنبهوا إلى هذا العذاب الأليم !

وهذا الختام يلتئم مع المطلع ، ويصور نهاية الابتلاء ، الذي خلق الله له الإنسان من نقطة أمشاج ، ووهبه السمع والأبصار ، وهذه السبيل إما إلى جنة وإما إلى نار ..

* * *

(٧٧) سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ① فَالْعَصْفَاتِ ② وَالنَّشْرِ نَشْرًا ③ فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ④ فَالْمُلْقِيَتِ ⑤ ذِكْرًا ⑥ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ⑦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ⑧

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ⑨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ⑩ وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ⑪ وَإِذَا الْأَرْضُ أُقْتَتَتْ ⑫ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ⑬ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ⑭ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ⑮ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑯

أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ⑰ ثُمَّ نُنْعِيهِمُ الْآخِرِينَ ⑱ كَذَلِكَ نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ⑲ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑳

أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ㉑ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ㉒ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ㉓ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ㉔

وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㉕

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ㉖ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ㉗ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ㉘

وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㉙

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ㉚ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ㉛ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ㉜

إِنِّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَكَالٍ قَصِيرٍ ㉝ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صَفَرٌ ㉞ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㉟

هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ㊱ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ㊲ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㊳

هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ㊴ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ㊵ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فِكِيدُونِ ㊶ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ㊷

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَقَوَّكِهِمْ يَسْتَهْوُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾
كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَبُوا لَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

هذه السورة حادة الملامح ، عنيفة المشاهد ، شديدة الإيقاع ، كأنها سيات لا ذعة من نار . وهي تقف القلب ووقفه المحاكمة الرهيبة ، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات ، تنفذ إليه كالسهم المسنونة !

وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة ، وحقائق الكون والنفس ، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض . وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار : « ويل يومئذ للمكذبين » !
ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة . وهو لازمة الإيقاع فيها . وهو أنسب تعقيب للملامح الحادة ، ومشاهدها العنيفة ، وإيقاعها الشديد .

وهذه اللازمة تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « الرحمن » عقب عرض كل نعمة من نعم الله على العباد : « فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ » .. كما تذكرنا باللازمة المكررة في سورة « القمر » عقب كل حلقة من حلقات العذاب : « فكيف كان عذابي ونذر ؟ » .. وتكرارها هنا على هذا النحو يعطي السورة سمة خاصة ، وطعماً مميزاً .. حاداً ..

وتتوالى مقاطع السورة وفواصلها قصيرة سريعة عنيفة ، متعددة القوافي . كل مقطع بقافية . ويعود السياق أحياناً إلى بعض القوافي مرة بعد مرة . ويتلقى الحس هذه المقاطع والفواصل والقوافي بلذعها الخاص ، وعنفيها الخاص . واحدة إثر واحدة . وما يكاد يفيق من إيقاع حتى يعاجله إيقاع آخر ، بنفس العنف وبنفس الشدة .
ومنذ بداية السورة والجو عاصف ثائر بمشهد الرياح أو الملائكة : « والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأً فالفارقات فرقأً . فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً » .. وهو افتتاح يلتئم مع جو السورة وظلها تمام الالتئام .

وللقرآن في هذا الباب طريقة خاصة في اختيار إطار للمشاهد في بعض السور من لون هذه المشاهد وقوتها .. وهذا نموذج منها ، كما اختار إطاراً من الضحى والليل إذا سجي لمشاهد الرعاية والحنان والإيواء في « سورة الضحى » وإطاراً من العاديات الصاخبة المثيرة للغبار لمشاهد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور في سورة « والعاديات » .. وغيرها كثير^١ .

(١) يراجع فصل التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني .. « دار الشروق » .

وكل مقطع من مقاطع السورة العشرة بعد هذا المطلع ، يمثل جولة أو رحلة في عالم ، تتحول السورة معه إلى مساحات عريضة من التأملات والمشاعر والخواطر والتأثرات والاستجابات .. أعرض بكثير جداً من مساحة العبارات والكلمات ، وكأنما هذه سهام تشير إلى عوالم شتى !

والجولة الأولى تقع في مشاهد يوم الفصل . وهي تصور الانقلابات الكونية الهائلة في السماء والأرض ، وهي الموعد الذي تنتهي إليه الرسل بحسابها مع البشر : « فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة الثانية مع مصارع الغابرين ، وما تشير إليه من سنن الله في المكذبين : « ألم نهلك الأولين ؟ ثم تتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثالثة مع النشأة الأولى وما توحى به من تقدير وتديير : « ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلناه في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقد رنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الرابعة في الأرض التي تضم أبنائها إليها أحياء وأمواتاً ، وقد جهزت لهم بالاستقرار والماء المحيي : « ألم نجعل الأرض كفاتاً ؟ أحياء وأمواتاً ، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ؟ ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الخامسة مع المكذبين وما يلقيه يوم الفصل من عذاب وتأنيب : « انطلقوا إلى ظل ثلاث شعب ! لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والجولة السادسة والسابعة استطراد مع موقف المكذبين ، ومزيد من التأنيب والترذيل : « هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون . ويل يومئذ للمكذبين ! هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدهون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة الثامنة مع المتقين ، وما أعد لهم من نعم : « إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة التاسعة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التأنيب : « كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

والجولة العاشرة خطفة سريعة مع المكذبين في موقف التكذيب : « وإذا قيل لهم : اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

والخاتمة بعد هذه الجولات والاستعراضات والخزات والإيقاعات : « فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ » ..

* * *

وهكذا يمضي القلب مع سياق السورة السريع ، وكأنه يلهث مع إيقاعها وصورها ومشاهدها . فأما الحقائق الموضوعية في السورة فقد تكرر ورودها في سور القرآن – والمكية منها بوجه خاص – ولكن الحقائق القرآنية تعرض من جوانب متعددة ، وفي أضواء متعددة ، ويطعموم ومذاقات متعددة ، وفق الحالات النفسية التي تواجهها ، ووفق مداخل القلوب وأحوال النفوس التي يعلمها منزل هذا القرآن على رسوله ، فتبدو في كل حالة

جديدة ، لأنها تستجيش في النفس استجابات جديدة .

وفي هذه السورة جدة في مشاهد جهنم . وجدة في مواجهة المكذبين بهذه المشاهد . كما أن هناك جدة في أسلوب العرض والخطاب كله . ومن ثم تبرز شخصية خاصة للسورة . حادة الملامح . لاذعة المذاق . لاهثة الإيقاع !

والآن نستعرض السورة في سياقها القرآني بالتفصيل :

* * *

« والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأ . فالفارقات فرقأ . فالملقيات ذكراً : عذرا أو نذراً .. إن ما توعدون لواقع » ..

القضية قضية القيامة التي كان يعسر على المشركين تصور وقوعها ؛ والتي أكدها لهم القرآن الكريم بشتى المؤكدات في مواضع منه شتى . وكانت عنايته بتقرير هذه القضية في عقولهم ، وإقرار حقيقتها في قلوبهم مسألة ضرورة لا بد منها لبناء العقيدة في نفوسهم على أصولها ، ثم لتصحيح موازين القيم في حياتهم جميعاً . فالاعتقاد باليوم الآخر هو حجر الأساس في العقيدة السماوية ، كما أنه حجر الأساس في تصور الحياة الإنسانية . وإليه مرد كل شيء في هذه الحياة ، وتصحيح الموازين والقيم في كل شأن من شؤونها جميعاً .. ومن ثم اقتضت هذا الجهد الطويل الثابت لتقريرها في القلوب والعقول .

والله سبحانه يقسم في مطلع هذه السورة على أن هذا الوعد بالآخرة واقع . وصيغة القسم توحى ابتداء بأن ما يقسم الله به هو من مجاهيل الغيب ، وقواه المكنونة ، المؤثرة في هذا الكون وفي حياة البشر . وقد اختلف السلف في حقيقة مدلولها . فقال بعضهم : هي الرياح إطلاقاً . وقال بعضهم هي الملائكة إطلاقاً . وقال بعضهم : إن بعضها يعني الرياح وبعضها يعني الملائكة .. مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها . وهذا الغموض هو أنسب شيء للقسم بها على الأمر الغيبي المكنون في علم الله . وأنه واقع كما أن هذه المدلولات المغيبة واقعة ومؤثرة في حياة البشر .

« والمرسلات عرفاً » .. عن أبي هريرة أنها الملائكة . وروي مثل هذا عن مسروق وأبي الضحى ومجاهد في إحدى الروايات ، والسدي والربيع بن أنس ، وأبي صالح في رواية (والمعنى حينئذ هو القسم بالملائكة المرسله أرسالاً متوالية ، كأنها عرف الفرس في إرسالها وتتابعها) .

وهكذا قال أبو صالح في العاصفات والناشرات والفارقات والملقيات .. إنها الملائكة .

وروي عن ابن مسعود .. المرسلات عرفاً . قال : الريح . (والمعنى على هذا أنها المرسله متوالية كعرف الفرس في امتدادها وتتابعها) وكذا قال في العاصفات عصفاً والناشرات نشرأ . وكذلك قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وأبو صالح في رواية .

وتوقف ابن جرير في المرسلات عرفاً هل هي الملائكة أو الرياح . وقطع بأن العاصفات هي الرياح . وكذلك الناشرات التي تنشر السحاب في آفاق السماء .

وعن ابن مسعود : « فالفارقات فرقأ فالملقيات ذكراً ، عذراً أو نذراً » يعني الملائكة . وكذا قال : ابن عباس ومسروق ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس والسدي والثوري بلا خلاف . فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل . وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق وإنذار .

ونحن نلمح أن التحويل بالتجهيل ملحوظ في هذه الأمور المقسم بها كالشأن في الداريات ذرواً . وفي النازعات غرقاً .. وأن هذا الخلاف في شأنها دليل على إبهامها . وأن هذا الإبهام عنصر أصيل فيها في موضعها هذا . وأن الإيهام المجمل في التلويع بها هو أظهر شيء في هذا المقام . وأنها هي بذاتها تحدث هزة شعورية بإيحاء جرسها وتتابع إيقاعها ، والظلال المباشرة التي تلقىها . وهذه الانتفاضة والهزة اللتان تحدثهما في النفس هما أليق شيء بموضوع السورة واتجاهها .. وكل مقطع من مقاطع السورة بعد ذلك هو هزة ، كالذي يمسك بخناق أحد فيزهزها ، وهو يستجوبه عن ذنب ، أو عن آية ظاهرة ينكرها ، ثم يطلقه على الوعيد والتهديد : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

* * *

بعد ذلك تهيء الهزة العنيفة بمشاهد الكون المتقلبة في يوم الفصل الذي هو الموعد المضروب للرسل لعرض حصيلة الرسالة في البشرية جميعاً :

« فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت ، وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين » ..

يوم تطمس النجوم فيذهب نورها ، وتفرج السماء أي تشق ، وتنسف الجبال فهي هباء .. وقد وردت مشاهد هذا الانقلاب الكوني في سور شتى من القرآن . وكلها توحى بانفراط عقد هذا الكون المنظور ، انفراطاً مصحوباً بقرعة ودوي وانفجارات هائلة ، لا عهد للناس بها فيما يرونه من الأحداث الصغيرة التي يستهولونها ويروعون بها من أمثال الزلازل والبراكين والصواعق .. وما إليها .. فهذه أشبه شيء - حين تقاس بأهوال يوم الفصل - بلعب الأطفال التي يفرقونها في الأعياد ، حين تقاس إلى القنابل الذرية والهيدروجينية ! وليس هذا سوى مثل للتقريب . وإلا فالهول الذي ينشأ من تفجر هذا الكون وتناثره على هذا النحو أكبر من التصور البشري على الإطلاق !

وإلى جانب هذا الهول في مشاهد الكون ، تعرض السورة أمراً عظيماً آخر مؤجلاً إلى هذا اليوم .. فهو موعد الرسل لعرض حصيلة الدعوة . دعوة الله في الأرض طوال الأجيال .. فالرسل قد أقتت لهذا اليوم وضرب لها الموعد هناك ، لتقديم الحساب الختامي عن ذلك الأمر العظيم الذي يرجح السماوات والأرض والجبال . للفصل في جميع القضايا المعلقة في الحياة الأرضية ، والقضاء بحكم الله فيها ، وإعلان الكلمة الأخيرة التي تنتهي إليها الأجيال والقرون ..

وفي التعبير تهويل لهذا الأمر العظيم ، يوحي بضخامة حقيقته حتى لتتجاوز مدى الإدراك :

« وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ » ..

وظاهر من أسلوب التعبير أنه يتحدث عن أمر هائل جليل . فإذا وصل هذا الإيقاع إلى الحس بروعته وهوله ، الذي يرجح هول النجوم المطموسة والسماء المشقوقة والجبال المنسوفة . ألقى بالإيقاع الرعيب ، والإنذار المخيف :

« ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

وهذا الإنذار من العزيز الجبار ، في مواجهة الهول السائد في الكون ، والجلال المائل في مجلس الفصل بمحضر الرسل ، وهم يقدمون الحساب الأخير في الموعد المضروب لهم .. هذا الإنذار في هذا الأوان له طعمه وله وزنه وله وقعه المزلزل الرهيب ..

* * *

ويعود بهم من هذه الجولة في أهوال يوم الفصل ، إلى جولة في مصارع الغابرين : الأولين والآخرين ..
« ألم نهلك الأولين ؟ ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ! » .

هكذا في ضربة واحدة تتكشف مصارع الأولين وهم حشود . وفي ضربة واحدة تتكشف مصارع الآخرين وهم حشود . وعلى مد البصر تبدى المصارع والأشلاء . وأمامها ينطلق الوعيد ناطقاً بسنة الله في الوجود :
« كذلك نفعل بالمجرمين ! فهي السنة الماضية التي لا تحيد .. وبينما المجرمون يتوقعون مصرعاً كمصارع الأولين والآخرين ، يحيى الدعاء بالهلاك ، ويحيى الوعيد بالثبور : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

* * *

ومن الجولة في المصارع والأشلاء ، إلى جولة في الإنشاء والإحياء ، مع التقدير والتدبير ، للصغير ولل كبير :
« ألم نخلقكم من ماء مهين ؟ فجعلنا في قرار مكين ؟ إلى قدر معلوم ؟ فقدركم فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين » ..

وهي رحلة مع النشأة الجنينية طويلة عجيبة ، يحملها هنا في لمسات معدودة . ماء مهين . يودع في قرار الرحم المكين . إلى قدر معلوم وأجل مرسوم . وأمام التقدير الواضح في تلك النشأة ومراحلها الدقيقة يحيى التعقيب الموحى بالحكمة العليا التي تتولى كل شيء بقدره في إحكام مبارك جميل : « فقدركم فنعم القادرون » وأمام التقدير الذي لا يفلت منه شيء يحيى الوعيد المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين » ..

* * *

ثم جولة في هذه الأرض ، وتقدير الله فيها لحياة البشر ، وإيداعها الخصائص الميسرة لهذه الحياة :
« ألم نجعل الأرض كفاتاً ؟ أحياء وأمواتاً ؟ وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراثاً ؟ ويل يومئذ للمكذبين » ..

ألم نجعل الأرض كفاتاً تحتضن بنينا أحياء وأمواتاً . « وجعلنا فيها رواسي شامخات » ثابتات سامقات ، تتجمع على قممها السحب ، وتحدّر عنها مساقط الماء العذب . أف يكون هذا إلا عن قدرة وتقدير ، وحكمة وتدبير ؟ أفبعد هذا يكذب المكذبون ؟ : « ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

* * *

وعندئذ - بعد عرض تلك المشاهد ، وامتلاء الحس بالتأثرات التي تسكبها في المشاعر - ينتقل السياق فجأة إلى موقف الحساب والجزاء . فنسمع الأمر الرهيب للمجرمين المكذبين ، ليأخذوا طريقهم إلى العذاب الذي كانوا به يكذبون ، في تأنيب مرير وإيلام عسير :

« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

اذهبوا لطلباء بعد الارتهان والاحتباس في يوم الفصل الطويل . ولكن إلى أين ؟ إنه انطلاق خير منه الارتهان ..
« انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » .. فهذا هو ذا أمامكم حاضر مشهود . « انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب » .. إنه ظل لدخان جهنم تمتد ألسنته في ثلاث شعب . ولكنه ظل خير منه الوهج : « لا ظليل ولا يغني من اللهب » .. إنه ظل خائق حار لافح . وتسميته بالظل ليست إلا امتداداً للتهكم ، وتمنية بالظل تتكشف عن حر جهنم ! انطلقوا . وإنكم لتعرفون إلى أين ! وتعرفونها هذه التي تنطلقون إليها . فلا حاجة إلى ذكر اسمها . « إنها

ترمي بشرر كالقصر . كأنه جمالة صفر» .. فالشرر يتتابع في حجم البيت من الحجر . (وقد كان العرب يطلقون كلمة القصر على كل بيت من حجر وليس من الضروري أن يكون في ضخامة ما نعهد الآن من قصور) فإذا تتابع بدا كأنه جمال صفر ترتع هنا وهناك ! هذا هو الشرر فكيف بالنار التي ينطلق منها الشرر ؟ ! وفي اللحظة التي يستغرق فيها الحس بهذا الهول ، يجيء التعقيب المعهود : « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

* * *

ثم يأخذ في استكمال المشهد بعد عرض الهول المادي في صورة جهنم ، بعرض الهول النفسي الذي يفرض الصمت والكظم ..

« هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون » ..

فالهول هنا يكمن في الصمت الرهيب ، والكبت الرعب ، والخشوع المهيب ، الذي لا يتخلله كلام ولا اعتذار . فقد انقضى وقت الجدل ومضى وقت الاعتذار : « ويل يومئذ للمكذبين ! » .. وفي مشاهد أخرى يذكر حسرتهم وندامتهم وحلفهم ومعاذيرهم .. واليوم طويل يكون فيه هذا ويكون فيه ذاك - على ما قال ابن عباس رضي الله عنهما - ولكنه هنا يثبت هذه اللقطة الصامتة الرهيبة ، لمناسبة في الموقف وظل في السياق .

* * *

« هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيّدون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

هذا يوم الفصل لا يوم الاعتذار . وقد جمعناكم والأولين أجمعين . فإن كان لكم تدبير فدبروه ، وإن كان لكم قدرة على شيء فافعلوه ! ولا تدبير ولا قدرة . إنما هو الصمت الكظيم ، على التأنيب الأليم .. « ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

* * *

فإذا انتهى مشهد التأنيب للمجرمين ، اتجه الخطاب بالتكريم للمتقين :

« إن المتقين في ظلال وعيون ، وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

إن المتقين في ظلال .. ظلال حقيقية في هذه المرة ! لا ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب ! وفي عيون من ماء لا في دخان خائق يبعث الظماً الحرور : « وفواكه مما يشتهون » .. وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع : « كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين » وبالطف هذا التكريم من العلي العظيم « ويل يومئذ للمكذبين ! » .. يقابل هذا النعيم والتكريم !

* * *

وهنا تعرض في خطفة سريعة رقعة الحياة الدنيا التي طويت في السياق . فإذا نحن في الأرض مرة أخرى . وإذا التبكيت والترذيل يوجهان للمجرمين !

« كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..

وهكذا تختلط الدنيا بالآخرة في فقرتين متواليتين ، وفي مشهدين معروضين كأنهما حاضران في أوان ، وإن كانت تفرق بينهما أزمان وأزمان . فبينما كان الخطاب موجهاً للمتقين في الآخرة ، إذا هو موجه للمجرمين في

الجزء التاسع والعشرون

الدنيا . وكأنما لي قال لهم : اشهدوا الفارق بين الموقفين .. وكلوا وتمتعوا قليلاً في هذه الدار ، لتحرموا وتعذبوا طويلاً في تلك الدار .. « ويل يومئذ للمكذبين ! » .

* * *

ثم يتحدث معجباً من أمر القوم وهم يدعون إلى الهدى فلا يستجيبون :
« وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . ويل يومئذ للمكذبين ! » ..
مع أنهم يبصرون هذا التبصير ، وينذرون هذا النذير ..
« فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ » ..

والذي لا يؤمن بهذا الحديث الذي يهز الرواسي ، وبهذه الهزات التي تزلزل الجبال ، لا يؤمن بحديث بعده
أبداً . إنما هو الشقاء والتعاسة والمصير البائس ، والويل المدخر لهذا الشقي المتعوس !

* * *

إن السورة بذاتها ، ببنائها التعبيري ، وإيقاعها الموسيقي ، ومشاهدها العنيفة ، ولدعها الحاد .. إنها بذاتها
حملة لا يثبت لها قلب ، ولا يتأسك لها كيان .
فسبحان الذي نزل القرآن ، وأودعه هذا السلطان !

* * *

انتهى الجزء التاسع والعشرون

ويليه الجزء الثلاثون
مبدءاً بسورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِنْ سُورَةِ النَّبَأِ

إِلَى سُورَةِ النَّاسِ

الجزء الثالثون

(٧٨) سُورَةُ النَّبَاِ مَكِّيَّةٌ وَاَيَاتُهَا اَرْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْتَنَّا أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغْيِينِ مَكَابًا ﴿٢٢﴾ لِّئَلَّا يَدْخُلُوا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِنْبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَاقًا وَاعْتَبَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴿٣٩﴾ فَمَن شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَكَابًا ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكَ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْعَرَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبَسْنِي كُنتُ زُرَابًا ﴿٤١﴾

هذا الجزء كله - ومنه هذه السورة - ذو طابع غالب .. سوره مكية فيما عدا سورتى « البينة » و « النصر » وكلها من قصار السور على تفاوت في القصر . والأهم من هذا هو طابعها الخاص الذي يجعلها وحدة - على وجه التقريب - في موضوعها واتجاهها ، وإيقاعها ، وصورها وظلالها ، وأسلوبها العام .

إنها طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيفة قوية عالية . وصيحات . صيحات بنوم غارقين في النوم ! نومهم ثقيل ! أو بسكارى مخمورين ثقل حسهم الخمار ! أو بلاهين في سامر راقصين في ضجة وتصدية ومكاء ! تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات المنبثقة من سور هذا الجزء كله بإيقاع واحد ونذير واحد : اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا .. إن هنالك إلهاً . وإن هنالك تديراً . وإن هنالك تقديرًا . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعه . وإن هنالك حساباً . وإن هنالك جزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً . ونعياً كبيراً .. اصحوا . استيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا ... وهكذا مرة أخرى . وثالثة ورابعة . وخامسة ... وعاشرة ... ومع الطرقات والصيحات يدق قوة تهز النائمين المخمورين السادرين هزاً عنيفاً .. وهم كأنما يفتحون أعينهم وينظرون في خمار مرة ، ثم يعودون لما كانوا فيه ! فتعود اليد القوية تهزهم هزاً عنيفاً ؛ ويعود الصوت العالي يصيح بهم من جديد ؛ وتعود الطرقات العنيفة على الأسماع والقلوب .. وأحياناً يتيقظ النوام ليقولوا : في إصرار وعناد : لا .. ثم يحصبون الصائح المنذر المنبه بالأحجار والبذاء .. ثم يعودون لما كانوا فيه . فيعود إلى هزهم من جديد .

هكذا خيل إلي وأنا أقرأ هذا الجزء . وأحس تركيزه على حقائق معينة قليلة العدد ، عظيمة القدر ، ثقيلة الوزن . وعلى إيقاعات معينة يلمس بها أوتار القلوب . وعلى مشاهد معينة في الكون والنفس . وعلى أحداث معينة في يوم الفصل . وأرى تكرارها مع تنوعها . هذا التكرار الموحى بأمر وقصد !

وهكذا يحس القارئ وهو يقرأ : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ... » .. « فلينظر الإنسان مم خلق ؟ ... » .. « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ وإلى السماء كيف رفعت ؟ وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » .

وهو يقرأ : « أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ؟ رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم » .. « ألم نجعل الأرض مهاداً ؟ والجبال أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً ؟ وجعلنا نومكم سباتاً ؟ وجعلنا الليل لباساً ؟ وجعلنا النهار معاشاً ؟ وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً ؟ وجعلنا سراجاً وهاجاً ؟ وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً ؟ لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألفافاً ؟ » « فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم » ..

وهو يقرأ « يا أيها الإنسان . ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك ؟ » ..

« سبح اسم ربك الأعلى ، الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » .. « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » ..

وهو يقرأ : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموعودة سئلت بأي ذنب قتلت ؟

وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلقت . علمت نفس ما أحضرت .. « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت » .. « إذا السماء انشقت . وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت ... » .. « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها .. يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » ..

وهو يقرأ اللمحات والسبحات الكونية في مفاتيح عدد من السور وفي ثناياها : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » .. « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق » .. « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر » .. « والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فأنهها فجورها وتقواها » .. « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى » .. « والضحى . والليل إذا سجي » .. الخ .. الخ

وفي الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان . وعلى مشاهد هذا الكون وآياته في كتابه المفتوح . وعلى مشاهد القيامة العنيفة الطامة الصاخة القارعة الغاشية . ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في صور تفرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها .. واتخاذها جميعاً دلائل على الخلق والتدبير والنشأة الأخرى وموازينها الحاسمة . مع التقريع بها والتخويف والتحذير .. وأحياناً تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين . والأمثلة على هذا هي الجزء كله . ولكننا نشير إلى بعض النماذج في هذا التقديم :

هذه السورة - سورة النبأ - كلها نموذج كامل لهذا التركيز على هذه الحقائق والمشاهد . ومثلها سورة « النازعات » وسورة « عبس » تحتوي مقدمتها إشارة إلى حادث معين من حوادث الدعوة .. وبقيتها كلها حديث عن نشأة الحياة الإنسانية والحياة النباتية ثم عن الصاخة : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه ، وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قفرة » . وسورة « التكويد » وهي تصور مشاهد الانقلاب الكوني الهائلة في ذلك اليوم ، مع عرض مشاهد كونية موحية في صدد القسم على حقيقة الوحي وصدق الرسول . وسورة « الانفطار » كذلك في عرض مشاهد الانقلاب مع مشاهد النعم والعذاب ، وهز الضمير البشري أمام هذه تلك : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ... الخ » وسورة « الانشقاق » وهي تعرض مشاهد الانقلاب الكوني ومشاهد النعم والعذاب .. وسورة « البروج » وهي تلقي إيقاعات سريعة حول مشاهد الكون ومشاهد اليوم بصدد إشارة إلى تعذيب الكفار لجماعة من المؤمنين في الدنيا بالنار . وعذاب الله لأولئك الكفار في الآخرة بالنار . وهو أشد وأنكى ..

وسورة « الطارق » .. وهي تعرض مشاهد كونية مع نشأة الإنسان ونشأة النبات للقسم بالجميع : « إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » .. وسورة « الأعلى » وتتحدث عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية ، وإخراج المرعى وأطواره تمهيداً للحديث عن الذكر والآخرة والحساب والجزاء .. وسورة « الغاشية » .. وهي تصوير لمشاهد النعم والعذاب . ثم توجيه إلى خلق الإبل والسماء والأرض والجبال .. وهكذا .. وهكذا .. إلى نهاية الجزء باستثناء سور قليلة تتحدث عن حقائق العقيدة ومنهج الإيمان . كسورة الإخلاص . وسورة الكافرون .

وسورة الماعون . وسورة العصر . وسورة القدر . وسورة النصر . أو تسري عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتواسيه وتوجهه إلى الاستعاذة بربه من كل شر ، كسور الضحى . والانشراح . والكوثر . والفلق . والناس .. وهي سور قليلة على كل حال ..

* * *

وهناك ظاهرة أخرى في الأداء التعبيري لهذا الجزء . هناك أناقة واضحة في التعبير ، مع اللمسات المقصودة لمواطن الجمال في الوجود والنفوس ، وافتنان مبدع في الصور والظلال والإيقاع الموسيقي والقوافي والفواصل ، تتناسق كلها مع طبيعته في خطاب الغافلين النائمين السادرين ، لإيقاظهم واجتذاب حسهم وحواسهم بشتى الألوان وشتى الإيقاعات وشتى المؤثرات .. يتجلى هذا كله بصورة واضحة في مثل تعبيره اللطيف عن النجوم التي تخس وتتوارى كالظباء في كناسها وتبرز ، وعن الليل وكأنه حي يعس في الظلام ، والصبح وكأنه حي يتنفس بالنور : « فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ؛ والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس » وفي عرضه لمشاهد الغروب والليل والقمر : « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق » . أو لمشاهد الفجر والليل وهو يتمشى ويسري : « والفجر . وليال عشر . والشفق والوتر . والليل إذا يسر » . « والضحى . والليل إذا سجي » . وفي خطابه الموحى للقلب البشري : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ؟ الذي خلقك فسواك فعدلك .. » وفي وصف الجنة : « وجوه يومئذ ناعمة ، لسهبها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ... » ووصف النار : « وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هي ؟ نار حامية ! » .. والأناقة في التعبير واضحة وضوح القصد في اللمسات الجمالية لمشاهد الكون وخوارج النفس .

والعدول أحياناً عن اللفظ المباشر إلى الكناية ، وعن اللفظ القريب إلى الاشتقاق البعيد ، لتحقيق التنعيم المقصود ، مما يؤكد هذه اللفتة خلال الجزء كله على وجه التقريب ..

وهذه السورة نموذج لاتجاه هذا الجزء بموضوعاته وحقائقه وإيقاعاته ومشاهده وصوره وظلاله وموسيقاه ولمساته في الكون والنفس ، والدنيا والآخرة ؛ واختيار الألفاظ والعبارات لتوقع أشد إيقاعاتها أثراً في الحس والضمير . وهي تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخم الحقيقة التي يختلفون عليها ، وهي أمر عظيم لا خفاء فيه ، ولا شبهة ؛ ويعقب على هذا تهديدهم يوم يعلمون حقيقته : « عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ! » ..

ومن ثم يعدل السياق عن المعنى في الحديث عن هذا النبأ ويدعه لحينه ، ويلفتهم إلى ما هو واقع بين أيديهم وحولهم ، في ذوات أنفسهم وفي الكون حولهم من أمر عظيم ، يدل على ما وراءه ويوحى بما سيتلوه : « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً ؟ وجعلنا نومكم سباتاً ؟ وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً ؟ ونبتنا فوقكم سبعاً شداداً ؟ وجعلنا سراجاً وهاجاً ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ؟ لنخرج به حباً ونباتاً وجنات ألقافاً ؟ » .

ومن هذا الحشد من الحقائق والمشاهد والصور والإيقاعات يعود بهم إلى ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ، والذي هددهم به يوم يعلمون ! ليقول لهم ما هو ؟ وكيف يكون : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيرت الجبال فكانت سراباً » ..

ثم مشهد العذاب بكل قوته وعنفه : « إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا بين فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً . إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقاً . إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ،

وكل شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ..
ومشهد النعم كذلك وهو يتدفق تدفقاً : « إن للمتقين مفازاً : حدائق وأعناناً ، وكواعب أتراباً ، وكأساً دهاقاً ،
لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاء من ربك عطاء حساباً » .

وتحتم السورة بإيقاع جليل في حقيقته وفي المشهد الذي يعرض فيه . ويأنداز وتذكر قبل أن يجيء اليوم الذي
يكون فيه هذا المشهد الجليل : « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً . يوم يقوم الروح
والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً . ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً .
إنا أنذرناكم عذاباً قريباً . يوم ينظر المرء ما قدمت يده ، ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » ..
ذلك هو النبأ العظيم . الذي يتساءلون عنه . وذلك ما سيكون يوم يعلمون ذلك النبأ العظيم !

* * *

« عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون . كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون » .. مطلع
فيه استنكار لتساؤل المتسائلين ، وفيه عجب أن يكون هذا الأمر موضع تساؤل . وقد كانوا يتساءلون عن يوم
البعث ونبأ القيامة . وكان هو الأمر الذي يجادلون فيه أشد الجدل ، ولا يكادون يتصورون وقوعه ، وهو أولى
شيء بأن يكون !

« عم يتساءلون ؟ » .. وعن أي شيء يتحدثون ؟ ثم يجيب . فلم يكن السؤال بقصد معرفة الجواب منهم .
إنما كان للتعجب من حالهم وتوجيه النظر إلى غرابة تساؤلهم ، بكشف الأمر الذي يتساءلون عنه وبيان حقيقته
وطبيعته :

« عن النبأ العظيم ، الذي هم فيه مختلفون » .. ولم يحدد ما يتساءلون عنه بلفظه ، إنما ذكره بوصفه .. النبأ
العظيم .. استطراداً في أسلوب التعجب والتضخيم .. وكان الخلاف على اليوم بين الذين آمنوا به والذين كفروا
بوقوعه . أما التساؤل فكان من هؤلاء وحدهم .

ثم لا يجيب عن التساؤل ، ولا يدلي بحقيقة النبأ المسؤول عنه . فيتركه بوصفه .. العظيم .. وينتقل إلى التلويح
بالتهديد الملفوف ، وهو أوقع من الجواب المباشر ، وأعمق في التخويف :

« كلا ! سيعلمون . ثم كلا ! سيعلمون » .. ولفظ كلا ، يقال في الردع والزجر فهو أنسب هنا للظل الذي
يراد إلقاؤه . وتكراره وتكرار الجملة كلها فيه من التهديد ما فيه .

* * *

ثم يبعد في ظاهر الأمر عن موضوع ذلك النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون . ليلتي به بعد قليل . يبعد في
جولة قريبة في هذا الكون المنظور مع حشد من الكائنات والظواهر والحقائق والمشاهد ، تهز الكيان حين يتدبرها
الجنان :

« ألم نجعل الأرض مهاداً ؟ والجبال أوتاداً ؟ وخلقناكم أزواجاً ؟ وجعلنا نومكم سباتاً ؟ وجعلنا الليل لباساً ؟
وجعلنا النهار معاشاً ؟ وبنينا فوقكم سبْعاً شداداً ؟ وجعلنا سراجاً وهاجاً ؟ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ؟ لنخرج
به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ؟ » ..

وهذه الجولة التي تنتقل في أرجاء هذا الكون الواسع العريض ، مع هذا الحشد الهائل من الصور والمشاهد ،
تذكر في حيز ضيق مكتنز من الألفاظ والعبارات ، مما يجعل إيقاعها في الحس حاداً ثقيلاً نفاذاً ، كأنه المطارق

المتوالية ، بلا فتور ولا انقطاع ! وصيغة الاستفهام الموجهة إلى المخاطبين - وهي في اللغة تفيد التقرير - صيغة مقصودة هنا ، وكأنما هي يد قوية تهز الغافلين ، وهي توجه أنظارهم وقلوبهم إلى هذا الحشد من الخلائق والظواهر التي تشي بما وراءها من التدبير والتقدير ، والقدرة على الإنشاء والإعادة ، والحكمة التي لا تدع أمر الخلائق سدى بلا حساب ولا جزاء .. ومن هنا تلتقي بالنبا العظيم الذي هم فيه مختلفون !

واللمسة الأولى في هذه الجولة عن الأرض والجبال :

« ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ؟ » ..

والمهاد : المهد للسير .. والمهاد اللين كالمهد .. وكلاهما متقارب . وهي حقيقة محسوسة للإنسان في أي طور من أطوار حضارته ومعرفته . فلا تحتاج إلى علم غزير لإدراكها في صورتها الواقعية . وكون الجبال أوتاداً ظاهرة تراها العين كذلك حتى من الإنسان البدائي ؛ وهذه وتلك ذات وقع في الحس حين توجه إليها النفس .

غير أن هذه الحقيقة أكبر وأوسع مدى مما يحسها الإنسان البدائي لأول وهلة بالحس المجرد . وكلما ارتقت معارف الإنسان وازدادت معرفته بطبيعة هذا الكون وأطواره ، كبرت هذه الحقيقة في نفسه ؛ وأدرك من ورائها التقدير الإلهي العظيم والتدبير الدقيق الحكيم ، والتنسيق بين أفراد هذا الوجود وحاجاتهم ؛ وإعداد هذه الأرض لتلقي الحياة الإنسانية وحضانتها ؛ وإعداد هذا الإنسان للملاءمة مع البيئة والتفاهم معها .

وجعل الأرض مهاداً للحياة - وللحياة الإنسانية بوجه خاص - شاهد لا يمارى في شهادته بوجود العقل المدبر من وراء هذا الوجود الظاهر . فاختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الأرض هكذا بجميع ظروفها . أو اختلال نسبة واحدة من النسب الملحوظة في خلق الحياة لتعيش في الأرض .. الاختلال هنا أو هناك لا يجعل الأرض مهاداً ؛ ولا يبيقي هذه الحقيقة التي يشير إليها القرآن هذه الإشارة المجملة ، ليدركها كل إنسان وفق درجة معرفته ومداركه ..

وجعل الجبال أوتاداً .. يدركه الإنسان من الناحية الشكلية بنظره المجرد ، فهي أشبه شيء بأوتاد الخيمة التي تشد إليها . أما حقيقتها فتتلقاها من القرآن ، ندرك منه أنها تثبت الأرض وتحفظ توازنها .. وقد يكون هذا لأنها تعادل بين نسب الأغوار في البحار ونسب المرتفعات في الجبال .. وقد يكون لأنها تعادل بين التقلصات الجوفية للأرض والتقلصات السطحية ، وقد يكون لأنها تثقل الأرض في نقط معينة فلا تتمد بفعل الزلازل والبراكين والاهتزازات الجوفية .. وقد يكون لسبب آخر لم يكشف عنه بعد .. وكمن من قوانين وحقائق مجهولة أشار إليها القرآن الكريم . ثم عرف البشر طرفاً منها بعد مئات السنين !

واللمسة الثانية في ذوات النفوس ، في نواحي وحقائق شتى :

« وخلقناكم أزواجاً » ..

وهي ظاهرة كذلك ملحوظة يدركها كل إنسان ببسر وبساطة .. فقد خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى ، وجعل حياة هذا الجنس وامتداده قائمة على اختلاف الزوجين والتقاءهما . وكل إنسان يدرك هذه الظاهرة ، ويحس ما وراءها من راحة ولذة ومتاع وتجدد بدون حاجة إلى علم غزير . ومن ثم يخاطب بها القرآن الإنسان في أية بيئة فيدركها ويتأثر بها حين يتوجه تأمله إليها ، ويحس ما فيها من قصد ومن تنسيق وتدبير .

ووراء هذا الشعور المبهم بقيمة هذه الحقيقة وعمقها ، تأملات أخرى حين يرتقي الإنسان في المعرفة وفي الشعور أيضاً .. هنالك التأمل في القدرة المدبرة التي تجعل من نقطة ذكراً ، وتجعل من نقطة أنثى ، بدون مميز

ظاهر في هذه النطفة أو تلك ، يجعل هذه تسلك طريقها لتكون ذكراً ، وهذه تسلك طريقها لتكون أنثى .. اللهم إلا إرادة القدرة الخالقة وتديرها الخفي ، وتوجيهها اللطيف ، وإيداعها الخصائص التي تريدها هي هذه النطفة وتلك ، لتخلق منهما زوجين تنمو بهما الحياة وترقى !
« وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً » ..

وكان من تدبير الله للبشر أن جعل النوم سباتاً يدركهم فيقطعهم عن الإدراك والنشاط ؛ ويجعلهم في حالة لا هي موت ولا هي حياة ، تتكفل بإراحة أجسادهم وأعصابهم وتعويضها عن الجهد الذي بذلته في حالة الصحو والإجهاد والانشغال بأمور الحياة .. وكل هذا يتم بطريقة عجيبة لا يدرك الإنسان كنهها ، ولا نصيب لإرادته فيها ؛ ولا يمكن أن يعرف كيف تتم في كيانه . فهو في حالة الصحو لا يعرف كيف يكون وهو في حالة النوم . وهو في حالة النوم لا يدرك هذه الحالة ولا يقدر على ملاحظتها ! وهي سر من أسرار تكوين الحي لا يعلمه إلا من خلق هذا الحي وأودعه ذلك السر ؛ وجعل حياته متوقفة عليه . فما من حي يطيق أن يظل من غير نوم إلا فترة محدودة . فإذا أجبر إجباراً بوسائل خارجة عن ذاته كي يظل مستيقظاً فإنه يهلك قطعاً .

وفي النوم أسرار غير تلبية حاجة الجسد والأعصاب .. إنه هدنة الروح من صراع الحياة العنيف ، هدنة تلم بالفرد فيلقي سلاحه وجنته - طائعاً أو غير طائع - ويستسلم لفترة من السلام الآمن ، السلام الذي يحتاجه الفرد حاجته إلى الطعام والشراب . ويقع ما يشبه المعجزات في بعض الحالات حيث يلم النعاس بالأجفان ، والروح مثقل ، والأعصاب مكدودة ، والنفس مترعجة ، والقلب مروع . وكأنما هذا النعاس - وأحياناً لا يزيد على لحظات - انقلاب تام في كيان هذا الفرد . وتجديد كامل لا لقواه بل له هو ذاته ، وكأنما هو كائن حين يصحو جديد .. ولقد وقعت هذه المعجزة بشكل واضح للمسلمين المجهودين في غزوة بدر وفي غزوة أحد ، وامتن الله عليهم بها . وهو يقول : « إذ يغشيكم النعاس أمانة منه » .. « ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً يغشى طائفة منكم » .. كما وقعت للكثيرين في حالات مشابهة !

فهذا السبات : أي الانقطاع عن الإدراك والنشاط بالنوم ضرورة من ضرورات تكوين الحي ؛ وسر من أسرار القدرة الخالقة ؛ ونعمة من نعم الله لا يملك إعطاءها إلا إياه . وتوجيه النظر إليها على هذا النحو القرآني ينبه القلب إلى خصائص ذاته ، وإلى اليد التي أودعتها كيانه ، ويلمسه لمسة تثير التأمل والتدبر والتأثر .

وكان من تدبير الله كذلك أن جعل حركة الكون موافقة لحركة الأحياء . وكما أودع الإنسان سر النوم والسبات ، بعد العمل والنشاط ، فكذلك أودع الكون ظاهرة الليل ليكون لباساً ساتراً يتم فيه السبات والانزواء . وظاهرة النهار ليكون معاشاً تتم فيه الحركة والنشاط .. بهذا توافق خلق الله وتناسق . وكان هذا العالم بيئة مناسبة للأحياء . تلبي ما ركب فيهم من خصائص . وكان الأحياء مزودين بالتركيب المتفق في حركته وحاجاته مع ما هو مودع في الكون من خصائص وموافقات . وخرج هذا وهذا من يد القدرة المبدعة المدبرة متسقاً أدق اتساق !

واللمسة الثالثة في خلق السماء متناسقة مع الأرض والأحياء :

« وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافاً » ..

والسبع الشداد التي بناها الله فوق أهل الأرض هي السماوات السبع ، وهي الطرائق السبع في موضع آخر .. والمقصود بها على وجه التحديد يعلمه الله .. فقد تكون سبع مجموعات من المجرات - وهي مجموعات من النجوم

قد تبلغ الواحدة منها مائة مليون نجم - وتكون السبع المجرات هذه هي التي لها علاقة بأرضنا أو بمجموعتنا الشمسية .. وقد تكون غير هذه وتلك مما يعلمه الله من تركيب هذا الكون ، الذي لا يعلم الإنسان عنه إلا القليل . إنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين ، قوية البناء ، مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانشاء . وهو ما نراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيذكره كل إنسان .. كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان . ومن ثم يذكر في معرض تدبير الله وتقديره لحياة الأرض والإنسان . يدل على هذا ما بعده : « وجعلنا سراجاً وهاجاً » .. وهو الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التي تعيش عليها الأرض وما فيها من الأحياء . والتي تؤثر كذلك في تكوين السحاب بتبخير المياه من المحيط الواسع في الأرض ورفعها إلى طبقات الجو العليا وهي المعصرات : « وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً » .. حين تعصر فتخر ويتساقط ما فيها من الماء . ومن يعصرها ؟ قد تكون هي الرياح . وقد يكون هو التفريغ الكهربائي في طبقات الجو . ومن وراء هذه وتلك يد القدرة التي تودع الكون هذه المؤثرات ! وفي السراج توقد حرارة وضوء .. وهو ما يتوافر في الشمس . فاختيار كلمة « سراج » دقيق كل الدقة ومختار .. ومن السراج الوهاج وما يسكبه من أشعة فيها ضوء وحرارة ، ومن المعصرات وما يعتصر منها من ماء ثجاج ، ينصب دفعة بعد دفعة كلما وقع التفريغ الكهربائي مرة بعد مرة ، وهو الثجاج ، من هذا الماء مع هذا الإشعاع يخرج الحب والنبات الذي يؤكل هو ذاته ، والجئات الألفاف الكثيفة الكثيرة الأشجار الملتفة الأغصان . وهذا التناسق في تصميم الكون ، لا يكون إلا ووراءه يد تنسقه ، وحكمة تقدره ، وإرادة تدبره . يدرك هذا بقلبه وحسه كل إنسان حين توجه مشاعره هذا التوجيه ، فإذا ارتقى في العلم والمعرفة تكشفت له من هذا التناسق آفاق ودرجات تذهل العقول وتحير الألباب . وتجعل القول بأن هذا كله مجرد مصادفة قولاً تافهاً لا يستحق المناقشة . كما تجعل التهرب من مواجهة حقيقة القصد والتدبير في هذا الكون ، مجرد تعنت لا يستحق الاحترام ! إن لهذا الكون خالقاً ، وإن وراء هذا الكون تدبيراً وتقديراً وتنسيقاً . وتوالي هذه الحقائق والمشاهد في هذا النص القرآني على هذا النحو : من جعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً . وخلق الناس أزواجاً . وجعل نومهم سباتاً (بعد الحركة والوعي والنشاط) مع جعل الليل لباساً للستر والانزواء ، وجعل النهار معاشاً للوعي والنشاط . ثم بناء السبع الشداد . وجعل السراج الوهاج . وإنزال الماء الثجاج من المعصرات . لإنبات الحب والنبات والجئات .. توالي هذه الحقائق والمشاهد على هذا النحو يوحى بالتناسق الدقيق ، ويشي بالتدبير والتقدير ، ويشعر بالخالق الحكيم القدير . ويلمس القلب لمسات موقظة موحية بما وراء هذه الحياة من قصد وغاية .. ومن هنا يلتقي السياق بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون !

* * *

ولقد كان ذلك كله للعمل والمتاع . ووراء هذا كله حساب وجزاء . ويوم الفصل هو الموعد الموقوت للفصل : « إن يوم الفصل كان ميقاتاً . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيرت الجبال فكانت سراباً » ..

إن الناس لم يخلقوا عبثاً ، ولن يتركوا سدى . والذي قدر حياتهم ذلك التقدير الذي يشي به المقطع الماضي في السياق ، ونسق حياتهم مع الكون الذي يعيشون فيه ذلك التنسيق ، لا يمكن أن يدعهم يعيشون سدى ويموتون هملاً ! ويصلحون في الأرض أو يفسدون ثم يذهبون في التراب ضياعاً ! ويهتدون في الحياة أو يضلون ثم يلقون مصيراً واحداً . ويعدلون في الأرض أو يظلمون ثم يذهب العدل والظلم جميعاً !

إن هنالك يوماً للحكم والفرقان والفصل في كل ما كان . وهو اليوم المرسوم الموعود الموقوت بأجل عند الله معلوم محدود :

« إن يوم الفصل كان ميقاتاً » ..

وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون وينفرط فيه عقد هذا النظام .

« يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً . وفتحت السماء فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً » ..

والصور : البوق . ونحن لا ندري عنه إلا اسمه . ولا نعلم إلا أنه سينفخ فيه . وليس لنا أن نشغل أنفسنا بكيفية ذلك . فهي لا تزيدنا إيماناً ولا تأثراً بالحدث . وقد صان الله طاقتنا عن أن تتبدد في البحث وراء هذا الغيب المكنون ، وأعطانا منه القدر الذي ينفعنا فلا تزيد ! إنما نحن نتصور النفخة الباعثة المجمععة التي يأتي بها الناس أفواجاً .. نتصور هذا المشهد والخلائق التي توارت شخوصها جيلاً بعد جيل ، وأخلت وجه الأرض لمن يأتي بعدها كي لا يضيق بهم وجه الأرض المحدود .. نتصور مشهد هذه الخلائق جميعاً .. أفواجاً .. مبعوثين قائمين آتين من كل فج إلى حيث يحشرون . ونتصور الأحداث المبعثرة وهذه الخلائق منها قائمة . ونتصور الجموع الحاشدة لا يعرف أولها آخرها ، ونتصور هذا الهول الذي تثيره تلك الحشود التي لم تتجمع قط في وقت واحد وفي ساعة واحدة إلا في هذا اليوم .. أين ؟ لا ندري .. ففي هذا الكون الذي نعرفه أحداث وأحوال جسام :

« وفتحت السماء فكانت أبواباً . وسيرت الجبال فكانت سراباً » ..

السماء المبنية المتينة .. فتحت فكانت أبواباً .. فهي منشقة . منفرجة . كما جاء في مواضع وسور أخرى . على هيئة لا عهد لنا بها . والجبال الرواسي الأوتاد سيرت فكانت سراباً . فهي مدكوكة مبسوسة مثارة في الهواء هباء ، يحركه الهواء - كما جاء في مواضع وسور أخرى . ومن ثم فلا وجود لها كالسراب الذي ليس له حقيقة . أو إنها تنعكس إليها الأشعة وهي هباء فببدو كالسراب !

إنه الهول البادي في انقلاب الكون المنظور ، كاهول البادي في الحشر بعد النفخ في الصور . وهذا هو يوم الفصل المقدر بحكمة وتدبير ..

* * *

ثم يمضي السياق خطوة وراء النفخ والحشر ، فيصور مصير الطغاة ومصير التقاة . بادئاً بالأولين المكذبين المتسائلين عن النبأ العظيم :

« إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا بين فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقاً . إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً . وكل شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » ..

إن جهنم خلقت ووجدت وكانت مرصاداً للطاغين تنتظرهم وترقبهم وينتهون إليها فإذا هي معدة لهم ، مهياة لاستقبالهم . وكأنما كانوا في رحلة في الأرض ثم آبوا إلى ماوهم الأصيل ! وهم يردون هذا المآب للإقامة الطويلة المتجددة أحقاباً بعد أحقاب :

« لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً » .. ثم يستثني .. فإذا الاستثناء أمرٌ وأدهى : « إلا حميماً وغساقاً » .. إلا الماء الساخن يشوي الحلق والبطون . فهذا هو البرد ! وإلا الغساق الذي يغسق من أجساد المحروقين ويسيل . فهذا هو الشراب !

« جزاء وفاقاً » .. يوافق ما أسلفوا وما قدموا .. « إنهم كانوا لا يرجون حساباً » .. ولا يتوقعون مأباً .. « وكذبوا بآياتنا كذاباً » .. وجرس اللفظ فيه شدة توحى بشدة التكذيب وشدة الإصرار عليه .
بينما كان الله يحصي عليهم كل شيء إحصاء دقيقاً لا يفلت منه حرف : « وكل شيء أحصيناه كتاباً » ..
هنا يجيء التأنيب الميثس من كل رجاء في تغيير أو تخفيف : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » ..

* * *

ثم يعرض المشهد المقابل : مشهد الثقة في النعم . بعد مشهد الطغاة في الحميم :
« إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ..
جزاء من ربك عطاء حساباً » ..

فإذا كانت جهنم هناك مرصداً ومآباً للطاغين ، لا يفلتون منها ولا يتجاوزونها ، فإن المتقين ينتهون إلى مفازة ومنجاة ، تتمثل « حدائق وأعناباً » ويخص الأعناب بالذكر والتعيين لأنها مما يعرفه المخاطبون .. « وكواعب »
وهن الفتيات الناهدات اللواتي استدارت ثديهن « أتراباً » متوافيات السن والجمال . « وكأساً دهاقاً » مترعة بالشراب .

وهي مناعم ظاهرها حسي ، لتقريبها للتصور البشري . أما حقيقة مذاقها والمتاع بها فلا يدركها أهل الأرض وهم مقيدون بمدارك الأرض وتصوراتها .. وإلى جوارها حالة يتذوقها الضمير ويدركها الشعور : « لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً » .. فهي حياة مصونة من اللغو ومن التكذيب الذي يصاحبه الجدل ؛ فالحقيقة مكشوفة لا مجال فيها لجدل ولا تكذيب ؛ كما أنه لا مجال للغو الذي لا خير فيه .. وهي حالة من الرفعة والمتعة تليق بدار الخلود ..

« جزاء من ربك عطاء حساباً » .. ونلمح هنا ظاهرة الأناقة في التعبير والموسيقى في التقسيم بين « جزاء » و« عطاء » .. كما نلمحها في الإيقاع المشدود في الفواصل كلها على وجه التقريب .. وهي الظاهرة الواضحة في الجزء كله إجمالاً .

* * *

وتكلمة لمشاهد اليوم الذي يتم فيه ذلك كله ، والذي يتساءل عنه المتسائلون ، ويختلف فيه المختلفون . يجيء المشهد الختامي في السورة ، حيث يقف جبريل « عليه السلام » والملائكة صفاً بين يدي الرحمن خاشعين . لا يتكلمون - إلا من أذن له الرحمن - في الموقف المهيب الجليل :
« رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً . يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » ..

ذلك الجزء الذي فصله في المقطع السابق : جزاء الطغاة وجزاء الثقة . هذا الجزء « من ربك » .. « رب السماوات والأرض وما بينهما الرحمن » .. فهي المناسبة المهيأة لهذه اللزمة وهذه الحقيقة الكبيرة . حقيقة الربوبية الواحدة التي تشمل الإنسان . كما تشمل السماوات والأرض ، وتشمل الدنيا والآخرة ، وتجازي على الطغيان والتقوى ، وتنتهي إليها الآخرة والأولى .. ثم هو « الرحمن » .. ومن رحمته ذلك الجزء لهؤلاء وهؤلاء . حتى عذاب الطغاة ينبثق من رحمة الرحمن . ومن الرحمة أن يجد الشر جزاءه وألا يتساوى مع الخير في مصيره !
ومع الرحمة والجلال : « لا يملكون منه خطاباً » .. في ذلك اليوم المهيب الرهيب : يوم يقف جبريل -

عليه السلام - والملائكة الآخرون « صفاً لا يتكلمون » .. إلا بإذن من الرحمن حيث يكون القول صواباً .
فما يأذن الرحمن به إلا وقد علم أنه صواب .

* * *

وموقف هؤلاء المقربين إلى الله ، الأبرياء من الذنب والمعصية . موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن وبحساب .. يغمر الجو بالروعة والرهبة والجلال والوقار . وفي ظل هذا المشهد تنطلق صيحة من صيحات الإنذار ، وهزة للنائمين السادرين في الخمار :

« ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً . إنا أنذرناكم عذاباً قريباً : يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً » ..

إنها الهزة العنيفة لأولئك الذين يتساءلون في ارتياب : « ذلك اليوم الحق » .. فلا مجال للتساؤل والاختلاف .. والفرصة ما تزال سانحة ! « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً » .. قبل أن تكون جهنم مرصداً ومآباً !

وهو الإنذار الذي يوقظ من الخمار : « إنا أنذرناكم عذاباً قريباً » .. ليس بالبعيد ، فجهم تنتظرهم وترصد لكم . على النحو الذي رأيتم . والدنيا كلها رحلة قصيرة ، وعمر قريب !

وهو عذاب من الهول بحيث يدع الكافر يؤثر العدم على الوجود : « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه . ويقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً » .. وما يقولها إلا وهو ضائق مكروب !

وهو تعبير يلقي ظلال الرهبة والندم ، حتى ليتمنى الكائن الإنساني أن ينعدم . ويصير إلى عنصر مهممل زهيد . ويرى هذا أهون من مواجهة الموقف الرعيب الشديد .. وهو الموقف الذي يقابل تساؤل المتسائلين وشك المتشككين . في ذلك النبأ العظيم !!!

* * *

(٧٩) سُورَةُ النَّازِعَاتِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا سِتُّ وَارْبَعُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا ۝ وَالسَّيِّحَاتِ سَبًا ۝ فَالْسَّيِّقَاتِ سَبًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أَوْنَا لِمَرَدُّوهُمْ فِي الْخَافِرَةِ ۝ أَوْ ذَا كُنَّا عِظْمًا نَّخِرَةً ۝ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَنِيَ ۝ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ سَعًى ۝ فَحَشَرَ فَنَادَى ۝ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ۝ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيَهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَنْجَرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالِ أَرْسَاهَا ۝ مَتَّعَا لَكُمْ وَلِأَنْتَعِمُكُمْ ۝

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ۝ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝ وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۝ فَأَمَّا مَن طَغَى ۝ وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝

إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّكَ أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يُحْشَى ﴿٤٥﴾ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ صُحْحًا ﴿٤٦﴾

هذه السورة نموذج من نماذج هذا الجزء لإشعار القلب البشري حقيقة الآخرة ، بهولها وضخامتها ، وجديتها ، وأصالتها في التقدير الإلهي لنشأة هذا العالم الإنساني ، والتدبير العلوي لمراحل هذه النشأة وخطواتها على ظهر الأرض وفي جوفها ؛ ثم في الدار الآخرة ، التي تمثل نهاية هذه النشأة وعقبها .

وفي الطريق إلى إشعار القلب البشري حقيقة الآخرة الهائلة الضخمة العظيمة الكبيرة يوقع السياق إيقاعات متنوعة على أوتار القلب ، ويلمس لمسات شتى حول تلك الحقيقة الكبرى . وهي إيقاعات ولمسات تمت إليها بصلة . فتلك الحقيقة تمهد لها في الحس وتبهيئ لاستقبالها في يقظة وفي حساسية ..

يمهد لها بمطلع غامض الكنه يثير بغموضه شيئاً من الحدس والرهبة والتوجس . يسوقه في إيقاع موسيقي راجف لاهث ، كأنما تنقطع به الأنفاس من الذعر والارتجاف والمفاجأة والانهار : « والنازعات غرقاً . والناشطات نشطاً . والسابحات سباحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً » ..

وعقب هذا المطلع الغامض الراجف الواجف يجيء المشهد الأول من مشاهد ذلك اليوم . ظلّه من ظل ذلك المطلع وطابعه من طابعه ؛ كأنما المطلع إطار له وغلاف يدل عليه : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون : أأنّا لمردودون في الحافرة ؟ إذا كنا عظاماً نخرة ؟ قالوا : تلك إذن كرة خاسرة ! فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » ..

ومن هنالك .. من هذا الجو الراجف الواجف المبهور المذعور .. يأخذ في عرض مصرع من مصارع المكذبين العتاة في حلقة من قصة موسى مع فرعون . فيبدأ الإيقاع الموسيقي ويسترخي شيئاً ما ، ليناسب جو الحكاية والعرض : « هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى : اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى ، فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » .. وبهذا يلتقي ويمهد لتلك الحقيقة الكبرى .

ثم ينتقل من ساحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح ، ومشاهد الكون الهائلة ، الشاهدة بالقوة والتدبير والتقدير للألوهية المنشئة للكون ، المهيمنة على مصائره ، في الدنيا والآخرة . فيعرضها في تعبيرات قوية الأسر ، قوية الإيقاع ، تتسق مع مطلع السورة وإيقاعها العام : « أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟ بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ؛ والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعاً لكم ولأنعامكم » ..

وهنا - بعد هذه التمهيدات المقربة وهذه اللمسات الموحية - يجيء مشهد الطامة الكبرى ، وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الحياة الدنيا . جزاء يتحقق هو الآخر في مشاهد تتناسق صورها وظلالها مع الطامة الكبرى : « فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرّزت الجحيم لمن يرى ! فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .. وفي اللحظة التي يغمر الوجدان فيها ذلك الشعور المنبعث من مشاهد الطامة الكبرى ، والجحيم المبرزة لمن يرى ، وعاقبة من طغى وآثر الحياة الدنيا ، ومن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .. في هذه اللحظة

يرتد السياق إلى المكذبين بهذه الساعة ، الذين يسألون الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن موعدها . يرتد إليهم بإيقاع يزيد من روعة الساعة وهولها في الحس وضخامتها : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فم أنت من ذكرها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .. والهاء الممدودة ذات الإيقاع الضخم الطويل ، تشارك في تشخيص الضخامة وتجسم التهويل !

* * *

« والنازعات غرقاً . والناشطات نشطاً . والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالمدبرات أمراً » . قيل في تفسير هذه الكلمات : إنها الملائكة نازعات للأرواح نزعاً شديداً . ناشطات منطلقات في حركاتها . سابحات في العوالم العليا سابقات للإيمان أو للطاعة لأمر ربها مدبرات ما يوكل من الأمور إليها .. وقيل : إنها النجوم تنزع في مداراتها وتتحرك وتنشط منتقلة من منزل إلى منزل . وتسبح سبحاً في فضاء الله وهي معلقة به . وتسبق سبقاً في جريانها ودورانها . وتدبر من النتائج والظواهر ما وكله الله إليها مما يؤثر في حياة الأرض ومن عليها .

وقيل : النازعات والناشطات والسابحات والسابقات هي النجوم . والمدبرات هي الملائكة . وقيل : النازعات والناشطات والسابحات هي النجوم . والسابقات والمدبرات هي الملائكة .. وأياً ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادها على هذا النحو ، ينشئ أولاً وقبل كل شيء هزة في الحس ، وتوجساً في الشعور ، وتوقفاً وتوقعاً لشيء يهول ويروع . ومن ثم فهي تشارك في المطلع مشاركة قوية في إعداد الحس لتلقي ما يروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى في النهاية ! وتمشياً مع هذا الإحساس نؤثر أن ندعها هكذا بدون زيادة في تفصيل مدلولاتها ومناقشتها ؛ لنعيش في ظلال القرآن بموجياته وإيحاءاته على طبيعتها . فهزة القلب وإيقاظه هدف في ذاته ، يتحراه الخطاب القرآني بوسائل شتى .. ثم إن لنا في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أسوة . وقد قرأ سورة : « عبس وتولى » حتى جاء إلى قوله تعالى : « وفاكهة وأباً » .. فقال : « قد عرفنا الفاكهة . فما الأب ؟ ثم استدرك قائلاً : لعمرك يا بن الخطاب إن هذا هو التكلف ! وما عليك ألا تعرف لفظاً في كتاب الله تعالى ؟ ! » ... وفي رواية أنه قال : كل هذا قد عرفنا فما الأب ؟ ثم رفض عصا كانت بيده - أي كسرهما غضباً على نفسه - وقال : « هذا لعمر الله التكلف ! وما عليك يا بن أم عمر أن لا تدري ما الأب » . ثم قال : « اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب ، وما لا ، فدعوه » .. فهذه كلمات تنبعث عن الأدب أمام كلمات الله العظيمة . أدب العبد أمام كلمات الرب . التي قد يكون بقاؤها مغلفة هدفاً في ذاته ، يؤدي غرضاً بذاته .

* * *

هذا المطلع جاء في صيغة القسم ، على أمر تصوره الآيات التالية في السورة : « يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون : أئناً لمرودون في العافرة ؟ أإذا كنا عظاماً نخرة ؟ قالوا : تلك إذن كرة خاسرة ! .. فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » .. والراجفة ورد أنها الأرض استناداً إلى قوله تعالى في سورة أخرى : « يوم ترجف الأرض والجبال » .. والرادفة ورد أنها السماء . أي أنها تردف الأرض وتتبعها في الانقلاب حيث تنشق وتنثائر كواكبها .. كذلك ورد أن الراجفة هي الصيحة الأولى ، التي ترجف لها الأرض والجبال والأحياء جميعاً ، ويصعق لها

من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله . والرادقة هي النفخة الثانية التي يصحون عليها ويحشرون (كما جاء في سورة الزمر آية ٦٨) ..

وسواء كانت هذه أم تلك . فقد أحس القلب البشري بالزلزلة والرجفة والهول والاضطراب ؛ واهتز هزة الخوف والوجل والرعب والارتعاش . وتنبهاً لإدراك ما يصيب القلوب يومئذ من الفزع الذي لا ثبات معه ولا قرار . وأدرك وأحس حقيقة قوله :

« قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة » ..

فهي شديدة الاضطراب ، بادية الذل ، يجتمع عليها الخوف والانكسار ، والرجفة ، والانهيار . وهذا هو الذي يقع يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادقة ؛ وهذا هو الذي يتناوله القسم بالنازعات غرقاً والناشطات نشطاً ، والسابحات سباحاً ، والسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً . وهو مشهد يتفق في ظله وإيقاعه مع ذلك المطلع .

ثم يمضي السياق يتحدث عن وهلتهم وانبهارهم حين يقومون من قبورهم في ذهول :

« يقولون : أإننا لمردودون في الحافرة ؟ إذا كنا عظاماً نخرة ؟ » ..

فهم يتساءلون : أنحن مردودون إلى الحياة عائدون في طريقنا الأولى .. يقال : رجع في حافرته : أي في طريقه التي جاء منها . فهم في وهلتهم وذهولهم يسألون : إن كانوا راجعين في طريقهم إلى حياتهم ؟ ويدهشون : كيف يكون هذا بعد إذ كانوا عظاماً نخرة . منخوبة يصوت فيها الهواء ؟ !

ولعلمهم يفيقون ، أو يُبصرون ، فيعلمون أنها كرة إلى الحياة ، ولكنها الحياة الأخرى ، فيشعرون بالخسارة والوبال في هذه الرجعة ، فتند منهم تلك الكلمة :

« قالوا : تلك إذن كرة خاسرة » !

كرة لم يحسبوا حسابها ، ولم يقدموا لها زادها ، وليس لهم فيها إلا الخسران الخالص !

هنا - في مواجهة هذا المشهد - يعقب السياق القرآني بحقيقة ما هو كائن :

« فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة » ..

والزجرة : هي الصيحة . ولكنها تقال هنا بهذا اللفظ العنيف تنسيقاً لجو المشهد مع مشاهد السورة جميعاً . والساهرة هي الأرض البيضاء اللامعة . وهي أرض المحشر ، التي لا ندري نحن أين تكون . والخبر عنها لا نعرفه إلا من الخبر الصادق نلقاه ، فلا نزيد عليه شيئاً غير موثوق به ولا مضمون !

وهذه الزجرة الواحدة يغلب - بالاستناد إلى النصوص الأخرى - أنها النفخة الثانية . نفخة البعث والمحشر . والتعبير عنها فيه سرعة . وهي ذاتها توحى بالسرعة . وإيقاع السورة كلها فيه هذا اللون من الإسراع والإيجاف . والقلوب الواجفة تأخذ صفحتها هذه من سرعة النبض ، فالتناسق ملحوظ في كل حركة وفي كل لمحة ، وفي كل ظل في السياق !

* * *

ثم يهدأ الإيقاع شيئاً ما ، في الجولة القادمة ، ليناسب جو القصص ، وهو يعرض ما كان بين موسى وفرعون ، وما انتهى إليه هذا الطاغية عندما طغى :

« هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل : هل لك

إلى أن تَزَكَّى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى .. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ..

وقصة موسى هي أكثر القصص وروداً وأكثرها تفصيلاً في القرآن .. وقد وردت من قبل في سور كثيرة . وردت منها حلقات متنوعة . ووردت في أساليب شتى . كل منها تناسب سياق السورة التي وردت فيها ؛ وتشارك في أداء الغرض البارز في السياق . على طريقة القرآن في إيراد القصص وسرده ^١ .

وهنا ترد هذه القصة مختصرة سريعة المشاهد منذ أن نودي موسى بالوادي المقدس ، إلى أخذ فرعون .. أخذه في الدنيا ثم في الآخرة .. فلتلقي بموضوع السورة الأصيل . وهو حقيقة الآخرة . وهذا المدى الطويل من القصة يرد هنا في آيات معدودات قصار سريعة ، ليناسب طبيعة السورة وإيقاعها .

وتتضمن هذه الآيات القصار السريعة عدة حلقات ومشاهد من القصة ..

وهي تبدأ بتوجيه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « هل أتاك حديث موسى ؟ » .. وهو استفهام للتمهيد وإعداد النفس والأذن لتلقي القصة وتليها ..

ثم تأخذ في عرض الحديث كما تسمى القصة . وهو إحياء بواقعتها فهي حديث جرى . فتبدأ بمشهد المناجاة والمناجاة : « إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى » .. وطوى اسم الوادي على الأرجح . وهو بجانب الطور الأيمن بالنسبة للقادم من مدين في شمال الحجاز .

ولحظة النداء لحظة رهيبة جليلة . وهي لحظة كذلك عجيبة . ونداء الله بذاته - سبحانه - لعبده أمر هائل . أهول مما تملك الألفاظ البشرية أن تعبر . وهي سر من أسرار الألوهية العظيمة ، كما هي سر من أسرار التكوين الإنساني التي أودعها الله هذا الكائن ، وهياً بها لتلقي ذلك النداء . وهذا أقصى ما تملك أن نقوله في هذا المقام ، الذي لا يملك الإدراك البشري أن يحيط منه بشيء ؛ فيقف على إطاره ، حتى يكشف الله له عنه فيتذوقه بشعوره .

وفي مواضع أخرى تفصيل للمناجاة بين موسى وربه في هذا الموقف . فأما هنا فالمجال مجال اختصار وإيقاعات سريعة . ومن ثم يبادر السياق بحكاية أمر التكليف الإلهي لموسى ، عقب ذكر النداء بالوادي المقدس طوى : « اذهب إلى فرعون . إنه طغى . فقل : هل لك إلى أن تزكَّى ! وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » ..

« اذهب إلى فرعون . إنه طغى » .. والطغيان أمر لا ينبغي أن يكون ولا أن يبقى . أنه أمر كره ، مفسد للأرض ، مخالف لما يحبه الله ، مؤد إلى ما يكره .. فمن أجل منعه يتدب الله عبداً من عباده المختارين . يتدبه بنفسه سبحانه . ليحاول وقف هذا الشر ، ومنع هذا الفساد ، ووقف هذا الطغيان .. إنه أمر كره شديد الكراهية حتى ليخاطب الله بذاته عبداً من عباده ليذهب إلى الطاغية ، فيحاول رده عما هو فيه ، والإعذار إليه قبل أن يأخذه الله تعالى نكال الآخرة والأولى !

« اذهب إلى فرعون . إنه طغى » .. ثم يعلمه الله كيف يخاطب الطاغية بأحب أسلوب وأشدّه جاذبية للقلوب ، لعله ينتهي ، ويتقي غضب الله وأخذه : « فقل : هل لك إلى أن تزكَّى ؟ » .. هل لك إلى أن تتطهر من رجس الطغيان وذنس العصيان ؟ هل لك إلى طريق الصلاة والبركة ؟ « وأهديك إلى ربك فتخشى » .. هل لك أن أعرفك طريق ربك ؟ فإذا عرفته وقعت في قلبك خشيته . فما يطغى الإنسان ويعصي إلا حين يذهب عن ربه

(١) يراجع فصل القصة في القرآن . في كتاب : التصوير الفني في القرآن « دار الشروق » .

بعيداً ، وإلا حين يضل طريقه إليه فيفسد قلبه ويفسد ، فيكون منه الطغيان والتمرد !

كان هذا في مشهد النداء والتكليف . وكان بعده في مشهد المواجهة والتبليغ . والسياق لا يكرره في مشهد التبليغ . اكتفاء بعرضه هناك وذكره . فيطوي ما كان بعد مشهد النداء ، ويختصر عبارة التبليغ في مشهد التبليغ . ويسدل الستار هنا ليرفعه على ختام مشهد المواجهة :

« فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى » ..

لقد بلغ موسى ما كلف تبليغه . بالأسلوب الذي لقنه ربه وعرفه . ولم يفلح هذا الأسلوب الحبيب في إلانة القلب الطاغوي الخاوي من معرفة ربه . فأراه موسى الآية الكبرى . آية العصا واليد البيضاء كما جاء في المواضع الأخرى : « فكذب وعصى » .. وانتهى مشهد اللقاء والتبليغ عند التكذيب والمعصية في اختصار وإجمال ! ثم يعرض مشهداً آخر . مشهد فرعون يتولى عن موسى ، ويسعى في جمع السحرة للمباراة بين السحر والحق . حين عز عليه أن يستسلم للحق والهدى :

« ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال : أنا ربكم الأعلى » ..

ويسارع السياق هنا إلى عرض قولته الطاغية الكافرة ، مجملًا مشاهد سعيه وحشره للسحرة وتفصيلاتها . فقد أدبر يسعى في الكيد والمحاولة ، فحشر السحرة والجماهير ؛ ثم انطلقت منه الكلمة الوقحة المتطولة ، المليئة بالغرور والجهالة : « أنا ربكم الأعلى » ..

قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره ، وإذعانها وانقيادها . فما يخدع الطغاة شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها . وما الطاغية إلا فرد لا يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً . إنما هي الجماهير الغافلة الذلول ، تمطي له ظهرها فيركب ! وتمد له أعناقها فيجر ! وتحني له رؤوسها فيستعلي ! وتتنازل له عن حقها في العزة والكرامة فيطغى !

والجماهير تفعل هذا مخدوعة من جهة وخائفة من جهة أخرى . وهذا الخوف لا ينبعث إلا من الوهم . فالطاغية - وهو فرد - لا يمكن أن يكون أقوى من الألوف والملايين ، لو أنها شعرت بإنسانيتها وكرامتها وعزتها وحريتها . وكل فرد فيها هو كفاء للطاغية من ناحية القوة ولكن الطاغية يخدعها فيوهمها أنه يملك لها شيئاً ! وما يمكن أن يطغى فرد في أمة كريمة أبداً . وما يمكن أن يطغى فرد في أمة تعرف ربها وتؤمن به وتأتي أن تعبد لواحد من خلقه لا يملك لها ضراً ولا رشداً !

فأما فرعون فوجد في قومه من الغفلة ومن الذلة ومن خواء القلب من الإيمان ، ما جرؤ به على قول هذه الكلمة الكافرة الفاجرة : « أنا ربكم الأعلى » .. وما كان ليقولها أبداً لو وجد أمة واعية كريمة مؤمنة ، تعرف أنه عبد ضعيف لا يقدر على شيء . وإن سلبه الذباب شيئاً لا يستنقذ من الذباب شيئاً !

وأمام هذا التطاول الوقح ، بعد الطغيان البشع ، تحركت القوة الكبرى :

« فأخذ الله نكال الآخرة والأولى » ..

ويقدم هنا نكال الآخرة على نكال الأولى .. لأنه أشد وأبقى . فهو النكال الحقيقي الذي يأخذ الطغاة والعصاة بشدته وبخلوده .. ولأنه الأنسب في هذا السياق الذي يتحدث عن الآخرة ويجعلها موضوعه الرئيسي .. ولأنه ينسق لفظياً مع الإيقاع الموسيقي في القافية بعد اتساقه معنويًا مع الموضوع الرئيسي ، ومع الحقيقة الأصلية . ونكال الأولى كان عنيفاً قاسياً . فكيف بنكال الآخرة وهو أشد وأنكى ؟ وفرعون كان ذا قوة وسلطان

ومجد موروث عريق ؛ فكيف بغيره من المكذبين ؟ وكيف بهؤلاء الذين يواجهون الدعوة من المشركين ؟
« إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » ..

فالذي يعرف ربه ويخشاه هو الذي يدرك ما في حادث فرعون من العبرة لسواه . أما الذي لا يعرف قلبه التقوى فيبينه وبين العبرة حاجز ، وبينه وبين العظة حجاب . حتى يصطدم بالعاقبة اصطداماً . وحتى يأخذه الله نكال الآخرة والأولى . وكل ميسر لنهج ، وكل ميسر لعاقبة . والعبرة لمن يخشى ..

ومن هذه الجولة في مصارع الطغاة المعتدين بقوتهم ، يعود إلى المشركين المعتزين بقوتهم كذلك . فيردهم إلى شيء من مظاهر القوة الكبرى ، في هذا الكون الذي لا تبلغ قوتهم بالقياس إليه شيئاً :
« أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟ بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحائها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم » ..

وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل : « أنتم أشد خلقاً أم السماء ؟ » .. السماء ! بلا جدال ولا كلام ! فما الذي يغرركم من قوتكم والسماء أشد خلقاً منكم ، والذي خلقها أشد منها ؟ هذا جانب من إichاء السؤال . وهناك جانب آخر . فما الذي تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهي أشد من خلقكم ؛ وبعثكم هو إعادة لخلقكم ، والذي بنى السماء وهي أشد . قادر على إعادتكم وهي أيسر ! هذه السماء الأشد خلقاً بلا مرأ .. « بناها » .. والبناء يوحى بالقوة والتماسك ، والسماء كذلك . متماسكة . لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها . ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها ، ولا تهاوى ولا تنهار . فهي بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء .

« رفع سمكها فسواها » .. وسمك كل شيء قامته وارتفاعه . والسماء مرفوعة في تناسق وتماسك . وهذه هي التسوية : « فسواها » .. والنظرة المجردة والملاحظة العادية تشهد بهذا التناسق المطلق . والمعرفة بحقيقة القوانين التي تمسك بهذه الخلائق الهائلة وتنسق بين حركاتها وآثارها وتأثيراتها ، توسع من معنى هذا التعبير ، وتزيد في مساحة هذه الحقيقة الهائلة ، التي لم يدرك الناس بعلومهم إلا أطرافاً منها ، وقفوا تجاهها مبهورين ، تغمرهم الدهشة ، وتأخذهم الروعة ، ويعجزون عن تعليلها بغير اقتراف قوة كبرى مدبرة مقدره ، ولو لم يكونوا من المؤمنين بدين من الأديان إطلاقاً !

« وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » .. وفي التعبير شدة في الجرس والمعنى ، يناسب الحديث عن الشدة والقوة . وأغطش ليلها أي أظلمه . وأخرج ضحاها . أي : أضاءها . ولكن اختيار الألفاظ يتمشى في تناسق مع السياق .. وتوالي حالتي الظلام والضياء ، في الليل والضحى الذي هو أول النهار ، حقيقة يراها كل أحد ؛ ويتأثر بها كل قلب . وقد ينساها بطول الألفة والتكرار ، فيعيد القرآن جدتها بتوجيه الشاعر إليها . وهي جديدة أبداً . تتجدد كل يوم ، ويتجدد الشعور بها والانفعال بوقعها . فأما النواميس التي وراءها فهي كذلك من الدقة والعظمة بحيث تروع وتدهش من يعرفها . فتظل هذه الحقيقة تروع القلوب وتدهشها كلما اتسع علمها وكبرت معرفتها !

« والأرض بعد ذلك دحائها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها » ..

ودحو الأرض تمهيداً وبسط قشرتها ، بحيث تصبح صالحة للسير عليها ، وتكوين تربة تصلح للإنبات ، وإرساء الجبال وهو نتيجة لاستقرار سطح الأرض ووصول درجة حرارته إلى هذا الاعتدال الذي يسمح بالحياة . والله أخرج من الأرض ماءها سواء ما يتفجر من الينابيع ، أو ما ينزل من السماء فهو أصلاً من مائها الذي تبخر

ثم نزل في صورة مطر . وأخرج من الأرض مرعاها وهو النبات الذي يأكله الناس والأنعام وتعيش عليه الأحياء مباشرة وبالواسطة ..

وكل أولئك قد كان بعد بناء السماء ، وبعد إغطاش الليل وإخراج الضحى . والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول هذا النص القرآني حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين ، وهي تدور دوراتها ويتعاقب الليل والنهار عليها قبل دحوها وقبل قابليتها للزرع . وقبل استقرار قشرتها على ما هي عليه من مرتفعات ومستويات .

والقرآن يعلن أن هذا كله كان : « متاعاً لكم ولأنعامكم » .. فيذكر الناس بعظيم تدبير الله لهم من ناحية . كما يشير إلى عظمة تقدير الله في ملكه . فإن بناء السماء على هذا النحو ، ودحو الأرض على هذا النحو أيضاً لم يكونا فلتة ولا مصادفة . إنما كان محسوباً فيهما حساب هذا الخلق الذي سيستخلف في الأرض . والذي يقتضي وجوده ونموه ورقبه موافقات كثيرة جداً في تصميم الكون . وفي تصميم المجموعة الشمسية بصفة خاصة . وفي تصميم الأرض بصفة أخص .

والقرآن - على طريقته في الإشارة المجلة الموحية المتضمنة لأصل الحقيقة - يذكر هنا من هذه الموافقات بناء السماوات ، وإغطاش الليل ، وإخراج الضحى ، ودحو الأرض وإخراج مائها ومرعاها ، وإرساء جبالها . متاعاً للإنسان وأنعامه . وهي إشارة توحى بحقيقة التدبير والتقدير في بعض مظاهرها المكشوفة للجميع ، الصالحة لأن يخاطب بها كل إنسان ، في كل بيئة وفي كل زمان ، فلا تحتاج إلى درجة من العلم والمعرفة ، تزيد على نصيب الإنسان حيث كان . حتى يعم الخطاب بالقرآن لجميع بني الإنسان في جميع أطوار الإنسان ، في جميع الأزمان .

وراء هذا المستوى آماد وآفاق أخرى من هذه الحقيقة الكبرى . حقيقة التقدير والتدبير في تصميم هذا الكون الكبير . واستبعاد المصادفة والجزاف استبعاداً تنطق به طبيعة هذا الكون ، وطبيعة المصادفة التي يستحيل معها تجمع كل تلك الموافقات العجيبة .

هذه الموافقات التي تبدأ من كون المجموعة الشمسية التي تنتمي إليها أرضنا هي تنظيم نادر بين مئات الملايين من المجموعات النجمية . وأن الأرض نط فريد غير مكرر بين الكواكب بموقعها هذا في المنظومة الشمسية . الذي يجعلها صالحة للحياة الإنسانية . ولا يعرف البشر - حتى اليوم - كوكباً آخر تجتمع له هذه الموافقات الضرورية . وهي تعد بالآلاف !

« ذلك أن أسباب الحياة تتوافر في الكوكب على حجم ملائم ، وبعد معتدل ، وتركيب تتلاقى فيه عناصر المادة على النسبة التي تنشط فيها حركة الحياة .

« لا بد من الحجم الملائم ، لأن بقاء الجو الهوائي حول الكوكب يتوقف على ما فيه من قوة الجاذبية . « ولا بد من البعد المعتدل لأن الجرم القريب من الشمس حار لا تتأسك فيه الأجسام ، والجرم البعيد من الشمس بارد لا تتخلخل فيه تلك الأجسام .

« ولا بد من التركيب الذي تتوافق فيه العناصر على النسبة التي تنشط بها حركة الحياة ، لأن هذه النسبة لازمة لنشأة النبات ونشأة الحياة التي تعتمد عليه في تمثيل الغذاء .

« وموقع الأرض حيث هي أصلح المواقع لتوفير هذه الشروط التي لا غنى عنها للحياة ، في الصورة التي

نعرفها ، ولا نعرف لها صورة غيرها حتى الآن ' .

وتقرير حقيقة التدبير والتقدير في تصميم هذا الكون الكبير ، وحساب مكان للإنسان فيه ملحوظ في خلقه وتطوره أمر يعد القلب والعقل لتلقي حقيقة الآخرة وما فيها من حساب وجزاء باطمئنان وتسليم . فإمكان أن يكون هذا هو واقع النشأة الكونية والنشأة الإنسانية ثم لا تتم تمامها ، ولا تلقى جزاءها . ولا يكون معقولاً أن ينتهي أمرها بنهاية الحياة القصيرة في هذه العاجلة الفانية . وأن يمضي الشر والطغيان والباطل ناجياً بما كان منه في هذه الأرض . وأن يمضي الخير والعدل والحق بما أصابه كذلك في هذه الأرض .. فهذا الفرض مخالف في طبيعته لطبيعة التقدير والتدبير الواضحة في تصميم الكون الكبير .. ومن ثم تلقي هذه الحقيقة التي لمسها السياق في هذا المقطع بحقيقة الآخرة التي هي الموضوع الرئيسي في السورة . وتصلح تمهيداً لها في القلوب والعقول ، يجيء بعده ذكر الطامة الكبرى في موضعه وفي حينه !

* * *

« فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى » .. إن الحياة الدنيا متاع . متاع مقدر بدقة وإحكام . وفق تدبير يرتبط بالكون كله ونشأة الحياة والإنسان . ولكنه متاع . متاع ينتهي إلى أجله .. فإذا جاءت الطامة الكبرى غطت على كل شيء ، وطمت على كل شيء . على المتاع الموقوت . وعلى الكون المتين المقدر المنظم . على السماء المبنية والأرض المدحوة والجبال المرساة والأحياء والحياة وعلى كل ما كان من مصارع ومواقع . فهي أكبر من هذا كله ، وهي تطم وتعم على هذا كله ! عندئذ يتذكر الإنسان ما سعى . يتذكر سعيه ويستحضره ، إن كانت أحداث الحياة ، وشواغل المتاع أغفلته عنه وأنسته إياه . يتذكره ويستحضره ولكن حيث لا يفيد التذكر والاستحضار إلا الحسرة والأسى وتصور ما وراءه من العذاب والبلوى !

« وبرزت الجحيم لمن يرى » .. فهي بارزة مكشوفة لكل ذي نظر . ويشدد التعبير في اللفظ « برزت » تشديداً للمعنى والجرس ، ودفعاً بالمشهد إلى كل عين !

عندئذ تختلف المصائر والعواقب ؛ وتتجلى غاية التدبير والتقدير في النشأة الأولى :

« فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى » ..

والطغيان هنا أشمل من معناه القريب . فهو وصف لكل من يتجاوز الحق والهدى . ومداه أوسع من الطغاة ذوي السلطان والجبروت ، حيث يشمل كل متجاوز للهدى ، وكل من آثر الحياة الدنيا ، واختارها على الآخرة . فعمل لها وحدها ، غير حاسب للآخرة حساباً . واعتبار الآخرة هو الذي يقيم الموازين في يد الإنسان وضميره . فإذا أهمل حساب الآخرة أو آثر عليها الدنيا اختلت كل الموازين في يده ، واختلت كل القيم في تقديره ، واختلت كل قواعد الشعور والسلوك في حياته ، وعد طاغياً وباغياً ومتجاوزاً للمدى .

فأما هذا .. « فإن الجحيم هي المأوى » .. الجحيم المكشوفة المبرزة القريبة الحاضرة . يوم الطامة الكبرى !

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى » ..

والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية ، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري قاده خوف هذا المقام

الجليل إلى الندم والاستغفار والتوبة . فظل في دائرة الطاعة .

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة . فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية . وهو أساس البلوى ، وينبوع الشر ، وقل أن يؤتى الإنسان إلا من قبل الهوى . فالجهل سهل علاجه . ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها . والخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة . وقل أن يثبت غير هذا الحاجز أمام دفعات الهوى . ومن ثم يجمع بينهما السياق القرآني في آية واحدة . فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس العليم بدائها ، الخير بدوائها وهو وحده الذي يعلم دروبها ومنحنيات ، ويعلم أين تكن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكانها ومخابئها !

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى . فهو - سبحانه - يعلم أن هذا خارج عن طاقته . ولكنه كلفه أن ينهها ويكبحها ويمسك بزمامها . وأن يستعين في هذا بالخوف . الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيّب . وكتب له بهذا الجهاد الشاق ، الجنة مثابة ومأوى : « فإن الجنة هي المأوى » .. ذلك أن الله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيّمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى .

إن الإنسان إنسان بهذا النهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع . وليس إنساناً بترك نفسه لها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بحجة أن هذا مركب في طبيعته . فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى ، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه ، ونهي النفس عنه ، ورفعها عن جاذبيته ؛ وجعل له الجنة جزاء ومأوى حين ينتصر ويرتفع ويرقى .

وهناك حرية إنسانية تليق بتكريم الله للإنسان . تلك هي حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة ، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني . وهناك حرية حيوانية ، هي هزيمة الإنسان أمام هواه ، وعبوديته لشهوته ، وانفلات الزمام من إرادته . وهي حرية لا يهتف بها إلا مخلوق مهزوم الإنسانية مستعبد يلبس عبوديته رداء زائفاً من الحرية !

إن الأول هو الذي ارتفع وارتقى وتهاى للحياة الرفيعة الطليقة في جنة المأوى . أما الآخر فهو الذي ارتكس وانتكس وتهاى للحياة في درك الجحيم حيث تهدر إنسانيته ، ويرتد شيئاً توقد به النار التي وقودها الناس - من هذا الصنف - والحجارة !

وهذه وتلك هي المصير الطبيعي للارتكاس والارتقاء في ميزان هذا الدين الذي يزن حقيقة الأشياء ..

* * *

وأخيراً يجيء الإيقاع الأخير في السورة هائلاً عميقاً مديداً :

« يسألونك عن الساعة : أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكرها ؟ إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » ..

وكان المتعنتون من المشركين يسألون الرسول - صلى الله عليه وسلم - كلما سمعوا وصف أهوال الساعة وأحداثها وما تنتهي إليه من حساب وجزاء .. متى أو أيان موعدها .. أو كما يحكي عنهم هنا : « أيان مرساها ؟ » .. والجواب : « فيم أنت من ذكرها ؟ » .. وهو جواب يوحي بعظمتها وضخامتها ، بحيث يبدو هذا السؤال تافهاً باهتاً ، وتطفلاً كذلك وتجاوزاً . فها هو ذا يقال للرسول العظيم : « فيم أنت من ذكرها ؟ » .. إنها لأعظم

من أن تسأل أو تسأل عن موعدها . فأمرها إلى ربك وهي من خاصة شأنه وليست من شأنك :
« إلى ربك منتهاها » .. فهو الذي ينتهي إليه أمرها ، وهو الذي يعلم موعدها ، وهو الذي يتولى كل شيء فيها .
« إنما أنت منذر من يخشاها » .. هذه وظيفتك ، وهذه حدودك .. أن تنذر بها من ينفعه الإنذار ، وهو الذي يشعر قلبه بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها ، ويتوقعها في موعدها الموكول إلى صاحبها سبحانه وتعالى .
ثم يصور هولها وضخامتها في صنيعها بالمشاعر والتصورات ؛ وقياس الحياة الدنيا إليها في إحساس الناس وتقديرهم :

« كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » ..

فهي من ضخامة الوقع في النفس بحيث تتضاءل إلى جوارها الحياة الدنيا ، وأعمارها ، وأحداثها ، ومتاعها ، وأشياءها ، فتبدو في حس أصحابها كأنها بعض يوم .. عشية أو ضحاها !

وتنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون . والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة . والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان . والتي يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها .. تنطوي هذه الحياة في نفوس أصحابها أنفسهم ، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها .

هذه هي : قصيرة عاجلة ، هزيلة ذاهبة ، زهيدة نافهة .. أفن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة ؟
ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى !

ألا إنها الحماقة الكبرى . الحماقة التي لا يرتكبها إنسان . يسمع ويرى !

* * *

(٨٠) سُورَةُ عَبَسَ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَارْتِعَاوْنَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى ٤ أَمَّا مَنْ ٥
أَسْتَغْنَى ٦ فَانْتَ لَهُ تَصَدَّى ٧ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزَكَّى ٨ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ٩ وَهُوَ يَخْشَى ١٠
فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ١١ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ١٢ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ١٣ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ١٤ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ١٥
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ١٦ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ١٧
قَتَلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَهُ ١٨ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ١٩ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ٢٠ ثُمَّ أَسْبَلَ ٢١
يَسْرَهُ ٢٢ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ٢٣ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ٢٤ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ٢٥ فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَنُ إِلَى ٢٦
طَعَامِهِ ٢٧ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ٢٨ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ٢٩ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٣٠ وَعَبَا ٣١
وَقَضَبًا ٣٢ وَزَيْتُونًا وَنَحْلًا ٣٣ وَحَدَاقٍ غَلْبًا ٣٤ وَفَلَكِهَةً وَأَبَا ٣٥ مَتَعَلِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٣٦
فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ٣٧ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ٣٨ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ٣٩ وَصَلْبَتِهِ وَبَنِيهِ ٤٠ لِكُلِّ أَمْرٍ ٤١
مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ٤٢ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ٤٣ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ٤٤ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا ٤٥
غَبَرَةٌ ٤٦ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤٧ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ٤٨

هذه السورة قوية المقاطع ، ضخمة الحقائق ، عميقة اللمسات ، فريدة الصور والظلال والإيحاءات ،
موحية الإيقاعات الشعرية والموسيقية على السواء .

يتولى المقطع الأول منها علاج حادث معين من حوادث السيرة : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - مشغولاً

بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام حينما جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير - وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم - يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا وعبس وجهه وأعرض عنه ، فتزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب الرسول - صلى الله عليه وسلم - عتاباً شديداً ؛ ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم ، كما يقرر حقيقة هذه الدعوة وطبيعتها : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! كلا ! إنها تذكرة ، فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة » ..

ويعالج المقطع الثاني جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده ، وأصل نشأته ، وتيسير حياته ، وتولي ربه له في موته ونشره ؛ ثم تقصيره بعد ذلك في أمره :

« قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا ! لما يقض ما أمره » ..

والمقطع الثالث يعالج توجيه القلب البشري إلى أمس الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه . وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له ، كتدبيره وتقديره في نشأته :

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبثنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة وأبا ، متاعاً لكم ولأنعامكم » ..

فأما المقطع الأخير فيتولى عرض « الصاخة » يوم تجيء بهولها ، الذي يتجلى في لفظها ، كما تتجلى آثارها في القلب البشري الذي يذهل عما عداها ؛ وفي الوجه التي تحدث عما دهاها :

« فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قفرة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » ..

إن استعراض مقاطع السورة وآياتها - على هذا النحو السريع - يسكب في الحس إيقاعات شديدة التأثير . فهي من القوة والعمق بحيث تفعل فعلها في القلب بمجرد لمسها له بذاتها .

وسنحاول أن نكشف عن جوانب من الآماد البعيدة التي تشير إليها بعض مقاطعها مما قد لا تدركه النظرة الأولى.

* * *

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ أما من استغنى فأنت له تصدى ؟ وما عليك ألا يزكى ؟ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! كلا ! إنها تذكرة . فمن شاء ذكره ، في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة » ..

إن هذا التوجيه الذي نزل بشأن هذا الحادث هو أمر عظيم جداً . أعظم بكثير مما يبدو لأول وهلة . إنه معجزة ، هو والحقيقة التي أراد إقرارها في الأرض ، والآثار التي ترتبت على إقرارها بالفعل في حياة البشرية . ولعلها هي معجزة الإسلام الأولى ، ومعجزته الكبرى كذلك . ولكن هذا التوجيه يرد هكذا - تعقياً على حادث فردي - على طريقة القرآن الإلهية في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة فرصة لتقرير الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

وإلا فإن الحقيقة التي استهدف هذا التوجيه تقريرها هنا والآثار الواقعية التي ترتبت بالفعل على تقريرها في حياة الأمة المسلمة ، هي الإسلام في صميمه . وهي الحقيقة التي أراد الإسلام - وكل رسالة سماوية قبله - غرسها في الأرض .

هذه الحقيقة ليست هي مجرد : كيف يعامل فرد من الناس ؟ أو كيف يعامل صنف من الناس ؟ كما هو المعنى القريب للحادث وللتعقيب . إنما هي أبعد من هذا جداً ، وأعظم من هذا جداً . إنها : كيف يزن الناس كل أمور الحياة ؟ ومن أين يستمدون القيم التي يزنون بها ويقدرّون ؟

والحقيقة التي استهدف هذا التوجيه إقرارها هي : أن يستمد الناس في الأرض قيمهم وموازنهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة ، آتية لهم من السماء ، غير مقيدة بملاسل أرضهم ، ولا بمواضع حياتهم ، ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواضع وتلك الملاسل .

وهو أمر عظيم جداً ، كما أنه أمر عسير جداً . عسير أن يعيش الناس في الأرض بقيم وموازن آتية من السماء . مطلقة من اعتبارات الأرض . متحررة من ضغط هذه الاعتبارات .

ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك ضخامة الواقع البشري ، وثقله على المشاعر ، وضغطه على النفوس ، وصعوبة التخلي عن الملاسل والاضغوط الناشئة من الحياة الواقعية للناس ، المنبثقة من أحوال معاشهم ، وارتباطات حياتهم ، وموروثات بيئتهم ، ورواسب تاريخهم ، وسائر الظروف الأخرى التي تشدهم إلى الأرض شداً ، وتزيد من ضغط موازينها وقيمها وتصوراتها على النفوس .

كذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - قد احتاجت - كي تبلغه - إلى هذا التوجيه من ربه ؛ بل إلى هذا العتاب الشديد ، الذي يبلغ حد التعجب من تصرفه !

وإنه ليكفي لتصوير عظمة أي أمر في هذا الوجود أن يقال فيه : إن نفس محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - قد احتاجت - كي تبلغه - إلى تنبيه وتوجيه !

نعم يكفي هذا . فإن عظمة هذه النفس وسموها ورفعتها ، تجعل الأمر الذي يحتاج منها - كي تبلغه - إلى تنبيه وتوجيه أمراً أكبر من العظمة ، وأرفع من الرفعة ! وهذه هي حقيقة هذا الأمر ، الذي استهدف التوجيه الإلهي إقراره في الأرض ، بمناسبة هذا الحادث المفرد .. أن يستمد الناس قيمهم وموازنهم من السماء ، طلقاءً من قيم الأرض وموازنها المنبثقة من واقعهم كله .. وهذا هو الأمر العظيم ..

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل ، ليقوموا به القيم كلها ، هو : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل ! وهي قيمة سماوية بحتة ، لا علاقة لها بمواضع الأرض وملاسلها إطلاقاً ..

ولكن الناس يعيشون في الأرض ، ويرتبطون فيما بينهم بارتباطات شتى ؛ كلها ذات وزن وذات ثقل وذات جاذبية في حياتهم . وهم يتعاملون بقيم أخرى .. فيها النسب ، وفيها القوة ، وفيها المال . وفيها ما ينشأ عن توزيع هذه القيم من ارتباطات عملية .. اقتصادية وغير اقتصادية .. تتفاوت فيها أوضاع الناس بعضهم بالنسبة لبعض . فيصبح بعضهم أرجح من بعض في موازين الأرض ..

ثم يجيء الإسلام ليقول : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. فيضرب صفحاً عن كل تلك القيم الثقيلة الوزن في حياة الناس ، العنيفة الضغط على مشاعرهم ، الشديدة الجاذبية إلى الأرض . ويبدل من هذا كله

تلك القيمة الحديدية المستمدة مباشرة من السماء ، المعترف بها وحدها في ميزان السماء !
ثم يجيء هذا الحادث لتقرير هذه القيمة في مناسبة واقعية محددة . وليقرر معها المبدأ الأساسي : وهو أن الميزان ميزان السماء ، والقيمة قيمة السماء . وأن على الأمة المسلمة أن تدع كل ما تعارف عليه الناس ، وكل ما ينبثق من علاقات الأرض من قيم وتصورات وموازين واعتبارات ، لتستمد القيم من السماء وحدها وترزنها بميزان السماء وحده !

ويجيء الرجل الأعمى الفقير .. ابن أم مكتوم .. إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مشغول بأمر النفر من سادة قريش . عتبة وشيبة ابني ربيعة ، وأبي جهل عمرو بن هشام ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، ومعهم العباس بن عبد المطلب .. والرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى الإسلام ؛ ويرجو بإسلامهم خيراً للإسلام في عسرتة وشدته التي كان فيها بمكة ؛ وهؤلاء النفر يقفون في طريقه بمالههم وجاههم وقوتهم ؛ ويصدون الناس عنه ، ويكيدون له كيداً شديداً حتى ليجمدوه في مكة تجميداً ظاهراً . بينما يقف الآخرون خارج مكة ، لا يقبلون على الدعوة التي يقف لها أقرب الناس إلى صاحبها ، وأشدهم عصية له ، في بيئة جاهلية قبلية ، تجعل لموقف القبيلة كل قيمة وكل اعتبار .

يجيء هذا الرجل الأعمى الفقير إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو مشغول بأمر هؤلاء النفر . لا لنفسه ولا لمصلحته ، ولكن للإسلام ولمصلحة الإسلام . فلو أسلم هؤلاء لانزاحت العقبات العنيفة والأشواك الحادة من طريق الدعوة في مكة ؛ ولانساح بعد ذلك الإسلام فيما حولها ، بعد إسلام هؤلاء الصناديد الكبار ..

يجيء هذا الرجل ، فيقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا رسول الله أقرئني وعلمي مما علمك الله .. ويكرر هذا وهو يعلم تشاغل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما هو فيه من الأمر . فيكره الرسول قطعه لكلامه واهتمامه . وتظهر الكراهية في وجهه - الذي لا يراه الرجل - فيعبس ويعرض . يعرض عن الرجل المفرد الفقير الذي يعطله عن الأمر الخطير . الأمر الذي يرجو من ورائه لدعوته ولدينه الشيء الكثير ؛ والذي تدفعه إليه رغبته في نصرته دينه ، وإخلاصه لأمر دعوته ، وحبه لمصلحة الإسلام ، وحرصه على انتشاره !

وهنا تتدخل السماء . تتدخل لتقول كلمة الفصل في هذا الأمر ؛ ولتضع معالم الطريق كله ، ولتقرر الميزان الذي توزن فيه القيم - بغض النظر عن جميع الملابس والاعتبارات . بما في ذلك اعتبار مصلحة الدعوة كما يراها البشر . بل كما يراها سيد البشر - صلى الله عليه وسلم - .

وهنا يجيء العتاب من الله العلي الأعلى لنبيه الكريم ، صاحب الخلق العظيم ، في أسلوب عنيف شديد . وللمرة الوحيدة في القرآن كله يقال للرسول الحبيب القريب : « كلا ! » وهي كلمة ردع وزجر في الخطاب ! ذلك أنه الأمر العظيم الذي يقوم عليه هذا الدين !

والأسلوب الذي تولى به القرآن هذا العتاب الإلهي أسلوب فريد ، لا تمكن ترجمته في لغة الكتابة البشرية . فلهذا الكتابة لها قيود وأوضاع وتقاليد ، تغض من حرارة هذه الموحيات في صورتها الحية المباشرة . وينفرد الأسلوب القرآني بالقدرة على عرضها في هذه الصورة في لمسات سريعة . وفي عبارات متقطعة . وفي تعبيرات كأنها انفعالات ، ونبرات وسمات ولمحات حية !

« عبس وتولى . أن جاءه الأعمى » .. بصيغة الحكاية عن أحد آخر غائب غير المخاطب ! وفي هذا الأسلوب إيحاء بأن الأمر موضوع الحديث من الكراهة عند الله بحيث لا يحب - سبحانه - أن يواجه به نبيه وحبيبه . عطفاً عليه ، ورحمة به ، وإكراماً له عن المواجهة بهذا الأمر الكريه !

ثم يستدير التعبير - بعد مواراة الفعل الذي نشأ عنه العتاب - يستدير إلى العتاب في صيغة الخطاب . فيبدأ هادئاً شيئاً ما : « وما يدريك لعله يزكى ؟ أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟ » .. ما يدريك أن يتحقق هذا الخير الكبير . أن يتطهر هذا الرجل الأعمى الفقير - الذي جاءك راغباً فيما عندك من الخير - وأن يتقسط قلبه فيتذكر فتنفعه الذكرى . ما يدريك أن يشرق هذا القلب بقبس من نور الله ، فيستحيل منارة في الأرض تستقبل نور السماء ؟ الأمر الذي يتحقق كلما تفتح قلب للمهدى وتمت حقيقة الإيمان فيه . وهو الأمر العظيم الثقيل في ميزان الله ..

ثم تملو نبرة العتاب وتشدد لهجته ، وينتقل إلى التعجب من ذلك الفعل محل العتاب : « أما من استغنى ، فأنت له تصدى ؟ ! وما عليك ألا يزكى ؟ ! وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؟ ! » .. أما من أظهر الاستغناء عنك وعن دينك وعما عندك من الهدى والخير والنور والطهارة .. أما هذا فأنت تتصدى له وتحفل أمره ، وتجهد لهدايته ، وتعرض له وهو عنك معرض ! « وما عليك ألا يزكى ؟ » .. وما يضيرك أن يظل في رجسه ودنسه ؟ وأنت لا تسأل عن ذنبه . وأنت لا تنصّر به . وأنت لا تقوم بأمره .. « وأما من جاءك يسعى » طائعاً مختاراً ، « وهو يخشى » ويتوقى « فأنت عنه تلهى ! » .. ويسمي الانشغال عن الرجل المؤمن الراغب في الخير التقى تلهياً .. وهو وصف شديد ..

ثم ترتفع نبرة العتاب حتى لتبلغ حد الردع والزجر : « كلا ! » .. لا يكن ذلك أبداً .. وهو خطاب يسترعي النظر في هذا المقام .

ثم يبين حقيقة هذه الدعوة وكرامتها وعظمتها ورفعها ، واستغناءها عن كل أحد . وعن كل سند . وعنايتها فقط بمن يريد لها لذاتها ، كائناً ما كان وضعه ووزنه في موازين الدنيا : « إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة » .. فهي كريمة في كل اعتبار . كريمة في صحفها ، المرفوعة المطهرة الموكلة بها السفراء من الملأ الأعلى ينقلونها إلى المختارين في الأرض ليلفوها . وهم كذلك كرام بررة .. فهي كريمة طاهرة في كل ما يتعلق بها ، وما يسببها من قريب أو من بعيد . وهي عزيزة لا يتصدى بها للمعرضين الذين يظهرون الاستغناء عنها ؛ فهي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها ..

هذا هو الميزان . ميزان الله . الميزان الذي توزن به القيم والاعتبارات ، ويقدر به الناس والأوضاع .. وهذه هي الكلمة . كلمة الله . الكلمة التي ينتهي إليها كل قول ، وكل حكم ، وكل فصل .

وأيّن هذا ؟ ومتى ؟ في مكة ، والدعوة مطاردة ، والمسلمون قلة . والتصدي للكبراء لا ينبعث من مصلحة ذاتية ؛ والانشغال عن الأعمى الفقير لا ينبعث من اعتبار شخصي . إنما هي الدعوة أولاً وأخيراً . ولكن الدعوة إنما هي هذا الميزان ، وإنما هي هذه القيم ، وقد جاءت لتقرر هذا الميزان وهذه القيم في حياة البشر . فهي لا تعز ولا تقوى ولا تنصّر إلا بإقرار هذا الميزان وهذه القيم ..

ثم إن الأمر - كما تقدم - أعظم وأشمل من هذا الحادث المفرد ، ومن موضوعه المباشر . إنما هو أن يتلقى الناس الموازين والقيم من السماء لا من الأرض ، ومن الاعتبارات السماوية لا من الاعتبارات الأرضية .. « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .. والأكرم عند الله هو الذي يستحق الرعاية والاهتمام والاحتفال ، ولو تجرد من كل المقومات والاعتبارات الأخرى ، التي يتعارف عليها الناس تحت ضغط واقعهم الأرضي ومواضعاتهم الأرضية . النسب والقوة والمال .. وسائر القيم الأخرى ، لا وزن لها حين تتعزى عن الإيمان والتقوى . والحالة الوحيدة التي يصح لها فيها وزن واعتبار هي حالة ما إذا أنفقت لحساب الإيمان والتقوى .

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي استهدف التوجيه الإلهي إقرارها في هذه المناسبة ، على طريقة القرآن في اتخاذ الحادث المفرد والمناسبة المحدودة ، وسيلة لإقرار الحقيقة المطلقة والمنهج المطرد .

* * *

ولقد انفعلت نفس الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهذا التوجيه ، ولذلك العتاب . انفعلت بقوة وحرارة ، واندفعت إلى إقرار هذه الحقيقة في حياته كلها ، وفي حياة الجماعة المسلمة . بوصفها هي حقيقة الإسلام الأولى . وكانت الحركة الأولى له - صلى الله عليه وسلم - هي إعلان ما نزل له من التوجيه والعتاب في الحادث . وهذا الإعلان أمر عظيم رائع حقاً . أمر لا يقوى عليه إلا رسول ، من أي جانب نظرنا إليه في حينه . نعم لا يقوى إلا رسول على أن يعلن للناس أنه عوتب هذا العتاب الشديد ، بهذه الصورة الفريدة في خطأ أتاه ! وكان يكفي لأي عظيم - غير الرسول - أن يعرف هذا الخطأ وأن يتلافاه في المستقبل . ولكنها النبوة . أمر آخر . وآفاق أخرى !

لا يقوى إلا رسول على أن يقذف بهذا الأمر هكذا في وجوه كبراء قريش في مثل تلك الظروف التي كانت فيها الدعوة ، مع أمثال هؤلاء المستعزين بنسبهم وجاههم ومالهم وقوتهم ، في بيئة لا مكان فيها لغير هذه الاعتبارات ، إلى حد أن يقال فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ! » .. وهذا نسبه فيهم ، لمجرد أنه هو شخصياً لم تكن له رئاسة فيهم قبل الرسالة ! ثم إنه لا يكون مثل هذا الأمر في مثل هذه البيئة إلا من وحي السماء . فما يمكن أن ينبثق هذا من الأرض .. ومن هذه الأرض بذاتها في ذلك الزمان !

وهي قوة السماء التي دفعت مثل هذا الأمر في طريقه ؛ فإذا هو ينفذ من خلال نفس النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى البيئة من حوله ؛ فيتقرر فيها بعمق وقوة واندفاع ، يطرد به أزماناً طويلة في حياة الأمة المسلمة . لقد كان ميلاداً جديداً للبشرية كميلاد الإنسان في طبيعته . وأعظم منه خطراً في قيمته . أن ينطلق الإنسان حقيقة - شعوراً وواقعاً - من كل القيم المتعارف عليها في الأرض ، إلى قيم أخرى تنزل له من السماء منفصلة منعزلة عن كل ما في الأرض من قيم وموازين وتصورات واعتبارات وملابسات عملية ، وارتباطات واقعية ذات ضغط وثقل ، ووشائج متلبسة باللحم والدم والأعصاب والمشاعر . ثم أن تصبح القيم الجديدة مفهومة من الجميع ، مسلماً بها من الجميع . وأن يستحيل الأمر العظيم الذي احتاجت نفس محمد - صلى الله عليه وسلم - كي تبلغه إلى التنبيه والتوجيه ، أن يستحيل هذا الأمر العظيم بديهية الضمير المسلم ، وشرعية المجتمع المسلم ، وحقيقة الحياة الأولى في المجتمع الإسلامي لآمد طويلة في حياة المسلمين .

إننا لا نكاد ندرك حقيقة ذلك الميلاد الجديد . لأننا لا نتمثل في ضائرتنا حقيقة هذا الانطلاق من كل ما تنشئه أوضاع الأرض وارتباطاتها من قيم وموازين واعتبارات ساحقة الثقل إلى الحد الذي يخجل لبعض أصحاب المذاهب « التقدمية ! » أن جانباً واحداً منها - هو الأوضاع الاقتصادية - هو الذي يقرر مصائر الناس وعقائدهم وفنونهم وآدابهم وقوانينهم وعرفهم وتصورهم للحياة ! كما يقول أصحاب مذهب التفسير المادي للتاريخ في ضيق أفق ، وفي جهالة طاغية بحقائق النفس وحقائق الحياة !

إنها المعجزة . معجزة الميلاد الجديد للإنسان على يد الإسلام في ذلك الزمان ..

* * *

ومنذ ذلك الميلاد سادت القيم التي صاحبت ذلك الحادث الكوني العظيم .. ولكن المسألة لم تكن هينة ولا يسيرة في البيئة العربية ، ولا في المسلمين أنفسهم .. غير أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد استطاع - بإرادة الله ، وبتصرفاته هو وتوجيهاته المنبثقة من حرارة انفعاله بالتوجيه القرآني الثابت - أن يزرع هذه الحقيقة في الضمائر وفي الحياة ؛ وأن يحرسها ويرعاها ، حتى تتأصل جذورها ، وتمتد فروعها ، وتظل حياة الجماعة المسلمة قروناً طويلة .. على الرغم من جميع عوامل الانتكاس الأخرى ..

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد هذا الحادث يهش لابن أم مكتوم ويرعاه ؛ ويقول له كلما لقيه : « أهلاً بمن عاتبني فيه ربي » وقد استخلفه مرتين بعد الهجرة على المدينة ..

ولكي يحطم موازين البيئة وقيمها المنبثقة من اعتبار الأرض ومواضعاتها ، زوج بنت خالته زينب بنت جحش الأسدية ، لمولاه زيد بن حارثة . ومسألة الزواج والمصاهرة مسألة حساسة شديدة الحساسية . وفي البيئة العربية بصفة خاصة .

وقبل ذلك حينما آخى بين المسلمين في أول الهجرة ، جعل عمه حمزة ومولاه زيداً أخوين . وجعل خالد بن رويحة الخثعمي وبلال بن رباح أخوين !

وبعث زيداً أميراً في غزوة مؤتة ، وجعله الأمير الأول ، يليه جعفر بن أبي طالب ، ثم عبد الله بن رواحة الأنصاري ، على ثلاثة آلاف من المهاجرين والأنصار ، فيهم خالد بن الوليد .

وخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنفسه يشيعهم .. وهي الغزوة التي استشهد فيها الثلاثة رضي الله عنهم . وكان آخر عمل من أعماله - صلى الله عليه وسلم - أن أمر أسامة بن زيد على جيش لغزو الروم ، يضم كثرة من المهاجرين والأنصار ، فيهم أبو بكر وعمر وزياد ، وصاحبه ، والخليفان بعده بإجماع المسلمين . وفيهم سعد بن أبي وقاص قريبه - صلى الله عليه وسلم - ومن أسبق قریش إلى الإسلام .

وقد تملأ بعض الناس من إمارة أسامة وهو حدث . وفي ذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما - : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعثاً أمر عليهم أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - فطعن بعض الناس في إمارته ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل . وأيم الله إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحب الناس إلي . وإن هذا لمن أحب الناس إلي^١ ..

ولما لغطت ألسنة بشأن سلمان الفارسي ، وتحدثوا عن الفارسية والعربية ، بحكم إحصاءات القومية الضيقة ، ضرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ضربته الحاسمة في هذا الأمر فقال : « سلمان منا أهل البيت^٢ » فتجاوز به - بقيم السماء وميزانها - كل آفاق النسب الذي يستعزون به ، وكل حدود القومية الضيقة التي يتحمسون لها .. وجعله من أهل البيت رأساً !

ولما وقع بين أبي ذر الغفاري وبلال بن رباح - رضي الله عنهما - ما أفلت معه لسان أبي ذر بكلمة « يا بن السوداء » .. غضب لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غضباً شديداً ؛ وألقاها في وجه أبي ذر عنيفة مخيفة :

(١) أخرجه الشيخان والترمذي .

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم .

« يا أبا ذر طفّ الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل^١ ». ففرق في الأمر إلى جذوره البعيدة .. إما إسلام فهي قيم السماء وموازين السماء . وإما جاهلية فهي قيم الأرض وموازين الأرض ! ووصلت الكلمة النبوية بحرارتها إلى قلب أبي ذر الحساس ، فانفعل لها أشد الانفعال ، ووضع جبهته على الأرض يقسم ألا يرفعها حتى يطأها بلال . تكفيراً عن قوله الكبيرة !

وكان الميزان الذي ارتفع به بلال هو ميزان السماء .. عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام منفعة عندك . فإني سمعت الليلة خشف نعليك بين يدي في الجنة » . فقال : ما عملت في الإسلام عملاً أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي^٢ .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول عن عمار بن ياسر وقد استأذن عليه : « ائذنوا له مرحباً بالطيب المطيب »^٣ .. وقال عنه : « ملئ عمار - رضي الله عنه - إيماناً إلى مشاشه^٤ » .. وعن حذيفة - رضي الله عنه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقننوا بالذين من بعدي - وأشار إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما - واهتدوا بهدي عمار . وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه »^٥ .

وكان ابن مسعود يحسبه الغريب عن المدينة من أهل بيت رسول الله .. عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال : قدمت أنا وأخي من اليمن ، فمكثنا حيناً وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كثرة دخولهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولزومهم له^٦ .

وجليبيب - وهو رجل من الموالي - كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب له بنفسه ليزوجه امرأة من الأنصار . فلما تأبى أبواها قالت هي : أتريدون أن تردوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمره ؟ إن كان قد رضيكم فأنكحوه . فرضيا وزوجاها^٧ .

وقد افتقده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الواقعة التي استشهد فيها بعد فترة قصيرة من زواجه .. عن أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مغزى له ، فأفاء الله عليه . فقال لأصحابه : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم فلاناً وفلاناً وفلاناً . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » قالوا : نعم . فلاناً وفلاناً وفلاناً . ثم قال : « هل تفقدون من أحد ؟ » فقالوا : لا . قال : « لكنني أفقد جليبيباً » فطلبوه ، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثم قتلوه . فأثنى النبي - صلى الله عليه وسلم - فوقف عليه ، ثم قال : قتل سبعة ثم قتلوه . هذا مني وأنا منه . هذا مني وأنا منه . ثم وضعه على ساعديه ، ليس له سرير إلا ساعدا النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : فحضر له ، ووضع في قبره ولم يذكر غسلًا^٨ .

* * *

(١) أخرجه ابن المبارك في البر والصلة مع اختلاف .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه الترمذي .

(٤) أخرجه النسائي .

(٥) أخرجه الترمذي .

(٦) أخرجه الشيخان والترمذي .

(٧) من حديث في مسند الإمام أحمد عن أنس .

(٨) أخرجه مسلم .

بذلك التوجيه الإلهي وبهذا الهدى النبوي كان الميلاد للبشرية على هذا النحو الفريد . ونشأ المجتمع الرباني الذي يتلقى قيمه وموازينه من السماء ، طليقاً من قيود الأرض ، بينما هو يعيش على الأرض .. وكانت هذه هي المعجزة الكبرى للإسلام . المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة إله ، وبعمل رسول . والتي تدل بذاتها على أن هذا الدين من عند الله ، وأن الذي جاء به للناس رسول !

وكان من تدبير الله لهذا الأمر أن يليه بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صاحبه الأول أبو بكر ، وصاحبه الثاني عمر .. أقرب اثنين لإدراك طبيعة هذا الأمر ، وأشد اثنين انطباعاً بهدي رسول الله ، وأعمق اثنين حباً لرسول الله ، وحرصاً على تتبع مواضع حبه ومواقع خطاه .

حفظ أبو بكر - رضي الله عنه - عن صاحبه - صلى الله عليه وسلم - ما أَراده في أمر أسامة . فكان أول عمل له بعد توليه الخلافة هو إنفاذه بعث أسامة ، على رأس الجيش الذي أعده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسار يودعه بنفسه إلى ظاهر المدينة . أسامة راكب وأبو بكر الخليفة راجل . فيستحيي أسامة الفتى الحدث أن يركب والخليفة الشيخ يمشي . فيقول : « يا خليفة رسول الله لتركن أولاً تنزلن » .. فيقسم الخليفة : « والله لا تنزل . والله لا أركب . وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ؟ » ..

ثم يرى أبو بكر أنه في حاجة إلى عمر . وقد حمل عبء الخلافة الثقيل . ولكن عمر إنما هو جندي في جيش أسامة . وأسامة هو الأمير . فلا بد من استئذانه فيه . فإذا الخليفة يقول : « إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل » .. يا لله ! إن رأيت أن تعينني فافعل .. إنها آفاق عوال ، لا يرقى إليها الناس إلا بإرادة الله ، على يدي رسول من عند الله !

ثم تمضي عجلة الزمن فترى عمر بن الخطاب خليفة يولي عمار بن ياسر على الكوفة .

ويقف بباب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام ، وأبو سفيان بن حرب ، وجماعة من كبار قريش من الطلقاء ! فيأذن قبلهم لصهيب وبلال . لأنهما كانا من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر . فتورم أنف أبي سفيان ، ويقول بانفعال الجاهلية : « لم أر كاليوم قط . يأذن هؤلاء العبيد ويتركنا على باب ! » .. فيقول له صاحبه - وقد استقرت في حسه حقيقة الإسلام - : « أيها القوم . إني والله أرى الذي في وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دعي القوم إلى الإسلام ودعيتم . فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتهم ؟ » .

ويفرض عمر لأسامة بن زيد أكبر مما يفرض لعبد الله بن عمر . حتى إذا سأله عبد الله عن سر ذلك قال له : « يا بني . كان زيد - رضي الله عنه - أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أبيك ! وكان أسامة - رضي الله عنه - أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منك ! فأثرت حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علي حبي » ^٢ .. يقولها عمر وهو يعلم أن حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما كان مقوماً بميزان السماء !

ويرسل عمر عماراً ليحاسب خالد بن الوليد - القائد المظفر صاحب النسب العريق - فليبه بردائه .. ويروى أنه أوثقه بشال عمامته حتى ينتهي من حسابه فتظهر براءته فيفك وثاقه ويعممه بيده .. وخالد لا يرى في هذا

(١) عن كتاب : العدالة الاجتماعية في الإسلام . « دار الشروق » .

(٢) أخرجه الترمذي .

كله بأساً . فإنما هو عمار صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - السابق إلى الإسلام الذي قال عنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال !

وعمر هو الذي يقول عن أبي بكر - رضي الله عنهما - هو سيدنا وأعتق سيدنا . يعني بلالاً . الذي كان مملوكاً لأمية بن خلف . وكان يعذبه عذاباً شديداً . حتى اشتراه منه أبو بكر وأعتقه .. وعنه يقول عمر بن الخطاب .. عن بلال .. سيدنا !

وعمر هو الذي قال : « لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً لاستخلفته » يقول هذا ، وهو لم يستخلف عثمان ولا علياً ، ولا طلحة ولا الزبير .. إنما جعل الشورى في الستة بعده ولم يستخلف أحداً بذاته !

وعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - يرسل عماراً والحسن بن علي - رضي الله عنهما - إلى أهل الكوفة يستنفرهم في الأمر الذي كان بينه وبين عائشة - رضي الله عنها - فيقول : « إني لأعلم أنها زوجة نبيكم - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا والآخرة ، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو تتبوه »^١ .. فيسمع له الناس في شأن عائشة أم المؤمنين ، وبنت الصديق أبي بكر - رضي الله عنهم جميعاً .

وبلال بن رباح يرجوه أخوه في الإسلام أبو رويحة الخثعمي أن يتوسط له في الزواج من قوم من أهل اليمن . فيقول لهم : « أنا بلال بن رباح ، وهذا أخي أبو رويحة ، وهو امرؤ سوء في الخلق والدين . فإن شتم أن تزوجه فزوجه ، وإن شتم أن تدعوا فدعوا » .. فلا يدلّس عليهم ، ولا يخفي من أمر أخيه شيئاً ، ولا يذكر أنه وسيط وينسى أنه مسؤول أمام الله فيما يقول .. فيطمئن القوم إلى هذا الصدق .. ويزوجون أخاه ، وحسبهم - وهو العربي ذو النسب - أن يكون بلال المولى الحبشي وسيطه !

* * *

واستقرت تلك الحقيقة الكبيرة في المجتمع الإسلامي ، وظلت مستقرة بعد ذلك آماداً طويلة على الرغم من عوامل الانتكاس الكثيرة . « وقد كان عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاة عكرمة . وكان عبد الله ابن عمر يذكر ويذكر معه مولاة نافع . وأنس بن مالك ومعه مولاة ابن سيرين . وأبو هريرة ومعه مولاة عبد الرحمن بن هرمز . وفي البصرة كان الحسن البصري . وفي مكة كان مجاهد بن جبر ، وعطاء بن رباح ، وطاووس بن كيسان هم الفقهاء . وفي مصر تولى الفتيا يزيد بن أبي حبيب في أيام عمر بن عبد العزيز وهو مولى أسود من دنقلة »^٢ ..

وظل ميزان الساء يرجح بأهل التقوى ولو تجردوا من قيم الأرض كلها .. في اعتبار أنفسهم وفي اعتبار الناس من حولهم . ولم يرفع هذا الميزان من الأرض إلا قريباً جداً بعد أن طغت الجاهلية طغياناً شاملاً في أنحاء الأرض جميعاً . وأصبح الرجل يقوم برصيده من الدولارات في أمريكا زعيمة الدول الغربية . وأصبح الإنسان كله لا يساوي الآلة في المذهب المادي المسيطر في روسيا زعيمة الدول الشرقية . أما أرض المسلمين فقد سادت فيها الجاهلية الأولى ، التي جاء الإسلام ليرفعها من هذتها ؛ وانطلقت فيها نعرات كان الإسلام قد قضى عليها . وحطمت ذلك الميزان الإلهي وارتدت إلى قيم جاهلية زهيدة لا تمت بصلة إلى الإيمان والتقوى ..

ولم يعد هنالك إلا أمل بناط بالدعوة الإسلامية أن تنقذ البشرية كلها مرة أخرى من الجاهلية ؛ وأن يتحقق

(١) أخرجه البخاري .

(٢) مستقى من كتاب أبو حنيفة للأستاذ عبد الحلیم الجندي .

على يديها ميلاد جديد للإنسان كالميلاد الذي شهدته أول مرة ، والذي جاء ذلك الحادث الذي حكاه مطلع هذه السورة ليعلمه في تلك الآيات القليلة الحاسمة العظيمة ..

* * *

وبعد تقرير تلك الحقيقة الكبيرة في ثنايا التعقيب على ذلك الحادث ، في المقطع الأول من السورة ، يعجب السياق في المقطع الثاني من أمر هذا الإنسان ، الذي يعرض عن الهدى ، ويستغني عن الإيمان ، ويستعلي على الدعوة إلى ربه .. يعجب من أمره وكفره ، وهو لا يذكر مصدر وجوده ، وأصل نشأته ، ولا يرى عناية الله به وهيمته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة ؛ ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه :

« قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره . كلا ! لما يقض ما أمره » ..

« قتل الإنسان ! » .. فإنه ليستحق القتل على عجب تصرفه .. فهي صيغة تفضيع وتقبيح وتشنيع لأمره . وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته ..

« ما أكفره ! » .. ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته . ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه ، ولتواضع في ديناه ، ولذكر آخرته ..

وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويعرض ؟ وما هو أصله وما هو مبدؤه ؟
« من أي شيء خلقه ؟ » ..

إنه أصل متواضع زهيد ، يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتديره :
« من نطفة خلقه فقدره » ..

من هذا الشيء الذي لا قيمة له ؛ ومن هذا الأصل الذي لا قوام له .. ولكن خالقه هو الذي قدره . قدره . من تقدير الصنع وإحكامه . وقدره : من منحه قدراً وقيمة فجعله خلقاً سوياً ، وجعله خلقاً كريماً . وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع ، إلى المقام الرفيع الذي تسخر له فيه الأرض وما عليها .
« ثم السبيل يسره » ..

فهد له سبيل الحياة . أو مهد له سبيل الهداية . ويسره لسلوكه بما أودعه من خصائص واستعدادات . سواء رحلة الحياة ، أو للاهتداء فيها .

حتى إذا انتهت الرحلة ، صار إلى النهاية التي يصير إليها كل حي . بلا اختيار ولا فرار :
« ثم أماته فأقبره » ..

فأمره في نهايته كأمره في بدايته ، في يد الذي أخرجه إلى الحياة حين شاء ، وأنهى حياته حين شاء ، وجعل مثواه جوف الأرض ، كرامة له ورعاية ، ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر . وأودع فطرته الحرص على مواراة ميتة وقبره . فكان هذا طرفاً من تديره له وتقديره .

حتى إذا حان الموعد الذي اقتضته مشيئته ، أعاده إلى الحياة لما يراى به من الأمر :
« ثم إذا شاء أنشره » ..

فليس متروكاً سدى ؛ ولا ذاهباً بلا حساب ولا جزاء .. فهل تراه تهباً لهذا الأمر واستعد ؟

« كلا ! لما يقض ما أمره » ..

الإنسان عامة ، بأفراذه جملة ، وبأجياله كافة .. لما يقض ما أمره .. إلى آخر لحظة في حياته . وهو الإيحاء الذي يلقيه التعبير بلما . كلا إنه لمقصر ، لم يؤد واجبه . لم يذكر أصله ونشأته حق الذكرى .. ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر . ولم يقض هذه الرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب والجزاء .. هو هكذا في مجموعه . فوق أن الكثرة تعرض وتتولى ، وتستغني وتتكبر على الهدى !

* * *

ويتنقل السياق إلى لمسة أخرى في مقطع جديد .. فتلك هي نشأة هذا الإنسان .. فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه في هذه الرحلة ؟ وهي شيء واحد من أشياء يسرها له خالقه ؟
« فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا . متاعاً لكم ولأنعامكم » ..

هذه هي قصة طعامه . مفصلة مرحلة مرحلة . هذه هي فلينظر إليها : فهل له من يد فيها ؟ هل له من تدبير لأمرها ؟ إن اليد التي أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته ، هي ذاتها اليد التي أخرجت طعامه وأبدعت قصته ..
« فلينظر الإنسان إلى طعامه » .. ألصق شيء به ، وأقرب شيء إليه ، وألزم شيء له .. لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضروري الحاضر المكرر . لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة ، فإن يسرها ينسبه ما فيها من العجب . وهي معجزة كمعجزة خلقه ونشأته . وكل خطوة من خطواتها بيد القدرة التي أبدعته :

« أنا صببنا الماء صباً » .. وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة ، في أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة . فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان . فأما حين تقدم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهداً من هذا المطر الذي يتكرر اليوم ويراه كل أحد . وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التي يتبخر ماؤها ثم ينزل في صورة مطر ، أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولاً في السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صباً !

وفي هذا يقول أحد علماء العصر الحاضر : « إذا كان صحيحاً أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالي ١٢,٠٠٠ درجة . أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض . فعندئذ كانت كل العناصر حرة . ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيميائي ذي شأن . ولما أخذت الكرة الأرضية ، أو الأجزاء المكونة لها في أن تبرد تدريجياً ، حدثت تركيبات ، وتكونت خلية العالم كما نعرفه . وما كان للأكسجين والهيدروجين أن يتحدوا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فارنهايت . وعند هذه النقطة اندفعت معاً تلك العناصر ، وكونت الماء الذي نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية . ولا بد أنه كان هائلاً في ذلك الحين . وجميع المحيطات كانت في السماء . وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتحدت كانت غازات في الهواء . وبعد أن تكون الماء في الجو الخارجي سقط نحو الأرض . ولكنه لم يستطع الوصول إليها . إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال . وبالطبع جاء الوقت الذي صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطير منها ثانياً في شكل بخار . ولما كانت المحيطات في الهواء فإن الفيضانات التي كانت تحدث مع تقدم التبريد كانت فوق الحساب . وتمشى الجيشان مع التفتت الخ »^١ .

(١) عن كتاب : الإنسان لا يقوم وحده تأليف « أ . كريسي موريسون » وترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

وهذا الفرض - ولو أننا لا نعلق به النص القرآني - يوسع من حدود تصورنا نحن للنص والتاريخ الذي يشير إليه . تاريخ صب الماء صباً . وقد يصح هذا الفرض ، وقد تجد فروض أخرى عن أصل الماء في الأرض . ويبقى النص القرآني صالحاً لأن يخاطب به كل الناس في كل بيئة وفي كل جيل .

ذلك كان أول قصة الطعام : « أنا صبينا الماء صباً » .. ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء في أي صورة من صوره ، وفي أي تاريخ لحدوثه ؛ ولا أنه صبه على الأرض صباً ، لتسير قصة الطعام في هذا الطريق ! ثم شققنا الأرض شقاً .. وهذه هي المرحلة التالية لصب الماء . وهي صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائي الذي يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته ، وتدبير غير تدبيره . ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها . أو يرى النبت يشق تربة الأرض شقاً بقدرة الخالق وينمو على وجهها ، ويمتد في الهواء فوقها .. وهو نحيل نحيل ، والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة . ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقاً ، وتعيّنه على النفاذ فيها وهو نازل لين لطيف . وهي معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة ؛ ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة في النبتة الرخية .

فأما حين تقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصور في هذا النص . وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور . إنه قد يكون ذلك التفتت في صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة التي يشير إليها الفرض العلمي السابق . وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التي يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتت الصخور الصلبة التي كانت تكسو وجه الأرض وتكون قشرتها ؛ حتى وجدت طبقة الطمي الصالحة للزراعة . وكان هذا أثراً من آثار الماء تالياً في تاريخه لصب الماء صباً . مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذي تشير إليه النصوص ..

وسواء كان هذا أم ذاك أم سواهما هو الذي حدث ، وهو الذي تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة في القصة هي النبات بكل صنفه وأنواعه . التي يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين ، وأعمها في طعام الناس والحيوان :

« فأنبتنا فيها حباً » .. وهو يشمل جميع الحبوب . ما يأكله الناس في أية صورة من صوره ، وما يتغذى به الحيوان في كل حالة من حالاته .

« وعنباً وقضباً » .. والعنب معروف . والقضب هو كل ما يؤكل رطباً غصاً من الخضر التي تقطع مرة بعد أخرى .. « وزيتوناً ونخللاً » وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا » .. والزيتون والنخل معروفان لكل عربي ، والحدائق جمع حديقة ، وهي البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بحوائط تحميها . و « غلبا » جمع غلباء . أي ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار . والفاكهة من ثمار الحدائق و « الأب » أغلب الظن أنه الذي ترعاه الأنعام . وهو الذي سأل عنه عمر بن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوماً ! كما سبق في الحديث عن سورة النازعات ! فلا نزيد نحن شيئاً ! هذه هي قصة الطعام . كلها من إبداع اليد التي أبدعت الإنسان . وليس فيها للإنسان يد يدعيها ، في أية مرحلة من مراحلها .. حتى الحبوب والبذور التي قد يلقيها هو في الأرض .. إنه لم يدعيها ، ولم يبتدعها . والمعجزة في إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه . والتربة واحدة بين يديه ، ولكن البذور والحبوب متنوعة ، وكل منها يؤتي أكله في القطع المتجاورات من الأرض . وكلها تسقى بماء واحد ، ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار ؛ وتحفظ في البذرة الصغيرة خصائص أمها التي ولدتها فتنتقلها إلى بنتها التي تلدها .. كل أولئك في خفية عن الإنسان ! لا يعلم سرها ولا يقضي أمرها ، ولا يستشار في شأن من شؤونها ..

هذه هي القصة التي أخرجتها يد القدرة :

« متاعاً لكم ولأنعامكم » .. إلى حين . ينتهي فيه هذا المتاع ؛ الذي قدره الله حين قدر الحياة . ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع . أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجيء :

* * *

« فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .. وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قفرة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » ..

فهذه هي خاتمة المتاع . وهذه هي التي تتفق مع التقدير الطويل ، والتدبير الشامل ، لكل خطوة وكل مرحلة في نشأة الإنسان . وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع . مع الذي جاء يسعى وهو يخشى . والذي استغنى وأعرض عن الهدى . ثم هذان هما في ميزان الله .

« والصاخة لفظ ذو جرس عنيف نافذ ، يكاد يخرق صهاخ الأذن ، وهو يشق الهواء شقاً ، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً !

« وهو يمهّد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه : مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به : « يوم يفر المرء من أخيه وأمّه وأبيه ، وصاحبته وبنيه » .. أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ؛ ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقاً ، وتقطع تلك الشوائج تقطيعاً .

« وال هول في هذا المشهد هول نفسي بحت ، يفزع النفس ويفصلها عن محيطها . ويستبد بها استبداداً . فلكل نفسه وشأنه ، ولديه الكفاية من المهم الخاص به ، الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » ..

« والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفي طياتها ظلال عميقة سحيقة . فما يوجد أخضر ولا أشمل من هذا التعبير ، لتصوير المهم الذي يشغل الحس والضمير : « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » !

ذلك حال الخلق جميعاً في هول ذلك اليوم .. إذا جاءت الصاخة .. ثم يأخذ في تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين ، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك :

« وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة » ..

فهذه وجوه مستنيرة منيرة متلله ضاحكة مستبشرة ، راجية في ربها ، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها . فهي تنجو من هول الصاخة المذهل لتلهل وتستنير وتضحك وتستبشر . أو هي قد عرفت مصيرها ، وتبين لها مكانها ، قهلت واستبشرت بعد الهول المذهل ..

« ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قفرة . أولئك هم الكفرة الفجرة » ..

فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة ، ويغشاها سواد الذل والانقباض . وقد عرفت ما قدمت ، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء .. « أولئك هم الكفرة الفجرة » .. الذين لا يؤمنون بالله وبرسالاته ، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرّماته ..

الجزء الثلاثون

وفي هذه الوجوه وتلك قد ارتسم مصير هؤلاء وهؤلاء . ارتسم ملامح وسمات من خلال الألفاظ والعبارات . وكأنما الوجوه شاخصة ، لقوة التعبير القرآني ودقة لمساته .

بذلك يتناسق المطلع والختام .. المطلع يقرر حقيقة الميزان . والختام يقرر نتيجة الميزان . وتستقل هذه السورة القصيرة بهذا الحشد من الحقائق الضخام ، والمشاهد والمناظر ، والإيقاعات والموجيات . وتني بها كلها هذا الوفاء الجميل الدقيق ..

* * *

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيْنِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا تِسْعٌ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ❶ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ❷ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ❸ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ❹
وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ❺ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ❻ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ❼ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيلَتْ ❽
بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ ❾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ❿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⓫ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ⓬
وَإِذَا الْجَنَّةُ أَزْلِفَتْ ⓭ عَلَيَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ⓮
فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ❶٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ❶٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ❶٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ❶٨
إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ❶٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ❷٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ❷١ وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَعْجُونٍ ❷٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقى الْأَمِينِ ❷٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ❷٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ❷٥
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ❷٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ❷٧ لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ❷٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ❷٩

هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة :
الأولى حقيقة القيامة ، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل ، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار ،
والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل بني الإنسان .
والثانية حقيقة الوحي ، وما يتعلق بها من صفة الملك الذي يحمله ، وصفة النبي الذي يتلقاه ، ثم شأن القوم
المخاطبين بهذا الوحي معه ، ومع المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزلت لهم الوحي .
والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة . تنطلق من عقلاها ، فتقلب كل شيء ، وتثر كل شيء ؛ وتهيج

الساكن وتروع الآمن ؛ وتذهب بكل مألوف وتبدل كل معهود ؛ وتهز النفس البشرية هزاً عتيفاً طويلاً ، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه ، وتتشبث به ، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار . ولا ملاذ لها ولا ملجأ إلا في حمى الواحد القهار ، الذي له وحده البقاء والدوام ، وعنده وحده القرار والاطمئنان ..

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن ، لتلوذ بكنف الله ، وتأوي إلى حماه ، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار ..

وفي السورة - مع هذا - ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة ، سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه ، أو في ذلك اليوم الآخر الذي يتقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع . وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة ! المتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات . وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق ، فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء .

ولولا أن في التعبير ألفاظاً وعبارات لم تعد مألوفاً ولا واضحة للقارئ في هذا الزمان ، لآثرت ترك السورة تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها ، مالا تؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر ؛ وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب قهزها من الأعماق .

ولكن لا بد مما ليس منه بد . وقد بعدنا في زماننا هذا عن مألوف لغة القرآن !

* * *

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت : بأي ذنب قتلت ؟ وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت .. علمت نفس ما أحضرت » ..

هذا هو مشهد الانقلاب التام لكل معهود ، والثورة الشاملة لكل موجود . الانقلاب الذي يشمل الأجرام السماوية والأرضية ، والوحوش النافرة والأنعام الأليفة ، ونفوس البشر ، وأوضاع الأمور . حيث ينكشف كل مستور ، ويعلم كل مجهول ؛ وتقف النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب . وكل شيء من حولها عاصف ؛ وكل شيء من حولها مقلوب !

وهذه الأحداث الكونية الضخام تشير بجملتها إلى أن هذا الكون الذي نعهده . الكون المنسق الجميل ، الموزون الحركة ، المضبوط النسبة ، المتين الصنعة ، المبني بأيد وإحكام . أن هذا الكون سينفرط عقد نظامه ، وتتناثر أجزاؤه ، وتذهب عنه صفاته هذه التي يقوم بها ؛ وينتهي إلى أجله المقدر ، حيث تنتهي الخلائق إلى صورة أخرى من الكون ومن الحياة ومن الحقائق غير ما عهدت نهائياً في هذا الكون المعهود .

وهذا ما تستهدف السورة إقراره في الشاعر والقلوب كي تنفصل من هذه المظاهر الزائلة - مهما بدت لها ثابتة - وتتصل بالحقيقة الباقية .. حقيقة الله الذي لا يحول ولا يزول ، حين يحول كل شيء من الحوادث ويزول . ولكي تنطلق من إيسار المعهود المألوف في هذا الكون المشهود . إلى الحقيقة المطلقة التي لا تنقيد بزمان ولا مكان ولا رؤية ولا حس ، ولا مظهر من المظاهر التي تقيدتها في ظرف أو إطار محدود !

وهذا هو الشعور العام الذي ينسرب إلى النفس وهي تطالع مشاهد هذا الانقلاب المروع .

فأما حقيقة ما يجري لكل هذه الكائنات ، فعلمها عند الله ؛ وهي حقيقة أكبر من أن ندركها الآن بمشاعرنا

وتصوراتنا المقيدة بمألوف حسنًا وتفكيرنا .. وأكبر ما نعهده من الانقلابات هو أن ترجف بنا الأرض في زلزال مدمر ، أو يتفجر من باطنها بركان جائح ، أو أن ينقض على الأرض شهاب صغير ، أو صاعقة .. وأشد ما عرفته البشرية من طغيان الماء كان هو الطوفان .. كما أن أشد ما رصدته من الأحداث الكونية كان هو انفجارات جزئية في الشمس على بعد مئات الملايين من الأميال ..

وهذه كلها بالقياس إلى ذلك الانقلاب الشامل الهائل في يوم القيامة .. تسليات أطفال !! !
فإذا لم يكن بد أن نعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري للكائنات ، فليس أمامنا إلا تقريبها في عبارات مما نألف في هذه الحياة !

* * *

إن تكوير الشمس قد يعني برودتها ، وانطفاء شعلتها ، وانكماش ألسنتها الملتببة التي تمتد من جوانبها كلها الآن إلى ألوف الأميال حولها في الفضاء . كما يتبدى هذا من المراصد في وقت الكسوف . واستحالتها من الغازية المنطلقة بتأثير الحرارة الشديدة التي تبلغ ١٢٠٠٠ درجة ، والتي تحول جميع المواد التي تتكون منها الشمس إلى غازات منطلقة ملتببة .. استحالتها من هذه الحالة إلى حالة تجمد كقشرة الأرض ، وتكور لا السنة له ولا امتداد !

قد يكون هذا ، وقد يكون غيره .. أما كيف يقع والعوامل التي تسبب وقوعه فعلم ذلك عند الله .

* * *

وانكدار النجوم قد يكون معناه انتشارها من هذا النظام الذي يربطها ، وانطفاء شعلتها وإظلام ضوئها .. والله أعلم ما هي النجوم التي يصيبها هذا الحادث . وهل هي طائفة من النجوم القريبة منا .. مجموعتنا الشمسية مثلاً . أو مجرتنا هذه التي تبلغ مئات الملايين من النجوم .. أم هي النجوم جميعها والتي لا يعلم عددها ومواضعها إلا الله . فواء ما نرى منها بمراصدنا مجرات وفضاءات لها لا نعرف لها عدداً ولا نهاية . فهناك نجوم سيصيبها الانكدار كما يقرر هذا الخبر الصادق الذي لا يعلم حقيقته إلا الله ..

* * *

وتسير الجبال قد يكون معناه نسفها وبسها وتذريتها في الهواء ، كما جاء في سورة أخرى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً » .. « وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً » .. « وسيرت الجبال فكانت سراباً » .. فكلها تشير إلى حدث كهذا يصيب الجبال ، فيذهب بنباتها ورسوخها وتماسكها واستقرارها ، وقد يكون مبدأ ذلك الزلزال الذي يصيب الأرض ، والذي يقول عنه القرآن : « إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها .. » وكلها أحداث تقع في ذلك اليوم الطويل ..

* * *

أما قوله سبحانه : « وإذا العشار عطلت » .. فالعشار هي النوق الحبالى في شهرها العاشر . وهي أجود وأثمن ما يملكه العربي . وهي في حالتها هذه تكون أغلى ما تكون عنده ، لأنها مرجوة الولد واللبن ، قريبة النفع . ففي هذا اليوم الذي تقع فيه هذه الأحوال تهمل هذه العشار وتعطل فلا تصبح لها قيمة ، ولا يهتم بشأنها أحد .. والعربي المخاطب ابتداء بهذه الآية لا يهمل هذه العشار ولا ينفذ يده منها إلا في حالة يراها أشد ما يلم به !

* * *

« وإذا الوحوش حشرت » .. فهذه الوحوش النافرة قد هالها الرعب والهول فحشرت وانزوت تتجمع من الهول وهي الشاردة في الشباب ؛ ونسيت مخاوفها بعضها من بعض ، كما نسيت فرائسها ، ومضت هائمة على وجوها ، لا تأوي إلى جحورها أو بيوتها كما هي عاداتها ، ولا تنطلق وراء فرائسها كما هو شأنها . فالهول والرعب لا يدعان لهذه الوحوش بقية من طباعها وخصائصها ! فكيف بالناس في ذلك الهول العصيب ؟ !

* * *

وأما تسجير البحار فقد يكون معناه ملؤها بالمياه . وإما أن تجيئها هذه المياه من فيضانات كالتي يقال إنها صاحبت مولد الأرض وبرودتها (التي تحدثنا عنها في سورة النازعات) وإما بالزلازل والبراكين التي تزيل الحواجز بين البحار فيتدفق بعضها في بعض .. وإما أن يكون معناه التها بها وانفجارها كما قال في موضع آخر : « وإذا البحار فجرت » .. فتفجير عناصرها وانفصال الأيدروجين عن الأكسجين فيها . أو تفجير ذراتها على نحو ما يقع في تفجير الذرة ، وهو أشد هولاً . أو على أي نحو آخر . وحين يقع هذا فإن نيراناً هائلة لا يتصور مداها تنطلق من البحار . فإن تفجير قدر محدود من الذرات في القنبلة الذرية أو الأيدروجينية يحدث هذا الهول الذي عرفته الدنيا ؛ فإذا انفجرت ذرات البحار على هذا النحو أو نحو آخر ، فإن الإدراك البشري يعجز عن تصور هذا الهول ؛ وتصور جهنم الهائلة التي تنطلق من هذه البحار الواسعة !

* * *

وتزويج النفوس يحتمل أن يكون هو جمع الأرواح بأجسادها بعد إعادة إنشائها . ويحتمل أن يكون ضم كل جماعة من الأرواح المتجانسة في مجموعة ، كما قال في موضع آخر : « وكنتم أزواجا ثلاثة » أي صنوفاً ثلاثة هم المقربون وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة . أو في غير ذلك من التشكيلات المتجانسة !

* * *

« وإذا الموءودة سئلت : بأي ذنب قتلت ؟ » وقد كان من هوان النفس الإنسانية في الجاهلية أن انتشرت عادة وأد البنات خوف العار أو خوف الفقر . وحكى القرآن عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية ، التي جاء الإسلام ليرفع العرب من وهنتها ، ويرفع البشرية كلها . فقال في موضع : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ! » .. وقال في موضع : « وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً (أي البنات) ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ » .. وقال في موضع ثالث : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » ..

وكان الوأد يتم في صورة قاسية . إذ كانت البنت تدفن حية ! وكانوا يفتنون في هذا بشتى الطرق . ففهم من كان إذا ولدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها ، ثم يقول لأمها : طيبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحمائها ! وقد حفر لها بئراً في الصحراء ، فيبلغ بها البئر ، فيقول لها : انظري فيها . ثم يدفعها دفعاً ويهيل التراب عليها ! وعند بعضهم كانت الوالدة إذا جاءها المخاض جلست فوق حفرة محفورة . فإذا كان المولود بنتاً رمت بها فيها وردمتها . وإن كان ابناً قامت به معها ! وبعضهم كان إذا نوى ألا يثد الوليدة أمسكها مهينة إلى أن تقدر على الرعي ، فيلبسها جبة من صوف أو شعر ويرسلها في البادية ترعى له إبله !

فأما الذين لا يثدون البنات ولا يرسلونهن للرعي ، فكانت لهم وسائل أخرى لإذاقتها الخسف والبخس .. كانت إذا تزوجت ومات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوبه . ومعنى هذا أن يمنعها من الناس فلا يتزوجها أحد

فإن أعجبه تزوجه ، لا عبرة برغبته هي ولا إرادتها ! وإن لم تعجبه حبسها حتى تموت فيرثها . أو أن تفتدي نفسها منه بمال في هذه الحالة أو تلك .. وكان بعضهم يطلق المرأة ويشترط عليها ألا تنكح إلا من أراد . إلا أن تفتدي نفسها منه بما كان أعطاها .. وكان بعضهم إذا مات الرجل حبسوا زوجته على الصبي فيهم حتى يكبر فيأخذها .. وكان الرجل تكون اليتيمة في حجره يلي أمرها ، فيحبسها عن الزواج ، رجاء أن تموت امرأته فيتزوجها ! أو يزوجه من ابنه الصغير طمعاً في مالها أو جمالها ..

فهذه كانت نظرة الجاهلية إلى المرأة على كل حال . حتى جاء الإسلام . يشنع بهذه العادات ويقبحها . وينهى عن الرأء ويغلظ فعلته . ويجعلها موضوعاً من موضوعات الحساب يوم القيامة . يذكره في سياق هذا الهول الهائج المائج ، كأنه حدث كوني من هذه الأحداث العظام . ويقول : إن الموعدة ستسأل عن وأدها .. فكيف بوائدها ؟ !

وما كان يمكن أن تنبت كرامة المرأة من البيئة الجاهلية أبداً ؛ لولا أن تنزل بها شريعة الله ونهجه في كرامة البشرية كلها ، وفي تكريم الإنسان : الذكر والأنثى ؛ وفي رفعه إلى المكان اللائق بكائن يحمل نفخة من روح الله العلي الأعلى . فن هذا المصدر انبثقت كرامة المرأة التي جاء بها الإسلام ، لا من أي عامل من عوامل البيئة .

وحين تحقق ميلاد الإنسان الجديد باستمداد القيم التي يتعامل بها من السماء لا من الأرض ، تحققت للمرأة الكرامة ، فلم يعد لضعفها وتكاليف حياتها المادية على أهلها وزن في تقويمها وتقديرها . لأن هذه ليست من قيم السماء ولا وزن لها في ميزانها . إنما الوزن للروح الإنساني الكريم المتصل بالله . وفي هذا يتساوى الذكر والأنثى .

وحين تعد الدلائل على أن هذا الدين من عند الله ، وأن الذي جاء به رسول أوحى إليه .. تعد هذه النقلة في مكانة المرأة إحدى هذه الدلائل التي لا تخطئ . حيث لم تكن توجد في البيئة أمارة واحدة ينتظر أن تنتهي بالمرأة إلى هذه الكرامة ؛ ولا دافع واحد من دوافع البيئة وأحوالها الاقتصادية بصفة خاصة لولا أن نزل النهج الإلهي ليصنع هذا ابتداء بدافع غير دوافع الأرض كلها ، وغير دوافع البيئة الجاهلية بصفة خاصة . فأنشأ وضع المرأة الجديد إنشاءً ، يتعلق بقيمة سماوية محضة وبميزان سماوي محض كذلك !

* * *

« وإذا الصحف نشرت » صحف الأعمال . ونشرها يفيد كشفها ومعرفتها ، فلا تعود خافية ولا غامضة . وهذه العلنية أشد على النفوس وأنكى . فكم من سوءة مستورة يخجل صاحبها ذاته من ذكرها ، ويرجف ويندوب من كشفها ! ثم إذا هي جميعها في ذلك اليوم منشورة مشهودة !

إن هذا النشر والكشف لون من ألوان الهول في ذلك اليوم ؛ كما أنه سمة من سمات الانقلاب حيث يكشف المخبوء ، ويظهر المستور ، ويفتضح المكنون في الصدور .

* * *

وهذا التكشف في خفايا الصدور يقابله في الكون مشهد مثله : « وإذا السماء كشطت » .. وأول ما يتبادر إلى الذهن من كلمة السماء هو هذا الغطاء المرفوع فوق الرؤوس . وكشطها إزالتها .. فأما كيف يقع هذا وكيف يكون فلا سبيل إلى الجزم بشيء . ولكننا نتصور أن ينظر الإنسان فلا يرى هذه القبة فوقه نتيجة لأي سبب يغير هذه الأوضاع الكونية ، التي توجد بها هذه الظاهرة . وهذا يكفي ..

* * *

ثم تجيء الخطوة الأخيرة في مشاهد ذلك اليوم الهائل المرهوب :
« وإذا الجحيم سعت . وإذا الجنة أزلقت » ..

حيث تتوقد الجحيم وتتسع ، ويزداد لهيبها ووهجها وحرارتها .. أما أين هي ؟ وكيف تتسع وتتوقد ؟ وبأي شيء تتوقد ؟ فليس لدينا من ذلك إلا قوله تعالى : « وقودها الناس والحجارة » . وذلك بعد إلقاء أهلها فيها . أما قبل ذلك فالله أعلم بها وبوقودها !

وحيث تقرب الجنة وتظهر لروادها الموعودين بها ، وتبدو لهم سهولة مدخلها ، ويسر ولوجها . فهي مزلفة مقربة مهياة . واللفظ كأنما يزحلقها أو يزحلق الأقدام بيسر إليها ! !

* * *

عندما تقع هذه الأحداث الهائلة كلها ، في كيان الكون ، وفي أحوال الأحياء والأشياء . عندئذ لا يبقى لدى النفوس شك في حقيقة ما عملت ، وما تزودت به لهذا اليوم ، وما حملت معها للعرض ، وما أحضرت للحساب :

« علمت نفس ما أحضرت » ..

كل نفس تعلم ، في هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها .. تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها .. تعلم وهي لا تملك أن تغير شيئاً مما أحضرت ، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه .. تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها ، معهود في حياتها أو تصورها . وقد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها . وقد تغير كل شيء وتبدل كل شيء ، ولم يبق إلا وجه الله الكريم ، الذي لا يتحول ولا يتبدل .. فما أولى أن تتجه النفوس إلى وجه الله الكريم ، فتجده - سبحانه - عندما يتحول الكون كله ويتبدل !
وبهذا الإيقاع ينتهي المقطع الأول وقد امتلأ الحس وفاض بمشاهد اليوم الذي يتم فيه هذا الانقلاب .

* * *

ثم يجيء المقطع الثاني في السورة يبدأ بالتلويح بالقسم بمشاهد كونية جميلة ، تختار لها تعبيرات أنيقة .. القسم على طبيعة الوحي ، وصفة الرسول الذي يحمله ، والرسول الذي يتلقاه ، وموقف الناس حياله وفق مشيئة الله :
« فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فآين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ..

والخنس الجوار الكنس .. هي الكواكب التي تخنس أي ترجع في دورتها الفلكية وتجري وتختفي . والتعبير يخلع عليها حياة رشيقة كحياة الظباء . وهي تجري وتختبئ في كناسها وترجع من ناحية أخرى . فهناك حياة تنبض من خلال التعبير الرشيق الأنيق عن هذه الكواكب ، وهناك إحياء شعوري بالجمال في حركتها . في اختفائها وفي ظهورها . في تواربها وفي سفورها . في جريها وفي عودتها . يقابله إحياء بالجمال في شكل اللفظ وجرسه .

« والليل إذا عسعس » .. أي إذا أظلم . ولكن اللفظ فيه تلك الإيحاءات كذلك . فلفظ عسعس مؤلف من مقطعين : عس . عس . وهو يوحى بجرسه بحياة في هذا الليل ، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى !

وهو إيداء عجب واختيار للتعبير رائع .

ومثله : « والصبح إذا تنفس » .. بل هو أظهر حيوية ، وأشد إيداء . والصبح حي يتنفس . أنفاسه النور والياة والحركة التي تدب في كل حي . وأكاد أجزم أن اللغة العربية بكل مأثوراتها التعبيرية لا تحتوي نظيراً لهذا التعبير عن الصبح . ورؤية الفجر تكاد تشعر القلب المتفتح أنه بالفعل يتنفس ! ثم يجيء هذا التعبير فيصور هذه الحقيقة التي يشعر بها القلب المتفتح .

وكل منذوق لجمال التعبير والتصوير يدرك أن قوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس » .. ثروة شعورية وتعبيرية . فوق ما يشير إليه من حقائق كونية . ثروة جميلة بديدة رشيدة : تضاف إلى رصيد البشرية من المشاعر ، وهي تستقبل هذه الظواهر الكونية بالحس الشاعر .

* * *

يلوح بهذه المشاهد الكونية التي يخلق عليها الحياة ؛ ويصلح الإنسان بأرواحها من خلال التعبير الحي الجميل عنها ؛ لتسكب في روح الإنسان أسرارها ، وتشي لها بالقدرة التي وراءها ، وتحديثها بصدق الحقيقة الإيمانية التي تدعى إليها .. ثم يذكر هذه الحقيقة في أنسب الحالات لذكرها واستقبالها :

« إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين » ..

إن هذا القرآن ، وهذا الوصف لليوم الآخر .. لقول رسول كريم .. وهو جبريل الذي حمل هذا القول وأبلغه .. فصار قوله باعتبار تبليغه .

ويذكر صفة هذا الرسول ، الذي اختير لحمل هذا القول وإبلاغه .. « كريم » عند ربه . فربه هو الذي يقول .. « ذي قوة » .. مما يوحي بأن هذا القول يحتاج في حمله إلى قوة . « عند ذي العرش مكين » .. في مقامه ومكانته .. وعند من ؟ عند ذي العرش العلي الأعلى . « مطاع ثم » هناك في الملأ الأعلى . « أمين » .. على ما يحمل وما يبلغ ..

وهذه الصفات في مجموعها توحى بكرامة هذا القول وضخامته وسموه كذلك وارتفاعه . كما توحى بعناية الله سبحانه بالإنسان ، حتى ليختار هذا الرسول صاحب هذه الصفة ليحمل الرسالة إليه ، ويبلغ الوحي إلى النبي المختار منه .. وهي عناية تحجل هذا الكائن ، الذي لا يساوي في ملك الله شيئاً ، لولا أن الله - سبحانه - يتفضل عليه فيكرمه هذه الكرامة !

* * *

فهذه صفة الرسول الذي حمل القول وأداه ، فأما الرسول الذي حمله إليكم فهو « صاحبكم » .. عرفتموه حق المعرفة عمراً طويلاً . فما لكم حين جاءكم بالحق تقولون فيه ما تقولون . وتذهبون في أمره المذاهب ، وهو « صاحبكم » الذي لا تجهلون . وهو الأمين على الغيب الذي يحدثكم عنه عن يقين :

« وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم . فآين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين » ..

ولقد قالوا عن النبي الكريم الذي يعرفونه حق المعرفة ، ويعرفون رجاحة عقله ، وصدقه وأمانته وتبته ، قالوا عنه : إنه مجنون . وإن شيطاناً يتنزل عليه بما يقول . قال بعضهم هذا كيدا له ولدعوته كما وردت بذلك الأخبار . وقاله بعضهم عجباً ودهشة من هذا القول الذي لا يقوله البشر فيما يألون ويعهدون . وتمشياً مع ظنهم

أن لكل شاعر شيطاناً يأتيه بالقول الفريد . وأن لكل كاهن شيطاناً يأتيه بالغيب البعيد . وأن الشيطان يمس بعض الناس فينطق على لسانهم بالقول الغريب ! وتركوا التعليل الوحيد الصادق ، وهو أنه وحي وتنزيل من رب العالمين .

فجاء القرآن يحدثهم في هذا المقطع من السورة عن جمال الكون البديع ، وحيوية مشاهدته الجميلة . ليوحي إلى قلوبهم بأن القرآن صادر عن تلك القدرة المبدعة ، التي أنشأت ذلك الجمال . على غير مثال . وليحدثهم بصفة الرسول الذي حمّله ، والرسول الذي بلغه . وهو صاحبهم الذي عرفوه . غير مجنون . والذي رأى الرسول الكريم - جبريل - حق الرؤية ، بالأفق المبين الواضح الذي تتم فيه الرؤية عن يقين . وأنه - صلى الله عليه وسلم - المؤمن على الغيب ، لا تظن به الظنون في خبره الذي يرويه عنه ، فما عرفوا عنه إلا الصدق واليقين . « وما هو بقول شيطان رجيم » فالشياطين لا توحى بهذا النهج القويم . ويسألهم مستنكراً : « فأين تذهبون ؟ » .. أين تذهبون في حكمكم وقولكم ؟ أو أين تذهبون منصرفين عن الحق وهو يوجهكم أينما ذهبتم !

« إن هو إلا ذكر للعالمين » ذكر يذكركم بحقيقة وجودهم ، وحقيقة نشأتهم ، وحقيقة الكون من حولهم .. « للعالمين » .. فهو دعوة عالمية من أول مرحلة . والدعوة في مكة محاصرة مطاردة . كما تشهد مثل هذه النصوص المكية ..

* * *

وأمام هذا البيان الموحى الدقيق يذكركم أن طريق الهداية ميسر لمن يريد . وأنهم إذن مسؤولون عن أنفسهم ، وقد منحهم الله هذا التيسير :
« لمن شاء منكم أن يستقيم » ..

أن يستقيم على هدى الله ، في الطريق إليه ، بعد هذا البيان ، الذي يكشف كل شبهة ، وينفي كل ريبة ، ويسقط كل عذر . ويوحي إلى القلب السليم بالطريق المستقيم . فمن لم يستقم فهو مسؤول عن انحرافه . فقد كان أمامه أن يستقيم .

والواقع أن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق من القوة والعمق والنقل بحيث يصعب على القلب التفلت من ضغطها إلا بجهد متعمد . وبخاصة حين يسمع التوجيه إليها بأسلوب القرآن الموحى الموقظ . وما ينحرف عن طريق الله - بعد ذلك - إلا من يريد أن ينحرف . في غير عذر ولا مبرر !

* * *

فإذا سجل عليهم إمكان الهدى ، ويسر الاستقامة ، عاد لتقرير الحقيقة الكبرى وراء مشيئتهم . حقيقة أن المشيئة الفاعلة من وراء كل شيء هي مشيئة الله سبحانه ..
« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ..

وذلك كي لا يفهموا أن مشيئتهم منفصلة عن المشيئة الكبرى ، التي يرجع إليها كل أمر . فأعطاهم حرية الاختيار ، ويسر الاهتداء ، إنما يرجع إلى تلك المشيئة . المحيطة بكل شيء كان أو يكون !

وهذه النصوص التي يعقب بها القرآن الكريم عند ذكر مشيئة الخلائق ، يراد بها تصحيح التصور الإيماني وشموله للحقيقة الكبيرة : حقيقة أن كل شيء في هذا الوجود مرده إلى مشيئة الله . وأن ما يأذن به للناس من قدرة على الاختيار هو طرف من مشيئته ككل تقدير آخر وتبدير . شأنه شأن ما يأذن به للملائكة من الطاعة

سورة التكويد

المطلقة لما يؤمرون ، والقدره الكامله على أداء ما يؤمرون . فهو طرف من مشيئته كإعطاء الناس القدره على اختيار أحد الطريقين بعد التعليم والبيان .

ولا بد من إقرار هذه الحقيقه في تصور المؤمنين ، ليدركوا ما هو الحق لذاته . وليلتجئوا إلى المشيئة الكبرى يطلبون عندها العون والتوفيق ، ويرتبطون بها في كل ما يأخذون وما يدعون في الطريق !

* * *

(٨٢) سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا تِسْعٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوَّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾
كِرَامًا كُنُوزٍ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

تحدث هذه السورة القصيرة عن الانقلاب الكوني الذي تحدث عنه سورة التكوين . ولكنها تتخذها شخصية أخرى ، وسمتا خاصاً بها ، وتوجه إلى مجالات خاصة بها تطوّف بالقلب البشري فيها ؛ وإلى لمسات وإيقاعات من لون جديد . هادئ عميق . لمسات كأنها عتاب . وإن كان في طياته وعيد !

ومن ثم فإنها تختصر في مشاهد الانقلاب ، فلا تكون هي طابع السورة الغالب - كما هو الشأن في سورة التكوين - لأن جو العتاب أهدأ ، وإيقاع العتاب أبطأ . . . وكذلك إيقاع السورة الموسيقي . فهو يحمل هذا الطابع . فيتم التناسق في شخصية السورة والتوافق !

إنها تحدث في المقطع الأول عن انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار وبعثرة القبور كحالات مصاحبة لعلم كل نفس بما قدمت وأخرت ، في ذلك اليوم الخطير ..

وفي المقطع الثاني تبدأ لمسة العتاب المبطنة بالوعيد ، لهذا الإنسان الذي يتلقى من ربه فيوض النعمة في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والكرامة : « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ؟ في أي صورة ما شاء ركبك » . .

وفي المقطع الثالث يقرر علة هذا الجحود والإنكار . فهي التأكيد بالدين - أي بالحساب - وعن هذا التأكيد ينشأ كل سوء وكل جحود . ومن ثم يؤكد هذا الحساب تأكيداً ، ويؤكد عاقبته وجزاءه المحتوم : « كلا . بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين » ..

فأما المقطع الأخير فيصور ضخامة يوم الحساب وهوله ، وتجرد النفوس من كل حول فيه ، وتفرد الله سبحانه بأمره الجليل : « وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله » ..

فالسورة في مجموعها حلقة في سلسلة الإيقاعات والطرق التي يتولاها هذا الجزء كله بشتى الطرق والأساليب .

* * *

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت » ..

وقد تحدثنا في السورة الماضية عن الإحياء الذي يتسرب في الحس من رؤية هذا الكون تتناوله يد القدرة بالتغيير ، وتهزه هزة الانقلاب المثير ، فلا يبقى شيء على حاله في هذا الكون الكبير . وقلنا : إن هذا الإحياء يتجه إلى خلع النفس من كل ما تركز إليه في هذا الوجود ، إلا الله سبحانه خالق هذا الوجود ، الباقي بعد أن يفنى كل موجود . والاتجاه بالقلب إلى الحقيقة الوحيدة الثابتة الدائمة التي لا تحول ولا تزول ، ليجد عندها الأمان والاستقرار ، في مواجهة الانقلاب والاضطراب والزلزلة والانهدام ، في كل ما كان يعهده ثابتاً مستقراً منتظماً انتظاماً يوحى بالخلود ! ولا خلود إلا للخالق المعبود !

ويذكر هنا من مظاهر الانقلاب انفطار السماء .. أي انشقاقها . وقد ذكر انشقاق السماء في مواضع أخرى : قال في سورة الرحمن : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » .. وقال في سورة الحاقة : « وانشقت السماء . فهي يومئذ واهية » .. وقال في سورة الانشقاق : « إذا السماء انشقت ... » .. فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب . أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به ، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون .. وكل ما يستقر في الحس هو مشهد التغير العنيف في هيئة الكون المنظور ، وانتهاء نظامه هذا المعهود ، وانفراط عقده ، الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق ..

ويشارك في تكوين هذا المشهد ما يذكر عن انتشار الكواكب . بعد تماسكها هذا الذي تجري معه في أفلاكها بسرعات هائلة مرعبة ، وهي مسكة في داخل مداراتها لا تتعدها ، ولا تهيم على وجهها في هذا الفضاء الذي لا يعلم أحده نهاية . ولو انتثرت - كما سيقع لها يوم ينتهي أجلها - وأفلتت من ذلك الرباط الوثيق - غير المنظور - الذي يشدها ويحفظها ، لذهبت في الفضاء بدداً ، كما تذهب الذرة التي تنفلت من عقالها !

وتفجير البحار يحتمل أن يكون هو امتلاؤها وغمرها لليباسة وطغيانها على الأنهار . كما يحتمل أن يكون هو تفجير مائها إلى عنصريه : الأكسوجين والهيدروجين ، فتنحول مياهها إلى هذين الغازين كما كانت قبل أن يأذن الله بتجمعهما وتكوين البحار منهما . كذلك يحتمل أن يكون هو تفجير ذرات هذين الغازين - كما يقع في تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية اليوم .. فيكون هذا التفجير من الضخامة والهول بحيث تعتبر

هذه القنابل الحاضرة المروعة لعب أطفال ساذجة ! .. أو أن يكون بهيئة أخرى غير ما يعرف البشر على كل حال .. إنما هو الهول الذي لم تعهده أعصاب البشر في حال من الأحوال !

وبعثة القبور .. إما أن تكون بسبب من هذه الأحداث السابقة . وإما أن تكون حادثاً بذاته يقع في ذلك اليوم الطويل ، الكثير المشاهد والأحداث . فتخرج منها الأجساد التي أعاد الله إنشاءها - كما أنشأها أول مرة - لتتلقى حسابها وجزاءها ..

يؤيد هذا ويتناسق معه قوله بعد عرض هذه المشاهد والأحداث : « علمت نفس ما قدمت وأخرت » .. أي ما فعلته أولاً وما فعلته أخيراً . أو ما فعلته في الدنيا ، وما تركته وراءها من آثار فعلها . أو ما استمتعت به في الدنيا وحدها ، وما ادخرته للآخرة بعدها .

على أية حال سيكون علم كل نفس بهذا مصاحباً لتلك الأهوال العظام . وواحداً منها مروّعاً لها كترويع هذه المشاهد والأحداث كلها !

والتعبير القرآني الفريد يقول : « علمت نفس » .. وهو يفيد من جهة المعنى : كل نفس . ولكنه أرشق وأوقع .. كما أن الأمر لا يقف عند حدود علمها بما قدمت وأخرت . فلهذا العلم وقعه العنيف الذي يشبه عنف تلك المشاهد الكونية المتقلبة . والتعبير يلقي هذا الظل دون أن يذكره نصاً . فإذا هو أرشق وكذلك وأوقع !

* * *

وبعد هذا المطلع الموقظ المنبه للحواس والمشاعر والعقول والضمائر ، يلتفت إلى واقع الإنسان الحاضر ، فإذا هو غافل لاه سادر .. هنا يلمس قلبه لمسة فيها عتاب رضي ، وفيها وعيد خفي ، وفيها تذكير بنعمة الله الأولى عليه : نعمة خلقه في هذه الصورة السوية على حين يملك ربه أن يركبه في أي صورة تتجه إليها مشيئته . ولكنه اختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .. وهو لا يشكر ولا يقدر :

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك » .. إن هذا الخطاب : « يا أيها الإنسان » ينادي في الإنسان أكرم ما في كيانه ، وهو « إنسانيته » التي بها تميز عن سائر الأحياء ؛ وارتفع إلى أكرم مكان ؛ وتجلّى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل : « ما غرك بربك الكريم ؟ » يا أيها الإنسان الذي تكرم عليك ربك ، راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة .. يا أيها الإنسان ما الذي غرك بربك ، فجعلك تقصر في حقه ، وتهاون في أمره ، ويسوء أدبك في جانبه ؟ وهو ربك الكريم ، الذي أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ؛ ومن هذا الإغداق إنسانيتك التي تميزك عن سائر خلقه ، والتي تميز بها وتعقل وتدرّك ما ينبغي وما لا ينبغي في جانبه ؟

ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهي ، الذي أجمله في النداء الموحى العميق الدلالة ، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة في التعبير . يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآيّة . فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله ؛ وهو القادر على أن يركبه في أي صورة وفق مشيئته . فاخياره هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذي لا يشكر ولا يقدر . بل يغتر ويسدر !

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ؟ » ..

إنه خطاب يهز كل ذرة في كيان الإنسان حين تستيقظ إنسانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه ، وربّه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل ، ويذكره هذا الجميل ، بينما هو سادر في التقصير ، سيئ الأدب في حق مولاه الذي خلقه فسواه فعدله ..

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم ، الذي أكرمه بهذه الخلقة ، تفضلاً منه ورعاية ومنة . فقد كان قادراً أن يركبه في أية صورة أخرى يشاؤها . فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة . وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوي الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع في خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله . وإن الجمال والسواء والاعتدال لتبدو في تكوينه الجسدي ، وفي تكوينه العقلي ، وفي تكوينه الروحي سواء ، وهي تتناسق في كيانه في جمال واستواء !

وهناك مؤلفات كاملة في وصف كمال التكوين الإنساني العضوي ودقته وإحكامه وليس هنا مجال التوسع الكامل في عرض عجائب هذا التكوين . ولكننا نكتفي بالإشارة إلى بعضها ..

هذه الأجهزة العامة لتكوين الإنسان الجسدي .. الجهاز العظمي . والجهاز العضلي . والجهاز الجلدي . والجهاز الهضمي . والجهاز الدموي . والجهاز التنفسي . والجهاز التناسلي . والجهاز اللمفاوي . والجهاز العصبي . والجهاز البولي . وأجهزة الذوق والشم والسمع والبصر .. كل منها عجيبة لا تقاس إليها كل العجائب الصناعية التي يقف الإنسان مدهوشاً أمامها . وينسى عجائب ذاته وهي أضخم وأعمق وأدق بما لا يقاس !

« تقول مجلة العلوم الإنجليزية : إن يد الإنسان في مقدمة العجائب الطبيعية الفذة ؛ وإنه من الصعب جداً - بل من المستحيل - أن تبتكر آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف . فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك ، ثم تثبته في الوضع الملائم للقراءة . وهذه اليد هي التي تصحح وضعه تلقائياً . وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة ، وتضغط عليها بالدرجة التي تقلبها بها ، ثم يزول الضغط بقلب الورقة . واليد تمسك القلم وتكتب به . وتستعمل كافة الآلات التي تلزم الإنسان من ملعقة ، إلى سكين ، إلى آلة الكتابة . وتفتح النوافذ وتغلقها ، وتحمل كل ما يريده الإنسان .. واليدان تشتملان على سبع وعشرين عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منهما^١ . »

و « إن جزءاً من أذن الإنسان (الأذن الوسطى) هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حنية (قوس) دقيقة معقدة ، متدرجة بنظام بالغ ، في الحجم والشكل ، ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية . ويبدو أنها معدة بحيث تلتقط وتنقل إلى المخ ، بشكل ما ، كل وقع صوت أو ضجة ، من قصف الرعد إلى حفيف الشجر . فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة^٢ .. »

« ومركز حاسة الإبصار في العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء وهي أطراف الأعصاب ، ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقبها ليلاً ونهاراً ، والذي تعتبر حركته لا إرادية ، الذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقى الأهداب على

(١) عن كتاب : الله والعلم الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل .

(٢) عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

العين من ظلال . وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين ، أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع ، فهو أقوى مطهر . . . ١ » .

« وجهاز الذوق في الإنسان هو اللسان ، ويرجع عمله إلى مجموعات من الخلايا الذوقية القائمة في حلقات غشائه المخاطي . وتلك الحلقات أشكال مختلفة ، فمنها الخيطية والفطرية والعنسية ويغذي الحلقات فروع من العصب اللساني البلعومي ، والعصب الذوقي . وتتأثر عند الأكل الأعصاب الذوقية ، فينتقل الأثر إلى المخ . وهذا الجهاز موجود في أول الفم ، حتى يمكن للإنسان أن يلفظ ما يحس أنه ضار به ، وبه يحس المرء المرارة والحلاوة ، والبرودة والسخونة ، والحامض والملح ، واللاذع ونحوه . ويحتوي اللسان على تسعة آلاف من نتوءات الذوق الدقيقة ، يتصل كل نتوء منها بالمخ بأكثر من عصب . فكيف عدد الأعصاب ؟ وما حجمها ؟ وكيف تعمل منفردة ، وتتجمع بالإحساس عند المخ ؟ » ٢ .

« ويتكون الجهاز العصبي الذي يسيطر على الجسم سيطرة تامة من شعيرات دقيقة تمر في كافة أنحاء الجسم . وتتصل بغيرها أكبر منها . وهذه بالجهاز المركزي العصبي . فإذا ما تأثر جزء من أجزاء الجسم ، ولو كان ذلك لتغير بسيط في درجة الحرارة بالجو المحيط ، نقلت الشعيرات العصبية هذا الإحساس إلى المراكز المنتشرة في الجسم . وهذه توصل الإحساس إلى المخ حيث يمكنه أن يتصرف . وتبلغ سرعة سريان الإشارات والتنبيهات في الأعصاب مائة متر في الثانية » ٣ .

« ونحن إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيمياوي ، وإلى الطعام الذي نأكله على أنه مواد غفل ، فإننا ندرك تواءمًا أنه عملية عجيبة . إذ تهضم تقريباً كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها !
« فأولاً نضع في هذا المعمل أنواعاً من الطعام كمادة غفل دون أي مراعاة للمعمل نفسه ، أو تفكير في كيفية معالجة كيميائ الهضم له ! فنحن نأكل شرائح اللحم والكربن والحنطة والسمنك المقلي ، وندفعها بأي قدر من الماء ..

« ومن بين هذا الخليط تختار المعدة تلك الأشياء التي هي ذات فائدة ، وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيماوية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة ، تصبح غذاء لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية ، وتعني بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية ، وبإمكان إنتاج الهرمونات ، وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة ، ومستعدة لمواجهة كل ضرورة . وهي تخزن الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى ، للقاء كل حالة طارئة ، مثل الجوع ، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله . إننا نصب هذه الأنواع التي لا تحصى من المواد في هذا المعمل الكيماوي ، بصرف النظر كلية تقريباً عما نتناوله ، معتمدين على ما نحسبه عملية ذاتية (أوتوماتيكية) لإبقائنا على الحياة . وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد ، تقدم باستمرار إلى كل خلية من بلايين الخلايا ، التي تبلغ من العدد أكثر من عدد الجنس البشري كله على وجه الأرض . ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً ، وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة !

(١) عن كتاب : الله والعلم الحديث .

(٢) و (٣) عن كتاب : الله والعلم الحديث .

«فها هنا إذن معمل كيمياوي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان ! وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل أو التوزيع عرفه العالم ! ويتم كل شيء فيه بمتمهى النظام !»^١ .
وكل جهاز من أجهزة الإنسان الأخرى يقال فيه الشيء الكثير . ولكن هذه الأجهزة - على إعجازها الواضح - قد يشاركه فيها الحيوان في صورة من الصور . إنما تبقى له هو خصائصه العقلية والروحية الفريدة التي هي موضع الامتنان في هذه السورة . بصفة خاصة : «الذي خلقك فسواك فعدلك» . بعد ندائه : «يا أيها الإنسان» .. هذا الإدراك العقلي الخاص ، الذي لا ندري كنهه . إذ أن العقل هو أدواتنا لإدراك ما ندرك . والعقل لا يدرك ذاته ولا يدرك كيف يدرك ! !

هذه المدركات .. نفرض أنها كلها تصل إلى المخ عن طريق الجهاز العصبي الدقيق . ولكن أين يختزنها ! إنه لو كان هذا المخ شريطاً مسجلاً لاحتاج الإنسان في خلال الستين عاماً التي هي متوسط عمره إلى آلاف الملايين من الأمتار ليسجل عليها هذا الحشد من الصور والكلمات والمعاني والمشاعر والتأثرات ، لكي يذكرها بعد ذلك ، كما يذكرها فعلاً بعد عشرات السنين !

ثم كيف يؤلف بين الكلمات المفردة والمعاني المفردة ، والحوادث المفردة ، والصور المفردة ، ليجعل منها ثقافة مجمعة . ثم ليرتقي من المعلومات إلى العلم ؟ ومن المدركات إلى الإدراك ؟ ومن التجارب إلى المعرفة ؟ هذه هي إحدى خصائص الإنسان المميزة .. وهي مع هذا ليست أكبر خصائصه ، وليست أعلى مميزاته . فهناك ذلك القبس العجيب من روح الله .. هنالك الروح الإنساني الخاص ، الذي يصل هذا الكائن بجمال الوجود ، وجمال خالق الوجود ، ويمنحه تلك اللحظات المجنحة الوضيئة من الاتصال بالمطلق الذي ليس له حدود . بعد الاتصال بومضات الجمال في هذا الوجود .

هذا الروح الذي لا يعرف الإنسان كنهه - وهل هو يعلم ما هو أدنى وهو إدراكه للمدركات الحسية ؟ ! - والذي يتمتع بومضات من الفرح والسعادة العلوية حتى وهو على هذه الأرض . ويصله بالملأ الأعلى ، ويهيئه للحياة المرسومة بحياة الجنان والخلود . وللنظر إلى الجمال الإلهي في ذلك العالم السعيد !

هذا الروح هو هبة الله الكبرى لهذا الإنسان . وهو الذي به صار إنساناً . وهو الذي يخاطبه باسمه : «يا أيها الإنسان» .. ويعاتبه ذلك العتاب المخجل ! «ما غرك بربك الكريم ؟» هذا العتاب المباشر من الله للإنسان . حيث يناديه - سبحانه - فيقف أمامه مقصراً مذنباً مغترأ غير مقدر لجلال الله ، ولا متأدب في جنبه .. ثم يواجهه بالتذكير بالنعمة الكبرى . ثم بالتقصير وسوء الأدب والغرور !

إنه عتاب مذهب .. حين يتصور «الإنسان» حقيقة مصدره ، وحقيقة مخبره ، وحقيقة الموقف الذي يقفه بين يدي ربه ، وهو يناديه ذلك النداء ، ثم يعاتبه هذا العتاب :

«يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركبك» ..

* * *

ثم يكشف عن علة الغرور والتقصير - وهي التكذيب - بيوم الحساب - ويقرر حقيقة الحساب ، واختلاف الجزاء ، في تأكيد وتشديد :

(١) عن كتاب : العلم يدعو إلى الإيمان .

« كلا ! بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون . إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم ، يصلونها يوم الدين ، وما هم عنها بغائبين » ..

وكلا كلمة ردع وزجر عما هم فيه . وبل كلمة إضراب عما مضى من الحديث . ودخول في لون من القول جديد . لون البيان والتقرير والتوكيد . وهو غير العتاب والتذكير والتصوير ..

« كلا . بل تكذبون بالدين » .. تكذبون بالحساب والمواخذة والجزاء . وهذه هي علة الغرور ، وعلة التقصير . فما يكذب القلب بالحساب والجزاء ثم يستقيم على هدى ولا خير ولا طاعة . وقد ترتفع القلوب وتشف ، فتطبع ربها وتعبد حبا فيه ، لا خوفاً من عقابه ، ولا طمعاً في ثوابه . ولكنها تؤمن بيوم الدين وتخشاه ، وتتطلع إليه ، لتلقى ربها الذي تحبه وتشاق لقاءه وتتطلع إليه . فأما حين يكذب الإنسان تكذيباً بهذا اليوم ، فلن يشمل على أدب ولا طاعة ولا نور . ولن يحيا فيه قلب ، ولن يستيقظ فيه ضمير .

تكذبون بيوم الدين .. وأتم صائرون إليه ، وكل ما عملتم محسوب عليكم فيه . لا يضيع منه شيء ، ولا ينسى منه شيء : « وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون » ..

وهؤلاء الحافظون هم الأرواح الموكلة بالإنسان - من الملائكة - التي ترافقه ، وتراقبه ، وتحصي عليه كل ما يصدر عنه .. ونحن لا ندري كيف يقع هذا كله ، ولنا بمكلفين أن نعرف كيفيته . فإله يعلم أننا لم نوهب الاستعداد لإدراكها . وأنه لا خير لنا في إدراكها . لأنها غير داخلة في وظيفتنا وفي غاية وجودنا . فلا ضرورة للخوض فيما وراء المدى الذي كشفه الله لنا من هذا الغيب . ويكفي أن يشعر القلب البشري أنه غير متروك سدى . وأن عليه حفظة كراماً كاتبين يعلمون ما يفعله ، ليرتعش ويستيقظ ، ويتأدب ! وهذا هو المقصود ! ولما كان جو السورة جو كرم وكرامة ، فإنه يذكر من صفة الحافظين كونهم .. « كراماً » .. ليستجيش في القلوب إحساس الخجل والتجمل بحضرة هؤلاء الكرام . فإن الإنسان ليحتشم ويستحي وهو بمحضر الكرام من الناس أن يسف أو يتبذل في لفظ أو حركة أو تصرف .. فكيف به حين يشعر ويتصور أنه في كل لحظاته وفي كل حالاته في حضرة حفظة من الملائكة « كرام » لا يليق أن يطلعوا منه إلا على كل كريم من الخصال والفعال ؟ !

إن القرآن ليستجيش في القلب البشري أرفع المشاعر بإقرار هذه الحقيقة فيه بهذا التصور الواقعي الحي القريب إلى الإدراك المألوف ..

ثم يقرر مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب ، القائم على ما يكتبه الكرام الكاتبون :

« إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين » ..

فهو مصير مؤكد ، وعاقبة مقررة . أن ينتهي الأبرار إلى النعيم . وأن ينتهي الفجار إلى الجحيم . والبر هو الذي يأتي أعمال البر حتى تصبح له عادة وصفة ملازمة . وأعمال البر هي كل خير على الإطلاق . والصفة تتناسق في ظلها مع الكرم والإنسانية . كما أن الصفة التي تقابلها : « الفجار » فيها سوء الأدب والتوقع في مفارقة الإثم والمعصية . والجحيم هي كفة للفجور ! ثم يزيد حالهم فيها ظهوراً .. « يصلونها يوم الدين » .. ويزيدها تأكيداً وتقريراً : « وما هم عنها بغائبين » لا فراراً ابتداء . ولا خلاصاً بعد الوقوع فيها ولو إلى حين ! فيتم التقابل بين الأبرار والفجار . وبين النعيم والجحيم . مع زيادة الإيضاح والتقرير لحالة رواد الجحيم !

* * *

ولما كان يوم الدين هو موضع التكذيب ، فإنه يعود إليه بعد تقرير ما يقع فيه . يعود إليه ليقرر حقيقة

الذاتية في تضخيم وتهويل بالتجهيل وبما يصيب النفوس فيه من عجز كامل وتجرد من كل شبهة في عون أو تعاون . وليقرر تفرد الله بالأمر في ذلك اليوم العصيب :

« وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله » ..
والسؤال للتجهيل مألوف في التعبير القرآني . وهو يوقع في الحس أن الأمر أعظم جداً وأهول جداً من أن يحيط به إدراك البشر المحدود . فهو فوق كل تصور وفوق كل توقع وفوق كل مألوف .
وتكرار السؤال يزيد في الاستهوال ..

ثم يجيء البيان بما يتناسق مع هذا التصوير : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً » .. فهو العجز الشامل . وهو الشلل الكامل . وهو الانحسار والانكماش والانفصال بين النفوس المشغولة بهما وحملها عن كل من تعرف من النفوس ! « والأمر يومئذ لله » .. يتفرد به سبحانه . وهو المتفرد بالأمر في الدنيا والآخرة . ولكن في هذا اليوم - يوم الدين - تتجلى هذه الحقيقة التي قد يغفل عنها في الدنيا الغافلون المغرورون . فلا يعود بها خفاء ، ولا تغيب عن مخدوع ولا مفتون !

* * *

ويتلاقى هذا الهول الصامت الواجم الجليل في نهاية السورة ، مع ذلك الهول المتحرك الهائج المائج في مطلعها . وينحصر الحس بين الهولين .. وكلاهما مذهل مهيب رعب ! وبينهما ذلك العتاب الجليل المخجل المذيب !

* * *

(٨٣) سُورَةُ الْمُطَفِّينَ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا سِتَّةٌ وَثَلَاثُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣
أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠
الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا بَلْ رَأَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَّحْجُوبُونَ ۝١٥
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِءُ تَكْذِبُونَ ۝١٧ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْآبَارِ لَفِي
عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ الْآبَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى
الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِنْ رَّحِيقٍ مَّتَحَنُّومٍ ۝٢٥ خِتَمُهُ
مِسْكٌَ ۝٢٦ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٧ وَمِرَاجِعُهُمْ تَنِيمٌ ۝٢٨ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٩
إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٣٠ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣١ وَإِذَا انْقَلَبُوا
إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٣٢ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝٣٣ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
حَفِظِينَ ۝٣٤ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٥ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ۝٣٦ هَلْ تُؤِوبَ
الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝٣٧

هذه السورة تصور قطاعاً من الواقع العملي الذي كانت الدعوة تواجهه في مكة - إلى جانب ما كانت تستهدفه من إيقاظ القلوب ، وهز المشاعر ، وتوجيهها إلى هذا الحدث الجديد في حياة العرب وفي حياة الإنسانية ، وهو الرسالة السماوية للأرض ، وما تتضمنه من تصور جديد شامل محيط .

هذا القطاع من الواقع العملي تصوره السورة في أولها ، وهي تهدد المطففين بالويل في اليوم العظيم ، « يوم يقوم الناس لرب العالمين » .. كما تصوره في ختامها وهي تصف سوء أدب الذين أكرموا مع الذين آمنوا ، وتغاضمهم عليهم ، وضحكهم منهم ، وقولهم عنهم : « إن هؤلاء لضالون ! » .

وهذا إلى جانب ما تعرضه من حال الفجار وحال الأبرار ؛ ومصير هؤلاء وهؤلاء في ذلك اليوم العظيم . وهي تتألف من أربعة مقاطع .. يبدأ المقطع الأول منها بإعلان الحرب على المطففين : « ويل للمطففين . الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يستوفون ؛ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » ..

ويتحدث المقطع الثاني عن الفجار في شدة وردع وزجر ، وتهديد بالويل والهلاك ، ودفع بالإثم والاعتداء ، وبيان لسبب هذا العمى وعلة هذا الانطماس ، وتصوير لجرائمهم يوم القيامة ، وعذابهم بالحجاب عن ربهم ، كما حجبت الآثام في الأرض قلوبهم ، ثم بالجحيم مع التزليل والتأنيب : « كلا . إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين ! الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين . كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون » ..

والمقطع الثالث يعرض الصفحة المقابلة . صفحة الأبرار . ورفعة مقامهم . والنعيم المقرر لهم . ونضرتة التي تفيض على وجوههم . والرحيق الذي يشربون وهم على الأرائك ينظرون . . . وهي صفحة ناعمة وضيئة : « كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون . إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » ..

والمقطع الأخير يصف ما كان الأبرار يلاقونه في عالم الغرور الباطل من الفجار من إيذاء وسخرية وسوء أدب . ليضع في مقابلة ما آل إليه أمر الأبرار وأمر الفجار في عالم الحقيقة الدائم الطويل :

« إن الذين أكرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » ..

والسورة في عمومها تمثل جانباً من بيئة الدعوة ، كما تمثل جانباً من أسلوب الدعوة في مواجهة واقع البيئة ، وواقع النفس البشرية ... وهذا ما سنحاول الكشف عنه في عرضنا للسورة بالتفصيل ..

* * *

« ويل للمطففين : الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم : يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » ..

تبدأ السورة بالحرب يعلنها الله على المطففين : « ويل للمطففين » .. والويل : الهلاك . وسواء كان المراد هو تقرير أن هذا أمر مقضي ، أو أن هذا دعاء . فهو في الحالين واحد فالدعاء من الله قرار ..

وتفسر الآيتان التاليتان معنى المطففين . فهم : « الذين إذا اكثالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » .. فهم الذين يتقاضون بضاعتهم وافية إذا كانوا شراة . ويعطونها للناس ناقصة إذا كانوا بائعين .. ثم تعجب الآيات الثلاثة التالية من أمر المطففين ، الذين يتصرفون كأنه ليس هناك حساب على ما يكسبون في الحياة الدنيا ؛ وكأن ليس هناك موقف جامع بين يدي الله في يوم عظيم يتم فيه الحساب والجزاء أمام العالمين : « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » ..

والتصدي لشأن المطففين بهذا الأسلوب في سورة مكية أمر يلفت النظر . فالسورة المكية عادة توجه اهتمامها إلى أصول العقيدة الكلية : كتقرير وحدانية الله ، وانطلاق مشيئته ، وهيمته على الكون والناس ... وكحقيقة الوحي والنبوة .. وكحقيقة الآخرة والحساب والجزاء . مع العناية بتكوين الحاسة الأخلاقية في عمومها ، وربطها بأصول العقيدة . أما التصدي لمسألة بذاتها من مسائل الأخلاق - كمسألة التطفيف في الكيل والميزان - والمعاملات بصفة عامة ، فأمر جاء متأخراً في السورة المدنية عند التصدي لتنظيم حياة المجتمع في ظل الدولة الإسلامية ، وفق المنهج الإسلامي ، الشامل للحياة ..

ومن ثم فإن التصدي لهذا الأمر بذاته في هذه السورة المكية أمر يستحق الانتباه . وهو يشي بعدة دلالات متنوعة ، تكمن وراء هذه الآيات القصار ..

إنه يدل أولاً على أن الإسلام كان يواجه في البيئة المكية حالة صارخة من هذا التطفيف يزاوئها الكبراء ، الذين كانوا في الوقت ذاته هم أصحاب التجارات الواسعة ، التي تكاد تكون احتكاراً . فقد كانت هنالك أموال ضخمة في أيدي هؤلاء الكبراء يتجرون بها عن طريق القوافل في رحلتي الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام . كما افتتحوا أسواقاً موسمية كسوق عكاظ في موسم الحج ، يقومون فيها بالصفقات ويتناشدون فيها الأشعار ! والنصوص القرآنية هنا تشي بأن المطففين الذين يتهددهم الله بالويل ، ويعلن عليهم هذه الحرب ، كانوا طبقة الكبراء ذوي النفوذ ، الذي يملكون إكراه الناس على ما يريدون . فهم يكتالون « على الناس » .. لا من الناس .. فكأن لهم سلطاناً على الناس بسبب من الأسباب ، يجعلهم يستوفون المكيال والميزان منهم استيفاء وقسراً . وليس المقصود هو أنهم يستوفون حقاً . وإلا فليس في هذا ما يستحق إعلان الحرب عليهم . إنما المفهوم أنهم يحصلون بالقسر على أكثر من حقهم ، ويستوفون ما يريدون إجباراً . فإذا كالوا للناس أو وزنوا كان لهم من السلطان ما يجعلهم ينقصون حق الناس ، دون أن يستطيع هؤلاء منهم نصفه ولا استيفاء حق .. ويستوي أن يكون هذا بسلطان الرياسة والجاه القبلي . أو بسلطان المال وحاجة الناس لما في أيديهم منه ؛ واحتكارهم للتجارة حتى يضطر الناس إلى قبول هذا الجور منهم ؛ كما يقع حتى الآن في الأسواق .. فقد كانت هناك حالة من التطفيف صارخة استحققت هذه اللفتة المبكرة .

كما أن هذه اللفتة المبكرة في البيئة المكية تشي بطبيعة هذا الدين ؛ وشمول منهجه للحياة الواقعية وشؤونها العملية ؛ وإقامتها على الأساس الأخلاقي العميق الأصيل في طبيعة هذا المنهج الإلهي القويم . فقد كره هذه الحالة الصارخة من الظلم والانحراف الأخلاقي في التعامل . وهو لم يتسلم بعد زمام الحياة الاجتماعية ، لينظمها وفق شريعته بقوة القانون وسلطان الدولة . وأرسل هذه الصيحة المدوية بالحرب والويل على المطففين . وهم يومئذ سادة مكة ، أصحاب السلطان المهيمن - لا على أرواح الناس ومشاعرهم عن طريق العقيدة الوثنية فحسب ، بل كذلك على اقتصادياتهم وشؤون معاشهم . ورفع صوته عالياً في وجه الغبن والبخس الواقع على الناس وهم جمهرة الشعب المستغلين لكبرائه المتجرين بأرزاقه ، المرايين المحتكرين ، المسيطرين في الوقت ذاته على الجماهير

بأوهام الدين ! فكان الإسلام بهذه الصيحة المنبثة من ذاته ومن منهجه السماوي موقظاً للجماهير المستغلة . ولم يكن قط مخدراً لها حتى وهو محاصر في مكة ، بسطوة المتجبرين ، المسيطرين على المجتمع بالمال والجاه والدين !

ومن ثم ندرك طرفاً من الأسباب الحقيقية التي جعلت كبراء قريش يقفون في وجه الدعوة الإسلامية هذه الوقفة العنيدة . فهم كانوا يدركون - ولا ريب - أن هذا الأمر الجديد الذي جاءهم به محمد - صلى الله عليه وسلم - ليس مجرد عقيدة تكن في الضمير ، ولا تتطلب منهم إلا شهادة منطوقة ، بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وصلاة يقيمونها لله بلا أصنام ولا أوثان .. كلا . لقد كانوا يدركون أن هذه العقيدة تعني منهجاً يحطم كل أساس الجاهلية التي تقوم عليها أوضاعهم ومصالحهم ومراكزهم . وأن طبيعة هذا المنهج لا تقبل مشيئة ولا تلتزم مع عنصر أرضي غير منبثق من عنصرها السماوي ؛ وأنها تهدد كل المقومات الأرضية الهابطة التي تقوم عليها الجاهلية .. ومن ثم شنوا عليها تلك الحرب التي لم تضع أوزارها لا قبل الهجرة ولا بعدها . الحرب التي تمثل الدفاع عن أوضاعهم كلها في وجه الأوضاع الإسلامية . لا عن مجرد الاعتقاد والتصور المجريدين .. والذين يحاربون سيطرة المنهج الإسلامي على حياة البشر في كل جيل وفي كل أرض يدركون هذه الحقيقة . يدركونها جيداً . ويعلمون أن أوضاعهم الباطلة ، ومصالحهم المغتصبة ، وكيانهم الزائف .. وسلوكهم المنحرف .. هذه كلها هي التي يهددها المنهج الإسلامي القويم الكريم !

والطغاة البغاة الظلمة المطففون - في أية صورة من صور التطفيف في المال أو في سائر الحقوق والواجبات - هم الذين يشفقون أكثر من غيرهم من سيطرة ذلك المنهج العادل النظيف ! الذي لا يقبل المساومة ، ولا المداينة ، ولا أنصاف الحلول ؟

ولقد أدرك ذلك الذين يابعدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من نقباء الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية قبل الهجرة : قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال العباس بن عباد بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ قالوا : نعم . قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن ! فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، قالوا : فإننا نأخذ به على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فإنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال : « الجنة » .. قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه .

فقد أدرك هؤلاء - كما أدرك كبراء قريش من قبل - طبيعة هذا الدين . وأنه قائم كحد السيف للعدل والنصفة وإقامة حياة الناس على ذلك ، لا يقبل من طاغية طغياناً ، ولا من باغ بغياً ، ولا من متكبر كبراً . ولا يقبل للناس الغبن والخسف والاستغلال . ومن ثم يحاربه كل طاغ باغ متكبر مستغل ؛ ويقف لدعوته ولدعائه بالمرصاد .

« ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ » ..

وإن أمرهم لعجيب . فإن مجرد الظن بالبعث لذلك اليوم العظيم . يوم يقوم الناس متجردين لرب العالمين ، ليس لهم مولى يومئذ سواه ، وليس بهم إلا التطلع لما يجريه عليهم من قضاء ، وقد علموا أن ليس لهم من دونه ولي ولا نصير .. إن مجرد الظن بأنهم مبعوثون لذلك اليوم كان يكفي ليصدهم عن التطفيف ، وأكل أموال

الناس بالباطل ، واستخدام السلطان في ظلم الناس وبخسهم حقهم في التعامل .. ولكنهم ماضون في التطفيف كأنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ! وهو أمر عجيب ، وشأن غريب !

* * *

وقد سماهم المطففين في المقطع الأول . فأما في المقطع الثاني فيسميهم الفجار . إذ يدخلهم في زمرة الفجار ، ويتحدث عن هؤلاء . يتحدث عن اعتبارهم عند الله ، وعن حالهم في الحياة . وعما ينتظرهم يوم يبعثون ليوم عظيم . « كلا ! إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين : الذين يكذبون بيوم الدين ؛ وما يكذب به إلا كل معتد أثم ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون » ..

إنهم لا يظنون أنهم مبعوثون ليوم عظيم .. فالقرآن يردعهم عن هذا ويزجرهم ، ويؤكد أن لهم كتاباً تحصى فيه أعمالهم .. ويحدد موضعه زيادة في التوكيد . ويوعدهم بالويل في ذلك اليوم الذي يعرض فيه كتابهم المرقوم : « كلا . إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين ؟ كتاب مرقوم . ويل يومئذ للمكذبين » ! . والفجار هم المتجاوزون للحد في المعصية والإثم . واللفظ يوحي بذاته بهذا المعنى . وكتابهم هو سجل أعمالهم . ولا ندري نحن ماهيته ولم نكلف هذا . وهو غيب لا نعرف عنه إلا بمقدار ما نخبرنا عنه صاحبه ولا زيادة - فهناك سجل لأعمال الفجار يقول القرآن : إنه في سجين . ثم يسأل سؤال الاستهوال المعهود في التعبير القرآني : « وما أدراك ما سجين ؟ » فيلقي ظلال التفضيم ويشعر المخاطب أن الأمر أكبر من إدراكه ، وأضخم من أن يحيط به علمه . ولكنه بقوله : « إن كتاب الفجار لفي سجين » يكون قد حدد له موضعاً معيناً ، وإن يكن مجهولاً للإنسان . وهذا التحديد يزيد من يقين المخاطب عن طريق الإيحاء بوجود هذا الكتاب . وهذا هو الإيحاء المقصود من وراء ذكر هذه الحقيقة بهذا القدر ، دون زيادة .

ثم يعود إلى وصف كتاب الفجار ذاك فيقول : إنه « كتاب مرقوم » .. أي مفروغ منه ، لا يزداد فيه ولا ينقص منه ، حتى يعرض في ذلك اليوم العظيم .

فإذا كان ذلك : كان « ويل يومئذ للمكذبين » !

ويحدد موضوع التكذيب ، وحقيقة المكذبين :

« الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتد أثم . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين » .. فلا اعتداء والإثم يقودان صاحبهما إلى التكذيب بذلك اليوم ؛ وإلى سوء الأدب مع هذا القرآن فيقول عن آياته حين تتلى عليه : « أساطير الأولين » .. لما يحويه من قصص الأولين المسوقة فيه للعبرة والعظة ، وبيان سنة الله التي لا تتخلف ، والتي تأخذ الناس في ناموس مطرد لا يحد .

ويعقب على هذا التطاول والتكذيب بالزجر والردع : « كلا ! » ليس كما يقولون ..

ثم يكشف عن علة هذا التطاول وهذا التكذيب ؛ وهذه الغفلة عن الحق الواضح وهذا الانطماس في قلوب المكذبين :

« بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ..

أي غطى على قلوبهم ما كانوا يكسبونه من الإثم والمعصية . والقلب الذي يمد على المعصية ينطمس ويظلم ؛

ويرين عليه غطاء كثيف يحجب النور عنه ويحجبه عن النور ، ويفقده الحساسية شيئاً فشيئاً حتى يتبدل ويموت ..
 روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرق ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ،
 عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت
 نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب منها صقل قلبه وإن زاد زادت » .. وقال الترمذي حسن صحيح . ولفظ النسائي :
 « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء . فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، فإن عاد زيد
 فيها حتى تملأ قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : « كلا ! بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » ..

وقال الحسن البصري : هو الذنب على الذنب حتى يعمر القلب فيموت ..
 ذلك حال الفجار المكذبين . وهذه هي علة الفجور والتكذيب .. ثم يذكر شيئاً عن مصيرهم في ذلك اليوم
 العظيم . يناسب علة الفجور والتكذيب :

« كلا ! إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون . ثم إنهم لصالو الجحيم . ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون » ..
 لقد حجب قلوبهم المعاصي والآثام ، حجبها عن الإحساس بربها في الدنيا . وطمسها حتى أظلمت وعميت
 في الحياة .. فالنهاية الطبيعية والجزاء الوفاق في الآخرة أن يحرموا النظر إلى وجه الله الكريم ، وأن يحال بينهم
 وبين هذه السعادة الكبرى ، التي لا تتاح إلا لمن شفت روحه ورقت وصفت واستحقت أن تكشف الحجب بينها
 وبين ربها . ممن قال فيهم في سورة القيامة :
 « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » ..

وهذا الحجاب عن ربهم ، عذاب فوق كل عذاب ، وحرمان فوق كل حرمان . ونهاية بائسة لإنسان
 يستمد إنسانيته من مصدر واحد هو اتصاله بروح ربه الكريم . فإذا حجب عن هذا المصدر فقد خصائصه
 كإنسان كريم ؛ وارتكس إلى درجة يستحق معها الجحيم : « ثم إنهم لصالو الجحيم » .. ومع الجحيم التأنيب
 وهو أمر من الجحيم : « ثم يقال : هذا الذي كنتم به تكذبون » !!

* * *

ثم يعرض الصفحة الأخرى . صفحة الأبرار . على العهد بطريقة القرآن في عرض الصفحتين متقابلتين في
 الغالب ، لتتم المقابلة بين حقيقتين وحالين ونهايتين :

« كلا ! إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عليون ؟ كتاب مرقوم ، يشهده المقربون . إن الأبرار
 لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك .
 وفي ذلك فليتنافس المتنافسون . ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون » ..

وكلمة « كلا » تنجيء في صدر هذا المقطع زجراً عما ذكر قبله من التكذيب في قوله : « ثم يقال : هذا
 الذي كنتم به تكذبون » .. ويعقب عليه بقوله : « كلا » ثم يبدأ الحديث عن الأبرار في حزم وفي تأكيد .
 فإذا كان كتاب الفجار في « سجين » فإن كتاب الأبرار في « عليين » ... والأبرار هم الطائعون الفاعلون
 كل خير . وهم يقابلون الفجار العصاة المتجاوزين لكل حد ..

ولفظ « عليين » يوحي بالعلو والارتفاع مما قد يؤخذ منه أن « سجين » يفيد الانحطاط والسفول . ثم يعقب
 عليه بسؤال التجهيل والتهويل المعهود : « وما أدراك ما عليون ؟ » .. فهو أمر فوق العلم والإدراك !
 ويعود من هذا الظل الموحى إلى تقرير حقيقة كتاب الأبرار .. فهو « كتاب مرقوم يشهده المقربون » وقد

سبق ذكر معنى مرقوم . ويضاف إليه هنا أن الملائكة المقربين يشهدون هذا الكتاب ويرونه . وتقرير هذه الحقيقة هنا يلقي ظلاً كريماً طاهراً رفيعاً على كتاب الأبرار . فهو موضع مشاهدة المقربين من الملائكة ، ومتعهم بما فيه من كرائم الأفعال والصفات . وهذا ظل كريم شفيف ، يذكر بقصد التكريم .

ثم يذكر حال الأبرار أنفسهم ، أصحاب هذا الكتاب الكريم . ويصف ما هم فيه من نعيم في ذلك .. العظم :

« إن الأبرار لفي نعيم » .. يقابل الجحيم الذي ينتهي إليه الفجار .. « على الأرائك ينظرون » أي إنهم في موضع التكريم ، ينظرون حيث يشاءون ، لا يغضون من مهانة ، ولا يشغلون عن النظر من مشقة .. وهم على الأرائك وهي الأسرة في الحجال . وأقرب ما يمثلها عندنا ما نسميه « الناموسية » أو الكلة ! وصورتها الدنيوية كانت أرق وأرق مظاهر النعيم عند العربي ذي العيشة الخشنة ! أما صورتها الأخروية فعلمها عند الله . وهي على أية حال أعلى من كل ما يعهده الإنسان مما يستمد من تجاربه في الأرض وتصوراته !

وهم في هذا النعيم ناعمو النفوس والأجسام ، تفيض النظرة على وجوههم وملامحهم حتى ليراها كل راء : « تعرف في وجوههم نظرة النعيم » ..

« يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك » ..

والرحيق الشراب الخالص المصفى ، الذي لا غش فيه ولا كدرة . ووصفه بأنه مختوم ختامه مسك ، قد يفيد أنه معد في أوانيه ، وأن هذه الأواني مقفلة مختومة ، تفض عند الشراب ، وهذا يلقي ظل الصيانة والعناية . كما أن جعل الختم من المسك فيه أناقة ورفاهية ! وهذه الصورة لا يدركها البشر إلا في حدود ما يعهدون في الأرض . فإذا كانوا هنالك كانت لهم أذواق ومفاهيم تناسب تصورهم الطليق من جو الأرض المحدود !

وقبل أن يتم وصف الشراب الذي يجيء في الآيتين التاليتين : « ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون » .. أي أن هذا الرحيق المختوم يفض ختامه ثم يمزج بشيء من هذه العين المسماة : « تسنيم » التي « يشرب بها المقربون » .. قبل أن يتم الوصف يلقي بهذا الإيقاع ، وبهذا التوجيه : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .. وهو إيقاع عميق يدل على كثير ...

إن أولئك المطففين ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، ولا يحسبون حساب اليوم الآخر ، ويكذبون بيوم الحساب والجزاء ، ويرين على قلوبهم الإثم والمعصية .. إن هؤلاء إنما يتنافسون في مال أو متاع من متاع الأرض الزهيد . يريد كل منهم أن يسبق إليه ، وأن يحصل على أكبر نصيب منه . ومن ثم يظلم ويفجر ويأثم ويرتكب ما يرتكب في سبيل متاع من متاع الأرض زائل ..

وما في هذا العرض القريب الزهيد ينبغي التنافس . إنما يكون التنافس في ذلك النعيم وفي ذلك التكريم : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .. فهو مطلب يستحق المنافسة ، وهو أفق يستحق السباق ، وهو غاية تستحق الغلاب .

والذين يتنافسون على شيء من أشياء الأرض مهما كبر وجل وارتفع وعظم ، إنما يتنافسون في حقير قليل فان قريب . والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة . ولكن الآخرة ثقيلة في ميزانه . فهي إذن حقيقة تستحق المنافسة فيها والمسابقة ..

ومن عجب أن التنافس في أمر الآخرة يرتفع بأرواح المتنافسين جميعاً . بينما التنافس في أمر الدنيا ينحط بها جميعاً . والسعي لنعيم الآخرة يصلح الأرض ويعمرها ويظهرها للجميع . والسعي لعرض الدنيا يدع الأرض مستنقعاً وبيئاً تأكل فيه الديدان بعضها البعض . أو تنهش فيه الهوام والحشرات جلود الأبرار الطيبين !

والتنافس في نعيم الآخرة لا يدع الأرض خراباً بلقماً كما قد يتصور بعض المنحرفين . إنما يجعل الإسلام الدنيا مزرعة الآخرة ، ويجعل القيام بخلافة الأرض بالعمار مع الصلاح والتقوى وظيفة المؤمن الحق . على أن يتوجه بهذه الخلافة إلى الله ، ويجعل منها عبادة له تحقق غاية وجوده كما قررها الله - سبحانه - وهو يقول : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون^١ » .

وإن قوله « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .. هو توجيه يمد بأبصار أهل الأرض وقلوبهم وراء رقعة الأرض الصغيرة الزهيدة ، بينما هم يعمرن الأرض ويقومون بالخلافة فيها . ويرفعها إلى آفاق أرفع وأطهر من المستنقع الآسن بينما هم يطهرون المستنقع وينظفونه !

إن عمر المرء في هذه العاجلة محدود ، وعمره في الآجلة لا يعلم نهايته إلا الله . وإن متاع هذه الأرض في ذاته محدود . ومتاع الجنة لا تحده تصورات البشر . وإن مستوى النعيم في هذه الدنيا معروف ومستوى النعيم هناك يليق بالخلود ! فأين مجال من مجال ؟ وأين غاية من غاية ؟ حتى بحساب الربح والخسارة فيما يعهد البشر من الحساب ؟ !

ألا إن السباق إلى هناك .. « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » ..

* * *

وكأنما أطل السباق في عرض صور النعيم الذي ينتظر الأبرار ، تمهيداً للحديث عما كانوا يلقون في الأرض من الفجار . من أذى واستهزاء وتطاول وادعاء .. وقد أطل في عرضه كذلك . ليختمه بالسخرية من الكفار ، وهم يشهدون نعيم الأبرار :

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون .. وما أرسلوا عليهم حافظين ..

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ..

« هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » ..

والمشاهد التي يرسمها القرآن لسخرية الذين أجرموا من الذين آمنوا ، وسوء أدبهم معهم ، وتطاولهم عليهم ، ووصفهم بأنهم ضالون .. مشاهد منتزعة من واقع البيئة في مكة . ولكنها متكررة في أجيال وفي مواطن شتى . وكثير من المعاصرين شهدوها كأنما هذه الآيات قد نزلت في وصفها وتصويرها . مما يدل على أن طبيعة الفجار المجرمين واحدة متشابهة في موقفها من الأبرار في جميع البيئات والعصور !!

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .. كانوا .. فقد طوى السباق الدنيا العاجلة الزائلة . فإذا المخاطبون به في الآخرة . يرون نعيم الأبرار الذين آمنوا . وهو يذكر لهم ما كان من أمر الدنيا ! إنهم كانوا يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم ، وسخرية منهم . إما لفقرهم وراثته حالهم . وإما لضعفهم

(١) يراجع تفسير هذا القول في سورة الذاريات الجزء السابع والعشرون . صفحة ٣٣٨٦ - ٣٣٨٨ .

عن رد الأذى . وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء .. فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجمعوا . وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخرتهم أو فكاهتهم المرذولة . وهم يسلطون عليهم الأذى ، ثم يضحكون للثيم الوضع ، مما يصيب الذين آمنوا ، وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين !

« وإذا مروا بهم يتغامزون » .. يغمز بعضهم لبعض بعينه ، أو يشير بيده ، أو يأتي بحركة متعارفة بينهم للسخرية من المؤمنين . وهي حركة وضيعة واطية تكشف عن سوء الأدب ، والتجرد من التهذيب . بقصد إيقاع الانكسار في قلوب المؤمنين ، وإصابتهم بالخجل والربكة ، وهؤلاء الأوغاد يتغامزون عليهم ساخرين !

« وإذا انقلبوا إلى أهلهم » بعدما أشبعوا نفوسهم الصغيرة الرديئة من السخرية بالمؤمنين وإيذائهم .. « انقلبوا فكهين » .. راضين عن أنفسهم ، مبهجين بما فعلوا ، مستمتعين بهذا الشر الصغير الحقيق . فلم يتلوموا ولم يندموا ، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا . وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير ! « وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون ! »

وهذه أعجب .. فليس أعجب من أن يتحدث هؤلاء الفجار المجرمون عن الهدى والضلال . وأن يزعموا حين يرون المؤمنين ، أن المؤمنين ضالون . ويشيروا إليهم مؤكدين لهذا الوصف في تشهير وتحقير : « إن هؤلاء لضالون ! » ..

والفجور لا يقف عند حد ، ولا يستحي من قول ، ولا يتلوم من فعل . واتهام المؤمنين بأنهم ضالون حين يوجهه الفجار المجرمون ، إنما يمثل الفجور في طبيعته التي هي تتجاوز لجميع الحدود !

والقرآن لا يقف ليجادل عن الذين آمنوا ، ولا ليناقدش طبيعة الفرية . فهي كلمة فاجرة لا تستحق المناقشة . ولكنه يسخر سخرية عالية من القوم الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم ، ويتطفلون بلا دعوة من أحد في هذا الأمر : « وما أرسلوا عليهم حافظين » .. وما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين ، وما أقيموا عليهم رقباء ، ولا كلفوا وزنهم وتقدير حالهم ! فالهم هم وهذا الوصف وهذا التقرير !

وينتهي بهذه السخرية العالية حكاية ما كان من الذين أجمعوا في الدنيا .. ما كان .. ويطوي هذا المشهد الذي انتهى . ليعرض المشهد الحاضر والذين آمنوا في ذلك النعم :

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون . على الأرائك ينظرون » ..

اليوم والكفار محجوبون عن ربهم ، يقاسون ألم هذا الحجاب الذي تهدر معه إنسانيتهم ، فيصلون الجحيم ، مع التذليل والتأنيب حيث يقال : « هذا الذي كنتم به تكذبون » ..

اليوم والذين آمنوا على الأرائك ينظرون . في ذلك النعم المقيم ، وهم يتناولون الرحيق المختوم بالمسك الممزوج بالتسليم ..

فاليوم .. الذين آمنوا من الكفار يضحكون ..

والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل :

« هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟ » .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا « الثواب » المعروف من الكلمة . فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا . فهو ثوابهم إذن . وباللسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام !

ونقف لحظة أمام هذا المشهد الذي يطيل القرآن عرض مناظره وحركاته - مشهد سخرية الذين أجمعوا من الذين آمنوا في الدنيا - كما أطال من قبل في عرض مشهد نعم الأبرار وعرض مناظره ومناغمه . فنجد أن هذه الإطالة من الناحية التأثيرية فن عال في الأداء التعبيري ، كما أنه فن عال في العلاج الشعوري . فقد كانت القلة المسلمة في مكة تلاقي من عنت المشركين وأذاهم ما يفعل في النفس البشرية بعنف وعمق . وكان ربهم لا يتركهم بلا عون ، من تثبته وتسريته وتأسيته .

وهذا التصوير المفصل لمواجههم من أذى المشركين ، فيه بلمس لقلوبهم . فربهم هو الذي يصف هذه المواجه . فهو يراها ، وهو لا يهملها - وإن أهمل الكافرين حيناً - وهذا وحده يكفي قلب المؤمن ويمسح على آلامه وجراحه . إن الله يرى كيف يسخر منهم الساخرون . وكيف يؤذيهم المجرمون . وكيف يتفكه بآلامهم ومواجههم المتفكّهون . وكيف لا يتلوم هؤلاء السفلة ولا يندمون ! إن ربهم يرى هذا كله . ويصفه في تنزيله . فهو إذن شيء في ميزانه ... وهذا يكفي ! نعم هذا يكفي حين تستشعره القلوب المؤمنة مهما كانت مجروحة موجوعة . ثم إن ربهم يسخر من المجرمين سخرية رفيعة عالية فيها تلميح موجه . قد لا تحسه قلوب المجرمين المطموسة المغطاة بالرين المطبق عليها من الذنوب . ولكن قلوب المؤمنين الحساسة المرهفة ، تحسه وتقدره ، وتستريح إليه وتستنيم !

ثم إن هذه القلوب المؤمنة تشهد حالها عند ربها ، ونعيمها في جناته ، وكرامتها في الملأ الأعلى . على حين تشهد حال أعدائها ومهاتهم في الملأ الأعلى وعذابهم في الجحيم ، مع الإهانة والترذيل .. تشهد هذا وذلك في تفصيل وفي تطويل . وهي تستشعر حالها وتذوقه تذوق الواقع اليقين . وما من شك أن هذا التذوق يسمح على مرارة ما هي فيه من أذى وسخرية وقلة وضعف . وقد يبلغ في بعض القلوب أن تبدل هذه المرارة فيها بالفعل حلاوة ، وهي تشهد هذه المشاهد في ذلك القول الكريم .

وما يلاحظ أن هذا كان هو وحده التسلية الإلهية للمؤمنين المعذبين المألومين من وسائل المجرمين الخسيسة ، وأذاهم البالغ ، وسخرتهم اللثيمة .. الجنة للمؤمنين ، والجحيم للكافرين . وتبديل الحالين بين الدنيا والآخرة تمام التبديل .. وهذا كان وحده الذي وعده به النبي - صلى الله عليه وسلم - المبايعين له . وهم يبذلون الأموال والنفوس !

فأما النصر في الدنيا ، والغلب في الأرض ، فلم يكن أبداً في مكة يذكر في القرآن المكّي في معرض التسرية والتثيت ..

لقد كان القرآن ينشئ قلوباً يعدها لحمل الأمانة . وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض . ولا تنتظر إلا الآخرة . ولا ترجو إلا رضوان الله . قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية واحتمال ، بلا جزاء في هذه الأرض قريب . ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين !

حتى إذا وجدت هذه القلوب التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض شيء إلا أن تعطي بلا مقابل . وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للجزاء . وموعداً كذلك للفصل بين الحق والباطل .. حتى إذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاه النصر في الأرض ، واثمتها عليه . لا لنفسها . ولكن لتقوم بأمانة المنهج الإلهي وهي أهل لأداء الأمانة ، مذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ؛ ولم

الجزء الثلاثون

تطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه . وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه !
وكل الآيات التي ورد فيها ذكر للنصر في الدنيا جاءت في المدينة . بعد ذلك . وبعد أن أصبح هذا الأمر
خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لأن مشيئة الله اقتضت أن تكون لهذا المنهج واقعية في
الحياة الإنسانية تقرره في صورة عملية محددة ، تراها الأجيال . فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية
والآلام . إنما كان قدراً من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الآن !

* * *

(٨٤) سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ مَكِّيَّةٌ وَاَيَاتُهَا خَمْسٌ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ❶ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ❷ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ❸ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ❹ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ❺ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ❻ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ❼ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ❽ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ❾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ❿ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ❶❶ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ❶❷ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ❶❸ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ❶❹

بَلَىٰ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ❶❺ فَلَا أَقْسَمُ بِالْشَّفَقِ ❶❻ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ❶❼ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ❶❽ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ❶❾ فَالْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ❶❿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ❶❶❶ ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ❶❶❷ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ❶❶❸ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ❶❶❹﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ❶❶❺

تبدأ السورة ببعض مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضت بتوسع في سورة التكوير ، ثم في سورة الانفطار . ومن قبل في سورة النبأ . ولكنها هنا ذات طابع خاص . طابع الاستسلام لله . استسلام السماء واستسلام الأرض ، في طوعية وخشوع ويسر : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » ..

ذلك المطلع الخاشع الجليل تمهيد لخطاب « الإنسان » ، وإلقاء الخشوع في قلبه لربه . وتذكيره بأمره ، وبمصييره الذي هو صائر إليه عنده . حين ينطبع في حسه ظل الطاعة والخشوع والاستسلام الذي تلقاه في حسه

السماء والأرض في المشهد الهائل الجليل : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه . فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ، ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيراً » .. والمقطع الثالث عرض لمشاهد كونية حاضرة ، مما يقع تحت حس « الإنسان » لها إيحاؤها ولها دلالتها على التدبير والتقدير ، مع التلويح بالقسم بها على أن الناس متقلبون في أحوال مقدرة مدبرة ، لا مفر لهم من ركوبها ومعاناتها : « فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ؛ لتركبن طبقاً عن طبق » .. ثم يحيي المقطع الأخير في السورة تعجباً من حال الناس الذين لا يؤمنون ؛ وهذه هي حقيقة أمرهم ، كما عرضت في المقطعين السابقين . وتلك هي نهايتهم ونهاية عالمهم كما جاء في مطلع السورة : « فאלهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟ » .. ثم بيان لعلم الله بما يضمون عليه جوانحهم وتهديد لهم بمصيرهم المحتوم : « بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يعون . فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون » ..

* * *

إنها سورة هادئة الإيقاع ، جليلة الإيحاء ، يغلب عليها هذا الطابع حتى في مشاهد الانقلاب الكونية التي عرضتها سورة التكويد في جو عاصف . سورة فيها لهجة التبصير المشفق الرحيم ، خطوة خطوة . في راحة ويسر ، وفي إحياء هادئ عميق . والخطاب فيها : « يا أيها الإنسان » فيه تذكير واستجاشة للضمير . وهي بترتيب مقاطعها على هذا النحو تطوف بالقلب البشري في مجالات كونية وإنسانية شتى ، متعاقبة تعاقباً مقصوداً .. فن مشهد الاستسلام الكوني . إلى لمسة لقلب « الإنسان » . إلى مشهد الحساب والجزاء . إلى مشهد الكون الحاضر وظواهره الموحية . إلى لمسة للقلب البشري أخرى . إلى التعجب من حال الذين لا يؤمنون بعد ذلك كله . إلى التهديد بالعذاب الأليم واستثناء المؤمنين بأجر غير ممنون .. كل هذه الجولات والمشاهد والإيحاءات واللمسات في سورة قصيرة لا تتجاوز عدة أسطر .. وهو ما لا يعهد إلا في هذا الكتاب العجيب ! فإن هذه الأغراض يتعذر الوفاء بها في الحيز الكبير ولا تؤدي بهذه القوة وبهذا التأثير .. ولكنه القرآن ميسر للذكر ؛ يخاطب القلوب مباشرة من منافذها القريبة . صبغة العلم الخير !

* * *

« إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت . وإذا الأرض مدت ، وألقت ما فيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .. وانشقاق السماء سبق الحديث عنه في سور سابقة . أما الجديد هنا فهو استسلام السماء لربها ؛ ووقوع الحق عليها ، وخضوعها لوقع هذا الحق وطاعتها : « وأذنت لربها وحقت » ..

فإذن السماء لربها : استسلامها وطاعتها لأمره في الانشقاق ، « وحقت » .. أي وقع عليها الحق . واعترفت بأنها محقوقة لربها . وهو مظهر من مظاهر الخضوع ، لأن هذا حق عليها مسلم به منها . والجديد هنا كذلك هو مد الأرض : « وإذا الأرض مدت » .. وقد يعني هذا مط رقعتها وشكلها ، مما ينشأ عن انقلاب النواميس التي كانت تحكمها ، وتحفظها في هذا الشكل الذي انتهت إليه - والمقول إنه كروي

أو يضاوي - والتعبير يجعل وقوع هذا الأمر لها آتياً من فعل خارج عنها ، مما يفيد بناء الفعل للمجهول : « مدت » .
« وألقت ما فيها وتخلت » .. وهو تعبير يصور الأرض كائنة حية تلقي ما فيها وتتخلى عنه . وما فيها كثير .
منه تلك الخلائق التي لا تحصى ، والتي طوتها الأرض في أجيالها التي لا يعلم إلا الله مداها . ومنه سائر ما يختبئ
في جوف الأرض من معادن ومياه وأسرار لا يعلمها إلا بارئها . وقد حملت حملها هذا أجيالاً بعد أجيال ،
وقروناً بعد قرون . حتى إذا كان ذلك اليوم : ألقت ما فيها وتخلت ..

« وأذنت لربها وحقت » .. هي الأخرى كما أذنت السماء لربها وحقت . واستجابت لأمره مستسلمة مذعنة ،
معترفة أن هذا حق عليها ، وأنها طائعة لربها بحقه هذا عليها ..

وتبدو السماء والأرض - بهذه الآيات المصورة - ذواقي روح . وخليقتين من الأحياء . تستمعان للأمر ،
وتلييان للفور ، وتطيعان طاعة المعترف بالحق ، المستسلم لمقتضاه ، استسلاماً لا التواء فيه ولا إكراه .

ومع أن المشهد من مشاهد الانقلاب الكوني في ذلك اليوم . فإن صورته هنا يظللها الخشوع والجلال والوقار
والهدوء العميق الظلال . والذي يتبقى في الحس منه هو ظل الاستسلام الطائع الخاشع في غير ما جلبه ولا
معارضة ولا كلام !

* * *

وفي هذا الجو الخاشع الطائع يحجي النداء العلوي للإنسان ، وأمامه الكون بسمائه وأرضه مستسلماً لربه
هذا الاستسلام :

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه » ..

« يا أيها الإنسان » .. الذي خلقه ربه بإحسان ، والذي ميزه بهذه « الإنسانية » التي تفرده في هذا الكون
بخصائص كان من شأنها أن يكون أعرف بربه ، وأطوع لأمره من الأرض والسماء . وقد نفخ فيه من روحه ،
وأودعه القدرة على الاتصال به ، وتلقي قبس من نوره ، والفرح باستقبال فيوضاته ، والتطهر بها أو الارتفاع
إلى غير حد ، حتى يبلغ الكمال المقدر لجنسه ، وآفاق هذا الكمال عالية بعيدة !

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه » .. يا أيها الإنسان إنك تقطع رحلة حياتك على الأرض
كادحاً ، تحمل عبثك ، وتجهد جهدك ، وتشق طريقك .. لتصل في النهاية إلى ربك . فإليه المرجع وإليه
المآب . بعد الكد والكدح والجهاد ..

يا أيها الإنسان .. إنك كادح حتى في متاعك .. فأنت لا تبلغه في هذه الأرض إلا بجهد وكد . إن لم يكن
جهد بدن وكد عمل ، فهو جهد تفكير وكد مشاعر . الواجد والمحروم سواء . إنما يختلف نوع الكدح ولون
العناء ، وحقيقة الكدح هي المستقرة في حياة الإنسان .. ثم النهاية في آخر المطاف إلى الله سواء .

يا أيها الإنسان .. إنك لا تجد الراحة في الأرض أبداً . إنما الراحة هناك . لمن يقدم لها بالطاعة والاستسلام ..
التعب واحد في الأرض والكدح واحد - وإن اختلف لونه وطعمه - أما العاقبة فختلفة عندما تصل إلى ربك ..
فواحد إلى عناء دونه عناء الأرض . وواحد إلى نعيم يمسح على آلام الأرض كأنه لم يكن كدح ولا كد ..

يا أيها الإنسان .. الذي امتاز بخصائص « الإنسان » .. ألا فاختر لنفسك ما يليق بهذا الامتياز الذي خصك
به الله ، اختر لنفسك الراحة من الكدح عندما تلقاه .

ولأن هذه اللمسة الكامنة في هذا النداء ، فإنه يصل بها مصائر الكادحين عندما يصلون إلى نهاية الطريق ،

ويلقون ربهم بعد الكدح والعناء :

« وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً ، ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور . بلى إن ربه كان به بصيراً » ..

والذي يؤتى كتابه بيمينه هو المرضي السعيد ، الذي آمن وأحسن ، فرضي الله عنه وكتب له النجاة . وهو يحاسب حساباً يسيراً . فلا يناقش ولا يدقق معه في الحساب . والذي يصور ذلك هو الآثار الواردة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفيها غناء ..

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من نوقش الحساب عذب » قالت : قلت : أفليس قال الله تعالى : « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » . قال : « ليس ذلك بالحساب ، ولكن ذلك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة عذب ^١ » ..

وعنها كذلك قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول في بعض صلاته : « اللهم حاسبني حساباً يسيراً » .. فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر في كتابه فيتجاوز له عنه . من نوقش الحساب يا عائشة يومئذ هلك ^٢ » ..

فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه .. ثم ينجو « وينقلب إلى أهله مسروراً » .. من الناجين الذين سبقوه إلى الجنة .. وهو تعبير يفيد تجمع المتوافقين على الإيمان والصلاح من أهل الجنة . كل ومن أحب من أهله وصحبه . ويصور رجعة الناجي من الحساب إلى مجموعته المتألفة بعد الموقف العصيب . رجعتة متلهلاً فرحاً مسروراً بالنجاة واللقاء في الجنان !

وهو وضع يقابل وضع المذهب الهالك المأخوذ بعمله السيئ ، الذي يؤتى كتابه وهو كاره : « وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثوراً . ويصلى سعيراً » ..

والذي ألقناه في تعبيرات القرآن من قبل هو كتاب اليمين وكتاب الشمال . فهذه صورة جديدة : صورة إعطاء الكتاب من وراء الظهر . وليس يمتنع أن يكون الذي يعطى كتابه بشماله يعطاه كذلك من وراء ظهره . فهي هيئة الكاره المكره الخزيان من المواجهة !

ونحن لا ندري حقيقة الكتاب ولا كيفية إتيائه باليمين أو بالشمال أو من وراء الظهر . إنما تخلص لنا حقيقة النجاة من وراء التعبير الأول ؛ وحقيقة الهلاك من وراء التعبير الثاني . وهما الحقيقتان المقصود أن نستيقنهما . وما وراء ذلك من الأشكال إنما يحيي المشهد ويعمق أثره في الحس ، والله أعلم بحقيقة ما يكون كيف تكون ! فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً ، وقطع طريقه إلى ربه كدحاً - ولكن في المعصية والإثم والضلال - يعرف نهايته ، ويواجه مصيره ، ويدرك أنه العناء الطويل بلا توقف في هذه المرة ولا انتهاء . فيدعو ثوراً ، وينادي الهلاك ليتقذه مما هو مقدم عليه من الشقاء . وحين يدعو الإنسان بالهلاك لينجو به ، يكون في الموقف الذي ليس بعده ما يتقيه . حتى ليصبح الهلاك أقصى أمانيه . وهذا هو المعنى الذي أرادته المتنبي وهو يقول :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

(٢) رواه الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن الزبير عن عائشة . وهو صحيح على شرط مسلم . ولم يخرجه .

فإنما هي التعاسة التي ليس بعدها تعاسة . والشقاء الذي ليس بعده شقاء ! .. « ويصلى سعيراً » .. وهذا هو الذي يدعو الهلاك لينقذه منه .. وهيات هيات !

وأمام هذا المشهد التعيس يكر السياق راجعاً إلى ماضي هذا الشقي الذي انتهى به إلى هذا الشقاء .. « إنه كان في أهله مسروراً . إنه ظن أن لن يحور » ..

وذلك كان في الدنيا .. نعم كان .. فنحن الآن - مع هذا القرآن - في يوم الحساب والجزاء وقد خلفنا الأرض وراءنا بعيداً في الزمان والمكان !

« إنه كان في أهله مسروراً » .. غافلاً عما وراء اللحظة الحاضرة : لاهياً عما ينتظره في الدار الآخرة ، لا يحسب لها حساباً ولا يقدم لها زاداً .. « إنه ظن أن لن يحور » إلى ربه ، ولن يرجع إلى بارئه ، ولو ظن الرجعة في نهاية المطاف لاحتقب بعض الزاد ولادخر شيئاً للحساب ! « بلى إن ربه كان به بصيراً » ..

إنه ظن أن لن يحور . ولكن الحقيقة أن ربه كان مطلعاً على أمره ، محيطاً بحقيقته ، عالماً بحركاته وخطواته ، عارفاً أنه صائر إليه ، وأنه مجازيه بما كان منه .. وكذلك كان ، حين انتهى به المطاف إلى هذا المقدور في علم الله . والذي لم يكن بد أن يكون !

وصورة هذا التعيس وهو مسرور بين أهله في حياة الأرض القصيرة المشوبة بالكدح - في صورة من صبور الكدح - تقابلها صورة ذلك السعيد ، وهو يتقلب إلى أهله مسروراً في حياة الآخرة المديدة ، الطليقة ، الجميلة ، السعيدة ، الهنيئة ، الخالية من كل شائبة من كدح أو عناء ..

* * *

ومن هذه الجولة الكبيرة العميقة الأثر بمشاهدها ولمساتها الكثيرة ، يعود السياق بهم إلى لمحات من هذا الكون الذي يعيشون فيه حياتهم ، وهم غافلون عما تشي به هذه اللمحات من التدبير والتقدير ، الذي يشملهم كذلك ، ويقدر بإحكام ما يتوارد عليهم من أحوال :

« فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق .. لتركن طبقاً عن طبق » ..

وهذه اللمحات الكونية التي يلوح بالقسم بها ، لتوجيه القلب البشري إليها ، وتلقي إحياءاتها وإيقاعاتها .. لمحات ذات طابع خاص . طابع يجمع بين الخشوع الساكن ، والجلال المرهوب . وهي تتفق في ظلها مع ظلال مطلع السورة ومشاهدها بصفة عامة .

فالشفق هو الوقت الخاشع المرهوب بعد الغروب .. وبعد الغروب تأخذ النفس روعة ساكنة عميقة . ويحس القلب بمعنى الوداع وما فيه من أسى صامت وشجي عميق . كما يحس برهبة الليل القادم ، ووحشة الظلام الزاحف . ويلفه في النهاية خشوع وخوف خفي وسكون !

« والليل وما وسق » .. هو الليل وما جمع وما حمل .. بهذا التعميم ، وبهذا التجهيل ، وبهذا التهويل . والليل يجمع ويضم ويحمل الكثير .. ويذهب التأمل بعيداً ، وهو يتقصى ما يجمعه الليل ويضمه ويحملة من أشياء وأحياء وأحداث ومشاعر ، وعوالم خافية ومضمرة ، سارية في الأرض وغائرة في الضمير .. ثم يؤوب من هذه الرحلة المديدة ، ولم يبلغ من الصور ما يحتويه النص القرآني القصير : « والليل وما وسق » .. إنما يغمره من النص العميق العجيب ، رهبة ووجل ، وخشوع وسكون تتسق مع الشفق وما يضيفه من خشوع وخوف وسكون !

« والقمر إذا اتسق » .. مشهد كذلك هادئ رائع ساحر .. وهو القمر في ليالي اكتماله .. وهو يفيض على الأرض بنوره الحالم الخاشع الموحى بالصمت الجليل ، والسياحة المديدة ، في العوالم الظاهرة والمكنونة في الشعور .. وهو جو له صلة خفية بجو الشفق ، والليل وما وسق . يلتقي معهما في الجلال والخشوع والسكون ..

هذه اللحظات الكونية الجميلة الجلييلة الرائعة المرهوبة الموحية يلتقطها القرآن لقطات سريعة ، ويخاطب بها القلب البشري ، الذي يغفل عن خطابها الكوني . ويلوح بالقسم بها ليرزها للمشاعر والضائير ، في حيويتها ، وجمالها وإيحائها وإيقاعها ، ودلالاتها على اليد التي تمسك بأقدار هذا الكون ، وترسم خطواته ، وتبدل أحواله .. وأحوال الناس أيضاً وهم غافلون :

« لتركبن طبقاً عن طبق » .. أي لتعانون حالاً بعد حال ، وفق ما هو مرسوم لكم من تقديرات وأحوال . ويعبر عن معاناة الأحوال المتعاقبة بركوبها . والتعبير بركوب الأمور والأخطار والأهوال والأحوال مألوف في التعبير العربي ، كقولهم : « إن المضطر يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه » .. وكأن هذه الأحوال مطايا يركبها الناس واحدة بعد واحدة . وكل منها تمضي بهم وفق مشيئة القدر الذي يقودها ويقودهم في الطريق ، فتنتهي بهم عند غاية تؤدي إلى رأس مرحلة جديدة ، مقدرة كذلك مرسومة ، كتقدير هذه الأحوال المتعاقبة على الكون من الشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق . حتى تنتهي بهم إلى لقاء ربهم ، الذي تحدثت عنه الفقرة السالفة .. وهذا التتابع المتناسق في فقرات السورة ، والانتقال اللطيف من معنى إلى معنى ، ومن جولة إلى جولة ، هو سمة من سمات هذا القرآن البديع ..

* * *

وفي ظل هذه اللحظات الأخيرة ، والمشاهد والجولات السابقة لها في السورة ، يجيء التعجيب من أمر الذين لا يؤمنون . وأمامهم هذا الحشد من موحيات الإيمان ودلائله في أنفسهم وفي الوجود :

« فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟ » ..

أجل ! فما لهم لا يؤمنون ؟

إن موحيات الإيمان في لمحات الوجود ، وفي أحوال النفوس ، تواجه القلب البشري حيثما توجه ؛ وتتكاثر عليه أينما كان . وهي من الكثرة والعمق والقوة والثقل في ميزان الحقيقة بحيث تحاصر هذا القلب لو أراد التفلسف منها . بينما هي تناجيه وتنأغيه وتناديه حيثما ألقى بسمعه وقلبه إليها !

« فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟ » وهو يخاطبهم بلغة الفطرة ، ويفتح قلوبهم على موحيات الإيمان ودلائله في الأنفس والآفاق . ويستجيش في هذه القلوب مشاعر التقوى والخشوع والطاعة والخضوع لبارئ الوجود .. وهو « السجود » ..

إن هذا الكون جميل . وموح . وفيه من اللحظات والومضات واللحظات والسبحات ما يستجيش في القلب البشري أسمى مشاعر الاستجابة والخشوع .

وإن هذا القرآن جميل . وموح . وفيه من اللمسات والموحيات ما يصل القلب البشري بالوجود الجميل ، وبيارئ الوجود الجليل . ويسكب فيه حقيقة الكون الكبيرة الموحية بحقيقة خالقه العظيم .. « فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟ » ..

إنه لأمر عجيب حقاً . يضرب عنه السياق ليأخذ في بيان حقيقة حال الكفار ، وما ينتظرهم من مآل :

« بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم » ..
بل الذين كفروا يكذبون . يكذبون إطلاقاً . فالتكذيب طابعهم وميسمهم وطبعهم الأصيل . والله أعلم
بما يكونون في صدورهم ، ويضمنون عليه جوانحهم ، من شر وسوء ودوافع لهذا التكذيب ..
ويترك الحديث عنهم ، ويتجه بالخطاب إلى الرسول الكريم : « فبشرهم بعذاب أليم » .. ويألها من بشرى
لا تسر ولا يودها متطلع إلى بشرى من بشرى !
وفي الوقت ذاته يعرض ما ينتظر المؤمنين الذين لا يكذبون ، فيستعدون بالعمل الصالح لما يستقبلون . ويجيء
هذا العرض في السياق كأنه استثناء من مصير الكفار المكذبين :
« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . لهم أجر غير ممنون » ..
وهو الذي يقال عنه في اللغة إنه استثناء منقطع . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يكونوا داخلين ابتداء
في تلك البشارة السوداء ثم استثنوا منها ! ولكن التعبير على هذا النحو أشد إثارة للانتباه إلى الأمر المستثنى !
والأجر غير الممنون .. هو الأجر الدائم غير المقطوع .. في دار البقاء والخلود ..
وبهذا الإيقاع الحاسم القصير ، تنتهي السورة القصيرة العبارة ، البعيدة الآماد في مجالات الكون والضمير .

* * *

(١٥) سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④
النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ⑨ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑩
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑪ إِنَّ
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ⑫ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑬ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ⑭ إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ ⑮ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ⑯ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⑰ فَعَالٌ لَمَّا
يُرِيدُ ⑱ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑲ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ⑳ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ㉑ وَاللَّهُ
مِنْ وَرَاءِهِمْ مُحِيطٌ ㉒ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ㉓ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ㉔

هذه السورة القصيرة تعرض ، حقائق العقيدة ، وقواعد التصور الإيماني .. أموراً عظيمة وتشع حولها أضواء قوية بعيدة المدى ، وراء المعاني والحقائق المباشرة التي تعبر عنها نصوصها حتى لتكاد كل آية - وأحياناً كل كلمة في الآية - أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف من الحقيقة ..

والموضوع المباشر الذي تتحدث عنه السورة هو حادث أصحاب الأخدود .. والموضوع هو أن فئة من المؤمنين السابقين على الإسلام - قيل إنهم من النصاري الموحدين - ابتلوا بأعداء لهم طغاة قساة شريرين ، أرادوهم على ترك عقيدتهم والارتداد عن دينهم ، فأبوا وتمنعوا بعقيدتهم . فشق الطغاة لهم شقاً في الأرض ، وأوقدوا فيه النار ، وكبوا فيه جماعة المؤمنين فأتوا حرقاً ، على مرأى من الجموع التي حشدتها المتسلطون لتشهد مصرع الفئة المؤمنة

بهذه الطريقة البشعة ، ولكي يتلهى الطغاة بمشهد الحريق . حريق الآدميين المؤمنين : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » ..

تبدأ السورة بقسم : « والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود ، قتل أصحاب الأخدود .. » تربط بين السماء وما فيها من بروج هائلة ، واليوم الموعود وأحداثه الضخام ، والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه .. تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة السماء على أصحابه البغاة .

ثم تعرض المشهد المفجع في لمحات خاطفة ، تودع المشاعر بشاعة الحادث بدون تفصيل ولا تطويل .. مع التلميح إلى عظمة العقيدة التي تعالت على فتنة الناس مع شدتها ، وانتصرت على النار وعلى الحياة ذاتها ، وارتفعت إلى الأوج الذي يشرف الإنسان في أجياله جميعاً . والتلميح إلى بشاعة الفعل ، وما يمكن فيها من بغي وشر وتسفل ، إلى جانب ذلك الارتفاع والبراءة والتطهر من جانب المؤمنين : « النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » ..

بعد ذلك تجيء التعقيبات المتوالية القصيرة متضمنة تلك الأمور العظيمة في شأن الدعوة والعقيدة والتصور الإيماني الأصيل :

إشارة إلى ملك الله في السماوات والأرض وشهادته وحضوره تعالى لكل ما يقع في السماوات والأرض : الله « الذي له ملك السماوات والأرض . والله على كل شيء شهيد » ..

وإشارة إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق الذي ينتظر الطغاة الفجرة السفلة : وإلى نعم الجنة ... ذلك الفوز الكبير .. الذي ينتظر المؤمنين الذين اختاروا عقيدتهم على الحياة ، وارتفعوا على فتنة النار والحريق : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات - ثم لم يتوبوا - فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .. ذلك الفوز الكبير » ..

وتلويح ببطش الله الشديد ، الذي يبدئ ويعيد : « إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدئ ويعيد » .. وهي حقيقة تتصل اتصالاً مباشراً بالحياة التي أزهقت في الحادث ، وتلقي وراء الحادث إشعاعات بعيدة .. وبعد ذلك بعض صفات الله تعالى . وكل صفة منها تعني أمراً ..

« وهو الغفور الودود » الغفور للتائبين من الإثم مهما عظم وبشع . الودود لعباده الذين يختارونه على كل شيء . والود هنا هو البلمس المريح لمثل تلك القروح !

« ذو العرش المجيد . فعال لما يريد » .. وهي صفات تصور الهيمنة المطلقة ، والقدرة المطلقة ، والإرادة المطلقة .. وكلها ذات اتصال بالحادث .. كما أنها تطلق وراءه إشعاعات بعيدة الآماد .

ثم إشارة سريعة إلى سوابق من أخذه للطغاة ، وهم مدججون بالسلاح .. « هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ؟ » وهما مصرعان متنوعان في طبيعتهما وآثارهما . ووراءهما - مع حادث الأخدود - إشعاعات كثيرة . وفي الختام يقرر شأن الذين كفروا وإحاطة الله بهم وهم لا يشعرون : « بل الذين كفروا في تكذيب . والله من ورائهم محيط » ..

ويقرر حقيقة القرآن ، وثبات أصله وحياطته : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » .. مما يوحي بأن ما يقرره هو القول الفصل والمرجع الأخير ، في كل الأمور .

هذه لمحات مجملة عن إشعاعات السورة ومجالها الواسع البعيد . تمهد لاستعراض هذه الإشعاعات بالتفصيل :

« والسما ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود » ..

تبدأ السورة - قبل الإشارة إلى حادث الأخدود - بهذا القسم : بالسما ذات البروج ، وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السما الضخمة أي قصورها المبنية ، كما قال : « والسما بنيها بأيدينا لموسعون » .. وكما قال « أنتم أشد خلقاً أم السما بناها » .. وإما أن تكون هي المنازل التي تنتقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها ، وهي مجالاتها التي لا تتعدها في جريانها في السما . والإشارة إليها يوحي بالضخامة . وهو الظل المراد إلقاؤه في هذا الجو .

« واليوم الموعود » .. وهو يوم الفصل في أحداث الدنيا ، وتصفية حساب الأرض وما كان فيها . وهو الموعود الذي وعد الله بمجيئه ، ووعد بالحساب والجزاء فيه ؛ وأمهل المتخاصمين والمتقاضين إليه . وهو اليوم العظيم الذي تتطلع إليه الخلائق ، وترقبه لترى كيف تصير الأمور .

« وشاهد ومشهود » .. في ذلك اليوم الذي تعرض فيه الأعمال ، وتعرض فيه الخلائق ، فتصبح كلها مشهودة ، ويصبح الجميع شاهدين .. ويعلم كل شيء . ويظهر مكشوفاً لا يستره ساتر عن القلوب والعيون .. وتلتقي السما ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود .. تلتقي جميعاً في إلقاء ظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود .. كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث . وتوزن فيه حقيقته ويصفى فيه حسابه .. وهو أكبر من مجال الأرض ، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود ..

* * *

وبعد رسم هذا الجو ، وفتح هذا المجال ، تجيء الإشارة إلى الحادث في لمسات قلائل :

« قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والأرض ، والله على كل شيء شهيد » .. وتبدأ الإشارة إلى الحادث بإعلان النعمة على أصحاب الأخدود : « قتل أصحاب الأخدود » .. وهي كلمة تدل على الغضب . غضب الله على الفعلة وفاعليها . كما تدل على شناعة الذنب الذي يثير غضب الحليم ، ونقمته ، ووعيده بالقتل لفاعليه .

ثم يجيء تفسير الأخدود : « النار ذات الوقود » والأخدود : الشق في الأرض . وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه ناراً ، فصارت النار بدلاً في التعبير من الأخدود للإيحاء بتلهب النار فيه كله وتوقدها . قتل أصحاب الأخدود ، واستحقوا هذه النعمة وهذا الغضب ، في الحالة التي كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الإثم ، ويزاولون تلك الجريمة : « إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » .. وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم ، وهم يوقدون النار ، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار ، قريبون من عملية التعذيب البشعة ، يشاهدون أطوار التعذيب ، وفعل النار في الأجسام في لذة وسعار ، كأنما يشبتون في حسهم هذا المشهد البشع الشنيع !

وما كان للمؤمنين من ذنب عندهم ولا ثار : « وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذي له ملك السماوات والأرض . والله على كل شيء شهيد » .. فهذه جريمتهم أنهم آمنوا بالله ، العزيز : القادر على ما يريد ، الحميد : المستحق للحمد في كل حال ، والمحمود بذاته ولولم يحمده الجهال ! وهو الحقيق بالإيمان وبالعبودية له . وهو وحده الذي له ملك السماوات والأرض وهو يشهد كل شيء وتعلق به إرادته تعلق الحضور .

ثم هو الشهيد على ما كان من أمر المؤمنين وأصحاب الأخدود .. وهذه لمسة تطمئن قلوب المؤمنين ، وتهدد العتاة المتجبرين . فالله كان شهيداً . وكفى بالله شهيداً .

وتنتهي رواية الحادث في هذه الآيات القصار ، التي تملأ القلب بشحنة من الكراهية لبشاعة الفعل وفعاليتها ، كما تستجيش فيه التأمل فيما وراء الحادث ووزنه عند الله وما استحقه من نقمته وغضبه . فهو أمر لم ينته بعد عند هذا الحد ، ووراءه في حساب الله ما وراءه .

كذلك تنتهي رواية الحادث وقد ملأت القلب بالروعة . روعة الإيمان المستعلي على الفتنة ، والعقيدة المنتصرة على الحياة ، والانطلاق المتجرد من أوهاق الجسم وجاذبية الأرض . فقد كان في مكنة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم أنفسهم في الدنيا قبل الآخرة ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير : معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح بعد سيطرتهم على الأجساد ! إنه معنى كريم جداً ومعنى كبير جداً هذا الذي ربحوه وهم بعد في الأرض . ربحوه وهم ينجون من النار فتحترق أجسادهم ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي تركه النار ؟ وبعد ذلك لهم عند ربهم حساب ، ولأعدائهم الطاغين حساب .. يعقب به السياق ..

* * *

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير » .. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . ذلك الفوز الكبير .. إن الذي حدث في الأرض وفي الحياة الدنيا ليس خاتمة الحادث وليس نهاية المطاف . فالبقية آتية هناك . والجزاء الذي يضع الأمر في نصابه ، ويفصل فيما كان بين المؤمنين والطاغين آت . وهو مقرر مؤكد ، وواقع كما يقول عنه الله :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ومضوا في ضلالتهم سادرين ، لم يندموا على ما فعلوا » ثم لم يتوبوا .. « فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » .. وينص على « الحريق » .. وهو مفهوم من عذاب جهنم . ولكنه ينطق به وينص عليه ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود . وبنفس اللفظ الذي يدل على الحدث . ولكن أين حريق من حريق ؟ في شدته أو في مدته ! وحريق الدنيا بنار يوقدها الخلق . وحريق الآخرة بنار يوقدها الخالق ! وحريق الدنيا لحظات وتنتهي ، وحريق الآخرة آبد لا يعلمها إلا الله ! ومع حريق الدنيا رضى الله عن المؤمنين وانتصار لذلك المعنى الإنساني الكريم . ومع حريق الآخرة غضب الله ، والارتكاس الهابط الذميمة !

ويتمثل رضى الله وإنعامه على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » .. وهذه هي النجاة الحقيقية : « ذلك الفوز الكبير » .. والفوز : النجاة والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز . فكيف بالجنات تجري من تحتها الأنهار ؟

بهذه الخاتمة يستقر الأمر في نصابه . وهي الخاتمة الحقيقية للموقف . فلم يكن ما وقع منه في الأرض إلا طرفاً من أطرافه ، لا يتم به تمامه .. وهذه هي الحقيقة التي يهدف إليها هذا التعقيب الأول على الحادث لتستقر في قلوب القلة المؤمنة في مكة ، وفي قلوب كل فئة مؤمنة تتعرض للفتنة على مدار القرون .

* * *

ثم تتوالى التعقيبات ..

« إن بطش ربك لشديد » .. وإظهار حقيقة البطش وشدته في هذا الموضع هو الذي يناسب ما مر في الحادث من مظهر البطش الصغير الهزيل الذي يحسبه أصحابه ويحسبه الناس في الأرض كبيراً شديداً . فالبطش الشديد هو بطش الجبار . الذي له ملك السماوات والأرض . لا بطش الضعاف المهازيل الذين يتسلطون على رقعة من الأرض محدودة ، في رقعة من الزمان محدودة ..

ويظهر التعبير العلاقة بين المخاطب - وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقائل وهو الله عز وجل . وهو يقول له : « إن بطش ربك .. » ربك الذي تنتسب إلى ربوبيته ، وسندك الذي تركز إلى معونته .. وهذه النسبة قيمتها في هذا المجال الذي يبطش فيه الفجار بالمؤمنين !

« إنه هو يبدئ ويعيد » .. والبدء والإعادة وإن اتجه معناهما الكلي إلى النشأة الأولى والنشأة الآخرة .. إلا أنهما حدثان دائبان في كل لحظة من ليل أو نهار . ففي كل لحظة بدء وإنشاء ، وفي كل لحظة إعادة لما بلى ومات . والكون كله في تجدد مستمر .. وفي بلى مستمر .. وفي ظل هذه الحركة الدائبة الشاملة من البدء والإعادة يبدو حادث الأخدود ونتائجه الظاهرة مسألة عابرة في واقع الأمر وحقيقة التقدير . فهو بدء لإعادة . أو إعادة لبدء . في هذه الحركة الدائبة الدائرة ..

« وهو الغفور الودود » .. والمغفرة تتصل بقوله من قبل : « ثم لم يتوبوا » .. فهي من الرحمة والفضل الفاضل بلا حدود ولا قيود . وهي الباب المفتوح الذي لا يغلق في وجه عائد تائب . ولوعظم الذنب وكبرت المعصية .. أما الود .. فيتصل بموقف المؤمنين ، الذين اختاروا ربهم على كل شيء . وهو الإيناس اللطيف الحلو الكريم . حين يرفع الله عباده الذين يؤثرونه ويحبونه إلى مرتبة ، يتخرج القلم من وصفها لولا أن فضل الله يجود بها .. مرتبة الصداقة .. الصداقة بين الرب والعبد .. ودرجة الود من الله لأودائه وأحبائه المقربين .. فإذا تكون الحياة التي ضحوا بها وهي ذاهبة ؟ وماذا يكون العذاب الذي احتملوه وهو موقوت ؟ ماذا يكون هذا إلى جانب قطرة من هذا الود الحلو ؟ وإلى جانب لمحة من هذا الإيناس الحبيب ؟

إن عبيداً من رقيق هذه الأرض . عبيد الواحد من البشر ، ليلقون بأنفسهم إلى التهلكة لكلمة تشجيع تصدر من فمه ، أو لمحة رضاء تبدو في وجهه .. وهو عبد وهم عبيد .. فكيف بعباد الله . الذين يؤنسهم الله بوده الكريم الجليل ، الله « ذو العرش المجيد » العالي المهيمن الماجد الكريم ؟ ألا هانت الحياة . وهان الألم . وهان العذاب . وهان كل غال عزيز ، في سبيل لمحة رضى يجود بها المولى الودود ذو العرش المجيد ..

« فعال لما يريد » .. هذه صفة الكثيرة التحقق ، الدائبة العمل .. فعال لما يريد .. فهو مطلق الإرادة ، يختار ما يشاء ، ويفعل ما يريد ويختاره ، دائماً أبداً ، فتلك صفة سبحانه .

يريد مرة أن ينتصر المؤمنون به في هذه الأرض لحكمة يريد بها . ويريد مرة أن ينتصر الإيمان على الفتنة وتذهب الأجسام الفانية لحكمة يريد بها .. يريد مرة أن يأخذ الجبارين في الأرض . ويريد مرة أن يمهلهم لليوم الموعود .. لحكمة تتحقق هنا وتتحقق هناك ، في قدره المرسوم ..

فهذا طرف من فعله لما يريد . يناسب الحادث ويناسب ما سيأتي من حديث فرعون وثمود . وتبقى حقيقة الإرادة الطليقة والقدرة المطلقة وراء الأحداث ووراء الحياة والكون تفعل فعلها في الوجود .

فعال لما يريد .. وهاك نموذجاً من فعله لما يريد :

« هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود ؟ » . وهي إشارة إلى قصتين طويلتين ، ارتكباناً إلى المعلوم من أمرهما للمخاطبين ، بعدما ورد ذكرهما كثيراً في القرآن الكريم . ويسميهما الجنود . إشارة إلى قوتهم واستعدادهم .. هل أتاك حديثهم ؟ وكيف فعل ربك بهم ما يريد ؟

وهما حديثان مختلفان في طبيعتهما وفي نتائجهما .. فأما حديث فرعون ، فقد أهلكه الله وجنده ونجى بني إسرائيل ، ومكن لهم في الأرض فترة ، ليحقق بهم قدراً من قدره ، وإرادة من إرادته . وأما حديث ثمود فقد أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحاً والقلّة معه حيث لم يكن لهم بعد ذلك ملك ولا تمكين . إنما هي مجرد النجاة من القوم الفاسقين .

وهما نموذجان لفعل الإرادة ، وتوجه المشيئة . وصورتان من صور الدعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة ، إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في حادث الأخدود .. وكلها يعرضها القرآن للقلّة المؤمنة في مكة ، ولكل جيل من أجيال المؤمنين ..

* * *

وفي الختام يجيء إيقاعان قويان جازمان . في كل منهما تقرير ، وكلمة فصل وحكم أخير :
« بل الذين كفروا في تكذيب ، والله من ورائهم محيط » ..

فشأن الكفار وحقيقة حالهم أنهم في تكذيب يمسون به ويصبحون . « والله من ورائهم محيط » .. وهم غافلون عما يحيط بهم من قهر الله وعلمه . فهم أضعف من الفيران المحصورة في الطوفان العميم !
« بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » ..

والمجيد الرفيع الكريم العريق .. وهل أجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم ؟ وهو في لوح محفوظ . لا ندرك نحن طبيعته ، لأنه من أمر الغيب الذي تفرد الله بعلمه . إنما ننتفع نحن بالظل الذي يلقيه التعبير ، والإيحاء الذي يتركه في القلوب . وهو أن هذا القرآن مصون ثابت ، قوله هو المرجع الأخير ، في كل ما يتناوله من الأمور . يذهب كل قول ، وقوله هو المرعي المحفوظ ..
ولقد قال القرآن قوله في حادث الأخدود ، وفي الحقيقة التي وراءه .. وهو القول الأخير ..

* * *

(٨٦) سُورَةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا سَبْعٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ
يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَآكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُويْدًا ﴿١٧﴾

جاء في مقدمة هذا الجزء أن سوره تمثل طرقات متوالية على الحس . طرقات عنيقة قوية عالية ، وصيحات بنوم غارقين في النوم ... تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ، ونذير واحد . « اصحوا . تيقظوا . انظروا . تلفتوا . تفكروا . تدبروا . إن هنالك إلهاً . وإن هنالك تديباً . وإن هنالك تقديرأ . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعه . وإن هنالك حساباً وجزاء . وإن هنالك عذاباً شديداً ونعياً كبيراً .. » .

وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص . ففي إيقاعاتها حدة يشارك فيها نوع المشاهد ، ونوع الإيقاع الموسيقي ، وجرس الألفاظ ، وإيحاء المعاني .

ومن مشاهدتها : الطارق . والثاقب . والدافق . والرجع . والصدع .

ومن معانيها : الرقابة على كل نفس : « إن كل نفس لما عليها حافظ » .. ونفي القوة والناصر : « يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر » .. والجد الصارم : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » ..

والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته : « إنهم يَكِيدُونَ كَيْدًا وَآكِيدُ كَيْدًا . فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ! ! » !
وتكاد تتضمن تلك الموضوعات التي أشير إليها في مقدمة الجزء : « إن هنالك إلهاً . وإن هنالك تديباً . وإن هنالك تقديرأ . وإن هنالك ابتلاء . وإن هنالك تبعه . وإن هنالك حساباً وجزاء ... الخ » .

وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل ..

* * *

« والسماء والطارق . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ » ..

هذا القسم يتضمن مشهداً كونياً وحقيقة إيمانية . وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني : « وما أدراك ما الطارق ؟ » .. وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم . ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته : « النجم الثاقب » الذي يتقب الظلام بشعاعه النافذ . وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم . ولا سبيل إلى تحديد نجم بذاته من هذا النص ، ولا ضرورة لهذا التحديد . بل إن الإطلاق أولى . ليكون المعنى : والسماء ونجومها الثاقبة للظلام ، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء . ويكون لهذه الإشارة إحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدتها الأخرى .. كما سيأتي ..

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب : أن كل نفس عليها من أمر الله رقيب : « إن كل نفس لما عليها حافظ » .. وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد .. ما من نفس إلا عليها حافظ . يراقبها ، ويحصى عليها ، ويحفظ عنها ، وهو موكل بها بأمر الله . ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار . وهي التي يناط بها العمل والجزاء . ليست هنالك فوضى إذن ولا هيصة ! والناس ليسوا مطلقيين في الأرض هكذا بلا حارس . ولا مهملين في شعابها بلا حافظ ، ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب . إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر ، والحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر .

ويلقي النص إيحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبداً في خلوة - وإن خلت - فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب ، وتتخفى عن كل عين ، وتأمين من كل طارق . هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور . كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر .. وصنعة الله واحدة متناسقة في الأنفس وفي الآفاق .

* * *

ويخلص من هذه اللمسة التي تصل النفس بالكون ، إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير ، التي أقسم عليها بالسماء والطارق . فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة ؛ وتوحي بأن الإنسان ليس متروكاً سدى ، ولا مهملاً ضياعاً :

« فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » ..

فلينظر الإنسان من أي شيء خلق وإلى أي شيء صار .. إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية .. ولقد كان هذا سراً مكنوناً في علم الله لا يعلمه البشر . حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته ؛ وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل ، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة . حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان !

والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير .. بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي .. هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق

إلى الإنسان الناطق توحى بأن هنالك يدأ خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة ، في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة ، حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة . وتشئ بأن هنالك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ، ومن الإرادة والقدرة ، في رحلتها الطويلة العجيبة . وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته !

هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر ، إذ أن هنالك ملايين منها في الدفقة الواحدة .. هذه الخلية التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة ، تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء . حيث تزودها اليد الحافظة بخاصة أكالة تحوّل بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج ! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة . عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا .. وتعرف هذه الخلية الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة .. تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد .. حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق ! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة .. عمارة الجسم الإنساني .. فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي . وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللمفاوي ... إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية ! .. ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة .. إن هنالك تخصصاً أدق . فكل عظم من العظام . وكل عضلة من العضلات . وكل عصب من الأعصاب .. لا يشبه الآخر . لأن العمارة دقيقة الصنع ، عجيبة التكوين ، متنوعة الوظائف ... ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة أن تفرق طوائف متخصصة ، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة ! .. إن كل خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها . تعرف إلى أين هي ذاهبة ، وماذا هو مطلوب منها ! ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة . فالخلايا المكلفة أن تصنع العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه ، ولا يجوز أبداً أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع . مع أن كل موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين . ولو أخذت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين وزرعت في أي من هذه المواضع لصنعت عيناً هنالك ! ولكنها هي بذاتها حين تنطلق لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنساني المعقد .. فمن ترى قال لها : إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه ؟ إنه الله . إنه الحافظ الأعلى الذي يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادي فيها إلا الله !

وكل تلك الخلايا فرادى ومجموعة تعمل في نطاق ترسمه لها مجموعة معينة من الوحدات كامنة فيها . هي وحدات الوراثة ، الحافظة لسجل النوع ولخصائص الأجداد . فخلية العين وهي تنقسم وتتكاثر لكي تكوّن العين ، تحاول أن تحافظ في أثناء العمل على شكل معين للعين وخصائص محددة تجعلها عين إنسان لا عين أي حيوان آخر . وإنسان لأجداده شكل معين للعين وخصائص معينة .. وأقل انحراف في تصميم هذه العين من ناحية الشكل أو ناحية الخصائص يحيد بها عن الخط المرسوم . فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ؟ وعلمها ذلك التعليم ؟ وهي الخلية الساذجة التي لا عقل لها ولا إدراك ، ولا إرادة لها ولا قوة ؟ إنه الله . علمها ما يعجز الإنسان كله عن تصميمه لو وكل إليه تصميم عين أو جزء من عين . بينما خاية واحدة منه أو عدة خلايا ساذجة ، تقوم بهذا العمل العظيم !

ووراء هذه اللوحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق ، حشود

لا تحصى من العجائب والغرائب ، في خصائص الأجهزة والأعضاء ، لا نملك تفصيها في هذه الظلال .. تشهد كلها بالتقدير والتدبير . وتشي باليد الحافظة الهادية المعينة . وتؤكد الحقيقة الأولى التي أقسم عليها بالسماء والطارق . كما تمهد للحقيقة التالية . حقيقة النشأة الآخرة التي لا يصدقها المشركون ، المخاطبون أول مرة بهذه السورة ..

* * *

« إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر » ..

إنه - الله الذي أنشأه ورعاه - إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت ، وإلى التجدد بعد البلى ، تشهد النشأة الأولى بقدرته ، كما تشهد بتقديره وتدييره . فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزي جزاءها العادل : « يوم تبلى السرائر » .. السرائر المكنونة ، المطوية على الأسرار المحجوبة .. يوم تبلى وتختبر ، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر ؛ وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملقعة بالسواتر ! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر : « فما له من قوة ولا ناصر » .. ما له من قوة في ذاته ، وما له من ناصر خارج ذاته .. والتكشف من كل ستر ، مع التجرد من كل قوة ، يضاعف شدة الموقف ؛ ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير . وهو ينتقل من الكون والنفس ، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة ، إلى نهاية المطاف هناك ، حيث يتكشف ستره ويكشف سره ، ويتجرد من القوة والنصير ..

* * *

ولعل طائفاً من شك ، أو بقية من ريب ، تكون باقية في النفس ، في أن هذا لا بد كائن .. فن ثم يجزم جزمًا بأن هذا القول هو القول الفصل ، ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون ، كما صنع في مطلع السورة : « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع ، إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل » .. والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة ، والصدع النبات يشق الأرض وينبت .. وهما يمثلان مشهداً للحياة في صورة من صورها . حياة النبات ونشأته الأولى : ماء يتدفق من السماء ، ونبت ينبثق من الأرض .. أشبه شيء بالماء الدافق من الصلب والترائب ؛ والجنين المنبثق من ظلمات الرحم . الحياة هي الحياة . والمشهد هو المشهد . والحركة هي الحركة .. نظام ثابت ، وصنعة معلمة ، تدل على الصانع . الذي لا يشبهه أحد لا في حقيقة الصنعة ولا في شكلها الظاهر !

وهو مشهد قريب الشبه بالطارق . النجم الثاقب . وهو يشق الحجب والستائر . كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر .. صنعة واحدة تشير إلى الصانع !

يقسم الله بهذين الكائنين وهذين الحدثين : السماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع .. حيث يوقع مشهدهما وإيحائهما ، كما يوحي جرس التعبير ذاته ، بالشدة والنفوذ والجزم .. يقسم بأن هذا القول الذي يقرر الرجعة والابتلاء - أو بأن هذا القرآن عامة - هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل . القول الفصل الذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب . القول الذي ليس بعده قول . تشهد بهذا السماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع !

* * *

وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو ومن

معه من القلة المؤمنة في مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها - وقد كانوا في هم مقعد مقيم للكيد لها والتدبير ضدها وأخذ الطرق عليها وابتكار الوسائل في حربها - يتجه الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالثبوت والتطمين ، وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين . وأنه إلى حين . وأن المعركة بيده هو - سبحانه - وقيادته . فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون :

«إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ، فهل الكافرين ، أمهلهم رويداً» ..

إنهم - هؤلاء الذين خلقوا من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب - بلا حول ولا قوة ولا قدرة ولا إرادة ، ولا معرفة ولا هداية . والذين تولتهم يد القدرة في رحلتهم الطويلة . والذين هم صائرون إلى رجعة تبلى فيها السرائر ، حيث لا قوة لهم ولا ناصر .. إنهم هؤلاء يكيدون كيداً ..

وأنا - أنا المنشئ .. الهادي . الحافظ . الموجه . المعيد . المبلي . القادر . القاهر . خالق السماء والطارق . وخالق الماء الدافق ، والإنسان الناطق ، وخالق السماء ذات الرجوع ، والأرض ذات الصدع .. أنا الله .. أكيد كيداً ..

فهذا كيد . وهذا كيد . وهذه هي المعركة ... ذات طرف واحد في الحقيقة .. وإن صورت ذات طرفين لمجرد السخرية والهزاء !

«فهل الكافرين» .. «أمهلهم رويداً» .. لا تعجل . ولا تستبطن نهاية المعركة . وقد رأيت طبيعتها وحقيقتها .. فإنما هي الحكمة وراء الإمهال . الإمهال قليلاً .. وهو قليل حتى لو استغرق عمر الحياة الدنيا . فما هو عمر الحياة الدنيا إلى جانب تلك الآباد المجهولة المدى ؟

ونلاحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول : «فهل الكافرين أمهلهم رويداً» .. كأنه هو - صلى الله عليه وسلم - صاحب الأمر ، وصاحب الإذن ، وكأنه هو الذي يأذن بإمهالهم . أو يوافق على إمهالهم . وليس من هذا كله شيء للرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما هو الإيناس والود في هذا الموضع الذي تنسم نسائم الرحمة على قلبه - صلى الله عليه وسلم - الإيناس الذي يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه . ويشركه في الأمر كأن له فيه شيئاً . ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهية التي يقضي فيها الأمر ويبرم .. وكأنما يقول له ربه : إنك مأذون فيهم . ولكن أمهلهم . أمهلهم رويداً .. فهو الود العطوف والإيناس اللطيف . يسمح على الكرب والشدة والعناء والكيد ، فنتمحي كلها وتذوب .. ويبقى العطف الودود ..

* * *

(٨٧) سُورَةُ الْأَعْلَى مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ❶ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ❷ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ❸ وَالَّذِي أُنْزَلَ الْأَنْجَارَ الْمَرْعَى ❹
فَجَعَلَ غُثَاءً أَحْوَى ❺ سَنَقِرُكَ فَلَا تَنْسَى ❻ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ❼ وَنُبْسِرُكَ
لِلْيُسْرَى ❽ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ❾ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْفَى ❿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ⓫ الَّذِي يَصْلَى
النَّارَ الْكُبْرَى ⓬ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَخْفَى ⓭
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ⓮ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ⓯ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⓰ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ⓱
إِنَّ هَذَا لَنِي الصُّحُفِ الْأُولَى ⓲ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ⓳

في رواية للإمام أحمد عن الإمام علي - كرم الله وجهه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يحب هذه السورة : « سبح اسم ربك الأعلى » .. وفي صحيح مسلم أنه كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بسبح اسم ربك الأعلى ، و« هل أتاك حديث الغاشية » . وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما ..

وحق لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يحب هذه السورة وهي تحيل له الكون كله معبداً تتجاوب أرجاؤه بتسبيح ربه الأعلى وتمجيده ، ومعرضاً يحفل بموحيات التسييح والتحميد : « سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » .. وإيقاع السورة الرخي المديد يلقي ظلال التسييح ذي الصدى البعيد ..

وحق له - صلى الله عليه وسلم - أن يحبها ، وهي تحمل له من البشريات أمراً عظيماً . وربه يقول له ، وهو يكلفه التبليغ والتذكير : « سنقرئك فلا تنسى - إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى - ونبسرك لليسرى . فذكر إن نفعت الذكرى » .. وفيها يتكفل له ربه بحفظ قلبه لهذا القرآن ، ورفع هذه الكلفة عن عاتقه . ويعده أن ييسره لليسرى في كل أموره وأمور هذه الدعوة . وهو أمر عظيم جداً .

وحق له - صلى الله عليه وسلم - أن يحبها ، وهي تتضمن الثابت من قواعد التصور الإيماني : من توحيد

الرب الخالق وإثبات الوحي الإلهي ، وتقرير الجزاء في الآخرة . وهي مقومات العقيدة الأولى . ثم تصل هذه العقيدة بأصولها البعيدة ، وجذورها الضاربة في شباب الزمان : « إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى » .. فوق ما تصوره من طبيعة هذه العقيدة ، وطبيعة الرسول الذي يبلغها والأمة التي تحملها .. طبيعة اليسر والساحة ..

وكل واحدة من هذه تحتها موحيات شتى ؛ ووراءها مجالات بعيدة المدى ..

* * *

« سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » .. إن هذا الافتتاح ، بهذا المطع الرخي المديد ، ليطلق في الجو ابتداء أصداء التسييح ، إلى جانب معنى التسييح . وإن هذه الصفات التي تلي الأمر بالتسييح : « الأعلى الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى » .. لتحيل الوجود كله معبداً يتجاوب جنباته بتلك الأصداء ؛ ومعرضاً تتجلى فيه آثار الصانع المبدع : « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » ..

والتسييح هو التمجيد والتتريه واستحضار معاني الصفات الحسنى لله ، والحياة بين إشعاعاتها وفيوضاتها وإشراقاتها ومذاقاتها الوجدانية بالقلب والشعور . وليست هي مجرد ترديد لفظ : سبحان الله ! .. و « سبح اسم ربك الأعلى » .. تطلق في الوجدان معنى وحالة يصعب تحديدها باللفظ ، ولكنها تذوق بالوجدان . وتوحي بالحياة مع الإشراقات المنبثقة من استحضار معاني الصفات .

والصفة الأولى القرية في هذا النص هي صفة الرب . وصفة الأعلى .. والرب : المربي والراعي ، وظلال هذه الصفة الحانية مما يتناسق مع جو السورة وبشريات وإيقاعاتها الرخية .. وصفة الأعلى تطلق التطلع إلى الآفاق التي لا تنهاى ؛ وتطلق الروح لتسبح وتسبح إلى غير مدى .. وتتناسق مع التمجيد والتتريه ، وهو في صميمه الشعور بصفة الأعلى ..

والخطاب هنا لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابتداء . وهذا الأمر صادر إليه من ربه . بهذه الصيغة : « سبح اسم ربك الأعلى » .. وفيه من التلطف والإيناس ما يجلب عن التعبير . وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ هذا الأمر ، ثم يعقب عليه بالاستجابة المباشرة ، قبل أن يمضي في آيات السورة ، يقول : « سبحان ربي الأعلى » .. فهو خطاب ورده . وأمر وطاعته . وإيناس ومجاوبته .. إنه في حضرة ربه ، يتلقى مباشرة ويستجيب . في أنس وفي اتصال قريب .. وحينما نزلت هذه الآية قال : « اجعلوها في سجودكم » . وحينما نزلت قبلها : « فسبح باسم ربك العظيم » .. قال : « اجعلوها في ركوعكم » .. فهذا التسييح في الركوع والسجود كلمة حية ألحقت بالصلاة وهي دافئة بالحياة . لتكون استجابة مباشرة لأمر مباشر . أو بتعبير أدق .. لإذن مباشر .. فإذن الله لعباده بأن يحمده ويسبحوه إحدى نعمه عليهم وأفضاله . إنه إذن بالاتصال به - سبحانه - في صورة مقربة إلى مدارك البشر المحدودة . صورة تفضل الله عليهم بها ليعرفهم ذاته . في صفاته . في الحدود التي يملكون أن يتطلعوا إليها . وكل إذن للعباد بالاتصال بالله في أية صورة من صور الاتصال ، هو مكرمة له وفضل على العباد .

« سبح اسم ربك الأعلى » .. « الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » ..

الذي خلق كل شيء فسواه ، فأكمل صنعته ، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه .. والذي قدر لكل مخلوق وظيفته وغايته فهداه إلى ما خلقه لأجله ، وألهمه غاية وجوده ؛ وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه إليه أيضاً ..

وهذه الحقيقة الكبرى ماثلة في كل شيء في هذا الوجود ؛ يشهد بها كل شيء في رحاب الوجود . من الكبير إلى الصغير . ومن الجليل إلى الحقير .. كل شيء مسوى في صنعته ، كامل في خلقته . معد لأداء وظيفته . مقدر له غاية وجوده ، وهو ميسر لتحقيق هذه الغاية من أيسر طرق .. وجميع الأشياء مجتمعة كاملة التناسق ، ميسرة لكي تؤدي في تجمعها دورها الجماعي ؛ مثلما هي ميسرة فرادى لكي تؤدي دورها الفردي .

الذرة بمفردها كاملة التناسق بين كهاريها وبروتوناتها وإلكتروناتها ، شأنها شأن المجموعة الشمسية في تناسق شمسيها وكواكبها وتوابعها .. وهي تعرف طريقها وتؤدي مثلها وظيفتها ..

والخلية الحية المفردة كاملة الخلقة والاستعداد لأداء وظائفها كلها ، شأنها شأن أرقى الخلائق الحية المركبة المعقدة .

وبين الذرة المفردة والمجموعة الشمسية ؛ كما بين الخلية الواحدة وأرقى الكائنات الحية ، درجات من التنظيمات والتركيبات كلها في مثل هذا الكمال الخلفي ، وفي مثل هذا التناسق الجماعي ، وفي مثل هذا التدبير والتقدير الذي يحكمها ويصرفها .. والكون كله هو الشاهد الحاضر على هذه الحقيقة العميقة ..

هذه الحقيقة يدركها القلب البشري جملة حين يتلقى إيقاعات هذا الوجود ؛ وحين يتدبر الأشياء في رحابه بحس مفتوح . وهذا الإدراك الإلهامي لا يستعصي على أي إنسان في أية بيئة ، وعلى أية درجة من درجات العلم الكسبي ، متى تفتحت منافذ القلب ، وتيقظت أوتاره لتلقي إيقاعات الوجود .

والملاحظة بعد ذلك والعلم الكسبي يوضحان بالأمثلة الفردية ما يدركه الإلهام بالنظرة الأولى .. وهناك من رصيد الملاحظة والدراسة ما يشير إلى طرف من تلك الحقيقة الشاملة لكل ما في الوجود .

يقول العالم (١) . كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيورك في كتابه : « الإنسان لا يقوم وحده »

« إن الطيور لها غريزة العودة إلى الوطن . فعصفور الهزاز الذي عشش ببابك يهاجر جنوباً في الخريف . ولكنه يعود إلى عشه في الربيع التالي . وفي شهر سبتمبر تطير أسراب من معظم طيورنا^٢ إلى الجنوب . وقد تقطع في الغالب نحو ألف ميل فوق أرض البحار . ولكنها لا تضل طريقها . وحمام الزاجل إذا تحير من جراء أصوات جديدة عليه في رحلة طويلة داخل قفص ، يحوم برهة ثم يقصد قدماً إلى موطنه دون أن يضل .. والنحلة تجد خليتها مهما طمست الريح ، في هبوبها على الأعشاب والأشجار ، كل دليل يرى . وحاسة العودة إلى الوطن هذه هي ضعيفة في الإنسان ، ولكنه يكمل عتاده القليل منها بأدوات الملاحة . ونحن في حاجة إلى هذه الغريزة ، وعقولنا تسد هذه الحاجة . ولا بد أن للحشرات الدقيقة عيوناً ميكروسكوبية (مكبرة) لا ندري مبلغها من الإحكام ؛ وأن للصقور بصراً تلسكوبياً (مكبراً مقرباً) . وهنا أيضاً يتفوق الإنسان بأدواته الميكانيكية فهو بتلسكوبه يبصر سديماً بلغ من الضعف أنه يحتاج إلى مضاعفة قوة إبصاره مليوني مرة ليراه . وهو بمكروسكوبه الكهربائي يستطيع أن يرى بكتريا كانت غير مرئية (بل كذلك الحشرات الصغيرة التي تعضها !) .

« وأنت إذا تركت حصانك المعجوز وحده ، فإنه يلزم الطريق مهما اشتدت ظلمة الليل . وهو يقدر أن يرى ولو في غير وضوح . ولكنه يلحظ اختلاف درجة الحرارة في الطريق وجانبيه ، بعينين تأثرتا قليلاً بالأشعة تحت الحمراء التي للطريق . والبومة تستطيع أن تبصر الفأر الدافئ اللطيف وهو يجري على العشب البارد مهما

(١) ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي بعنوان : العلم يدعو إلى الإيمان .

(٢) أي طيور أمريكا .

تكن ظلمة الليل . ونحن نقلب الليل نهاراً بإحداث إشعاع في تلك المجموعة التي نسميها الضوء » ..
 ... « إن العاملات من النحل تصنع حجرات مختلفات الأحجام في المشط الذي يستخدم في التربية .
 وتعد الحجرات الصغيرة للعمال ، والأكبر منها لليعاسيب (ذكور النحل) وتعد غرفة خاصة للملكات الحوامل . والنحلة الملكية تضع بيضاً غير مخصب في الخلايا المخصصة للذكور ، وبيضاً مخصباً في الحجرات الصحيحة المعدة للعاملات الإناث والملكات المنتظرات . والعاملات اللائي هن إناث معدلات بعد أن انتظرن طويلاً مجي الجليل الجديد ، تهيأن أيضاً لإعداد الغذاء للنحل الصغير بمضغ العسل واللقح ومقدمات هضمه . ثم ينقطعن عن عملية المضغ ومقدمات الهضم عند مرحلة معينة من تطور الذكور والإناث ، ولا يغذين سوى العسل واللقح . والإناث اللاتي يعالجن على هذا الشكل يصبحن عاملات » ..

« أما الإناث اللاتي في حجرات الملكة ، فإن التغذية بالمضغ ومقدمات الهضم تستمر بالنسبة لهن . وهؤلاء اللاتي يعاملن هذه المعاملة الخاصة يتطورن إلى ملكات نحل ، وهن وحدهن اللائي ينتجن بيضاً مخصباً . وعملية تكرار الإنتاج هذه تتضمن حجرات خاصة ، وبيضاً خاصاً ، كما تتضمن الأثر العجيب الذي لتغيير الغذاء ، وهذا يتطلب الانتظار والتمييز وتطبيق اكتشاف أثر الغذاء ! وهذه التغيرات تنطبق بوجه خاص على حياة الجماعة ، وتبدو ضرورية لوجودها . ولا بد أن المعرفة والمهارة اللازمتين لذلك قد تم اكتسابهما بعد ابتداء هذه الحياة الجماعية ، وليستا بالضرورة ملازمتين لتكوين النحل ولا لبقائه على الحياة . وعلى ذلك فيبدو أن النحل قد فاق الإنسان في معرفة تأثير الغذاء تحت ظروف معينة !

« والكلب بما أوتي من أنف فضولي يستطيع أن يحس الحيوان الذي مر . وليس ثمة من أداة من اختراع الإنسان لتقوي حاسة الشم الضعيفة لديه . ومع هذا فإن حاسة الشم الخاصة بنا - على ضعفها - قد بلغت من الدقة أنها يمكنها أن تبين الذرات المكرو سكوبية البالغة الدقة ..

« وكل الحيوانات تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج دائرة الاهتزازات الخاصة بنا ، وذلك بدقة تفوق كثيراً حاسة السمع المحدودة عندنا . وقد أصبح الإنسان يستطيع بفضل وسائله أن يسمع صوت ذبابة تطير على بعد أميال ، كما لو كانت فوق طبله أذنه . ويستطيع بمثل تلك الأدوات أن يسجل وقع شعاع شمسي ! « إن إحدى العناكب المائية تصنع لنفسها عشاً على شكل منطاد (بالون) من خيوط العنكبوت . وتعلقه بشيء ما تحت الماء . ثم تمسك ببراعة فقاعة هواء في شعر جسمها ، وتحملها إلى الماء ، ثم تطلقها تحت العش . ثم تكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش . وعندئذ تلد صغارها وتربيها ، آمنة عليها من هبوب الهواء . فها هنا نجد طريقة النسج ، بما يشمله من هندسة وتركيب وملاحظة جوية !

وسمك « السلمون » الصغير يمضي سنوات في البحر ، ثم يعود إلى نهره الخاص به . والأكثر من ذلك أنه يصعد إلى جانب النهر الذي يصب عنده النهر الذي ولد فيه .. فما الذي يجعل السمك يرجع إلى مكان مولده بهذا التحديد ؟ إن سمكة السلمون التي تصعد في النهر صعداً إذا نقلت إلى نهر آخر أدركت تواءماً أنه ليس جدوها . فهي لذلك تشق طريقها خلال النهر ، ثم تحيد ضد التيار ، قاصدة إلى مصيرها !

« وهناك لغز أصعب من ذلك يتطلب الحل ، وهو الخاص بثعابين الماء التي تسلك عكس هذا المسلك ، فإن تلك المخلوقات العجيبة متى اكتمل نموها ، هاجرت من مختلف البرك والأنهار . وإذا كانت في أوروبا قطعت آلاف الأميال في المحيط قاصدة كلها إلى الأعماق السحيقة جنوبي برمودا . وهناك تبيض وتموت . أما صغارها تلك التي لا تملك وسيلة لتعرف بها أي شيء سوى أنها في مياه قفرة - فإنها تعود أدراجها وتجند طريقها

إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها . ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة أو بركة صغيرة . ولذا يظل كل جسم من الماء أهلاً بشعابين البحار . لقد قاومت التيارات القوية ، وثبتت للأمداد والعواصف ، وغالبت الأمواج المتلاطمة على كل شاطئ . وهي الآن يتاح لها النمو . حتى إذا اكتمل نموها دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت بعد أن تم الرحلة كلها . فمن أين ينشأ الحافز الذي يوجهها لذلك ؟ لم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في المياه الأوربية ، أو صيد ثعبان ماء أوربي في المياه الأمريكية . والطبيعة تبطئ في إنماء ثعبان الماء الأوربي مدة سنة أو أكثر لتعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها (إذ أن مسافته أطول من مسافة زميله الأمريكي) ترى هل الذرات والهباءات إذا توحدت معاً في ثعبان ماء يكون لها حاسة التوجيه وقوة الإرادة اللازمة للتنفيذ ؟ !

... « وإذا حمل الريح فراشة أنثى من خلال نافذة إلى عليّة بيتك ، فإنها لا تلبث حتى ترسل إشارة خفية . وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة . ولكنه يتلقى هذه الإشارة ويجاوبها ، مهما أحدثت أنت من رائحة بعملك لتضليلهما . ترى هل لتلك المخلوقة الضئيلة محطة إذاعة ؟ وهل لذكر الفراشة جهاز راديو عقلي ، فضلاً عن السلك اللاقط للصوت (إيريال) ؟ أتراها تهز الأثير فهو يتلقى الاهتزاز ؟ !

... « إن التليفون والراديو هما من العجائب الآلية . وهما يتيحان لنا الاتصال السريع . ولكننا مرتبطون في شأنهما بسلك ومكان . وعلى ذلك لا تزال الفراشة متفوقة علينا من هذه الوجهة » .

« والنبات يتحايّل على استخدام وكلاء لمواصلة وجوده دون رغبة من جانبهم ! كالحشرات التي تحمل اللقاح من زهرة إلى أخرى ، والرياح ، وكل شيء يطير أو يمشي ، ليوزع بذوره . وأخيراً أوقع النبات الإنسان ذا السيادة في الفخ ! فقد حسن الطبيعة وجازته بسخاء . غير أنه شديد التكاثر ، حتى أصبح مقيداً بالمحراث ، وعليه أن يبذر ويحصد ويخزن ، وعليه أن يربي ويهجن ، وأن يشذب ويطعم . وإذا هو أغفل هذه الأعمال كانت المجاعة نصيبه ، وتدهورت المدنية ، وعادت الأرض إلى حالتها الفطرية ! » ..

« وكثير من الحيوانات هي مثل « سرطان البحر » الذي إذا فقد مخبلاً عرف أن جزءاً من جسمه قد ضاع ، وسارع إلى تعويضه بإعادة تنشيط الخلايا وعوامل الوراثة ؛ ومتى تم ذلك كفت الخلايا عن العمل ، لأنها تعرف بطريقة ما أن وقت الراحة قد حان !

« وكثير الأرجل المائي إذا انقسم إلى قسمين استطاع أن يصلح نفسه عن طريق أحد هذين النصفين . وأنت إذا قطعت رأس دودة الطعم تسارع إلى صنع رأس بدلاً منه . ونحن نستطيع أن ننشط الثام الجروح ، ولكن متى يتاح للجراحين أن يعرفوا كيف يحركون الخلايا لتنتج ذراعاً جديدة ، أو لحماً أو عظاماً أو أظافر أو أعصاباً ؟ - إذا كان ذلك في حيز الإمكان ؟ !

« وهناك حقيقة مذهلة تلقي بعض الضوء على لغز هذا الخلق من جديد : فإن الخلايا في المراحل الأولى من تطورها ، إذا تفرقت ، صار لكل منها القدرة على خلق حيوان كامل . ومن ثم فإنه إذا انقسمت الخلية الأولى إلى قسمين ، وتفرق هذان ، تطور منهما فردان . وقد يكون في ذلك تفسير لتشابه التوأمين . ولكنه يدل على أكثر من ذلك . وهو أن كل خلية في البداية يمكن أن تكون فرداً كاملاً بالتفصيل . فليس هناك شك إذن ، في أنك أنت ، في كل خلية ونسيج ! » ..

ويقول في فصل آخر :

« إن جوزة البلوط تسقط على الأرض ، فتحفظها قشرتها السمراء الجامدة ، وتتدرج في حفرة ما من الأرض ،

وفي الربيع تستيقظ الجرثومة ، فتنفجر القشرة ، وتزدرد الطعام من اللب الشبيه بالبيضة الذي اختفت فيه « الجينات » (وحدات الوراثة) وهي تمد الجذور في الأرض ، وإذا بك ترى فرخاً أو شتلة (شجيرة) وبعد سنوات شجرة ! وإن الجرثومة بما فيها من جينات قد تضاعفت ملايين الملايين ، فصنعت الجذع والقشرة وكل ورقة وكل ثمرة ، ماثلة لتلك التي لشجرة البلوط التي تولدت عنها . وفي خلال مئات السنين قد بقي من ثمار البلوط التي لا تحصى نفس ترتيب الذرات تماماً الذي أنتج أول شجرة بلوط منذ ملايين السنين » .

وفي فصل ثالث يقول :

« وكل خلية تنتج في أي مخلوق حي يجب أن تكيف نفسها لتكون جزءاً من اللحم . أو أن تضحي بنفسها كجزء من الجلد الذي لا يلبث حتى يبل . وعليها أن تصنع ميناء الأسنان ، وأن تنتج السائل الشفاف في العين ، أو أن تدخل في تكوين الأنف أو الأذن . ثم على كل خلية أن تكيف نفسها من حيث الشكل وكل خاصية أخرى لازمة لتأدية مهمتها . ومن العسير أن تتصور أن خلية ما هي ذات يد يميني أو يسرى . ولكن إحدى الخلايا تصبح جزءاً من الأذن اليمنى ، بينما الأخرى تصبح جزءاً من الأذن اليسرى .

... « وإن مئات الآلاف من الخلايا تبدو كأنها مدفوعة لأن تفعل الشيء الصواب في الوقت الصواب .

وفي المكان الصواب !

وفي فصل رابع ..

... « في خليط الخلق قد أتيح لكثير من المخلوقات أن تبدي درجة عالية من أشكال معينة من الغريزة أو الذكاء أو ما لا ندري . فالدبور مثلاً يصيد الجندب النطاط ، ويحفر حفرة في الأرض ، ويخز الجندب في المكان المناسب تماماً حتى يفقد وعيه ، ولكنه يعيش كنوع من اللحم المحفوظ .. وأنثى الدبور تضع بيضاً في المكان المناسب بالضبط ، ولعلها لا تدري أن صغارها حين تفقس يمكنها أن تتغذى ، دون أن تقتل الحشرة التي هي غذاؤها ، فيكون ذلك خطراً على وجودها . ولا بد أن الدبور قد فعل ذلك من البداية وكره دائماً ، وإلا ما بقيت زناير على وجه الأرض .. والعلم لا يجد تفسيراً لهذه الظاهرة الخفية ، ولكنها مع ذلك لا يمكن أن تنسب إلى المصادفة !

« وإن أنثى الدبور تغطي حفرة في الأرض ، وترحل فرحاً ، ثم تموت . فلا هي ولا أسلافها قد فكرت في هذه العملية ، وهي لا تعلم ماذا يحدث لصغارها ، أو أن هناك شيئاً يسمى صغاراً .. بل إنها لا تدري أنها عاشت وعملت لحفظ نوعها !

... « وفي بعض أنواع النمل يأتي العملة منه بخبوب صغيرة لإطعام غيرها من النمل في خلال فصل الشتاء . وينشئ النمل ما هو معروف « بمخزن الطحن » وفيه يقوم النمل الذي أوتي أفكاً كأكبر معدة للطحن ، بإعداد الطعام للمستعمرة . وهذا هو شاغلها الوحيد . وحين يأتي الخريف ، وتكون الحبوب كلها قد طحنت ، فإن « أعظم خير لأكثر عدد » يتطلب حفظ تلك المؤونة من الطعام . وما دام الجيل الجديد سينتظم كثيراً من النمل الطحان ، فإن جنود النمل تقتل النمل الطاحن الموجود . ولعلها ترضي ضميرها الحشري بأن ذلك النمل قد نال جزاءه الكافي ، إذ كانت له الفرصة الأولى في الإفادة من الغذاء أثناء طحنه !

« وهناك أنواع من النمل تدفعها الغريزة أو التفكير (واختر منهما ما يحلو لك) إلى زرع أعشاش للطعام

(١) يراجع ما جاء عن رحلة النطفة الجنينية في سورة « والسماء والطارق » ..

فما يمكن تسميته « بحدائق الأعشاش » . وتصيد أنواعاً معينة من الدود والأرق أو اليرق (وهي حشرات صغيرة تسبب آفة الندوة العسلية) فهذه المخلوقات هي بقر النمل وعتراتها ! ومنها يأخذ النمل إفرازات معينة تشبه العسل ليكون طعاماً له .

« والنمل يأسر طوائف منه ويسترقها . وبعض النمل حين يصنع أعشاشه ، يقطع الأوراق مطابقة للحجم المطلوب . وبينما يضع بعض عملة النمل الأطراف في مكانها ، تستخدم صغارها - التي وهي في الدور اليرقي تقدر أن تغزل الحرير - لحياكتها معاً ! وربما حرم طفل النمل عمل شرنقة لنفسه ، ولكنه قد خدم الجماعة !
« فكيف يتاح لذرات المادة التي تتكون منها النملة ، أن تقوم بهذه العمليات المعقدة ؟

« لا شك أن هناك خالقاً أرشدها إلى كل ذلك » .. انتهى ..

أجل . لا شك أن هناك خالقاً أرشدها ، وأرشد غيرها من الخلائق . كبيرها وصغيرها . إلى كل ذلك ..
إنه « الأعلى الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى » ..

وهذه النماذج التي اقتطفناها من كلام ذلك العالم ليست سوى طرف صغير من الملاحظات التي سجلها البشر في عوالم النبات والحشرات والطيور والحيوان . ووراءها حشود من مثلها كثيرة .. وهذه الحشود لا تزيد على أن تشير إلى جانب صغير من مدلول قوله تعالى : « الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى » .. في هذا الوجود المشهود الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . ووراءه عالم الغيب الذي ترد لنا عنه لمحات فيما يحدثنا الله عنه ؛ بالقدر الذي يطيقه تكويننا البشري الضعيف !

* * *

وبعد عرض هذا المدى المتطاوّل ، من صفحة الوجود الكبيرة ، وإطلاق التسييح في جنباته ، تتجاوب به أرجاؤه البعيدة ، يكمل التسييحة الكبرى بلمسة في حياة النبات لها إبحاؤها ولها مغزاها :
« والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » .

والمرعى كل نبات . وما من نبات إلا وهو صالح لخلق من خلق الله . فهو هنا أشمل مما نعهده من مرعى أنعامنا . فالله خلق هذه الأرض وقدر فيها أقواتها لكل حي يدب فوق ظهرها أو يخفي في جوفها ، أو يطير في جوها . والمرعى يخرج في أول أمره خضراً ، ثم يذوي فإذا هو غثاء ، أميل إلى السواد فهو أحوى ، وقد يصلح أن يكون طعاماً وهو أخضر ، ويصلح أن يكون طعاماً وهو غثاء أحوى . وما بينهما فهو في كل حالة صالح لأمر من أمور هذه الحياة ، بتقدير الذي خلق فسوى وقدر فهدى .

والإشارة إلى حياة النبات هنا توحى من طرف خفي ، بأن كل نبت إلى حصاد وأن كل حي إلى نهاية . وهي اللمسة التي تتفق مع الحديث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة ... « بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .. والحياة الدنيا كهذا المرعى ، الذي ينتهي فيكون غثاء أحوى .. والآخرة هي التي تبقى .

* * *

وبهذا المطلع الذي يكشف عن هذا المدى المتطاوّل من صفحة الوجود الكبيرة .. تتصل حقائق السورة الآتية في سياقها ، بهذا الوجود ؛ ويتصل الوجود بها ، في هذا الإطار العريض الجميل . والملاحظ أن معظم السور

في هذا الجزء تتضمن مثل هذا الإطار . الإطار الذي يتناسق مع جوها وظلها وإيقاعها تناسقاً كاملاً^١ .

* * *

بعدئذ يجيء بتلك البشرية العظيمة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وامته من ورائه :
« سنقرئك فلا تنسى - إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى - ونيسرك للنسرى . فذكر إن نفعت الذكرى .. »
وتبدأ البشرية برفع عناء الحفاظ لهذا القرآن والكد في إمساكه عن عاتق الرسول - صلى الله عليه وسلم - :
« سنقرئك فلا تنسى » .. فعليه القراءة يتلقاها عن ربه ، وربه هو المتكفل بعد ذلك بقلبه ، فلا ينسى ما يقرئه ربه .
وهي بشرى للنبي - صلى الله عليه وسلم - تريحه وتطمئنه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه .
الذي كان يندفع بعاطفة الحب له ، وبشعور الحرص عليه ، وبإحساس التبعة العظمى فيه .. إلى ترديده آية
آية وجبريل يحمله إليه ، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسى حرفاً منه . حتى جاءت هذه البشائر المطمئنة بأن ربه
سينتقل بهذا الأمر عنه .

وهي بشرى لأمته من ورائه ، تطمئن بها إلى أصل هذه العقيدة . فهي من الله . والله كافلها وحافظها في
قلب نبيها . وهذا من رعايته سبحانه ، ومن كرامة هذا الدين عنده ، وعظمة هذا الأمر في ميزانه .
وفي هذا الموضع كما في كل موضع يرد فيه وعد جازم ، أو ناموس دائم ، يرد ما يفيد طلاقة المشيئة الإلهية
من وراء ذلك ، وعدم تقيدها بقيد ما ولو كان هذا القيد نابغاً من وعدا وناموسها . فهي طليقة وراء الوعد
والناموس . ويحرص القرآن على تقرير هذه الحقيقة في كل موضع - كما سبق أن مثلنا لهذا في الظلال -
ومن ذلك ما جاء هنا :

« إلا ما شاء الله » .. فهو الاحتراس الذي يقرر طلاقة المشيئة الإلهية ، بعد الوعد الصادق بأنه لا ينسى .
ليظل الأمر في إطار المشيئة الكبرى ؛ ويظل التطلع دائماً إلى هذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها . ويظل
القلب معلقاً بمشيئة الله حياً بهذا التعلق أبداً ..
« إنه يعلم الجهر وما يخفى » .. وكأن هذا تعليل لما مر في هذا المقطع من الإقرار والحفظ والاستثناء ..
فكلها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى ؛ ويطلع على الأمر من جوانبه جميعاً ، فيقرر فيه ما تقتضيه
حكيمته المستندة إلى علمه بأطراف الأمر جميعاً .

* * *

والبشرى الثانية الشاملة :

« ونيسرك للنسرى » ..

بشرى لشخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبشرى لأمته من ورائه . وتقرير لطبيعة هذا الدين ، وحقيقة
هذه الدعوة ، ودورها في حياة البشر ، وموضعها في نظام الوجود .. وإن هاتين الكلمتين : « ونيسرك للنسرى » ،
لتشتملان على حقيقة من أضخم حقائق هذه العقيدة ، وحقائق هذا الوجود أيضاً . فهي تصل طبيعة هذا الرسول
بطبيعة هذه العقيدة بطبيعة هذا الوجود . الوجود الخارج من يد القدرة في يسر . السائر في طريقه بيسر .
المتجه إلى غايته بيسر . فهي انطلاقة من نور ؛ تشير إلى أبعاد وآفاق من الحقيقة ليس لها حدود ..

(١) يراجع فصل التناسق الفني في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » « دار الشروق » .

إن الذي يسره الله ليسرى ليمضي في حياته كلها مسيراً . يمضي مع هذا الوجود المتناسق التركيب والحركة والاتجاه .. إلى الله .. فلا يصطدم إلا مع المنحرفين عن خط هذا الوجود الكبير - وهم لا وزن لهم ولا حساب حين يقاسون إلى هذا الوجود الكبير - يمضي في حركة سيرة لطيفة هينة لينة مع الوجود كله ومع الأحداث والأشياء والأشخاص ، ومع القدر الذي يصرف الأحداث والأشياء والأشخاص . اليسر في يده . واليسر في لسانه . واليسر في خطوه . واليسر في عمله . واليسر في تصوره . واليسر في تفكيره . واليسر في أخذه للأمور . واليسر في علاجه للأمور . اليسر مع نفسه واليسر مع غيره .

وهكذا كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كل أمره .. ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما روت عنه عائشة - رضي الله عنها - وكما قالت عنه : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا في بيته ألين الناس ، بساماً ضحاكاً » وفي صحيح البخاري : « كانت الأمة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتقل به حيث شاءت » !

وفي هديه - صلى الله عليه وسلم - في اللباس والطعام والفراش وغيرها ما يعبر عن اختيار اليسر وقلة التكلف البتة . جاء في زاد المعاد لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن قيم الجوزية ، عن هديه - صلى الله عليه وسلم - في « ملابسه » : « كانت له عمامة تسمى السحاب كساها علياً ، وكان يلبسها ويلبس تحتها القلنسوة . وكان يلبس القلنسوة بغير عمامة ، ويلبس العمامة بغير قلنسوة . وكان إذا أتم أرخى عمامته بين كتفيه - كما رواه مسلم في صحيحه . عن عمر بن حريث قال : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه . وفي مسلم أيضاً عن جابر ذؤابة ، فدل على أن الذؤابة لم يكن يرخيها دائماً بين كتفيه . وقد يقال : إنه دخل مكة وعليه أهبة القتال والمغفر على رأسه فلبس في كل موطن ما يناسبه » . وفي فصل آخر قال : « والصواب أن أفضل الطرق طريق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي سنها وأمر بها ورغب فيها وداوم عليها . وهي أن هديه في اللباس أن يلبس ما تيسر من اللباس . من الصوف تارة ، والقطن تارة ، والكتان تارة ، ولبس البرود البانية والبرد الأخضر . ولبس الجبة والقباء والقميص والسرراويل والإزار والرداء والخف والنعل ، وأرخى الذؤابة من خلفه تارة وتركها تارة .. الخ » ..

وقال في هديه في الطعام : « وكذلك كان هديه - صلى الله عليه وسلم - وسيرته في الطعام ، لا يرد موجوداً ولا يتكلف مفقوداً . فما قرب إليه شيء من الطيبات إلا أكله - إلا أن تعافه نفسه فيتركه من غير تحريم - وما عاب طعاماً قط . إن اشتهاه أكله ، وإلا تركه ، كما ترك أكل الضب لما لم يعتده ، ولم يحرمه على الأمة ، بل أكل على مائدته وهو ينظر . وأكل الحلوى والعسل - وكان يحبهما - وأكل الرطب والتمر ، وشرب اللبن خالصاً ومشوباً والسويق والعسل بالماء ، وشرب نقيع التمر ، وأكل الخبزبة - وهي حساء يتخذ من اللبن والدقيق - وأكل القثاء بالرطب ، وأكل الأقط ، وأكل التمر بالخبز ، وأكل الخبز بالخل ، وأكل القديد ، وأكل الدباء المطبوخة - وكان يحبها - وأكل المسلوقة ، وأكل الثريد بالسمن ، وأكل الجبن ، وأكل الخبز بالزيت ، وأكل البطيخ بالرطب . وأكل التمر بالزبد - وكان يحبه - ولم يكن يرد طيباً ولا يتكلفه ، بل كان هديه أكل ما تيسر ، فإن أعوزه صبر ... الخ » .

وقال عن هديه في نومه وانتباهه : « كان ينام على فراشه تارة وعلى النطع تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى

الأرض تارة ، وعلى السرير تارة بين رماله ، وتارة على كساء أسود ..

وأحاديثه التي تحض على اليسر والسباحة والرفق في تناول الأمور - وفي أولها أمر العقيدة وتكاليدها - كثيرة جداً يصعب تقصيدها . من هذا قوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » (أخرجه البخاري) .. « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ... » (أخرجه أبو داود) .. « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » (أخرجه البخاري) .. « يسروا ولا تعسروا » (أخرجه الشيخان) .

وفي التعامل : « رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى » (أخرجه البخاري) « المؤمن هين لين » (أخرجه البيهقي) « المؤمن يألف ويؤلف » (أخرجه الدارقطني) . « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » (أخرجه الشيخان) .

ومن اللّمحات العميقة الدلالة كراهيته - صلى الله عليه وسلم - للعسر والصعوبة حتى في الأسماء وسمات الوجوه ، مما يوحى بحقيقة فطرته وصنع ربه بها وتيسيره لليسر انطباعاً وتكويناً .. عن سعيد بن المسيب عن أبيه - رضي الله عنه - أنه جاء للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : ما اسمك ؟ قال : حَزَن (أي صعب وعمر) قال : بل أنت سهل . قال : لا أغير اسماً سمانيه أبي ! قال ابن المسيب رحمه الله : « فما زالت فينا حزونة بعد » ! (أخرجه البخاري) .. « وعن ابن عمر رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غير اسم عاصية وسمّاها جميلة » (أخرجه مسلم) . ومن قوله : « إن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » (أخرجه الترمذي) .. فهو الحس المرهف الذي يلمح الوعورة والشدة حتى في الأسماء والملاحم فينفر منها ، ويعيل بها إلى اليسر والهوادة !

وسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كلها صفحات من السباحة واليسر والهوادة واللين والتوفيق إلى اليسر في تناول الأمور جميعاً .

وهذا مثل من علاجه للنفوس ، يكشف عن طريقته - صلى الله عليه وسلم - وطبيعته : « جاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه . قال له : أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا . ولا أجملت ! فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا . ثم دخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي ، وزاده شيئاً . ثم قال : أحسنت إليك ؟ قال : نعم . فجزاك الله من أهل ومن عشيرة خيراً . فقال له النبي - صلى الله عليه وسلم - : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإذا أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال : نعم . فلما كان الغداة جاء ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضي . أكذلك ؟ فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال - صلى الله عليه وسلم - إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه ، فتبعها الناس ، فلم يزيدها إلا نفوراً ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإنني أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً ، حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها . وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه داخل النار » ..

فهكذا كان أخذه - صلى الله عليه وسلم - للنفوس الشاردة . بهذه البساطة ، وبهذا اليسر ، وبهذا الرفق وبهذا التوفيق .. والهاذج شتى في سيرته كلها . وهي من التيسير لليسر كما بشره ربه ووفقه في حياته وفي

دعوته وفي أموره جميعاً ..

هذه الشخصية الكريمة الحبيبة الميسرة لليسرى كانت كذلك لكي تحمل إلى البشرية هذه الدعوة . فتكون طبيعتها من طبيعتها ، وحقيقتها من حقيقتها ، وتكون كفاء للأمانة الضخمة التي حملتها - بتيسير الله وتوفيقه - على ضخامتها ... حيث تتحول الرسالة بهذا التيسير من عبء مثقل ، إلى عمل محبب ، ورياضة جميلة ، وفرح وانسراح ..

وفي صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وصفة وظيفته التي جاء ليؤديها ورد في القرآن الكريم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .. « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم »^٢ فقد جاء - صلى الله عليه وسلم - رحمة للبشرية . جاء ميسراً يضع عن كواهل الناس الأثقال والأغلال التي كتبت عليهم ، حينما شددوا فشدد عليهم .

وفي صفة الرسالة التي حملها ورد : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »^٣ .. « وما جعل عليكم في الدين من حرج »^٤ .. « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها »^٥ .. « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم »^٦ فقد جاءت هذه الرسالة ميسرة في حدود الطاقة لا تكلف الناس حرجاً ولا مشقة . وسرى هذا اليسر في روحها كما سرى في تكاليفها « فطرة الله التي فطر الناس عليها »^٧ .

وحيثما سار الإنسان مع هذه العقيدة وجد اليسر ومراعاة الطاقة البشرية ، والحالات المختلفة للإنسان ، والظروف التي يصادفها في جميع البيئات والأحوال .. العقيدة ذاتها سهلة التصور . إله واحد ليس كمثله شيء . أبدع كل شيء ، وهدهد إلى غاية وجوده . وأرسل رسلاً تذكّر الناس بغاية وجودهم ، وتردهم إلى الله الذي خلقهم . والتكاليف بعد ذلك كلها تنبثق من هذه العقيدة في تناسق مطلق لا عوج فيه ولا انحراف . وعلى الناس أن يأتوا منها بما في طوقهم بلا حرج ولا مشقة : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »^٨ .. والمنهي عنه لا حرج فيه في حالة الضرورة : « إلا ما اضطررتم إليه »^٩ .. وبين هذه الحدود الواسعة تنحصر جميع التكاليف ...

ومن ثم التقت طبيعة الرسول بطبيعة الرسالة ، والتقت حقيقة الداعي بحقيقة الدعوة . في هذه السمة الأصلية البارزة . وكذلك كانت الأمة التي جاءها الرسول الميسر بالرسالة الميسرة . فهي الأمة الوسط ، وهي الأمة المرحومة الحاملة للرحمة . الميسرة الحاملة لليسر .. تتفق فطرتها هذه مع فطرة هذا الوجود الكبير ..

وهذا الوجود بتناسقه وانسياب حركته يمثل صنعة الله من اليسر والانسحاب الذي لا تصادم فيه ولا احتكاك .. ملايين الملايين من الأجرام تسبح في فضاء الله وتنساب في مداراتها متناسقة متجاذبة . لا تصطدم ولا تضطرب ولا تميد .. وملايين الملايين من الخلائق الحية تجري بها الحياة إلى غاياتها القريبة والبعيدة في انتظام وفي إحكام .

(٢) الأعراف : ١٥٧

(٤) الحج : ٧٨

(٦) المائدة : ٦

(٨) أخرجه الشيخان

(١) الأنبياء : ١٠٧

(٣) القمر : ٢٢

(٥) البقرة : ٢٨٦

(٧) الروم : ٣٠

(٩) الأنعام : ١١٩

وكل منها ميسر لما خلق له ، سائر في طريقه إلى غاية . وملايين الملايين من الحركات والأحداث والأحوال تتجمع وتتفرق وهي ماضية في طريقها كغمامات الفرقة العازقة بشتى الآلات ، لتجتمع كلها في لحن واحد طويل مديد !

إنه التوافق المطلق بين طبيعة الوجود ، وطبيعة الرسالة ، وطبيعة الرسول ، وطبيعة الأمة المسلمة .. صنعة الله الواحد ، وفطرة المبدع الحكيم .
« فذكر إن نفعت الذكرى » ..

لقد أقرأه فلا ينسى (إلا ما شاء الله) ويسره لليسرى . لينهض بالأمانة الكبرى .. ليذكر . فلهذا أعد ، ولهذا بشر .. فذكر حيثما وجدت فرصة للتذكير ، ومنفذاً للقلوب ، ووسيلة للبلاغ . ذكر « إن نفعت الذكرى » .. والذكرى تنفع دائماً ، ولن تعد من ينتفع بها كثيراً كان أو قليلاً . ولن يخلو جيل ولن تخلو أرض ممن يستمتع وينتفع ، مهما فسد الناس وقست القلوب وران عليها الحجاب ..

وحين نتأمل هذا الترتيب في الآيات ، ندرك عظمة الرسالة ، وضخامة الأمانة ، التي اقتضت للنهوض بها هذا التيسير لليسرى ، وذلك الإقراء والحفظ وتكفل الله بهما ؛ كي ينهض الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعبء التذكير ، وهو مزود بهذا الزاد الكبير .

فإذا نهض - صلى الله عليه وسلم - بهذا العبء فقد أدى ما عليه ، والناس بعد ذلك وشأنهم ؛ تختلف مسالكهم وتختلف مصائرهم ، ويفعل الله بهم ما يشاء وفق ما يستجيبون لهذه الذكرى :
« سيذكر من يخشى ، ويتجنبها الأشقى ، الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيا . قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى » ..

فذكر ... وسينتفع بالذكرى « من يخشى » .. ذلك الذي يستشعر قلبه التقوى ، فيخشى غضب الله وعذابه . والقلب الحي يتوجس ويخشى ، مذ يعلم أن للوجود إلهاً خلق فسوى ، وقدر فهدى ، فلن يترك الناس سدى ، ولن يدعهم هملاً ؛ وهو لا بد محاسبهم على الخير والشر ، ومجازيهم بالقسط والعدل . ومن ثم فهو يخشى . فإذا ذكر ذكر ، وإذا بصر أبصر ، وإذا وعظ اعتبر .

« ويتجنبها الأشقى » .. يتجنب الذكرى ، فلا يسمع لها ولا يفيد منها . وهو إذن « الأشقى » الأشقى إطلاقاً وإجمالاً . الأشقى الذي تتمثل فيه غاية الشقوة ومنهاها . الأشقى في الدنيا بروحه الخاوية الميتة الكثيفة الصفيقة ، التي لا تحس حقائق الوجود ، ولا تسمع شهادتها الصادقة ، ولا تتأثر بموحياتها العميقة . والذي يعيش قلقاً متكالباً على ما في الأرض كادحاً لهذا الشأن الصغير ! والأشقى في الآخرة بعذابها الذي لا يعرف له مدى :
« الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيا » ..

والنار الكبرى هي نار جهنم . الكبرى بشدتها ، والكبرى بمدتها ، والكبرى بضخامتها .. حيث يمتد بقاؤه فيها ويطول . فلا هو يموت فيجد طعم الراحة ؛ ولا هو يحيا في أمن وراحة . إنما هو العذاب الخالد ، الذي يتطلع صاحبه إلى الموت كما يتطلع إلى الأمانة الكبرى !

وفي الصفحة المقابلة نجد النجاة والفلاح مع التطهر والتذكر :

« قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى » ..

والتزكي : التطهر من كل رجس ودنس ، والله - سبحانه - يقرر أن هذا الذي تطهر وذكر اسم ربه ،

فاستحضر في قلبه جلالة : « فصلى » .. إما بمعنى خشع وقت . وإما بمعنى الصلاة الاصطلاحي ، فكلاهما يمكن أن ينشأ من التذكر واستحضار جلال الله في القلب ، والشعور بمهابته في الضمير .. هذا الذي تطهر وذكر وصلى « قد أفلح » يقينا . أفلح في دنياه ، فعاش موصولاً ، حي القلب ، شاعراً بحلاوة الذكر وإيناسه . وأفلح في أخره ، فنجى من النار الكبرى ، وفاز بالنعم والرضى ..
فأين عاقبة من عاقبة ؟ وأين مصير من مصير ؟

* *

وفي ظل هذا المشهد . مشهد النار الكبرى للأشقي . والنجاة والفلاح من تركى ، يعود بالمخاطبين إلى علة شقاؤهم ، ومنشأ غفلتهم ، وما يصرفهم عن التذكر والتطهر والنجاة والفلاح ، ويذهب بهم إلى النار الكبرى والشقوة العظمى :

« بل تؤثرن الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى » ..

.. إن إثارة الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى . فعن هذا الإثارة ينشأ الإعراض عن الذكرى ، لأنها تقتضيهم أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها . وهم يريدون الدنيا ، ويؤثرونها ..
وتسميتها « الدنيا » لا تنجي مصادفة . فهي الواطية الهابطة - إلى جانب أنها الدانية : العاجلة : « والآخرة خير وأبقى » .. خير في نوعها ، وأبقى في أمدها .
وفي ظل هذه الحقيقة يبدو إثارة الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير . لا يقدم عليهما عاقل بصير .

* * *

وفي الختام تنجي الإشارة إلى قدم هذه الدعوة ، وعراقة منبتها ، وامتداد جذورها في شعاب الزمن ، وتوحد أصولها من وراء الزمان والمكان :

« إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » ..

هذا الذي ورد في هذه السورة وهو يتضمن أصول العقيدة الكبرى . هذا الحق الأصيل العريق . هو الذي في الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى .

ووحدة الحق ، ووحدة العقيدة ، هي الأمر الذي تقتضيه وحدة الجهة التي صدر عنها ، ووحدة المشيئة التي اقتضت بعثة الرسل إلى البشر .. إنه حق واحد ، يرجع إلى أصل واحد . تختلف جزئياته وتفصيلاته باختلاف الحاجات المتجددة ، والأطوار المتعاقبة . ولكنها تلتقي عند ذلك الأصل الواحد . الصادر من مصدر واحد ..
من ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى ..

* * *

(٨٨) سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا سِتُّ وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ
جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَارٍ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾ أَفْلا
يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فِيْعَذِبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة . الباعثة إلى التأمل والتدبر ، وإلى الرجاء والتطلع ،
وإلى المخافة والتوجس ، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب !
وهي تطوّف بالقلب البشري في مجالين هائلين : مجال الآخرة وعالمها الواسع ، ومشاهدها المؤثرة . ومجال
الوجود العريض المكشوف للنظر ، وآيات الله المبثوثة في خلأته المعروضة للجميع . ثم تذكرهم بعد هاتين
الجولتين الهائلتين بحساب الآخرة ، وسيطرة الله ، وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف .. كل ذلك في أسلوب
عميق الإيقاع ، هادئ ، ولكنه نافذ . رصين ولكنه رهيب !

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية ؟ » ..

بهذا المطلع تبدأ السورة التي تريد لترد القلوب إلى الله ، ولتذكرهم بآياته في الوجود ، وحسابه في الآخرة وجزائه الأكيد . وبهذا الاستفهام الموحى بالعظمة الدال على التقرير ؛ الذي يشير في الوقت ذاته إلى أن أمر الآخرة مما سبق به التقرير والتذكير . وتسمى القيامة هذا الاسم الجديد : « الغاشية » .. أي الداهية التي تغشى الناس وتغمرهم بأهوالها . وهو من الأسماء الجديدة الموحية التي وردت في هذا الجزء .. الطامة .. الصاخة .. الغاشية .. القارعة .. مما يناسب طبيعة هذا الجزء المعهودة .

وهذا الخطاب : « هل أتاك .. ؟ » كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحس وقع توجيهه إلى شخصه ، حيثما سمع هذه السورة ، وكأنما يتلقاه أول مرة مباشرة من ربه ، لشدة حساسية قلبه بخطاب الله - سبحانه - واستحضاره لحقيقة الخطاب ، وشعوره بأنه صادر إليه بلا وسيط حيثما سمعته أذناه .. قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا أبو بكر بن عباس ، عن أبي إسحاق ، عن عمر بن ميمون ، قال : مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على امرأة تقرأ : « هل أتاك حديث الغاشية ؟ » فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » ..

والخطاب - مع ذلك - عام لكل من يسمع هذا القرآن . فحديث الغاشية هو حديث هذا القرآن المتكرر . يذكر به وينذر ويثير ؛ ويستجيش به في الضمائر الحساسة والخشية والتقوى والتوجس ؛ كما يثير به الرجاء والارتقاب والتطلع . ومن ثم يستحي هذه الضمائر فلا تموت ولا تغفل .

* * *

« هل أتاك حديث الغاشية ؟ » .. ثم يعرض شيئاً من حديث الغاشية :

« وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية . تسقى من عين آنية . ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع » ..

إنه يعجل بمشهد العذاب قبل مشهد النعم ؛ فهو أقرب إلى جو « الغاشية » وظلها .. فهناك : يومئذ وجوه خاشعة ذليلة متعبة مرهقة ؛ عملت ونصبت فلم تحمد العمل ولم ترض العاقبة ، ولم تجد إلا الوبال والخسارة ، فزادت مضطراً وإرهاقاً وتعباً ، فهي : « عاملة ناصبة » .. عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله . عملت لنفسها ولأولادها . وتعبت لندياها ولأطماعها . ثم وجدت عاقبة العمل والكد . وجدته في الدنيا شقوة لغير زاد . ووجدته في الآخرة سواداً يؤدي إلى العذاب . وهي تواجه النهاية مواجهة الدليل المهرق المتعوس الخائب الرجاء ! ومع هذا الذل والرهق العذاب والألم : « تصلى ناراً حامية » وتذوقها وتعانيها .

« تسقى من عين آنية » .. حارة بالغة الحرارة .. « ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع » .. والضريع قيل : شجر من نار في جهنم . استناداً إلى ماورد عن شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم . وقيل : نوع من الشوك اللاطي بالأرض ، ترعاه الإبل وهو أخضر ، ويسمى « الشبرق » فإذا جني صار اسمه « الضريع » ولم تستطع الإبل مذاقه فهو عندئذ سام ! فهذا أو ذاك هو لون من ألوان الطعام يومئذ مع الغسلين والغساق وباقي هذه الألوان التي لا تسمن ولا تغني من جوع !

وواضح أننا لا نملك في الدنيا أن ندرك طبيعة هذا العذاب في الآخرة . إنما نجيء هذه الأوصاف لتلمس في حسنا البشري أقصى ما يملك تصويره من الألم ، الذي يتجمع من الذل والوهن والخيبة ومن لسع النار الحامية ، ومن التبرد والارتواء بالماء الشديد الحرارة ! والتغذي بالطعام الذي لا تقوى الإبل على تذوقه ، وهو شوك لا نفع فيه ولا غناء .. من مجموعة هذه التصورات يتجمع في حسنا إدراك لأقصى درجات الألم . وعذاب الآخرة

بعد ذلك أشد . وطبيعته لا يتذوقها إلا من يذوقها والعباذ بالله !
وعلى الجانب الآخر : « وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية : في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سرر مرفوعة . وأكواب موضوعة . ونمارق مصفوفة . وزرايى مبثوثة » ..
فهنا وجوه يبدو فيها النعيم . ويفيض منها الرضى . وجوه تنعم بما تجدد ، وتحمد ما عملت . فوجدت عقباه خيراً ، وتستمتع بهذا الشعور الروحي الرفيع . شعور الرضى عن عملها حين ترى رضى الله عنها . وليس أروح للقلب من أن يطمئن إلى الخير ويرضى عاقبته ، ثم يراها ممثلة في رضى الله الكريم . وفي النعيم . ومن ثم يقدم القرآن هذا اللون من السعادة على ما في الجنة من رخاء ومتاع ، ثم يصف الجنة ومناعمها المتاحة لهؤلاء السعداء : « في جنة عالية » .. عالية في ذاتها رفيعة مجيدة . ثم هي عالية الدرجات . وعالية المقامات . وللعلو في الحس إيقاع خاص .

« لا تسمع فيها لاغية » .. ويطلق هذا التعبير جواً من السكون والهدوء والسلام والاطمئنان والود والرضى والنجاء والسمير بين الأحياء والأوداء ، والتتره والارتفاع عن كل كلمة لاغية ، لا خير فيها ولا عافية .. وهذه وحدها نعيم . وهذه وحدها سعادة . سعادة تتبين حين يستحضر الحس هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من لغو وجدل وصراع وزحام ولجاج وخصام وقرقرة وفرقة . وضجة وصخب ، وهرج ومرج . ثم يستسلم بعد ذلك لتصور الهدوء الآمن والسلام الساكن والود الرضى والظل الندي في العبارة الموحية : « لا تسمع فيها لاغية » وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندى وتترلق في نعومة ويسر ، وفي إيقاع موسيقي ندي رخى ! وتوحي هذه اللمسة بأن حياة المؤمنين في الأرض وهم يناون عن الجدل واللغو ، هي طرف من حياة الجنة ، يتهاون بها لذلك النعيم الكريم . وهكذا يقدم الله من صفة الجنة هذا المعنى الرفيع الكريم الوضيء . ثم تجيء المناعم التي تشبع الحس والحواس . تجيء في الصورة التي يملك البشر تصورها . وهي في الجنة مكيفة وفق ما ترتقي إليه نفوس أهل الجنة . مما لا يعرفه إلا من يذوقه !

« فيها عين جارية » .. والعين الجارية : ينبوع المتدفق . وهو يجمع إلى الري الجمال . جمال الحركة والتدفق والجريان . والماء الجاري يجاوب الحس بالحوية وبالروح التي تنتفض وتنبض ! وهو متعة للنظر والنفس من هذا الجانب الخفي ، الذي يتسرب إلى أعماق الحس .

« فيها سرر مرفوعة » .. والارتفاع يوحى بالنظافة كما يوحى بالطهارة .. « وأكواب موضوعة » .. مصفوفة مهياة للشراب لا تحتاج إلى طلب ولا إعداد ! « ونمارق مصفوفة » .. والنمارق الوسائد والحشايا للاتكاء في ارتياح ! « وزرايى مبثوثة » .. والزرايى البسط ذات الخمل « السجاجيد » مبثوثة هنا وهناك للزينة وللراحة سواء ! وكلها مناعم مما يشهد الناس له أشباها في الأرض . وتذكر هذه الأشياء لتقريبها إلى مدارك أهل الأرض . أما طبيعتها وطبيعة المتاع بها فهي موكولة إلى المذاق هناك . للسعداء الذين يقسم الله لهم هذا المذاق !
ومن اللغو الدخول في موازنات أو تحقيقات حول طبيعة النعيم – أو طبيعة العذاب – في الآخرة . فإدراك طبيعة شيء ما متوقف على نوع هذا الإدراك . وأهل الأرض يدركون بحس مقيد بظروف هذه الأرض وطبيعة الحياة فيها . فإذا كانوا هناك رفعت الحجب وأزيلت الحواجز وانطلقت الأرواح والمدارك ، وتغيرت مدلولات الألفاظ ذاتها بحكم تغير مذاقها ، وكان ما سيكون ، مما لا نملك أن ندرك الآن كيف يكون !

إنما نفيد من هذه الأوصاف أن يستحضر تصورها أقصى ما يطيقه من صور اللذات والحلاوة والمتاع . وهو

ما تملك تذوقه مادامنا هنا . حتى نعرف حقيقته هناك . حين يكرمنا الله بفضله ورضاه .

* * *

وتنتهي هذه الجولة في العالم الآخر ، فيؤوب منها إلى هذا الوجود الظاهر . الحاضر . الموحى بقدره القادر وتدير المدبر ، وتميز الصنعة ، وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمراً بعد هذه الحياة ، وشأناً غير شأن الأرض . وخاتمة غير خاتمة الموت :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » ..

وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار ، أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله . حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيناً كان .. السماء والأرض والجبال والحيوان .. وأياً كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة في عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

والمعجزة كامنة في كل منها . وصنعة الخالق فيها معلمة لا نظير لها . وهي وحدها كافية لأن توحى بحقيقة العقيدة الأولى . ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » .. والإبل حيوان العربي الأول . عليها يسافر ويحمل . ومنها يشرب ويأكل . ومن أوبارها وجلودها يلبس وينزل . فهي مورد الأول للحياة . ثم إن لها خصائص تفرد بها من بين الحيوان . فهي على قوتها وضخامتها وضلاعة تكوينها ذلول يقودها الصغير فتتقاد ، وهي على عظم نفعتها وخدمتها قليلة التكاليف . مرعاها ميسر ، وكلفتها ضئيلة ، وهي أصبر الحيوان المستأنس على الجوع والعطش والكدح وسوء الأحوال .. ثم إن لهيئتها مزية في تناسق المشهد الطبيعي المعروض كما سيجيء ..

لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل ؛ وهي بين أيديهم ، لا تحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد .. « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ » .. أفلا ينظرون إلى خلقها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون : كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها ، المحقق لغاية خلقها ، المتناسق مع بيتها ووظيفتها جميعاً ! إنهم لم يخلقوها . وهي لم تخلق نفسها ، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته ، التي تدل عليه ، وتقطع بوجوده ؛ كما تشي بتدبيره وتقديره .

« وإلى السماء كيف رفعت ؟ » .. وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن . وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء . حيث للسماء طعم ومذاق ، وإيقاع وإيحاء ، كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء ! السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر . والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر . والسماء بغروبها البديع الفريد الموحى . والسماء بليلها المترامي ونجومها المتألثة وحديثها الفاتر . والسماء بشروقها الجميل الحي السافر .

هذه السماء . في الصحراء .. أفلا ينظرون إليها ؟ أفلا ينظرون إليها كيف رفعت ؟ من ذارفعها بلا عمد ؟ وثر فيها النجوم بلا عدد ؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيحاء ؟ إنهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها . فلا بد لها من رافع ولا بد لها من مبدع . لا يحتاج الأمر إلى علم ولا إلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفي ...

« وإلى الجبال كيف نصبت ؟ » .. والجبال عند العربي - بصفة خاصة - ملجأ وملاد ، وأنيس وصاحب ، ومشهد يوحى إلى النفس الإنسانية - بصفة عامة - جلالاً واستهوالاً . حيث يتضاءل الإنسان إلى جوارها ويستكين ، ويخضع للجلال السامق الرزين . والنفس في أحضان الجبل تتجه بطبيعتها إلى الله ؛ وتشعر أنها إليه أقرب ، وتبعد عن واغش الأرض وضجيجها وحقاراتها الصغيرة . ولم يكن عبثاً ولا مصادفة أن يتحنث محمد - صلى الله عليه وسلم - في غار حراء في جبل ثور . وأن يتجه إلى الجبل من يريدون النجوة بأرواحهم فترات من الزمان ! والجبال هنا « كيف نصبت » لأن هذه اللوحة تتفق من الناحية التصويرية مع طبيعة المشهد كما سيحيي .

« وإلى الأرض كيف سطحت ؟ » .. والأرض مسطوحة أمام النظر ، ممهدة للحياة والسير والعمل ، والناس لم يسطحوها كذلك . فقد سطحت قبل أن يكونوا هم .. أفلا ينظرون إليها ويتدبرون ما وراءها ، ويسألون : من سطحها ومهدا هكذا للحياة تمهيداً ؟

إن هذه المشاهد لتوحي إلى القلب شيئاً . بمجرد النظر الواعي والتأمل الصاحي . وهذا القدر يكفي لاستجاشة الوجدان واستحياء القلب . وتحرك الروح نحو الخالق المبدع لهذه الخلائق .

ونقف وقفة قصيرة أمام جمال التناسق التصويري لمجموعة المشهد الكوني لئلا نرى كيف يخاطب القرآن الوجدان الديني بلغة الجمال الفني ، وكيف يعتنقان في حس المؤمن الشاعر بحمال الوجود ..

إن المشهد الكلي يضم مشهد السماء المرفوعة والأرض المبسوطة . وفي هذا المدى المتطاوّل تبرز الجبال « منصوبة » السنان لا راسية ولا ملقاة ، وتبرز الجمال منصوبة السنام .. خطان أفقيان وخطان رأسيان في المشهد الهائل في المساحة الشاسعة . ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتجاهات ! على طريقة القرآن في عرض المشاهد ، وفي التعبير بالتصوير على وجه الإجمال^١ .

* * *

والآن بعد الجولة الأولى في عالم الآخرة ، والجولة الثانية في مشاهد الكون المعروضة ، يلتفت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوجهه إلى حدود واجبه وطبيعة وظيفته ، ويلمس قلوبهم اللمسة الأخيرة الموقظة :

« فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إياهم . ثم إن علينا حسابهم » ..

فذكر بهذا وذلك . ذكرهم بالآخرة وما فيها . وذكرهم بالكون وما فيه . إنما أنت مذكر . هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك في هذه الدعوة ، ليس لك ولا عليك شيء وراءه . عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكلف إياه .

« لست عليهم بمسيطر » .. فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئاً . حتى تقهرها وتقصرها على الإيمان . فالقلوب بين أصابع الرحمن ، لا يقدر عليها إنسان .

فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس . فلا يمنعون من سماعها . ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها . كان لإزالة العقبات من طريق التذكير . الدور الوحيد الذي يملكه الرسول .

وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر هذه الدعوة شيء إلا التذكير والبلاغ يتكرر في القرآن لأسباب شتى .

(١) فصل التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني في القرآن . « دار الشروق » .

في أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هم الدعوة بعد البلاغ ، وتركها لقدر الله يفعل بها ما يشاء . فإلحاح الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير ، إلحاح عنيف جداً يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية لنفسه ولرغائبه هذه من مجال الدعوة ، كي ينطلق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة ، وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعني نفسه بهمّ من آمن وهمّ من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة ، وتقل الاستجابة ، ويكثر المعرضون والمخاضمون .

ومما يدل على إلحاح الرغبة البشرية في انتصار دعوة الله وتذوق الناس لما فيها من خير ورحمة ، هذه التوجيهات المتكررة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو من هو تأدباً بأدب الله ومعرفة لحدوده ولقدر الله .. ومن ثم اقتضى إلحاح هذه الرغبة هذا العلاج الطويل المتكرر في شتى الأحيان ..

ولكن إذا كان هذا هو حد الرسول ، فإن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد . ولا يذهب المكذبون ناجين ، ولا يتولون سالمين . إن هنالك الله وإليه تصير الأمور :
« إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر » ..

وهم راجعون إلى الله وحده قطعاً ، وهو مجازيهم وحده حتماً . وهذا هو الإيقاع الختامي في السورة في صيغة الجزم والتوكيد .

« إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم » ..

بهذا يتحدد دور الرسول في هذه الدعوة . ودور كل داعية إليها بعده .. إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله . ولا مفر لهم من العودة إليه ، ولا محيد لهم من حسابه وجزائه . غير أنه ينبغي أن يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء ، بلا تقصير فيها ولا اعتداء ..

* * *

(١٩) سُورَةُ الْفَجْرِ مَكِّيَّةٌ وآياتها ثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُ ٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حَجْرِ ٥
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِنْهَا فِي الْبَلَدِ ٨ وَنَعْمُ الَّذِينَ جَاءُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١٠ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي الْبَلَدِ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِغٌ رَّصَادٍ ١٤
فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ
عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحْتَضُون عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ١٨
وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١ وَجَاءَ
رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ وَجِئَءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ٢٣ يَقُولُ
يَلْبِثَنِي قَدَمْتُ لِحْيَاتِي ٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وِثْقُهُ أَحَدٌ ٢٦ يَتَأْتِيهَا
النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ٢٧ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ٣٠

هذه السورة في عمومها حلقة من حلقات هذا الجزء في الهتاف بالقلب البشري إلى الإيمان والتقوى واليقظة والتدبر .. ولكنها تتضمن ألواناً شتى من الجولات والإيقاعات والظلال . ألواناً متنوعة تؤلف من تفرقها وتناسقها لحناً واحداً متعدد النغمات موحد الإيقاع !

في بعض مشاهدتها جمال هادئ رفيع ندي السهات والإيقاعات ، كهذا المطلع الندي بمشاهده الكونية الرقيقة ، وبظل العبادة والصلاة في ثنایا تلك المشاهد .. « والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر .. » .

وفي بعض مشاهدتها شد وقصف . سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف : « كلا . إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى . يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد .. » .

وفي بعض مشاهدتها نداوة ورقة ورضى يفيض وطمأنينة . تتناسق فيها المناظر والأنغام ، كهذا الختام : « يا أيها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي .. » .

وفيها إشارات سريعة لمصارع الغابرين المتجبرين ، وإيقاعها بين بين . بين إيقاع القصص الرخي وإيقاع المصراع القوي : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد . التي لم يخلق مثلها في البلاد . وثمود الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد . فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد . » .

وفيها بيان لتصورات الإنسان غير الإيمانية وقيمه غير الإيمانية . وهي ذات لون خاص في السورة تعبيراً وإيقاعاً : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقد رزقه فيقول : ربي أهانن .. » .

ثم الرد على هذه التصورات ببيان حقيقة حالهم التي تنبع منها هذه التصورات . وهي تشمل لونين من ألوان العبارة والتنغيم : « كلا . بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما ، وتحبون المال حباً جماً .. » .

ويلاحظ أن هذا اللون الأخير هو قنطرة بين تقرير حالهم وما ينتظرهم في مآلهم . فقد جاء بعده : « كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ... الخ » .. فهو وسط في شدة التنغيم بين التقرير الأول والتهديد الأخير !

ومن هذا الاستعراض السريع تبدو الألوان المتعددة في مشاهد السورة . وإيقاعاتها في تعبيرها وفي تنغيمها .. كما يبدو تعدد نظام الفواصل وتغير حروف القوافي . بحسب تنوع المعاني والمشاهد . فالسورة من هذا الجانب نموذج واف لهذا الأفق من التناسق الجمالي في التعبير القرآني^١ . فوق ما فيها عموماً من جمال ملحوظ مأنوس ! فأما أغراض السورة الموضوعية التي يحملها هذا التعبير المتناسق الجميل . فنعرضها فيما يلي بالتفصيل :

* * *

« والفجر وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر . هل في ذلك قسم لذي حجر ؟ » ..

هذا القسم في مطلع السورة يضم هذه المشاهد والخلاتق . ذات الأرواح اللطيفة المأنوسة الشفيفة : « والفجر » .. ساعة تنفس الحياة في يسر ، وفرح ، وإبتسام ، وإيناس ودود ندي ، والوجود الغافي يستيقظ رويداً رويداً ، وكأن أنفاسه مناجاة ، وكأن تفتحه ابتهاج !

« وليال عشر » أطلقها النص القرآني ووردت فيها روايات شتى .. قيل هي العشر من ذي الحجة ، وقيل هي العشر من المحرم . وقيل هي العشر من رمضان .. وإطلاقها هكذا أوقع وأندى . فهي ليال عشر يعلمها الله . ولها

(١) فصل : التناسق الفني . في كتاب : التصوير الفني في القرآن .

عنده شأن . تلقي في السياق ظل الليلات ذات الشخصية الخاصة . وكأنها خلائق حية معينة ذوات أرواح ، تعاطفنا ونعاطفها من خلال التعبير القرآني الرفاف !

« والشفع والوتر » .. يطلقان روح الصلاة والعبادة في ذلك الجو المأنوس الحبيب . جو الفجر والليالي العشر .. « ومن الصلاة الشفع والوتر » (كما جاء في حديث أخرجه الترمذي) وهذا المعنى هو أنسب المعاني في هذا الجو . حيث تلتقي روح العبادة الخاشعة ، بروح الوجود الساجية ! وحيث تتجاوب الأرواح العابدة مع أرواح الليالي المختارة ، وروح الفجر الوضيئة .

« والليل إذا يسر » .. والليل هنا مخلوق حي ، يسري في الكون ، وكأنه ساهر يحول في الظلام ! أو مسافر يختار السرى لرحلته البعيدة ! يا لأناقة التعبير ! ويا لأنس المشهد ! ويا لجمال النغم ! ويا للتناسق مع الفجر ، والليالي العشر . والشفع والوتر !

إنها ليست ألفاظاً وعبارات . إنما هي أنسام من أنسام الفجر ، وأنداء مشعشة بالعطر ! أم إنه النجاء الأليف للقلب ؟ والهمس اللطيف للروح ؟ واللمس الموحى للضمير ؟

إنه الجمال .. الجمال الحبيب الهامس اللطيف . الجمال الذي لا يدانيه جمال التصورات الشعرية الطليقة . لأنه الجمال الإبداعي ، المعبر في الوقت ذاته عن حقيقة .

ومن ثم يعقب عليه في النهاية : - « هل في ذلك قسم لذي حجر » ؟ وهو سؤال للتقرير . إن في ذلك قسماً لذي لب وعقل . إن في ذلك مقنعاً لمن له إدراك وفكر . ولكن صيغة الاستفهام - مع إفادتها التقرير - أرق حاشية . فهي تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق !

* * *

أما المقسم عليه بذلك القسم ، فقد طواه السياق ، ليفسره ما بعده ، فهو موضوع الطغيان والفساد ، وأخذ ربك لأهل الطغيان والفساد ، فهو حق واقع يقسم عليه بذلك القسم في تلميح يناسب لمسات السورة الخفيفة على وجه الإجمال :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ؟ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟ وفرعون ذي الأوتاد ؟ .. الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ؟ إن ربك لبالمرصاد .. »

وصيغة الاستفهام في مثل هذا السياق أشد إثارة لليقظة والالتفات . والخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - ابتداء . ثم هو لكل من تتأتى منه الرؤية أو التبصر في مصارع أولئك الأقوام ، وكلها مما كان المخاطبون بالقرآن أول مرة يعرفونه ، وما تشهد به الآثار والقصص الباقية في الأجيال المتعاقبة ، وإضافة الفعل إلى « ربك » فيها للمؤمن طمأنينة وأنس وراحة . وبخاصة أولئك الذين كانوا في مكة يعانون طغيان الطغاة ، وعسف الجبارين من المشركين ، الواقفين للدعوة وأهلها بالمرصاد .

وقد جمع الله في هذه الآيات القصار مصارع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم .. مصرع : « عاد إرم » وهي عاد الأولى . وقيل : إنها من العرب العاربة أو البادية . وكان مسكنهم بالأحقاف وهي كتيبان الرمال . في جنوبي الجزيرة بين حضرموت واليمن . وكانوا بدوياً ذوي خيام تقوم على عماد . وقد وصفوا في القرآن بالقوة والبطش ، فقد كانت قبيلة عاد هي أقوى قبيلة في وقتها وأميزها : « التي لم يخلق مثلها في البلاد » في ذلك الأوان ..

« وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » .. وكانت ثمود تسكن بالحجر في شمال الجزيرة العربية بين المدينة والشام . وقد قطعت الصخر وشيدته قصوراً ؛ كما نحتت في الجبال ملاجئ ومغارات ..
« وفرعون ذي الأوتاد » .. وهي على الأرجح الأهرامات التي تشبه الأوتاد الثابتة في الأرض المتينة البنيان . وفرعون المشار إليه هنا هو فرعون موسى الطاغية الجبار .

هؤلاء هم « الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد » .. وليس وراء الطغيان إلا الفساد . فالطغيان يفسد الطاغية ، ويفسد الذين يقع عليهم الطغيان سواء . كما يفسد العلاقات والارتباطات في كل جوانب الحياة . ويحول الحياة عن خطها السليم النظيف ، المعمر الباني ، إلى خط آخر لا تستقيم معه خلافة الإنسان في الأرض بحال ..

إنه يجعل الطاغية أسير هواه ، لأنه لا يفيء إلى ميزان ثابت ، ولا يقف عند حد ظاهر ، فيفسد هو أول من يفسد ؛ ويتخذ له مكاناً في الأرض غير مكان العبد المستخلف ؛ وكذلك قال فرعون .. « أنا ربكم الأعلى » عندما أفسده طغيانه ، فتجاوز به مكان العبد المخلوق ، وتناول به إلى هذا الادعاء المقبوح ، وهو فساد أي فساد . ثم هو يجعل الجماهير أرقاء أذلاء ، مع السخط الدفين والحقد العظيم ، فتتعطل فيهم مشاعر الكرامة الإنسانية ، وملكات الابتكار المتحررة التي لا تنمو في غير جو الحرية . والنفس التي تستذل تأسن وتتعض ، وتصبح مرتعاً لديدان الشهوات الهابطة والغرائز المريضة . وميداناً للانحرافات مع انطماس البصيرة والإدراك . وفقدان الأريحية والهمة والتطلع والارتفاع ، وهو فساد أي فساد ..

ثم هو يحطم الموازين والقيم والتصورات المستقيمة ، لأنها خطر على الطغاة والطغيان . فلا بد من تزييف للقيم ، وتزوير في الموازين ، وتحريف للتصورات كي تقبل صورة البغي البشعة ، وتراها مقبولة مستساغة .. وهو فساد أي فساد .

فلما أكتروا في الأرض الفساد ، كان العلاج هو تطهير وجه الأرض من الفساد :

« فصب عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد » ..

فربك راصد لهم ومسجل لأعمالهم . فلما أن كثر الفساد وزاد صب عليهم سوط عذاب ، وهو تعبير يوحي بلذع العذاب حين يذكر السوط ، وبفيضه وغمره حين يذكر الصب . حيث يجتمع الألم اللاذع والغمرة الطاغية ، على الطغاة الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد .

ومن وراء المصارع كلها تفيض الطمأنينة على القلب المؤمن وهو يواجه الطغيان في أي زمان وأي مكان . ومن قوله تعالى : « إن ربك لبالمرصاد » تفيض طمأنينة خاصة . فربك هناك . راصد لا يفوته شيء . مراقب لا يند عنه شيء . فليطمئن بال مؤمن ، ولينم ملء جفونه . فإن ربه هناك ! .. بالمرصاد .. للطغيان والشر والفساد ! وهكذا نرى هنا نماذج من قدر الله في أمر الدعوة ، غير النموذج الذي تعرضه سورة البروج لأصحاب الأخدود . وقد كان القرآن - ولا يزال - يربي المؤمنين بهذا النموذج وذاك . وفق الحالات والملابسات . ويعد نفوس المؤمنين لهذا وذاك على السواء . لتطمئن على الحاليين . وتتوقع الأمرين ، وتكل كل شيء لقدرة الله يجريه كما يشاء .

* * *

« إن ربك لبالمرصاد » .. يرى ويحسب ويحاسب ويجازي ، وفق ميزان دقيق لا يخطئ ولا يظلم ولا يأخذ

بظواهر الأمور لكن بحقائق الأشياء .. فأما الإنسان فتخطئ موازينه وتضل تقديراته ، ولا يرى إلا الظواهر ، ما لم يتصل بميزان الله :

« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربي أهانن » ..

فهذا هو تصور الإنسان لما يبتليه الله به من أحوال ، ومن بسط وقبض ، ومن توسعة وتقدير .. يبتليه بالنعمة والإكرام . بالمال أو المقام . فلا يدرك أنه الابتلاء ، تمهيداً للجزاء . إنما يحسب هذا الرزق وهذه المكانة دليلاً على استحقاقه عند الله للإكرام ، وعلامة على اصطفاء الله له واختياره . فيعتبر البلاء جزاء والامتحان نتيجة ! وقيس الكرامة عند الله بعرض هذه الحياة ! ويبتليه بالتضييق عليه في الرزق ، فيحسب الابتلاء جزاء كذلك ، ويحسب الاختبار عقوبة ، ويرى في ضيق الرزق مهانة عند الله ، فلو لم يرد مهانته ما ضيق عليه رزقه ..

وهو في كلتا الحالتين مخطئ في التصور ومخطئ في التقدير . فبسط الرزق أو قبضه ابتلاء من الله لعبده . ليظهر منه الشكر على النعمة أو البطر . ويظهر منه الصبر على المحنة أو الضجر . والجزاء على ما يظهر منه بعد . وليس ما أعطي من عرض الدنيا أو منع هو الجزاء .. وقيمة العبد عند الله لا تتعلق بما عنده من عرض الدنيا . ورضى الله أو سخطه لا يستدل عليه بالمنع والممنوع في هذه الأرض . فهو يعطي الصالح والطالح ، ويمنع الصالح والطالح . ولكن ما وراء هذا وذلك هو الذي عليه المعول . إنه يعطي لبيتلي ويمنع لبيتلي . والمعول عليه هو نتيجة الابتلاء !

غير أن الإنسان - حين يخلو قلبه من الإيمان - لا يدرك حكمة المنع والعطاء . ولا حقيقة القيم في ميزان الله .. فإذا عمر قلبه بالإيمان اتصل وعرف ما هنالك . وخفت في ميزانه الأعراض الزهيدة ، وتيقظ لما وراء الابتلاء من الجزاء ، فعمل له في البسط والقبض سواء . واطمأن إلى قدر الله به في الحالين ؛ وعرف قدره في ميزان الله بغير هذه القيم الظاهرة الجوفاء !

* * *

وقد كان القرآن يخاطب في مكة أناساً - يوجد أمثالهم في كل جاهلية تفقد اتصالها بعالم أرفع من الأرض وأوسع - أناساً ذلك ظنهم بربهم في البسط والقبض . وذلك تقديرهم لقيم الناس في الأرض . ذلك أن المال والجاه عندهم كل شيء . وليس وراءهما مقياس ! ومن ثم كان تكاليفهم على المال عظيماً ، وحبهم له حباً طاعياً ، مما يورثهم شراهة وطمعاً . كما يورثهم حرصاً وشحاً .. ومن ثم يكشف لهم عن ذوات صدورهم في هذا المجال ، ويقرر أن هذا الشره والشح هما علة خطئهم في إدراك معنى الابتلاء من وراء البسط والقبض في الأرزاق .

« كلا . بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلاً لما ، وتحبون المال حباً جماً » ..

كلا ليس الأمر كما يقول الإنسان الخاوي من الإيمان . ليس بسط الرزق دليلاً على الكرامة عند الله . وليس تضييق الرزق دليلاً على المهانة والإهمال . إنما الأمر أنكم لا تنهضون بحق العطاء ، ولا توفون بحق المال . فأنتم لا تكرمون اليتيم الصغير الذي فقد حاميه وكافله حين فقد أباه ، ولا تتحاضون فيما بينكم على إطعام المسكين . الساكن الذي لا يتعرض للسؤال وهو محتاج ! وقد اعتبر عدم التحاض والتواصي على إطعام المسكين قبيحاً مستنكراً . كما يوحى بضرورة التكافل في الجماعة في التوجيه إلى الواجب وإلى الخير العام . وهذه سمة الإسلام . .. إنكم لا تدركون معنى الابتلاء . فلا تحاولون النجاح فيه ، بإكرام اليتيم والتواصي على إطعام المسكين ،

بل أنتم - على العكس - تأكلون الميراث أكلاً شراً جشعاً ؛ وتحبون المال حباً كثيراً طاعياً ، لا يستبقي في نفوسكم أريحية ولا مكرمة مع المحتاجين إلى الإكرام والطعام .

وقد كان الإسلام يواجهه في مكة - كما ذكرنا من قبل - حالة من التكالب على جمع المال بكافة الطرق ، تورث القلوب كرازة وقساوة . وكان ضعف اليتامى مغرياً بانتهاب أموالهم وبخاصة الإناث منهم في صور شتى ؛ وبخاصة ما يتعلق بالميراث (كما سبق بيانه في مواضع متعددة في الظلال) كما كان حب المال وجمعه بالربا وغيره ظاهرة بارزة في المجتمع المكّي قبل الإسلام . وهي سمة الجاهليات في كل زمان ومكان ! حتى الآن !

وفي هذه الآيات فوق الكشف عن واقع نفوسهم ، تنديد بهذا الواقع ، وردع عنه ، يتمثل في تكرار كلمة « كلا » كما يتمثل في بناء التعبير وإيقاعه ، وهو يرسم بجرسه شدة التكالب وعنفه :
« وتأكلون التراث أكلاً لما . وتحبون المال حباً جماً ! » ..

* * *

وعند هذا الحد من فضح حقيقة حالهم المنكرة ، بعد تصوير خطأ تصورهم في الابتلاء بالمنع والعطاء ، يجيء التهديد الرعب يوم الجزاء وحقيقته ، بعد الابتلاء ونتيجته ، في إيقاع قوي شديد :

« كلا . إذا دكت الأرض دكاً دكا . وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً . وجيء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ؟ يقول : يا ليتني قدمت لحياتي . فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » ..
ودك الأرض ، تحطيم معالمها وتسويتها ؛ وهو أحد الانقلابات الكونية التي تقع في يوم القيامة . فأما مجيء ربك والملائكة صفّاً صفّاً ، فهو أمر غيبي لا ندرك طبيعته ونحن في هذه الأرض . ولكننا نحس وراء التعبير بالجلال والهول . كذلك المجيء بجهنم . نأخذ منه قربها منهم وقرب المعذنين منها وكفى . فأما حقيقة ما يقع وكيفيته فهي من غيب الله المكنون ليومه المعلوم .

إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ، ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم ، الشديدة الأسر ، مشهد ترجف له القلوب ، ونحشع له الأبصار . والأرض تدك دكاً دكا ! والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل ، ويقف الملائكة صفّاً صفّاً . ثم يجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى !

« يومئذ يتذكر الإنسان » .. الإنسان الذي غفل عن حكمة الابتلاء بالمنع والعطاء . والذي أكل التراث أكلاً لما ، وأحب المال حباً جماً . والذي لم يكرم اليتيم ولم يحض على طعام المسكين . والذي طغى وأفسد وتولى .. يومئذ يتذكر . يتذكر الحق ويتعظ بما يرى .. ولكن لقد فات الأوان « وأنى له الذكرى ؟ » .. ولقد مضى عهد الذكرى ، فما عادت تجدي هنا في دار الجزاء أحداً ! وإن هي إلا الحسرة على فوات الفرصة في دار العمل في الحياة الدنيا !

وحين تتجلى له هذه الحقيقة : « يقول : يا ليتني قدمت لحياتي » .. يا ليتني قدمت شيئاً لحياتي هنا . فهي الحياة الحقيقية التي تستحق اسم الحياة . وهي التي تستأهل الاستعداد والتقدمة والادخار لها . يا ليتني .. أمنية فيها الحسرة الظاهرة ، وهي أقسى ما يملكه الإنسان في الآخرة !

ثم يصور مصيره بعد الحسرة الفاجعة والتمنيات الضائعة : « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » .. إنه الله القهار الجبار . الذي يعذب يومئذ عذابه الفذ الذي لا يملك مثله أحد . والذي يوثق وثاقه الفذ الذي لا يوثق مثله أحد . وعذاب الله ووثاقه يفصلهما القرآن في مواضع أخرى في مشاهد القيامة الكثيرة

المنوعة في ثنايا القرآن كله ، ويحملهما هنا حيث يصفهما بالتفرد بلا شبيه من عذاب البشر ووثاقهم . أو من عذاب الخلق جميعاً ووثاقهم . وذلك مقابل ما أسلف في السورة من طغيان الطغاة ممثلين في عاد وثمود وفرعون ، وإكثارهم من الفساد في الأرض ، مما يتضمن تعذيب الناس وربطهم بالقيود والأغلال . فهذا هو ذا ربك – أيها النبي وأيها المؤمن – يعذب ويوثق من كانوا يعذبون الناس ويوثقونهم . ولكن شتان بين عذاب وعذاب ، ووثاق ووثاق .. وهان ما يملكه الخلق من هذا الأمر ، وجل ما يفعله صاحب الخلق والأمر . فليكن عذاب الطغاة للناس ووثاقهم ما يكون . فسيعذبونهم ويوثقون ، عذاباً ووثاقاً وراء التصورات والظنون !

* * *

وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوثاق ، الذي يتجاوز كل تصور تنادى « النفس » المؤمنة من الملاء الأعلى :

« يا أيها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي » ..
هكذا في عطف وقرب : « يا أيها » وفي روحانية وتكريم : « يا أيها النفس » .. وفي ثناء وتطمين ..
« يا أيها النفس المطمئنة » .. وفي وسط الشد والوثاق ، الانطلاق والرخاء : « ارجعي إلى ربك » ارجعي إلى مصدرك بعد غربة الأرض وفرقة المهد . ارجعي إلى ربك بما بينك وبينه من صلة ومعرفة ونسبة .. « راضية مرضية » بهذه النداءة التي تفيض على الجو كله بالعاطف وبالرضى .. « فادخلي في عبادي » .. المقربين المختارين لينالوا هذه القرى .. « وادخلي جنتي » .. في كني ورحمتي ..

إنها عطفة تنسم فيها أرواح الجنة . منذ النداء الأول : « يا أيها النفس المطمئنة » .. المطمئنة إلى ربها . المطمئنة إلى طريقها . المطمئنة إلى قدر الله بها . المطمئنة في السراء والضراء ، وفي البسط والقبض ، وفي المنع والعطاء . المطمئنة فلا ترتاب . والمطمئنة فلا تنحرف . والمطمئنة فلا تتلجلج في الطريق . والمطمئنة فلا ترتاع في يوم الهول الرعب ..

ثم تمضي الآيات تباعاً تغمر الجو كله بالأمن والرضى والطمأنينة ، والموسيقى الرخية الندية حول المشهد ترف بالود والقرى والسكينة .

ألا إنها الجنة بأنفاسها الرضية الندية ، تطل من خلال هذه الآيات . وتتجلى عليها طلعة الرحمن الجليلة البهية ...

* * *

(٩٠) سُورَةُ الْبَلَدِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا عِشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❶ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ❷ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ❸ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ❹
أَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ❺ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ❻ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ❼ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ
عَيْنَيْنِ ❽ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ❾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ❿
فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ❶❶ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ❶❷ فَكُ رَقَبَةً ❶❸ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❶❹
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ❶❺ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ❶❻ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ❶❼
أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ❶❽ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ❶❾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ❶❿

تضم هذه السورة الصغيرة جناحيها على حشد من الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ذات الإيحاءات الدافعة واللمسات الموحية . حشد يصعب أن يجتمع في هذا الحيز الصغير في غير القرآن الكريم ، وأسلوبه الفريد في التوقيع على أوتار القلب البشري بمثل هذه اللمسات السريعة العميقة ..

* * *

تبدأ السورة بالتلويح بقسم عظيم ، على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة :

« لَا أَقْسَمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ مَا وَلَدَ . لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ » .

والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس في الأرض . ليكون مثابة لهم وأمناً . يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداوتهم ، ويلتقون فيه مسلمين ، حراماً بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبي العرب والمسلمين أجمعين .

ويكرم الله نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - فيذكره ويذكر حله بهذا البلد وإقامته ، بوصفها ملابسة تزيد هذا البلد حرمة ، وتزيده شرفاً ، وتزيده عظمة . وهي إيماء ذات دلالة عميقة في هذا المقام . والمشركون يستحلون

حرمة البيت ، فيؤذون النبي والمسلمين فيه ، والبيت كريم ، يزيد كرمه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - حل فيه مقيم . وحين يقسم الله - سبحانه - بالبلد والمقيم به ، فإنه يخلع عليه عظمة وحرمة فوق حرمة ، فيبدو موقف المشركين الذين يدعون أنهم سدنة البيت وأبناء إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، موقفاً منكراً قبيحاً من جميع الوجوه .

ولعل هذا المعنى يرشح لاعتبار : « ووالد وما ولد » .. إشارة خاصة إلى إبراهيم ، أو إلى إسماعيل - عليهما السلام - وإضافة هذا إلى القسم بالبلد والنبي المقيم به ، وبانيه الأول وما ولد .. وإن كان هذا الاعتبار لا ينفي أن يكون المقصود هو : والد وما ولد إطلاقاً . وأن تكون هذه إشارة إلى طبيعة النشأة الإنسانية ، واعتمادها على التوالد . تمهيداً للحديث عن حقيقة الإنسان التي هي مادة السورة الأساسية .

وللإستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذا الموضع من تفسيره للسورة في « جزء عم » لفظة لطيفة تنسق في روحها مع روح هذه « الظلال » فنستعيرها منه هنا .. قال رحمه الله :

« ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود - وهو طور التوالد - وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له .

« فإذا تصورت في النبات كم تعاني البذرة في أطوار النمو : من مقاومة فواعل الجو ، ومحاولة امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذوراً أخرى تعمل عملها ، وترزين الوجود بجمال منظرها - إذا أحضرت ذلك في ذهنك ، والتفت إلى ما فوق النبات من الحيوان والإنسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع ، واستبقاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم » .. انتهى ..

يقسم هذا القسم على حقيقة ثابتة في حياة الكائن الإنساني :

« لقد خلقنا الإنسان في كبد » ..

في مكابدة ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكدح .. كما قال في السورة الأخرى : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فحلاًقيه » ..

الخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء - بإذن ربها - وما تزال كذلك حتى تنتهي إلى المخرج ، فتذوق من المخاض - إلى جانب ما تذوقه الوالدة - ما تذوق . وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يخرق في مخرجه من الرحم !

ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر . يبدأ الجنين ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به ، ويفتح فمه ورثته لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية ! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة ! ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعائه على هذا العمل الجديد ! وكل خطوة بعد ذلك كبد ، وكل حركة بعد ذلك كبد . والذي يلاحظ الوليد عندما يهيم بالحبو وعندما يهيم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة .

وعند بروز الأسنان كبد . وعند انتصاب القامة كبد . وعند الخطو الثابت كبد . وعند التعلم كبد . وعند التفكير كبد . وفي كل تجربة جديدة كبد كتجربة الحبو والمشي سواء !

ثم تفرق الطرق ، وتتنوع المشاق ؛ هذا يكدح بعضلاته . وهذا يكدح بفكره . وهذا يكدح بروحه . وهذا يكدح للقامة العيش وخرقة الكساء . وهذا يكدح ليجمع الألف ألفين وعشرة آلاف ... وهذا يكدح للملك أو جاه ،

وهذا يكدر في سبيل الله . وهذا يكدر لشهوة ونزوة . وهذا يكدر لعقيدة ودعوة . وهذا يكدر إلى النار . وهذا يكدر إلى الجنة .. والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحاً إلى ربه فيلقاه ! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء . وتكون الراحة الكبرى للسعداء .

إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا . تختلف أشكاله وأسبابه . ولكنه هو الكبد في النهاية . فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمر في الأخرى . وأفلح الفالحين من يكدر في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة ، وتنهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله .

على أن في الأرض ذاتها بعض الجزاء على ألوان الكدر والعناء . إن الذي يكدر للأمر الجليل ليس كالذي يكدر للأمر الحقير . ليس مثله طمأنينة بال وارتياحاً للبذل ، واسترواحاً بالتضحية ، فالذي يكدر وهو طليق من أثقال الطين ، أو للانطلاق من هذه الأثقال ، ليس كالذي يكدر ليغوص في الوحل ويلصق بالأرض كالحشرات والديدان ! والذي يموت في سبيل دعوة ليس كالذي يموت في سبيل نزوة .. ليس مثله في خاصة شعوره بالجهد والكبد الذي يلقاه .

* * *

وبعد تقرير هذه الحقيقة عن طبيعة الحياة الإنسانية يناقش بعض دعاوى « الإنسان » وتصوراته التي تشي بها تصرفاته :

« أَيْحَسْبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ يَقُولُ : أَهْلَكَتُ مَا لَأَبْدَأُ . أَيْحَسْبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟ » .

إن هذا « الإنسان » المخلوق في كبد ، الذي لا يخلص من عناء الكدر والكبد ، لينسى حقيقة حاله وينخدع بما يعطيه خالقه من أطراف القوة والقدرة والوجدان والمتاع ، فيتصرف تصرف الذي لا يحسب أنه مأخوذ بعمله ، ولا يتوقع أن يقدر عليه قادر فيحاسبه .. فيطغى ويبطش ويسلب وينهب ، ويجمع ويكثر ، ويفسق ويفجر ، دون أن يخشى ودون أن يتحرج .. وهذه هي صفة الإنسان الذي يعرى قلبه من الإيمان .

ثم إنه إذا دعي للخير والبذل (في مثل المواضع التي ورد ذكرها في السورة) « يَقُولُ : أَهْلَكَتُ مَا لَأَبْدَأُ » .. وأنفقت شيئاً كثيراً فحسبي ما أنفقت وما بذلت ! « أَيْحَسْبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ؟ » وينسى أن عين الله عليه ، وأن علمه محيط به ، فهو يرى ما أنفق ، ولماذا أنفق ؟ ولكن هذا « الإنسان » كأنما ينسى هذه الحقيقة ، ويحسب أنه في خفاء عن عين الله !

* * *

وأمام هذا الغرور الذي يخيل للإنسان أنه ذو منعة وقوة ، وأمام ضنه بالمال وادعائه أنه بذل الكثير ، يجابه القرآن بفيض الآلاء عليه في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، وفي خصائص طبيعته واستعداداته ، تلك الآلاء التي لم يشكرها ولم يقدّر بحقها عنده :

« أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ؟ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ؟ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟ » ..

إن الإنسان يغتر بقوته ، والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة . ويضن بالمال . والله هو المنعم عليه بهذا المال . ولا يهتدي ولا يشكر ، وقد جعل له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات : جعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار . وميزه بالنطق ، وأعطاه أداته المحكمة : « وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ » .. ثم أودع نفسه خصائص القدرة على إدراك الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ »

.. ليختار أيهما شاء ، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين . والنجد الطريق المرتفع . وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء ، وأن تخلقه بهذا الازدواج طبقاً لحكمة الله في الخلق ، وإعطاء كل شيء خلقه ، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود .

وهذه الآية تكشف عن حقيقة الطبيعة الإنسانية ؛ كما أنها تمثل قاعدة « النظرية النفسية الإسلامية » هي والآيات الأخرى في سورة الشمس : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » (وسر جي عرضها بشيء من التفصيل إلى الموضع الآخر في سورة الشمس لأنه أوسع مجالاً) .

* * *

هذه الآلاء التي أفاضها الله على جنس الإنسان في خاصة نفسه ، وفي صميم تكوينه ، والتي من شأنها أن تعينه على الهدى : عيناه بما تريان في صفحات هذا الكون من دلائل القدرة وموجيات الإيمان ؛ وهي معروضة في صفحات الكون ماثلة في حناياه . ولسانه وشفثاه وهما أداة البيان والتعبير ؛ وعنهما يملك الإنسان أن يفعل الشيء الكثير . والكلمة أحياناً تقوم مقام السيف والقذيفة وأكثر ؛ وأحياناً تهوي بصاحبها في النار كما ترفعه أو تحفضه . في هذه النار .. « عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ، ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني عن النار . قال : سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد . ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : كف عليك هذا ، وأشار إلى لسانه . قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم ؟ » رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وهدأته إلى إدراك الخير والشر ، ومعرفة الطريق إلى الجنة والطريق إلى النار ، وإعانته على الخير بهذه الهداية .. هذه الآلاء كلها لم تدفع هذا « الإنسان » إلى اقتحام العقبة التي تحول بينه وبين الجنة . هذه العقبة التي بينها الله له في هذه الآيات :

« فلا اقتحم العقبة .. وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتباً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا مرتبة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة » ..

هذه هي العقبة التي يقتحمها الإنسان - إلا من استعان بالإيمان - هذه هي العقبة التي تقف بينه وبين الجنة . لو تخطاها لوصل ! وتصويرها كذلك حافز قوي ، واستجاشة للقلب البشري ، وتحريك له ليقحم العقبة وقد وضحت ووضح معها أنها الحائل بينه وبين هذا المكسب الضخم .. « فلا اقتحم العقبة » ! ففيه تحضيض ودفع وترغيب !

ثم تفخيم لهذا الشأن وتعظيم : « وما أدراك ما العقبة ! » .. إنه ليس تضخم العقبة ، ولكنه تعظيم شأنها عند الله ، ليحفز به « الإنسان » إلى اقتحامها وتخطيها ؛ مهما تتطلب من جهد ومن كبد . فالكبد واقع واقع . وحين يبذل لاقتحام العقبة يؤتي ثمره ويعوض المقتحم عما يكابده ، ولا يذهب ضياعاً وهو واقع واقع على كل حال !

ويبدأ كشف العقبة وبيان طبيعتها بالأمر الذي كانت البيئة الخاصة التي تواجهها الدعوة في أمس الحاجة إليه : فك الرقاب العانية ؛ وإطعام الطعام والحاجة إليه ماسة للضعاف الذين تقسو عليهم البيئة الجاحدة المتكالبة ، وينتهي بالأمر الذي لا يتعلق ببيئة خاصة ولا بزمان خاص ، والذي تواجهه النفوس جميعاً ، وهي تتخطى العقبة إلى النجاة : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » ...

وقد ورد أن فك الرقبة هو المشاركة في عتقها ، وأن العتق هو الاستقلال بهذا .. وأياً ما كان المقصود فالنتيجة الحاصلة واحدة .

وقد نزل هذا النص والإسلام في مكة محاصر ؛ وليست له دولة تقوم على شريعته . وكان الرق عاماً في الجزيرة العربية وفي العالم من حولها . وكان الرقيق يعاملون معاملة قاسية على الإطلاق . فلما أن أسلم بعضهم كعمار بن ياسر وأسرته ، وبلال بن رباح ، وصهيب .. وغيرهم - رضي الله عنهم جميعاً - اشتد عليهم البلاء من سادتهم العتاة ، وأسلموهم إلى تعذيب لا يطاق . وبدأ أن طريق الخلاص لهم هو تحريرهم بشرائهم من سادتهم القساة ، فكان أبو بكر - رضي الله عنه - هو السابق كعادته دائماً إلى التلبية والاستجابة في ثبات وطمأنينة واستقامة ..

قال ابن إسحاق : « وكان بلال مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعض بني جمح مولداً من مولديهم وكان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجهم إذا حميت الظهيرة فيطره على ظهره في بطحاء مكة ؛ ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى . فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد ...

« حتى مر به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يوماً وهم يصنعون ذلك به - وكانت دار أبي بكر في بني جمح . فقال لأمية بن خلف ، ألا تتقي الله في هذا المسكين ؟ حتى متى ؟ قال : أنت الذي أفسدته فأنقذه مما ترى . فقال أبو بكر : أفعل . عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى ، على دينك » أعطيك به . قال : قد قبلت . قال : هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - غلامه ذلك وأخذه وأعتقه .

« ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب . بلال سابعهم : عامر بن فهيرة (شهد بدرًا وقتل يوم بئر معونة شهيداً) وأم عبيس ، وزيرة .) وأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قریش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ! فقالت : كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان . فرد الله بصرها) وأعتق النهدي وابنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ففر بهما وقد بعثتهما سيدتهما بطحين لها وهي تقول : والله لا أعتقكما أبداً . فقال أبو بكر - رضي الله عنه - حل يا أم فلان (أي تحلي من يمينك) فقالت : حل ! أنت أفسدتهم فأعتقتهما . قال فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد أخذتهما وهما حرتان . أرجعا إليهما طحينها . قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليهما ؟ قال : ذلك إن شئتما .

« ومر بجارية بني مؤمل - هي من بني عدي - وكانت مسلمة ، وكان عمر بن الخطاب يعذبها لترك الإسلام - وهو يومئذ مشرك - وهو يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة ! فتقول : كذلك فعل الله بك ! فابتاعها أبو بكر فأعتقها » .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن عبد الله بن أبي عتيق ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن بعض أهله ، قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً . فلو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك ! قال : فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا أبت إني إنما أريد ما أريد الله ... » ..

لقد كان - رضي الله عنه - يقتحم العقبة وهو يعتق هذه الرقاب العانية .. لله .. وكانت الملابس الحاضرة في البيئة تجعل هذا العمل يذكر في مقدمة الخطوات والوثبات لاقتحام العقبة في سبيل الله .
« أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة » ..

والمسغبة : المجاعة ، ويوم المجاعة الذي يعز فيه الطعام هو محك لحقيقة الإيمان . وقد كان اليتيم يجد في البيئة الجاهلية الجاحدة المتكالية الخسف والغبن . ولو كان ذا قرى . وقد حفل القرآن بالوصية باليتيم . مما يدل على قسوة البيئة من حول اليتامى . وظلت هذه الوصايا تتوالى حتى في السور المدنية بمناسبة تشريعات الميراث والوصاية والزواج . وقد مر منها الكثير في سورة النساء خاصة .. وفي سورة البقرة وغيرها . وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة - أي اللصق بالتراب من بؤسه وشدة حاله - في يوم المسغبة يقدمه السياق القرآني خطوة في سبيل اقتحام العقبة ، لأنه محك للمشاعر الإيمانية من رحمة وعطف وتكافل وإيثار ، ومراقبة لله في عياله ، في يوم الشدة والمجاعة والحاجة. وهاتان الخطوتان : فك الرقاب وإطعام الطعام كانتا من إحياءات البيئة الملحة ، وإن كانت لهما صفة العموم ، ومن ثم قدمها في الذكر . ثم عقب بالوثبة الكبرى الشاملة :

« ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالرحمة » ...

و«ثم» هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هي للتراخي المعنوي باعتبار هذه الخطوة هي الأشمل والأوسع نطاقاً والأعلى أفقاً . وإلا فما ينفع فك رقاب ولا إطعام طعام بلا إيمان . فالإيمان مفروض وقوعه قبل فك الرقاب وإطعام الطعام . وهو الذي يجعل للعمل الصالح وزناً في ميزان الله . لأنه يصله بمنهج ثابت مطرد . فلا يكون الخير فلتة عارضة ترضية لمزاج متقلب ، أو ابتغاء محمودة من البيئة أو مصلحة .

وكأنما قال : فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة .. وفوق ذلك كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة . فثم هنا لإفادة معنى الفضل والعلو .

والصبر هو العنصر الضروري للإيمان بصفة عامة ، ولاقتحام العقبة بصفة خاصة . والتواصي به يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته . درجة تماسك الجماعة المؤمنة ، وتواصيها على معنى الصبر ، وتعاونها على تكاليف الإيمان . فهي أعضاء متجاوبة الحس . تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه ، فيوصي بعضها بالصبر على العبء المشترك ، ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل ؛ ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم . وهذا أمر غير الصبر الفردي . وإن يكن قائماً على الصبر الفردي . وهو إحياء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة . وهو ألا يكون عنصر تخذيل بل عنصر تثبيت ، ولا يكون داعية هزيمة بل داعية اقتحام ؛ ولا يكون مثار جزع بل مهبط طمأنينة .

وكذلك التواصي بالرحمة . فهو أمر زائد على الرحمة . إنه إشاعة الشعور بواجب التراحم في صفوف الجماعة عن طريق التواصي به ، والتحاض عليه ، واتخاذها واجباً جماعياً فردياً في الوقت ذاته ، يتعارف عليه الجميع ، ويتعاون عليه الجميع .

فمعنى الجماعة قائم في هذا التوجيه . وهو المعنى الذي يبرزه القرآن كما تبرزه أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأهميته في تحقيق حقيقة هذا الدين . فهو دين جماعة ، ومنهج أمة ، مع وضوح التبعية الفردية والحساب الفردي فيه وضوحاً كاملاً ..

وأولئك الذين يقتحمون العقبة - كما وصفها القرآن وحددها - « أولئك أصحاب الميمنة » .. وهم أصحاب

اليمن كما جاء في مواضع أخرى . أو أنهم أصحاب اليمن والحظ والسعادة .. وكلا المعنيين متصل في المفهوم الإيماني .

* * *

« والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة » .. ولم يحتج هنا إلى ذكر أوصاف أخرى لفريق المشأمة غير أن يقول : « والذين كفروا بآياتنا » .. لأن صفة الكفر تنهي الموقف . فلا حسنة مع الكفر . ولا سيئة إلا والكفر يتضمنها أو يغطي عليها . فلا ضرورة للقول بأنهم الذين لا يفكون الرقاب ولا يطعمون الطعام ، ثم هم الذين كفروا بآياتنا .. فإذا كفروا فما هو بنافعهم شيء من ذلك حتى لو فعلوه !

وهم أصحاب المشأمة . أي أصحاب الشمال أو هم أصحاب الشؤم والنحس .. وكلاهما كذلك قريب في المفهوم الإيماني . وهؤلاء هم الذين بقوا وراء العقبة لم يقتحموها ! « عليهم نار مؤصدة » .. أي مغلقة .. إما على المعنى القريب . أي أبوابها مغلقة عليهم وهم في العذاب محبوسون . وإما على لازم هذا المعنى القريب ؛ وهو أنهم لا يخرجون منها . فبحكم إغلاقها عليهم لا يمكن أن يزابلوها .. وهذان المعنيان متلازمان ..

* * *

هذه هي الحقائق الأساسية في حياة الكائن الإنساني ، وفي التصور الإيماني . تعرض في هذا الحيز الصغير . بهذه القوة وبهذا الوضوح .. وهذه خاصية التعبير القرآني الفريد ...

* * *

(٩١) سُورَةُ الشَّمْسِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءُ
وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَّاهَا ⑥ وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ
مَنْ زَكَّاهَا ⑨ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ⑩ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ⑪ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ⑫ فَقَالَ لَهُمْ
رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ⑬ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَفَسَدَلَاهَا ⑭ وَلَا يَخَافُ
عُقَابَهَا ⑮

هذه السورة القصيرة ذات القافية الواحدة ، والإيقاع الموسيقي الموحد ، تتضمن عدة لمسات وجدانية تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة والتي تظهر كأنها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمنها السورة . حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه ، وتبعته في مصيرها .. هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة .

كذلك تتضمن قصة ثمود ، وتكذيبها بإنذار رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها . وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها : كما جاء في الفقرة الأولى في السورة : « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » ..

* * *

« والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسما وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » ..
يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها . ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ؛ وأن يوجه إليها القلوب تملأها ، وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا

بها من دلالة ، حتى استحققت أن يقسم بها الجليل العظيم .

ومشاهد الكون وظواهره إطلاقاً بينها وبين القلب الإنساني لغة سرية ! متعارف عليها في صميم الفطرة وأغوار المشاعر . وبينها وبين الروح الإنساني تجاوب ومناجاة بغير نبرة ولا صوت ، وهي تنطق للقلب ، وتوحي للروح ، وتنبض بالحياة المأنوسة للكيان الإنساني الحي ، حيثما التقى بها وهو مقبل عليها ، متطلع عندها إلى الأنس والمناجاة والتجاوب والإيحاء .

ومن ثم يكثر القرآن من توجيه القلب إلى مشاهد الكون بشتى الأساليب ، في شتى المواضع . تارة بالتوجيهات المباشرة ، وتارة باللمسات الجانبية كهذا القسم بتلك الخلائق والمشاهد ، ووضعها إطاراً لما يليها من الحقائق . وفي هذا الجزء بالذات لاحظنا كثرة هذه التوجيهات واللمسات كثرة ظاهرة . فلا تكاد سورة واحدة تخلو من إيقاظ القلب لينطلق إلى هذا الكون ، يطلب عنده التجاوب والإيحاء . ويتلقى عنه - بلغة السر المتبادل - ما ينطق به من دلائل وما يبشّر من مناجاة !

وهنا نجد القسم الموحى بالشمس وضحاها .. بالشمس عامة وحين تضحي وترتفع عن الأفق بصفة خاصة . وهي أروق ما تكون في هذه الفترة وأحلى . في الشتاء يكون وقت الدفء المستحب الناعش . وفي الصيف يكون وقت الإشراق الرائق قبل وقدة الظهيرة وقبظها . فالشمس في الضحي في أروق أوقاتها وأصفها . وقد ورد أن المقصود بالضحي هو النهار كله ، ولكننا لا نرى ضرورة للعدول عن المعنى القريب للضحى . وهو ذو دلالة خاصة كما رأينا .

وبالقمر إذا تلاها .. إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي .. وبين القمر والقلب البشري ود قديم موغل في السرائر والأعماق ، غائر في شعاب الضمير ، يترقق ويستيقظ كلما التقى به القلب في أية حال . وللقمر همسات وإيحاءات للقلب ، وسبحات وتسيحات للخالق ، يكاد يسمعها القلب الشاعر في نور القمر المنساب .. وإن القلب ليشعر أحياناً أنه يسبح في فيض النور الغامر في الليلة القمراء ، ويغسل أدرانه ، ويرتوي ، ويعانق هذا النور الحبيب ويستروح فيه روح الله .

ويقسم بالنهار إذا جلّاه .. مما يوحي بأن المقصود بالضحي هو الفترة الخاصة لا كل النهار . والضمير في « جلّاه » .. الظاهر أن يعود إلى الشمس المذكورة في السياق .. ولكن الإيحاء القرآني يشي بأنه ضمير هذه البسيطة . وللأسلوب القرآني إيحاءات جانبية كهذه مضمرة في السياق لأنها معهودة في الحس البشري ، يستدعيها التعبير استدعاء خفياً . فالنهار يجلي البسيطة ويكشفها . وللنهار في حياة الإنسان آثاره التي يعلمها . وقد ينسى الإنسان بطول التكرار جمال النهار وأثره . فهذه اللمسة السريعة في مثل هذا السياق توقظه وتبعثه للتأمل في هذه الظاهرة الكبرى .

ومثله : « والليل إذا يغشاها » .. والتغشية هي مقابل التجلية . والليل غشاء يضم كل شيء ويخفيه . وهو مشهد له في النفس وقع . وله في حياة الإنسان أثر كالنهار سواء .

ثم يقسم بالسما وبناها : « والسما وما بناها » .. « وما » هنا مصدرية . ولفظ السما حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبة حيثما اتجهنا ، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها . فأما حقيقة السما فلا ندرها . وهذا الذي نراه فوقنا متأسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بشياته وتماسكه . أما كيف هو مبني ، وما الذي يمسك أجزائه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخراً .. فذلك ما لا ندره . وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل . ولا قرار لها ولا ثبات ..

إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله هي تمسك هذا البناء : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » .. وهذا هو العلم المستيقن الوحيد !

كذلك يقسم بالأرض وطحوها : « والأرض وما طحاها » .. والطحو كالدحو : البسط والتمهيد للحياة . وهي حقيقة قائمة تتوقف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحية . وهذه الخصائص والموافقات التي جعلتها يد الله في هذه الأرض هي التي سمحت بالحياة فيها وفق تقديره وتديره . وحسب الظاهر لنا أنه لو اختلت إحداها ما أمكن أن تنشأ الحياة ولا أن تسير في هذا الطريق الذي سارت فيه . . وطحو الأرض أو دحوها كما قال في الآية الأخرى : « والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها » . وهو أكبر هذه الخصائص والموافقات . ويد الله وحدها هي التي تولت هذا الأمر . فحين يذكر هنا بطحو الأرض ، فإنما يذكر بهذه اليد التي وراءه . ويلمس القلب البشري هذه اللمسة للتدبر والذكرى .

* * *

ثم تبيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم ، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره . وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق :

« ونفس وما سواها . فآلهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ..

وهذه الآيات الأربع ، بالإضافة إلى آية سورة البلد السابقة : « وهديناه النجدين » .. وآية سورة الإنسان : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » .. تمثل قاعدة النظرية النفسية للإسلام .. وهي مرتبطة ومكملة للآيات التي تشير إلى ازدواج طبيعة الإنسان ، كقوله تعالى في سورة « ص » : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .. كما أنها مرتبطة ومكملة للآيات التي تقرر التبعية الفردية : كقوله تعالى في سورة المدثر : « كل نفس بما كسبت رهينة » .. والآيات التي تقرر أن الله يرتب تصرفه بالإنسان على واقع هذا الإنسان ، كقوله تعالى في سورة الرعد : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ومن خلال هذه الآيات وأمثالها تبرز لنا نظرة الإسلام إلى الإنسان بكل معالمها ..

إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة ، مزدوج الاستعداد ، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر ، والهدى والضلال . فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر . كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء . وأن هذه القدرة كامنة في كيانه ، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة : « ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها » .. ويعبر عنها بالهداية تارة : « فهديناه النجدين » .. فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد .. والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك . ولكنها لا تخلقها خلقاً . لأنها مخلوقة فطرة ، وكائنة طبعاً ، وكامنة إلهاماً .

وهناك إلى جانب هذه الاستعدادات الفطرية الكامنة قوة واعية مدركة موجهة في ذات الإنسان . هي التي تناط بها التبعية . فنستخدم هذه القوة في تركية نفسه وتطهيرها وتنمية استعداد الخير فيها ، وتغليبها على استعداد

الشر .. فقد أفلح . ومن أظلم هذه القوة وخبأها وأضعفها فقد خاب : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ..

وهناك إذن تبعة مترتبة على منح الإنسان هذه القوة الواعية القادرة على الاختيار والتوجيه . توجيه الاستعدادات الفطرية القابلة للنمو في حقل الخير وفي حقل الشر سواء . فهي حرية تقابلها تبعة ، وقدرة يقابلها تكليف ، ومنحة يقابلها واجب ..

ورحمة من الله بالإنسان لم يدعه لاستعداد فطرته الإلهامي ، ولا للقوة الواعية المألكة للتصرف ، فأعانه بالرسالات التي تضع له الموازين الثابتة الدقيقة ، وتكشف له عن موحيات الإيمان ، ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله ، وتجلو عنه غواشي الهوى فيبصر الحق في صورته الصحيحة .. وبذلك يتضح له الطريق وضوحاً كاشفاً لا غبش فيه ولا شبهة فتتصرف القوة الواعية حينئذ عن بصيرة وإدراك لحقيقة الاتجاه الذي تختاره وتسير فيه . وهذه في جملتها هي مشيئة الله بالإنسان . وكل ما يتم في دائرتها فهو محقق لمشيئة الله وقدره العام .

* * *

هذه النظرة المجملية إلى أقصى حد¹ تنبثق منها جملة حقائق ذات قيمة في التوجيه التربوي : فهي أولاً ترتفع بقيمة هذا الكائن الإنساني ، حين تجعله أهلاً لاحتلال تبعة اتجاهه ، وتمنحه حرية الاختيار (في إطار المشيئة الإلهية التي شاءت له هذه الحرية فيما يختار) فالحرية والتبعية يضعان هذا الكائن في مكان كريم ، ويقرران له في هذا الوجود منزلة عالية تليق بالخلقة التي نفخ الله فيها من روحه وسواها بيده ، وفضلها على كثير من العالمين .

وهي ثانياً تلقي على هذا الكائن تبعة مصيره ، وتجعل أمره بين يديه (في إطار المشيئة الكبرى كما أسلفنا) فتثير في حسه كل مشاعر اليقظة والتحرج والتقوى . وهو يعلم أن قدر الله فيه يتحقق من خلال تصرفه هو بنفسه : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. وهي تبعة ثقيلة لا يغفل صاحبها ولا يغفو !

وهي ثالثاً تشعر هذا الإنسان بالحاجة الدائمة للرجوع إلى الموازين الإلهية الثابتة ، ليظل على يقين أن هواه لم يخلعه ، ولم يضلله ، كي لا يقوده الهوى إلى المهلكة ، ولا يحق عليه قدر الله فيمن يجعل إلهه هواه . وبذلك يظل قريباً من الله ، يهتدي بهديه ، ويستضيء بالنور الذي أمد به في مآهات الطريق !

ومن ثم فلا نهاية لما يملك هذا الإنسان أن يصل إليه من تركية النفس وتطهيرها ، وهو يغتسل في نور الله الفائض ، ويتطهر في هذا العباب الذي يتدفق حوله من ينابيع الوجود ..

* * *

بعد ذلك يعرض نموذجاً من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يدسي نفسه ، فيحجبها عن الهدى ويدنسها . ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك :

« كذبت ثمود بطغواها . إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها . فكذبوه ففقروها . فقدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها . ولا يخاف عقباها » ..

وقد وردت قصة ثمود ونبيها صالح - عليه السلام - في مواضع شتى من القرآن . وسبق الحديث عنها في كل موضع . وأقربها ما جاء في هذا الجزء في سورة « الفجر » فيرجع إلى تفصيلات القصة هناك .

(١) يراجع بتوسع في نظرية الإسلام النفسية كتاب « الإنسان بين المادية والإسلام » لمحمد قطب .

فأما في هذا الموضع فهو يذكر أن ثمود بسبب من طغيانها كذبت نبيها ، فكان الطغيان وحده هو سبب التكذيب . وتمثل هذا الطغيان في انبعاث أشقاها . وهو الذي عقر الناقة . وهو أشدها شقاء وأكثرها تعاسة بما ارتكب من الإثم . وقد حذرهم رسول الله قبل الإقدام على الفعلة فقال لهم . احذروا أن تمسوا ناقة الله أو أن تمسوا الماء الذي جعل لها يوماً ولهم يوماً كما اشترط عليهم عند ما طلبوا منه آية فجعل الله هذه الناقة آية - ولا بد أنه كان لها شأن خاص لا نخوض في تفصيلاته ، لأن الله لم يقل لنا عنه شيئاً - فكذبوا النذير فعقروا الناقة . والذي عقروها هو هذا الأثقى . ولكنهم جميعاً حملوا التبعة وعُدوا أنهم عقروها ، لأنهم لم يضربوا على يده ، بل استحسنوا فعلته . وهذا مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في التكافل في التبعة الاجتماعية في الحياة الدنيا . لا يتعارض مع التبعة الفردية في الجزاء الأخروي حيث لا تزر وازرة وزر أخرى . على أنه من الوزر إهمال التناصح والتكافل والحض على البر والأخذ على يد البغي والشر .

عندئذ تتحرك يد القدرة لتبطش البطشة الكبرى : « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها » .. والدمدمة الغضب وما يتبعه من تنكيل . واللفظ ذاته .. « دمددم » يوحي بما وراءه ، ويصور معناه بجرسه ، ويكاد يرسم مشهداً مروعاً مخيفاً ! وقد سوى الله أرضهم عاليها بسافلها ، وهو المشهد الذي يرسم بعد الدمار العنيف الشديد ..

« ولا يخاف عقباها » .. سبحانه وتعالى .. ومن ذا يخاف ؟ وماذا يخاف ؟ وأنى يخاف ؟ إنما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه . فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل ، يبلغ غاية البطش حين يبطش . وكذلك بطش الله كان : إن بطش ربك لشديد . فهو إيقاع يراد إبحاؤه وظله في النفوس ..

* * *

وهكذا ترتبط حقيقة النفس البشرية بحقائق هذا الوجود الكبيرة ، ومشاهده الثابتة ، كما ترتبط بهذه وتلك سنة الله في أخذ المكذبين والطغاة ، في حدود التقدير الحكيم الذي يجعل لكل شيء أجلاً ، ولكل حادث موعداً ، ولكل أمر غاية ، ولكل قدر حكمة ، وهو رب النفس والكون والقدر جميعاً ..

* * *

(٩٢) سُورَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا إِحْدَى وَعَشْرُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ① وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ② وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ③ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ④ فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى ⑤ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ⑥ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑦ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ⑧ وَكَذَّبَ
بِالْحُسْنَى ⑨ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ⑩ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ⑪
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ⑫ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ⑬ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ⑭ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا
الْأَشْقَى ⑮ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑯ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ⑰ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ⑱ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ
مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ⑲ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑳ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ㉑

في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة متنوعة لمظاهر : « إن سعيكم لشتى » . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى .. وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة : « فأندرتكم نارا تلظى . لا يصلها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى .. » .
لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين ، وذات اتجاهين .. كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء : « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلّى » .. « وما خلق الذكر والأنثى » . وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني ^١ .

* * *

« والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلّى .. وما خلق الذكر والأنثى » ...

(١) يراجع بتوسع فصل : التناسق الفني في كتاب : التصوير الفني في القرآن . « دار الشروق » .

يقسم الله - سبحانه - بهاتين الآيتين : الليل والنهار . مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد . «والليل إذا يغشى» .. «والنهار إذا تجلى» .. الليل حين يغشى البسيطة ، ويغمرها ويخفيها . والنهار حين يتجلى ويظهر ، فيظهر في تجليه كل شيء ويسفر . وهما آتان متقابلان في دورة الفلك ، ومتقابلان في الصورة ، ومتقابلان في الخصائص ، ومتقابلان في الآثار .. كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين : «وما خلق الذكر والأنثى» .. تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعاً .

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إحياء للقلب البشري ؛ ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما . والنفس تتأثر تأثراً تلقائياً بتقلب الليل والنهار . الليل إذا يغشى ويعم ، والنهار إذا تجلى وأسفر . ولهذا القلب حديث وإحياء . حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار ، وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئاً . وإحياء بما وراء هذا القلب من قدرة تدير الآونة في الكون كما تدار العجلة اليسيرة ! وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبداً على حال .

ودلالتهم عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يداً أخرى تدير هذا الفلك ، وتبدل الليل والنهار . بهذا الانظام وهذا الاطراد وهذه الدقة . وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضاً . ولا يتركهم سدى ، كما أنه لا يخلقهم عبثاً .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة ، وأن يحولوا الأنظار عنها ، فإن القلب البشري سيظل موصولاً بهذا الكون ، يتلقى إيقاعاته ، وينظر تقلباته ، ويدرك تلقائياً كما يدرك بعد التدبر والتفكر ، أن هنالك مدبراً لا محيد من الشعور به ، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهلل ، ومن وراء الجحود والنكران ! وكذلك خلقة الذكر والأنثى .. إنها في الإنسان والثدييات الحيوانية نطفة تستقر في رحم . وخلية تتحد ببويضة . ففهم هذا الاختلاف في نهاية المطاف ؟ ما الذي يقول لهذه : كوني ذكراً ، ويقول لهذه : كوني أنثى ؟ .. إن كشف العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكراً ، وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئاً .. فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ؟ وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكراً ، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها ، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ؟

مصادفة ؟ ! إن للمصادفة كذلك قانوناً يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة .. فلا يبقى إلا أن هنالك مدبراً يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة . فلا مجال للمصادفة ، ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلاً .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات . فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات .. قاعدة واحدة في الخلق لا تتخلف . لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق سبحانه الذي ليس كمثله شيء ..

هذه بعض إحياءات تلك المشاهد الكونية ، وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله - سبحانه - بها ، لعظيم دلالتها وعميق إيقاعها . والتي يجعلها السياق القرآني إطاراً لحقيقة العمل والجراء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى ..

* * *

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة في الكون وفي الناس ، على أن سعي الناس مختلف وطرقهم مختلفة ، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ؛ فليس الخير كالشر ، وليس الهدى كالضلال ، وليس الصلاح كالفساد ،

وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى ، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى . وأن لكل طريقاً ، ولكل مصيراً ، ولكل جزاء وفاقاً :

« إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني عنه ماله إذا تردى » ..

إن سعيكم لشتى .. مختلف في حقيقته . مختلف في بواعثه . مختلف في اتجاهه . مختلف في نتائجه .. والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم ، وتختلف مشاربهم ، وتختلف تصوراتهم ، وتختلف اهتماماتهم ، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص .

هذه حقيقة . ولكن هناك حقيقة أخرى . حقيقة إجمالية تضم أشنات البشر جميعاً . وتضم هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها في حزمتين اثنتين . وفي صفين متقابلين . تحت رايتين عامتين : « من أعطى واتقى وصدق بالحسنى » .. و « من بخل واستغنى وكذب بالحسنى » ..

من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعذابه . وصدق بهذه العقيدة التي إذا قيل « الحسنی » كانت اسماً لها وعلماً عليها .

ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهواه . وكذب بهذه الحسنی .. هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس ، وشتات السعي ، وشتات المناهج ، وشتات الغايات . ولكل منهما في هذه الحياة طريق .. ولكل منهما في طريقه توفيق !

« فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى .. فسنيسره لليسرى » ..

والذي يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها . عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه - سبحانه - على نفسه بإرادته ومشيئته . والذي بدونه لا يكون شيء ، ولا يقدر الإنسان على شيء .

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل .. وصل في يسر وفي رفق وفي هودة .. وصل وهو بعد في هذه الأرض . وعاش في يسر . فيفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله . اليسر في خطوه . واليسر في طريقه . واليسر في تناوله للأمور كلها . والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها . وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها . حيث تسلك صاحبها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وعد ربه له : « ونيسرك لليسرى » ..

« وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى .. فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله إذا تردى » ..

والذي يبخل بنفسه وماله ، ويستغنى عن ربه وهواه ، ويكذب بدعوته ودينه .. يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد . ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء ، فييسره للعسرى ! ويوفقه إلى كل وعورة ! ويحرمه كل تيسير ! ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجاً ، ينحرف به عن طريق الرشاد . ويصعد به في طريق الشقاوة . وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح . وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله ، وتأنى به عن رضاه .. فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به ، والذي استغنى به كذلك عن الله وهواه .. « وما يغني عنه ماله إذا تردى » .. والتيسير للشر والمعصية من

التيسير للعسرى، وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا .. وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها هي العسرى ! .
هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة . وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان .
وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان . وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! فيسير الله له طريقه : إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى .

فأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق . ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى ، ومن يسره للعسرى . وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق ، كما أنه واقع وحتم . فقد بين الله للناس الهدى ، وأنذرهم ناراً تلظى :

« إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » ..

لقد كتب الله على نفسه - فضلاً منه بعباده ورحمة - أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيمهم . وأن يبين لهم كذلك بالرسول والرسالات والآيات ، فلا تكون هناك حجة لأحد ، ولا يكون هناك ظلم لأحد : « إن علينا للهدى » ..
واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بالناس ، فلا يجدون من دونها موئلاً : « وإن لنا للآخرة والأولى » .. فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيداً ؟!

وتفريعاً على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد ، وأن له الآخرة والأولى داري الجزاء والعمل . تفريعاً على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم : « فأنذرتكم ناراً تلظى » .. وتتسعر .. هذه النار المتسعة « لا يصلاها إلا الأشقى » .. أشقى العباد جميعاً . وهل بعد الصلي في النار شقوة ؟ ثم يبين من هو الأشقى . إنه : « الذي كذب وتولى » .. كذب بالدعوة وتولى عنها . تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغباً .

« وسيجنبها الأتقى » .. وهو الأسعد في مقابل الأشقى .. ثم يبين من هو الأتقى : « الذي يؤتي ماله يتزكى » .. الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه ، لا ليرائي به ويستعلي . ينفقه تطوعاً لا رداً لجميل أحد ، ولا طلباً لشكران أحد ، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصاً .. ربه الأعلى ..

« وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » ..

ثم ماذا ؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى ، الذي يؤتي ماله تطهراً ، وابتغاء وجه ربه الأعلى ؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب . ومفاجئ . وعلى غير المؤلف .
« ولسوف يرضى » ..

إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى . إنه الرضى يغمر روحه . إنه الرضى يفيض على جوارحه . إنه الرضى يشيع في كيانه . إنه الرضى يندي حياته ..

ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى !

« ولسوف يرضى » .. يرضى بدينه . ويرضى بربه . ويرضى بقدره . ويرضى بنصيبه . ويرضى بما يجد من سراء وضراء . ومن غنى وفقر . ومن يسر وعسر . ومن رخاء وشدة . يرضى فلا يقلق ولا يضيق ولا يستعجل ولا يستقل العبد ، ولا يستبعد الغاية .. إن هذا الرضى جزاء - جزاء أكبر من كل جزاء - جزاء يستحقه من

سورة الليل

يبدل له نفسه وماله - من يعطي ليتزكى . ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .
إنه جزاء لا يمنحه إلا الله . وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له ، فلا ترى سواه أحداً .
« ولسوف يرضى » ..

يرضى وقد بذل الثمن . وقد أعطى ما أعطى ..
إنها مفاجأة في موضعها هذا . ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد
عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ..
« ولسوف يرضى » ...

* * *

(٩٣) سُورَةُ الضُّحَىٰ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا بَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ④ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَضَى ⑤ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَحَافَى ⑥ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ⑦ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ⑧
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ⑨ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⑩ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ⑪

هذه السورة بموضوعها ، وتعبيرها ، ومشاهدها ، وظلالها وإيقاعها ، لمسة من حنان . ونسمة من رحمة .
وطائف من ود . ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع ، وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة
واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي - صلى الله عليه وسلم - كلها نجاء له من ربه ، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين .
كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود ، وألطاف من القربى ، وهدهدة للروح المتعب ، والخطر المقلق ،
والقلب الموجوع .

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبطأ عليه جبريل - عليه السلام -
فقال المشركون : ودع محمداً ربه ! فأنزل الله تعالى هذه السورة ..

والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله ، كانت هي زاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مشقة الطريق .
وسقياء في هجير الجحود . وروحه في لأواء التكذيب . وكان - صلى الله عليه وسلم - يحيا بها في هذه الهاجرة
المحرقة التي يعانها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانها في المكر والكيد والأذى المصبوب على
الدعوة ، وعلى الإيمان ، وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد ، وانحبس عنه ينبوع ، واستوحش قلبه من الحبيب . وبقي للهاجرة وحده .
بلا زاد . وبلا ري . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود . وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه ..
عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى
والطمأنينة واليقين ..

« ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » ..
 وما تركك ربك من قبل أبداً ، وما قلاك من قبل قط ، وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه ..
 « ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ » ..
 ألا تجد مصداق هذا في حياتك ؟ ألا تحس مسّ هذا في قلبك ؟ ألا ترى أثر هذا في واقعك ؟
 لا . لا .. « ما ودعك ربك وما قلى » .. وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبداً .. « وللآخرة خير لك من الأولى » ..
 وهناك ما هو أكثر وأوفى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » !
 ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه .. الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع .. وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة :

« والضحى . والليل إذا سجي » ..

« لقد أطلق التعبير جواً من الحنان اللطيف ، والرحمة الوديدة ، والرضى الشامل ، والشجى الشفيف :

« ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى » .. « ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ » .. ذلك الحنان . وتلك الرحمة . وذاك الرضى . وهذا الشجى : تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة ، الرقيق اللفظ ، ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير . الموسيقى الرتيبة الحركات ، الوثيدة الخطوات ، الرقيقة الأصداء ، الشجية الإيقاع .. فلما أراد إطاراً لهذا الحنان اللطيف ، ولهذه الرحمة الوديدة ، ولهذا الرضى الشامل ، ولهذا الشجى الشفيف ، جعل الإطار من الضحى الرائق ، ومن الليل الساجي . أصفى آئين من آونة الليل والنهار . وأشف آئين تسري فيهما التأملات . وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود . وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه ، وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء . وصوّرها في اللفظ المناسب . فالليل هو « الليل إذا سجي » ، لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه . الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو ، وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف ، والتأمل الوديع . كجو اليم والعيلة . ثم ينكشف ويجلي مع الضحى الرائق الصافي . فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار . ويتم التناسق والاتساق »^١ .

إن هذا الإبداع في كمال الجمال ليدل على الصنعة . صنعة الله التي لا تماثلها صنعة ، ولا يتلبس بها تقليد !

* * *

« والضحى . والليل إذا سجي . ما ودعك ربك . وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى ولسوف يعطيك ربك فترضى » ..

يقسم الله سبحانه - بهذين الآتين الرائقين الموحين . فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس . ويوحى إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي ، المتعاطف مع كل حي . فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود ، غير موحش ولا غريب فيه فريد .. وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنا يوحى الله لرسوله - صلى الله عليه وسلم - منذ مطلع السورة ، أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود ، وأنه من ثم غير مجفوف فيه ولا فريد !

وبعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر : « ما ودعك ربك وما قلى » .. ما تركك ربك ولا جفاك - كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيحاء قلبك وإفلاق خاطرك .. وهو « ربك » وأنت عبده المنسوب إليه ، المضاف إلى ربوبيته ، وهو راعيك وكافلك ..

وما غاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيراً مما يعطيك منها في الدنيا : « وللآخرة خير لك من الأولى » .. فهو الخير أولاً وأخيراً ..

وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك ، وإزاحة العقبات من طريقك ، وغلبة منهجك ، وظهور حقلك .. وهي الأمور التي كانت تشغل باله - صلى الله عليه وسلم - وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد .. والشتمات .. « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ..

* * *

ويمضي سياق السورة يذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق . ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به ، ومودته له ، وفيضه عليه ، ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإناس الإلهي . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع :

« ألم يجدك يتيماً فآوى ؟ ووجدك ضالاً فهدى ؟ ووجدك عائلاً فأغنى ؟ » ..

انظر في واقع حالك ، وماضي حياتك .. هل ودعك ربك وهل قلاك - حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ؟ - ألم تحط يتمك رعايته ؟ ألم تدرك حيرتك هدايته ؟ ألم يغمر فقرك عطاؤه ؟

لقد ولدت يتيماً فآواك إليه ، وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك ! ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة ، كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك (خديجة رضي الله عنها) عن أن تحس الفقر ، أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء !

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فلم تطمئن روحك إليها . ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً . لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا .. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك ، وبالمهج الذي يصلحك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى ، التي لا تعدلها منة ؛ وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ؛ ومن التعب الذي لا يعدله تعب ، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعانيه في هذه الفترة ، من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه !

* * *

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتيم ، وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة .. يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم ، وإلى كفاية كل سائل ، وإلى التحدث بنعمة الله الكبرى عليه ، وفي أولها : الهداية إلى هذا الدين :

« فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث » ..

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله ، وإلى إغناء السائل مع الفرق به والكرامة ، كانت - كما ذكرنا مراراً - من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبية ، التي لا ترعى

سورة الضحى

حق ضعيف ، غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل ، والتحرج والتقوى ، والوقوف عند حدود الله ، الذي يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفاً يذودون به عن هذه الحقوق .

وأما التحدث بنعمة الله - وبخاصة نعمة الهدى والإيمان - فهو صورة من صور الشكر للمنعم . يكملها البر بعباده ، وهو المظهر العملي للشكر ، والحديث، الصامت النافع الكريم ..

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى . وكأنها تكلمة لها . فيها ظل العطف الندي . وفيها روح المناجاة الحبيب . وفيها استحضار مظاهر العناية . واستعراض مواقع الرعاية . وفيها البشرى باليسر والفرج . وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق ..

* * *

« ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك ؟ ورفعنا لك ذكرك ؟ »
وهي توحى بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأمر من أمور هذه الدعوة التي كلفها ، ومن العقبات الوعرة في طريقها ؛ ومن الكيد والمكر المضروب حولها .. توحى بأن صدره - صلى الله عليه وسلم - كان مثقلاً بهموم هذه الدعوة الثقيلة ، وأنه كان يحس العبء فادحاً على كاهله . وأنه كان في حاجة إلى عون ومدد وزاد ورصيد ..

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة ، وهذا الحديث الودود !

« ألم نشرح لك صدرك ؟ » .. ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ؟ ونيسر لك أمرها ؟ . ونجعلها حبيبة لقلبك ، ونشرع لك طريقها ؟ ونزير لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة !

فتش في صدرك - ألا تجد فيه الروح والانشراح والإشراق والنور ؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء ، وقل : ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب ، واليسر مع كل عسر ، والرضى مع كل حرمان ؟
« ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك » .. ووضعنا عنك عبك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله .. وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان . وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب . وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهودة ولين .

ألا تجد ذلك في العبء الذي أنقض ظهرك ؟ ألا تجد عبثك خفيفاً بعد أن شرحنا لك صدرك ؟
« ورفعنا لك ذكرك » .. رفعناه في الملاء الأعلى ، ورفعناه في الأرض ، ورفعناه في هذا الوجود جميعاً ..
رفعناه فجعلنا اسمك مقروناً باسم الله كلما تحركت به الشفاه :
« لا إله إلا الله . محمد رسول الله » .. وليس بعد هذا رفع ، وليس وراء هذا منزلة . وهو المقام الذي تفرد به - صلى الله عليه وسلم - دون سائر العالمين ..
ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ ، حين قدر الله أن تمر القرون ، وتكر الأجيال ، وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الاسم الكريم ، مع الصلاة والتسليم ، والحب العميق العظيم .
ورفعنا لك ذكرك . وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود ..
فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟

* * *

ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار ، ويسري عنه ، ويؤنسه ، ويطمئنه ويطلع له على اليسر الذي لا لا يفارقه :
« فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » ..
إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه . وقد لازمه معك فعلاً . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك ، فخفف حملك ، الذي أنقض ظهرك . وكان اليسر مصاحباً للعسر ، يرفع إصره ، ويضع ثقله .
وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه : « فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا » .. وهذا التكرار يشي بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان في عسرة وضيق ومشقة ، اقتضت هذه الملاحظة ، وهذا التذكير ، وهذا الاستحضار لمظاهر العناية ، وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية ، وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد .. والأمر الذي يثقل على نفس محمد هكذا لا بد أنه كان أمراً عظيماً ..

* * *

ثم يحییء التوجيه الكريم لمواقع التيسير ، وأسباب الانشراح ، ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل :
« فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب » ..
إن مع العسر يسرا .. فخذ في أسباب اليسر والتيسير . فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض ، ومع شواغل الحياة .. إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد .. العبادة والتجرد والتطلع والتوجه .. « وإلى ربك فارغب » .. إلى ربك وحده خالياً من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم .. إنه لا بد من الزاد للطريق . وهنا الزاد . ولا بد من العدة للجهاد . وهنا العدة .. وهنا استجد يسرا مع كل عسر ، وفرجاً مع كل ضيق .. هذا هو الطريق !

* * *

وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى ، وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين : الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول - صلى الله عليه وسلم - من ربه الودود الرحيم . والشعور بالعطف على شخصه - صلى الله عليه وسلم - ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة

التي اقتضت ذلك الود الجميل .

إنها الدعوة . هذه الأمانة الثقيلة وهذا العبء الذي ينقض الظهر . وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهي ومهبطه ، ووصلة الفناء بالبقاء ، والعدم بالوجود !

* * *

(٩٥) سُورَةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا ثَمَانٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ
تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

الحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها ، وستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان ، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها . وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

ويقسم الله - سبحانه - على هذه الحقيقة بالتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء - هو الإطار الذي تعرض فيه تلك الحقيقة . وقد رأينا في السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التي تعرض فيه تناسقاً دقيقاً .

وطور سينين هو الطور الذي نودي موسى - عليه السلام - من جانبه . والبلد الأمين هو مكة بيت الله الحرام .. وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة .. فأما التين والزيتون فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا . وقد كثرت الأقوال المأثورة في التين والزيتون .. قيل : إن التين إشارة إلى طورينا بجوار دمشق . وقيل : هو إشارة إلى شجرة التين التي راح آدم وزوجه يخصفان من ورقها على سواتهما في الجنة التي كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا . وقيل : هو منبت التين في الجبل الذي استوت عليه سفينة نوح - عليه السلام .

وقيل في الزيتون : إنه إشارة إلى طورزيتا في بيت المقدس . وقيل : هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه . وقيل : هو إشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها نوح عليه السلام - من السفينة - لترتاد حالة الطوفان . فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض انكشفت وأنبئت !

وقيل : بل التين والزيتون هما هذان الأكلان اللذان نعرفهما بحقيقتيهما . وليس هناك رمز لشيء وراءهما ..

أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض ...

وشجرة الزيتون أشير إليها في القرآن في موضع آخر بجوار الطور : فقال : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للآكلين » .. كما ورد ذكر الزيتون : « وزيتوناً ونخلًا » .. فأما « التين » فذكره يرد في هذا الموضع لأول مرة وللمرة الوحيدة في القرآن كله .

ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشيء في هذا الأمر . وكل ما نملك أن نقوله - اعتماداً على نظائر هذا الإطار في السور القرآنية - : إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان . أو ذات علاقة بنشأة الإنسان في أحسن تقويم (وربما كان ذلك في الجنة التي بدأ فيها حياته) .. كي تلتئم هذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة في السورة ؛ ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعية في داخله . على طريقة القرآن ...

* * *

فأما الحقيقة الداخلية في السورة فهي هذه : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون » ..

ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم . والله - سبحانه - أحسن كل شيء خلقه . فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل .. فيه فضل عناية بهذا المخلوق .

وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق - على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد - لتشير إلى أن له شأنًا عند الله ، ووزناً في نظام هذا الوجود . وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجثائي البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم في تكوينه الروحي العجيب . والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية . فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها . إذ أنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني . فهو مهياً لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين . كما تشهد بذلك قصة المعراج .. حيث وقف جبريل - عليه السلام - عند مقام ، وارتفع محمد بن عبد الله - الإنسان - إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهياً - حين ينتكس - لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط : « ثم رددناه أسفل سافلين » .. حيث تصيح البهائم أرفع منه وأقوم ، لاستقامتها على فطرتها ، وإلهامها تسبيح ربها ، وأداء وظيفتها في الأرض على هدى . بينما هو المخلوق في أحسن تقويم ، يمحذ ربه ، ويرتكس مع هواه ، إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .. فطرة واستعداداً .. « ثم رددناه أسفل سافلين » .. حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه ، وبينه له ، وتركه ليختار أحد النجدين .

« إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .. فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ، ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح ، ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها ، حتى ينتهوا بها إلى حياة الكمال في دار الكمال . « فلهم أجر غير ممنون » دائم غير مقطوع .

فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين ، فيظلون ينحدرون بها في المنحدر ، حتى تستقر في الدرك الأسفل . هناك في جهنم ، حيث تهدر آدميتهم ، ويتمحسون للسفول !

فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء .. إما استقامة على الفطرة القويمة ، وتكميل لها بالإيمان ، ورفع لها بالعمل الصالح .. فهي واصله في النهاية إلى كماهاا المقدر في حياة النعيم .. وإما انحراف عن الفطرة القويمة ، واندفاع مع النكسة ، وانقطاع عن النفخة الإلهية .. فهي واصله في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم . ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان .. إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كماهاا . إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها . إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل ، وحين ينطفئ هذا النور ، فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين ، والانتهاى إلى إهدار الآدمية كلية ، حين يتمحض الطين في الكائن البشري ، فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء !

* * *

وفي ظل هذه الحقيقة ينادى « الإنسان » :

« فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » ..

فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟ وبعد إدراك قيمة الإيمان في حياة البشرية ؟ وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون ، ولا يهتدون بهذا النور ، ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟

« أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » .. أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو .. أليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟

والعدل واضح . والحكمة بارزة .. ومن ثم ورد في الحديث المرفوع عن أبي هريرة : « فإذا قرأ أحدكم » والتين والزيتون « فأتى آخرها : « أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ » .. فليقل .. بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » ..

* * *

(٩٦) سُورَةُ الْعَلَقِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا تِسْعٌ عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥
كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِبَطْغَى ٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تَطْعَمُهُ وَاجْجَدْ وَاقْتَرِبْ ١٩ ﴿٢٠﴾

مطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق . والروايات التي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر بن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك ، فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ، ثم قال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .. فرجع بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة ، فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ،

فقال : يا خديجة مالي ؟ واخبرها الخبر . وقال : « قد خشيت على نفسي » فقالت له : كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها . وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربي ، وكتب العبرانية من الإنجيل - ما شاء الله أن يكتب - وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخي ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما رأى . فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أو مخرجي هم ؟ » فقال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي ، وإن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي ... الخ » . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري .. وروى الطبري - بإسناده - عن عبد الله بن الزبير . قال :

« قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فجاءني - وأنا نائم - بنمط من ديباج فيه كتاب . فقال : اقرأ . فقلت : ما أقرأ . فغطني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إليّ بمثل ما صنع بي . قال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ... إلى قوله : علم الإنسان ما لم يعلم » قال : فقرأته . ثم انتهى ، ثم انصرف عني . وهبت من نومي ، وكأنا كتب في قلبي كتاباً . قال : ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون . كنت لا أطيق أن أنظر إليهما ، قال : قلت : إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون ! لا تحدث بها عني قريش أبداً ! لأعمدنّ إلى حائق من الجبل فلا طرحن نفسي منه فلا قتلنها فلا سترichen ! قال : فخرجت أريد ذلك . حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد . أنت رسول الله وأنا جبريل . قال فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوفقت أنظر إليه ، وشغلني ذلك عما أردت ، فأتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أقدم أمامي ، ولا أرجع ورائي ، حتى بعثت خديجة رسلها في طلي ، حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني . ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي ... » .. وقد رواه ابن إسحاق مطولاً عن وهب بن كيسان عن عبيد أيضاً ..

* * *

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذي طالما قرأناه في كتب السيرة وفي كتب التفسير ، ثم مررنا به وتركناه ، أو تلبثنا عنده قليلاً ثم جاوزناه !

إنه حادث ضخم . ضخم جداً . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته ، فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا !

إنه حادث ضخم بحقيقته . وضخم بدلالته . وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعاً .. وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل .

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة ؟

حقيقته أن الله جل جلاله ، العظيم الجبار القهار المتكبر ، مالك الملك كله ، قد تكرم - في عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان ، القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض . وكرّم هذه

الخلقية باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - بهذه الخليقة .

وهذه حقيقة كبيرة . كبيرة إلى غير حد . تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان - قدر طاقته - حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية . ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية . ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ؛ ويتدوق حلاوة هذا الشعور ؛ ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهاال .. وهو يتصور كلمات الله ، تتجاوب بها جنبات الوجود كله ، منزلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة ! وما دلالة هذا الحادث ؟

دلالتة - في جانب الله سبحانه - أنه ذو الفضل الواسع ، والرحمة السابغة ، الكريم الودود المنان . يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة ، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة . ودلالته - في جانب الإنسان - أن الله - سبحانه - قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها ، ولا يملك أن يشكرها . وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راعياً ساجداً .. هذه .. أن يذكره الله ، ويلتفت إليه ، ويصله به ، ويختار من جنسه رسولاً يوحى إليه بكلماته . وأن تصبح الأرض .. مسكنه .. مهبطاً لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهاال .

فأما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى . بدأت في تحويل خط التاريخ ، منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني .. منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصورات وقيمه وموازينه .. إنها ليست الأرض وليس الهوى .. إنما هي السماء والوحي الإلهي . ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة .. في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة . عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم . كبيره وصغيره . يحسون ويتحركون تحت عين الله . ويتوقعون أن تمتد يده - سبحانه - فتنتقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة . تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب .. وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن ينزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما في نفوسهم ، ويفصل في مشكلاتهم ، ويقول لهم : خذوا هذا ودعوا ذاك !

ولقد كانت فترة عجيبة حقاً . فترة الثلاثة والعشرين عاماً التالية ، التي استمرت فيها هذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملا الأعلى . فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها . وأحسوها . وشهدوا بدأها ونهايتها . وذاقوا حلاوة هذا الاتصال . وأحسوا يد الله تنقل خطاهم في الطريق . ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا .. وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض . مسافة في الضمير لا تعدلها مسافة في الكون الظاهر ، ولا يماثلها بعد بين الأجرام والعوالم ! المسافة بين التلقي من الأرض والتلقي من السماء . بين الاستمداد من الهوى والاستمداد من الوحي . بين الجاهلية والإسلام . بين البشرية والربانية ، وهي أبعد مما بين الأرض والسماء في عالم الأجرام !

وكانوا يعرفون مذاقها . ويدركون حلاوتها . ويشعرون بقيمتها ، ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى ، وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقاً .

عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - بعد وفاة رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - انطلق بنا إلى أم أيمن - رضي الله عنها - نزورها كما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يزورها . فلما أتيا إليها بكت . فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قالت : بلى ، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء . فهيجتهما على البكاء ، فجعلا يبكيان معها ... (أخرجه مسلم) ...
ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد ولد الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض ، واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى ^١ .

لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط ، وكما لم يتحول من بعد أيضاً . وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق . وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان ، ولا تطمسها الأحداث . وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة ، ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقة من اعتبارات الأرض جميعاً ، مع واقعيتها وملاءمتها للحياة الإنسانية . ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض ! وتبينت خطوطه ومعالمه . « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » .. لا غموض ولا إيهام . إنما هو الضلال عن علم ، والانحراف عن عمد ، والالتواء عن قصد !
إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة . الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد . والذي كان فرقاناً في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل . والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به ، وسجله الضمير الإنساني . وبقي أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها . وأن يذكر دائماً أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة في الزمان ...

* * *

ذلك شأن المقطع الأول من السورة . فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد . فهي تشير إلى مواقف وحوادث في السيرة لم تجيء إلا متأخرة ، بعد تكليف الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإبلاغ الدعوة ، والجهار بالعبادة ، وقيام المشركين بالمعارضة . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في السورة : « أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟ » ... الخ ولكن هناك تناسقاً كاملاً بين أجزاء السورة ، وتسلسلاً في ترتيب الحقائق التي تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم . يجعل من السورة كلها وحدة منسقة متماسكة ..

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ..

إنها السورة الأولى من هذا القرآن ، فهي تبدأ باسم الله . وتوجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أول ما توجه ، في أول لحظة من لحظات اتصاله بالملا الأعلى ، وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدعوة التي اختير لها .. توجهه إلى أن يقرأ باسم الله : « اقرأ باسم ربك » ..

وتبدأ من صفات الرب بالصفة التي بها الخلق والبدء : « الذي خلق » .

ثم تخصص : خلق الإنسان ومبدأه : « خلق الإنسان من علق » .. من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة

بالرحم . من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين . فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته . فن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذي يُعلم فيتعلم : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » ..

وإنها لتقلة بعيدة جداً بين المنشأ والمصير . ولكن الله قادر . ولكن الله كريم . ومن ثم كانت هذه النقلة التي تدير الرؤوس !

وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعلم .. تعلم الرب للإنسان « بالقلم » ... لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعلم أثراً في حياة الإنسان .. ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية . ولكن الله - سبحانه - كان يعلم قيمة القلم ، فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية . في أول سورة من سور القرآن الكريم .. هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتباً بالقلم ، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن . لولا أنه الوحي ، ولولا أنها الرسالة !

ثم تبرز مصدر التعلم .. إن مصدره هو الله . منه يستمد الإنسان كل ما علم ، وكل ما يعلم . وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود ، ومن أسرار هذه الحياة ، ومن أسرار نفسه . فهو من هناك . من ذلك المصدر الواحد ، الذي ليس هناك سواه .

وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالملا الأعلى ، بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة ..

كل أمر . كل حركة . كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه ، وإليه تصير .

والله هو الذي خلق . وهو الذي علم . فنه البدء والنشأة ، ومنه التعلم والمعرفة .. والإنسان يتعلم ما يتعلم ، ويعلم ما يعلم .. فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم .. « علم الإنسان ما لم يعلم » .. وهذه الحقيقة القرآنية الأولى ، التي تلقاها قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره ، وتصرف لسانه ، وتصرف عمله واتجاهه ، بعد ذلك طوال حياته . بوصفها قاعدة الإيمان الأولى .

قال الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه : « زاد المعاد في هدي خير العباد » يلخص هدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذكر الله :

« كان النبي صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق ذكراً لله عز وجل . بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والا . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكراً منه الله ، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعدته ووعدته ذكراً منه له ، وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتحميده وتسبيحه ذكراً منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكراً منه له . وسكوته وصمته ذكراً منه له بقلبه . فكان ذاكرةً لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائماً وقاعداً وعلى جنبه ، وفي مشيته وركوبه ، وسيره ونزوله ، وظعنه وإقامته .

« وكان إذا استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . وقالت عائشة كان إذا هب من الليل كبر عشراً ، وهلل عشراً ، ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشراً ، ثم يستفتح الصلاة . وقالت أيضاً : كان إذا استيقظ من الليل قال : لا إله إلا أنت سبحانك . اللهم أستغفرك

لذنبني وأسألك رحمتك . اللهم زدني علماً ، ولا ترغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب « ذكرها أبو داود » . وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال : اللهم اغفر لي ، أو دعاء آخر استجيب له . فإن توضأ وصلى قبلت صلاته ذكره البخاري » .

وقال ابن عباس عنه - صلى الله عليه وسلم - ليلة مبيتة عنده : إنه لما استيقظ رفع رأسه للسماء ، وقال العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران .. « إن في خلق السماوات والأرض ... الخ » ثم قال .. « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهي لا إله إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

« وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - كان إذا قام من الليل قال : اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . وربما قالت : كان يفتح صلاته بذلك . « وكان إذا أوتر ختم وتره بعد فراغه بقوله : سبحان الله القدوس (ثلاثاً) ويمد بالثالثة صوته .

« وكان إذا خرج من بيته يقول : بسم الله توكلت على الله ، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل ، أو يُجهل علي (حديث صحيح) .

« وقال - صلى الله عليه وسلم - من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » (حديث حسن) .

« وقال ابن عباس عنه - ليلة مبيتة عنده - : إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول : اللهم اجعل في قلبي نوراً ، واجعل في لساني نوراً ، واجعل في سمعي نوراً ، واجعل في بصري نوراً ، واجعل من خلقي نوراً ، ومن أمامي نوراً ، واجعل من فوقني نوراً ، واجعل من تحتي نوراً . اللهم أعظم لي نوراً » .

« وقال فضل بن مرزوق عن عطية العوفي ، عن أبي سعيد الخدري : قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وبحق ممشاي إليك ، فإني لم أخرج بطراً ولا أشراً ولا رياء ولا سمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته » .

وذكر أبو داود عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه كان إذا دخل المسجد قال أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ مني سائر اليوم » .

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبي - صلى الله عليه وسلم - وليقل : اللهم افتح لي أبواب رحمتك ، فإذا خرج فليقل : اللهم إني أسألك من فضلك » .. وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول : اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك .

فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم ، ثم يقول : اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي باب فضلك » .

« وكان إذا صلى الصبح جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل . وكان يقول إذا أصبح : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور . (حديث صحيح) . وكان يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم ، وشر ما بعده ؛ رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر . وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله .. الخ (ذكره مسلم) .

« وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه - مرني بكلمات أقولن إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء وليكه ومالكه . أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم . قال : قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك » (حديث صحيح) . ثم ذكر أحاديث كثيرة في هذا الباب » .

... « وكان - صلى الله عليه وسلم - إذا استجد ثوباً سماه باسمه عمامة أو قميصاً أو رداء . ثم يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت كسوتني ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له . (حديث صحيح) .

« ويذكر عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « الحمد لله الذي كفاني وآواني ، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني ، والحمد لله الذي منّ علي . أسألك أن تجبرني من النار » . « وثبت عنه في الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء : اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث » . « وكان إذا خرج من الخلاء قال : « غفرانك » ويذكر عنه أنه كان يقول : الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني (ذكره ابن ماجه) .

« وثبت عنه أنه وضع يده في الإناء الذي فيه الماء ، ثم قال للصحابة : توضأوا باسم الله . « ويذكر عنه أنه كان يقول « عند رؤية الهلال » : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربي وربك الله (قال الترمذي حديث حسن) .

« وكان إذا وضع يده في الطعام قال : باسم الله . ويأمر الآكل بالتسمية ويقول : إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل : باسم الله في أوله وآخره » (حديث صحيح) . وهكذا كانت حياته كلها - صلى الله عليه وسلم - بدقائقها متأثرة بهذا التوجيه الإلهي الذي تلقاه في اللحظة الأولى . وقام به تصوره الإيمان على قاعدته الأصيلة العريقة ..

* * *

ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة : حقيقة أن الله هو الذي خلق . وهو الذي علم . وهو الذي أكرم . أن يعرف الإنسان . ويشكر . ولكن الذي حدث كان غير هذا ، وهذا الانحراف هو الذي يتحدث عنه المقطع الثاني للسورة :

« كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى » ..

إن الذي أعطاه فأغناه هو الله . كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه وعلمه . ولكن الإنسان في عمومه - لا يستثنى إلا من يعصمه إيمانه - لا يشكر حين يُعطى فيستغنى ؛ ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته ، وهو المصدر الذي أعطاه خلقه وأعطاه علمه .. ثم أعطاه رزقه .. ثم هو يطغى ويفجر ، ويبغي ويتكبر ، من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر .

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغى الذي نسي نشأته وأبطره الغنى ، يجيء التعقيب بالتهديد الملفوف : « إن إلى ربك الرجعى » فأين يذهب هذا الذي طغى واستغنى ؟

وفي الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيماني . قاعدة الرجعة إلى الله . الرجعة إليه في كل شيء وفي كل أمر ، وفي كل نية ، وفي كل حركة ، فليس هناك مرجع سواه . إليه يرجع الصالح والطالح . والطائع والعاصي . والمحق والمبطل . والخير والشرير . والغني والفقير .. وإليه يرجع هذا الذي يطغى أن رآه استغنى . ألا إلى الله تصير الأمور .. ومنه النشأة وإليه المصير ..

وهكذا تجتمع في المقطعين أطراف التصور الإيماني .. الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم .. ثم .. الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك : « إن إلى ربك الرجعى » ..

* * *

ثم يمضي المقطع الثالث في السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان : صورة مستنكرة يعجب منها ، ويفظع وقوعها في أسلوب قرآني فريد .

« أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟ أرايت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ أرايت إن كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » .

والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير ، التي تتعذر مجاراتها في لغة الكتابة . ولا تؤدّى إلا في أسلوب الخطاب الحي . الذي يعبر باللمسات المتقطعة في خفة وسرعة !

« أرايت ؟ » أرايت هذا الأمر المستنكر ؟ أرايته يقع ؟ « أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟ » .

أرايت حين تضم شناعة إلى شناعة ؟ وتضاف بشاعة إلى بشاعة ؟ أرايت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته .. إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ ثم ينهاه من ينهاه . مع أنه على الهدى ، أمر بالتقوى ؟ .

أرايت إن أضاف إلى الفعل المستنكرة فعلة أخرى أشد نكراً ؟ « أرايت إن كذب وتولى ؟ » .

هنا يجيء التهديد الملفوف كما جاء في نهاية المقطع الماضي : « ألم يعلم بأن الله يرى ؟ » يرى تكذيبه وتولييه . ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى ، وهو على الهدى ، أمر بالتقوى . يرى . وللرؤية ما بعدها ! « ألم يعلم بأن الله يرى ! » .

* * *

وأمام مشهد الطغيان الذي يقف في وجه الدعوة وفي وجه الإيمان ، وفي وجه الطاعة ، يجيء التهديد الحاسم الرادع الأخير ، مكشوفاً في هذه المرة لا ملفوفاً : « كلا . لئن لم ينته لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية » .

إنه تهديد في إبانته . في اللفظ الشديد العنيف : « كلا . لئن لم ينته لنسفعن بالناصية » .

هكذا « لنسفن » بهذا اللفظ الشديد المصور بحرسه لمعناه . والسفع : الأخذ بعنف . والناصية : الجبهة . أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر . مقدم الرأس المتشامخ : إنها ناصية تستحق السفع والصرع : « ناصية كاذبة خاطئة » ! وإنها للحظة سفع وصرع . فقد يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه : « فليدع ناديه » أما نحن فإننا « سندع الزبانية » الشداد الغلاظ .. والمعركة إذن معروفة المصير ! وفي ضوء هذا المصير المتخيل الرعب .. تحتم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته ..

« كلا . لا تطعه ، واسجد ، واقرب . »

كلا ! لا تطع هذا الطاغية الذي ينهى عن الصلاة والدعوة . واسجد لربك واقرب منه بالطاعة والعبادة . ودع هذا الطاغية . الناهي . دعه للزبانية !

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة - عدا المقطع الأول منها - قد نزلت في أبي جهل إذ مر برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يصلي عند المقام . فقال (يا محمد . ألم أنك عن هذا ؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وانتهره ..) ولعلها هي التي أخذ فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخناقه وقال له : « أولى لك ثم أولى » فقال : يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً ، فأنزل الله : « فليدع ناديه ... » وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . ولكن دلالة السورة عامة في كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله . وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة ، ويتوعد على الطاعة ، ويختال بالقوة .. والتوجيه الرباني الأخير : « كلا ! لا تطعه واسجد واقرب » ..

* * *

وهكذا تتناسق مقاطع السورة كلها وتتكامل إيقاعاتها ...

* * *

(٩٧) سُورَةُ الْقَدْرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهاال . ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملا الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته ، وفي دلالاته ، وفي آثاره في حياة البشرية جميعاً . العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري : « إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ؟ » .. « ليلة القدر خير من ألف شهر » ..

والنصوص القرآنية التي تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتثير . بل هي تفيض بالنور الهادي الساري الرائق الودود . نور الله المشرق في قرآنه : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ونور الملائكة والروح وهم في غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملا الأعلى :

« تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر » .. ونور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقاً مع نور الوحي ونور الملائكة ، وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود : « سلام هي حتى مطلع الفجر » .

والليلة التي تتحدث عنها السورة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان : « إنا أنزلناه في ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » .. والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان ، كما ورد في سورة البقرة : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .. أي التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليبلغه إلى الناس . وفي رواية ابن إسحاق أن أول الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتحنث في غار حراء .

وقد ورد في تعيين هذه الليلة آثار كثيرة . بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان . وبعضها يعين الليلة

الواحدة والعشرين . وبعضها يعينها ليلة من الليالي العشر الأخيرة . وبعضها يطلقها في رمضان كله . فهي ليلة من ليالي رمضان على كل حال في أرجح الآثار .

* * *

واسمها : « ليلة القدر » .. قد يكون معناه التقدير والتدبير . وقد يكون معناه القيمة والمقام . وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم . حدث القرآن والوحي والرسالة .. وليس أعظم منه ولا أقوم في أحداث هذا الوجود . وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير في حياة العبيد . وهي خير من ألف شهر . والعدد لا يفيد التحديد . في مثل هذه المواضع من القرآن . إنما هو يفيد التأكيد . واللييلة خير من آلاف الشهور في حياة البشر . فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك في الحياة بعض ما تركته هذه الليلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات .

واللييلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشري : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ » وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التي شاعت حول هذه اللييلة في أوهام العامة . فهي ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن . وإفاضة هذا النور على الوجود كله ، وإسباغ السلام الذي فاض من روح الله على الضمير البشري والحياة الإنسانية ، وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام في الأرض والضمير^١ . وتنزيل الملائكة وجبريل - عليه السلام - خاصة ، بإذن ربهم ، ومعهم هذا القرآن - باعتبار جنسه الذي نزل في هذه اللييلة - وانتشارهم فيما بين السماء والأرض في هذا المهرجان الكوني ، الذي تصوره كلمات السورة تصويراً عجيباً ..

* * *

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك اللييلة المجيدة السعيدة ، ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذي شهدته الأرض في هذه اللييلة ، نتدبر حقيقة الأمر الذي تم فيها ، ونتملى آثاره المتطاولة في مراحل الزمان ، وفي واقع الأرض ، وفي تصورات القلوب والعقول .. فإننا نرى أمراً عظيماً حقاً . وندرك طرفاً من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك اللييلة : « وما أدراك ما ليلة القدر ؟ » ..

لقد فرق فيها من كل أمر حكيم . وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين . وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد . أقدار أُم ودول وشعوب . بل أكثر وأعظم .. أقدار حقائق وأوضاع وقلوب ! ولقد تغفل البشرية - لجهاالتها ونكد طالعتها - عن قدر ليلة القدر . وعن حقيقة ذلك الحدث ، وعظمة هذا الأمر . وهي منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها ، وخسرت السعادة والسلام الحقيقي - سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع^٢ - الذي وهبها إياه الإسلام . ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب كل شيء من المادة والحضارة والعمارة . فهي شقية ، شقية على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش !

لقد انطفأ النور الجميل الذي أشرق في روحها مرة ، وانطمست الفرحة الوضيئة التي رفت بها وانطلقت إلى الملاء الأعلى . وغاب السلام الذي فاض على الأرواح والقلوب . فلم يعوضها شيء عن فرحة الروح ونور السماء

(١) يراجع بتوسع كتاب : السلام العالمي والإسلام .

(٢) فصول في كتاب : السلام العالمي والإسلام .

وطلاقة الرفرفة إلى عليين ..

* * *

ونحن - المؤمنون - مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل هذه الذكرى : وقد جعل لنا نبينا - صلى الله عليه وسلم - سبيلاً هيناً ليناً لاستحياء هذه الذكرى في أرواحنا لتظل موصولة بها أبداً ، موصولة كذلك بالحدث الكوني الذي كان فيها . وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام ، ومن تحريرها والتطلع إليها في الليالي العشر الأخيرة من رمضان .. في الصحيحين : « تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان » .. وفي الصحيحين كذلك : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » ..

والإسلام ليس شكليات ظاهرية . ومن ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في القيام في هذه الليلة أن يكون « إيماناً واحتساباً » .. وذلك ليكون هذا القيام استحياءاً للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة « إيماناً » وليكون تجرداً لله وخلوصاً « واحتساباً » .. ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن .

والمنهج الإسلامي في التربية يربط بين العبادة وحقائق العقيدة في الضمير ، ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هذه الحقائق وإيضاحها وتثبيتها في صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفكير .

وقد ثبت أن هذا المنهج وحده هو أصلح المناهج لإحياء هذه الحقائق ومنحها الحركة في عالم الضمير وعالم السلوك . وأن الإدراك النظري وحده لهذه الحقائق بدون مساندة العبادة ، وعن غير طريقها ، لا يقر هذه الحقائق ، ولا يحركها حركة دافعة في حياة الفرد ولا في حياة الجماعة ..

وهذا الربط بين ذكرى ليلة القدر وبين القيام فيها إيماناً واحتساباً ، هو طرف من هذا المنهج الإسلامي الناجح القويم .

* * *

(٩٨) سُورَةُ الْبَيِّنَةِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

هذه السورة معدودة في المصحف وفي أكثر الروايات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيها . ومع رجحان مدنيها من ناحية الرواية ، ومن ناحية أسلوب التعبير التقريري ، فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده . وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة . فقد ورد ذكر أهل الكتاب في بعض السور المقطوع بمكيها . وكان في مكة بعض أهل الكتاب الذين آمنوا ، وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في مكة وآمنوا كما هو معروف . وورد ذكر الزكاة كذلك في سور مكية .

* * *

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريرى هو الذي يرجح أنها مدنية إلى جانب الروايات القائلة بهذا .

والحقيقة الأولى هي أن بعثة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل

الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد اتبوا إليه من الضلال والاختلاف ، وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة » ..

والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه ، إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة : « وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » .

والحقيقة الثالثة : أن الدين في أصله واحد ، وقواعده بسيطة واضحة ، لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » .

والحقيقة الرابعة : أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافاً بيناً :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه » ..

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة . وفي التصور الإيماني كذلك . نفصلها فيما يلي :

* * *

« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة » ..

لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة . كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة ، ومنهج جديد ، وحركة جديدة . وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعاً سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها ، أو المشركون في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة ، وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » .. مطهرة من الشرك والكفر « فيها كتب قيمة » .. والكتاب يطلق على الموضوع ، كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة ، وكتاب القدر ، وكتاب القيامة ، وهذه الصحف المطهرة - وهي هذا القرآن - فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة ..

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها ، وجاء هذا الرسول في وقته ، وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثاً لا تصلح الأرض إلا به . فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم « السيد أبو الحسن علي الحسيني الندوي » بعنوان : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .. وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه :

جاء في الفصل الأول من الباب الأول :

« كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . فكانت الإنسانية متدلية منحدره منذ قرون . وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردى وقد زادت الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها . وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده ، وقوة التمييز بين الخير والشر ، والحسن والقيح . وقد خفت دعوة الأنبياء من زمن ، والمصاييح التي أوقدوها قد انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم ، أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب ، فضلاً عن البيوت ، فضلاً عن البلاد . وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة ، ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فراراً بدينهم من الفتن ، وضناً بأنفسهم ، أو رغبة إلى الدعة والسكون ، وفراراً من تكاليف الحياة وجدها ، أو فشلاً في كفاح الدين والسياسة ، والروح والمادة : ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلع مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم ، وأكل أموال الناس بالباطل ... »

« أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعين : ولعبة المجرمين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ؛ وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها لا تحمّل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، وأفلس في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتاً من الحكم البشري » ..

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية . وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى ..

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : « وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله ^١ » .. « وقالت اليهود لبست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ^٢ » ..

وقوله عن اليهود : « وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء ^٣ » .

وقوله عن النصارى : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم ^٤ » .. « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ^٥ » .

وقوله عن المشركين : « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم : ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين » .. وغيرها كثير ..

وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشراب الذي عم أرجاء الأرض ... « وبالجمله لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج ، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ، ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ، ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء ^٦ » . ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة . وما كان

(٢) سورة البقرة : ١١٣

(٤) المائدة ٧٢

(٦) عن كتاب : ماذا خسر العالم ...

(١) سورة التوبة : ٣٠

(٣) المائدة : ٦٤

(٥) المائدة : ٧٣

الذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين ...

* * *

ولما قرر هذه الحقيقة في مطلع السورة عاذ يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد . إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم :

« وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة » ..

وكان اول التفرق والاختلاف ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى - عليه السلام - فقد انقسموا شعباً وأحزاباً . مع أن رسولهم هو موسى - عليه السلام - وكتابتهم هو التوراة . فكانوا طوائف خمسة رئيسية هي طوائف الصدوقيين ، والفريسيين ، والآسين ، والغلاة ، والسامريين .. ولكل طائفة سمة واتجاه . ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى ، مع أن المسيح - عليه السلام - هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم ، وقد جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة ، ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الدميم . وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان .

« وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم (أي اليهود) إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم ، وشوه سمعتهم . ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس (٦١٠ م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية ، فأرسل الأمبراطور قائده « ابنوسوس » ليقضي على ثورتهم ، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة ، فقتل الناس جميعاً قتلاً بالسيف ، وشنقاً ، وإغراقاً ، وإحراقاً ، وتعذيباً ، ورمياً للوحوش الكاسرة ... وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة ، قال المقرئ في كتاب الخطط : « وفي أيام (فوقا) ملك الروم ، بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فحربوا كنائس القدس ، وفلسطين وعامة بلاد الشام ، وقتلوا النصارى بأجمعهم ، وأتوا إلى مصر في طلبهم ، وقتلوا منهم أمة كبيرة ، وسبوا منهم سبياً لا يدخل تحت حصر . وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ؛ وأقبلوا نحو القدس من طبرية ، وجبل الجليل ، وقرية الناصرة ومدينة صور ، وبلاد القدس ؛ فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم ، وخربوا لهم كنيسة بالقدس ، وأحرقوا أمانهم ، وأخذوا قطعة من عود الصليب ، وأسروا بطرك القدس وكثيراً من أصحابه . إلى أن قال - بعد أن ذكر فتح القدس :

« فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور ، وأرسلوا بقيتهم في بلادهم ، وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم ، فكانت بينهم حرب ، اجتمع فيها من اليهود نحو ٢٠ ألفاً وهدموا كنائس النصارى خارج صور . فقوّس النصارى عليهم وكاثروهم فانهمز اليهود هزيمة قبيحة ، وقتل منهم كثير . وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية ، وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه ، ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ، ويجدد ما خربه الفرس ، فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك ، فأمنهم وحلف لهم . ثم دخل القدس ، وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها خراباً ، فساء ذلك ، وتوجع لهم ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس ، وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياماً كبيراً في قتلهم عن آخرهم ، وحشوا هرقل على الواقعة بهم ، وحسنوا له ذلك . فاحتج

عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفناه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم ، فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم ، وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلتزموا النصراني بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ! فإل إلى قولهم وأوقع باليهود وقبعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها ، حتى لم يبق في ممالك الروم في مصر والشام إلا من فر واختفى ..

« وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان : اليهود والنصارى ، من القسوة والضاوة بالدم الإنساني ، وتحين الفرص للنكاية في العدو ، وعدم مراعاة الحدود في ذلك »^١ .

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم ، مع أن كتابهم واحد ونبيم واحد . تفرقوا واختلّفوا أولاً في العقيدة . ثم تفرقوا واختلّفوا طوائف متعادية متنافرة متقاتلة . وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح - عليه السلام - وعما إذا كانت لاهوتية أو ناسوتية . وطبيعة أمه مريم . وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه « الله » - في زعمهم - وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم » .. « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة » « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي ألحين من دون الله ؟ »^٢ .

« وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية ، وبين نصارى مصر . أو بين « الملكانية » ، « المنوفسية » بلفظ أصح . فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح ، وكان المنوفسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الإلاهية . التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر عميق لا قرار له . وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع ، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين ، أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى .. كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء .

« وحاول الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١) بعد انتصاره على الفرس (سنة ٦٣٨) جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها ، وأراد التوفيق ، وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح ، وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان ، ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد . وفي صدر عام ٦٣١ حصل وفاق على ذلك ، وصار المذهب المنوثلبي مذهباً رسمياً للدولة ، ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة ، متوسلاً إلى ذلك بكل الوسائل . ولكن القبط نابذوه العداء ، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ! وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة . وحاول الامبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة . وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ القول فيه ، ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته . وجعل ذلك رسالة رسمية ، ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي . ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر ، ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر في مصر استمر عشر سنين ، ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود ، فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقاً ، وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء

(١) عن كتاب : ماذا خسر العالم بالتحطاط المسلمين ص ٩ - ١١ طبعة أولى .

(٢) سورة المائدة : آية ١١٦ .

حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر . إلى غير ذلك من الفظائع ^١ .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعاً « من بعد ما جاءتهم البينة » .. فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ؛ إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف .

* * *

على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة :

« وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق :

عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة : « وذلك دين القيمة » .. عقيدة خالصة في الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال في سبيل الله ، وهو الزكاة .. فمن حقق هذه القواعد ، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب ، وكما هو في دين الله على الإطلاق . دين واحد . وعقيدة واحدة ، تتوالى بها الرسالات ، ويتوافى عليها الرسل .. دين لا غموض فيه ولا تعقيد . وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف ، وهي بهذه النصاعة ، وبهذه البساطة ، وبهذا التيسير . فأين هذا من تلك التصورات المعقدة ، وذلك الجدل الكثير ؟

* * *

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رسلهم ؛ ثم جاءتهم البينة ، حية في صورة رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ؛ ويقدم لهم عقيدة ، واضحة بسيطة ميسرة ، فقد تبين الطريق . ووضح مصير اللين يكفرون والذين يؤمنون :

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً . رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشي ربه » ..

إن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو الرسول الأخير ؛ وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة . وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح . وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة ، لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة ، فقد تحددت الفرصة الأخيرة ، فإما إيمان فنجاة ، وإما كفر فهلاك . ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له ، وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

« إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية » حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال . مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان ، بهذه الرسالة الأخيرة ، وبهذا الرسول الأخير . لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح ، المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية » .

حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال . ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال . إنه الإيمان . لا مجرد مولد في أرض تدعى الإسلام ، أو في بيت يقول : إنه من المسلمين . ولا بمجرد كلمات يتشدد بها الإنسان ! إنه الإيمان الذي بنشئ آثاره في واقع الحياة : « وعملوا الصالحات » . وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه ! والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل . وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض ، والحكم بين الناس بما شرع الله . فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

« جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً » ..

جنات للإقامة الدائمة في نعيمها الذي يمثله هنا الأمن من الفناء والقوات . والطمأنينة من القلق الذي يعكر وينغص كل طبيبات الأرض .. كما يمثله جريان الأنهار من تحتها ، وهو يلقي ظلال النداء والحياة والجمال ! ثم يرتقي السياق درجة أو درجات في تصوير هذا النعيم المقيم :

« رضي الله عنهم ورضوا عنه » ..

هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم .. وهذا الرضا في نفوسهم عن ربهم . الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن إنعامه عليهم . والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق ..

إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته .. « رضي الله عنهم ورضوا عنه » حيث يعجز أي تعبير آخر عن إلقاء مثل هذه الظلال !

« ذلك لمن خشي ربه » ..

وذلك هو التوكيد الأخير . التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله ، ونوع هذه الصلة ، والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح ، وتنهي عن كل انحراف .. الشعور الذي يزيح الحواجز ، ويرفع الأستار ، ويقف القلب عارياً أمام الواحد القهار . والذي يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره . فالذي يخشى ربه حقاً لا يملك أن يخطر في قلبه ظلاً لغيره من خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه ، فهو أغنى الشركاء عن الشرك . فإما عمل خالص له ، وإلا لم يقبله .

* * *

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هي مقررات هذه السورة الصغيرة ، يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص ، الذي يتجلى بصفة خاصة في هذه السور القصار ..

* * *

(٩٩) سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَعْيُنُهَا ۚ إِنَّ رَبَّنَا وَحَىٰ لَهَا ۚ يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرَوًا أَعْمَلَهُمْ ۚ فَنَنْعَمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۚ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۚ

هذه السورة مدنية في المصحف وفي بعض الروايات ؛ ومكية في بعض الروايات الأخرى . ونحن نرجح الروايات التي تقول بأنها مكية . وأسلوبها التعبيري وموضوعها يؤيدان هذا . إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي . وصيغة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ؛ فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار ! وهذا هو طابع الجزء كله ، يتمثل في هذه السورة تمثلاً قوياً ...

* * *

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافاً ، وتزلزل زلزالا ، وتنفض ما في جوفها نفصاً ، وتخرج ما ينقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلاً . وكأنها تتخفف من هذه الأثقال ، التي حملتها طويلاً ! وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ؛ ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون ، والأرض من تحتهم تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تشبث به من هذه الأرض ، وتحسبه ثابتاً باقياً ؛ وهو الإحياء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن ، ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة !

ويزيد هذا الأثر وضوحاً بتصوير « الإنسان » حيال المشهد المعروض ، ورسم انفعالاته وهو يشهده :

« وقال الإنسان : ما لها ؟ » ..

وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوع ، الذي يرى ما لم يعهد ، ويواجه ما لا يدرك ، ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت . ما لها ؟ ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا ؟ ما لها ؟ وكأنه يتأيل على ظهرها ويترنح معها ؛ ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته ، وكل ما حوله يحور موراً شديداً !

« والإنسان » قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر ، والهلاك والدمار ، ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبيهاً بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به . أمر لا يعرف له سراً ، ولا يذكر له نظيراً . أمر هائل يقع للمرة الأولى ! « يومئذ » .. يوم يقع هذا الزلزال ، ويُشده أمامه الإنسان « تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها » .. يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها ، وتصف حالها وما جرى لها .. لقد كان ما كان لها « بأن ربك أوحى لها » .. وأمرها أن تمور موراً ، وأن تزلزل زلزالها ، وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها « وأذنت لربها وحقت » .. تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه إليها ..

* * *

وهنا و « الإنسان » مشدوه مأخوذ ، والإيقاع يلهث فزعاً ورعباً ، ودهشة وعجبا ، واضطراباً وموراً .. هنا و « الإنسان » لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : ما لها ما لها ؟ هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً » .. نرى مشهدهم شتيتاً منبعثاً من أرجاء الأرض « كأنهم جراد منتشر » .. وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق في أجيالها جميعاً تنبعث من هنا ومن هناك : « يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً » .. وحيثما امتد البصر رأى شبحاً ينبعث ثم ينطلق مسرعاً ! لا يلوي على شيء ، ولا ينظر وراءه ولا حواليه : « مهطعين إلى الداع » ممدودة رقابهم ، شاخصة أبصارهم . « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مرّوع . مفزع . مرعب . مذهل ... كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثاله لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئاً مما يبلغه إرسال الخيال قليلاً يتملاه بقدر ما يملك وفي حدود ما يطيق !

« يومئذ يصدر الناس أشتاتاً » .. « ليروا أعمالهم » .. وهذه أشد وأدهى .. إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم ، ليواجهوها ، ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحياناً أقسى من كل جزاء . وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه ، ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع الضمير . فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد ، في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ !

إنها عقوبة هائلة رهبة .. مجرد أن يُروا أعمالهم ، وأن يواجهوا بما كان منهم ! ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ..

ذرة .. كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهبأة التي ترى في ضوء الشمس . . . فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة . . .

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الاسم ، وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنما هي « رؤيا » في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها ! فهذه أو ما يشبهها من ثقل ، من خير أو شر ، تحضر ويراهها صاحبها ويجد جزاءها ! ... عندئذ لا يحقر « الإنسان » شيئاً من عمله . خيراً كان أو شراً . ولا يقول : هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله ارتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل ! إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض .. إلا في القلب المؤمن .. القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر . . . وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر . . ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال . . إنها قلوب عتلة في الأرض ، مسحوفة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب !!

* * *

(١٠٠) سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا ❶ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ❷ فَاَلْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ❸ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ❹ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ❺ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ❻ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ❼ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ❽ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ❶ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ❷ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ❸

يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة ، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزاً وركضاً ووثباً ، في خفة وسرعة وانطلاق ، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف !

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة ، القادحة للشرر بحوافرها ، المغيرة مع الصباح ، المثيرة للنقع وهو الغبار ، الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة ، وتثير في صفوفه الذعر والفرار !

يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد !

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور !

وفي الختام ينتهي النقع المثار ، وينتهي الكنود والشح ، وتنتهي البعثة والجمع .. إلى نهايتها جميعاً . إلى الله .

فتستقر هناك : « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » ...

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقة ، تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة ، والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة ، كما تناسب جو الجحود والكنود ، والأثرة والشح الشديد .. فلما أراد لهذا كله إطاراً مناسباً ، اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك ، تثيره الخيل العادية في جريها ، الصاخبة بأصواتها ، القادحة بحوافرها ، المغيرة فجأة مع الصباح ، المثيرة للنقع والغبار ، الداخلة في وسط العدو على غير انتظار ... فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار^١

* * *

(١) فصل التناسق الفني في كتاب التصوير الفني في القرآن . « دار الشروق » .

« والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا .. إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد ... »

يقسم الله سبحانه بنجلى المعركة ، ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري ، قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها ، مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو ، مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم القوضى والاضطراب !

إنها خطوات المعركة على ما يألّفه المخاطبون بالقرآن أول مرة ... والقسم بالخيال في هذا الإطار فيه إحياء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها ، بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته سبحانه إليها ؟

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا . أما الذي يقسم الله - سبحانه - عليه ، فهو حقيقة في نفس الإنسان ، حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان . حقيقة ينه القرآن إليها ، ليجند إرادته لكفاحها ، مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه ، وثقل وقعها في كيانه :

« إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد » ..

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه ، وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها . أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكُنُود والجحود : « وإنه على ذلك لشهيد » .. يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال ! « وإنه لحب الخير لشديد » فهو شديد الحب لنفسه ، ومن ثم يحب الخير . ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا . . .

هذه فطرته . وهذا طبعه . ما لم يخالط الإيمان قلبه . فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته . ويحيل كنوده وجحوده اعترافاً بفضل الله وشكراً . كما يبدل أثرته وشحه إثارةً ورحمة . ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح . وهي قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا .. إن الإنسان - بغير إيمان - حقير صغير . حقير المطامع ، صغير الاهتمامات . ومهما كبرت أطماعه . واشتد طموحه ، وتعالى أهدافه ، فإنه يظل مرتكساً في حمأة الأرض ، مقيداً بحدود العمر ، سجيناً في سجن الذات .. لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض ، وأبعد من الحياة الدنيا ، وأعظم من الذات .. عالم يصدر عن الله الأزلي ، ويعود إلى الله الأبدي ، وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء ..

* * *

ومن ثم تحيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح ، لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه . مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير ، وتوقظ من غفلة البطر :

« أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ، وحصل ما في الصدور ؟ » ..

وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما في القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيداً عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي .. فالجو كله عنف وشدة وتعفير !

أفلا يعلم إذا كان هذا ؟ ولا يذكر ماذا يعلم ؟ لأن علمه بهذا وحده يكفي لهر المشاعر . ثم ليدع النفس

تبحث عن الجواب ، وتروود كل مراد ، وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب !

ويختم هذه الحركات النائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء ، وكل أمر ، وكل مصير :
« إن ربهم بهم يومئذ لخبير » ..

فالمرجع إلى ربهم . وإنه لخبير بهم « يومئذ » وبأحوالهم وأسرارهم .. والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال . ولكن لهذه الخبرة « يومئذ » آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام . . . إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام !

* * *

إن السورة مشوار واحد لاهث صاحب ثائر .. حتى ينتهي إلى هذا القرار .. معنى ولفظاً وإيقاعاً ، على طريقة القرآن !

* * *

(١٠١) سُورَةُ الْقَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا إِحْدَى عَشْرَةٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ^١ مَا الْقَارِعَةُ^٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ^٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ^٤ وَتَكُونُ
الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ^٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ^٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ^٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ^٨ فَأَمَّهُ هَوَايَةٌ^٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ^{١٠} نَارٌ حَامِيَةٌ^{١١}

القارعة : القيامة . كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية . والقارعة توحى بالقرع واللطم ، فهي تفرع
القلوب بهولها .

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهي إليه .. فهي تعرض مشهداً من مشاهد
القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغاراً ضئلاً على كثرتهم :
فهم « كالفرش المبعوث » مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهاوت على الهلاك ، وهو لا يملك لنفسه
وجهة ، ولا يعرف له هدفاً ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتبعث به
حتى الأنسام ! فن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة ، فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ ، والجرس الذي
تشترك فيه حروفه كلها ، مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ! وتلقي إحياءها للقلب والمشاعر ، تمهيداً لما
ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء !

* * *

« القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة ؟ » ..

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : « القارعة » بلا خبر ولا صفة . لتلقي بظلمها وجرسها الإحياء المدوي
المرهوب !

ثم أعقبها سؤال التهويل : « ما القارعة ؟ » .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل !

ثم أجب بسؤال التجهيل : « وما أدراك ما القارعة ؟ » .. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور !

ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا :
« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ..

* * *

هذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعاً ، وترجف منه الأوصال ارتجافاً . ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء ! ثم تجيء الخاتمة للناس جميعاً :
« فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية ! » .

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيماً لها عند الله اعتبار ، وقيماً ليس لها عنده اعتبار . وهذا ما يلقيه التعبير بجملته ، وهذا - والله أعلم - ما يريده الله بكلماته . فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني ، وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام !
« فأما من ثقلت موازينه » في اعتبار الله وتقويمه « فهو في عيشة راضية » .. ويدعها مجاملة بلا تفصيل ، توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعم .

« وأما من خفت موازينه » في اعتبار الله وتقويمه « فأمه هاوية » .. والأم هي مرجع الطفل وملاذه . فرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية ! وفي التعبير أناقة ظاهرة ، وتنسيق خاص . وفيه كذلك غموض يمهّد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود :
« وما أدراك ماهيه ؟ » ..

سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن ، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك !
ثم يجيء الجواب كنبرة الختام :
« نار حامية » ..

هذه هي أم الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة . فإذا هو واجد عند أمه هذه .. الهاوية .. النار .. الحامية !!
إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية !

* * *

(١٠٢) سُورَةُ النَّكَارِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَمَانٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَكُمُ النَّكَارُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ
عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ ﴿٨﴾

هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هي صوت نذير ، قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوي بنبرته . يصبح بنوم غافلين مخمورين سادرين ، أشرفوا على الهاوية وعبونهم مغمضة ، وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ :

« أهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر » ..

أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتفتاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر .. استيقظوا وانظروا .. فقد « أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » .

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين :

« كلا سوف تعلمون » ..

ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين :

« ثم كلا سوف تعلمون » .

ثم يزيد التوكيد عمقاً ورهبة ، وتلويحاً بما وراءه من أمر ثقيل ، لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار :

« كلا لو تعلمون علم اليقين » ..

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة :

« لتروُنَّ الجحيم » ..

ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب :

« ثم لترؤنها عين اليقين » ..

ثم يلقي بالإيقاع الأخير ، الذي يدع المخمور يفيق ، والغافل يتنبه ، والصادر يتلفت ، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم :

« ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » !

لتسألن عنه من أين نلتموه ؟ وفيم أنفقتموه ؟ أمن طاعة وفي طاعة ؟ أم من معصية وفي معصية ؟ أمن حلال وفي حلال ؟ أم من حرام وفي حرام ؟ هل شكرتم ؟ هل أدبتم ؟ هل شاركنم ؟ هل استأثرتن ؟

« لتسألن » عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل !

* * *

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلاً مشغولاً بهم الآخرة عن سفاسف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون !

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل .. « أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » .. وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة .. ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال ؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد ..

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة ، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها ، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها .. حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض ، ثم يحمل ما يحمل منها ويمضي به مثقلاً في الطريق !

ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !!!

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريد الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها . في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة .. وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله ..

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه :

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار ، وامتداد الإنسان في جميع الأدهار ، ليس هنالك إلا منهج واحد رابع ، وطريق واحد ناج . هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده ، وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمة . وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار ..

« والعصر ، إن الإنسان لني خسر . إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .
إنه الإيمان . والعمل الصالح . والتواصي بالحق . والتواصي بالصبر ..

* * *

فما الإيمان ؟؟

نحن لا نعرف الإيمان هنا تعريفه الفقهي ؛ ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمه في الحياة .
إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود . ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر ، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون ، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه . والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير . ومن حدود قوته الهزيلة إلى

عظمة الطاقات الكونية المجهولة . ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله^١ .

وفضلاً عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق ، فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعاً بالوجود وما فيه من جمال ، ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه . فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان ... وهي سعادة رفيعة ، وفرح نفيس ، وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب . وهو كسب لا يعدله كسب . وفقدانه خسران لا يعدله خسران ...

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة ...

التعبد لإله واحد ، يرفع الإنسان عن العبودية لسواه ، ويقم في نفسه المساواة مع جميع العباد ، فلا يذل لأحد ، ولا يخني رأسه لغير الواحد القهار .. ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان . الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود . إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقاً ذاتياً ، لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد .

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصورات وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه ، وكل ما يربطه بالله ، أو بالوجود ، أو بالناس . فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة ، وتحل محلها الشريعة والعدالة . وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه ، وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمتها واعتباراتها ، وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة .. ولو كان فرداً واحداً ، لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام^٢ .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق ، وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتيهما الناصعة ، مما يصل هذه الخلقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد ، وبلا وساطة في الطريق . ويودع القلب نوراً ، والروح طمأنينة ، والنفس أنساً وثقة . وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق ، والاستعلاء على العباد بالباطل والاقتراء !

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله . فلا يكون الخير فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة . إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى هدف ، ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله ، فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح ، والراية الواحدة المتميزة . كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله ، يرفع من اعتباره في نظر نفسه ، ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها . وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه ... أنه كريم عند الله .. وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه ، ويرده إلى منبت حقير ، ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى .. هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة !

ومن هنا كانت إichاءات الدارونية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبثلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني ، فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي أمر طبيعي متوقع ، ليس فيه ما يستغرب ، ومن ثم ليس فيه ما ينحجل .. وهي جناية على البشرية تستحق الموت والازدراء^٣ !

(١) يراجع فصل العقيدة والحياة من كتاب : السلام العالمي والإسلام .

(٢) يراجع تفسير سورة « عبس وتولى » في هذا الجزء ص ٣٨٢١ .

(٣) يراجع كتاب : الإنسان بين المادية والإسلام (لمحمد قطب) « دار الشروق » .

ونظافة المشاعر تحيي نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر وإطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إحياءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما ، ليستحي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله - سبحانه - في أطواء حسه إحساساً يرتعش له ويهتز . فأولى أن يظهر حسه هذا وينظفه !

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم غفو كريم ودود حلیم ، يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهناك التبعية المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة ، وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية ، ومن رزانة وتدبر . وهي ليست تبعة فردية فحسب ، إنما هي كذلك تبعة جماعية ، وتبعية تجاه الخير في ذاته ، وإزاء البشرية جمعاء .. أمام الله .. وحين يتحرك المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله ، فيكبر في عين نفسه ، ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله .. إنه كائن له قيمة في الوجود ، وعليه تبعة في نظام هذا الوجود ..

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا - وهو بعض إحياءات الإيمان - واختيار ما عند الله ، وهو خير وأبقى . « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » .. والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف .. يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن .. بين الدنيا والآخرة ، والأرض والملا الأعلى . مما يهدي في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير ، ولأن الله يريد ، ولا عليه ألا يدرك الخير خيراً على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود . فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت - سبحانه - ولا ينسى ، ولا يغفل شيئاً من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا ينبوع الذي لا ينضب . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه موصولاً ، لا دفعة طارئة ، ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر . سواء تمثل في طغيان طاغية ، أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية ، أو في اندفاع نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه ، وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير ، وشهود انتصار الحق على الباطل ! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجاً أساسياً كاملاً^١ .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير ، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير ، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره ، وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته ، صائر إلى ذبول وجفاف . وإلا فهي ثمرة شيطانية ، وليس لها امتداد أو دوام !

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة . وإلا فهي مفلته لا تمسك بشيء ، ذاهبة بدداً مع الأهواء والنزوات ..

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال ، ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون ، وتنسلك في طريق واحد ، وفي حركة واحدة ، لها دافع معلوم ، ولها هدف مرسوم ..

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل ، ولا يشد إلى هذا المحور ، ولا ينبع من هذا المنهج . والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة .. جاء في سورة إبراهيم : « مثل الذين كفروا بربهم

(١) يراجع تفسير سورة البروج في هذا الجزء ص ٣٨٧١ .

أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . لا يقدرّون مما كسبوا على شيء .. وجاء في سورة النور : «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» .. وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله ، ما لم يستند إلى الإيمان ، الذي يجعل له دافعاً موصولاً بمصدر الوجود ، وهدفاً متناسقاً مع غاية الوجود . وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله . فن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه^١ .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني ، وتناسقه مع فطرة الكون كله ، ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله . فهو يعيش في هذا الكون ، وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب . ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان ، بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق . فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل ، كان هذا بذاته دليلاً على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى ، وهو هذا الكيان الإنساني . وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران . ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائثة شقية .. خاسرة أي خسران !

* * *

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان ، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب . فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح .. هذا هو الإيمان الإسلامي .. لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن .. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت . شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً . وإلا فهو غير موجود !

ومن هنا قيمة الإيمان .. إنه حركة وعمل وبناء وتعمير .. يتجه إلى الله .. إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكونات الضمير . وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة .

وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني . وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود . صادرة عن تدبير ، متجهة إلى غاية . وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود . الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله .

* * *

أما التواصل بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة - أو الجماعة المسلمة - ذات الكيان الخاص ، والرابطة المميزة ، والوجهة الموحدة . الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح ، الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعمل

(١) جاء في تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لقوله تعالى : « فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .. « وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ، ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له » .. « وما نحن أولاء نرى أن المسألة لم تحيىء من إجماع ، ولكن من نصوص قرآنية صريحة هي أصل بذاتها .

الصالح ، ففتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى .

فن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة - أو الجماعة - المتضامنة المتضامنة . الأمة الخيرة . الواعية . القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير .. وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة .. وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام .. هكذا يريد أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير ، متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتأخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن ..

والتواصي بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس ، ومنطق المصلحة ، وتصورات البيئة . وطفغان الطغاة ، وظلم الظلمة ، وجور الجائرين .. والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية ، والأخوة في العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية ، إذ تتفاعل معاً فتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله .. وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال .

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح ، وحراسة الحق والعدل ، من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بد من الصبر . لا بد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير . والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس العالم ، وبعد النهاية !

والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة ، بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف ، ووحدة المتجه ، وتساند الجميع ، وتزودهم بالحب والعزم والإصرار .. إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها ، ولا تبرز إلا من خلالها .. وإلا فهو الخسران والضياع .

* * *

وننظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الراحبة الناجية من الخسران ، فيهلون أن نرى الخسر يحقّق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء . يهلون هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا - قبل الآخرة - يهلون أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها ، مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض .. هذا والمسلمون - أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق - هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير ، وأشدّهم إعراضاً عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم ، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع . والبقاع التي انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التي رفعها لها الله ، راية الإيمان ، لتتعلق برايات عنصرية لم تتل تحتها خيراً قط في تاريخها كله . لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء . حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله ، لا شريك له ، المسماة باسم الله لا شريك له ، الموسومة بميسم الله لا شريك له .. الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل ..

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ؟ » .. عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله ، وتحت عنوان « عهد القيادة الإسلامية » : « الأئمة المسلمون وخصائصهم » : « ظهر المسلمون ، وترعموا العالم ، وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التي استغلّتها وأساءت عملها ،

وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً مترناً عادلاً ، وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم ، وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم .

« أولاً : أنهم أصحاب كتاب منزل وشرعة إلهية ، فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم . لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم ، ولا يخطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء ، وقد جعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ، وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس » أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ » وقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

ثانياً : - أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس ، بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر ، بل مكثوا زمناً طويلاً تحت تربية محمد - صلى الله عليه وسلم - وإشرافه الدقيق ، يزكهم ويؤدبهم ، ويأخذهم بالزهد والورع والعفاف والأمانة والإيثار وخشية الله ، وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول : « إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سألناه ، أو أحداً حرص عليه » .

ولا يزال يقرع سمعهم : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » .. فكانوا لا يتهافون على الوظائف والمناصب ، فضلاً عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة ، ويزكوا أنفسهم ، وينشروا دعاية لها ، وينفقوا الأموال سعيّاً وراءها . فإذا تولوا شيئاً من أمور الناس لم يعدوه مغناً أو طعمة أو ثمناً لما أنفقوا من مال أو جهد ؛ بل عدوه أمانة في عنقهم ، وامتحاناً من الله ؛ ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم ، ومسؤولون عن الدقيق والجليل ، وتذكروا دائماً قول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .. وقوله .. « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم » ..

« ثالثاً : أنهم لم يكونوا خدمة جنس ، ورسل شعب أو وطن ، يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده ؛ ويؤمنون بفضلته وشرفه على جميع الشعوب والأوطان ، لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاماً ، ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم . ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده . كما قال ربي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزددرد : الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .^٢

فالأمم عندهم سواء ، والناس عندهم سواء. الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقد قال عمر بن الخطاب لعمر بن العاص عامل مصر - وقد ضرب ابنه مصرياً وافتخر بآبائه قائلاً : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر - : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحراراً أمهاتهم ؟ فلم يبخل هؤلاء

(١) حديث متفق عليه .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) القصة بتمامها في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي .

بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد ، ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسباً ولوناً ووطناً ، بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد ، وغواصي مزنة أثنى عليها السهل والوعر ، وانتفعت بها البلاد والعباد على قدر قبولها وصلاحتها .

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة ، وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد ، بل إن كثيراً من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل ، وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين..

« رابعاً : إن الإنسان جسم وروح ، وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح ، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقياً متزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نمواً متناسباً لثقافتها ، ويتغذى غذاء صالحاً ، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني . وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة ، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية ، وأصحاب عقول سليمة راجحة ، وعلوم صحيحة نافعة » ...

إلى أن يقول تحت عنوان : « دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة » :

« وكذلك كان ، فلم نعرف دوراً من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور - دور الخلافة الراشدة - فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل . وفي ظهور المدنية الصالحة .. كانت حكومة من أكبر حكومات العالم، وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها ، تسود فيها المثل الخلقية العليا ، وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم ، وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة ، ويسير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة ، فتقل الجنايات ، وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها ، وتحسن علاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالجماعة ، وعلاقة الجماعة بالفرد . وهو دور كمالي لم يحلم الإنسان بأرقى منه ، ولم يفترض المفترضون أزهى منه .. » .

* * *

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع « سورة العصر » قواعده ، وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

فأين منها هذا الضياع الذي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان ، والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر ، والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة . ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة . وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار . وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله . وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق . وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور ، وإذا هي كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح ! وراية الله ما تزال . وإنها لترقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح .

* * *

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض . وهو على عظمتها إذا قيس بشأن الآخرة صغير . وهناك . هناك

الربح الحق والخسر الحق . هناك في الأمد الطويل ، وفي الحياة الباقية ، وفي عالم الحقيقة .. هناك الربح والخسر : ربح الجنة والرضوان ، أو خسر الجنة والرضوان . هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له ، أو يرتكس فتهدر آدميته ، وينتهي إلى أن يكون حجراً في القيمة ودون الحجر في الراحة :
« يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر : يا ليتني كنت تراباً » ..

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق .. إنه الخسر .. « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .. طريق واحد لا يتعدد . طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة ، التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد . ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة « والعصر » ثم يسلم أحدهما على الآخر .. لقد كانا يتعهدان على هذا الدستور الإلهي ، يتعهدان على الإيمان والصلاح ، ويتعهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر . ويتعهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور . ويتعهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور ..

* * *

(١٠٤) سُورَةُ الْهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَاتُهَا تِسْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾
وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ ﴿٨﴾
فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول . وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة .. صورة التئيم الصغير النفس ، الذي يؤثى المال فتسيطر نفسه به ، حتى ما يطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة . القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس . وأقدار المعاني . وأقدار الحقائق . وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب ! كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء : لا يعجز عن فعل شيء ! حتى دفع الموت وتخليد الحياة . ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء !

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعدده ويستلذ تعداده : وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة ، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم . ولزهم وهمزهم .. يعيهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته . سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم ، أو بتحقيق صفاتهم وسماتهم .. بالقول والإشارة . بالغمز واللمز . باللفتة الساخرة والحركة المهازنة ! وهي صورة لثيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي . وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى . إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد ، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتجاه المؤمنين .. فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد ، والتهديد الرعب . وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات . ولكنها ليست وثيقة . فنكتفي نحن بما قررناه عنها ..

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية ، وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة ، الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لزمهم في أنفسهم وأعراضهم ، وهو يجمع المال فيظنه كفيلاً بالخلود ! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال ، تقابلها صورة « المنبوذ » المهمل المتردي في « الحطمة » التي تحطم كل ما يلقي إليها ، فتحطم كيانه وكبرياءه . وهي « نار الله الموقدة » وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحى بأنها نار فذة ، غير معهودة ، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعبية . وهي « تطلع » على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز ، وتكنم فيه السخرية والكبرياء والغرور .. وتكلمة لصورة المحطم المنبوذ المهمل .. هذه النار مغلقة عليه ، لا ينقذه منها أحد ، ولا يسأل عنه فيها أحد ! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ! وفي جرس الألفاظ تشديد : « عدّده . كلا . لينبذن . تطلع . ممدّدة » وفي معاني العبارات تأكيد بشتى أساليب التوكيد : « لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة .. » فهذا الإجمال والإيهام . ثم سؤال الاستهوال . ثم الإجابة والبيان .. كلها من أساليب التوكيد والتضخيم .. وفي التعبير تهديد « ويل . لينبذن . الحطمة ... نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة » ..

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة « الهمزة اللمزة » !

* * *

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته . وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين ، ويزلزل قلوب الأعداء ، ويثبت أرواح المؤمنين .

وإننا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين :

الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثاني : المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة ، وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم ، ويكرهه ، ويعاقب عليه .. وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللثيم ...

* * *

(١٠٥) سُورَةُ الْفِيلِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية قبل البعثة ، عظيم الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التي اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير ، ومحضن العقيدة الجديدة ، والنقطة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض ، وإقرار الهدى والحق والخير فيها ..

وجملة ما تشير إليه الروايات المتعددة عن هذا الحادث ، أن الحاكم الحبشي لليمن - في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسي منها - وتسميه الروايات : « أبرهة » ، كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة ، على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة ، وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت ، شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة وشمالها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية ..

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيوتهم المقدس ، فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت ، وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقته بالفخر بالأنساب . وكانت معتقداتهم - على ثافتها - أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم ، وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صبح عزم « أبرهة » على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ؛ وقاد جيشاً جراراً تصاحبه الفيلة ، وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام ، فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله ، ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيراً .

ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير ، فهزمهم كذلك وأسر نفيلاً ، الذي قبل أن يكون دليلاً في أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذي يقصده ليس عندهم إنما هو في مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للآت ! وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة !

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة ، بعث قائداً من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهتت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولاً إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد ، ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما جاء لهدم هذا البيت ، فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم ! فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك .. فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام .. فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .. فانطلق معه إلى أبرهة ..

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه . فتزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل . وإن للبيت رباً سيمنعه . قال : ما كان ليمنع مني . قال : أنت وذاك ! .. فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة ، والتحرز في شعف الجبال . ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروي عن عبد المطلب أنه أنشد :

لأهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك .
لا يغلبن صليهم ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك !

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها ، وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة ، فقالوا : خلأت القصواء (أي حرت) فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » .. « وفي الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » ، فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل ..

ثم كان ما أراد الله من إهلاك الجيش وقائده ، فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر ، فتركهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكي عنهم القرآن الكريم .. وأصيب أبرهة في جسده ،

وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء ، فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات ..

وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير ، وأشكالها ، وأحجامها ، وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروي أن الجدرى والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة . ويرى الذين يميلون إلى تضيق نطاق الخوارق والغيبات ، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها ، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدرى والحصبة أقرب وأولى . وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات ، فالطير هو كل ما يطير .

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره للسورة في جزء عم :

« وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدرى والحصبة .. قال عكرمة : وهو أول جدرى ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هارين ، وأصيب الجيش ، ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة ، وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء .

« هذا ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

« فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات ، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالمكروب - لا يخرج عنها . وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها .. ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين ، على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال ، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها .. فله جند من كل شيء .

وفي كل شيء له آية * تدل على أنه الواحد

« وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته . فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت ، أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة ، فأهلكته وأهلكته قومه ، قبل أن يدخل مكة . وهي نعمة غمر الله بها أهل حرمه - على وثنيهم - حفظاً لبيته ، حتى يرسل من يحميه بقوة دينه - صلى الله عليه وسلم - وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه ، ولا ذنب اقترفه .

« هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة . وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل ، إن صحت روايته . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل - وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً - ويهلك ، بحيوان صغير لا يظهر للنظر ، ولا يدرك بالبصر ، حيث ساقه القدر . لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر !! » .

ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الإمام - صورة الجدرى أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت تحرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو « العصف » .. لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله ، ولا أولى بتفسير الحادث . فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع . ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتديبره ، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس ، المعهودة المكشوفة لعلمهم ، هي التي جرت فأهلكتهم قوماً أراد الله إهلاكهم . أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر ، وغير المعهود المكشوف لعلمهم ، فحققت قدره ذلك .

إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه . وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفاً يسيراً يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون ، وبمقدار ما يتهاونون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل ، فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه !

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملاسبات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة ، ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم . وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعاً ولا دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر . . إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهي معهودة كل يوم - وإن ولادة كل طفل خارقة - وهي تقع كل لحظة ، وإلا فليجرب من شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير - كائناتاً ما كان - يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدرى والحصبة وإلقائها في هذه الأرض ، في هذا الأوان ، وإحداث هذا الوباء في الجيش ، في اللحظة التي يهجم فيها باقتحام البيت .. إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير . وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيراً خاصاً يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلاً خاصاً في اللحظة المقررة .. هذه من تلك .. هذه خارقة وتلك خارقة على السواء ..

فأما في هذا الحادث بالذات ، فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ، وأن الله أرسل طيراً أبابيل غير معهودة - وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفاً مثيراً ، نجد له نظائر في مواضع أخرى تشي بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها ! - تحمل حجارة غير معهودة ، تفعل بالأجسام فعلاً غير معهود ..

نحن أميل إلى هذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة . ولكن لأن جو السورة وملاسبات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب . فقد كان الله - سبحانه - يريد بهذا البيت أمراً . كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمناً . وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة ترحف منه حرة طليقة ، في أرض حرة طليقة ، لا يهيمن عليها أحد من خارجها ، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها . ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال ، حتى ليتمكن بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة ، ويضر بها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها .. فما يتناسق مع جو هذه الملاسبات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود ، بكل مقوماته وبكل أجزائه. ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملاساته مفرد فذ ..

وبخاصة أن المألوف في الجدرى أو الحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده ،

فإن الجدرى أو الحصبة لا يسقط الجسم عضواً عضواً وأتملة أتملة ، ولا يشق الصدر عن القلب ..

وهذه الصورة هي التي يوحى بها النص القرآني : « فجعلهم كعصف مأكول » .. إحياء مباشراً قريباً .

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب بن عتبة ليست نصاً في أن الجيش أصيب بالجدرى . فهي لا تزيد على أن تقول : إن الجدرى ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة . ولم ترد في أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض .. ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القرييين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كانت الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل . وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر ! وجريان الأمر على غير المؤلف أنسب لجو الحادث كله ؟!

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام - رحمه الله - على رأسها في تلك الحقبة .. ندرك ونقدر دوافعها إلى تضيق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ ، ومحاولة ردها إلى المؤلفات المكشوف من السنن الكونية .. فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة : كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها ، كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها ، وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمته . فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل . ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير . كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية ، وتذكر ثباتها واطرادها ، وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية في الأجرام والأجسام - وهي في صميمها العقلية القرآنية - فالقرآن يرد الناس إلى سنن الله الكونية باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة .

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة . من المبالغة في الاحتياط ، والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله . فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده - كما شاع في تفسير تلميذه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي - رحمهم الله جميعاً - شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها ، وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه « المعقول » ! وإلى الحذر والاحتباس الشديد في تقبل الغيبيات .

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه ، فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها - سواء المؤلف منها للبشر أو غير المؤلف - هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير . ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه - كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة .

هذا إلى جانب أن المؤلف من سنة الله ليس هو كل سنة الله . إنما هو طرف يسير لا يفسر كل ما يقع من هذه السنن في الكون . وأن هذه كتلك دليل على عظمة القدرة ودقة التقدير ..

وكل ذلك مع الاحتياط من الخرافة ونفي الأسطورة في اعتدال كامل ، غير متأثر بإحياء بيئة خاصة ، ولا مواجهة عرف تفكيري شائع في عصر من العصور !!!

إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية ، لعل هنا مكان تقريرها .. إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة . لا مقررات عامة . ، ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص . بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لتتلقى منها مقرراتنا . فنهنا نتلقى مقرراتنا الإيمانية ، ومنها نكوّن قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعاً ؛ فإذا قررت لنا أمراً فهو المقرر كما قررتة ! ذلك أن ما نسميه « العقل » ونريد أن نحاكم إليه مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشري المحدود ، وتجاربنا البشرية المحدودة .

وهذا العقل وإن يكن في ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب والوقائع بل تسمو عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها ، إلا أنه في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري . وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند الله . والقرآن صادر عن هذا المطلق فهو الذي يحكمنا . ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها . ومن ثم لا يصلح أن يقال : إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله - كما يرد كثيراً في مقررات أصحاب هذه المدرسة . وليس معنى هذا هو الاستسلام للخرافة . ولكن معناه أن العقل ليس هو الحكم في مقررات القرآن . ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا ، وكيف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها ، وتجاه الحقائق الكونية الأخرى ..

* * *

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل ، وإلى دلالة القصة ..
« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » .. وهو سؤال للتعجب من الحادث ، والتنبيه إلى دلالاته العظيمة . فالحادث كان معروفاً للعرب ومشهوراً عندهم ، حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ . يقولون حدث كذا عام الفيل ، وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين ، وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات .. والمشهور أن مولد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان في عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة !
وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها ، إنما كانت تذكيراً بأمر يعرفونه ، المقصود به ما وراء هذا التذكير ..

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع في صورة الاستفهام التقريري كذلك :
« ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ » .. أي ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته ، شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه .. ولعله كان بهذا يذكر قريشاً بنعمته عليهم في حماية هذا البيت وصيانته ، في الوقت الذي عجزوا هم عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم ، كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم في مواجهة محمد - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته وحرمة ؛ فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم في تضليل فقد بينه في صورة وصفية رائعة : « وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول » .. والأبابيل : الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجر وطنين . أو حجارة ملوثة بالطين . والعصف : الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول : أي فتيق طحين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه ، أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهي صورة حسية للتمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير . ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير

لحال هلاكهم بمرض الجدري أو الحصبة .

* * *

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة ..

وأول ما توحى به أن الله - سبحانه - لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام ، حتى لا تتكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة في حمايته ، بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحاً قوياً أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة - لا السنة المألوفة المعهودة - فهذا أنسب وأقرب ..

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول في دين الله حينما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدنته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك توحى دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدّر لأهل الكتاب - أبرهة وجنوده - أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة . حتى والشرك يدنس ، والمشركون هم سدنته . ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين ، مصوناً من كيد الكائدين . وليحفظ لهذه الأرض حرمتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام !

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهبونية العالمية ، ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي للثيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء الله ، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض . بل لم يكن لهم كيان . قبل الإسلام . كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحياناً تقوم تحت حماية الفرس . وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان .. ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه . ولكنه ظل في حالة بدو أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية . وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وما حدث في عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي .

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور علمي يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش ، وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة .. ولكن الذي هيا للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نكرة الجنس ، وعصبية العنصر ، وذكروا أنهم مسلمون . ومسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام ، وراية الإسلام

وحدها . وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبراً بالبشرية ؛ ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عنصرية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهباً أرضياً يخضعون الناس لسلطانه . وخرجوا من أرضهم جهاداً في سبيل الله وحده ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعاً إلى عبادة الله وحده ، كما قال ربي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدرج : « الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة .. ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم ، وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم ، لأن الله قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه !

وما العرب بغير الإسلام ؟ ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتار الذين اجتاحتهم الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحتهم الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلاً ، إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها . والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة الإسلامية ، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم في التاريخ دور .. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيداً إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ، وأرادوا القيادة .. والله الهادي من الضلال ..

* * *

(١٠٦) سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا أَرْبَعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١ إِيَّاءَ لَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي
أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ۝٤

استجاب الله دعوة خليفه إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره : « رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات » .. فجعل هذا البيت آمناً ، وجعله عتيقاً من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين ؛ وجعل من يأوي إليه آمناً والمخافة من حوله في كل مكان .. حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام .. لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمته ، وصان حرمة ؛ وكان مَنْ حوله كما قال الله فيهم : « أو لم يروا أننا جعلنا حرمًا آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؟ » . وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة ، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش ، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمينين ، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية ، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن في الجنوب ، وإلى الشام في الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن في الشتاء ، والثانية إلى الشام في الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء ؛ وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب والنهب ، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية ، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول ، في أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الراجحتين ، فصارتا لهم عادة وإلفاً !

هذه هي المنة التي يذكرهم الله بها - بعد البعثة - كما ذكرهم منة حادث الفيل في السورة السابقة ، منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف ، ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين - وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف . سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله ، أم في أسفارهم

وترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكركم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ؛ وهو رب هذا البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين ؛ ويسرون باسمه مرعين ويعودون سالمين ..

يقول لهم : من أجل إيلاف قريش : رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة ، وتنال من ورائها ما تنال « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع » .. وكان الأصل - بحسب حالة أرضهم - أن يجوعوا ، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع « وآمنهم من خوف » .. وكان الأصل - بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم - أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف !

وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس . ويثير الخجل في القلوب . وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمة في حياتها . وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بضرم ولا وثن ، ولم يقل له .. إن الآلهة ستحمي بيتها . إنما قال له : « أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه » .. ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق ، ولا يثوب إلى حق ، ولا يرجع إلى معقول .

وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها . وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة ، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور . ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب ..

* * *

سُورَةُ الْمَائِدَةِ مَكِّيَّةٌ وَآيَاتُهَا سَبْعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْبَنِينَ ﴿٢﴾ وَلَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

هذه السورة مكية في بعض الروايات ، ومكية مدنية في بعض الروايات (الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية) وهذه الأخيرة هي الأرجح . وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة ، ذات اتجاه واحد ، لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة ، مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها ، إذ أن الموضوع الذي تعالجه هو من موضوعات القرآن المدني - وهو في جملته يمت إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفاً في الجماعة المسلمة في مكة . ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لا يمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة في المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال في الموضوع .. وحسبنا هذا لنخلص إلى موضوع السورة وإلى الحقيقة الكبيرة التي تعالجها ..

* * *

إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلاً كاملاً . فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة ، وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية ، وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة ..

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ؛ ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر ، ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد ، مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح ، وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة ، يؤدي منها الإنسان ما يشاء ، ويدع منها ما يشاء .. إنما هو منهج متكامل ، تتعاون عباداته وشعائره ، وتكاليفه الفردية والاجتماعية ، حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود

كلها على البشر .. غاية تتطهر معها القلوب ، وتصلح الحياة ، ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء .. وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه . وقد يصلي ، وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيداً عنها ، لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها . وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان ، ومهما تعبد الإنسان !

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها (كما قلنا في سورة العصر) لكي تحقق ذاتها في عمل صالح . فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلاً . وهذا ما تقرره هذه السورة نصاً ..

* * *

« رأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين » .. إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذي يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى : « رأيت الذي يكذب بالدين ؟ » ويتنظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تنجيه الإشارة وإلى من تنجيه ؟ ومن هو هذا الذي يكذب بالدين ، والذي يقرر القرآن أنه يكذب بالدين .. وإذا الجواب : « فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين » ! وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي .. ولكن هذا هو لباب الأمر وحقيقته .. إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعاً بعنف – أي الذي يهين اليتيم ويؤذيه . والذي لا يحض على طعام المسكين ولا يوصي برعايته . فلو صدق بالدين حقاً ، ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم ، وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ؛ إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية ، المحتاجين إلى الرعاية والحماية . والله لا يريد من الناس كلمات . إنما يريد منهم معها أعمالاً تصدقها ، وإلا فهي هباء ، لا وزن لها عنده ولا اعتبار .

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث في تقرير هذه الحقيقة التي تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل .

ولا نحب أن ندخل هنا في جدل فقهي حول حدود الإيمان وحدود الإسلام . فلكل الحدود الفقهية إنما تقوم عليها المعاملات الشرعية . فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر في اعتبار الله وميزانه . وهذا أمر آخر غير الظواهر التي تقوم عليها المعاملات !!

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها :

« فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون .. فن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون ! إنهم « الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » ..

إنهم أولئك الذين يصلون ، ولكنهم لا يقيمون الصلاة . الذين يؤدون حركات الصلاة ، وينطقون بأدعيتها ، ولكن قلوبهم لا تعيش معها ، ولا تعيش بها ، وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسيبحات . إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصاً لله . ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها .

ساهون عنها لم يقيموها . والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها . وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها .

ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . فهم يمنعون الماعون . يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية . يمنعون الماعون عن عباد الله . ولو كانوا يقيمون الصلاة حقاً لله ما منعوا العون عن عباده ، فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله ..

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة ، وأمام طبيعة هذا الدين . ونجد نصاً قرآنياً ينذر مصلين بالويل . لأنهم لم يقيموا الصلاة حقاً . إنما أدوا حركات لا روح فيها . ولم يتجردوا لله فيها . إنما أدوها رياء . ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء . بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء !

* * *

وننظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة ما يريده الله من العباد ، حين يبحث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه ... إنه لا يريد منهم شيئاً لذاته سبحانه - فهو الغني - إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم . يريد الخير لهم . يريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم . يريد لهم حياة رقيقة قائمة على الشعور النظيف ، والتكافل الجميل ، والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك .

فأين تذهب البشرية بعيداً عن هذا الخير ؟ وهذه الرحمة ؟ وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم ؟ أين تذهب لتخبط في متاهات الجاهلية المظلمة النكدية وأمامها هذا النور في مفرق الطريق ؟

* * *

(١٠٨) سُورَةُ الْكَوْثَرِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

هذه السورة خالصة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - كسورة الضحى ، وسورة الشرح . يسري عنه ربه فيها ، ويعده بالخير ، ويوعده أعداءه بالبتر ، ويوجهه إلى طريق الشكر .
ومن ثم فهي تمثل صورة من حياة الدعوة ، وحياة الداعية في أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبي - صلى الله عليه وسلم - ودعوة الله التي يبشر بها ؛ وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ؛ ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشائئه .
كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر والكفران .. الأولى كثرة وفيض وامتداد . والثانية قلة وانحسار وانبتار . وإن ظن الغافلون غير هذا وذلك ..

* * *

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء . ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله ، من أمثال العاص ابن وائل ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبي لهب ، وأبي جهل ، وغيرهم ، كانوا يقولون عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إنه أبتَر . يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده . وقال أحدهم : دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره !

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقفاً . وتجذ هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشائئه ، ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومستته بالغم أيضاً .

ومن ثم نزلت هذه السورة تسمح على قلبه - صلى الله عليه وسلم - بالروح والندى ، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه ؛ وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

* * *

« إنا أعطيناك الكوثر » . . والكوثر صيغة من الكثرة . . وهو مطلق غير محدود . يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء . . إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير . غير ممنوع ولا ممتور . . فإذا أراد أحد أن يتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة . في هذا الاتصال بالحق الكبير ، والوجود الكبير . الوجود الذي لا وجود غيره ولا شيء في الحقيقة سواه . وماذا فقد من وجد الله ؟

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه . وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته ، وينبوع ثر لا نهاية لفيضه وغزارته !

وهو واجده في الملاء الأعلى الذي يصلي عليه ، ويصلي على من يصلي عليه في الأرض ، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء .

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون ، في أرجاء الأرض . وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره ، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه ، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكره إلى يوم القيامة .

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه . سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به ، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض !

وهو واجده في مظاهر شتى ، محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها !
إنه الكوثر ، الذي لا نهاية لفيضه ، ولا إحصاء لعوارفه ، ولا حد لمدلوله . ومن ثم تركه النص بلا تحديد ، يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد . .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيته رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيته الرسول . فهو كوثر من الكوثر ! وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات .

* * *

« فصل لربك وانحر » .

بعد تأكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة ، على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون ، وجه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى شكر النعمة بحققها الأول . حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه . . في الصلاة وفي ذبح النسك خالصاً لله : « فصل لربك وانحر » . . غير ملق بالاً إلى شرك المشركين ، وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائهم .

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح ، وتحريم ما أهل به لغير الله ، وما لم يذكر اسم الله عليه . . ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره . لا تخليص التصور والضمير وحدهما . فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها ، وكل ظل من ظلالها ؛ كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح . ومن ثم فهو يتبع الشرك في كل مظهره ، وفي كل مكانه ؛ ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير ، أم ظهر في العبادة ، أم تسرب إلى تقاليد الحياة فالحياة وحدة ما ظهر منها وما بطن ، والإسلام يأخذها كلا لا يتجزأ ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعاً ، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة

ناصعة ، كما نرى في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة . .

* * *

« إن شأنتك هو الأبر » . .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبر بل هو صاحب الكوثر . وفي هذه الآية يرد الكيد على كائديه ، ويؤكد - سبحانه - أن الأبر ليس هو محمد ، إنما هم شائثوه وكارهوه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله . فقد انقطع ذكرهم وانطوى . بينما امتد ذكر محمد وعلا . ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم ، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون ! إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبر . فهو ممتد الفروع عميق الجذور . وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبر مهما ترعرع وزها وتجر . .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر . ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد . . فأين الذين كانوا يقولون عن محمد - صلى الله عليه وسلم - قولتهم اللئيمة ، وينالون بها من قلوب الجماهير ، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ؟ أين هم ؟ وأين ذكراهم ، وأين آثارهم ؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء ، ذلك الذي أوتيته من كانوا يقولون عنه : الأبر ؟ !

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون براء ولا أن يكون صاحبها أبر ، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد ؟ إنما يبر الكفر والباطل والشر ويبر أهله ، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور . .

وصدق الله العظيم . وكذب الكاثنلون الماكرون . .

* * *

(١.٩) سُورَةُ الْكَافِرُونَ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا سِتُّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيِبُ الْكَافِرُونَ ❶ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❷ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❸ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ❹ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❺ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ❻

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره ، ولا يعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة .. وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وأن بينه - سبحانه - وبين الجنة نسباً ، أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة ، وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلنى » ..

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسموات والأرض ، وتسخيره للشمس والقمر ، وإنزاله الماء من السماء كالذي جاء في سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » .. « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله » .. وفي آيائهم كانوا يقولون : والله . وتالله . وفي دعائهم كانوا يقولون : اللهم .. الخ .

ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم ، فيجعلون للآلهة المدعاة نصيباً في زرعهم وأنعامهم ونصيباً في أولادهم . حتى ليقضي هذا النصيب أحياناً التضحية بأبنائهم . وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم في سورة الأنعام : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً . فقالوا هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حِجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها اقترأ عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون ، وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء .

سيجزئهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم . وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين ' .

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم ، وأنهم أهدى من أهل الكتاب ، الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية ، لأن اليهود كانوا يقولون : عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله - بزعمهم - فكانوا يعدون أنفسهم أهدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى .. وكله شرك . وليس في الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقاً !

فلما جاءهم محمد - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن دينه هو دين إبراهيم - عليه السلام - قالوا : نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد ؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - خطة وسطا بينهم وبينه ؛ وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم ، وله فيهم وعليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم ، واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه .. لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة ، يمكن التفاهم عليها ، بقسمة البلد بلدين ، والالتقاء في منتصف الطريق ، مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة ، وقطع الطريق على المحاولة ، والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ، ومنهج ومنهج ، وتصور وتصور ، وطريق وطريق .. نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا التوكيد . وبهذا التكرار . لتنتهي كل قول ، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك ، وتقيم المعالم واضحة ، لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير :

« قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ، ولا أتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين » .

نبي بعد نبي . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد ..

« قل » .. فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد فيه شيء . إنما هو الله الأمر الذي لا مرد لأمره ، الحاكم الذي لا راد لحكمه .

« قل يا أيها الكافرون » .. ناداهم بحقيقتهم ، ووصفهم بصفقتهم .. إنهم ليسوا على دين ، وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق ..

وهكذا يوحى مطلع السورة وافتتاح الخطاب ، بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال !

« لا أعبد ما تعبدون » .. فعبادتي غير عبادتكم ، ومعبودي غير معبودكم ..

« ولا أتم عابدون ما أعبد » فعبادتكم غير عبادتي ، ومعبودكم غير معبودي .

« ولا أنا عابد ما عبدتم » .. توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الاسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها .

« ولا أتم عابدون ما أعبد » .. تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كي لا تبتني مظنة ولا شبهة ، ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد !

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه ، والاختلاف الذي لا تشابه فيه ، والانفصال الذي لا اتصال فيه ، والتمييز الذي لا اختلاط فيه :

« لكم دينكم ولي دين » .. أنا هنا وأتم هناك ، ولا معبر ولا جسر ولا طريق !!!
مفاصلة كاملة شاملة ، وتميز واضح دقيق ..

* * *

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل ، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق . الاختلاف في جوهر الاعتقاد ، وأصل التصور ، وحقيقة المنهج ، وطبيعة الطريق . إن التوحيد منهج ، والشرك منهج آخر .. ولا يلتقيان .. التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لا شريك له . ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان ، عقيدته وشريعته ، وقيمه وموازينه ، وآدابه وأخلاقه ، وتصوراتها كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله ، الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صور الظاهرة والخفية .. وهي تسير ..

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعويين ..

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان ، وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها . وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلاً . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافات وتتلوى ! واختلاط عقائدها وأعمالها وخطط الصالح بالفاسد فيها ، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد .. وهذا الإغراء في منتهى الخطورة ! إن الجاهلية جاهلية ، والاسلام اسلام . والفارق بينهما بعيد . والسييل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانزعال التام عن الجاهلية : تصوراً ومنهجاً وعملاً . الانزعال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع . ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق .. مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام ، أو ادعت هذا العنوان !

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه ، لهم طريقهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو ، بلا مdahنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير !

وإلا فهي البراءة الكاملة ، والمفاصلة التامة ، والحسم الصريح .. « لكم دينكم ولي دين » ..

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم .. ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة ، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة ، ثم طال عليهم الأمد « فقتس قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .. وأنه ليس هناك أنصاف حلول ، ولا التقاء في منتصف الطريق ،

ولا إصلاح عيوب ، ولا ترفيع مناهج .. إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان ، الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية .. « لكم دينكم ولي دين » .. وهذا هو ديني : التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراتهِ وقيمه ، وعقيدته وشريعته .. كلها من الله .. دون شريك .. كلها .. في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة . سيبقى الغش وتبقى المداينة ويبقى اللبس ويبقى الترفيع .. والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح ... وهذا هو طريق الدعوة الأول : « لكم دينكم ولي دين » ..

* * *

(١١٠) سُورَةُ النَّصْرِ مَدَنِيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا ثَلَاثُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

هذه السورة الصغيرة .. كما تحمل البشرى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنصر الله والفتح ودخول
الناس في دين الله أفواجاً ؛ وكما توجهه - صلى الله عليه وسلم - حين يتحقق نصر الله وفتحته واجتماع الناس على
دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار ..

كما تحمل إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - البشرى والتوجيه .. تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه
العقيدة وحقيقة هذا المنهج ، ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص ، والانطلاق
والتححرر .. هذه القمة السامقة الوضيئة ، التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام . ولا يمكن أن تبلغها إلا
وهي تلبى هذا الهدف العلوي الكريم .

* * *

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي ،
عن داود ، عن الشعبي ، عن مسروق ، قال : قالت عائشة : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكثر
في آخر أمره من قوله : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » وقال : « إن ربي كان أخبرني أنني
سأرى علامة في أمي ، وأمرني إذا رأيته أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان تواباً » فقد رأيته .. « إذا جاء نصر
الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » ..
(ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص) ..

وقال ابن كثير في التفسير : والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة . قولاً واحداً . فإن أحياء العرب كانت تتلوم
(أي تنتظر) بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي ، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين
الله أفواجا ، فلم تمض سستان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر

للإسلام والله الحمد والمنة ، وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي ... « الحديث » ..

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة : « إذا جاء نصر الله والفتح ... الخ » فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجيء بعد ذلك ، مع توجيه النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ما يعمل عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة .

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس : لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها ..

قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم . فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون في قول الله عز وجل : « إذا جاء نصر الله والفتح » ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً . فقال لي : أأعظم الله عليه وسلم - أعلمه له . قال : عباس ؟ « فقلت لا . فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعلمه له . قال : « إذا جاء نصر الله والفتح » فذلك علامة أجلك » فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » . فقال عمر ابن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول (تفرد به البخاري) .

فلا يمتنع أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل ، وأنه سيلقي ربه قريباً . فكان هذا معنى قول ابن عباس : هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أعلمه له .. الخ .. ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي - بإسناده - عن ابن عباس كذلك : قال : لما نزلت : « إذا جاء نصر الله والفتح » . . دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاطمة وقال : « إنه قد نعت إلي نفسي » فبكت . ثم ضحكت . وقالت أخبرني : أنه نعت إليه نفسه فبكت ، ثم قال : « اصبري فإنك أول أهلي لحوقاً بي » فضحكت .

ففي هذا الحديث تحديد لنزول السورة . فكأنها نزلت والعلامة حاضرة . أي أنه كان الفتح قد تم ودخول الناس أفواجاً قد تحقق . فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه أجله . . إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقاً مع ظاهر النص القرآني . وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى تتفق مع هذا الذي نرجحه . . عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : « دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاطمة عام الفتح فناجها ، فبكت . ثم ناجها فضحكت . قالت : فلما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألتها عن بكائها وضحكها . قالت : أخبرني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه يموت ، فبكت ، ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران . فضحكت . . (أخرجه الترمذي) .

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني ، ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه . من أنه كانت هناك علامة بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وربّه هي : « إذا جاء نصر الله والفتح . . » فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاءه لربه فناجى فاطمة رضي الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضي الله عنها .

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذي جاءت به هذه السورة الصغيرة . . . فإلى أي مرتقى يشير هذا النص القصير :

« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » . . .

في مطلع الآية الأولى من السورة إحياء معين لإنشاء تصور خاص ، عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث ، وما يقع في هذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودور المؤمنين في هذه الدعوة ، وحدهم الذي ينتهون إليه في هذا الأمر . . هذا الإحياء يتمثل في قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله . . . » . فهو نصر الله يجيء به الله : في الوقت الذي يقدره . في الصورة التي يريدها . للغاية التي يرسمها . وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء ، وليس لهم في هذا النصر يد . وليس لأشخاصهم فيه كسب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حراساً ، ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا . .

وبناء على هذا الإحياء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه بإزاء تكريم الله لهم ، وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه - ومن معه - هو الاتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة الانتصار .

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراساً لدينه . وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه ، وفتح على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفاضل العميم ، بعد العمى والضلال والخسران .

والاستغفار للملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل : الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح ، وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري . فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي ، والشدة الطاغية والكرb الغامر . . من ضيق بالشدة ، واستبطاء لوعد الله بالنصر ، وزلزلة كالتّي قال عنها في موضع آخر : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب »^١ فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره . فجهد الإنسان ، مهما كان ، ضعيف محدود ، وآلاء الله دائمة الفيض والهملان . . « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . . فمن هذا التقصير يكون الاستغفار . .

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . . ففيه إحياء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز . فأولى أن تطامن من كبريائها ، وتطلب العفو من ربها . وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور . .

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلباً للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المهورين المغلوبين . ليرقب المنتصر الله فيهم ، فهو الذي سلطه عليهم ، وهو العاجز القاصر المقصر . وإنها سلطة الله عليهم تحقيقاً لأمر يريده هو . والنصر نصره ، والفتح فتحه ، والدين دينه ، وإلى الله تصير الأمور .

* * *

إنه الأفق الوضيء الكريم ، الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه ، وترقى في مدارجه ، على حدائه النبيل البار . الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه ، وترف فيه روحه طليقة لأنها تعنو لله ! إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحاً من روح الله . ليس لها حظ في شيء إلا رضاه . ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق ؛ وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة ؛ وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة ، بانية عادلة خيرة ، . . الاتجاه فيها إلى الله .

وعبثاً يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته ، مقيد برغباته ، مثقل بشهواته . عبثاً يحاول ما لم يتحرر من نفسه ، ويتجرد في لحظة النصر والغنى من حظ نفسه ليدكر الله وحده . وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً ، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه ، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً . .

كان هذا هو أدب يوسف - عليه السلام - في اللحظة التي تم له فيها كل شيء ، وتحققت رؤياه : « ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم » . .

وفي هذه اللحظة نزع يوسف - عليه السلام - . نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام :

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض . أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفي مسلماً ، وألحقني بالصالحين » .. وهنا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولة الإخوان ، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يتنهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين عنده . من فضله ومنه وكرمه ..

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضراً بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه : « فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم » ..

وهذا كان أدب محمد - صلى الله عليه وسلم - في حياته كلها ، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له .. انحنى لله شاكراً على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة . مكة التي آذته وأخرجته وحاربتة ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة .. فلما أن جاءه نصر الله والفتح ، نسي فرحة النصر وانحنى انحناءة

سورة النصر

الشكر ، وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه ، وجعل يكثر من التسييح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار . وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده ، رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله ، وهكذا أشرقت وشفّت ورفرفت ، وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق ..

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ
الْحَطَبِ ④ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑤

أبو هب - (واسمه عبد العزى بن عبد المطلب) هو عم النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما سمي أبو هب لإشراق وجهه ، وكان هو وامرأته « أم جميل » من أشد الناس إيذاء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللدعوة التي جاء بها ..

قال ابن إسحاق : « حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول : « إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ، ووراءه رجل أحول ، وضئ الوجه ذو جمعة ، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول : يا بني فلان . إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان . هذا يريد منكم أن تسلكوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ، ولا تتبعوه . فقلت لأبي : من هذا ؟ قال عمه أبو هب . (ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ) .

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي هب للدعوة وللرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت زوجته أم جميل في عونته في هذه الحملة الدائبة الظالمة . (وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان) .

ولقد اتخذ أبو هب موقفه هذا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منذ اليوم الأول للدعوة . أخرج البخاري - بإسناده - عن ابن عباس ، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرايتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ؟ أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم . قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . فقال أبو هب . ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك . فأنزل الله « تبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ ... » الخ . وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول : تباً لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله السورة .

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي - صلى الله عليه وسلم - ولو لم يكونوا على دينه ، تلبية لدافع العصبية القبلية ، خرج أبو لهب على إخوته ، وحالف عليهم قريشا ، وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمداً صلى الله عليه وسلم .

وكان قد خطب بنتي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما !

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حرباً شعواء على النبي - صلى الله عليه وسلم - وعلى الدعوة ، لا هودة فيها ولا هدنة . وكان بيت أبي لهب قريئاً من بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان الأذى أشد . وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ؛ وقيل : إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقعة .

* * *

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامراته . وتولى الله - سبحانه - عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - أمر المعركة !

« تبت يدا أبي لهب وتب » .. والتباب الهلاك والبوار والقطع . « وتبت » الأولى دعاء . « وتب » الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء . ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتحقق ، وتنتهي المعركة ويسدل الستار !

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان .
« ما أغنى عنه ماله وما كسب » .. لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك . فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار .

ذلك - كان - في الدنيا . أما في الآخرة فإنه : « سيصلى ناراً ذات لهب » .. ويذكر اللهب تصويراً وتشخيصاً للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها .

« وامراته حمالة الحطب » .. وستصلاها معه امرأته حمالة حمالة للحطب .. وحالة كونها : « في جيدها جبل من مسد » .. أي من ليف .. تشد هي به في النار . أو هي الجبل الذي تشد به الحطب . على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك . أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقعة .

* * *

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها ، تقتطف في بيانه سطوراً من كتاب : « مشاهد القيامة في القرآن » نعهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها :
« أبو لهب . سيصلى ناراً ذات لهب .. وامراته حمالة الحطب . ستصلاها وفي عنقها جبل من مسد ..

« تناسق في اللفظ ، وتناسق في الصورة . فجهم هنا نار ذات لهب . يصلاها أبو لهب ! وامراته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي) .. والحطب مما يوقد به اللهب . وهي تحزم الحطب بحبل . فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد . ليتم الجزاء من جنس العمل ، وتم الصورة بمحتوياتها الساذجة : الحطب والحبل . والنار واللهب . يصلى به أبو لهب وامراته حمالة الحطب !

« وتناسق من لون آخر . في جرس الكلمات ، مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد . اقرأ : « تبت يدا أبي لهب وتب » تجد فيها عنف الحزم والشدة ! الشبيه بحزم الحطب وشده . والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه . والشبيه بجو الحق والتهديد الشائع في السورة .
« وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي ، مع حركة العمل الصوتية ، بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة ، بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير ، ويتسق مع جو السورة وسبب التزول . ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار ، وفي سورة من أقصر سور القرآن » .

* * *

هذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد هجأها بشعر . وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة . تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها ، مدلة بحسبها ونسبها . ثم ترسم لها هذه الصورة : « حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » ! في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب !
قال ابن إسحاق : فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها فهر (أي بمقدار ملء الكف) من حجارة . فلما وقفت عليهما أخذ الله يبصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر . أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني . والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله وإني لشاعرة ! ثم قالت :

مذمماً عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأيتك ؟ فقال : ما رأيته ، لقد أخذ الله يبصرها عني .. وروى الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن ابن عباس قال : لما نزلت : « تبت يدا أبي لهب » جاءت امرأة أبي لهب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه سيحال بيني وبينها » .. فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر : ما رأيته ؟ قال : « لا . ما زال ملك يسترني حتى ولت » . .
فهكذا بلغ منها الغيظ والحق ، من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعراً (وكان الهجاء لا يكون إلا شعراً) مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق ! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها ، قد سجلت في الكتاب الخالد ، وسجلتها صفحات الوجود أيضاً تنطق بغضب الله وحره لأبي لهب وامراته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله ، والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا ، والنار في الآخرة جزاء وفاقاً ، والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعاً ...

* * *

(١١٢) سُورَةُ الْإِخْلَاصِ مَكِّيَّةٌ وآيَاتُهَا اَرْبَعٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة . قال البخاري : حدثنا إسماعيل : حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة ، عن أبيه ، عن أبي سعد ، أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ : « قل هو الله أحد » يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكر ذلك له - وكان الرجل يتقها - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن » ..

وليس في هذا من غرابة . فإن الأحدية التي أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يعلنها : « قل هو الله أحد » .. هذه الأحدية عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة .. وقد تضمنت السورة - من ثم - أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة ..

« قل هو الله أحد » .. وهو لفظ أدق من لفظ « واحد » .. لأنه يضيف إلى معنى « واحد » أن لا شيء غيره معه . وأن ليس كمثلته شيء .

إنها أحدية الوجود .. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي ، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية . وهي - من ثم - أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلاً لشيء ، أو فاعلاً في شيء ، في هذا الوجود أصلاً . وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً ..

فإذا استقر هذا التفسير ، ووضح هذا التصور ، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة ، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود - إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً ! - فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي . ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية . فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته !

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة ، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة .. فعندئذ يتحرر من جميع القيود ، وينطلق من كل الاوهام . يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة ، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله ؟ ومن ذا يهرب ولا وجود لفاعلية إلا الله ؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله ، فستصبح رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه . ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصبحه نبي فاعلية الأسباب . ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت ، وبه تأثرت .. وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني . ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » .. « وما النصر إلا من عند الله » .. « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .. وغيرها كثير ..

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها ، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها ، تنسكب في القلب الطمأنينة ، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب ، ويتقي عنده ما يهرب ، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود !

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة ، فجذبهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها ، ويزاولون الحياة البشرية ، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها ، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته .. ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق !

* * *

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة ، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات : منهج لعبادة الله وحده . الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده ، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته ، ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة . في السراء والضراء . في النعماء والبأساء . وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً ، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً ؟ !

ومنهج للتلقّي عن الله وحده . تلقّي العقيدة والتصور والقيم والموازين ، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم ، والآداب والتقاليد . فالتلقّي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده .. ابتغاء القرب من الحقيقة ، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضلّة . سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفس . ومن بينها حاجز الذات ، وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود !

ومنهج يربط - مع هذا - بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب . فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها .. فكلها خارجة من يد الله ؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده ، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة . فكلها إذن حبيب ، إذ كلها هدية من الحبيب !

وهو منهج رفيع طليق .. الأرض فيه صغيرة ، والحياة الدنيا قصيرة ، ومتاع الحياة الدنيا زهيد ، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية .. ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ، ولا الكراهية ولا الهروب .. إنما معناه المحاولة المستمرة ، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها ، وإطلاق الحياة البشرية جميعها .. ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما ، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما . كما أسلفنا .

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير . ولكن الإسلام لا يريده . لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص . إنه طريق أشق ، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان . أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه .. وهذا هو الانطلاق . انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي ، وتحقيق حقيقتها العلوية . وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم ..

* * *

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب . لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير ، وتفسير للوجود ، ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير . إنما هو الأمر كله ، والدين كله ؛ وما بعده من تفصيلات وتفرعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل ، والتي أفست عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم ، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص . ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات . على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها ، وقيام الحياة على أساسها ، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة ، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء . وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة . فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة ، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة ..

* * *

ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد .. ولكن القرآن يذكر هذه التفرعات لزيادة التقرير والإيضاح :

« الله الصمد » .. ومعنى الصمد اللغوي : السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه . والله - سبحانه - هو السيد الذي لا سيد غيره ، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات ، المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه ، ولا يقضي أحد معه .. وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

« لم يلد ولم يولد » .. فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية ، لا تتغيرها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد ، ووجود زائد بعد نقص أو عدم ، وهو على الله محال . ثم هي تقتضي زوجية . تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة « أحد » تتضمن نفي الوالد والولد ..

« ولم يكن له كفواً أحد » .. أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ . لا في حقيقة الوجود ، ولا في حقيقة الفاعلية ، ولا في أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق بأنه « أحد » ولكن هذا تأكيد وتفصيل .. وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله - بزعمهم - ويعكس عليه أعماله الخيرة

وينشر الفساد في الأرض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام ، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان !!

* * *

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية ، كما أن سورة « الكافرون » نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك .. وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستفتح يومه - في صلاة سنة الفجر - بالقراءة بهاتين السورتين .. وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه ..

* * *

سُورَةُ الْفَلَقِ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّاتُهَا خَمْسٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله - سبحانه وتعالى - لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ابتداءً وللمؤمنين من بعده جميعاً ، للعياذ بكفنه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل .. وكأنا يفتح الله - سبحانه - لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا . تعالوا إلى الحمى . تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمثون فيه . تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا . . هنا الأمن والطمأنينة والسلام . .

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه . « قل : أعوذ برب الفلق » .. « قل : أعوذ برب الناس » .. وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار ، تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه ، والذي ينضح من الآثار المروية أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - استروحه في عمق وفرح وانطلاق : عن عقبة - ابن عامر - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط ؟ قل : أعوذ برب الفلق وقل : أعوذ برب الناس ^١ .. وعن جابر - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اقرأ يا جابر . قلت : ماذا بأبي أنت وأمي ؟ قال : اقرأ . قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس » فقراهما . فقال : « اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما ^٢ » ..

وعن ذر بن حبيش قال : سألت أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن المعوذتين . قلت : يا أبا المنذر إن أخاك

(١) أخرجه مالك ومسلم والترمذي وأبو داود والنسائي .

(٢) أخرجه النسائي .

ابن مسعود يقول كذا وكذا (وكان ابن مسعود لا يثبتهما في مصحفه ثم تاب إلى رأي الجماعة وقد أثبتهما في المصحف) فقال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : « قيل لي : قل . فقلت » . فحنن نقول كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ^١ وكل هذه الآثار تشي بتلك الظلال الحانية الحبيبة ..

* * *

وهنا في هذه السورة يذكر الله - سبحانه - نفسه بصفته التي بها يكون العباد من شر ما ذكر في السورة . « قل أعوذ برب الفلق » .. والفلق من معانيه الصبح ، ومن معانيه الخلق كله . بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة ، كما قال في الأنعام : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي » .. وكما قال : « فائق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً » .. وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور ، أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمن من شر خلقه ، فالمعنى يتناسق مع ما بعده .. « من شر ما خلق » .. أي من شر خلقه إطلاقاً وإجمالاً . وللخلافت شرور في حالات اتصال بعضها ببعض . كما أن لها خيراً ونفعاً في حالات أخرى . والاستعاذة بالله هنا من شرها ليبقى خيرها . والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها !

« ومن شر غاسق إذا وقب » .. والغاسق في اللغة الدافق ، والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء . والمقصود هنا - غالباً - هو الليل وما فيه . الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة . والليل حينئذ مخوف بذاته . فضلاً على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء : من وحش مفترس يهجم . ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن . وحشرة سامة تزحف . ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل ، وتخنق المشاعر والوجدان ، ومن شيطان تساعد الظلمة على الانطلاق والإيحاء . ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام . ومن ظاهر وخاف يدب ويثب ، في الغاسق إذا وقب !

« ومن شر النفاثات في العقد » .. والنفاثات في العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس ، وخداع الأعصاب ، والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر . وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء !

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ؛ ولا ينشئ حقيقة جديدة لها . ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر . وهذا هو السحر كما صورته القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام : سورة طه « قالوا : يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا . فإذا جابههم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى . وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ... » .

وهكذا لم تنقلب حباهم وعصيم حيات فعلاً ، ولكن خيل إلى الناس - وموسى معهم - أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة ، حتى جاءه التثيت . ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلققت الحبال والعصي المزورة المسحورة .

(١) أخرجه البخاري .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها . وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه .. مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريد الساحر ، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد .. وهي شر يستعاذ منه بالله ، ويلجأ منه إلى حماه .

وقد وردت روايات - بعضها صحيح ولكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم - في المدينة .. قيل أياماً ، وقيل أشهراً .. حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية ، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله في رواية ، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما استحضر السحر المقصود - كما أخبر في رؤياه - وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء .

ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله - صلى الله عليه وسلم - وكل قول من أقواله سنة وشرعة ، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك . ومن ثم تستبعد هذه الروايات .. وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة . والمرجع هو القرآن . والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد . وهذه الروايات ليست من المتواتر . فضلاً على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو المرجح . مما يوهن أساس الروايات الأخرى .

« ومن شر حاسد إذا حسد » ..

والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمنى زوالها . وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيط ، أو وقف عند حد الانفعال النفسي ، فإن شراً يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نظام من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني . فهناك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلاً .. هنالك مثلاً ذلك التخاطر على البعد . وفيه تم اتصالات بين أشخاص متباعدين . اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها . ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات . وكذلك التنويم المغناطيسي . وقد أصبح الآن موضعاً للتجربة المتكررة المثبتة . وهو مجهول السر والكيفية .. وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني ...

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالاً نفسياً معيناً إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار ، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته . فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان . وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك !

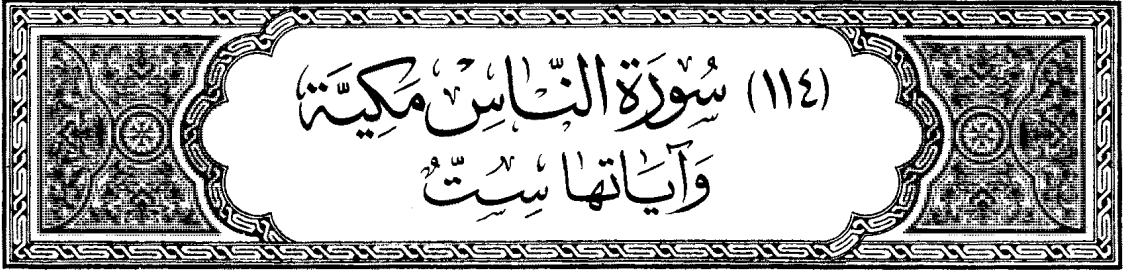
فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه^١ ..

والله برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأمثه من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور . ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به - وفق توجيهه - أعادهم . وحماهم من هذه الشرور إجمالاً وتفصيلاً .

(١) للأستاذ الشيخ محمد عبده رأي آخر في تفسير التفاتات في العقد وحاسد إذا حسد في تفسيره لجزء عم فيراجع هناك . ومرجعه هو ما سبق أن ذكرنا في سورة الفيل من ميل المدرسة العقلية لتضييق نطاق الغيبيات ..

وقد روى البخاري - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - « كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ، « قل هو الله أحد » . و « قل : أعوذ برب الفلق » . و « قل : أعوذ برب الناس » . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » .. وهكذا رواه أصحاب السنن ...

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾
الَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

الاستعاذة في هذه السورة برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس .

والاستعاذة بالرب ، الملك ، الإله ، تستحضر من صفات الله - سبحانه - ما به يدفع الشر عامة ، وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي . والملك هو المالك الحاكم المتصرف . والإله هو المستعلي المستولي المتسلط .. وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور .. وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شيء ، وملك كل شيء ، وإله كل شيء . ولكن تخصيص ذكر الناس هنا يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء .

والله - برحمة منه - يوجه رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه ، مع استحضار معاني صفاته هذه ، من شر خفي الدبيب ، لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله . فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون ، ويأتيهم من حيث لا يحتسبون . والوسوسة : الصوت الخفي . والخنوس : الاختباء والرجوع . والخناس هو الذي من طبعه كثرة الخنوس .

وقد أطلق النص الصفة أولاً : « الوسواس الخناس » .. وحدد عمله : « الذي يوسوس في صدور الناس » . ثم حدد ماهيته : « من الجنة والناس » .. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ؛ ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره ، تأهباً لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف - بعد هذا التشويق والإيقاظ - أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفية

وسراً ، وأنه هو الجنة الخافية ، وهو كذلك الناس الذين يتدسسون إلى الصدور تدسس الجنة ، ويوسوسون وسوسة الشياطين .. النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع ، وقد عرفت المكن والمدخل والطريق !

ووسوسة الجنة نحن لا ندري كيف تتم ، ولكننا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة . ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ؛ وأن الشيطان قد أعلنها حرباً تنبثق من خليقة الشر فيه ، ومن كبريائه وحسده وحقه على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذناً ، فأذن فيها - سبحانه - لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجرداً من العدة . فقد جعل له من الإيمان جُنة ، وجعل له من الذكر عدة ، وجعل له من الاستعاذة سلاحاً .. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملولم !

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير . ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين ! رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحتسب ، لأنه الرفيق المأمون !

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جباراً مفسداً في الأرض ، مهلكاً للحرث والنسل !

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه ، حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه . وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله . وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها ، ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها .. وهم شر من الجنة وأخفى منهم ديباً !

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية . ومن ثم يدلله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الراهنة ! وهناك لفظة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه « الخناس » .. فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس . ولكنها من جهة أخرى توحى بضعفه أمام من يستطيع لمكره ، ويحامي مداخل صدره . فهو - سواء كان من الجنة أم كان من الناس - إذا ووجه خنس ، وعاد من حيث أتى ، وقبع واختفى . أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق : « فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس » ..

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس . فهو خناس . ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة . ولكنها - من ناحية أخرى - معركة طويلة لا تنتهي أبداً . فهو أبداً قابع خانس ، مترقب للغفلة . واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات .. والحرب سجال إلى يوم القيامة ؛ كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى ، ومنها هذه الصورة العجيبة في سورة الإسراء :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طيناً ؟ قال : أأرى أنك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن

جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً . واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربك وكيلًا ..

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوباً على أمره فيها . فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله . وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو آخذ بناصيته . وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم . فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية . فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها ، وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها . يستند إلى الرب الملك الإله . والشر يستند إلى وسواس خناس ، يضعف عن المواجهة ، ويخنس عند اللقاء ، وينهزم أمام العياذ بالله ..

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر . كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ، ويفعّمه بالقوة والثقة والطمأنينة ..

والحمد لله أولاً وأخيراً . وبه الثقة والتوفيق .. وهو المستعان المعين ...

* * *

انتهى بحمد الله تعالى

الجزء الثلاثون

وبه ينتهي « في ظلال القرآن »

فهرس المجلد السادس (الأخير)

الجزء السادس والعشرون (من سورة الأحقاف إلى سورة ق)

٤٦ - سورة الأحقاف . مكية وآياتها ٣٥

٣٢٥١	الآيات من ١ - ١٤ (حم) . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم
٣٢٦٠	الآيات من ١٥ - ٢٠ (ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً
٣٢٦٥	الآيات من ٢١ - ٢٨ (واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف
٣٢٦٨	الآيات من ٢٩ - ٣٥ (وإذ صرَفنا إليك نفرأً من الجن

٤٧ - سورة محمد . مدنية وآياتها ٣٨

٣٢٧٧	الآيات من ١ - ١٥ (الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله
٣٢٩٢	الآيات من ١٦ - ٣١ (ومنهم من يستمع إليك
٣٢٩٩	الآيات من ٣٢ - ٣٨ (إن الذين كفروا وصلوا عن سبيل الله

٤٨ - سورة الفتح . مدنية وآياتها ٢٩

٣٣٠٥	الآيات من ١ - ١٧ (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً
٣٣٢٤	الآيات من ١٨ - ٢٩ (لقد رضي الله عن المؤمنين
٣٣٣٤	٤٩ - سورة الحجرات . مدنية وآياتها ١٨
٣٣٥٥	٥٠ - سورة ق . مكية وآياتها ٤٥

الجزء السابع والعشرون

(من سورة الذاريات إلى سورة الحديد)

- ٥١ - سورة الذاريات . مكية وآياتها ٦٠ ٣٣٧١
٥٢ - سورة الطور . مكية وآياتها ٤٩ ٣٣٩٠
٥٣ - سورة النجم . مكية وآياتها ٦٢ ٣٤٠٣
٥٤ - سورة القمر . مكية وآياتها ٥٥ ٣٤٢٣
٥٥ - سورة الرحمن . مكية وآياتها ٧٨ ٣٤٤٣
٥٦ - سورة الواقعة . مكية وآياتها ٩٦ ٣٤٥٩
٥٧ - سورة الحديد . مدنية وآياتها ٢٩

- الآيات من ١ - ١٥ (سبح لله ما في السماوات والأرض ٣٤٧٤
الآيات من ١٦ - ٢٩ (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم ٣٤٨٧

الجزء الثامن والعشرون

(من سورة المجادلة إلى سورة التحريم)

- ٥٨ - سورة المجادلة . مدنية وآياتها ٢٢ ٣٥٠١
٥٩ - سورة الحشر . مدنية وآياتها ٢٤ ٣٥١٧
٦٠ - سورة الممتحنة . مدنية وآياتها ١٣ ٣٥٣٥
٦١ - سورة الصف . مدنية وآياتها ١٤ ٣٥٤٩
٦٢ - سورة الجمعة . مدنية وآياتها ١١ ٣٥٦٢
٦٣ - سورة المنافقون . مدنية وآياتها ١١ ٣٥٧١
٦٤ - سورة التغابن . مدنية وآياتها ١٨ ٣٥٨٢
٦٥ - سورة الطلاق . مدنية وآياتها ١٢ ٣٥٩٢
٦٦ - سورة التحريم . مدنية وآياتها ١٢ ٣٦٠٨

الجزء التاسع والعشرون

(من سورة الملك إلى سورة المرسلات)

- ٦٧ - سورة الملك . مكية وآياتها ٣٠ ٣٦٢٧
٦٨ - سورة القلم . مكية وآياتها ٥٢ ٣٦٤٩

٣٦٧٣	٦٩ - سورة الحاقة . مكية وآياتها ٥٢
٣٦٩١	٧٠ - سورة المعارج . مكية وآياتها ٤٤
٣٧٠٥	٧١ - سورة نوح . مكية وآياتها ٢٨
٣٧١٩	٧٢ - سورة الجن . مكية وآياتها ٢٨
٣٧٤٠	٧٣ - سورة المزمل . مكية وآياتها ٢٠
٣٧٥٠	٧٤ - سورة المدثر . مكية وآياتها ٥٦
٣٧٦٥	٧٥ - سورة القيامة . مكية وآياتها ٤٠
٣٧٧٦	٧٦ - سورة الإنسان . مدنية وآياتها ٣١
٣٧٨٨	٧٧ - سورة المرسلات . مكية وآياتها ٥٠

الجزء الثلاثون

(من سورة النبأ إلى سورة الناس)

٣٧٩٩	٧٨ - سورة النبأ . مكية وآياتها ٤٠
٣٨١٠	٧٩ - سورة النازعات . مكية وآياتها ٤٦
٣٨٢٠	٨٠ - سورة عبس . مكية وآياتها ٤٢
٣٨٣٦	٨١ - سورة التكوير . مكية وآياتها ٢٩
٣٨٤٥	٨٢ - سورة الانفطار . مكية وآياتها ١٩
٣٨٥٣	٨٣ - سورة المطففين . مكية وآياتها ٣٦
٣٨٦٤	٨٤ - سورة الانشقاق . مكية وآياتها ٢٥
٣٨٧١	٨٥ - سورة البروج . مكية وآياتها ٢٢
٣٨٧٧	٨٦ - سورة الطارق . مكية وآياتها ١٧
٣٨٨٢	٨٧ - سورة الأعلى . مكية وآياتها ١٩
٣٨٩٥	٨٨ - سورة الغاشية . مكية وآياتها ٢٦
٣٩٠١	٨٩ - سورة الفجر . مكية وآياتها ٣٠
٣٩٠٨	٩٠ - سورة البلد . مكية وآياتها ٢٠
٣٩١٥	٩١ - سورة الشمس . مكية وآياتها ١٥
٣٩٢٠	٩٢ - سورة الليل . مكية وآياتها ٢١
٣٩٢٥	٩٣ - سورة الضحى . مكية وآياتها ١١
٣٩٢٩	٩٤ - سورة الشرح . مكية وآياتها ٨

٣٩٣٢	٩٥ - سورة التين . مكية وآياتها ٨
٣٩٣٥	٩٦ - سورة العلق . مكية وآياتها ١٩
٣٩٤٤	٩٧ - سورة القدر . مكية وآياتها ٥
٣٩٤٧	٩٨ - سورة البينة . مدنية وآياتها ٨
٣٩٥٤	٩٩ - سورة الزلزلة . مدنية وآياتها ٨
٣٩٥٧	١٠٠ - سورة العاديات . مكية وآياتها ١١
٣٩٦٠	١٠١ - سورة القارعة . مكية وآياتها ١١
٣٩٦٢	١٠٢ - سورة التكاثر . مكية وآياتها ٨
٣٩٦٤	١٠٣ - سورة العصر . مكية وآياتها ٣
٣٩٧٢	١٠٤ - سورة الهُمزة . مكية وآياتها ٩
٣٩٧٤	١٠٥ - سورة الفيل . مكية وآياتها ٥
٣٩٨٢	١٠٦ - سورة قريش . مكية وآياتها ٤
٣٩٨٤	١٠٧ - سورة الماعون . مكية وآياتها ٧
٣٩٨٧	١٠٨ - سورة الكوثر . مكية وآياتها ٣
٣٩٩٠	١٠٩ - سورة الكافرون . مكية وآياتها ٦
٣٩٩٤	١١٠ - سورة النصر . مدنية وآياتها ٣
٣٩٩٩	١١١ - سورة المسد . مكية وآياتها ٥
٤٠٠٢	١١٢ - سورة الإخلاص . مكية وآياتها ٤
٤٠٠٦	١١٣ - سورة الفلق . مكية وآياتها ٥
٤٠١٠	١١٤ - سورة الناس . مكية وآياتها ٦

انتهى بحمد الله وعونه
المجلد السادس والأخير
متضمناً الأجزاء من السادس والعشرين
إلى الجزء الثلاثين

دار الشروق

تحمد الله ، وتهنئ العالم الإسلامي
بصدور هذه الطبعة الأمانة من

في ظلال القرآن

أكبر أعمال الشهيد سيد قطب
وترجو أن تكون قد أدت أمانتها كاملة
نحو الكتاب ، والمؤلف ، والقراء

تَمَّ بِعَوْنِ اللَّهِ طَبْعُ هَذَا الْكِتَابِ
فِي مَطْبَاعِ الشُّرُوقِ - بَيْرُوتَ

الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م